

تفسير السمرقندي

المسمى

بحر العلوم

لأبي الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي
المتوفى سنة ٣٧٥ هـ

تحقيق وتعليق

الشيخ علي محمد معوض الشيخ عادل أحمد عبد الموجود

الدكتور زكريا عبد المجيد النوني

كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

الجزء الأول

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

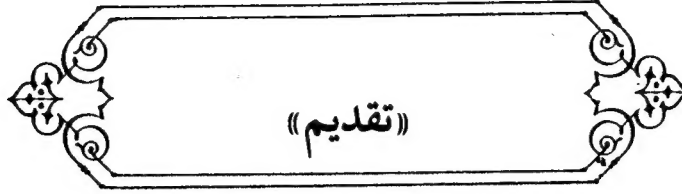
دار الكتب العلمية بيروت - لبنان

ص.ب : ٩٤٢٤ / ١١ - تلکس : Le 41245 Nasher

هاتف : ٣٦٦١٣٥ - ٣٦٤٣٩٨ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣

فناكس : ٤٧٨١٣٧٣ / ١٢١٢ / ٠٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



نحمدك ربنا كما علمتنا أن نحمد، حمداً يوافي نعمك ويكافي مزيدك، سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا
إنك أنت العليم الحكيم، لا نحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.
ونصلي ونسلم على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم
الدين..

أما بعد،

فعلم التفسير من أهم العلوم التي تحتاج إليها أمة الإسلام، وذلك لأن الله عز وجل أنزل القرآن ليكون منهج
حياة للمسلمين، ففيه شفاء لما في الصدور، ومنه صلاحهم وفلاحهم، وبه تنجو الأمة من الأزمات.
﴿يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾.
وحتى يتحقق الهدف الذي من أجله أنزل الله القرآن لا بد من فهمه وتدبر آياته ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك
ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾...

وقد فهمه الرسول حق فهمه، وفهمه الصحابة وعلموا معانيه، وأدركوا أسرارها، إذ كانوا عرب الألسن، لم
تعكر العجمة عربيتهم، إلا أنهم كانوا مع ذلك يلجأون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فيما قد يشكل عليهم
منه...

والحاجة تكون ماسة إلى التفسير بقدر بعد الأمة عن لغة القرآن، إذ يكون البون بينهم وبين القرآن شاسعاً
ومن هنا تأتي أهمية تحقيق كتب التفسير المتقدمة ولا سيما التفسير بالمأثور.

وها نحن نقدم لك أحد هذه الكتب ألا وهو كتاب (بحر العلوم) للفقهاء العلامة أبي الليث السمرقندي وقد جاء
الكتاب في قسمين:

القسم الأول: الدراسة.

وجاء في ثلاثة مباحث.

المبحث الأول: (حياة أبي الليث السمرقندي وآثاره).

ويشمل: اسمه، لقبه، كنيته، مولده، وفاته، أسرته، بيئته (سمرقندي)

المبحث الثاني: (التفسير قبل أبي الليث).

- وفيه - قمنا بتعريف التفسير والتأويل، والفرق بينهما.

- ثم بينا حاجة الناس إلى التفسير وأسبابها.

- وكيف فهم الصحابة القرآن الكريم.

- ثم ذكرنا أشهر مفسري القرآن من الصحابة وهم:

علي بن أبي طالب، عبد الله بن مسعود، أبي بن كعب، عبد الله بن عباس. وبيننا قيمة التفسير المأثور عنهم وأقوال العلماء في ذلك.

- ثم عرضنا لأهم مدارس التفسير وهي:

١ - مدرسة ابن عباس في المدينة وأشهر تلاميذ ابن عباس من التابعين وهم:

• سعيد بن جبير.

• مجاهد بن جبر.

• عكرمة.

• طاوس.

• عطاء بن أبي رباح.

٢ - مدرسة أبي بن كعب وأشهر تلاميذه:

• أبو العالية.

• محمد بن كعب القرظي.

• زيد بن أسلم.

٣ - مدرسة عبد الله بن مسعود وأشهر تلاميذه:

• علقمة.

• مسروق.

• عامر الشعبي.

• الحسن البصري.

• قتادة.

وبينا قيمة التفسير المأثور عن التابعين، وكلام العلماء في ذلك.

وقد أسهبنا شيئاً ما - في الحديث عن هذه المدارس لأن السمرقندي قد أفاد منها جميعاً في كتابه هذا.

- ثم تحدثنا عن التفسير في عصر التدوين - وكيف سارت مسيرته إلى أن وصل إلى تابعي التابعين.

وبينا اتجاهات التفسير وهي:

- الاتجاه الأثري، وذكرنا من أعلام هذا الاتجاه «يحيى بن سلام»، ثم «ابن جرير الطبري».

- الاتجاه اللغوي، ومن أهم أعلامه: أبو عبيدة.

- الاتجاه البياني، وبيننا جذور هذا الاتجاه وأهم أعلامه.

المبحث الثالث: تفسير أبي الليث.

وفيه أوضحنا منهجه في التفسير، وبيننا أن تفسيره مزيج من التفسير الأثري والتفسير بالرأي .
 فبيننا كيف أنه لجأ إلى القرآن ثم إلى السنة، ثم إلى تفسير الصحابة - ثم إلى تفسير التابعين .
 وتحدثنا عن الإسرائيليات في تفسيره، وكيف دخلت تفسيره بالمأثور .
 ثم تحدثنا عن المنهج اللغوي في تفسير أبي الليث، وكذا المنهج البياني ثم علوم القرآن في تفسير بحر العلوم وهي :

- القراءات القرآنية .
- المكي والمدني .
- الناسخ والمنسوخ .
- أسباب النزول .
- الأحكام الفقهية .

- أما القسم الثاني : فهو قسم التحقيق .

وقد كان عملنا في الكتاب مرتباً على النحو التالي :

أولاً: إخراج النص سليماً خالياً من الأخطاء النحوية والإملائية، وقد اقتضى ذلك من الموازنة بين النسخ التي تحت أيدينا فأثرنا النص الأصوب والأرق دون اعتماد على نسخة بعينها .

ثانياً: إثبات فروق النسخ وتركنا الكثير منها حيث لا جدوى من ذكرها .

ثالثاً: تخريج الأحاديث الواردة في النص .

رابعاً: عزو الآثار إلى مصادرها .

خامساً: توضيح الغريب من الألفاظ الواردة في النص معتمدين في ذلك على المعاجم اللغوية .

سادساً: ترجمة الأعلام الواردة أسماؤهم في النص .

سابعاً: عزو القراءات إلى مصادرها، والتعليق على بعضها حسبما احتاج النص مع بيان حجة كل قراءة .

ثامناً: توضيح بعض المصطلحات الفقهية والأصولية الواردة في النص .

تاسعاً: التعليق على بعض الموضوعات التي أشار إليها المصنف .

عاشراً: وضع آيات القرآن الكريم بين قوسين تيسيراً على القارئ .

ولا يفوتنا أن نوجه الشكر إلى الشيخ عبد الحكيم وكيل لجنة المصاحف على ما أبدى من توجيه فيما يتعلق بالقراءات في الكتاب .

هذا ولقد حرصنا كل الحرص أن يخرج الكتاب على الوجه اللائق به كتفسير لكتاب الله عز وجل ونرجو أن نكون بذلك قد وفقنا فيما تصبو إليه أنفسنا فإن كان كذلك فله الحمد والمنة وإلا فمن ذا الذي ما أساء قط .
 ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا .

المبحث الأول

حياة أبي الليث السمرقندي وآثاره

أولاً:

١ - اسمه:

هو: نصر بن محمد بن إبراهيم الخطاب السمرقندي التوزي البلخي وقيل: نصر بن محمد بن أحمد (أو محمد) بن إبراهيم السمرقندي^(١).

٢ - لقبه:

أ - الفقيه. وهو لقب اشتهر به، وهو يدل على أنه وصل من علم الفقه مرتبة عظيمة لا يدانيه فيها أحد من معاصريه، ويدل على ذلك «أل» المعرفة، فكأنه الفقيه وليس غيره.

وقد أحب أبو الليث هذا اللقب، وتبرك به، لأن النبي ﷺ لقبه به في المنام، وذلك أنه لما صنف كتابه «تنبيه الغافلين» عرضه إلى روضة النبي - صلى الله عليه وسلم - وبات الليل، فرأى النبي - صلى الله عليه وسلم - فناوله كتابه فقال: خذ كتابك يا فقيه، فانتبه فوجد فيه مواضع محوه - صلى الله عليه وسلم - فكان يتبرك بهذا اللقب لذلك^(٢).

ب - إمام الهدى. وقد شاركه في هذا اللقب أبو منصور الماتريدي^(٣).

٣ - كنيته:

كنى بأبي الليث، وقد طغت هذه الكنية على الاسم، حتى يكاد لا يعرف إلا بها، وقد تذكر الكنية مصحوبة باللقب هكذا: (حدث الفقيه أبو الليث).

مولده:

لم يعرف على وجه التحديد العام الذي ولد فيه أبو الليث، لأنهم لم يكونوا يتوقعون أن يكون عالماً ذا شأن، وإلا - وهذا غيب بحث - لسجلوا مولده.

(١) راجع/ الجواهر المضية ٥٤٤/٣ رقم ١٧٤٣، دائرة المعارف الإسلامية ٥٩٢/١، كشف الظنون ١١٨٧/٢ طبقات المفسرين للدودي ٢٤٥/٢، تاريخ التراث العربي/سزكين ٩٧/٢، معجم المؤلفين ٩١/١٣، الأعلام ٣٤٨/٨.

(٢) كتائب أعلام الأخبار (مخطوط) ورقة ١٢٦.

(٣) الجواهر المضية ٣٦٠/٣ رقم ١٥٣٢.

ولكنهم ذكروا - على وجه التقريب - أن مولده كان بين ٣٠١ هـ، ٣١٠ هـ.

وفاته:

وكذا اختلفت المصادر في تحديد سنة وفاته.

- ذكر الداودي في «طبقات المفسرين» أن وفاته كانت ليلة الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة ٣٩٣ هـ^(١).

- وقال صاحب الطبقات السنية في تراجم الحنفية أن وفاته كانت ليلة الثلاثاء سنة ٣٨٣ هـ.

- ومن تاج التراجم أن وفاته كانت سنة ٣٧٥ هـ^(٢).

- وفي الجواهر المضية أن وفاته كانت ليلة الثلاثاء سنة ٣٧٣ هـ^(٣).

- ومن كشف الظنون ذكر حاجي خليفة أن أبا الليث توفي سنة ٣٧٦ أو سنة ٣٨٣ أو سنة ٣٧٥.

- ومن تاريخ التراث العربي أن وفاته كانت من سنة ٣٧٣ وقيل سنة ٣٧٥، وقيل سنة ٣٩٣^(٤).

ومن معجم المؤلفين أنه توفي سنة ٣٩٣ هـ^(٥).

وقال السيوطي: مات في أيام الطالع^(٦).

أما كتاب «النوازل» (ورقة ٢٢٣) ففيه أن وفاته كانت من جمادى الآخرة ليلة الحادي عشر فيه سنة ٣٩٦ هـ - عن خمسة وخمسين عاماً - وهذا التحديد يدلنا أيضاً على العام الذي ولد فيه.

أسرته:

لم تذكر كتب التراجم شيئاً عن أسرته، ولعله كان من أسرة عادية، لم يبرز منها سوى أبي الليث وأبيه، الذي يعد أول شيوخه كما سنذكر فيما بعد.

فقد نقل عنه كثيراً سواء في التفسير وفي غيره.

بيئته:

سمرقند^(٧): هي إحدى مدن خراسان، تتبع الاتحاد السوفيتي الآن، - يقال لها بالعربية سران، مبنية على جنوب وادي الصفد، ومرتفعة عليه وهي مدينة عظيمة بمناخها، قال فيها الشاعر:

لناس من أخراهم جنة وجنة الدنيا سمرقند^(٨)

وكانت هذه المدينة قبله طلاب العلم إذ رحل إليها العلماء والفقهاء والوعاظ والمتصوفة.

(١) ٣٤٦/٢. (٤) كشف الظنون ١١٨٧/٢، ١٢٢٠، ١٥٨٠.

(٢) ٢٢٤/٤. (٥) ٩١/١٣.

(٣) الجواهر المضية ١٩٦/٣ ط الهند. (٦) تاريخ الخلفاء ٤١١.

(٧) بفتح السين والميم - هكذا ضبطها ياقوت، أما البكري فقد فتح السين وسكن الميم.

(٨) راجع / معجم البلدان ١٢١/٥.

وبذلك احتلت مكانة علمية مرموقة بين سائر البلدان الإسلامية وإلى سمرقند نسب صاحبنا أبو الليث، وشاركه في هذه النسبة كثير من العلماء منهم:

- الحكيم السمرقندي .
- محمد بن أحمد السمرقندي .
- إسحاق السمرقندي .
- أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل السمرقندي .
- أبو نصر العياض السمرقندي .
- محمد بن عثمان السمرقندي .
- محمد بن عبد الجليل السمرقندي .

يقول ابن الأثير في الباب ٩٤/٢: (بل إن الملوك أنفسهم كانوا يحبون العلم والتعلم، وكانوا أحسن الملوك سيرة، يرجعون إلى عدل ودين وعلم، فمنهم أحمد بن ساسان روى الحديث عن ابن عيينة، ويزيد بن هارون وغيرهما، وروى عنه ابنه الأمير إسماعيل).

وكانت بلاد ما وراء النهر وخراسان - في عهد الدولة السامانية - مركز إشعاع للثقافة الإسلامية، فقد اهتمت الأسرة المالكة بالعلم والعلماء، لهذا صارت تلك البلاد «من أجلّ الأقاليم، وأكثرها أجلة وعلماء، معدن الخير، ومستقر العلم، وركن الإسلام المحكم، وحصنه الأعظم..» فيه يبلغ الفقهاء درجة الملوك^(١).

وكان التأليف ثمرة لهذا النشاط العلمي الواسع من بلاد ما وراء النهر وخراسان ولذا فلا غرو أن نجد هذا القرن زاخراً بعلماء من شتى المجالات العلمية أثروا المكتبة العربية بغزير المؤلفات، وكان من أبرز هؤلاء العلماء:-

* في مجال الحديث:

- ١ - الإمام الحافظ النسائي (ت ٣٠٣ هـ) صاحب «السنن الكبرى» و«السنن الصغرى»^(٢).
- ٢ - الإمام أبو داود (ت ٢٧٥ هـ) صاحب «السنن» أحد الكتب الستة^(٣).
- ٣ - الإمام الترمذي (ت ٢٧٩ هـ) صاحب «الجامع الصحيح» أحد الكتب الستة^(٤).
- ٤ - الإمام ابن ماجه (ت ٢٧٣ هـ) صاحب «السنن» أحد الكتب الستة^(٥).
- ٥ - الإمام الدارمي، صاحب «المسند» و«التفسير»^(٦).

(١) أحسن التقاسيم / للمقدسي ٢٦٠.

(٢) الأعلام ١٦٤/١.

(٣) وفيات الأعيان ٢١٤/١، تهذيب التهذيب ١٦٩/٤، الأعلام ١٨٢/٣.

(٤) تهذيب التهذيب ٣٨٧/٩، وفيات الأعيان ٤٨٤/١، الأعلام ٢١٣/٧.

(٥) تهذيب التهذيب ٥٣٠/٩، الأعلام ١٥/٨.

(٦) طبقات المفسرين ٢٣٥/١.

في علم التفسير:

١ - أبو زيد البلخي (ت ٣٢٢ هـ) له مؤلفات عديدة في علوم شتى منها غريب القرآن، ونظم القرآن.. وغيرهما^(١).

٢ - ابن قتيبة الدينوري (ت ٢٦٧ هـ) صاحب معاني القرآن، إعراب القرآن وغيرهما «وفيات الأعيان» ٢٥١/١.

٣ - أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣) ومن مؤلفاته تأويلات القرآن «الفوائد البهية» ١٩٥، الجواهر المضية ٣٦٠/٣ الأعلام ٢٤٢/٧ وغيره.

• وفي علم الفقه:

برز علماء كثيرون في بلاد ما وراء النهر وخراسان كان منهم:

١ - أبو الفضل البلخي (ت ٣٤٤ هـ) «النوازل للسمرقندي».

٢ - أبو عبد الله الفقيه البلخي (ت ٣٠٥ هـ) - «النوازل».

٣ - نصير بن يحيى البلخي (ت ٢٦٨ هـ).

• في علوم اللغة:

وفي القرن الرابع تطالعنا أسماء الأعلام الأفاضل مثل: ابن فارس (ت ٣٩٠ هـ)، الزبيدي (ت ٣٧٩ هـ) الكالي (ت ٣٥٦)، العسكري (ت ٣٨٢)، الزجاج (ت ٣١١)، ابن جني (ت ٣٩٢)، وغيرهم كثير.

تلك هي البنية - الزمانية والمكانية - التي عاش فيها مفسرنا أبو الليث السمرقندي وهي نبذ زاخرة بالعلماء الأخيار، فكان أن هيء لأبي الليث مناخ ثقافي علمي نشأ فيه فترعرع حتى نضج وأثمر ثماره العلمية في شتى الميادين.

شيوخه

١ - والده

محمد بن إبراهيم التوذي كان فقيهاً فاضلاً ورعاً. وكان شيخه في مرحلة الصغر.

فقد نقل كثيراً من أقوال والده في التفسير فكان يقول = حدثني أبي.

٢ - أبو جعفر الهندواني. (أبو جعفر البلخي)^(٢).

٣ - الخليل بن أحمد القاضي السجزي - شيخ الحنفية في زمانه كان مقدماً في الفقه والحديث^(٣).

٤ - محمد بن الفضل البلخي المفسر^(٤).

(١) طبقات المفسرين ٤٢/١، الأعلام ١٣١/١.

(٢) الجواهر ١٩٢/٣ (١٣٤٥) الباب لابن الأثير ٢٩٥/٣ تاج التراجم ٦٣.

(٣) انظر البداية والنهاية ٣٢٧/١١.

(٤) انظر حلية الأولياء ٢٣٣/١٠ الأعلام ٢٢١/٧.

وغير ذلك مما هو مسطر في التفسير وغيره من مصنفاته .

تلاميذه

فمن أشهر تلاميذه رحمه الله :

- ١ - لقمان بن حكيم الفرغاني راوي عنه الكتب .
- ٢ - نعيم الخطيب أبو مالك من الرواة عنه .
- ٣ - ومحمد بن عبد الرحمن الزبيري من الرواة عنه .
- ٤ - وأحمد بن محمد أبو سهل من الرواة عنه .
- ٥ - طاهر بن محمد بن أحمد بن نصر أبو عبد الله الحدادي وغير ذلك مما موته كتب السير والأعلام .

ثقافة أبي الليث

علم الفقه :

ذكرنا أن من أشهر كناه (الفقيه) وهذا ان دل فإنما يدل على تفوقه على أقرانه ومعاصريه في هذا المضمار .

علم أصول الدين :

اشتهر أبو الليث رحمه الله بين معاصريه بعلم التوحيد والمناظرة قال السمعاني رحمه الله : « كان من أصحاب أبي حنيفة ، وكان مشهوراً بالمناظرة معروفاً بالجدل » .

وقد جاء في التفسير « بحر العلوم » ما يدل على تبحره في هذا العلم .

معرفة لغات العجم

اتقن الإمام العلامة المفسر الفقيه المحدث أبو الليث الفارسية فيقول رحمه الله =

(قال الحكيم بالفارسية : بكودكي بازي ، بجواني مسني ، بييري سبق ، حداراكي برستي) .

يعني : إذا كنت شيخاً صرت ضعيفاً ، فمتى تعمل لله تعالى ؟ يعني لا تقدر أن تعبد ربك بعد موتك^(١) .

والناظر في التفسير يجد أنه يذكر بعض المعاني للكلمات التي ليست عربية الأصل مثل الفردوس . في قوله

تعالى ﴿ الذين يرثون الفردوس ﴾ المؤمنون آية (١١) .

قال : هي البساتين بلغة الروم .

وقال في قوله تعالى ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ وإن كان هذا الذي ذهبنا إليه لا يدل على معرفة بتلك

اللغات إذ أن سابقه من المفسرين واللغويين والمعجميين قد ذكروا ذلك في كتبهم ولعله أفاد منها .

ويبدو من أقواله أنه تعلم اللغة العبرية ولا عجب من ذلك فقد قرأ التوراة والتقى باليهود^(٢) وسمع منهم . يقول

(١) انظر تنبيه الغافلين للمصنف رحمه الله ص ٩ .

ويقال : إن بني إسرائيل سألوا موسى عن اسم الله الأعظم فقال لهم قولوا : باهيا شراها . يعني يا قيوم .

(٢) وكان عدد اليهود كثيراً في سمرقند ناف عن ثلاثين ألفاً « آدم منز / الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٨٣ / ١ » .

رحمه الله «سمعت أهل التوراة يقولون: إن أسماء أولاد يعقوب مبينة في التوراة، روبييل، وشمعون، ويهوذا، ولاوي، فهؤلاء من امرأته لايا، ويوسف وابن يامين من امرأته الأخرى راحيل. والستة الأخرى الباقيين من الأمتين.

الطب وأبو الليث

الناظر في التفسير يجد الثقة العدل الفقيه ينقل في تفسيره أقوالاً عن أطباء المسلمين المشاهير.

يقول رحمه الله عند قول الله عز وجل ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(١).

قال الطبيب الرازي: كل شهوة تقسي القلب إلا الجماع فإنه يصفي.

وانظر أيضاً قول الله تعالى من سورة الأعراف^(٢) ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾.

الفلسفة

وكان العارفون بالطب في ذلك الحين فلاسفة والمطلع على نتائجهم العلمي فيلسوف. فكان أبو الليث مطلعاً على أقوال الفلاسفة قد جاء بعض ذلك في تفسيره ففي قوله تعالى ﴿كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَنَاهُمْ جُلُودًا...﴾ يقول أبو الليث «وقد طعنت الزنادقة في هذا وقالوا إن الجلد...».

وهذا وهناك علوم أخرى تتضح من خلال كتاب التفسير.

مؤلفاته:

لقد نهل «السمرقندي - رحمه الله من ثقافة عصره، وأحاط علماً بكل جوانبها وأبعادها، وألم بجميع أطرافها وآفاقها. فكان بذلك ذا ثقافة عالية، وأفق واسع وعلم عظيم، ولقد نضجت ثقافته أيما نضج، واكتملت شخصيته العلمية أعظم اكتمال، وكان لهذه الثقافة الناضجة ثمار، ولتلك الشخصية المكتملة نتاج.

وقد ظهرت هذه الثمار والنتاج في المجالات المختلفة في التفسير وعلومه وأصول الدين والفقه والزهد والرقائق.

التفسير

١ - تفسير القرآن المسمى بـ «بحر العلوم» وهو الذي نحن بصدد تحقيقه. ولم نجد له غير ذلك في مجال التفسير.

الفقه

١ - خزانة الفقه وهو مطبوع بتحقيق الدكتور صلاح الدين الناهي.

٢ - عيون المسائل وهو كتاب في فروع المذهب الحنفي وهو مطبوع بالهند.

٣ - مقدمة أبي الليث في الصلاة وهي من مقتنيات دار الكتب المصرية.

٤ - النوازل في الفتاوى وهي من مقتنيات دار الكتب المصرية.

٥ - تأسيس النظائر الفقهية وهو في فروع المذهب الحنفي.

(١) سورة النساء: الآية (٥٤).

(٢) الآية ٣١.

- ٦ - المبسوط في فروع الفقه الحنفي .
- ٧ - النوادر المقيدة جمع فيها رحمه الله نوادر فقهية .
- ٨ - شرح الجامع الكبير والجامع الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني .
- ٩ - شرح الجامع الصغير والجامع الصغير لمحمد بن الحسن الشيباني .
- ١٠ - مقدمة في بيان الكبائر والصغائر .
- ١١ - فتاوى أبي الليث جمع فيها الفتاوى الفقهية .

الزهد والرقائق

- ١ - تنبيه الغافلين وهو مطبوع ومتداول بين أهل العلم .
- ٢ - بستان العارفين وهو مطبوع ومتداول وهو بهامش الكتاب السابق .
- ٣ - قرة العيون ومفرح القلب المحزون وهو مطبوع على هامش كتاب مختصر التذكرة للشعراني .

أصول الدين

- ١ - أصول الدين .
 - ٢ - بيان عقيدة الأصول .
 - ٣ - أسرار الوحي .
 - ٤ - رسالة في المعرفة والإيمان .
 - ٥ - رسالة في الحكم .
 - ٦ - قوت النفس في معرفة الأركان الخمس .
- وغير ذلك مما حوته كتب التراجم .

المبحث الثاني

التفسير قبل أبي الليث

مقدمة

التفسير والتأويل

التفسير : لغة

التفسير في اللغة: الإيضاح والتبيين، ومنه قوله تعالى ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾^(١) أي بياناً وتفصيلاً. وهو مأخوذ من الفسر، وهو: الإبانة والكشف.

قال الفيروزآبادي^(٢):

«الْفَسْرُ: الإبانة وكشف المغطى كالتفسير، والفعل كضرب ونصر».

وقال ابن منظور^(٣):

«الْفَسْرُ: البيان، فَسَّرَ الشَّيْءَ يَفْسِرُهُ - بالكسر - وَيَفْسُرُهُ - بالضم - فَسْرًا، وَفَسَّرَهُ: أَبَانَهُ. والتفسير: مثله. والفَسْرُ: كشف المغطى. والتفسير: كشف المراد عن اللفظ المُشْكِل».

وقال «أبو حيان»^(٤):

«... ويطلق التفسير أيضاً على التعرية للانطلاق، قال ثعلب: تقول: فسرت الفرس: عريته لينطلق في حصره، وهوراجع لمعنى الكشف، فكأنه كشف ظهره لهذا الذي يريد منه من الجري».

وعلى ذلك: فالمادة تدور حول معنيين^(٥):

الكشف المادي المحسوس، والكشف المعنوي المعقول..

وقيل: إن أصل الكلمة من التَّفْسِيرَةِ، وهي الدليل من الماء الذي ينظر فيه الطبيب فيكشف عن علة المريض، كما يكشف المفسر عن شأن الآية وقصتها^(٦).

التفسير: اصطلاحاً.

عرفه السيوطي قائلاً^(٧):

(١) سورة الفرقان: الآية ٣٣.

(٢) اللسان: مادة «فسر».

(٣) القاموس المحيط «فسر».

(٤) البحر المحيط ١٣/١.

(٥) التفسير: معالم حياته - منهجه اليوم - أمين الخولي ص ٥، والتفسير والمفسرون / للذهبي ج ١ / ١٥.

(٦) الانتقان في علوم القرآن / للسيوطي ٢/ ٢٩٤، وتفسير البغوي ١/ ١٨ ط المنار، واللسان: فسر.

(٧) الانتقان ٢/ ١٧٤.

«هو علم نزول الآيات وشؤونها وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكيتها ومدنيها، وبيان محكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها ومفسرها، وحلالها وحرامها، ووعداها ووعداها، وأمرها ونهيها، وعبرها وأمثالها، ونحو ذلك».

وعرفه «أبو حيان» فقال^(١):

هو «علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتمتات ذلك...» وفيه قصور وغموض^(٢).

وتعريف «الزركشي» أوضح من التعريفين السابقين إذ يقول^(٣):

«التفسير: علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم -، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة، والنحو والتصريف، وعلم البيان، وأصول الفقه، والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ».

وهناك تعريفات أخرى - غير ما ذكرنا^(٤) - وكلها تتفق «على أن علم التفسير علم يبحث عن مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية، فهو شامل لكل ما يتوقف عليه فهم المعنى، وبيان المراد»^(٥).

التأويل: لغة.

أصله: «من الأول، وهو الرجوع.

قال الفيروزآبادي^(٦):

«آل إليه أولاً ومآلاً -: رجع، وعنه ارتد... وأول الكلام تأويلاً، وتأوله: دبره وقدره وفسره، والتأويل عبارة الرؤيا».

وقال ابن «منظور»^(٧):

«الأول: الرجوع، آل الشيء يؤول أولاً ومآلاً: رجع، وأول الشيء: رجعة، وألت عن الشيء: ارتددت، وفي الحديث: «من صام الدهر فلا صام ولا آل» أي لا رجع إلى خير... وأول الكلام وتأوله: دبره وقدره، وأوله وتأوله: فسره».

وعليه:

فالتأويل: إرجاع الكلام إلى ما يحتمله من المعاني.

(١) البحر المحيط ج ١ أو ما بعدها.

(٢) راجع: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير أبو شعبة ص ٤١.

(٣) البرهان ج ١ / ٣٣.

(٤) راجع مثلاً: مناهل العرفان في علوم القرآن ٤٠٦/١ ط أولى، ومنهج الفرقان في علوم القرآن ج ٢ / ٦، التفسير في قواعد التفسير /

الكافي ج ٣، ١١ وغيرها.

(٥) التفسير والمفسرون ١٧/١.

(٦) القاموس المحيط ٣٣١/٣.

(٧) اللسان / مادة «أول» ١٧١/! وما بعدها.

وقيل: التأويل مأخوذ من الإيالة، وهي السياسة، فكان المؤول ساس الكلام ووضعه في موضعه.. قال الزمخشري^(١):

«آل الرعيّة يؤولها إيالةً حسنّةً، وهو حسن الإيالة، وإثالها، وهو مؤتال لقومه مقتال عليهم: أي سائس محتكم، قال زياد في خطبته: قد أُلنا وإيل علينا، أي سُئنا وسُئنا...».

وقد ورد لفظ التأويل في القرآن الكريم على معان مختلفة.

من ذلك قوله تعالى ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله...﴾^(٢). بمعنى التفسير والتعيين.

وقوله تعالى: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾^(٣). بمعنى العاقبة والمصير.

وقوله تعالى: ﴿هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله...﴾^(٤) وقوله تعالى: ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله...﴾^(٥) بمعنى وقوع المخبر به.

ومن آيات سورة يوسف^(٦) أريد بها: نفس مدلول الرؤيا.

ومن آيتي سورة الكهف^(٧) بمعنى بيان حقيقة الأعمال التي عملها العبد الصالح، وليس تأويل الأقوال^(٨).

التأويل اصطلاحاً:

التأويل عند السلف له معنيان:

- أحدهما: تفسير الكلام وبيان معناه، وبذلك يكون التأويل والتفسير مترادفين، وهذا ما يعنيه «ابن جرير الطبري» في تفسيره حين يقول: «القول في تأويل قوله تعالى...» وكذا قوله «اختلف أهل التأويل في هذه الآية... فالتفسير والتأويل كلاهما بمعنى».

- ثانيهما: هو نفس المراد بالكلام، فإن كان الكلام طلباً كان تأويله نفس الفعل المطلوب، وإن كان خبراً كان تأويله نفس الشيء المخبر به... .

وعليه:

فالتأويل هنا نفس الأمور الموجودة في الخارج سواء كانت ماضية أم مستقبلية، فإذا قيل: طلعت الشمس، فتأويل هذا هو نفس طلوعها، وهذا في نظر «ابن تيمية» هو لغة القرآن التي نزل بها، وعلى هذا فيمكن إرجاع كل ما جاء في القرآن من لفظ التأويل إلى هذا المعنى الثاني^(٩).

(١) أساس البلاغة ص ٢٥ ط الشعب.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٧.

(٣) سورة النساء: الآية ٥٩.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٥٣.

(٥) سورة يونس: الآية ٣٩.

(٦) الآيات: ٦، ٣٧، ٤٤، ٤٥، ١٠٠.

(٧) الآيتان: ٧٨، ٨٢.

(٨) راجع: التفسير والمفسرون ١/ ١٨، ١٩.

(٩) التفسير والمفسرون ١/ ١٩ (بتصرف وإيجاز).

أما التأويل عند المتأخرين من الأصوليين والكلاميين وغيرهم :

فهو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به، وهذا هو التأويل الذي يتكلمون عليه في أصول الفقه ومسائل الخلاف^(١).

قال في جمع الجوامع^(٢) :

«التأويل حمل الظاهر على المحتمل المرجوح، فإن حمل عليه دليل فصحيح، أو لما يظن دليلاً من الواقع ففاسد، أو لا شيء فلعب لا تأويل».

«الفرق بين التفسير والتأويل»

اختلف علماء «التفسير» في بيان الفرق بين التفسير والتأويل. ولعل منشأ هذا الخلاف «هو استعمال القرآن لكلمة التأويل، ثم ذهب الأصوليين إلى اصطلاح خاص فيها، مع شيوع الكلمة على ألسنة المتكلمين من أصحاب المقالات والمذاهب»^(٣).

- ومن العلماء من ذهب إلى أنهما بمعنى واحد.. ومن هؤلاء: «أبو عبيد القاسم بن سلام» وطائفة معه^(٤).

- ومنهم من فرق بينهما.

يقول الراغب الأصفهاني^(٥):

«التفسير أعم من التأويل. وأكثر ما يستعمل التفسير من الألفاظ، والتأويل في المعاني، كتأويل الرؤيا.

والتأويل يستعمل أكثره في الكتب الإلهية، والتفسير يستعمل فيها وفي غيرها.

والتفسير أكثره يستعمل في مفردات الألفاظ، والتأويل أكثره يستعمل في الجمل. فالتفسير إما أن يستعمل في غريب الألفاظ «كالبحيرة، والسائبة، والوصيلة»، أو في تبين المراد وشرحه، كقوله تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، وإما في كلام مضمن بقصة لا يمكن تصوره إلا بمعرفتها نحو قوله تعالى ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ وقوله تعالى ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾.

وأما التأويل: فإنه يستعمل مرة عاماً، ومرة خاصاً، نحو «الكفر» المستعمل تارة في الجحود المطلق، وتارة في جحود الباري خاصة، و«الإيمان» المستعمل في التصديق المطلق تارة، وفي تصديق دين الحق تارة، وإما في لفظ مشترك بين معان مختلفة، نحو لفظ «وجد» المستعمل في الجد والوجد والوجود.

وقال «أبو طالب الثعلبي»^(٦):

«التفسير: بيان وضع اللفظ إما حقيقة أو مجازاً، كتفسير الصراط بالطريق، والصيب بالمطر. والتأويل: تفسير

(١) راجع: التفسير والمفسرون ١/ ١٩. (٢) ج ٢/ ٥٦، والتفسير والمفسرون ١/ ٢٠. (٣) التفسير. معالم حياة - ص ٦.

(٤) الانتقان ٢/ ١٧٣، التفسير والمفسرون ١/ ٢١ والإسرائيليات والموضوعات ٤٣.

(٥) التفسير والمفسرون ١/ ٢١، نشأة التفسير في الكتب المقدسة والقرآن / السيد خليل ص ٢٩، نقلاً عن: مقدمة التفسير للراغب ص ٤٠٢ - ٤٠٣ آخر كتاب تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار.

(٦) الانتقان ٢/ ١٧٣.

باطن اللفظ، مأخوذ من الأول، وهو الرجوع لعاقبة الأمر. فالتأويل: إخبار عن حقيقة المراد، والتفسير: إخبار عن دليل المراد، لأن اللفظ يكشف عن المراد، والكاشف دليل، مثاله قوله تعالى ﴿إِنْ رِبْكَ لِلْمَرْصَادِ﴾ تفسيره: أنه من الرصد، يقال: رصده إذا رقبته، والمرصاد: مفعال منه. وتأويله: التحذير من التهاون بأمر الله، والغفلة عن الأبهة والإستعداد للعرض عليه.

وقال «البغوي»: ^(١)

«التأويل: هو صرف الآية إلى معنى محتمل يوافق ما قبلها وما بعدها، غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الإستنباط.

«والتفسير: هو الكلام في أسباب نزول الآية وشأنها وقصتها».

وقيل: «التفسير: ما يتعلق بالرواية، والتأويل: ما يتعلق بالدراية» ^(٢) يقول الكافياجي: ^(٣)

«... إن علم التفسير علم يبحث فيه عن أحوال كلام الله المجيد من حيث أنه يدل على المراد بحسب الطاقة البشرية، وينقسم إلى قسمين:

تفسير: وهو ما لا يدرك إلا بالنقل أو السماع، أو بمشاهدة النزول وأسبابه، فهو ما يتعلق بالرواية، ولهذا قيل: إن التفسير للصحابة.

وتأويل: وهو ما يمكن إدراكه بقواعد العربية، فهو ما يتعلق بالدراية، ولهذا قيل: إن التأويل للفقهاء، فالقول من الأول بلا نقل أو سماع خطأ، وكذا القول من الثاني بمجرد التشهي، وأما استنباط المعاني على قانون اللغة فمما يعد فضلاً وكمالاً».

وقد رجح المرحوم الدكتور الذهبي هذا الرأي، وعلل ذلك بقوله: ^(٤)

«وذلك لأن التفسير معناه: الكشف والبيان. والكشف عن مراد الله تعالى لا نجزم به إلا إذا ورد عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، أو عن بعض أصحابه، الذين شهدوا نزول الوحي، وعلموا ما أحاط به من حوادث ووقائع، وخالطوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ورجعوا إليه فيما أشكل عليهم من معاني القرآن الكريم.

«وأما التأويل: فملحوظ فيه ترجيح أحد احتمالات اللفظ بالدليل، والترجيح يعتمد على الإجتهد، ويتوصل إليه بمعرفة مفردات الألفاظ ومدلولاتها في لغة العرب، واستعمالها بحسب السياق، ومعرفة الأساليب العربية، واستنباط المعاني من كل ذلك».

وهذا هو ما نميل إليه...

«حاجة الناس إلى التفسير»

نزل القرآن الكريم لغرضين أساسيين:

أولهما: ليكون معجزة، فلا يقدر البشر على أن يأتوا بمثله ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا

(١) تفسير البغوي ١٨/١

(٣) التيسير في قواعد التفسير ص ٣، ١١.

(٢) الاتقان ١٧٣/٢.

(٤) التفسير والمفسرون ٢٣/١.

بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً^(١). ولا بسورة من مثله ﴿قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾^(٢).

ثانيهما: ليكون منهج حياة، ودستوراً للمسلمين، فيه صلاحهم وفلاحهم، إذ تكفل بكل حاجاتهم من أمور الدين والدنيا، عقائد، وأخلاق، وعبادات، ومعاملات... إلخ.

﴿يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾^(٣).

﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾^(٤). ففي اتباعه الهداية، وفي الإعراض عنه الشقاء والضنك ﴿فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى. قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾^(٥).

وبه مخرج الأمة من أزماتها، ونجاتها من الفتن... يقول علي - كرم الله وجهه - : قلت يا رسول الله ستكون فتن، فما المخرج منها؟.

قال - ﷺ -: «كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا يشيع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه. من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن خاصم به أفلح، ومن دعى إليه هُدي إلى صراط مستقيم».

- ولكي يكون معجزاً ويتأتى تحديه للبشر..

- ولكي يتأتى اتخاذه دستوراً ومنهج حياة..

ولكي يتدبر المؤمنون آياته...^(٦).

ولكي يستطيع المسلمون العرب الانطلاق بالدعوة^(٧).. لكل هذا جاء القرآن عربياً.

وكان القوم - «عند نزوله - سواء من هو حجة له: من المؤمنين الصادقين، ومن هو حجة عليه، من الكافرين الجاحدين، يفهمونه ويحيطون بمعانيه أفراداً وتركيباً فيتلقون دعوته، ويدركون مواعظه، ويعون تحديه بالإعجاز بين مدعنين، يقولون: آمنا به، ومعاندين يلحدون في آياته، ويمعنون في معارضته كيداً ولياً بالسستهم وطعناً في الدين.

«فما كان منهم من تعذر عليه فهمه، ولا من خفيت عليه مقاصده ومعانيه، بل كان وضوح معانيه، ويسر فهمه، هو الأصل فيما قام حوله من صراع بين مؤمن يجد فيه شفاء نفسه، وانسراح صدره، وكافر ينقبض لقوارع

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٨.

(٢) سورة يونس: الآية ٣٨.

(٣) سورة يونس: الآية ٥٧.

(٤) سورة الإسراء: الآية ٨٢.

(٥) سورة طه: ١٢٣ - ١٢٦.

(٦) قال تعالى ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته...﴾.

(٧) قال تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع...﴾.

آياته فلا يزال يدفعها بالإعراض والمعارضة، والدفاع والمقارعة، وكان ذلك هو الأصل أيضاً في تكون الأمة المحمدية، وتولد التاريخ الإسلامي»^(١).

يقول «ابن خلدون»: ^(٢)

«إن القرآن نزل بلغة العرب، وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه، ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه».

وقد سبقه أبو عبيدة معمر بن المثنى حين قال: ^(٣)

«إنما نزل القرآن بلسان عربي مبين. فلم يحتج السلف، ولا الذين أدركوا وحيه، إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يسألوا عن معانيه، لأنهم كانوا عرب الألسن، فاستغنوا بعلمهم عن المسألة عن معانيه، وعما فيه مما في كلام العرب مثله من الوجوه والتلخيص».

إلا أن هذا الإطلاق يعارضه قول عمر بن الخطاب للرسول - صلى الله عليه وسلم -: ^(٤)

يا رسول الله، إنك تأتينا بكلام من كلام العرب وما نعرفه ولنحن العرب حقاً؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «إن ربي علمني فتعلمت، وأدبني فتأدبت».

كما يعارضه صريح القرآن إذ يقول تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾^(٥).

نعم. إن هناك ألفاظاً لم تستطع بعض القبائل العربية معرفتها، ربما لعدم استعمالهم لها، أو لاحتمال اللفظ عدة معانٍ، وكذا بعض آيات أشكل عليهم فهم معناها وذلك كسؤالهم النبي - صلى الله عليه وسلم - لما نزل قوله تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ فقالوا: وأينا لم يظلم؟ وفزعوا إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فبين لهم أن المراد بالظلم الشرك، واستدل عليه بقوله تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾^(٦).

ولو صح ما ذهب إليه ابن خلدون وأبو عبيدة لما كانت حاجة الصحابة إلى تفسير الرسول - صلى الله عليه وسلم - . لكن تفسير الرسول للقرآن وقد ورد في الأحاديث الصحيحة، بياناً لمعنى لفظ، أو توضيحاً لمشكل، أو تأكيداً لحكم، أو تفصيلاً لمجمل، أو تخصيصاً لعام، أو تقييداً لمطلق... إلخ.

وكان الصحابة - رضوان الله عليهم - حراساً على حفظ القرآن، وفهم معانيه، وفقه أحكامه..

قال أبو عبد الرحمن السلمي:

حدثنا الذين كانوا يقرئونا القرآن كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من

(١) التفسير ورجاله / محمد الفاضل بن عاشور ص ٧ - ٨.

(٢) المقدمة ص ٣٦٧ ط الأزهرية سنة ١٩٣٠.

(٣) مجاز القرآن - ط ثانية - دار الفكر.

(٤) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٢٨٤/١ ط الحلبي تحقيق أبو الفضل وقال الصيرفي: ولست أعرف إسناد هذا الحديث، وإن صح فقد دل على أن النبي ﷺ قد عرف السنة العرب.

(٥) سورة النحل: الآية ٤٤.

(٦) الإتيان للسيوطي ٣٣٠/٢ والبرهان للزركشي ١٤/١.

النبي - صلى الله عليه وسلم - عشر آيات، لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن، والعلم، والعمل جميعاً.

وإذا كان العرب الخَلَص الذين لم تعكر عربيتهم عجمة - يحتاجون إلى التفسير، فنحن أولى وأحوج بل وأشد حاجة إلى تفسير القرآن الكريم، إذ صار البون بعيداً بين العرب والفصحى . .

يقول السيوطي: ^(١)

«ونحن محتاجون إلى ما كانوا يحتاجون إليه، وزيادة على ذلك مما لم يحتاجوا إليه من أحكام الظواهر، لقصورنا عن مدارك أحكام اللغة بغير تعلم، فنحن أشد احتياجاً إلى التفسير».

والحاجة إلى التفسير «إنما هي حاجة عارضة نشأت من سببين:

السبب الأول: هو أن القرآن لم ينزل دفعة واحدة، وإنما كان نزوله وتبليغه في ظرف زمني متسع جداً: قدره أكثر من عشرين عاماً، فكان ينزل منجماً على أجزاء مع فواصل زمنية متراخية بين تلك الأجزاء، وكان نزوله في تقدم بعض أجزائه وتأخر البعض الآخر، على ترتيب يختلف عن ترتيبه التعبدي، لأن ترتيب تاريخ النزول كان منظوراً فيه إلى مناسبة الظروف والوقائع، مناسبة ترجع إلى ركن من أركان مطابقة الكلام لمقتضى الحال. وترتيب التلاوة أو الترتيب التعبدي، كان منظوراً فيه إلى تسلسل المعاني وتناسب أجزاء الكلام بعضها مع بعض، . . . والترتيب الأول مؤقت زائل بزوال ملابساته من الوقائع والأزمنة والأمكنة.

أما ترتيب التلاوة التعبدي فباق لأنه في ذات الكلام، يدركه كل واقف عليه وتالٍ له من الأجيال المتعاقبة، بينما الترتيب التاريخي لا يدركه إلا شاهد العيان لتلك الملابسات من الجيل الذي كان معاصراً لنزول القرآن . . . وكان انقراض تلك الملابسات الوقتية محوجاً إلى معرفتها معرفة عقلية تصورية، ليتمكن الآتون من استعمال القرائن والأحوال، التي اهتدى بها إلى معاني التراكيب القرآنية سابقوهم.

وأما السبب الثاني: فهو أن دلالات القرآن الأصلية، التي هي واضحة بوضوح ما يقتضيه من الألفاظ والتراكيب - تتبعها معانٍ تكون دلالة التراكيب عليها محل إجمال أو محل إبهام، إذ يكون الترتيب صالحاً على التردد لمعان متباينة، يتصور فيها معناه الأصلي ولا يتبين المراد منها، كأن يقع التعبير عن ذات بإحدى صفاتها، أو يكنى عن حقيقة بإحدى خواصها، أو أحد لوازمها. . . فينشأ عن ذلك إجمال يتطلب بياناً، أو إبهام يتطلب تعييناً. . . ولما كان الذين اتصلوا أولاً بتلك المجملات أو المبهمات أو المطلقات قد رجعوا إلى المبلغ - صلى الله عليه وسلم - في طلب بيانها أو تعيينها أو تقييدها فتلقوا عندما أفادهم، فاطلعوا بأن الذين أتوا بعدهم احتاجوا إلى معرفة تلك الأمور الماثورة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - لتتضح لهم تلك المعاني كما اتضحت لمن قبلهم. . .» ^(٢).

وبذا تبين أن التفسير نشأ منذ بدء الوحي، إذ احتاج إليه الصحابة، ثم زادت حاجة التابعين إلى التفسير ولا سيما ما رآه الصحابة وسمعوه من الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولم يتمكنوا هم من رؤيته ولا سماعه. . . ثم اشتدت حاجة تابعي التابعين.

وهكذا كلما بعد الناس عن عصر نزوله زادت الحاجة إلى التفسير بمقدار ما زاد من غموض ^(٣).

(١) الإتيان ٢٩٦/٢ - ٢٩٧. (٢) التفسير ورجاله من ١٠ - ١٣. (٣) راجع التفسير والمفسرون / للذهبي ١٠١/١ - ١٠٢.

فهم الصحابة للقرآن الكريم

نزل القرآن عربياً على رسول عربي، وقوم عرب، «هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته..» فكانوا أخبر بلغتهم، وفهموا القرآن حق فهمه، وقد يشكل عليهم فهم آية منه فيرجعون إلى القرآن نفسه، فقد يجدون فيه توضيحاً أو تفصيلاً. وإلا رجعوا إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ليفسر لهم ما أشكل عليهم...

وكان الصحابة يجتهدون في فهم القرآن الكريم مستعينين على ذلك بـ: (١)

١ - معرفة أوضاع اللغة وأسرارها.

٢ - معرفة عادات العرب.

٣ - معرفة أحوال اليهود والنصارى في الجزيرة وقت نزول القرآن.

٤ - قوة الفهم وسعة الإدراك.

وبدهي أن يتفاوت الصحابة في توافر هذه الأدوات عندهم، وبالتالي في فهم القرآن الكريم، فلم يكونوا جميعاً في مرتبة واحدة، ومن هنا كان الاختلاف اليسير بينهم في تفسير القرآن الكريم. ومن ذلك:

- ما روي من أن الصحابة فرحوا حين نزل قوله تعالى ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ لظنهم أنها مجرد إخبار وبُشِّرَى بكمال الدين، ولكن عمر بكى وقال: ما بعد الكمال إلا النقص، مستشعراً نعي النبي - صلى الله عليه وسلم -، وقد كان مصيباً في ذلك، إذ لم يعيش النبي - صلى الله عليه وسلم - بعدها إلا أحد وثمانين يوماً كما روي (٢).

- وفيه ما رواه البخاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: (٣)

«كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكان بعضهم وجد في نفسه وقال: لم يدخل هذا معنا وإن لنا أبناء مثله؟

فقال عمر: إنه من أعلمكم، فدعاهم ذات يوم فأدخلني معهم، فما رأيت أنه دعاني فيهم إلا ليريههم، فقال: ما تقولون في قوله تعالى: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾؟

فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره. إذ نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم ولم يقل شيئاً، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟

فقلت: لا. فقال: ما تقول؟

قلت: هو أجل رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، أعلمه الله له، قال: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ فذلك علامة أجلك ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾ فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول.

(١) راجع التفسير والمفسرون ٥٩/١ وما بعدها.

(٢) الموافقات للشاطبي ج ٣ / ٣٨٤، التفسير والمفسرون ٦١/١، ٦٢.

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٥١٩/٨، باب التفسير، وكذا أسد الغابة.

- وقال ابن عباس: (١)

«كنت لا أدري «ما فاطر السموات والأرض»، حتى أتاني أعرابيان يتخاصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتهما. يقول: أنا ابتدأتها».

أشهر مفسري القرآن من الصحابة

عد السيوطي عدداً من مفسري القرآن من الصحابة ذكر منهم:

الخلفاء الأربعة، وابن عباس، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبا موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم.

أما الخلفاء الثلاثة الأول فالرواية عنهم في التفسير قليلة جداً، وذلك بسبب تقدم وفاتهم، ولانشغالهم بمهام الخلافة (٢).

١ - علي بن أبي طالب:

وأما علي - كرم الله وجهه - فهو أكثرهم تفسيراً للقرآن، وذلك لأنه لم يشغل بالخلافة، وإنما كان متفرغاً للعلم حتى نهاية عصر عثمان...

وكثرة مرافقته للرسول - صلى الله عليه وسلم -، وسكنائه معه، وزواجه من ابنته فاطمة إلى جانب ما حباه الله من الفطرة السليمة... كل ذلك أورثه العلم الغزير. حتى قالت عائشة رضي الله عنها: (٣)

«أما إنه لأعلم الناس بالسنة» في زمن كان الصحابة - رضي الله عنهم - متوافرين.

وروى معمر عن وهب بن عبد الله عن أبي الطفيل قال:

«شهدت علياً يخطب وهو يقول: سلوني، فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به، وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا أنا أعلم: أبليل نزلت أم بنهار، أم في سهل أم في جبل».

وقيل لعطاء: أكان في أصحاب محمد أعلم من علي؟

قال: لا، والله لا أعلمه.

وقال ابن مسعود: «إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، ما منها حرف إلا وله ظهر وبطن، وإن علي بن أبي طالب عنده من الظاهر والباطن» (٤).

نموذج من تفسير علي - رضي الله عنه - للقرآن:

قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سَوْءَ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيْكُمُ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا﴾: إن الإيمان يبدو

(١) الاتقان ١١٣/٢.

(٢) الإسرائيليات والموضوعات في التفسير ٨٤، والتفسير والمفسرون للذهبي ٦٤/١، ٦٥.

(٣) الاستيعاب ١١٠٤/٣، أسد الغابة ٢٩/٤.

(٤) راجع الاتقان ٣١٩/٢.

لمظة بيضاء في القلب، فكلما ازداد الإيمان عظماً ازداد ذلك البياض، حتى يبيض القلب كله، وإن النفاق يبدو لمظة سوداء في القلب، فكلما ازداد النفاق ازداد بذلك السواد، حتى يسود القلب كله، وأيم الله لو شققتم عن قلب مؤمن لوجدتموه أبيض، ولو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه أسود»^(١).

٢ - عبد الله بن مسعود:

هو: عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن سمح، وقيل «شمخ»... ينتهي نسبه إلى مضر. يكنى بأبي عبد الرحمن، وأمه: أم عبد بنت عبد ود من هذيل، وكان يقال له: ابن أم عبد.

أسلم قديماً قبل عمر بن الخطاب، وكان سبب إسلامه: حين مر به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبو بكر - رضي الله عنه - وهو يرمي غنماً، فسألاه لبناً فقال: إني مؤتمن، قال فأخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عناقاً لم ينز عليها الفحل، فاعتقلها، ثم حلب وشرب وسقى أبا بكر، ثم قال للضرع: أقلص، فقلص، فقلت: علمني من هذا الدعاء، فقال: إنك غلام معلم... الحديث^(٢).

كان عبد الله من أحفظ الصحابة لكتاب الله وأقرئهم له، وكان - صلى الله عليه وسلم - يطلب منه أن يقرأه عليه، فقال له يوماً: اقرأ عليّ سورة النساء. قال ابن مسعود: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: إني أحب أن أسمعه من غيري، يقول: فقرأت عليه حتى بلغت: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ فاضت عيناه - صلى الله عليه وسلم -^(٣).

وكان - صلى الله عليه وسلم - يقول:

«من سره أن يقرأ القرآن رطباً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»^(٤) وكان ابن مسعود حريصاً على فهم القرآن الكريم، يروي الطبري وغيره عن ابن مسعود أنه قال:

«كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن» وعن مسروق قال: ^(٥) قال عبد الله بن مسعود:

«والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت، وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لركبت إليه».

وطرق الرواية عن ابن مسعود متعددة، وأصح هذه الطرق ما جاء من: ^(٦)

١ - طريق الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن ابن مسعود.

٢ - طريق مجاهد، عن أبي معمر، عن ابن مسعود.

٣ - طريق الأعمش، عن أبي وائل، عن ابن مسعود.. وهذه الطرق الثلاثة أخرج منها البخاري في صحيحه.

(٤) مسند الإمام أحمد ٧/١.

(١) تفسير البغوي - ط المنار ٤/٢٧٣.

(٥) صحيح البخاري - كتاب الفضائل / باب مناقب عبد الله بن مسعود.

(٢) البداية والنهاية ٧/١٦٩، أسد الغابة ٣/٢٥٦ - ٢٦٠

(٦) التفسير والمفسرون للذهبي ١/٨٧، ٨٨.

(٣) البداية والنهاية ٧/١٦٩.

وهناك طرق أخرى كـ:

- طريق السدي الكبير عن مرة الهمذاني عن ابن مسعود. أخرج منها الحاكم في مستدركه وابن جرير في تفسيره - كثيراً.

- طريق أبي روق عن الضحاك عن ابن مسعود. وهي طريق غير مرضية، أخرج منها ابن جرير في تفسيره أيضاً، وهي منقطعة، لأن الضحاك لم يلق ابن مسعود.

وكان لابن مسعود تلاميذ كثير في الكوفة، وكان عمر - رضي الله عنه - لما ولي عمار بن ياسر على الكوفة سير معه عبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً، فجلس الكوفيون إليه وتعلموا منه.

ويقول العلماء:

إن ابن مسعود هو الذي وضع الأساس لطريقة الإستدلال، وقد أثرت هذه الطريقة في مدرسة التفسير، فكثير التفسير بالرأي والاجتهاد^(١). وسوف يأتي ذكر تلاميذه عند حديثنا عن تفسير التابعين.

٣ - أبي بن كعب:

هو: أبي بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار، سيد القراء^(٢). كنيته: أبو المنذر أو أبو الطفيل.

شهد بيعة العقبة مع السبعين من الأنصار، وشهد بدرًا وأحدًا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

وهو أحد المشهورين. بحفظ القرآن من الصحابة، ويأقراه. قال فيه عمر بن الخطاب: «أبي أقرؤنا»^(٣).

وهو أحد الذين تتلمذ عليهم «ابن عباس». يقول ابن عباس: ^(٤)

«ما حدثني أحد قط حديثاً فاستفهمته، فلقد كنت آتي باب أبي بن كعب وهو نائم فأقبل على بابه، ولو علم بمكاني لأحب أن يوقظ لمكاني من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولكني أكره أن أمله».

كان أبي يكتب في مصحفه أشياء ليست من القرآن الكريم مما يعد شرحاً، أو تفسيراً، أو سبباً لنزول، أو مما نسخ، وكان يقول: لا أدع شيئاً سمعته من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (٥) فمن ذلك مثلاً: دعاء القنوت^(٦).

وكان من أعلم الصحابة بكتاب الله وذلك لعدة عوامل:

* أنه كان من كتاب الوحي للرسول - صلى الله عليه وسلم -.

* أنه كان حبراً من أحبار اليهود العارفين بأسرار الكتب القديمة وما ورد فيها.

وقد تعددت طرق الرواية عنه وأشهر هذه الطرق:

(٤) طبقات ابن سعد ٣٧١/٢.

(١) المصدر السابق ١٢٠/١.

(٢) تهذيب التهذيب ١٨٧/١، غاية النهاية في طبقات القراء ٣١/١. أسد الغابة ٤٩/١ - ٥١.

(٥) تاريخ الإسلام للذهبي ٢٨/٢.

(٦) راجع الانتقان ٦٦/١.

(٣) رواه البخاري، وانظر طبقات القراء للذهبي ٦٢٩/٦ وكذا شهد له النبي ﷺ.

١ - طريق أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي وهي طريق صحيحة، أخرج منها ابن جرير وابن أبي حاتم كثيراً، وأخرج الحاكم منها في مستدركه، والإمام أحمد في مسنده.

٢ - طريق وكيع عن سفيان، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أبي بن كعب، عن أبيه، وهذه يخرج منها الإمام أحمد في مسنده، وهي على شرط الحسن^(١).

وتلاميذ أبي كثير منهم: أبو العالية، زيد بن أسلم، محمد بن كعب القرظي وغيرهم. ويعد أبي بن كعب أستاذ مدرسة التفسير في المدينة.

٤ - عبد الله بن عباس^(٢):

هو: عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم... يلتقي مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - في الجد الأول (عبد المطلب)، فهو ابن عم رسول الله.

ولد إبان المقاطعة الاقتصادية التي فرضتها قريش على بني المطلب، أي قبل الهجرة بثلاث سنوات.

لازم ابن عباس رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، لكن الرسول توفي ولا ابن عباس من العمر ثلاث عشرة سنة، وقيل خمس عشرة سنة..

وقد حظي ابن عباس بدعوة رسول الله له حين قال - صلى الله عليه وسلم - : «اللهم علمه الكتاب والحكمة».

وفي رواية: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل».

واستجيب دعوة الرسول - صلى الله عليه وسلم -، فكان عبد الله بن عباس «ترجمان القرآن» يقول ابن مسعود:

«نعم ترجمان القرآن ابن عباس» وذلك لبراعته في التفسير، كما لقب بالحبر، لغزارة علمه. وبالبحر كذلك.

وإذا كان ابن عباس قد فاته طول الصحبة للرسول - صلى الله عليه وسلم - فقد استعاض عن ذلك بملازمة كبار الصحابة، يسألهم، ويتعرف أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وغير ذلك.

يقول ابن عباس: (٣)

«لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر بن الخطاب عن المرأتين من أزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - اللتين قال الله فيهما: ﴿إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ﴾ ولم أزل أتلف له حتى عرفت أنهما حفصة وعائشة».

ويقول:

«وجدت عامة حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عند الأنصار، فإني كنت لآتي الرجل فأجده نائماً، لو

(١) راجع التفسير والمفسرون ٩٢/١، ٩٣.

(٢) بعض الكتب التي ترجم للمفسرين من الصحابة تقدم ابن عباس على سائر الصحابة لتفوقه في هذا العلم، وبعضها ترجئه بعد الثلاثين السابقين لتقدمهم في السن عليه وحداثته بينهم.

(٣) الجامع لأحكام القرآن / للقرطبي ٢٢/١.

شئت أن يوقظ لي لأوقظ، فأجلس على بابه تسفي على وجهي الريح حتى يستيقظ متى ما استيقظ، وأسأله عما أريد ثم أنصرف».

لقد تتلمذ ابن عباس على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أولاً، فكان الرسول يعلمه ويربيه قال له يوماً: «يا غلام. إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف».

وفي خلافة عمر كان لابن عباس تقدير خاص عنده، فكان يدينه من مجلسه رغم حداثة سنه - كما ذكرنا. وقد أفاد ابن عباس من هؤلاء الذين يعدون بمثابة شيوخه:

عمر بن الخطاب، أبي بن كعب، علي بن أبي طالب، زيد بن ثابت، روى عبد الرزاق عن معمر قال: (١) «عامه علم ابن عباس من ثلاثة: عمر وعلي وأبي بن كعب».

وذكر ابن الأثير الجزري في ترجمة ابن عباس أنه (٢) «حفظ المحكم في زمن النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم عرض القرآن على أبي بن كعب وزيد بن ثابت. وقيل إنه قرأ على علي بن أبي طالب - رضي الله عنه».

لقد أوتي ابن عباس علماً غزيراً جعله أبرز المفسرين وأتهم اضطلاعاً بالتفسير حتى إنه «لم يبق عند منتصف القرن الأول من الهجرة من بين الصحابة وغيرهم إلا مدعن لابن عباس، مسلم له مقدرته الموفقة، وموهبته العجيبة، وعلمه الواسع في تفسير القرآن» (٣).

لقد امتلك ابن عباس أدوات المفسر فكان عالماً بأسرار العربية يحفظ الكثير من الشعر القديم ويحث الناس على النظر فيه قائلاً: (٤)

«إذا تعاجم شيء من القرآن فانظروا في الشعر فإن الشعر عربي».

وهو القائل: (٥)

«الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا ذلك منه».

وقد ذكر السيوطي بسنده حواراً داربين نافع بن الأزرق وابن عباس فقال: (٦)

بيننا عبد الله بن عباس جالس بفناء الكعبة، قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن فقال نافع بن الأزرق لنجدة بن عويمر:

قم بنا إلى هذا الذي يجترىء على تفسير القرآن بما لا علم له به، فقاما إليه، فقالا: إنا نريد أن نسألك عن

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي ٤١/١.

(٢) طبقات القراء ٤٢٥.

(٣) التفسير ورجاله / ابن عاشور ص ١٦.

(٤) التفسير ورجاله / ابن عاشور ص ١٧.

(٥) الإتيان ١١٩/١، غاية النهاية في طبقات القراء ٤٢٦.

(٦) الإتيان ١٢٠/١.

أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا، وتأتينا بمصادقة من كلام العرب، فإن الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين، فقال ابن عباس: سلاني عما بدا لكما، فقال نافع:

أخبرني عن قول الله تعالى ﴿عن اليمين وعن الشمال عزين﴾.

قال: العزون: حَلَقَ الرفاق.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم. أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول:

فجاءوا يهرعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزيـنا

قال: أخبرني عن قوله: ﴿وابتغوا إليه الوسيلة﴾.

قال: الوسيلة: الحاجة.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم. أما سمعت عنترة وهو يقول:

إن الرجال لهم إليك وسيلة إن يأخذوك تكحلي وتخضبي

إلى آخر المسائل وأجوبتها^(١).

وهي إن دلت فإنما تدل على سعة علمه بلغة العرب، وقوة ذاكرته، مما جعله إمام التفسير في عهد الصحابة، ومرجع المفسرين في الأعصر التالية لعصره، وهو إمام مدرسة التفسير في مكة، وأول من ابتدع الطريقة اللغوية في تفسير القرآن.

طرق الرواية عن ابن عباس.

تعددت طرق الرواية عن ابن عباس، واختلفت تلك الطرق.. وأشهر هذه الطرق وأصحها: ^(٢)

١ - طريق الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس، وتعد هذه الطريق من السلاسل الذهبية، وقد أخرج منها ابن جرير الطبري، وعبد الرزاق في تفسيرهما.

٢ - طريق سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عطاء بن أبي رباح - وعن عكرمة أحياناً - عن ابن عباس، وقد أخرج منها عبد الرزاق في تفسيره.

٣ - طريق معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس.. وقالوا:

إن هذه أجود الطرق عنه، وفيها قال الإمام أحمد - رضي الله عنه - «إن بمصر صحيفة في التفسير رواها علي بن أبي طلحة، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً».

وقال الحافظ ابن حجر:

«وهذه النسخة كانت عند أبي صالح كاتب الليث، رواها عن معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن

(١) راجعها في الإتيان ١/٢٢٠ وما بعدها.

(٢) راجع: الإتيان ٢/١٨٨، التفسير والمفسرون ١/٧٧، ٨٨، حبر الأمة عبد الله بن عباس ص ١٨٢.

ابن عباس، وهي عند البخاري عن أبي صالح، وقد اعتمد عليها في صحيحه فيما يعلقه عن ابن عباس.

٤ - طريق عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس.

وهناك طرق أخرى تلي هذه الطرق...^(١).

وكان لابن عباس مدرسة في التفسير بمكة، فكان يجلس لأصحابه من التابعين يفسر لهم كتاب الله تعالى.

يقول الإمام ابن تيمية:

«أما التفسير، فأعلم الناس به أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس، كمجاهد وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وغيرهم من أصحاب ابن عباس كطاوس، وأبي الشعثاء، وسعيد بن جبير وأمثالهم...»^(٢).

قيمة التفسير المأثور عن الصحابة

بعض المحدثين يعطي التفسير المأثور عن الصحابي حكم المرفوع، ومن هؤلاء الإمام الحاكم في مستدركه

إذ يقول: (٣)

«ليعلم طالب الحديث: أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل - عند الشيخين - حديث مسند».

ولكن قيد «ابن الصلاح والنووي» وغيرهما هذا الإطلاق بما يرجع إلى أسباب النزول، وما لا مجال للرأي

فيه.

يقول ابن الصلاح: (٤)

«ما قيل من أن تفسير الصحابي حديث مسند، فإنما ذلك في تفسير يتعلق بسبب نزول آية يخبر به

الصحابي، أو نحو ذلك مما لا يمكن أن يؤخذ إلا عن النبي - صلى الله عليه وسلم - ولا مدخل للرأي فيه، كقول

جابر - رضي الله عنه - : كانت اليهود تقول:

من أتى امرأة من دبرها في قبلها جاء الولد أحول، فأنزل الله عز وجل:

﴿نَسْأُكُمُ حُرْثَ لَكُمْ﴾... الآية. فأما سائر تفاسير الصحابة التي لا تشتمل على إضافة شيء إلى الرسول -

صلى الله عليه وسلم - فمعدودة في الموقوفات».

وذكروا أن تفسير الصحابي له حكم المرفوع إذا لم يكن للرأي فيه مجال. وأما ما يكون للرأي فيه مجال فله

حكم الموقوف.

وما حكم عليه بالوقف:

قال بعض العلماء: لا يجب الأخذ به لأنه مجتهد فيه وقد يصيب وقد يخطئ.

وقال بعضهم:

يجب الأخذ به لأنه إما سمعه من الرسول، وإما فسر برأيه، وهم أدرى الناس بكتاب الله، وهم أهل اللسان،

(١) راجع: حبر الأمة عبد الله بن عباس ١٤٦ وما بعدها. (٣) راجع: تدريب الراوي ص ٦٤، التفسير والمفسرون للذهبي ٩٤/١.

(٢) مقدمة في أصول التفسير ص ١٥. (٤) مقدمة ابن الصلاح ص ٢٤.

ولما شاهدوه من القرائن والأحوال ولاسيما ما ورد عن الأئمة الأربعة وابن مسعود وابن عباس وغيرهم^(١).

يقول الزركشي: (٢)

«اعلم أن القرآن قسمان: قسم ورد تفسيره بالنقل، وقسم لم يرد. والأول: إما أن يرد عن النبي - صلى الله عليه وسلم -، أو الصحابة، أو رؤوس التابعين، فالأول يبحث فيه عن صحة السند، والثاني ينظر فيه تفسير الصحابي، فإن فسره من حيث اللغة فهم أهل اللسان فلا شك في اعتماده، أو بما شاهدوه من الأسباب والقرائن فلا شك فيه...».

ويقول الحافظ ابن كثير: (٣)

«... وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك، لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح، ولا سيما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة، والخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم».

مدرسة مكة تلاميذ ابن عباس

١ - سعيد بن جبير

هو: (٤) سعيد بن جبير بن هشام الأسدي، مولى بني والبة، يكنى بأبي محمد (٥) أو بأبي عبد الله (٦). كان حبشي الأصل، أسود اللون، أبيض الخصال (٧).

هو أحد كبار التابعين، وإمام من أئمة الإسلام في التفسير، وكثرة العمل الصالح.

كان في أول أمره كاتباً لعبد الله بن عتبة بن مسعود، ثم لأبي بردة الأشعري، ثم تفرغ للعلم حتى صار إماماً علماً (٨).

أخذ العلم عن ابن عباس، وابن عمر، وعبد الله بن مغفل المزني وغيرهم. وتخرج من مدرسة ابن عباس (٩).

وكان ابن عباس يثق بعلمه، ويحيل عليه من يستفتيه، وكان يقول لأهل الكوفة إذا أتوه ليسألوه عن شيء: ليس فيكم ابن أم الدهماء؟ يعني سعيد بن جبير (١٠).

(١) التفسير والمفسرون ص ٩٥ (بتصرف).

(٢) البرهان ٢/ ١٨٣.

(٣) مقدمة تفسير ابن كثير / الجزء الأول.

(٤) ترجمته في: طبقات ابن سعد ٦/ ٢٥٦، تقريب التهذيب ١/ ٢٩٢، وفيات الأعيان ١/ ٢٠٤، تهذيب التهذيب ٤/ ١١، البداية والنهاية ٩/ ١٠٣، الأعلام ٣/ ١٤٥.

(٥)، (٦) طبقات ابن سعد، البداية والنهاية وغيرهما.

(٧) الإسرائيليات والموضوعات ٩٥.

(٨) التفسير والمفسرون ١/ ١٠٤.

(٩) الإسرائيليات والمفسرون ١/ ١٠٥.

(١٠) الإسرائيليات والموضوعات ٩٥.

وكان يحب أن يسمع منه، قال له مرة: حدث، فقال: أحدث وأنت هنا؟ فقال: أليس من نعمة الله عليك أن تحدث وأنا شاهد فإن أصبت فذاك، وإن أخطأت علمتك^(١).

مكانته في التفسير: كان - رضي الله عنه - من أعلم التابعين بالقراءات. يقول إسماعيل بن عبد الملك: ^(٢) «كان سعيد بن جبير يؤمنا في شهر رمضان فيقرأ ليلة بقراءة عبد الله بن مسعود، وليلة بقراءة زيد بن ثابت، وليلة بقراءة غيره، وهكذا أبداً».

وساعدته معرفته بالقراءات على معرفة معاني القرآن وأسراره، ومع ذلك كان يتورع من القول في التفسير برأيه.

يروى ابن خلكان: ^(٣) «أن رجلاً سأل سعيداً أن يكتب له تفسير القرآن فغضب وقال: لأن يسقط شقي أحب إلي من ذلك».

وقد شهد له التابعون بتفوقه في العلم ولا سيما التفسير. قال قتادة: ^(٤) «وكان أعلم الناس به، كان عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك، وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير، وكان عكرمة أعلمهم بالسير، وكان الحسن أعلمهم بالحلال والحرام».

وقال سفيان الثوري: ^(٥) «خذوا التفسير عن أربعة: سعيد بن جبير، ومجاهد بن جبر، وعكرمة، والضحاك». وقال خصيف: ^(٦)

«كان من أعلم التابعين بالطلاق سعيد بن المسيب، وبالحج عطاء، وبالحلال والحرام طاوس، وبالتفسير أبو الحجاج مجاهد بن جبر، وأجمعهم لذلك كله سعيد بن جبير».

نموذج من تفسيره: قال سعيد بن جبير: السبع المثاني هي: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس. قال: وسميت بذلك لأنها بينت فيها الفرائض والحدود^(٧).

قتله:

قتل - رضي الله عنه - سنة أربع وتسعين من الهجرة، قتله الحجاج بن يوسف الثقفي صبراً، وذلك: أن سعيد بن جبير خرج على الخليفة مع ابن الأشعث، فلما قتل ابن الأشعث وانهزم أصحابه من دير الجماجم هرب سعيد فلحق بمكة، وكان واليها خالد بن عبد الله القسري، فأخذه وبعث به إلى الحجاج. فقال له الحجاج: ما اسمك؟ قال: سعيد بن جبير.

قال: بل أنت شقي بن كسير. قال: بل أُمي كانت أعلم باسمي منك.

قال: شقيت أنت وشقيت أمك. قال: الغيب يعلمه غيرك.

قال: لأبدلنك بالدنيا ناراً تُلظي. قال: لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلها.

(١) طبقات ابن سعد ٦/٢٥٧، ووفيات الأعيان ١/٢٠٤.

(٢) وفيات الأعيان ١/٢٠٤.

(٥) الإسرائيليات والموضوعات ص ٩٥.

(٦) وفيات الأعيان ١/٢٠٤ - ٢٠٥.

(٣) وفيات الأعيان ١/٢٠٤ - ٢٠٥.

(٧) تفسير الطبري ١/٣٣، ٣٤.

(٤) الإسرائيليات والموضوعات ٩٥.

قال: فما قولك في محمد؟ قال: نبي الرحمة وإمام الهدى.

قال: فما قولك في علي؟ أهو في الجنة أو هو في النار؟ قال لو دخلتها وعرفت من فيها عرفت أهلها.

قال: فما قولك في الخلفاء؟ قال: لست عليهم بوكيل.

قال: فأيهم أعجب إليك؟ قال: أرضاهم لخالقهم.

قال: وأيهم أرضى للخالق؟ قال: علم ذلك عند الذي يعلم سرهم ونجواهم.

قال: فما بالك لم تضحك؟ قال: وكيف يضحك مخلوق خلق من طين والطين تأكله النار!!

قال: فما بالنار فضحك؟ قال: لم تستو القلوب.

ثم أمر الحجاج باللؤلؤ والزبرجد والياقوت فجمعه بين يديه، فقال سعيد:

إن كنت جمعت هذا لتتقي به من فرع يوم القيامة فصالح، وإلا ففرقة واحدة تذهل كل مرضعة عما أرضعت، ولا خير في شيء جمع للدنيا إلا ما طاب وزكا، ثم دعا الحجاج بالعود والناي، فلما ضرب بالعود، ونفخ بالناي بكى سعيد، فقال: ما يبكيك هو اللعب؟

قال سعيد: هو الحزن، أما النفخ فذكرني يوماً عظيماً، يوم النفخ في الصور، وأما العود فشجرة قطعت من غير حق، وأما الأوتار فمن الشاء تبعث معها يوم القيامة.

قال الحجاج: ويلك يا سعيد. قال: لا ويل لمن زحزح عن النار وأدخل الجنة.

قال الحجاج: اختر يا سعيد أي قتلة أقتلك.

قال: اختر لنفسك يا حجاج، فوالله لا تقتلني قتلة إلا قتلك الله مثلها في الآخرة.

قال: أتريد أن أعفو عنك؟ قال: إن كان العفو من الله، وأما أنت فلا براءة لك ولا عذر.

قال الحجاج: اذهبوا به فاقتلوه، فلما خرج ضحك، فأخبر الحجاج بذلك فردّه وقال: ما أضحكك؟ قال: عجبت من جرأتك على الله وحلم الله عليك.

فأمر بالنطع فبسط وقال: اقتلوه. فقال سعيد: وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين.

قال: وجهوا به لغير القبلة. قال سعيد: فأينما تولوا فثم وجه الله.

قال: كبوه لوجهه. قال سعيد: منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى.

قال الحجاج: اذبحوه. قال سعيد: أما إنني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، خذها مني حتى تلقاني بها يوم القيامة، ثم دُعي سعيد فقال: اللهم لا تسلطه على أحد يقتله بعدي.

وكان الحجاج إذا نام يراه في المنام يأخذ بمجامع ثوبه ويقول: يا عدو الله فيم قتلتي؟

فيقول الحجاج: مالي ولسعيد بن جبير؟ مالي ولسعيد بن جبير؟^(١)

(١) انظر / وفيات الأعيان ٢٠٥/١ - ٢٠٦، تذكرة الحفاظ ٧١ - ٧٣، البداية والنهاية ١٠١/٩ - ١٠٣.

ذكر عن الإمام أحمد أنه قال: ^(١)

قتل سعيد بن جبير وما على وجه الأرض أحد إلا وهو محتاج - أو قال مفتقر - إلى علمه .

٢ - مجاهد بن جبر:

هو: مجاهد بن جبر، أبو الحجاج القرشي المخزومي، مولى السائب بن أبي السائب المخزومي. ولد سنة

٢١ هـ في خلافة عمر بن الخطاب، وتوفي سنة ١٠٣ هـ ^(٢).

أحد أئمة التابعين والمفسرين، وأحد أعلام القراء، ومن خاصة أصحاب ابن عباس اشتهر بقوة حافظته، حتى

قال ابن عمر وهو آخذ بركابه:

«وددت أن ابني سالمًا وغلامي نافعًا يحفظان حفظك» ^(٣).

كان مجاهد شغوفًا بالعلم وخاصة التفسير. روى الفضل بن ميمون عن مجاهد قال: ^(٤) عرضت القرآن على

ابن عباس ثلاثين مرة.

ويقول أيضاً ^(٥): عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات، أقف عند كل آية، أسأله فيم نزلت، وكيف

كانت؟

ولا تعارض بين الروایتين، فالأولى لتمام الضبط والتجويد، والثانية للعلم والتفسير.

أسند مجاهد عن أعلام الصحابة وعلمائهم، عن ابن عمر، وابن عباس، وأبي هريرة، وابن عمرو، وأبي

سعيد، ورافع بن خديج... وروى عنه خلق من التابعين ^(٦).

مكانته في التفسير: كان مجاهد أقل أصحاب ابن عباس رواية عنه في التفسير، وكان أوثقهم.

قال سفيان الثوري: ^(٧) «إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به».

وقال ابن تيمية: ^(٨) «ولذا يعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما من أهل العلم» غير أن بعض

العلماء كان لا يأخذ بتفسيره... يقول أبو بكر بن عياش: قلت للأعمش، ما بال تفسير مجاهد مخالف؟ أو ما بالهم

يتقون تفسير مجاهد؟

قال: كانوا يرون أنه يسأل أهل الكتاب ^(٩).

لكن هذا لا يقدح في صدقه وعدالته، فقد «أجمعت الأمة على إمامته والاحتجاج به». وقد أخرج له أصحاب

الكتب الستة ^(١٠).

(١) طبقات ابن سعد ٢٦٦/٦، وفيات الأعيان ٢٠٦/١، الأعلام ١٤٥/٣.

(٢) طبقات ابن سعد ٤٤٦/٥، تهذيب التهذيب ٤٢/١٠، البداية والنهاية ٢٣٢/٩.

(٣)، (٤) ميزان الاعتدال ٩/٣.

(٥) تهذيب التهذيب ٤٢/١٠.

(٦) البداية والنهاية ٢٣٢/٩.

(٧) تفسير الطبري ٣٠/١.

(٨) مقدمة في أصول التفسير ص ٧ لابن تيمية.

(٩) طبقات ابن سعد ٤٦٦/٥، ميزان الاعتدال ٣٣٩/٣.

(١٠) ميزان الاعتدال.

ثم إن سؤال أهل الكتاب أمر مباح - فيما لا يتعلق بحكم تشريعي - أباحه الرسول - صلى الله عليه وسلم -^(١). كان مجاهد - رضي الله عنه - يعطي عقله حرية واسعة في فهم بعض نصوص القرآن التي يبدو ظاهرها بعيداً، فإذا ما مر بنص قرآني من هذا القبيل وجدناه ينزله بكل صراحة ووضوح على التشبيه والتمثيل، وتلك الخطة كانت فيما بعد مبدءاً معترفاً به ومقرراً لدى المعتزلة في تفسير القرآن بالنسبة لمثل هذه النصوص^(٢).

نموذج من تفسير مجاهد: روى ابن كثير أن مجاهداً قال في قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ قال: أما الظاهرة فالإسلام والقرآن والرسول والرزق، وأما الباطنة فما ستر من العيوب والذنوب^(٣).

وقال في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتَّبِعْ فَالْوَلَكُ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قال: من لم يتب إذا أصبح وإذا أمسى فهو من الظالمين^(٤).

٣ - عكرمة

هو: عكرمة بن عبد الله البربري المدني، مولى عبد الله بن عباس، يكنى بأبي عبد الله. أصله من البربر بالمغرب^(٥).

سمع من مولاه «ابن عباس»، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمر، وعمر بن العاص، وأبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، وغيرهم^(٦).

تلمذ على يدي عبد الله بن عباس، وكان ابن عباس لا يألو جهداً في تثقيفه وتعليمه، بل إنه كان يقسو عليه حتى يعلمه. روى ابن أبي شيبة عن عكرمة قال: ^(٧)

«كان ابن عباس يجعل في رجلي الكبل يعلمني القرآن والسنة».

وروى البخاري في صحيحه عن عكرمة أن ابن عباس قال له: ^(٨)

«حدث الناس كل جمعة مرة، فإن أبيت فمرتين، فإن أكثرت فثلاث مرات، ولا تملّ الناس هذا القرآن، ولا ألفينك تأتي القوم وهم في حديث من حديثهم فتقص عليهم فتقطع عليهم حديثهم فتملهم، ولكن أنصت، فإذا أمروك فحدثهم وهم يشتهونه، وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه، فإني عهدت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه لا يفعلون ذلك».

لقد اهتم ابن عباس بتلميذه هذا اهتماماً كبيراً، وكأنه كان يعدّه ليكون خليفته في تفسير القرآن، وكان يكافئه إذا ما أحسن فهم آية أشكلت على ابن عباس.

(١) يقول - ﷺ -: بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار.

(٢) التفسير والمفسرون ١/١٠٨.

(٣)، (٤) البداية والنهاية ٩/٢٣٤.

(٥) طبقات ابن سعد ٥/٢٨٧، وفيات الأعيان ١/٣١٩، البداية والنهاية ٩/٢٥٤، الأعلام ٥/٤٣.

(٦) طبقات ابن سعد ٥/٢٨٧.

(٧) البداية والنهاية ٩/٢٥٥، والكبل: القيد.

(٨) ميزان الاعتدال ٣/٩٣.

روى داود بن أبي هند عن عكرمة قال:

قرأ ابن عباس هذه الآية ﴿لَمْ تَعْظُون قَوْمَا اللَّهِ مَهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً﴾ قال ابن عباس: لم أدر أنجا القوم أم هلكوا؟ قال: فما زلت أبين له حتى عرف أنهم نجوا، فكساني حلة^(١).

قال شهر بن حوشب: «عكرمة حبر هذه الأمة»^(٢).

وقد شهد له الأئمة الأعلام بالثقة والعدالة:

قال المروزي: قلت لأحمد: يحتج بحديث عكرمة؟ فقال: نعم يحتج به^(٣).

وقال ابن معين: إذا رأيت إنساناً يقع في عكرمة وفي حماد بن سلمة فاتهمه على الإسلام^(٤).

وقال البخاري: ليس أحد من أصحابنا إلا وهو يحتج بعكرمة^(٥).

وقد أخرج له: البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي.

علمه ومكانته في التفسير: كان عكرمة على درجة كبيرة من العلم، فهو من أعلم الناس بالسير والمغازي.

قال سفيان عن عمرو قال^(٦):

كنت إذا سمعت عكرمة يحدث عن المغازي كأنه مشرف عليهم ينظر كيف يصفون ويقتلون وهو من علماء زمانه بالفقه والقرآن.

أما التفسير فقد شهد له الأئمة بذلك. يقول الشعبي: ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة^(٧).

وقال حبيب بن أبي ثابت:

اجتمع عندي خمسة: طاوس، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة، وعطاء فأقبل مجاهد وسعيد بن جبيرة يلقيان على عكرمة التفسير، فلم يسألاه عن آية إلا فسرهما لهما، فلما نفذ ما عندهما جعل يقول:

أنزلت آية كذا في كذا، وأنزلت آية كذا في كذا^(٨).

نموذج من تفسير عكرمة: قال عكرمة من قوله تعالى ﴿وَلَكِنكُمْ فَتَنَّمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي بالشهوات (وتربصتم) بالتوبة ﴿وَعَرَّكُمُ الْأَمَانِي﴾ أي التسويف ﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ الموت ﴿وَعَرَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ الشيطان^(٩).

وتوفي عكرمة رضي الله عنه بالمدينة سنة سبع ومائة للهجرة وقيل سنة أربع ومائة^(١٠).

٤ - طاوس:

هو: طاوس بن كيسان الخولاني، أبو عبد الرحمن.

(١) طبقات ابن سعد ٢٨٨/٥.

(٢) ميزان الاعتدال ٩٣/٣، مقدمة فتح الباري ص ٤٥٠.

(٣) مقدمة فتح الباري ص ٤٥٠.

(٤) معجم الأدباء ١٨٩/١٢.

(٥) مقدمة فتح الباري ص ٤٥٠.

(٦) البداية والنهاية ٢٥٥/٩، مقدمة فتح الباري ص ٤٥٠.

(٧) البداية والنهاية ٢٥٥/٩.

(٨) مقدمة فتح الباري ص ٤٥٠.

(٩) البداية والنهاية ٢٥٩/٩.

(١٠) تهذيب التهذيب ٢٦٣/٧ - ٢٧٣، تذكرة الحفاظ ٩٠/١.

البداية والنهاية ٢٥٣/٩.

أول طبقة أهل اليمن من التابعين، وهو من أبناء الفرس الذين أرسلهم كسرى إلى اليمن^(١). أدرك جماعة من الصحابة وروى عنهم، وروايته عن ابن عباس أكثر، وأخذ عنه في التفسير أكثر من غيره، ولهذا عُذَّ من تلاميذ ابن عباس، وجاء ذكره في مدرسته بمكة^(٢).

روى عنه خلق من التابعين، منهم: مجاهد، وعطاء، وعمر بن دينار وغيرهم^(٣). شهد له ابن عباس بالورع والتقوى فقال: «إني لأظن طاوساً من أهل الجنة»^(٤). وطاوس ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة. كان طاوس - رضي الله عنه - جريئاً في الحق، لا يخشى فيه لومة لائم. روى الزهري: ^(٥)

إن سليمان رأى رجلاً يطوف بالبيت، له جمال وكمال، فقال: من هذا يا زهري؟ فقلت: هذا طاوس، وقد أدرك عدة من الصحابة، فأرسل إليه سليمان، فأتاه، فقال: لو ما حدثتنا؟! فقال: حدثني أبو موسى قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «إن أهون الخلق على الله عز وجل من ولي أمور المسلمين شيئاً فلم يعدل فيهم». فتغير وجه سليمان، فأطرق طويلاً ثم رفع رأسه إليه فقال: لو ما حدثتنا!! فقال: حدثني رجل من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - قال ابن شهاب: ظننت أنه أراد علياً - قال: دعاني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى طعام في مجلس من مجالس قريش، ثم قال: إن لكم على قريش حقاً، ولهم على الناس حق، ما إذا استرحموا رحموا، وإذا حكموا عدلوا، وإذا ائتمنوا أدوا، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً». قال: فتغير وجه سليمان، وأطرق طويلاً ثم رفع رأسه إليه وقال: لو ما حدثتنا!! فقال: حدثني ابن عباس أن آخر آية نزلت من كتاب الله ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(٦). علمه: بلغ طاوس من العلم مبلغاً عظيماً، وكان واثقاً من علمه هذا...

أنكر عليه سعيد بن جبير قوله عن ابن عباس: إن الخلع طلاق، فلقبه مرة فقال له: «لقد قرأت القرآن قبل أن تولد، ولقد سمعته وأنت إذ ذاك همك لقم الثريد».

وقال قيس بن سعد:

«كان طاوس فينا مثل ابن سيرين فيكم».

والتفسير المأثور عنه قليل جداً، ومعظمه يرويه عن ابن عباس، ولقلة التفسير المأثور عنه وطول باعه في الفقه قالوا عنه: إنه فقيه لا مفسر، وعده علماء الفقه فقيهاً.

نموذج من تفسيره: قال في قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبِّا لِّرَبِّو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّو عِنْدَ اللَّهِ﴾ الآية

(١) البداية والنهاية ٢٤٤/٩.

(٢) البداية والنهاية ٢٤٥/٩.

(٣) البداية والنهاية ٢٤٧/٩.

(٤) التفسير والمفسرون ١١٤/١.

(٥) تهذيب التهذيب ٩/٥.

(٦) سورة البقرة: الآية ٢٨١.

«هو الرجل يعطي العطية ويهدي الهدية ليثاب أفضل من ذلك، ليس فيه أجر ولا وزر».

وقد توفي طاوس - رضي الله عنه - يوم السابع من ذي الحجة سنة ١٠٦ هـ، ووافته منيته وهو يحج بيت الله الحرام، وصلى عليه هشام بن عبد الملك وهو خليفة.

٥ - عطاء بن أبي رباح:

هو: عطاء بن أبي رباح، وأبورباح هو: أسلم بن صفوان، مولى آل أبي مسرة بن أبي حُثيم الفهري^(١). سيد التابعين علماً وعملاً وإتقاناً في زمانه بمكة^(٢).

قال ابن سعد: (٣)

سمعت بعض أهل العلم يقول: كان عطاء أسود، أعور، أفتس، أشل، أعرج، ثم عمى بعد ذلك. وكان ثقة، فقيهاً، عالماً، كثير الحديث.

قال أبو جعفر الباقر وغير واحد: (٤)

ما بقي أحد في زمانه أعلم بالمناسك منه، وزاد بعضهم: وكان قد حج سبعين حجة، وعُمِّر مائة سنة، وكان في آخر عمره يفطر في رمضان من الكبر والضعف، ويفدي عن إفطاره.

روى عن عدد كثير من الصحابة، منهم ابن عمر، وابن عمرو، وعبد الله بن الزبير، وأبو هريرة وغيرهم.

وسمع من ابن عباس التفسير وغيره. وروى عنه من التابعين عدة منهم: الزهري، وعمرو بن دينار، وقتادة، والأعمش وغيرهم^(٥).

مكانته في التفسير: كان ابن عباس يقول لأهل مكة إذا جلسوا إليه: تجتمعون إليّ يا أهل مكة وعندكم عطاء؟^(٦).

وقال قتادة: (٧)

كان أعلمُ التابعين أربعة: كان عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك، وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير، وكان عكرمة أعلمهم بالسيرة، وكان الحسن أعلمهم بالحلال والحرام.

لم يكن عطاء أكثراً من رواية التفسير عن ابن عباس فضلاً عن تفسيره هو، ولعل إقلاقه في التفسير يرجع إلى تخرجه من القول بالرأي^(٨).

قال عبد العزيز بن رفيع: (٩) سئل عطاء عن مسألة فقال: لا أدري، فقل له: ألا تقول فيها برأيك؟ قال: إني أستمحي من الله أن يدان في الأرض برأيي. لكنه كان يدلي برأيه - أحياناً - في التفسير.

(٥) البداية والنهاية ٣١٨/٩.

(٦) تذكرة الحفاظ ٩١/١.

(٧) طبقات ابن سعد ٤٦٩/٥.

(٨) التفسير والمفسرون ١١٥/١.

(٩) التفسير والمفسرون ١١٥/١.

(١) طبقات ابن سعد ٤٦٧/٥، وفيات الأعيان ٣١٨/١.

البداية والنهاية ٣١٧/٩، ٣١٨.

(٢) ميزان الاعتدال ٧٠/٣.

(٣) طبقات ابن سعد ٤٩٦/٥، البداية والنهاية ٣١٨/٩.

(٤) البداية والنهاية ٣١٨/٩.

روى الطبراني - بسنده - عن يحيى بن ربيعة الصنعاني قال: سمعت عطاء بن أبي رباح يقول في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلَحُونَ﴾ قال: كانوا يقرضون الدراهم، قيل: كانوا يقصون منها ويقطعونها^(١).

وقيل لعطاء: إن ها هنا قوماً يقولون: الإيمان لا يزيد ولا ينقص، فقال ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾ فما هذا الهدى الذي زادهم؟. قلت: ويزعمون أن الصلاة والزكاة ليستا من دين الله، فقال: قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ فجعل ذلك ديناً^(٢).

وتوفي رضي الله عنه سنة أربع عشرة ومائة من الهجرة^(٣).

وبعد..

فهذه هي مدرسة التفسير بمكة، تلك التي أسسها حبر الأمة عبد الله بن عباس، وهؤلاء أشهر شيوخها الذين تخرجوا فيها على يدي ابن عباس، وفي نهاية مطافنا معها نرصد ما يلي:

* كان لهذه المدرسة دور ضخم في نشر التفسير، وقد هيا لها هذا الدور: نبوغ شيوخها، بالإضافة إلى موطن المدرسة «مكة» حيث البيت الحرام الذي يأتيه الناس من كل فج عميق.

* لم يكتف شيوخ هذه المدرسة بنشر التفسير في مكة، وإنما كان لهم دور بالغ الأهمية خارج مكة.. فقد كان لسعيد بن جببر رحلة إلى الري نشر فيها الكثير من العلم^(٤)، وكذلك كان لمجاهد رحلات خارج مكة، واستقر طاوس باليمن ينشر هناك علم ابن عباس وتفسيره، وأما عكرمة فقد طاف البلاد الإسلامية شرقاً وغرباً، إذ رحل إلى خراسان، واليمن، والعراق، والشام، ومصر، والحرمين^(٥).

جزى الله هؤلاء الأعلام عن القرآن والمسلمين خير الجزاء.

مدرسة المدينة

تلاميذ أبي بن كعب

قامت مدرسة المدينة في التفسير على الصحابي الجليل أبي بن كعب - رضي الله عنه - فهو أستاذاً وأشهر مفسريها.

وكان بالمدينة كثير من الصحابة، أقاموا بها، فجلسوا إلى «أبي» يعلمهم كتاب الله وسنته.. ومن أشهر هؤلاء:

١ - أبو العالية:

هو: زياد، وقيل: رفيع بن مهران الرياحي، مولاهم^(٦).

(١)، (٢) البداية والنهاية ٣١٨/٩، ٣١٩.

(٣) المصدر نفسه ٣١٧/٩.

(٤) راجع: حبر الأمة عبد الله بن عباس ص ١٤٥.

(٥) راجع: وفيات الأعيان ٣١٩/١، معجم الأدباء ١٨١/١٢، البداية والنهاية ٢٥٤/٩.

(٦) راجع: تهذيب التهذيب ٢٨٤/٣ - ٢٨٥، ومقدمة فتح الباري ص ٤٢٢، وانظر: التفسير والمفسرون ١١٦/١، ١١٧.

مخضرم، أدرك الجاهلية وأسلم بعد وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - بستين .
 روى عن: علي، وابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، وأبي بن كعب، وغيرهم .
 كان من ثقات التابعين، وقد أجمع عليه أصحاب الكتب الستة .
 كان يحفظ القرآن ويتقنه، قال :

«قرأت القرآن بعد وفاة نبيكم بعشر سنين» .

وقال : «قرأت القرآن على عهد عمر ثلاث مرات» .

وقال فيه ابن أبي داود :

«ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقراءة من أبي العالية» .

رويت عنه نسخة كبيرة في التفسير، رواها أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي، وهو
 إسناد صحيح .

توفي سنة تسعين من الهجرة على أرجح الأقوال .

٢ - محمد بن كعب القرظي :

هو: محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظي، المدني، أبو حمزة، أو أبو عبد الله . له روايات كثيرة عن
 جماعة من الصحابة منهم :

علي، وابن مسعود، وابن عباس، وغيرهم . وروي عن أبي بن كعب بالواسطة^(١) .

قال فيه ابن سعد: ^(٢) كان ثقة، عالماً، كثير الحديث، ورعاً . وهو من رجال الكتب الستة .

قال فيه ابن عون: ^(٣)

ما رأيت أحداً أعلم بتأويل القرآن من القرظي .

نموذج من تفسيره: ^(٤) قال في قوله تعالى: ﴿... اصبروا وصابروا ورابطوا...﴾ اصبروا على دينكم،
 وصابروا لعدوكم الذي وعدتم، ورابطوا عدوكم الظاهر والباطن، واتقوا الله فيما بيني وبينكم، لعلكم تفلحون إذا
 لقيتموني .

توفي سنة مائة وثمان من الهجرة^(٥) وقيل يعد ذلك .

٣ - زيد بن أسلم :

هو: ^(٦) زيد بن أسلم العدوي، المدني، الفقيه، المفسر . أبو أسامة أو أبو عبد الله .

(١) البداية والنهاية ٢٦٨/٩ وما بعدها .

(٢)، (٣) راجع : التفسير والمفسرون ١١٧/١، والإسرائيليات والموضوعات ٩٨ .

(٤) البداية والنهاية ٢٦٨/٩ .

(٥) المصدر نفسه .

(٦) تهذيب التهذيب ٣/٣٩٥ - ٣٩٧، راجع : التفسير والمفسرون ١١٨/١، ١١٩ .

كان أبوه مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه . . .
 وكان زيد من كبار التابعين الذين عرفوا القول بالتفسير .
 قال فيه الإمام أحمد وأبو زرعة وأبو حاتم والنسائي : ثقة ، وهو عند أصحاب الكتب الستة .
 عرف بغزارة العلم . كان يقرأ القرآن برأيه ولا يتحرج من ذلك ، إذ يرى جواز التفسير بالرأي .
 وأشهر من أخذ التفسير عن زيد بن أسلم من علماء المدينة : ابنه عبد الرحمن بن زيد ، ومالك بن أنس إمام دار الهجرة .
 وتوفي سنة ست وثلاثين ومائة للهجرة ، وقيل غير ذلك .

مدرسة العراق

تلاميذ عبد الله بن مسعود

قامت هذه المدرسة على عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - وغيره ، إلا أن ابن مسعود هو أشهر أساتذتها ، أو هو أستاذها الأول لطول باعه في هذا الميدان ، بالإضافة إلى أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حين ولي عمار بن ياسر على الكوفة سَيرَ معه عبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً ، فجلس إليه أهل الكوفة وأخذوا عنه أكثر من غيره .

ومن أهم سمات هذه المدرسة : شيوع طريقة الاستدلال فيها ، نظراً لأن أهل العراق عرفوا بأنهم أهل الرأي ، وقد وضع حجر الأساس لهذه الطريقة عبد الله بن مسعود^(١) .

ومن أشهر رجال هذه المدرسة :

١ - علقمة بن قيس :

هو : علقمة بن قيس بن عبد الله بن مالك ، أبو شبل ، النخعي ، الكوفي .

كان من أكابر أصحاب ابن مسعود وعلمائهم . وكان يشبه بابن مسعود ، وكان أعلم أصحابه بعلم ابن مسعود^(٢) .

قال عثمان بن سعيد : « قلت لابن معين : علقمة أحب إليك أم عبيدة ؟ فلم يخير ، قال عثمان : كلاهما ثقة ، وعلقمة أعلم بعبد الله » .

وروى عبد الرحمن بن يزيد قال : قال عبد الله : ما أقرأ شيئاً ولا أعلمه إلا علقمة يقرؤه ويعلمه .

قال فيه الإمام أحمد : ثقة من أهل الخير . وهو عند أصحاب الكتب الستة .

مات سنة إحدى وستين ، وقيل سنة اثنتين وستين عن تسعين سنة^(٣) .

(١) التفسير والمفسرون ١/ ١٢٠ (بتصرف وإيجاز) .

(٢) تهذيب التهذيب ٧/ ٢٧٦ - ٢٧٨ ، البداية والنهاية ٨/ ٢١٩ .

(٣) راجع المصدرين السابقين .

٢ - مسروق :

هو: مسروق بن الأجدع بن مالك بن أمية الهمداني، الكوفي، العابد، أبو عائشة.
سأله عمر يوماً عن اسمه فقال له: اسمي مسروق بن الأجدع، فقال عمر: الأجدع شيطان، أنت مسروق بن عبد الرحمن^(١).

روى عن الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وغيرهم.
وكان أعلم أصحاب ابن مسعود، وأكثرهم أخذاً منه، قال علي بن المديني: ما أقدم على مسروق أحداً من أصحاب عبد الله، يعني ابن مسعود.

وقال الشعبي: ما رأيت أطلب للعلم منه.

وقد وثقه علماء الجرح والتعديل، فقال ابن معين:

ثقة، لا يسأل عن مثله، وقال ابن سعد: كان ثقة. وله أحاديث صالحة، وقد أخرج له الستة.

توفي - رضي الله عنه - سنة ثلاث وستين من الهجرة على الأشهر^(٢).

٣ - عامر الشعبي :

هو: عامر بن شراحيل الشعبي، الحميري، الكوفي، التابعي الجليل أبو عمرو.

قاضي الكوفة^(٣).

كان علامة أهل الكوفة، إماماً حافظاً، ذا فنون.

وقد أدرك خلقاً من الصحابة وروى عنهم، ومنهم: عمر، وعلي، وابن مسعود وإن لم يسمع منهم، وروى عن أبي هريرة، وعائشة، وابن عباس، وأبي موسى الأشعري، وغيرهم.

قال الشعبي: أدركت خمسمائة من الصحابة..

والشعبي ثقة، فهو عند أصحاب الكتب الستة، وقال ابن حبان في الثقات: كان فقيهاً شاعراً.

وعن سليمان بن أبي مجلز قال: ما رأيت أحداً أفقه من الشعبي، لا سعيد بن المسيب، ولا طاوس، ولا عطاء، ولا الحسن، ولا ابن سيرين.

وقال ابن سيرين:

قدمت الكوفة وللشعبي حلقة، وأصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يومئذ كثير^(٤).

(١) تهذيب التهذيب ١٠/١٠٩ - ١١١، التفسير والمفسرون ١/١٢١، ١٢٢، الإسرائيليات والموضوعات ٩٩.

(٢) تهذيب التهذيب ١٠/١٠٩ - ١١١، التفسير والمفسرون ١/١٢١، ١٢٢، الإسرائيليات والموضوعات ٩٩.

(٣) تهذيب التهذيب ٥/٦٥ - ٦٩، البداية والنهاية ٩/٢٣٩ - ٢٤٠.

(٤) راجع لهذه الأقوال: تهذيب التهذيب، البداية والنهاية، والتفسير والمفسرون.

ومع أنه قد أوتي هذا الحظ الوافر من العلم لم يكن جريئاً على كتاب الله حتى يقول فيه برأيه. قال ابن عطية: (١)

كان جلة من السلف كسعيد بن المسيب، وعامر الشعبي يعظمون تفسير القرآن، ويتوقفون عنه تورعاً واحتياطاً لأنفسهم، مع إدراكهم وتقدمهم.

توفي سنة أربع ومائة من الهجرة (٢)، وقيل سنة تسع ومائة.

٤ - الحسن البصري:

هو: الحسن بن أبي الحسن يسار البصري، أبو سعيد، مولى الأنصار. وأمه خيرة مولاة أم سلمة زوج النبي - صلى الله عليه وسلم -، ربي في حجرها وأرضعته بلبانها، فعادت عليه بركة النبوة (٣).

ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب .

وهو أحد كبار التابعين الأجلاء علماء وعملاً وإخلاصاً، شهد له بالعلم خلق كثير.

قال أنس بن مالك:

«سلوا الحسن فإنه حفظ ونسينا» وقال سليمان التيمي: «الحسن شيخ أهل البصرة». وروى أبو عوانة عن قتادة أنه قال:

«ما جالست فقيهاً قط إلا رأيت فضل الحسن عليه».

وكان أبو جعفر الباقر يقول عنه: «ذلك الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء» (٤).

وقد التزم الحسن البصري بمنهجه السلفي في تفسير الآيات المتعلقة بالله وصفاته، ولم يمنعه هذا الالتزام من حرية العقل حين تعرض لغيرها، يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ قدر الله لكل شيء من خلقه قدره الذي ينبغي له، وهذه هي عقيدة السلف التي بنوها على ما تعلق بالآية من سبب لنزولها، فعن أبي هريرة قال:

جاءت مشركو قريش إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - يخاصمونهم في القدر، فنزلت هذه الآية ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ (٥).

وكان الحسن يعمل عقله وفكره في فهم القرآن وتفسيره. يقول في قوله تعالى: ﴿لا يثنى فيها أحقاباً﴾:

(١) مقدمة تفسير القرطبي ٣٤/١.

(٢) البداية والنهاية ٢٣٩/٩.

(٣) تهذيب التهذيب ٢٦٣/٢ - ٢٧٠، البداية والنهاية ٢٨٠/٩، الحسن البصري للإمام أبي الفرج بن الجوزي - هدية مجلة الأزهر / محرم ١٤٠٨ هـ.

(٤) تهذيب التهذيب ٢٦٣/٢.

(٥) البغوي الفراء ٢٢١.

«إن الله لم يجعل لأهل النار مدة، بل قال لاثنين فيها أحقاباً، فوالله ما هو إلا أنه إذا مضى حقب دخل آخر ثم آخر إلى الأبد فليس للأحقاب عدة إلا الخلود»^(١).

وتوفي رحمه الله سنة عشر ومائة من الهجرة عن ثمان وثمانين سنة.

٥ - قتادة:

هو: قتادة بن دعامة السدوسي، الأكمه، أبو الخطاب، عربي الأصل، كان يسكن البصرة.

أحد علماء التابعين، والأئمة العاملين، روى عن أنس بن مالك وجماعة من التابعين منهم: سعيد بن المسيب، وأبو العالية، وزرارة بن أوفى، وعطاء، ومجاهد، وابن سيرين، ومسروق، وأبو مجلز وغيرهم^(٢).

وحدث عنه جماعات من الكبار كالأعمش، وشعبة، والأوزاعي، وغيرهم.

وكان قوي الحافظة، واسع الاطلاع في الشعر العربي، بصيراً بأيام العرب.

كان قتادة على مبلغ عظيم من العلم فضلاً عما اشتهر به من معرفته لتفسير كتاب الله تعالى: وقد شهد له بذلك كبار التابعين والعلماء.

قال فيه سعيد بن المسيب: «ما أتاني عراقي أحسن من قتادة».

وقد استخدم قتادة معرفته باللغة العربية في التفسير، وأعمل فكره في تفهم الآيات، بجانب روايته عن السلف.

وقد توفي رضي الله عنه سنة سبع عشرة ومائة من الهجرة عن ست وخمسين سنة على المشهور. وقيل سنة خمس عشرة ومائة^(٣).

وبعد...

فهذه هي مدارس التفسير المشهورة في عصر التابعين، الذين تلقوا غالب أقوالهم في التفسير عن الصحابة، وبعضهم إستعان بأهل الكتاب، ثم اجتهدوا مستعينين على ذلك بما بلغوا من العلم ودقة الفهم، وقرب عهدهم من الرسول - صلى الله عليه وسلم - والعرب الخلفاء، فلم تفسد سليقتهم...

وهناك مدارس أخرى غير هذه المدارس الثلاث، ولكنها لم ترق لشهرة هذه الثلاث. ومن هذه: مدرسة مصر التي اشتهر من شيوخها:

يزيد بن حبيب الأزدي، وأبو الخير مرثد بن عبد الله وغيرهما.

ومدرسة اليمن التي أرسى دعائمها طاوس بن كيسان، وكان من أشهر شيوخها: وهب بن منبه الصنعاني.

وهكذا بذل هؤلاء التابعون جهداً ضخماً في حمل الأمانة عن الصحابة، ثم جاء تابعو التابعين ليكملوا

(١) البغوي الفراء ٢٢٢.

(٢) وفیات الأعيان ١٧٩/٢، البداية والنهاية ٣٢٦/٩، تهذيب التهذيب ٣٥١/٨.

(٣) راجع: تهذيب التهذيب ٣٥١/٨ - ٣٥٦، البداية والنهاية ٣٢٥/٩، ٣٢٦.

المسيرة وظلت تتوارث حتى وصلت إلينا، فجزى الله كل من أسهم في هذا العلم خير الجزاء، ونفعنا الله بالقرآن وعلومه .

قيمة التفسير المأثور عن التابعين

تفسير التابعي إما أن يكون مأثوراً عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أو عن صحابته، أو لا. فإن كان مأثوراً عن النبي يأخذ حكم تفسيره - صلى الله عليه وسلم -، وكذلك إن كان مأثوراً عن الصحابة. وإن لم يكن مأثوراً عن النبي ولا عن الصحابة فقد اختلف العلماء في الرجوع إليه والأخذ بأقوال التابعين فيه.

* فقد نقل عن أبي حنيفة أنه قال: (١)

ما جاء عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فعلى الرأس والعين، وما جاء عن الصحابة تخيّرنا، وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال.

* ونقلوا عن الإمام أحمد روايتين، إحداهما بالقبول، والأخرى بعدم القبول (٢).

وذهب بعض العلماء إلى أنه لا يؤخذ بتفسير التابعين، لأنهم لم يسمعوا من النبي - صلى الله عليه وسلم - بخلاف تفسير الصحابة الذين سمعوا من النبي - صلى الله عليه وسلم - وشاهدوا القرائن والأحوال.

وأكثر المفسرين على الأخذ بأقوال التابعين، لأنهم تلقوا على أيدي الصحابة كما سبق أن ذكرنا.

والرأي الذي نرجحه ونميل إليه هو ما ذكره ابن تيمية، قال: (٣)

«قال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين ليست حجة، فكيف تكون حجة في التفسير! يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم، وهذا صحيح، أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم، ويُرجع في ذلك إلى لغة القرآن، أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك».

سمات التفسير في تلك المرحلة

اتسم التفسير في تلك المرحلة بعدة سمات، من أبرزها: (٤)

* أنه اعتمد على التلقي والرواية، وغلب على التلقي والرواية طابع الاختصاص، فكان لكل بلد مدرسته وأستاذه، فمكة أستاذها ابن عباس، والمدينة أستاذها أبي بن كعب، والعراق أستاذه ابن مسعود... وهكذا.

* دخول أهل الكتاب في الإسلام كان سبباً في تسلل الدخيل إلى علم التفسير، وقد تساهل التابعون في النقل عنهم - فيما لا يتعلق بالأحكام الشرعية - بدون تحرر ونقد، وأكثر من رُوي عنه في ذلك من مسلمي أهل الكتاب:

(١) راجع: التفسير والمفسرون للذهبي ١/ ١٢٩.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) مقدمة في أصول التفسير / ابن تيمية ٢٨ - ٢٩، الاتقان في علوم القرآن ٢/ ١٧٩.

(٤) راجع: التفسير والمفسرون ١/ ١٣١، ١٣٢.

عبد الله بن سلام، كعب الأجر، وهب بن منبه، وغيرهم.

* كان بدهياً أن يختلف التابعون في التفسير، نظراً لتعددتهم وكثرتهم واختلاف مدارسهم التي تخرجوا فيها، ولكنه خلاف ليس بالكثير إذا ما قيس بالعصور اللاحقة.

* كما ظهرت نواة الخلاف المذهبي، إذ ظهرت بعض التفسيرات تحمل في طياتها بذوراً لتلك المذاهب...

التفسير في عصر التدوين

تبدأ هذه المرحلة في أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي. إذ انتشر التدوين بصورة واسعة، وعني العرب «بتدوين كل ما يتصل بدينهم الحنيف، فقد تأسست في كل بلدة إسلامية مدرسة دينية عنية بتفسير الذكر الحكيم، ورواية الحديث النبوي، وتلقين الناس الفقه وشؤون التشريع. وكان كثير من المتعلمين في هذه المدارس يحرصون على تدوين ما يسمعون...»^(١).

تدوين التفسير: اختلف في أول من ألف تفسيراً «مكتوباً»، فبعضهم يذكر أن «عبد الملك بن جريج»^(٢) [ت ١٤٩ هـ] هو أول من ألف تفسيراً مكتوباً..

وذكر ابن النديم: أن أبا العباس ثعلب قال: كان السبب في إملاء كتاب الفراء في المعاني أن عمر بن بكر كان من أصحابه، وكان منقطعاً إلى الحسن بن سهل، فكتب إلى الفراء: إن الأمير الحسن بن سهل، ربما سألني عن الشيء بعد الشيء من القرآن فلا يحضرني فيه جواب، فإن رأيت أن تجمع لي أصولاً، أو تجعل في ذلك كتاباً أرجع إليه فعلت، فقال الفراء لأصحابه: اجتمعوا حتى أملي عليكم كتاباً في القرآن... فقال الفراء لرجل: اقرأ بفاتحة الكتاب نفسرها، ثم نوفي الكتاب كله، فقرأ الرجل وفسر الفراء، قال أبو العباس: «لم يعمل أحد قبله مثله، ولا أحسب أن أحداً يزيد عليه».

وبذلك يكون ابن النديم قد عد «الفراء» أول من ألف تفسيراً للقرآن مدوناً.

ولكن ابن حجر يذكر أن التفسير المدون كان قبل الفراء وقبل ابن جريج إذ يقول: ^(٤)

«وكان عبد الملك بن مروان [ت ٨٦ هـ] سأل سعيد بن جبير [ت ٩٥ هـ] أن يكتب إليه بتفسير القرآن، فكتب سعيد بهذا التفسير، فوجده عطاء بن دينار في الديوان فأخذه فأرسله عن سعيد بن جبير. ويبدو أنه من الصعب تحديد أول من فسر القرآن تفسيراً مدوناً على تتابع آياته وسوره كما في المصحف.

أقسام التفسير

وظل الخلف يحمل رسالة السلف جيلاً بعد جيل حتى وصلت مسيرة التفسير إلى تابعي التابعين، وهنا تعددت إتجاهات التفسير إلى ثلاثة اتجاهات رئيسية هي:

(١) تاريخ الأدب العربي / العصر الإسلامي د. شوقي ضيف ٤٥٢.

(٢) هو عبد الملك عبد العزيز بن جريج، أبو خالد، أو أبو الوليد، مولاها، من علماء مكة ومحدثيها، ولد سنة ٨٠ هـ، توفي سنة ١٤٩ هـ، أول من صنف بالحجاز الكتب، نقل عنه ابن جرير في تفسيره. راجع طبقات ابن سعد.

(٣) الفهرست ص ٩٩.

(٤) تهذيب التهذيب ١٩٨/٧.

أولاً - الاتجاه الأثري (التفسير بالمأثور).

والمأثور: اسم مفعول من أثرت الحديث أثراً: نقلته، والأثر اسم منه، وحديث مأثور: أي منقول.^(١) وعلى ذلك فهو يشمل المنقول عن الله تبارك وتعالى - في القرآن الكريم -، والمنقول عن النبي - صلى الله عليه وسلم -، والمنقول عن الصحابة، والمنقول عن التابعين.

وجُلّ الذين يكتبون عن تاريخ التفسير ويتحدثون عن الاتجاه الأثري يبدأونه بالطبري «فيقطعون بذلك اتصال سلسلة التطور في الأوضاع التفسيرية بين القرن الأول والقرن الثالث بإضاعة الحلقة من تلك السلسلة التي تمثل منهج التفسير في القرن الثاني، لأن تفسير ابن جرير الطبري ألف في أواخر القرن الثالث، وصاحبه توفي في أوائل القرن الرابع... وبالموقف على هذه الحلقة - وهي إفريقية تونسية - يتضح كيف تطور فهم التفسير عما كان عليه في عهد ابن جريج، إلى ما أصبح عليه في تفسير الطبري، ويتضح لمن كان الطبري مديناً له بذلك المنهج الأثري النظري الذي درج عليه في تفسيره العظيم...»

«ذلك التفسير هو أقدم التفسيرات الموجودة اليوم على الإطلاق، ويعد صاحبه مؤسس طريقة التفسير النقدي، أو الأثري النظري الذي صار بعده «ابن جرير الطبري» واشتهر بها.

ذلك هو تفسير «يحيى بن سلام» التميمي البصري المتوفى سنة ٢٠٠ هـ، ويقع في ثلاث مجلدات ضخمة، وقد بناه على إيراد الأخبار مسندة، ثم تعقبها بالنقد والاختيار، وكان يبيّن اختياره على المعنى اللغوي والتخريج الإعرابي... وتوجد من هذا التفسير نسخة بتونس^(٢).

ويعد ابن جرير الطبري ربيب تلك الطريقة، طريقة يحيى بن سلام، وثمره غرسه. وقد ذكر السيوطي عدداً من مفسري هذا الاتجاه الأثري منهم:

- * يزيد بن هارون ت ١١٧ هـ.
- * شعبة بن الحجاج ت ١٦٠ هـ.
- * وكيع بن الجراح ت ١٩٧ هـ.
- * سفيان بن عيينة ت ١٩٨ هـ، وغيرهم.

«ابن جرير الطبري»^(٣)

لكن التفسير حين انتهى إلى الطبري في أوائل القرن الثالث الهجري «كان نهراً مزبداً، ذاركام ورواسب، قد انصب إلى بحر خضمّ عباب، فامتزج بمائه، وتشرب من عناصره، وصفا إليه من زبده، وتظهر لديه من ركامه ورواسبه»^(٤).

(١) المصباح المنير (أثر)، الإسرائيليات والموضوعات (أبو شعبة ص ٦٤).

(٢) التفسير ورجاله / ابن عاشور ص ٢٧.

(٣) هو: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، الإمام أبو جعفر الطبري، ولد سنة ٢٢٤ هـ، وتوفي سنة ٣١٠ هـ وقد جاوز الثمانين بخمس أو ست سنين.

(٤) التفسير ورجاله ص ٣٠.

«وابن جرير» فقيه، عالم، تبحر في فنون شتى من العلم، فهو أحد المشاهير من رجال التاريخ، ويعد كتابه «تاريخ الأمم والملوك...» فيه مرجع المراجع، وبه صار إمام المؤرخين غير منازع.

وقد شهد له بذلك كثير من الأعلام. يقول الخطيب البغدادي: ^(١)

«جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، وكان حافظاً لكتاب الله، عارفاً بالقراءات كلها، بصيراً بالمعاني، فقيهاً في الأحكام، عالماً بالسنن وطرقها، وصحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم، وله الكتاب المشهور في تاريخ الأمم والملوك، وكتاب في التفسير لم يصنف أحد مثله...».

لقد امتلك الطبري أدوات التفسير فاستخدمها بمهارة وحذق، ومن هنا عُدَّ تفسيره «ذا أولية بين كتب التفسير، أولية زمنية، وأولية من ناحية الفنية والصياغة... أما أوليته الزمنية فلأنه أقدم كتاب في التفسير وصل إلينا وما سبقه من المحاولات التفسيرية ذهبت بمرور الزمن، ولم يصل إلينا شيء منها، اللهم إلا ما وصل إلينا منها في ثنايا ذلك الكتاب الخالد الذي نحن بصده. ^(٢)

«وأما أوليته من ناحية الفن والصياغة، فذلك أمر يرجع إلى ما يمتاز به الكتاب من الطريقة البديعة التي سلكها فيه مؤلفه، حتى أخرجه للناس كتاباً له قيمته ومكانته» ^(٣).

طريقة الطبري في التفسير:

حين يفسر الطبري آية يضع لها عنواناً هكذا «القول في تأويل قوله جل ثناؤه...» ثم يقول: يعني تعالى بذلك...، ويستشهد على التفسير بما يرويه بسنده إلى الصحابة أو التابعين، عارضاً المعاني الحقيقية والمجازية في استعمال العرب، مستشهداً بالشعر العربي على ما يثبت استعمال اللفظ في المعنى الذي حمله عليه.

وقد يعرض أقوال الصحابة والتابعين إذا تعددت في الآية الواحدة، ثم لا يكتفي بمجرد العرض، وإنما يرجح رأياً على رأي بقوله: ^(٤)

«وأولى الأقوال عندي بالصواب...» أو «وقال أبو جعفر: والصواب من القول في هذه الآية...»، أو «وأولى التأويلات بالآية...». ثم يؤيد رأيه بقوله: «وبمثل الذي قلنا قال أهل التأويل...» أو بعرض حجج وأدلة قائلًا: «وإنما رأينا أن ذلك أولى التأويلات بالآية لأن...» وقد عني ابن جرير بالقراءات عناية كبيرة، ولا غرو فهو من علماء القراءات المشهورين وله فيها مؤلف، إلا أنه ضاع ضمن ما ضاع من التراث العربي القديم. كما اهتم الطبري بالشعر القديم، يستشهد به على الغريب وهو في ذلك تابع لابن عباس. كما كانت له عناية بالمذاهب النحوية البصرية والكوفية، يورد الرأي ويوجهه.

ويورد بعض الأحكام الفقهية في تفسيره مختاراً لأحد الآراء، مؤيداً اختياره بالأدلة العلمية القيمة... ^(٥).

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١١/١٥٦.

(٢) هذا على اعتبار فقد تفسير «يحيى بن سلام» الذي أشرت إليه آنفاً، أما وقد ذكر الإمام الفاضل بن عاشور أن نسخة من الكتاب موجودة في تونس فإن تفسير الطبري لا يعد ذا أولية زمنية.

(٣) التفسير والمفسرون ١/٢٠٥.

(٤) راجع: تفسير الطبري.

(٥) راجع: التفسير والمفسرون ١/٢٠٢ - ٢١٨.

رحم الله الطبري وجزاه عن القرآن وتفسيره خير الجزاء..

ثانياً: الإتجاه اللغوي:

وقد بدا هذا الإتجاه واضحاً في أواخر القرن الثاني الهجري وأوائل القرن الثالث، إذ نشأ علم النحو، ونضجت علوم اللغة على أيدي الرواد أمثال أبي عمرو بن العلاء، ويونس بن حبيب، والخليل بن أحمد الفراهيدي وغيرهم.

وكان الغرض الأسمى من تأصيل هذه العلوم وتقعيدها خدمة القرآن الكريم، صيانة له من اللحن، ولا سيما بعد اتصال العرب بالعجم.

وقد أثرت هذه الدراسات في تفسير القرآن تأثيراً كبيراً، إذ اشتغل اللغويون أنفسهم بالقرآن ولغته، وكان من أشهر هؤلاء العلماء «أبو عبيدة معمر بن المثنى» المتوفى سنة ٢٠٨ هـ أو ٢١٥ هـ، وقد ألف كتابه «مجاز القرآن» سنة ١٨٨ هـ^(١) ويعد هذا الكتاب أقدم مؤلف في معاني القرآن وصل إلينا.

وأبو عبيدة موسوعة علمية له مؤلفات في مجالات شتى، وقد «أوتي لساناً صارماً جلب على نفسه عداوات كثيرة، ثم تنفس به العمر قرابة قرن كامل زامل فيه أعلاماً كباراً، وجادل خصوصاً كثاراً، وشهد تلاميذه ومن في طبقتهم يجادلون عنه، ويجادلون فيه، فقرب وباعد، وواصل وقاطع، ولكن مخالفه كانوا من الكثرة بحيث أرهقوه وضايقوه، حتى جاءه الأجل فلم ينهض لتشيع جنازته أحد، وعلل ذلك بما ترك من حزازات أدبية»^(٢).

ويحكي أبو عبيدة سبب تأليفه كتاب «مجاز القرآن» فيقول:

«أرسل إليّ الفضل بن الربيع إلى البصرة في الخروج إليه سنة ثمان وثمانين ومائة، فقدمت إلى بغداد واستأذنت عليه فأذن لي، فدخلت عليه وهو في مجلس له طويل عريض فيه بساط واحد قد ملأه، وفي صدره فرش عالية لا يرتقى إليها إلا على كرسي، وهو جالس عليها فسلمت عليه بالوزارة فرد وضحك إليّ واستدناني حتى جلست إليه على فرشة ثم سألني والطفني وباسطني، وقال: أنشدني فأنشدته فطرب وضحك وزاد نشاطه، ثم دخل رجل في زي الكتاب له هيئة فأجلسه إلى جانبي وقال له: أتعرف هذا؟ قال لا. قال هذا أبو عبيدة علامة أهل البصرة. أقدمناه لنستفيد من علمه، قدعنا له الرجل وقطره لفعله هذا، وقال لي: إني كنت إليك مشتاقاً، وقد سألت عن مسألة أفتأذن لي أن أعرفك إياها؟.

فقلت: هات، قال: قال الله عز وجل: «طلعها كأنه رؤوس الشياطين» وإنما يقع الوعد والإيعاد بما عرف مثله وهذا لم يعرف. فقلت: إنما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرئ القيس:

ايقتلني والمشرقي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول قط، ولكنه لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به، فاستحسن الفضل ذلك واستحسن السائل، وعزمت من ذلك اليوم أن أضع كتاباً في القرآن في مثل هذا وأشباهه وما يحتاج إليه من علمه فلما رجعت إلى البصرة عملت كتابي الذي سميت المجاز، وسألت عن الرجل السائل فقيل لي: هو من كتاب الوزير وجلسائه وهو إبراهيم بن إسماعيل الكاتب»^(٣).

(١) معجم الأدباء ١٥٨/١٩.

(٢) خطوات التفسير البياني د. رجب البيومي ص ٣٧، ٣٨، وراجع: معجم الأدباء ١٦٠/١٩. (٣) معجم الأدباء ١٥٨/١٩.

وبعض العلماء ينكر هذه القصة لأن أبا عبيدة لم يشر إليها في مقدمة كتابه . . . (١)
ومن الذين كتبوا عن اتجاهات التفسير من يسلك أبا عبيدة - من خلال كتابه هذا - في سلك الاتجاه البياني في
التفسير، وأكثرهم يعده رائداً في الاتجاه اللغوي .

على أن أبا عبيدة لم «يعن بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة، وإنما عني بمجاز الآية ما يعبر به عن الآية» (٢).
فقد يستعمل أبو عبيدة لفظ المجاز قاصداً به معنى اللفظ. فمثلاً في قوله تعالى «رب أوزعني أن أشكر
نعمتك» يقول: مجازة: «شددي إليك، ومنه قولهم: وزعني الحلم عن السفاه أي منعني، ومنه الوزعة الذين
يدفعون الخصوم والناس عن القضاة والأمراء» ثم يستشهد بالبيت:

على حين عاتبت المشيب على الصبا فقلت ألما تصح والشيب وازع (٣)

وأما أبو زكريا الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ فكان يستعين بتفسيرات السلف مضيفاً له ما أدى إليه اجتهاده
اللغوي، وكذا الزجاج المتوفى سنة ٣١١ هـ (٤).

لقد استلهم الفراء الحس اللغوي محكماً ذوقه وعقله، كما راعى السباق العام في الآية ولذا نجده يفضل
قراءة تحقق التجانس بين الكلمات المتجاورات على غيرها (٥).

ثالثاً: الاتجاه البياني (٦).

وبذور هذا الاتجاه نجدها في تفسير ابن عباس الموثوث في ثنايا التفسير الأثري ومن أمثلة ذلك ما رواه ابن
جرير في تفسير قوله تعالى: ﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ
وَلَهُ ذَرِيَةٌ ضَعْفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾. أن عمر رضي الله
عنه سأل الناس عن هذه الآية فما وجد أحداً يشفيه حتى قال ابن عباس وهو خلفه يا أمير المؤمنين: إني أجد في
نفسي منها شيئاً فتلفت إليه فقال تحول ها هنا لم تحقر نفسك؟ قال:

هذا مثل ضربه الله عز وجل فقال: أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَن يَعْمَلَ عَمْرَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْخَيْرِ وَأَهْلِ السَّعَادَةِ حَتَّى إِذَا كَانَ
أُحْجُجٌ مَا يَكُونُ إِلَى أَن يَخْتَمَهُ بِخَيْرٍ حِينَ فَنِيَ عَمْرُهُ وَاقْتَرَبَ أَجَلُهُ خَتَمَ ذَلِكَ بِعَمَلٍ مِّنْ عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَأَفْسَدَهُ كُلَّهُ
فَحَرَقَهُ أُحْجُجٌ مَا كَانَ إِلَيْهِ (٧).

«وهو من باب الاستعارة التمثيلية، وقد ألمع إليه ابن عباس بقوله المقارب هذا مثل ضربه الله عز وجل . . .
الخ، وهل قال البلاغيون فيما بعد غير ذلك!» (٨).

(١) راجع خطوات التفسير البياني ص ٤٤، ٤٥ وقد ذكر الدكتور رجب اليومي أسباباً أخرى ومبررات لرفض هذه القصة.

(٢) فتاوى ابن تيمية كتاب الإيمان ص ٨٨.

(٣) مجاز القرآن ٩٢/٢، ٩٣.

(٤) راجع البغوي الفراء ص ٢٣٨.

(٥) راجع البغوي الفراء ص ٢٣٩، ٢٤٠ (بتصرف وإيجاز).

(٦) بعض المؤلفين في تاريخ التفسير يضعون اتجاهاً ثالثاً بدلاً من هذا الاتجاه يطلقون عليه «الاتجاه النقدي»، وبعضهم يسلك هذا

الاتجاه ضمن الاتجاه الأثري. انظر: التفسير ورجاله: ابن عاشور ص ٢٦.

(٧) تفسير ابن جرير ٤٧/٣.

(٨) راجع: خطوات التفسير البياني ص ٢١ وفيه شواهد أخرى.

ونهج تلاميذ ابن عباس نهجه وكان أكثرهم نتاجاً في هذا الاتجاه «مجاهد»^(١) وأما تأصيل هذا الاتجاه فقد كان على يد «أبي عبيدة» صاحب «مجاز القرآن»، ويعد صاحب الخطوة الأولى في هذا الاتجاه.

«وفضل هذا الكتاب في الدراسات البلاغية أنه حين تعرض للنصوص القرآنية أشار إلى ما تدل عليه من حقيقة أو مثل أو تشبيه أو كناية وما يتضمن من ذكر أو حذف أو تقديم أو تأخير، فوضع بذلك اللبنة الأولى في صرح الدراسات البلاغية للقرآن... وإذا كان عبد القاهر أظهر من نادى من البلغاء بأن يوضع الكلام الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وهو ما سمي بقضية النظم، فإن بذور قضيته هذه كانت تكمن في مجاز «أبي عبيدة» حيث رأى في زمنه السابق ما رآه صاحب الدلائل في زمنه اللاحق، فكان بذلك الرائد الأول لعلم المعاني عند من يلتصقون الجذور الضاربة في الأعماق»^(٢).

وقد رتب «أبو عبيدة» كتابه وفق ترتيب السور القرآنية في المصحف ومن هنا صار من اليسير أن يرجع الدارس إلى ما ذكر أبو عبيدة في توجيه الآيات الكريمة من مثل قوله تعالى «نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم»^(٣) حيث قال: إنها كناية وتشبيه^(٤).

ومن مثل قوله تعالى: «أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم»^(٥) حيث أتبع الآية بتحليل بياني وعدها من مجاز التمثيل حين قال:

«ومجاز الآية مجاز التمثيل لأن ما بنوه على التقوى أثبت أساساً من البناء الذي بنوه على الكفر والنفاق فهو على شفا جُرفٍ وهو ما يجرف من الأودية فلا يثبت البناء عليه»^(٦).

تلك هي الخطوة الأولى خطاها أبو عبيدة في التفسير البياني للقرآن الكريم وإن وجهت إليه كثير من النقود والمطاعن من علماء كبار أمثال الفراء والأصمعي والطبري^(٧)...

ثم قلت هذه الخطوة خطوات الجاحظ وابن قتيبة وغيرهما...

هذا هو التفسير قبل أبي الليث السمرقندي صاحب كتاب «بحر العلوم» فماذا عن السمرقندي وكتابه؟

الإجابة في الفصل التالي إن شاء الله.

(١) راجع الأمثلة التي ذكرها الدكتور رجب البيومي في خطوات التفسير البياني ص ٣٤ وما بعدها.

(٢) خطوات التفسير البياني ص ٤٦، ٤٧.

(٣) الآية ٢٢٣ من سورة البقرة.

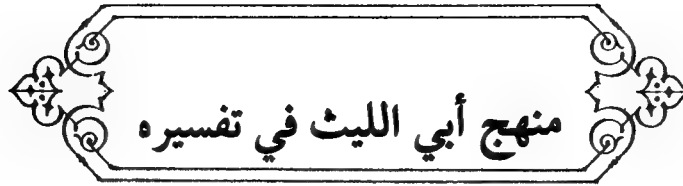
(٤) راجع: مجاز القرآن ١/٧٣.

(٥) الآية ١٠٩ من سورة التوبة.

(٦) مجاز القرآن ١/٢٦٩، وانظر: خطوات التفسير البياني ص ٥١، ٥٢.

(٧) راجع: خطوات التفسير البياني ص ٥٨ وما بعدها.

المبحث الثالث



جمع أبو الليث في تفسيره بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي، فجاء كتابه «بحر العلوم» مزيجاً من النوعين.

وقد عد بعض الباحثين^(١) تفسير أبي الليث هذا من التفسير الأثري معتمدين على فهم خاطيء لقول أورده في مقدمة تفسيره.

وذلك أن أبا الليث قدم لتفسيره بمقدمة جعل عنوانها «باب الحث على طلب التفسير» وقال فيها^(٢):

[... ولا يجوز لأحد أن يفسر القرآن من ذات نفسه برأيه...].

فهم «آدم ميتز» من ذلك أن السمرقندي يمنع كل تفسير بالرأي^(٣). ولعل مما أكد هذا الفهم عنده أن أبا الليث ساق عدة آثار تحظر التفسير بالرأي.

* فقد روى قول أبي بكر الصديق - حين سئل عن قول الله تعالى ﴿وفاكهة وأبا﴾ قال - أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لم أعلم.

* وكذلك روى أن رجلاً قال لأبي: هذا الذي تفسر برأيك، فبكى أبي وقال: إني إذا لجريء، لقد حملت التفسير عن بضعة عشر رجلاً من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم -.

لكن ذلك لا يعني «ميتز» - من الخطأ من الفهم، أو القول على أبي الليث.

فنص أبي الليث - كاملاً - يناقض ما ذهب إليه «آدم ميتز» إذ يقول: «... ولا يجوز لأحد أن يفسر القرآن من ذات نفسه برأيه ما لم يتعلم ويعرف وجوه اللغة وأحوال التنزيل...».

إذاً هو يضع الشروط التي ينبغي توافرها فيمن يقدم على هذا العمل، فإذا ما افتقدت هذه الشروط أو الأدوات فينبغي الابتعاد وإيثار السلامة... وهذا ما يفهم من الأثر الذي ساقه عن أبي بكر - رضي الله عنه -.

فالحظر إنما هو مقصور على من لم يمتلك أدوات التفسير لأنه - حينئذٍ - سيقول دونما أساس من لغة، وفقه، وأسباب نزول - إلخ.

ويكون تفسيره حينئذ تابعاً لهواه...

(١) انظر: تاريخ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١/٣٦٤.

(٢) راجع: مقدمة تفسير بحر العلوم.

(٣) تاريخ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١/٣٦٤.

التفسير واجب عند أبي الليث

بل إن أبا الليث يعد تفسير القرآن الكريم من قبيل الواجب على من تملك أدواته، وقد استدلل لذلك بما ساقه بسنده عن ابن مسعود قال: «من أراد العلم فليثر القرآن» وفي رواية: «فليثور القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين».

ويورد آثاراً أخرى عن الصحابة في ذلك، ثم يعقب عليها قائلاً: «... ولأن الله تعالى أنزل القرآن هدى للناس، وجعله حجة على جميع الخلق بقوله تعالى ﴿وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ..﴾^(١) فلما كان القرآن حجة على العرب والعجم، ثم لا يكون حجة عليهم إلا بعد ما يُعلم تفسيره فدل ذلك على أن طلب تفسيره وتأويله واجب».

وفي «بستان العارفين» تفصيل لذلك إذ يقول: «لأن القرآن حجة على الخلق، فلو لم يجز التفسير لا يكون حجة بالغة، فإذا كان كذلك جاز لمن عرف لغات العرب وعرف شأن النزول أن يفسره. وأما من كان من المتكلفين ولم يعرف وجوه اللغة، فلا يجوز له أن يفسره إلا بمقدار ما سمع فيكون ذلك على وجه الحكاية، لا على سبيل التفسير فلا بأس به، ولو أنه تعلم تفسيره وأراد أن يستخرج من الآية حكماً أو استدلالاً بشيء من الأحكام فلا بأس به، ولو أنه قال: المراد من الآية كذا وكذا من غير أن يسمع فيه شيئاً فلا يحل له هذا، وهذا الذي نهى عنه، ولو أنه سمع شيئاً من بعض الأئمة فلا بأس بأن يحكي عنه»^(٢).

ثم لماذا نستدل بالنصوص ونترك تفسير أبي الليث وهو نفسه فيه تفسير برأي مؤلفه؟؟ أليس في ذلك ما يقطع كل سبيل أمام هؤلاء الذين يكذبون على الرجل!!

التفسير بالمأثور عند أبي الليث

قلنا - فيما مضى - إن التفسير بالمأثور: أي بالمنقول، سواء أكان متواتراً أم غير متواتر.

وعلى ذلك يشمل:

١ - تفسير القرآن بالقرآن.

٣ - تفسير الصحابة للقرآن.

٢ - تفسير الرسول للقرآن.

٤ - تفسير التابعين للقرآن.

١ - تفسير القرآن بالقرآن:

يقول السيوطي^(٣): «قال العلماء: من أراد تفسير الكتاب العزيز طلبه أولاً من القرآن، فما أجمل منه في مكان فسر في موضع آخر، وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر».

وقد سار أبو الليث وفق هذا المنهج، فكان يبحث في القرآن عن تفصيل المجمع، وتوضيح المبهم، وتقييد المطلق... إلخ.

فمثلاً: يقول عند تفسير قوله تعالى ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات..﴾^(٤). وهي

(٣) الإنقان ٢/ ١٧٥.

(١) سورة الأنعام: الآية ١٩.

(٤) سورة النساء: الآية ٥٧.

(٢) بستان العارفين ٤٧.

البساتين التي تجري من تحتها الأنهار، وهي أربعة: نهر من ماء غير آسن، ونهر من لبن لم يتغير طعمه، ونهر من خمر، ونهر من عسل مصفى . . وهو بذلك قد لجأ إلى القرآن الكريم من قوله سبحانه: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى . .﴾^(١). وفي تفسيره كثير من ذلك.

٢ - تفسير الرسول - صلى الله عليه وسلم - للقرآن:

وهو المصدر الثاني لتفسير القرآن الكريم، وذلك: «أن أحسن طريق التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فقد فصل في موضع آخر. . . فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقرآن، وموضحة له»^(٢).

قال سبحانه: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾^(٣).

وعن المقدم بن معديكرب: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: ألا إنني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان متكئ على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي، ولا كل ذي ناب من السباع، ولا لقطة معاهد، إلا أن يستغني عنها صاحبها، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقرؤه، فإن لم يقرؤه فعليه أن يعقبهم بمثل قراه»^(٤).

وقد التزم «أبو الليث» هذا المنهج القويم، فإذا لم يجد بغيته في القرآن لجأ إلى السنة يبحث فيها عن طلبته. وقد أورد «أبو الليث» كثيراً من أحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - يبين بها معنى لفظ، أو يفسر بها حكماً من الأحكام القرآنية، أو يبين ما أشكل من القرآن. فالسنة زاخرة بالكثير من ذلك.

ففي قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم . . . الآية﴾^(٥) ساق أبو الليث ما روي عن الصديق أبي بكر أنه سئل عن هذه الآية فقال: «إذا رأيتم شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليكم بخير أنفسكم».

وروي عمرو بن جابر اللخمي عن أبي أمية قال: سألت ثعلبة الخشني عن هذه الآية فقال: لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: يا ثعلبة، ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت دنيا مؤثرة، وشحاً مطاعاً، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليكم بنفوسكم، فإن من بعدكم أيام الصبر، والتمسك يومئذ بمثل الذي أنتم عليه له كأجر خمسين عاملاً، فقالوا: يا رسول الله، كأجر خمسين عاملاً منهم؟ قال: بل كأجر خمسين عاملاً منكم»^(٦).

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ قال أبو الليث: ﴿غير المغضوب عليهم﴾ غير طريق اليهود . . ﴿ولا الضالين﴾ قال: يعني ولا النصارى لم تحفظ قلوبهم. قال: وقد أجمع المفسرون أن ﴿غير المغضوب عليهم﴾ أراد به اليهود ﴿ولا الضالين﴾ ثم يقول:

(١) سورة محمد - ﷺ - : الآية ١٥ .

(٢) رواه أبو داود في السنن .

(٣) سورة المائدة : الآية ١٠٥ .

(٤) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١٧٥/٢ .

(٥) راجع : تفسير سورة المائدة - الآية المذكورة - في تفسير بحر العلوم .

(٦) سورة النحل : الآية ٤٤ .

فإن قيل: أليس النصارى من المغضوب عليهم، واليهود أيضاً من الضالين؟ فكيف صرف المغضوب عليهم إلى اليهود، وصرف الضالين إلى النصارى؟

قيل له: إنما عرف ذلك بالخبر، واستدللاً بالآية، فأما الخبر: فما روي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن رجلاً سألَهُ وهو بوادي القرى من المغضوب عليهم؟ قال: اليهود. قال: ومن الضالين؟ فقال: النصارى^(١).

وفي قوله تعالى: ﴿قل الله يفتيكُم في الكلالة...﴾^(٢) يقول: وروي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه سئل عن الكلالة فقال: ألم تر إلى الآية التي أنزلت في سورة النساء ﴿قل الله يفتيكُم في الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد...﴾ يعني تفسير الكلالة^(٣).

وبذلك أفاد أبو الليث من السنة النبوية في تفسير القرآن الكريم إفادة عظيمة.

٣ - تفسير الصحابة للقرآن:

وهو المصدر الثالث من مصادر التفسير، وذلك «أننا إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى الناس بذلك، لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح، ولا سيما علماءهم وكبرائهم، كالأئمة الأربعة، والخلفاء الراشدين، والأئمة المهتدين المهيدين، وعبد الله بن مسعود - رضي الله عنهم -»^(٤).

وقد نقل «أبو الليث» في تفسيره كثيراً من أقوال الصحابة، وممن نقل عنهم: - علي بن أبي طالب، وعمر بن الخطاب، وأبي بن كعب، وعبد الله بن عباس، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن مسعود وغيرهم.

ويعد «عبد الله بن عباس» صاحب النصيب الأكبر والحظ الأوفر فيمن نقل عنهم أبو الليث.

وقد روي عنه من عدة طرق: -

* طريق عكرمة عن ابن عباس.. أو سعيد بن جبير عن ابن عباس. وقد أثنى علماء الجرح والتعديل على هذه الطريق، وأخرج منها ابن جرير وابن أبي حاتم كثيراً، وأخرج الطبراني منها في معجمه الكبير^(٥).

* طريق الضحاك عن ابن عباس... وهي غير مرضية، لأنها منقطعة، فالضحاك لم يلق ابن عباس^(٦).

* طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس... وهي أوهى الطرق، فالكلبي متهم بالوضع^(٧)..

(١) راجع: تفسير سورة الفاتحة من تفسير بحر العلوم.

(٢) الآية الأخيرة من سورة النساء:

(٣) راجع تفسير سورة النساء من تفسير بحر العلوم.

(٤) ابن كثير في مقدمة تفسيره / الجزء الأول.

(٥) راجع: الإتيقان ١٨٨/٢، التفسير والمفسرون ٧٩/١.

(٦) المصدران السابقان.

(٧) الدر المنثور ٤٢٣/٦، الإتيقان ١٨٩/٢، فتح الباري ٣٥٤/٨، التفسير والمفسرون ٨١/١.

وأحياناً يذكر «أبو الليث» الرواية عن ابن عباس مجردة من السند فيقول: «وروي عن ابن عباس» أو «قال ابن عباس...»^(١).

ابن مسعود

ويأتي «ابن مسعود» في المرتبة الثانية - بعد ابن عباس - فيمن نقل عنهم أبو الليث. وطرق روايته عنه متعددة، منها:

* طريق مجاهد، وهي طريق صحيحة، اعتمد عليها البخاري في صحيحه.

* وأحياناً يذكر الرواية عن ابن مسعود مجردة عن السند فيقول: «وروي عن ابن مسعود...».

وقد قصد أبو الليث إلى ترك السند قصداً، وكان يهدف من وراء ذلك التخفيف على الناس، حتى لا ينشغلوا بالسند عن التفسير نفسه^(٢).

٤ - تفسير التابعين للقرآن:

وهؤلاء التابعون تلاميذ كبار الصحابة، وتخرجوا من مدارسهم - كما ذكرنا من قبل - ...

وكان أبو الليث إذا لم يجد تفسيراً للصحابة رجع إلى أقوال التابعين، فنقل عنهم، ومن هؤلاء التابعين: -

الحسن، وسعيد بن جبير، وعطاء، وعكرمة، وهب بن منبه، والسدي، ومقاتل، والكلبي، إلا أنه أكثر من الرواية عن مجاهد..

الإسرائيليات في تفسير أبي الليث

تمهيد: -

تنبه العلماء إلى ظاهرة: غلبة الضعف على الرواية بالمأثور.. ولم يكن أبو الليث بدعا من المفسرين، وإنما جاءت الإسرائيليات - في تفسير بحر العلوم - كثيرة.. فمن أين جاء بهذه الإسرائيليات؟..

وقبل أن نجيب على هذا التساؤل نسوق تمهيداً موجزاً في هذه القضية فنقول:

نشأ الوضع في التفسير مع نشأته في الحديث.. وكان مبدأ ظهور الوضع في سنة إحدى وأربعين من الهجرة، حين اختلف المسلمون سياسياً، وتفرقوا شيعاً وأحزاباً.. ووجد من أهل البدع والأهواء من روجوا لبدعهم، وتعصبوا لأهوائهم، ودخل في الإسلام من تبطن الكفر والتحف الإسلام بقصد الكيد له، وتضليل أهله، فوضعوا ما وضعوا من روايات باطلة، ليصلوا بها إلى أغراضهم الخبيثة..

وكان أهل الكتاب مصدراً من مصادر التفسير عند الصحابة، فكان الصحابي إذا مر على قصة من قصص القرآن يجد من نفسه ميلاً إلى أن يسأل عن بعض ما طواه القرآن منها ولم يتعرض له، فلا يجد من يجيبه على سؤاله سوى هؤلاء النفر الذين دخلوا في الإسلام..

لكن الصحابة لم يسألوا أهل الكتاب عن كل شيء، ولم يقبلوا منهم كل شيء، فلم يسألوهم عن شيء مما يتعلق بالعقيدة أو الأحكام، إلا إذا كان على جهة الاستشهاد والتقوية لما جاء به القرآن..

(٢) راجع كلامه في ذلك في / بستان العارفين ٣.

(١) راجع: بحر العلوم - تفسير الفاتحة - مثلاً.

ولم يسألوهم عن الأشياء التي يشبه أن يكون السؤال عنها نوعاً من اللهو والعبث كالسؤال عن لون كلب أهل الكهف وما شابه ذلك . . «وكانت الصحابة يعدون ذلك قبيحاً من قبيل تضييع الأوقات» .

وكان الصحابة لا يصدقون اليهود فيما خالف الشريعة أو تنافى مع العقيدة^(١) .

أقسام الإسرائيليات :

وقد قسم العلماء الأخبار التي جاءت عن طريق أهل الكتاب إلى ثلاثة أقسام^(٢) : -

القسم الأول : ما علمنا صحته مما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة . . وهذا القسم صحيح ، وفيما عندنا غنية عنه ، ولكن يجوز ذكره وروايته للاستشهاد به ، وإقامة الحجة عليهم من كتبهم ، وذلك مثل : تعيين اسم صاحب موسى - عليه السلام - وأنه الخضر ، فقد ورد في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري^(٣) . .

القسم الثاني : ما علمنا كذبه مما يناقض شرعنا ، أو لا يتفق مع العقل ، وذلك مثل ما ذكره في قصص الأنبياء مما يطعن في عصمتهم ، ومثل ما ذكر في توراتهم أن الذبيح هو إسحاق وليس إسماعيل . وهذا القسم لا يصح قبوله ولا روايته .

القسم الثالث : ما هو مسكوت عنه ، لا هو من قبيل الأول ، ولا هو من قبيل الثاني . . وهذا القسم نتوقف فيه ، فلا نؤمن به ولا نكذبه لاحتمال أن يكون حقاً فنكذبه ، أو باطلاً فنصدقه . .

وذلك لقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم»^(٤) .

أبو الليث والإسرائيليات :

وهذه الأقسام الثلاثة دخلت التفسير الأثري بعامة ، ولم يكن أبو الليث نسيج وحده في ذلك ، فساق في تفسيره من هذه الأقسام .

ولو أنه بعدما ساق هذه الإسرائيليات عقب عليها لما كان عليه ضير ، إلا أنه أوردتها دونما تعقيب .

* فهو ينقل عن ابن عباس حكاية عن أهل الكتاب - ومثال ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى ﴿فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه﴾ . . . فذكر ما موجهه : أن إبليس حسد آدم على ما فيه من نعمة ، فاحتال لإخراجه منها ، حتى دخل في صورة الحية ، ثم أتى باب الجنة ونادى آدم وحواء ﴿ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين﴾ يعني هذه شجرة الخلد ، فأكلا منها . .

ويقال : إن حواء قالت لآدم تعال حتى نأكل من هذه الشجرة ، وظلت به حتى أكل بعد أن سبقته بالأكل^(٥) .

* وأحياناً يقول : قال بعضهم ، ويذكر الرواية الإسرائيلية في ذلك - وخطورة هذا تكون بالغة إذا ما كانت من القسم الثاني ، ففيه طعن في عصمة الأنبياء - وفي «بحر العلوم» طائفة من هذا القسم^(٦) . .

(٤) راجع : صحيح البخاري - كتاب التفسير / سورة البقرة .

(٥) راجع تفسير أبي الليث / سورة البقرة ، وسورة الأعراف .

(٦) راجع مثلاً تفسير سورة البقرة : الآية

﴿واتبعوا ما تتلو الشياطين﴾ .

(١) راجع : التفسير والمفسرون للذهبي ١/١٦٩ وما بعدها .

(٢) السابق ، والإسرائيليات والموضوعات لأبي شعبة

ص ١٥٠ وما بعدها .

(٣) فتح الباري ٨/٢٩٧ .

* ومن مصادر الإسرائيليات في تفسير أبي الليث - إضافة إلى ما سبق - قراءته التوراة، وقد صرح بذلك في التفسير في عدة مواضع .

يقول في قوله تعالى ﴿وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكْتُ﴾ أي حاضت، يقال: ضحكت الأرناب إذا حاضت، وغيره من المفسرين يجعله الضحك بعينه، وكذلك هو في التوراة، قرأت فيها: أنها حين بشرت بالغلام ضحكت في نفسها وقالت: من بعد أن بليت أعود شابة!!

* ومن مصادرها أيضاً: سماعه أهل التوراة، ويصرح بذلك أيضاً حين يسوق هذه العبارة «سمعت أهل التوراة يقولون...» .

* ثم روايته عن المتهمين بالوضع والضعف كعكرمة، والضحاك، ومقاتل، وهب بن منبه وغيرهم... . وكان شأن أبي الليث في ذلك شأن سائر المفسرين، غير أن هذا لا يعفيهم من المسؤولية عن ذلك، وكان ينبغي عليهم - وأبو الليث أحدهم - أن يدققوا ويمحصوا... .

وقد شاء الله عز وجل أن يدرك المسلمون أخيراً هذا الخطر، فتداعى علماؤهم إلى تجريد كتب التفسير من هذه الإسرائيليات، وتطهيرها من كل دخيل^(١).

المنهج اللغوي في تفسير أبي الليث

تتضح أهمية اللغة ومكانتها في تفسير القرآن الكريم في نظر أبي الليث من قوله: «ولا يجوز لأحد أن يفسر القرآن برأيه ما لم يتعلم ويعرف وجوه اللغة وأحوال التنزيل...» .

إنها أداة أصيلة وركن ركين ينبغي توافره فيمن يتصدى للتفسير. وبالتأمل في تفسير أبي الليث يلاحظ ما يلي: -

أولاً: يبحث أبو الليث عن معنى اللفظ في القرآن الكريم من خلال نظائره وسياقاته المختلفة.

ففي تفسيره لقوله سبحانه ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يقول: قال ابن عباس: سيد العالمين... . والرب في اللغة: هو السيد، قال الله تعالى: ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ...﴾ يعني سيدك.... .

ثانياً: إذا لم يجد في القرآن معنى للفظ يرجع إلى استعمال العرب القدماء ويستشهد بالشعر على المعنى الذي يورده

ففي تفسير اسم الجلالة «الله» في البسملة يقول:

وقيل: إنما سمي «الله» لأنه لا تدركه الأبصار، ولاه: معناه: احتجب كما قال القائل:

لَا إِلَهَ إِلَّا رَبِّي عَنِ الْخَلَائِقِ طُرّاً خَالِقُ الْخَلْقِ لَا يُرَىٰ وَيَرَانَا

ثالثاً: أفاد أبو الليث كثيراً من علماء اللغة كابن قتيبة، والأصمعي، وقطرب، والزجاج، والفراء، والخليل بن

أحمد وغيرهم فكان يذكر القول منسوباً إلى واحد منهم أو أكثر... .

(١) التفسير والمفسرون ١/ ١٩٩ (بتصرف وإيجاز).

رابعاً: قد يذكر القول دون ذكر قائله هكذا: «قال أهل اللغة...»، أو «قال بعض اللغويين...»، ولم يكتف «أبو الليث» بالنقل، وإنما كان - في بعض الأحيان - يرجح رأياً على رأي.

خامساً: أفاد أبو الليث من علم الأبنية المسمى بعلم «الصرف» فكان يذكر - وقت الحاجة - وزن الكلمة، أو اشتقاقها... إلخ.

سادساً: أدرك أبو الليث ما للنحو من أهمية في فهم معاني القرآن إذ «أن الإعراب يُبَيِّنُ المعاني»... فكان يورد بعض المسائل النحوية الخفيفة، ولا يتعمق فيها، ولا يورد اختلافات النحاة حتى لا يشغل القارئ في خضم النحو ويخرجه من حيز التفسير. مثال ذلك:

ما جاء في تفسيره قول الحق سبحانه: ﴿حذر الموت﴾. إذ قال: يعني لحذر الموت، والكلام ينصب لنزع الخافض مثل قوله: ﴿واختار موسى قومه...﴾ أي من قومه فذلك ها هنا.

المنهج البياني في تفسير أبي الليث

ذكرنا فيما مضى أن المنهج البياني هو أحد المناهج الثلاثة في تفسير القرآن الكريم. وأن جذور هذا المنهج قد وجدت منذ زمن الرسول - صلى الله عليه وسلم - ثم تأصل عند ابن عباس وتلاميذه إلى أن جاء علماء كبار فقعدوا هذا المنهج:

وقد أفاد أبو الليث في تفسيره من العلماء الأفاضل الذين أسهموا وافر في هذا المنهج، ويأتي على رأس هؤلاء «أبو عبيدة» صاحب «مجاز القرآن» فقد نقل أبو الليث كثيراً من أقواله^(١)، وتأثر بمنهجه أيضاً.

ففي تفسير قوله تعالى ﴿ولا تنكحوا ما نكح آبؤكم من النساء...﴾^(٢) وقف أبو الليث عند الآية وحللها تحليلاً بيانياً يدل على ذوقه وحسه المتميز.

كما نقل عن الزجاج صاحب «معاني القرآن» كثيراً، وأفاد من ابن قتيبة إفادة عظيمة من خلال كتابه «تأويل مشكل القرآن» فيقول: قال القتيبي^(٣)...

وأحياناً يذكر الوجه البلاغي ولا ينسبه إلى قائله، وإنما يقول: «قال بعضهم» أو يذكر الوجه البياني الذي يراه هو بداية دون الرجوع إلى السابقين:

ففي قوله تعالى: ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض...﴾^(٤) يقول^(٥): قال بعضهم: هذا على سبيل المثل. ثم يعقب بما يدل على ذوقه الخاص قائلاً: والعرب إذا أرادت تعظيم ملك عظيم العظمة تقول: كسف القمر لفقده، وبكت الريح والسماء والأرض، وقد ذكروا ذلك في أشعارهم، فأخبر تعالى أن فرعون لم يكن ممن يجزع له جازع، ولم يوجد له فقد.

ويقول في تفسير قوله تعالى: ﴿أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق...﴾^(٦). والمطر: هو القرآن،

(١) راجع: بحر العلوم - مواضع كثيرة.

(٢) سورة النساء: الآية ٢٢.

(٣) راجع: بحر العلوم - مواضع كثيرة.

(٤) سورة الدخان: الآية ٢٩.

(٥) راجع: تفسير بحر العلوم، سورة الدخان.

(٦) سورة البقرة: الآية ١٩.

لأن المطر حياة الخلق وإصلاح الأرض،^(١) وكذلك القرآن فيه هدى للناس، وبيان من الضلالة وإصلاح للأرض، فهذا المعنى شبه القرآن بالمطر. والظلمات: هي المكائد والمحن التي تصيب المسلمين، والشبهات التي في القرآن. والرعد هو الوعيد الذي ذكر للكفار والمنافقين في القرآن. والبرق: ما ظهر من علامات نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - ودلائله.

علوم القرآن في تفسير أبي الليث

أولاً: القراءات القرآنية:

العلاقة بين القراءات القرآنية والتفسير قوية واضحة، «ورجحان قراءة من القراءتين يرجح أحد المعنيين المفروضين في تفسير الآية، ورجحان أحد المعنيين قد يرجح إحدى القراءتين على الأخرى»^(٢). هذا على الرغم من التمايز الواضح بين علمي التفسير والقراءات، وذلك برجوع علم التفسير إلى الدراية، وعلم القراءات إلى الرواية، غير أنهما متصلان من وجه بما للرواية من أثر في تحقيق الدراية والعكس^(٣).

وقد اهتم أبو الليث بالقراءات القرآنية من تفسيره اهتماماً كبيراً، فهو يذكر القراءة أو القراءات، ويوجهها، ويذكر آراء العلماء فيها، ويرجح واحدة منها مورداً حجته الصرفية أو النحوية أو البلاغية. فمن ذلك في قوله تعالى ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾^(٤) يقول: قرأ حمزة (وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ) بنصب العين والذال وضم الباء، وكسر التاء من الطاغوت، يعني جماعة العبيد، أي جعلهم عبيد الشيطان. وقال أبو عبيدة: لم يصح في اللغة أن يقال لجماعة الأعبد، وإنما يقال: أعبد، ولا يقال: عبد.

وقرأ الباقون: (وعبد الطاغوت) يعني جعل منهم من عبد الطاغوت، ومعناه: خذلهم حتى عبدوا الشيطان. وروي عن ابن عباس أنه قرأ: (وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ) بضم العين ونصب الباء بالتشديد، يعني جماعة عابد، يقال: عابد وعبد، مثل: راعع وركع، وساجد وسجد، وقرأ ابن مسعود: (وعبدوا الطاغوت) يعني: يعبدون الطاغوت.

وقرأ بعضهم: (وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ) بضم العين والباء ونصب الذال، وهو جماعة العبيد، يقال عبيد وعبد، على ميزان رغيف ورغف وسرير وسرر^(٥).

فواضح في هذه التوجيهات استخدام علم الصرف ولا سيما الميزان الصرفي.

ويستخدم أبو الليث علم النحو من ترجيح قراءة على أخرى، مثال ذلك ما جاء في تفسير قوله عز شأنه ﴿... وَّقُولُوا حِطَّةٌ﴾^(٦). يقول: قرأ بعضهم بالرفع، وبعضهم بالنصب وهي قراءة شاذة، وإنما جعله نصباً لأنه مفعول، ومن قرأ بالرفع معناه: قولوا قولاً فيه حطة^(٧).

ومن ذلك: قوله في تفسير قول الحق سبحانه ﴿... أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾^(٨) قرأ حمزة «إِنْ تَضِلَّ - بكسر

(١) راجع: تفسير بحر العلوم، الآية المذكورة.

(٢) التفسير ورجاله: ابن عاشور ص ٢٥.

(٣) نفسه (بتصرف قليل).

(٤) سورة المائدة: الآية ٦٠.

(٥) راجع: بحر العلوم تفسير الآية المذكورة.

(٦) سورة البقرة: الآية ٥٩.

(٧) راجع: تفسير بحر العلوم: الآية المذكورة.

(٨) سورة البقرة: الآية ٢٨٢.

الألف ونصب التاء وجزم اللام، وإنما كسر الألف على معنى الابتداء والشرط، وجزم اللام على جواب الشرط «فتذكر» بضم الراء، وقرأ الباقر بن النصب، ومعناه: لأن تضل^(١).

وقد يرجع القراءات ويوجهها توجيهاً بلاغياً كما جاء في تفسير قوله سبحانه «مالك يوم الدين»^(٢) حيث قال:

قرأ نافع وابن كثير وحزمة وأبو عمرو بن العلاء وابن عامر: «مَلِك» بغير ألف.

وقرأ عاصم والكسائي بالألف (مالك).

فأما من قرأ: «مالك» قال: لأن المالك أبلغ في الوصف لأنه يقال: مالك الدار، ومالك الدابة، ولا يقال: ملك إلا لملك من الملوك، وأما الذي قرأ: «ملك» لأن الملك أبلغ في الوصف، لأنك إذا قلت: فلان ملك هذه البلدة يكون ذلك كناية عن الولاية دون الملك، وإذا قلت فلان مالك هذه البلدة كان ذلك عبارة عن ملك الحقيقة...

ومن خلال عرضه لهذه القراءات، وبيان وجه كل منها، وتدوقه لها يتضح أنه كان عالماً بالقراءات صحيحها وشاذها، وقد وظفها توظيفاً جيداً في خدمة التفسير.

ثانياً: المكي والمدني:

في بداية تفسير كل سورة يذكر أبو الليث عدد آياتها، ويذكر إن كانت السورة مكية أو مدنية.

وهذا أمر مهم ينبغي معرفته إذ يتوقف عليه بيان الناسخ والمنسوخ من الآيات...

فيقول - مثلاً - في بدء تفسيره سورة المائدة: «كلها مدنية وهي مائة وعشرون آية».

ثالثاً: الناسخ والمنسوخ:

وتلك قضية اختلف فيها العلماء اختلافاً كثيراً، وقد بين المهتمون بعلوم القرآن أهمية هذا العلم لمن يقدم على تفسير القرآن الكريم، ورووا في ذلك قول علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - لأحد القضاة: أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال: لا، قال: هلكت وأهلك^(٣). وقالوا:

«لا يجوز لأحد أن يفسر كتاب الله إلا بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ».

وأبو الليث كان ممتكاً لتلك الأداة، ويدهي أن نجد حديثاً له في ذلك إبان تفسيره لآية النسخ في سورة البقرة.

يقول أبو الليث:^(٤)

قال الزجاج: النسخ في اللغة: هو إبطال شيء وإقامة شيء آخر مقامه، والعرب تقول: نسخت الشمس الظل، إذا أزالته «أو ننسها» أي نتركها، بمعنى فأمركم بتركها... ثم يورد أقسام النسخ ناقلاً عن أبي عبيد

(١) راجع: تفسير بحر العلوم: الآية المذكورة.

(٣) انظر: البرهان ٢/ ٢٩، الإتيان ٢/ ٣٣.

(٤) المصدران السابقان.

(٢) فاتحة الكتاب.

القاسم بن سلام... ثم أجاز النسخ في الأمر والوعد والوعيد ولم يجوزه في القصص والأخبار لأنه لو جاز ذلك يكون كذباً والكذب في القرآن لا يجوز.

وقد رد أبو الليث على اليهود المنكرين للنسخ من الشرائع، وحجتهم في ذلك أنه حال البداء والندامة، ولا يجوز ذلك على الله تعالى^(١).

ويرد أبو الليث على المنكرين للنسخ في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنْ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾. قال:

قال كثير من المفسرين: إن هذه الآية منسوخة، وقال بعضهم: لا يجوز أن يقال منسوخة لأنه لا يجوز أن يأمرهم بشيء لا يطبقونه. فرد عليهم بأن هذا بيان لهم، أنهم يطبقونه، ولكن تلحقهم مشقة شديدة، ولأن ذلك مجهود الطاقة ولا يستطيعون الدوام عليه، والله تعالى لا يكلف عباده إلا دون ما يطبقون فخفف عنهم بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾^(٢).

هذا عن نسخ القرآن للقرآن، أما نسخ السنة للقرآن فيجيزه أبو الليث وقد جاء ذلك - مثلاً - في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نَسَائِكُمْ فَاستَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ... الآية﴾^(٣).

إذ ذكر أبو الليث أن هذا الحد قد نسخ وصار حد مثل تلك المرأة الرجم إذ قال - صلى الله عليه وسلم -: «خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر، جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم بالحجارة»^(٤).

رابعاً: أسباب النزول:

وهو من الأدوات المهمة للمفسر في «بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز، وهو أمر تحصيل للصحابة بقرائن تحتف بالقضايا»^(٥).

كما أن «معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب»^(٦) وكانت بعض آيات القرآن الكريم يشكل فهمها على المسلمين، ولم يعرفوا معناها حتى يعرفوا سبب نزولها.

من ذلك مثلاً: ما حكاه الزركشي من أن عثمان بن مظعون وعمرو بن معديكرب كانا يقولان: الخمر مباحة ويحتجان بقول الله تعالى ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا...﴾ وخفى عليهما سبب نزولها وهو ما قاله الحسن وغيره لما نزل تحريم الخمر قالوا: كيف ياخواننا الذين ماتوا وهي في بطونهم، وقد أخبر الله أنها رجس فأنزل الله تعالى هذه الآية^(٧).

وقد كان أبو الليث ملماً بهذا العلم إماماً واسعاً، فيذكر سبب نزول الآية، أو أسبابها إذا تعددت الأقوال فيها، ويبين ما إذا كان حكمها عاماً أم خاصاً.

(١) راجع: بحر العلوم، تفسير سورة البقرة أول الجزء الثاني.

(٢) سورة التغابن: الآية ١٦، وراجع تفسير سورة آل عمران: الآية ١٠٢.

(٥) البرهان ١/ ٢٢.

(٦) الإتيان ١/ ١٠٨.

(٧) للبرهان ١/ ٢٨.

(٣) سورة النساء: الآية ١٥.

(٤) راجع تفسير سورة النساء الآية المذكورة.

من ذلك ما ذكره في سبب نزول قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْجِبُكُ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾^(١) قال أبو الليث: يعني كلامه وحديثه، وهو أخنس بن شريق، كان حلو الكلام، حلو المنظر، فاجر السريرة.

وروى أسباط عن السدي قال:

أقبل أخنس بن شريق إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة، وقال: إنما جئت أريد الإسلام، وقال: الله يعلم إنني صادق، فأعجب النبي - صلى الله عليه وسلم - بقوله، ثم خرج من عنده، فمر بزرع للمسلمين فأحرقه، ومر بحمار للمسلمين فعقره فنزلت الآية^(٢).

ويذكر سبب نزول الآية ثم يعقب بقوله «ثم صارت هذه الآية عامة لجميع المسلمين».

خامساً: الأحكام الفقهية:

ذكرنا فيما مضى أن أشهر ألقاب أبي الليث «الفقيه» وذلك لأنه كان مبرزاً في هذا العلم، وكان حنفي المذهب.

وعلى الرغم من تخصصه فيه - إن صح التعبير - إلا أنه لم يغرق قارئ التفسير في الفقه ومذاهبه. وكان ذلك منهجاً واضحاً لأبي الليث في تفسيره، إذ كان يؤثر الإيجاز في النحو والبلاغة والفقه حتى لا يبعد بذهن القارئ عن مواصلة قراءة تفسير الآيات - ومن هنا كان يورد الأحكام الفقهية بقدر ما يحتاج التفسير. من ذلك - مثلاً - ما جاء في تفسيره لقول الحق سبحانه:

﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^(٣) يقول أبو الليث في تفسيرها والآية التي تليها:

﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ﴾ يعني الذين يحلفون أن لا يجامعوا نساءهم ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ يعني لهم أجل أربعة أشهر بعد اليمين ﴿فَإِنْ فَاءُوا﴾ يعني رجعوا عن اليمين، وجامعوا قبل أن تمضي أربعة أشهر بعد اليمين وكفروا عن أيمانهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ولا تبين المرأة عن الزوج.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ يعني: أوجبوا الطلاق بترك الجماع حتى مضت أربعة أشهر، وقعت عليها تطليقة بمضي أربعة أشهر.

وقال بعضهم: لا يقع الطلاق، ولكن يؤمر الزوج بعد مضي أربعة أشهر أن يجامعها، أو يطلقها.

وقال بعضهم: وقع الطلاق بعد مضي أربعة أشهر، وهو قول علمائنا.

وقال ابن عباس وابن مسعود: عزيمة الطلاق انقضاء الأربعة الأشهر، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ يعني: أوجبوا الطلاق بترك الجماع...

وفي تفسير قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مَكْلَبِينَ تَعْلَمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ...﴾ الآية^(٤).

(١) سورة البقرة: الآية ٢٠٤.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٢٦.

(٢) راجع: بحر العلوم تفسير الآية المذكورة.

(٤) سورة المائدة: الآية ٤.

يقول:

وفي هذه الآية دليل: أن الكلب إذا كان أكل لا يؤكل، لأنه أمسك لنفسه، وفيها دليل: أنه لا يجوز إلا بالتسمية، لأنه قد أباح على شرط التسمية، وعلى شرط أن يمسك لصاحبه، وفيها دليل أيضاً أن الكلب إذا كان غير معلم لا يجوز أكل صيده، وفيها دليل أيضاً أن العالم له من الفضيلة ما ليس للجاهل، لأن الكلب إذا عُلِمَ تكون له فضيلة على سائر الكلاب، فإن الإنسان إذا كان له علم أولى أن يكون له فضل على سائر الناس، وهذا كما روي عن علي - كرم الله وجهه - أنه قال: لكل شيء قيمة، وقيمة المرء ما يحسن..

وصف المخطوط

اعتمدنا في ضبط نص الكتاب على ثلاث نسخ. الأولى: وهي المحفوظة في جامعة أدنبرج رقم ٣٦٨٨ (EDINBURGH) مكتبة تشيستربتي وهي ناقصة أربع سور وهي الحجر والنحل والإسراء والكهف.

وهذه النسخة مقسمة إلى أربع مجلدات في جزئين الجزء الأول من فاتحة الكتاب إلى نهاية سورة إبراهيم. والجزء الثاني من سورة مريم إلى آخر الكتاب مكتوب على غلافها الأول وهي مكتوبة بخط واضح جميل عدد أوراقها (٣٥٢) ورقة مسطرتها (٢٤) سطراً وعليها تملك ونصه: تملكه الحقير الفقير بالشراء الشرعي - يونس بن إبراهيم عفا عنهما.

ووقع في آخرها قوله (تم المجلد الرابع عند الضحى يوم الجمعة...) وقد رمزنا لها بالرمز (ظ).

الثانية: هي المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٦ تفسير وهي كاملة لا نقص فيها.

مكتوبة بخط واضح جداً وفيها آيات كتاب الله تعالى مكتوبة بالأحمر عدد أوراقها (٥٤٣) ورقة مسطرتها (٢٩) سطراً ووقع في نهايتها قوله والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المتقين ورسول رب العالمين وعلى جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة والمقربين وأهل طاعتك أجمعين ورضي الله تعالى عن أصحاب رسول الله أجمعين وعن التابعين وتابعي التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ووافق الفراغ من كتابة هذا التفسير المبارك لمولانا الإمام العلامة أبي الليث نصر بن إبراهيم السمرقندي - رضي الله عنه آمين وأرضاه وجعل الجنة منقلبه ومثواه ونفعنا بعلومه ومدده وأسراره في الدارين. آمين في يوم الأحد المبارك مستهل محرم الحرام افتتاح سنة إثنين وتسعين وتسعمائة المباركة.

أحسن الله عاقبتها بمحمد وآله.

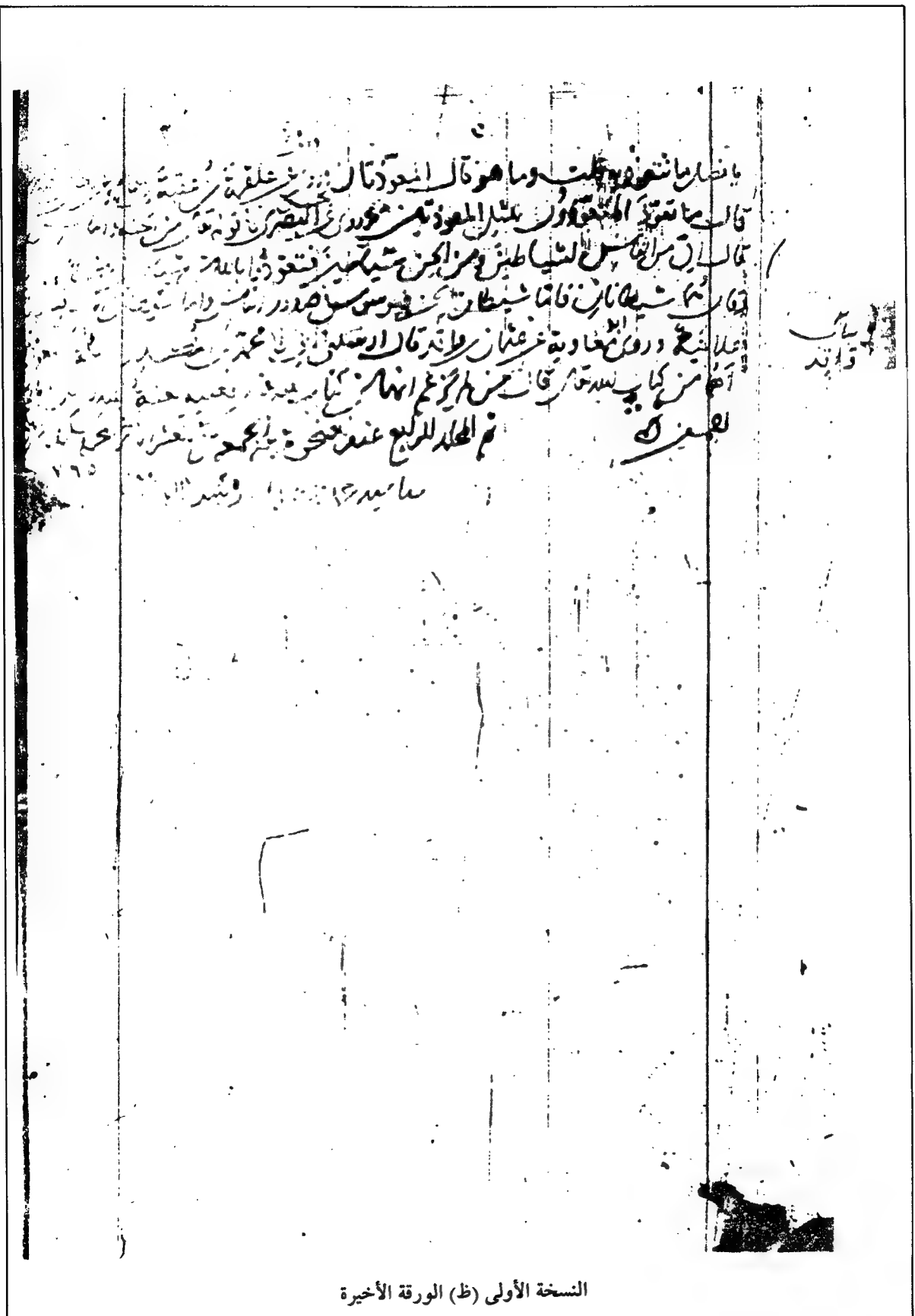
وقد رمزنا لها بالرمز (أ)

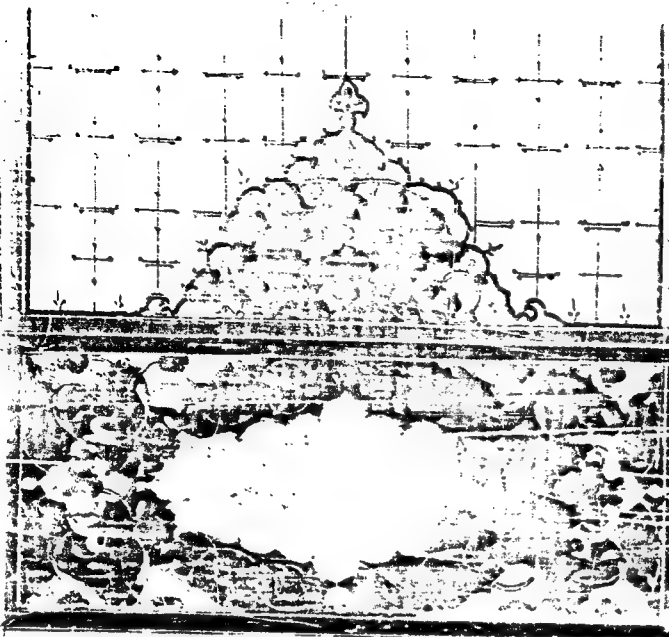
الثالثة: وهي المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٦ تفسير عدد أوراقها (٥٤٢) مسطرتها (٢٩) سطراً مكتوبة بخط واضح جيد كتب في نهايتها ما كتب في النسخة (أ) وقد استعنا بها كثيراً في ضبط النص وقلما نشير فيها لفرق ورمزنا لها بالرمز (ب).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على سيد المرسلين
وآله الطاهرين المعصومين
كتاب الصلاة
باب في صلاة العبد المؤمن

النسخة الأولى (ظ) الصفحة الأولى





قال اخبرنا ابو الفضل جبريل بن احمد اليوناني قال اسانا ابو محمد لقمان بن حكيم بن
 ابرخلف الغرغاني باوركن قال حدثنا الفقهاء ابو القيث نصر بن محمد بن ابراهيم الترمذي
 رحمه الله عليه قال اخبرنا ابو جعفر الكوفي قال حدثنا ابراهيم بن يوسف قال حدثنا
 وكيع عن شعيب بن النوري عن ابي اسحاق عن مرة الهذلي قال قال ابن مسعود رضي الله عنه
 من اراد العلم فليقرأ القرآن وفي رواية اخرى فليقرأ القرآن فان فيه علم الاولين
 والآخرين وروى عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه انه قال ما من شيء الا وعده في القرآن
 خبر ان ارا الرجل يحب عند حديث ابو جعفر محمد بن الفضل قال حدثنا محمد بن جعفر
 قال حدثنا ابراهيم بن يوسف قال حدثنا محمد بن الفضل عن عطاء بن السائب عن ابي عبد الرحمن
 التيمي قال حدثنا من كان يقرأ من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر كثر
 يقرأون على النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات فلا يحدون في العشر الاخرى حتى يكملوا
 ما فيها من العلم والعمل قال حدثنا الفقيه ابو القيث رحمه الله قال حدثنا ابي قال حدثنا
 ابو بكر محمد بن احمد الملقم قال حدثنا ابو عمران الفريابي قال حدثنا عبد الرحمن بن حبيب قال
 حدثنا دود بن الحنفية قال حدثنا عمار بن كثير عن عبد خير عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه
 ان النبي صلى الله عليه وسلم قال في خطبته ايا الناس قد بين لكم في حكم كتابه ما احل لكم وما
 حرم عليكم فاحلوا احلاله وحرموا احرامه وامسوا بمقتضاه واعملوا بحكمه واشبهوا
 بامثاله فلما امر النبي صلى الله عليه وسلم بان يحل خلاؤه ويحرم حرامه لم يأت ان يحل خلاؤه
 ويحرم حرامه الا بعد ان علم نفسه ولان النبي صلى الله عليه وسلم الله تعالى اترك القرآن
 هدي للناس وحكمه محمد عليه جميع الخلق لقوله تعالى واوحى الى هذا القرآن لانه ذكر به ومن
 بلغ فلما كان القرآن حجة على العرب والحج ثم لا يكون حجة عليهما الا بعد ان يعلموا انفسهم
 وناويله قال ذلك على ان طلب نفسيه وناويله واجب ولكن لا يجوز لاحد ان يصير القرآن اية



علايه وروى أبو بكر بن عمار - في قوله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
 إنما من كان الله تعالى فقال من لم ير الله تعالى لم ير الله تعالى ولا ملائكة ولا نفوس
 اجمعين والله اعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين وأهل بيته الطاهرين
 وعلى جميع الانبياء والمرسلين والملائكة والمؤمنين وأهل جنتك اجمعين
 ورضي الله تعالى عن أصحاب رسول الله اجمعين وعن التابعين وتابع التابعين
 لهم بإحسان إلى يوم الدين وحسبنا الله ونعم الوكيل والفق الفراع
 من كتابة هذا الف في المبارك لملوكنا الامام العالم الفاضل
 أبي الفتح نصر بن إبراهيم الترمذي رضي الله عنه
 وأرضاه وجعل الجنة مثله ومنه ورفعنا
 بنوهم ونمدن ونسارع في الدارين آمين
 في يوم الاحد المبارك تسهل بختم
 الحرم افنتاح سنة اثنى عشر
 وتسعين وسبع مائة
 الفيلاديلس
 عاقبة الحمد
 والحمد لله

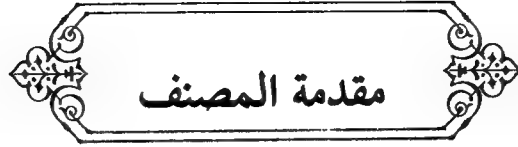
أورخ
 ٥٩٤



علائقه ورؤى انومعا وبه عن عمار
 انما من كتاب الله تعالى فقال من يرد
 اجمعين والله اعلم وصلى الله على
 وعلى جميع الانبياء والمرسلين
 ورضي الله تعالى عن اصحاب ر ر ر
 اللهم يا حسن الى يوم الدين وحسبنا الله ونعم الوكيل ويا قوت القراع
 من هذه هذا النفس المبارك لمولانا الامام العالم العلامة
 ابي اللث نصر بن ابراهيم الترمذي رضي الله عنه
 وارضاء وجعل الحمد متفدية وسواء ونفعنا
 بعلومه ومدن واسرار في الدارين امين
 في يوم الاحد المبارك م ب ب ب ب
 الحرام افتتاح سنة اشين
 وتسعين وتسعمائة
 المبارك احسن الله
 عافها محمد
 والهم



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



باب الحث على طلب التفسير^(١)

[الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة والسلام على محمد سيد المرسلين وعترته الطاهرين]^(٢) قال: أخبرنا أبو الفضل جبريل بن أحمد اليوناني قال: أنبأنا أبو محمد لقمان بن حكيم بن خلف الفرغاني باوزكندة قال: حدثنا الفقيه أبو الليث^(٣) نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي رحمة الله عليه قال أخبرنا أبو جعفر محمد بن الفضل، قال أخبرنا محمد بن جعفر الكرابيسي^(٤)، قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف قال: حدثنا وكيع عن سفيان الثوري، عن [أبي]^(٥) إسحاق عن مرة الهمداني قال: قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: من أراد العلم فليثر القرآن. وفي رواية أخرى فليؤثر^(٦) القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين. وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: ما من شيء إلا وعلمه في القرآن غير أن آراء الرجال تعجز عنه. [قال الفقيه]^(٧): حدثنا أبو جعفر محمد بن الفضل قال: حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف قال: حدثنا محمد بن الفضل الضبي عن عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السلمي، قال: حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنهم كانوا يقرأون على النبي - صلى الله عليه وسلم - عشر آيات فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل. قال الفقيه: [حدثنا]^(٨) أبي، قال: حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد المعلم قال: حدثنا أبو عمران الفريابي، قال: حدثنا [عبد الرحمن]^(٩) بن جبير بن حبيب قال: حدثنا داود بن المخبر قال: حدثنا عباد بن كثير عن عبد خير عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال في خطبته: (أيها الناس قد بين الله لكم في محكم كتابه ما أحل لكم وما حرم عليكم، فأحلوا حلاله، وحرموا حرامه، وآمنوا بمتشابهه، واعملوا بمحكمه واعتبروا بأمثاله) قال: [فلما أمر]^(١٠) النبي - صلى الله عليه وسلم - بأن يحل حلاله ويحرم حرامه، ثم لا يمكن أن يحل حلاله، ويحرم حرامه إلا بعد ما يعلم تفسيره. ولأن الله تعالى أنزل القرآن هدى للناس، وجعله حجة على جميع الخلق لقوله^(١١) (وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم

(١) في ظ (تفسير القرآن).

(٣) في ظ قال أبو الليث.

(٢) سقط في أ.

(٤) في أ أبو جعفر الكرابيسي.

(٥) في ظ ابن.

(٦) تَوَرَّ القرآن: بحث عن معانيه وعن علمه وقيل: تثوير القرآن: قراءته ومناقشة العلماء به في تفسيره ومعانيه. اللسان، الصحاح: ثور.

(٩) في ظ أبو عبد الرحمن.

(٧) سقط في أ.

(١٠) في ظ فامر.

(٨) في ظ حدثني.

(١١) في ظ بقوله

به ومن بلغ) فلما كان القرآن حجة على العرب والعجم، ثم لا يكون حجة عليهم الا بعد [أن يعلموا]^(١) [وتأويله]^(٢) تفسيره برأيه، فدل ذلك على أن طلب تفسيره وتأويله واجب. ولكن: لا يجوز لأحد أن يفسر القرآن من ذات نفسه^(٣) برأيه، ما لم يتعلم ويعرف^(٤) وجوه اللغة وأحوال التنزيل^(٥) لانه روي في الخبر ما حدثنا به محمد بن (الفضيل)^(٦) قال حدثنا محمد بن جعفر قال حدثنا ابراهيم بن يوسف قال: حدثنا وكيع عن سفيان عن عبد الأعلى عن سعيد بن جبير^(٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: من

(٢) من أ

(١) في ظ ما يعلم.

(٤) في أ أو يعرف.

(٣) من أ.

اختلف الناس في تفسير القرآن: هل يجوز لكل أحد الخوض فيه؟ فقال قوم: لا يجوز لأحد أن يتعاطى تفسير شيء من القرآن وإن كان عالماً، أديباً، متساعاً في معرفة الأدلة، والفقه، والنحو، والأخبار والآثار وليس له إلا أن ينتهي إلى ما روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم -.

ومنهم من قال: يجوز تفسيره لمن كان جامعاً للعلوم التي يحتاج المفسر إليها، وهي خمسة عشر علماً ..

أحدها: اللغة: لأن بها يعرف شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع.

الثاني: النحو: لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب، فلا بد من اعتباره.

الثالث: علم التصريف: لأن به تعرف الأبنية والصيغ.

الرابع: علم الاشتقاق: لأن الاسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين اختلف المعنى باختلافهما، كالمرسح: أهو من السياحة أو من المسح.

الخامس والسادس والسابع: علوم المعاني والبيان والبدیع: لأنه يُعرف بالأول خواص تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعاني وبالثاني خواصها من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها. وبالثالث وجوه تحسين الكلام، وهذه العلوم الثلاثة هي علوم البلاغة، وهي من أعظم أركان المفسر، لأنه لا بد له أن يعلم ما يقتضيه الإعجاز، وإنما يدرك بهذه العلوم.

الثامن: علم القراءات: لأنه به يعرف كيفية النطق بألفاظ القرآن الكريم، وبالقراءات يرجح بعض الوجوه المحتملة على بعض.

التاسع: علم أصول الدين: ليعرف وهو يفسر القرآن ما يجب لله وما يستحيل عليه وما يجوز له، ويعرف الفرق بين العقائد والشرائع، وما هو من أصول الدين، وما هو من فروعه.

العاشر: علم أصول اللغة: لأن به يعرف وجه الاستدلال على الأحكام، وطريقة استنباطها من النصوص.

الحادي عشر: أسباب النزول والقصص: إذ بسبب النزول يعرف معنى الآية المنزلة فيه بحسب ما أنزلت فيه.

الثاني عشر: النسخ والمنسوخ ليعلم المحكم من غيره.

الثالث عشر: علم الفقه إذ به يعرف مذاهب الفقهاء.

الرابع عشر: علم الأحاديث والسنن والآثار المبينة لتفصيل المجمع، وتوضيح المبهم وتخصيص العام، وتقييد المطلق، إلى غير ذلك من وجه بيان السنة للقرآن.

الخامس عشر: علم الموهبة، وهو علم يورثه الله تعالى من عمل بما علم. وإليه الإشارة بحديث النبي - صلى الله عليه وسلم - «من عَمِلَ بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم».

فهذه العلوم التي هي كالآلة للمفسر لا يكون مفسر إلا بتحصيلها فمن فسر القرآن بدونها كان مفسراً بالرأي المنهي عنه وإذا فسر مع حصولها لم يكن مفسراً بالرأي المنهي عنه. والله أعلم. انظر الإتيان في علوم القرآن للسيوطي ١٨٤/٣ - ١٨٨. والإسرائيليات والموضوعات للدكتور محمد بن محمد أبو شعبة ص (٤٨ - ٥٣) بتصرف.

(٦) في ظ الفضل.

(٧) سعيد بن جبير الأسدي مولا هم الكوفي ثقة ثبت فقيه من الثالثة (روايته عن عائشة).

قال (١) في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار. وروى أبو صالح (٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار. قال الفقيه: حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا محمد بن جعفر قال حدثنا إبراهيم بن يوسف قال: حدثنا أبو حفص (٣) عن ابن مجاهد (٤) قال: قال رجل لابي: أنت (٥) الذي تفسر القرآن (٦) برأيك؟ فبكى أبي ثم قال: اني اذا لجرىء. لقد حملت التفسير عن بضعة عشر رجلا من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - رضي الله عنهم. وروي عن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿وفاكهة وأبا﴾ فقال: لا أدري ما الأب. فقيل له: قل من ذات نفسك يا خليفة رسول الله. قال: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني اذا قلت في القرآن بما لا أعلم. فإذا لم يعلم الرجل وجوه اللغة وأحوال التنزيل، فتعلم التفسير وتكلف حفظه فلا بأس بذلك، ويكون ذلك على سبيل الحكاية. والله أعلم.

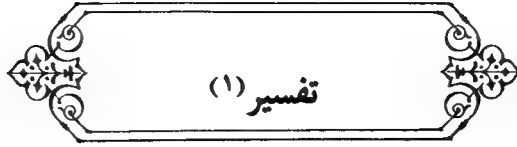
(١) وأبي موسى ونحوهما مرسلتان ٢٩٢/١. في أقال قولاً.

(٢) بإذام ويقال آخره نون أبو صالح مولى أم هانئ ضعيف مدلس تقريب التهذيب ٩٣/١.

(٣) عبد الله بن حفص بن عمر الزهري المدني كان من أهل العلم والثقة أجمعوا على توثيقه تهذيب التهذيب ١٨٩/٥ الجرح والتعديل ٣٩/٥.

(٤) عبد الوهاب بن مجاهد بن جبير المكي كان يروي عن أبيه ضعيف الحديث تهذيب التهذيب ٤٥٣/٦٠.

(٥) في ظ هذا. (٦) من أ.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حدثنا القاضي^(٢) الخليل بن أحمد^(٣)، قال: حدثنا السراج^(٤)، قال: حدثنا قتيبة بن سعيد^(٥)، قال: حدثنا خالد^(٦)، [عن^(٧) داود^(٨) عن عامر^(٩)، قال: كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يكتب: باسمك اللهم، فلما نزل - في^(١٠) سورة هود ﴿بسم الله مجربها و[مرسيها]﴾^(١١) كتب: بسم الله. فلما نزل - في^(١٢) سورة بني إسرائيل ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾ كتب بسم الله الرحمن، فلما [نزل - في^(١٣) سورة النمل ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾ كتب: بسم الله الرحمن الرحيم^(١٤)، ففي هذا الخبر دليل على أنه ليس من أول كل سورة، ولكنه [بعض^(١٥) آية من كتاب الله تعالى من^(١٦) سورة النمل. فأما تفسير قوله (بسم الله) يعني بدأت باسم الله ولكن لم يذكر بدأت، لان الحال ينبيء: أنك مبتدئ فيستغني عن ذكره وأصله: باسم (الله)^(١٧) بالالف ولكن حذفت من الاسم لكثرة الاستعمال، لانها ألف وصل، وليست بأصلية، بدليل أنها تسقط عند التصغير، فتقول سمي، وقال

(١) في أقوله. (٢) من أ.

(٣) الخليل بن أحمد بن عبد الرحمن أبو عبد الرحمن الفراهيدي الأزدي، نحوي لغوي واضح علم العروض صدوق. ت ١٧٠ هـ.

انظر / أنباء الرواة ٣٤١/١، النجوم الزاهرة ٣١١/١، تهذيب التهذيب ١٦٣/٣.

(٤) محمد بن إسحاق السراج محدث خراسان وشيخها في عصره صدوق ثقة له المسند أربعة عشر جزءاً. توفي سنة ٣١٣ هـ. الأعلام ٢٩/٦ تذكرة الحفاظ ١٦٨/٢.

(٥) قتيبة بن سعيد بن جميل بن طريف الثقفي أبو رجاء البغلاني ثقة ثبت من العاشرة مات سنة أربعين. تقريب التهذيب ١٢٣/٢.

(٦) خالد بن سليمان البلخي أبو معاذ كان إماماً معروفاً يبلغ من أصحاب أبي حنيفة الجواهر المضئية ١٦٢/٢.

(٧) في ظ بن.

(٨) هو داود بن نصير الطائي من أصحاب أبي حنيفة كان زاهداً وورعاً ت ١٦٠ هـ. انظر تهذيب التهذيب ٣٠٣/٣.

(٩) عامر بن شراحيل الحميري الشعبي أبو عمرو ثقة فقيه فاضل. تهذيب التهذيب ٣٨٧/١.

(١٠) في ظ نزلنا. (١١) في ظ مرساه.

(١٢) في ظ نزلت. (١٣) في ظ نزلت.

(١٤) ذكره القرطبي ٦٦/١ قال: روى الشعبي والأعمش أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يكتب باسمك اللهم «حتى أمر أن يكتب بسم الله» فكتبها فلما نزلت «قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن» كتب بسم الله الرحمن فلما نزلت [إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم] كتبها.

وفي مصنف أبي داود: قال الشعبي وأبو مالك وقتادة وثابت بن عمار أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم حتى نزلت سورة النمل.

معالم التنزيل للبخاري (٣٩/١) القرطبي (٦٦/١).

العلوم المستودعة في السبع المثاني للنجيبي (١/١٥).

(١٧) من أ.

(١٦) في ظ (في).

(١٥) من أ.

بعضهم: معنى قوله «بسم الله» يعني بدأت بعون الله وتوفيقه وبركته وهذا تعليم من الله تعالى لعباده، ليذكروا اسم الله تعالى عند افتتاح القراءة وغيرها حتى يكون الافتتاح ببركة اسم الله تعالى ^(١). وقوله (الله) هو اسم موضوع ليس له اشتقاق، وهو أجل من أن يذكر له الاشتقاق. وهو قول الكسائي ^(٢). قال أبو الليث رحمه الله: هكذا سمعت أبا جعفر يقول: روي عن محمد بن الحسن ^(٣) أنه قال: هو اسم موضوع ليس له اشتقاق. وروي عن الضحاك أنه قال: إنما سمي الله إلهاً ^(٤)، لأن الخلق يولهُون إليه في قضاء حوائجهم، ويتضرعون إليه عند شدائدهم وذكر عن الخليل بن أحمد البصري أنه قال: لأن الخلق يألُهِون إليه ^(٥)، بنصب اللام ويألُهِون بكسر اللام أيضاً، وهما لغتان، وقيل أيضاً: أنه اشتق من الارتفاع، وكانت العرب تقول للشيء المرتفع «لاه» وكانوا يقولون إذا طلعت الشمس: طلعت لاهة وغربت لاهة وقيل أيضاً: إنما سمي «الله» لأنه لا تدركه الأبصار «ولاه» معناه احتجب كما قال القائل:

لاه ربي عن الخلائق طرا خالق ^(٦) الخلق [لا يرى ويرانا] ^(٧)

وقيل أيضاً: سمي (الله) لأنه يوله قلوب العباد بحبه.

وأما (الرحمن) فالعاطف على جميع خلقه بالرزق لهم، ولا يزيد في رزق التقى لأجل تقواه ولا ينقص من رزق

(١) نذب الشرع إلى ذكر البسملة في أول كل فعل، كالأكل والشرب والنحر، والجماع والطهارة وركوب البحر، إلى غير ذلك من الأفعال، قال تعالى: «فكلموا مما ذكر اسم الله عليه» (الأنعام: ١١٨) «وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها». (هود: ٤١) وقال - صلى الله عليه وسلم -: «أغلق بابك واذكر اسم الله وأطفئ مصباحك واذكر اسم الله وخمر إناءك واذكر اسم الله وأوك سقاءك واذكر اسم الله».

وقال: «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: «بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقنا» فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره شيطان أبداً».

وقال لعمر بن أبي سلمة: «يا غلام سمَّ الله وكلَّ يمينك وكلَّ مما يليك» وقال «إن الشيطان ليستحل الطعام إلا بذكر اسم الله».

وقال: «من لم يذبح فليذبح باسم الله» وشكا إليه عثمان بن أبي العاصي وجعاً يجده في جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «ضع يدك على الذي تألم من جسدك وقل «بسم الله ثلاثاً» وقل سبع مرات «أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر».

هذا كله ثابت في الصحيح. وروى ابن ماجه والترمذي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال «ستر ما بين الجن وعورات بني آدم إذا دخل الكنيف أن يقول بسم الله».

وروى الدارقطني عن عائشة قالت: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا مس طهوره سمي الله تعالى ثم يفرغ الماء على يديه. انظر في كل ما تقدم تفسير القرآن العظيم ٣٤/١ والجامع لأحكام القرآن ٦٩/١.

(٢) علي بن حمزة الإمام أبو الحسن الكسائي ولد بالكوفة واستوطن بغداد وهو من القراء السبعة المشهورين ومن النحاة الكوفيين من مصنفاته معاني القرآن وغير ذلك. بغية الوعاء ١٦٢/٢ وفيات الأعيان ٢٩٥/٣.

(٣) محمد بن الحسن الرؤاسي النحوي أبو جعفر استاذ الكسائي والقراء وكان رجلاً صالحاً بغية الوعاء ٨٢/٢.

(٤) قال ابن منظور: قال أبو الهيثم: وأصل إله ولأه فقلبت الواو همزة كما قالوا للوشاح إشاح، وللوجاح - وهو الستر - اجاح، ومعنى ولأه: أن الخلق يولُهِون إليه في حوائجهم، ويضرعون لله فيما يصيبهم، ويفزعون إليه في كل ما ينوبهم، كما يولُ كل طفل إلى أمه. اللسان: أله.

(٥) والتأله: التنسك والتعبد (اللسان: أله).

(٦) في (أ) لا يرى خالق.

(٧) في (أ) ويرى وفي (ظ) لا يرى والصواب ما أثبتناه فقد ورد البيت في تفسير الطبري هامش ٢١٢/١ نقلاً عن الأغاني وهو للوليد بن عتبة والشطيرة الأولى في اللسان لا وله.

الفاجر لأجل فجوره، وما كان في لغة العرب على ميزان «فعلان» يراد به المبالغة في وصفه كما يقال: شبهان [وشقيان]^(١)، وغضببان، اذا امتلاً غضباً. فلهذا سمي نفسه رحماناً لأن رحمته وسعت كل شيء فلا يجوز أن يقال لغير الله تعالى «الرحمن» لأن هذا الوصف لا يوجد [في غيره]^(٢). وأما الرحيم فالرفيق بالمؤمنين خاصة، يستر عليهم ذنوبهم في الدنيا ويرحمهم في الآخرة، ويدخلهم الجنة.

وقيل أيضاً: إنما سمي نفسه (رحيماً) لأنه لا يكلف عباده جميع ما يطيقون^(٣) وكل ملك يكلف عباده^(٤)، جميع ما يطيقون^(٥) فليس برحيم. وروي عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه قال: في قوله تعالى (بسم الله) قال: اسمه شفاء من كل داء، وعون على كل دواء [لأنه اسمه]^(٦). وأما الرحمن فهو عون لمن^(٧) آمن به، وهو اسم لم يسم به غيره، وأما (الرحيم) فلمن تاب وآمن وعمل صالحاً. وقد فسر بعضهم على الحروف، وروى عبد الرحمن [المديني]^(٨) عن عبد الله بن عمر أن عثمان بن عفان رضي الله عنهم سأل صلى الله عليه وسلم عن تفسير (بسم الله الرحمن الرحيم) فقال: أما الباء: فبلاء الله وروحه، ونصره وبهاؤه، وأما السين: فسناء الله، وأما الميم: فملك الله، وأما الله فلا إله غيره، وأما الرحمن: فالعاطف على البر والفاجر من خلقه، وأما الرحيم، فالرفيق بالمؤمنين خاصة^(٩). وروي عن كعب الأحبار^(١٠) أنه قال: الباء بهاؤه والسين سناؤه ولا شيء أعلى منه، والميم: ملكه، وهو على كل شيء قدير، فلا شيء يعاذه^(١١). وقد قيل: إن كل حرف هو افتتاح اسم من أسمائه. فالباء: مفتاح اسمه بصير، والسين: مفتاح اسمه سميع، والميم: مفتاح اسمه ملك [وقيل مجيد]^(١٢)، والألف: مفتاح اسمه الله، واللام: مفتاح اسمه لطيف، والهاء: مفتاح اسمه هادي، والراء: مفتاح اسمه رزاق، والحاء: مفتاح اسمه حلیم، والنون: مفتاح اسمه نور. ومعنى هذا كله: دعاء [الله عند الافتتاح]^(١٣).

(١) في ظ وشعبان. (٢) في ظ [لغيره]. (٣) في أ [لا يطيقون].

(٤) من أ. (٥) في أ [لا يطيقون]. (٦) من أ.

(٧) في ظ [لكل].

(٨) عبد الرحمن بن إسحاق بن الحارث القرشي المدني نزيل البصرة صدوق وفي بالقدر التهذيب ٤٧٢/١.

(٩) أورده السيوطي في الدر المنثور ٩/١.

(١٠) كعب بن ماني بن ذي هجن الحمدي تابعي أسلم في زمن أبي بكر أخذ عنه الصحابة كثيراً من أخبار الأمم الغابرة وأخذ هو من

الكتاب والسنة عن الصحابة توفي سنة ٣٢ هـ. الإصابة ٣٢٢/٥ الأعلام ٢٢٨/٥.

(١١) أخرجه الطبري في التفسير مجزأ ١٢١/١ (١٤٠) (١٤٥) (١٤٧) وقال العلامة أحمد شاكر هذا حديث موضوع وعزاه لابن حبان في كتاب

المجروحين في ترجمة إسماعيل بن يحيى بن عبد الله التيمي (٤٤) ص (٨٥) وقال في إسماعيل هذا «كان ممن يروي

الموضوعات من الثقات وما لا أهل له عن الإثبات لا تحل الرواية عنه ولا الاحتجاج به بحال ثم ضرب مثلاً من أكاذيبه فروى

الحديث بطوله عن محمد بن يحيى بن زين العطار عن إبراهيم بن العلاء بن الضحاك وذكره ابن كثير في التفسير ٣٣/١ نقلاً عن

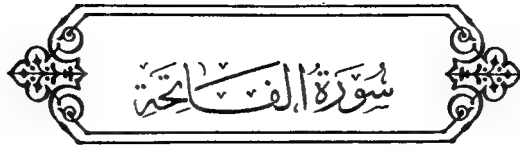
ابن مردويه من حديث أبي سعيد وحده وأشار إلى رواية الطبري ثم قال: «وهذا غريب جداً وقد يكون صحيحاً إلى من دون رسول

الله - صلى الله عليه وسلم - وقد يكون من الإسرائيليات لا من المرفوعات ولم يذكر الحافظ ابن كثير أن في إسناده كذاً بآ وعزاه

السيوطي في الدر ٨/١ لابن جرير وابن عدي في كامله وابن مردويه وأبي نعيم في الحلية وابن عساكر في تاريخ دمشق والثعلبي

وقال سند ضعيف جداً.

(١٢) ساقطة في ظ. (١٣) في ظ الله تعالى عند افتتاح كل شيء والله أعلم.



سبع آيات مدنية^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

روي عن مجاهد^(٢) أنه قال: سورة فاتحة الكتاب مدنية، وروى أبو صالح عن ابن عباس أنه قال: هي مكية. ويقال: [نصفها نزل بمكة ونصفها نزل بالمدينة]^(٣). [حدثنا]^(٤) الحاكم أبو الفضل، محمد بن [الحسين]^(٥) الحدادي قال: حدثنا أبو حامد المروزي^(٦) قال: حدثنا إبراهيم بن مرزوق^(٧) قال: حدثنا عمر بن يونس^(٨) قال:

(١) ساقطة في ظ. قال الشوكاني في فتح القدير (١٤/١) أخرج الواحدي في أسباب النزول والثعلبي في تفسيره عن علي رضي الله عنه قال: نزلت فاتحة الكتاب بمكة من كنز تحت العرش. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في دلائل النبوة والثعلبي والواحدي من حديث عمرو بن شرحبيل أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شكا إلى خديجة ما يجده عند أوائل الوحي فذهبت به إلى ورقة فأخبره فقال له إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي يا محمد يا محمد فأنطلق هاربا في الأرض فقال لا تفعل إذا أتاك فائت حتى تسمع ما يقول ثم اتني فأخبرني فلما خلا ناداه يا محمد قل بسم الله الرحمن الرحيم حتى بلغ ولا الضالين الحديث وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن رجل من بني سلمة قال لما أسلمت فتيان بني سلمة وأسلم ولد عمرو بن الجموح قالت امرأة عمرو له هل لك أن تسمع من أبيك ما روي عنه فسأل فقرا عليه: الحمد لله رب العالمين وكان ذلك قبل الهجرة وأخرج أبو بكر بن الأنباري في المصاحف عن عبادة قال: فاتحة الكتاب نزلت بمكة فهذا جملة ما استدل به من قال إنها نزلت بمكة واستدل من قال إنها نزلت بالمدينة بما أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف وأبو سعيد بن الأعرابي في معجمه والطبراني في الأوسط من طريق مجاهد عن أبي هريرة «نزلت فاتحة الكتاب» وأنزلت بالمدينة وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو نعيم في الحلية وغيرهم من طرق عن مجاهد قال: نزلت فاتحة الكتاب بالمدينة وقيل إنها نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة جمعا بين هذه الروايات.

(٢) مجاهد بن جبير أبو الحجاج المخزومي مولا هم المكي ثقة إمام في التفسير وفي العلم مات سنة واحد ومائة وقيل غير ذلك. التقريب ٢٢٩/٢.

(٣) في ظ بعضها نزلت بالمدينة وبعضها بمكة. (٤) في ظ قال الفقيه رحمه الله حدثنا. (٥) في ظ الحسن.

(٦) أحمد بن الحسين بن علي المروزي قاضي خراسان المعروف بابن الطبري الجواهر المضيتة ١٦١/١.

(٧) إبراهيم بن مرزوق الثقفي البصري مقبول. التقريب ٤٣/١.

(٨) عمر بن يونس اليماني الجرشي من الثقات. الجرح والتعديل ١٤٢/٦. التقريب ٦٤/٢.

حدثنا جهضم^(١) بن عبد الله عن العلاء بن عبد الرحمن^(٢) عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن في كتاب الله لسورة ما أنزل الله على نبي مثلها فسأله أبي بن كعب عنها فقال: إني لأرجو أن لا تخرج من الباب حتى تعلمها، فجعلت أتبطاً، ثم سأله أبي عنها فقال: كيف تقرأ في صلاتك؟ قال: بأم الكتاب. فقال: والذي نفسي بيده ما أنزل في التوراة والإنجيل والقرآن مثلها، وإنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته^(٣)» وقال بعضهم: السبع المثاني، هي السبع الطوال سورة: البقرة، وآل عمران والخمس التي بعدها [وسماها مثاني لذكر القصص فيها مرتين]^(٤). وقال أكثر أهل العلم: هي سورة [الفاتحة]^(٥)، وإنما سميت السبع لأنها سبع آيات، وإنما سميت المثاني لأنها تتلى بقراءتها في كل صلاة^(٦). وقال: حدثنا أبي قال: حدثنا أبو عبد الله محمد بن حامد الخزعوني، قال: حدثنا علي بن إسحاق^(٧)، قال: حدثنا محمد بن مروان^(٨) عن محمد بن السائب الكلبي^(٩) عن أبي صالح - مولى أم هانئ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ قال: الشكر لله^(١٠). ومعنى قول ابن عباس: الشكر لله، يعني الشكر لله على نعمائه كلها، وقد قيل: (الحمد لله) يعني الوجدانية لله. وقد قيل: الألوهية لله، وروي عن قتادة^(١١) أنه قال: معناه الحمد لله الذي لم يجعلنا من المغضوب عليهم ولا الضالين. ثم معنى قوله (الحمد لله) قال بعضهم: (قل) فيه مضمري يعني: قل الحمد لله. وقال بعضهم: حمد الرب نفسه، ليعلم عباده فيحمده. وقال أهل اللغة: الحمد هو الثناء الجميل، وحمد الله تعالى هو: الثناء عليه بصفاته الحسنى، وبما أنعم على عباده، ويكون في الحمد معنى الشكر وفيه معنى المدح وهو أعم من الشكر، لأن الحمد يوضع موضع الشكر ولا يوضع الشكر موضع الحمد. وقال بعضهم: الشكر أعم لأنه باللسان وبالجوارح وبالقلب، والحمد يكون باللسان خاصة. [كما قال اعملوا آل داود شكراً]^(١٢) وروي عن ابن عباس أنه قال: الحمد لله كلمة كل شاعر^(١٣)، وذلك أن آدم عليه السلام قال حين عطس: الحمد لله: فقال الله تعالى (يرحمك الله) فسبقت رحمته غضبه^(١٤). وقال الله تعالى لنوح (قل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين)

(١) و(٢) جهضم بن عبد الله بن الفضل وأصله من خراسان روي عنه الثوري وعمر بن يونس صدوق. التقريب ١/١٣٥ الجرح والتعديل ٥٣٤/٢.

(٣) أخرجه الترمذي ١٤٣/٥ في كتاب فضائل القرآن (٢٨٧٥) وأخرجه البخاري بنحوه ١٥٦/٨ في التفسير باب ما جاء في فاتحة الكتاب (٤٤٧٤) وفي ٣٨١/٨ (٤٧٠٣) وفي ٥٤/٩ (٥٠٠٦).

(٤) في ظ فاتحة الكتاب. (٥) سقط في ظ.

(٦) في ظ وقيل إنما سماها مثاني لذكر القصص فيها مرتين. قال ابن منظور المثاني من القرآن مأثني مرة بعد مرة وقيل: فاتحة الكتاب قيل لها مثاني لأنها يثنى بها من كل ركعة من ركعات الصلاة وتعاد في كل ركعة.

(٧) علي بن إسحاق بن إبراهيم السمرقندي ثقة صدوق الجرح والتعديل ١٧٥/٦.

(٨) محمد بن مروان السدي الصغير مولى الخطابين ليس بثقة.

الجرح والتعديل ٨٦/٨. تهذيب التهذيب ٤٣٦/٩.

(٩) محمد بن السائب بن بشر بن عمر بن الحارث الكلبي كان عالماً بالتفسير والأخبار وأيام العرب من أهل الكوفة ورضوه في التفسير. التقريب ١٦٣/١٢.

(١٠) السيوطي في الدر المنثور ١١/١ لابن جرير - وهو فيه (١٣٥/١) وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(١١) قتادة بن دعامة السدوسي البصري كان تابعياً عالماً كبيراً توفي ١١٧ هـ وفيات الأعيان ٨٥/٤ أنباؤه الرواة ٥٣/٣.

(١٢) ساقطة في ظ.

(١٣) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٣٥/١).

(١٤) أخرجه أحمد في المسند ٣٩٧/٢ وأخرجه الترمذي أيضاً ٣٠٤/٩ كما في التحفة والحاكم في المستدرک ٢٦١/٢ والحميدي =

وقال إبراهيم عليه السلام (الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحق) وقال في قصة داود وسليمان (وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين) وقال لمحمد عليه السلام (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً) وقال أهل الجنة: (الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن) فهي كلمة كل شاكِر. وقوله تعالى ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: سيد العالمين. وهورب كل ذي روح [تدب]^(١) على وجه الأرض. ويقال: معنى قوله (رب العالمين) خالق الخلق ورازقهم ومربيهم ومحولهم من حال إلى حال، من نقطة إلى علقه، [ومن علقه]^(٢) إلى مضغة. والرب في اللغة: هو السيد قال الله تعالى (ارجع إلى ربك) يعني إلى سيدك. والرب: هو المالك، يقال: رب الدار، ورب الدابة والرب هو المربي من قولك: رب يربي^(٣). وقوله (العالمين) كل ذي روح، ويقال: كل من كان له عقل يخاطب مثل بني آدم والملائكة والجن ولا يقع على البهائم ولا على غيرها. وروي^(٤) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الله تعالى ثمانية عشر ألف عالم، وإن دنياكم منها عالم واحد»^(٥) ويقال: كل صنف [من الحيوان]^(٦) عالم على حده. قوله عز وجل ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قال في رواية الكلبي هما إسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر. وقال بعض أهل اللغة: هذا اللفظ شنيع فلو قال: هما إسمان لطيفان لكان أحسن ولكن معناه عندنا - والله أعلم - أنه أراد بالرقه الرحمة يقال: رق فلان [لفلان]^(٧) إذا رحمه. يقال: رق يرق^(٨) إذا رحم وقوله: أحدهما أرق من الآخر. قال بعضهم: الرحمن أرق لأنه أبلغ في الرحمة لأنه يقع على المؤمنين والكافرين. وقال بعضهم: الرحيم أرق لأنه في الدنيا وفي الآخرة. وقال بعضهم: كل واحد منهما أرق من الآخر من وجه، فلهذا المعنى لم يبين، وقال أحدهما أرق من الآخر، يعني كل واحد منهما أرق من الآخر^(٩). قوله تعالى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قرأ نافع وابن كثير وحزمة وأبو عمرو بن العلاء وابن عامر: ملك بغير الألف وقرأ عاصم والكسائي بالألف^(١٠) فأما من قرأ^(١١) بالألف^(١٢) قال: لأن [المالك]^(١٣) أبلغ في الوصف، لأنه يقال: مالك الدار، ومالك الدابة، ولا يقال ملك، إلا لملك من ملوك، وأما الذي قرأ: ملك [بغير ألف قال]^(١٤) «لأن [الملك]^(١٥) أبلغ في الوصف لأنك إذا قلت: فلان ملك هذه البلدة يكون ذلك كناية عن الولاية دون الملك، وإذا قلت فلان مالك هذه البلدة كان ذلك عبارة عن ملك الحقيقة، وروى مالك بن دينار^(١٦) [عن]^(١٧) [أنس بن مالك]^(١٨) قال:

= (١١٢٦) كما في مسنده وابن أبي عاصم في السنة ٢٧٠/١ وابن أبي الدنيا في حسن الظن (١٣) والسيوطي في الدر المنثور (٩٦).

- (١) في ظ [دب]. (٢) ساقطة في ظ. (٣) في ظ (تربية). (٤) في ظ (أبي كعب عن). (٥) أخرجه الطبري في التفسير بنحوه ١٤٦/١ وابن كثير ٤٥/١ والسيوطي في الدر المنثور ١٣/١ ونسبه لابن أبي حاتم وقال ابن كثير وهذا كلام غريب يحتاج مثله إلى دليل صحيح.
- (٦) في ظ [منها]. (٧) في ظ [فلاناً]. (٨) في ظ [رقه]. (٩) في ظ [ويقال كل واحد منها أرق من الآخر]. (١٠) في ظ [مالك]. (١١) في ظ [ملك]. (١٢) ساقطة في ظ. من قرأ «مالك» بالمد فعلى وزن «سامع» اسم فاعل، ومن قرأ «ملك» بدون ألف فعلى وزن «فَعِلَ» صفة مشبهة، بمعنى قاضي يوم الدين والقراءتان حستان متواترتان عن النبي - صلى الله عليه وسلم - بأصح الطرق.
- (١٣) في ظ «الملك». (١٤) ساقطة في ظ. (١٥) في ظ مالك. (١٦) مالك بن دينار السلمي الناجي مولاهم أبو يحيى البصري الزاهد يكتب المصاحف بالأجرة كان ورعاً توفي في البصرة سنة (١٣١) هـ. الأعلام ٢٦٠/٥ - ٢٦١ وفيات الأعيان ٤٤٠/١.
- (١٧) في ظ عن. (١٨) من مصادر الحديث وهو مروى من غير وجه.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي يفتتحون الصلاة بـ ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ وكلهم يقرأون (مالك يوم الدين) بالألف^(١). قال الفقيه - رحمه الله -: سمعت أبي يحيى [بإسناده]^(٢) عن أبي عبد الله محمد بن شجاع البلخي يقول: كنت أقرأ [بقراءة]^(٣) الكسائي مالك يوم الدين بالألف فقال لي بعض أهل اللغة: الملك أبلغ في الوصف فأخذت بقراءة حمزة (وكنتم أقرأ)^(٤) ﴿ملك يوم الدين﴾ فرأيت في المنام كأنه أتاني أت فقال لي: لم حذفت الألف من مالك؟ أما بلغك الخبر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «اقرأوا القرآن فخماً مفخماً»^(٥) [فلم أترك القراءة بـ: «ملك» حتى أتاني بعد ذلك أت في المنام فقال لي: ^(٦) لم حذفت الألف من مالك؟ أما بلغك عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنة. فلم نقصت من حسناتك عشراً في كل قراءة؟ فلما أصبحت أتيت قطرباً وكان إماماً في اللغة - فقلت له: ما الفرق بين ملك ومالك؟ فقال: بينهما فرق كثير. فأما ملك فهو ملك من الملوك، وأما مالك فهو مالك الملوك. فرجعت إلى قراءة الكسائي^(٧). ثم معنى قوله «مالك» يعني قاضي وحاكم (يوم الدين) يعني يوم الحساب كما قال تعالى (ذلك الدين القيم) [يعني الحساب القيم. وقيل أيضاً: معنى يوم الدين يعني يوم القضاء. كما قال الله تعالى (وما كان لياخذ أخاه في دين الملك) يعني في قضائه]^(٨) وقيل أيضاً: يوم الدين أي يوم الجزاء^(٩)، كما يقال: كما تدين تدان^(١٠). يعني كما تجازي تجازى به. فإن قيل: ما معنى تخصيص يوم الدين؟ وهو مالك يوم الدين وغيره. قيل له: لأن في الدنيا، كانوا منازعين له في الملك. مثل فرعون ونمرود وغيرهما. وفي ذلك اليوم لا ينزعه أحد في ملكه، وكلهم خضعوا له. كما قال تعالى: (لمن الملك

(١) البخاري ٢٢٦/٢ - ٢٢٧ في كتاب الأذان باب ما يقول بعد التكبير (٧٤٣) ومسلم ٢٩٩/١، ٣٠٠ في الصلاة، باب حجة من قال لا يجهر بالبسملة (٣٩٩/٥٢) وأخرجه الترمذي من حديث ابن عبد الله بن مغفل ١٣/٢ في أبواب الصلاة باب ما جاء في ترك بسم الله الرحمن الرحيم (٢٤٤) وقال حديث حسن وقال الزيلعي وأخرجه النسائي وابن ماجه وقال النووي في الخلاصة وقد ضعف الحفاظ هذا الحديث وأنكروا على الترمذي تحسينه كابن خزيمة وابن عبد البر والخطيب البغدادي وقالوا أن مداره على ابن عبد الله بن مغفل وهو مجهول ثم نقله من معجم الطبراني من طريق أبي سفيان طريف بن شهاب عن يزيد بن عبد الله بن مغفل عن أبيه وهو أيضاً في مسند أحمد ٨٥/٤ بإسناد صحيح.

(٢) ساقطة في ظ. (٣) في ظ [بحرف]. (٤) في أ [حمزة وكنتم أقرأ].

(٥) ولذلك كره قوم الإمامة لحديث نزل القرآن بالتفخيم والحديث في الحاكم ٢٣١/١ وأجيب عنه بأوجه: ذكرها السيوطي في الإتقان ٢٦١/١ - ٢٦٢ أحدها.

(٦) في ظ [فلم أترك القراءة بملك حتى أتاني بعد ذلك أت فقال لي].

(٧) لا ينبغي تفضيل قراءة على أخرى استناداً إلى رؤية منامية، فالقراءة ثبت بالسند الصحيح المتواتر - قال ابن الجزري:

فكل ما وافق وجهه نحو
وصح إسناده هو القرآن فهذه الثلاثة الأركان
وحيثما يختل ركن أثبت شدوده، لوأنه في السبعة

انظر / طيبة النشر «المقدمة». والنشر في القراءات العشر لابن الجزري ج ١.

(٨) في ظ [وقيل أيضاً معنى الدين يعني يوم القضاء كما قال الله تعالى ﴿ليأخذ أخاه في دين الملك﴾ يعني: في قضائه].

(٩) اللسان: دين.

(١٠) جزء بيت نسيه ابن منظور إلى خويلد بن نوفل الكلبي ونصه:

يا حارٍ أيقن أن ملكك زائل واعلم بأن كما تدين تُدان

(اللسان: دين)

(اليوم) فأجاب جميع الخلق (الله الواحد القهار) فكذلك ههنا. قال: (مالك يوم الدين) يعني في ذلك اليوم لا يكون مالك، ولا قاض ولا مجاز غيره. قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هو تعليم، علم المؤمنين كيف يقولون إذا قاموا بين يديه في الصلاة فأمرهم بأن يذكروا عبوديتهم وضعفهم حتى يوفقهم ويعينهم فقال (إياك نعبد) أي نوحده ونطيع. وقال بعضهم (إياك نعبد) يعني إياك نطيع طاعة، نخضع فيها لك. وقوله تعالى (واياك نستعين) يقول: [بك نستوثق]^(١) على عبادتك وقضاء الحقوق. وفي هذا دليل على أن الكلام قد يكون بعضه على وجه المغاية وبعضه على وجه المخاطبة، لأنه افتتح السورة بلفظ المغاية وهو قوله (الحمد لله) ثم ذكر بلفظ المخاطبة، فقال ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهذا كما قال في آية أخرى (وهو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك) فذكر بلفظ المخاطبة، ثم قال (وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها) [هذا ذكر]^(٢) على المغاية. ومثل هذا في القرآن كثير. قوله تعالى ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ رويت القراءتان عن ابن كثير أنه قرأ «السرطا» بالسين وروي عن حمزة أنه قرأ بالزاي وقرأ الباقر بالصاد^(٣) وكل ذلك جائز، لأن مخرج السين والصاد واحد وكذلك الزاي مخرجه منهما قريب، والقراءة المعروفة بالصاد [اهدنا الصراط المستقيم]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: [اهدنا]^(٤) يعني أرشدنا «الصراط المستقيم» وهو الإسلام [فإن قيل: أليس هو الطريق المستقيم؟ وهو الإسلام فما]^(٥) معنى السؤال؟ قيل له: الصراط المستقيم، هو الذي ينتهي بصاحبه إلى المقصود. فانما يسأل العبد ربه أن يرشده إلى الثبات على الطريق الذي ينتهي به إلى المقصود، ويعصمه من السبل المتفرقة. وقد روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: خط لي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خطأ مستقيماً، وخط بجنبه خطوطاً، ثم قال: إن هذا الصراط المستقيم وهذه السبل، وعلى رأس كل طريق شيطان يدعو إليه ويقول: هلم إلى الطريق^(٦) وفي هذا نزلت هذه الآية (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) فلهذا قال: اهدنا الصراط المستقيم واعصمنا من السبل المتفرقة قال الكلبي: أمتنا على دين الإسلام. وروي عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه قال: (اهدنا [الصراط المستقيم])^(٧) يعني ثبتنا عليه. ومعنى قول علي: ثبتنا عليه. يعني احفظ قلوبنا على ذلك، ولا تقلبها بمعصيتنا^(٨). وهذا موافق لقول الله تعالى (ويهديك صراطاً مستقيماً)^(٩) فكذلك ههنا. قوله تعالى ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ يعني طريق الذين مننت عليهم، فحفظت قلوبهم على الإسلام حتى ماتوا عليه. وهم أنبيأؤه وأصفيأؤه وأوليأؤه. فامن علينا كما مننت عليهم. اخبرنا الفقيه: أبو جعفر قال: حدثنا أبو بكر

(١) في ظ بل نستوثق.

(٢) في ظ [جاءتها].

(٣) قرأ قبل - وهو الراوي الثاني - عن ابن كثير (السرطا)، (سرطا) بالسين. وقرأ خلف عن حمزة باشمام الزاي، ووافقه خلاد في (اهدنا الصراط).

انظر إتحاف فضلاء البشر، ونهاية القول المفيد.

(٤) ما بين المعقوفين ساقط في أ.

(٥) سقط في ظ.

(٦) أخرجه أحمد في المسند ٤٣٥، ٤٦٥ في مسند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وأخرجه الدارمي في السنن ٦٧/١ في المقدمة باب في كراهية أخذ الرأي والنسائي في الكبرى كما في تحفة الأشراف ٢٥/٧ (٩٢١٥) و٤٩/٧ (٩٢٨١) وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٥٥/٣ لأحمد وعبد بن حميد والنسائي والبرار وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه.

(٧) ما بين المعقوفين من ظ.

(٨) في أ [بمعصيتك].

(٩) في ظ [يعني ثبتك عليه وقال في آية أخرى «ويهديكم صراطاً مستقيماً»].

أحمد بن محمد بن سهل^(١) القاضي قال: حدثنا أحمد بن جرير^(٢)، قال: حدثنا عمر بن اسماعيل بن مجالد^(٣) قال: حدثنا هشام بن القاسم قال: حدثنا حمزة بن المغيرة^(٤) عن عاصم^(٥) عن أبي العالية^(٦) في قوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم) قال: هو النبي - عليه السلام - وصاحبه من بعده أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. قال عاصم: فذكرت ذلك للحسن البصري فقال: صدق والله أبو العالية ونصح^(٧). وقوله تعالى ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ أي غير طريق اليهود. يقول: لا نخذلنا بمعصيتنا، كما خذلت اليهود فلم تحفظ قلوبهم، حتى تركوا الإسلام ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ يعني ولا النصارى، لم تحفظ قلوبهم وخذلتهم بمعصيتهم حتى تنصروا. وقد أجمع المفسرون أن المغضوب عليهم أراد به اليهود، والضالين أراد به النصارى. فإن قيل: أليس النصارى من المغضوب عليهم؟ واليهود أيضاً من الضالين؟ فكيف صرف المغضوب^(٨) إلى اليهود، وصرف الضالين إلى النصارى؟ قيل له: إنما عرف ذلك بالخبر واستدللاً بالآية: فأما الخبر فما روي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن رجلاً سألوه وهو بوادي القرى من المغضوب عليهم؟ قال: اليهود، قال: ومن الضالين؟ فقال: النصارى وأما الآية فلأن الله تعالى قال في قصة اليهود: (فبأوا بغضب على غضب) وقال تعالى في قصة النصارى (قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل)^(٩) (آمين) ليس من السورة. ولكن روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه كان يقوله، ويأمر به^(١٠)، ومعناه ما قال ابن عباس: يعني كذلك يكون، وروي عن مجاهد أنه قال: هو

(١) أحمد بن محمد بن سهل المزكي كان شيخ أصحاب أبي حنيفة توفي سنة ٣٥٢ هـ. الجواهر المضيئة ٢٧٠/١.

(٢) أحمد بن جرير البلخي أبو حامد وهو ابن جرير بن المسيب صدوق. الجرح والتعديل ٤٥/٢.

(٣) في أ [ابن مجاهد. وهو عمر بن إسماعيل بن مجالد بن سعيد الكوفي الهمداني نزيل بغداد قال يحيى بن معين أنه ليس بشيء كذاب رجل سوء وذلك لأنه حدّث بأحاديث لا أصل لها. تهذيب التهذيب ٤٢٧/٧. الجرح والتعديل ٩٩/٦.

(٤) حمزة بن المغيرة بن نشيط الكوفي من الثقات. تهذيب التهذيب ٢٧٠/٦.

(٥) عاصم بن سليمان الأصبلي أبو عبد الرحمن من حفاظ البصرة التابعي ثقة اشتهر بالزهد والعبادة /تهذيب التهذيب ٤٢/٥. الجرح والتعديل ٣٤٣/٦.

(٦) رفيع بن مهران الرياحي مولاهم البصري أسلم بعد وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - يستن من كبار التابعين مجمع على توثيقه. تهذيب التهذيب ٨٤/٣.

(٧) أخرجه الحاكم في المستدرک ٢٥٩/٢ في كتاب التفسير / باب شرح الصراط المستقيم وانظر الدر المنثور ١٥/١.

(٨) في ظ [عليهم].

(٩) في ظ [وقوله آمين].

(١٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال - صلى الله عليه وسلم - : «إذا أمّن الإمام فأمنوا فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه» أخرجه البخاري ٢٦٢/٢ كتاب الأذان باب جهر الإمام بالتأمين ٧٨٠، أخرجه مسلم ٣٠٧/١ كتاب الصلاة باب التسميع والتحميد والتأمين ٤١٠/٧٢.

وفي رواية إذا أمن القارئ فأمنوا فإن الملائكة تؤمن فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه.

أخرجه البخاري ٢٠٠/١١ كتاب الدعوات باب التأمين ٦٤٠٢.

وفي رواية إذا قال الإمام غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقولوا آمين فإن الملائكة تقول آمين وإن الإمام يقول آمين فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه.

أخرجه البخاري ٢٦٦/٢ كتاب الأذان باب جهر المأموم بالتأمين ٧٨٢ دون قوله فإن الملائكة تقول آمين وإن الإمام يقول آمين، أخرجه بلفظه أحمد ٢٣٣/٢، ٢٧٠ في مسند أبي هريرة، النسائي في المجتبى ١٤٤/٢ كتاب الافتتاح باب جهر الإمام بالتأمين.

اسم من أسماء الله تعالى ويكون معناه: يا الله استجب دعاءنا. وقال بعضهم: هي لغة بالسريانية. وروي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: ما حسدتكم اليهود في شيء، كحسدكم في (آمين) يعني: أنهم يعرفون ما فيه من الفضيلة^(١). وروي عن كعب الأحبار أنه قال: (آمين) خاتم رب العالمين، يختم به دعاء عباده المؤمنين. وقال مقاتل: هو قوة للدعاء واستئزال للرحمة. وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معنى آمين؟ قال: رب افعل^(٢). ويقال: فيه لغتان (آمين) بغير مد، و(آمين) بالمد^(٣)، ومعناها واحد وقد جاء في أشعارهم / كلا الوجهين. قال القائل^(٤):

تباعد عني فُطُحِل^(٥) اذ دَعَوْتِه آمين فزاد الله ما بيننا بعدا
وقال الآخر^(٦):

يا ربَّ لا تَسْلُبْنِي حُبَّها أبدا ويرحم الله عبدا قال: آمينا
وصلى الله على سيدنا محمد

(١) أخرجه ابن ماجه ٢٧٨/١ في كتاب إقامة الصلاة / باب الجهر بآمين (٨٥٦) وقال البوصيري في الزوائد ٢٩٧/١ هذا إسناد صحيح احتج مسلم بجميع رواته ورواه أحمد في مسنده وابن خزيمة في صحيحه والطبراني في معجمه الكبير ورواه البيهقي في السنن ومن طريق محمد بن الأشعث عن عائشة رضي الله عنها والبخاري أيضاً في الأدب المفرد (٩٨٨) وذكره المنذري في الترغيب ٣٣٠/١ والسيوطي في الدر المنثور ٢١٧/١، ١٨٩/٢ وابن حجر في الفتح ٢٠٠٢٤/١١ وعبد الرزاق في المصنف (٢٦٤٩) وابن عبد البر في التمهيد (١٥/٧).

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٧/١.

(٣) قال ابن منظور وآمين وآمين: كلمة تقال في إثر الدعاء، قال الفارسي: هي جملة مركبة من فعل واسم، معناه: اللهم استجب لي. (اللسان: أمن)

(٤) البيت في اللسان غير منسوب (أمن) وفيه (سألته) بدل (دعوته).

(٥) في أ [مخطب].

(٦) البيت نسبة ابن منظور لعمر بن ربيعة انظر لسان العرب مادة (أمن).

سُورَةُ الْبَقَرَةِ (١)

مدينة وهي مائتان وسبع وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اَلَمْ ذٰلِكَ اَلْكِتٰبُ لَا رَيْبَ فِيْهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِيْنَ ﴿١﴾

قال الفقيه: حدثني أبي رحمه الله، قال: حدثني محمد بن حامد، قال: حدثنا علي بن اسحاق قال: حدثنا محمد بن مروان عن عطاء بن السائب عن أبي الضحى عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿اَلَمْ﴾ يعني: أنا الله أعلم.

(١) وهذه السورة مترامية أطرافها وأساليبها ذات أفنان قد جمعت من وشائج أغراض السور ما كان مصداقاً لتلقيها فسطاط القرآن. فلا تستطيع إحصاء محتوياتها بحسان وعلى الناظر أن يترقب تفاصيل منها فيما يأتي لنا من تفسيرها ولكن هذا لا يحجم بنا عن التعرض إلى لائحات منها وقد حيكت بنسج المناسبات والاعتبارات البلاغية من لُحمة محكمة في نظم الكلام وسدى متين من فصاحة الكلمات.

ومعظم أغراضها ينقسم إلى قسمين: قسم يثبت سمو هذا الدين على ما سبقه وعلو هديه وأصول تطهيره النفوس، وقسم يبين شرائع هذا الدين لأتباعه وإصلاح مجتمعاتهم.

وكان أسلوبها أحسن ما يأتي عليه أسلوب جامع لمحاسن الأساليب الخطابية وأساليب الكتب التشريعية وأساليب التذكير والموعظة. يتجدد بمثله نشاط السامعين بتفنن اللفظين ويحضر لنا من أغراضها أنها ابتدئت بالرمز إلى تحدي العرب المعاندين تحدياً إجمالياً بحروف التهجي المفتحة بها رمزاً يقتضي استشرافهم لما يرد بعده وانتظارهم لبيان مقصده فأعقب بالتنويه بشأن القرآن فتحول الرمز إيماء إلى بعض المقصود من ذلك الرمز له أشد وقعاً على نفوسهم فتبقى في انتظار ما يتعقبه من صريح التعجيز الذي سيأتي بعد قوله ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله﴾ الآيات.

فعدل بهم إلى ذات جهة التنويه بفائق صدق هذا الكتاب وهديه وتخلص إلى تصنيف الناس تجاه تلقيهم هذا الكتاب وانتفاعهم بهديه أصنافاً أربعة ﴿وكانوا قبل الهجرة صنفين﴾ بحسب اختلاف أحوالهم في ذلك التلقي وإذ قد كان أخص الأصناف انتفاعاً بهديه هم المؤمنون بالغيب المقيمين الصلاة يعني المسلمين - ابتدئ بذكرهم ولما كان أشد الأصناف عناداً وحقدًا صنف المشركين الصرحاء والمنافقين لف الفريقان لفاً واحداً فقورعوا بالحجج الدامغة والبراهين الساطعة ثم خص بالإطتاب صنف أهل النفاق تشويهاً لنفاقهم وإعلاناً لدخائلهم ورد مطاعنهم، ثم كان خاتمة ما قرعت من أنوفهم صريح التحدي الذي رمز إليه بدءاً تحدياً يلجئهم إلى الاستكانة ويخرس ألسنتهم عن التطاول والإبانة ويلقي في قرارات أنفسهم مذلة الهزيمة وصدق الرسول الذي تحداهم فكان ذلك من رد العجز على الصدر فاتسع المجال لدعوة المنصفين إلى عبادة الرب الحق الذي خلقهم وخلق السماوات والأرض وأنعم عليهم بما في الأرض جميعاً، وتخلص إلى صفة بدء خلق الإنسان فإن في ذلك تذكيراً لهم بالخلق الأول قبل أن توجد أصنامهم التي يزعمونها من صالحي قوم نوح ومن بعدهم، ومنه على النوع بتفضيل أصلهم على مخلوقات هذا العالم وبميزته بعلم ما لم يعلمه أهل الملأ الأعلى وكيف نشأت عداوة الشيطان له ولنسله لتهية نفوس السامعين لاتهام شهواتها ولمحاسبتها على دعواتها فهذه المنة التي شملت كل الأصناف الأربعة المتقدم ذكرها كانت مناسبة للتخلص إلى منة عظمى تخص الفريق الرابع وهم أهل الكتاب الذين هم أشد الناس مقاومة لهدي القرآن وأنفذ الفرق قولاً في عامة العرب لأن أهل الكتاب يومئذ هم أهل العلم ومظنة =

[ومعنى قول ابن عباس (أنا الله أعلم)^(١) يعني^(٢) الألف: أنا، واللام: الله، والميم: أعلم، لأن القرآن نزل بلغة

= اقتداء العامة لهم من قوله ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي﴾ الآيات فأظن في تذكيرهم بنعم الله وأيامه لهم ووصف ما لا قوا به نعمه الجمّة من الانحراف عن الصراط السوي انحرافاً بلغ بهم حد الكفر وذلك جامع لخلاصة تكوين أمة إسرائيل وجامعتهم في عهد موسى ثم ما كان من أهم أحداثهم مع الأنبياء الذين قفوا موسى إلى أن تلقوا دعوة الإسلام بالحسد والعداوة حتى على الملك جبريل وبيان أخطائهم لأن ذلك يلقي في النفوس شكاً في تأهلهم للاقتداء بهم. وذكر من ذلك نموذجاً من أخلاقهم في تعلق الحياة ﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة﴾ ومحاولة العمل بالسحر ﴿وأتبعوا ما تتلو الشياطين﴾ السخ وأذى النبي بموجة الكلام ﴿لا تقولوا راعنا﴾.

ثم قرن اليهود والنصارى والمشركون في قرن حسدهم المسلمين والسخط على الشريعة الجديدة ﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين - إلى قوله - ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ ثم ما أثير من الخلاف بين اليهود والنصارى وادعاء كل فريق أنه هو المحق ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء - إلى - يختلفون﴾ ثم خص المشركين بأنهم أظلم هؤلاء الأصناف الثلاثة لأنهم منعوا المسلمين من ذكر الله في المسجد الحرام وسمحوا بذلك في خرابه وأنهم تشابهوا في ذلك هم واليهود والنصارى واتحدوا في كراهية الإسلام.

والاحتراز عن إيجابتها في الذين كفروا منهم وأن الإسلام على أساس هلة إبراهيم وهو التوحيد وأن اليهودية والنصرانية ليستا ملة إبراهيم وأن من ذلك الرجوع إلى استقبال الكعبة ادخره الله للمسلمين أية على أن الإسلام هو القائم على أساس الحنيفية وذكر شعائر الله بمكة وإيكات أهل الكتاب في طعنهم على تحويل القبلة وإن العناية بتزكية النفوس أجدر من العناية باستقبال الجهات ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾ وذكروا بنسخ الشرائع لصالح الأمم وأنه لا بدع في نسخ شريعة التوراة أو الإنجيل بما هو خير منهما. ثم عاد إلى محاجة المشركين بآثار صنعة الله ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك الخ﴾ ومحاجة المشركين في يوم يترأون فيه من قادتهم وإبطال مزاعم دين الفريقين في محرمات من الأكل ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ وقد كمل ذلك بذكر صنف من الناس قليل وهم المشركون الذين لم يظهروا الإسلام ولكنهم أظهروا مودة المسلمين ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا﴾.

ولما قضى حق ذلك كله بأبدع بيان وأوضح برهان انتقل إلى قسم تشريعات الإسلام إجمالاً بقوله ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾ ثم تفصيلاً: القصص الوصية الصيام الاعتكاف، الحج الجهاد ونظام المعاشرة والعائلة والمعاملات المالية والإنفاق في سبيل الله والصدقات والمسكرات واليتامى والموارث والبيع والربا والديون والإشهاد والرهن والنكاح وأحكام النساء والعدة والطلاق والرضاع والنفقات والأيمان.

وختمت السورة بالدعاء المتضمن لخصائص الشريعة الإسلامية وذلك من جوامع الكلم فكان هذا الختام تذليلاً وفذلكة ﴿لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدو ما في أنفسكم أو تخفوه﴾ الآيات.

وكانت في خلال ذلك كله أغراض شتى سيقنت في معرض الاستطراد في متفرق المناسبات تجديداً لنشاط القارئ والسامع كما يسفر وجه الشمس إثر نزول الغيوث الهوامع وتخرج بواذر الزهر عقب الرعود القوارع من تمجيد الله وصفاته ﴿الله لا إله إلا هو﴾ ورحمته وسماحة الإسلام وضرب أمثال ﴿أو كَصِيبٍ﴾ واستحضار نظائر ﴿وإن من الحجارة﴾ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم ﴿وعلم وحكمة ومعاني الإيمان والإسلام وتثبيت المسلمين﴾ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر ﴿والكمالات الأصلية والمزايا التحسينية وأخذ الأعمال والمعاني من حقائقها وفوائدها لا من هيئاتها وعدم الاعتداد بالمصطلحات إذا لم ترم إلى غايات﴾ وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم﴾ وإخراج أهله منه أكبر عند الله ﴿والنظر والاستدلال ونظام المحاجة وأخبار الأمم الماضية والرسول وتفاضلهم واختلاف الشرائع.

انظر التحرير ٢٠٣/١ - ٢٠٤ - ٢٠٥ - ٢٠٦.

(١) أخرجه الطبري عن شيخه عن وكيع: عن أبي كريب القاضي وعن سفيان بن وكيع كلاهما عن وكيع عن شريك وهو ابن عبد الله النخعي القاضي ٢٠٧/١ (٢٣٨).

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من أ.

العرب، والعرب قد كانت تذكر حرفاً وتريد به تمام الكلمة. ألا ترى إلى قول القائل^(١):

قلت لها قفي لنا قالت قاف لا تحسبي أنا نسينا الإيجاف^(٢)

يعني بالقاف: قد وقفت. وقال الكلبي: هذا قسم، أقسم الله تعالى بالقرآن، أن^(٣) هذا الكتاب الذي أنزل على^(٤) (قلب) محمد صلى الله عليه وسلم هو الكتاب الذي نزل من عند الله تعالى لا ريب فيه. وقال بعض أهل اللغة إن هذا الذي قال الكلبي لا يصح، لأن جواب القسم معقود على حروف مثل (ان، وقد، ولقد، وما، واللام) وهنا لم نجد حرفاً من هذه الحروف فلا يجوز أن يكون يمينا. ولكن الجواب أن يقال: موضع القسم قوله (لا ريب فيه) فلو أن انساناً^(٥) حلف فقال: والله هذا الكتاب لا ريب فيه لكان الكلام سديداً^(٦) وتكون لا جواباً للقسم، فثبت أن قول الكلبي صحيح سديد. فإن قيل: أيش الحكمة في القسم من الله تعالى، وكان القوم في ذلك الزمان على صنفين، مصدق ومكذب، فالمصدق يصدق بغير قسم، والمكذب لا يصدق مع القسم. قيل له القرآن نزل بلغة العرب، والعرب إذا أراد بعضهم أن يؤكد كلامه أقسم على كلامه فالله تعالى أراد أن يؤكد عليهم الحجة فأقسم أن القرآن من عنده^(٧). وقد قيل ألم: الألف الله تعالى، واللام: جبريل، والميم: محمد - صلى الله عليه وسلم - ويكون معناه: الله الذي أنزل جبريل على محمد بهذا القرآن لا ريب فيه. وقال بعضهم: كل حرف هو افتتاح اسم من أسماء الله تعالى. فالألف مفتاح اسمه: الله، واللام مفتاح اسمه اللطيف، والميم مفتاح اسمه: مجيد، ويكون معناه: الله اللطيف المجيد أنزل الكتاب^(٨). وروي عن محمد بن كعب^(٩) بن علي الترمذي^(١٠) أنه قال: إن الله تعالى أودع جميع ما في تلك السورة من الأحكام والقصص في الحروف التي ذكرها في أول السورة، ولا يعرف ذلك إلا نبي أو ولي، ثم بين ذلك في جميع السور ليفقه الناس. وروي عن الشعبي أنه قال: إن الله تعالى سراً جعله في كتبه، وإن سره في القرآن هو الحروف المقطعة^(١١) وروي عن عمر وعثمان وابن مسعود رضي الله عنهم أنهم قالوا: الحروف المقطعة من المكتوم الذي لا يفسر وعن علي رضي الله عنه: هو اسم من أسماء الله تعالى، فرقت حروفه في السور. يعني أن ههنا قد ذكر (الم) وذكر: (آل) في موضع آخر، وذكر (حم) في موضع آخر (نون) في موضع. فإذا جمعت يكون (الرحمن) وكذلك سائر الحروف إذا جمع يصير اسماً من أسماء الله^(١٢) وذكر قطرب أن المشركين كانوا لا يستمعون القرآن كما قال الله تعالى (والغوا فيه لعلكم تغلبون) فأراد أن يسمعهم شيئاً لم يكونوا سمعوه ليحملهم ذلك إلى الاستماع حتى تلزمهم الحجة وقال بعضهم: إن المشركين كانوا يقولون: لا

(١) البيت للوليد بن عتبة انظر تفسير الطبري - تحقيق محمود شاكر ٢١٢/١ والشرطة الأولى في اللسان / وقف.

(٢) في أ

[لا تحسبن أنت أنا نسينا الإيجاف قلت لها قفي فقالت قاف]

(٣) في أ [لأن]. (٦) ذكر ذلك القرطبي نقلاً عن مصنفنا رحمه الله تعالى (١/١٥٦).

(٤) ساقطة في ظ. (٧) انظر القرطبي نقلاً عن المصنف المصدر السابق.

(٥) في ظ [حالفاً]. (٨) في ظ [على محمد].

(٩) ساقطة في ظ.

(١٠) محمد بن علي بن الحسن بن بشير أبو عبد الله الحكيم الترمذي باحث صوفي عالم بالحديث وأصول الدين من أهل (ترمذ) من تصانيفه الرياضة، وأدب النفس، الصلاة ومقاصدها. توفي سنة ٣٢٠ هـ. الأعلام ٦/٢٧٢.

(١١) الدر المنثور ١/٣٢.

(١٢) ذكر ذلك السيوطي في الدر المنثور ١/٢٢.

نفقه هذا القرآن، لأنهم قالوا: (قلوبنا في أكنة) فأراد الله أن يبين لهم أن القرآن مركب على الحروف التي ركب [عليها] ^(١) السنتكم [يعني هو على لغتكم] ^(٢)، ما لكم لا تفقهون؟ وإنما أراد بذكر الحروف تمام الحروف، كما أن الرجل يقول: علمت ولدي: أ، ب، ت، ث، وانما يريد جميع الحروف ولم يرد به الحروف الأربعة خاصة. وقال بعضهم: هو من شعار السور وكان اليهود أعداء الله فسروه على حروف الجمل، لأنه ذكر أن جماعة من اليهود منهم كعب بن الأشرف وحبي بن أخطب، وأبو ياسر بن أخطب، وشعبة بن عمرو ومالك بن الصيف دخلوا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقالوا: بلغنا أنك قرأت: (آلَمَ ذلك الكتاب) فإن كنت صادقاً، فيكون بقاء أمتك إحدى وسبعين سنة، لأن الألف: واحد، واللام: ثلاثون، والميم: أربعون، فضحك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم قالوا له: وهل غير هذا؟ قال: نعم. (المص) فقالوا: هذا أكثر لأن (ص) ^(٣) تسعون. فقالوا: هل غير هذا؟ قال: نعم. (آل) فقالوا: هذا أكثر، لأن (راء): مائتان. ثم ذكر (آلَمَ) فقالوا: خلطت علينا [يا محمد] ^(٤) لا ندري أبالقليل نأخذ أم بالكثير؟ وإنما أدركوا من القرآن مقدار عقولهم وكل إنسان يدرك العلم بمقدار عقله. وكل ما ذكر في القرآن من الحروف المقطعة، فتفسيره نحى ما ذكرنا ها هنا ^(٥) [والله أعلم

(٣) في أ [الصلاة].

(١) ساقطة في ظ.

(٤) ساقط في ظ.

(٢) ساقطة في ظ.

(٥) يلاحظ على الحروف المقطعة في أوائل السور ما يلي :-

أولاً: أن عدد السور التي ابتدئت بها تسع وعشرون سورة، ومعظمها من السور المكية عدا البقرة وآل عمران، ومجموع ما وقع من حروف الهجاء في أوائل السور أربعة عشر حرفاً وهي نصف حروف الهجاء بعضها تكرر في سور وبعضها لم يتكرر، وهي من القرآن لا محالة، ومن المتشابه في تأويلها.

ثانياً: لا خلاف أن هذه الفواتح أسماء لحروف التهجي التي ينطق في الكلام بمسمياتها وأن مسمياتها الأصوات المكيعة بكيفيات خاصة تحصل في مخارج الحروف.

ثالثاً: اختلف العلماء في المعنى المقصود من حروف التهجي التي افتتحت بها بعض السور القرآنية وقد سردها المؤلف رحمه الله ونحن نوجزها كلها في رأيين.

الرأي الأول: أن المعنى المقصود منها غير معروف، خص من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه. وإلى هذا الرأي ذهب ابن عباس في إحدى الروايات عنه - كما ذهب إليه الشعبي، وسفيان الثوري، وغيرهما من العلماء فقد أخرج ابن المنذر وغيره عن الشعبي أنه سئل عن فواتح السور فقال «إن لكل كتاب سرّاً، وإن سر هذا القرآن فواتح السور» وروي عن ابن عباس أنه قال: عجزت العلماء عن إدراكها العلماء عن إدراكها. وعن علي رضي الله عنه أنه قال: «إن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي» وفي رواية أخرى للشعبي أنه قال: سر الله فلا تطلبوه.

ومن الاعتراضات التي وجهت إلى هذا الرأي أنه إذا كان الخطاب بهذه الفواتح غير مفهوم للناس لأنه من المتشابه فإنه يترتب على ذلك أنه كالخطاب بالمهمل، أو مثل ذلك كمثّل التكلم بلغة أعجمية مع أناس عرب لا يفهمونها.

وقد أجيب عن ذلك بأن هذه الألفاظ لم ينتف الإفهام عنها عند كل الناس فالرسول - صلى الله عليه وسلم - كان يفهم المراد منها، وكذلك بعض أصحابه المقربين، ولكن الذي تنفيه أن يكون الناس جميعاً فاهمين لمعنى هذه الحروف المقطعة في أوائل بعض السور. وهناك مناقشات للعلماء حول هذا الرأي لا مجال لذكرها هنا.

أما الرأي الثاني: فيرى أصحابه أن المعنى المقصود منها معلوم، وأنها ليست من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، وأصحاب هذا الرأي قد اختلفوا فيما بينهم في تعيين هذا المعنى المقصود على أقوال كثيرة من أهمها ما يأتي :-

١ - أن هذه الحروف أسماء للسور، بدليل قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : «من قرأ حم السجدة حفظ إلى أن يصبح». وبدليل اشتها

بعض السور بالتسمية بها، كسورة (ص) وسورة (يس) الخ.

بالصواب^(١). قوله عز وجل ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ أي هذا الكتاب^(٢) ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا شك فيه أنه مني، لم يختلفه محمد من تلقاء نفسه. وقد يوضع ذلك بمعنى هذا كما قال القائل:

أقول له والرمح يَأْطُرُ مَتْنَهُ تأمل خفافاً انني أنا ذلكا^(٣)

يعني هذا. وقال بعضهم: معناه ذلك الكتاب الذي [كنت وعدتك يوم الميثاق أن أوحيه اليك، وقال بعضهم: معناه ذلك الكتاب الذي]^(٤) وعدت في التوراة والإنجيل أن أنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - وروي عن زيد بن أسلم^(٥) أنه قال: أراد بالكتاب اللوح المحفوظ، يعني الكتاب ثبت في اللوح المحفوظ. وقوله

= ولا يخلو هذا القول عن الضعف، لأن كثيراً من السور قد افتتحت بلفظ واحد من هذه الفواتح، فلو كانت أسماء للسور لم تتكرر لمعان مختلفة، لأن الغرض من التسمية رفع الاشتباه وأيضاً فالتسمية بها أمر عارض لا يتنافى مع المراد منها في ذاتها.

٢- وقيل إن هذه الحروف قد جاءت هكذا فاصلة للدلالة على انقضاء سورة وابتداء أخرى.

٣- وقيل إنها حروف مقطعة بعضها من أسماء الله تعالى، وبعضها من صفاته، فمثلاً «الم» أصلها أنا الله أعلم.

٤- وقيل إنها اسم الله الأعظم، إلى غير ذلك من الأقوال التي لا تخلو من مقال والتي أوصلها الفخر الرازي في تفسيره والسيوطي في الإتقان وغيرهما إلى أكثر من عشرين قولاً.

٥- ولعل أقرب الأقوال إلى الصواب أن هذه الحروف المقطعة قد وردت في افتتاح بعض سور القرآن على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن فكان الله تعالى يقول لأولئك المعارضين في أن القرآن من عند الله: هاكم القرآن ترونه مؤلفاً من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ومنظوماً من حروف هو من جنس الحروف الهجائية التي تنظمون منها حروفكم فإن كنتم في شك من كونه منزلاً من عند الله فهاتوا مثله، وادعوا من شئتم من الخلق لكي يعاونكم في ذلك.

ومما يشهد بصحة هذا الرأي أن الآيات التي تلي هذه الأحرف المقطعة تتحدث عن الكتاب وكونه معجزة للرسول - صلى الله عليه وسلم - وكثيراً ما تبدأ هذه الآيات باسم الإشارة صراحة، مثل قوله تعالى: ﴿الْم﴾ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴿أو ضمناً مثل قوله تعالى في أول سورة الأعراف ﴿الْمَصِّ﴾ كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به . . .﴾ وأيضاً فإن هذه السور تجعل هدفها الأول منذ بدئها إلى نهايتها إثبات الرسالة عن طريق هذا الكتاب المنزل.

هذه خلاصة موجزة لآراء العلماء في الحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض السور القرآنية، ومن أراد مزيداً لذلك فليرجع إلى تفسير الفخر الرازي ٣/٢ - ١٣، والجامع لأحكام القرآن ١٠٨/١ - ١١٠ والكشاف ١٣/١، ١٤ والبرهان في علوم القرآن ٢١٤/١ - ٢٢٦ والإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢١/٣ - ٣٠ وروح المعاني ٩٨/١ - ١٠٤ وتفسير سورة الأعراف للدكتور أحمد السيد الكومي ط دار الجيل للطباعة بمصر.

(١) من ظ.

(٢) في أ الذي.

(٣) هو خفاف بن عمير بن الحارث بن الشريد، من بني سليم بن منصور و«نُدْبَة» أمه وهو ابن عم صخر والخنساء، شاعر فارس، أحد أغربة العرب، مخضرم، عاش في الجاهلية وأدرك الإسلام فأسلم، ولم يرتد حين ارتدت بنو سليم بل لآمهم على ردتهم في شعر له. . . ترجمته في الاستيعاب ٢/٤٥٠ تحقيق البجاوي ط نهضة مصر، والإصابة ٣٢٦٩، وأسد الغابة ٢/١٣٨، ١٣٩ ط الشعب، المعارف لابن قتيبة ٣٢٥ تحقيق د/ ثروت عكاشة، الخزائن ٤/١٥، الأغاني ١٨/٧٤ وما بعدها ط دار الكتب، الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣٤١.

والبيت في ديوانه - برقم ٩ ص (٦٤). وفي الخزائن وغيرهما يَأْطُرُ: يثني ويلوي - والمخاطب هنا: مالك بن حمار، سيد بني شمع الذي طعنه خفاف فقتله ثائراً لابن عمه معاوية بن الشريد السلمي.

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من أ.

(٥) زيد بن أسلم العدوي أبو عبد الله مولاهم أبو أسامة من أهل المدينة ثقة كثير الحديث وله كتاب في التفسير تهذيب التهذيب ٣٩٥/٣. الجرح والتعديل ٣/٥٥٥.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا شك فيه أنه من الله تعالى ولم يخلقه محمد من تلقاء نفسه. فإن قيل: كيف يجوز أن يقال: لا شك فيه؟ وقد شك فيه كثير من الناس وهم الكفار والمنافقون؟ قيل له: معناه لا شك فيه عند المؤمنين وعند العقلاء. وقيل: معناه لا شك فيه أي لا ينبغي أن يشك فيه، لأن القرآن معجز فلا ينبغي أن يشك فيه أنه من الله تعالى. قوله عز وجل ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي بيانا لهم من الضلالة (للمتقين) الذين يتقون الشرك والكبائر والفواحش. فهذا القرآن بيان لهم من الضلالة وبيان لهم من الشبهات، وبيان الحلال من الحرام. فإن قيل: فيه بيان لجميع الناس. فكيف أضاف إلى المتقين خاصة؟ قيل له: لأن المتقين هم الذين ينتفعون بالبيان، ويعملون^(١) به، فإذا كانوا هم الذين ينتفعون [بالبيان]^(٢)، صار في [الحقيقة حاصل]^(٣) البيان لهم. روي عن أبي روق^(٤) أنه قال: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي كرامة لهم. يعني إنما أضاف إليهم إجلالاً وكرامة لهم، وبيانا لفضلهم.

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾

قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ أي يصدقون بالغيب. والغيب: هو ما غاب عن العين، وهو محضر في القلب، وإنما أراد به أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن تابعهم إلى يوم القيامة أنهم يصدقون بغيب القرآن أنه من الله تعالى فيحلون حلاله، ويحرمون حرامه. ويقال: يؤمنون بالغيب يعني بالله تعالى حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا الديلمي^(٥) قال: حدثنا أبو عبيد^(٦) الله، قال: حدثنا سفيان، قال: حدثنا أصحابنا عن الحارث بن قيس أنه قال لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه نحتسب [بكم يا]^(٧) أصحاب محمد ما سبقتونا به من رؤية محمد - صلى الله عليه وسلم - وصحبته، فقال عبد الله بن مسعود: ونحن نحتسب (لكم)^(٨) إيمانكم به ولم تروه، وأن أفضل الإيمان الإيمان بالغيب، ثم قرأ عبد الله ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ وقد قيل: (يؤمنون بالغيب) يعني يصدقون بالبعث بعد الموت. وقوله تعالى ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [أي يديمون الصلاة وقد قيل أيضاً إن العبد يديم الصلاة وقد قيل]^(٩) يحافظون على الصلوات الخمس بمواقيتها وركوعها وسجودها والتضرع بعدها. وقد قيل إن العبد إذا صلى صلاة تقبل منه خلق الله تعالى منها ملكاً يقوم ويصلي لله إلى يوم القيامة، وثوابه لصاحب الصلاة. فهذا معنى قوله ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ وقوله عز وجل ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ أي يتصدقون، قال الكلبي: وهو زكاة المال. وروى أسباط^(١٠) عن السدي^(١١) عن أصحابه قال: هي نفقة الرجل على أهله وهذا قبل نزول آية الزكاة. ويقال [ينفقون أي]^(١٢) يتصدقون صدقة التطوع. ويقال: هي عليهم جميعاً التطوع والفريضة.

(١) في أو [يعلمون]. (٣) في ظ [الحاصل].

(٢) في ظ [به]. (٤) من ظ.

(٥) بفتح الدال المهملة وسكون الياء المعجمة وضم الباء نسبة إلى دَبِيل وهي بلدة من بلاد ساحل البحر من بلاد الهند قريبة من السند وهو أبو جعفر محمد بن إبراهيم بن عبد الله الديلمي سكن مكة يروي كتاب التفسير لابن عيينة. الأنساب ٥٢٣/٢، ٥٢٤.

(٦) سعيد بن عبد الرحمن المخزومي ثقة. تهذيب التهذيب ٥٥/٤. (٨) ساقطة في ظ.

(٩) ساقطة في ظ. (١٠) أسباط بن نصر الهمداني أبو يوسف ثقة روى التفسير عن السدي. تهذيب التهذيب ٢١١/٢ الجرح والتعديل ٣٣٢/٢.

(١١) إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السدي أبو محمد قرشي بالولاء وهو السدي الكبير عالم بالتفسير راوية له تهذيب التهذيب ٣١٣/١ الجرح والتعديل ١٨٤/٢.

(١٢) في ظ [يعني].

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾
أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني بالقرآن قوله ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعني التوراة والإنجيل وسائر الكتب، ويقال: لما نزلت هذه الآية: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ قالت اليهود والنصارى: نحن آمنّا بالغيّب. فلما قال ﴿وَيُقيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ قالوا: نحن نقيم الصلاة. فلما قال: ﴿وَمَا رِزْقَنَاهُمْ يَنْفَقُونَ﴾ قالوا: نحن ننفق ونتصدق. فلما قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ نفروا من ذلك. وقوله ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي يقرون [يوم] (١) القيامة والجنة والنار، والبعث، والحساب، والميزان. واليقين على ثلاثة أوجه: يقين عيان، ويقين خبر، ويقين دلالة. فأما يقين العيان: إذا رأى شيئاً زال عنه الشك في ذلك الشيء وأما يقين الدلالة: هو أن يرى دخاناً يرتفع من موضع يعلم باليقين أن هناك ناراً وإن لم يرها. وأما يقين الخبر: فإن الرجل يعلم باليقين أن في الدنيا مدينة يقال لها بغداد، وإن لم يكن يعاينها (٢). فهنا يقين خبر، ويقين دلالة، أن الآخرة حق ولكن تصوير معاناة عند الرؤية. ثم قال عز وجل ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يعني أهل هذه الصفة الذين سبق ذكرهم على بيان من الله تعالى أي أكرمهم الله تعالى في الدنيا حيث هداهم، وبين لهم طريقهم. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ في الآخرة، أي الناجون. يعني أن الله تعالى أكرمهم في الدنيا بالبيان، وفي الآخرة بالنجاة وقد قيل: الفلاح هو البقاء في النعمة. وقد قيل: الفلاح إذا بلغ الإنسان نهاية ما يأمل. ويقال: معناه قد وجدوا ما طلبوا، ونجوا من شر ما منه هربوا. وكل ما في القرآن المفلحون فتفسيره هكذا.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إن ههنا للتأكيد وهو حرف من حروف القسم. والكفر في اللغة: هو الستر، يقال: ليلة كافرة إذا كانت شديدة الظلمة، وإنما سمي الكافر كافراً، لأنه يستر نعم الله تعالى (٣). وقوله عز وجل ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ﴾ قرأ أهل الكوفة وعاصم وحزمة والكسائي أنذرتهم بهمزتين وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو (٤) في رواية هشام بهمزة واحدة مع المد (أنذرتهم) وتفسير القراءتين لا يختلف (٥). قال مقاتل: نزلت هذه الآية في مشركي قريش، منهم عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل وغيرهم. وقال الكلبي: نزلت في رؤساء

(١) في ظ [بيوم].

(٢) في أ [ينته إليها].

(٣) قال في اللسان: وكل من ستر شيئاً فقد كفره وكفره، وسُمي الزارع كافراً لستره البذور بالتراب قال تعالى «كمثل غيث أعجب الكفار نباته» قال: ويطلق على الليل «كافر» لأنه يستر بظلمته كل شيء... (اللسان، والصحاح: كفر).

(٤) قرأ أهل الكوفة وابن عامر (أنذرتهم) بهمزتين حجتهم في ذلك أن الهمزة حرف من حروف المعجم تغييره من سائر الحروف فيصح الجمع بينهما. وقرأ نافع وأبو عمرو (أنذرتهم) (أنت) يهزم أن ثم يمدان بعد الهمزة والأصل (أنذرتهم) ثم تلين الهمزة في أنذرتهم.

وقرأ ورش عن نافع وابن كثير (أنذرتهم) بهمزة واحدة غير مطولة، ومذهبه: أن يحقق الأول ويخفف الثانية.

راجع / حجة القراءات - ابن زنجلة ص (٨٦) تحقيق سعيد الأفغاني وإتحاف فضلاء البشر، إرشاد المريد (باب الهمزتين).

(٥) في ظ وابن عامر في رواية هشام وأنذرتهم.

اليهود: منهم كعب بن الأشرف، وحبي بن أخطب، وأبو ياسر بن أخطب. قال الكلبي: وليس هو بأخي حبي. وقال بعضهم هو أخو حبي، دخلوا على النبي - صلى الله عليه وسلم - حيث سألوه عن (الم) و«المص» ثم خرجوا من عنده فنزل قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي جحدوا بالقرآن سواء عليهم أنذرتهم ﴿أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ يعني خوفتهم أو لم تخوفهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يصدقون. فإن قيل: إذا علم أنهم لا يؤمنون، فما معنى دعوتهم إلى الإسلام؟ قيل له: لأن في الدعوة زيادة الحجة عليهم، كما أن الله تعالى بعث موسى إلى فرعون ليدعوه إلى الإسلام وعلم أنه لا يؤمن. وجواب آخر: إن الآية خاصة، وليست بعامّة، وإنما أراد به بعض الكفار الذين ثبتوا على كفرهم، كما روي عن صفية بنت حبي بن أخطب قالت: رجع أبي وعمي من عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال أحدهما لصاحبه: ما ترى في هذا الرجل؟ فقال: إنه نبي، فقال: ما رأيك في اتباعه؟ فقال: رأيي أن لا أتبعه، وأن أظهر له العداوة إلى الموت. فلما نزلت الآية في شأن مثل هؤلاء الذين قد ظهر لهم الحق وكانوا لا يؤمنون. فقال: (أنذرتهم). وأصل الإنذار هو الإعلام. يعني خوفتهم بالنار، وأعلمتهم بالعذاب أو لم تعلمهم^(١) فهو سواء ولا يصدقونه.

خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غَشَاةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ

قوله تعالى ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي طبع الله، ومعنى الختم على قلوبهم أي^(٢)، ليس أنه يذهب بعقولهم ولكنهم لا يتفكرون فيعتبرون بعلامات نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - فيؤمنون^(٣)

(١) في أ [تعلمهم لا يتفكرون].

(٢) في ظ [القلوب].

(٣) في أ [فلا يؤمنون]. ظاهر قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ﴾ أنه أخبر من الله تعالى بختمه وحمله بعضهم على أنه دعاء عليهم وكنى بالختم على القلوب عن كونها لا تقبل شيئاً من الحق ولا تعيه لإعراضها عنه فاستعار الشيء المحسوس للشيء المعقول أو مثل القلب بالوعاء الذي ختم عليه صوتاً لما فيه ومنعاً لغيره من الدخول إليه. والأول مجاز الاستعارة، والثاني مجاز التمثيل ونقل عن مضي أن الختم حقيقة وهو انضمام القلب وانكماشه.

قال مجاهد: إذا أذنبت ضم من القلب هكذا وضم مجاهد الخنصر ثم إذا أذنبت ضم هكذا وضم البصر ثم هكذا إلى الإبهام وهذا هو الختم والطبع والرّين.

وقيل الختم سمة تكون فيهم تعرفهم الملائكة بها من المؤمنين وقيل حفظ ما في قلوبهم من الكفر ليجازيهم. وقيل الشهادة على قلوبهم بما فيها من الكفر ونسبة الختم إلى الله تعالى بأي معنى فسر إسناد صحيح إذ هو إسناد إلى الفاعل الحقيقي إذ الله تعالى خالق كل شيء وقد تأول الزمخشري وغيره من المعتزلة هذا الإسناد إذ مذهبهم أن الله تعالى لا يخلق الكفر ولا يمنع من قبول الحق والوصول إليه إذ ذاك قبيح والله تعالى يتعالى عن فعل القبيح وذكر أنواعاً من التأويل عشرة (ملخصها).

الأول: أن الختم كنى به عن الوصف الذي صار كالخلقي وكانهم جبلوا عليه وصار كأن الله هو الذي فعل بهم ذلك.

الثاني: أنه من باب التمثيل كقولهم: طارت به العنقاء إذا أطال الغيبة وكانهم مثلت حال قلوبهم بحال قلوب ختم الله عليها.

الثالث: أنه نسبة إلى السبب لما كان الله هو الذي أقدر الشيطان ومكنه أسند إليه الختم.

الرابع: أنهم لما كانوا مقطوعاً بهم أنهم لا يؤمنون طوعاً ولم يبق طريق إيمانهم إلا بالجهل وفسر وترك القسر عبر عن تركه بالختم.

الخامس: أن يكون حكاية لما يقوله الكفار تهكماً كقولهم قلوبنا في أكنة.

السادس: أن الختم منه على قلوبهم هو الشهادة منه بأنهم لا يؤمنون.

السابع: أنها في قوم مخصوصين فعل ذلك بهم في الدنيا عقاباً عاجلاً كما عجل لكثير من الكفار عقوبات في الدنيا.

﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ فهم^(١) لا يسمعون الحق ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ أي غطاء فلا يبصرون الهدى. واتفقت الأئمة السبعة رحمهم الله على القراءة برفع الهاء (غشاة) وقرأ بعضهم بنصبها وهي قراءة شاذة^(٢). فأما من قرأ برفع الهاء، فهو على معنى الإبتداء أي: ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، ثم ابتداء فقال (وعلى أبصارهم غشاة) وأما من قرأ بالنصب فيكون الجعل فيه مضمراً، يعني: جعل على أبصارهم غشاة. فقد ذكر في شأن المؤمنين ثوابهم في الدنيا الهدى، وفي الآخرة الفلاح، وذكر في شأن الكفار عقوبتهم في الدنيا الختم، وفي الآخرة ﴿وَلَهُمْ^(٣) عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يعني عذاباً وجيعاً^(٤)، يخلص الوجد إلى قلوبهم. قال [الفقيه رحمه الله]^(٥) وفي الآية إشكال في موضعين: أحدهما في اللفظ والآخر في المعنى: فأما الذي في اللفظ ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ ذكر جماعة القلوب ثم قال: ﴿وعلى سمعهم﴾ ذكر بلفظ الوجدان، ثم قال: ﴿وعلى أبصارهم﴾ ذكر بلفظ الجمع، فجوابه: [عن هذا: أن يقال]^(٦) أن السمع مصدر والمصدر لا يثنى ولا يجمع فلهذا المعنى والله أعلم ذكر بلفظ الوجدان^(٧). وقد قيل: معنى ﴿وعلى سمعهم﴾ أي: موضع سمعهم لأن السمع لا يختم وإنما يختم موضع السمع. وقد قيل: إن الإضافة إلى الجماعة تغني عن لفظ الجماعة، لأنه قال ﴿وعلى سمعهم﴾ فقد أضاف إلى الجماعة، والشيء إذا أضيف إلى الجماعة مرة يذكر بلفظ الجماعة، ومرة يذكر بلفظ الوجدان. فلو ذكر القلوب والأبصار بلفظ الوجدان لكان سديداً في اللغة. فذكر البعض بلفظ الوجدان، والبعض بلفظ الجماعة، وهذه علامة الفصاحة لأن كتاب الله تعالى أفصح الكلام. وأما الإشكال الذي في المعنى أن يقال: إذا ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم، فمنعهم عن الهدى فكيف يستحقون العقوبة؟ والجواب عن هذا: أن يقال: أنه ختم مجازة لكفرهم. كما قال في آية أخرى: (بل طبع الله عليها بكفرهم) لأن الله تعالى قد يسر عليهم سبيل الهدى، فلو جاهدوا لوفقهم، كما قال [تعالى]^(٨) (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) فلما لم يجاهدوا واختاروا الكفر عاقبهم الله تعالى في الدنيا بالختم على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم وفي الآخرة بالعذاب العظيم. وروي عن مجاهد أنه قال: من أول سورة البقرة أربع آيات في نعت المؤمنين وآيات في نعت الكافرين، وثلاث عشرة آية في

= الثامن: أن يكون ذلك فعله بهم من غير أن يحول بينهم وبين الإيمان لضيق صدورهم عقوبة غير مانعة من الإيمان.

التاسع: أن يفعل بهم ذلك في الآخرة لقوله تعالى: ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً﴾.

العاشر: ما حُكي عن الحسن البصري وهو اختيار أبي علي الجبائي والقاضي أن ذلك سمة وعلامة يجعلها الله تعالى في قلب الكافر وسمعه تستدل بذلك الملائكة على أنهم كفار وأنهم لا يؤمنون انتهى ما قاله المعتزلة.

والمسألة يبحث عنها في أصول الدين. انظر تفسير الفخر الرازي ٥٤/٢، ٥٧ والبحر المحيط ٤٨/١.

(١) في ظ [معنى].

(٢) الأصح أن يقول «بنصب التاء» وليس الهاء، والقراءة شاذة لم تصح عن أحد من القراء السبعة بل قرأوا برفع التاء هكذا «غشاة» على أنها مبتدأ مؤخر والخبر «على أبصارهم». . . ولم ينسب ابن خالويه القراءة لأحد وإنما قال: يقرأ بالرفع والنصب انظر الحجة في القراءات السبع / سورة البقرة ص (٦٧).

(٣) في أ [كما قال تعالى لهم].

(٥) في ظ [الخليل].

(٦) ساقطة في ظ.

(٤) في ظ [موجعاً].

(٧) قال ابن منظور: قوله «على سمعهم» المراد منه على أسماعهم، وفيه ثلاثة أوجه: أحدها أن السمع بمعنى المصدر يوحد ويراد به الجمع لأن المصادر لا تجمع والثاني: أن يكون المعنى على مواضع سمعهم فحذفت المواضع، كما تقول هم عدل أي ذوو عدل والثالث: أن يكون إضافته السمع إليهم دالاً على أسماعهم. . . ومثل هذا كثير في كلام في العرب. (اللسان: سمع).

(٨) سقط في ظ.

نعت المنافقين. وروي عن مقاتل أنه قال: آيتان من أول السورة في نعت المؤمنين المهاجرين [وآيتان في نعت المؤمنين غير المهاجرين]^(١)، وآيتان في نعت مؤمني أهل الكتاب، وآيتان في نعت الكفار، وثلاث عشرة آية في نعت المنافقين من قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ إلى قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيَوْمَ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾: (من) للتبويض فإنه أراد به بعض الناس ولم يرد به جميع الناس، فكأنه قال: بعض الناس يقولون: آمنا بالله. وقد قيل: معناه، ومن الناس ناس يقولون: آمنا بالله، يعني صدقنا بالله ﴿وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وبالبعث [بعد الموت]^(٢) ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يعني ليسوا بمصدقين، بل هم منافقون، منهم: عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي، ومعتب بن قشير، وجد بن قيس، ومن تابعهم من المنافقين وفي هذه الآية دليل على أن القول بغير تصديق القلب لا يكون إيماناً لأن المنافقين كانوا يقولون بالستهم، ولم يكن لهم تصديق القلب، فنفى الله الإيمان عنهم فقال: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

قوله تعالى ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ وأصل الخداع في اللغة هو الستر^(٣). يقال للبيت الذي يخزن فيه المال: مخدع، والعرب تقول: [انخدعت]^(٤) الضب في جحرها. فكان المنافقون يظهرون الإيمان ويسترون نفاقهم وكفرهم. فقال: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي يكذبون ويخالفون الله والذين آمنوا [ويقال يظنون أنهم يخادعون الله والذين آمنوا]^(٥) لأنه قد بين في سياق الآية حيث قال تعالى ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ روي عن الأخفش^(٦) أنه قال: اجترأوا على الله حتى ظنوا أنهم يخادعون الله. [وقال بكر بن جريج يظهرون لا إله إلا الله يريدون أن يحرزوا بذلك دماءهم وأموالهم وأنفسهم]^(٧) ويقال: يظهرون غير ما في أنفسهم. وهذا موافق لما روي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: علامة المنافق ثلاث: إذا وعد أخلف وإذا أوتمن خان، وإذا حدث كذب^(٨). وقوله ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ قرأ أهل الكوفة عاصم وحمزة الكسائي (وما يخدعون) بغير ألف، وقرأ الباقون بالألف «وما يخادعون». وتفسير القراءتين واحد يعني: وبإل الخداع يرجع إليهم ويضر بأنفسهم^(٩). قوله

(١) ساقطة في ظ. (٢) ساقطة في ظ.

(٣) انظر اللسان / خدع... وقال ابن منظور: والخداع: الحيلة، والمراوغة.

يقال: خدع الثعلب: إذا أخذ في الروغان، وفلان خادع الرأي إذا كان متلوناً لا يثبت على رأي واحد... (بتصرف قليل وإيجاز).

(٤) في ظ انخدع.

(٥) سقط في د. انظر تفسير الطبري ٢٥١/١ والسيوطي في الدر المنثور ٢٩/١.

(٦) سعيد بن سعدة أبو الحسن المعروف بالأخفش. قرأ النحو على سبويه وكان أسن منه من تصانيفه معاني القرآن والمقياس في النحو

توفي سنة ٢١٥ هـ انباه الرواة ٣٦/٢ شذرات الذهب ٣٦/٢.

(٧) سقط في ظ.

(٨) أخرجه البخاري ٨٩/١ في الإيمان باب علامة المنافق (٣٢) وأخرجه البخاري ٢٨٩/٥ في كتاب الشهادات ومسلم ٧٨/١ في

كتاب الإيمان / باب بيان خصال النفاق (١٠٧ / ٥٩) (٥٩/١٠٨).

(٩) فاما من قرأ بالألف فلمناسبة اللفظ الأول وليشاكل بين اللفظين. وأما من قرأ بدون ألف فقد جعل خادع بمعنى خدع فهما متحدان =

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾. قال الكلبي: يعني وما يعلمون أن الله يطلع نبيه على كذبهم. وقال بعضهم: معناه وما يشعرون أن وبال الخداع يرجع إليهم.

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ ﴿١٠﴾

قوله تعالى ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ يعني شكاً ونفاقاً وظلمة وضعفاً، لأن المريض فيه فترة ووهن، والشاك أيضاً في أمره فترة وضعف. فعبر بالمرض عن الشك لأن المنافقين فيهم ضعف ووهن، ألا ترى إلى قوله تعالى (يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو) ويقال: إن المريض تعرض للهلاك، فسمى النفاق مرضاً، لأن النفاق قد يهلك صاحبه [لأن الخلق على مراتب ثلاث، ميت في الأحوال كلها كالكافر وحي في الأحوال كلها كالمؤمن لقوله تعالى (أو من كان ميتاً فأحييناه) ومريض كالمنافق] ^(١) ثم قال تعالى ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ وهذا اللفظ يحتمل معنيين: يحتمل الخبر عن الماضي، ويحتمل الدعاء، فإن كان المراد به الخبر فمعناه: في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً إلى مرضهم كما قال في آية أخرى (فزادتهم رجساً إلى رجسهم) لأن كل سورة نزلت يشكون فيها، فكان ذلك ^(٢) المرض [لهم] ^(٣)، وللمؤمنين زيادة اليقين. وإن كان المراد به الدعاء، فمعناه: فزادهم الله مرضاً على مرضهم ^(٤)، على وجه الذم والطردهم كما قال في آية أخرى (قاتلهم الله) أو لعنهم الله فإن قيل: كيف يجوز أن يحمل على وجه الدعاء، وإنما يحتاج إلى الدعاء عند العجز قيل له: هذا تعليم من الله تعالى أنه يجوز الدعاء على المنافقين والطردهم لأنهم شر خلق الله تعالى، لأنه وعد لهم يوم القيامة الدرك الأسفل من النار. ثم قال ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني مؤلم، أي عذاب وجيع الذي يخلص وجعه إلى قلوبهم. قوله ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ أي مجازاة لهم بتكذيبهم. قرأ حمزة وابن عامر ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ﴾ بكسر الزاي ^(٥)، وهي لغة بعض العرب [وقرأ عاصم وأبو عمرو] ^(٦) (بالفتح) وهي اللغة الظاهرة، وقرأ أهل الكوفة، عاصم وحمزة والكسائي (يكذبون) بتخفيف الذال، وقرأ الباقر بالتشديد. فمن قرأ بالتخفيف فمعناه: بما كانوا يكذبون بقولهم أنهم مؤمنون، ووجدوا في السر لأنهم كفروا بالله، وبمحمد - صلى الله عليه وسلم - في السر. ومن قرأ بالتشديد فمعناه بما كانوا يكذبون، يعني ينسبون محمداً إلى الكذب، ويجحدون نبوته ^(٧).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ قرأ الكسائي برفع القاف وكذلك كل ما ذكر في القرآن مثل قيل، وحيل،

= لفظاً ومعنى، وأما بإبقاء المفاعلة على بابها بمعنى يخادعون أنفسهم أي يمتنونها الأباطيل وأنفسهم تمنينهم ذلك قال ابن خالويه: ألا ترى قوله تعالى: ﴿قاتلهم الله﴾ أي قتلهم.

انظر / الحجة لابن خالويه، وإتحاف فضلاء البشر (سورة البقرة).

(٣) في د [بهم].

(١) سقط في ظ.

(٤) من ظ.

(٢) في ظ [زيادة].

(٥) أي بإمالة الألف بعد الزاي، وذلك لأن الألف أصلها ياء، والياء من أسباب الإمالة انظر / إتحاف فضلاء البشر.

(٦) في ظ [قرأ حمزة وابن عامر فزادهم بكسر الزاي وهي لغة لبعض العرب وقرأ أبو عمرو وعاصم].

(٧) انظر إبراز المعاني، إتحاف فضلاء البشر. (سورة البقرة).

وسيق. وقرأ حمزة وعاصم وغيرهما بكسر القاف^(١)، وأصله في اللغة قول مع الواو، فحذفت الواو للتخفيف. فجعل الكسائي الرفع مكان الواو وغيره، وقرأ بالكسر للتخفيف. والآية نزلت في شأن المنافقين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ يعني المنافقين ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا تعملوا فيها بالمعاصي [وهو الفساد]^(٢) لأن الأرض كانت قبل أن يبعث النبي - عليه السلام - فيها الفساد، وكان يعمل فيها بالمعاصي فلما بعث الله النبي - عليه السلام - ارتفع الفساد وصلحت الأرض، فإذا عملوا بالمعاصي فقد أفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، كما قال في آية أخرى (ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها) ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أي نعمل بالطاعة، ولا نعمل بالمعاصي وقد قيل: معنى لا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها أي لا تداهنوا بين الناس ولا تعملوا بالمداينة ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ يعني لا نعادي الكفار ولا المؤمنين حتى لو كانت الغلبة للمؤمنين أو للكفار، لا يصيبنا من دائرتهم شيء.

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٣﴾

قال الله تعالى ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ في الأرض وليسوا بمصلحين لأن عداوتهم مع الفريقين لأن كل فريق منهم يعلم أنهم ليسوا معهم. وقد قيل: معناه لا تفسدوا في الأرض [بتفريق]^(٣) الناس عن محمد - صلى الله عليه وسلم - أي لا تصرفوا الناس عن دينه، قالوا: إنما نحن مصلحون [بتفريقنا]^(٤) عن دينه. ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ ألا: كلمة تنبيه فنبه المؤمنين وأعلمهم نفاقهم، فكأنه قال: ألا أيها المؤمنون: اعلموا أنهم هم المفسدون العاصون ويكون تكرار كلمة هم على وجه التأكيد، والعرب إذا كررت الكلام تريد به التأكيد قال تعالى ﴿وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنهم مفسدون.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ﴾ قال في رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: رضي الله عنهما أن هذه الآية نزلت في شأن اليهود ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ يعني اليهود ﴿ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ﴾ يعني عبد الله بن سلام وأصحابه. ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾ يعني الجاهل الخرقى^(٥) قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ يعني الجاهل الخرقى بتركهم الإيمان بمحمد - عليه السلام - ﴿وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنهم سفهاء. وقال مقاتل: نزلت هذه الآية في شأن المنافقين، وهكذا قال مجاهد ومعناه ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا﴾ يعني صدقوا بقلوبكم كما صدق أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - ورضي عنهم ﴿قَالُوا: أَنُؤْمِنُ﴾ يعني المنافقين أنصدق كما صدق الجاهل. قال الله تعالى ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ يعني الجاهل بتركهم التصديق في السر، ولكن لا يعلمون أنهم جهال.

(١) أي بالإشمام وهو لغة قيس وعقيل ومن جاورهم.

انظر / إبراز المعاني، وإتحاف فضلاء البشر (سورة البقرة).

(٢) سقط في ظ.

(٣) في ظ [بتعويق].

(٤) في ظ [بتعويقنا].

(٥) الخرق: الحمق وعدم إحسان العمل، والرجل أخرق والأنثى خرقاء.

(اللسان: خرق).

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ ﴿١٤﴾

ثم قال تعالى ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ نزلت هذه الآية في ذكر المنافقين منهم عبد الله بن أبي بن سلول وجد بن قيس، ومعتب بن قشير وغيرهم وذلك أن أبا بكر وعمر وعثمان وعلي بن أبي طالب^(١) - رضي الله عنهم - مروا بقوم من المنافقين. فقال عبد الله بن أبي لأصحابه: انظروا كيف أرد هؤلاء الجاهل عنكم فتعلموا مني كيف أكلهم، فأخذ بيد أبي بكر، وقال: مرحباً بسيد بني تميم، وثاني اثنين وصاحبه في الغار، وصفيه من أمته، الباذل نفسه وماله لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم أخذ بيد عمر قال: مرحباً بسيد بني عدي القوي في أمر الله تعالى، الباذل نفسه وماله لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم أخذ بيد علي فقال: مرحباً بسيد بني هاشم - ما خلا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الباذل نفسه ودمه لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - والسابق إلى الهجرة. فقال له علي: اتق الله يا عبد الله ولا تنافق، فإن المنافقين شر خليفة الله. قال: فلم تقول هكذا وإيماني كإيمانكم وتصديقي كتصديقكم، ثم افترقوا، فقال عبد الله لأصحابه: كيف رأيتم ردي هؤلاء عنكم؟ فقالوا: لا نزال بخير ما عشت لنا، فنزلت الآية ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾^(٢) يعني إيماننا كإيمانكم، وتصديقنا كتصديقكم قوله تعالى ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ قال الكلبي: يعني إلى كهنتهم وهم خمسة رهط من اليهود، ولا يكون كاهن إلا ومعه شيطان، منهم كعب بن الأشرف بالمدينة وأبو بردة الأسلمي في بني [سليم]^(٣)، [وأبو السوداء]^(٤) بالشام، وعبد الدار من جهينة، وعوف بن مالك من بني أسد. ويقال: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ يعني إلى رؤسائهم في الضلالة. وقال أبو عبيدة^(٥): كل عات متهم فهو شيطان ثم قال تعالى ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ أي علي دينكم ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ﴾ بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه رضي الله عنهم.

اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾

قال الله تعالى ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي يجازيهم جزاء الاستهزاء. وذكر في رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما الاستهزاء أن يفتح لهم وهم في جهنم، باب من الجنة فيهللون^(٦) ويصيحون في النار (فيهللون)^(٧)، والمؤمنون على الأرائك ينظرون إليهم، فإذا انتهوا إلى الباب سد عليهم، وفتح لهم باب آخر في مكان آخر والمؤمنون ينظرون إليهم ويضحكون كما قال في آية أخرى (فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون) الآية وقال مقاتل: الاستهزاء ما ذكره الله تعالى في سورة الحديد «يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم، قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً» فهذا استهزاء بهم، ثم قال تعالى ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يعني يتركهم في ضلالتهم يتحيرون ويترددون عقوبة لهم لاستهزائهم.

(١) في ظ وعلياً رضي الله عنه.

(٢) أخرجهما الواحد في أسباب النزول (١٣) عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس والسيوطي في لباب النقول (٧) من طريق محمد بن مروان السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس وقال هذا إسناد وإيه جداً.

(٣) في ظ [أسلم]. (٤) في ظ [وابن السوداء].

(٥) معمر بن المثنى التيمي كان عالماً بجميع العلوم قال الجاحظ لم يكن في الأرض أعلم بجميع العلوم منه كان من حفاظ الحديث له نحو مائتي مصنف منها مجاز القرآن ومآثر العرب. الأعلام ٧/٢٧٢. تاريخ بغداد ١٣/٢٥٤.

(٦) في ظ [فيقلبون]. (٧) ساقط في ظ.

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

قوله عز وجل ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ﴾ يعني اختاروا الكفر على الإيمان. وفي الآية دليل أن الشراء قد يكون بالمعنى دون اللفظ وهو المبادلة لأن الله تعالى سمي استبدالهم الضلالة بالهدى شراء، ولم يكن هنالك لفظ شراء. قوله تعالى ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ فقد أضاف الربح إلى التجارة على وجه المجاز. والعرب تقول: ربحت تجارة فلان، وخسرت تجارة فلان، وإنما يريدون به أنه ربح في تجارته، والله تعالى أنزل القرآن بلغة العرب على ما يتعارفون فيما بينهم فلذلك قال ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ أي فما ربحوا في تجارتهم. قوله تعالى ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ قال بعضهم: معناه وما هم بمهتدين في الحال. كقوله تعالى «كيف نكلم من كان في المهد صبياً» أي من هو في المهد [صبي] (١) في الحال. وقال بعضهم: معناه (وما كانوا مهتدين) من قبل لأنهم لو كانوا مهتدين من قبل لوفقههم الله تعالى في الحال ولكن لما لم يكونوا مهتدين من قبل خذلهم الله تعالى مجازاة لأفعالهم الخبيثة.

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ روى معاوية بن طلح (٢) عن علي بن أبي طلحة (٣) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت هذه الآية في شأن اليهود الذين هم حوالي المدينة فقال: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ﴾ يعني كمثل من كان في المفازة في الليلة المظلمة، وهو يخاف السباع فأوقد ناراً فأمن بها من السباع ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ طفت ناره وبقي في الظلمة كذلك اليهود الذين كانوا حوالي المدينة كانوا يقرون بالنبي - صلى الله عليه وسلم - قبل أن يخرج وكانوا إذا حاربوا أعداءهم من المشركين يستنصرون باسمه فيقولون بحق نبيك أن تنصرنا فلما أخرج النبي - صلى الله عليه وسلم - وقدم المدينة حسدوه وكذبوه وكفروا به فطفئت نارهم وبقوا في ظلمات الكفر، وقال مقاتل: نزلت في المنافقين يقول مثل المنافق مع النبي - صلى الله عليه وسلم - كمثل رجل في مفازة فأوقد ناراً (فأمن) (٤) بها على نفسه وعياله وماله فكذلك المنافق يتكلم بلا إله إلا الله مرآة الناس ليأمن بها على نفسه (وأهله) (٥) وعياله وماله وينأجج مع المسلمين وكان له نور بمنزلة المستوقد النار يمشي في شوعها ما دامت ناره تنقد، فلما أضاءت النار أبصر ما حوله بنورها وذهب نورها فبقي في ظلمة. قوله تعالى ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أي يذهب الله بنور الإيمان الذي يتكلم به ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ الهدى (٦) فكذلك المنافق إذا بلغ آخر عمره بقي في ظلمة كفره. وهكذا فسره قتادة والفتي (٧) وغيرهما.

(١) ساقطة في ظ.

(٢) معاوية بن طلح بن حدير الحضرمي أبو عمرو أحد الأعلام وقاضي الأندلس كان ثقة كثير الحديث روى التفسير عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

تهذيب التهذيب ٢٠٩/١٠.

(٣) علي بن أبي طلحة سالم مولى ابن عباس سكن حمص، أرسل عن ابن عباس ولم يره صدوق قد يخطئ مات سنة ثلاث وأربعين.

التقريب ٣٩/٢.

(٤) ساقطة في ظ.

(٥) ساقطة في ظ.

(٦) في ظ [ليأمن].

(٧) عبد الله بن مسلم الدينوري القتيبي النحوي الدينوري أبو محمد من أئمة الأدب ومن المصنفين المكثرين من كتب تأويل مختلف الحديث. وأدب الكاتب توفي سنة ٢٧٦ هـ. الأعلام ١٣٧/٤ تبصير المنتبه ١١٦٠/٣.

صُمُّ بَكُمْ عَمِي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾

ثم قال تعالى: ﴿صُمُّ بَكُمْ عَمِي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ وفي قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (صماً بكمأ عمياً) [وإنما جعلها نصباً لوقوع الفعل عليها يعني وتركهم صماً بكمأ عمياً]^(١). وقرأ غيره: صم بكم عمي [ومعناه هم صم بكم عمي]^(٢). وتفسير الآية أنهم يتصاممون حيث لم يسمعو الحق ولم يتكلموا به ولم يبصروا العبرة والهدى فكانهم صم بكم عمي ولأن الله تعالى خلق السمع والبصر واللسان ليتفكروا بهذه الأشياء فإذا لم ينتفعوا بالسمع والبصر صار كأن السمع والبصر لم يكن لهم. كما أن الله تعالى سمى الكفرة موتى حيث قال تعالى (أو من كان ميتاً فأحييناه) يعني كافرأ فهديناه. وإنما سماهم موتى - والله أعلم - لأنه لا منفعة لهم في حياتهم، فكان تلك الحياة لم تكن لهم، فكذلك السمع والبصر واللسان، إذا لم ينتفعوا بها فكانها لم تكن لهم، فكانهم صم بكم عمي فهم لا يرجعون، يعني لا يرجعون إلى الهدى. وقال القتيبي: معنى قوله تعالى: ﴿وتركهم في ظلمات لا يبصرون﴾ قال: الظلمة الأولى كانت ظلمة الكفر واستيقادهم النار قول: لا إله إلا الله، وإذا خلوا إلى شياطينهم فناقوا. وقالوا ﴿إنا معكم إنما نحن مستهزؤون﴾ فسلمهم نور الإيمان ﴿وتركهم في ظلمات لا يبصرون﴾^(٣).

أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِيءَ إِذَا نَهَمَ مِنَ الصَّوْعِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾

﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ﴾ يعني كمطر نزل من السماء فضرب لهم الله تعالى مثلاً آخر لأن العرب كانوا يوضحون الكلام بذكر الأمثال فالله ضرب لهم الأمثال ليوضح عليهم الحجة، فضرب لهم مثلاً بالمستوقد النار، ثم ضرب لهم مثلاً آخر بالمطر. فإن قيل كلمة (أو) إنما تستعمل للشك فما معنى (أو) هنا فليل له: (أو) قد تكون للتخيير [فكأنه قال إن شئت فاضربوا لهم مثلاً بالمستوقد النار وإن شئت فاضربوا لهم المثل بالمطر فأنتم مصيبون في ضرب المثل في الوجهين جميعاً. وهذا كما قال في آية أخرى: (أو كظلمات في بحر لجي) فكذلك ها هنا أو للتخيير]^(٤) لا للشك. وقد قيل: أو بمعنى الواو يعني، وكصيب من السماء، معناه: مثلهم كرجل في مفازة في ليلة مظلمة فتزل مطر من السماء، وفي المطر ظلمات ﴿وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ والمطر هو القرآن لأن في المطر

(١) انظر البحر المحيط ٨٢/١ قال أبو حيان: وقرأ عبد الله بن مسعود وحفصة أم المؤمنين «صماً بكمأ عمياً بالنصب، وذكروا في نصبه وجوهاً: أحدها أن يكون مفعولاً ثانياً لترك.

الثاني: على الحالية من المفعول في تركهم.

الثالث: منصوب بفعل محذوف من الضمير في يبصرون.

الخامس: أن يكون منصوباً على الذم... (البحر... بتصرف وإيجاز) وانظر /الجامع لأحكام القرآن / للقرطبي وفيه الوجه الخامس فقط ١٤٩/١ دار الكتب العلمية.

(٤) من ظ.

(٣) سقط في ظ.

(٢) ما بين المعقوفين من ظ.

(٥) وجمع الظلمات في الآية إشارة إلى أحوال من أحوال المنافقين كل حالة منها تصلح لأن تشبه بالظلمة وتلك هي: حالة الكفر، وحالة الكذب، وحالة الاستهزاء بالمؤمنين، وما يتبع تلك الأحوال من آثار النفاق.

انظر تفسير التحرير والتنوير ٣١٢/١.

(٦) ما بين المعقوفين من ظ.

حياة الخلق وإصلاح الأرض وكذلك القرآن [حياة القلوب]^(١)، فيه هدى للناس، وبيان من الضلالة وإصلاح، فلهذا المعنى شبه القرآن بالمطر. والظلمات هي الشدائد والمحن التي تصيب المسلمين، والشبهات التي في القرآن، والرعد: هو الوعيد الذي ذكر للمنافقين والكفار في القرآن، والبرق: ما ظهر من علامات نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - ودلائله. قوله تعالى ﴿وَيَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ﴾ أي يتصاممون عن سماع الحق ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ أي لحذر الموت، [إنما] نصب^(٢) لنزع الخافض. مثل قوله (واختار موسى قومه) أي من قومه. فكذلك ههنا ﴿حذر الموت﴾، أي لحذر الموت، ومعناه: مخافة أن ينزل في القرآن شيء يظهر حالهم كما قال في آية أخرى (نظر بعضهم إلى بعض، هل يراكم من أحد ثم انصرفوا) قال بعضهم: في الآية مضمر، ومعناها يجعلون أصابعهم في آذانهم من الرعد، ويغمضون أعينهم من الصواعق. وقال أهل اللغة: الصاعقة صوت ينزل من السماء فيه نار^(٣). فمن قال بهذا القول لا يحتاج إلى الإضمار في الآية: يجعلون أصابعهم في آذانهم من خوف الصاعقة: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي عالم بأعمالهم والإحاطة: هي إدراك الشيء بكماله.

يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْأَوْفِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ أي ضوء البرق يذهب ويختلس بأبصارهم من شدة ضوء البرق فكذلك نور إيمان المنافق يكاد يغطي على الناس كفره في سره حتى لا يعلموا كفره. وقد قيل: معناه يكاد أن يظهر عليهم نور الإسلام^(٤)، فيثبتون على ذلك. ثم قال: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْأَوْفِيهِ﴾ أي كلما لمع البرق في الليلة المظلمة مضوا فيه ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: إذا ذهب ضوء البرق ﴿قَامُوا﴾ متحيرين فكذلك المنافق، إذا تكلم بلا إله إلا الله، يمضي مع المؤمنين، [ويمنع بها]^(٥) من السيف، فإذا مات بقي متحيراً نادماً. ويقال: معناه كلما أضاء لهم مشوا فيه، أي كلما ظهر لهم دليل نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - وظهر لهم علاماته مالوا إليه، وإذا أظلم عليهم، أي إذا أصاب المسلمين محنة، كما أصابتهم يوم أحد، وكما أصابتهم يوم بدر^(٦) معونة قاموا، أي: ثبتوا على كفرهم. وروى أسباط عن السدي أنه قال: كان رجلان من المنافقين هربا من المدينة إلى المشركين،

(١) ساقط في ظ.

(٢) من ظ.

(٣) انظر (اللسان / صقع) قال: والصاعقة نار تسقط من السماء في رعد شديد وهي صيحة العذاب. وقيل: هي قطعة من نار تسقط بأثر الرعد لا تأتي على شيء إلا أحرقت.

(٤) في أ [الإيمان].

(٥) من ظ.

(٦) والبئر مؤنثة مهموزة يجوز تخفيفها وجمعها في القلة آبار وآبار بالمد على القلب وفي الكثرة بئار وبأرت بئراً أي حفرتها وبأرت الرجل جعلت له بئراً.

ويثر معونة بالنون وهي قبل نجد بين أرض بني عامر وحره بني سليم وكانت غزوتها في أول سنة أربع من الهجرة بعد أحد بأشهر وقتل بها خلق من فضلاء الصحابة رضي الله عنهم وكان الجيش الذي حفرها أربعين من خيار المسلمين منهم المنذر بن عمرو بن خنيس المعينق للموت ويقال للمعتق ليموت والحارث بن الصحة وحرام بن ملحان وعروة بن شماس بن أبي الصلت السلمي ورافع بن زيد بن ورقاء وعامر فهيرة فقتلوا كلهم إلا كعب بن زيد وعمرو بن أمية الضمري ذكره ابن الأثير في ترجمة المنذر بن عمرو وانظر تهذيب الأسماء واللغات ١/٣ (٣٦).

فأصابهما من المطر الذي ذكر الله فيه ظلمات ورعد وبرق، كلما أصابهما الصواعق جعلاً أصابهما في آذانهما فإذا لمع البرق مشياً في ضوئه، وإذا لم يلمع لم يبصر شيئاً، فقاما مكانهما فجعلاً يقولان يا ليتنا لو أصبحنا فنأتي محمداً - صلى الله عليه وسلم - فنضع أيدينا في يده، فأصبحا فأتياه فأسلما وحسن إسلامهما فضرب الله في شأن هذين المنافقين الخارجين مثلاً للمنافقين الذين كانوا بالمدينة^(١). ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ قال بعضهم بسمعهم الظاهر الذي في الرأس وأبصارهم^(٢) التي في الأعين كما ذهب بسمع قلوبهم، وأبصار قلوبهم عقوبة لهم. قيل: معناه ولو شاء لجعلهم صماً وعمياً في الحقيقة كما جعلهم صماً وعمياً في الحكم. قد قيل: معناه، ولو شاء الله لجعلهم صماً وعمياً في الآخرة كما جعلهم في الدنيا. وروي في إحدى الروايتين عن ابن عباس أنه قال: هذا من المكتوم الذي لا يفسر. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من العقوبة وغيرها.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ أي أطيعوا ربكم. ويقال: وحدوا ربكم. وهذه الآية عامة، وقد تكون كلمة يا أيها الناس خاصة لأهل مكة وقد تكون عامة لجميع الخلق فهنا ﴿يا أيها الناس﴾ لجميع الخلق. يقول للكفار: وحدوا ربكم، ويقول للعصاة: أطيعوا ربكم، ويقول للمنافقين: أخلصوا بالتوحيد معرفة ربكم، ويقول للمطيعين: اثبتوا على طاعة ربكم. واللفظ يحتمل هذه الوجوه كلها، وهو من جوامع الكلم. واعلم أن النداء في القرآن على ست مراتب: نداء مدح، ونداء ذم، ونداء تنبيه، ونداء إضافة، ونداء نسبة، ونداء تسمية. فأما نداء المدح فمثل قوله تعالى (يا أيها النبي) (يا أيها الرسل) (يا أيها الذين آمنوا) ونداء الذم مثل قوله تعالى: (يا أيها الذين كفروا) (يا أيها الذين هادوا) ونداء التنبيه مثل قوله تعالى (يا أيها الإنسان) (يا أيها الناس) ونداء الإضافة مثل قوله تعالى (يا عبادي) ونداء النسبة مثل قوله (يا بني آدم) (يا بني إسرائيل) ونداء التسمية مثل قوله تعالى (يا داود) (يا إبراهيم) فهنا ذكر نداء التنبيه فقال (يا أيها الناس) أخبر بالنداء أنه يريد أن يأمر أمراً أو ينهى عن شيء. ثم بين الأمر فقال: ﴿اعبدوا ربكم﴾ يعني وحدوا وأطيعوا ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ معناه: أطيعوا ربكم الذي هو خالقكم، فخلقكم ولم تكونوا شيئاً ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يعني وخلق الذين من قبلكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ المعصية وتنجون من العقوبة.

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ معناه: اعبدوا ربكم الذي خلقكم وجعل لكم الأرض فراشاً، يعني مهاداً وقراراً. وقال أهل اللغة: الأرض بساط العالم^(٣). وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: إنما سميت

(١) أخرجه ابن جرير بأتم منه ٣٤٧/١ (٤٥٢) وقال الطبري ٣٥٤/١ ولست أعلمه صحيحاً إذا كتب بإسناده مرتباً وقال العلامة أحمد شاكر وحق لأبي جعفر أن يرتب في إسناده فإن هذا الإسناد فيه تساهل كبير من جهة جمع مفرق التفسير عن الصحابة في سياق واحد.

(٢) ما بين المعقوفين من أ.

(٣) قال ابن منظور: والإراض: البساط لأنه يلي الأرض (اللسان: أرض).

الأرض أرضاً لأنها تارض ما في بطنها أي تأكل ما فيها. وقال بعضهم: لأنها تتأرض بالحوافر والأقدام ﴿وَالسَّمَاءَ﴾ في اللغة: ما علاك وأظلك^(١). يعني اذكروا رب هذه النعم واعبدوه واعرفوا شكر هذه النعم حيث جعل لكم الأرض فراشاً، والسماء ﴿بِنَاءً﴾ أي سقفاً. قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية الكلبي: كل سماء مطبقة على الأخرى مثل القبة وسماء الدنيا ملتزقة على الأرض أطرافها ويقال: ﴿والسماء بناء﴾ أي مرتفعاً. ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني المطر ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ﴾ يعني أنبت بالمطر ﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ﴾ يعني من ألوان الثمرات^(٢) طعاماً لكم قوله ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْذَاداً﴾ أي لا تقولوا له شركاء ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه خالق هذه الأشياء وغيره لا يستطيع أن يخلق شيئاً من هذه الأشياء. ويقال: كل شيء في هذه الدنيا فيه دلالة على كونه الخالق من أربعة أوجه: فوجود هذه الأشياء وكونها يدل على وجود الصانع واستقامتها تدل على توحيده، وهو استقامة الليل والنهار، والشتاء والصيف وخروج الثمرات وحدث كل شيء في وقته، لأن المدبر لو كان اثنين لم يكن على الاستقامة كما قال في آية أخرى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وتجانسها يدل على أن الخالق واحد عالم حيث خلق الأشياء أجناساً مختلفة وتمام الأشياء يدل على أن خالقها واحد قائم قادر.

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ قال بعضهم: هذا الخطاب لليهود وإن كنتم في ريب: أي في شك ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ محمد - صلى الله عليه وسلم - من القرآن أنه ليس من الله تعالى ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ أي من مثل هذا القرآن من التوراة، [يعني فاتوا بسورة من التوراة]^(٣) وقابلوها بالقرآن، [فتجدوها موافقة لما في التوراة]^(٤) فتعلموا به أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - لم يخلق من تلقاء نفسه وأنه من الله تعالى. ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي استعينوا بأحباركم ورهبانكم يعني عبادكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تشكون فيه. وقال بعضهم: نزلت في شأن المشركين ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ أي في شك ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ محمد - صلى الله عليه وسلم - من القرآن وتقولون: إنه اختلقه من تلقاء نفسه ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ أي، فاخترقوا سورة من مثل هذا القرآن لأنكم شعراء وفصحاء ﴿وادعوا شهداءكم﴾ أي استعينوا بأهتكم. ويقال: استعينوا بخطابكم وشعرائكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن محمداً يقوله من تلقاء نفسه. وقال قتادة: معناه فاتوا بسورة فيها حق وصدق لا باطل فيها وكان الفقيه أبو جعفر - رحمه الله - يقول: (الهاء) إشارة إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فكأنه قال: فاتوا بسورة من مثل محمد - صلى الله عليه وسلم - لانه لم يكن قرأ الكتب ولا درس فاتوا بسورة من رجل لم يقرأ الكتب، كما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - . [ويقال: هذه الايات أصل لجميع ما تكلم به المتكلمون لان في أول الآيه اثبات الصانع ثم في الآية الاخرى: اثبات نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم -]^(٥) فالله تعالى أمرهم بأن يأتوا بعشر سور فعجزوا عنها، ثم أمرهم بسورة من مثله، فعجزوا عنها، فنزلت هذه الآية (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن) الآية.

(١) زاد ابن منظور: ومنه قيل لسقف البيت سماء (اللسان: سما).

(٢) في ظ [الثمار رزقاً لكم أي].

(٣) في المخطوط: فتجدوها موافقاً لما التوراة والصواب ما أثبتناه.

(٤) ما بين المعقوفين من ظ.

فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

ثم قال عز وجل ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ (لم) تستعمل للماضي (ولن) تستعمل للمستقبل، فكأنه قال: فإن لم تفعلوا أي لم تأتوا في الماضي ولن تفعلوا أي لن تأتوا في المستقبل، وتجحدون بغير حجة ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ قال قتادة: معناه، فإن لم تفعلوا، ولن تقدروا أن تفعلوا ولن تطيقوا ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ أي: احذروا النار ﴿الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ يعني حطبها الناس إذا صاروا إليها، والحجارة قبل أن يصيروا إليها. ويقال معناه: ان مع كل انسان من أهل النار حجراً معلقاً في عنقه حتى إذا طفت النار، [رسبه به] ^(١) الحجر الى أسفل. ويقال: وقودها الناس والحجارة، أي حجارة الكبريت، وانما جعل حطبها من حجارة الكبريت لان لها خمسة أشياء ليست لغيرها: أحدها: أنها ^(٢) أسرع وقوداً، والثاني: أنها أبطأ خموداً، والثالث: أنها أتنن رائحة، والرابع: أنها أشد حراً، والخامس أنها ألصق بالبدن. قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي خلقت وهيئت للكافرين وقدرت لهم.

وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾

ثم قال ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فقد ذكر في أول الآية إثبات الصانع وذكر حجته، ثم ذكر إثبات الكتاب والنبوة، ثم ذكر الوعيد للكفار، [لمن لم] ^(٣) يؤمن بالله، ثم ذكر الثواب للمؤمنين، وهكذا في جميع القرآن في كل موضع ذكر عقوبة الكفار، ثم ذكر على أثره ثواب المؤمنين لتسكن قلوبهم الى ذلك، وتزول عنهم [الوحشة] ^(٤) لكي يشتوا على إيمانهم ولكي يرغبوا في ثوابه فقال ﴿وبشر الذين آمنوا﴾ أي فرح قلوب الذين آمنوا. يعني صدقوا بوحداية الله تعالى، وبمحمد - صلى الله عليه وسلم - وبما جاء به جبريل - عليه السلام - ﴿وعملوا الصالحات﴾ أي الطاعات فيما بينهم وبين ربهم ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي بأن لهم ﴿جَنَّاتٍ﴾ وهي البساتين ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي من تحت شجرها ومساكنها وغرفها الأنهار [يعني أنهار الخمر واللبن والماء والغسل] ^(٥) ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا﴾ أي أطعموا من الجنة ﴿مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا﴾ أي طعاماً ﴿قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي اطعمنا من الجنة من قبل. قال بعضهم: معناه إذا أتى بطعام وثمر في أول النهار فأكلوا منها، ثم إذا أتى بها في آخر النهار ﴿قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ [يعني ^(٦) الذي أطعمنا في أول النهار لأن لونه يشبه لونه ذلك، فإذا أكلوا منه وجدوا لها طعماً غير طعم الأول. قال بعضهم: معناه ﴿كلما رزقوا من ثمرة رزقا﴾ ^(٧) قالوا هذا الذي رزقنا من قبل] أي في الدنيا، لأن لونها يشبه لون ثمار الدنيا، فاذا أكلوا وجدوا طعمها غير ذلك. ثم قال تعالى ﴿وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ قال بعضهم: معناه، متشابهاً في المنظر مختلفاً في الطعم. وقال بعضهم: متشابهاً، يعني يشبه بعضها بعضاً في الجودة، ولا يكون فيها رديء، حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا محمد بن جعفر، قال: حدثنا ابراهيم بن

(١) في أ [رسبه]. (٢) في أ [إن حجارة الكبريت]

(٣) ما بين المعقوفين من ظ.

(٤) في ظ [الخشية].

(٥) ما بين المعقوفين من أ.

(٦) في ظ [يعني منها].

(٧) ما بين المعقوفين من أ.

يوسف قال: حدثنا أبو معاوية^(١) عن الأعمش^(٢) عن أبي ظبيان^(٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ليس في الجنة شيء يشبه ما في الدنيا إلا الأسماء^(٤) يعني أسماء الثمار. ثم قال تعالى ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي مهذبة في الخلق ويقال: مطهرة في الخلق والخلق، فأما الخلق فانهم لا يحضن ولا يبلن ولا يتمخطن ولا يأتين الخلاء. وأما الخلق، فهن لا يحسدن ولا يغرن ولا ينتظرن إلى غير أزواجهن. قوله تعالى ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي دائمون لا يموتون ولا يخرجون منها أبداً.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا﴾^(٥) وذلك أنه لما نزل قول الله تعالى (ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً) وقال في آية أخرى: (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت) قالت اليهود والمشركون: إن رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت فتزلت هذه الآية. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ أي لا يمتنع من ضرب المثل وبيان الحق بذكر البعوضة وبما فوقها. ويقال: لا يمنعه الحياء أن يضرب المثل ويبين ويصف للحق شيئاً ﴿مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾، يعني بالذباب والعنكبوت. وقال بعضهم: فما فوقها أي بما دونها في الصغر، وهذا من أسماء الأضداد يذكر الفوق، ويراد به دونه، كما يذكر الورا ويراد به الأمام مثل قوله (ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً) أي أمامهم فكذلك الفوق يذكر ويراد به ما دونه أي يضرب المثل بالبعوضة وبما دونها، بعد أن يكون فيه إظهار الحق، وإرشاد إلى الهدى فكيف يمتنع من ضرب المثل بالبعوضة، ولو اجتمعت الانس والجن على أن يخلقوا بعوضة لا يقدر على. ويقال: إنما ذكر المثل بالبعوضة، لأن خلقه البعوضة أعجب لأن خلقها خلقه الفيل. ويقال: لأن البعوضة ما دامت جائعة عاشت فإذا شبع ماتت فكذلك الآدمي إذا استغنى، فانه يطغى. فضرِبَ الله المثل للآدمي. ثم قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي صدقوا وأقروا بتوحيد الله تعالى ﴿فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يعني المثل بالذباب والعنكبوت، فيؤمنون به ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني اليهود والمشركين ﴿فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ أي بذكر البعوضة والذباب. قال الله تعالى

(١) محمد بن خازم التميمي السعدي أبو معاوية الضرير الكوفي الحافظ ثقة، تهذيب التهذيب ١٣٧/٩.

(٢) سليمان بن مهران الأسدي أبو محمد الكاهلي تابعي مشهور، تهذيب التهذيب ٢٢٢/٤.

(٣) حصين بن جندب بن الحارث الجني الكوفي ثقة، تهذيب التهذيب ٣٧٩/١.

(٤) أخرجه ابن جرير في التفسير ٣٦٧/١ (٤٧٨) من حديث ابن مسعود والسيوطي في الدر المنثور (٣٤/١).

(٥) أصل الاستحياء: انقباض عن الشيء وامتناع منه خوفاً من مواجهة القبيح.

المفردات في غريب القرآن مادة حيي ص (١٩٩) والجامع لأحكام القرآن ١٦٨/١ وهذا محال على الله تعالى. إذا فما المراد بالاستحياء المنسوب إليه عز وجل في هذه الآية الكريمة؟

للناس في ذلك مذهبان فبعض يقول بالتأويل إذا الانقباض النفساني مما لا يحوم حول حظائر قدسه سبحانه، فالمراد بالحياء عنده الترك اللازم للانقباض، وجوز جعل ما هنا بخصوصه من باب المقابلة لما وقع في كلام الكفرة بناء على ما روي أنهم قالوا: ما يستحي رب محمد أن يضرب الأمثال بالذباب والعنكبوت. وبعض لا يقول بالتأويل بل يكل علمها هي وأمثالها مما جاء عنه سبحانه في الآيات والأحاديث إلى علمه سبحانه وتعالى. انظر روح المعاني للألوسي ٢٠٦/١ بتصرف.

﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾ أي إنما ضرب المثل ليضل به كثيرا من الناس، يعني يخذلهم ولا يوفقهم ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [يعني يوفق] ^(١) به على معرفة ذلك المثل كثيرا من الناس وهم المؤمنون. وقال بعضهم: معنى قوله ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾، أي يسميه ضالا، كما يقال: فسقت فلانا، أي سميته فاسقا، لأن الله تعالى لا يضل به أحدا، وهذا طريق المعتزلة، وهو خلاف جميع أقاويل المفسرين، وهو غير مستعمل ^(٢) في اللغة أيضاً، لأنه يقال: ضلله إذا سماه ضالا [ولا يقال: أضله إذا سماه ضالاً] ^(٣)، ولكن معناه ما ذكره المفسرون أنه يخذل به كثيرا من الناس مجازاة لكفرهم ^(٤). ثم قال تعالى ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ أي وما يهلك به وأصل الضلالة ^(٥) الهلاك يقال: ضل الماء في اللبن إذا صار مستهلكاً، وما يهلك، وما يخذل به، يعني بالمثل إلا الفاسقين، وأصل الفسق في اللغة ^(٦) هو: الخروج عن الطاعة، والعرب تقول: فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها ويقال للفأرة فويسقة لأنها تخرج من الحجر، وقال الله تعالى (فسق عن أمر ربه) أي خرج عن طاعة ربه.

الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾

ثم نعت الفاسقين فقال تعالى ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ أي يتركون أمر الله ووصيته من بعد ميثاقه، أي من بعد تغليظه وتأكيده، وذلك أن الله تعالى أمر موسى في التوراة: بأن يأمر قومه ليقروا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ويصدقون إذا خرج. وكان موسى عليه السلام عاهدهم على ذلك فلما خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كذبوه ولم يصدقوه ونقضوا العهد. ويقال: إنه أراد به العهد الذي أخذه من بني آدم من ظهورهم حيث قال تعالى (ألست بربكم؟ قالوا: بلى) فنقضوا ذلك العهد والميثاق ^(٧). فإن قيل: كيف يجوز هذا؟ واليهود كانوا مقرين بالله تعالى فكيف يكون نقض العهد وهم مقرون؟ قيل له: إنهم إذا لم يصدقوا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - فقد أشركوا بالله، لأنهم لم يصدقوا بأن القرآن من عند الله، ومن زعم أن القرآن قول البشر فقد أشرك بالله تعالى، وصار ناقضاً للعهد. ويقال: الميثاق الذي يعرف كل واحد [ربه] ^(٨) إذا تفكر في نفسه، فكان ذلك بمنزلة أخذ الميثاق عليه، وجميع ما في القرآن من ذكر الميثاق فهو على هذه الأوجه الثلاثة. وقوله تعالى ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ روى الضحاك وعطاء عن ابن عباس أنه قال: (إنهم أمروا أن يؤمنوا بجميع الأنبياء فآمنوا ببعضهم ولم يؤمنوا ببعضهم. فهذا معنى قوله ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ ويقال: أمروا بصلة القربايات فقطعوا الأرحام فيما بينهم ويقال: كانت بين اليهود والعرب قرابة من وجه، لأن العرب كانت من أولاد إسماعيل واليهود من أولاد إسحاق، فإذا لم يؤمنوا بالنبي - صلى الله عليه وسلم - فقد قطعوا ذلك الرحم الذي كان بينهم. وقوله تعالى

(١) في أ [أي يهدي كثيرا]. (٢) في النسختين (محتمل) والأدق (مستعمل). (٣) من ظ.

(٤) إسناد الإضلال إلى الله تعالى مراعى فيه أنه الذي مكن الضالين من الكسب والاختيار بما خلق لهم من العقول وما فصل لهم من أسباب الخير وضده. وفي اختيار إسناده إلى الله تعالى مع صحة إسناده لفعل الضال إشارة إلى أنه ضلال متمكن من نفوسهم حتى صار كالجبله فيهم فهم ميثوس من هدايتهم كما قال تعالى ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ فإسناد الإضلال إلى الله تعالى منظور فيه إلى خلق أسبابه القريبة والبعيدة وإلا فإن أمر الله للناس كلهم بالهدى وهي مسألة مفروغ منها في علم الكلام.

انظر تفسير التحرير والتنوير ١/ ٣٠٨.

(٥) اللسان: ضلل. (٦) اللسان: فسق.

(٧) في أ [ويقال أنه أراد به العهد فنقضوا].

(٨) من ظ.

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ لأنهم يكفرون ويأمرون غيرهم بالكفر فذلك فسادهم في الأرض ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي المغبونون في العقوبة. وقال الكلبي: ليس من مؤمن ولا كافر الا وله منزل وأهل وخدم في الجنة فإن أطاع الله أتى ومنزله وأهله وخدمه في الجنة، وإن عصى الله ورثه الله تعالى المؤمنين، فقد غبن أي بعد عن أهله وخدمه. كما قال في آية أخرى (قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة) وقال بعضهم: هذا التفسير لا يصح لأنه لا يجوز أن يقال: للكافر^(١) منزل في الجنة وخدم، إلا أن الكلبي لم يقل ذلك من ذات نفسه، وإنما رواه عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما.

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ قال ابن عباس: هو على وجه التعجب^(٢). وقال الفراء^(٣): هو على وجه التوبيخ والتعجب لا على وجه الاستفهام فكأنه قال: ويحكم كيف تكفرون وتجددون بوحدانية الله تعالى. فإن قيل: كيف يجوز التعجب من الله تعالى؟ وإنما يجوز التعجب ممن رأى شيئاً لم يكن رآه أو سمع شيئاً لم يكن سمعه فيتعجب لذلك والله تعالى قد علم الأشياء قبل كونها. قيل له: التعجب من الله تعالى يكون على وجه التعجب، والتعجب هو أن يدعو إلى التعجب فكأنه يقول: ألا تتعجبون أنهم يكفرون بالله. وهذا كما قال في آية أخرى (وإن تعجب فاعجب قولهم) ثم قال ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ أي كنتم نطفة في أصلاب آبائكم فأحياكم في أرحام أمهاتكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقطاع آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ للبعث يوم القيامة ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة فتسابون بأعمالكم. قال الكلبي: فلما ذكر البعث عرف^(٤) اليهود فسكتوا وأنكر ذلك المشركون فقالوا: ومن يستطيع أن يحيينا بعد الموت فنزل قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ فإن قيل: كيف يجوز أن يكون هذا الخطاب لليهود وهم لم يكفروا بالله تعالى. فالجواب: ما سبق ذكره، أنهم لما أنكروا نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - فقد أنكروا وحدانية الله تعالى لأنهم أخبروا أن القرآن قول البشر.

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي قدر خلقها لأن الأشياء كلها لم تخلق في ذلك الوقت، لأن الدواب وغيرها من الثمار التي في الأرض تخلق وقتاً بعد وقت. ولكن معناه قدر خلق الأشياء التي في الأرض. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ هذه الآية من المشكلات والناس في هذه الآية وما شاكلها على ثلاثة أوجه: قال بعضهم: نقرؤها ونؤمن بها ولا نفserها، وهذا كما روي عن مالك بن أنس رحمه الله أن رجلاً سأل

(٢) انظر معاني القرآن للفراء ١/٢٣.

(١) ساقطة من أ.

(٣) يحيى بن زياد بن عبد الله بن مروان الديلمي إمام العربية أبو زكريا ولد بالكوفة كان أعلم الكوفيين بالحو بعد الكسائي كان أكثر مقامه في بغداد من مصنفاته. معاني القرآن توفي سنة ٢٠٧ هـ. شذرات الذهب ٢/١٩ وفيات الأعيان ٦/١٧٦.

(٤) في أ [عرفت].

عن قوله (الرحمن على العرش استوى) فقال مالك: الإستواء غير مجهول، والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا ضالاً^(١) فأخرجوه فطردوه، فإذا هو جهم بن صفوان. وقال بعضهم: نقرأها ونفسرها على ما يحتمله ظاهر اللغة وهذا قول المشبهة. وللتأويل في هذه الآية وجهان: أحدهما: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي صعد أمره إلى السماء، وهو قوله: (كن فكان). وتأويل آخر وهو قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي أقبل إلى خلق السماء. فإن قيل: قد قال في آية أخرى (أم السماء بناها رفع سمكها فسواها. . إلى قوله والأرض بعد ذلك دحاها) فذكر في تلك الآية أن الأرض خلقت بعد السماء، وذكر في هذه الآية أن [الأرض خلقت قبل السماء]^(٢). الجواب عن هذا أن يقال: خلق الأرض قبل السماء وهي ربوة حمراء في موضع الكعبة، فلما خلق السماء بسط الأرض بعد خلق السماء فذلك قوله تعالى: (والأرض بعد ذلك دحاها) أي بسطها. ثم قال تعالى: ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾ أي خلقهن ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ وهن أعظم من خلقكم ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي بخلق كل شيء عليم ومعناه: أن الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً وخلق السماوات قادر على أن يحييكم بعد الممات. قرأ نافع والكسائي^(٣) وأبو عمرو (وهو) بجزم الهاء^(٤). وقرأ الباقون بضم الهاء (وهو) في جميع القرآن وهما لغتان ومعناها واحد.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ روي عن أبي عبيدة أنه قال: معناه وقال ربك للملائكة وإذ زيادة. وروي عن الفراء أنه قال^(٥): واذكر معناه إذ قال ربك وقال مقاتل: معناه، وقد قال ربك للملائكة. والملائكة: جماعة الملك. وهذا اللفظ على غير القياس لأنه يقال: ملائكة بالهمز ويقال للواحد: ملك بغير همز. وإنما قيل ذلك لأنه في الأصل كان مألوك بالهمز فأسقط الهمز للتخفيف. وأصله من: ألك يألوك^(٦) وهو الرسالة^(٧). كما قال القائل^(٨):

وغلام أرسلته أمه^(٩) بألوك، فبذلنا ما سأل

وإنما سميت الملائكة ملائكة لأنهم رسل الله تعالى وإنما أراد ههنا بعض الملائكة. وهم الملائكة الذين كانوا في الأرض. وذلك أن الله تعالى لما خلق الأرض، خلق الجن من نار، أي من لهب من نار لا دخان لها، فكثر نسله، وهم الجن بنو الجن، فعملوا في الأرض بالمعاصي وسفكوا الدماء، فبعث الله تعالى ملائكة سماء الدنيا، وأمر عليهم إبليس وكان اسمه عزازيل، حتى هزموا الجن، وأخرجوهم من الأرض إلى جزائر البحار، وسكنوا الأرض فصار الأمر عليهم في العبادة أخف لأن كل صنف من الملائكة يكون أرفع في السماوات فيكون خوفهم أشد وملائكة سماء الدنيا يكون أمرهم أيسر من الذين فوقهم، فلما سكنوا الأرض صار الأمر عليهم أخف

(١) وهذا هو الذي نؤمن به ونلقى الله تعالى عليه يوم التناد يوم لا ينفع مال ولا بنون.

وانظر في هذا مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية تفسير ابن كثير ٤٤٢/٣ ج ٢، ٣، وانظر معالم التنزيل للبغوي ١٦٥/٢.

(٢) في ظ[السماء خلقت بعد الأرض]. (٣) في أ[والكسائي وابن عامر].

(٤) انظر حرز الأمانى، وإتحاف فضلاء البشر من سورة البقرة.

(٥) انظر معاني القرآن للفراء ٣٥/١.

(٦) من أ.

(٧) اللسان: ألك.

(٨) في أ[ألوكه].

(٩) هو ليبيد بن ربيعة العامري انظر ديوانه القصيدة رقم ٤٦ ط دار صادر بيروت.

مما كانوا، وسكنوا الأرض واطمأنوا إليها، وكل من اطمأن إلى الدنيا أمر بالتحول عنها. فأخبرهم الله تعالى أنه يريد أن يخلق في الأرض خليفة [فذلك قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ يعني الذي هم في الأرض ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ يعني أريد أن أخلق في الأرض خليفة^(١) سواكم. فشق ذلك عليهم وكرهوا ذلك ﴿فَقَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ يعني أتخلق فيها ﴿مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ كما أفسدت الجن ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ كما سفكت الجن ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ أي نصلي لك بأمرك. ويقال معناه: نحن نسبح بحمدك ونحمدك ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال بعضهم: نقدر أنفسنا لك، يعني نظهر أنفسنا بالعبادة عن المعصية. وقال بعضهم: نقدر لك، أي ننسك إلى الطهارة ونقدس أنفسنا لك: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال مجاهد: علم من إبليس المعصية وعلم من آدم الخدمة والطاعة ولم تعلم الملائكة بذلك^(٢). وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قد علم أنه سيكون من بني آدم من يسبح بحمده ويقدر له ويطيعه. ويقال: قد علم الله تعالى أنه سيكون في ولد آدم من الأنبياء والصالحين والأبرار. وذكر في الخبر^(٣) أنه لما أراد الله تعالى أن يخلق آدم بعث جبريل ليجمع التراب من وجه الأرض، فلما نزل جبريل وأراد أن يجمع التراب قالت له الأرض: بحق الله عليك لا تفعل فإني أخشى أن يخلق من ذلك خلقاً يعصي الله تعالى فأستحي من ربي. فصعد جبريل وقال: لو أمرني ربي بالرجوع إليها لفعلت. فلما صعد جبريل بعث الله تعالى ميكائيل فتضرعت إليه الأرض بمثل ذلك، فرجع ميكائيل، فبعث الله تعالى عزرائيل، فتضرعت إليه الأرض. فقال عزرائيل أمر الله أولى من قولك. فجمع التراب من وجه الأرض الطيب والسبخة، والأحمر والأصفر، وغير ذلك. ثم صعد إلى السماء. فقال له تعالى: أما رحمت الأرض حين تضرعت إليك؟ فقال: رأيت أمرك أوجب من قولها فقال: أنت تصلح لقبض أرواح أولاده. فصار ذلك التراب طيناً، وكان طيناً أربعين سنة، ثم صار صلصالاً كما قال في آية أخرى (خلق الإنسان من صلصال كالفخار) فكان إبليس إذا مر عليه مع الملائكة قال: رأيتم هذا الذي لم تروا شيئاً من الخلائق يشبهه إن فضل عليكم وأمرتم بطاعته ما أنتم فاعلون؟ فقالوا: نطيع أمر ربنا. فأمر إبليس في نفسه، وقال لئن فضل علي لا أطيعه ولئن فضلت عليه لأهلكته. فلما سواه ونفخ فيه من روحه وعلمه أسماء الأشياء التي في الأرض. يعني ألهمه.

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾

فذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ يعني ألهمه أسماء الدواب وغيرها ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ هكذا مكتوب في مصحف الإمام عثمان - رضي الله عنه - وأما في مصحف ابن مسعود، وأبي بن كعب. ففي أحدهما (ثم عرضها) وفي الآخر (ثم عرضهن) فأما من قرأ (ثم عرضهن) يعني به جماعة الدواب، ومن قرأ (ثم عرضها) يعني به جميع الأسماء. وأما من قرأ ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ يعني به جماعة الأشخاص. والأشخاص يصلح أن

(١) ما بين المعقوفين من أ. (٢) انظر ابن جرير الطبري ٤٧٩/١.

(٣) من خبر طويل بسنده ساقه الطبري في تفسيره ٤٥٨/١ وما بعدها وابن كثير في تفسيره كذلك ١٠٩/١ وما بعدها ثم قال (فهذا الإسناد إلى هؤلاء الصحابة مشهور في تفسير السدي، ويقع فيه إسرائيليات كثيرة، فلعل بعضها مدرج ليس من كلام الصحابة أو أنهم أخذوه من بعض الكتب المتقدمة والله أعلم، والحاكم روى في المستدرک بهذا الإسناد بعينه أشياء ويقول على شرط البخاري) والصواب والله أعلم في كيفية ابتداء خلق آدم ما جاء في مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي. . أنه تعالى قبض قبضة من جميع الأرض سهلها وحزنها فخلق منها آدم فلذلك تأتي بنوه أخفافاً - أي مختلفين.

يكون عبارة عن المذكر والمؤنث. وإن^(١) اجتمع المذكر والمؤنث غلب [المذكر على المؤنث]^(٢). قوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَنبِئْنِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ أي أخبروني عن أسماء هذه الأشياء التي في الأرض ﴿إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قولكم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يَفْسُدُ فِيهَا﴾ قال مقاتل: معناه كيف تقولون فيما لم أخلق بعد أنهم يفسدون وأنتم لا تعرفون ما ترونه وتنتظرون إليه. ويقال: في هذه الآية دليل على أن أولى الأشياء بعد علم التوحيد ينبغي أن يتعلم علم اللغة لأنه - عز وجل - أراهم فضل آدم بعلم اللغة، وقال بعضهم: إنما علمه الأسماء وما فيها من الحكمة فظهر فضله بعلم الأسماء وما فيها من الحكمة.

قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا﴾ نزهوه وتابوا إليه من مقالته، ومعناه سبحانك تبنا إليك من مقالتنا فاغفر لنا ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ أي ألهمتنا. وروي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: سبحان الله، تنزيه الله عن كل ما لا يليق به^(٣). وقال بعض أهل اللغة: اشتقاقه من السباحة لأن الذي يسبح يباعد ما بين طرفيه، فيكون فيه معنى التباعد^(٤). وقال بعضهم: هذه لفظة جمعت بين كلمتي تعجب لأن العرب إذا تعجبت من شيء قالت: حان، والعجم إذا تعجبت من شيء قالت: سب. فجمع بينهما فصار: سبحان^(٥). وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ يعني أنت العليم بما يكون في السموات والأرض، الحكيم في أمرك إذا حكمت أن تجعل في الأرض خليفة غيرنا. ويقال: معناه (العليم الحكيم) على وجه الحكمة التي تدرك الأشياء بحقائقها وكان حكمه موافقاً للعلم.

قَالَ يَادُمْ أَنبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَادُمْ أَنبِئْهُمْ﴾^(٦) يعني أخبرهم ﴿بِأَسْمَائِهِمْ﴾ يعني أسماء الدواب^(٧) وما فيها من الحكمة وما يحل أكله وما لا يحل أكله ﴿فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ﴾ يعني أخبرهم ﴿بِأَسْمَائِهِمْ﴾ قال الله تعالى لهم ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني سر أهل السموات وسر أهل الأرض، وما يكون فيهما. ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ أي ما أظهرتم من الطاعة يعني الملائكة ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ يعني ما أسر إبليس في نفسه حين قال: لئن فضل علي لا أطيعه ولئن فضلت عليه لأهلكته. وقال بعضهم: إنهم كانوا يقولون حين أراد الله أن يخلق آدم أنه لا يخلق أحداً أفضل منهم، فهذا الذي كانوا يكتُمون. وهذا التفسير ذكر عن قتادة. وقد قيل: أنه لما خلق آدم أشكل عليهم

(١) من أ [وإذا]. (٢) في أ [الذكور والإناث].

(٣) أخرجه ابن جرير ٤٩٥/١ (٦٧٤) وذكره مطولاً ٤٥٤/١ (٦٠٦).

(٤) قال ابن شميل: رأيت في المنام كأن إنساناً فسر لي سبحان الله فقال: أما ترى الفرس يسبح في سرعته؟ وقال: سبحان الله: السرعة إليه والخفة في طاعته وجماع معناه بعده تبارك وتعالى عن أن يكون له مثل أو شريك أو ند أو ضد.. (اللسان / سيج).

(٥) جاء في اللسان (والعرب تقول: سبحان من كذا إذا تعجبت منه..). وكذا في تاج العروس ج ٢ / ١٥٧ مادة (سيج) ومجمل اللغة لابن فارس ج ٣ / ١١٢ (سيج)، نشر معهد المخطوطات الكويت.

(٦) في أ [أنبئهم بأسمائهم]. (٧) في أ [بأسماء الدواب].

أن آدم أعلم أم هم؟ فسألهم عن الأسماء، فلم يعرفوها وسأل آدم عن الأسماء فأخبرهم بها فظهر لهم أن آدم أعلم منهم. ثم أشكل عليهم أنه أفضل أم هم؟ فأمرهم - سبحانه وتعالى - بالسجود له، فظهر لهم فضله.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾

وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ فاصل السجود في اللغة: هو الميلان والخضوع، والعرب تقول: سجدت النخلة إذا مالت، وسجدت الناقة إذا طأطأت رأسها ومالت^(١). وإنما كانت تلك سجدة التحية لا سجدة العبادة، وكانت السجدة تحية لآدم عليه السلام وطاعة لله عز وجل ﴿فَسَجَدُوا﴾ كلهم ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ يقال: إبليس: اسم أعجمي ولذلك لا ينصرف وهو قول أبي عبيدة^(٢). وقال غيره: هو من أبلس يلبس إذا يش من رحمة الله. وكذا قال ابن عباس في رواية أبي صالح: أنه أيثسه من رجسته^(٣). وكان اسمه (عزازيل) ويقال (عزائيل) وإنما لم ينصرف لأنه لا سمي له فلا يستقل فاشتق. وقال ابن عباس رضي الله عنه: إنما سمي آدم لأنه خلقه من أديم الأرض^(٤). وروي عن قطرب أنه قال: هذا الخبر لا يصح لأن العربية لا توافقه^(٥). وقال بعض أهل اللغة: مأخوذ من الأدمة، وهو الذي يكون من لونه سمرة^(٦) إلا إبليس ﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ﴾ أي امتنع عن السجود تكبراً: معناه أن كبره منعه من السجود. وقوله ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي وصار من الكافرين (كما قال في آية أخرى (فكان من المغرقين) أي صار من المغرقين. وقال بعضهم: كان من الكافرين أي كان في علم الله من الكافرين. يعني أنه يكفر. وبعضهم قال: بظاهر الآية: كان كافراً في الأصل. وهذا قول أهل الجبر. وقالوا: كل كافر أسلم ظهر أنه كان مسلماً في الأصل، وكل مسلم كفر ظهر أنه كان كافراً في الأصل - لأنه كان كافراً يوم الميثاق. ألا ترى أن الله تعالى قال في قصة بلقيس (إنها كانت من قوم كافرين) ولم يقل إنها كانت كافرة، وقال في قصة إبليس ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ وقال أهل السنة والجماعة: الكافر إذا أسلم كان كافراً إلى وقت إسلامه وإنما صار مسلماً بإسلامه إلا أنه غفر له ما قد سلف. والمسلم إذا كفر كان مسلماً إلى ذلك الوقت إلا أنه حبط عمله.

وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ روي عن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: أمر الله تعالى ملائكته أن يحملوا آدم على سرير من ذهب إلى السماء فأدخلوه الجنة ثم خلق منه زوجة حواء، يعني من ضلعه الأيسر، وكان آدم بين النائم واليقظان. وقال ابن عباس [سميت حواء لأنها خلقت من الحي]^(٧).

(١) راجع مجمل اللغة ٣/١٢٠ (سجد) وتاج العروس ٢/٣٧١ (سجد)، واللسان (سجد).

(٢) إعجاز القرآن لأبي عبيدة ١/٣٨ / تحقيق د / محمد فؤاد سزكين ط / مؤسسة الرسالة.

(٣) انظر تفسير ابن جرير ١/٥١٠.

(٤) أخرجه الطبري ١/٤٨١ (٦٤٢) (٦٤٣) في التفسير ورواهما في التاريخ ١/٤٦ وذكره بنحوه السيوطي في الدر ١/٤٩ والشوكاني في التفسير ١/٥٢.

(٥) بل العربية توافقه لأنه خلق من تراب فكانه اشتق من أديم الأرض.

(٦) راجع اللسان / آدم وتاج العروس ج ٨ / ١٨٢ (آدم) أضاف / وقال الزجاج: يقول أهل اللغة لأنه خلق من تراب.

(٧) أخرجه الطبري في التفسير ١/٩٣ (٧١٠) وفي التاريخ ١/٥٢ وذكره ابن كثير ١/١٤٢ والشوكاني في الفتح ١/٥٦.

ويقال^(١) إنما سميت حواء لأنه كان في شفتها حوة^(٢)، يعني حمرة فقال عز وجل ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْهَافَ أَيَّ هَافٍ. يقال للمرأة زوجة وزوج، والزوج أفصح^(٣). وقوله عز وجل ﴿وَكُلَا مِنْهَا﴾ أي من الجنة ﴿رَغَدًا﴾ أي موسعاً عليكما بلا موت ولا هنداز^(٤) - بالزاي المعجمة - هكذا قال في رواية الكلبي يعني بغير تقتير. وقال أهل اللغة^(٥): الرغد هو السعة في الرزق من غير^(٦) تقتير. قوله تعالى: ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ أي ولا تأكلا من هذه الشجرة. روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنها كانت شجرة القمح^(٧). وروي السدي عن حدثه عن ابن عباس أنه قال: هي شجرة الكرم^(٨). وروي الشعبي عن جعدة بن هبيرة مثله^(٩). وروي عن علي - رضي الله عنه - مثله. وروي عن قتادة أنه قال: وذكر لنا أنها شجرة التين^(١٠) ويقال: إنما كان النهي عن الأكل من الشجرة للمحنة، لأن الدنيا دار محنة، وقد خلقه من الأرض ليسكن فيها، فامتنح بذلك، كما امتنح أولاده في الدنيا بالحلل والحرام. فذلك قوله عز وجل ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي فتصيرا من الضالين بأنفسكما.

فَازِلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾

﴿فَازِلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ قرأ حمزة (فازلهما) بالالف. وقرأ غيره بغير ألف، وأصله في اللغة: من أزل يزل. ومعناه فأغراهما الشيطان واستزلهما. وأما من قرأ (فازلهما) بالالف فأصله من أزال يزيل إذا أزال الشيء عن موضعه^(١١). قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أي مما كانا فيه من النعم. وروي عن سعيد بن جبير أنه قال: مكث آدم في الجنة كما بين الظهر والعصر، من أيام الآخرة، لأن كل يوم من أيام الآخرة كالف سنة من أيام الدنيا. وروي عن ابن عباس أنه قال: لما رأى إبليس آدم في النعمة حسده، واحتال لإخراجه منها. فعرض نفسه على كل دابة من دواب الجنة أن يدخل في صورتها فأبت عليه حتى أتى الحية. وكانت أعظم وأحسن دابة في الجنة خلقاً وكانت لها أربعة قوائم، فلم يزل يستدرجها حتى أطاعته فدخل ما بين لحييها وأقام في رأسها، ثم أتى باب الجنة وناداهما وقال: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، يعني أن هذه الشجرة

(١) ما بين المعقوفين من ظ.

(٢) الحوة: الحمرة تضرب إلى السواد ثم سمو كل أسود أحوى (اللسان: حوى).

(٣) راجع تاج العروس ٥٤/٢ (زوج) قال: وأباها الأصمعي بالهاء أي (زوجه)، واللسان: زوج.

(٤) الهنداز: معرب، لأنه ليس في كلام «العرب زاي قبلها دال».

يقال: أعطاه بلا حساب ولا هنداز. . . اللسان: هندز. انظر اللسان / رغد والرغد والرغد: الكثير الغزير.

(٥) وقال ابن فارس: عيش رَغَدَ وَرَغَدَ: أي طيب واسع / مجمل اللغة ٤٠٠/٢.

(٦) في ظ [أن يتغنى] ويقال من غير أن يقتل لا عناء فيه.

(٧) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥٣/١.

(٨) أخرجه ابن جرير في التفسير ٥١٩/١ (٧٣٢).

(٩) المصدر السابق (٧٣٣). (١٠) السيوطي الدر المنثور (٥٣/١).

(١١) وأزال بمعنى صرف أو نحى، أما (أزلهما) فمعناها: أوقعهما في الزلل ويحتمل أن يكون زل عن المكان إذا تنحى فيتحدان في المعنى.

شجرة الخلد، فمن أكل منها يبقى في الجنة أبداً. ويقال: إن حواء قالت لآدم: تعال حتى نأكل من هذه الشجرة فقال آدم: قد نهانا ربنا عن أكل هذه الشجرة فأخذت حواء بيده حتى جاءت به إلى الشجرة، وكان يحب حواء فكره أن يخالفها لحبه إياها وكان آدم يقول لها: لا تفعلني فأنني أخاف العقوبة. وكانت حواء تقول: إن رحمة الله واسعة فأخذت من ثمرها وأكلت. ثم قالت لآدم: هل أصابني شيء بأكلها؟ وإنما لم يصبها شيء بأكلها لأنها كانت تابعة، وآدم متبوعاً فما دام المتبوع على الصلاح يتجاوز عن التابع، فإذا فسد المتبوع فسد التابع. ثم أخذت ثمرة أخرى ودفعته إلى آدم. فلما أكل آدم لم تصل إلى جوفه حتى أخذتهما الرعدة، وسقط عنهما ما كان عليهما من [الحلي والحلل]^(١) وغيرهما وعريا عن الثياب حتى بدت عوراتهما فاستحيا وهربا. قال الله تعالى: يا آدم أمني تهرب؟ قال: لا ولكن حياء من ذنبي فأخذنا من أوراق التين، وألصقا على عوراتهما. ثم أمرهما الله تعالى بأن يهبطا منها إلى الأرض، فوقع آدم بأرض الهند، وحواء بجدة. وروي عن ابن عباس أنه قال: إنما سمي الإنسان إنساناً، لأن الله عهد إليه فنسي أي ترك. وقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي آدم وحواء وإبليس والحية فبقي بين إبليس وبين أولاد آدم العداوة إلى يوم القيامة. وكذلك بين الحية وبين أولاد آدم عداوة إلى يوم القيامة. ثم قال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي موضع القرار ﴿وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: الحياة والعيش إلى الموت.

فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ قرأ ابن كثير (فتلقى آدم) بنصب آدم ورفع كلمات. وقرأ غيره برفع آدم وكسر كلمات. فأما من قرأ ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ﴾ بالرفع فمعناه أخذ، وقيل من ربه ومن قرأ ينصب آدم يعني استقبلته كلمات من ربه^(٢). يقال: تلقيت فلاناً بمعنى استقبلته. ومعنى ذلك كله: أن الله تعالى ألهمه كلمات، فاعتذر بتلك الكلمات وتضرع إليه، فتاب الله عليه. وروي عن مجاهد أنه قال: تلك الكلمات هي قوله عز وجل (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا) الآية. وقال بعضهم: قال: بحق محمد أن تقبل توبتي، قال الله له: ومن أين عرفت محمداً؟ قال: رأيت في كل موضع من الجنة مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله. فعلمت أنه أكرم خلقك عليك. فتاب الله عليه^(٣). وروي الضحاك عن ابن عباس أنه قال: الكلمات هي قوله سبحانه اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت رب عملت سوءاً وظلمت نفسي فتاب عليّ وارحمني، إنك أنت التواب الرحيم^(٤). [سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت رب عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي وارحمني وأنت خير الغافرين سبحانه اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت رب عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي وأنت خير الراحمين]^(٥) قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ يعني قبل الله توبته. يقال: تاب العبد إلى ربه وتاب الله على عبده، فهذا اللفظ مشترك إلا أنه إذا ذكر من العبد يقال:

(١) في أ (الحلل والحلي).

(٢) وما بين المعقوفين سقط من ظ.

انظر / حرز الأمان في سورة البقرة إذ يقول:

وآدم فارفع ناصباً كلماته بسكرة وللمكي عكس تحولا وكذا أبو شامة، والاتحاف.

(٣) انظر الدر المنثور ٦٠/١.

(٤) أخرجه ابن جرير في التفسير ٥٤٥/١ (٧٨٨) وذكره ابن كثير ١٤٧/١ وانظر الدر المنثور ٦٠/١.

(٥) في ظ والثاني فاغفر لي إنك خير الغافرين. الثالث: فارحمني إنك خير الراحمين.

تاب إلى الله، وإذا ذكر من الله تعالى يقال: تاب الله على عبده. إذا رجع العبد عن ذنبه، وتاب الله على عبده، إذا قبل توبته قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ يعني المتجاوز عن الذنوب الرحيم بعباده.

قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ يعني آدم وحواء وإبليس والحية وفي الآية دليل على أن المعصية تزيل النعمة عن صاحبها لأن آدم قد أخرج من الجنة بمعصيته. وهذا كما قال القائل:

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم
وداوم عليها بشكر الإله فإن الاله شديد النقم

وقال تعالى: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) الآية. وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ وأصله (فإن ما) ألا أن النون أدغمت في الميم، وإن لتأكيد الكلام، وما للصلة، ومعناه فإما يأتينكم مني هدى يعني البيان، وهو الكتاب والرسول. خاطب به آدم وعن به ذريته ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾ يعني اتبع كتابي وأطاع رسلي ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلهم من العذاب ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا من أمر الدنيا.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي جحدوا رسلي وكذبوا كتابي ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي دائمون.

يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٤٠﴾
وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنْهُوَ الْحَقُّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾

﴿يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ يا أولاد يعقوب. وإنما سمي إسرائيل لأن (الإسرا) بلغتهم عبداً، و(الاييل) هو الله فكأنه قال: يا بني عبد الله. وقال بعضهم: إنما سمي إسرائيل لأنه أسره ملك يقال له (اييل) وذلك أنه كان في سفر مع أولاده، وكان يسير خلف القافلة، وكان له قوة فدخل في نفسه شيء من العجب، فابتلاه الله تعالى: أن جاءه ملك على هيئة اللص وأراد أن يضرب على القافلة، فأراد يعقوب أن يضربه على الأرض فلم يقدر على ذلك فكانا في تلك المنازعة إلى طلوع الفجر^(١)، ثم إن الملك أخذ بعرق يعقوب أي عرق من عروقه فمده فسقط في ذلك الموضع ثلاثة أيام. وقال بعضهم: لأنه أسره جني يقال له (اييل) وروي عن السدي: أنه وقعت بينه وبين أخيه (عيسوا) عداوة فحلف (عيسوا) أن يقتله، فكان يعقوب يخفي بالنهار، ويخرج بالليل فسمي إسرائيل لسيره

(١) بياض في أ.

بالليل. وأصله من إسرائ الليل بدليل قوله عز وجل ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ [الإسراء: ١] والله أعلم بالصواب. ويقال: إنما سمي يعقوب لأنه ولد مع عيصوا في بطن واحد فخرج على عقب عيصوا فسمي لذلك يعقوب. فقال الله تعالى ﴿يا بني إسرائيل﴾ وإنما أراد بهم اليهود الذين كانوا حوالي المدينة من بني قريظة والنضير وغيرهم، وكانوا من أولاد يعقوب وقال تعالى: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني احفظوا مني التي مننت عليكم في التيه من المن والسلوى، يعني اذكروا تلك النعم [التي أنعمت عليكم]^(١) واشكروا لي ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية أبي صالح: قد كان الله تعالى عهد إلى بني إسرائيل في التوراة أنني باعث من بني إسماعيل نبياً أميناً فمن تبعه وصدق به غفرت له ذنوبه، وأدخلته الجنة، وجعلت له أجرين أجراً باتباعه ما جاء به موسى، وأجراً باتباعه ما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - [فلما جاءهم محمد - عليه الصلاة والسلام]^(٢) وعرفوه كذبوه فذكرهم الله تعالى في هذه الآية فقال ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ قال الحسن البصري ﴿أوفوا بعهدي﴾ أدوا ما افترضت عليكم أوف بعهدكم مما وعدت لكم^(٣). وقال الضحاك: أوفوا بطاعتي أوف لكم بالجنة^(٤). وقال الصادق^(٥): أوفوا بعهدي في دار محنتي على بساط خدمتي في حفظ حرمتي أوف بعهدكم في دار نعمتي على بساط قربتي بسني رؤيتي. وقال قتادة: العهد ما ذكر في سورة المائدة في قوله: (ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل) إلى قوله تعالى: (وَأَمْتُمْ بَرَسِي وَعَزَّرْتَهُمْ وَأَقْرَضْتُمْ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً) [أوف بعهدكم] وهو قوله: ﴿لَا كُفْرَ عَنْكُمْ سِيئَاتِكُمْ﴾ [المائدة: ١٢] الآية. ويقال: ﴿أوفوا بعهدي﴾ الذي قبلتم يوم الميثاق ﴿أوف بعهدكم﴾ الذي قلت لكم، يعني به الجنة. قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ﴾ يعني: فآخشون. وأصله فارهبوني بالياء لكن حذفت الياء وأقيم الكسر مقامها. ثم قال: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أُنْزِلَتْ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أي صدقوا بهذا القرآن الذي أنزلت على محمد - صلى الله عليه وسلم - مصدقاً [أي موافقاً]^(٦) لما معكم، [من التوحيد]^(٧) وفي بعض الشرائع [أنزلت]^(٨) يعني التوراة والإنجيل ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ يعني أول من يكفر بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ويقال: (به) يعني بالقرآن. وإنما يريد بني قريظة والنضير. فإن قيل: ما معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ وقد كفر به قبلهم مشركو العرب. قيل له: معناه (ولا تكونوا أول كافر به) في وقت هذا الخطاب. ويقال: إن أحبار اليهود كان لهم أتباع، فلو أسلموا أسلم أتباعهم [ولو كفروا كفر أتباعهم كلهم]^(٩)، فهذا معنى قوله ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ من قومكم. ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمناً قليلاً﴾ أي بكتمان صفة محمد - صلى الله عليه وسلم - عرضاً سيراً لأنهم كانوا عرفوا صفة محمد - صلى الله عليه وسلم - وكانت لهم مأكلة ووظائف من سفلة اليهود، وكانت لهم رئاسة، فكانوا يخافون أن تذهب وظائفهم ورئاستهم. فقال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمناً قليلاً﴾ أي عرض الدنيا وإنما سماه قليلاً، لأن الدنيا كلها قليل. ثم خوفهم فقال: ﴿وَإِنِّي فَأَتَّقُونَ﴾ في صفة محمد - صلى الله عليه وسلم - فمن جحد به أدخلته النار. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ يقال في اللغة: لبس يلبس لبساً إذا لبس الثياب^(١٠). ومعناه لا تخلطوا الحق بالباطل، فتكتمون صفته، وذلك أنهم كانوا يخبرون عن بعض صفته، ويكتمون

(٢) ما بين المعقوفين من أ.

(١) ما بين المعقوفين من أ.

(٣) نسب السيوطي لعبد بن حميد كما في الدرر ١/٦٤.

(٤) وقال السيوطي في المصدر السابق: أخرجه عبد بن حميد وأبو الشيخ في العظمة عن الضحاك.

(٧) في ظ [يعني به موافقاً لما معكم في التوحيد].

(٥) - صلى الله عليه وسلم -.. (٦) من أ.

(٩) من ظ.

(٨) من أ.

(١٠) اللسان: لبس، مجمل اللغة ٤/٢٦٢ لبس. ترتيب القاموس ٤/١١٧ لبس.

البعض ليصدقوا بذلك فيلبسون عليهم بذلك . وقال قتادة (ولا تلبسوا) اليهودية والنصرانية بالإسلام ، وقد علمتم أن دين الله ، الذي لا يقبل غيره هو الإسلام . ويقال : معناه ولا تؤمنوا ببعض أمره وتكفروا ببعض أمره . ثم قال تعالى : ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ يقول : ولا تكتُموا الحق ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم تكتُمون الحق . ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي أقيموا الصلوات الخمس بركوعها وسجودها في مواقيتها ، ﴿وَاتُوا الزَّكَاةَ﴾ المفروضة ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أي صلوا مع المصلين ، مع أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - في الجماعات . ويقال : صلوا مع المصلين إلى الكعبة . وقال قتادة : وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وهما فريضتان واجبتان ليس لأحد فيهما رخصة ، فأدوهما إلى الله عز وجل .

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

قوله : ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ نزلت هذه الآية في شأن اليهود الذين كانوا حوالي المدينة ، وهم بنو قريظة والنضير ، وكانوا ينتظرون خروج النبي - صلى الله عليه وسلم - وكانوا يدعون الأوس والخزرج إلى الإيمان به ، فلما خرج النبي - صلى الله عليه وسلم - آمن به الأوس والخزرج وكفر اليهود وجحدوا فنزلت هذه الآية ^(١) ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [وقال ابن عباس في رواية أبي صالح : كانت اليهود إذا جاءهم حليف منهم - الذي قد أسلم - وسأل عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في السر فتقول له : إنه نبي صادق فاتبعه ، وتكتم ذلك عن السفلة مخافة أن تذهب منافعه فنزلت هذه الآية ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾] ^(٢) وقال قتادة : في هذه الآية دليل على أن من أمر بخير فليكن أشد الناس تسارعاً إليه ، ومن نهى عن شر فليكن أشد الناس انتهاء عنه . ويقال : تنزلت في شأن القصاص . قال الفقيه : أخبرنا القاضي الخليل بن أحمد ، قال : حدثنا ابن أبي حاتم الرازي ^(٣) قال : أخبرنا الحجاج بن يوسف عن سهل بن حماد ^(٤) عن ابن غياث ^(٥) عن هشام الدستوائي ^(٦) عن المغيرة وهو ختن مالك بن دينار عن مالك بن دينار عن ثمامة ^(٧) عن أنس قال : لما عرج بالنبي - صلى الله عليه وسلم - على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار فقال يا جبريل من هؤلاء فقال : هؤلاء أمتك الذين يأمرون الناس بالبر ، وينسون أنفسهم ^(٨) . ثم قال تعالى : ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يعني أفلا تعقلون أن صفته في التوراة . ويقال ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن ذلك حجة عليكم .

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ أي استعينوا بالصبر على أداء الفرائض وبكثرة الصلاة على تمحيص الذنوب . ويقال : استعينوا بالصبر على نصرة محمد - صلى الله عليه وسلم - وقال مجاهد : استعينوا بالصبر والصلاة يعني

(١) انظر أسباب النزول للواحدي (١٥) ولباب النقول للسيوطي (١٠) .

(٢) ما بين المعقوفين من ظ .

(٣) عبد الرحمن بن محمد الرازي ، كان بَحراً في العلوم ومعرفة الرجال ، توفي سنة ٣٢٧ هـ . لسان الميزان ١/٢٦٥ .

(٤) هو أبو عتاب الدلالة ، صالح الحديث ، الجرح والتعديل ٤/١٩٦ .

(٥) حفص بن غياث بن طلق بن معاوية النخعي ، أبو عمر الكوفي القاضي ، ثقة فقيه تغير حفظه قليلاً في الآخر ، مات سنة أربع أو خمس وتسعين ، التقريب ١/١٨٩ .

(٦) هشام بن أبي عبد الله الدستوائي ، كان عالماً بالحديث ثبناً ، وقد رُمي بالقدر ، التقريب ٢/٣١٩ .

(٧) ثمامة بن عبد الله بن أنس ، قاضي البصرة ، ثقة قليل الحديث ، الجرح والتعديل ٢/٤٦٦ .

(٨) أخرجه أحمد في المسند بنحوه ٣/٢٣١ والسيوطي في الدر المنثور ١/٦٤ .

بالصوم والصلاة، وإنما سمي الصوم صبراً لأن في الصوم حبس النفس عن الطعام والشراب والرفث^(١). وقد قيل الصبر على ثلاثة أوجه: صبر على الشدة والمصيبة، وصبر على الطاعة وهو أشد من الأول وأكثر أجراً، وصبر عن المعصية وهو أشد من الأول والثاني، وأجره أكثر من الأول. وفي هذا الموضع أراد الصبر على الطاعة. قوله تعالى: ﴿وَإِنهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ أي الاستعانة ويقال: الصلاة (لكبيرة) أي ثقيلة ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ أي المتواضعين. ويقال: الذليلة قلوبهم.

الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَكُّوآ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَكُّوآ رَبِّهِمْ﴾ أي يستيقنون أنهم يبعثون يوم القيامة بعد الموت. [وإنما سمي اليقين ظناً، لأن في الظن طرفاً من اليقين، فيعبر بالظن عن اليقين. وقوله ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ يعني في الآخرة بعد البعث]^(٢) للحساب.

يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي على عالمي زمانهم. وقال بعضهم: من آمن من أهل الكتاب بمحمد - صلى الله عليه وسلم - كانت له فضيلة على غيره وكان له أجران أجر إيمانه بنبيه عليه السلام وأجر إيمانه بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وقد روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: ثلاثة يعطيهم الله الأجر مرتين، من اشترى جارية فأحسن تأديبها فاعتقها وتزوجها، وعبد أطاع سيده وأطاع الله تعالى، ورجل من أهل الكتاب أدرك النبي - صلى الله عليه وسلم - فآمن به^(٣). وقال بعضهم: معنى قوله ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بإنزال المن والسلوى وغيره، ولم يكن ذلك لأحد من العالمين غيرهم.

وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ أي واخشوا عذاب يوم ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ يعني لا تغني في ذلك اليوم لا تجزي نفس مؤمنة عن نفس كافرة وذلك أنهم كانوا يقولون نحن من أولاد إبراهيم خليل الله، ومن أولاد إسحاق والله تعالى يقبل شفاعتهما فينا، فنزلت هذه الآية ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أي لا تغني نفس مؤمنة عن نفس مؤمنة [ولا نفس كافرة عن نفس كافرة]^(٤) ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ أي من نفس كافرة [يعني لا ينفع فيها شافع ولا ملك ولا رسول لغير أهل القبلة]^(٥) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (ولا تقبل) بالتاء لأن الشفاعة مؤنثة وقرأ الباقون

(١) انظر في معنى الصوم لغة وشرعاً، المغرب ٤٨٧/١، والتعريفات شرح الحدود (٨٠) والمطلع (١٤٥) ودر الحكام ١٩٦/١.

(٢) ما بين المعقوفين من ظ.

(٣) متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري أخرجه البخاري ١٩٠/١ في العلم باب تعليم الرجل أمته وأهله (٩٧) ومسلم ١٣٤/١

الإيمان باب وجوب الإيمان برسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - إلى جميع الناس (٢٤١ / ١٥٤).

(٤) ما بين المعقوفين من أ. (٥) ما بين المعقوفين من أ.

بالياء لأن تأنيثه ليس بحقيقي وما لم يكن تأنيثه حقيقياً جاز تذكيره^(١). وكقوله عز وجل: (فمن جاءه موعظة من ربه) ثم قال تعالى ﴿وَلَا يَأْخُذْ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي لا يقبل الفداء من نفس كافرة كما قال في موضع آخر (فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً) ويقال: لو جاءت بعدل نفسها رجلاً مكانها لا يقبل منها ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يقول: ولا هم يمنعون من العذاب.

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ
وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ إنما خاطبهم وأراد به آباءهم لأنهم يتبعون آباءهم فأضاف إليهم. ومعناه واذكروا إذ نجيناكم من قوم فرعون ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي يعذبونكم بأشد العذاب وأقبح العذاب، ويقال في اللغة^(٢): سامه الخسف إذا أولاه الهوان يعني يولونكم بأشد العذاب. ثم بين العذاب فقال تعالى: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ الصغار ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أي يستخدمون نساءكم. وأصله في اللغة: من الحياة، يقال: إستحيا، يستحي إذا تركه حياً. وكانوا يذبحون الأولاد، ويتركون النساء أحياء للخدمة وذلك لأن فرعون قالت له كهنته: يولد في بني إسرائيل مولود ينازعك في ملكك. فأمر بأن يذبح كل مولود يولد في بني إسرائيل وتترك البنات. قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي نعمة من ربكم عظيمة والبلاء: يكون عبارة عن النعمة، ويكون أيضاً عبارة عن البلية والشدة وأصله من الابتلاء والاختيار يكون بهما جميعاً. فإن أراد به النعمة فمعناه^(٣) ﴿وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ﴾ أي أتجاه الله من ذبح الأولاد واستخدام النساء نعمة لكم من ربكم (عظيم) وإن أراد به العذاب، فمعنى (وفي ذلكم بلاء) أن في ذبح الأبناء واستخدام النساء بلاء لكم من ربكم عظيم.

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٥٠﴾

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ أي فرق الماء يميناً وشمالاً حين خرج موسى مع بني إسرائيل من مصر، فخرج فرعون وقومه^(٤) في طلبهم، فلما انتهوا إلى البحر ضرب موسى عصاه على البحر فانفلق فصار اثني عشر طريقاً يساً، لكل سبط منهم طريق فلما جاوز موسى البحر ودخل فيه فرعون مع قومه غشيهم من اليم ما غشيهم. أي غشيهم الماء فغرقوا في اليم فذلك قوله تعالى: (وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ) يقول: واذكروا نعمة الله عليكم إذ فلقنا بكم البحر ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾ من الغرق ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ يعني فرعون وآله قال بعض أهل اللغة^(٥) الآل أتباع الرجل

(١) انظر شرح الضبايع على الشاطبية، والحجة لابن خالويه وأبو شامة.

(٢) قال ابن منظور: سامه الأمر سوماً: كلفه إياه وقال الزجاج: أولاه إياه، وأكثر ما يستعمل في العذاب والشر والظلم. اللسان: سوم.

(٣) ما بين المعقوفين من أ. (٤) في ظ [من مصر وقومه].

(٥) ذكره السيوطي في الجامع الصغير ٥٥/١. كذا في الفيض وعزاه للطبراني في الأوسط من حديث أنس ورمز له بالضعف بلفظ «آل

محمد كل تقي وعزاه المناوي للطبراني في الأوسط والصغير ولابن لال وتمام والعقيلي والحاكم في تاريخه والبيهقي من أنس قال: سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من آل محمد؟ فذكره».

قال الهيثمي: وفيه نوح بن أبي مريم وهو ضعيف جداً، وقال البيهقي: هو حديث لا يحل الاحتجاج به. وقال ابن حجر: رواه الطبراني عن أنس وسنده واه جداً. وأخرجه البيهقي عن جابر من قوله وإسناده واه ضعيف. وقال السخاوي: أسانيده كلها ضعيفة. =

قريبه كان أو غيره وأهله قريبه أتبعه أو لم يتبعه. ويقال: الآل والأهل بمعنى واحد، إلا أن الآل يستعمل لاتباع رئيس من الرؤساء. يقال: آل فرعون وآل موسى، وآل هارون ولا يقال: آل زيد، وآل عمرو. وروى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قيل له: من آلك؟ قال: آلي كل بقي إلى يوم القيامة^(١) قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ أي تنظرون إليهم حين لفظهم البحر بعدما غرقوا يعني آباءهم. وقال بعضهم: معناه أنكم تعلمون ذلك كأنكم تنظرون إليهم. قال الفقيه: وكان في قصة فرعون وغيره علامة نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - لأنه لا يعرف ذلك إلا بالوحي، فلما أخبرهم بذلك من غير أن يقرأ كتاباً، كان ذلك دليلاً أنه قاله بالوحي وفيه أيضاً تهديد للكفار ليؤمنوا حتى لا يصيبهم مثل ما يصاب أولئك. وفيه أيضاً تنبيه للمؤمنين وعظة لهم ليزجرهم ذلك عن المعاصي.

وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ قرأ أبو عمرو ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ﴾ بغير ألف وقرأ غيره ﴿وَاعْدَنَا﴾ بالألف، فمن قرأ بغير ألف فمعناه ظاهر، يعني أن الله تعالى وعد موسى عليه السلام ومن قرأ بالألف بالمواعدة تجري بين اثنين، وإنما كان الوعد من الله تعالى ومن موسى الوفاء. ومن الله الأمر، ومن موسى الائتمار. فكأنما جرت المواعدة بين الله تعالى وبين موسى. وقد يجوز أن تكون المفاعلة من واحد كما يقال سافر وناق. ويقال: أربعين ليلة كانت ثلاثين ليلة منها من ذي القعدة وعشر من ذي الحجة. وقال بعضهم: ثلاثين كانت من ذي الحجة وعشر من المحرم وكانت مناجاته يوم عاشوراء. وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال: لما وعدهم موسى أربعين ليلة عدت بنو إسرائيل عشرين يوماً وعشرين ليلة، وقالوا: قد تمت أربعون ولم يرجع موسى، فقد خالفنا^(٢). وذكر أن السامري قال لهم: إنكم استعرت من نساء آل فرعون حليهم ولم تردوه عليهم، فلعل الله تعالى لم يرد علينا موسى لهذا المعنى فهاتوا ما عندكم من الحلي حتى نحرقه، فلعل الله يرد إلينا موسى فجمعوا ذلك

= قال الحلي في تفسير الآل: هم قرابته لقيام الأدلة على أن آله من حرمت عليهم الصدقة أو المراد آله بالنسبة لمقام نحو الدعاء ورجحه النووي رحمه الله في شرح مسلم فالإضافة للإختصاص أي هم مختصون به اختصاص أهل الرجل به، وعليه فيدخل أهل البيت دخولاً أولياً كذا حرره بعض المتأخرين أخذاً من قول الراغب: آل النبي - صلى الله عليه وسلم - أقاربه وقيل المختصون به من حيث العلم، وذلك أن أهل الدين ضربان: ضرب مختص بالعلم المتقن والعمل النافع المحكم فيقال لهم: آل النبي وأمه، وضرب يختصون بالعلم على سبيل التقليد ويقال لهم أمة محمد ولا يقال: آله وكل آل النبي وأمه ولا عكس.

وقيل لجعفر الصادق: الناس يقولون: المسلمون كلهم آل النبي - قال: صدقوا وكذبوا. قيل: كيف؟ قال: كذبوا في أن الأمة كافتهم آله وصدقوا أنهم إذا قاموا بشروط شريعته آله، والمتقي من بقي نفسه عما يضره في العقبى أو من سلك سبيل المصطفى ونبذ الدنيا وراء القفا وكلف نفسه الإخلاص والوفاء واجتنب الحرام والجفاء ولو لم يكن له فضل إلا قوله تقديس: هدى للمتقين لكفى لأنه تعالى بين في غير موضع أن القرآن هدى للناس. وقال: هدى للمتقين فكأنه قال: المتقون هم الناس وغير المتقي ليس من الناس وقال الحراني: المتقي المتوقف عن الأقدام على كل أمر لشعوره بتقصيره عن الاستبداد، وعلمه بأنه غير نفسه فهو متق لوصفه وحسن فطرته، والتقوى تجنب القبيح خوفاً من الله وهي أصل كل عبادة ووصية الله لأهل الكتاب بأسرها.

(١) قال أبو العباس أحمد بن يحيى: اختلف الناس في إلفاظ طائفة: آل النبي - صلى الله عليه وسلم - من أتبعه قرابة كانت أو غير قرابة، وآله ذو قرابته متبعاً أو غير متبع وقال طائفة: الآل والأهل واحد. اللسان: أول.

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير ٦٥/١ مطولاً بنحوه (٩١٩).

الحلي، وكان السامري صائغاً فاتخذ من ذلك عجلاً، وقد كان قبل ذلك رأي جبريل - عليه السلام - على فرس الحية، فكلما وضع حافره أخضر ذلك الموضع فرفع من تحت سنبكه^(١) قبضة من التراب، ونفخ ذلك التراب في العجل فصار ذلك عجلاً جسداً له خوار. وروي عن ابن عباس أنه قال: صار عجلاً له لحم ودم وفيه حياة له خوار. وروي عن علي أنه قال: اتخذ عجلاً جسداً مشبكاً من ذهب له خوار، فدخل الريح في جوفه وخرج من فيه كهية الخوار فقال للقوم (هذا إلهكم وإله موسى فنسي) يعني أن موسى أخطأ الطريق. وقال بعضهم: كان موسى وعدهم ثلاثين ليلة، فتم ميقات ربه أربعين ليلة لأنه قد أفطر من الصيام في تلك العشرة لأنه ظهر لهم الخلاف في تلك العشرة وهذا الطريق أوضح. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي عبدتم العجل من بعد انطلاق موسى إلى الجبل ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي كافرون بعبادتكم العجل. ويقال: وأنتم ضارون أنفسكم بعبادتكم العجل: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي تركناكم من بعد عبادتكم العجل، فلم نستأصلكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لكي تشكروا الله تعالى على العفو والنعمة. قوله: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي أعطينا موسى التوراة ﴿وَالْفُرْقَانَ﴾ أي الفارق بين الحلال والحرام ويقال: الفرقان هو النصرة بدليل قوله تعالى: (يوم الفرقان) أي يوم النصرة. ويقال: الفرقان هو المخرج من الشبهات ويقال: هو انفلاق البحر بدليل قوله (وإذ فرقنا بكم البحر) وقال الفراء: في الآية مضمرة، ومعناه: وآتينا موسى الكتاب يعني التوراة وأعطينا محمداً الفرقان، فكانه خاطبهم فقال: قد أعطيناكم علم موسى وعلم محمد - صلى الله عليه وسلم - وعلم سائر الأنبياء قوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي لكي تهتدوا من الضلالة.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ﴾ وأصله يا قومي بالياء. ولكن حذف الياء وترك الكسر بدلاً عن الياء وتكون في الإضافة إلى نفسه معنى الشفقة. يا قوم ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ يعني أضرتكم بأنفسكم ﴿بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ﴾^(٢) [يعني إلى خالقكم]^(٣) يقول: فارجعوا عن عبادة العجل إلى عبادة خالقكم، وتوبوا إليه فقالوا له: وكيف التوبة؟ قال لهم موسى: ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ يعني يقتل بعضكم بعضاً، يقتل من لم يعبد العجل الذين عبدوا العجل، وإنما ذكر قتل الأنفس وأراد به الإخوان. وهذا كما قال في آية أخرى (ولا تلمزوا أنفسكم) أي لا تعيبوا إخوانكم من المسلمين يعني لا تغتابوا إخوانكم. ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ﴾ يعني التوبة خير لكم عند خالقكم ومعناه قتل إخوانكم مع رضا الله خير لكم عند الله تعالى من ترككم إلى عذاب الله قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي المتجاوز عن الذنوب الرحيم حيث جعل القتل كفارة لذنوبكم. وروي في الخبر أن الذين عبدوا العجل جلسوا على أبواب دورهم وأتاهم هارون والذين لم يعبدوا العجل شاهرين سيوفهم، فكان موسى عليه السلام يتقدم ويقول: إن هؤلاء إخوانكم قد أتوا شاهرين سيوفهم،

(١) السنبك: طرف الحافر وجانبه من قدم وجمعه سنابك. اللسان: سنب.

(٢) لم يذكر المؤلف قراءة أبي عمرو في «بارئكم» وقد قرأها أبو عمرو بإسكان الهمزة وهي لغة بني أسد وتميم وبعض نجد للتخفيف من توالي ثلاث حركات فقال: من نوع واحد. انظر الحرز، وأبو شامة، والبحر المحيط.

(٣) ما بين المعقوفين من أ.

فاتقوا الله واصبروا له فلعن الله رجلاً قام من مجلسه أو حل حبوته^(١)، أو مد بطرفه إليهم أو اتقاهم بيد أو برجل . فيقولون: آمين وذكر في رواية أبي صالح: أن هارون كان يتقدم ويقول ذلك . فجعلوا يقتلونهم إلى المساء فكانت القتلى سبعين ألفاً فكان موسى عليه السلام يدعو ربه لما شق عليه من كثرة الدماء حتى نزلت التوبة . فقليل لموسى : ارفع السيف عنهم ، فإني قبلت توبتهم جميعاً من قتل ومن لم يقتل^(٢) .

وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسَىٰ لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ أي لن نصدقك ﴿حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي عياناً، وذلك أن موسى عليه السلام حين انطلق إلى طور سيناء للمناجاة اختار موسى من قومه سبعين رجلاً، فلما انتهوا إلى الجبل أمرهم موسى بأن يمكنوا في أسفل الجبل وصعد موسى عليه السلام فناجى ربه فأعطاه الله الألواح، فلما رجع إليهم قالوا له: إنك قد رأيت الله فأرناهُ حتى ننظر إليه، فقال لهم: إني لم أره، وقد سألته أن أنظر إليه، فتجلى للجبل، فذك الجبل، فلم يصدقوه. وقالوا: لن نصدقك حتى نرى الله جهرة. فأخذتهم الصاعقة فماتوا كلهم فدعا موسى ربه فأحياهم الله تعالى، فذلك قوله عز وجل: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ إلى الصاعقة. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ يقول أحييناكم من بعد هلاككم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ للحياة بعد الموت.

وَوَظَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلًّا مِنْ طِيبَتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

﴿وَوَظَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ إنما خاطبهم وأراد به آباءهم وهم قوم موسى عليه السلام، حيث أمروا بأن يدخلوا مدينة الجبارين فأبوا ذلك وقالوا لموسى: (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) فعاقبهم الله عز وجل فبقوا في التيه أربعين سنة، وكانت المفازة اثني عشر فرسخاً، وكان يؤذيهم حر الشمس فظل عليهم الغمام فذلك قوله تعالى: ﴿وَوَظَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ وهو السحاب الأبيض، يقيكم حر الشمس في التيه، وكان لهم في التيه عمود من نور مد لهم من السماء فيسير معهم من الليل مكان القمر فأصابهم الجوع فسألوا موسى فدعا الله فأنزل عليهم المن^(٣) وهو (الترنجبين) كان يتساقط عليهم كل غداة فيأخذ كل إنسان منهم ما يكفيه يومه وليلته، فإن أخذ أكثر من ذلك دود ذلك الزايد وفسد وإذا كان يوم الجمعة أخذ كل إنسان منهم مقدار ما يكفيه يومين لأنه لا يأتيهم يوم

(١) - الحبة بكسر الحاء وضمها -: الثوب الذي يحتبى به، وفي الحديث: أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - نهى عن الاحتباء في ثوب واحد.

قال ابن الأثير: هو أن يضم الإنسان رجله إلى بطنه بثوب يجمعها به في ظهره ويشده عليها. وقال الجوهري: احتبى الرجل إذا جمع ظهره وساقيه بعمامته وقد يحتبى بيديه. اللسان: حبا، الصراح: حبا.

(٢) ذكره السيوطي في الدر عن الزهري ٦٩/١.

(٣) المن. قال ابن سيده: هو طل ينزل من السماء، وقيل: هو شبه العسل كان ينزل على بني إسرائيل من السماء إذ هم في التيه، وقيل: كان ينزل عليهم إذ هم بأفنتهم اللسان: منن.

السبت، وكان ذلك مثل الشهد المعجون بالسمن فأجموا^(١) من المن، أي ملوا من أكله. فقالوا لموسى عليه السلام: قتلنا هذا المن بحلاوته وأحرق بطوننا فادع لنا ربك أن يطعمنا لحماً. فدعا لهم موسى - عليه السلام - فبعث الله لهم طيراً كثيراً فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى﴾ وهو السمانى وهو طير يضرب إلى الحمرة. وقال بعضهم: كان طيراً يأتيهم مشوياً. قال عامة المفسرين إنهم كانوا يأخذونها ويذبحونها. ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ﴾ أي قيل لهم كلوا من طيبات، وهذا من المضمرات، وفي كلام العرب يضم الشيء إذا كان يستغنى عن إظهاره، كما قال في آية أخرى (فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتهم بعد إيمانكم) يعني يقال لهم أكفرتهم. وكما قال في آية أخرى: (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله) يعني قالوا: ما نعبدهم ومثل هذا في القرآن كثير. وكذلك قوله ههنا ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ أي من حلالات ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي أعطيناكم من المن والسلوى ولا ترفعوا منها شيئاً كما قال في آية أخرى (كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه) أي ولا تعصوا فيه فلا ترفعوا إلى الغد فرفعوا وجعلوا اللحم قديداً مخافة أن ينفذ فرجع ذلك عنهم ولو لم يرفعوا لدام ذلك عليهم. قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ يقول وما أضرونا ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي أضروا بأنفسهم حيث رفعوا [إلى الغد حتى]^(٢) منع ذلك عنهم. وروى خلاص^(٣) عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: لولا بنو إسرائيل لم يخبث الطعام، ولم (يتن)^(٤) اللحم، ولولا حواء لم تخن امرأة زوجها^(٥).

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ قال الكلبي: يعني أريحا. وقال مقاتل: إيليا. ويقال هذا: كان بعد موت موسى عليه السلام، وبعد مضي أربعين سنة حيث أمر الله تعالى يوشع بن نون وكان خليفة موسى - عليهما السلام - بأن يدخل مع قومه المدينة فقال لهم يوشع بن نون: ادخلوا الباب سجداً يعني إذا دخلتم من باب المدينة فادخلوا ركعاً منحنين ناكسي رؤوسكم متواضعين فيقوم ذلك منكم مقام السجود وذلك قوله تعالى: (وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ) يعني أريحا أو إيليا ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً﴾ موسعاً عليكم ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً﴾ أي ركعاً منحنين ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ قرأ بعضهم بالرفع وبعضهم بالنصب وهي قراءة شاذة، وإنما جعله نصباً لأنه مفعول. ومن قرأ بالرفع معناه وقولوا حطة^(٦). وروي عن قتادة أنه قال: تفسير (حطة) يعني حط عنا خطايانا. وقال بعضهم^(٧): معناه لا إله إلا الله. وقال بعضهم بسم الله. وقال بعضهم أمروا بأن يقولوا بهذا اللفظ ولا ندري ما

(١) أجمت الطعام - بالكسر عند الجوهري، وبالكسر والفتح عند ابن منظور أي كرهته من المداومة عليه اللسان الصحاح: أجم.

(٢) ما بين المعقوفين من أ.

(٣) خلاص بن عمرو الهجري البصري، تابعي ثقة، توفي قبل المائة. تهذيب التهذيب ١٧٦/٣.

(٤) في ظ «يختز» ومعناها يتن ويفسد. اللسان: خنز.

(٥) متفق عليه من رواية أبي هريرة: أخرجه البخاري ٤٣٠/٦ في كتاب الأنبياء باب قول الله تعالى «وواعدنا موسى ثلاثين ليلة»

(٦) (٣٣٩٩). ومسلم ١٠٩٢/٢ في كتاب الرضاع باب لولا حواء (١٤٧٠/٦٣)

(٧) ذكره ابن جرير عن عكرمة ١٠٦/٢ (١٠١٥).

معناه . ثم قال : ﴿تَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ قرأ ابن عامر ومن تابعه من أهل الشام (تغفر) بالتاء والضممة لأن لفظ الخطايا مؤنث . وقرأ نافع ومن تابعه من أهل المدينة (يعفر) بالياء والضممة بلفظ التذكير لأن تأنيثه ليس بحقيقي ولأن الفعل مقدم . وقرأ الباقون بالنون وكسر الفاء على معنى الإضافة^(١) إلى نفسه وذلك كله يرجع إلى معنى واحد ، ومعناه نغفر لكم خطايا الذين عبدوا العجل ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي سنزيد في إحسان من لم يعبد العجل . ويقال : نغفر خطايا من رفع المن والسلوى للغد ، وسنزيد في إحسان من لم يرفع إلى الغد . ويقال : نرفع خطايا من هو عاصي ، وسنزيد في إحسان من هو محسن . فلما دخلوا الباب خالفوا أمره . وروى أبو هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - «أنهم دخلوا الباب يزحفون»^(٢) وروى سعيد بن جبيرة عن ابن عباس أنه قال : دخلوا على أستاذهم^(٣) . ويقال : دخلوا منحرفين على شق وجوههم . وقالوا : (احتظا سمفانا) يعني حنطة حمراء . بلغة القبط استهزاء وتبديلاً . وإنما قال ذلك سفهاؤهم فذلك قوله تعالى : ﴿بَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ أي غيروا ذلك القول وقالوا : بخلاف ما قيل لهم قال الله تعالى ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي غيروا ﴿رَجْزًا﴾ أي عذاباً^(٤) ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ وهو موت الفجاءة . [وقال أبو روق (الرجز) الطاعون ويقال مات منهم بالطاعون سبعون ألفاً ويقال : نزلت بهم نار فاحترقوا . ويقال : وقع بينهم قتال فاقتتلوا فقتل بعضهم بعضاً]^(٥) . ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي جزاء لفسقهم وعصيانهم . ثم رجع إلى قصة موسى حين كانوا في التيه وأصابهم العطش فاستغاثوا بموسى ، فدعا موسى ربه ، فأوحى الله إلى موسى أن يضرب بعصاه الحجر فأخذ موسى حجراً مربعاً مثل رأس الإنسان ، ووضعاه في المخلاة بين يدي قومه (ضرب عصاه عليه ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ماءً عذباً وكانت بنو إسرائيل اثني عشر سبطاً لكل سبط منهم عين على حدة . قال الفقيه : حدثنا أبو الحسن محمد بن محمد بن مندوسة قال : حدثنا أبو القاسم أحمد ابن حمزة الصفار قال : حدثنا عيسى بن أحمد^(٦) قال : حدثنا يزيد بن هارون^(٧) عن فضيل بن مرزوق^(٨) عن عطية العوفي^(٩) قال : تاه بنو إسرائيل في اثني عشر فرسخاً أربعين عاماً على غير ماء ، وجعل لهم حجراً مثل رأس الثور ، فإذا نزلوا منزلاً وضعوه فضربه موسى بعصاه .

وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾

فذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾

(١) انظر / الحرز ، والحجة في هذه الآية .

(٢) أخرجه البخاري ٢٢٨/٨ في كتاب التفسير ومسلم ٣١٢/٤ في كتاب التفسير باب (٥٤) (٣٠١٥/١) .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک ٢٦٢/٢ في التفسير باب كانت الرسل ثلاث مائة وخمس عشرة وقال : وهذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي واستاهم جمع است وهي الدبر .

(٤) راجع : اللسان : رجز .

قال ابن منظور : قال ابن إسحاق : ومعنى الرجز في القرآن هو العذاب المقلقل لشدة وله قلقله شديدة متتابعة .

(٥) ما بين المعقوفين سقط من ظ .

(٦) عيسى بن أحمد العسقلاني البلخي ، صدوق ، ثقة . تهذيب التهذيب ٢٠٥/٨ .

(٧) يزيد بن هارون بن وادي أبو خالد السلمي ، مولى لهم ثقة ، إمام صدوق في الحديث . تهذيب التهذيب ٣٦٦/١١ .

(٨) فضيل بن مرزوق الأغسر الرؤاس الكوفي ، وثقه سفيان ، صدوق . الجرح والتعديل ٥٧/٧ .

(٩) عطية بن سعد العوفي الجدلي الكوفي . الجرح والتعديل ٣٨٢/٦ .

فإذا ساروا حملوه فاستمسك. وقال بعضهم: كان يخرج عينا واحدة ثم تتفرق على اثني عشرة فرقة، وتصير اثني عشر نهراً. وقال بعضهم: كان للحجر اثنا عشر ثقباً (يخرج منها اثنا عشرة عينا لا يختلط بعضها ببعض. قال مقاتل: كان الحجر مربعاً وكان جبريل عليه السلام أمر موسى بحمله معه يوم جاوز البحر بيني لإسرائيل، وإنما انفجرت اثنا عشرة عينا لأنه أخذ من مكان فيه اثنا عشر طريقاً. ثم قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ أي قد عرف كل سبط مشربهم^(١). أي موردهم وموضع شربهم من العيون لا يخالطهم فيها غيرهم. والحكمة في ذلك أن الأسباط كانت بينهم عصبية ومباهاة، وكل سبط منهم لا يتزوج من سبط آخر، وأراد كل سبط تكثير نفسه، فجعل لكل سبط منهم نهراً على حدة ليستقوا منها، ويسقوا دوابهم لكيلا يقع بينهم جدال ومخاصمة. وقال بعضهم: كان الحجر من الجنة. وقال بعضهم: رفعه موسى من أسفل البحر حيث مر فيه مع قومه. وقال بعضهم: كان حجراً من أحجار الأرض. قوله عز وجل: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ أي قيل لهم كلوا من المن والسلوى واشربوا من ماء العيون ﴿وَلَا تَغْنَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي لا تعملوا فيها بالمعاصي يقال: غنا يغنو غنواً إذا أظهر الفساد^(٢) [وعثي - وعاث - لغتان - الذئب في الغنم أي أسرع بالفساد]^(٣) ثم أنهم أجمعوا من المن والسلوى.

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِئُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَلَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْطَأُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ أي من جنس واحد ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ أي سل لنا ربك ﴿يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِئُ الْأَرْضُ﴾ أي مما تخرج الأرض ﴿مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا﴾ وقوله (بقليها) أراد به البقول كلها وقوله (وقثائها) أراد به جميع ما يخرج من الفاكهة مثل القثاء والبطيخ ونحو ذلك. وقوله ﴿وَفُومِهَا﴾^(٤) أي طعامها وهي الحبوب كلها. ويقال: هي الحنطة خاصة. وقال مجاهد: الفوم الخبز. وقال الفراء: فومي لنا يا جارية يعني اخبزي لنا. ويقال: الفوم هو الثوم والعرب تبدل الفاء بالثاء لقرب مخرجهما. وفي قراءة عبد الله بن مسعود ﴿وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا﴾ فغضب عليهم موسى - عليه السلام - ﴿قَالَ أَلَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ يعني ألتبذلون الرديء من الطعام بالذي هو خير أي بالشریف الأعلى. ويقال: معناه تسألون الدنيء من الطعام وقد أعطاكم الله الشریف منه وهو المن والسلوى، ويقال: ألتخارون الدنيء الخسيس وهو الثوم والبصل على الذي هو أعلى وأشرف وهو المن والسلوى فقال الله تعالى لهم ﴿أَهْطَأُوا مِصْرًا﴾ قرأ بعضهم بلا تنوين^(٥) أي المصر الذي

(١) ما بين المعقوفين من أ. (٢) ما بين المعقوفتين من أ.

(٣) قال ابن سيده: عثا عثوا وعثى عثوا: أفسد أشد الفساد.

ولا تعثوا: من عثى يعنى عثوا وهو الفساد، وفيه لغتان اخريان لم يقرأ بواحدة منهما، أحدهما: عثا يعنى مثل سما يسمو، ولو قرئ بها لقرئ «ولا تعثوا». واللغة الثانية: عاث يعث. اللسان: عثا.

(٤) الفوم: الزرع أو الحنطة، وقيل: هو الحمص، وقيل: هو الخبز.

(٥) وهذه القراءة شاذة لم ترد عن أي إمام من الأئمة السبعة، وإن كانت قراءة لأبي بن كعب وابن مسعود - رضي الله عنهما - إلا أنها لم =

خرجتم منه، وهو مصر فرعون، ومن قرأ مصرًا بالتنوين يعني: ادخلوا مصرًا من الأمصار ﴿فَإِنْ لَكُمْ فِيهِ مَاءٌ سَأَلْتُمْ﴾ تزرعون وتحصدون ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ قال الحسن وقتادة: جعلت عليهم الجزية يعني على ذريتهم^(١). ويقال: جعل عليهم كد العمل، يعني أولئك القوم حتى كانوا ينقلون السرقين^(٢). ﴿وَالْمَسْكَنَةُ﴾ يعني زي الفقراء. وقال الكلبي: يعني الرجل من اليهود وإن كان غنيًا يكون عليه زي الفقراء. وقوله تعالى: ﴿وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ﴾ يعني استوجبوا الغضب ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ قال بعضهم: أصله من الرجوع، يعني رجعوا باللعنة في أثر اللعنة. ويقال: باؤوا أي احتملوا كما يقال: بوئت بهذا الذنب أي احتملته. ثم قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي ما أصابهم من الذلة والمسكنة - وهم اليهود - بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله، يعني كذبوا عيسى وزكريا ويحيى ومحمدًا - عليهم وعلى جميع الأنبياء أفضل الصلاة والسلام - ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي بغير جرم منهم، وهم زكريا ويحيى. قرأ نافع (النبين) بالهمزة وكذلك جميع ما في القرآن إلا في سورة الأحزاب: (يا أيها النبي) وقرأ الباقون: بغير همز^(٣). وروي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أن رجلاً قال له: يا نبي الله فقال: لست بنبي الله ولكن نبي الله^(٤). (والنبين) جماعة النبي. وأما من قرأ بالهمز قال أصله من النبأ وهو الخبر لأنه أنبأ عن الله تعالى، وأما من قرأ بغير همز فأصله مهموز، ولكن قريشاً لا تهمز. وقال بعضهم: هو مأخوذ من النبأة وهو الارتفاع لأنه شرف على جميع خلقه. وقال بعضهم: النبي هو الطريق الواضح، سمي بذلك لأنه طريق الخلق إلى الله تعالى. قوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾ أي ذلك الغضب على اليهود بما عصوا أي بسبب عصيانهم أمر الله تعالى فخذلهم الله تعالى حين كفروا فلو أنهم لم يعصوا الله تعالى كانوا معصومين من ذلك. ﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ يعني بقتلهم الأنبياء وركوبهم المعاصي.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ﴾ قال ابن عباس في رواية أبي صالح: إن الذين آمنوا وهم قوم كانوا مؤمنين بموسى والتوراة ولم يتهودوا ولم ينتصروا. والنصارى: الذين تركوا دين عيسى وتسموا بالنصرانية. واليهود الذين تركوا دين موسى وتسموا باليهودية. والصابئين: هم قوم من النصارى ألين قولاً منهم ﴿مَنْ

= تصل إلينا عن طريق التواتر ولذلك لم يذكرها الشاطبي ولا ابن الجزي.

(١) انظر الدر المنثور ١/٧٣.

(٢) قال ابن منظور: السرجين والسرجين: ما تدمل به الأرض.

وقال الجوهري: هو بالكسر معرب لأنه ليس في الكلام فعليل بالفتح. ويقال: سرقين. انظر اللسان: سرح، الصحاح: سرحن ٢١٣٥/٥.

(٣) انظر الحرز، والاتحاف، والبحر المحيط (سورة البقرة).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرک ١٣١/٢ في كتاب التفسير باب قراءات النهي - صلى الله عليه وسلم - وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

قال: وله شاهد مفسر بإسناد ليس من شرط هذا الكتاب وتعقبه الذهبي فقال: بل منكر لم يصح. قال النسائي: حمران ليس بثقة. وقال أبو داود: رافضي روى عن موسى بن عبيدة وهو واه ولم يثبت أيضاً عنه عن نافع عن ابن عمر قال: ما همز رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا أبو بكر ولا عمر ولا الخلفاء وإنما الهمز بدعة ابتدعوها من بعدهم.

ءَامَنَ ﴿١﴾ من هؤلاء ﴿بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي ثوابهم . قال مقاتل: (إن الذين آمنوا) أي صدقوا بتوحيد الله ومن آمن من الذين هادوا، ومن النصارى والصابئين فلهم أجرهم عند ربهم . وقال القتبي: قوله (إن الذين آمنوا) هم قوم آمنوا بألستهم ولم يؤمنوا بقلوبهم^(١) . فكأنه قال: إن المنافقين والذين هادوا والنصارى والصابئين ويقال: اليهود سموا يهوداً يقول موسى - عليه السلام - (إنا هدنا إليك) ويقال: اشتقاقه من الميل من هاد، يهود إذا مال عن الطريق^(٢) . وأما النصارى قال بعضهم: سموا أنفسهم نصارى بقول عيسى عليه السلام: (من أنصاري إلى الله) ويقال: لأنهم نزلوا إلى قرية يقال لها ناصرة، فتواثقوا^(٣) على دينهم فسموا نصارى . وأما الصابي فهو من صبا يصبو إذا مال^(٤) . ويقال: من صبا يصبأ إذا رفع رأسه إلى السماء لأنهم يعبدون الملائكة . قرأ نافع و(الصابين) بغير همز من صبا يصبو إذا^(٥) خرج من دين إلى دين . وقرأ الباقون بالهمز من صبا يصبأ إذا رفع رأسه إلى السماء ، واختلف العلماء في حكم الصابئين . فقال بعضهم: حكمهم كحكم أهل الكتاب في أكل ذبائحهم ومناكة نسائهم وهو قول أبي حنيفة لأنهم قوم بين النصرانية واليهودية يقرأون الزبور . وقال بعضهم: هم بمنزلة المجوس لا يجوز أكل ذبائحهم ولا مناكة نسائهم وهو قول أبي يوسف ومحمد رحمهما الله لأنهم يعبدون الملائكة فصار حكمهم حكم عبدة النيران . ولم يذكر في الآية الإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم - لأنه لما ذكر الإيمان بالله تعالى فقد دخل فيه الإيمان بالنبي محمد - صلى الله عليه وسلم - لأنه لا يكون مؤمناً بالله تعالى ما لم يؤمن بجميع ما أنزل الله تعالى على محمد وعلى جميع الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فكأنه قال: من آمن بالله وبما أنزل على جميع أنبيائه وصدق باليوم الآخر [(وعمل صالحاً) أي أدى الفرائض]^(٦) فلهم أجرهم عند ربهم: يعني لهم ثواب أعمالهم في الآخرة ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلهم من العذاب ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا من الدنيا . ويقال: ليس عليهم خوف النار ولا حزن الفزع الأكبر . فإن قيل: فيه ذكر من آمن بالله بلفظ الوجدان، ثم قال فلهم أجرهم ولم يقل: فله أجره . قيل له: لأنه انصرف إلى ما سبق ذكره وهو الجماعة فمرة يذكر بلفظ الوجدان لاعتبار اللفظ ومرة بلفظ الجمع لاعتبار المعنى .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَاءَ آتَيْنَكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ قال ابن عباس: هما ميثاقان: الميثاق الأول: حين أخرجهم من صلب آدم - عليه السلام - والميثاق الثاني: الذي أخذ في التوراة وسائر الكتب ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ وذلك أن موسى عليه السلام لما أتاهم بالتوراة فرأوا ما فيها من التغليظ والأمر والنهي شق ذلك عليهم فأبوا أن يقبلوها وإن الله

(١) في أ «بالقلب» .

(٢) قال ابن منظور: اليهود التوبة: ، هاد يهود هودا وتهود: تاب ورجع إلى الحق . وقال ابن الأعرابي: هاد إذا رجع من خير إلى شر أو من شر إلى خير . وسميت اليهود: اشتقاقاً من هادوا أي تابوا . اللسان: هود .

(٣) في أ «فتواثقوا» .

(٤) قال ابن منظور: الصابئون: قوم يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام بكذبهم وقال الليث: الصابئون قوم يشبه دينهم دين النصارى إلا أن قبلتهم نحو مهب الجنوب يزعمون أنهم على دين نوح، وهم كاذبون . اللسان: صبا وقال في مادة: صبا أي مال .

(٥) في أ «إذا مال قرأ الباقون بالهمز من صبا يصبو إذا خرج» .

(٦) ما بين المعقوفين من أ .

تعالى قد من على هذه الأمة حيث فرض عليهم الفرائض واحداً بعد واحد، ولم يفرض عليهم جملة، فإذا استقر الواحد في قلوبهم فرض الآخر. وأما بنو إسرائيل فقد فرض عليهم دفعة واحدة فشق ذلك عليهم ولم يقبلوا، فأمر الله تعالى الملائكة فرفعوا جبلاً من جبال فلسطين فوق رؤوسهم، وكان عسكر موسى فرسحاً في فرسخ، والجبل مثل ذلك فلما رأوا أنه لا مهرب لهم منه، قبلوا التوراة وسجدوا من المهابة والفرع، وهم يلاحظون في سجودهم الجبل، فمن ذلك يسجد بعض اليهود على أنصاف وجوههم فذلك قوله تعالى: (ورفعنا فوقكم الطور) والطور: اسم جبل بالسرانية. ويقال: هو جبل ذو أشجار. ثم قال تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أي قيل لهم اعملوا بما آتيناكم بجد ومواظبة واعملموا في طاعة الله ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ قال بعضهم: اعملوا بما فيه وقال بعضهم: اذكروا^(١) ما فيه من الثواب والعقاب لكي يسهل عليكم القبول ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي لكي تتقوا عقوبته في المعصية فتمتنعوا عنها ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي أعرضتم من بعد ذلك الإقرار. (يعني: من بعد ما رفع عنكم الجبل عنكم. ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي من الله عليكم ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ بتأخير العذاب^(٢) ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ بالعقوبة. ويقال: فلولا فضل الله عليكم ورحمته بإرسال الرسل إليكم لكيلا تقيموا على الكفر لكنتم من الخاسرين بالعقوبة.

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

ثم قال تعالى [﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ أي اصطادوا. ويقال: استحلوا أخذ الحيتان يوم السبت. والسبت في اللغة^(٣) هو الراحة. كما قال في آية أخرى (وجعلنا نومكم سباتاً) أي راحة. فيوم السبت كان راحة لليهود عن أشغال الدنيا وهذه الآية على معنى التحذير والتهديد، فكأنه يقول: إنكم تعلمون ما أصاب الذين استحلوا أخذ السمك في يوم السبت من العقوبة، فاحذروا كيلا يصيبكم مثل ما أصابهم وذلك أن مدينة يقال لها (أيلة) على ساحل البحر كان يجتمع فيها السمك يوم السبت حتى يأخذ وجه الماء وفي سائر الأيام لا يأتيهم إلا قليل. وقال بعض أهل القصص: إنما كانت الحيتان تجتمع هناك لزيرة السمكة التي كان في بطنها يونس - عليه السلام - ففي كل سبت يجتمعون لزيارتها^(٤). وقال بعضهم: لم يكن لهذا المعنى، ولكن كانت محنة أولئك القوم فاحتالوا وحبسوا ذلك السمك في يوم السبت وأخذوه يوم الأحد فلما لم تصبهم العقوبة لفعلهم ذلك أمنوا، واستحلوا أخذها فمسخهم الله قردة. وقد بين قصتهم في سورة الأعراف في قوله تعالى: (واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر) ثم قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ يعني مبعدين من رحمة الله. وأصله في اللغة من البعد. يقال: خسا الكلب إذا بعد^(٥). ويقال: (خاسئين) أي صاغرين ذليلين. قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا﴾

(١) في أ «اعملوا». (٢) في أ «وقيل من بعد البيان في كتابهم بتأخير العذاب».

(٣) قال ابن منظور: سبت يسبت سبتاً: استراح ويسكن. اللسان: سبت.

(٤) هذا الكلام من اختلاق القصص والصواب أن يقال: إن هذا الايتان من الحيتان قد يكون بإرسال من الله كارسال السحاب أو بوحى إلهام كما أوحى إلى النحل أو بإشعار في ذلك اليوم على نحو ما يشعر الله الدواب يوم الجمعة بأمر الساعة حسبما جاء، وما من دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة حتى تطلع الشمس فرقاً من الساعة، ويحتمل أن يكون ذلك من الحيتان شعوراً بالسلامة. انظر البحر المحيط ٤١١/٤.

(٥) الخاسيء من الكلب والخنازير والشياطين: البعيد الذي لا يترك أن يدنو من الإنسان. والخاسيء المطرود. اللسان: خسا.

[لما بين يديها وما خلفها] ^(١) [يعني جعلنا تلك العقوبة [نكالا] يعني عقوبة ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ يعني لما سبق منهم من الذنب] ^(٢) ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي عبرة لمن بعدهم. ويقال: فجعلناها يعني القرية، نكالا لما بين يديها من القرى وما خلفها من القرى ليعتبروا بها ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يعني نهيا لأمة محمد - صلى الله عليه وسلم - وعبرة لهم [لكي لا يستحلوا ما حرم الله عليهم] ^(٣) قال الفقيه حدثنا أبو القاسم عمر بن محمد ^(٤) قال: حدثنا أبو بكر الواسطي ^(٥) قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف قال: حدثنا كثير بن هشام ^(٦) عن المسعودي ^(٧) عن علقمة بن مرثد ^(٨) عن المستورد بن الأحنف قال: قيل لعبد الله بن مسعود رأيت القردة والخنازير أمن نسل القردة والخنازير التي قد مسخت؟ قال عبد الله بن مسعود: إن الله تعالى لم يمسح أمة فجعل ^(٩) لها ^(١٠) نسلاً ولكنها من نسل قردة وخنازير كانت قبل ذلك ^(١١).

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنَتَّخِذُهَا هُزُوعًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَارَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرَعُونَ بَيِّنَ ذَلِكَ فَا فَعَلُوا مَا تَأْمُرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَارَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَارَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِئَةَ فِيهَا قَالُوا أَلَكُنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقَرَةً﴾ قال ابن عباس: وذلك أن بني إسرائيل قيل لهم في التوراة: أيما قتيل وجد بين قريتين لا يدرى قاتله فليقس إلى أيتهما أقرب، فعمد رجلان أخوان من بني إسرائيل إلى ابن عم لهما واسمه عاميل فقتلاه لكي يرثاه وكانت ابنة عم لهما شابة جميلة حسناء فخشا أن ينكحها ابن عمها عاميل، ثم حملاه إلى جانب قرية، فأصبح أهل القرية والقتيل بين أظهرهم، فأخذ أهل القرية بالقتيل وجاءوا به إلى موسى. وروى ابن سيرين عن عبيدة السلماني أن رجلاً كان له قرابة فقتله ليرثه ثم ألقاه على باب رجل، ثم جاء يطلب بدمه، فهموا أن يقتلوا ولبس الفريقان السلاح، فقال رجل: أتقتلون وفيكم نبي الله؟ فجاءوا إلى موسى - عليه الصلاة والسلام - فأخبروه بذلك، فدعا الله تعالى في ذلك أن يبين لهم المخرج من ذلك، فأوحى الله تعالى إليه، فأخبرهم بذلك وقال: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة فتضربوه ببعضها، يعني بعض أعضاء تلك

(١) ما بين المعقوفين من أ. (٢) ما بين المعقوفين ساقط من أ. (٣) ما بين المعقوفين من أ.

(٤) عمر بن محمد بن بجير الهمداني الجدي الكوفي. الجرح والتعديل ٣٨٢/٦.

(٥) محمد بن موسى أبو بكر الواسطي كان عالماً بأصول الدين، ومن المتصوفة. الطبقات للشعراني ٨٥/١.

(٦) كثير بن هشام الكلابي، أبو سهل الرقي، نزيل بغداد، ثقة. التقريب ١٣٤/٢.

(٧) عبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة بن عبد الله بن مسعود الكوفي، كان ثقة كثير الحديث. طبقات ابن سعد ٣٦٦/٦.

(٨) علقمة بن مرثد الحضرمي، أبو الحارث الكوفي ثقة. التقريب ٣١/٢.

(٩) في أ «وأن يجعل». (١٠) سقط من ظ.

(١١) أخرجه مسلم بنحوه مرفوعاً ٢٠٥١/٤ في كتاب القدر باب بيان أن الآجال والأرزاق وغيرها لا تزيد ولا تنقص (٢٦٦٣/٢٣).

البقرة فيحيا، فيخبركم من قتله^(١) ﴿قَالُوا﴾ يا موسى ﴿اتَّخِذْنَا هُزُؤًا﴾ قرأ عاصم في رواية حفص^(٢) برفع الزاي بغير همز، وقرأ حمزة بسكون الزاي مع الهمزة، وقرأ الباقون بالهمز^(٣) ورفع الزاي. ومعناه. اتخذنا سخرية يعني أتسخر بنا يا موسى؟ فإن قيل: ألم يكن هذا القول منهم كفراً؟ حيث نسبوه إلى السخرية. قلنا الجواب أن يقال قد ظهر عندهم علامات نبوته وعلموا أن قوله حق ولكنهم أرادوا بهذا الكشف والبيان ولم يريدوا به الحقيقة. فـ ﴿قَالَ﴾ لهم موسى ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ يعني أمتنع بالله. ويقال: معاذ الله أن أكون من المستهزئين. قال ابن عباس في رواية أبي صالح: فلو أنهم عمدوا إلى أدنى بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم ولكنهم شددوا على أنفسهم بالمسألة فشدد الله عليهم بالمنع لما ﴿قَالُوا﴾. يا موسى ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ أي سل لنا ربك أن ﴿يُبَيِّنَ لَنَا مَا هِيَ﴾ أي يبين لنا كيفية البقرة، إنها صغيرة أو كبيرة ﴿قَالَ﴾ لهم موسى ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ يعني لا كبيرة هرمة، ولا صغيرة ﴿عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ وسطا ونصفا بين ذلك يعني بين الصغيرة والكبيرة. وقد قيل في المثل (العوان لا تعلم الخمرة) يعني أن المرأة البالغة ليست بمنزلة الصغيرة التي لا تحسن أن تختمر^(٤). وقوله تعالى: ﴿فَأَفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ ولا تسألوا فسألوا وشددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم. ﴿قَالُوا﴾ يا موسى ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ أي سل لنا ربك ﴿يُبَيِّنَ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾ قال لهم موسى ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ يعني شديد الصفرة كما يقال: أصفر فاقع إذا كان شديد الصفرة كما يقال: أسود حالك، وأبيض يقق، وأحمر قاني، وأخضر ناصع إذا وصف بالشدة. وقال بعضهم: أراد به بقرة صفراء الظلف والقرن أي شعرها وظلفها وقرنها وكل شيء منها أصفر ويقال: أراد به البقرة السوداء، لأن السواد الشديد يضرب إلى الصفرة كما قال تعالى (.. كَالْقَصْرِ كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صَفْرٌ) وكما قال القائل: (٥)

تلك خيلي منه^(٦)، وتلك^(٧) ركابي هن صفر أولادها كالزبيب

أراد^(٨) بالصفير السود. ولكن هذا خلاف أقاويل المفسرين، وكلهم اتفقوا أن المراد به صفراء اللون إلا قولاً روي عن الحسن البصري^(٩). قوله عز وجل: ﴿تَسْرُّ النَّاطِرِينَ﴾ يعني تعجب من نظر إليها لحسن لونها فشددوا على أنفسهم و﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ يعني إنها من العوامل أو من غيرها ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ أي تشاكل علينا في أسنانها وألوانها ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ يعني نهتدي للقتال. ويقال: نهتدي إلى البقرة أي ندركها بمشيئة الله تعالى. وروى عن ابن عباس أنه قال: لولا أنهم استثنوا لم يدركوها. وروي عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: لو أن بني إسرائيل أخذوا

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره إنبحوه ١٨٤/٢.

(٢) حفص بن سليمان بن المغيرة الأسدي الكوفي، راوي عاصم، توفي سنة ثمانين ومائة، وكان أعلم أصحاب عاصم بقراءته. النشر في القراءات العشر ١٥٦/١. ميزان الاعتدال ٢٦١/١، الأعلام ٢٦٤/٢.

(٣) انظر /الحرز بشرح ابن الفاصح، والاتحاف (سورة البقرة).

(٤) في المثل: لا تعلم العوان الخمرة. قال ابن بري: أي المجرب عارف بأمره كما أن المرأة التي تزوجت تحسن القناع بالخمار. اللسان: عون.

(٥) هو الأعشى، والبيت في اللسان: صفر.

(٦) في ظ «وتلك منه».

(٧) في أ «وكما قال الله تعالى جمالات صفر أراد».

(٨) من ظ.

(٩) روى ابن جرير الطبري في تفسيره ١٥٠/١ عن الحسن البصري في قوله تعالى «صفراء فاقع لونها» قال: سوداء شديدة السواد. ثم قال الطبري: ولعله مستعار من صفة الإبل لأن سوادها تملؤه صفرة.

أدنى بقرة لأجزاء عنهم، ولولا أنهم قالوا وإنا إن شاء الله لمهتدون ما وجدوها^(١). ﴿قَالَ إِنَّهُ﴾ لهم موسى أن ربكم ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ ذَلُولٌ﴾ يقول لم يذلها العمل. وقال أهل اللغة: الذلول في الدواب مثل الذليل في الناس، يقال: رجل ذليل، ودابة ذليلة بينة الذل. ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ أي تقلبها للزراعة. ويقال: للبقرة المثيرة ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ يعني لا يسقى عليها الحرث، أي لا يستسقى عليها الماء لتسقي الزرع ومعناه أن هذه البقرة لم تكن تعمل شيئاً من هذه الأعمال ﴿مُسَلَّمَةً﴾ يقال: مهذبة سليمة من العيوب. ويقال: مسلمة من الألوان ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾ قال بعضهم لا عيب فيها - وقال بعضهم: لا وضوح فيها ولا بياض ولا سواد ولا لون سوى لون الصفرة وقال أهل اللغة^(٢): أصله من وشى الثوب، وأصله في اللغة لا وشية فيها ولكن حذفت منها الواو للخفة مثل عدة وزنة. فلما وصف لهم موسى ذلك ﴿قَالُوا: الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ يعني الآن أتمت الصفة. ويقال: الآن جئت بالصفة التي كنا نطلب ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ يعني البقرة ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي كادوا أن لا يذبحوها. وقد قيل: إنما أرادوا أن لا يذبحوها، لأن كل واحد منهم خشي أن يظهر القاتل من قبيلته. وقال بعضهم: وما كادوا يفعلون لغلاء ثمن البقرة لأنهم كانوا لا يدركون بقرة بتلك الصفة. وروي عن وهب بن منبه أنه قال: لم توجد تلك البقرة إلا عند فتى من بني إسرائيل، كان باراً بوالديه وكان يصلي ثلث الليل، وينام ثلث الليل، ويجلس ثلث الليل عند رأس أمه ويقول لها: إن لم تقدرى على القيام فسبحي الله وهليلي، وكان ورث عن أبيه بقرة فلم يجد أهل تلك القرية على تلك الصفة إلا هذه البقرة، فاشتروها بملىء مسكها دنائير. وقال بعضهم: كان رجل يبيع الجوهر، فجاءه إبليس يوماً بجراب من لؤلؤ فعرض عليه. وأراد أن يبيع منه بمائة ألف، وكان ذلك يساوي مائتي ألف، فلما أراد أن يشتري فإذا مفتاح الصندوق كان تحت رأس أبيه وهو نائم فذهب ليوقظه ويرفع المفتاح ويدفع الثمن. ثم قال في نفسه: كيف أوقظ أبي لأجل ربح مائة ألف ولم يحتمل قلبه فرجع، فقال: إن أبي نائم فقال له إبليس: إذهب فأيقظه فإني أبيع منك بخمسين ألفاً، فذهب ليوقظه فلم يحتمل قلبه فرجع فلا زال إبليس يحط من الثمن حتى بلغ عشرة دراهم فلم يوقظ أباه وترك الشراء ذلك. فجعل الله في ماله البركة حتى اشتروا بقرته بملىء مسكها ذهباً.

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا﴾ أي تدافعتم. يعني ألقى بعضكم على بعض، يقال: أداراً القوم أي تدافعوا^(٣) وقال القتيبي: أصله تدارأتم، فادغمت التاء في الدال وأدخل الألف ليسلم السكون للدال، ويقال: هذا ابتداء القصة، ومعناه وإذ قتلتم نفساً فأتيتم موسى وسألتموه أن يدعو الله تعالى فقال موسى: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة إلى آخره ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي مظهر ما كنتم تكتُمون من قتل عاميل. ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ أي اضربوا الميت ببعض أعضاء البقرة. قال بعضهم: بفخذها الأيمن. وقال بعضهم: بلسانها. وقال بعضهم [بعجب ذنبها]^(٤) وهو عظم في أصل ذنبها، ويقال عليه [تركيب]^(٥) الخلق، فأول شيء يخلق ذلك

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٧٧/١ ونسبه للبزار وابن جرير من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وابن جرير في التفسير

٢٠٤/١ والظاهر أنه من كلام سيدنا وأبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) اللسان: وشى. قال والهاء عوض من الواو والذاهبة من أوله كالزلة الوزن ١.

(٣) قال ابن منظور: تدارأتم: أي اختلفتم وتدافعتم. اللسان: درأ.

(٤) في ظ [بعجزها]. (٥) في ظ [يتركب].

الموضع، ثم يركب عليه سائر البدن، وهو آخر الأعضاء فساداً بعد الموت وقال بعضهم، فلما ضربوا الميت جلس وأوداجه تشخب دماً. وقال: قتلني ابنا عمي، فأخذنا وقتلاً، ولم يعط لهما من ميراثه شيئاً. وقال عبدة السلماني: لم يورث قاتل بعد صاحب البقرة. ثم قال تعالى ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ كان في ذلك دليل لأولئك القوم أن البعث كائن لا محالة لأنهم رأوا الإحياء بعد الموت معانية، وكان في ذلك دليل لهذه الأمة ولمشركي العرب وغيرهم. لأن الله لما أخبر محمداً - صلى الله عليه وسلم - بذلك. فأخبرهم فصدقوه في ذلك أهل الكتاب ولم يكونوا على دينه، فكان ذلك من أدل الدليل عليهم بالبعث. قوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي عجائبه مثل إحياء الموتى وغيره. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي تفهمون أن الذي يخبركم به محمد - صلى الله عليه وسلم - حق.

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً وَإِنَّ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ أَفَنُظْمِعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ قال الزجاج: تأويل قست في اللغة أي غلظت ويست، فتأويل القسوة في القلب ذهاب اللين والرحمة والخشوع. وقوله (من بعد ذلك) قد قيل: من بعد إحياء الميت، ويحتمل بعد الآيات التي ذكرت، نحو مسخ القردة والخنازير ورفع الجبل وتفجير الأنهار من الحجر وغير ذلك. وقال بعض الحكماء: معنى قوله (ثم قست قلوبكم) أي يست ويست القلب أن يبس عن مائين: أحدهما: ماء خشية الله. والثاني: ماء شفقة الخلق. [ثم قال تعالى: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾] ^(١) وكل قلب لا يكون فيه خشية الله تعالى فهو كالحجارة ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً﴾ قال بعضهم: بل أشد قسوة. مثل قوله تعالى: (إلى مائة ألف أو يزيدون) [بمعنى بل يزيدون وكقوله] ^(٢) (كلمح البصر أو هو أقرب) أي [بل هو أدنى] ^(٣) وقال بعضهم: معناه وأشد قسوة الألف زائدة. وقال الزجاج: أو للتخيير يعني إن شئت شبهتهم قسوتها بالحجارة أو بما هو أشد قسوة فأنتم مصيبون ^(٤) كقوله تعالى (كصيب من السماء) ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ فاعذر الحجارة وعاب قلوبهم حين لم تلتن بذكر الله ولا بالموعظة فقال (وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار) يعني الحجر الذي منه العيون في الجبل. ويقال أراد به حجر موسى - عليه السلام - الذي كان يخرج منه العيون ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ﴾ أي من الحجارة ما يتصدع ﴿فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ ويقال: كل حجر يتردى من رأس الجبل إلى الأرض فهو من خشية الله ويقال: أراد به الجبل الذي صار دكاً حين كلم الله موسى - عليه السلام - ويقال: هو جميع الجبال وما يزول الحجر من مكانه إلا من خشية الله تعالى. وقال بعضهم: هو على وجه المثال يعني لو كان له عقل لهبط من خشية الله تعالى وهو قول المعتزلة وهو خلاف أقاويل أهل التفسير. قوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ﴾

(١) ما بين المعقوفين ساقط من ظ.

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من ظ.

(٣) ما بين المعقوفين من ظ.

(٤) وقال أبو حيان: أو هنا بمعنى الواو... أو للتنويع وكان قلوبهم على قسمين قلوب كالحجارة قسوة، وقلوب أشد قسوة من الحجارة فأجمل ذلك في قوله «ثم قست قلوبكم»، ثم فصل ونوع إلى شبه بالحجارة وإلى أشد منها. انظر البحر المحيط ١/٢٦٢.

عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر (يعملون) بالياء والباقون بالتاء^(١). واختلفوا في مواضع أخرى^(٢) قرأ حمزة والكسائي في كل موضع (وما الله بغافل عما تعملون) بالياء. وفي كل موضع (وما ربك بغافل عما تعملون) بالتاء. واختلفت الروايات عن غيرهما. وهذا كلام التهديد، يعني أن الله تعالى يجازيكم بما تعملون فيحذركم بذلك. ثم ذكر التعزية للنبي - صلى الله عليه وسلم - لكيلا يحزن على تكذيبهم إياه، وأخبره أنهم من أهل السوء الذين مضوا فقال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ قال ابن عباس: يعني النبي - صلى الله عليه وسلم - خاصة. وقال بعضهم: أراد به النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه أفتطمعون أن يصدقوكم^(٣) ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ فإن أراد به النبي - صلى الله عليه وسلم - خاصة، فمعناه أفتطمع أن يصدقوك، وقد يذكر لفظ الجماعة ويراد به الواحد، كما قال في آية أخرى (من فرعون وملأه) وقال تعالى: (إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم) وقال تعالى: (فإن لم يستجيبوا لكم) أراد به النبي - صلى الله عليه وسلم - خاصة كذلك هنا. ثم قال: (وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله) قال في رواية الكلبي: يعني السبعين الذين ساروا مع موسى - عليه السلام - إلى طور سيناء فسمعوا هناك كلام الله تعالى فلما رجعوا قال سفهاؤهم. إن الله أمر بكذا بخلاف ما أمرهم فذلك قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرِفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي غيره من بعد ما حفظوه وفهموه. وقال بعضهم: إنما أراد به الذين يغيرون التوراة. وقال بعضهم: يغيرون تأويله وهم يعملون.

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُّهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني المنافقين منهم ﴿قَالُوا﴾ للمؤمنين ﴿آمَنَّا﴾ أي أقررنا بالذي أقررتم به. وهم منافقوا أهل الكتاب ﴿وَإِذَا خَلَا بِعَضُّهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ يعني إذا رجعوا إلى رؤسائهم ﴿قَالُوا﴾ لبعضهم ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي أتخبرونهم بأن ذكر محمد - صلى الله عليه وسلم - في كتابكم فيكون ذلك حجة عليكم (أفلا تعقلون) أن ذلك حجة لهم عليكم ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ﴾ أي ليخاصموكم ﴿عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ باعتباركم أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - نبي لا تتبعوه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفليس لكم ذهن الإنسانية لا ينبغي لكم هذا فيما بينكم. ﴿أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ قال بعضهم: ما يسرون فيما بينهم وما يعلنون مع أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ أي من أهل الكتاب وهم السفلة أميون لا يقرأون الكتاب: لا يحسنون قراءة الكتاب ولا كتابته، وقال الزجاج: الأمي المنسوب إلى ما عليه جبلة الأمة يعني هو على الخلقة التي خلق عليها لأن الإنسان في الأصل لا يعلم شيئاً ما لم يتعلم ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾ قال بعضهم: إلا التلاوة، وهذا كما قال في آية أخرى (إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) أي في تلاوته، يقول إن السفلة منهم كانوا لا يعرفون من التوراة شيئاً سوى تلاوته. وقال بعضهم: إلا أمانى: إلا أباطيل. وروي

(١) قرأ ابن كثير فقط «يعملون» بالياء والباقون بالتاء. انظر: الحرز بشرح الفاصح.

(٢) هي مواضع في سورة مخصصة، منصوص عليها في كتب القراءات وستأتي في مواضعهما إن شاء الله.

(٣) في أ «يؤمنوا لكم».

عن عثمان بن عفان أنه قال: منذ أسلمت ما تغنيت ولا تمنيت أي ما تكلمت بالباطل. وروي في الخبر أن الإنسان إذا ركب دابته ولم يذكر الله تعالى صكه الشيطان في قفاه ويقول له: تغن فإن لم يحسن الغناء يقول له: تمن أي تكلم بالباطل. ﴿وَإِنْ هُمْ﴾ أي وما هم. ﴿إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ لأنه قد ظهر لهم الكذب من رؤسائهم فكانوا يشكون في أحاديثهم وكانوا يظنون من غير يقين. وروي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «إياكم والظن فإنه من أكذب الحديث»^(١).

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ الويل: الشدة من العذاب. ويقال: الويل كلمة تستعمل عند الشدة ويقال: يا ويلاه. ويقال: الويل واد في جهنم^(٢). قال: حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا محمد بن جعفر أنه قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف قال: حدثنا وكيع بن سفيان عن زياد^(٣) عن أبي عياض^(٤) قال: الويل واد في أصل جهنم يسيل فيه صديدهم^(٥). وإنما صار رفعاً بالابتداء. وقال الزجاج: ولو كان هذا في غير القرآن لجاز (فويلًا) على معنى جعل الله ويلًا للذين يكتبون الكتاب إلا أنه لم يقرأ. وذلك أن رؤساء اليهود محوا نعت محمد - صلى الله عليه وسلم - ثم كتبوا غير نعتهم، ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ﴾ للسفلة ﴿هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي عرضا يسيراً من مال الدنيا. وروي عن إبراهيم النخعي أنه كره أن يكتب المصحف بالأجر وتأول هذه الآية (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم. إلى قوله: ليشتروا به ثمنًا قليلًا) وغيره من العلماء أباحه ثم قال ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي مما يصيبهم من العذاب ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ أي مما يصيبون فجعل الويل لهم ثلاث مرات.

وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ
وَأَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ روي عن الضحاك أنه قال: لم يكن أحد من الكفار أجراً على الله تعالى من اليهود حين قالوا: (عزير ابن الله) وقالوا: إن الله فقير وقالوا أيضاً (لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة) أي مقدار الأيام التي عبد فيها العجل آبائنا. وهي أربعون يوماً. وقال مجاهد: (إلا أياماً معدودة) أي عدد أيام الدنيا وهي سبعة أيام. وهكذا روي عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: وقال بعضهم كان مذهبهم مذهب جهنم^(٦) في أنهم

(١) جزء من حديث متفق عليه من رواية أبي هريرة رضي الله عنه: أخرجه البخاري ٤٨٤/١٠ كتاب الأدب باب يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن (٦٠٦٦) ومسلم ١٩٨٥/٤ في كتاب البر باب تحريم الظن (٢٥٦٣/٢٨) ومالك في الموطأ (٩٠٨) والترمذي في السنن رقم (١٩٨٨) وأبو داود في الأدب باب (٥٥) وأحمد في المسند ٣١٢/٢، ٤٣٢، ٤٦٥، ٤٧٠، ٤٨٠، ٤٩٢، ٥٠٤، والبيهقي في السنن ٨٥/٦، ٣٣٣/٨، ٢٣١/١٠.

(٢) اللسان: ويل. (٣) زياد بن فياض الخزاعي، ثقة، توفي سنة ١٢٩ هـ. تهذيب التهذيب ٣٨١/٣.

(٤) هو عمرو بن الأسود العنسي، كان من عباد أهل الشام، تابعي، ثقة. تهذيب التهذيب ٤/٨.

(٥) أخرجه ابن جرير ٢٦٧/٢ (١٣٨٢) (١٣٨٣).

(٦) جهنم بن صفوان. ذكره السيوطي في الدر عن ابن عباس رضي الله عنهما ٨٤/١.

لا يرون الخلود في النار. قال الله تعالى: ﴿قُلْ اتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ قال الزجاج: معناه أعهد إليكم ألا يعذبكم إلا هذا المقدار إن كان لكم عهد ﴿فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ أي وعده. ويقال: أعقدتم عند الله عقداً وهو عقد التوحيد فلن يخلف الله عهده أي وعده. وقد قيل: هل أنزل عليكم بذلك آية ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي بل تقولون على الله ما لا تعلمون. وروي في الخبر أنهم إذا مضت عليهم في النار تلك المدة قالت لهم الخزنة: يا أعداء الله ذهب الأجل وبقي الأبد، فأيقنوا بالخلود.

بِكُلِّ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾

قال الله تعالى ﴿بَلَى﴾ أي يخلد فيها ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ يعني الشرك ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِئَتُهُ﴾ أي مات على الشرك. وقال بعضهم: السيئة الشرك والخطيئة الكبائر. وهو قول المعتزلة إن أصحاب الكبائر يخلدون في النار. وقال الربيع بن خثيم: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِئَتُهُ﴾ الذين يموتون على الشرك. قرأ نافع (خطاياهم) (١) وهو جمع خطيئة. والباقون (خطيئته) (٢) وهي خطيئة واحدة والمراد به الشرك. ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي دائمون لا يخرجون منها أبداً. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ معناه والذين صدقوا بالله وبمحمد - صلى الله عليه وسلم - وعملوا الصالحات أي الطاعات فيما بينهم وبين ربهم، يعني أدوا الفرائض وانتهوا عن المعاصي ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي دائمون لا يموتون ولا يخرجون.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي وقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل في التوراة، يعني بمجيء محمد - صلى الله عليه وسلم - ويقال: الميثاق الأول حين أخرجهم من صلب آدم - عليه السلام - قوله: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وابن كثير (لا تعبدون) بالياء، وقرأ الباقر بالتاء بلفظ المخاطبة (٣)، فمن قرأ بالياء معناه وإذا أخذنا ميثاق بني إسرائيل بأن لا يعبدوا إلا الله ومن قرأ بالتاء فمعناه: وإذا أخذنا ميثاق بني إسرائيل وقلنا لهم: لا تعبدوا إلا الله، يعني أخذنا عليهم الميثاق بأن لا يعبدوا إلا الله يعني لا توحداوا إلا الله. ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ نصب إحساناً على معنى أحسنوا إحساناً فيكون إحساناً بدلاً من اللفظ، أي أحسنوا إلى الوالدين برأ بهما وعطفاً عليهما وفي هذه الآية بيان حرمة الوالدين لأنه قرن حق الوالدين بعبادة نفسه. ويقال: ثلاث آيات نزلت مقرونة بثلاث لا يقبل إحداها بغير قريبتها. إحداها: قوله عز وجل (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) والثانية: (أن أشكر لي ولوالديك) والثالثة:

(١) هذا خطأ، فقرأه نافع «خطيئاته» وليس «خطاياهم».

راجع: الحرز بشرح أبي شامة، والبحر المحيط ٢٧٩/١.

(٢) راجع الحرز والبحر المحيط ٢٧٩/١.

(٣) البحر المحيط ٢٨٢/١، وزاد أبو حيان: وقرأ أبي وابن مسعود «لا تعبدوا». على النهي.

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ) وقوله تعالى: ﴿وَذِي الْقُرْبَىٰ﴾ يعني أحسنوا إلى ذي القربى ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ [يعني أحسنوا إلى اليتامى] ^(١) ﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾. والاحسان إلى اليتامى والمساكين أن يحسن إليهم بالصدقة وحسن القول. ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ قرأ حمزة والكسائي بنصب الحاء والسين، وقرأ الباقون برفع الحاء وسكون السين ^(٢). فمن قرأ بالنصب فمعناه: قولوا للناس حسناً يعني قولوا لهم قولاً صدقاً في نعت محمد - صلى الله عليه وسلم - وصفته كما بين في كتابكم. ونظيرها في سورة طه ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ أي وعداً صدقاً. ومن قرأ بالرفع فمعناه قولوا لجميع الناس حسناً يعني: خالقوا الناس بالخلق الحسن فكأنه يأمر بحسن المعاشرة وحسن الخلق مع الناس ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يعني أقروا بها وأدوها في مواقيتها. ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ المفروضة ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ يعني أعرضتم عن الإيمان والميثاق ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ﴾ وهو عبد الله بن سلام وأصحابه. ﴿وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ أي تاركون لما أخذ عليكم من المواثيق.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّنْ دِيَارِهِمْ تَظْهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسْرَىٰ تَفْدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

ثم قال عز وجل ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ أي إقراركم ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ أي بأن لا تسفكوا دماءكم يعني لا يهرق بعضهم دماء بعض. ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي لا يخرج بعضهم بعضاً ﴿مِّنْ دِيَارِكُمْ﴾ فجملة ما أخذ عليهم من الميثاق ألا يعبدوا إلا الله وبوالدين إحساناً وذو القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ويقولوا للناس حسناً وقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة [ولا يسفكوا دماءهم] ^(٣) ولا [يخرج بعضهم بعضاً] ^(٤) من ديارهم وأن يفادوا أسراهم ^(٥). فذكر المفاداة بعد هذا حيث قال تعالى: (وإن يأتوكم أسارى تفادوهم) على وجه التقديم والتأخير ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ يعني بني قريظة والنضير يعني أقررتهم بهذا كله، وأنتم تشهدون: أن هذا في التوراة فنقضوا العهد فغيرهم الله تعالى بذلك حيث قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ يعني يا هؤلاء ويقال معناه ثم أنتم هؤلاء يا معشر اليهود تقتلون أنفسكم أي يقتل بعضهم بعضاً ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّنْ دِيَارِهِمْ﴾ أي بعضهم بعضاً، لأنه كان بين الأوس والخزرج عداوة وكان بنو النضير وقريظة: إحدى القبيلتين كانت معينة للأوس، والأخرى كانت معينة للخزرج، فإذا غلبت إحداها على الأخرى كانت تقتلهم وتخرجهم من ديارهم. وفي الآية دليل أن الإخراج من الدار ينزل منزلة القتل لأن الله تعالى قرن الإخراج من الديار بالقتل حيث قال تعالى ﴿تَقْتُلُونَ

(١) ما بين المعقوفين من أ. (٢) انظر الحزب بشرح أبي شامة، والبحر المحيط ٢٨٤، ٢٨٥.

(٣) ما بين المعقوفين سقط من أ. (٤) في أ «تخرجون بعضهم». (٥) في أ «أسأراكم».

أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم ﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ﴾ قرأ أهل الكوفة وحمة والكسائي بالتخفيف، وقرأ الباقر: بالتشديد لأن أصله تظاهرون، فأدغم إحدى التاءين في الظاء وأقيم التشديد مقامه^(١) معناه: تتعاونون عليهم ﴿بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ يعني بالمعصية والظلم. قال الزجاج: العدوان هو الإفراط في الظلم. ﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أَسَارَى تَفَادَوْهُمْ﴾ قرأ عاصم والكسائي ونافع (أسارى تفادوهم) كلاهما بالالف، [وقرأ حمزة (أسرى تفادوهم) بغير ألف فيهما وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر (أسارى تفادوهم) الأول بالالف]^(٢) والثاني بغير ألف. وهذا من الميثاق الذي أخذ عليهم بأن يفادوا الأسارى ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ هذا انصرف إلى ما سبق ذكره من الإخراج. فكأنه يقول: وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم وهو محرم عليكم إخراجهم. [يعني ذلك الإخراج كان محرماً، ثم بين الإخراج مرة أخرى لتراخي الكلام فقال وهو محرم عليكم إخراجهم. ثم قال]^(٣) ﴿أَفْتَوْمُنُونِ بَعْضُ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ لأنهم كانوا إذا أسروا من غيرهم قتلوا الأسرى ولا يفادوهم، وإن أسر منهم أحد يأخذوهم بالفداء فهذا معنى قوله - تعالى - ﴿أَفْتَوْمُنُونِ بَعْضُ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي عقوبة من يفعل ذلك منكم خزي في الحياة الدنيا وهو إخراج بني النضير إلى الشام وقتل بني قريظة، وقتل مقاتلتهم وسبي ذراريهم. ثم أخبر بأن الذي أصابهم في الدنيا من الخزي والعقوبة لم يكن كفارة لذنوبهم (و) لكنهم ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ﴾ أي في الآخرة ﴿إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ ويقال: الخزي في الدنيا الجزية. ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي لا يخفى على الله تعالى من أعمالهم شيء فيجازون بأعمالهم ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ [يعني اختاروا الدنيا على الآخرة]^(٤) ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي ليس لهم مانع يمنعهم من [عذاب الله تعالى في الآخرة]^(٥).

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي أعطينا موسى التوراة جملة واحدة ويقال: الألواح ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ أي أتبعنا وأردفنا معناه: أرسلنا رسلاً على أثر رسول. يقال: قفوت الرجل إذا ذهب في أثره^(٦). ﴿وَآتَيْنَا﴾ أي أعطينا ﴿عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أي الآيات والعلامات مثل: إحياء الموتى، وإبراء الأكمنة والأبرص ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ قرأ ابن كثير (القدس) بسكون الدال وقرأ الباقر (القدس) برفع الدال^(٧) ومعناها واحد. أي إغاثة بجبريل حين أرادوا قتله فرفعه إلى السماء. وقال بعضهم: أي قويناه وأعانه باسم

(١) فيه خمس قراءات، هاتان المذكورتان والثالثة قراءة أبي حية «تظاهرون» بضم التاء وكسر الهاء، والرابعة: قراءة مجاهد وقتادة باختلاف عنهما «تظهرون» بفتح التاء والظاء والهاء مشددين دون ألف ورويت عن أبي عمرو، الخامسة: قرأ بعضهم تظاهرون على الأصل.

قال أبو حيان: فهذه قراءات ومعناها كلها التعاون والتناصر. البحر المحيط ٨٢٩١/١

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من أ.

(٣) ما بين المعقوفتين من ظ.

(٤) ما بين المعقوفتين من ظ.

(٥) ما بين المعقوفتين من ظ.

(٦) ما بين المعقوفتين من ظ.

(٧) ما بين المعقوفتين من ظ.

الله الأعظم الذي كان يحيي به الموتى. ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ﴾^(١) يقول: بما لا يوافق هواكم ﴿أَسْتَكْبَرْتُمْ﴾^(٢) تعظمتم عن الإيمان. قال الزجاج: معناه أنتم أن تكونوا له أتباعاً لأنهم كانت لهم رئاسة وكانوا متبوعين فلم يؤمنوا مخافة أن تذهب عنهم الرئاسة. فقال تعالى ﴿فَقَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾ مثل عيسى ابن مريم ومحمد - صلى الله عليهم وعلى جميع الأنبياء وسلم - ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ مثل يحيى وزكريا عليهما السلام.

وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِشْمَا أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءَ وَبِعِصْيٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ قرأ ابن عباس (غلّف) بضم اللام وهي قراءة شاذة. والباقون^(٣) بسكون اللام أي ذو (غلّف) يعني ذو غلاف، والواحد أغلف مثل: أحمر وحمر. ومعناه: أنهم يقولون قلوبنا في غطاء. من قولك ولا نفقه حديثك وهذا كما قال في آية أخرى (وقالوا قلوبنا في أكنة) وأما من قرأ (غلّف)^(٤) فهو جماعة الغلاف على ميزان حمار وحمر. يعنون أن قلوبنا أوعية لكل علم ولا نفقه حديثك، فلو كنت نبياً لفهمنا قولك. قال الله تعالى رداً لقولهم ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي خذلهم الله وطردهم مجازاة لكفرهم ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ صار نصباً لأنه قدم المفعول. وقال بعضهم: معناه لا يؤمنون إلا القليل منهم: مثل عبد الله بن سلام وأصحابه. وقال بعضهم: إيمانهم بالله قليلاً لأنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض. وقال بعضهم: معناه أنهم لا يؤمنون كما قال: فلان قليل الخير يعني لا خير فيه. ثم قوله تعالى ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي حين جاءهم القرآن ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي موافقاً للتوراة في التوحيد، وفي بعض الشرائع. ويقال: مصدق لما معهم، يعني يدعوهم إلى تصديق ما معهم، لأن من كفر بالقرآن فقد كفر بالتوراة ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي من قبل مجيء محمد - صلى الله عليه وسلم - كانوا يستنصرون على المشركين لأن بني قريظة والنضير، قد وجدوا نعتهم في كتبهم فخرجوا من الشام إلى المدينة، ونزلوا بقربها ينتظرون خروجه. وكانوا إذا قاتلوا من يلوّنهم من المشركين مشركي العرب يستفتحون عليهم، أي يستنصرون ويقولون: اللهم ربنا انصرنا عليهم باسم نبيك وبكتابك الذي تنزل عليه الذي وعدتنا - وكانوا يرجون أن يكون منهم - فينصروا على عدوهم فذلك قوله تعالى ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي باسم النبي - صلى الله عليه وسلم - ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾ أي محمد - صلى الله عليه وسلم - وعرفوه ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ وغيروا نعتهم مخافة أن تزول عنهم منفعة الدنيا. كما قال تعالى ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي سخط الله وعذابه على الجاحدين محمداً - صلى الله عليه وسلم - ﴿بِشْمَا أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ قال الكلبي: بشما باعوا به أنفسهم من الهدايا بكتمان صفة محمد - صلى الله عليه وسلم - . ويقال: بشما صنعوا بأنفسهم حيث كفروا بما أنزل الله عليهم بعد ما كانوا خرجوا من الشام على أن ينصروا محمداً - صلى الله عليه وسلم -

(٣) أنظر البحر المحيط ٣٠١/١.

(٤) بالضم.

(١) في أ (أنفسكم العذاب).

(٢) ساقطة من أ.

وسلم - ويقال بشس ما صنعوا بأنفسهم حيث حسدا منهم فذلك قوله تعالى ﴿أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا﴾ أي حسداً منهم. ومعنى قوله ﴿أَنْ يَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي كفروا مما ينزل الله. ﴿مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ أي لم يؤمنوا لأجل أن الله تعالى ينزل من فضله النبوة والكتاب على من يشاء ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ من كان أهلاً لذلك وهو محمد - صلى الله عليه وسلم - [قرأ ابن كثير وأبو عمرو (أن ينزل الله) بالتخفيف، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم وابن عامر بالتشديد أن ينزل، ونزل ينزل بمعنى واحد]^(١) ﴿فَبَاؤُوا بَغْضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ أي استوجبوا اللعنة على أثر اللعنة. قال مقاتل: الغضب الأول حين كفروا بعيسى - صلى الله عليه وسلم - ثم استوجبوا الغضب الآخر حين كفروا بمحمد - صلى الله عليه وسلم -. ويقال: الغضب الأول حين عبدوا العجل والغضب الثاني حين استحلوا السمك في يوم السبت^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أي يهانون فيه.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوْحِيدٌ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي صدقوا بالقرآن الذي أنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - وهم يهود أهل المدينة ومن حولها. ﴿قَالُوا: تَوْحِيدٌ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا﴾ في التوراة وبموسى عليه السلام ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ يعني بما سواه وهو القرآن ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾، أي القرآن هو الصدق، وهو منزل من الله تعالى موافق لما معهم، يعني أنهم إذا جحدوا بالقرآن صار جحوداً لما معهم لأنهم جحدوا بما هو مصدق لما معهم فقالوا له: إنك لم تأتنا بمثل الذي أتانا به أنبياؤنا، ولم يكن لنا نبي إلا كان يأتينا بقرآن تأكله النار. قال الله تعالى ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ﴾ وقد جاؤوا بالقرآن والبيانات أي بالعلامات ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم مصدقين بالأنبياء. فهذا اللفظ للمستأنف وهو قوله (فلم تقتلون) ولكن المراد منه الماضي وإنما خاطبهم وأراد به آباءهم. وفي الآية دليل: أن من رضي بالمعصية فكأنه فاعل لها، لأنهم كانوا راضين بقتل آباءهم الأنبياء^(٣) فسماهم الله تعالى قاتلين. وفي الآية دليل: أن من ادعى أنه مؤمن ينبغي أن تكون أفعاله مصدقة لقوله، لأنهم كانوا يدعون أنهم مؤمنون بما معهم. قال الله تعالى ﴿فلم تقتلون أنبياء الله﴾ يعني أي كتاب (يجوز)^(٤) قتل نبي من الأنبياء عليهم السلام وأي دين وإيمان جوز فيه ذلك يعني قتل الأنبياء.

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالآيات والعلامات. ويقال: بالحلال والحرام والحدود والفرائض. ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي عبدتم العجل ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ يعني بعد انطلاق موسى إلى الجبل ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي كافرون بعبادتكم العجل.

(١) ما بين المعقوفين من أ.

(٣) من ظ.

(٤) في ظ «جوز فيه».

(٢) في ظ السبت.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أي بجد ومواظبة [في طاعة الله تعالى] ^(١) ﴿وَاسْمَعُوا﴾ أي قيل لهم اسمعوا ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ قال في رواية الكلبي: قالوا: سمعنا قولك وعصينا أمرك ولولا مخافة الجبل ما قبلنا. ويقال: إنهم يقولون في الظاهر سمعنا، ويضمرون في أنفسهم وعصينا أمرك. ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي جعل حلاوة عبادة العجل في قلوبهم مجازاة لكفرهم. ويقال: حب عبادة العجل فحذف الحب، وأقيم العجل مقامه، ومثل هذا يجري في كلام العرب. كما قال في آية أخرى (واسأل القرية): أي أهل القرية ثم قال تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾ أي بشس الإيمان الذي يأمركم بالكفر. وقال مقاتل: معناه إن كان حب عبادة العجل في قلوبكم يعدل حب عبادة خالقكم فبئس ما يأمركم به إيمانكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ كما تزعمون.

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَنَجْذِثَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَحِّزٍ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ﴾ أي الجنة. وذلك أن اليهود كانوا يقولون: إن الجنة لنا خاصة من دون سائر الناس. قال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم قل لهم إن كان الأمر كما يقولون أن الجنة لكم خالصة خاصة. ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ﴾ أي سلوا الله الموت ^(٢) ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن الجنة لكم فقال لهم النبي - صلى الله عليه وسلم: قولوا إن كنتم صادقين: اللهم أمتنا، فوالذي نفسي بيده لا يقولها رجل منكم إلا غص بريقه ^(٣)، يعني يموت مكانه، فأبوا أن يقولوا ذلك، فنزل قوله تعالى ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [يعني بما عملوا من المعاصي]. قال الزجاج: في هذه الآية أعظم حجة وأظهر دلالة على صحة رسالته - صلى الله عليه وسلم - لأنه قال لهم: فتمنوا الموت وأعلمهم أنهم لن يتمنوه أبداً فلم يتمنه واحد منهم ^(٤). [وفي هذه الآية دليل أن «لن» لا تدل على التأييد لأنهم يتمنون الموت في الآخرة خلافاً لقوله المعتزلة في قولهم لن تراني] ^(٥) ويقال: إن قوله (لن) إنما يقع على الحياة الدنيا خاصة، ولم يقع على الآخرة لأنهم يتمنون الموت في النار إذا كانوا ^(٦) في

(١) ساقطة من ظ.

(٢) في أ «يعني الموت بما عملوا من المعاصي وقال الزجاج: في هذه الآية أعظم حجة وأشهر دلالة على صحة رسالة النبي لأنه قال لهم فتمنوا الموت وأعلمهم أنهم لن يتمنوه أبداً فلم يتمنه واحد منهم.

(٣) عزاه السيوطي للبيهقي في الدلائل كما في الدر المنثور.

(٤) مؤخر في ظ إلى ما بعد قوله «إذا كانوا في جهنم».

(٥) مؤخر في ظ إلى ما بعد قوله «إذا كانوا في جهنم».

(٦) ما بين المعقوفين من ظ.

جهنم ولو أنهم سألوا الموت في الدنيا ولم يموتوا، وكان (في)^(١) ذلك تكذيباً لقول النبي صلى الله عليه وسلم وكان في ذلك أيضاً ذهاب معجزته. فلما لم يتمنوا الموت ثبت بذلك عندهم أنه رسول الله وظهر عندهم معجزته، وظهر أن الأمر كما قال تعالى ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فهو عليم بهم وبغيرهم من الظالمين وإنما الفائدة ههنا أنه عليم بمجازاتهم.

ثم قال عز وجل ﴿وَلْتَجِدْنَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ يعني أن اليهود أحرص الناس على البقاء ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ يعني أحرص من الذين أشركوا. قال الكلبي: الذين أشركوا يعني المجوس. وقال مقاتل: أحرص الناس على حياة، وأحرص من الذين أشركوا يعني مشركي العرب. فإن قيل: كيف يصح تفسير الكلبي والمجوس لا يسمون مشركين؟ قيل له: المجوس مشركون في الحقيقة، لأنهم قالوا بالهين اثنين: النور والظلمة: قوله تعالى ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾ (يعني المجوس) يقولون لملوكهم في تحيتهم: عش عشرة آلاف سنة وكل ألف نيروز. وقال مقاتل: يود أحدهم يعني اليهود ﴿لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ثم قال ﴿وَمَا هُوَ بِمُرْخَزِجِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ يعني طول حياته لا يبعده ولا يمنعه من العذاب وإن عاش ألف سنة كما تمنى ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي عالم بمجازاتهم بأعمالهم.

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ﴾ وذلك أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال لليهود: ما لكم لا تؤمنون بمحمد - صلى الله عليه وسلم - قالوا: لأن جبريل هو الذي ينزل عليه بالوحي، فلو نزل عليه ميكائيل بالوحي لأمننا به، لأن ميكائيل ملك الرحمة وجبريل ملك العذاب. وهو عدونا فأطلع محمداً على سرنا، فنزلت هذه الآية. ويقال: إنهم يقولون: إن النبوة كانت فينا فجبريل صرف النبوة عنا إلى غيرنا لعداوته معنا فنزلت هذه الآية (قل من كان عدواً لجبريل) قال بعضهم: في الآية مضمهر، ومعناه: قل من كان عدواً لجبريل ويبغضه^(٢) جبريل هو الذي ﴿نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ ينزل بالقرآن فيقرأه عليك فتحفظه [في قلبك]^(٣) ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من التوراة. ويقال: هذا على وجه الترغيم، فكأنه يقول: قل من كان عدواً لجبريل فإن جبريل هو الذي ينزل عليك رغماً لهم بهذا القرآن عليك ليثبت به فؤادك ﴿وَهُدًى﴾ وهذا القرآن هدى من الضلالة ﴿وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لمن آمن به من المؤمنين ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ﴾ معناه من كان عدواً لجبريل فإنه عدو الله ﴿وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ يعني اليهود. ويقال: إن عبد الله بن صوريا هو الذي قال لعمر: إن جبريل عدونا لأنه ينزل بالشدة والخوف، وميكائيل ينزل بالرخاء فنزلت هذه الآية (من كان عدواً لله إلى آخره) قرأ حمزة وعاصم والكسائي في رواية أبي بكر (جبرئيل) بفتح الجيم والراء والهمزة (وميكائيل) بالياء مع الهمزة. وقرأ نافع (جبريل) بكسر الجيم والراء بغير همزة (ومكالم) بالهمزة بغير ياء^(٤). وقرأ أبو عمرو وعاصم في رواية حفص بغير همزة بكسر

(١) في أ «على قلبك».

(٢) من أ.

(٤) حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٠٧.

(٢) في ظ «فلا يبغضه».

الجيم والراء ميكال بغير همز وياء وقرأ ابن كثير جبريل بنصب الجيم بغير همزة وميكايل بهمز مع الياء وقرأ ابن عامر جبريل بكسر الجيم مثل قراءة نافع (وميكايل) بالياء مع المد والهمز مثل حمزة^(١) وإنما لا ينصرف لأنه اسم أعجمي، فوقع ذلك في لسان العرب واختلفوا فيه لاختلاف ألفاظهم ولغاتهم. ويقال إن (جبريل) و (ميكايل) معناه عبد الله وعبد الرحمن أي بلغتهم سوى^(٢) العربية.

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾

ثم قال عز وجل ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي واضحات. ويقال: مبيّنات للحلال والحرام. ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ يعني وما يجحد بالآيات إِلَّا الْكَافِرُونَ وَالْفَاسِقُونَ واليهود ومشركو العرب.

أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

﴿أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا﴾ وهو العهد الذي بين لهم في التوراة ويوم الميثاق ﴿نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ أي تركه ولم يعمل به فريق منهم، أي طائفة منهم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وقد ذكرناه. ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي محمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي يدعوهم إلى تصديق ما معهم ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ﴾، أي طرح فريق ﴿مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ ولم يؤمنوا به ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ في كتابهم بأن محمداً رسول الله.

وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾ أي ما كتبت الشياطين. ويقال: ما ألفت الشياطين. ويقال ما افعلته الشياطين ﴿عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ﴾ أي على عهد ملك سليمان. ويقال: على بمعنى في، أي في ملك سليمان. ويقال: في وقت ذهاب ملك سليمان. ويقال: هذا منسوق على الأول. فكأنه قال: نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم واتبعوا ما تتلو الشياطين. أي تركوا سنة أنبياء الله واتبعوا السحر. ويقال: تركوا شيئين واتبعوا شيئين: تركوا اتباع الكتب واتباع

الرسول والعمل بذلك، واتبعوا ما تتلو الشياطين أي ترويه الشياطين (وما أنزل على الملكين) ببابل هاروت وماروت واختلفوا في سبب ذلك. فقال بعضهم إن سليمان عليه السلام أمر بأن لا يتزوج المرأة من غير بني إسرائيل فتزوج امرأة من غير بني إسرائيل يقال لها: ضبنة بنت صابورا، فعاقبه الله تعالى بأن أجلس مكانه شيطاناً وكان الناس يظنون أنه سليمان وأشكل عليهم أمره فجاءوا إلى آصف بن برخيا وكان معلم سليمان بن داود في حال صغره وكان وزيره في حال كبره وملكه فقالوا له: إن قضاياه لا تشبه قضايانا سليمان فقال آصف ودخل على نساء سليمان فسألهن عن ذلك فقلن: إن كان هذا سليمان فقد هلكتم والله ما يعتزل منا حائضاً، وما يغتسل من جنابة. هكذا ذكر في رواية الكلبي^(١). وقال بعضهم: هذا خطأ لأن نساء الأنبياء معافات معصومات عن الفواحش، فلا يجوز أن يظن بهن أن الشيطان يقربهن. وقال بعضهم: كان هذا على وجه الخيال لا على وجه الحقيقة لأن الشيطان روحاني وليس له جسم، فلا يجوز أن تقع بينه وبين آدمي شهوة ولكن كان يريهن ذلك على وجه الخيال فلما عرف الشيطان أن الناس علموا بحاله كتب سحراً كثيراً وجعله تحت كرسيه وألقى خاتم سليمان في البحر وهرب، وكان سليمان عليه السلام خرج إلى ساحل البحر وأجر نفسه للملاحين كل يوم بسمكتين فلما أعطوه أجره باع إحداهما واشترى به الخبز وشق بطن الأخرى فوجد الخاتم في بطنها فرجع إلى ملكه - فلما توفي سليمان جاء الشيطان على صورة آدمي وقال: إن أردتم أن تعلموا علم سليمان بن داود عليهما السلام فانظروا تحت كرسيه [فانظروا وحفروا]^(٢) ذلك الموضع

(١) هذه الرواية وغيرها من الروايات التي ذكرت في فتنة سيدنا سليمان النبي لم ترد في القرآن الكريم أو في السنة الصحيحة بل كل ذلك مروي عن اشتهر بمثل تلك التفاصيل الدخيلة وهو «وهب بن منبه» والسدي فضلاً عما فيها من تناقضات ومخالفات تدل على عدم صحتها، ومن هنا فإننا لا نسلم بها بل نكررها ونبطلها.

يقول الإمام الفخر الرازي: وأعلم أن أهل التحقيق استبعدوا هذا الكلام من وجوه:

الأول: أن الشيطان لو قدر على أن يشبه بالصورة والخلقة بالأنبياء فحينئذ لا يبقى اعتماد على شيء من الشرائع، فلعل هؤلاء الذين رأهم الناس في صورة محمد وعيسى وموسى عليهم السلام ما كانوا أولئك بل كانوا شياطين تشبهوا بهم في الصورة لأجل الإغراء والإضلال، ومعلوم أن ذلك يبطل الدين بالكلية.

الثاني: أن الشيطان لو قدر على أن يعامل نبي الله سليمان بمثل هذه المعاملة لوجب أن يقدره على مثلها مع جميع العلماء والزهاد وحينئذ وجب أن يقتلهم وأن يخرب ديارهم، ولما بطل ذلك في حق آحاد الناس فلا يبطل مثله في حق أكابر الأنبياء أولى.

الثالث: كيف يليق بحكمة الله وسلطانه أن يسلط الشيطان على أزواج سليمان؟ ولا شك أنه قبيح. تفسير الفخر الرازي ٢٦/٢٠٨.

ويقول الشيخ أبو شعبة: ونحن لا نشك في أن الخرافات من أكاذيب بني إسرائيل وأباطيلهم وأن ابن عباس وغيره تلقوها عن مسلمة أهل الكتاب لكن بعض الكذبة من بني إسرائيل كان أحرص وأبعد غوراً من البعض الآخر فلم يتورط فيما تورط فيه البعض من ذكر تسلط الشيطان على نساء سليمان عليه السلام، وذلك حتى يكون لما لفته واقتراه بعض القبول عند الناس، أما عند البعض الآخر فكان ساذجاً في كذبه مغفلاً في تلفيقه فترك آثار الجريمة بينة واضحة، وبذلك اشتمل ما لفته على دليل كذبه، والحق أن نسج القصة مهلهل عليه أثر الصنعة والاختلاف ويصادم العقل السليم والنقل الصحيح في هذا وإذا جاز للشيطان أن يتمثل برسول الله سليمان عليه السلام فأي ثقة بالشرائع بعد هذا؟ وكيف يسلط الله الشيطان على نساء نبيه وهو أكرم على الله من ذلك؟ وأي ملك أو نبوة يتوقف أمرها على خاتم يدومان بدوامه ويزولان بزواله؟ وما عهدنا في التاريخ البشري شيئاً من ذلك. وإذا كان خاتم سليمان عليه السلام بهذه المثابة فكيف يفعل الله شأنه؟ في كتابه الشاهد على الكتب السماوية ولم يذكره بكلمة؟ وهل غير الله خلقه سليمان في لحظة حتى أنكرته أعرف الناس به وهي زوجاته؟؟

الحق أن نسج هذه القصة وما شابهها من القصص اللواحق لها مهلهل لا يصمد أمام النقد وإن آثار الكذب والاختلاق بادية عليها.

انظر الإسرائيليات والموضوعات للشيخ أبو شعبة ص ٣٨٠ - ٣٨٣ بتصرف.

(٢) في ظ «حفروا».

[وأخرجوا]^(١) كتباً كثيرة فوجدوا فيها السحر والكفر فقال العلماء منهم: لا يجوز أن يكون هذا من علم سليمان. وقال السفهاء منهم: بل هذا من علم سليمان واتبعوه فنزلت هذه الآية على النبي - صلى الله عليه وسلم - وعلى جميع الأنبياء عذراً لسليمان عليه السلام ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مَلِكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ أي ما كان ساحراً وفي الآية دليل أن الساحر كافر لأنه سُمي السحر كفرة^(٢). وروي عن عمر بن الخطاب أنه كتب إلى جزء بن معاوية وهو عم الأحنف بن قيس أن اقتلوا كل ساحر وساحرة. ثم قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ أي هم الذين كتبوا السحر. قرأ حمزة والكسائي^(٣) (ولكن الشياطين) بكسر النون من غير تشديد ورفع (الشياطين) وقرأ الباقون^(٤) بتشديد النون مع النصب وفتح النون في (الشياطين) وهذا هو الأصل في اللغة أن كلمتي إن ولكن إذا كانا مشددين ينصب ما بعدهما وإن لم يكونا مشددين يرفع ما بعدهما. وقال بعضهم لنزول هذه الآية سبب آخر وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع ويعلمون الناس السحر والسيرنجات^(٥)، فكان سليمان يأخذ ذلك منهم ويدفنه تحت الأرض، فلما مات سليمان قالت الشياطين للناس إن علم سليمان مدفون في موضع كذا وكذا، فحفروا ذلك الموضع وأخرجوا منه كتباً كثيرة. وقال بعضهم: معناه أن سليمان كان إذا أصبح كل يوم رأى نباتاً بين يديه فيقول له: لأي دواء أنت؟ فيقول: إني دواء لكذا وكذا وإن اسمي كذا كذا فكان سليمان يكتب

(١) في ظ «فخرج منه».

(٢) اعلم أن السحر أنواع منها:

الأول: سحر الكولانيين الذين كانوا في قديم الدهر قوم يعبدون الكواكب يزعمون أنها المدبرة لهذا العالم. ومنها: تصدر الخيرات والشرور والسعادة والنحوسة ويستحدثون الخوارق بواسطة تمزيج القوى السماوية بالقوى الأرضية وهم الذين بعث الله تعالى إبراهيم عليه الصلاة والسلام لإبطال مقالتهم وهم ثلاث فرق: ففرقة منهم يزعمون أن الأفلاك والنجوم واجبة الوجود لذاتها وهم الصابئة وفرقة يقولون بالهية الأفلاك ويتخذون لكل واحد منها هيكلًا ويشغلون بخدمتها وهم عبدة الأوثان وفرقة انبثوا للأفلاك ولللكواكب فاعلاً مختاراً لكنهم قالوا إنه أعطاها قوة عالية نافذة في العالم وفوض تدبيره إليها.

ثانياً: ومنها سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية فإنهم يزعمون أن الإنسان تبلغ روحه بالتصفية في القوة والتأثير إلى حيث يقدر على الإيجاد والاعدام والإحياء والإماتة وتغيير البنية والشكل.

ثالثاً: ومنها سحر من يستعين بالأرواح الأرضية وهو المسمى بالعزائم وتسخير الجن. ومنها: التخيلات الأخذة بالعيون وتسمى الشعوذة، ولاخلاف بين الأمة في أن من اعتقد الأول فقد كفر وكذا من اعتقد الثاني وهو سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية. وأما من اعتقد أن الإنسان يبلغ بالتصفية وقراءة العزائم والرقى إلى حيث يخلق الله سبحانه وتعالى عقيب ذلك على سبيل جريان العادة بعض الخوارق فالمعتزلة اتفقوا على أنه كافر لأنه لا يمكنه بهذا الاعتقاد معرفة صدق الأنبياء والرسول بخلاف غيرهم ولعل التحقيق أن ذلك الإنسان إن كان خيراً متشعراً في كل ما يأتي ويذر وكان من يستعين به من الأرواح الخيرة وكانت عزائمه ورقاه غير مخالفة لأحكام الشريعة الشريفة ولم يكن فيما يظهر في يده من الخوارق ضرر شرعي لأحد فليس ذلك من قبيل السحر وإن كان شريراً غير متمسك بالشريعة الشريفة لا محالة ضرورة امتناع تحقق التضامن والتعاون بينهما من غير اشتراك في الخبث والشرارة فيكون كافراً قطعاً.

وأما الشعوذة وما يجري مجراها من إظهار الأمور العجيبة بواسطة ترتيب الآلات الهندسية وخفة اليد والاستعانة بخواص الأدوية والأحجار فاطلاق السحر بطريق التجوز أو لما فيها من الدقة لأنه في الأصل عبارة عن كل ما لطف مأخذه وخفي سببه أو من الصرف عن الجهة المعتادة لما أنه في أصل اللغة الصرف على ما حكاه الأزهري عن الفراء ويونس.

انظر تفسير أبو السعود ١٣٧/١ - ١٣٨، ومن أراد الاستزادة في ذلك فليرجع إلى تفاسير الفخر الرازي ٣/٣١٤ وما بعدها والقرطبي ٢/٤٥ والألوسي ١/٣٣٩ وما بعدها وغير ذلك.

(٣) وكذلك ابن عامر.

(٤) قال الفيروزآبادي: النيرنج - بالكسر - أخذ كالسحر وليس به. ترتيب القاموس ٤/٤٦٨.

(٥) انظر ابراز المعاني، والإتحاف.

ذلك ويدفنه فنبت يوماً من الأيام نبات بين يديه فقال له سليمان: ما اسمك؟ فقال: خرنبوب. فقال له: لأي دواء أنت؟ فقال: إني لخراب المسجد، فعلم سليمان أنه قد جاء أجله لأنه علم أن المسجد لا يخرب في حياته، وكان له صحيفة فيها يكتب أسماء الأدوية ويضعها في الخزانة فكتبت الشياطين سحراً ووضعوه في ذلك الموضع، فلما مات سليمان وجدوا ذلك في كتبه فاتبعه بعض الناس فذلك قوله ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ ثم قال ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ أي واتبعوا الذي أنزل على الملكين ﴿بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ وقال القاضي الخليل بن أحمد قال حدثنا الماسرجي^(١)، فقال: حدثنا إسحاق^(٢) قال: حدثنا حكام بن سلم الرازي^(٣) قال: حدثنا أبو جعفر الرازي^(٤) عن الربيع بن أنس^(٥) عن قيس بن عباد عن ابن عباس رضي الله عنهما: في قوله تعالى (وما أنزل على الملكين) قال: إن الناس بعد آدم وقعوا في الشرك واتخذوا هذه الأصنام وعبدوا غير الله تعالى فجعلت الملائكة يدعون عليهم، ويقولون: ربنا خلقت عبادك فأحسن خلقهم ورزقتهم فأحسن رزقهم فعصوك وعبدوا غيرك فقال لهم الرب عز وجل: إنهم في عذر. وقيل: في عيب، فجعلوا لا يعذرونهم ولا يقبلون ويدعون عليهم. فقال لهم الرب: اختاروا منكم اثنين فأهبطهما إلى الأرض فأمرهما وأنهاهما فاخترتا هاروت وماروت فأهبطهما الله تعالى إلى الأرض فأمرهما ونهاهما عن الزنا وقتل النفس وشرب الخمر، فمكثا زماناً في الأرض يحكمان بالحق، وكان في ذلك الزمان امرأة فضلت بالحسن على سائر النساء فأتيا عليها فحضا لها بالقول وراوداها عن نفسها فقالت: لا حتى تصليا لهذا الصنم أو تقتلا هذه النفس أو تشربا هذه الخمر فقالا: أهون الثلاثة شرب الخمر [فلما شربا]^(٦) الخمر سجدا للصنم وفعلوا بالمرأة وقتلا النفس فكشف الغطاء فيما بينهما وبين الملائكة، فنظروا إليهما وما يفعلان، فجعلت الملائكة يعذرون بني آدم أهل الأرض ويستغفرون لمن فيها^(٧) فقيل لهاروت وماروت: اختارا إما عذاب الدنيا وإما عذاب الآخرة. فقالا: عذاب الدنيا يذهب وينقطع وعذاب الآخرة لا انقطاع له [ثم اختاروا]^(٨) عذاب الدنيا. فهما يعذبان إلى يوم القيامة. وروي في الخبر أن المرأة تعلمت منهما اسم الله الأعظم فصعدت به إلى السماء فمسحها الله تعالى كوكباً. ويقال: هو الكوكب الذي يقال له الزهرة. وروي عن ابن عمر - أنه كان إذا نظر إلى الزهرة لعنها ويقول: هي التي فتنت هاروت وماروت. وروي عن علي رضي الله عنه هذا^(٩). وقال بعضهم: هذا لا يصح لأن هذا الكوكب قد كان خلقه في الأصل حين خلق النجوم وجعل مقادير الأشياء على سبع من الكواكب وجعل لكل كوكب سلطاناً وجعل سلطان الزهرة الرطوبة. وقال بعضهم: إن كوكب الزهرة قد كان، ولكن الله تعالى مسح هذه المرأة على شبه الكوكب فهي تعذب هناك. وقال بعضهم: قد صارت إلى النار كما أن سائر الأشياء التي مسخت لم يبق منها أثر^(١٠) فذلك قوله تعالى ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى

(١) الحسن بن عيسى بن ماسرجس، أبو علي النيسابوري، مولى ابن المبارك توفي سنة ٢٤٠ هـ تهذيب التهذيب ٣١٣/٢.

(٢) إسحاق بن إبراهيم بن مخلد المعروف بابن راهويه المروزي، روى عنه الجماعة سوى ابن ماجه. تهذيب التهذيب ٢١٦/١.

(٣) حكام بن سلم، أبو عبد الرحمن الرازي الكناني، ثقة له غرائب. التقریب ١٨٩/١ - ١٩٠.

(٤) عيسى بن أبي عيسى، كان عالماً بتفسير القرآن، ثقة. تهذيب التهذيب ٥٦/١٢.

(٥) الربيع بن انس الخراساني البكري سكن خراسان، صدوق ثقة. تهذيب التهذيب ٢٣٨/٣.

(٦) في ظ [فشربا]. (٧) في ظ [في الأرض]. (٨) في أ [ثم اختاراً].

(٩) أخرجه الحاكم من حديث علي ٢٢٦/٢ ونسبه السيوطي لابن مردويه من حديث علي ٩٧/١.

(١٠) هذه الآثار وغيرها التي بلغت طرقها نيفاً وعشرين أنكرها جماعة من العلماء منهم القاضي عياض، الذي ذكر أن ما ذكره أهل الأخبار ونقله المفسرون في قصة هاروت وماروت ولم يرد منه شيء لا سقيم ولا صحيح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وليس هو شيئاً يؤخذ بالقياس، وذكر في البحر أن جميع ذلك لا يصح منه شيء ولم يصح أن ابن عمر كان يلعن الزهرة خلافاً لمن رواه.

الملكين»، [يعني اليهود اتبعوا ما أنزل على الملكين]^(١) بيابل هاروت وماروت. ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ﴾ قال بعضهم: هذا الحرف أعني (ما) للنفي فكأنه يقول: ولم ينزل على الملكين السحر. وقال بعضهم: إن إبليس^(٢) لعنه الله قد جاء بالسحر ووضعه عند أقدامهما، وهما معلقان بالسلة فتذهب اليهود تتعلم السحر من تلك الكتب والملكين ﴿يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي فلا تتعلم السحر لأنه لا يجوز للملكين أن يعلما^(٣) الكفر. وقال بعضهم: ويبينان أن عمل السحر كفر وينهيان عن التعلم ويبينان كيفية السحر وهو بمنزلة رجل قال لآخر: علمني ما الزنا أو علمني ما السرقة فيقول: إن الزنا كذا وكذا، وهو حرام فلا تفعل وإن السرقة كذا وكذا هي حرام فلا تفعل. كذلك ههنا. الملكان يقولان: السحر كذا وكذا، وهو كفر فلا تكفر. وقرأ بعضهم^(٤) (وما أنزل على الملكين) بكسر اللام وهي قراءة شاذة، يعني كانا ملكين في بني إسرائيل فمسخهما الله تعالى. وقوله (إنما نحن فتنة) أي اختبار وابتلاء. وأصل الفتنة الاختبار قوله ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾ أي من الملكين (مَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ) أي فيتعلمون منهما من السحر ما يفرقون به بين الرجل وزوجته، يؤخذ الرجل عن المرأة حتى لا يقدر على الجماع. ثم قال تعالى ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بإرادة الله تعالى ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ (أي ما يضر في الدنيا ولا ينفعهم في الآخرة، يعني السحر)^(٥) ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ يعني اليهود علموا في التوراة أن من اختار السحر ما له في الآخرة من خلاق يعني نصيب. والخلاق في اللغة^(٦): هو النصيب الوافر. ﴿وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي باعوا به يعني بشما باعوا به أنفسهم ويقال: بش ما اختاروا لأنفسهم السحر على كتاب الله تعالى وسنن أنبيائه لو كانوا يعلمون، ولكنهم لا يعلمون. فإن قيل: ذكر في الآية الأولى (ولقد علموا لمن اشتراه) وفي هذه الآية يقول: (لو كانوا يعلمون) فمرة يقول: يعلمون، ومرة يقول: لا يعلمون. فالجواب: أن يقال: إنهم يعلمون ولكن لا منفعة لهم في علمهم، وكل عالم لا يعمل بعلمه فليس بعالم لأنه يتعلم العلم لكي يتنفع به فإذا لم يتنفع به فكأنه لم يتعلم، فكذلك ها هنا (لو كانوا يعلمون) [لو كانوا يعرفون]^(٧) للعلم حقه.

وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْكَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ يعني اليهود لو صدقوا بثواب الله واتقوا السحر ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ يعني كان

= وقال الإمام الرازي بعد أن ذكر الرواية في ذلك -: إن هذه الرواية فاسدة مردودة غير مقبولة، ونص الشهاب العراقي على أن من اعتقد في هاروت وماروت أنها ملكان يعذبان على خطيئتهما مع الزهرة فهو كافر بالله تعالى العظيم فإن الملائكة معصومون ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون «يسبحون الليل والنهار لا يفترون» والزهرة كانت يوم خلق الله تعالى السماوات والأرض، والقول بأنها تمثلت لها فكان له ما كان وردت إلى مكانها غير معقول ولا مقبول. هذا والله أعلم انظر تفسير الألوسي ٢٤١/١. والفخر الرازي ٢١٩/٣ - ٢٢٠.

(١) ما بين المعقوفين سقط من أ.

(٢) هذا القول كذلك مردود وغير مقبول ولا أساس له من الصحة لأنه ليس في كتاب الله ولا في سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا فيما تناقلته الأخبار الصحيحة ما يدل على صدقه والله أعلم.

(٣) في أ [يتعلمان].

(٤) ابن عباس والحسن وأبو الأسود الدؤلي والضحاك وابن أبيزى. انظر البحر المحيط ٣٢٩/١. (٥) ما بين المعقوفين من ظ.

(٦) قال ابن منظور: الخلاق: الحظ والنصيب من الخير والصلاح والخلاق: الدين. (٧) في ظ [لكانوا يوفون].

ثواب الله تعالى خيراً لهم من السحر والمثوبة والثواب بمعنى واحد^(١) وهو الجزاء على العمل وكذلك الأجر ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهذا نداء المدح، يقول (يا أيها الذين آمنوا) صدقوا بتوحيد الله تعالى وبمحمد ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ وذلك أن المسلمين كانوا يأتون رسول الله - عليه السلام - ويقولون: يا رسول الله راعنا، وهو بلغة العرب: أرعنى سمعك. وأصله في اللغة: راعيت الرجل إذا تأملت وتعرفت أحواله. وكان هذا اللفظ بلغة اليهود سباً لرعونته^(٢). فلما سمعت اليهود ذلك من المسلمين أعجبهم ذلك وقالوا فيما بينهم: كنا نسب محمد سراً فلأن نسبه علانية، فكانوا يأتونه ويقولون له: راعنا يا محمد، ويريدون به السب^(٣). وقال بعضهم: كان في لغتهم معناه اسمع لا سمعت، فنزلت هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا) نهى المسلمين أن لا يقولوا: بهذا اللفظ، وأمرهم أن يقولوا بلفظ أحسن منه. قال الله تعالى ﴿وَقُولُوا أَنْظَرْنَا وَأَسْمَعُوا﴾ ما يؤمرون به. ثم ذكر الوعيد للكفار فقال تعالى ﴿وَاللَّكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني اليهود. وقرأ الحسن^(٤) (راعناً) بالتثنية^(٥). وقال القتيبي: من قرأ (راعناً) بالتثنية جعله اسماً منه. مثاله: أن تقول: لا تقولوا حمقاً.

مَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ
وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

قوله تعالى ﴿مَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني يهود أهل المدينة ونصارى أهل نجران ﴿وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾ يعني مشركي العرب ﴿أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني أن ينزل على رسولكم من الوحي وشرائع الإسلام لأنهم كانوا كفاراً، فيحبون أن يكون الناس كلهم كفاراً مثلهم. وهذا كما قال في آية أخرى (ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء) فأخبر الله تعالى أن الأمر ليس على مرادهم حيث قال ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يختار للنبوّة من يشاء من كان أهلاً لذلك ويكرم بدينه الإسلام من يشاء ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي ذو المن العظيم لمن اختصه بالنبوّة والإسلام. وقال مقاتل: كان قوم من الأنصار يدعون حلفاءهم ومواليهم من اليهود إلى الإسلام. فقالوا للمسلمين: [إن الذين تدعوننا]^(٦) إليه^(٧) هو خير مما نحن فيه^(٨) وعليه^(٩) وددنا لو أنكم على هذا فنزل قوله (والله يختص برحمته من يشاء) أي بدينه - الإسلام - من يشاء. ونظيرهما في سورة هل أتى (يدخل من يشاء في رحمته). أي في دين الإسلام.

مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾

ثم قال تعالى ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ قرأ ابن عامر (ما ننسخ) برفع النون وكسر السين وقرأ الباقون (ما ننسخ) بالنصب ومعناها واحد^(١٠). وقرأ أبو عمرو وابن كثير (أو ننسأها) بنصب النون والسين والهمزة، وقرأ الباقون

(١) في اللسان: وأعطاه ثوابه ومثوبته ومثوبته أي جزاء ما عمله. مادة: ثوب.

(٢) في أ [يرعونه]. (٣) اللسان: رعن.

(٤) وابن أبي ليلى وأبو حيوة وابن محيصن.

(٥) في مصحف عبد الله وقراءته أبي «راعونا» على اسناد الفعل لضمير الجمع، وذكر أيضاً أن في مصحف عبد الله «ارعونا» خاطبوه بذلك اكباراً وتعظيماً إذا قاموا مقام الجمع. البحر المحيط ٣٣٨/١.

(٦) في أ [ما تدعون]. (٧) من ظ. (٨) من ظ. (٩) من أ.

(١٠) انظر/ الإتحاف، وحجة القراءات لابن زنجيلة ١٠٩ والبحر المحيط ٣٤٢/١.

(أو نُنسِها) برفع النون وكسر السين بغير همز^(١). فمن قرأ (ننساها) أي نؤخرها، ومنه النسيئة في البيع وهو التأخير. ومن قرأ (ننساها) أي تركها مثل قوله تعالى (نسوا الله فأنسيهم) أي تركهم في النار وقال ابن عباس - في رواية أبي صالح في قوله تعالى [(ما ننسخ من آية أو ننسها) يقول]^(٢) ما ننسخ من آية فلا نعمل بها (أو ننسها)^(٣) ندعها غير منسوخة [والنسخ رفع الشيء وإقامة غيره مقامه وفي الشرع رفع كل حكم قبل فعله أو بعده إذا كان مؤقتاً ثم قال تعالى]^(٤) ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ يعني أهون وألين منها على الناس ﴿أَوْ مِثْلَهَا﴾ في المنفعة. وقال الزجاج: النسخ في اللغة^(٥)،

(١) حجة القراءات ١٠٩، البحر المحيط ٣٤٣/١. وأضاف أبو حيان: وقرأ سعد بن أبي وقاص تنساها «بتاء ونون من غير همز».

(٢) ما بين المعقوفين من أ. (٣) في أ (ننسيها). (٤) ما بين المعقوفين من أ.

(٥) يطلق النسخ في اللغة على معنيين: الأول: الإزالة أي الإعدام وهذا المعنى قسماً:

أ - إبطال الشيء وزواله وإقامة آخر مقامه فيقال: نسخت الشمس الظل إذا أزالته وحلت مكانه وهذا على حد قوله تعالى: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾.

ب - إبطال الشيء وزواله دون أن يقوم آخر مقامه فيقال: نسخت الريح آثار القوم أي أزلتها وأعدمتها، ومن هذا قوله تعالى: ﴿فينسخ الله ما يلقي الشيطان﴾. أي يزيله فلا يبقى له أثر.

الثاني: نقل الشيء وتحويله:

أ - من حال إلى حال مع بقاءه كناسخ الموارث أي انتقالها من واحد إلى آخر مع بقاء الموارث في نفسها.

ب - أو من مكان إلى مكان آخر مع بقاءه في نفيه تقول: نسخت النحل أي نقلته من خلية إلى أخرى.

ومن النسخ بمعنى النقل قوله تعالى ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ أي ننقله في صحف الملائكة.

وقد اختلف في أي المعنيين يكون لفظ النسخ حقيقة وفي أيهما يكون مجازاً على ثلاثة آراء:

الأول: أنه حقيقة في الإزالة مجاز في النقل وإليه ذهب أكثر الشافعية والإمام الرازي والغزالي في أحد النقول عنه، ودليلهم أن الإزالة عبارة عن مطلق الإعدام أي سواء حديث بعده أمراً ضرراً أم لا أما النقل فهو إعدام صفة وإحداث أخرى، فيكون أخص من الإزالة.

الثاني: أنه حقيقة في النقل مجاز في الإزالة وإلى ذلك ذهب القفال الشاشي - من الشافعية - وأكثر الحنفية ودليلهم أن لفظ النسخ كثر استعماله في النقل وقل في الإزالة فيكون حقيقة في النقل فقط مجازاً في الإزالة، ولا يكون حقيقة فيهما أيضاً لما يترتب على ذلك من لزوم الاشتراك اللفظي والأصل خلافه.

الثالث: أنه مشترك بينهما وإليه ذهب القاضي والغزالي في أحد النقول عنه، وهذا الاشتراك يحتمل أمرين:

الأول: أنه مشترك اشتراكاً لفظياً بحيث يكون موضوعاً لكل منهما بوضع خاص.

الثاني: أنه مشترك بينهما اشتراكاً معنوياً بحيث يكون موضوعاً للقدر المشترك بينهما وهو مطلق الرفع. وهذا أولى من الأول لأن الأصل عدم تعدد الوضع، ودليلهم أن النسخ في اللغة أطلق على كل من الإزالة والنقل والأصل في الإطلاق الحقيقة فيكون حقيقة فيهما ومهما كانت حقيقة النسخ في اللغة فإنه نزاع لفظي لا تتعلق به غرض أصولي.

تعريف النسخ اصطلاحاً: عرف العلماء النسخ بقولهم النسخ عبارة عن بيان انتهاء حكم شرعي بطريق شرعي مترسخ عنه، وقالوا أيضاً: هو رفع حكم شرعي بدليل شرعي مترسخ عنه، وإذا نظرنا إلى التعريفين ووجدنا الفارق بينهما يتحقق في كلمة رفع في أحدهما وكلمة بيان في الآخر مع اتفاقهما في باقي القيود ولعل الملاحظ في هذا الفارق أن النسخ فيه جهتان:

إحدهما: بالنسبة إلى الله فمن راعى هذه الجهة عبر بالبيان لأن النسخ في حقه تعالى بيان محض لانتهاء مدة الحكم الأول وليس فيه معنى الرفع لأنه كان معلوماً عند الله تعالى أنه ينتهي في وقت كذا بالناسخ فكان الناسخ بالنسبة لعلم الله مبيناً للمدة لا رافعاً لأن الرفع يقتضي الثبوت والبقاء لولاه والبقاء هنا بالنسبة إلى علم الله محال لأنه خلاف معلومه.

ثانيتها: بالنسبة إلى البشر فمن راعى هذه الجهة عبر بالرفع لأنه زال ما كان ظاهر الثبوت وخلفه شيء آخر نوضح ما تقدم بالمثل =

هو إبطال شيء وإقامة شيء آخر مقامه، والعرب تقول: نسخت الشمس الظل إذا أزالته^(١). (أو ننسها)^(٢) أي نتركها، بمعناه أي نأمركم بتركها. وقال أبو عبيد^(٣) القاسم بن سلام^(٤): النسخ له ثلاثة مواضع ولكل منها شواهد ودلائل، فأحدها: ما روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: (ما ننسخ من آية) أي نبطلها ونوضحها، وما روي عن مجاهد أنه قال: نثبت خطها، ونبدل حكمها. فهذا هو المعروف عند الناس. الثاني: أن ترفع الآية المنسوخة بعد نزولها ولهذا دلائل جاءت فيه، من ذلك ما روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - [أنه صلى]^(٥) ذات يوم صلاة الغداة، فترك آية، فلما فرغ من صلاته قال: هل فيكم أبي قالوا: نعم (قال: ^(٦)) هل تركت من آية؟ قالوا: نعم [تركت آية كذا، أنسخت أم نسيت، قال: لا، ولكن نسيت^(٧)]. وجاءت الآثار في نحو هذا لأن الآية قد تنسخ بعد نزولها وترفع. والنسخ الثالث: تحويله من كتاب إلى كتاب، وهو ما نسخ من أم الكتاب فأنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - (أو ننسها)^(٨) أي نتركها في اللوح المحفوظ^(٩). وقال بعضهم: لا يجوز النسخ فيما يرفع كله بعد نزوله لأن الله تعالى قال (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) وقال (إن علينا جمعه وقرآنه) ولكن أكثر أهل العلم قالوا: يجوز ذلك والنسخ يجوز في الأمر والنهي والوعد والوعيد ولا يجوز في القصص والأخبار^(١٠) لأنه لو جاز ذلك يكون كذباً، والكذب في القرآن لا يجوز. ثم قال تعالى ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من الناسخ والمنسوخ.

= فنقول: لم تكن الخمر في أول الإسلام محرمة وكان الله سبحانه وتعالى يعلم أنه سيحرمها علينا بعد مدة ولم يخبرنا سبحانه وتعالى بذلك بل أطلق حكم الإباحة فظننا نحن معاشر المسلمين بقاء هذا الإطلاق إلى يوم الدين، فلما جاء التحريم بعد ذلك كان رفعاً في حقنا للإباحة التي ظننا بقاءها وكان ذلك التحريم بالنسبة إلى الله تعالى بياناً لميعاد انتهاء الإباحة الذي كان في علمه، واتفق المسلمون وأهل الشرائع على جواز النسخ عقلاً ولم يخالف في ذلك من أرباب الشرائع إلا الشيعونية وهم فرقة من اليهود ويقولون: بامتناعه عقلاً وسمعاً، واتفق المسلمون على وقوعه أيضاً ولم يخالف في ذلك إلا أبو مسلم الأصفهاني على ما نقل وأهل الشرائع سوى الشيعونية والعنائية - فرقتان من اليهود - تقولان بامتناعه. أما العيسوية منهم فيعترون بالنسخ جوازاً ووقوعاً ويرسالة نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - لكن يقولون رسالة إلى العرب خاصة فلا تنسخ شريعته شريعة موسى وأدلة هؤلاء تبحث في المطولات.

(١) انظر اللسان: نسخ. (٢) في أ [ننسيها]. (٣) في أ [أبو عبيدة].

(٤) أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي الأزدي الخزاعي بالولاء من كبار العلماء بالحديث والأدب والفقه، ومن مصنفاته «غريب القرآن». تهذيب التهذيب ٣١٥/٧، تذكرة الحفاظ ٥/٢.

(٥) ما بين المعقوفين من أ. (٦) في ظ [نعم فقال]. (٧) ما بين المعقوفين من ظ.

(٨) نسبة السيوطي في الدر المنثور ٦٢/٥ لابن الأنباري في المصاحف عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف.

(٩) في ظ [ننسيها]. (١٠) سقط من ظ.

(١١) ومحل النسخ هو الحكم الشرعي الذي لم يلحقه تأييد ولا تأنيث وذلك كسائر الأحكام التكليفية من الوجوب وأخواته ويؤخذ مما تقدم ما يأتي:

أولاً: الأحكام العقلية والاعتقادية كوحداية الله ووجوب الإيمان به ليست محلاً للنسخ.

ثانياً: الأحكام الحسية كاحراق الناس ليست محلاً للنسخ.

ثالثاً: الأحكام المؤبدة بالنص أو بدلالاته ليست محلاً للنسخ لأن رفعها بعد تأييدها من الشارع الحكيم يؤدي إلى البدء أي الظهور بعد الخفاء وهو محال على الله تعالى فمثال المؤبد بالنص قوله تعالى ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وقوله في بيان حكم قاذف المحصنات ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ فإن لفظ أبداً يدل على أن هذا حكم دائم لا يزول، وقوله - صلى الله عليه وسلم - «الجهاد ماض إلى يوم القيامة» ومثال المؤبد بالدلالة الشريعة التي توفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عنها فإنها مؤبدة إلى يوم القيامة بدلالة أنه خاتم الأنبياء والمرسلين.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يحكم فيهما ما يشاء بأمره^(١) ثم يأمر بغيره. قال الزجاج: الملك في اللغة: هو تمام القدرة وأصل هذا من قولهم ملكت العجين إذا بالغت في عجنه، ومعنى الآية: إن الله يملك السموات والأرض وما فيهما، فهو أعلم^(٢) لما يصلحهم فيما يتعبدون به من ناسخ ومنسوخ ومتروك وغير متروك. وكان اليهود أعداء الله ينكرون النسخ، وكانوا يقولون حين تحولت القبلة إلى الكعبة: لو كنتم على الحق فلم رجعتن؟ ولو كان هذا الثاني حقاً فقد كنتم على الباطل وكانوا لا يرون النسخ في الشرائع، لأن ذلك حال البداء^(٣) والندامة. ولا يجوز ذلك على الله. ولكن الجواب أن يقال: إن الله تعالى يدبر في أمره ما يشاء كما أنه خلق الخلق ولم يكونوا، ثم يميتهم بعد ذلك، ثم يحييهم كذلك يجوز أن يأمر بأمر ثم يأمر بغير ذلك الأمر، كما أن شريعة موسى عليه السلام لم تكن من قبل، فأمره بذلك، والمعنى في ذلك: أنه حين أمرهم بالأمر الأول كان الصلاح في ذلك [الوقت في هذا الأمر]^(٤) ثم إذا أمر بأمر آخر كان الصلاح في ذلك الوقت في الأمر الثاني، وهذا المعنى قوله ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني هو أعلم بأمر الخلق، وبما يصلحهم في كل وقت. ثم بين الوعيد لمن لم يؤمن بالناسخ والمنسوخ فقال ﴿وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾: أي من قريب ينفعكم ولا نصير: أي ولا مانع يمنعكم من عذاب الله تعالى.

أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَّبِدِلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾ قال مقاتل: معناه أتريدون أن تسألوا رسولكم (كما سئل موسى من قبل) أي كما سألت بنو إسرائيل موسى عليه السلام حيث قالوا: (أرنا الله جهرة) ويقال: إن اليهود سألو أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأن يطلبوا القربان كما كان لموسى عليه السلام. وروي^(٥) عن الضحاك أنه قال: دخل جماعة من كفار قريش فيهم أبو جهل وغيره، فقالوا لرسول الله: إن كنت نبياً فاكشف عنا الغطاء حتى نرى الله جهرة فنزلت الآية [﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ حيث قالوا: (أرنا الله جهرة) ثم قال^(٦) ﴿وَمَن يَتَّبِدِلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ أي يختار الكفر على الإيمان ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (أي أخطأ قصد السبيل وهو الطريق)^(٧) الهدى.

= رابعاً: الأحكام المؤقتة بوقت لا تكون محلاً للنسخ قبل تمام وقتها لأن النسخ قبل تمام الوقت بداء وجهل وهما محالان على الله تعالى وذلك كقوله تعالى ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾.

خامساً: الإخبار عن الأمور الماضية أو المستقبلية أو الحاضرة لا يكون محلاً للنسخ لأن نسخه يؤدي إلى الجهل أو الكذب مثال ذلك: قول الله تعالى ﴿فَسَجِدِ الْمَلَائِكَةَ كُلَّهُم مَّجْمُوعِينَ﴾ و«قوله» ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلَكُوا بِطَاغِيَةٍ وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلَكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ وأما الأخبار التي تتضمن حكماً شرعياً فهي محل النسخ باعتبار ما تضمنته من حكم شرعي وذلك كقوله تعالى ﴿وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ فهذا خبر تضمن حكماً شرعياً هو وجوب العدة على المطلقة ذات الحيض وتكون بالاقراء ثلاثاً.

(١) في ظ [بالأمر]. (٢) في ظ [أعرف].

(٣) البداء: استصواب شيء علم بعد أن لم يعلم. قال الفراء: بدا لي أي ظهر لي رأي آخر. ويقال بدا لي بداء: أي تغير رأيي على ما كان عليه. اللسان: بدا.

(٤) ما بين المعقوفين من أ. (٥) سقط من أ. (٦) ما بين المعقوفين من ظ. (٧) في ظ [يعني قصد الطريق].

وَذَكِّرْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُرَدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ
أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾

[قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وذلك أن المسلمين لما أصابتهم المحنة يوم أحد قالت اليهود
لعمار بن ياسر^(١) وحذيفة بن اليمان: قد أصابكم ما أصابكم فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم، فنزلت هذه الآية^(٢)
(ود كثير من أهل الكتاب) أي يريد ويتمنى كثير من أهل الكتاب ﴿لَوْ يُرَدُّونَكُمْ﴾ أي [يصدونكم ويردونكم]^(٣) عن
التوحيد ﴿مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ إلى الكفر. ثم أخبر أن هذا القول لم يكن منهم على وجه النصيحة، ولكن ذلك
القول كان ﴿حَسَدًا﴾ [مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ]^(٤) مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ^(٥) ما في التوراة أنه ﴿الْحَقُّ﴾ يعني أن دين محمد
صلى الله عليه وسلم هو الحق ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ أي: اتركوهم وأعرضوا عنهم ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ يعني
الأمر بالقتال، وكان ذلك قبل أن يؤمر بقتال أهل الكتاب، ثم أمرهم بعد ذلك بالقتال، وهو قوله تعالى (قاتلوا الذين
لا يؤمنون بالله... إلى قوله من الذين أوتوا الكتاب) ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من النصرة للمسلمين على
الكفار. ويقال: هو قتل بني قريظة وإجلاء بني النضير.

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي أقرأوا بالصلاة وأدوها في مواقيتها بركوعها وسجودها وخشوعها ﴿وَآتُوا
الزَّكَاةَ﴾ أي وأعطوا الزكاة المفروضة ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي ما تصدقتم من [صدقة
وعملتكم]^(٦) من العمل الصالح تجدوه عند الله محفوظاً يجزيكم به. ونظير هذا ما قال في آية أخرى (يوم تجد كل
نفس ما عملت من خير محضراً) وقال في آية أخرى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) وروي أنه مكتوب في بعض
الكتب: يا بني آدم ضع كنزك عندي لا سرق ولا حرق ولا فساد، تجده حين تكون أحوج إليه، ثم قال تعالى ﴿إِنَّ
اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يعني عالم بأعمالكم يجازيكم خيراً وبالشر شراً.

وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾

﴿وَقَالُوا﴾ يعني اليهود والنصارى وهم يهود أهل المدينة ونصارى أهل نجران ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ

(١) عمار بن ياسر بن عامر بن مالك العنسي أبو اليقظان، صحابي جليل مشهور قتل مع علي بصفين سنة سبع وثلاثين. التقريب
٤٨/٢.

(٢) ما بين المعقوفين من ظ. (٣) في ظ [بصرفونك]. (٤) في ظ [منهم].

(٥) من ظ. (٦) في ظ [الصدقة وتعملون].

هُوداً أَوْ نَصَارَى ﴿١﴾ واليهود جماعة الهائد، وإنما أراد به اليهود^(١). وهذا من جوامع الكلم وهذا كلام على وجه الاختصار، فكأنه يقول: وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً. وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً. قال الله تعالى ردّاً لقولهم ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ أي ظنهم وأباطيلهم. وهذا كما يقال للذي يدعى مالاً يبرهن عليه، إنما أنت متمن وإنما يراد به: إنك مبطل في قولك، ثم قال تعالى ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي حجتكم من التوراة أو من الإنجيل ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي بأن الجنة لا يدخلها إلا من كان يهودياً أو نصرانياً ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ معناه بل يدخل الجنة غيركم، من أسلم وجهه لله، أي من أخلص دينه لله وآمن بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في عمله ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أي ثوابه في الجنة^(٢) ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من العذاب حين يخاف أهل النار ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ حين يحزن أهل النار. ويقال^(٣): ولا هم يحزنون على ما (فاتهم)^(٤) من أمر الدنيا. ويقال: الخوف إنما يستعمل في المستأنف، والحزن في الماضي، كما قال الله تعالى (لكيلا تأسوا على ما فاتكم) ويقال: الخوف ثلاثة: خوف الأبد، [وخوف العذاب على الانقطاع]^(٥) وخوف الحشر والحساب. فأما خوف الأبد فيكون أمناً للمسلمين، وخوف العذاب على الانقطاع يكون أمناً للتائبين، وخوف الحشر والحساب يكون أمناً للمحسنين (والمحسنون)^(٦) يكونون آمينين من ذلك.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾

قوله تعالى ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾، وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ ﴿١﴾ من أمر الدين وروى عن ابن عباس أنه قال: صدقوا ولو حلفوا على ذلك ما حثوا لأن كل فريق منهم ليس^(٨) على شيء. ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ أي عندهم ما يخرجهم من ذلك الاختلاف أن لو نظروا فيه وقال الزجاج: معناه، كلا الفريقين يتلون الكتاب وبينهم هذا الاختلاف. فدل ذلك على ضلالتهم ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي الذين ليسوا من أهل الكتاب قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان^(٩) على ديننا ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ يعني أنه يريهم من يدخل الجنة عياناً ومن يدخل النار عياناً ويبين لهم الصواب ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي في الدنيا.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا لِحَافٍ فِيهِمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ قال في رواية الكلبي معناه ومن أكفر. وقال بعضهم: هذا التفسير غير

(١) قال الفراء: يريد يهودا فحذف الياء الزائدة ورجع إلى الفعل من اليهودية قال: وقد يجوز أن يجعل جمعاً واحده هائد. اللسان: هود.

(٢) في ظ [الجنة]. (٣) ما بين المعقوفين من ظ.

(٤) في ظ [خلفوا]. (٥) ما بين المعقوفين من أ.

(٦) سقط من ظ.

(٧) من ظ.

(٨) في أ [ليسوا].

(٩) في أ وظ [كان هوداً].

سديد، لأن الكفر كله سواء. ولكن معنى قول الكلبي ومن أكفر يعني من أشد في كفره، لأن الكفار وإن كانوا كلهم في الكفر سواء فربما يكون بعضهم في كفره^(١) أشد شراً من غيره. قال الكلبي: نزلت هذه الآية في شأن ططوس بن أسفیانوس^(٢) الرومي حيث خرب بيت المقدس وألقى فيه الجيفة، فكان خراباً إلى زمن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وذلك قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَاسْمُهُ فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ فلم يدخلها^(٣) بعد عمارتها رومي إلا خائفاً ومستخفياً لو علم أنه رومي قتل. [قال قتادة هم النصارى. وقال مجاهد: هم اليهود والنصارى]^(٤) ويقال: من أراد أن يكون ملكاً عليهم لا يمكنه ذلك ما لم يكن دخل مسجد^(٥) بيت المقدس، فيجيء ويدخله مستخفياً. ثم قال عز وجل ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي بفتح مدائهم الثلاثة قسطنطينة وعمورية وأرمينية^(٦). وقال بعضهم: لنزول هذه الآية سبب آخر، وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما خرج عام الحديبية إلى مكة، ومنعه أهل مكة فرجع، ولم يدخلها في تلك السنة، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَاسْمُهُ فِي خَرَابِهَا﴾ أي سعى ومنع المسلمين عن الصلاة، وذكر الله فيها لأن عمارة المسجد بالصلاة، وذكر الله فيها وخرابها في ترك ذلك. (أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين) بعد فتح مكة فلا يقربوا^(٧) المسجد الحرام بعد عامهم هذا إلا [خائفين]^(٨)، (لهم في الدنيا خزي) وهو فتح مكة ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لمن مات على كفره وقتل. وروى الزجاج عن بعض أهل العلم قال: نزلت في شأن جميع الكفار لأن الكفار كانوا يقاتلون المسلمين ويمنعونهم من الصلاة فقد منعوا المسلمين [من الصلاة في]^(٩) جميع المساجد لأن الأرض كلها جعلت مسجداً وطهوراً^(١٠). ومعناه ومن أظلم ممن خالف ملة الإسلام. قال: ومعنى قوله (أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين) يعني دار الإسلام [ولهم في الدنيا خزي] وظهور^(١١) الإسلام على سائر الأديان لقوله تعالى (ليظهره على الدين كله).

وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِيعُ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ قد اختلفوا في سبب نزول هذه الآية. روي عن ابن عباس أنه قال: خرج رهط في سفر من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأصابهم الضباب، فمنهم من صلى إلى المشرق، ومنهم من صلى إلى المغرب، فلما طلعت الشمس وذهب الضباب، استبان لهم ذلك، فلما قدموا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سألوه عن ذلك، فنزلت هذه الآية ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ فأينما تولوا فتم وجه الله يعني أينما تولوا وجوهكم في الصلاة فتم وجه الله يعني [قال بعضهم:

(١) في أ [الكفرة]. (٢) في ظ [استيانوس]. (٣) في أ [يدخل].

(٤) ما بين المعقوفين من ظ. (٥) في أ. (٦) في أ [ورومية].

(٧) في أ [يقربون]. (٨) في ظ [خائفاً]. (٩) سقط من ظ.

(١٠) وهذا من خصائص أمة النبي - صلى الله عليه وسلم - كما رواه البخاري ومسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أعطيت

خمساً لم يعطهن أحد قبلي وذكر منها «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً» فالبخاري ٤٣٥/١ - ٤٣٦ في كتاب التيمم باب (١)

(٣٣٥) ومسلم ٣٧٠/١ في كتاب المساجد حديث (٥٢١/٣) وأحمد في المسند ٤١٦/٤، ١٦١/٥ وابن حبان رقم (٢٠٠)

(٢١٢٥) والسيوطي في الدر المنثور ٨٣/٢ والحميدي (٩٤٥) وابن الجارود في المتقى (١٢٣) والترمذي (٣١٧) وأبو داود في

الصلاة باب (٢٤) والنسائي في السنن ٥٦/٢ وابن ماجه في إقامة الصلاة (٥٦٧).

(١١) في ظ [يعني يظهر].

فثم قبله الله^(١). ويقال يعني: فثم رضا الله. ويقال: فثم ملك الله. وروي عبد الله [بن عامر]^(٢) بن ربيعة^(٣) عن أبيه أن قوماً خرجوا إلى السفر وذكر القصة نحو هذا. وقال بعضهم: المراد به الصلاة على الدابة. [قال الفقيه]^(٤): حدثنا محمد بن سعيد المروزي قال: حدثنا أبو جعفر الطحاوي قال: حدثنا علي بن شيبة قال: حدثنا يزيد بن هارون قال: حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان عن سعيد بن جبيرة عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يصلي على راحلته التطوع^(٥) حيث ما توجهت به وهو جاء من مكة، ثم قرأ ابن عمر ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُو فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ قال ابن عمر: في هذا نزلت هذه الآية^(٦). وقال بعضهم: لنزول هذه الآية سبب آخر، وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يصلي إلى بيت المقدس فلما أمر بالتحويل إلى الكعبة، قالت اليهود: مرة تصلون هكذا، ومرة تصلون هكذا، فنزلت هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ ثم قال ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي الواسع الجواد المحسن الذي يقبل اليسير، ويعطي الجزيل عليم بصلواتكم. [ويقال: الواسع الغني عن صلاة الخلق، وإنما يطلب منهم النية الخالصة]^(٧) عليم بنياتكم. ويقال: واسع يعني يوسع عليكم أمر الشرائع، ولم يضيق عليكم الأمر. ويقال: واسع، يعني واسع الفضل. وقال الزجاج^(٨): معنى قوله (فثم وجه الله) أي اقصدوا وجه الله بنيتكم القبلة كقوله (وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره).

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لُحْيَةٍ لَّهُ قَلْبُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾

قوله ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ قرأ ابن عامر ومن تابعه من أهل الشام (قالوا) بغير واو. وقرأ^(٩) الباقون بالواو، ومعناها واحد [إلا أن]^(١٠) الواو للعطف وذلك أن اليهود قالوا: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله. وقال بعض المشركين: الملائكة بنات الله. [قال الله تعالى]^(١١) ﴿سُبْحَانَهُ﴾ نزه نفسه عن الولد ﴿بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كلهم عبده ﴿كُلُّ لُحْيَةٍ لَّهُ قَلْبُونَ﴾ [يعني به المؤمنين خاصة أي مطيعين مقرين بالعبودية له موحددين مجيبين للطاعة]^(١٢). وقد قيل: إن لفظ الآية عام والمراد به الخاص. قوله تعالى (كل له قانتون) يعني به

(٢) سقط من ظ.

(١) ما بين المعقوفين من ظ.

(٣) عامر بن ربيعة، من كبار التابعين، ثقة، ولد في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - وكان قليل الحديث. تهذيب التهذيب ٥/٢٧٠.

(٥) في ظ [تطوعاً].

(٤) ما بين المعقوفين من أ.

(٦) أخرجه البخاري ١/٦٩١ في كتاب الصلاة باب الصلاة إلى الراحلة والبعير (٥٠٧) ومسلم ١/٣٥٩ كتاب الصلاة باب ستره المصلي

(٤٧/٥٠٢)، (٤٨/٥٠٢) وأحمد في المسند ٢/٢٠ والنسائي في السنن ٢/٤٨.

(٧) ما بين المعقوفين ساقط من ظ ومؤخر في أ إلى ما بعد القول الذي يليه.

(٨) ١٧٥/١.

(٩) القراءة بدون واو على الاستثنا وبالألف عطف جملة على مثلها، وفي المصحف الذي أرسله سيدنا عثمان إلى أهل الشام بدون

واو، وهي من القراءات المتواترة التي لا طعن فيها.

انظر: حرز الأمان وعقيلة أتراب القصائد في علم الرسم للإمام الشاطبي، ومتن الذيل لابن عاشر وهو ذيل على كتاب مورد الظمان

في رسم القرآن.

(١٠) في ظ [لان]. (١١) في ظ [فالله]. (١٢) في أ [يعني به المؤمنين خاصة، أي مطيعين مقرين بالعبودية له موحددين مجيبين.

المؤمنين خاصة. ويقال معناه: أثر صنعه وشواهد توحيده ودلائل ربوبيته في جميع ما في السموات والأرض 'موجود' (١). ويقال (كل له قانتون) أي لا يستطيع كل خلق أن يغير نفسه عن خلقه، فأخبر الله تعالى أن جميع ما في السموات والأرض له وهو خالق الأشياء وهو المستغني عن الولد سبحانه وتعالى ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي خالقهما. والإبداع في اللغة (٢): إنشاء شيء لم يسبق إليه على غير مثال ولا مشورة. وإنما قيل لمن خالف السنة: مبتدع، لأنه أتى بشيء لم يسبقه إليه الصحابة ولا التابعون (٣). ومعناه هو خالق السموات والأرض ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ يعني إذا أراد أن يخلق خلقاً ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ويقال: هذه الآية نزلت في شأن وفد نجران السيد والعاقب وغيرهما. وكانوا يقولون للنبي - صلى الله عليه وسلم -: هل رأيت خلقاً من غير أب؟ فنزلت هذه الآية: (وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) كما كان آدم من غير أب وأم، كذا عيسى ابن مريم خلقه بغير أب. فإن قيل: قوله (كن) هذا الخطاب للموجود أو للمعدوم؟ فإن قال: للمعدوم. قيل له: كيف يصح الخطاب لشيء معدوم؟ وكيف يصح الإشارة إليه بقوله (كن)؟ فإن قال: الخطاب للموجود. قيل له: كيف يأمر الشيء الكائن بالكون: فالجواب عن هذا من وجهين: أحدهما: إن الأشياء كلها كانت موجودة في علم الله تعالى قبل كونها فكان الخطاب للموجود في علمه (٤). - وجواب آخر: إن معناه إذا قضى أمراً فإنما يقول له: كن فيكون يعني إذا أراد أن يخلق خلقاً يخلقه، والقول فيه على وجه المجاز. قرأ ابن عامر (فيكون) بالنصب لأنه (٥) جواب الأمر بالفاء (٦)، وقرأ الباقون بالرفع على معنى الاستئناف بمعنى فهو يكون.

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾

قوله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون توحيد الله تعالى، ومعناه: وقال الجاهل من الناس - وهم الكفار - ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ أي هلا يكلمنا الله فيخبرنا بأنك رسوله ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ أي علامة لنبوتك. قال الله تعالى ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي قال اليهود لموسى عليه السلام: (أرنا الله جهرة) ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي في القسوة والكفر. ويقال: تشابهت كلمتهم كما تشابهت قلوبهم [في القسوة والكفر] (٧) ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ﴾ يعني أmerk في التوراة (أي العلامات لنبوتك) (٨) إنك نبي مرسل الصفة والنعته ويقال: قد بينا العلامات لنبوتك. ويقال: لم يكن لنبي من الأنبياء معجزة وعلامة إلا وقد كان للنبي - صلى الله عليه وسلم - مثلها ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يعني مؤمني أهل التوراة. ويقال: من كان له عقل وتمييز.

(١) ساقطة من ظ. (٢) لسان العرب: بدع ٢٣٠/١.

(٣) قال ابن منظور: والبدعة: الحدث وما ابتدع من الدين بعد الاكمال. وقال ابن السكيت: البدعة كل محدثة، وقال ابن الأثير: البدعة بدعتان: بدعة هدى وبدعة ضلال، فما كان من خلاف ما أمر الله به ورسوله - صلى الله عليه وسلم - فهو في حيز الإنكار والذم، وما كان واقعاً تحت عموم ما ندب الله إليه وحض عليه ورسوله فهو في حيز المدح... «اللسان: بدع».

(٤) في أ [علم الله تعالى]. (٥) في أ [فيكون لأن].

(٦) في أ [يكون نصيباً].

قال أبو حيان: لا يصح نصبه على جواب الأمر الحقيقي لأن ذلك إنما يكون على فعلين ينتظم منهما شرط وجزاء نحو اثنتي فأكرمك، وهنا لا ينتظم ذلك إذ يصير المعنى إن يكن يكن... البحر المحيط ٣٦٦/١. وانظر: الاتحاف وأبو شامة على الحرز.

(٧) ما بين المعقوفين من أ. (٨) ما بين المعقوفين من ظ.

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهَدَىٰ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنْ أَلَمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾

قوله تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي بالقرآن [ويقال بالحق يعني بالدعوة إلى الحق] ^(١) ويقال: بالحق أي لأجل الحق ^(٢). ويقال: أي بالدعوة إلى الحق. ويقال: ببيان الحق ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ قرأ نافع (ولا تسأل) بنصب التاء وجزم اللام، والباقون بضم التاء واللام ^(٣). فمن قرأ بالرفع فمعناه أنك إذا بلغت الرسالة فإنك قد فعلت ما عليك ولا تسأل عن أصحاب الجحيم فيما ^(٤) فعلوا وهذا كما قال في آية أخرى (فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) وأما ومن قرأ بالنصب فهو على معنى النهي أي لا تسأل عن أصحاب الجحيم أي عما فعلوا. قال القاضي الخليل بن أحمد: أخبرنا الديلمي قال أخبرنا أبو عبيد الله قال: حدثنا سفيان عن موسى بن عبيدة الربذي ^(٥) عن محمد بن كعب القرظي ^(٦) أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: لبت شعري ما فعل بأبوي. فنزلت هذه الآية ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ الآية ^(٧). قوله تعالى ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى﴾ يعني أهل المدينة ونصارى أهل نجران ﴿حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ أي تصلي إلى قبلتهم ﴿قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهَدَىٰ﴾ يعني إن قبله الله هي الكعبة ﴿وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي صليت إلى قبلتهم ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [أي من بعد ما ظهر لك: أن القبلة هي الكعبة] ^(٨) ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ ينفك ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي مانعاً يمنعك. ويقال: معناه (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم). أي حتى تدخل في دينهم، وذلك أن الكفار كانوا يطلبون الصلح، [وكان يرى] ^(٩) أنهم يسلمون فأخبره ^(١٠) الله تعالى. [أنهم لا يسلمون، ولن يرضوا] ^(١١) عنه حتى يتبع ملتهم، فنهاه الله عن الركون إلى شيء مما يدعونه إليه. فقال تعالى (قل إن هدى الله هو الهدى) يعني دين الله هو دين الإسلام. (ولئن اتبعت أهواءهم) وهذا الخطاب للنبي - صلى الله عليه وسلم - والمراد منه أمته. أي لئن اتبعت دينهم بعد ما جاءك من

(١) ما بين المعقوفين من أ.

(٢) في ظ [الحق ويقال أي بالدعوة إلى الحق].

(٣) زاد ابن حيان في البحر وقرأ أبي «وما تسأل» وقرأ ابن مسعود: «ولن تسأل» وهذا كله خبر، وقراءة الجمهور وقراءة أبي يحتمل أن تكون الجملة مستأنفة وهو الأظهر، ويحتمل أن تكون في موضع الحال. وأما قراءة ابن مسعود فيتعين فيها الاستئناف. البحر المحيط ٣٦٧/١، وانظر حرز الأمانى بشرح أبي شامة.

(٤) في ظ [عما].

(٥) موسى بن عبيدة بن نسيط الربذي ضعيف. قال أحمد: منكر الحديث. تهذيب التهذيب ٣٥٦/١٠، الجرح والتعديل ١٥١/٨.

(٦) محمد بن كعب بن سليم القرظي، من التابعين الثقات، روى الحديث مرسلًا كان عالمًا بتأويل القرآن. التهذيب ٤٢٠/٩.

(٧) أخرجه الطبري في التفسير ٥٥٨/١ (١٨٧٥)، (١٨٧٦)، (١٨٧٧). ومحمد بن كعب بن سليم القرظي تابعي فهو مرسل والمرسل لا تقوم به حجة، ثم إن موسى بن عبيدة بن نسيط الربذي ضعيف جداً كما في التاريخ الكبير للبخاري ١/٤ (٢٩١) والصغير

(١٧٢) والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ١/٤ (١٥١) وقال البخاري: منكر الحديث وقال ابن معين: لا يحتج بحديثه، وقال أبو

حاتم: منكر الحديث.

(٨) في ظ [يعني ما ظهر أن الكعبة هي القبلة].

(٩) في أ [وكانوا يرون].

(١٠) في أ [فأعلمه].

(١١) في ظ [أنهم لن يرضوا].

العلم، أي بعد ما ظهر أن دين الإسلام هو الحق (مالك من الله) أي من عذاب الله (من ولي) ينفعك (ولا نصير) أي مانع يمنعك منه.

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾

قوله تعالى ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ يعني مؤمني أهل الكتاب يصفونه في كتبهم حق صفته لمن سألهم. قال مجاهد: يتبعونه حق اتباعه. وقال قتادة: ذكر لنا أن ابن مسعود قال: والله إن حق تلاوته أن يحل حلاله ويحرم حرامه، ويقرأ حق قراءته كما أنزل الله تعالى: ولا يحرف عن مواضعه. ويقال: يقرأونه حق قراءته. ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ويصدقونه ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ﴾ أي بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ويقال: بالقرآن ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وهو كعب الاشراف وأصحابه ويقال نزلت هذه الآية في مؤمني أهل الكتاب وهم اثنان وثلاثون رجلاً قدموا مع جعفر بن أبي طالب^(١) من أرض الحبشة وكانوا يتبعون القرآن حق اتباعه.

يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ. وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ قد ذكرناها من قبل.

وَإِذْ أَبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ قرأ ابن عامر (إبراهيم)^(٢) وروى عنه أنه قرأ (أبرهم)^(٣) وهي لغة بعض العرب وقرأ غيره (إبراهيم) في جميع القرآن [وهي اللغة المعروفة]^(٤) وهو اسم أعجمي ولهذا لا ينصرف. وروى عن ابن عباس أنه قال: أمر الله تعالى إبراهيم بعشر خصال من السنن خمس في الرأس، وخمس في الجسد^(٥)، وروى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - نحو هذا^(٦). حدثنا أبي قال: حدثنا محمد بن الفضل

(١) جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم ذو الجناحين، الصحابي الجليل ابن عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، استشهد في غزوة مؤتة سنة ثمان من الهجرة. التقريب ١٣١/١.

(٢) في ظ [إبراهيم].

(٣) في ظ [إبراهيم]. لم تصح هذه القراءة عن ابن عامر، ولم تتواتر عنه، وإنما ورد عنه قراءة بلفظ «إبراهيم». . . راجع الحرز بشرح الفاصح وبشرح أبي شامة، والإتحاف، وحجة القراءات لابن زنجلة ص ١١٣.

(٤) ساقطة من ظ.

(٥) في أ [أبيكم]. أخرجه ابن جرير بإسناد صحيح ٩/٣ (١٩١٠) وأخرجه الحاكم في المستدرک ٢/٢٦٦ وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(٦) انظر صحيح مسلم ١/٢٢٢٣ في كتاب الطهارة باب خصال الفطرة (٢٦١/٥٦) وانظر شرحه للإمام النووي رحمه الله (٣/١٥٠).

البلخي قال: حدثنا أبو بشر محمود بن مهدي، قال: حدثنا يزيد بن هارون عن الحجاج بن أرطاة^(١) عن عطاء قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: عشر مما علمهن وعمل بهن أبوكم إبراهيم عليه السلام: خمس في الرأس، وخمس في الجسد، فأما التي في الرأس: فالسواك، والمضمضة والاستنشاق وقص الشارب وإعفاء اللحية، وأما التي في الجسد فالتحтан والاستحداد والاستنجاء ونتف الإبط، وقص الأظفار^(٢)، ويقال: وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات أي اختبره والاختبار من الله تعالى أن يظهر حاله ليستوجب الثواب^(٣) لأن الله تعالى لا يعطي الثواب والعقاب [بما يعلم]^(٤) ما لم يظهر منه ما يستوجب الثواب^(٥) والعقاب، كما علم من إبليس [الكفر]^(٦)، ولم يلعبه ما لم يختبره ويظهر منه ما يستوجب به اللعنة والعقوبة - وقوله عز وجل ﴿فَأْتَمَّهُنَّ﴾ يعني عمل بهن. ويقال: كان إبراهيم أفضل الناس في زمانه وكرم على الله تعالى فابتلاه الله عز وجل بخصال لم يتبل بها غيره، فكان من الابتلاء أن أمه ولدته في غار. ومن الابتلاء حيث^(٧) نظر إلى الكوكب فقال: هذا ربي. وروى الحسن أنه قال: كان الابتلاء بثلاثة أشياء: أولها: الابتلاء بالكوكب والشمس والقمر، والثاني: بالنار، والثالث: بأمر سارة. ويقال: كل من كان أكرم على الله كان [ابتلاؤه أشد]^(٨)، لكي يتبين فضله ويستوجب الثواب. كما روي عن لقمان الحكيم أنه قال لابنه: يا بني الذهب والفضة يختبران بالنار، والمؤمن يختبر بالبلايا ﴿فَأْتَمَّهُنَّ﴾ أي عمل بهن. ويقال: ﴿فَأْتَمَّهُنَّ﴾ أي وفي بهن، فلما وفى الأمر جعله الله تعالى إماماً للناس [ليقتدوا]^(٩) به. وفي هذا دليل: أن الإنسان لا يبلغ درجة الأخيار إلا بالتعب وجهد النفس، فلما جعله الله تعالى إماماً ﴿قَالَ﴾ له ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ والإمام الذي يؤتم به فأعجبه ذلك، وتمنى أن يكون ذلك لذريته بعده مثل ذلك، فـ ﴿قَالَ﴾: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ يعني اجعلهم أئمة يقتدى بهم ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ يعني الكافرين، يعني لا يصلح أن يكون الكافر إماماً للناس. ويقال: لا تصيب رحمتي الكافرين. فالله تعالى أخبره أنه يكون في ذريته كفار وأخبره أنه لا ينال عهده من كان كافراً. قرأ حمزة وعاصم في رواية حفص: (لا ينال عهدي الظالمين) [أي الكافرين يعني لا يصلح أن يكون الكافر إماماً للناس ويقال لا تصيب الرحمة الكافر فالله تعالى أخبره أنه يكون في ذنبه وأخبره أنه لا ينال عهده من كفر وكان كافراً قرأ حمزة وعاصم في رواية حفص (لا ينال عهدي)^(١٠) بسكون الياء. وقرأ الباقون بنصب الياء [عهدي الظالمين]^(١١) وهما لغتان ومعناها واحد.

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ يقول: وضعنا البيت، يعني الكعبة معاداً لهم يعودون إليه مرة بعد مرة. وقال قتادة: مجمعا للناس يثوبون إليه من كل جهة وفي كل سنة فلا يقضون منها وطراً. (وأمناً) أي جعلناه

(١) الحجاج بن أرطاة بن ثور بن هيرة بن شراحيل النخعي، كان حافظاً مدلساً ومعجباً بنفسه لا يحتج به. تهذيب التهذيب ١٩٦/٢.
(٢) أخرجه بالفاظ متقاربة مسلم في الحديث السابق والنسائي ١٧/١، ١٢٦/٨ - ١٢٨، والترمذي رقم (٢٧٥٧) وابن ماجه ١٠٧/١ في الطهارة (٢٩٣) وأحمد في المسند (١٣٧) والبيهقي في السنن ٣٦/١، ٥٢، ٥٣، ٣٠٠ وأبو عوانة ١٩١/١ وابن أبي شيبه ١٩٥/١ والدارقطني في السنن ٩٥/١، وذكر السيوطي في الدر المنثور ١١٢/١ وابن كثير في التفسير ٢٣٨/١.

(٥) في ط [أو]

(٤) سقط من ط.

(٣) في ط [أو العقاب].

(٨) في أ [ابتلاء الله أشد].

(٧) في أ [أنه].

(٦) في ط [الحسد].

(١١) ما بين المعقوفين من ط.

(١٠) ما بين المعقوفين من أ.

(٩) في ط [ليقتدى].

أَمَّا لِمَنِ التَّجَا إِلَيْهِ. [يعني من وجب عليه القصاص] (١). ولهذا قالوا لو أن رجلاً وجب عليه القصاص فدخل الحرم لا يقتص منه في الحرم. وهكذا روي عن ابن عمر أنه قال: لو وجدت قاتل عمر في الحرم ما هيجته أي ما أزعجته ولكن يمنع منه المنافع حتى يضطر ويخرج فيقتص منه. ويقال: آمناً لغير الممتحنين، وهي الصيدود إذا دخلت الحرم أمنت. ويقال: آمناً من الجذام، ثم قال تعالى ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ قرأ نافع وابن عامر (واتخذوا) بفتح الخاء على وجه الخبر معناه: جعلنا البيت مثابة للناس فاتخذوه مصلى. وقرأ الباقر بكسر الخاء على معنى الأمر (٢) قال: حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا الديلمي قال: حدثنا أبو عبيد الله قال: حدثنا سفيان عن زكريا بن أبي زائدة (٣) عن حدثه عن عمر بن الخطاب قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يطوف بالبيت يوم الفتح، فلما فرغ من طوافه أتى المقام فقال: هذا مقام أبينا إبراهيم، فقال عمر: أفلا تتخذوه مصلى يا رسول الله، فأنزل الله تعالى (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) ويقال: المسجد الحرام كله مقام إبراهيم - عليه السلام - هكذا روي عن مجاهد وعطاء. وقوله تعالى ﴿وَعَهْدُنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ أي أمرنا إبراهيم وإسماعيل ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي﴾ أي مسجدي من الأوثان، ويقال: من جميع النجاسات ثم قال ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ أي [طهرا المسجد من الأوثان والنجاسات] (٤) لأجل الطائفين الذين يطوفون بالبيت وهم الغرباء ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾ وهم أهل الحرم المقيمون بمكة من أهله وغيرهم ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أي أهل الصلاة من كل جهة من الآفاق. قرأ نافع وعاصم في رواية حفص (طهرا بيتي) بنصب الياء وقرأ الباقر بسكون الياء. (٥)

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾

قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ يعني الحرم ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ فاستجاب الله تعالى دعاءه فتحمل الثمار إلى مكة من كل جهة، فيوجد فيها في كل وقت من [كل نوع] (٦) واشتراط إبراهيم في دعائه فقال ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وإنما اشترط هذا الشرط، لأنه قد سأل ربه الإمامة لذريته، فلم يستجب له في الظالمين، فخشي إبراهيم أن يكون أمر الرزق هكذا، فسأل الرزق للمؤمنين خاصة، فأخبره الله تعالى: أنه يرزق الكافر والمؤمن، وأن أمر الرزق ليس كأمر الإمامة، قالوا: لأن الإمامة فضل، والرزق عدل، فالله تعالى يعطي [بفضله] (٧) من يشاء [من عباده] (٨) من كان أهلاً لذلك وعد له لجميع الناس لأنهم عباده، وإن كانوا كفاراً. فذلك قوله تعالى ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾ قرأ ابن عامر ومن تابعه [من أهل الشام] (٩) (فأمتعته) بالتخفيف من أمتع وقرأ الباقر بالتشديد (١٠) من تمتع. يعني سارقه في الدنيا يسيراً ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ﴾ أي مصيره، ويقال: ملجأه ﴿إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ صاروا إليه.

(١) ما بين المعقوفين من أ.

(٢) واختلف من المواجه بهذا الأمر: فقيل: إبراهيم وذريته، أي وقال الله لإبراهيم وذريته اتخذوا. وقيل: النبي - صلى الله عليه وسلم - وأمه، أي وقلنا اتخذوا، ويؤيده ما روي عن عمر أنه قال: وافقت ربي في ثلاث فذكر منها وقت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى. البحر المحيط ١/ ٣٨٠ - ٣٨١.

(٣) زكريا بن أبي زائدة خالد بن ميمون بن فيروز، ثقة كثير الحديث، كان قاضياً بالكوفة. التهذيب ٣/ ٣٢٩.

(٤) ما بين المعقوفين من أ. (٥) انظر باب ياءات الإضافة من الشاطبية. (٦) في ظ [أنواع الثمار].

(٧) في ظ [فضله]. (٨) سقط في ظ. (٩) ما بين المعقوفين من أ. (١٠) راجع: البحر المحيط ١/ ٣٨٤.

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾
وَجَعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرْنَا مَنَاسِكَنَا وَتَبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ
الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ يعني يبنى إبراهيم القواعد، يعني أساس البيت، أي الكعبة. والقواعد جماعة واحداها قاعدة ﴿وَإِسْمَاعِيلُ﴾ يعني إسماعيل يعينه. قال مقاتل: وفي الآية تقديم وتأخير، معناه وإذا يرفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت. ويقال: إن إبراهيم كان يبنى البيت وإسماعيل يعينه، والملائكة يناولون الحجر من إسماعيل، وكانوا ينقلون الحجر من خمسة أجبل: طور سيناء وطور زيتاء، والجودي، ولبنان، وحراء. فلما فرغا من البناء، قالا ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ [يعني أعمالنا] ^(١) ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي السميع لدعائنا بنيائنا ^(٢). وفي الآية دليل: أن الإنسان إذا عمل خيراً ينبغي أن يدعو الله بالقبول ويقال: ينبغي أن يكون خوف الإنسان على قبول العمل بعد الفراغ أشد من شغله بالعمل لأن الله تعالى قال (إنما يتقبل الله من المتقين) وروي في الخبر أن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لما فرغا من البناء جثيا على الركب وتضرعا وسألا القبول فقال جبريل لإبراهيم: قد أجيب لك، فاسأل شيئاً آخر فقالا ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ﴾ أي مخلصين لك. ويقال: واجعلنا مشبتهن على الإسلام ويقال مطيعين لك ويقال أمتنا على الإسلام ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ أي اجعل بعض ذريتنا من يخلص لك، ويثبت على الإسلام ثم قال ﴿وَأَرْنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أي علمنا أمور مناسكنا. وقال القتيبي: الرؤية المعاينة كقوله عز وجل: (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة) وقوله (وإذا رأيت ثم رأيت) ويقال تذكر الرؤية ويراد بها العلم. كقوله تعالى (أولم ير الذين كفروا) وكقوله (أرنا مناسكنا): أي [عملنا] ^(٣). وكقوله (لتحكم بين الناس بما أراك الله). قرأ ابن كثير ومن تابعه من أهل مكة (وأرنا): بجزم الراء في جميع القرآن، والباقون بكسر الراء، وهما لغتان والكسر أظهر وأفصح ^(٤). وقال ابن عباس في رواية أبي صالح (ربنا واجعلنا مسلمين لك) أي مطيعين وموحدين (ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) ^(٥) أي جماعة موحدة مطيعة لك. ويقال: أشكل عليهما موضع البيت، فبعث الله تعالى سحابة فقالت له: ابن بحيالي، فبنى إبراهيم وإسماعيل البيت بحيال السحابة. ثم قال تعالى [وأرنا مناسكنا] ^(٦) ﴿وَتَبَّ عَلَيْنَا﴾ أي تجاوز عنا الزلة ﴿إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ بعبادك. ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ قال مقاتل: لأن إبراهيم علم أن في ذريته من يكون كفاراً، فسأل الله تعالى أن يبعث فيهم رسولاً فقال (ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك) [يعني القرآن] ^(٧) ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي القرآن ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي مواظ القرآن من الحلال والحرام. ويقال: علم التفسير. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي يطهرهم من الكفر والشرك. ويقال: يأمرهم بالزكاة ليطهر أموالهم. قال مقاتل: استجاب الله دعاءه في سورة الجمعة. وهو قوله تعالى (هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) وروي عن

(١) ما بين المعقوفين من ظ.

(٢) أخرجه ابن جرير بنحوه ٥٨/١ (٢٠٣٧)، (٢٠٣٩) والسيوطي في الدر المنثور ١/١٢٧.

(٣) في ظ [أعملنا]. (٤) راجع: البحر المحيط ١/٣٩٠ - ٣٩١.

(٥) سقط في ظ. (٦) سقط في ظ. (٧) من ظ.

رسول الله - صلى الله عليه وسلم^(١) - أنه قال: أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى - عليهما السلام - . وهي قوله (ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) ثم قال تعالى ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي المنيع الذي لا يغلبه شيء ويقال: العزيز الذي لا يعجزه شيء عما أراد. ويقال: العزيز بالنقمة، ينتقم ممن عصاه متى شاء، الحكيم في أمره الذي يكون عمله موافقاً للعلم.

وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾

قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ يقول: عن سته ودينه وهو الإسلام. ويقال لفظه^(٢) لفظ الاستفهام، ومعناه التقرير والتوبيخ، (ومن) ها هنا بمعنى (ما) فكأنه يقول: وما يرغب عن دين إبراهيم ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ قال أبو عبيدة: إلا من أهلك نفسه. وقال الأخفش^(٣): معناه إلا من سفه من نفسه. وهذا كما قال في آية أخرى (ولا تعزموا عقدة النكاح) أي على عقدة النكاح. ويقال: إلا من جهل أمر نفسه، فلا يتفكر فيه كما قال في آية أخرى (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) قال الكلبي ومن يرغب عن دين إبراهيم الإسلام والحج والطواف إلا من خسر نفسه. ثم: ﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾ يقول: اخترناه في الدنيا للنبوّة والرسالة والإسلام والخلة ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي في الجنة. ويقال: مع الصالحين في الجنة وهو أفضل الصالحين ما خلا محمداً - صلى الله عليه وسلم - .

إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَئَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ﴾ قال ابن عباس: يعني أخلص. ويقال: معناه قل لا اله الا الله. ويقال: معناه استقم على ما أنت عليه. ويقال: حين خرج من السرب^(٤)، نظر الى الكوكب والقمر والشمس فابتلي بذلك فألهمه الله تعالى الاخلاص فقال (اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض) الآية. فهذا معنى قوله (اسلم) أي أخلص دينك لله فـ ﴿قَالَ﴾ إبراهيم - عليه السلام - ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي أخلصت ديني لرب العالمين ويقال: فوض امرك الى الله فقال فوضت أمري الى الله (ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب) أي بشهادة أن لا اله الا الله. قرأ نافع وابن عامر (وأوصى) وقرأ الباقون (ووصى) وهو أبلغ من أوصى لأنه لا يكون إلا لمرات كثيرة^(٥).

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک ٨٠٠/١، والطبري ٨٢/٣، والسيوطي في الدر المنثور ١٣٩/١، ٢٠٧/٥ والبغوي في المعالم ١١١/١ وابن سعد في الطبقات ١/١ (١٩٦) والقرطبي في التفسير ١٣١/٢ والحديث في كثر العمال (٣١٨٣٣)، (٣١٨٣٤)، (٣١٨٣٥)، (٣١٨٩) والبيهقي في دلائل النبوة ٦٩/١.

(٢) في ظ [من]. (٣) في ظ [معناه إلا من سفه نفسه].

(٤) السَّرْب - بفتحين - بيت في الأرض، وهو حجر الثعلب والأسد والضبع والذئب. الصحاح (سرب). وقال ابن منظور: هو حفير أو بيت تحت الأرض (اللسان: سرب).

(٥) انظر/ إبراز المعاني لأبي شامة، العقيلة للإمام الشاطبي. ذيل مورد الظمان لابن عاشر، وشرح المورد للمارغني التونسي.

وقوله [بِهَا يَرْجَعُ] ^(١) الى الملة، والملة هي السنة والمذهب ^(٢). ويقال: انه جمع بنيه عند موته لأنه خشي عليهم كيد ابليس فجمعهم وأوصاهم بأن يثبتوا على الاسلام. قال مقاتل: (وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ) الأربعة: اسماعيل واسحاق ومدين ومداين، ثم أوصى بها يعقوب بنيه، وهم اثني عشر ابناً وذلك حين دخل مصر فرآهم يعبدون الاصنام، فأوصى بنيه بأن يثبتوا على الاسلام وكان اثنا عشر ابناً: روبيل، وشمعون، يهوذا، ولاوى، ونفتال، وريالون، ويشجر، ودان، [واشترى فاحان، وحان] ^(٣)، ويوسف، وبنيامين. قال الله تعالى ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾ أي اختار لكم دين الاسلام ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ يعني اثبتوا على الاسلام وكونوا بحال لو أدرككم الموت يدرككم على الاسلام، وأنتم مخلصون بالتوحيد. فقالت اليهود للنبي - صلى الله عليه وسلم -: ألسنت تعلم أن يعقوب - عليه السلام - يوم مات أوصى بنيه بدين اليهودية؟

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾

فأنزل الله تعالى ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ يقول: أكنتم حضوراً ﴿إِذْ﴾ حين ^(٤) ﴿حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ معناه إنكم تدعون ذلك كأنكم كنتم حضوراً في ذلك الوقت يعني أنكم تقولون ما لا علم لكم بذلك، والله تعالى يخبر ويبين أن وصيته كانت بخلاف ما قالت اليهود وإنما لم ينصرف (شهداء) لمكان ألف التانيث في آخره ^(٥)، وإذا دخلت ألف التانيث أو هاء التانيث في آخر الكلام فانه لا ينصرف. ثم قال تعالى ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ أي من تعبدون بعد موتي. ﴿قَالُوا: نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ﴾ روي عن الحسن البصري ^(٦) أنه قرأ (قالوا نعبد الهك واله أبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق) واسماعيل كان عم يعقوب، ولكن العم بمنزلة الاب بدليل ما روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: عم الرجل صنو أبيه ^(٨). ثم قال: ﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أي نعبد الها واحداً ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أي مخلصون له بالتوحيد.

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أي جماعة قد مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أي جزاء ما عملت من خير أو شر ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ

(١) في أ [وقوله يرجع بها].

(٢) قال الجوهري وابن منظور: الملة: الشريعة والدين. وقال أبو إسحاق: الملة في اللغة: السنة والطريقة. (الصحاح واللسان: ملل).

(٣) في ظ [واشترى فاحان وجاذو]. (٤) من ظ. (٥) ودخلت ألف التانيث هنا لتانيث الجماعة كما تدخل الهاء.

(٦) وكذا ابن عباس وابن عمر والجحدري. البحر المحيط ٤٠٢/١.

(٧) قال أبو حيان: وهي قراءة الجمهور، وعليها فإبراهيم وما بعده بدل من آبائك أو عطف بيان، وإذا كان بدلاً فهو من البدل التفصيلي. البحر المحيط ٤٠٢/١.

(٨) أخرجه أحمد في المسند ١٦٥/٤ الترمذي ٦٥٢/٥ في المناقب باب مناقب العباس (٣٧٥٨) وقال: حسن صحيح من حديث عبد المطلب بن ربيعة. ومن حديث علي. أخرجه أحمد في المسند ٩٤/١ والترمذي في المصدر السابق (٣٧٦٠) وقال: حسن صحيح وعزه في الكنز لابن جرير وابن عساكر.

عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١﴾ وذلك أن اليهود والنصارى كانوا يقولون : نحن على دينهم فقال لهم (تلك أمة قد خلت) لا تقدرون عليهم فيشهدوا (لكم) ^(١)، فلهم ما عملوا وانما لكم ما تعملون، وانما ينظر اليوم الى أعمالكم، ولا ينفعكم من أعمالهم شيء.

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾

قوله تعالى ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ وذلك أن يهود المدينة ونصارى أهل نجران اختصموا فقال كل فريق : ديننا أفضل فسالوا عن ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا أينما أفضل؟ فقال لهم : كلكم على الباطل، فأعرضوا عنه [فتزلت هذه الآية] ^(٢) (وقالوا كونوا هودا أو نصارى) [يعني اليهود قالوا: كونوا على دين اليهود والنصارى قالوا: كونوا على دين النصرانية] ^(٣) تهتدوا من الضلالة. قال الله تعالى لمحمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿قُلْ لَهُمْ (بَلْ) مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وانما نصب الملة على معنى : بل نتبع ملة ابراهيم حنيفا ^(٤) ويقال : معناه واتبعوا ملة ابراهيم وقال مقاتل : بل الدين ملة ابراهيم حنيفا أي مخلصا. وقال القتبي : حنيفا أي مستقيما. ويقال للأعرج حنيف [نظراً الى السلامة] ^(٥)، كما يقال للديغ : سليم، وللجبانة مفازة، وان كانت مهلكة. وقال الزجاج ^(٦) : أصل [الحنف] ^(٧) اذا كان أصابع الرجل مقبلاً بعضها الى بعض اقبالا لا تنصرف عن ذلك أبداً، فكذا كان ابراهيم عليه السلام مقبلاً على دين الاسلام، [مائلا عن الاديان كلها] (وما كان من المشركين) ولكن كان على دين الاسلام ^(٨). فقال أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - كيف نقول حتى لا نكذب أحداً من الانبياء.

قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾

فعلمهم الله عز وجل بقوله : ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ أي صدقنا بأنه واحد لا شريك له ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ يقول: صدقنا بما أنزل علينا، أي بما أنزل على نبيينا من القرآن ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ يقول صدقنا بما أنزل على ابراهيم من الصحف. ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ وهم أولاد يعقوب، كان له اثنا عشر ابناً، فصار أولاد كل واحد منهم سبطاً، والسبط بلغتهم بمنزلة القبيلة للعرب، وانما أنزل على أنبيائهم وكانوا

(١) سقط في ظ. (٢) في أ [فتزلت قوله تعالى]. (٣) ما بين المعقوفين من أ.

(٤) قال الزجاج / نصب على أنه خبر كان، أي : بل تكون ملة ابراهيم، وقال أبو عبيد : منصوب على الاعراء أي الزموا ملة ابراهيم أو نصب على نزع الخافض أي مقتدي ملة، أي بملة. وهو يحتمل أن يكون خطاباً للكفار فيكون المضمر اتبعوا أو كونوا، ويحتمل أن يكون من كلام المؤمنين فيقدر بـ «متبع» أو تكون، نفتدي. البحر المحيط ٤٠٦/١.

(٥) في ظ [تطير إلى السلامة]. (٦) معاني القرآن و[عرابه ١٩٥/١]. (٧) في ظ [الخفيف].

(٨)، ما بين المعقوفين من أ.

يعملون به، فأضاف اليهم، كما أنه أنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - فأضاف الى أمته [فقال (وَمَا أَنزَلَ إِلَيْنَا) فكذلك الاسباط أنزل على أنبيائهم فأضاف اليهم لأنهم كانوا يعملون به^(١)]. ثم قال تعالى ﴿وَمَا أَوْتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ يعني التوراة والإنجيل ﴿وَمَا أَوْتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ يعني وما أنزل على الأنبياء من الله تعالى وقد آتانا بجميع الأنبياء وبجميع الكتب ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أي من رسله كما فرقت اليهود والنصارى ﴿وَنَحْنُ مُسْلِمُونَ﴾ أي مخلصون له بالتوحيد. ثم قال تعالى للمؤمنين ﴿فَإِنَّمَا آمَنُوا﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ﴾ يعني به يا أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿فَقَدْ آمَنُوا﴾ من الضلالة ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن الإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وبجميع الأنبياء عليهم السلام ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ يقول لهم في خلاف من الدين. ويقال: في ضلال. [والشقاق في اللغة: له ثلاثة معان^(٢)]: (٣) أحدها: العداوة مثل قوله تعالى (ولا يجرمنكم شقاقى) والثاني: الخلاف مثل قوله (وان خفتم شقاق بينهما) والثالث: الضلالة مثل قوله (وان الظالمين لفي شقاق بعيد) ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ أي يدفع الله عنكم مؤنتهم. وقال الزجاج^(٤): هذا ضمان من الله تعالى: النصر لنيبه، أنه سيكفيه إياهم باظهاره على كل دين سواه، كقوله تعالى (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي) يعني أن عاقبة الأمر كانت لهم. قال مقاتل: يعني قتل بني قريظة واجلاء بني النضير. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ بقولهم للمؤمنين حيث قالوا: كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا، العليم بعقوبتهم. ثم فضل دين محمد - صلى الله عليه وسلم - على كل دين فقال تعالى:

صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ أي: اتبعوا دين الله والزموه لا دين اليهود والنصارى ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ يعني، أي دين أحسن من دين الله تعالى، وهو دين الاسلام ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ أي موحدون مقرون، وذلك^(٥) أن النصارى اذا ولد لأحدهم ولد غمروه في اليوم السابع في ماء لهم، ليظهره بذلك ويقولون: هذا ظهور مكان الختان، وهم صنف من النصارى يقال لهم: المعمودية. قال الله تعالى (ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون) أي مطيعون، ولنا الختان ظهور طهر الله به ابراهيم عليه السلام وروى سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ختن إبراهيم [عليه السلام نفسه بالقدم]^(٦) وهو ابن مائة وعشرين سنة [والقدم موضع بالشام]^(٧) ثم عاش بعد ذلك ثمانين سنة^(٨). وقال القتيبي: هذا من الاستعارة حيث سمي الختان صبغة لأنهم كانوا يصبغون أولادهم في ماء. قال الله تعالى: صبغة الله لا صبغة النصارى يعني اتبعوا دين الله والزموا [دين الله]^(٩)

(١) ما بين المعقوفين من أ.

(٢) ورد في اللسان: للشقاق معنيان هما: العداوة والخلاف. (اللسان: شقق).

(٣) في أ [والشقاق له ثلاث معان في اللغة]. (٤) معاني القرآن وإعرابه ١٩٥/١.

(٥) راجع: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ٤٠٥ نشر الانجلو المصرية.

(٦) في ظ [بالقدم]. (٧) سقط في ظ.

(٨) أخرجه البخاري ٣٨٨/٦ في كتاب الأنبياء باب قول الله تعالى ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ (٣٣٥٦) وفي ٨٨/١١ في الاستئذان باب الختان بعد الكبر ونتف الابط (٦٢٩٨) ومسلم ١٨٣٩/٤ في الفضائل باب من فضائل إبراهيم الخليل (١٥١/ ٢٣٧٠) ولفظ المصنف رحمه الله عند البخاري في الأدب المفرد (١٢٥٠) وذكره المنتقى الهندي في الكنز رقم (٣٢٢٩٣).

(٩) من ظ.

قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾

ثم قال الله تعالى ﴿قُلْ﴾ يا محمد ليهود أهل المدينة والنصارى أهل نجران ﴿أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾ يعني أخاصموننا في دين الله ونحن نوحده الله وقال الزجاج^(١): نزلت [هذه الآية]^(٢) في اليهود [والذين]^(٣) كانوا^(٤) يظاهرون المشركين فقال: أنتم تقولون: أنكم توحدون الله ونحن نوحده الله تعالى، فلم تظاهروا علينا من لا يوحده الله تعالى ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا﴾ أي ثواب أعمالنا ﴿وَلَكُمْ﴾ ثواب ﴿أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ أي مقرون له بالوحدانية مخلصون له بالعبادة.

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾

﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ قرأ الكسائي وعاصم وحزمة في رواية حفص^(٥) (أم تقولون) بالتاء على معنى المخاطبة وقرأ الباقون: بالياء (أم يقولون) [على معنى المغاية]^(٦). ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ يعني إن تعلقتهم أيضا بدين الأنبياء فنحن على دينهم، وقد آمننا بجميع الأنبياء، فإن ادعيتهم أن الأنبياء كانوا على دين اليهودية أو النصرانية [وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودًا أو نصارى]^(٧) ﴿قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ فالله تعالى أخبر أنهم كانوا على دين الاسلام، وقد بين ذلك في كتبهم حيث قال ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ لأن الله تعالى قد أخذ عليهم الميثاق بأن يبينوه فكتموه قال الله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي لا يخفى على الله من عملهم شيء فيجازيهم بذلك. ويقال: هذ القول وعيد للظالم وتعزية للمظلوم.

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

ثم قال تعالى ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقد ذكرنا تفسيرها.

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِينَ كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾

قوله ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ يعني الجهال وهم اليهود والمنافقون. ويقال: هم أهل مكة ﴿مَا وَلَّيْنَاهُمْ﴾ أي يقولوا: ما الذي صرفهم ﴿عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّذِينَ كَانُوا عَلَيْهَا﴾ يعني النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك أن الأنصار قبل قدوم النبي - صلى الله عليه وسلم - بستان كانوا يصلون الى بيت المقدس، فلما قدم النبي - صلى الله عليه وسلم -

(٣) في ظ [الذين].

(٢) من ظ.

(١) معاني القرآن وإعرابه ١٩٨/١.

(٦) ساقطة من ظ.

(٥) وكذا ابن عامر. انظر/ البحر المحيط ٤١٤/١.

(٤) سقط من ظ.

(٧) في أ [النصرانية وإسحاق ويعقوب والإسباط كانوا هودًا أو نصارى].

المدينة صلى الى بيت المقدس ثمانية عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، [ثم أمر بالتحويل إلى مكة]^(١). فقال أهل مكة^(٢): رجع محمد الى قبلتنا، فعن قريب يرجع إلى ديننا فأنزل الله تعالى ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ يقول: إن الصلاة الى بيت المقدس والصلاة الى الكعبة لله اذا كان بأمر الله ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يرشد من يشاء الى قبله الكعبة ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي ديناً يرضاه. روي عن أبي العالية الرياحي أنه قال: رأيت مسجد صالح النبي - صلى الله عليه وسلم - وقبلته إلى الكعبة. قال: وكان موسى - عليه السلام - يصلي من الصخرة الى الكعبة، وهي قبله الأنبياء كلهم صلوات الله عليهم.

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عَمَلَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [والوسط^(٣) هو العدل]^(٤) كما قال تعالى في آية أخرى: (قال أوسطهم) أي أخيرهم وأعدلهم والعرب تقول^(٥): فلان من أوسط قومه أي خيارهم وأعدلهم ومنه قيل للنبي - صلى الله عليه وسلم - : هو أوسط قریش حسباً. أي جعلناكم عدلاً للخلائق. ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ يعني للنبيين ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ بالتصديق لكم وذلك أن الله تعالى إذا جمع الخلق يوم القيامة فيسأل الأنبياء - عليهم السلام - عن تبليغ الرسالة كقوله تعالى: (ليسأل الصادقين عن صدقهم) فيقولون: قد بلغنا الرسالة فتتكر أممهم تبليغ رسالته فتشهد لهم أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - بتبليغ الرسالة فتظعن الأمم في شهادتهم [فيزكيهم]^(٦) النبي - صلى الله عليه وسلم - فذلك معنى^(٧) قوله تعالى: [(لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) ومعنى قوله^(٨) (وكذلك) أي وكما [هديناكم]^(٩) للإسلام [والقبلة]^(١٠) الكعبة فكذلك جعلناكم أمة عدلاً لتكونوا شهداء على الناس. وللآية تأويل آخر: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ أي عدلاً، لتكونوا شهداء على الناس). يقول: إنكم حجة على جميع من خلقنا ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - حجة عليكم. والشهادة في اللغة^(١١): هي البيان فلهذا يسمى الشاهد بينة لأنه بين حق المدعي يعني أنكم تبينون لمن بعدكم)، والنبي - صلى الله عليه وسلم - يبين لكم. قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ أي ما أمرناك بالصلاة إلى القبلة الأولى ويقال: ما حولنا القبلة التي كنت عليها ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ يقول: إلا لنختبر ونبين ﴿مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾ يطيع الرسول في تحويل القبلة ﴿مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ أي يرجع إلى دينه بعد تحويل الله القبلة ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ أي وقد كانت لثقيلة وهو صرف القبلة ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ أي حفظ الله قلوبهم على الإسلام وأكرمهم باتباع محمد - صلى الله عليه وسلم - في تحويل القبلة وهم أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - قالوا: يا رسول الله فإخواننا الذين ماتوا ما صنع الله بصلاتهم التي صلوا إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ

(١) في ظ [فلما صرفت قبلته إلى الكعبة]. (٢) في ظ [مكة إذا حركت القبلة إلى الكعبة].

(٣) من ظ. (٤) انظر المفردات في غريب القرآن (٨٢٠).

(٥) من ظ.

(٦) في ظ [فزكاهم].

(٧) راجع اللسان: وسط ٤٨٣٣ - ٤٨٣٤.

(٨) ما بين المعقوفين ساقط من ظ.

(٩) في ظ [هديتكم].

(١٠) في ظ [ولقبلة].

(١١) انظر: الصحاح ٤٩٤/٢ المغرب ٤٥٩/١، القاموس المحيط ٣١٦/١ والمصباح المنير ٤٩٧/١.

إِيمَانَكُمْ ﴿ يعني لم يبطل إيمانكم وإنما تحولت قبلتكم . ويقال : يعني صلاتهم إلى بيت المقدس التي صلوا إليها وماتوا عليها لأن اليهود قالوا : قد بطل إيمانكم حين تركتم القبلة ، فتزل (وما كان الله ليضيع إيمانكم) يعني يبطل إيمانكم . قال الضحاك : يعني لم يبطل تصديقكم بالقبلتين . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ يعني بالمؤمنين رحيم حين قبلها منهم ولم يضيع إيمانهم . قرأ حمزة والكسائي وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر : (لرؤف) بالهمزة على وزن (رعف) وقرأ الباقون : (رؤوف) على وزن فعول في جميع القرآن وهما لغتان ومعناها واحد^(١) .

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾ أي رفع بصرك إلى السماء وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال لجبريل : وددت لو أن الله تعالى صرفني عن قبلة اليهود إلى غيرها ، وإنما أراد الكعبة لأنها قبلة إبراهيم وقبلة الأنبياء - عليهم السلام - وذلك لأنها كانت ادعى للعرب إلى الإسلام فقال له جبريل : إنما أنا عبد مثلك لا أملك شيئاً (فاسأل)^(٢) ربك فجعل النبي - صلى الله عليه وسلم - يديم النظر إلى السماء فأنزل الله تعالى ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾ أي رفع بصرك إلى السماء ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ ﴾ أي فلنحولنك ولنوجهنك في الصلاة ﴿ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ يعني تهواها أي تميل نفسك إليها . فأمره الله تعالى بالتوجه فقال : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ يعني نحوه وتلقاه [وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ] أي إلى الكعبة^(٣) ثم قال : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ يعني أن القبلة إلى الكعبة هي الحق وهي قبلة إبراهيم - عليه السلام - ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾^(٤) يعني جحودهم القبلة إلى الكعبة فقالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم - : اثنا بعلامة على تصديق مقاتلك وهم اليهود والنصارى ، فتزل قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿ بِكُلِّ آيَةٍ ﴾ أي بكل علامة ﴿ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ أي ما صلوا إلى قبلتك ﴿ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ أي بمصل إلى قبلتهم ﴿ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ يقال : معناه كيف ترجوا أن يتبعوك ويصلوا إلى قبلتك وهم لا يتبعون بعضهم بعضاً . ثم قال : ﴿ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ هذا الخطاب للنبي - صلى الله عليه وسلم - والمراد [منه]^(٥) أمته يعني لئن صليت إلى قبلتهم أو اتبعت مذهبهم ﴿ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ أي البيان أن دين الإسلام هو الحق والكعبة هي القبلة ﴿ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أي الضارين بنفسك .

(١) راجع / شرح الحرز، إرشاد المريد للضباع، وكذا أبو شامة على الحرز والبحر المحيط ٤٢٦/١ .

(٢) في ظ [فسل] . (٣) ما بين المعقوفين من ظ .

(٤) اغفل المؤلف القراءة في «يعملون» وقد قرأها ابن عامر وحمزة والكسائي بالتاء على الخطاب، والباقون بالياء والظاهر أنه عائد على

(٥) في ظ [به] .

أهل الكتاب . البحر المحيط ٤٣٠/١ .

الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهم مؤمنو أهل الكتاب ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ يعني محمداً - صلى الله عليه وسلم - بنعته وصفته ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ بين الغلمان . قال عبد الله بن سلام والله إنني لأنا كنت أشد معرفة برسول الله - صلى الله عليه وسلم - مني بإبني فقال له عمر - رضي الله عنه - : وكيف ذلك يا ابن سلام؟ فقال : لأنني أشهد أنه رسول الله حقاً وصدقاً وقيناً وأنا لا أشهد بذلك على ابني لأنني لا أدري ما أحدثت النساء بعدي [فقال له : والله يا ابن سلام لقد صدقت أو أصبت] ^(١) ثم قال تعالى : ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ﴾ يعني طائفة من اليهود ﴿لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ في كتابهم ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنه نبي مرسل . قال مقاتل : إن اليهود قالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم - : لم تطرفون بالبيت المبني بالحجارة فقال لهم النبي - صلى الله عليه وسلم - إن الطواف بالبيت حق وإنه هو القبلة مكتوب في التوراة، فوجدوا ذلك فنزل قوله تعالى : (الذين آتيناهم الكتاب) يعني التوراة يعرفون أن البيت قبله كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ذلك في أمر القبلة . ثم قال تعالى : ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ يا محمد إن الكعبة قبله إبراهيم ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي من الشاكين . إنهم يعرفون أنها قبله إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -.

وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيًّا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾

﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ﴾ أي قبله والوجهة [والجهة] ^(٢) والوجه بمعنى واحد أي لكل ذي ملة قبله ﴿هُوَ مُوَلِّيًّا﴾ (أي مستقبلها) ^(٣) . [وقيل : لكل دين وملة قبله هو مولها] ^(٤) . قرأ ابن عامر ^(٥) : (هو مولاها) والباقون ^(٦) بالكسر أي هو بنفسه مولها [يعني الله مولاها] ^(٧) وقال مقاتل : لكل أهل ملة قبله هم مستقبلوها يريدون بها [وجه] ^(٨) الله تعالى : ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ أي قال لهذه الأمة استبقوا بالطاعات وهذا كما قال في آية أخرى : (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) أي جعلنا لكل قوم شرعة وسبيلاً فإذا أخذوا بالسنة والمنهاج [رضي عنهم] ^(٩) فأمر الله تعالى أهل هذه الشرائع أن يستبقوا الخيرات في الأعمال الصالحة فقال تعالى ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا﴾ في الأرض ﴿يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ يعني يقبض أرواحكم ويجمعكم يوم القيامة . وقال مجاهد (ولكل وجهة هو موليها) أمر كل قوم بأن يحولوا وجوههم إلى الكعبة . ويقال : ولكل أمة قبلكم قبله أمرتهم بأن يستقبلوها فاستبقوا الخيرات، يقول : بادروا الأمم [بالطاعات] ^(١٠) . ثم قال تعالى [(أينما تكونوا) (يأت بكم الله) يعني يقبض أرواحكم ويجمعكم يوم القيامة] ^(١١) ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي هو قادر على جمعكم يوم القيامة .

(١) ما بين المعقوفين من أ . (٢) ساقطة من ظ . (٣) سقط من ظ . (٤) ما بين المعقوفين ساقطة من ظ .

(٥) بفتح اللام أي هو موجهها، اسم مفعول، وهي قراءة ابن عباس . والتقدير : «ولكل ذي ملة قبله الله موليها وجهه»، ثم رد إلى ما لم يسم فاعله راجع / حجة القراءات لابن زنجلة ص ١١٧ ، والبحر المحيط ٤٣٧/١ ، والاتحاف .

(٦) حجة القراءات لابن زنجلة ص ١١٧ ، والبحر المحيط ٤٣٧/١ ، والاتحاف . (٧) ما بين المعقوفين من ظ .

(٨) سقط في ظ . (٩) من ظ . (١٠) في ظ [بالطاعة] . (١١) ما بين المعقوفين من ظ .

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَآتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ [يقول: حيث صليت] ^(١) ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ بالصلاة ﴿شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي نحوه وتلقاه، ﴿وَإِنَّ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني التوجه إلى الكعبة بالصلاة هو الحق من ربك ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي يجازيكم بأعمالكم ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ﴾ أي لكي لا يكون لليهود ﴿عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ لأنهم يعلمون أن الكعبة هي القبلة فلا حجة لهم عليكم ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أي إلا من ظلم باحتجاجه فيما وضع له كما يقول الرجل لصاحبه: مالك على الحجة إلا أن تظلمني. وقال بعضهم: (إلا الذين ظلموا) يعني ولا الذين ظلموا لا حجة لهم عليكم وذكر عن أبي عبيدة أنه قال: (إلا الذين ظلموا) أي ولا الذين ظلموا فهذا موضع واو العطف فكأنه قال: ليس للناس عليكم حجة ولا الذين ظلموا منهم أي لا حجة لهم عليكم ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ أي بانصرفكم إلى الكعبة ﴿وَاخْشَوْنِي﴾ في تركها قرأ نافع في رواية ورش: (ليلا) بغير همز ^(٢). والباقون: (لثلا) بالهمز لأن أصله (لأن لا) وإنما أسقط نافع الهمزة للتخفيف ثم قال تعالى: ﴿وَلَآتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ بتحويل القبلة ويارسال الرسول ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي لكي تهتدوا من الضلالة.

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾

قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ﴾ يعني محمداً - صلى الله عليه وسلم - ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا﴾ أي القرآن وقوله (منكم) أي من العرب. ويقال: آدمي مثلكم لأنه لو كان من الملائكة لا يستطيعون النظر إليه فأرسل آدمياً مثلكم يتلو عليكم القرآن ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ قال الكلبي: ويصلحكم بالزكاة. وقال مقاتل: يطهركم من الشرك والكفر ^(٣). وقال الزجاج ^(٤): خاطب به العرب أنه بعث رسولاً منكم وأنتم كنتم أهل الجاهلية لا تعلمون [الكتاب] ^(٥) والحكمة فكما أنعمت عليكم بالرسالة فأذكروني بالتوحيد. ويقال قوله: (كما) وصل بما قبله ومعناه ولآتم نعمتي عليكم كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم. ويقال: وصل بما بعده ومعناه كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم. ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ فاعرفوا هذه النعمة ^(٦).

(١) ما بين المعقوفين من ظ.

(٢) راجع البحر المحيط ١/ ٤٤٠، ٤٤١.

(٣) في ظ [والكفر ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون].

(٤) معاني القرآن وإعرابه ١/ ٢١٠.

(٥) سقط في ظ.

(٦) في ظ [النعمة واذكروني بالتوحيد].

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (١٥٢)

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ [بالتوحيد] ^(١) (أذكركم) [يقول: اذكروني بالطاعة أذكركم بالمغفرة] ^(٢) فحق على الله أن يذكر من ذكره فمن ذكره في طاعته ذكره الله تعالى بخير من ذكر الله من أهل المعصية في معصية ^(٣) ذكره الله باللعة وسوء الدار. ويقال: اذكروني في الرخاء أذكركم عند البلاء. ويقال: اذكروني في [الضيق] ^(٤) أذكركم بالمخرج. ويقال: اذكروني في الخلاء أذكركم في الملأ. ويقال: اذكروني في ملأ من الناس أذكركم في ملأ من الملائكة قال الفقيه: [حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف قال] ^(٥): حدثنا محمد بن الفضيل الضبي عن الحصين ^(٦) عن مجاهد ^(٧) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: ما اجتمع قوم يذكرون الله تعالى إلا ذكرهم الله في ملأ أعز منهم وأكرم وما تفرق قوم من مجلس لا يذكرون الله في مجلسهم إلا كانت حسرة عليهم يوم القيامة ^(٨) ويقال: اذكروني بالشكر، أذكركم بالزيادة. ويقال: اذكروني بالدعاء أذكركم بالإجابة ويقال: اذكروني في الدنيا بالإخلاص أذكركم في الآخرة بالخلاص. ثم قال تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [يعني اشكروا] ^(٩) نعمتي التي أرسلنا ^(١٠) فيكم رسولاً منكم يتلوا عليكم آياتنا ولا تبحدوا هذه النعمة. ويقال: النعمة في الحقيقة هي العلم وما سوى ذلك فهو تحويل من راحة إلى راحة وليس بنعمة لأن الطعام إذا أكله الإنسان فبعد ساعة يطلب منه الفرج والثوب الحسن ربما يمل منه إذا كان يؤذيه الحر أو البرد والعلم لا يمل منه صاحبه، بل ربما يطلب له الزيادة فأمر الله تعالى بشكر هذه النعمة التي بعث رسولاً ليعلمهم الكتاب والحكمة ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾

ثم قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يعني صدقوا بتوحيد الله تعالى وهذا نداء المدح وقد ذكرنا ^(١١) قبل هذا أن النداء على ست مراتب. وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: إذا سمعت الله يقول: (يا أيها الذين آمنوا) فارع له بسمك فإنه أمر تؤمر به أو نهى تنهى عنه ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ يقول استعينوا بالصبر على أداء الفرائض وبالصلاة خاصة. قال الزجاج ^(١٢): استعينوا بالصبر على ما أنتم عليه وإن أصابكم مكروه. وقال مجاهد: استعينوا بالصبر أي بالصوم والصلاة. وقال الضحاك: استعينوا بالصبر على صوم شهر رمضان وعلى الصلوات الخمس. ويقال: الصبر هو الصبر بعينه. ذكر في هذه الآية الطاعة الظاهرة والطاعة الباطنة فأمر بالصبر والصلاة لأنه ليس شيء من الطاعة الظاهرة أشد من الصلاة على البدن لأنه يجتمع فيها أنواع الطاعات: الخضوع والإقبال

(١) ساقطة من ظ. (٢) ما بين المعقوفين من ظ.

(٣) ما بين المعقوفين من ظ. (٤) في ظ [الضر]. (٥) ما بين المعقوفين من ظ.

(٦) الحصين بن عبد الرحمن الكوفي من كبار أصحاب الحديث، ثقة. تهذيب التهذيب ٣٨١/٢.

(٧) من ظ.

(٨) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٥١/١، وأخرجه أحمد بنحو ٩٤/٣، وعبد الرزاق في المصنف رقم (٢٠٥٧٧) وذكره البغوي

في شرح السنة ٦٥/٤ والبخاري في التاريخ ٣٨٣/١.

(٩) من ظ. (١٠) في أ [أرسلت]. (١١) في ظ [ذكرنا أمر النداء]. (١٢) معاني القرآن وإعرابه ٢١١/١.

والسكون والتسبيح والقراءة فإذا تيسر عليه الصلاة تيسر عليه ما سوى ذلك وليس شيء من الطاعات الباطنة أشد من الصبر على البدن فأمر الله بالصبر والصلاة لأنه حسن. ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ فالله تعالى مع كل أحد ولكن خص الصابرين لكي يعلموا أن الله سبحانه وتعالى يفرج عنهم. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنَّ لَا تَشْعُرُونَ﴾ قال الضحاك: هم النفر الذين قتلوا عند بئر معونة. وقال الكلبي: هم الذين قتلوا بيد قتل من المسلمين يومئذ أربعة عشر رجلاً [ثمانية من الأنصار وستة من المهاجرين] (١) وكان الناس يقولون: مات فلان ومات فلان، فأنزل الله تعالى: (ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله: أموات بل أحياء) [لأنهم] (٢) في الحكم: كالأحياء لأنه يجري ثوابهم إلى يوم القيامة ولأنهم يسرحون في الجنة حيث شاءوا. كما قال في آية أخرى: (عند ربهم يرزقون فرحين ولكن لا تشعرون).

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ يعني المؤمنين ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ يقول: لنختبرنكم بخوف العدو وهو الخوف الذي أصابهم يوم الخندق حتى بلغت القلوب الحناجر (والجوع) وهو القحط الذي أصابهم فكان يمضي على أخذهم أياماً لا يجد طعاماً ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾ يعني ذهاب أموالهم، ويقال موت الماشية ﴿وَالْأَنْفُسِ﴾ يعني الموت والقتل والأمراض ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ نقصان الثمرات فلا تخرج الثمرات كما كانت تخرج أو تصيبها الآفة. ويقال: الثمرات هو موت الولد وهو ثمرة القلب. ثم قال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ يعني الذين يصبرون على هذه المصائب والشدائد التي ذكرنا. ثم وصفهم فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ يعني يقولون: نحن عبيد الله وفي ملكه إن عشنا فعليه أرزاقنا وإن متنا فإليه مردنا وإليه راجعون بعد الموت (٣) ونحن راضون بحكمه ﴿أُولَٰئِكَ﴾ يعني أهل هذه الصفة ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ والصلاة من الله تعالى على ثلاثة أشياء: توفيق الطاعة والعصمة عن المعصية، ومغفرة الذنوب جميعاً فبالصلاة الواحدة تتكون لهم هذه الأشياء الثلاثة فقد وعد لهم الصلوات الكثيرة، ومقدار ذلك لا يعلمه إلا الله ثم قال: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ أي الموفقون للاسترجاع. وروي عن سعيد بن جبير أنه قال لم يكن الاسترجاع إلا لهذه الأمة ألا ترى أن يعقوب - عليه السلام - قال (يا أسفي على يوسف) فلو كان له الاسترجاع لقال ذلك وروي عن عثمان بن عطاء عن أبيه أنه قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : من ذكر مصيبة أو ذكرت عنده فاسترجع جدد الله [ثوابه] (٤) كيوم أصيب بها (٥). وعن عطاء بن أبي رباح قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أصابته مصيبة [فليذكر] (٦) مصيبته في، فإنها من أعظم المصائب (٧). وروى هذان الحديثان عن علي بن أبي طالب

(١) سقط في ظ. (٢) في ظ [يعني هم]. (٣) من ظ. (٤) في ظ [ثوابها].

(٥) أخرجه ابن ماجه ٥١٠/١ في كتاب الجنائز باب ما جاء في الصبر على المصيبة (١٦٠٠) وقال الشهاب البوصيري: في إسناده ضعف لضعف هشام بن زياد، وقد اختلف الشيخ هل هو روي عن أبيه أو عن أمه ولا يعرف لهما حال، قيل: ضعفه أحمد، وقال ابن حبان: روى الموضوعات عن الثقات.

(٦) في ظ [فليذكر].

(٧) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (٥٧٦) وابن عدي في الكامل ٢٠٥٦/٦ والحديث في كثر العمال (٦٦٥٣) وأخرجه بنحوه =

عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أيضاً وروي عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه قال: [نعم العدلان]^(١) ونعم العلاءة [فالعلاءة قوله تعالى: (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة) والعلاءة قوله تعالى]^(٢): (وأولئك هم المهتدون).

إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ قال أهل اللغة^(٣): الصفا: الحجارة الصلبة (التي لا تنبت بها شيء)^(٤) والواحدة: صفاة يقال: حصى وحصاة والمروة^(٥): الحجارة اللينة والشعائر: [علامة]^(٦) متعبداته [واحدها]^(٧) شعيرة. يعني أن الطواف بالصفا والمروة من أمور المناسك ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ روي عن أبي بن كعب أنه كان يقرأ: فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما. وروي عن ابن عباس، وأنس بن مالك أنها كانا يقرآن كذلك ومعنى ذلك أن من حج البيت أو اعتمر فترك السعي لا يفسد حجه ولا عمرته ولكن يجب عليه جبر النقصان وهو إراقة الدم وفي مصحف الإمام (فلا جناح عليه أن يطوف بهما) بحذف كلمة (لا) وذلك أن أهل الجاهلية كان لهم صنمان على الصفا والمروة: أحدهما يقال له (اساف) والآخر (نائلة) وكان المشركون يطوفون بين الصفا والمروة ويستلمون الصنمين فلما قدم النبي - صلى الله عليه وسلم - بعمرة القضاء كان الأنصار لا يسعون فيما بين الصفا والمروة ويقولون: السعي فيما بينهما من أمر المشركين فنزلت هذه الآية. ويقال: إن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما فتح مكة، طاف بالبيت، والمسلمون معه فلما سعى بين الصفا والمروة رفع المسلمون أزرهم وشمروا قمصهم كيلا يصيب ثيابهم ذنك الصنمين فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ يعني من أمور المناسك ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ يعني لو أصاب ثيابه من ذلك لا يضره ولا إثم عليه فخرج عمر فتناول المعول وكسر الصنمين. قال الفقيه: حدثنا الفقيه أبو جعفر قال: حدثنا علي بن أحمد قال: حدثنا محمد بن الفضل عن يعلى بن منبه^(٨) عن صالح بن حيان^(٩) عن أبي بريدة^(١٠) عن أبيه قال: دخل جبريل عليه السلام المسجد فبصر بالنبي - صلى الله عليه وسلم - نائماً في ظل الكعبة فأيقظه فقام وهو

= ابن ماجه ٥١٠/١ (١٥٩٩) وفي اسناده موسى بن عبيدة الريذي ضعيف مما لا يحتج بحديثه.

(١) ساقطة من ظ. (٢) سقط في أ.

(٣) في اللسان: قال الأصمعي: الصفواء والصفوان كله واحد. وقال ابن السكيت: الصفا العريض من الحجارة الأملس، جمع صفاء. اللسان مادة صفا، وراجع معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢١٦/١.

(٤) في ظ [شيئاً].

(٥) قال ابن منظور: المَرْوَةُ: حجارة بيض براقه تكون فيها النار، وتقدح منها النار. واحدها مروة، وبها سميت المروة بمكة. (اللسان: مرا).

(٦) في ظ [علامات]. (٧) في ظ [والواحدة].

(٨) يعلى بن أمية بن أبي عبيدة بن همام التميمي، حليف قرش، وهو يعلى بن منبه، وهي أمه، صحابي مشهور، مات سنة بضعة وأربعين. التقريب ٣٧٧/٢.

(٩) في ظ حسان. وهو صالح بن حيان القرشي، ويقال الفراس الكوفي. ضعيف الحديث. التهذيب ٣٨٦/٤.

(١٠) في أ [بردة].

أعمالهم فيما بينهم وبين ربهم. ويقال: معناه وأصلحوا لمن أفسد من السفلة (ويبنوا) صفته في كتبهم قوله ﴿فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أي أتجاوز عنهم ﴿وَأَنَا أَتُوبُ الرَّحِيمُ﴾ المتجاوز لمن تاب ورجع فتقبل توبته.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿١٦٢﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي ثبتوا على كفرهم حتى ماتوا على ذلك ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾^(١) قال الكلبي: يعني لعنة المؤمنين خاصة. وقال بعضهم: [يلعنهم]^(٢) لعنة جميع الناس لأن من يخالف دينهم يلعنهم في الدنيا وأهل دينهم [يلعنونهم]^(٣) في الآخرة كما قال في آية أخرى: (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً) ثم قال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي في اللعنة ولعنته^(٤): عذاب النار أي ما توجهه اللعنة. ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ يعني لا يهون عليهم طرفة عين ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ يعني لا يؤجلون.

وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾

(والهكم إله واحد) قال مقاتل: يعني ربكم رب واحد وقال الضحاك: كان لمشركي العرب ثلاثمائة وستون صنماً يعبدونها من دون الله تعالى فدعاهم الله إلى [التوحيد]^(٥) والإخلاص لعبادته فقال: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ ويقال: نزلت هذه الآية في صنف من المجوس يقال لهم: المانوية^(٦) فكان رئيسهم يقال له: (ماني) فقال لهم أرى الأشياء زوجين وضدين مثل الليل والنهار والنور والظلمة والحر والبرد والخير والشر والسرور والحزن والذي يصلح للشيء لا يصلح لخصمه فمن كان خالق النور والخيرات لا يكون خالق الشر والظلمات فهما اثنان: أحدهما يخلق الشر والآخر يخلق الخير فنزلت هذه الآية (والهكم إله واحد) أي خالقكم خالق واحد (هو خالق الأشياء كلها. وقوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قال بعض الناس: هذا الكلام نصفه كفر [وهو قوله: (لا إله) ونصفه إيمان وهو قوله: (إلا هو)]. ولكن هذا الكلام^(٧) ليس بسديد: لأن الله تعالى أمر رسوله: بأن يأمرهم حتى يقولوا: لا إله إلا الله فلا يجوز أن يأمرهم بالكفر. وقال بعضهم: النصف الأول منسوخ والنصف الثاني ناسخ. وهذا أيضاً لا يصح لأن المنسوخ هو الذي كان مباحاً [قبل النسخ والكفر لم يكن مباحاً]^(٨) أبداً وأحسن ما قيل فيه: إن قوله: (لا إله) نفى معبود الكفار، وقوله: (إلا هو)^(٩) إثبات معبود المؤمنين. أو نقول: [لا إله]^(١٠): نفى الألوهية [عمن لا يستحق الألوهية]^(١١). وقوله (إلا الله) إثبات الألوهية لمن يستحق الألوهية.

(٣) في ظ [يلعنهم].

(٢) في ظ [لعنة].

(١) في ظ [ولعنة الملائكة ولعنة الناس أجمعين].

(٥) في ظ [توحيد].

(٤) في أ [واللعنة].

(٦) فرقة من المجوس أصحاب ماني بن فاتك الحكيم، ظهر في زمان سابور بن أردشير وأحدث ديناً بين المجوسية والنصرانية، زعم أن

العالم مصنوع من أصليين قديمين النور والظلمة. انظر الملل والنحل ٢٤٤/١.

(٩) في ظ [الله].

(٨) ما بين المعقوفين من ظ.

(٧) ما بين المعقوفين من ظ.

(١١) ساقطة في ظ.

(١٠) ساقطة من أ.

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

لما نزلت هذه الآية أنكر المشركون توحيد الله تعالى وطلبوا منه دليلاً على إثبات وحدانيته فنزلت هذه الآية ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني في خلق السموات والأرض دليل على وحدانية الله في أنه خلقها بغير عمد ترونها وزينها بمصاييح والأرض بسطها أيضاً وجعل لها أوتاداً وهي الجبال وفجر فيها الأنهار وجعل فيها البحار^(١) ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ يعني في مجيء الليل وذهاب النهار ومجيء النهار وذهاب الليل. [ويقال اختلافهما في الكون]^(٢) ويقال: نقصان الليل، وتام^(٣) النهار ونقصان النهار وتام^(٤) الليل. ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ يعني السفن. ويقال للسفينة الواحدة: (الفلك) ولجماعة السفن (الفلك)^(٥) يعني السفن التي تسير في البحر فتقبل مرة وتدبر مرة بريح واحدة فتسير في البحر ﴿بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ من الكسب والتجارة وغير ذلك وقوله: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ﴾ يعني المطر الذي ينزل من السماء ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي اخضرت الأرض بعد يسها ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾ يقول: خلق في الأرض ﴿مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ﴾ قرأ حمزة والكسائي: (الريح) بغير ألف والباقون: ^(٦) (الرياح) بالألف واختار أبو عبيدة في قراءته: أن كل ما في القرآن من ذكر العذاب (الريح) بغير ألف وكل ما في القرآن من ذكر الرحمة: (الرياح) بالألف واحتج بما روى أنس - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه كان إذا هاجت الريح قال: اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً^(٧). ومعنى قوله تعالى وتصريف الرياح أي هبوب الريح مرة جنوباً ومرة شمالاً ومرة صباً ومرة دبوراً. قوله تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ﴾ أي المذلل والمطوع. ﴿بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي في هذه الأشياء التي ذكر في هذه الآية آيات^(٨) لوحدانيته^(٩) لمن كان له عقل وتميز. ويقال: هذه الآية تجمع أصول التوحيد وقد بين فيها^(١٠) دلائل وحدانيته لأن الأمر لو كان بتدبير اثنين مختلفين في التدبير لفسد^(١١) الأمر باختلافهما. كما قال تعالى: (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا).

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ

(١) في أ [الاشجار]. (٢) من أ. (٣) في أ ط [في تمام]. (٤) سقط في ط.

(٥) قال ابن منظور: والفلك - بالضم - السفينة تذكر وتؤنث وتقع على الواحد والاثنين والجمع، فإن شئت جعلته من باب جنب، وإن شئت من باب دلاص وهجان وهذا المذهب الأخير هو مذهب سيبويه «وفيه خلاف بين اللغويين». راجع اللسان: فلك.

(٦) راجع / حجة القراءات لابن زنجلة ص ١١٨، ١١٩، والبحر المحيط ٤٦٧/١.

(٧) راجع / حجة القراءات لابن زنجلة ص ١١٩.

(٨) في أ [إثبات]. (٩) في أ [لواحدانية الله]. (١٠) في ط [ههنا]. (١١) في أ [فنجيل].

اتَّبِعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهْنَا لَكُمْ أَتَّبِعْتُمْ كَمَا تَبَرَّأْتُمْ وَمَا كَذَلِكَ يَرْيَاهُمُ اللَّهُ أَعْمَلْتُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ
وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ يعني بعض الناس وصفوا لله شركاء وأنداداً يعني
﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ قال بعضهم: معناه يحبون الأوثان كحبهم لله تعالى لأنهم كانوا يقولون بالله تعالى. وقال
بعضهم: معناه، يحبون الأوثان كحب المؤمنين لله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ لأن الكفار يعبدون أوثانهم
في حال الرخاء فإذا أصابتهم شدة تركوا عبادتها والمؤمنون يعبدون الله تعالى في حال الرخاء والشدة فهذا معنى قوله
تعالى: (والذين آمنوا أشد حبا لله) فإن قيل إذا كان المؤمنون أشد حبا لله [فما معنى] (١) قوله: يحبونهم كحب الله؟
قيل له: يحتمل أن بعض المؤمنين حبهم مثل حبهم وبعضهم أشد حبا (٢) وفي أول الآية: ذكر بعض المؤمنين (٣)
وفي آخر الآية ذكر المؤمنين الذين هم أشد حبا لله. والحب لله أن يطيعوه في أمره ويتنزهوا عن نهيه فكل من كان
أطوع [لله] (٤) فهو أشد حبا له. كما قال القائل:

لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

ثم قال لمحمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يا محمد ﴿إِذْ يَرُونَ أَلْعَذَابَ﴾ يعني
حين يرون العذاب ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ وفي الآية مضمرة (٥) ومعناه يا محمد لو رأيت الذين ظلموا في
العذاب لرأيت أمراً عظيماً كما تقول: لو رأيت فلاناً تحت السياط فيستغني عن الجواب لأن معناه مفهوم
فكذلك هنا لم يذكر الجواب لأن المعنى معلوم. قرأ نافع وابن عامر: ((ولو ترى)) بالتاء على معنى المخاطب
للنبي - صلى الله عليه وسلم - وقرأ الباقر (٦): ((بالياء)) ومعناه (٧) ولو يرى عبدة الأوثان اليوم ما يرون يوم القيامة أن
الأوثان لا تنفعهم شيئاً وأن القوة لله جميعاً تركوا عبادتها. وقرأ ابن عامر (إذ يرون العذاب) بضم الياء على معنى فعل
ما لم يسم فاعله وقرأ الباقر بنصب الياء على معنى الخبر عنهم (٨). وقرأ الحسن وقتادة (٩): ((أن القوة لله جميعاً))
على معنى الابتداء وقرأ العامة ((أن القوة لله)) (١٠) بالنصب على معنى البناء (١١) يعني بأن القوة لله جميعاً (١٢) ﴿وَأَنَّ
اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ يعني للرؤساء والاتباع من أهل الأوثان ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ يعني القادة ﴿مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾
وهم السفلة ﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ﴾ يقال حين يروا العذاب ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ أي العهود والحلف التي كانت
بينهم في الدنيا وقال القتيبي: الأسباب يعني الأسباب التي كانوا يتواصلون بها في الدنيا. وقال بعضهم وتقطعت بهم
الأسباب، أي الخلة والمواصلة كما قال في آية أخرى: (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) ويقال:

(١) في ظ [فايش معنى]. (٢) في ظ [حيا الله].

(٣) في ظ [المؤمنين الذين حبهم مثل حب الكفار]. (٤) في ظ [له]. (٥) في أ [اضمار].

(٦) انظر/ شرح الحرز لأبي شامة، والانتحاف (تفسير سورة البقرة). وحجة القراءات ١١٩، ١٢٠ والبحر المحيط ٤٧١/١ وما بعدها.

(٧) سقط في ظ.

(٨) انظر/ حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٢٠.

(٩) هذه القراءة ليست شاذة ولكنها صحيحة متواترة مقرأ بها عن أبي جعفر شيخ نافع والإمام يعقوب البصري فقد قرأها هكذا «أن القوة

وإن الله». انظر: الدرر للقرءات العشر بشرح السمانودي وشرح القاضي، وطيبة النشر عند هذه الآية، وقد كسرها على

الابتداء.

(١٢) من ظ.

(١١) في أ [الابتداء].

(١٠) من أ.

الأرحام والمودة التي كانوا يتواصلون بها فيما بينهم قوله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ أي السفلة ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ أي رجعة إلى الدنيا وذلك أن الرؤساء لما تبرؤوا منهم ولا ينفعونهم شيئاً ندمت السفلة على اتباعهم في الدنيا ويقولون في أنفسهم لو أن لنا كرة أي رجعة إلى الدنيا ﴿فَتَبَرَّأْنَا مِنْهُمْ﴾ أي من القادة ﴿كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا﴾ من القادة قال الله تعالى ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ [لأنهم يرون أعمالهم] ^(١) غير مقبولة لأنها كانت لغير وجه الله تعالى فيكون ذلك حسرة عليهم. وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ يعني التابع والمتبوع والعابد والمعبود.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ وذلك أن قوماً من العرب مثل بني عامر وبني مدلج وخزاعة وغيرهم حرموا على أنفسهم أشياء مما أحل الله [لهم] ^(٢) من الحرث والأنعام والبحيرة والسائبة وغير ذلك فنهاهم الله تعالى عن ذلك فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ من الحرث والأنعام [وحلالاً نصب على الحال] ^(٣) ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ يعني طاعات الشيطان. وقال مقاتل ^(٤): يعني تزيين الشيطان. ويقال: وسوس الشيطان. وقال القتيبي: الخطوات جمع الخطوة. وقال الزجاج: خطواته أي طرقه ومعناه لا تسلكوا الطريق الذي يدعوكم إليه الشيطان ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي ظاهر العداوة ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ﴾ يعني بالإنم والقبيح من العمل. ويقال: السوء الذي يجب به الحبس والحساب والفحشاء: التي يستوجب بها العقوبة في النار. ويقال: السوء الذي يجب به التعزير في الدنيا والفحشاء التي يجب بها الحد. ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾. يعني أن الشيطان يأمركم بأن تكذبوا على الله لأنهم كانوا يقولون هذه الأشياء حرم الله علينا.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي اعملوا بما أنزل الله في القرآن من تحليل ما أحل الله وتحريم ما حرم الله ﴿قَالُوا: بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾. يعني ما وجدنا عليه آباءنا قال الله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ معناه، أيتبعون آباءهم وإن كانوا جهالاً فيتابعوهم بغير حجة. فكانه نهاهم عن التقليد وأمرهم بالتمسك بالحجة وهذه الواو مفتوحة وهي واو: (أولاً) لأنها واو العطف أدخلت عليها ألف التوبيخ وهي ألف الاستفهام. قرأ أبو عمرو ومن تابعه من أهل البصرة: (كذلك يريهم الله بكسر الهاء والميم وكذلك في كل موضع تكون الهاء والميم بعدهما ألف ولام. مثل قوله تعالى (وضربت عليهم الذلة) (ويلهمهم الأمل) وكان عاصم وابن عامر ونافع: يقرأون بكسر الهاء وضم الميم وكان حمزة والكسائي يقرآن: بضم الهاء والميم وكان ابن كثير يقرأ: (إنه لكم عدو مبين) يضم الميم وكذلك إنما يأمركم وكذلك كل ميم نحو هذا مثل: (أنعمت عليهم غير المغضوب

(٣) في ظ [عليهم].

(٤) في أ [قتادة].

(١) ما بين المعقوفين من ظ.

(٢) ما بين المعقوفين من ظ.

عليهم). (وعلى قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم) وكان نافع في رواية ورش عنه يقرأ: بسكون الميم. [إلا أن يستقبله ألف أصلية فيضم الميم مثل قوله: (سواء عليهم أنذرتهم) (إذ يتنازعون بينهم أمرهم). (وقد خلقكم أطواراً) وكان حمزة والكسائي يقرأون بسكون الميم] ^(١). إلا أن يستقبله ألف ولام مثل قوله: (وضربت عليهم الذلة) ^(٢). وأما قوله: (خطوات الشيطان) كان نافع وأبو عمرو وحمزة وعاصم في رواية أبي بكر [يقرأون] ^(٣) (خطوات) بجزم الطاء وقرأ الكسائي وابن كثير وعاصم في رواية حفص: (خطوات) بضم الطاء وهما لغتان ومعناها واحد ^(٤).

وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّكُمْ عُمِيٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾

ثم قال تعالى ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾. فهذا مثل ضربه الله تعالى لأهل الكفر، إنهم مثل البهائم لا يعقلون شيئاً سوى ما يسمعون من النداء. وفي الآية إضمار ومعناه مثلك يا محمد مع الكفار كمثل الذي ينطق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء. وهذا قول الزجاج ^(٥). وقال القتيبي: قال الفراء ^(٦): ومثل واعظ الذين كفروا فحذف ذكر الواعظ. كما قال تعالى (واسأل القرية) وقال القتيبي أيضاً: (مثل الذين كفروا) يعني ومثلنا في وعظهم فحذف اختصاراً إذ كان في الكلام [ما يدل] ^(٧) عليه (كمثل الذي ينطق) يعني الراعي إذا صاح في الغنم لا يسمع إلا دعاء ونداء فحسب ولا تفهم قولاً ولا تحسن جواباً فكذلك الكافر لا يعقل المواعظ. ﴿صُمُّ﴾ عن الخبر فهم لا يسمعون ﴿بُكُمْ﴾ أي خرس لا يتكلمون بالحق ﴿عُمِيٌّ﴾ لا يبصرون الهدى. ويقال: كأنهم صم لأنهم يتصاممون عن سماع الحق. ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الهدى.

يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾
إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ يعني من الحلال من الحرث والأنعام ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ يعني إن كنتم [إياه تعبدون أي] ^(٨) تريدون بترك أكله رضاء الله تعالى فكلوه فإن رضي الله تعالى أن تحلوا حلاله وتحرموا حرامه. ويقال: إن محرم ما أحل الله مثل محل ما حرم الله. ويقال: في هذه الآية بيان

(١) ما بين المعقوفين من ظ.

(٢) ميم الجمع في (عليهم - إليهم - فيهم) إما أن يكون بعدها متحرك، وإما أن يكون بعدها ساكن فأما ما بعدها متحرك فقد قرأه ابن كثير بضم الميم في حالة الوصل مثل «عليهمو غير المغضوب عليهمو» وقالوا: عن نافع له وجهان: الإسكان كالجماعة والصلة كابن كثير. وقرأها ورش بالصلة بواو بشرط أن يكون بعده همزة قطع فقط هكذا «سواء عليهمو» أنذرتهم أم» والباقيون بالإسكان. وأما ميم الجمع التي بعدها ساكن فأبو عمرو بكسر الهاء هكذا «عليهم القتال بهم»، وأما حمزة والكسائي فيضمان الهاء ويكسران الميم هكذا «يربهم الله» والباقيون بضم الميم وكسر الهاء هكذا «عليهم القتال» انظر/ الحرز سورة الفاتحة وابن الفاصح والإنحاف.

(٣) ساقطة من ظ.

(٤) حرز الأمانى بشرح أبي شامة، وإرشاد المريد للضبايع. (٥) معاني القرآن وإعرابه ٢٢٦/١

(٨) سقط في ظ.

(٧) في أ [دليلاً].

(٦) معاني القرآن ٩٩/١.

فضل هذه الأمة لأنه تعالى خاطبهم بما خاطب به أنبياء عليهم الصلاة والسلام - لأنه قال لأنبيائه: (يا أيها الرسل [كلوا من الطيبات]). وقال لهذه الأمة^(١) (كلوا من طيبات ما رزقناكم) وقال في أول الآية: (كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً). فلما أمر الله تعالى بأكل هذه الأشياء التي كانوا يحرمونها على أنفسهم قالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم - إن لم يكن هذه الأشياء محرمة فالمحرمات ما هي؟ فبين الله تعالى المحرمات. فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ﴾ والميتة سوى السمك والجراد و(والدم) يعني الدم المسفوح أي الجاري. كما قال في آية أخرى: (أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير) يعني حرم عليكم (ولحم الخنزير) فذكر اللحم خاصة والمراد به اللحم والشحم وجميع أجزائه وهذا شيء قد أجمع المسلمون [على تحريمه]^(٢) فقد ذكر الميتة وإنما انصرف إلى بعض منها وأحل البعض منها وهو السمك والجراد وذكر الدم [وإنما المراد به]^(٣) بعض الدم لأنه لم يدخل فيه الكبدة والطحال وذكر لحم الخنزير فانصرف النهي إلى اللحم وغيره ﴿وَمَا أَهْلٌ بِهِ لَبِغٌ لِلَّهِ﴾ يعني ما ذبح بغير اسم الله تعالى. والإهلال في اللغة^(٤): هو رفع الصوت وكان أهل الجاهلية إذا ذبحوا رفعوا الصوت بذكر آلهتهم فحرم الله تعالى على المؤمنين أكل ما ذبح لغير اسم الله تعالى وفي الآية دليل: أنه إذا ترك التسمية عمداً لا يؤكل لأنه قد ذبح بغير اسم الله تعالى ثم إن الله تعالى علم أن بعض الناس يتلون بأكل الميتة عند الضرورة فرخص لهم في ذلك بقوله تعالى (فمن اضطر). قرأ حمزة وعاصم وأبو عمرو: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾ بكسر النون وقرأ الباقون بالضم وهما لغتان ومعناها واحد^(٥). يقول: فمن أجهد إلى شيء مما حرم الله إلى أكل الميتة ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾. يعني غير مفارق الجماعة ولا عاد على المسلمين بالسيف فمن خرج لقطع الطريق، أو خرج على إمام المسلمين فلا رخصة له عند بعضهم^(٦). وقال بعضهم: من خرج في معصية فلا رخصة له. وقال بعضهم: كل من اضطر إلى أكل الميتة رخص له أن يأكل سواء أخرج للمعصية أو غيرها. وهذا قول أصحابنا. ومعنى قوله (غير باغ) أي غير طالب [للحرام]^(٧) ولا راض بأكله. (ولا عاد) يعني لا يعود إلى أكله بعد^(٨) أكل مقدار ما يسد به الرمق. وروي عن ابن عباس نحو هذا. قال: حدثنا محمد بن سعيد الترمذي قال: حدثنا أبو جعفر الطحاوي قال: حدثنا محمد بن الحجاج الحضرمي^(٩) قال: حدثنا عبد الله بن صالح^(١٠) [عن معاوية بن صالح]^(١١) عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (فمن اضطر غير باغ ولا عاد) قال: من أكل شيئاً من هذه الأشياء وهو مضطر فلا حرج^(١٢) عليه ومن أكله وهو غير مضطر فقد بغى واعتدى^(١٣) وهو قوله: (فمن اضطر غير باغ ولا عاد). ثم اختلفوا في حد الاضطرار الذي يحل له أكل الميتة. قال بعضهم: إذا كان بحال يخاف على نفسه التلف [وهو قول الشافعي]^(١٤).

(١) سقط في ظ. (٢) في ظ [عليه].

(٣) في أ [والمراد به].

(٤) انظر اللسان/ هلل.

(٥) حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٢٢.

(٦) عند الإمام الشافعي رضي الله عنه لأن الرخص لا تناط بالمعاصي، ومعنى ذلك أن فعل وجود شيء، نظر في ذلك الشيء، فإن كان تعاطيه في نفسه حراماً امتنع معه فعل الرخصة، وإلا فلا وبهذا يظهر الفرق بين المعصية بالسفر والمعصية فيه. انظر الأشباه والنظائر للسيوطي (١٤٠).

(٧) في ظ [شبعاً].

(٨) في ظ [بعدما].

(٩) هو محمد بن الحجاج الحضرمي المصري، صدوق ثقة. الجرح والتعديل ٢٣٥/٧.

(١٠) عبد الله صالح المصري، ثقة. التهذيب ٢٥٦/٥.

(١١) من ظ. (١٢) في أ [جناح].

(١٣) نسبة السيوطي في الدر المنثور ١٦٨/١ لابن أبي حاتم.

(١٤) انظر: قليوبي وعميرة ٢٦٢/٤، والأشباه والنظائر للسيوطي (٨٤). ابن عابدين ٣٣٨/٦.

أي في القرآن ﴿لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾. أي في ضلالة بينة ويقال: معناه أن الله تعالى أنزل القرآن على محمد - عليه السلام - بالعدل فتركوا أتباعه وخالفوه فاستوجبوا بذلك العذاب ويقال: لفي شقاق بعيد أي في خلاف بعيد من الحق وذكر عن قتادة أنه قال: (فما أصبرهم على النار) أي فما أجراهم على العمل الذي يقرب إلى النار^(١) وروي عن مجاهد أنه قال: ما أعلمهم بعمل أهل النار ويريد ما أودمهم على عمل أهل النار^(٢) وقال أبو عبيدة^(٣): ما الذي صيرهم ودعاهم إلى النار.

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ
وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا
عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

ثم قال ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ﴾. قرأ حمزة وعاصم في رواية حفص: (ليس البر) بنصب الراء على معنى خبر ليس. وقرأ الباقون: بالرفع على معنى اسم ليس. من قرأ بالرفع فهو الظاهر في العربية لأن ليس يرفع الاسم الذي بعده بمنزلة كان وأما من قرأ بالنصب فإنه يجعل الاسم ما بعده ويجعل (البر)^(٤) خبره. وتفسير الآية: قال مقاتل: في قوله ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم﴾ أي ليس البر أن تحولوا وجوهكم في الصلاة. ﴿قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ لا تعملوا غير ذلك ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ يعني صدق بالله بأنه واحد لا شريك له. (قرأ نافع وابن عامر) (ولكن البر) بكسر النون وضم الراء. . . وقرأ الباقون: (ولكن البر) بنصب النون مشددة وبنصب الراء^(٥). ويقال: معناه ليس البر كله في الصلاة ولكن البر ما ذكر في هذه الآية من العبادات. ثم اختلفوا في معنى قوله: ﴿ولكن البر من آمن بالله﴾ [قال بعضهم معناه ولكن ذو البر من آمن بالله]^(٦). وقال بعضهم: معناه ولكن البر من آمن بالله وكلا المعنيين^(٧) ذكرها^(٨) الزجاج في كتابه^(٩). وقال بعضهم^(١٠) ليس البار من يولي وجهه إلى المشرق والمغرب ولكن البار من آمن بالله [وَالْيَوْمِ الْآخِرِ]^(١١). ثم ذكر في هذه الآية خمسة أشياء من الإيمان فمن لم يقر بواحدة منها فقد كفر. أحدها: الإيمان بالله تعالى أنه واحد لا شريك له [والتصديق]^(١٢) باليوم الآخر وبالبعث الذي فيه جزاء الأعمال وأنه كائن وأن أهل الثواب يصلون إلى الثواب وأهل العقاب يصلون إلى العقاب (والتصديق)^(١٣) بالكتاب أنه منزل من الله تعالى القرآن وسائر الكتب: التوراة والإنجيل والزبور ويقر بالملائكة أنهم عبيده ويقر بالنبين أنهم رسله وأنبيأؤه فهذه الخمس من الإيمان فمن جحد واحدة منها فقد كفر. ثم ذكر الفضائل فقال تعالى ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ يعني يعطي المال على شهوته وجوعه وهو شحيح يخشى الفقر، ويأمل العيش. ويقال: على حبه الإعطاء بطيبة من نفسه يعطي ﴿ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ يعني الضيف النازل^(١٤)

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير ٣/٣٣١.

(٢) ابن جرير في المصدر السابق ٣/٣٣٣.

(٣) حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٢٣.

(٤) ما بين المعقوفين من ظ.

(٥) في أ [التفسيرين].

(٦) في أ [وذكرها].

(٧) معاني القرآن وإعرابه ١/٢٣٢.

(٨) في ظ [ليس البراي].

(٩) سقط في ظ.

(١٠) في ظ [وصدق].

(١١) في ظ [صدوق].

(١٢) ساقطة من ظ.

﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ الذين يسألون الناس ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ يعني المكاتبين . وقد قيل : (ابن السبيل) هو المنقطع من ماله . ثم ذكر الفرائض فقال تعالى ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ المكتوبة ﴿وَأَتَى الزُّكَاةَ﴾ المفروضة ﴿وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ فيما عاهدوا فيما بينهم وبين الله تعالى وفيما بينهم وبين الناس ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ [أي بالبأساء وهي شدة الفقر^(١)] [البأس^(٢)] قال القتيبي : يعني الفقر وهو من البؤس والضراء المرض والزمانة ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ يعني يصبرون عند الحرب . وقال القتيبي : البأس : الشدة ومنه يقال : لا بأس عليك يعني لا شدة عليك (فلهذا سمي [الحرب البأس]^(٣)) لأن فيه شدة . ثم قال تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ [يعني صدقوا]^(٤) في إيمانهم ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ عن نقض العهد . فإن قيل : أيش معنى قوله : ﴿والصابرين في البأساء والضراء﴾ وموضعه موضع رفع ولم يقل : (والصابرون) قيل له : قد قال بعض من تعسف في كلامه : إن هذا غلط الكاتب حين كتبوا مصحف الإمام والدليل على ذلك ما روي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه - أنه نظر في المصحف وقال : أرى فيه لحناً وستقيمه العرب بألسنتها وهكذا قال في سورة النساء (والمقيم الصلاة) وفي سورة المائدة (والصابرون) . لكن الجواب عند أهل العلم أن يقال : إنما صار نصباً للمدح وللکلام يصير نصباً للمدح أو للذم ألا ترى إلى قول القائل :

نحن بني ضبة أصحاب الجمل .

وإنما جعله نصباً للمدح وروي عن قتادة أنه قال : ذكر لنا أن رجلاً سأل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن البر فنزلت هذه الآية : ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم﴾ الآية وقال الضحاك (أولئك الذين صدقوا) يعني صدقت نياتهم فاستقامت قلوبهم بأعمالهم . (وأولئك هم المتقون) يعني المطيعون لله تعالى ثم قال تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبِ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَبْعِ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَّاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَعَدَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ يعني فرض عليكم وأوجب عليكم القصاص . فإن قيل : الفرض على من يكون؟ على الولي أو على غيره؟ قيل له : الفرض على القاضي إذا اختصموا إليه بأن يقضي على القاتل بالقصاص إذا طلب الولي لأن الله تعالى قد خاطب جميع المؤمنين بالقصاص ثم لا يتيها للمؤمنين جميعاً أن يجتمعوا على القصاص فأقاموا السلطان مقام أنفسهم في إقامة القصاص فخاطب الولي بالقصاص وخاطب غيره بأن يعين الولي على ذلك وهو قوله ﴿كتب عليكم القصاص﴾ أي فرض عليكم إذا كان (في)^(٥) القتل عمداً . ﴿الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ قال بعضهم : كان في أول الشريعة أن الحر يقتل بالحر والعبد بالعبد ولا يقتل الحر بالعبد ولا العبد بالحر ولا الذكر بالأنثى ثم نسخ بقوله تعالى : (النفس بالنفس) وقال بعضهم هي غير منسوخة لأنه قد ذكر هذه الآية : ﴿الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى﴾ ولم يذكر في هذه الآية : أن العبد

(٣) في أ [البأس الحرب] .

(٢) في ظ [البأساء] .

(١) سقط في ظ .

(٥) من أ .

(٤) سقط من أ .

لو قتل حراً ما حكمه فبين في آية أخرى وهو قوله: (النفس بالنفس). وقال ابن عباس: نزلت هذه الآية في حين من أحياء العرب اقتتلوا في الجاهلية فكان بينهم قتلى وجراحات وكان لأحدهما طول على الأخرى فقالوا: لنقتلن بالعبد منا الحر منكم وبالمراة الرجل منكم وبالرجل منا الرجلين منكم فلما جاء الإسلام طلب بعضهم من بعض ذلك فنزلت هذه الآية: ﴿الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى﴾. ثم قال تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ أي ترك ولي المقتول من أخيه: أي القاتل ولم يقتله وأخذ الدية. ﴿فَاتَّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يعني يطلب الدية بالرفق ولا يعسر عليه وأمر بالمطلوب بأن يؤدي الدية إلى الطالب لقوله: ﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾. وقال القتيبي (فمن عفي له من أخيه شيء) قال: قبول الدية في العمد والعفو عن الدم (فاتباع بالمعروف) أي مطالبة جميلة (وأداء إليه بإحسان) لا يبخسه ولا يطلعه معناه (ولا يدفعه) ^(١) إذا عفى أحد [ولي القصاص] ^(٢) صار نصيب الآخر ملأ فيتبعه بالمعروف والقاتل يؤدي إليه نصيبه بإحسان. ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ لأن أهل التوراة كان لهم القتل ولم يكن لهم غير ذلك وأهل الإنجيل كان لهم العفو وليس لهم قود ولا دية فجعل الله تعالى القصاص والدية والعفو تخفيفاً لهذه الأمة فمن شاء قتل ومن شاء أخذ الدية ومن شاء عفا. وقال بعض الناس: إن الولي إن شاء قتل وإن شاء أخذ الدية وإن لم يرض القاتل [وهو قول الشافعي] ^(٣). وقال أصحابنا: [ليس له أن يأخذ الدية إلا برضا القاتل] ^(٤). وليس في هذه الآية دليل: أن له أن يأخذ ^(٥) [الدية بكره منه] ^(٦) وفيها دليل أن له أن يقبل الدية ^(٧) وإذا رضي القاتل واصطلحنا على ذلك. ثم قال تعالى ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ بِهِ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ يعني أن يقتل بعد ما يأخذ الدية (فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ) أي وجع. وقال قتادة: يقتل ولا يتقبل منه الدية إذا اعتدى واحتج بما روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: لا أعفي عن أحد قتل بعد أخذ الدية ^(٨). ولكن معناه عندنا: أنه إذا طلب الولي القتل فأما إذا عفا عنه الثاني وتركه جاز عفوه لأنه قتل بغير حق فصار حكمه حكم القاتل الأول لأنه لو عفي عنه لجاز ذلك فكذلك الثاني ثم قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ بقاء لأن الناس يعتبرون بالقصاص فيمتنعون عن القتل وهذا كما قال القاتل:

أبلغ أبا مالك عني مغلفة وفي العقاب حياة بين أقوام
وهذا معنى قوله: ولكم في القصاص حياة ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يعني يا ذوي العقول ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ القتل مخافة القصاص.

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ
حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾
فَمَنْ خَافَ مِن مُّوَصَّ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي فرض عليكم ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ [أي] ^(٩) مالا والخير في القرآن على وجوه: أحدها: المال كقوله تعالى: (إن ترك خيراً) وقوله: (وما أنفقتم من خير) (وما تنفقوا من خير) أي

(١) سقط في ظ. (٢) في أ [الولين]. (٣) من أ. (٤) ما بين المعقوفين من ظ.
(٥) في أ [يأخذ منه]. (٦) ما بين المعقوفين من أ. (٧) في أ [ومعناه عند أصحابنا أن له أن يقبل الدية].
(٨) أخرجه أبو داود في السنن رقم (٤٥٠٧) وأحمد في المسند ٣/٣٦٣ وذكره الحافظ في الفتح ٢٠٩/١٢ والحديث في المشكاة (٣٤٧٩).
(٩) في ظ [يقول إن ترك].

المال. والثاني: الإيمان كقوله تعالى (ولو علم الله فيهم خيراً) أي إيماناً وكقوله تعالى: (ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيتهم الله خيراً). والثالث الخير: الفضل كقوله تعالى: (وأنت خير الراحمين) والرابع: الخير: العافية كقوله: (وإن يمسسك الله بخصية) (وإن يردك بخير) والخامس: الأجر كقوله: (لكم فيها خير) أي أجر. وقال بعضهم: الوصية واجبة على كل مسلم لأن الله تعالى قال: (كتب عليكم) أي فرض عليكم الوصية. وروي عن ابن عمر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: ما حق امرئ [مسلم] ^(١) بيت ليلة [وعنده] ^(٢) مال يوصي به إلا ووصيته مكتوبة عنده ^(٣). وقال بعضهم: هي مباحة وليست بواجبة ^(٤). وقد روي عن الشعبي أنه قال: الوصية ليست بواجبة فمن شاء أوصى ومن شاء لم يوص. وقال إبراهيم النخعي: مات رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولم يوص وقد أوصى أبو بكر - رضي الله عنه - فإن أوصى فحسن وإن لم يوص فليس عليه شيء وقال بعضهم: إن كان عليه حج أو كفارة أي شيء من [الكفارات] ^(٥) فالوصية واجبة وإن لم يكن عليه شيء من الواجبات فهو بالخيار إن شاء أوصى وإن شاء لم يوص وبهذا القول نأخذ. ثم بين مواضع الوصية فقال تعالى: ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ قال مجاهد: كان الميراث للولد والوصية للوالدين والأقربين فصارت الوصية للوالدين منسوخة وروى جوير عن الضحاك أنه قال: نسخت الوصية للوالدين والأقربين ممن يرث وثبتت الوصية ^(٦) لمن لا يرث من القرابة. ويقال: في الآية تقديم وتأخير معناه كتب عليكم الوصية للوالدين والأقربين [(إذا حضر أحدكم الموت) وكانوا يوصون للأجبيين ولم يوصوا للقرابة شيئاً فأمرهم الله تعالى بالوصية للوالدين والأقربين] ^(٧). ثم نسخت الوصية للوالدين بآية الميراث قوله ﴿بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ أي واجباً عليهم. وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ﴾ أي غيره بعدما سمع الوصية ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ أي وزره على الذين يبدلونه ويغيرونه لا على الموصي لأن الموصي قد فعل ما عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ بالوصية ﴿عَلِيمٌ﴾ بثوابها وبجزاء من غير الوصية: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا﴾ أي علم من الموصي الجنف وهو الميل عن الحق (فلا إثم عليه) إذا غير وصيته فردها إلى الحق لأن تبديله كان للإصلاح ولم يكن للجور. وقال الكلبي: (فمن خاف من موص جنفاً) أي علم من الميت الخطأ في الوصية ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ يعني تعمداً للجور في وصيته فزاد على الثلث ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ أي رد ما زاد على الثلث ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. هكذا قال مقاتل. وروي عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: الإضرار في الوصية من الكبائر. قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر: (فمن خاف من موص) ^(٨) بنصب الواو وتشديد الصاد وقرأ الباقون: بسكون الواو وتخفيف الصاد فمن قرأ بالنصب والتشديد فهو من وصى يوصي ومن قرأ بالتخفيف فهو من أوصى يوصي وهما لغتان ومعناهما واحد [«فإن الله غفور رحيم» معناه غفور لمن جنف رحيم لمن أصلح].

(١) سقط في ظ. (٢) في ظ [وغير].

(٣) أخرجه البخاري ٣٥٥/٥ في الوصايا باب الوصايا (٢٧٣٨). ومسلم ١٢٤٩/٣ في الوصية (١٦٢٧/١).

(٤) قال البغوي: قال قوم كانت الوصية للوالدين والأقربين فرضاً فنسخت الوصية للذين يرثون منهم بآية الميراث وبقيت فريضة للذين لا يرثون من الوالدين والأقارب وهو قول ابن عباس وبه قال الحسن وطاوس وقتادة وحكاه البيهقي عن الشافعي في القديم وبه قال إسحاق وداود واختاره أبو عوانة الأسفراييني وابن جرير وآخرون. وفي الحديث دليل على أن الوصية مستحبة غير واجبة لأنه فوض إلى إرادته فقال: له شيء يوصي فيه «يعني يريد أن يوصي فيه وهو قول عامة أهل العلم. انظر شرح السنة ٢٧٨/٥، فتح الباري ٢٦٥/٥.

(٧) ما بين المعقوفين من ظ.

(٥) في ظ [الواجبات]. (٦) في ظ [وبقيت].

(٨) في [موصي جنفاً أي علم من الميت خطأ في الوصية].

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينَ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةُ الصِّيَامِ الرَّفْثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَشِّرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى الْآيِلِ وَلَا تَبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ يعني فرض عليكم صيام رمضان ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي فرض على الذين من قبلكم من أهل الملل كلها. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الأكل والشرب والجماع بعد صلاة العشاء الآخرة وبعد النوم. ويقال: كما كتب في الذين من قبلكم في الفرض. [ويقال: كما كتب على الذين من قبلكم في (١) العدد] (٢) ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ أي معلومات وإنما صارت الأيام نصباً لنزع الخافض ومعناه في أيام معدودات. وقال مقاتل: كل شيء في القرآن معدودة أو معدودات فهو دون الأربعين وما زاد على ذلك لا يقال معدودة. ثم قال تعالى ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا﴾ فلم يقدر على الصوم ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ فلم يصم ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي فعلية أن يقضيها بعد مضي الشهر مثل عدد الأيام التي فاتته ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ أي يطيقون الصوم ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينَ﴾ أي يدفع لكل مسكين مقدار نصف صاع من حنطة ويفطر ذلك اليوم ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أي تصدق على مسكينين مكان كل يوم أفطره ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ من أن يطعم مسكيناً واحداً والصيام خير له من الإفطار وهو قوله: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ من أن تفطروا وتطعموا قال الكلبي: كان هذا في أول الإسلام ثم نسخت هذه الآية بالآية التي بعدها. وهكذا قال القتيبي: وهكذا روي عن

(١) في أ [في العدد ويقال في].

(٢) ما بين المعقوفين من ط.

سلمة بن الأكوع^(١) أنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يَطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامَ مَسْكِينٍ﴾ كان^(٢) من أراد أن يفطر ويفدي فعل حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها [وهو قوله]^(٣) ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾^(٤) وقال الشعبي: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يَطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامَ مَسْكِينٍ﴾ كان الأغنياء يطعمون ويفطرون ويفتدون ولا يصومون فصار الصوم على الفقراء فنسختها هذه الآية ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فوجب الصوم على الغني والفقير وقال بعضهم: ليست بمنسوخة وإنما [نزلت في الشيخ الكبير. وروي عن عائشة أنها كانت تقرأ: (وعلى الذين يطوقونه) يعني يكلفونه فلا يطيقونه. وروي عن عطاء عن ابن عباس أنه قال: ليست بمنسوخة وإنما هي للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة اللذين]^(٥) لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان كل يوم مسكيناً. قرأ نافع وابن عامر (فدية طعام مسكين) بضم الهاء وكسر الميم بالالف على الإضافة وقرأ الباقر بن تميم الهاء (فدية طعام) بضم الميم (مسكين) بغير ألف. قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ قرأ عاصم في رواية حفص: (شهر) بفتح الراء والباقر: بالضم. وإنما صار رفعاً لمعنيين: أحدهما أنه مفعول ما لم يسم فاعله يقول: كتب عليكم شهر رمضان ومعنى آخر: أنه خبر مبتدأ يعني هذا شهر رمضان. ومن قرأ بالنصب احتمل أنه صار نصباً لوقوع الفعل عليه أي صوموا شهر رمضان ويقال: صار نصباً لنزع الخافض أي: في شهر رمضان. ويحتمل: عليكم شهر رمضان. كقوله: (صبغة الله) يعني الزموا. قوله: ﴿الَّذِي أَنْزَلَ فِيهِ الْقُرْآنَ﴾ قرأ ابن كثير (القرآن) بالتخفيف وقرأ الباقر: بالهمز. وقال ابن عباس في معنى قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ يعني أنزل فيه القرآن من اللوح المحفوظ جملة واحدة إلى الكتبة في السماء الدنيا ثم أنزل به جبريل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نجوماً نجومياً أي الآية والآيتين في أوقات مختلفة أنزل عليه في إحدى وعشرين سنة. وقال مقاتل: أنزل فيه القرآن من اللوح المحفوظ كل عام في ليلة القدر إلى سماء الدنيا نزل إلى السفرة من اللوح المحفوظ في عشرين شهراً ونزل به جبريل في عشرين سنة. حدثنا محمد بن الفضل قال حدثنا فارس بن مردويه حدثنا محمد بن الفضل العابد حدثنا الفضل بن دكين^(٦) عن سفيان الثوري عن خالد الحذاء^(٧) عن أبي قلابة قال^(٨): أنزلت التوراة في ثنتي عشرة ليلة مضت من رمضان والإنجيل في ثمانية عشرة ليلة والقرآن في أربعة وعشرين ليلة. قال الفقيه: حدثنا إسحاق بن إبراهيم القطان قال: حدثنا محمد بن صالح الترمذي قال: حدثنا سويد بن نصر^(٩) قال: حدثنا عبد الله بن المبارك عن ابن جريح قال: قال ابن عباس في قوله ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ قال: أنزل القرآن: جملة واحدة على جبريل في ليلة القدر. وقال ابن جريح^(١٠): كان ينزل من القرآن في ليلة القدر كل شيء ينزل في تلك السنة فينزل ذلك من السماء السابعة على جبريل في السماء الدنيا ولا ينزل جبريل من ذلك على محمد - صلى الله عليه وسلم - إلا كلما أمر به تعالى. قوله عز وجل ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ أي القرآن هدى للناس من الضلالة وبياناً لهم ﴿وَيَبِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى﴾ يعني بيان الحلال

(١) سلمة بن عمرو بن الأكوع. كان شجاعاً رامياً، توفي سنة ٧٤ هـ. التهذيب ٤/ ١٥٠، الإصابة ٣/ ١٥١.

(٢) سقط من ظ. (٣) سقط من ظ. (٤) أخرجه البخاري ١٨١/ ٨ في كتاب التفسير.

(٥) سقط في أ.

(٦) الفضل بن دكين الكوفي، واسم دكين عمرو بن حماد بن زهير التيمي مولا هم الأحول أبو نعيم الملائي، ثقة ثبت. التقريب

١١٠/ ٢.

(٧) خالد بن مهران الحذاء ثقة. والحذاء نسبة إلى بيع الحذاء، وتوفي سنة ١٤٣ هـ. التهذيب ٢/ ١٢٠.

(٨) عبد الله بن زيد الجرمي، ثقة فاضل كثير الإرسال، توفي سنة ١٠٧ هـ. التهذيب ٥/ ٢٢٤.

(٩) سويد بن نصر بن سويد المروزي الطوساني، ثقة، توفي سنة ٢٤٠ هـ. التهذيب ٤/ ٢٨٠.

(١٠) ابن جرير في التفسير ٤٤٧/ ٣.

والحرام ﴿وَالْفُرْقَانِ﴾ أي المخرج من الشبهات (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) أي من كان منكم شاهداً ولم يكن مريضاً ولا مسافراً فليصم الشهر ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ فافطر ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ يقضيه بعد ذلك. روي عن عبد الله بن عمر: أنه كان يكره قضاء رمضان متفرقاً. وعن علي بن أبي طالب مثله، وقال معاذ بن جبل وأبو عبيدة بن الجراح وجماعة من الصحابة: أحصر العدد وصم كيف شئت. واختلفوا في حد المريض الذي يجوز له الإفطار: قال بعضهم: إذا كان بحال يخاف على نفسه التلف. وقال بعضهم: إذا استحق اسم المريض جاز له [أن يفطر]^(١) وقال بعضهم: إذا كان بحال يخاف أن يزيد الصوم في مرضه جاز له أن يفطر. وهو قول أصحابنا. ثم قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ في الإفطار في حال المرض والسفر ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ بالصوم في المرض والسفر ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾. قال الكلبي: يعني لتتموا [عدة ما]^(٢) أفطرت من الصوم في السفر أو في المرض. وقال الضحاك: (ولتكمّلوا العدة) يعني إذا غم عليكم هلال شوال فأكملوا الشهر ثلاثين يوماً. قرأ عاصم في رواية أبي بكر وأبو عمرو في رواية هارون: (ولتكمّلوا) بنصب الكاف وتشديد الميم وقرأ الباقون بالتخفيف وسكون الكاف وهما لغتان^(٣) يقال: كملت الشيء وأكملت مثله وصيت وأوصيت ثم قال ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ أي لتعظموا الله على ما هداكم لشرائعه وسنته وأمر دينه ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. أي لتشكروا الله تعالى على هذه النعمة^(٤) حيث رخص لكم الفطر في المرض والسفر. وقال مقاتل: لعلمكم تشكرون في هذه النعم أن هداكم لأمر دينه ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾. وذلك أنه لما نزلت هذه الآية (ادعوني أستجب لكم) قال أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يا رسول الله في أي وقت ندعوا الله حتى يستجاب دعاؤنا؟ فنزلت هذه الآية (وإذا سألك عبادي عني) ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أَجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ يعني أجيبكم في أي وقت تدعونني وقال بعضهم: سأله بعض أصحابه فقالوا: يا رسول الله: أقرب ربنا فتناجيه أم بعيد فنناديه فنزلت هذه الآية: (وإذا سألت عبادي عني فإني قريب). وقال مقاتل: إن عمر واقع امرأته بعدما صلى العشاء فندم على ذلك وبكى إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخبره بذلك ورجع من عنده مغتماً وكان ذلك قبل الرخصة فنزلت هذه الآية (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب) قرأ أبو عمرو ونافع وعاصم في إحدى الروايتين: (دعوة الداعي إذا دعاني) بالياء والباقون كلهم: بحذف الياء^(٥). وأصله بالياء إلا أن الكسر يقوم مقام الياء. ويقال فإني قريب في الإجابة أجيب دعوة الداعي إذا دعاني: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ بالطاعة ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ وليصدقوا بوعدتي. قال ابن عباس في رواية الكلبي: فليستجيبوا لي الاستجابة أن تقولوا بعد صلاتكم ليك اللهم ليك لا شريك لك ليك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك. (وليؤمنوا بي) والإيمان أن تقول: آمنت بالله وكفرت بالطاغوت وأن وعدك حق وأن لقاءك حق وأشهد أنك أحد فرد صمد لم تلد ولم تولد ولم يكن لك كفواً أحد وأشهد أن الساعة آتية لا ريب فيها وأنت باعث من في القبور. وروي عن ابن عباس أنه قال: ما تركت هذه الكلمات دبر^(٦) كل صلاة منذ نزلت هذه الآية وروي عن الكلبي أنه قال: ما تركتها منذ أربعين سنة ويقال: معناه أجيبوا لي بالطاعة إذا دعاكم [رسول الله]^(٧) - (وليؤمنوا بي) أي ليصدقوا بتوحيدي. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ أي يهتدون من الضلالة. قوله تعالى: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةٌ الصَّيَّامِ الرَّفَثِ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ يعني الجماع. وروى بكر عن عبد الله المزني عن ابن عباس أنه قال: الغشيان واللمس والإفشاء والمباشرة والرفث هو الجماع ولكن الله حيي كريم يكتفي بما شاء: وسبب نزول هذه الآية أن عمر بن الخطاب -

(١) في ظ [الإفطار]. (٢) في أ [العدة ما].

(٣) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٢٦. في أ [النعم]. (٥) حجة القراءات لابن زنجلة ١٢٦ - ١٢٧.

(٦) في أ [بعد]. (٧) سقط من ظ.

رضي الله عنه - واقع امرأته بعد صلاة العشاء في شهر رمضان بعد النوم فأخبر بذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما كنت جديراً بذلك فرجع مغتماً فنزلت هذه الآية ﴿أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثَ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ أي رخص لكم الجماع مع نسايتكم. ﴿هُنَّ لَيَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لَيَاسٌ لَهُنَّ﴾ أي من سكن لكم وأنتم سكن لهن. ويقال: هن ستر لكم من النار وأنتم ستر لهن من النار ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُتُمٌ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي تظلمون أنفسكم قال القتيبي: أصل الخيانة: أن يؤتمن الرجل على شيء فلا يؤدي الأمانة فيه وقد سمى الله تعالى هذا الفعل خيانة لأن الإنسان قد أؤتمن على دينه فإذا فعل بخلاف ما أمر الله به ولم يؤد الأمانة فيه فقد خانته [بمعصيته] (١). ﴿فَنَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي فتجاوز عنكم ﴿وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ ولم يعاقبكم بما فعلتم ﴿فَالَاَنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ أي جامعوهن ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ يعني اطلبوا ما قضى الله لكم من الولد الصالح. وقال الزجاج (٢): ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي اتبعوا القرآن فيما أبيح لكم فيه وأمرتم به. ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ نزلت في شأن صرمة بن قيس (٣) عمل في النخيل بالنهار فلما رجع منزله غلب عليه النوم قبل أن يأكل شيئاً فأصبح صائماً فأجهدته الصوم فرآه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في آخر النهار فقال له: مالك يا ابن قيس أمسيت طليحاً (٤) فقال ظللت أمس في النخيل نهارى كله أجر بالجرين حتى أمسيت فأتيت أهلي فأرادت أن تطعمني شيئاً سخناً فأبطأت علي [فتمت] (٥) فأيقظوني وقد حرم علي الطعام والشراب فلم أكل فأصبحت صائماً فأمسيت وقد أجهدي الصوم. فنزلت هذه الآية ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ ﴿حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ﴾ وهذا أمر أباحه الله وليس بأمر حتم. كقوله: (وإذا حللتكم فاصطادوا) وكقوله: (فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله) [فلفظه] (٦) لفظ الأمر والمراد به الإباحة وقد أباح الله الأكل والشرب والجماع إلى وقت طلوع الفجر بقوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْخَيْطَ الْأَبْيَضَ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ أي يستبين لكم بياض النهار من سواد الليل. ويقال: في الابتداء (لما) (٧) نزل قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْخَيْطَ الْأَبْيَضَ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ كان بعضهم يأخذ خيطين [أحدهما أبيض والآخر أسود] (٨) يجعل ينظر إليهما ويأكل ويشرب (٩) حتى يتبين له الأسود من الأبيض. وذكر عن عدي بن حاتم الطائي أنه قال: أخذت خيطين فجعلت أنظر إليهما فلم يتبين الأسود من الأبيض ما لم يسفر الفجر فأتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخبرته فتبسم وقال: إنك لعريض القفا إنما هو سواد الليل وبياض النهار فنزل قوله: (من الفجر) فارتفع الاشتباه (١٠). ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ أي إلى أول الليل وهو غروب الشمس. ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ﴾ يقول: ولا تجامعوهن ﴿وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ يقول ولا تجامعوهن وأنتم معتكفون فيها وذلك

(١) في ظ [بالمعصية].

(٢) معاني القرآن وإعرابه ١/ ٢٤٤.

(٣) صرمة بن أنس، ويقال: ابن قيس بن مالك بن عدي، مشهور بكنيته. الإصابة ٣/ ٤٤٢.

(٤) الطليح: هو المتعب المجهد، حكى عن الأعرابي: أنه لطلح سفر، وطلح سفر، ورجع سفر، وردية سفر بمعنى واحد. اللسان: طلح.

(٥) سقط من ظ.

(٦) في ظ [اللفظ].

(٧) في ظ [حين].

(٨) ما بين المعقوفين من ظ.

(٩) من ظ.

(١٠) أخرجه البخاري ١٨٢/٨ في التفسير، ومسلم ٧٦٦/٢ في الصوم (١٠٩٠/٣٣) وقال القاضي عياض: إنما أخذ الخيطين وجعلهما تحت رأسه وتأول الآية لكونه سبق إلى فهمه أن المراد بها هذا وكذا وقع لغيره ممن فعل فعله حتى نزل قوله تعالى «من الفجر» فعلموا أن المراد به بياض النهار وسواد الليل. وقال: معناه أن جعلت تحت وسادك الخيطين اللذين أرادهما الله تعالى وهما الليل والنهار فوسادك يعلوها ويغطيها، وحينئذ يكون عريضاً.

أنه لما رخص لهم الجماع في ليلة الصيام فكان الرجل إذا كان [معتكفاً]^(١) فإذا بدا له خرج بالليل إلى أهله فتغشاها ثم يغسل ويرجع إلى المسجد فنزلت هذه الآية: (ولا تباشروهن) [أي لا تجامعوهن]^(٢) ليلاً ولا نهاراً (وأنتم عاكفون)^(٣) في المساجد ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ قال الكلبي: يعني المباشرة في الاعتكاف معصية الله ﴿فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ في الاعتكاف. وقال الزجاج^(٤): الحد في اللغة هو المنع فكل من منع فهو حداد ولهذا سمي حد الدار حداً لأنه يمنع [الغير عن]^(٥) دخولها. ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ﴾ يعني النهي عن الجماع ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾. الجماع حتى يفرغوا من الاعتكاف. ويقال (تلك حدود الله) أي جميع ما ذكر الله تعالى من أول الآية إلى آخرها في أمر الصيام وغيره ونبين لهم الآيات لعلهم يتقون فينتهون عما نهاهم ويتبعون ما أمرهم.

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذُلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ أي بالظلم وشهادة الزور ﴿وَتَذُلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ يقول تلجأوا بالخصومة إلى الحكام. وقال الزجاج^(٦): تعملون بما يوجهه ظاهر الحكم وتتركون ما علمتم أنه الحق. ﴿لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا﴾ يعني طائفة ﴿مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ﴾ أي باليمين الكاذبة وشهادة الزور. ويقال: بالإثم أي بال جور. ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه جور ويقال: إنكم تعلمون أنكم تأخذون بالباطل. وهذه الآية نزلت في شأن امرئ القيس بن عباس الكندي^(٧) وعيدان بن أشوع الحضرمي اختصما إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فادعى أحدهما على صاحبه شيئاً فأراد الآخر أن يحلف بالكذب فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض فمن قضيت له بحق أخيه وأرى أنه لا يرى أنه من حقه فإنما أقضي له بقطعة من النار^(٨) فنزلت هذه الآية فيهما وصارت عامة لجميع الناس وروى سعيد بن المسيب عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: شاهد الزور إذا شهد لا يرفع قدميه من مكانهما حتى يلعنه الله من فوق عرشه.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوْقِيتٌ لِلنَّاسِ وَالْحَيِّجُّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ﴾ [جمع هلال]^(٩) واشتقاقه من قولهم: استهل الصبي إذا صاح

(١) في ظ [في اعتكافه]. (٢) سقط من ظ.

(٤) معاني القرآن وإعرابه ٢٤٤/١. (٥) في ظ [غيرها نحن]. (٦) معاني القرآن وإعرابه ٢٤٦/١.

(٧) امرؤ القيس بن عباس بن المنذر بن امرئ القيس بن عمرو بن معاوية الأكرمين الكندي، كان من الصحابة الذين حضروا حصار حصن النجير باليمن، وقتل عمه المرتد عن الإسلام. الإصابة ١١٢/١.

(٨) أخرجه مسلم ١٣٣٧/٣ كتاب الأقضية باب الحكم بالظاهر واللعن بالحجة (١٧١٣/٤) وأحمد في المسند ٢٠٣/٦ والشافعي في المسند (١٠٥) والدارقطني في السنن ٢٣٩/٤ والبيهقي في السنن ١٤٩/١٠ والبغوي في التفسير ١٤/٦ وفي الشرح ٣٦٤/١٢ والنسائي ٢٤٧/٨ وابن أبي شيبه ٢٣٣/٧، ٢٣٤، ١٠/١٦٨، ١٤/٢٦٨ والترمذي في السنن رقم (١٣٣٩) والطحاوي في معاني الآثار ١١٥/٤.

(٩) في ظ [جماعة الهلال].

وأهل بالحج: أي رفع صوته بالتلبية وكذلك الهلال يسمى هلالاً لأنه يهل الناس بذكره أي يرفعون الصوت عند رؤيته وإنما سمي الشهر شهراً لشهرته^(١). وقال الضحاك في معنى الآية: إن المسلمين سألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم عن خرص النخيل والتصرف في زيادة الشهر ونقصانه فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ﴾ ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ أي التصرف في حال زيادته ونقصانه سواء. قال ابن عباس في رواية أبي صالح: نزلت هذه الآية في شأن معاذ بن جبل وثعلبة بن غمة الأنصاري: لأنهما قالوا يا رسول الله ما بال الهلال يبدو فيطلع دقيقاً مثل الخيط ثم يزيد حتى يعظم ويستوي ويستدير ثم ينقص [فنزلت هذه الآية]^(٢) ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ﴾ قل هي مواقيت للناس والحج أي هي: علامات للناس في حل ديونهم وصومهم وفطرم وعدة نسائهم ووقت الحج. ثم قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾^(٣) قال الضحاك: وذلك أن الكفار كانوا لا يدخلون البيت في أشهر الحج من بابه وكانوا يدخلونه من أعلاه فنزلت هذه الآية: وقال ابن عباس في رواية أبي صالح: وذلك أن الناس كانوا في الجاهلية وفي أول الإسلام إذا أحرم رجل منهم قبل الحج فإن كان من أهل المدن يعني من أهل البيوت ثقب في ظهر بيته فممنه يدخل وممنه يخرج أو يضع سلماً فيصعد منه وينحدر عليه وإن كان من أهل الوبر يعني من أهل الخيام يدخل من خلف الخيمة إلا من الحمس وإنما سموا الحمس لأنهم يحمسون في دينهم أي شددوا على أنفسهم فحرموا أشياء أحلها الله لهم وحلّلوا أشياء كانت حراماً على غيرهم وهو الدخول من الباب. فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ يعني ليس التقوى بأن تأتوا البيوت من خلفها إذا أحرمتهم. (ولكن البر) يعني التقوى (من اتقى) أي أطاع الله واتبع أمره ويقال: ولكن ذو البر من اتقى الشرك والمعاصي. ثم قال تعالى: ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ يعني أدخلوها محلين ومحرمين ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ولا تقتلوا الصيد في إحرامكم وهذا قول الكلبي وقال مقاتل: واتقوا الله ولا تعصوه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ أي تنجون من العقوبة.

وَقَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾
وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَفَضْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ
﴿١٩٢﴾ وَقَتَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ
بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾

قوله تعالى ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ وذلك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خرج مع أصحابه إلى مكة للعمرة فنزل بالحديبية بقرب مكة والحديبية: اسم بئر فسمي ذلك الموضع باسم تلك البئر فصده المشركون عن البيت فأقام بالحديبية شهراً فصالحه المشركون على أن يرجع من عامه كما جاء على أن تخلى له مكة في العام المقبل ثلاثة أيام وصالحوه على أن لا يكون بينهم قتال إلى عشر سنين فرجع إلى المدينة

(١) راجع اللسان: هلال ٤٦٨٩، شهر / ٢٣٥١.

(٢) في ظ [فيذكر فنزل].

(٣) انظر أسباب النزول للواحدي (٣٦).

وخرج في العام الثاني للقضاء فخاف أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يقاتلهم المشركون وكرهوا القتال في الشهر الحرام فنزلت هذه الآية ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي في طاعة الله ﴿الَّذِينَ يقاتلونكم﴾ يعني في الحرم أو في الشهر الحرام ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ بأن تنقضوا العهد وتبدءوهم بالقتال في الشهر الحرام أو في الحرم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ يعني من يبدأ بالظلم. ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي حيث وجدتموهم في الحل والحرم، والشهر الحرام. فأمرهم الله تعالى: بقتل المشركين الذين ينقضون العهد وقوله ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجَكُم﴾ من مكة ﴿وَالْفِتْنَةُ﴾ أي الشرك بالله ﴿أَشَدُّ﴾ أي أعظم عند الله ﴿مِّنَ الْقَتْلِ﴾ في الشهر الحرام. ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي في الحرم ﴿حَتَّى يُقَاتِلَكُم فِيهِ﴾ أي يبدؤكم بالقتال ﴿فَإِنْ قَاتَلَكُم﴾ أي بدأكم بالقتال ﴿فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ أي هكذا جزاؤهم القتل في الحرم وغيره. قرأ حمزة والكسائي^(١): (ولا تقتلوه) بغير ألف (حتى يقتلوكم) (فإن قاتلوكم) وقرأ الباقون في هذه المواضع الثلاثة: بالألف. فمن قرأ بالألف فهو من المقاتلة ومن قرأ بغير ألف فمعناه لا تقتلوه حتى يقتلوا منكم. ﴿فَإِنْ أَنْتَهَوْا﴾ عن قتالكم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي إذا أسلموا وهذا كقوله: (قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف) ﴿وَقَاتِلُوهُمْ﴾ يعني أهل مكة ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ يعني الشرك بالله ﴿وَيَكُونَ الَّذِينَ كَلَهُ﴾ لله ﴿يَعْنِي الْإِسْلَامُ﴾ ﴿فَإِنْ أَنْتَهَوْا﴾ عن قتالكم وتركوا الشرك ﴿فَلَا عُدْوَانَ﴾ يقول لا سبيل ولا حجة عليهم في القتل ﴿إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ الذين بدأكم بالقتال. وقال القتيبي: أصل العدوان الظلم يعني لا جزاء للظلم إلا على الظالمين فسار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه حتى دخلوا مكة وطافوا بالبيت ونحروا الهدي وأقاموا بمكة ثلاثة أيام ثم انصرفوا [فنزلت هذه الآية]^(٢) ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ يعني الشهر الحرام الذي دخلت فيه الحرم بالشهر الحرام الذي صدوكم عنه العام الأول وهو ذو العقدة ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ (أي ما اقتضت لكم في ذي القعدة كما صدوكم. ويقال: إذا قاتلوكم في الشهر الحرام فقاتلوه في الشهر الحرام والحرمت قصاص) يعني قتالكم يكون لقاتلهم قصاصاً فكما تركوا الحرمه فأنتم تتركون [أيضاً]^(٣) ذلك. ويقال: إن سبب نزول هذه الآية أن المشركين سألوا المسلمين فقالوا: في أي شهر يحرم عليكم القتال؟ وأرادوا أن يقفوا على ذلك حتى يقاتلوه في الشهر الذي حرم القتال على المؤمنين فنزل قوله: (ولا تقاتلوه عند المسجد الحرام حتى يقاتلوه في) أي في وقت قتالكم المشركون حل لكم قتالهم. ثم قال تعالى ﴿فَمَنْ آغَتْدى عَلَيْكُمْ﴾ أي قاتلكم في الشهر الحرام ﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ أي قاتلوه في الشهر الحرام الثاني اعتداء لأنه مجازاة الاعتداء فسمي بمثل اسمه^(٤) وهذا كقوله عز وجل: (وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به) ثم صارت هذه الآية حكماً في جميع الجنايات إن من جنى على إنسان أو في ماله فله أن يجازيه بمثل ذلك بظاهر هذه الآية: ﴿فَمَنْ آغَتْدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ ﴿بِمِثْلِ مَا آغَتْدى عَلَيْكُمْ﴾ ثم قال (وَأَنْتَقُوا اللَّهَ) عن الاعتداء قبل أن يعتدوا عليكم ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ يعني يعين من اتقى الاعتداء.

(١) راجع / طلائع البشر في توجيه القراءات العشر للقمحاوي، والإنحاف والمهذب في القراءات العشر للدكتور محسن، حجة القراءات لابن زنجلة ١٢٧، ١٢٨.

(٢) في ط [فنزل قوله تعالى].

(٣) سقط في ط.

(٤) ومثل هذا يسميه البلاغيون «المشاكلة» وهي أن تذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديرًا. تحقيقاً: نحو قوله تعالى

﴿فَمَنْ آغَتْدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا آغَتْدى عَلَيْكُمْ﴾ وتقديرًا: مثل قوله تعالى ﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة﴾ ولعل أبا

علي الفارسي كان أول من أطلق عليه اسم المشاكلة. راجع معجم المصطلحات البلاغية. د/ أحمد مطلوب ٢٥٨/٣.

وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي في طاعة الله . قال ابن عباس وذلك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما أمر الناس بالخروج إلى الجهاد قام إليه ناس من الأعراب حاضري المدينة فقالوا: بماذا نجهز؟ فوالله ما لنا زاد ولا بطعمنا أحد فنزل قوله تعالى (وانفقوا في سبيل الله) يعني تصدقوا^(١) يا أهل المدينة فقالوا: بماذا نجهز؟ فوالله ما لنا زاد ولا الله ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ يعني ولا تمسكوا بأيديكم عند الصدقة فتهلكوا وهكذا قال مقاتل . ومعنى قول ابن عباس ولا تمسكوا عن الصدقة فتهلكوا أي لا تمسكوا عن النفقة والعون للضعفاء فإنهم إذا تخلفوا عنكم غلب عليكم العدو فتهلكوا ومعنى آخر: ولا تمسكوا فيرث منكم غيركم فتهلكوا بحرمان منفعة أموالكم . معنى آخر: ولا تمسكوا فيذهب عنكم الخلف في الدنيا والثواب في الآخرة . ويقال: (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) يعني لا تنفقوا من حرام فيرد عليكم فتهلكوا . وقال الزجاج^(٢): التهلكة: معناه الهلاك يقال: هلك يهلك هلاكا وتهلكة: معناه إن لم تنفقوا عصيتم الله فهلكتم وروي عن البراء بن عازب أن رجلا سأله عن التهلكة فقال: أهو الرجل إذا التقى الجمعان فحمل فيقاتل حتى يقتل؟ قال: لا ولكن الرجل يذنب ثم لا يتوب . وقال قتادة قيل لأبي هريرة: ألم تر سعد^(٣) بن هشام^(٤) لما التقى الصفان حمل فقاتل حتى قتل ألقى بيده إلى التهلكة؟ فقال أبو هريرة: كلا والله ولكنه تأويل^(٥) آية من كتاب الله: (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله)^(٦) وقال أبو عبيدة السلماني: التهلكة أن يذنب (الرجل)^(٧) فيقنط من رحمة الله فيهلك . وروي عن أبي أيوب الأنصاري أنه قال: نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار إنا لما أعز الله دينه وكثرنا قلنا فيما بيننا: إن أموالنا قد ضاعت فلو أقمنا فيها وأصلحنا منها ما ضاع فأنزل الله تعالى: (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) فكانت التهلكة: في الإقامة التي أردنا أن نقيم في أموالنا ونصلحها فأمرنا بالغزو ثم قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا﴾ أي أحسنوا النفقة من الصدقة ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ في النفقة ويقال: وأحسنوا في النفقة أي أخلصوا النية في النفقة . ويقال: أحسنوا الظن بالله تعالى فيما أنفقتم أنه يخلف عليكم في الدنيا ويبيحكم في الآخرة .

وَاتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ الْحَجَّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِّنْ عَرَفَتٍ

(٣) في ظ [سعيد].

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٢٥٥/١ .

(١) ما بين المعقوفين من ظ .

(٤) سعد بن هشام بن عامر الأنصاري ، ابن عم أنس بن مالك ، ثقة . التهذيب ٤٨٣/٣ .

(٧) سقط من ظ .

(٦) ذكره ابن جرير في التفسير ٥٨٨/٣ .

(٥) في ظ [تأويل].

فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَدْ خَلَقْنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾

قوله تعالى: (وأتمو الحج والعمرة لله.) قرأ الشعبي^(١): (والعمرة لله) بالضم على معنى الابتداء وقرأ العامة (والعمرة)^(٢) بالنصب على معنى البناء. قال ابن عباس: تمام العمرة إلى البيت وتمام الحج إلى آخر الحج. وقال مقاتل: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ من المواقيت ولا تستحلوا فيهما ما لا ينبغي لكم وذلك أنهم كانوا يشركون في إحرامهم ومعنى قول مقاتل أنهم كانوا يشركون فيقولون: لبيك اللهم لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما ملك فقال: وأتموها ولا تخلطوا بهما شيئا آخر. ثم خوفهم فقال: ﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ فيما تعديتهم ثم قال عز وجل ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ﴾ أي حبستم عن البيت بعدما أحرمتم. وقال القتيبي: الإحصار هو أن يعرض للرجل ما يحول بينه وبين الحج من مرض أو كسر أو عدو. وقال الفراء^(٣): الإحصار ما ابتلي به الرجل في إحرامه من المرض أو العدو وغيره. وقال بعضهم: لا يكون الإحصار إلا من العدو^(٤) وقال بعضهم: يكون من العدو [وغيره]^(٥) وبه قال علماؤنا - رحمهم الله -. ثم قال: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي ابعثوا [إلى البيت ما استيسر]^(٦) من الهدي والله تعالى رخص لمن عجز عن الوصول إلى البيت بالعدو أن يبعث الهدي فيتزعم عنه بمكة ويحل الرجل من إحرامه إذا ذبح هديه ويرجع إلى أهله ثم يقضي حجه وعمرته بعد ذلك. ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ يعني المحصر إذا بعث بالهدي لا يجوز له أن يحل من إحرامه ما لم يذبح هدية يقول: لا يحلق رأسه حتى يكون اليوم الذي واعد فيه ويعلم أن هديه قد ذبح ثم صار هذا أصلاً لجميع الحجاج من كان قارناً أو متمتعاً لا يجوز له أن يحلق رأسه إلا بعد أن يذبح هديه وإن لم يكن محصراً. ثم قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّنْ صِيَامٍ﴾ يعني إذا حلق رأسه على وجه الإضمار مثل قوله تعالى (فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر) يعني إذا كان^(٧) أفطر. وروي عن كعب بن

(١) قراءة الشعبي هذه لم تتواتر وكذا قراءة الحسن «والعمرة» بالرفع شاذة والصحيح هو إسكان الميم ونصب التاء.

(٢) سقط من ظ. (٣) معاني القرآن ١/١١٧.

(٤) والإحصار يطلق في اللغة على المنع من أحصره وحصره، والأول في المرض أشهر والثاني في العدو أشهر، ووقوع الأول في القرآن للعدو ولا يخرج عن الفصاحة وعرفه علماء الشافعية بأنه المنع من النسك ابتداءً أو دواماً أما كلياً أو بعضاً وأسباب الحصر ستة عندهم: العدو والمرض والسيادة والزوجة والأصلية، والدينية، فيندب للفرع وأن سفل استئذان جميع أصوله ولو كفاراً أو أرقاء في أداء النسك ولو فرضاً ولكل منهم منعه منه إحراماً وسفراً وتحليله بعد إحرامه إن كان تطوعاً إلا إن كان مسافراً معه أو كان سفره دون مرحلتين ويجب التحلل بأمره. انظر تفصيل هذا في: قليوبي وعميرة ١٤٦/٢. مغني المحتاج ١/٥٣٢.

(٥) في ظ (ومن المرض). (٦) ما بين المعقوفين من ظ. (٧) من ظ.

عجرة^(١) أنه قال في نزلت [هذه الآية]^(٢). وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - مر بي والقمل يتناثر على وجهي فقال: أيزدك هوام رأسك فقلت نعم فأمر بي بأن احلق [رأسي فقال: احلق رأسك]^(٣) وأطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من حنطة أو صم ثلاثة أيام أو انسلك نسيكة يعني اذبح شاة فنزلت هذه الآية: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ﴾^(٤) ﴿أَوْ صَدَقَةٌ أَوْ نُسْكَ﴾ أي شاة يذبحها حتى يبلغ الهدي محله. ويروى عن عبد الرحمن الأعرج^(٥) أنه قرأها: بتشديد الياء^(٦). وواحدا هدية. وقرأ الباقر: بالتخفيف يقال للواحدة: هدي وهدية. ثم قال ﴿فَإِذَا أُمِيتُمْ﴾ وهذا على سبيل الاختصار والإضمار. ومعناه فإذا أمتم من العدو فافضوا ما وجب عليكم من الحج والعمرة. ويقال: إذا أمتم من العدو وبرأتم من المرض فحجوا واعتمروا. ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ يعني فعلية ما تيسر من الهدي وللمتمتع أن يحج ويعتمر في سفره واحدة من أشهر الحج. والمحرمون أربعة: مفرد بالحج ومفرد بالعمرة والمتمتع والقارن فأما المفرد بالحج أن يحج ويعتمر والمفرد بالعمرة أن يعتمر ولا يحج وأما المتمتع أن يعتمر في أشهر الحج ويمكث بمكة حتى يحج بعدما فرغ من عمرته وأما القارن فهو الذي يحرم بالحج والعمرة جميعاً: فمن كان مفرداً بالحج أو بالعمرة فلا يجب عليه الهدي ومن كان متمتعاً أو قارناً فعليه الهدي. وقال عبد الله بن عمر أنه قال: الهدي: الجزور^(٧) وقال ابن عباس: أقله شاة^(٨) وبه قال علماؤنا ثم قال ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ الهدي ﴿فَصِيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾. قال ابن عباس: آخرها يوم عرفة. ﴿وَسَبْعَةٌ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾. قال بعضهم: إذا رجعتهم^(٩) إلى أهليكم. وقال بعضهم: إذا رجعتهم من منى: وقال بعضهم: إذا رجعتهم إلى الأمر الأول يعني إذا فرغتم من أمر الحج وبهذا القول نقول^(١٠) ثم قال: ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ في البذل يعني العشرة (الكاملة)^(١١) كلها بدل عن الهدي يعني ﴿ذَلِكَ﴾ الفداء^(١٢) ﴿لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ [حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ]﴾ أي ذلك الفداء^(١٣) لمن لم يكن منزله في الحرم. وقال قتادة ومقاتل: ذلك يعني التمتع لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام يعني الحرم. ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه. ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ إن خالفتم. ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ أي وقت الحج أشهر معلومات وهو: شوال وذو القعدة وعشرة من ذي الحجة ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾. قال القتيبي: الفرض وجوب الشيء يقال: فرضت عليك كذا أي أوجبه^(١٤) قال الله تعالى (فنصف ما فرضتم) أي ما ألزمت أنفسكم. وقال: (قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم) وقال تعالى ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ أي فمن أحرم في هذه الأشهر بالحج ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ﴾. قرأ ابن كثير وأبو عمرو: (فلا رفث ولا فسوق) بالرفع مع التنوين والباقر بالنصب بغير تنوين^(١٥). واتفقوا في قوله: (ولا جدال) بالنصب غير أبي جعفر المدني فإنه قرأ بالرفع وهذا يقال له: لا التبرية فكل

(١) كعب بن عجرة بن أمية بن عدي القضاعي المدني، حليف الأنصار. الإصابة ٥/٥٩٩.

(٢) من ظ. (٣) ما بين المعقوفين من ظ.

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري ١٢/٤ في المحصر باب قول الله تعالى ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٌ أَوْ نُسْكَ﴾ البقرة: ١٩٦ (١٨١٤) وفي ١٦/٤ (١٨١٥) ومسلم ٨٦١/٢ في الحجر باب جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى (١٢٠١/٨٣).

(٥) عبد الرحمن بن هرم الأعرج أبو داود المدني تابعي جليل، شذرات الذهب ١/١٥٣.

(٦) وهي قراءة شاذة غير متواترة، والصحيحة «الهدي» بإجماع السبعة. (٧) انظر الدر المنثور ١/٢١٣.

(٨) المصدر السابق ١/٢١٢. (٩) ما بين المعقوفين من ظ. (١٠) في أ [تأخذ]. (١١) من أ.

(١٢) من ظ. (١٣) سقط في ظ. (١٤) الصحاح ٣/١٠٩٧، المغرب ٢/١٣٣، المصباح المنير ٢/٧١٩.

(١٥) أما قراءة الرفع فعلى اعتبار أن «رفث» اسم لا العاملة عمل ليس «ولا فسوق» عطف عليه، و«لا» مكررة للتأكيد ونفي الاجتماع وبناء =

موضع يدخل فيه لا التبرية فصاحبه بالخيار إن شاء نصبه بغير تنوين وإن شاء ضمه بالتنوين مثل قوله (ولا خلة) (ولا شفاعه). وتفسير الرفث هو الجماع كقوله: (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) وقال بعضهم: الرفث: التعرض بذكر النساء والفسوق: هو السباب، والجدال: أن تماري صاحبك حتى تغيظه^(١). أي من كان محرماً لا يجامع في إحرامه ولا يسب ولا يماري ويقال: الفسوق الذبح للأصنام. كقوله تعالى: (أو فسقاً أهل لغير الله به) والجدال هو أن قريشاً كانت تقف بالمزدلفة وكانوا يجادلون^(٢) كل فريق يقولون: نحن أصوب سبيلاً. وروي عن مجاهد أنه قال قد استقر الحج في ذي الحجة فلا جدال فيه وذلك أن المشركين كانوا يحجون عامين في ذي العقدة وعامين في ذي الحجة فلما فتح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكة بعث أبا بكر ليحج بالناس فوافق ذلك آخر عام ذي العقدة فلما حج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حجة الوداع وافق ذلك (أول)^(٣) عام في ذي الحجة فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض^(٤). يعني رجع أمر الحج [إلى ذي الحجة]^(٥) كما كان فنزل (وَلَا جِدَالَ) ﴿فِي الْحَجِّ﴾ ثم قال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ يعني من ترك الفسوق والمرأة والجدال ﴿يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ أي يقبله الله فيجازيكم به. ﴿وَتَزُودُوا﴾ في سفركم للحج والعمرة ما تكفون به وجوهكم عن المسألة. ﴿فَإِنْ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ قال مقاتل وذلك أن أناساً من أهل اليمن^(٦) كانوا يخرجون بغير زاد ويصيبون من أهل الطريق^(٧) ظملاً فنزلت في شأنهم (وتزودوا [فإن خير الزاد التقوى])^(٨). وقال بعضهم: تزودوا لسفر الدنيا بالطعام وتزودوا لسفر الآخرة بالتقوى فإن خير الزاد التقوى. ويقال خير الزاد التقوى هو التوكل على الله وأن لا يؤذي أحداً لأجل الزاد والطعام. ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يعني اطيعوني يا ذوي [الألباب]^(٩) أي العقول فيما أمرتكم به. ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وذلك أنهم كانوا إذا حجوا كفوا عن التجارة وطلب المعيشة في الحج فلم يشتروا ولم يبيعوا حتى تمضي أيام حجهم فجعل الله تعالى لهم رخصة في ذلك فقال تعالى ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (أي مأثم عليكم)^(١٠) أن تطلبوا رزقاً من ربكم من التجارة في أيام الحج. وقال مقاتل: سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن سوق عكاظ وسوق منى وذي المجاز في الجاهلية كنا نقوم في [التجارة]^(١١) قبل الحج وبعد الحج فهل يصلح لنا البيع والشراء في أيام حجنا؟ فنزلت هذه الآية. ومعنى آخر: ما روي عن عبد الله بن عمر: أن رجلاً سأل فقال إني رجل أكرى الإبل إلى مكة أفجزيني عن حجي: فقال أولست تلي؟ وتقف بعرفات وترمي الجمار؟ فقال: [بلى]^(١٢) فقال: [سأل رجل]^(١٣) رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن مثل ما سألتني فلم يجبه حتى نزلت هذه

= الثالث على الفتح وهو «جدال» على معنى الإخبار بانتفاء الخلاف في الحج، ويقدر الرفع أيضاً على معنى «لا يكونن رفث ولا فسوق».

أما قراءة الباقي بالنصب فعلى جعل «لا» للتبرئة، وانفرد أبو جعفر برفع الكلمات الثلاث وهي قراءة صحيحة متواترة أيضاً. انظر: الدرة المتممة للعشر بشرح السمانودي والقاضي من سورة البقرة، وكذا أبو شامة والإتحاف والمهذب في القراءات العشر للدكتور محيسن.

(١) انظر لهذه المعاني: اللسان: رفث. (٢) في ظ [يجادلون في] (٣) في ظ [أوله]. (٤) أخرجه البخاري ٥٧٣/٣ في الحج باب الخطبة أيام منى (١٣٢) وفي ١٠٨/٨ (٤٤٠٦) وفي ٧/١٠ في الأضاحي (٥٥٥٠) وفي ١٣/٤٢٤ (٧٤٤٧) ومسلم ١٣٠٥/٣ في القسامة (٢٩)، (١٦٧٩/٣١).

(٥) من ظ. (٦) من ظ. (٧) في ظ [الطريق يعني عن النكدي وقال بعضهم معناه يصيبون]. (٨) من ظ. (٩) في ظ [العقول]. (١٠) في ظ [أي لا مأثم]. (١١) من ظ. (١٢) في ظ [نعم]. (١٣) في أ [سئل].

الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(١) وروي عن ابن عباس نحوه^(٢). ثم قال تعالى ﴿فَإِذَا أَنْفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ يقول إذا رجعتُم من عرفات بعد غروب الشمس ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ يعني بالمزدلفة. وقال عطاء: إنما سميت عرفات لأن جبريل كان يعلم إبراهيم - عليه السلام - أمور المناسك فكان يقول له: عرفت فيقول عرفت فسميت عرفات. وقال ابن عباس: إنما سميت منى لأن جبريل قال لأدم عليهما السلام: تمن قال: أتمنى الجنة فسميت منى قال: وإنما [سمي الجمع جمعاً]^(٣) لأنه اجتمع فيه آدم وحواء والجمع أيضاً: هو المزدلفة وهو المشعر الحرام. ثم قال: ﴿وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَذَاكُمْ﴾ يقول: (اشكروا الله)^(٤) كما هداكم لدين الإسلام ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ﴾ أي وقد كنتم ﴿مِنْ قَبْلِهِ لِمَنِ الضَّالِّينَ﴾ عن الهدى وكانت قريش لا تخرج من الحرم إلى عرفات وكان الناس يقفون خارج الحرم من كان من أهل اليمن وغيرهم بعرفات ويفيضون منها فأمر الله تعالى قريشاً أن يقفوا من حيث وقف الناس ويفيضوا من حيث أفاض الناس فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ تعالى لذنوبكم في الموقف ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ متجاوز عن ذنوبكم. فأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يخرج بالناس جميعاً إلى عرفات فيقف بها. وروي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: إن الله تعالى يباهي ملائكته بأهل عرفات ويقول: انظروا إلى عبادي جاءوا من كل فج عميق شعناً غبراً اشهدوا: أني قد غفرت لهم. ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مِنْاسِكُكُمْ﴾ أي فرغتم من أمر حجكم. ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ باللسان ﴿كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ في ذلك الموقف ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً﴾ يقول: أو أكثر ذكراً وذلك أن العرب كانوا إذا فرغوا من حجهم وقفوا بين المسجد الذي بمنى وبين الجبل ثم ذكر كل واحد منهم أباه بما كان يعلم منه من الخير ثم يتفرقون قال الله تعالى: (فاذكروني) بالخير (كذكركم آباءكم) بالخير فإن ذلك الخير مني وقال عطاء بن أبي رباح: قوله (كذكركم آباءكم) هو كقول الصبي: أبه أبه يعني أن الصبي إذا كان أول ما يتكلم فإن أكثر قوله: أب أب ويقال فاذكروا الله كذكركم آباءكم لأبيكم آدم لأنه لا أب له بل أشد ذكراً لأنني خلقتة من غير أب ولا أم وخلقتكم من الآباء والأمهات ثم قال تعالى: ﴿فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ: رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ وهم المشركون كانوا يقولون إذا وقفوا: اللهم ارزقنا إبلاً وبقراً وغنماً وعبيداً^(٥) وإماء وأموالاً ولم يكونوا يسألون لأنفسهم التوبة ولا المغفرة فأنزل الله تعالى: (فمن الناس من يقول ربنا آتينا في الدنيا) ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ أي من نصيب. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قال ابن عباس: يعني الشهادة والمغفرة والغنيمة ﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ أي الجنة. وقال القتبي: الحسنة النعمة كقوله: (إن تصيبك حسنة تسوءهم) أي نعمة وقال الحسن البصري: (آتينا في الدنيا حسنة) أي العلم والعبادة (وفي الآخرة حسنة) أي الجنة [قال الإمام: حسنة الدنيا ثوابك وقوت من الحلال يكفيك وزوجة صالحة ترضيك وعلم إلى الحق يهديك وعمل صالح ينجيك. وأما حسنة الآخرة فإرضاء الخصومات وعفو السيئات وقبول الطاعات والنجاة من الدرجات والفوز بالدرجات] ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي ادفع عنا عذاب النار. ﴿أُولَئِكَ﴾ يعني المؤمنين^(٦) الذين يدعون بهذا الدعاء ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ﴾ أي حظ ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ من حجهم ويقال: لهم ثواب مما عملوا. وقال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً كان على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: اللهم ما كنت (معاقبني)^(٧) به في الآخرة فعمله لي في الدنيا فأضني الرجل في مرضه حتى نحل

(١) ما بين المعقوفين من ظ.

أخرجه أبو داود ١٤٢/٢ في المناسك باب الكري (١٧٣٣).

(٢) أخرجه أبو داود المصدر السابق (١٧٣٤).

(٣) في ظ [اشكروه].

(٤) في ظ [سميت جمع].

(٥) في ظ [تعاقبي].

(٦) ما بين المعقوفين من أ.

(٧) سقط في أ.

جسمه فأخبر بذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأتاه فأخبر بأنه كان يدعوا بكذا وكذا فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : يا ابن آدم إنك لا تستطيع أن تقوم بعقوبة الله تعالى ولكن قل : ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. فدعا بها الرجل فبرأ^(١). ثم قال : ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ قال الكلبي : إذا حاسب فحسابه^(٢) سريع ويقال : والله سريع الحفظ. وقال الضحاك : يعني لا يخالطه العباد في الحساب يوم القيامة ولا يشغله ذلك. ويقال : يحاسب كل إنسان فيظن كل واحد منهم^(٣) أنه يحاسبه خاصة. وقوله تعالى :

وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ أي معروفات وهي أيام التشريق. وقال القتيبي : أيام التشريق (والمعلومات أيام العشر)^(٤). [وقال يحيى بن سعيد : سألت عطاء عن الأيام المعدودات وعن المعلومات قال : الأيام المعدودة : أيام النحر والمعلومات أيام العشر. وقال بعضهم الأيام المعدودات أيام التشريق بدليل ما سبق في سياق الآية : ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ والمعلومات أيام النحر]^(٥) بدليل قوله : (في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام) فذكر النحر في تلك الأيام. وقال الضحاك : معنى قوله : (واذكروا الله في أيام معدودات) [أي معروفات وهي أيام التشريق]^(٦) أي كبروا دبر كل صلاة من يوم عرفة إلى آخر أيام التشريق ويقال : (واذكروا الله في أيام معدودات) يعني التكبير عند رمي الجمار. قوله : (فمن تعجل في يومين) أي رجع إلى أهله ، بعدما رمى في يومين وترك الرمي في اليوم الثالث (فلا إثم عليه) [في تعجيله ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ﴾ إلى آخر النفر ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في تأخيره]^(٧) ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾ يعني قتل الصيد في الإحرام وفي الحرم. وقال قتادة : ذكر لنا أن ابن مسعود قال : إنما جعلت المغفرة لمن اتقى في حجه. ويقال : لمن اتقى بعد انصرافه من حجه عن جميع المعاصي وإنما حذرهم الله تعالى لأنهم إذا رجعوا من حجهم يجتروئون على الله تعالى بالمعاصي فحذرهم عن ذلك فقال : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ﴾ يعني كلامه وحديثه وهو أخنس بن شريق^(٨) كان حلو الكلام حلو المنظر فاجر السريرة. وروى أسباط عن السدي قال : أقبل أخنس بن شريق إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة فقال : إنما جئت أريد الإسلام وقال : الله يعلم أنني صادق فأعجب النبي - صلى الله عليه وسلم - بقوله ثم خرج من

(١) أخرجه أحمد في المسند ١٠٧/١

(٢) في ظ [فحاسبه].

(٥) ما بين المعقوفين من ظ.

(٤) في أ [النحر].

(٧) ما بين المعقوفين من ظ.

(٦) سقط من ظ.

(٨) الأخنس بن شريق الثقفي ، أبو ثعلبة واسمه أبي ، الإصابة ٣٨/١.

عنده فمر بزرع للمسلمين فأحرقه ومر [بحمار للمسلمين فمقره] ^(١) فنزلت هذه الآية ^(٢) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي يعجبك كلامه وحديثه ﴿وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ من الضمير أنه يحبه وهو يريد الإسلام ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ أي شديد الخصومة. قال القتيبي ^(٣) أي أشدهم خصومة. يقال: رجل ألد بين اللد واللد ^(٤)، وقوم لد كما قال في آية أخرى: (وتنذر به قوماً لُذّاً) ثم قال: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ﴾ يقول إذا فاركك رجع عنك سعى في الأرض) [أي مضى في الأرض بالمعاصي] ^(٥) ﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ أي يعصي الله في الأرض ﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ أي يحرق الكدس ويعقر الدواب ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ أي لا يرضى بعمل المعاصي. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ﴾ في صنعك ﴿أَخَذَتِ الْعِرْزَ﴾ أي الحمية ﴿بِالْإِثْمِ﴾ يعني الحمية في الإثم يعني تكبراً يقول الله تعالى: ﴿فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَلِبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أي ولبئس الفراش ولبئس القرار. [فهذه الآية نزلت في شأن] ^(٦) أخنس بن شريق ولكنها صارت عامة لجميع الناس فمن عمل مثل عمله استوجب تلك العقوبة. وقال بعض الحكماء أن من يقتل حماراً ويحرق كدساً استوجب الملامة ولحقه الشين إلى يوم القيامة فالذي يسعى بقتل مسلم كيف يكون حاله وذكر أن يهودياً كانت له حاجة إلى هارون الرشيد فاختلف إلى بابه سنة فلم تنقض حاجته فوقف يوماً على الباب فلما خرج هارون الرشيد سعى ووقف بين يديه وقال: اتق الله يا أمير المؤمنين فنزل هارون عن دابته وخر ساجداً لله تعالى فلما رفع رأسه أمر [به] ^(٧) ففضيت حاجته فلما رجع قيل: يا أمير المؤمنين نزلت عن دابتك بقول يهودي؟ قال: لا ولكن تذكرت قول الله تعالى (وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم) إلى آخره وقال قتادة: ذكر لنا أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: إذا دعيتم إلى الله فأجيبوا وإذا سئلتهم بالله فأعطوا فإن المؤمنين كانوا كذلك.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في شأن صهيب بن سنان الرومي ^(٨) مولى عبد الله بن جدعان وفي نفر من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منهم [ياسر أبو] ^(٩) عمار بن ياسر وسمية أم عمار وخباب بن الأرت ^(١٠) وغيرهم أخذهم المشركون فعذبوهم فأما صهيب فإنه كان شيخاً كبيراً وله مال ومتاع فقال لأهل مكة: إني شيخ كبير وإني لا أضركم إن كنت معكم أو مع عدوكم فأنا أعطيكم مالي ومتاعي وذروني وديني أشتريه منكم بمالي ففعلوا ذلك فأعطاهم ماله إلا مقدار راحته وتوجه إلى المدينة فلما دخل المدينة لقيه أبو بكر فقال له: ربح البيع يا صهيب فقال له: وبيعتك فلا يخسر فقال: وما ذلك يا أبا بكر فيخبره بما نزل فيه ففرح بذلك صهيب. وقتل ياسر أبو عمار وأم عمار سمية فنزلت هذه الآية في شأن صهيب (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله) أي يشري نفسه ودينه وهذا من أسماء الأضداد يقال: شري واشترى

(١) في ظ [بحمّر للمسلمين فمقرها]. (٢) انظر الطبري ٢٢٩/٤. (٣) تفسير غريب القرآن (٨٠).

(٤) ساقطة من أ. (٥) ما بين المعقوفين من ظ. (٦) ما بين المعقوفين من ظ.

(٧) في ظ [بحاجته].

(٨) صهيب بن سنان بن مالك الرومي أبو يحيى، شهد بدرًا والمشاهد بعدها توفي سنة ٣٩ هـ الإصابة ٤٤٩/٣.

(٩) سقط من أ.

(١٠) خباب بن الأرت بن جندلة التميمي، أبو عبد الله، كان من السابقين الأولين في الإسلام، شهد بدرًا، توفي سنة ٣٧ هـ. الإصابة

وباع وابتاع . (ابتغاء مرضاة الله) أي طلب [يشترى نفسه ودينه] ^(١) رضاء الله ﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي رحيم بهم ثم صارت هذه الآية عامة لجميع الناس من بذل ماله ليصون به نفسه ودينه فهو من أهل هذه الآية .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ . قرأ ^(٢) نافع وابن كثير والكسائي : (السلم) بنصب السين وقرأ الباقون : بالكسر (والسلم) بالكسر هو الإسلام والسلم بالنصب هو المسالمة والصلح ويقال : السلم والسلم في اللغة ^(٣) : هو الصلح قال ابن عباس : نزلت هذه الآية فيمن أسلم من أهل الكتاب كانوا يتقون السبت ويحرمون أكل لحوم الجمال فنزلت : (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة) . أي في شرائع دين محمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ يعني طاعات الشيطان . قال مقاتل : استأذن عبد الله بن سلام وأصحابه بأن يقرءوا التوراة في الصلاة وأن يعملوا ببعض ما في التوراة [فتزل قوله] ^(٤) : ﴿ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ فإن اتباع السنة الأولى - بعدما بعث محمد - صلى الله عليه وسلم - من خطوات الشيطان . وقال بعضهم ﴿ادخلوا في السلم كافة﴾ أي اثبتوا على شرائع محمد - صلى الله عليه وسلم - ولا تخرجوا منها وقوله : (كافة) أي عبارة عن الجميع فيجوز أن يكون معناه ادخلوا جميعاً ويجوز أن يكون معناه : ادخلوا في جميع شرائعه ولا تتبعوا خطوات الشيطان أي لا تسلكوا الطريق التي يدعوكم إليها الشيطان ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي ظاهر العداوة ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ﴾ أي ملتم عن شرائع محمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ يعني محمداً - صلى الله عليه وسلم - وشرائعه ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ عزيز بالنعمة حكيم في أمره وقال مقاتل أي حكيم حكم عليهم بالعذاب الشديد .

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ هل في القرآن على سبعة أوجه ^(٥) . في موضع يراد بها (قد) كقوله : (هل أتاك) أي قد أتاك . ومرة يراد بها (الاستفهام) كقوله (هل إلى مرد من سبيل) ومرة يراد بها (السؤال) كقوله (فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً) ومرة يراد بها (التفهم) كقوله : (هل أدلكم على تجارة) ومرة يراد بها (التوبيخ) كقوله (هل أنبؤكم على من تنزل الشياطين) [ومرة] ^(٦) يراد بها (الأمس) كقوله (فهل أنت متهون) أي انتهوا ومرة يراد بها (الجدد) كقوله في هذا الموضع : (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ) أي ما ينظرون . وقال ابن عباس في رواية أبي صالح : هذا من

(١) من ظ .

(٢) راجع حجة القراءات لابن زنجلة (٦٠٨) .

(٣) راجع اللسان : سلم .

(٤) سقط من ظ .

(٥) راجع ذلك في البرهان في علوم القرآن للزركشي ٤/٤٥٧ ، ٤٥٨ .

(٦) في ظ [وقد يذكر] .

المكتوم الذي لا يفسر. . . وروى عبد الرزاق^(١) عن سفيان الثوري^(٢) قال: قال ابن عباس تفسير القرآن على أربعة أوجه: تفسير يعلمه العلماء وتفسير تعرفه العرب وتفسير لا [يقدر]^(٣) أحد عليه لجهالته وتفسير لا يعلمه إلا الله عز وجل ومن ادعى علمه فهو كاذب وهذا موافق لقوله تعالى (وما يعلم تأويله إلا الله) [وكذلك هذه الآية سكت بعضهم عن تأويلها وقالوا: لا يعلم تأويله إلا الله]^(٤) وبعضهم تأولها فقال: هذا وعيد للكفار فقال: (هل ينظرون) أي ما ينتظرون ولا يؤمنون (إلا أن يأتيهم الله) يعني أمر الله تعالى كما قال في موضع آخر (فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا) يعني أمر الله وقال بعضهم: (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله) يعني بما وعد لهم من العذاب ﴿فِي ظُلُلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ يعني في غمام فيه ظلمة [وقيل في ظلل يعني بظلل]^(٥) وقال: على غمام فيه ظلمة. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ قرأ أبو جعفر بكسر الهاء يعني في ظلل من الغمام وفي الملائكة قال قتادة وهي قراءة شاذة والقراءة المعروفة بالضم يعني تأتيهم الملائكة^(٦). وقال قتادة (والملائكة) يعني تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم ويقال: يوم القيامة ﴿وَقُضِيَ الْأُمُورُ﴾ أي فرغ مما يوعدون يعني دخول أهل الجنة الجنة ودخول أهل النار النار. ﴿وَالِلَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ يعني عواقب الأمور. قرأ حمزة والكسائي وابن عامر (ترجع) بنصب التاء ويكون الفعل للأمور وقرأ الباقون: بضم التاء على فعل ما لم يسم فاعله^(٧).

سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤١١﴾

قوله تعالى: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ قال مقاتل: معناه سل علماء بني إسرائيل كم أعطيناكم ﴿مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ حين فرق لهم البحر وأغرق عدوهم وأنزل عليهم المن والسلوى. ويقال: (كم آتيناكم من آية بينة) يعني نعت محمد - صلى الله عليه وسلم - ثم قال: ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ أي يغير نعمة الله تعالى ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يعني يقول إذا لم يشكر نعمة الله تزول عنهم النعم ويستوجبوا العقوبة.

زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤١٢﴾

قوله تعالى: ﴿زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ قال الكلبي: نزلت في شأن رؤساء^(٨) قريش زين لهم ما بسط لهم [في الدنيا]^(٩) من الخير ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في أمر المعيشة لأنهم كانوا فقراء ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي

(١) عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري، مولاهم أبو بكر الصنعاني، ثقة، حافظ، مصنف، مات سنة إحدى عشرة، التقريب ٥٠٥/١.

(٢) من ظ. (٣) في ظ [يعذر]. (٤) ما بين المعقوفين من ظ.

(٥) في ظ [ويقال على غمام فيه ظلمة].

(٦) هي بكسر التاء عطفاً على الغمام، وقوله «قراءة شاذة» ليس صواباً، بل هي قراءة صحيحة متواترة، وقراءة الرفع عطفاً على لفظ الجلالة.

انظر: الدرر المتممة والإتحاف والنشر لابن الجزري «سورة البقرة».

(٩) في أ [فيها].

(٨) (من ظ).

(٧) راجع حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٣٠، ١٣١.

أطاعوا الله وهم فقراء المؤمنين ﴿فَوَقَّهْمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي فوق المشركين في الجنة والحجة في الدنيا. وقد اختلفوا في قوله: (زين للذين كفروا) قال بعضهم: يعني زينها لهم إبليس لأن الله تعالى قد زهد فيها وأعلم أنها متاع الغرور ولكن الشيطان زين لهم الأشياء كما قال في آية أخرى (وزين لهم الشيطان أعمالهم) [وقال في آية أخرى (وزينا لهم أعمالهم) فكان ذلك مجازاة لكفرهم^(١)] وقال بعضهم: معناه أن الله تعالى زين لهم لأنه خلق فيهم الأشياء العجيبة^(٢) فظفر إليها الذين كفروا فاغتروا بها وروي عن ابن عباس عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: يقول الله تعالى لملائكته: لولا أن يحزن عبدي المؤمن لعصبت الكافر بعصاة من ذهب ولصببت عليه الدنيا صباً^(٣) ومصدق ذلك في القرآن (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة) الآية وقال عليه الصلاة والسلام: لو كانت الدنيا تزن عند الله^(٤) جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء^(٥) ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي يرزق (من يشاء رزقاً كثيراً لا يعرف حسابه). ويقال (بغير حساب) أي يرزقه ولا يطلب منه حسابه بما يرزقه ويقال: بغير حساب أي ليس له أحد يحاسبه منه بما يرزقه ويقال: بغير حساب أي بغير احتساب. كما قال في آية أخرى (ويرزقه من حيث لا يحتسب) وكل ما في القرآن: (يرزق من يشاء بغير حساب) فهو على هذه الوجوه الأربعة.

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾

قوله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾. قال الزجاج^(٦): الأمة على وجوه منها القرن من الناس كما يقال: مضت أحم أي قرون والأمة: الرجل الذي لا نظير له ومنه قوله تعالى: (إن إبراهيم كان أمة) والأمة: الدين وهو الذي قال هاهنا: (كان الناس أمة واحدة) أي على دين واحد وعلى ملة واحدة. وقال بعضهم: كان الناس كلهم على دين الإسلام جميع من كان مع نوح في السفينة ثم تفرقوا. ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ﴾ وقال بعضهم: كان الناس كلهم كفاراً في عهد نوح وعهد إبراهيم عليهما السلام فبعث الله للناس النبيين إبراهيم وإسماعيل، ولوطاً وموسى ومن بعدهم ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ بالجنة لمن أطاع الله، ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ بالنار لمن عصى الله ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ يقول: بالعدل ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي يقضي بينهم ﴿فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ من^(٧) [أمور] الدين ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ﴾ أي في الدين ﴿إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ يعين أعطوا الكتاب ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي البيان من الله ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ يعني اختلفوا فيه حسداً بينهم ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ أي هداهم ووقفهم حتى أبصروا

(١) ما بين المعقوفين من أ.

(٢) ما بين المعقوفين من ظ.

(٤) في ظ [الله قدر].

(٣) نسبه السيوطي في الدر المنثور ١٧/٦ لابن مردويه عن ابن عباس.

(٥) أخرجه الترمذي. كذا في التحفة ٦١١/٦ وابن ماجه في الزهد ١٣٧٧/٢ (٤١١٠) والسيوطي في الدر المنثور ١٧/٦ وابن حجر

في المطالب (٣١٧٢) والخطيب في التاريخ ٩٢/٤ والقرطبي ٤١٥/٦، ٨٨/١٦، وذكره الهيثمي في المجمع بنحوه ٢٨٨/١٠.

(٧) سقط من ظ.

(٦) معاني القرآن وإعرابه ٢٧٤/١.

الحق من الباطل (بأذنه) بتوفيقه ويقال: برحمته ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يعني الإسلام [وقال بعضهم فهدي] ^(١) الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق [بإذنه] ^(٢) أي بعصمته والله [يعصم] ^(٣) من يشاء إلى دين الإسلام ويقال: يوفق الله بتوفيقه إذا جاهدوا في طلب الحق (والله يهدي) أي يوفق من يشاء إلى صراط مستقيم.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ يقول: ظننتم - أن تدخلوا الجنة ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ من أتباع الرسل من قبلكم أي لم يأتكم صفة الذين مضوا من قبلكم يعني لم يصيبكم مثل الذي أصاب من قبلكم. ويقال لم تبتلوا بمثل الذي ابتلي من قبلكم. ﴿مَسْتَهْمُ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ﴾. البأساء: الشدة والبؤس والضرأ: الأمراض والبلاء ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ / أي حركوا وأجهدوا ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾. قال مقاتل: يعني شعيب النبي صلى الله عليه وسلم وهو اليسع. وقال الكلبي: هذا في كل رسول بعث إلى أمته واجتهد في ذلك حتى قال: ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ؟﴾ قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ روي عن الضحاك أنه قال: يعني محمداً - صلى الله عليه وسلم - ^(٤) ومعنى ذلك أظننتم أن تدخلوا الجنة ولم تبتلوا كما ابتلي الذين من قبلكم مستهم البأساء والضرأ وزلزلوا فيصيبكم مثل ذلك حتى يقول: محمد - صلى الله عليه وسلم - : (متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب) يعني فتح الله تعالى قريب أي فتح الله تعالى إلى مكة عاجلاً. وإنما ظهر لهم ذلك في يوم الأحزاب فأصابهم خوف شديد وكانوا كما قال الله تعالى (وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا) فصدق الله وعده وأرسل عليهم ^(٥) ريحاً وجنوداً ^(٦) وهزم ^(٧) الكفار فذلك قوله تعالى: (ألا إن نصر الله قريب) قرأ نافع: (حتى يقول الرسول) بالرفع على معنى المستأنف ^(٨). وقرأ الباقون: بالنصب على معنى الماضي ^(٩).

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّهِ وَاللَّذِينَ فِي الْأَقْرَبِينَ وَاللَّتِمَنَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما حثهم على الصدقة قال عمرو بن الجموح: يا رسول الله: كم تنفق وعلى من تنفق؟ فتزلت هذه الآية: (يسألونك ماذا ينفقون) أي ماذا يتصدقون من أموالهم. ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ أي من مال ﴿فِلِللَّهِ وَاللَّذِينَ فِي الْأَقْرَبِينَ وَاللَّتِمَنَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ يعني أنفقوا على الوالدين والقراة وعلى جميع المساكين فهذا جواب لقولهم: على من تنفق؟ ونزل في جواب قولهم: ماذا تنفق؟ قوله تعالى: (قل العفو) أي الفضل من المال ثم نسخ ذلك بآية الزكاة. وقال بعضهم:

(١) في ظ [ويقال فعصم]. (٢) من أ.

(٣) في ظ [يهدي]. (٤) ذكره ذلك القرطبي عنه ٣/ ٣٥.

(٥) في أ [رسلاً ريحاً]. (٦) في ظ [وجنود لم تروها].

(٧) في ظ [وهزموا]. (٨) وحجته: إنها بمعنى قال الرسول على الماضي وليست على المستقبل، وإنما ينصب من هذا الباب ما كان مستقبلاً مثل قوله «أفانت

تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين» حتى يأتي وعد الله، فرفع «يقول» ليعلم أنه ماض. ، انظر حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٣١.

(٩) وحجته: أنها بمعنى الانتظار وهو حكاية حال. ابن زنجلة ١٣١.

آية الزكاة نسخت كل صدقة كانت قبلها. وقال بعضهم: هذه الآية ليست بمنسوخة وإنما فيها بر الوالدين وصلة الأرحام. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾. أي يجازيكم به.

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ أي فرض عليكم القتال ﴿وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ أي شاق عليكم وذلك أن الله تعالى لما أمرهم بالجهاد كرهوا الخروج وإنما كانت كراهيتهم له لأنه كان في الخروج عليهم مشقة لا أنهم كرهوا فرض الله تعالى. ثم قال ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾ يعني الجهاد ﴿وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ لأن فيه فتحاً وغنيمة وشهادة وفيه إظهار الإسلام ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ وهو الجلوس عن الجهاد لأنه يسلط عليكم عدوكم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ أن الجهاد خير لكم ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [أن ذلك خير] ^(١) حين أحبيتم القعود عن الجهاد [ويقال: والله يعلم ما كان فيه صلاحكم وأنتم لا تعلمون ذلك قوله تعالى] ^(٢): ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾. وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - بعث عبد الله بن جحش ^(٣) مع تسعة رهط في جمادى الآخرة قبل بدر بشهرين إلى غير لقريش فلقوا العير وكان ذلك في آخر الشهر فأمر عبد الله بن جحش بعض أصحابه فحلق رأسه فلما رآهم المشركون آمنوا وظنوا أنه دخل رجب فقاتلهم المسلمون وأخذوا أموالهم فغيرهم المشركون بذلك فزلت هذه الآية: (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه) قال الزجاج ^(٤): معناه يسألونك عن القتال في الشهر الحرام. وقال القتيبي يسألونك عن القتال في الشهر الحرام هل يجوز؟ فأبدل قتالاً من الشهر الحرام ﴿قُلْ: قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ أي عظيم عند الله وتم الكلام ثم قال: ﴿وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يقول منع الناس عن الكعبة أن يطاف بها ﴿وكفر به﴾ أي بالله تعالى ويقال: ﴿وكفر به﴾ أي بالحج قوله ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وإنما صار خفصاً لأنه عطف على سبيل الله كأنه قال: وصد عن سبيل الله وعن المسجد الحرام وكفر بالله تعالى ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ﴾ أي من المسجد ﴿أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي أعظم عقوبة عند الله من القتال في الشهر الحرام ﴿والفتنة﴾ يعني الشرك ﴿أكبر من القتل﴾ أعظم عقوبة من القتل في الشهر الحرام ثم قال ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ﴾ الإسلام إلى دينهم الكفر ﴿إِنْ أَسْتَطَاعُوا﴾ يعني إن قدروا على ذلك ولكنهم لا يقدرون عليه ثم هدد المسلمين ليثبتوا على دينهم الإسلام فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ الإسلام ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ بالله

(١) في ظ [ذلك]. (٢) ما بين المعقوفين من ظ.

(٣) عبد الله بن جحش بن دياب الأسدي، أول أمير في الإسلام عقدت له الراية، استشهد بأحد الإصابات ٣٥/٤.

(٤) معاني القرآن وإعرابه ٢٨١/١.

تعالى ﴿فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي بطلت حسناتهم ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ يعني لا يكون لأعمالهم التي عملوا ثواب كما قال في آية أخرى: (فجعلناه هباءً منثوراً) وقال تعالى (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً) ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي دائمون. قال الفقيه: حدثنا أبو إبراهيم محمد بن سعيد قال: حدثنا أبو جعفر الطحاوي قال: حدثنا إبراهيم بن داود قال: حدثنا المقدمي^(١) عن المعتمر بن سليمان^(٢) عن أبيه قال: حدثنا الحضرمي عن أبي السوار^(٣) عن جندب بن عبد الله^(٤) أن النبي - صلى الله عليه وسلم - بعث رهطاً وبعث عبد الله بن جحش وكتب له كتاباً وأمره أن لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا وقال: لا تكره أحداً من أصحابك على المسير فلما بلغ المكان قرأ الكتاب فاسترجع ثم قال: [السمع والطاعة]^(٥) لله ولرسوله فرجع رجلان ومضى بقيتهم فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب فقال المشركون: [قتلهم محمد في الشهر الحرام فأنزل الله تعالى الآية (يسألونك عن الشهر الحرام . . .) إلى آخر الآية]^(٦) فقال المشركون: إن لم يكن عليهم وزر فليس لهم أجر^(٧).

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

نزل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ من مكة ﴿وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي في طاعة الله بقتل ابن الحضرمي ﴿أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ﴾ أي ينالون جنة الله ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بقتالهم في الشهر الحرام ثم نسخ تحريم القتال في الشهر الحرام وصار مباحاً بقوله تعالى: (فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة) فنهاهم الله^(٨) عن ظلم أنفسهم بالسيئات والخطايا وأمرهم بالقتال عاماً وروى أبو يوسف عن الكلبي أن القتال في الشهر الحرام لا يجوز. وقال أبو جعفر الطحاوي: لا نعلم أن أهل العلم اختلفوا أن قتال المشركين في الشهر الحرام غير جائز. وروى عن سعيد بن المسيب أنه سئل عن قتال الكفار في الشهر الحرام فقال لا بأس به وكذلك قال سليمان بن يسار^(٩) وغيره.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْ نَفَعُ النَّاسَ وَاتُّمَّ هُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّتِي تَمْنَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ

(١) محمد بن أبي بكر بن علي بن عطاء بن مقدم المقدمي، أبو عبد الله الثقفي مولاهم البصري، توفي سنة ٧٣٤ هـ، التهذيب ٧٩/٩.

(٢) أبو محمد البصري التيمي، ثقة صدوق، التهذيب ٢٢٧/١٠.

(٣) حسان بن حريث العدوي البصري، من الثقات، التهذيب ١٢٣/١٢ - ٢٤٨/٢.

(٤) أبو عبد الله جندب بن عبد الله بن شعبان، التهذيب ١١٧/٢.

(٥) في أ [سمعاً وطاعة]. (٦) ما بين المعقوفين من ظ. (٧) ذكره ابن جرير في التفسير ٣٠٦/٤.

(٨) في أ [الله ثم نسخ تحريم القتال في الشهر الحرام].

(٩) سليمان بن يسار الهلالي، أبو أيوب مولى ميمونة، ثقة مأمون، فقيهاً، كثير الحديث، التهذيب ٢٢٩/٤.

يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾

ثم قال تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ قال بعض المفسرين : إن الله لم يدع شيئاً من الكرامة والبر إلا وقد أعطى هذه الأمة ومن كرامته وإحسانه أنه لم يوجب لهم الشرائع دفعة واحدة ولكن أوجب عليهم مرة بعد مرة فكذلك في تحريم الخمر كانوا مولعين على شربها فنزلت هذه الآية (يسألونك عن الخمر والميسر) أي عن شرب الخمر والميسر هو القمار ﴿قُلْ : فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ في تجارتهم ﴿وَإِنَّمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ فلما نزلت هذه الآية تركها بعض الناس وقالوا : لا حاجة لنا فيما فيه إثم كبير ولم يتركها بعض الناس وقالوا^(١) : نأخذ منفعتها ونترك إثمها ثم نزلت هذه الآية : (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) فتركها بعض الناس وقالوا : لا حاجة لنا فيما يمنعنا عن الصلاة وشربها بعض الناس في غير أوقات الصلاة حتى نزل قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا : إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) الآية فصارت حراماً عليهم حتى كان بعضهم يقول : ما حرم علينا شيء أشد من الخمر . وقيل : إثم كبير في أخذها ومنافع في تركها . وروي أن الأعشى توجه إلى المدينة ليسلم فلقبه بعض المشركين في الطريق فقالوا له : أين تذهب ؟ فأخبرهم أنه يريد محمداً - صلى الله عليه وسلم - فقالوا لا تصل^(٢) إليه فإنه يأمر بالصلاة فقال : إن خدمة الرب واجبة فقالوا له : إنه يأمرك بإعطاء المال إلى الفقراء فقال إن اصطناع المعروف واجب فقل له إنه ينهى عن الزنا فقال : إن الزنا فحش قبيح في العقل وقد صرت شيخاً فلا أحتاج إليه فقل له : إنه ينهى عن شرب الخمر قال : أما هذا فإني لا أصبر عنه فرجع . وقال : أشرب الخمر سنة ثم أرجع إليه فلم (يلخ)^(٣) إلى منزله حتى سقط عن البعير فانكسر عنقه فمات . وقال بعضهم في هذه الآية ما يدل على تحريمه لأنه سماها إثمًا وقد حرم الإثم في آية أخرى وهي قوله تعالى : (قل : إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي) وقال بعضهم أراد [بالإثم]^(٤) الخمر بدليل قول الشاعر^(٥) :

شربت الإثم حتى ضل عقلي كذاك الإثم يذهب بالعقول

وروي عن جعفر الطيار أنه كان لا يشرب الخمر في الجاهلية وكان يقول : الناس [يطلبون]^(٦) زيادة العقل فأنا لا أنقص عقلي . وأما الميسر فكانوا يشترون جزوراً ويضربون سهامهم فمن خرج سهمه أولاً يأخذ نصيبه من اللحم ولا يكون عليه من الثمن شيء ومن بقي سهمه آخرًا فكان عليه ثمن الجزور كله [وليس]^(٧) له من اللحم شيئاً . وقال عطاء ومجاهد : الميسر القمار (كله)^(٨) حتى لعب الصبيان بالجزور والكعاب . قرأ حمزة [والكسائي]^(٩) : (قل فيهما إثم كبير) بالثاء من الكثرة والباقون (بالياء)^(١٠) كبير^(١١) أي ذنب عظيم . قوله : ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ أي ماذا يتصدقون . ﴿قُلْ أَلْعَفْوُ﴾ أي الفضل من المال يريد أن يعطي ما فضل من قوته وقوت عياله ثم نسخ بآية الزكاة . وقرأ أبو عمرو : (قل العفو) بالرفع يعني الإنفاق وهو الزكاة هو العفو وقرأ الباقر : بالنصب يعني أنفقوا الفضل^(١٢) . ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ يعني أمره ونهيه كما يبين لكم أمر الصدقة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ . ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ يعني في الدنيا أنها لا تبقى ولا تدوم ولا يدوم إلا العمل الصالح وفي الآخرة أنها تدوم وتبقى ولا

(١) سقط في ظ . (٢) في ظ [لا تقصد] . (٣) في ظ [يصل] . (٤) في ظ [به] .
(٥) البيت في اللسان : اثم . غير منسوب . (٦) في ظ [يظلمون] . (٧) في ظ [ولم يكن] . (٨) سقط من ظ .
(٩) سقط من أ . (١٠) انظر / حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٣٢ - ١٣٣ .
(١١) من ظ . (١٢) حجة القراءات ص ١٣٣ - ١٣٤ .

نزول. وقال بعضهم: معناه كذلك يبين الله لكم الآيات في الدنيا لعلكم تتفكرون في الآخرة قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ يقول: عن مخالطة اليتامى وذلك أنه لما نزلت هذه الآية (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً). تركوا مخالطتهم فشق عليهم ذلك وكان عند الرجل منهم يتيم فجعل له بيتاً على حدة وطعاماً على حدة ولا يخالطه بشيء من ماله فقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله، قد أنزل الله آية في أموال اليتامى ما قد أنزل من الشدة فعزلناهم على حدة أفصلح لنا أن نخالطهم؟ فنزلت هذه الآية (يسألك عن اليتامى) [أي عن مخالطة اليتامى] ^(١) ﴿قُلْ: إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ يقول: (أي لما لهم) ^(٢) خير من ترك مخالطتهم ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ﴾ أي تشاركوهم في النفقة والخدمة والدابة ﴿فَأَخْوَانُكُمْ﴾ في الدين. ويقال: الامتناع منه خير وإن تخالطوهم فهم إخوانكم. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ﴾ لِمَالِ الْيَتِيمِ ﴿مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [بماله] ^(٣) يعني لا بأس بالخلطة، وإذا قصدت به الإصلاح ولم تقصد به الإضرار به [ثم قال] ^(٤) ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَكُمُ﴾ إن الله عزيز حكيم. قال القتيبي: ولو شاء الله لضيق عليكم ولشدد عليكم ولكنه لم يشأ إلا التسهيل عليكم وقال الزجاج ^(٥): (لأعتكم) [معناه] ^(٦) لأهلككم: وأصل العنت في اللغة من [قول العرب] ^(٧) عنت البعير إذا انكسرت رجله وحقيقته ولو شاء الله لكلفكم ما يشد عليكم. وقال الكلبي (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَكُمُ) في مخالطتهم فجعلها حراماً ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وقد ذكرناها.

وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنَ وَلَا أُمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾. نزلت في مرثد بن أبي مرثد الغنوي وكان يأتي مكة ويخرج منها أناساً من المسلمين [كانوا بها] ^(٨) سراً من أهل مكة فلما قدم مكة جاءته امرأة يقال لها عناق كانت بينهما خلة في الجاهلية فقالت له هل لك أن تخلو بي فقال لها: يا عناق إن الإسلام قد حال بيننا وبين ذلك وقد حرمت علينا ولكني أسأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم أتزوجك إن شئت فلما رجع إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سألته عن ذلك فنزلت هذه الآية: (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) ﴿وَلَا أُمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ﴾ يقول: نكاح أمة مؤمنة ﴿خَيْرٌ مِّنْ﴾ نكاح حرة ﴿مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ أي أعجبكم نكاحها ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ يقول: لا تنكحوا نساءكم المشركين ﴿حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ﴾ تزويج ﴿مُشْرِكٍ﴾ حر ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ يعني إلى عمل أهل النار ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ يعني إلى التوحيد والتوبة (بإذنه) أي بأمره ويقال: يدعوكم إلى مخالطة المؤمنين لأن ذلك أوصل إلى الجنة والمغفرة بإذنه أي بعلمه الذي يعلم أنه أوصل لكم إليها ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ﴾ أي أمره ونهيه في أمر التزويج ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتنبهون عن المعاصي والنكاح الحرام. ويقال: أن رجلاً من الأنصار أعتق جارية له فأراد رجل من قريش أن يتزوجها فعيروه بذلك فنزلت هذه الآية (ولأمة مؤمنة خير من مشركة).

(٤) من ظ.

(٣) في ظ [لما له].

(١) ما بين المعقوفين من ظ.

(٥) معاني القرآن وإعرابه ٢٨٧/١، ومجاز القرآن ٧٣/١.

(٨) من ظ.

(٧) من ظ.

(٦) من ظ.

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَاءُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ وَقَدِمُوا أَنْفُسَكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَفُّوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾

ثم قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ قال ابن عباس: نزلت الآية في رجل من الأنصار يقال له: عمرو بن الدحداح سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: يا رسول الله كيف نصنع بالنساء إذا حضن؟ أنقربهن أم لا؟ فنزل^(١) (قوله تعالى) (ويسألك عن المحيض) يقول عن النساء إذا حضن ويقال: ويسألك عن مجامعة النساء في المحيض. ﴿قُلْ: هُوَ أَذَى﴾ يعني الدم هو قدر نجس ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ أي لا تجامعوهن [في حال]^(٢) الحيض ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ [يعني لا تجامعوهن وهن حيض ﴿حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾^(٣). قرأ حمزة وعاصم والكسائي في رواية أبي بكر: (حتى يطهرن) بتشديد الطاء والهاء والنصب والباقون: بالتخفيف أي يغتسلن وأصله (يطهرون) فادغمت التاء في الطاء فصار (يطهرن) فمن قرأ (يطهرن) أي يغتسلن ومن قرأ (يطهرن) أي حتى يطهرن من الحيض^(٤) قال الفقيه الزاهد نعمل بالقراءتين جميعاً فإن كانت المرأة أيام حيضها أقل من عشرة أيام فلا يجوز أن يقربها ما لم تغتسل أو يمضي عليها وقت صلاة وإن كانت أيام حيضها عشرة فإذا انقطع عنها الدم وتمت العشرة جاز له أن يقربها بغير غسل. ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ يعني أي اغتسلن من الحيض ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي جامعوهن من حيث رخص لكم الله في موضع الجماع. ويقال: لما نزلت هذه الآية (فاعتزلوا النساء في المحيض) اعتزلوا النساء في أيام الحيض وأخرجوهن من البيوت فقدم أناس من الأعراب وقالوا: يا رسول الله البرد (شديد)^(٥) وقد اعتزلنا النساء وليس كلنا يجد سعة لذلك فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إنما أمركم أن تعتزلوا (النساء عن)^(٦) مجامعتهن ولم يأمركم أن تخرجوهن من البيوت كما تفعل الأعاجم. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ (يعني التوابين من الشرك)^(٧) والذنوب ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أي من الجنابة والأحداث. ويقال: ويحب المتطهرين من إتيانهم في المحيض في أديارهم يتزهون عن ذلك ويقال: (ويحب التوابين من الذنوب والمتطهرين) الذين لم يذنبوا. فإن قيل: كيف قدم بالذكر الذي تاب من الذنوب على الذي لم يذنب؟ قيل له: إنما قدمهم لكيلا يقط التائب من الرحمة ولا يعجب المتطهر بنفسه كما ذكر في آية أخرى: (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات) ثم قال عز وجل: ﴿نِسَاءُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ يقول: مزرعة لكم للولد ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ﴾ والحرث في اللغة هو الزرع فسمى النساء حرثاً على وجه الكناية أي هن للولد كالأرض للزراعة قوله ﴿أَنْتُمْ شِئْتُمْ﴾ أي كيف شئتم إن شئتم مستقبلين وإن شئتم مستدبرين [إذا كان في صمام واحد وذلك أن اليهود كانوا]^(٨) يقولون: لا يجوز إتيان النساء إلا مستلقياً وكانوا يقولون إذا أتاها من خلفها يكون الولد أحول [فنزل قوله تعالى]^(٩) (فاتوا حرثكم أنى شئتم)^(١٠) [قال النبي - صلى الله عليه وسلم - لا ينظر الله عز

(١) في ظ [فنزلت].

(٢) في أ [وهن].

(٣) في أ [حتى يطهرن].

(٤) راجع حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٣٤، ١٣٥.

(٥) من ظ.

(٦) سقط من ظ.

(٧) سقط من ظ.

(٨) ما بين المعقوفين من ظ.

(٩) في ظ [فنزلت هذه الآية].

(١٠) أخرجه البخاري ١٨٩/٨ في التفسير والترمذي ٣٢١/٨ كما في تحفة الأحوذى

وجل إلى رجل أتى امرأة في دبرها. وعن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: ملعون من أتى امرأة في دبرها^(١) ثم قال تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ﴾ من الولد الصالح. ويقال قدموا لأنفسكم من العمل الصالح. ويقال: سموا الله أي قولوا بسم الله الرحمن الرحيم عند^(٢) ذلك. ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي اخشوا الله ولا تقربوهن في حال الحيض ولا في أدبارهن ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ﴾ أي تصيرون إليه يوم القيامة. فيجزيك بأعمالكم ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين يحافظون على حدود الله ويصدقون بوعده.

وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَا يَأْخُذْكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخِذْكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ أي علة وأصل العرضة في اللغة^(٣): هو الإعتراض فكأنه يعترض باليمين في كل وقت فيكون كناية عن العلة. وقيل: العرضة أن يحلف (الرجل)^(٤) في كل شيء فمنعوا من ذلك ﴿أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا﴾ يعني لكي تبروا وتتقوا لأنهم إذا أكثروا اليمين لم يبروا وبهذا أمر أهل الإيمان [وقال الفراء (ولا تجعلوا الله عرضة) الحلف بالله متعرضاً أي مانعاً لكم دون البر والمتعرض بين الشئيين المانع]^(٥) وقال القتيبي: لا تجعلوا الله بالحلف مانعاً لكم أن تبروا وتتقوا ولكن إذا حلفتكم على أن لا تصلوا رحماً ولا تتصدقوا ولا تصلحوا أو على (شبهه)^(٦) ذلك من أبواب البر فكفروا اليمين وقال الكلبي: هذه الآية نزلت في عبد الله [بن رواحة الأنصاري]^(٧) حين حلف أن لا يدخل على ختنته بشير بن النعمان ولا يكلمه فجعل يقول: قد حلفت بالله أن لا أفعل ولا يحل لي (أن لا أبر)^(٨) في يميني فتزل قوله تعالى: (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم) يقول: علة لأيمانكم (أن تبروا) يعني تصلوا قرابتكم وتتقوا اليمين في المعصية وترجعوا إلى ما هو خير لكم منها ﴿وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي بين إخوانكم وروي عن عكرمة عن عبد الله بن عباس أنه كان يقول: لا تحلفوا أن لا تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فمن حلف على شيء^(٩) منه فعلى الذي حلف عليه أن يفعل ويكفر عن يمينه. وقال الزجاج^(١٠): معنى الآية بأنهم كانوا يقبلون في البر بأنهم قد حلفوا فأعلم الله تعالى أن الإثم إنما هو في الإقامة في ترك البر واليمين إذا كفرت فالذنب فيها مغفور. ثم قال: ﴿لَا يَأْخُذْكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ أي بالإثم في الحلف إذا كفرتم ﴿وَلَكِنْ يُؤْخِذْكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ بعزمكم على أن لا تبروا ولا تتقوا قال ابن عباس (لا يؤخذكم الله باللغو في أيمانكم) وهو أن يحلف الرجل بالله في شيء يرى أنه فيه صادق ويرى أنه كذلك وليس كذلك فيكذب فيها ولكن يؤخذكم بما كسبت قلوبكم يعني هو أن يحلف على شيء ويعلم أنه فيها كاذب. ويقال: لا يؤخذكم الله باللغو في اليمين إذا حلفتكم وكفرتم إذا كان الحنث خيراً ولكن يؤخذكم بما كسبت قلوبكم

(١) ما بين المعقوفين من أ. (٢) في ظ [سموا الله تعالى عند ذلك].

(٣) قال ابن منظور عرضة وفي الآية أي: نصباً لأيمانكم.

وقال الفراء: لا تجعلوا الحلف بالله معترضاً مانعاً لكم أن تبروا، فجعل العرضة بمعنى المعترض ونحو ذلك. وقال الزجاج:

المعنى: لا تعترضوا باليمين بالله في أن تبروا...، اللسان: عرض ص ٢٨٩٢.

(٤) في ظ [الإنسان]. (٥) سقط من ظ. (٦) في ظ [أشبهه].

(٧) من ظ. (٨) في ظ [إلا أن أبر]. (٩) في أ [ذلك]. (١٠) معاني القرآن وإعرابه ١/ ٢٩٢.

أي أنتم بغير كفارة ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لمن حنث وكفر بيمينه ﴿حَلِيمٌ﴾ حيث رخص لكم في ذلك ولم يعاقبكم. ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ يعني الذين يحلفون أن لا يجامعوا نساءهم ﴿تَرْبُصُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ يعني لهم أجل أربعة أشهر بعد اليمين ﴿فَإِنْ قَاءُوا﴾ يعني إن رجعوا^(١) عن اليمين وجامعوا نساءهم^(٢) من قبل أن تمضي أربعة أشهر بعد اليمين وكفروا عن أيمانهم ولا تبين المرأة عن الزوج ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيُعُولُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضَرَارًا لِلْعُقُودِ وَأَوْ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْدِي اللَّهِ هُزُوعًا وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ يعني أوجبوا الطلاق بترك الجماع حتى مضت أربعة أشهر وقعت عليها تطليقة بمضي أربعة أشهر. وقال بعضهم: لا يقع الطلاق ولكن يؤمر الزوج بعد مضي أربعة أشهر أن يجامعها أو يطلقها. وقال بعضهم يقع الطلاق بمضي أربعة أشهر وهو قول علمائنا. وروي عن عبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود أنهما قالا عزيمة الطلاق انقضاء أربعة أشهر وذلك قوله تعالى (وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ) أي أوجبوا الطلاق بترك الجماع ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لمقاتلهم بكلمة الإيلاء ﴿عَلِيمٌ﴾ بهم. ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ يعني وجب عليهن العدة ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ أي ثلاث حيض وقال بعضهم: ثلاثة أطهار وقال أكثر أهل العلم: المراد به الحيض وأصل القرء: الوقت وظاهر الآية عام في إيجاب العدة على جميع المطلقات ولكن المراد به الخصوص لأنه لم يدخل في الآية خمس من المطلقات الأمة والصغيرة والأيسة والحامل وغير المدخولة. ثم قال: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ

(١) في أ [رجعوا قال الفتي آليت من امرأتي أولى إيلاء والإسم الآية].

(٢) سقط من ظ.

يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ يعني الحمل والحيض لا يحل لها أن تقول إني حامل وليست بحامل أو إني حائض وليست بحائض ﴿إِنْ كُنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يقول إن كن يصدقن بالله واليوم الآخر ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ يعني للنساء على الأزواج من الحقوق مثل ما للرجال على النساء يعني في حال التربص إذا كان الطلاق رجعيًا ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يقول بما عرف شرعًا ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَ دَرَجَةٌ﴾ أي فضيلة في النفقة والمهر ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فيما حكم من الرجعة في الطلاق الذي يملك فيه الرجعة. ثم بين الطلاق الذي يملك فيه الرجعة فقال تعالى ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾ يعني يقول الطلاق الذي يملك فيه الرجعة تطليقتان. ﴿فَإِنْ سَأَلْتَهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ يعني إذا راجعها يمسكها بمعروف ينفق عليها ويكسوها ولا يؤذيها ويحسن معاشرتها ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ يعني يؤدي حقها ويخلي سبيلها. ويقال: (أو تسريح بإحسان) يعني يطلقها التطليقة الثالثة ويعطي مهرها ويقال: يتركها حتى تنقضي عدتها (ويقال يؤدي حقها ويخلي سبيلها ويقال أو تسرح بإحسان)^(١) قال ابن عباس: كان أهل^(٢) الجاهلية إذا طلق (امرأته)^(٣) تطليقة أو تطليقتين كان الزوج^(٤) أحق بها وإذا طلقها الثالثة كانت المرأة أحق بنفسها واحتج بقول الأعشي وكانت امرأته من بني مروان^(٥) فأخذ بنو مروان حتى يطلق امرأته فلما طلقها واحدة قالوا له: عد فطلقها الثانية قالوا له: عد فطلقها الثالثة فعرف أنها بانت منه ولا تحل له فقال عند ذلك: ^(٦)

أَيَا جَارَتِي بَيْنِي فَإِنَّكَ طَالِقَةٌ كَذَلِكَ أُمُورُ النَّاسِ غَادٍ وَطَارِقَةٌ
[وبيني فإنَّ البَيْنَ خَيْرٌ مِنَ الْعَصَا وأن لا تزالُ فَوْقَ رَأْسِكَ بَارِقَةٌ
وذوقي قنَى الحي إني ذائق قنَاةُ أَنَاسٍ مِثْلُ مَا أَنْتِ ذَائِقَةٌ
لقد كان في شأن قومك منكح وقتيان هزان الطوال العرايضه]^(٧)

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ نزلت في جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول وزوجها ثابت بن قيس وكانت تبغضه فأتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت: لا أنا ولا ثابت فقال لها: أتردين عليه حديثه فقالت: نعم وزيادة فقال: أما الزيادة فلا فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - زوجها وخلعها من زوجها^(٨) فذلك قوله تعالى: (ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً) من المهر ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا﴾ يعني: يعلما ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي أمر الله فيما أمر ونهى. قرأ حمزة (يخافا) بضم الياء على فعل ما لم يسم فاعله والباقون: بالنصب وقرأ ابن مسعود: ^(٩) (إلا أن يخافوا) ثم قال ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ يقول: إن علمتم أن لا يكون بينهما صلاح في المقام ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ أي لا حرج على الزوج أن يأخذ مما افتدت به المرأة إن كان النشوز من قبل المرأة فأما إذا كان النشوز من قبل الزوج فلا يحل له أن يأخذ بدليل ما قاله في آية أخرى: (وآتيتن إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً) ثم قال تعالى ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي أحكامه وفرائضه ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ أي لا تجاوزوها ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي يتجاوز أحكام الله وفرائضه بترك ما أمر الله تعالى أو

(١) سقط من ظ.

(٢) في أ [الرجل].

(٣) سقط من ظ.

(٤) في أ [الرجل].

(٥) في أ [مزان].

(٦) ما بين المعقوفين من أ.

(٧) راجع ديوان الأعشى ص ٤٤٨.

(٨) أخرجه البخاري ٣٩٥/٩ في الطلاق باب الخلع (٥٢٧٣).

(٩) قراءة ابن مسعود هذه لم تتواتر ولم يقرأ بها أحد من الأئمة السبعة.

انظر: شرح الحرز لأبي شامة، والمهذب للدكتور محسن.

بعمل ما نهاه^(١) ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ يقول: الضارون [الشاقون]^(٢) بأنفسهم. ويقال: (تلك حدود الله) يعني الطلاق مرتان فلا تجاوزوهما إلى الثالثة ومن يتعد حدود الله بالتطبيق الثالثة فأولئك هم الظالمون ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ الثالثة ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ﴾ الثالثة ﴿حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ أي تتزوج بزواج آخر ويدخل بها وإنما عرف الدخول بالسنة وهو ما روي عن ابن عباس أن رفاة القرطي طلق امرأته ثلاثاً (وكانت تدعى تيممة بنت وهب)^(٣) فتزوجها عبد الرحمن بن الزبير [(فأتت النبي - صلى الله عليه وسلم - وقالت: إن رفاة طلقني فبت طلاقي فتزوجني عبد الرحمن)^(٤) ولم يكن عنده إلا كهدة الثوب فقال لها: أتريدين أن ترجعي إلى رفاة فقالت نعم قال: ليس ذلك ما لم تذوقي من عسيلته ويدوق من عسيلتك^(٥). فذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ يعني إذا طلقها الثالثة. قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ يعني واحدة أو اثنتين ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ يعني المرأة والزوج ﴿أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾ ويقال: فإن طلقها الزوج الثاني بعدما دخل عليها فلا جناح عليهما يعني المرأة والزوج الأول (أن يتراجعا) يعني أن يتزوجها مرة أخرى ﴿إِنْ ظَنَّا﴾ يعني إن علما ﴿أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي فرائض الله يقول إذا علما أنه يكون بينهما الصلاح بالنكاح الثاني. قوله: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي فرائض الله وأمره ونهيه وأحكامه ﴿يُتَبَيَّنُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ويقال: إنما قال لقوم يعلمون لأن الجاهل إذا بين له فإنه لا يحفظ ولا يتعاهد والعالم يحفظ ويتعاهد فلهذا المعنى خاطب العلماء ولم يخاطب الجاهل. ثم وقوله: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبَسْنَ أَجْلَهُنَّ﴾ أي مضى عليهن ثلاث حيض قبل أن (يغتسلن)^(٦) وقبل أن (يخرجن)^(٧) من العدة ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ يعني يراجعها ويمسكها بالإحسان^(٨) قوله ﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ (أولاً)^(٩) يراجعها ويتركها حتى تخرج من العدة ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾ والضرار في ذلك أن يدعها حتى إذا حاضت ثلاث حيض وأرادت أن تغتسل راجعها ثم طلقها يريد بذلك أن يطول عليها [عدتها]^(١٠) فنهى الله عن ذلك فقال تعالى: (ولا تمسكوهن ضراراً) ﴿لَتَعْتَدُوا﴾ أي لتظلموهن ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ الإضرار ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ يقول: أضر بنفسه بمعصيته في الإضرار. وقال الزجاج: (فقد ظلم نفسه) يعني عرض نفسه للعذاب لأن إتيان ما نهى الله عنه تعرض لعذاب الله لأن أصل الظلم وضع الشيء في غير [موضعه]. ثم قال: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزْوَاً﴾ يعني القرآن لعباً ويقال إنهم كانوا يطلقون ولا يعدون ذلك طلاقاً ويجعلونه لعباً فتزل (ولا تتخذوا آيات الله هزواً). قرأ عاصم في رواية حفص: (هزواً) بغير همز وكذلك قوله: (كفواً أحد) والباقون: بالهمز. وهما لغتان، ومعناهما واحد. ثم قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ﴾ يقول احفظوا نعمة الله عليكم بالإسلام ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ يقول احفظوا ما ينزل الله عليكم في القرآن من المواعظ (والحكمة) يعني الفقه في القرآن ﴿يَعْظُمُ بِهِ﴾ يقول: ينهاكم عن الضرار ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الضرار ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من أعمالكم فيجازيكم به. ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبَسْنَ أَجْلَهُنَّ﴾ يقول: انقضت عدتهن ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ يقول: لا تحبسوهن ولا تمنعهن ﴿أَنْ يَنْكِحْنَ أَرْوَاحَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بمهر ونكاح جديد وذلك أن معقل بن يسار^(١١) كانت أخته

(١) ما بين المعقوفين من أ. (٢) من أ. (٣) من أ. (٤) ما بين المعقوفين من ط.

(٥) أخرجه البخاري ٤٥٩/٥ في الشهادات باب شهادة المختبىء (٢٦٣٩)، ومسلم ١٠٥٥/٢ في النكاح باب لا تحل المطلقة ثلاثاً (١٤٣٣/١١١).

(٦) في ط [تغتسل]. (٧) في ط [تخرج]. (٨) في أ [بإحسان].

(٩) في ط [أي ولا]. (١٠) في ط [العدة].

(١١) معقل بن يسار المزني، أسلم قبل الحديبية، وشهد بيعة الرضوان، التهذيب ٢٣٥/١٠.

تحت أبي الدحداح فطلقها وتركها حتى انقضت عدتها ثم ندم فخطبها فرضيت وأبى أخوها أن يزوجه لها وقال لها: وجهي من وجهك حرام إن تزوجتيه فنزلت هذه الآية ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكَحُنَّ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ﴾ أي يؤمر به ﴿مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي يصدق بالله واليوم الآخر ﴿ذَلِكَ أَرْكَى لَكُمْ﴾ يعني خير لكم ويقال: أصلح لكم ﴿وَأَطْهَرُ﴾ من الرية (أي الزنا) ^(١) ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ من حب كل واحد منهما لصاحبه ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك. ويقال: ذلكم أظهر لقلوبكم من العداوة لأن المرأة تأتي الحاكم فيزوجها فتدخل في قلوبهم العداوة والبغضاء. وقال الضحاک: والله يعلم أن الخير في الوفاء والعدل وأنتم لا تعلمون ما عليكم بالتفريق من العقوبة ومن العذاب. وقال مقاتل: فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - معقلاً وقال: إن كنت مؤمناً فلا تمنع أختك عن أبي الدحداح فقال آمنت بالله وزوجتها منه وفي هذه الآية دليل: أن الولي إذا منع المرأة عن النكاح كان للحاكم أن يزوجه.

وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا فَأُولَادُكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَانْقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَمَاتَعْلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ يعني ستين كاملتين ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ يعني أن يكمل الرضاعة. فإن قيل: لما ذكر الحولين [فما الحاجة إلى] ^(٢) الكاملين؟ قيل له هذا للتأكيد لأن بعض الحولين يسمى حولين كما قال في آية أخرى: (الحج أشهر معلومات) وإنما هي (شهران وعشرة أيام) فهنا لما ذكر الحولين ^(٣) الكاملين علم أنه أراد الحولين بغير نقصان. ثم قال تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ﴾ أي على الأب أجر الرضاع ونفقة الأم ﴿وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي على قدر طاقته ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ يعني لا يجب على الأب من النفقة والكسوة إلا مقدار طاقته. ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾ يقول: لا ينزع الولد من الأم لكونها أحق بولدها من غيرها. قرأ ابن كثير وأبو عمرو: (ولا تضار) بضم الراء على معنى الخبر تبعاً لقوله (لا تكلف نفس إلا وسعها) ولفظه لفظ الخبر والمراد به النهي وقرأ الباقر: بالنصب على صريح النهي ^(٤). ويقال [أصله لا تضار ثم أدغمت الراء في الراء] ^(٥) ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ يعني الأب لا يضار بالولد فتطرح الأم الولد [إليه] ^(٦) بعدما عرفت أنه لا يقبل ثدي غيرها فلا يجوز لها أن تفعل ذلك. ويقال: (ولا مولود له بولده) يعني إذا كان الأب يجد ظراً أرخص من الأم والأم أبت أن ترضع إلا بأجر كثير فإن الأب لا يجبر على ذلك وله أن يدفع إلى ظئر أخرى. قال تعالى: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ يعني إذا (مات الأب) ^(٧) وله وارث سوى الأب فعلى وارث الصبي مثل ما على الأب. ويقال على وارث الأب لا يضارها ولا تضارها ويقال مثل ذلك يعني الكسوة الرزق في رضاع الصبي ونفقته

(١) سقط من ظ. (٢) في أ [انشأ معنى]. (٣) سقط من أ.
(٤) أما قراءة الرفع فلأن الفعل مضارع لم يسبقه ناصب ولا جازم، واعتبرت «لا» هنا ناهية ومعناه النهي، وذلك لأن الأمر قد يجيء على لفظ الخبر في التنزيل، ألا ترى قوله تعالى ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن﴾ ﴿لا تظلمون ولا تظلمون﴾.
(٥) سقط من ظ. (٦) في ظ [على الأب]. (٧) في ظ [لم يكن للصبي أب وله ورثه].

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا﴾ أي فطامًا ﴿عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ يعني الأب والأم دون الحولين. ويقال: بعد الحولين ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ (إن لم يرضعاه ستين) أي لا حرج عليهما^(١) ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ يعني أن تأخذوا ظئرًا لأولادكم إذا أرادت الأم النكاح ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ﴾ ما أتيتم بالمعروف يعني لا إثم عليكم إذا أعطيتكم الظئر^(٢) ﴿مَا أَتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ (ما أعطيتم) بما تعرفونه. ويقال: أعطيتم ما شرطتم لهن. ثم خوفهما في الإضرار فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ يعني الأبوين فلا يضار واحد منهما لصاحبه ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ من الإضرار فيجازيكم به. قرأ ابن كثير: (ما أتيتم) بغير مد يعني ما جئتم وفعلتم وقرأ الباقون بالمد يعني ما أعطيتم^(٣).

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ﴾ أي يموتون ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ أي يتركون نساء من بعدهم ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ يعني ينتظرن بأنفسهن ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ لا يتزوجن ولا يتزين ولا يخرجن [من بيوتهن ولا يتزين]^(٤) ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ يعني انقضت عدتهن ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي فلا إثم عليكم ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾ من الزينة والكحل والخضاب. وذلك أن المرأة إذا انقضت عدتها فكان أولياؤها يمنعونها من الزينة فأباح الله تعالى لهن الزينة بعد العدة. ويقال: فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ يعني إذا تزوجن بزواج آخر إذا كان الزوج كفوا لها فلا يمنع من نكاحها ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ من الزينة والمنع من نكاحها وغير ذلك وهذه الآية عامة يستوي فيها المدخولة وغير المدخولة (ويستوي فيها)^(٥) الصغيرة والكبيرة في وجوب العدة من الزينة والمنع وغير ذلك.

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنَّهُمْ سَتَذَكَّرُوهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزَمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ فقد أباح للخاطب أن يتعرض للنكاح ونهاه عن الخطبة والعقد فقال: (ولا جناح عليكم فيما عرضتم به) يقول: لا بأس بأن يأتي الرجل المرأة المتوفى عنها زوجها فيعرض لها ويقول: إنك لتعجبيني وإنك لموافقة لي فأرجو أن يكون بيننا اجتماع ونحو ذلك من الكلام فهذا هو التعريض من خطبة النساء^(٦) ﴿أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ يعني أضمرتم في أنفسكم. قال الزجاج^(٧): كل شيء سترته فقد أكننته [وكننته]^(٨) فهو مكنون فلذلك أباح الله تعالى التعريض. ثم قال: ﴿عِلْمَ اللَّهِ أَنَّهُمْ سَتَذَكَّرُوهُنَّ﴾ يعني خافوا الله

(١) من أ. (٢) في ظ [للظئر ما أتيتم بالمعروف]. (٣) سقط من ظ.

(٤) راجع / حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٣٧. (٥) من أ. (٦) سقط من ظ.

(٧) سقط من ظ. (٨) معاني القرآن وإعرابه ٣١٢/١. (٩) سقط من ظ.

في العدة من تزويجهن ﴿وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ يعني نكاحاً ويقال: جماعاً. وقال الفتي^(١): سمي الجماع سرّاً^(٢) لأنه يكون في السر فيكنى عنه ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ يعني علة حسنة نحو أنك لجميلة وإني فيك لراغب وقوله تعالى ﴿وَلَا تَغْرِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ يقول: ولا تحققوا عقدة النكاح يعني لا تزوجوهن في العدة ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ يعني حتى تنقضي عدتها ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ يعني ما في قلوبكم من الوفاء وغيره ﴿فَاحْذَرُوهُ﴾ يعني أن تخالفوه فيما (أوجب عليكم)^(٣) ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي غفور ذو تجاوز حلیم حيث لم يعجل عليكم بالعقوبة.

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٧﴾

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي (لا)^(٤) حرج عليكم ﴿إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾ قرأ حمزة والكسائي (تماسوهن) بالالف من المفاعلة وهو فعل بين اثنين وقرأ الباقون بغير الف لأن الفعل للرجال خاصة^(٥) وقال بعضهم: المس هو الجماع خاصة فما لم يجامعها لا يجب عليه تمام (المهر)^(٦) وقال بعضهم: إذا جامعها أو خلا بها وجب عليه جميع الصداق إذا كان سمي لها مهرًا [وإن لم يكن سمي لها مهرًا]^(٧) فلها مهر مثلها إن دخل بها وإن لم يدخل بها فلها المتعة فذلك قوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾ يعني إذا تزوج الرجل امرأة ثم لم يعجبه المقام معها فلا بأس بأن يطلقها قبل أن يمسه قوله ﴿أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ يعني لا حرج عليكم أن تزوجوا النساء ولم تسموا لهن مهرًا ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ﴾ يعني إذا طلقها قبل أن يدخل بها فعلى الزوج أن يمتعها ﴿عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ﴾. قرأ حمزة والكسائي وعاصم^(٨) في رواية حفص: (قَدَرُهُ) بنصب الدال وقرأ الباقون بالجزم ومعناها واحد قوله: ﴿وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ﴾ قال ابن عباس في رواية الكلبي: أدنى ما يكون من المتعة ثلاثة أثواب درع وخمار وملحفة وهكذا قال في رواية الضحاك: ﴿حَقًّا﴾ [أي واجباً]^(٩) ﴿وَعَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ أن يمتعوا النساء على قدر طاقتهم ﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ يعني من قبل أن تجامعوهن وقبل أن تخلوا بهن هكذا قال في رواية الضحاك ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ يعني على الزوج نصف ما فرض لها من المهر ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾ يعني إلا أن تترك المرأة فلا تأخذ شيئاً ﴿أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ يعني الزوج يكمل لها جميع الصداق ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ يقول: أن تعفوا بعضكم بعضاً كان أقرب إلى البر فأيهما ترك لصاحبه فقد أخذ بالفضل ويقال: إن الله تعالى ندب إلى الإنسانية فأمر كل واحد منهما بالعفو ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ يعني لا تتركوا الفضل والإنسانية فيما بينكم في إتمام المهر أو في الترك ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم بذلك.

(٣) سقط من ظ.

(١) تفسير غريب القرآن ص ٩٠. (٢) من ظ.

(٦) في ظ [الصداق].

(٥) راجع حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٣٧ - ١٣٨.

(٤) سقط من ظ.

(٧) من ظ.

(٩) في ظ [أي واجباً].

(٨) وكذا ابن عامر، وراجع القراءتين في حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٣٧.

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرَجَلًا أَوْ زُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ قال ابن عباس أي (حافظوا على الصلوات المكتوبات الخمس في مواقيتها بوضوئها وركوعها وسجودها) ﴿وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ يعني الصلاة الوسطى خاصة حافظوا عليها. ويقال: هي صلاة العصر. ويقال هي صلاة الصبح ويقال: هي صلاة الظهر. حدثنا القاسم بن محمد بن روزية قال: حدثنا عيسى بن خنشان قال حدثنا سويد بن سعيد^(١) عن مالك بن أنس عن داود بن الحصين^(٢) أنه بلغه عن رجل عن زيد بن ثابت أنه بلغه عن علي وابن عباس أنها كان يقولان: صلاة الوسطى صلاة الصبح قال مالك وذلك رأي^(٣). أخبرني القاسم بن محمد قال: حدثنا عيسى بن خنشان قال: حدثنا سويد بن سعيد بن مالك بن أنس عن داود بن الحصين عن رجل عن زيد بن ثابت أنه قال: صلاة الوسطى: صلاة الظهر^(٤) وبهذا الإسناد عن مالك عن زيد بن أسلم^(٥) عن القعقاع بن الحكم^(٦) عن أبي يونس مولى عائشة - رضي الله عنها - أنه قال: أمرتني عائشة أن أكتب لها مصحفاً وقالت: إذا بلغت هذه الآية فأذني فلما بلغت أذنتها فأملت علي: حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى: صلاة العصر^(٧). قال الفقيه: حدثنا أبو إبراهيم الترمذي [عن أبي إسحاق عن أبي جعفر الطحاوي قال: حدثنا علي بن معبد^(٨) قال: حدثنا يعقوب بن إبراهيم^(٩) عن أبي إسحاق^(١٠) عن أبي جعفر محمد بن علي عن (عمرو بن رافع) مولى عمر وكان يكتب المصاحف أنه قال: اكتتبتني حفصة ابنة عمر مصحفاً وقالت: إذا بلغت هذه الآية فلا تكتبها حتى تأتيني فأملئها عليك كما حفظتها من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما بلغت أتيها بالورقة فقالت: اكتب حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر^(١١). ويقال: هي قراءة عبد الله بن مسعود. [وروي عن أبي هريرة وابن عمر أنهما قالوا: صلاة الوسطى العصر^(١٢)] وروي عن عاصم بن أبي النجود

(١) سويد بن سعيد بن سهل الهروي، أبو محمد، الحديثي الأنباري، التهذيب ٢٧٢/٤.

(٢) داود بن الحصين، أبو سليمان، التهذيب ١٨١/٣.

(٣) في ظ [أخرجه مالك بلاغاً ١٣٩/١ في كتاب صلاة الجماعة باب الصلاة الوسطى]، (٢٧) ورواه أبو داود مرفوعاً في كتاب الصلاة باب وقت صلاة الظهر.

(٤) رواه مالك بلاغاً في ١٣٩/١ في كتاب صلاة الجماعة باب الصلاة الوسطى (٢٨) وقال مالك: وقول علي وابن عباس أحب ما سمعت إلي في ذلك.

(٥) زيد بن أسلم العدوي، أبو عبد الله المدني، ثقة، كان عالماً بالتفسير، التهذيب ٣٥٣/٣.

(٦) القعقاع بن حكيم الكناني المدني، ثقة، التهذيب ٣٧٣/٨.

(٧) أخرجه مسلم ٤٣٧/١ - ٤٣٨ في كتاب المساجد باب الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي العصر (٦٢٩/٢٠٧) وأخرجه أبو داود في الصلاة باب في وقت العصر والترمذي ٢٠٢/٥ في كتاب التفسير باب من سورة البقرة (٢٩٨٢) والنسائي في الصلاة باب المحافظة على صلاة العصر.

(٨) علي بن معبد بن نوح المصري الصغير، أبو الحسن البغدادي، التهذيب ٣٨٥/٧.

(٩) يعقوب بن إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف الزهري، أبو يوسف المدني، التهذيب ٣٨٠/١١.

(١٠) ما بين المعقوفين من ظ.

(١١) أخرجه مالك موقوفاً في الموطأ ١٣٩/١ في صلاة الجماعة باب الصلاة الوسطى (٢٦).

أخرجه البخاري ١٩٥/٨ في التفسير باب «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى» (٤٥٣٢)، وفي ٤٠٥/٧ في المغازي باب غزوة الخندق (٤١١١) وفي ١٩٤/١١ في الدعوات باب الدعاء على المشركين (٦٣٩٦).

ومسلم ٤٣٧/١ في المساجد باب الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر (٦٢٧/٢٠٥). (١٢) سقط من ظ.

عن زر بن حبیش عن علي أنه قال: كنت [ظننت] ^(١) أنها صلاة الفجر حتى سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول يوم الخندق وقد شغلوه عن صلاة العصر قال: ملأ الله بطونهم وقبورهم ناراً أشغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر [وإنما كان فائدة التخصيص بصلاة العصر لأن ذلك وقت الشغل] ^(٢) ويخاف فوتها ما لا يخاف لسائر الصلوات وقد أكد بالذكر قال: [(والصلاة الوسطى)] ^(٣) خاصة [ومن طريق] ^(٤) المعقول [يدل أيضاً على أن صلاة الوسطى هي صلاة العصر] ^(٥) لأن قبلها صلاتي النهار وبعدها صلاتي الليل. ثم قال تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ أي قوموا [لله طائعين] ^(٦) في الصلاة مطيعين. ويقال: صلوا لله قائمين فكانه أمر بطول القيام في الصلاة. كما قال في آية أخرى: (يا مريم اقنتي لربك) وروي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه سئل عن أفضل الصلاة فقال: التي يطيل القنوت فيها ^(٧). يعني القيام. ويقال: قانتين يعني ساكتين كما روي عن زيد بن أرقم أنه قال: كنا نتكلم في الصلاة حتى نزلت هذه الآية: (وقوموا لله قانتين) فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام ^(٨). وقال الزجاج ^(٩): المشهور في اللغة الدعاء في القيام وحقيقة القانت القائم بأمر الله تعالى. ثم قال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ يعني إذا خفتم العدو فصلوا قياماً فإن لم تستطيعوا فصلوا ركباً على الدواب حيث ما توجهت بكم بالإيماء وهذا موافق لما روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه ذكر صلاة الخوف ثم قال في آخره فإن كان الخوف أشد من ذلك صلوا على أقدامكم أو ركباً مستقبلي القبلة أو غير مستقبلها ^(١٠) ﴿فَإِذَا أُمِيتُمْ﴾ يعني العدو والخوف ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم﴾ يعني صلوا كما علمكم أربعاً أو اثنتين وعلمكم ﴿مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ يعني علمكم الصلاة ولم تكونوا تعلمون من قبل.

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ
فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ
اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ أي يموتون ويتركون نساءهم من بعدهم ﴿وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ﴾ أي يوصون لنسائهم. قرأ ابن كثير ونافع والكسائي وأبو بكر عن عاصم (وصية) بالضم يعني عليهم وصية وقرأ الباقون: بالنصب يعني يوصون وصية لأزواجهم ﴿مَتَاعًا﴾ أي نفقة وكسوة ﴿إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾

(١) سقط من ظ. (٢) ما بين المعقوفين من ظ. (٣) من ظ.

(٤) ما بين المعقوفين من ظ. (٥) سقط من ظ.

(٦) أخرجه مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه ٥٢٠/٢ في صلاة المسافرين باب أفضل الصلاة طول القنوت (٧٥٦/١٦٤).

(٧) أخرجه مسلم ٣٨٣/١ في كتاب المساجد باب تحريم الكلام في الصلاة (٥٣٩/٣٥).

(٨) معاني القرآن وإعرابه ٣١٦/١.

(٩) انظر حديث صلاة الخوف أخرجه البخاري في التفسير ١٩٩/٨ وفي ٤٢١/٧ في المغازي باب غزوة ذات الرقاع، وأخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٥٧٥/٢.

(١٠) راجع الإتحاف وأبو شامة، والمهذب وحجة القراءات لابن زنجلة ١٣٨.

يقول: لا يخرج من بيوت أزواجهن وهذا في أول الشريعة كانت العدة حولاً وهكذا كان في الجاهلية. ألا ترى إلى قول لبيد: (١)

وَهُمْ رَبِيعٌ لِلْمَجَاوِرِ فِيهِمْ وَالْمُرْمِلَاتِ إِذَا تَطَاوَلَ عَامُهَا

ثم نسخ ما زاد على الأربعة أشهر وعشراً ونسخت الوصية للأزواج بقول النبي - صلى الله عليه وسلم - لا وصية لوارث ويقال: (٢) نسخ بآية الميراث (٣). ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ﴾ يعني من الزينة يحتمل أنه أراد به الخروج بعد مضي السنة ويحتمل الخروج في السنة إذا خرجت بعذر في أمر لا بد لها منه ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وقد ذكرناها ﴿وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ والمطلقات أربع: مطلقة يسمي لها مهرأ [ومطلقة لم يسم لها مهرأ] (٤) ومطلقة دخل بها ومطلقة لم يدخل بها فالمتعة لا تكون واجبة إلا لمطلقة واحدة وهي التي لم يسم لها مهرأ وطلقتها قبل الدخول كما ذكر في الآية التي سبق ذكرها وفي سائر المطلقات المتعة مستحبة وليست بواجبة ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ أي واجباً على المتقين وذلك فيما بينه وبين الله تعالى فلا يجبر عليه إلا في المطلقة التي ذكرنا. ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ يعني أمره ونهيه ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما أمرتم به. ويقال: آياته يعني دلائله. ويقال: آيات القرآن.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ يقول: ألم تخبر: وهذا على سبيل التعجب كما يقال. ألا ترى إلى ما صنع فلان. ويقال ألم تر يعني ألم تعلم؟ ويقال: ألم يتته إليك خبرهم؟ يعني الآن نخبرك عنهم - قال ابن عباس: وذلك أن ملكاً من ملوك بني إسرائيل أمر الناس بالخروج إلى الغزو فخرجوا فبلغهم أن في ذلك الموضع طاعوناً فامتنعوا عن الخروج إلى هناك ونزلوا في موضعهم فهلكوا كلهم فبلغ خبرهم إلى بني إسرائيل فخرجوا ليدفنهم فعجزوا عن ذلك لكثرتهم فحظروا عليهم الحظائر ثم أحياهم الله بعد ثمانية أيام وبقيت منهم بقايا من البحر ومعهم التين إلى اليوم (٥) وقال بعضهم: بلغهم أن هناك للعدو شوكة وقسوة فامتنعوا عن الخروج إليهم فأهلكهم الله تعالى. وقال بعضهم: إن أرضاً وقع بها الوباء فخرج الناس منها هاربين فزولوا منزلاً فماتوا كلهم فمر بهم نبي يقال له حزقيل - عليه السلام - فقال: الحمد لله القادر الذي يحيي هذه النفوس البالية ليعبدوه فدعا لهم فأحياهم الله تعالى فذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ قال ابن عباس في رواية الكلبي [وفي رواية الضحاك]: (٦) ثمانية آلاف ويقال: سبعون ألفاً ويقال: ثمانية عشر ألفاً. وقال بعضهم: هم أُلُوفٌ كما قال الله تعالى ولا يعرف كم عددهم [إلا الله] (٧) ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ أي خرجوا من ديارهم مخافة الموت ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ: مُوتُوا﴾ أي أماتهم الله ﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ يعني على أولئك الكفار حين أحياهم. يقال: هو ذو من على جميع الناس ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ رب هذه النعمة يعني الكفار ويقال: على الذي

(١) انظر ديوان لبيد بن ربيعة ص ٤٢.

(٢) من حديث أبي أمامة أخرجه ابن ماجة ٩١٣/٢ وأحمد في المسند ١٨٧/٤ والبيهقي في السنن الكبرى ٢١٩/٦.

(٣) سقط من ظ.

(٤) في ظ [الموارث].

(٥) انظر هذا في الدر المنثور ٣١١/١.

(٦) ما بين المعقوفين من ظ.

(٧) سقط من ظ.

أحيائهم . . وفي هذه الآية : دلالة نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - حيث أخبر عن قبله [ولم يكن قرأ] ^(١) الكتب فظهر ذلك عند اليهود والنصارى وعرفوا أنه حق . وفي هذه الآية : إبطال قول من يقول : إن الإحياء بعد الموت لا يجوز وينكر عذاب القبر لأن الله تعالى يخبر أنه قد أماتهم ثم أحيائهم .

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾

قوله : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ . قال ابن عباس في رواية أبي صالح : لما أحيائهم الله قال لهم (قاتلوا في سبيل الله) . ويقال : هذا أمر بالجهاد لأمة محمد - صلى الله عليه وسلم - قال لهم : قاتلوا في سبيل الله . ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لمقاتلتهم عليم بالأرض التي وقع فيها الوباء .

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

قوله عز وجل : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ نزلت في شأن أبي الدحداح قال : يا رسول الله إن لي حديقتين لو تصدقت بواحدة منهما أكون لي مثلها في الجنة؟ قال نعم قال وأم الدحداح معي؟ يعني امرأته قال نعم قال : والدحداح معي يعني ابنه فقال : نعم . قال : أشهدك أنني قد جعلت حديقتي لله تعالى : ثم جاء إلى الحديقة فقام على الباب وتخرج الدخول فيها بعدما جعلها لله تعالى ونادى : يا أم الدحداح اخرجي فإنني جعلت حديقتي لله تعالى فخرجت وتحولت إلى حديقة أخرى ، وقالت له : هنيئاً لك بما فعلت أو كما فعلت فتزل قوله تعالى : (فيضاعفه له أضعافاً كثيرة) يعني ألفي ألف ضعف . قال الفقيه : حدثنا عبد الرحمن بن محمد قال : حدثنا فارس ابن مردويه قال : حدثنا محمد بن الفضيل قال : حدثنا المعلى بن منصور قال : حدثنا جعفر قال حدثنا علي بن زيد عن أبي عثمان النهدي ^(٢) قال : بلغني عن أبي هريرة حديث أنه قال إن الله تعالى يكتب [للعبد] ^(٣) المؤمن بالحسنة الواحدة ألف ألف حسنة فحجبت ذلك العام لألقى أبا هريرة (فأكلمه) ^(٤) في هذا الحديث فلقينه فأخبرته فقال : ليس كذا قلت ولم يحفظ الذي حدثك عني وإنما قلت : ألفي ألف حسنة ثم قال أبو هريرة أولستم تجدون في كتاب الله تعالى : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ فقلوه (كثيرة) أكثر من ألف ألف ومن ألفي ألف ^(٥) . ثم قال تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ﴾ أي يقرر الرزق على من يشاء ﴿وَيَبْصُطُ﴾ أي يوسع على من يشاء من عباده . ويقال : يقبض الصدقات ويخلفها الثواب في الدنيا والآخرة وقال بعضهم يسلب قوماً ما أنعم عليهم ويوسع على آخرين . ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة قرأ حمزة والكسائي ونافع وأبو عمرو : (فيضاعفه) بالالف وبضم الفاء ^(٦) وقرأ عاصم (فيضاعفه) بالالف وينصب الفاء وقرأ ابن كثير (فيضعفه) بغير ألف وبضم الفاء وقرأ ابن عامر :

(١) من ظ .

(٢) عبد الرحمن بن معقل بن عمرو بن عدي بن وهب النهدي ، سكن الكوفة ثم البصرة توفي سنة ٧٥ هـ ، التهذيب ٦/ ٢٧٧ .

(٣) من ظ .

(٤) سقط من ظ .

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١/ ٣١٣ عن أبي عثمان النهدي .

(٦) مع تشديد العين . حجة القراءات لابن زنجلة ١٣٨ - ١٣٩ .

(فيضعفه) بغير ألف وينصب الفاء^(١) فأما من قرأ: (فيضاعفه) [بالألف والضم]^(٢)، (يضعفه) فهما لغتان بمعنى^(٣) واحد يقال: ضاعفت الشيء وضعفته^(٤) ومن قرأ بضم الفاء عطفه على قوله (يقرض الله) ومن نصبه فعلى جواب الاستفهام وقرأ نافع (يبسط) بالصاد وقرأ الباقون: بالسين^(٥) وهو أظهر عند أهل اللغة وفي كل موضع يكون الصاد قريباً من الطاء جاز أن يقرأ بالسين وبالصاد مثل المصيطرون ومثل: الصراط لأنه يشتد فرق الصاد عند ذلك فيجوز القراءة بالسين.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَالُنَا إِلَّا نَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آءَالُ مُوسَى وَءَالُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمُ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلتَقُوا اللَّهَ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامُنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ

(١) مع تشديد العين. حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٣٨ - ١٣٩، وراجع القراءات جميعاً. الحرز بشرح الفاصح، والمهذب والإتحاف. فمن رفع عطف على «يقرض الله» ومن نصب نصب على جواب الاستفهام باعتبار الفاء للسببية. وأما حجتهم في التشديد: ففيه تكرير الفعل وزيادة الضعف على الواحد إلى ما لا نهاية له. وحجة التخفيف: قالوا: إن أمر الله أسرع من تكرير الفعل إنما هو كمن فكان. قال الكسائي: المعنى فيهما واحد. حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٣٩.

(٢) سقط من ظ. (٣) في أ [ومعناها]. (٤) في أ [وضاعفته].

(٥) حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٣٩.

اللَّهُ وَقَتَلَ دَاوُدَ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا
دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَئِنْ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى
الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ يعني الرؤساء والقادة. وقال بعضهم: اشتقاق الملا في اللغة^(١) من الملا وهم الجماعة التي تملأ باديتهم. وقال بعضهم: الناظر إذا نظر إليهم امتلأ عينه هبة منهم وذلك أن كفار بني إسرائيل قهروا مؤمنهم فقتلوه. وسبوه وأخرجوه من ديارهم وكان رئيسهم جالوت فلما اضطر المسلمون في ذلك جاءوا إلى نبي لهم يقال له: أشمويل بن هلقانا - عليه السلام - بلغة العبرانية وبالعربية إسماعيل بن هلقان ﴿إِذْ قَالُوا: لِنَبِيِّ لَهُمْ﴾ يعني أشمويل ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾ يعني ادع لنا الله تعالى أن يجعل لنا ملكاً يعني رجلاً ينتظم به أمرنا ﴿تُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ف ﴿قَالَ﴾ لهم أشمويل ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ قرأ نافع: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ بكسر السين وقرأ الباقون: بالنصب وهي اللغة المعروفة والأول لغة لبعض العرب: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ ﴿إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ يعني إذا بعث الله لكم ملكاً وفرض عليكم القتال لعلكم لا تقاتلون وتجنبن عن القتال ﴿قَالُوا: وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يقول كيف لا نقاتل في سبيل الله ﴿وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ يعني أخذوا ديارنا وسبوا أبنائنا ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ أي فرض عليهم القتال ﴿تَوَلَّوْا﴾ وتركوا القتال ولم يثبتوا (إلا قليلاً منهم)^(٢) وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [يعني أن الله تعالى يعلم جزاء من تولى عن القتال]^(٣) ثم بين لهم القصة بقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ يعني قال: أجاكم ربكم إلى ما سألتكم من بعث ملك تقاتلون في سبيل الله معه وقد جعل لكم طالوت ملكاً وكان طالوت فيهم حقير الشأن وكانت النبوة في بني لاوي بن يعقوب والملك في سبط يهوذا ولم يكن طالوت من أهل بيت النبوة ولا من أهل بيت الملك. ويقال: كان رجلاً يبيع الخمر ويقال: كان بقاراً. ويقال: كان دباعاً ولكنه كان عالماً فرفعه الله بعلمه ﴿قَالُوا: أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ يعني المسلمون قالوا لنبيهم: من أين يكون له الملك ﴿عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾ لأن منا الملوك ﴿وَلَمْ يُوْتْ﴾ طالوت ﴿سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ [ينفق علينا]^(٤) والملك يحتاج إلى (مال)^(٥) ينفق على جنوده وأعوانه ﴿قَالَ﴾ لهم نبيهم - عليه السلام - ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني اختاره عليكم ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً﴾ أي فضيلة ﴿فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ وكان رجلاً جسيماً وكان عالماً. [ويقال: كان عالماً]^(٦) بأمر الحرب. ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ والواسع في اللغة^(٧): هو الغني. ويقال: واسع بعطية الملك عالم لمن يعطيه. ويقال: واسع يعني باسط الرزق عليم بمن يصلح له الملك. فظنوا أنه يقول لهم من ذات نفسه وقالوا له إن كان الله تعالى أمرك بذلك فأتنا بآية قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ: إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ وذلك أن الكفار كانوا أخذوا التابوت وكان التابوت للمسلمين فإذا خرجوا للغزو والتابوت معهم كانوا يرجون الظفر فأخذ

(١) راجع اللسان: ملا. (٢) في أ [والله عليم بالظالمين].

(٣) ما بين المعقوفين من ظ. (٤) من ظ. (٥) في ظ [ما].

(٦) سقط من ظ.

(٧) قال ابن منظور: في أسمائه سبحانه وتعالى الواسع: هو الذي وسع رزقه جميع خلقه ووسعت رحمته كل شيء وغناه كل فقر، اللسان: وسع.

الكفار التابوت ووضعوه في [مزبلة أي في] ^(١) مخراً لهم فابتلاهم الله تعالى بالبأسور ^(٢). ويقال إن أصل البأسور من ذلك الوقت وأصل الجزام من وقت أيوب - عليه السلام - وتغير الطعام من قبل بني إسرائيل. فجعل الله تعالى آية ملك طالوت رد التابوت إليهم فذلك قوله تعالى: (إِنَّ آيَةَ مَلَكَةٍ) [يعني علامة ملكه] ^(٣) (أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ) ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾. قال الكلبي: سَكِينَةٌ أي: طمأنينة [من ربكم] ^(٤) إذا كان التابوت في مكان اطمأنت قلوبهم [بالظفر] ^(٥). وقال مقاتل: السكينة كانت دابة ورأسها كُرَأْسُ الهرة ولها جناحان فإذا صوتت عرفوا أن النصر لهم. ويقال: كانت جوهرراً أحمر يسمع منه الصوت. ويقال: كانت ريحاً تهب فيها لها صوت يعرفون أن النصر لهم عند الصوت قوله تعالى: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ يعني الرضا ^(٦) من الألواح وقفيظ من من في طست من ذهب وعصا موسى وعمامة هارون قال الكلبي: وكان التابوت من [عود الشمشاز] ^(٧) الذي يتخذ منه الأمشاط فلما ابتلاهم الله تعالى بالبأسور عرفوا أن ذلك من التابوت فقالوا: لعل اله بني إسرائيل الذي فينا يعنون التابوت هو الذي يفعل بنا هذا الفعل فأخرجوا بقرتين من المدينة وتركوا أولادها في المدينة وربطوا التابوت على عجلة ثم ربطوا العجلة بالبقرتين ثم وجهوهما ^(٨) نحو بني إسرائيل فضربت الملائكة جنوبهما وساقوهما حتى هجموا بهما على أرض بني إسرائيل فأصبحوا والتابوت بين أظهرهم. وذلك قوله تعالى: ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يعني الملائكة ساقوا العجلة. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ﴾ يعني إن في رد التابوت علامة لملك طالوت ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ أي مصدقين بأن ملكه من الله تعالى فعرفوا وأطاعوه. قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ يعني فتجهز طالوت وخرج بالجنود وهم سبعون ألفاً فصاروا في حر شديد فأصابهم عطش شديد فسألوا طالوت الماء. فـ ﴿قَالَ﴾ لهم طالوت ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ وهو بين الأردن، وفلسطين وإنما كان الابتلاء ليظهر عند طالوت من كان مخلصاً في نيته من غيره وأراد أن يميز عنهم من لا يريد القتال لأن من لا يريد القتال إذا خالط العسكر يدخل الضعف والوهن في العسكر لأنه إذا انهزم وهرب ضعف الباقون. ويقال: إن أشمويل هو الذي أخبر طالوت بالوحي حتى أخبر طالوت قومه حيث قال: (إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ) ^(٩) ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ يعني ليس معي على عدوي إذا شرب بغير غرفة ﴿وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ يعني لم يشرب منه [يعني] ^(١٠) غرفة ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي معي على عدوي ﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾. قرأ نافع [وابن كثير] ^(١١) وأبو عمرو: (غرفة بنصب الغين وقرأ الباقون برفع الغين فمن قرأ بالنصب يكون مصدر غرفة أي مرة واحدة باليد. ومن قرأ بالضم هو ملء الكف وهو اسم الماء مثل: الخطوة والخطوة قال بعض المفسرين الغرفة بكف واحدة والغرفة بالكفين ^(١٢) وقال بعضهم كلاهما لغتان ومعناها واحد ^(١٣)). فلما خرجوا من المفازة وقد أصابهم العطش [وقفوا] ^(١٤) في النهر ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ﴾ بغير غرفة ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ^(١٥). وروي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال لأصحابه يوم بدر: أنتم على عدد المرسلين وعدد قوم طالوت ثلاثمائة وثلاثة عشر فأمر من شرب بغير غرفة أن يرجعوا. ويقال: قد ظهر على

(١) ساقطة في ظ.

(٢) البأسور كالناسور، أعجمي: داء معروف، قال الجوهري: هي علة تحدث في المقعدة وفي داخل الأنف أيضاً. راجع / الصحاح واللسان / بسر.

(٣) ما بين المعقوفين من ظ.

(٤) من ظ.

(٥) من ظ.

(٦) في أ [الرضاض].

(٧) في ظ [عمود الشمشاذ].

(٨) في أ [ولوا وجههما].

(٩) من أ.

(١٠) في ظ [بغير].

(١١) سقط من ظ.

(١٢) في أ [بكفين].

(١٣) راجع: حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٤٠.

(١٤) في ظ [وقفوا].

(١٥) من أ.

شفاهم علامة عرف بها من شرب من الذي لم يشرب فردهم وأمسك المخلصين منهم. ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ﴾ يعني جاوز النهر ﴿هُوَ﴾ يعني طالوت ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ ودنوا إلى عسكر جالوت وكان معه مائة ألف فارس كلهم شاكون في السلاح. ﴿قَالُوا﴾ أي المؤمنون ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ لما رأوا من كثرتهم ﴿قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله﴾ يعني أيقنوا بالموت لما رأوا من كثرة العدو فأيقنوا بهلاك أنفسهم. ويقال: أيقنوا بالبعث بعد الموت وهو قوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ﴾ وهم أهل العلم منهم ﴿كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ﴾ يعني كم من جند قليل ﴿غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةً﴾ عدتهم ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بنصر الله وأمره إذا خلصت نيتهم وطابت أنفسهم بالموت في طاعة الله ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالنصرة على عدوهم أي معينهم ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ يقول: خرجوا واصطفوا لجالوت دعوا الله تعالى: ﴿قَالُوا: رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي اصبب علينا صبراً معناه ارزقنا الصبر على القتال ﴿وَوَيْتَ أَقْدَامَنَا﴾ عند القتال ﴿وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قال وكان داود - عليه السلام - راعياً وكان له سبعة أخوة مع طالوت فلما أبطأ خبر إخوته على أبيهم وكان اسمه إيشا أرسل إليهم ابنه داود ينظر إليهم ما أمرهم ويأتيه بخبرهم فلما خرج مر على حجر فقال له الحجر: خذني فإني حجر إبراهيم قتل بي عدوه فأخذه وجعله في مخلاته ثم مر بآخر فقال له: خذني فإني حجر موسى الذي قتل بي كذا وكذا، ثم مر بثالث فقال له: خذني فإنا الذي أقتل جالوت فأخذه وجعله في مخلاته فأتاهم وهم بالصفوف وقد برز جالوت وقال: من يبارزني؟ فلم يخرج إليه أحد ثم قال: يا بني إسرائيل لو كنتم على حق لخرج إلي بعضكم فقال داود [لإخوته] ^(١): أما فيكم أحد يخرج إلى هذا الألف؟ ^(٢) فقالوا له: أسكت فذهب داود إلى ناحية من الصف ليس فيها [أحد من إخوته] ^(٣) فمر طالوت به وهو يحرض الناس فقال له داود: وما تصنعون بمن يقتل هذا الألف؟ قال [طالوت] ^(٤): أنكحه ابنتي [واجعل له] ^(٥) نصف ملكي. قال داود: فإنا أخرج إليه فأعطاه طالوت درعه وسيفه فلما خرج في الدرع جرها لأن طالوت كان أطول الناس فرجع (داود) ^(٦) إلى طالوت وقال: إني لم أعود القتال في الدرع فرد الدرع إليه فقال له طالوت: فهل جربت نفسك؟ قال: نعم وقع ذئب في غنمي فضربته بالسيف ففقطعته نصفين فقال له طالوت: إن الذئب ضعيف فهل جربت نفسك في غير هذا؟ قال: نعم دخل أسد في غنمي فضربته ثم أخذت بلحييه فشققته فقال له: هذا أشد [ثم قال له] ^(٧) ما اسمك؟ قال داود بن إيشا فعرفه فرأى أنه أجلد إخوته فأخذ قذاذته وخرج فلما رآه جالوت قال: خرجت إلي لتقتلني بالقذافة كما تقتل الكلاب؟ فقال له داود: وهل أنت إلا مثل الكلاب قال الكلب: وكان على رأس جالوت بيضة ثلاثمائة رطل فقال له جالوت: إما أن ترميني وإما أن أرميك. فقال له داود: بل أنا أرميك ثم أخذ واحداً من الأحجار الثلاثة فرماه فوق في صدره ونفذ من صدره فقتل خلفه خلقاً كثيراً. وقال بعضهم: صارت الأحجار كلها واحداً فلما رماها تفرقت في عسكره فقتلت خلقاً كثيراً. وقال بعضهم: رمى واحداً بعد واحد فقتل جالوت وخلقاً كثيراً وهزمهم الله بإذنه فذلك قوله عز وجل: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ ثم إن طالوت زوج داود ابنته وأراد أن يدفع إليه نصف ملكه فقال له وزراؤه: إن دفعت إليه نصف ملكك فيصير منازعاً لك في ملكك ويفسد عليك الملك فامتنع من ذلك وأراد قتل داود - عليه السلام - وكان في ذلك ما شاء الله حتى دفع إليه النصف ثم خرج طالوت إلى بعض المغازي فقتل هناك فتحول الملك كله إلى داود ولم يجتمع بنو إسرائيل كلهم على ملك واحد إلا على داود. فذلك قوله عز وجل: ﴿وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ يعني ملك اثني عشر سبطاً

(٢) الألف - هو الذي لم يختن. انظر اللسان: قلف وترتيب القاموس: قلف.

(٥) في أ [وأعطيته].

(٤) سقط من ظ.

(٣) في ظ [أخوته].

(٧) سقط من ظ.

(٦) سقط من ظ.

﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ يعني النبوة وأنزل عليه الزبور أربعمائة وعشرين سورة ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ أي علم داود من صنع الدروع وكلام الطيور وتسبيح الجبال معه وكلام الدواب ﴿وَلَوْلَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي يدفع البلاء عن المؤمنين بالنيبين - عليهم السلام - ويدفع بالمؤمنين عن الكفار ﴿لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ أي هلك أهلها. ويقال: ولولا دفع الله جالوت بطالوت لهلكت بنو إسرائيل كلهم. ويقال: ولولا دفع الله البلايا بسبب المطيعين لهلك الناس كما جاء في الأثر: (لولا رجال خشع وصبيان رضع وبهائم رتع لصيبت عليكم العذاب صباءً^(١)) وروي عن الحسن أنه قال: لولا الصالحون لهلك الطالحون. ويقال: لولا ما أمر الله [المؤمنين]^(٢) بحرب الكفار لفسدت الأرض بغلبة الكفار. ويقال لولا ما ينتفع بعض الناس ببعض لأن في كل أرض بلدة يتولد [فيها]^(٣) شيء لا يوجد ذلك في سائر البلدان فينتفع بها أهل سائر البلدان وينتفع بعضهم ببعض فيكون في ذلك صلاح أهل الأرض. قرأ نافع ههنا (ولولا دفاع الله) وفي الحج: (إن الله يدافع) وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بغير ألف في كلا الموضعين وقرأ حمزة والكسائي وعاصم وابن عامر: (ولولا دفع الله) بغير ألف (إن الله يدافع) بالألف وتفسير القراءتين واحد وهما لغتان معروفتان^(٤). ثم قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي ذو من عليهم بالدفع عنهم ﴿بَلَّكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ وهو ما قص عليه من أخبار الأمم ﴿تَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ أي تنزلها بقراءة جبريل عليك ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي بالصدق ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ يعني إنك لمن جملة المرسلين الذين ذكرناهم. وقال الزجاج^(٥) تلك آيات الله أي هذه الآيات التي أثبت أي العلامات التي تدل على توحيده وثبت رسالته إذ كان يعجز عن إثبات مثلها المخلوقون وإنك من هؤلاء المرسلين لأنك قد أثبتهم بالعلامات.

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ﴾ الذين أنزلنا عليك خبرهم في القرآن ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ في الدنيا. ويقال: التفضيل يكون على ثلاثة أوجه: أحدها أن يكون دلالة نبوته أكثر. والثاني: أن تكون أمته أكثر. والثالث: أن يكون بنفسه أفضل ثم بين تفضيلهم فقال: ﴿مِنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [مثل]^(١) موسى - عليه السلام - ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ يعني إدريس - عليه السلام - كما قال تعالى: (ورفعناه مكاناً علياً) وقال الزجاج^(٢): جاء في التفسير أنه أراد محمداً - صلى الله عليه وسلم - لأنه أرسله إلى الناس كافة وليس شيء من الآيات التي أعطاها الله الأنبياء -

(١) حديث ضعيف. انظر كشف الخفاء ٢/ ٢٣٠. (٢) في ظ [المسلمين]. (٣) في ظ [منها].

(٤) قراءة نافع في هذا الموضوع وفي سورة الحج واحدة «ولولا دَفَاعٌ» حجة نافع: أن الدفاع مصدر لـ «فاعل» تقول: دَافَعَ الله عنك الشيء يُدَافِعُ مَدَافَعَةً ودفاعاً والعرب تقول: أحسن الله عنك الدفاع.

وأما قراءة الباقيين. بغير ألف فحجته: أن الله عز وجل لا مدافع له وأنه هو المنفرد بالدفع من خلقه، وكان أبو عمرو يقول: إنما

الدفاع من الناس والدفع من الله. راجع حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٤٠ - ١٤١.

(٥) معاني القرآن وإعرابه ١/ ٣٣٠.

(٦) سقط من ظ.

(٧) معاني القرآن وإعرابه ١/ ٣٢٩.

عليهم السلام - إلا والذي أعطى محمداً - صلى الله عليه وسلم - أكثر لأنه قد كلمته الشجرة وأطعم من كف من التمر خلقاً كثيراً وأمر يده على شاة أم معبد فدرت لبناً كثيراً بعد الجفاف ومنها انشقاق القمر فذلك قوله (ورفع بعضهم فوق بعض درجات) يعني محمداً - صلى الله عليه وسلم - . ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَاتِ﴾ يعني العجائب والدلائل وهو: أن يحيي الموتى بإذنه ويبرئ الأكمه والأبرص ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ يعني أعناه بجبريل حين أرادوا قتله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا الَّذِينَ﴾ أي ما اختلف الذين ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيْنَاتُ﴾ التي أتاهم بها موسى وعيسى - عليهما السلام - وقال الزجاج^(١): يحتمل وجهين: ولو شاء الله ما أمر بالقتال بعد وضوح الحجة ويحتمل ولو شاء الله اضطهرهم إلى أن يكونوا مؤمنين كما قال تعالى (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) (ولكن اختلفوا) في الدين فصاروا فريقين: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ بالكتاب والرسول ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُونَا﴾ وجعلهم على أمر واحد ﴿وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أي يعصم من يشاء من الاختلاف ويخذل من يشاء فلا مرد لأمره ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ
وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي تصدقوا قال بعضهم: أراد به الزكاة المفروضة. وقال بعضهم: صدقة التطوع. ثم بين لهم أن الدنيا فانية [وأنه في الآخرة]^(٢) لا ينفعهم شيء^(٣) إلا ما قدموه قال تعالى: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ﴾ يقول: لا فداء فيه ﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾ يعني [الصدقة]^(٤) وهذا كما قال في آية أخرى: (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) ﴿وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ للكافرين كما يكون في الدنيا. قرأ ابن كثير وأبو عمرو: (لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) بالنصب وكذلك في سورة إبراهيم: (لا بيع فيه ولا خلال) وقرأ الباقون: بالضم مع التنوين^(٥). ثم قال تعالى عز وجل: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أنفسهم. والظلم في اللغة^(٦): وضع الشيء في غير موضعه وكان المشركون يقولون الأصنام شركاؤه وهم شفاعونا عند الله فوحد الله نفسه.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

فقال عز وجل: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ يقول: لا خالق ولا رازق ولا معبود إلا هو. ويقال: الإثبات إذا كان بعد النفي فإنه يكون أبلغ في الإثبات فلهذا قال: (الله لا إله إلا هو) فبدأ بالنفي ثم استثنى الإثبات فيكون ذلك أبلغ في الإثبات ﴿الحي القيوم﴾ يقول: الحي الذي لا يموت ويقال: الحي الذي لا بدى له يعني لا ابتداء له ﴿القيوم﴾ يعني القائم على كل نفس بما كسبت ويقال: القائم بتدبير أمر الخلق في إنشائهم ورزقهم ومعنى القائم: هو الدائم. ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ روي عن علي ابن أبي طالب - كرم الله وجهه - أنه قال السنة والنوم

(١) معاني القرآن وإعرابه ٣٣١/١. (٢) من ظ.

(٣) من ظ.

(٤) في ظ [لا صداقة]. (٥) راجع: حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٤١. (٦) اللسان: ظلم، ترتيب القاموس: ظلم.

كلاهما واحد ولكنه أول ما يدخل في الرأس يقال له سنة ويكون بين النائم واليقظان فإذا وصل إلى القلب صار نوماً ويقال: معناه^(١): أنه ليس بغافل عن أمور الخلق فيكون النوم على وجه الكناية. وقال بعضهم هو على ظاهره أنه مستغن عن النوم. وروي في بعض الأخبار أن موسى بن عمران - عليه السلام - حين رفع إلى السماء سأل بعض الملائكة أينام ربنا؟ وقال بعضهم خطر ذلك بقلبه، ولم يتكلم به فأمره الله تعالى أن يأخذ زجاجتين [وأمره بأن يحفظهما ثم ألقى عليه النوم فلم يملك نفسه حتى نام فانكسرت الزجاجتان]^(٢) في يده فقال له: يا موسى لو كان لي نوم لهلكت السموات والأرض أسرع من كسر الزجاجتين في يدك^(٣) فذلك قوله تعالى: (لا تأخذه سنة ولا نوم) ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ كلهم عبيده وإماؤه وهو مستغن عن الشريك ويقال: معناه أن كل ما في السموات والأرض يدل على وحدانيته ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ﴾ يقول: من ذا الذي يجتري أن يشفع عنده ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ دون أمره ردأ لقولهم حيث قالوا: هم شفعاؤنا عند الله. وفي الآية دليل على إثبات الشفاعة لأنه قال: (إلا بإذنه) ففيه دليل على أن الشفاعة قد تكون بإذنه للأنبياء والصالحين ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني الله لا إله إلا هو الحي القيوم هو الذي يعلم ما بين أيديهم من أمر الدنيا يعني يعلم أن الأصنام لا يدعون الألوهية ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ يعني يعلم أنه لا شفاعة لهم. وقال مقاتل: (يعلم ما بين أيديهم) يعني ما كان قبل خلق الملائكة ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [أي ما يكون بعد خلقهم]^(٤) وقال الزجاج^(٥): يعني يعلم^(٦) الغيب الذي [تقدمهم والغيب الذي يأتي من بعدهم]. وقال الكلبي: يعلم ما بين أيديهم من أمر الآخرة وما^(٧) خلفهم من أمر الدنيا. ثم قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾ يعني الملائكة لا يعلمون الغيب لأن بعض الناس يعبدون الملائكة ويرجون شفاعتهم فأخبر أنهم لا يملكون شيئاً ولا يعلمون مما تقدمهم ولا مما بعدهم إلا بما أنبأهم الله تعالى. ويقال: لا يدركون جميع علمه والإحاطة في اللغة^(٨): إدراك الشيء بكماله (إلا بما شاء) فيعلمهم. ثم أخبر عن عظمته فقال تعالى: ﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي ملأ كرسيه السموات والأرض وروي عن عطاء بن أبي رباح أنه قال: السموات السبع والأرضون السبع تحت [جنب]^(٩) الكرسي كحلقة بأرض فلاة وهكذا قال الكلبي ومقاتل. وقال بعضهم: الكرسي هو المكان الذي خلق الله فيه السموات والأرض وقال بعضهم: الكرسي والعرش واحد ولكنه مرة ذكر بلفظ العرش ومرة ذكر بلفظ الكرسي. وقال بعضهم: الكرسي غير العرش. قال الفقيه حدثنا عبد الرحمن بن محمد قال: [حدثنا فارس بن مردويه قال]^(١٠) حدثنا محمد بن الفضيل: قال: حدثنا أبو مطيع عن حماد بن سلمة^(١١) عن عاصم بن بهدلة وهو عاصم بن أبي النجود عن زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود قال: [بين كل سماءين]^(١٢) مسيرة خمسمائة عام وبين الكرسي [وبين العرش]^(١٣) مسيرة خمسمائة عام والعرش فوق الماء والله فوق العرش - أي بالعلو والقدرة يعلم ما أنتم عليه. وقال الزجاج^(١٤): قال ابن عباس: (وسع كرسيه السموات والأرض) يعني علمه وقال قوم: كرسيه

(١) انظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣٣٣/١. (٢) ما بين المعقوفين من أ.

(٣) قال القرطبي: لا يصح، وهو ضعيف. انظر تفسير القرطبي ٢٧٣/٣.

(٤) سقط من ظ. (٥) معاني القرآن وإعرابه ٣٣٤/١. (٦) سقط من ظ.

(٧) ما بين المعقوفين من ظ.

(٨) قال ابن منظور: وكل من بلغ أقصى شيء وأحصى علمه فقد أحاط به، وأحاط بالأمر إذا أحق به من جوانبه كله. اللسان: حوط.

وكذا ترتيب القاموس/ حوط ٧٤٠/١.

(٩) سقط من ظ. (١٠) سقط من ظ.

(١١) حماد بن سلمة بن دينار البصري أبو سلمة مولى تميم من الثقات، فقيهاً فصيحا. التهذيب ١١/٣.

(١٢) في ظ [وبين السماء السابعة]. (١٣) في ظ [وبين الماء]. (١٤) معاني القرآن وإعرابه ٣٣٤/١.

قدرته التي يمسك بها السموات والأرض وهذا قريب من قول ابن عباس ثم أخبر عن قدرته فقال: ﴿وَلَا يُؤْوِدُهُ حِفْظُهُمَا﴾ يقول: ولا يثقله حفظهما أي حفظ السموات والأرض. ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ أي الرفيع تعالى فوق خلقه العظيم يعني أعلا وأعظم من أن يتخذ شريكاً ويقال: يحمل الكرسي أربعة أملاك لكل أربعة أوجه: وجه إنسان وجه ثور وجه أسد وجه نسر أقدامهم في الصخرة التي تحت الأرضين هكذا قال الكلبي ومقاتل. ويقال: يدعوا بالوجه الذي كوجه الإنسان لنبى آدم ويسأل الله تعالى لهم الرزق والرحمة والمغفرة وبالوجه الذي كوجه الثور يدعو للأنعام [والرزق] ^(١) وبالوجه الذي كوجه الأسد يدعو للوحوش وبالوجه الذي كوجه النسر يدعو [للطيور] ^(٢). وروي عن محمد ابن الحنفية أنه قال لما نزلت آية الكرسي: خر كل صنم في دار الدنيا ^(٣) وخر كل ملك في الدنيا على وجهه وسقطت التيجان [عن رؤوسهم] ^(٤) وهربت الشياطين فضرب بعضهم بعضاً فاجتمعوا إلى إبليس وأخبروه بذلك فأمرهم أن يحنثوا عن ذلك فجاءوا إلى المدينة فبلغهم أن آية الكرسي قد نزلت [وروي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: من قرأ آية الكرسي خلف كل صلاة أعطاها الله تعالى صلاة الشاكرين وصلاة المطيعين وصلاة الصابرين ولا يمنعهم دخول الجنة إلا الموت] ^(٥).

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ يعني لا تكرهوا في الدين أحداً بعد فتح مكة وبعد إسلام العرب ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ أي قد تبين الهدى من الضلالة. ويقال: قد تبين الإسلام من الكفر فمن أسلم وإلا وضعت عليه الجزية ولا يكره على الإسلام ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ يعني بالشیطان [ويقال: الصنم] ^(٦) ويقال: هو كعب بن الأشرف ﴿وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [يقول: بالثقة يعني بالإسلام ويقال: فقد تمسك بلا إله إلا الله] ^(٧) ﴿لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ يعني لا انقطاع لها ولا زوال لها ولا هلاك لها. ويقال: قد استمسك بالدين الذي لا انقطاع له من الجنة ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ [بقولهم] ^(٨) ﴿عَلِيمٌ﴾ بهم.

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَٰئِكَ أَهْمُ الظُّلُمَاتِ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي حافظهم ومعينهم وناصرهم ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ يعني من الكفر إلى الإيمان واللفظ لفظ المستقبل والمراد به الماضي يعني أخرجهم ويقال: ثبتهم على الاستقامة كما أخرجهم من الظلمات. ويقال: يخرجهم من الظلمات أي من ظلمة الدنيا ^(٩) ومن ظلمة القبر ومن ظلمة الصراط إلى الجنة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَٰئِكَ أَهْمُ الظُّلُمَاتِ﴾ يعني اليهود أولياؤهم كعب بن الأشرف وأصحابه. ويقال: المشركون أولياؤهم الشياطين ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ يعني يدعونهم إلى الكفر كما قال في آية أخرى: (أَن

(١) في ظ [بالرزق].

(٢) في ظ [للطيور].

(٣) وعلى وجهه].

(٤) سقط في ظ.

(٥) ما بين المعقوفين من أ.

(٦) ما بين المعقوفين من أ.

(٧) ما بين المعقوفين من أ.

(٨) في ظ [لقولهم].

(٩) من ظ.

أخرج قومك) يعني ادع قومك ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يعني أهل النار هم فيها خالدون أي دائمون .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ يقول: ألم تخبر بقصة الذي خاصم إبراهيم في توحيد ربه ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ وهو النمرود بن كنعان وهو أول من ملك الدنيا كلها وكانوا خرجوا إلى عيد لهم فدخل إبراهيم - عليه السلام - على أصنامهم فكسرها فلما رجعوا قال لهم: أتعبدون ما تنحتون؟ فقالوا له من تعبد أنت؟ قال: أعبد ربي الذي يحيي ويميت. وقال بعضهم: كان النمرود يحتكر الطعام وكانوا إذا احتاجوا إلى الطعام^(١) يشتررون منه وإذا دخلوا عليه سجدوا له فدخل عليه إبراهيم ولم يسجد له فقال له النمرود: مالك لم تسجد؟ فقال: أنا لا أسجد إلا لربي. فقال النمرود من ربك؟ (فقال [له إبراهيم]^(٢)): ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ﴾ له [النمرود]^(٣): ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ قال إبراهيم كيف تحيي وتميت؟ فجاء برجلين فقتل أحدهما وخلق سبيل الآخر ثم قال: قد أمت أحدهما وأحييت الآخر. ﴿قَالَ﴾ له ﴿إِبْرَاهِيمُ﴾ إنك أحييت الحي ولم تحيي الميت وإن ربي يحيي الميت فخشى إبراهيم أن يلبس النمرود على قومه فيظنون أنه أحيأ الميت كما وصف لهم النمرود فجاءه بحجة أظهر من ذلك حيث قال ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ فإن قيل: لم لم يثبت إبراهيم على الحجة الأولى؟ وانتقل إلى حجة أخرى والانتقال في المناظرة من حجة إلى حجة غير محمود. قيل له: الانتقال على ضربين: انتقال محمود إذا كان بعد الإلزام وانتقال مذموم إذا كان قبل الإلزام وإبراهيم - عليه السلام - انتقل [بعد]^(٤) الإلزام لأنه قد تبين له فساد قوله حيث قال له: إنك قد أحييت الحي ولم تحيي الميت. وجواب آخر: إن قصد إبراهيم - عليه السلام - لم يكن للمناظرة وإنما كان قصده إظهار الحجة فترك [مناظرته]^(٥) في الإحياء والإماتة على ترك الإطالة وأخذ [بالاحتجاج]^(٦) بالحجة المسكتة ولأن الكافر هو الذي ترك حد النظر حيث لم يسأل [- عما قال له]^(٧) إبراهيم - (دلا)^(٨) ولكنه اشتغل بالجواب عن ذات نفسه حيث قال: أنا أحيي وأميت. وقوله تعالى: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ أي انقطع وسكت متحيراً. يقال: بهت الرجل إذا تحير. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا يرشدهم إلى الحجة والبيان. وروي في الخبر أن الله عز وجل قال: وعزتي وجلالي لا تقوم الساعة حتى آتي بالشمس من المغرب ليعلم أنني أنا القادر على ذلك ثم أمر النمرود بإبراهيم فألقي في النار وهكذا عادة الجبابرة أنهم إذا عورضوا بشيء وعجزوا عن الحجة اشتغلوا بالعقوبة فأنجاه الله من النار وسنذكر قصة ذلك في موضعها إن شاء الله تعالى .

(١) في ظ [الطعام كانوا].

(٢) من ظ .

(٤) في أ [قبل].

(٣) في ظ [غرود].

(٦) في ظ [الاحتجاج].

(٥) في ظ [مناقضته].

(٨) ساقطة من ظ .

(٧) في ظ [مما قاله].

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتُ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

ثم قال عز وجل: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ قال بعضهم: معناه إحيائي ليس كإحياء النمرود ولكن إحيائي كإحياء عزيز - عليه السلام - أحييته بعد مائة عام. وقال بعضهم هو معطوف على ما سبق من قوله: (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم و(إلى الذي حاج إبراهيم في ربه) (أو كالذي مر على قرية). قال مقاتل: والذي مر على قرية هو عزيز بن شرخيا وكان من علماء بني إسرائيل فمر بدير هرقل بين واسط والمدائن على حمار فمر بها (وهي خاوية على عروشها). وقال الضحاك بن مزاحم: هو عزيز النبي - عليه السلام - مر ببيت المقدس وقد خربها بخت نصر وقتل منهم سبعين ألفاً وأسر منهم سبعين ألفاً أي من بني إسرائيل فمر عزيز فقال: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾. وقال ابن عباس في رواية أبي صالح: إن بخت نصر غزا بني إسرائيل فسي منهم ناساً كثيرة فجاء بهم وفيهم عزيز بن شرخيا وكان من علماء بني إسرائيل فجاء بهم إلى بابل فخرج ذات يوم لحاجة له إلى دير هرقل على شاطئ دجلة فنزل تحت ظل شجرة وهو على جمار له فربط حمارة تحت ظل شجرة ثم طاف بالقرية فلم ير بها ساكناً. (وهي خاوية على عروشها) يقول ساقطة على سقفها وذلك أن السقف يقع قبل الحيطان ثم الحيطان على السقف فهي خاوية على عروشها. قال بعض أهل اللغة^(١): الخاوية الخالية. وقال بعضهم: بقيت حيطانها لا سقف عليها. [وقال الزجاج^(٢): عروشها هي الخيام وهي بيوت الأعراب]^(٣). فتناول من الفاكهة والتين والعنب ثم رجع إلى حمارة فجلس يأكل من تلك الفاكهة ثم عصر من العنب فشربه ثم جعل فضل التين [والعنب]^(٤) في سلة وفضل العصير في الزق ثم نظر إلى القرى فتعجب من كثرة ثمرها وفناء أهلها فـ(قال: أنى يحيي هذه الله بعد موتها) فلم يشك في البعث ولكن أحب أن يريه الله كيف يحيي الموتى فلما تكلم عزيز بذلك نام في ذلك الموضع ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ﴾ في منامه ﴿مِائَةَ عَامٍ﴾ وأمات حمارة ﴿ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ الله تعالى في آخر النهار ومنعه الله تعالى في حال موته عن أبصار الناس والسباع والطير فلما بعثه الله تعالى سمع صوتاً ﴿قَالَ﴾ له: ﴿كَمْ لَبِثْتُ﴾ (أي)^(٥) كم مكثت في نومك يا عزيز ﴿قَالَ﴾ لَبِثْتُ يَوْمًا ثم نظر إلى الشمس وقد بقي منها شيء لم تغرب فقال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ﴿قَالَ﴾ له: ﴿بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ﴾ يعني كنت ميتاً مائة عام ثم أخبره ليعتبر فقال: ﴿فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ﴾ يعني الفاكهة ﴿وَشَرَابِكَ﴾ يعني العصير ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ يعني لم يتغير كقوله: (من ماء غير آسن) أي غير متغير ويقال: لم يتسنه كأنه لم تأت عليه السنون. قرأ حمزة وابن عامر وأبو عمرو: (كم لبثت) بإدغام (الثاء)^(٦) والفاء. وقرأ الباقون: بإظهارها وقرأ الكسائي: (لم يتسن) بغير هاء عند الوصل [وأثبت]^(٧) عند القطع. وقرأ حمزة: بحذف الهاء عند

(١) انظر اللسان: خوا.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٣٣٩/١.

(٣) ما بين المعقوفين من أ.

(٤) سقط في ظ.

(٧) في ظ [وأثبت].

(٦) سقط في ظ.

الوصل والقطع^(١) جميعاً وقرأ الباقون بإثبات الهاء عند الوصل والقطع وقرأ نافع: (أنا أحيي) بمد الألف وكذلك في جميع القرآن نحو هذا إلا في قوله: (إن أنا إلا نذير) وقرأ الباقون بغير مد ومعنى القراءتين في هذا كله واحد^(٢) ثم نظر عزيز - عليه السلام - إلى حمارة وقد بلي فنودي: أن انظر إلى حمارك فإذا هو عظم [أبيض يلوح]^(٣) وقد تفرقت أوصاله ثم سمع صوتاً قال: أيتها العظام البالية إني جاعل فيكن روحاً فاجتمعن فسعى بعضها إلى بعض حتى استقر كل شيء في موضعه ثم بسط عليه الجلد ونفخ فيه الروح فإذا هو قائم ينهق فخر عزيز ساجداً [لله تعالى]^(٤) وقال عند ذلك: أعلم أن الله على كل شيء قدير فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنُجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ أي عبرة للناس لأن أولاده قد^(٥) صاروا شيوخاً وقد كان شاباً. ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾. قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو [بالزاي]^(٦) وقرأ الباقون [بالراء]^(٧) فمن قرأ بالراء فمعناه كيف نحياها ونظيرها (أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون) أي يبعثون الموتى ومن قرأ بالزاي: أي كيف يضم بعضها إلى بعض النشز: ما ارتفع من الأرض وهذا كما جاء في الأثر: الرضاع ما أنبت اللحم، وأنشز العظم. وقال أهل اللغة^(٨): أصل النشز الحركة يقال: نشز الشيء إذا تحرك ونشزت المرأة عن زوجها والمراد هاهنا [تضمنها]^(٩) ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ: أَعْلَمُ﴾ قرأ حمزة والكسائي: (اعلم): بالجزم على [مضي]^(١٠) الأمر، وقرأ الباقون (قال: أعلم) على معنى الخبر عن نفسه [ومعناه]^(١١) علمت بالمعينة ما كنت أعلمه قبل ذلك غيباً^(١٢). ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من الإحياء وغيره وقال بعضهم: أن عزيزاً لما أحياه الله تعالى قال في نفسه كم لبثت قال: لبثت يوماً أو بعض يوم فلما رجع إلى منزله ولفقيه أقرباؤه وحسبوا غيبته فقالوا له: بل لبثت مائة عام وهذا قول من قال: إن هذا لم يكن عزيزاً النبي - عليه السلام - [بل رجل آخر سوى عزيز النبي - عليه السلام -]^(١٣).

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَمْ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ: رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ وذلك أن النمرود لما قال له: أنا أحيي وأميت ووصف لهم ذلك فسألوا إبراهيم فقالوا له: كيف يحيي ربك الموتى فأراد إبراهيم أن يرى ذلك بالمعينة حتى يخبرهم بما يرى من المعينة فسأل ربه فقال: ﴿رب أريني كيف تحيي الموتى﴾. وقال مقاتل: مر إبراهيم فرأى جيفة على ساحل البحر يأكل منها دواب البحر والطيور وبعضها يصير مستهلكاً في الأرض فوقع في قلبه أن الذي تفرق في البحر وفي بطون الطير كيف يجمعها الله تعالى فأراد أن يعاين ذلك فقال: ﴿رب أريني كيف تحيي الموتى﴾ ف ﴿قَالَ﴾ له ربه ﴿أُولَمْ تُؤْمِنُ﴾ يعني أولم تصدق بأنني أحيي الموتى ﴿قَالَ: بَلَىٰ﴾ قد صدقت ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ أي ليسكن قلبي. ويقال: إنما قال له: أولم تؤمن؟ لكي يظهر إقراره لكي لا يظن أحد بعده أنه لم يكن مقرأ

(١) راجع حجة القراءات لابن زنجلة ١٤٢ - ١٤٣ والنشر، والإتحاف وأبو شامة.

(٢) راجع النشر والإتحاف في الآية. (٣) في ظ [تلوح]. (٤) سقط في ظ.

(٥) في ظ [قد]. (٦) في ظ [بالراء]. (٧) في ظ [بالراء].

(٨) راجع اللسان: نشز، وترتيب القاموس ٣٧٢/٤. (٩) في ظ [نضمها]. (١٠) في ظ [معنى].

(١١) سقط في ظ. (١٢) راجع: حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٤٤ - ١٤٥. (١٣) ما بين المعقوفين س غ.

بذلك في ذلك الوقت فظهر إقراره بقوله: بلى وقال سعيد بن جبير: ليسكن قلبي أنك اتخذتني خليلاً. ﴿قَالَ: فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ﴾ فأخذ ديكاً وحمامة وطاووساً وغراباً وفي بعض الروايات أخذ طاووساً وثلاثة [من الطيور]^(١) مختلفة ألوانها وأسمائها وريشها ﴿فَصَرَّهُنَّ إِلَيْكَ﴾^(٢) أي قطعهن وقال السدي: يعني فذقهن وقال الأخفش: يعني اضممهن إليك. وذكر مقاتل بإسناده عن الأعمش قال: فيه تقديم وتأخير يعني فخذ إليك أربعة من الطيور فقطعهن واخلط بعضهن ببعض. ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ ثم فرقهن في أربعة أجبل ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا﴾ ففعل ذلك ودعاهن فسعين على أرجلهن. ويقال: إنه لما وضعهن على الأجبل هبت الرياح الأربعة التي تقوم يوم القيامة فواحدة من قبل المشرق والأخرى من قبل المغرب وواحدة من قبل اليمين والأخرى من قبل الشمال فرفعت الأعضاء المتفرقة عن مواضعها وحملتها إلى المواضع الأخرى حتى اجتمع أعضاء كل طير في موضعها فجعل إبراهيم ينظر ويتعجب حيث ينضم بعضها إلى بعض فقال عند ذلك قوله: ﴿وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ في ملكه ﴿حَكِيمٌ﴾ حكم بالبعث ولم أسأله [لريب]^(٣) كان في قلبي ولكن سألته ليسكن قلبي في الخلعة. قرأ ابن كثير [أرني] بجزم الراء وقرأ الباقون بالكسر وقرأ حمزة (فصرهن)^(٤) بكسر الصاد والباقون بالضم فمن قرأ بالكسر يعني قطعهن ومن قرأ بالضم يعني فضمهن إليك ويقال: هما لغتان ومعناهما وتفسيرهما واحد.

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٦١﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَذَكَّرُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ نزلت في شأن عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وذلك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما حث الناس على الصدقة حين أراد الخروج إلى غزوة تبوك فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم [فضة]^(٥) وقال يا رسول الله: كانت لي ثمانية آلاف درهم [فأمسكت منها لنفسي وعيالي أربعة آلاف درهم]^(٦) وأربعة آلاف أقرضتها لربي فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت. وقال عثمان بن عفان: يا رسول الله علي جهاز من لا جهاز له فنزلت هذه الآية: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وفي الآية مضمرة ومعناه مثل النفقة التي تنفق في سبيل الله ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ وطريق آخر مثل الذين ينفقون أموالهم كممثل زارع زرع في الأرض حبة فـ ﴿أَنْبَتَتْ﴾ الحبة ﴿سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ أي أخرجت سبع سنابل ﴿فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةٌ حَبَّةٌ﴾ فيكون جعلتها سبعمائة فشبه المتصدق بالزارع وشبه الصدقة بالبذر فيعطيه الله بكل صدقة سبعمائة حسنة. ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي يزيد على سبع مائة لمن يشاء فيكون مثل المتصدق كممثل الزارع إذا كان الزارع حاذقاً في عمله ويكون البذر جيداً وتكون الأرض عامرة يكون الزرع مخصباً طيباً فكذلك المتصدق إذا كان صالحاً والمال طيباً ويوضع في موضعه فيصير الثواب أكثر. ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ أي واسع الفضل لتلك الأضعاف ﴿عَلِيمٌ﴾ بما [ينفقون وبما]^(٧) نوا فيها. قرأ ابن كثير وابن عامر: (والله يضعف) بتشديد العين وحذف الألف وقرأ الباقون: (يضاعف) بالألف ومعناهما واحد فالذي قرأ يضعف من

(١) من ظ. (٢) في ظ [إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً].

(٣) من ظ. (٤) راجع حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٤٦. (٥) ساقطة من ظ.

(٦) ما بين المعقوفين من ظ. (٧) في أ [يفعلون وما].

التضعيف والذي قرأ يضاعف من المضاعفة. ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي يتصدقون بأموالهم ﴿ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾ أي لا يمتنون عليهم بما تصدقوا عليهم ولا يؤذونهم ولا يعيروهم بذلك ومعنى الأذى والتعير هو أن يقع بينه وبين الفقير خصومة فيقول له: إني أعطيتك كذا وكذا. وقال بعضهم: المن يشبه بالنفاق والأذى يشبه بالرياء. ثم تكلم الناس في ذلك فقال بعضهم إذا فعل ذلك لا أجر له في صدقته وعليه وزر فيما من على الفقير به. وقال بعضهم: ذهب أجره فلا أجر له ولا وزر عليه وقال بعضهم: له أجر الصدقة ولكن ذهبت مضاعفته وعليه الوزر بالمن. ثم قال تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي ثوابهم في الآخرة ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلهم من العذاب ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا من أمر الدنيا. ويقال: الآية نزلت في شأن عثمان بن عفان حين اشترى بئر رومة ثم جعلها سبيلاً على المسلمين.

قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٦٣﴾

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي دعاء الرجل لأخيه بظهر الغيب ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي يعفو ويتجاوز [عمن ظلمه] ^(١) خير من صدقة يعطيها ثم يمن على من تصدق عليه ويقال: قول معروف للفقير يعني إذا أتاه سائل سألته ولم يكن عنده شيء يعطيه فيدعوه بالجنة والمغفرة. ﴿خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ﴾ يعطيها له و﴿يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ ويقال: وعد المعطي خير من صدقة يتبعها أذى. ويقال: وعد الكريم خير من نقد اللئيم. ويقال: دعاء ^(٢) الفقير إذا دعا لصاحب الصدقة ومغفرة الله خير من [الصدقة التي يتبعها أذى] ^(٣). ويقال: قول معروف أن يتجاوز عن أساء إليه ويحسن له القول خير له من صدقة يتبعها أذى. ويقال: الأمر بالمعروف والصبر على ما أصابه والتجاوز عن الذي [أضره] ^(٤) خير من صدقة يتبعها أذى ثم قال ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ أي غني عما عندكم من الصدقة حلیم حيث [لم] ^(٥) يعجل [العقوبة] ^(٦) على من يمن [بالصدقة] ^(٧).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٤﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ فالله تعالى أمر عباده برأفته أن لا يمنوا بصدقاتهم لكي [لا يذهب] ^(٨) أجرهم ثم ضرب لذلك مثلاً فقال تعالى: ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يعني المشرك إذا تصدق فأبطل الشرك صدقته كما أبطل المن والأذى صدقة المؤمن ثم ضرب لهما مثلاً جميعاً لصدقة المؤمن الذي يمن وبصدقة المشرك فقال تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ قال القتيبي الصفوان الحجر الذي لا يثبت عليه شيء يعني كمثل حجر صلب عليه تراب ﴿فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾ [يعني المطر الشديد ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾] ^(٩) يعني المطر ترك الصفاً نقياً أجرد أملس ليس عليه شيء من تراب فكذلك نفقة صاحب الرياء

(١) في ظ [عن مظلمته]. (٢) في ظ [ادعاء الكريم بخير]. (٣) في ظ [صدقة يتبعها أذى].
(٤) في ظ [أضره]. (٥) في ظ [لا]. (٦) في ظ [بالعقوبة].
(٧) في ظ [بصدقته]. (٨) في ظ [يذهب]. (٩) ما بين المعقوفين من أ.

ونفقة المشرك لم يبق [لهما]^(١) ثواب. ثم قال تعالى: ﴿لَا يَقْدَرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ (والله لا يهدي القوم الكافرين)^(٢) أي لا يجدون للصدقة ثواباً في الآخرة وهذا كما قال في آية أخرى و (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح) ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (يعني لا يرشدهم إلى الإسلام والإخلاص ولا يوفقهم الله بل يخذلهم مجازاة لكفرهم)^(٣) ثم ضرب مثلاً لنفقة المؤمن الذي يريد بنفقته وجه الله تعالى ولا يمن بها فقال عز وجل:

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ مِّنْ رَّبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَثَاءَتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٦٥﴾

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ يعني يتصدقون طلب رضا الله تعالى بصدقاتهم ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني وتصديقاً من قلوبهم يعني يصدقون الله تعالى بالثواب في الآخرة والخلف في الدنيا. ويقال: وتثبيتاً من أنفسهم يعني وتحقيقاً من قلوبهم يقصدون بها وجه الله ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ مِّنْ رَّبْوَةٍ﴾ يعني بستاناً في مكان [مستو مرتفع]^(٤) ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ يعني البستان أصابه المطر الشديد ﴿فَثَاءَتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: (أكلها): بجزم الكاف ونصب اللام وقرأ الباقون بالضم [أكلها] وتفسير القراءتين واحد^(٥). وقرأ عاصم وأبو عمرو: (بربوة) بنصب الراء وقرأ الباقون: بالضم^(٦). وقرأ ابن سيرين: بكسر الراء وفيه ثلاث لغات: رَبْوَةٌ وَرَبْوَةٌ وَرَبْوَةٌ^(٧) وتفسير القراءات واحد^(٨) وفي الآية تقديم وتأخير ومعناه: كمثال [جنة بربوة]^(٩) أصابها وابل ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ﴾ فأتت أكلها ضعفين يعني البستان إذا أصابه المطر أو الطل والطل البطيء من المطر وهو مثل الندى (فأتت أكلها ضعفين) يعني أخضرت أوراق البستان وأخرجت ثمرها ضعفين فذلك الذي يتصدق به لوجه الله تعالى يكون له الثواب ضعفين يعني للواحد عشرة إلى سبعمائة إلى ما لا نهاية له ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ثم ضرب مثلاً آخر لعمل الكافر والمنافق فقال تعالى:

أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٦﴾

﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ يقول: مثل الكافر كمثال شيخ كبير له بستان وله أولاد صغار ضعفاء عجزوا لا حيلة لهم ومعيشته ومعيشة ذريته من بستانه ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ يعني ريحاً بها نار أي فأتته السموم الحارة فأحرقت

(١) في ظ [له].

(٢) سقط في ظ.

(٣) سقط في أ والمثبت من ظ.

(٤) في ظ [مرتفع مستوى].

(٥) راجع ١ حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٤٦.

(٦) حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٤٦.

(٧) بثلاث الراء.

(٨) حجة القراءات ص ١٤٦.

(٩) في ظ [ربوة فيها جنة].

بستانه ولم يكن له قوة أن يغرس مثل بستانه ولم يكن عند ذريته خير يعينونه فيبقى متحيراً فكذلك الكافر إذا لقي ربه أحوج ما كان فلا يجد خيراً ولا يدفع عن نفسه ولا يكون له معين ولا يعود إلى الدنيا كما لا يعود الشيخ الكبير شاباً وكان أحوج إليه قوله تعالى ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ في أمثاله فتعتبرون.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ﴾ يقول: من حلالات ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾ في الآية أمر بالصدقة من الحلال وفيها دليل: أن من تصدق من الحرام لا يقبل لأن الواجب عليه أن يردها إلى موضعها. ويقال: أنفقوا من طيبات يعني من مال اللذيذ والشهي عندكم مما كسبتم. يقول: مما جمعتم من الذهب والفضة قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي من الثمار والحبوب ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ أي لا تعتمدوا إلى رديء المال [فتصدقوا] ^(١) منه وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما حث الناس على الصدقة فجعل الناس يأتون بالصدقة ويجمعون في المسجد فجاء رجل بعذق من تمر عامته حشف فنزلت هذه الآية: (ولا تيمموا الخبيث) يعني لا تعتمدوا إلى الخشف [فتصدقوا] ^(٢) منه ﴿وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ﴾ [بل] ^(٣) الطيب ﴿إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ يعني إلا أن يهضم أحدهم فيأخذ دون حقه مخافة أن يذهب جميع حقه فيأخذ ذلك للضرورة مخافة موت حقه والله تعالى غني عن ذلك فلا يقبل إلا الطيب. ويقال: (إلا أن تغمضوا) يعني إلا أن يضطر أحدهم فمسته الحاجة فرضي بذلك. قوله تعالى ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي غني عما عندكم من الصدقات حميد في أفعاله. ويقال حميد بمعنى محمود ويقال: حميد من أهل أن يحمد ويقال: حميد يقبل القليل ويعطي الجزيل.

الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ يقول الشيطان يأمركم بشيئين والله تعالى يأمركم بشيئين: أما الشيطان فإنه [يأمركم] ^(٤) بالفقر ^(٥) ويقول لا (تنفقوا ولا تصدقوا فإنكم تحتاجون) ^(٦) إلى ذلك ﴿وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ قال الكلبي يعني يمنع الزكاة. ويقال: جميع الفواحش مثل الزنا وقول الزور وغير ذلك. ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ﴾ لذنوبكم يعني المغفرة من الله ﴿وَفَضْلاً﴾ يعني خلفاً في الدنيا ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ الفضل ﴿عَلِيمٌ﴾ بما تنفقون ويقال: عليم بمواضع الصدقات.

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ قال ابن عباس - يعني النبوة. وقال الكلبي يعني الفقه. وقال مقاتل: يعني علم

(١) في أ [فتصدقون].

(٢) في أ [فتصدقون].

(٣) في ظ [بدل].

(٤) في ظ [يعدكم].

(٥) في ظ [بالفقر].

(٦) في ظ [لا تنفق ولا تصدق فإنك تحتاج].

القرآن. ويقال: الإصابة في القول. ويقال: المعرفة بمكائد الشيطان ووساوسه. وقال مجاهد: الإصابة في القوم والفهم والفقه. ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ يقول: من يعط علم القرآن فقد أعطي خيراً كثيراً ﴿وَمَا يَذْكُرْ﴾ أي ما يتفكر. ويقال: ما يتعظ بما في القرآن ﴿إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ يعني ذوو العقول ويقال: إن من أعطي الحكمة والقرآن فقد أعطي أفضل [مما] ^(١) أعطي من جميع كتب الأولين من الصحف [وغيرها] ^(٢) لأنه تعالى قال لأولئك: (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) وسمي لهذا خيراً كثيراً لأن هذا جوامع الكلم. وقال بعض الحكماء: من أعطي العلم والقرآن ينبغي أن يعرف نفسه ولا يتواضع لأصحاب الدنيا لأجل دنياهم لأن ما أعطي أفضل مما [أعطوا] ^(٣) أصحاب الدنيا لأن الله تعالى سمى الدنيا متاعاً قليلاً وقال: (قل: متاع الدنيا قليل) وسمى العلم خيراً كثيراً.

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٢٧٠﴾
 إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ ﴿٢٧١﴾

لقوله: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ﴾ يقول: ما تصدقتم من صدقة ﴿أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ﴾ فوفيتم بنذوركم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ أي يحصيه ويقبله منكم وهذا وعد من الله تعالى فكأنه يقول: (أنه لا ينسى بل يعطي ثوابكم). ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ يعني ليس للمشركين من مانع في الآخرة يمنهم من العذاب ﴿إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ﴾ وذلك أن الله تعالى لما حثهم على الصدقة سألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صدقة السر أفضل أم صدقة العلانية؟ فنزل قوله: (إن تبدوا الصدقات) يعني إن تعلنوا الصدقات المفروضة. ﴿فَنِعْمًا هِيَ﴾. قرأ حمزة والكسائي وابن عامر: (فنعما هي) بنصب النون وكسر العين وقرأ [عاصم في رواية (حفص ونافع في رواية ورش وابن كثير: بكسر النون وكسر العين)] ^(٤) وقرأ أبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر (فنعما) بكسر النون وجزم العين وكل ذلك جائز وفيه ثلاث لغات: نِعَمَ نِعَمَ ونِعَمَ وما زيدت فيها للصلة وقرأ ابن عامر وعاصم في رواية حفص (ويكفر) بالياء وضم الراء وقرأ حمزة ونافع والكسائي: (ونكفر) بالنون وجزم الراء وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر: (ونكفر) بالنون وضم الراء ^(٥) فمن قرأ بالجزم فهو جزاء الصدقة ومن قرأ بالضم فهي على المستقبل يعني إن تعلنوا الصدقات فحسن ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من صدقة العلانية. فأما صدقة التطوع فقد اتفقوا أن الصدقة في السر أفضل وأما الزكاة المفروضة: قال بعضهم: السر أفضل لأنه أبعد من الرياء وقال بعضهم العلانية أفضل لأن الزكاة من شعائر الدين فكل ما كان أظهر كان أفضل كالصلوات الخمس والجمعة والعديد ولأن في ذلك زيادة رغبة لغيره في أداء الزكاة. ثم قال تعالى ﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ يعني فيما تصدقتم في السر والعلانية يتقبل منكم ويكون في ذلك كفارة سيئاتكم ويعطي ثوابكم في الآخرة.

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسْكُمْ

(٣) في ظ [أعطى].

(٢) سقط في أ.

(١) في أ [ما].

(٥) راجع: حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٤٨.

(٤) ما بين المعقوفين من ظ.

وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما قدم مكة لعمرة القضاء وخرجت معه أسماء بنت أبي بكر فجاءتها أمها قتيلة وجدها أبو قحافة فسألا منها حاجة فقالت: لا أعطيكما شيئاً حتى استأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإنكما لستم على ديني فاستأمرت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فنزلت هذه الآية: (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء) أي يوفق من يشاء لدينه. فإن قيل قد قال في آية أخرى (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) وقال هاهنا: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يوفق قيل ما يشاء إنما أراد به هناك الدعوة وهاهنا أراد به الهدى خاصة وهو التوفيق إلى الهدى. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنفُسُكُمْ﴾ يعني ما تنفقوا من مال فتوابه لأنفسكم إذا تصدقتم على الكفار أو على المسلمين وروي عن عمر بن الخطاب أنه رأى رجلاً من أهل الذمة يسأل على أبواب المسلمين فقال: ما أنصفناك أخذنا منك الجزية ما دمت شاباً ثم ضيعناك بعدما كبرت وضعفت فأمر بأن يجري عليه قوته من بيت المال. ثم قال تعالى ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ يعني لا تنفقوا إلا ابتغاء ثواب الله ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ﴾ [أي يوف ثوابه] (١) إليكم. ﴿وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي لا تنقصون من ثواب أعمالكم وصدقاتكم فيكون ما الأولى بمعنى الشرط وما الثاني [للجحد] (٢) وما الثالثة للخبر ثم بين موضع الصدقة فقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني النفقة والصدقة للفقراء الذين حبسوا أنفسهم في طاعة الله وهم أصحاب الصفة كانوا نحواً من أربعمئة رجل جعلوا أنفسهم للطاعة وتركوا الكسب والتجارة قوله ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي لا يستطيعون الخروج إلى السفر في التجارة ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ﴾ قرأ حمزة وعاصم (٣) وابن عامر: (يحبسهم) بنصب السين في جميع القرآن وقرأ الباقون (٤): بالكسر وتفسير (٥) القراءتين واحد يعني يظن الجاهل بأمرهم وشأنهم [أنهم] (٦) ﴿أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ لأنهم يظهرون أنفسهم للناس باللباس وغيره كأنهم أغنياء ويتعففون عن المسألة قوله ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ أي بصفوة الوجوه من قيام الليل وصوم النهار ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ يعني إلحاحاً قال ابن عباس - رضي الله عنه - لا يسألون الناس إلحاحاً ولا غير إلحاح ويقال: أصله من اللحاف لأن السائل إذا كان ملحاً (٧) فكأنه يلصق بالمسؤول فيصير كاللحاف [يلتصق] (٨) وجعل ذلك كناية عنه. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ يعني عليم بما أنفقتم ويقال: هذا على معنى التحريض فكأنه يقول: عليكم بالفقراء الذين أحصروا في سبيل الله [وقال بعضهم: هذا على معنى التعجب فكأنه يقول: عجباً للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله] (٩)

(٣) من ظ.

(٦) من أ.

(٩) ما بين المعقوفين من ظ.

(٢) في ظ [للجحد].

(٤) حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٤٨.

(٥) في أ [وتفسيرهما].

(٨) سقط في ظ.

(١) في ظ [أي يوف ثوابكم].

(٧) في أ [محللاً].

ويقال: أنه رد إلى أول الآية وما أنفقت من نفقة للفقراء الذين أحصروا ثم قال تعالى ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾. قال مقاتل الكلبي: نزلت هذه الآية في شأن علي بن أبي طالب كانت له أربعة دراهم لم يملك غيرها فلما نزل التحريض على الصدقة تصدق بدرهم بالليل وبدرهم بالنهار وبدرهم في السر وبدرهم في العلانية فنزلت هذه الآية (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار) ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يعني خفية وظاهراً. ويقال: هذا حث لجميع الناس على الصدقة يتصدقون في الأحوال كلها وفي الأوقات كلها ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ يعني يأكلون الربا استحلالاً ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ يوم القيامة من قبورهم ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ﴾ أي يتخبطه الشيطان ﴿مِنَ الْمَسِّ﴾ أي من الجنون. ويقال: أنهم يبعثون يوم القيامة فقد انتفخت بطونهم كالحباب^(١) وكلما قاموا سقطوا والناس يمشون عليهم فيكون ذلك علامة أكل الربا. ويقال: يكون بمنزلة المجنون ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ يعني الذي نزل بهم لأنهم ﴿قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ معناه استحلو الربا وكان الرجل إذا حل [أجل]^(٢) ماله [طالبه]^(٣) فيقول له المطلوب: زدي في الأجل وأزيدك في مالك فيفعلان ذلك. فإذا قيل لهما: أن هذا ربا قالوا: الزيادة في أول البيع وعند حلول الأجل سواء. ويقال: أنهم استحلو الربا وقالوا: الربا والبيع في الحل سواء فالله تعالى أبطل قولهم فقال تعالى ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ وَلَمْ يَظْلَمْ لَهَا لَئِنْ تَابَ عَنْهَا لَمَ غَافِرٌ الْعَذَابُ﴾. ويقال: إنهم استحلو الربا وقالوا: الربا والبيع في الحل سواء فالله تعالى أبطل قولهم فقال تعالى ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ وَلَمْ يَظْلَمْ لَهَا لَئِنْ تَابَ عَنْهَا لَمَ غَافِرٌ الْعَذَابُ﴾. ويقال: إنهم استحلو الربا وقالوا: الربا والبيع في الحل سواء فالله تعالى أبطل قولهم فقال تعالى ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ وَلَمْ يَظْلَمْ لَهَا لَئِنْ تَابَ عَنْهَا لَمَ غَافِرٌ الْعَذَابُ﴾. ويقال: إنهم استحلو الربا وقالوا: الربا والبيع في الحل سواء فالله تعالى أبطل قولهم فقال تعالى ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ وَلَمْ يَظْلَمْ لَهَا لَئِنْ تَابَ عَنْهَا لَمَ غَافِرٌ الْعَذَابُ﴾.

(١) قال الأزهري: حَبَابُ. الماء: نفاخاته وفقايعه التي تطفو كلها القوارير وهي البباليل اللسان: حَب. وقال الفيروزبادي: الحب:

الجرة أو الضخمة منها، أو الخشاب اوربع توضع عليها الجرة ذات العروتين. وجمعه: أَحْبَاب، وَحَبَّةٌ وَجَبَاب.

ترتيب القاموس ٥٧٠/١.

(٣) في ظ [طلبة].

(٢) سقط في ظ.

القرآن في بيان تحريم الربا ﴿فَأَتَتْهُمْ﴾ عن أكل الربا ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ يعني ليس عليه إثم فيما مضى قبل النهي لأن الحجة لم تقم عليهم ولم يعلموا بحرمة وأما اليوم فمن تاب عن الربا فلا بد له من أن يرد الفضل ولا يكون له ما سلف لأن حرمة الربا ظاهرة بين المسلمين لأن كتاب الله تعالى فيهم ثم قال عز وجل: ﴿وَأْمُرْهُ إِلَى اللَّهِ﴾ في المستأنف إن شاء عصمه وإن شاء لم يعصمه ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى استحلال الربا ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ قال ابن مسعود أكل الربا وموكله وكاتبه وشاهداه ملعونون على لسان محمد^(١) - صلى الله عليه وسلم - وقال عليه الصلاة والسلام: سيأتي على الناس زمان لا يبقى أحد إلا أكل الربا ومن لم يأكل الربا أصابه من غباره^(٢) وروي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: الربا بضع وسبعون باباً أدناها كإتيان الرجل أمه^(٣) يعني كالزاني بأمه. ثم قال تعالى ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ أي يبطله ويذهب ببركته ﴿وَيُزَيِّدُ الصَّدَقَاتِ﴾ يقول: يقبلها ويضاعفها ويقال: إن مال أكل الربا لا يخلوا من أحد أوجه ثلاثة: إما أن يذهب عنه أم عن ولده أو ينفقه فيما لا يصلح. ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ يعني جاحد بتحريم الربا ﴿أَيْمٍ﴾ يعني عاص بأكله. ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني الطاعات فيما بينهم وبين ربهم ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ يعني الصلوات الخمس ﴿وَأَتَوْا الزَّكَاةَ﴾ [يعني أعطوا الزكاة] ﴿الْمَفْرُوضَةَ﴾ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿وَقَدْ ذَكَرْنَا﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴿(أي أطيعوا الله)﴾^(٤) ولا تعصوه فيما نهاكم من أمر الربا ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي مصدقين بتحريمه وقال أهل اللغة إن الحقيقة على ثلاثة أوجه: إن بمعنى ما كقولهم (إن الكافرون) (إن كانت إلا صيحة واحدة) وإن بمعنى لقد كقوله (إن كان وعد ربنا لمفعولا) (وتالله إن كنا كدت لتردين) (وإن كنا عن عبادتكم لغافلين) وإن بمعنى إذ كقوله: (وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) (وذروا ما بقي من الربا) نزلت هذه الآية في نفر من بني ثقيف وفي بني المغيرة من قريش وكانت ثقيف يربون لبني المغيرة في الجاهلية وكانوا أربعة أخوة منهم مسعود وعبد ياليل وأخواهما يربون لبني المغيرة فلما ظهر النبي - صلى الله عليه وسلم - على أهل مكة وضع الربا كله وكان أهل الطائف قد صالحوا على أن لهم رباهم على الناس يأخذونه وما كان عليهم من ربا للناس فهو موضوع عنهم لا يؤخذ منهم وقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كتب لهم كتاباً وكتب في أسفله إن لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم فلما حل الأجل طلب ثقيف رباهم فاختصموا إلى أمير مكة وهو عتاب بن أسيد^(٥) فكتب بذلك إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فنزلت هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) ولا تستحلوا الربا (وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين) يعني مصدقين بتحريم الربا. ثم خوفهم فقال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ أي لم تقروا بتحريم الربا ولم تتركوه ﴿فَأَذْنُوا بحرب من الله ورسوله﴾. قرأ حمزة وعاصم في رواية أبي بكر: فَأَذْنُوا بمد

(١) أخرجه أبو داود ٢٤٤/٣ في البيوع باب في أكل الربا وموكله (٣٣٣٣) والترمذي ٣٩٦/٤ كما في التحفة وابن ماجه ٧٧٤/٢. وأخرجه مسلم بتمامه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه ١٢١٩/٣ في المساقاة باب لعن أكل الربا وموكله (١٠٦/١٥٩٨).

(٢) أخرجه أبو داود ٢٤٤/٣ في البيوع باب في اجتناب الشبهات (٣٣٣١) وأحمد في المسند ٤٩٤/٢ والنسائي ٢٤٣/٧ في البيوع باب اجتناب الشبهات في الكسب وابن ماجه ٧٦٥/٢ في التجارات باب التغليظ في الربا (٢٢٧٨).

(٣) أخرجه ابن ماجه ٧٦٤/٢ في التجارات باب التغليظ في الربا (٢٢٧٤) وقال البوصيري في الزوائد في إسناده نجح بن عبد الرحمن أبو معشر متفق على تضعيفه. وذكر السيوطي في اللآلئ ٨٣/٢ والمنذري في الترغيب ٦/٣.

(٤) سقط في ظ. (٥) سقط في ظ.

(٦) عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية الأموي، أبو عبد الرحمن، له صحبة. التقريب ٣/٢.

الألف وكسر الذال [وقرأ أبو عمرو وورش عن نافع (فَأَذْنُوا) بترك الهمزة ونصب الذال] ^(١) وقرأ الباقون: بجزم الألف ^(٢) ونصب الذال فمن قرأ (فَأَذْنُوا) بالجزم معناه فاعلموا (بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ) يعني بإهلاك من الله. ويقال: معناه فاعلموا بأنكم كفار بالله (وَرَسُولِهِ) ومن قرأ (فَأَذْنُوا) بالمد يقول: أعلموا بعضكم بعضاً بحرب أي بإهلاك من الله تعالى ورسوله فقالوا: مالنا بحرب من الله ورسوله طاقة فما توبتنا؟؟ فقال تعالى ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ التي أسلفتم. وقال النبي - صلى الله عليه وسلم - كل ربا كان في الجاهلية فهو موضوع وأول ربا وضع ربا العباس بن عبد المطلب وكل دم كان في الجاهلية فهو موضوع وأول دم وضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. ثم قال: ﴿لَا تَظْلُمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ يعني الطالب لا يظلم بطلب الزيادة ويرضى برأس المال ولا يظلم المطلوب فينتقص عن رأس المال وذلك أنهم طلبوا رؤوس أموالهم من بني المغيرة فشكوا العسرة يعني بني المغيرة وقالوا: ليس لنا شيء وطلبوا الأجل إلى وقت إدراك ثمارهم فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ يعني إن كان المطلوب ذو شدة ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ يقول: أجله إلى أن يتيسر عليه بإدراك ثماره ﴿وَأَنْ تَصَّدَّقُوا﴾ يقول لو تصدقتم ولا تأخذونه (فهو ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾) ويقال: لئن تصدقتم بالتأخير فهو خير لكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن الصدقة خير لكم. قرأ نافع: (إلى ميسرة) بضم السين وقرأ الباقون والنصب وهما لغتان ومعناها واحد وقرأ عطاء: (فناظرة) بالألف وقرأ العامة: بغير ألف ومعناها واحد [وقرأ عاصم: (وَأَنْ تَصَّدَّقُوا) بتخفيف الصاد وقرأ الباقون بالتشديد لأن التاء أدغم في الصاد وأصله تتصدقوا] ^(٣). ثم قال تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ﴾ [يقول اجتنبوا] ^(٤) عذاب يوم ترجعون ﴿فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ يعني في يوم القيامة ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ يقول: وهم لا ينقصون من ثواب أعمالهم شيئاً وروى الضاحك عن ابن عباس أنه قال: آخر آية نزلت من القرآن (واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله) قرأ أبو عمرو: (ترجعون) بنصب التاء وكسر الجيم وقرأ الباقون: [بالضم] ^(٥) ونصب الجيم ^(٦) قوله تعالى:

يَتَّيْهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِّجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلٍ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ

(١) ما بين المعقوفين من أ.

(٢) حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٤٨.

(٣) في الأصل مؤخر إلى ما بعد قوله «قرأ أبو عمرو» ترجعون «بنصب التاء وكسر الجيم وقرأ الباقون بالضم ونصب الجيم» والصواب تقديمه كما في ظ.

(٤) حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٤٩.

(٥) في ظ [بضم التاء].

(٦) في ظ [يعني اخشوا].

جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنْ مَقْبُوضَةً فَإِنْ مِنْ بَعْضِكُمْ بَعْضًا فليؤدِّ الَّذِي أَوْثَمَنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثَمُ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَعْتُمْ بَيْنَكُمْ﴾ روي عن ابن عباس أنه قال: الآية نزلت في السلم. ويقال: كل دين إلى أجل سلماً كان أو غيره، ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يعني إلى أجل معلوم. وفي الآية دليل: أن المدانية لا تجوز إلا بأجل معلوم: ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ يعني الدين والأجل. ويقال: أمر بالكتابة ولكن المراد به الكتابة والإشهاد لأن الكتابة بغير شهود لا تكون حجة ويقال: أمر بالكتابة لكي لا ينسى ويقال: من أدان ديناً ولم يكتب فإذا نسي ودعى الله تعالى بأن يظهره يقول الله تعالى: أمرتك بالكتابة فعصيت أمري وإذا دعى بالنجاة من الزوجة يقول الله تعالى: جعلت الطلاق بيدك إن شئت طلقها وإن شئت فأمسكها. ثم قال تعالى: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ يعني يكتب الكاتب عن البائع والمشتري يعدل بينهما في كتابته ولا يزداد على المطلوب على حقه ولا ينقص من حق الطالب. ويقال: إن هذا أمر للكاتب بالكتابة وكانت المكاتبه^(١) واجبة في ذلك الوقت على الكاتب لأن الكتبة كانوا قليلاً ثم نسخ بقوله: (ولا يضار كاتب ولا شهيد) وقال بعضهم: الكتابة لم تكن واجبة ولكن الأمر على معنى الاستحباب ثم قال: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ﴾ يقول: ولا يمتنع الكاتب عن الكتابة أن يكتب ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ يعني يكتب شكراً لما أنعم الله عليه حيث علمه الكتابة واحتاج غيره إليه فكما أكرمه الله تعالى بالكتابة وفضله بذلك فيعرف شكره ولا يمتنع عن الكتابة لمن طلب منه ثم قال: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ يعني المطلوب هو الذي يملئ على الكاتب حتى يكتب الكتابة لأن قول المطلوب حجة على نفسه فإذا أملى على الكاتب يكون ذلك إقراراً منه بوجوب الحق عليه. ثم خوف المطلوب لكيلا ينقص شيئاً من حق الطالب فقال تعالى: ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ يعني المطلوب ﴿وَلَا يَتَخَسَّ مِنْهُ شَيْئاً﴾ يقول لا ينقص من الحق شيئاً يعني المطلوب. ويقال: يعني الكاتب ولا يبخل في الكتابة شيئاً ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ يعني إذا كان المطلوب ﴿سَفِيهاً﴾ أي جاهلاً بالإملاء. ويقال أحقق ﴿أَوْ ضَعِيفاً﴾ يعني صبيهاً عاجزاً عن الإملاء ويقال: أخرس أو مجنون ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ﴾ يعني لا يحسن ﴿أَنْ يُعْمَلَ هُوَ﴾ على الكاتب فيرجع الإملاء على الطالب ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ﴾ يعني ولي الحق أي الطالب هكذا قال في رواية الكلبي. وقال في رواية الضحاك: يعني ولي المدين يعني إذا كان للصبي وصي أو ولي يرجع الإملاء عليه فليملل عليه ﴿بِالْعَدْلِ﴾ أي بالحق ثم أمر بالإشهاد فقال تعالى: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا﴾ على حقكم ﴿شَهِيدَيْنِ مِنْ رَجَالِكُمْ﴾ يعني من أهل دينكم من الأحرار البالغين ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ﴾ [فليكن رجلاً]^(٢) ﴿وَأَمْرَآتَانِ مِنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ﴾ يعني من العدول ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾ يعني إذا نسيت إحدى المرأتين ﴿فَتَذْكُرْ إِحْدَاهُمَا الْآخَرَى﴾ يعني إذا حفظت إحداهما الشهادة فتذكر صاحبتهما ويقال: [إذا]^(٣) امتنعت إحداهما عن أداء الشهادة فتعظها الأخرى حتى تشهد. قرأ حمزة: (إن تضل) بكسر الألف ونصب التاء [وجزم]^(٤) اللام وإنما كسر الألف على معنى الابتداء [والشرط]^(٥) [وجزم اللام لحرف الشرط (فَتَذْكُرْ) بضم (راء)^(٦) وقرأ الباقون: بنصب الألف ومعناه لأن

(٣) في ظ [إن].

(٢) من ظ.

(١) من ظ.

(٦) ما بين المعقوفين من ظ.

(٥) سقط في ظ.

(٤) في ظ [وضم اللام].

تضل^(١). وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: (فتذكر) بالتخفيف وقرأ الباقون: بنصب الذال وتشديد الكاف وهما لغتان: أذكرته وذكرته ثم قال: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ يعني الشاهد إذا دعي إلى الحاكم ليشهد فلا يمتنع عن أداء الشهادة والإباء عن الشهادة حرام لأن الله تعالى نهى عن الإباء عن الشهادة. ويقال: إباء الشهادة على ثلاثة أوجه [أحدهما]^(٢): أن يمتنع عن أدائه. والثاني أن يشهد ويقصر في أدائه لكيلا تقبل شهادته. والثالث: بأن لا يصون نفسه عن المعاصي فيصير منهما لا تقبل شهادته فكأنه وهو الذي أبطل حق المدعي وخانه حيث عصى الله تعالى حتى ردت شهادته بمعصيته. ثم قال تعالى ﴿وَلَا تَسْأَمُوا﴾ يقول: ولا تملوا ﴿أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾ يعني قليل الحق أو كثيره. ﴿إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾ لأن الكتابة أحصى للأجل وأحفظ للمال ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ﴾ أي أعدل ﴿وَأَقْوَمُ﴾^(٣) وأصوب ﴿لِلشَّهَادَةِ﴾ ﴿وَأَذْنَىٰ﴾ يقول: أخرى وأجدر ﴿أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ يعني لا تشكوا في شيء من حقوقكم ثم استثنى الله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً﴾ قرأ عاصم: (تجارة حاضرة) بالنصب وقرأ الباقون بالرفع فمن قرأ بالنصب جعله خبر تكون والاسم مضمّر معناه إلا أن تكون المداينة تجارة [حاضرة]^(٤) ومن قرأ بالرفع جعله اسمه يعني إذا كان البيع بالنقد. ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ يعني تداولونها أيديكم ولم يكن المال مؤجلاً ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ [أي حرج]^(٥) ﴿أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ يعني التجارة ثم قال ﴿وَأَشْهَدُوا﴾ على حاكم ﴿إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ على كل حال نقداً كان أو مؤجلاً وهذا أمر استحباب ولو ترك [الإشهاد]^(٦) جاز البيع. ثم قال تعالى ﴿وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ يقال: لا يعمد أحدهم إلى الكاتب والشاهد فيدعوهما إلى الكتابة والشهادة ولهما حاجة مهمة فيمنعهما عن حاجتهما [وليتركهما]^(٧) حتى يفرغا من حاجتهما أو يطلب غيرهما. ﴿وَإِنْ تَفْعَلُوا﴾ يقول إن تضاروا الكاتب والشاهد ﴿فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ يقول معصية منكم وترك الأدب قوله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الضرر ويقال: واتقوا الله ولا تعصوه فيما أمركم من أمر الكتابة والإشهاد ﴿ويعلمكم الله﴾ في أمر الكتابة. ويقال: ويؤدبكم الله ﴿وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءًا﴾ [من أعمالكم]^(٨) ﴿عَلِيمٌ﴾. ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أي كنتم مسافرين ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ يعني لم تجدوا من يكتب الكتاب. وروي عن ابن عباس أنه كان يقرأ: ولم تجدوا كاتباً يعني الكاتب والصحيفة ﴿فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾. (قرأ ابن كثير وأبو عمرو: (فرهن))^(٩) والباقون: (فرهان) فمن قرأ فرهان فهو جمع الرهن ومن قرأ: فرهن فهو جمع الرهان وهو جمع الجمع ويقال: كلاهما واحد وهو جمع الرهن^(١٠). يعني إذا كنتم في السفر ولم تجدوا من يكتب ولم تجدوا الصحيفة والدواة فاقبضوا الرهن. وفي الآية دليل: أن الرهن لا يصح إلا بالقبض لأنه جعل الرهن بالقبض. ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ يعني إذا كان الذي عليه الحق أميناً عند الطلب

(١) أن تضل. قرأ حمزة بكسر الهمزة «إِنْ تَضِلْ» على أن شرطية وتضل مجزومة به وفتحت اللام للادغام، والفاء من فتذكر واقعة في جواب الشرط وتذكر مرفوع لتجرده من الناصب والجازم والتقدير فهي تذكر، والجملة في محل جزم جواب الشرط، وقراءة حمزة برفع الراء فتذكر، وقرأنا في عاصم والسكاكي يفتح أن أن مصدرية ناصبة لتضل وفتحة اعراب وتذكر بتشديد الكاف ونصب الراء عطفاً على أن تضل هكذا «أن تضل إحداهما فتذكر» وقرأ ابن كثير وأبو عمرو يفتح أن أيضاً ونصب (تذكر) لكن بتخفيف الكاف هكذا (أن تضل إحداهما فتذكر) من ذكر ومن شدد فمن ذكر. وراجع حجة القراءات لابن زنجلة ١٥١.

(٢) في ظ [أحدها]. (٣) من ظ. (٤) سقط من ظ.

(٥) من ظ. (٦) من ظ. (٧) في أ [وليتركها].

(٨) سقط في ظ. (٩) في ظ [ووقر].

(١٠) خبر بتقدير إلا أن تحدث أو تقع تجارة.

فرهن مقبوضة «قرأ ابن كثير وأبو عمرو بضم الراء والهاء. هكذا فرهن بغير الف جمع رهن مثل سَقَفٌ وسُقُفٌ والباقون بكسر الراء وفتح الهاء ممدودة هكذا فَرِهَانٌ جمع رهن مثل كَعَبٌ وكِعَاب. راجع حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٥٢.

ولم يطلب منه الرهن ورضي بدينه بغير رهن قوله ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ﴾ يعني أن المطلوب يقضي دينه حيث ائتمنه الطالب ولم يرتهن منه ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ ولا يمنع حقه. ثم رجع إلى الشهود فقال: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ عند الحاكم. يقول: من كانت عنده شهادة فليؤدها على وجهها ولا يكتمها ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا﴾ يعني الشهادة ﴿فَإِنَّهُ آتِمٌ قَلْبُهُ﴾ يعني فاجر قلبه قوله ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ من كتمان الشهادة وإقامتها فهذا وعيد للشاهد على كتمان شهادته لكيلا يكتمها. قرأ حمزة وعاصم: (فليؤد الذي أؤتمن) بضم الألف والباقون يقرأون بسكون الألف وكلاهما واحد^(١).

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الخلق كلهم عبيده وإماؤه وهو خالقهم ورازقهم وحكمه نافذ فيهم معناه لا تعبدوا أحداً سواه لأنه هو الذي خلق المسيح والملائكة والأصنام. ويقال: لله ما في السموات وما في الأرض يعني في كل شيء دلالة ربوبيته ووحدانيته. ثم قال: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ﴾ يعني، إن تظهروا ما في قلوبكم أو تضمروه ﴿يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ أي يجازيكم به الله [وقال بعضهم يعني في كتمان الشهادة أن تعلنوا الشهادة أو تخفوها يحاسبكم به الله] أي يجازيكم به الله^(٢) وقال الكلبي: وإن تعلنوا ما في أنفسكم من المعصية أو تسروها ولا تظهروها يجازيكم^(٣) قال: لما نزلت هذه الآية شق^(٤) على المسلمين وقالوا: يا رسول الله إنا لنحدث أنفسنا بالأمر^(٥) المعصية ثم [لا نعملها أو نعملها]^(٦) فهو سواء^(٧) فشق ذلك على [المؤمنين]^(٨) مشقة شديدة فلما [علم]^(٩) الله مشقة ذلك على [المؤمنين]^(١٠) أنزل على نبيه ما هو أهون عليه منه فقال: (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) قال الفقيه: حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا الديلمي قال: حدثنا أبو عبيد الله عن سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : سبقت رحمتي غضبي^(١١). قال سفيان: بلغني أن الأنبياء كانوا يأتون قومهم بهذه الآية (وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) فيقولون: لا نطبق هذا ولا نحتمله فأعقبهم الله المؤاخذه فلما عرض على هذه الأمة قبلوا فأعقبهم الله تعالى أن وضعها عنهم فأنزل الله تعالى (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) الآية. ثم قال عز وجل: ﴿فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي لمن تاب عن الذنوب ﴿وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي من أقام على ذلك وأصر عليه ويقال: فيغفر لمن يشاء الذنب العظيم لمن انتزع عنه ويعذب من يشاء بالذنب الصغير إذا أصر عليه ويقال: لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار. قرأ عاصم وابن عامر: (فيغفر) بضم الراء على معنى الابتداء. وقرأ الباقر بالجزم على جواب الشرط وكذلك في قوله: ويعذب من يشاء^(١٢) ثم قال: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١٣).

(١) في ظ [قرأ نافع] بغير همز وقرأ أبو عمرو بالهمزة وتفسير القراءتين واحد.

(٢) في ظ [سقط في ظ]. (٣) في ظ «به الله».

(٤) في ظ «من». (٥) في ظ «لا نعمل بها أو نعمل بها».

(٦) في ظ «المسلمين». (٧) في ظ «عرف».

(٨) في ظ «المسلمين». (٩) في ظ «عرف».

(١٠) أخرجه البخاري ٤٠٤/٣ في كتاب التوحيد ومسلم ٢١٠٨/٤ في كتاب التوبة باب في سعة رحمة الله (٢٧٥١/١٥).

(١١) فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء «عطفاً على الجزاء المجزوم وهو يحاسب، والباقر بالرفع، هكذا فيغفر ويعذب على الاستئناف أي فهو يغفر ويعذب. راجع / حجة القراءات لابن زنجلة ١٥٢.

(١٢) في ظ «من العقوبة والمغفرة قوله تعالى».

ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ۚ لَا تَفَرُّقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۚ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ روي عن الحسن وعن مجاهد : أن هذه الآية نزلت في قصة المعراج وهكذا روي في بعض الروايات عن عبد الله بن عباس . وقال بعضهم : جميع القرآن نزل به جبريل على محمد - صلى الله عليه وسلم - إلا هذه الآية فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - سمعها ليلة المعراج . وقال بعضهم : لم يكن ذلك في قصة المعراج لأن ليلة المعراج كانت بمكة وهذه السورة كلها مدنية فأما من قال : إنها كانت في ليلة المعراج قال : لما صعد النبي - صلى الله عليه وسلم - وبلغ فوق السموات في مكان مرتفع ومعه جبريل حتى جاوز سدره المنتهى فقال له جبريل : إني لم أجاوز هذا الموضع ولم يؤمر أحد بالمجازة عن هذا الموضع غيرك فجاوز النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى بلغ الموضع الذي شاء الله فأشار إليه جبريل بأن يسلم على ربه فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - التحيات لله والصلوات الطيبات فقال الله تعالى : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته فأراد النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يكون لأمته حظ في السلام فقال : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فقال جبريل وأهل السموات كلهم : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله قال الله تعالى على معنى الشكر (آمن الرسول) أي صدق النبي - صلى الله عليه وسلم - بما أنزل إليه (من ربه) فأراد النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يشارك أمتة في الفضيلة فقال : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفَرُّقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ يعني يقولون آمنا بجميع الرسل ولا نكفر بواحد منهم ولا نفرق بينهم كما فرقت اليهود والنصارى فقال له ربه عز وجل كيف قبولهم للآي التي أنزلتها؟ وهي قوله : (وإن تبدوا ما في أنفسكم) فقال رسول الله ﴿وَقَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ أي أطعنا مغفرتك يا ربنا ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ أي المرجع . قال الله تعالى عند ذلك : ﴿لَا يَكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي طاقتها ويقال : إلا دون طاقتها ويقال : لا يكلف الصلاة قائماً لمن لا يقدر عليها ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من الخير ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ من الشر فقال له جبريل عند ذلك : سل تعط فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا﴾ يعني إن جهلنا ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ يعني أن نعدنا، ويقال : إن عملنا بالنسيان أو أخطأنا، يعني عملنا بالخطأ . فقال له جبريل : قد أعطيت ذلك قد رفع عن أمتك الخطأ والنسيان شيئاً آخر فقال عند ذلك : ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا﴾ يعني ثقلاً ﴿كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ وهو أنه حرم عليهم الطيبات بظلمهم وكانوا إذا أذنبوا بالليل [وجدوه]^(١) مكتوباً على بابهم وكانت الصلوات عليهم خمسين فخففت عن هذه الأمة وحث عنهم بعدما فرض [عليهم]^(٢) إلى خمس صلوات ثم قال : ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ يقول : لا

تكلفنا من العمل ما لا نطبق فتعذبنا ويقال: ما يشق ذلك علينا [لأنه لو أمر بخمسين صلاة لكانوا يطيقون ذلك ولكنه يشق عليهم ولا يطيقون الإدامة على ذلك] ^(١) ﴿وَأَعْفُ عَنَّا﴾ من ذلك كله ﴿وَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ أي تجاوز عنا ويقال: واعف عنا من المسخ واغفر لنا من الخسف وآرحمنا من القذف لأن الأمم الماضية بعضهم أصابهم المسخ وبعضهم [أصابهم الخسف وبعضهم] ^(٢) القذف ثم قال: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ أي أنت ولينا وحافظنا ﴿فَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ فاستجيب دعاؤه وروي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: نصرت بالرعب مسيرة شهر ^(٣). ويقال: إن الغزاة إذا خرجوا من بلادهم بالنية الخالصة وضربوا الطبل وقع الرعب والهيبة في قلوب الكفار مسيرة شهر علموا بخروجهم أو لم يعلموا ثم إن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما رجع أوحى الله تعالى إليه هذه الآيات ليعلم أمته بذلك ولهذه الآية تفسير آخر. قال الزجاج ^(٤): لما ذكر الله تعالى فرض الصلاة والزكاة في هذه السورة وبين أحكام الحج وحكم الحيض والطلاق والإيلاء وأقاصيص الأنبياء وبين حكم الربا والدين ثم ذكر تعظيمه بقوله تعالى: (الله ما في السموات وما في الأرض) الآية ثم ذكر تصديق جميع ذلك حيث قال: (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه) أي صدق [الرسول] ^(٥) بجميع هذه الأشياء التي جرى ذكرها وكذلك المؤمنون كلهم صدقوا بالله وملائكته وكتبه ورسله. قرأ حمزة والكسائي: (وكتابه) على معنى الوجدان [وقرأ الباقون: (وكتبه) على معنى الجمع] ^(٦) ثم قال: (لا نفرق بين أحد من رسله) فأخبر عن المؤمنين بأنهم يقولون: لا نفرق بين أحد من رسله. [قرأ الحضرمي: (لا يفرق) بالياء ومعنا كل آمن بالله وكل لا يفرق وقرأ ابن مسعود (لا يفرقون بين أحد من رسله)] ^(٧) وقالوا سمعنا وأطعنا أي قبلنا ما سمعنا لأن من سمع ولم يقبل قيل له أصم لأنه لم ينتفع بسماعه وقرأ أبو عمرو (من رسله [برفع] ^(٨) السين وكذلك [في] ^(٩) جميع القرآن [غير] ^(١٠) هذه [الحروف] ^(١١) الأربعة: مثل رسلنا ورسلمهم يقرأ بالسكون وقرأ الباقون: برفع السين في جميع القرآن. ومعنى قوله: (غفرانك ربنا) أي اغفر غفرانك وهو من أسماء المصادر كالغفران والشكران (وإليك المصير) يعني نحن مقرون بالبعث. ثم قال: (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) يعني طاقتها قال الفقيه حدثنا أبو الحسين قال: حدثنا محمد بن يوسف قال: حدثنا محمد بن عبد الله قال: حدثنا مروان ^(١٢) عن عطاء بن عجلان ^(١٣) عن زرار بن أبي أوفى عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: إن الله تجاوز عن هذه الأمة ما حدثت به أنفسها أو هممت به ما لم تعمل به أو تتكلم به ^(١٤). ثم قال: (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا) أي لا تواخذ أحداً بذنوب غيره كما قال في آية أخرى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) وقوله: (إن نسينا) أي إن تركنا (أو أخطأنا) يعني إن كسبنا خطيئة فأخبر الله تعالى

(٢) من ظ.

(١) ما بين المعقوفين من ظ.

(٣) تقدم ضمن حديث «جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً» والحديث متفق عليه من حديث جابر بن عبد الله.

(٤) معاني القرآن وإعرابه ٣٦٩/١.

(٥) في ظ [الرسول]. (٦) في ظ [وقرأ الباقون وكتبه على معنى الجمع]. (٧) سقط في الأصل والمثبت من ظ.

(٨) في ظ [بثقل]. (٩) في ظ [جميع ما في]. (١٠) في ظ [فاذا جاوز عن].

(١١) في ظ [الاحرف].

(١٢) مروان بن معاوية بن الحارث بن أسماء الفزاري، أبو عبد الله الكوفي، نزيل مكة ثم دمشق، ثقة حافظ، وكان يدلّس أسماء الشيوخ.

التقريب ٢٣٩/٢.

(١٣) عطاء بن عجلان الحنفي، أبو محمد البصري العطار، متهم ليس بثقة. التهذيب ٢٠٨/٧.

(١٤) أخرجه البخاري ١٦٠/٥ في العتق باب الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق ونحوه (٢٥٢٨) وفي ٥٤٨/١١ في الإيمان والنذور

(٦٦٦٤). ومسلم ١٦/١ في الإيمان باب تجاوز الله عن حديث النفس (١٢٧/٢٠١) (١٢٧/٢٠٢).

بهذا عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وعن المؤمنين وجعله في كتابه ليكون دعاء النبي - صلى الله عليه وسلم - لهم دعوة يدعون بها من بعده لأن هذا الدعاء قد استجيب له فينبغي أن يحفظ ويدعى به كثيراً قال الفقيه: حدثنا القاضي الخليل قال: حدثنا السراج قال: حدثنا أحمد بن سعيد [الرازي] ^(١) قال: حدثنا سهل بن بكار ^(٢) قال: حدثنا أبو عوانة ^(٣) عن أبي مالك الأشجعي ^(٤) عن ربيعي بن حراش ^(٥) عن حذيفة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فضلنا على الناس بثلاث خصال: جعلت لنا الأرض كلها مسجداً وجعلت تربتها لنا طهوراً وجعلت صفوفنا كصفوف الملائكة وأوتيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعط أحد قبلي ولا تعطي أحداً بعدي ^(٦). وروى أبو أمامة الباهلي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: تعلموا البقرة وآل عمران فإنهما تجيئان يوم القيامة كالغمامتين أو كالغيايتين أو كفرقتين من طير صواف ويحاجان عن صاحبهما ثم قال: تعلموا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة. ولا يستطيعها البطلة ^(٧) يعني السحرة. وروي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه نزل عليه ملك فقال له إن الله ييسرك بنورين لم يعطهما نبياً قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لا يقرأ بحرف [منهما] ^(٨) إلا أعطيته نوراً ^(٩) وروي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: لو بلغت سورة البقرة ثلاثمائة آية لتكلمت يعني لصارت بحال تتكلم لأنه لا يبقى شيء إلا اجتمع فيها من كثرة ما فيها من العجائب. والله [سبحانه وتعالى] ^(١٠) أعلم [وصلى الله على سيدنا محمد] ^(١١).

(١) في ظ [الدارمي].

(٢) سهل بن بكار بشر الدارمي البصري، أبو بشر المكفوف، ثقة ربما وهم. مات سنة سبع أو ثمان وعشرين التقريب.

(٣) الوضاح بن عبد الله الواسطي البزار، أبو عزانة اليشكري، كان من سبي جرجان. التهذيب ١١٦/١١.

(٤) سعد بن طارق، أبو مالك الأشجعي الكوفي، ثقة. التقريب ٢٨٧/١.

(٥) ربيعي بن حراش، أبو مريم العباسي الكوفي، ثقة عابد مخضرم. التهذيب ٢٣٦/٣، التقريب ٢٤٣/١.

(٦) أخرجه أحمد في المسند بنحوه ٣٨٣/٥ وذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٧٨/١ وأخرجه مسلم دون قوله «وأوتيت هذه الآيات» ٣٧١/١ في المساجد (٥٢٢/٤) وهو عند أبي عوانة ٣٠٣/١ والبيهقي ٢١٣/١ وابن أبي شيبه ٤٣٥/١ وابن خزيمة (٢٦٤) وابن الجوزي في زاد المسير ٩٣/٧ والطحاوي في مشكل الآثار ٤٥٠/١، وذكره القرطبي في التفسير ٢٣١/٥. وابن كثير ٢٧٩/٢. ٢٨٢.

(٧) أخرجه أحمد ٢٥١/٥ والدارمي في السنن ٣٢٤/٢ وذكره السيوطي في الدر المنثور ١٨/١.

(٨) في ظ [منها].

(٩) أخرجه مسلم من حديث أبي أمامة ٥٥٣/١ في الصلاة المسافرين باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (٢٥٢ / ٨٠٤).

(١٠) سقط في ظ.

(١١) سقط في ظ.

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ (١)

مائتا (٢) آية وهي مدنية (٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْم (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢)

﴿الْم﴾ قال ابن عباس - رضي الله عنهما - أنا الله أعلم (٤) ﴿اللَّهُ﴾ يعني ، هو الله الذي ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (٥) الذي لا يموت ولا يزول أبداً. ويقال: الحي الذي لا باديء له ﴿الْقَيُّومُ﴾ يعني القائم على كل نفس بما كسبت ويقال: القائم بتدبير الخلق.

وروى الضحاك عن ابن عباس أنه قال: الحي قبل كل حي والحي بعد كل حي الدائم الذي لا يموت، ولا تنقضي عجائبه، والقائم على العباد بأرزاقهم، وأجالهم. ويقال «الحي القيوم» هو اسم الله الأعظم، ويقال: إن عيسى ابن مريم - عليهما السلام - كان إذا أراد أن يحيي الموتى يدعو بهذا الاسم: يا حَيُّ يَا قَيُّوم. ويقال: إن آصف بن برخيا، لما أراد أن يأتي بعرش بلقيس إلى سليمان - عليه السلام - دعا بقوله: يا حَيُّ يا قَيُّوم. ويقال: إن بني إسرائيل سألوا موسى - عليه السلام - عن اسم الله الأعظم فقال لهم: قولوا [اهيا] (٦) يعني يا حي «شراها» يعني

(١) واشتملت هذه السورة من الأغراض: على الابتداء بالتنويه بالقرآن ومحمد - صلى الله عليه وسلم - وتقسم آيات القرآن ومراتب الأفهام في تلقّيها والتنويه بفضيلة الإسلام وأنه لا يعد له دين وأنه لا يقبل دين عند الله بعد ظهور الإسلام غير الإسلام والتنويه بالتوراة والإنجيل والإيماء إلى أنهما أنزلا قبل القرآن تمهيداً لهذا الدين فلا يحق للناس أن يكفروا به وعلى التعريف بدلائل ألّهية الله تعالى وانفراده وإبطال ضلالة الذين اتخذوا آلهة من دون الله: من جعلوا له شركاء أو اتخذوا له أبناء وتهديد المشركين بأن أمرهم إلى زوال وألا يغرّهم ما هم فيه من البذخ وأن ما أعد للمؤمنين خير من ذلك وتهديدهم بزوال سلطانهم ثم الثناء على عيسى - عليه السلام - وآل بيته وذكر معجزة ظهوره وأنه مخلوق لله وذكر الذين آمنوا به حقاً وإبطال إلهية عيسى ومن ثم أفضى إلى قضية وقد نجران ولجأهم ثم محاجة أهل الكتابين في حقيقة الحنيفة وأنهم بعداء عنها وما أخذ الله من العهد على الرسل كلهم: أن يؤمنوا بالرسول الخاتم وأن الله جعل الكعبة أول بيت وضع للناس وقد أعاد إليه الدين الحنيف كما ابتدأه فيه وأوجب حجة على المؤمن وأظهر ضلالات اليهود وسوء مقالاتهم واقترائهم في دينهم وكتمانهم وما أنزل إليهم وذكر المسلمين بنعمته عليهم بدين الإسلام وأمرهم بالاتحاد والوفاق وذكرهم بسابق سوء حالهم في الجاهلية وهون عليهم تظاهر معانديهم من أهل الكتاب والمشركين وذكرهم بالحذر من كيدهم وكيد الذين أظهروا الإسلام ثم عادوا إلى الكفر فكانوا مثلاً لتمييز الخبيث من الطيب وأمرهم بالاعتزاز بأنفسهم والصبر على تلقي الشدائد والبلاء وأذى العدو ووعدهم على ذلك بالنصر والتأييد والقاء الرعب منهم في نفوس عدوهم ثم ذكرهم بيوم أحد ويوم بدر وضرب لهم الأمثال بما حصل فيهما ونوه بشأن الشهداء من المسلمين وأمر المسلمين بفضائل الأعمال: من بذل المال في مواساة الأمة والإحسان وفضائل الأعمال وترك البخل ومذمة الربا وختمت السورة بآيات التفكير في ملكوت الله. انظر التحرير والتنوير ١٤٤/٣، ١٤٥.

(٢) في ظ [وهي مائتان]. (٣) سقط في ظ. (٤) تقدم الكلام عن الحروف المقطعة في تفسير سورة البقرة. (٥) سقط في ظ. (٦) في ظ [باهياً].

يا قيوم. ويقال: هو دعاء أهل البحر، إذا خافوا الغرق يدعون به [ثم قال تعالى: (١)]

نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾

﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يعني أنزل عليك جبريل بالقرآن ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي بالعدل، ويقال: لبيان الحق. ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني موافقاً للكتب المتقدمة في التوحيد وفي بعض الشرايع ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ ﴿مِن قَبْلُ﴾ يعني [أنزل] (١) التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى من قبل (٢) هذا الكتاب. وروي عن الفراء أنه قال (٤): اشتقاق التوراة من وري الزند، وهو ما يظهر من (٥) النور والضياء فسمي التوراة بها (٦) لأنه (٧) ظهر بها النور والضياء لبني إسرائيل ومن تابعهم، وإنما سمي الإنجيل لأنه أظهر الدين بعدما درس، وقد سمي القرآن إنجيلاً أيضاً لما روي في قصة مناجاة موسى - عليه السلام - أنه قال: يا رب أرى في الألواح أقواماً أناجيلهم في صدورهم، فاجعلهم أمتي، قال الله تعالى هم أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - وإنما أراد بالأنجيل القرآن. قرأ حمزة والكسائي وابن عامر «التوراة» بكسر الراء والباقون (٨) بالفتح. ثم قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ معناه، وأنزل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى - عليهما السلام - بياناً لبني إسرائيل من الضلالة ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ على محمد - صلى الله عليه وسلم - بعد التوراة والإنجيل. وقال الكلبي «الفرقان» هو الحلال والحرام، يعني بيان الحلال والحرام، ويقال: المخرج من الشبهات. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي جحدوا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - [وبالقرآن] (٩) - وما أوتي من آيات نبوته ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الآخرة. قال الكلبي: نزلت هذه الآية في وفد نجران، قدموا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وجادلوه بالباطل، ويقال: [في] (١٠) شأن اليهود. ويقال: في شأن مشركي العرب. ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ أي منيع بالنقمة (١١) ينتقم ممن عصاه. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ﴾ لا يذهب ولا يغيب [عليه] (١٢) شيء ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ معناه أنه لا يخفى عليه قول الكفار وعملهم، فيجازيهم يوم القيامة. وهم وفد نجران وسائر المشركين.

هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾

ثم أخبر عن صنعه ليعتبروا بذلك، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي يخلقكم كيف يشاء قصيراً أو طويلاً، حسناً أو ذميماً، ذكراً أو أنثى، ويقال: شقيماً أو سعيداً، وهذا كما روي عن عبد الله بن

(١) سقط في ظ. (٢) في ظ [أنزلت]. (٣) في ب [قبل النزول].

(٤) راجع اللسان: مادة «ورى». قال ابن منظور: ذكره الفراء في كتابه المصادر.

(٥) في ظ [منه]. (٦) في ظ [بذلك]. (٧) في ظ [قد].

(٨) أمال ابن ذكوان والكسائي وأبو عمرو - ألف التوراة إمالة محضة، وأما حمزة وورش فقد أمالها بين بين، وروى قالون الفتح والإمالة. راجع / شرح حوز الأماني ١٧٣، ١٧٤، وكنز المعاني ٣٠٧، ٣٠٨.

(٩) سقط في ظ. (١٠) في ظ [نزلت في]. (١١) في ظ [يعني ينتقم].

(١٢) في ظ [عنه].

مسعود أنه قال: الشقي من شقي في بطن أمه، والسعيد من سعد في بطن أمه. ثم قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - [يقول^(١)]: الولد [يكونه]^(٢) في بطن أمه يكون نطفة أربعين يوماً، ثم يصير علقة أربعين يوماً، ثم يصير مضغة أربعين يوماً ثم ينفخ فيه الروح، ثم يكتب شقي أم سعيد^(٣). وذكر عن إبراهيم بن أدهم^(٤) أن القراء اجتمعوا إليه ليسألوا ما عنده من الحديث، فقال لهم إني مشغول بأربعة أشياء، فلا أتفرغ لرواية الحديث، فقيل له: وما ذاك الشغل؟ فقال: أحدها: إني أتفكر في يوم الميثاق حيث قال هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي فلا أدري من أي الفريقين كنت في ذلك الوقت. والثاني: حيث صورني في رحم أمي فقال الملك [الموكل]^(٥) على الأرحام يا رب شقي [أم]^(٦) سعيد؟ فلا أدري كيف كان الجواب في ذلك الوقت. والثالث: حيث يقبض روحي ملك الموت فيقول: يا رب أمع الكفار أم مع المؤمنين فلا أدري كيف يخرج الجواب. والرابع حيث يقول: «وامتازوا اليوم أيها المجرمون» فلا أدري من أي الفريقين أكون^(٧). ثم قال تعالى ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ يعني لا خالق ولا مصور إلا هو ﴿الْعَزِيزُ﴾ يعني المنيع بالنقمة لمن جحدته ﴿الْحَكِيمُ﴾ يحكم [تصوير]^(٨) الخلق على ما يشاء.

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلُ الْبَيْتِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ يَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلَفُ أَلَمِيعَادَ ﴿٩﴾

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يعني [أنزل عليك]^(٩) جبريل^(١٠) بالقرآن ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ يعني من القرآن آيات واضحة ويقال: مبینات بالحلال والحرام ويقال: ناسخات لم تنسخ قط ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ يعني أصل كل كتاب وهي ثلاث آيات من سورة الأنعام وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي﴾^(١١) الآية [وروي عن ابن عباس: أنه سمع رجلاً يقول فاتحة الكتاب؛ أم الكتاب فقال له ابن عباس: بل أم الكتاب قوله تعالى ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي﴾ عليكم إلى آخر ثلاث آيات]^(١٢) الآية. ثم قال تعالى: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ قال

(١) في ظ [أنه قال]. (٢) سقط في ظ.

(٣) أخرجه البخاري ٣٥٠/٦ في كتاب بدء الخلق/ باب ذكر الملائكة (٣٢٠٨) وأطرافه ٣٣٣٢، ٦٥٩٤، ٧٤٥٤.

وأخرجه مسلم ٢٠٣٦/٤ في كتاب القدر/ باب كيفية خلق آدمي في بطن أمه (٢٦٤٣/١) وأحمد في المسند ٣٨٢/١ - ٤٣٠، وأخرجه أبو داود ٢٢٨/٤ في كتاب السنة/ باب في القدر (٤٧٠٨)، وأخرجه الترمذي ٣٨٨/٤ في القدر/ باب ما جاء أن الأعمال بالخواتيم (٢١٣٧).

وأخرجه ابن ماجه ٢٩/١ في المقدمة/ باب في القدر (٧٦)، وأبو نعيم في الحلية ٢٤٤/٨، وذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٤٤/٤، والبغوي في التفسير ٣١٨/١.

(٤) إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد العجلي أو التميمي أبو إسحاق البلخي ثم الشامي أحد الزهاد والأعلام قال النسائي ثقة مأمون أحد الزهاد وقال البخاري مات سنة اثنتين وستين ومائة الخلاصة ٣٩/١ - ٤٠.

(٥) في ظ [الذي هو موكل]. (٦) في ظ [هوام]. (٧) في ظ [وإلى هذا ذهب أهل الخير]. (٨) في ظ [بتصوير]. (٩) سقط في ظ. (١٠) في ظ [أنزل]. (١١) في ظ [إلى آخر]. (١٢) زيادة من ظ.

الضحك أي منسوخات. وقال الكلبي: يعني ما اشتبه على اليهود، كعب بن الأشرف وأصحابه «ألم، والمص» ويقال: المحكم ما كان واضحاً لا يحتمل التأويل والمتشابه: الذي يكون اللفظ يشبه اللفظ والمعنى مختلف ويقال: المحكم^(١): الذي هو حقيقة اللغة والمتشابه: ما كان مجاوزاً. ويقال: المحكمات: التي فيها دلالة نبوة

(١) «المحكم والمتشابه»: - المحكم لغة: مأخوذ من حَكَمْتُ الدابة وأَحَكَمْتُ: بمعنى منعت. والحُكْمُ: هو الفصل بين الشيتين فالحاكم يمنع الظالم ويفصل بين الخصمين ويميز بين الحق والباطل، والصدق والكذب، ويقال: حكمت السفينة وأَحَكَمْتُه، إذا أخذت على يديه، وحكمت الدابة وأحكمتها: إذا جعلت لها حَكَمَةً: وهي ما أحاط بالحنك من اللجام لأنها تمنع الفرس عن الاضطراب، ومنه الحَكْمَةُ: لأنها تمنع صاحبها عما لا يليق، وإحكام الشيء: إتقانه، والمحكم: المتقن.

فإحكام الكلام: إتقانه بتمييز الصدق من الكذب في أخباره، والرشد من الغي في أوامره: والمحكم منه: ما كان كذلك. والمتشابه لغة: مأخوذ من التشابه: وهو أن يشبه أحد الشيتين الآخر، والشبهة: هي ألا يتميز أحد الشيتين من الآخر لما بينهما من التشابه عيناً كان أو معنى قال تعالى ﴿وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ [سورة البقرة ٢٥] أي يشبه بعضه بعضاً لونا لا طعماً وحقيقة، وقيل متماثلاً في الكلام والجودة. وتشابه الكلام: هو تماثله وتناسبه بحيث يصدق بعضه بعضاً. القرآن محكم ومتشابه:

جاء في القرآن الكريم ما يدل على أنه كله محكم إذ قال تعالى ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ [سورة هود ١] وجاء فيه ما يدل على أنه كله متشابه إذ قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ [سورة الزمر ٢٣] وجاء فيه ما يدل على أن بعضه محكم وبعضه متشابه إذ قال جل ذكره ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ فِيهِ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ وَآخَرُ مُتَشَابِهَاتٍ﴾. [سورة آل عمران ٧] ولا تعارض بين هذه الاطلاقات الثلاثة، لأن معنى إحكامه كله أن آياته نُظِمَتْ نُظْمًا رصيناً محكماً لا يقع فيه نقص ولا خلل. ومعنى كله متشابه تشابه معانيه في الصحة والإحكام والبناء على الحق والصدق ومنفعته الخلق، وتناسب ألفاظه وتناسفها في التخيير والإصابة وتجاوب نظمه وتأليفه في هذا الحُسْن والإحكام والإعجاز فهو كالحلقة المفرغة لا يُدْرَى أين طرفاها. وأما أن بعضه محكم وبعضه متشابه فمعناه: أن من القرآن ما اتضحت دلالاته على مراد الله تعالى منه، وذلك في الآيات المحكمات التي أحكمت عبارتها بأن حفظت من الاحتمال والاشتباه ومنه ما خفيت دلالاته على هذا المراد الكريم، وذلك في الآيات المتشابهات التي يتطرق إليها الاحتمال والاشتباه. المحكم عند الفقهاء والأصوليين:

يطلق المحكم في اصطلاح الفقهاء والأصوليين على ما يقابل المنسوخ فيراد به الحكم الشرعي الذي لم يتطرق إليه نسخ، كما يطلق على ما يقابل المتشابه فيعنون به ما ورد من نصوص الكتاب والسنة دالاً على معناه بوضوح لا خفاء فيه. آراء العلماء في المحكم والمتشابه:

اتفق العلماء على أنه لا تنافي بين كون القرآن كله محكماً أي متقناً، وبين كونه كله متشابهاً أي يشبه بعضه بعضاً في هذا الإتقان والإحكام وبين كونه منقسماً إلى ما اتضحت دلالاته على مراد الله وما خفيت دلالاته، ولكنهم اختلفوا في تحديد معنى المحكم والمتشابه اختلافات كثيرة أهمها:

١ - المحكم ما عرف المراد، به، والمتشابه ما استأثر الله بعلمه.

٢ - المحكم ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً، والمتشابه ما احتمل أوجهاً.

٣ - المحكم مستقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان، والمتشابه ما لا يستقل بنفسه واحتاج إلى بيان برده إلى غيره.

٤ - المحكم ما كانت دلالاته راجحة وهو النص والظاهر لاشتراكهما في حصول الترجيح إلا أن النص راجح مانع من الغير والظاهر راجح غير مانع منه. وأما المتشابه فهو ما كانت دلالاته غير راجحة، وهو المجمل والمؤول والمشكل لاشتراكها في أن دلالة كل منها غير راجحة، وأما المشترك فإن أريد منه كل معانيه فهو من قبيل الظاهر وإن أريد بعضها على التعيين فهو مجمل (الفخر الرازي ١٧٠/٨، ١٧١) وهذا التعريف الآخر للإمام الرازي جامع مانع من حيث أنه لا يدخل في المحكم ما كان خفياً ولا في المتشابه ما كان جلياً لأنه استوفى وجوه الظهور والخفاء استيفاء تاماً في بيان تقسيمه الذي بناه على راجح ومرجوح والذي أعلن لنا أن الراجح ما كان واضحاً لا خفاء فيه، وأما المرجوح ما كان خفياً لا جلاء معه. الفوائد التي أجعلها من جعل بعض القرآن عكماً والبعض الآخر متشابهاً:

ذكر العلماء أن للمحكم والمتشابه في القرآن الكريم فوائد عدة منها: -

أ - أنه متى كانت المتشابهات موجودة، كان الوصول إلى الحق أصعب وأشق وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾.

محمد - صلى الله عليه وسلم - والمتشابه: الذي اشتبهت الدلالة فيه. فإن قيل: إذا أنزل القرآن للبيان فكيف لم يجعل كله واضحاً؟ قيل: الحكمة في ذلك والله أعلم أن يظهر فضل العلماء لأنه لو كان الكل واضحاً لم يظهر فضل العلماء بعضهم على بعض وهكذا يفعل كل من يصنف تصنيفاً يجعل بعضه واضحاً وبعضه مشكلاً ويترك للحيرة موضعاً لأن ما هان وجوده قل بهائوه. ثم قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ يعني مَيَلٌ عن الحق وهم اليهود ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ قال الضحاك: يعني ما نسخ منه ﴿أَتَبْتَغَاءُ أَلْفِتْنَةً﴾ أي طلب الشرك واستبقاؤه ما هم عليه ﴿وَأَتَبْتَغَاءُ تَأْوِيلَهُ﴾ أي طلب [ثناء]^(١) هذه الأمة^(٢) ويقال: طلب وقت قيام الساعة ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ يعني منتهى ملك هذه الأمة وذلك أن جماعة من اليهود دخلوا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفيهم حيي بن أخطب وغيره فقالوا: بلغنا أنه نزل عليك «الم» فإن كنت صادقاً في مقاتلتك فإن ملك أمتك يكون إحدى وسبعين سنة لأن الألف في حساب الجمل واحد واللام ثلاثون والميم أربعون فنزل: «وما يعلم تأويله إلا الله» يعني منتهى ملك هذه الأمة ثم قال تعالى: «والراسخون في العلم» قال الكلبي ومقاتل: استأنف الكلام يعني لما قال «وما يعلم تأويله إلا الله» فقد تم الكلام ثم استأنف فقال: «والراسخون في العلم» [أي البالغون العلم في كتبهم]^(٣) التوراة والإنجيل ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ يعني القرآن ﴿كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا﴾ ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه وهو عبد الله بن سلام وأصحابه. وقال بعضهم: هو معطوف عليه يقول: «وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم» يعني يعلمون تأويله ويقولون: «آمنّا به كل من عند ربنا» وروى ابن طاووس عن أبيه عن ابن عباس أنه كان يقرأ وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون في العلم: آمنا به، وهذا يوافق قول الكلبي ومقاتل. وقال عامر الشعبي لو كان ابن عباس بين أظهرنا ما سألته عن آية من التفسير لأنني أحلّ حلاله وأحرّم حرامه، وأومن بمتشابهه وأكل ما لم أعلم منه إلى عالمه. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ يعني ما يتعظ بما أنزل من القرآن إلا ذوو العقول من

= ب - لو كان القرآن محكماً بالكلية لما كان مطابقاً إلا لمذهب واحد، وكان تصريحه مبطلاً لكل ما سوى ذلك المذهب وذلك مما ينفر أرباب المذهب عن قبوله وعن النظر فيه، فالانتفاع به إنما حصل لما كان مشتملاً على المحكم وعلى المتشابه، فحينئذ يطمع صاحب كل مذهب أن يجد فيه ما يقوّي مذهبه ويؤثر مقالته فحينئذ ينظر فيه جميع أرباب المذاهب، ويجتهد في التأمل فيه كل صاحب مذهب فإذا بالغوا في ذلك صارت المحكمات مفسرة للمتشابهات فهذا الطريق يتخلص المبطل عن باطله ويصل إلى الحق.

ج - أن القرآن إذا كان مشتملاً على المحكم والمتشابه افتقر الناظر فيه إلى الاستعانة بدليل العقل. وحينئذ يتخلص عن ظلمة التقليد ويصل إلى ضياء الاستدلال والبيّنة، أما لو كان كله محكماً لم يفتقر إلى التمسك بالدلائل العقلية فحينئذ كان يبقى في الجهل والتقليد.

د - لما كان القرآن مشتملاً على الحكم والمتشابه افتقروا إلى تعلم طرق التأويلات وترجيح بعضها على بعض، وافتقر تعلم ذلك إلى تحصيل علوم كثيرة من علم اللغة والنحو وعلم أصول الفقه ولو لم يكن الأمر كذلك ما كان يحتاج الإنسان إلى تحصيل هذه العلوم الكثيرة فكان إيراد هذه المتشابهات لأجل هذه الفوائد الكثيرة.

هـ - وهو السبب الأقوى في هذا الباب أن القرآن كتاب مشتمل على دعوة الخواص والعوام بالكلية وطبائع العوام تنبو في أكثر الأمر عن إدراك الحقائق فمن سمع من العوام في أول الأمر إثبات موجود ليس بجسم ولا بمتحيز ولا مشار إليه ظن أن هذا عدم ونفي فوق في التعطيل فكان الأصلح أن يخاطبوا بالفاظ دالة على بعض ما يناسب ما يتوهمونه ويتخيلونه. ويكون ذلك مخلوطاً بما يدل على الحق الصريح. فالقسم الأول وهو الذي يخاطبون به في أول الأمر يكون من باب المتشابهات والقسم الثاني وهو الذي يكشف لهم في آخر الأمر هو المحكمات. هذا والله أعلم.

انظر تفسير الفخر الرازي ١٧٢/٨ والإتقان في علوم القرآن ٣/٣ وما بعدها بتصرف.

(١) في ظ [بقاء]. (٢) في ظ [إلى أدنى زمان]. (٣) في ظ [يعني البالغون في علم الكتاب كتابهم].

الناس ثم قال عبد الله بن سلام وأصحابه حين سمعوا قول اليهود وتكذيبهم ﴿ربنا لا تزعج قلوبنا﴾ يعني لا تحوّل قلوبنا عن الهدى ﴿بعد إذ هديتنا﴾ يعني بعد ما أكرمنا بالإسلام [وهديتنا لدينك] ^(١) ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ يعني ثبّتنا على الهدى ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ أي المعطي [المثبت] ^(٢) للمؤمنين. ﴿ربنا إنك جامع الناس﴾ بعد الموت ﴿ليوم لا ريب فيه﴾ أي في يوم لا شك فيه عند المؤمنين أنه كائن لا محالة. «إن الله لا يخلف الميعاد» في البعث ويقال: معناه ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ في إجابة الدعاء يعني يوم يجمع الناس في الآخرة.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَذَّابٌ أَلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني اليهود، ويقال جميع الكفار ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ﴾ كثرة ﴿أَمْوَالِهِمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ ^(٣) يعني ^(٤) من عذاب الله ﴿شَيْئًا﴾ في الدنيا إذا نزل بهم شدة أو مرض، ولا في الآخرة عند نزول العذاب. ويقال: كل ما لم ينفع في طاعة الله، فهو حسارة له يوم القيامة، ويقال: إنما ذكر الأموال والأولاد [لأن أكثر الناس يدخلون النار لأجل الأموال والأولاد] ^(٥). فأخبر الله تعالى: [أنه لا ينفعهم] ^(٦) في الآخرة لكيلا يفني الناس أعمارهم لأجل المال والولد، وإنما ذكر الله تعالى الكفار، لكي يعتبر بذلك المؤمنون. ثم قال تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ أي حطب النار. قرأ بعضهم «وَقُودُ النَّارِ» بضم الواو يعني: [إيقاد] ^(٧) النار كما قال في آية آخر «كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها» قالوا: معناه إذا أرادت النار أن تتطفيء بدلهم الله جلوداً [غيرها] ^(٨) لتتقد النار. ﴿كذّاب آل فرعون﴾ يعني [أن] ^(٩) صنيع الكفار معك كصنيع آل فرعون مع موسى. وقال مقاتل كآشبه آل فرعون بالكذب بالعذاب في الدنيا، ويقال: إهلاك الله إياهم بالقتل، كإهلاك آل فرعون بالفرق، ويقال: تعاونهم وتظاهرهم فيما بينهم عليك، كتظاهر آل فرعون على موسى ﴿والذين من قبلهم﴾ أي قبل آل فرعون مثل قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط ﴿كذبوا بآياتنا﴾ أي بدلائلنا وعجائبنا. ويقال: بكتبي ورسلي كما كذبك قومك يا محمد ﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾ أي أهلكهم وعاقبهم بشركهم ﴿والله شديد العقاب﴾ [للكافرين] ^(١٠).

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾

[قوله تعالى] ^(١١) ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال الضحاك: يعني كفار مكة لما ظهروا يوم أحد فرحوا بذلك فنزل قوله تعالى: «قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا» من أهل مكة ﴿سُتُغْلَبُونَ﴾ بعد هذا ﴿وتُحْشَرُونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ﴾ وقال الكلبي: نزلت في شأن بني قريظة، وذلك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما هزم المشركين يوم بدر قالت اليهود: هذا النبي الأمي الذي بشرنا به موسى، الذي نجده في التوراة، فأرادوا تصديقه، ثم قال بعضهم لبعض: لا تعجلوا حتى ننظر

(٣) سقط في ظ.

(٢) في ظ [المثيب].

(١) من ظ.

(٦) في ظ [أنهما لا ينفعانهم].

(٥) زيادة من ظ.

(٤) في ظ [يعني لا ينفعهم].

(٩) سقط في ظ.

(٨) سقط في ظ.

(٧) في ب [انقاد].

(١١) زيادة من ظ.

(١٠) في ظ [للكفار].

إلى وقعة أخرى له، فلما كان يوم أحد ونكب أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قالوا: والله ما هو إياه، فقد تغيرت صفته وحاله، فشكوا فيه ولم يسلموا. وقد كان بينهم وبين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عهد إلى مدة فنقضوا ذلك العهد، فأنزل الله تعالى: «قل للذين كفروا ستغلبون» وقال عكرمة: عن عبد الله بن عباس أنه قال: لما أصاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قريشاً يوم بدر، وقدم المدينة، جمع اليهود في سوق بني قينقاع، فقال: «يا معشر اليهود، أسلموا قبل أن يصيبكم الله بمثل ما أصاب قريشاً». قالوا: يا محمد لا تغرنك نفسك، إنك قتلت نफراً من قريش كانوا أعماراً^(١) لا يعرفون القتال، فإنك لو قاتلتنا لعرفت، أنا نحن الناس وأنت لم تلق مثلنا، فأنزل الله تعالى: «قل للذين كفروا ستغلبون [وتحشرون]»^(٢) يعني تهزمون وتقهرون وتحشرون بعد القتل، إلى جهنم ﴿وبئس المهاد﴾ يعني لبئس موضع القرار جهنم. قرأ حمزة والكسائي «سَيُغْلَبُونَ وَيُحْشَرُونَ» [بالياء]^(٣) على معنى الخبر والباقون بالتاء على معنى المخاطبة^(٤).

قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنِیِ الثَّقَاتِ فَمَا تَقْتُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾

ثم قال: ﴿قد كان لكم آية﴾ [يعني عبرة]^(٥) في فتنين ﴿أي جمعين﴾ [يعني]^(٦) جمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه، وجمع [كفار]^(٧) أهل مكة ﴿الثقات فئة تقتل في سبيل الله، وأخرى كافرة، يرونهم مثليهم﴾ قرأ نافع «ترونها» على معنى المخاطبة، والباقون بالياء على معنى الخبر^(٨). وذكر عن الفراء أنه قال^(٩): كان الكفار ثلاثة أمثال المسلمين لأن المسلمين كانوا ثلاثمائة ونيفاً، وكان الكفار تسعمائة ونيفاً وقوله «مثليهم» أي ثلاثة أمثالهم، والمعنى في ذلك عن طريق اللغة: أن الإنسان إذا كان عنده ألف درهم يقول: احتاج إلى مثليها، فإنه يحتاج إلى ثلاثة آلاف، وقال الزجاج^(١٠): هذا القول لا يصح في اللغة ولا في المعنى ولكن المسلمين يرونهم مثليهم [في العدد]^(١١) لكي لا يجبنوا، لأنه أعلمهم أن المائة تغلب المائتين، فأراهم في ﴿رأى العين﴾ أن المشركين مثليهم في العدد لكي لا يجبنوا، وهذا كما قال في آية أخرى: «وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً، ويقتلكم في أعينهم». وذلك أن المشركين كانوا تسع مائة [فأرى الله المسلمين]^(١٢) أنهم ستمائة لكي لا يجبنوا وأرى الكفار أن المسلمين أقل من ثلاثمائة ثم ألقى مع ذلك في قلوبهم الرعب حتى انهزموا [فكان]^(١٣) في

(١) الأعمار: جمع غمر - بضم فسكون - وهو الجاهل الغر الذي لم يجرب الأمور. قال ابن سيده: ويُقتاس من ذلك لكل من لا غناء عنده ولا رأي. ورجل غمر وغمر: لا تجربة له بحرب ولا أمر ولم تمكنه التجارب. اللسان: غمر.

(٢) زيادة من ظ، والحديث أخرجه أبو داود في السنن ١٥٤/٣ في كتاب الخراج والإمارة والفيء (٣٠٠١).

(٣) زيادة من ظ.

(٤) انظر / حجة القراءات لابن زنجلة ١٥٣، كنز المعاني شرح حرز الأمان ص ٣٠٨، ٣٠٩، وكذا الإتحاف والحجة لابن خالويه.

(٥) زيادة من ظ.

(٦) زيادة من ظ.

(٧) في ظ [كفار].

(٨) والقراءة بالياء على أن الرائيين المشركون، والمرئيين المؤمنون، ويحتمل العكس وقراءة نافع بناء الخطاب، والمخاطبون اليهود لكونهم حاضري الواقعة ببدر، أي يرون المسلمين مثل عددهم، أو مثلي عدد المشركين على اختلاف التفاسير. راجع / كنز المعاني شرح حرز الأمان ص ٣٠٨، ٣٠٩، وحجة القراءات لابن زنجلة ص ١٥٤.

(٩) معاني القرآن للفراء ١٩٤/١. (١٠) معاني القرآن وإعرابه ٣٨٢/١. (١١) في سقط في ظ.

(١٢) في ظ [فكانت].

(١٣) في ظ [فأرى المسلمون].

ذلك دلالة من [الدلالات] ^(١). فمن قرأ [بالتاء على معنى المخاطبة] ^(٢) لليهود: إن لكم آية وعلامة حيث رأيتم غلبة المسلمين على الكفار مع قلة المسلمين وكثرة الكفار فإن قيل: إن اليهود لم يكونوا حضوراً في ذلك الوقت، فكيف يرون ذلك؟ قيل له: إذا انتشر الخبر فهموا وعلموا ذلك صار كالمعاينة ولأن لهم جواسيس عند المسلمين يخبرون اليهود بذلك فصار كأن كلهم رأى ذلك، ومن قرأ بالياء معناه: أن المسلمين يرون الكفار مثلهم ويقال: إن المشركين حين خرجوا من مكة كانوا ألفاً وثلاثمائة رجل، فلما وجدوا العير ^(٣) سالمة ^(٤) رجع مع العير ثلاثمائة وخمسون وتخلف تسعمائة وخمسون للحرب، وكان أبو سفيان بن حرب في تلك العير، فرجع إلى مكة وحثهم على [المسير] ^(٥)، ولم يكن حاضراً وقت الحرب، وإنما قال الكلبي في كتابه: نزلت في جمع أبي سفيان وأصحابه، لأن أبا سفيان هو الذي حثهم على الخروج ولم يخرج معهم، ثم قال تعالى: ﴿والله يؤيد بنصره من يشاء﴾ أي يقوي بنصرته، وهم أهل بدر، فأرسل إليهم الملائكة وهزم المشركين، ﴿إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾ يعني من ينصر الحق.

زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ
وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ
الْمِثَابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَمُ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾
الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَمْنَا فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ
وَالْقَنَاتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾

﴿زين للناس حب الشهوات﴾ حُسْنٌ وَحُبٌّ إليهم، وقد يكون التزين من الله تعالى كما قال في آية أخرى ﴿زيننا لهم أعمالهم﴾ وقد [كان] ^(٦) من الشيطان كما قال في آية أخرى ﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم﴾ فأما التزين من الله تعالى فهو على وجهين: يكون على [جهة] ^(٧) الامتحان للمؤمنين مع العصمة، وقد يكون للكفار على [جهة] ^(٨) العقوبة مع الخذلان، وأما التزين من الشيطان [فهو على جهة] ^(٩) الوسوسة، فقال: زين للناس حب الشهوات ﴿من النساء والبنين﴾ بدأ بالنساء، لأن فتنة النساء أشد من فتنة جميع الأشياء كما روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: ^(١٠) «ما تركت لأمتي فتنة أشد من فتنة النساء» ولأن النساء فتنتهن ظاهرة من وقت آدم عليه السلام

(١) في أ [الدلالة]. (٢) في المخطوطتين (بالياء فمعناه خطاب)، والصحيح ما أثبتناه، وهو موافق لتوجيه القراءتين كما سبق.

(٣) العير: مؤنثة: القافلة، وقيل: العير: الإبل التي تحمل الميرة، لا واحد لها من لفظها. (اللسان: عين).

(٤) وبناء على تأنيث العير أثبتنا الصواب (سالمة) بدلاً من (سالماً).

(٥) في ظ [الخروج]. (٦) في ظ [يكون]. (٧) (٨) في ظ [وجه]. (٩) في ظ [على وجه].

(١٠) متفق عليه من رواية أسامة بن زيد رضي الله عنه، أخرجه البخاري ٩: ٣٧ في كتاب النكاح/ باب شوم المرأة (٥٠٩٦) ومسلم ٤/ ٢٠٩٧ في كتاب الذكر والدعاء/ باب أكثر أهل الجنة الفقراء... (٩٧/ ٢٧٤٠) وأخرجه أحمد في المسند ٥/ ٢٠٠ والترمذي

رقم (٢٧٨٠) والطبراني في الكبير ١/ ١٣٣ وعبد الرزاق في المصنف رقم (٢٠٦٠٨) والبيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٩١ وأبو نعيم في الحلية ١٢/ ٣٢٩.

إلى يومنا هذا. ويقال: في النساء فتنتان وفي الأولاد فتنة واحدة إحداهما: أنها تؤدي إلى قطيعة الرحم، لأن المرأة تأمر زوجها بقطيعة الرحم عن الأمهات والأخوات والثانية: يتبلى بجمع المال من الحلال والحرام. وأما البنون: فإن الفتنة فيهم واحدة وهي ما ابتلي به من جمع المال لأجلهم فذكر البنين، وأراد به الذكور والإناث. وقال بعض الحكماء: أولادنا فتنة، إن عاشوا فتنتونا وإن ماتوا أحزنونا. ثم قال تعالى: ﴿والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة﴾ روي عن الفراء أنه قال ^(١): القناطير جمع قنطار، والمقنطرة جمع الجمع، فيكون تسع قناطير، وروي عن [أبي عبيدة] ^(٢) أنه قال: ^(٣) المقنطرة: [مُفَعَّلَةٌ من الورك] ^(٤) كما يقال: ألف مؤلفة، وبذر مبذرة، ويقال: المقنطرة: هي [المكملة] ^(٥) ثم اختلفوا في مقدار القنطار: فروي عن مجاهد أنه قال: القنطار سبعون ألف دينار. وقال أبو هريرة: ^(٦) القنطار اثني عشر ألف أوقية. وقال معاذ بن جبل: ^(٧) ألف ومائتا أوقية. وقال بعضهم: ^(٨) مِلْءُ مَسْدٍ ثَوْرٌ من ذهب، حكاه الكلبي وقال هو لغة رومية. وروي عن الحسن البصري أنه سئل عن القنطار ما هو؟ فقال: هو مثل دية ^(٩) أحدكم ^(١٠). ثم قال تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ الْمُسَوَّمَةَ﴾ يعني الراعية، كما قال في آية أخرى: «فيه تسيمون». أي ترعون وهو قول سعيد بن جبيرة ومقاتل. وقال يحيى بن كثير: هي السمينة المصورة. وقال أبو عبيدة: ^(١١) الْمُعَلَّمَةُ ﴿وَالْأَنْعَامَ﴾ يعني الإبل والبقر والغنم ﴿وَالْحَرْثَ﴾ يعني الزرع، ذكر أربعة أصناف، كل نوع من [المال] ^(١٢) يتمول به صنف من الناس، أما الذهب والفضة، فيتمول ^(١٣) به التجار، وأما الخيل الْمُسَوَّمَةُ فيتمول [بها] ^(١٤) الملوك، وأما الأنعام فيتمول بها أهل البوادي، وأما الحرث فيتمول به أهل الرساتيق ^(١٥)، فيكون فتنة كل

(١) معاني القرآن للفراء ١/ ١٩٥. (٢) في ظ [عبيدة]. (٣) مجاز القرآن ١/ ٨٨.

(٤) في ظ [مثلة من القنطار]. (٥) في ظ [المكملة كما يقال: يَذْرُؤُ مَبْدَرَةً].

(٦) وأخرجه ابن جرير الطبري، من حديث عاصم بن بهدلة عن أبي صالح عن أبي هريرة أن القنطار ألف ومئتا أوقية.

ابن جرير ٢/ ٤٤١ (٦٧٠٠) وذكره ابن كثير في التفسير ٢: ١٠٩، ١١٠ - وأشار الحافظ ابن كثير إلى الرواية التي حكاه المصنف رحمه الله وهي عند أحمد «حدثنا عبد الصمد، حدثنا حماد، عن عاصم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - القنطار اثنا عشر ألف أوقية، كل أوقية خير مما بين السماء والأرض وصحح الحافظ ابن كثير أن هذا الأثر موقوف.

(٧) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٦/ ٢٤٤ (٦٦٩٦)، (٦٦٩٧) وعن ابن عمر أيضاً عند ابن جرير (٦٦٩٨) عن عاصم ابن النجود مثله أيضاً (٦٦٩٩).

(٨) مجاز القرآن ١/ ٨٩، اللسان: قنطر.

(٩) الدية: مصدر وَدَى القاتل المقتول إذا أعطى وليه المال هو بدل النفس، ثم قيل لذلك المال: الدية تسميةً بالمصدر. ولذا جمعت، وهي مثل عدة في حذف الفاء كذا في المغرب ٢/ ٣٤٧ وانظر الصحاح ٦/ ٢٥٢١ القاموس ٤/ ٤٠١ المصباح ٢ (١٠١٣).

(١٠) أخرجه الطبري عن الحسن بلفظ القنطار ألف دينار، ديةً أحدكم (٦٧١٢).

(١١) مجاز القرآن ١/ ٨٩. ونصه (والخيل المسومة: المعلمة بالسيما، ويجوز أن تكون «مسومة» مرعاةً، من أَسَمْتُهَا، تكون هي سائمة، والسائمة: الراعية وربما يُسَمِّيها).

(١٢) في ظ [الأموال].

(١٣) في الأصل (يتمول) والصحيح ما أثبتناه، فهو جواب (أما).

(١٤) في ظ [به].

(١٥) قال ابن منظور: الرُسْدَاق، والرُّزْدَاق، فارسي: بيوت مجتمعة، ولا تقل: رُسْتَق. وكان الليث يقول للذي يقول له الناس الرُسْتَق، وهو الصف. وَذَقَّ، وهو دخيل. (اللسان: رزدق).

صنف في النوع الذي يتمول به، وأما النساء والبنين فهي فتنة للجميع. ثم زهد في [ذلك كله]^(١) ورغب في الآخرة فقال تعالى: ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي منفعة الحياة الدنيا تذهب ولا تبقى ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَآبِ﴾ أي المرجع في الآخرة الجنة، لا تزول ولا تفتنى. ثم بين أن الذي وعد المؤمنين في الآخرة خير مما زين للكفار فقال تعالى: ﴿قُلْ أُوْنِبْكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ﴾ أي من الذي زين للناس في الدنيا ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك والفواحش والكبائر. ويقال: للذين اتقوا الزينة فلا تشغلهم من طاعة الله. ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ يعني البساتين تجري من تحت شجرها ومساكنها الأنهار، فهو خير من الزينة الدنيوية وما فيها وروى أبو سعيد الخدري عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال^(٢): ﴿لَشِبْرٌ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا قَالَ:﴾ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ يعني مقيمين فيها أبداً. ﴿وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ معناه في الخلق والخلق، فأما الخلق، فإنهم لا يحضن ولا يتمخطن ولا يأتين الخلاء، وأما الخلق، فإنهم لا يغرّن ولا يحسدن ولا ينظرون إلى غير أزواجهن، ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أي مع هذه النعم لهم رضوان من الله، وهو من أعظم النعم، كما قال في آية أخرى ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قرأ عاصم في رواية أبي بكر «وَرِضْوَانٌ» بضم الراء، والباقون بالكسر وهما لغتان وتفسيرهما واحد^(٣): ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ﴾. أي عالم بأعمالهم وثوابهم. ثم وصفهم فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾ أي صدّقنا ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي خطايانا التي كانت في الشرك وفي الإسلام ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ يعني ادفع عنا عذاب النار^(٤) ﴿الصَّابِرِينَ﴾ يعني الجنة التي ذكر للذين اتقوا الشرك، وللصابرين^(٥) الذين يصبرون على طاعة الله، ويصبرون [على]^(٦) المعاصي ويصبرون على ما أصابهم من الشدة والمصيبة ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ [يعني الصادقين]^(٧) في إيمانهم^(٨) وفي قلوبهم، وفي وعدهم بينهم وبين الناس، وبينهم وبين الله تعالى ثم قال: ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ يعني المطيعين لله تعالى ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾ الذين يتصدقون من أموالهم في سبيل الله ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ يعني يصلون لله عند الأسحار. ويقال: يصلون لله بالليل ويستغفرون عند السحر.

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ يعني أن الله تعالى قبل أن يخلق الخلق شهد أن لا إله إلا هو ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ ولما خلق الملائكة شهدوا بذلك، ثم لما خلق الله المؤمنين شهدوا بذلك وهم ﴿أُولُو الْعِلْمِ﴾ يعني المؤمنين شهدوا بذلك ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ يعني الله قائماً بالعدل على كل نفس. ويقال: من أقر بهذه الشهادة على عقد قلبه، فقد قام بالعدل وقال مقاتل: سبب نزول هذه الآية أن عبد الله بن سلام وأصحابه قالوا لرؤساء اليهود: اتبعوا دين محمد - صلى الله عليه وسلم - فقالت اليهود: ديننا أفضل من دينكم، فقال الله عز وجل: «شهد الله أنه لا إله إلا هو

(١) في ظ [في الدنيا].

(٢) أخرجه ابن ماجه ١٤٤٨/٢ في كتاب الزهد/ باب صفة الجنة (٤٣٢٩) وقال البوصيري في زوائده ٣٢٤/٣ هذا إسناد ضعيف تقدم الكلام عليه مرات قلت ويقصد حجاج بن أرتاة وعطية العوفي وقال وأخرجه أيضاً بهذا الإسناد أبو بكر بن أبي شيبة في مسنده وأخرجه أبو نعيم في الحلية ١٠٨/٤ من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - وقال: غريب من حديث الأعمش لم نكتبه إلا عن هذا الشيخ - ضمن ترجمة شقيق بن سلمة (٢٥٣).

(٣) راجع / حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٥٧، كنز المعاني - شرح حرز الأمان ص ٣٠٩.

(٤) في ظ [عن].

(٥) سقط في ظ.

(٦) في ظ [ثم قال عز وجل].

(٧) سقط في ظ.

(٨) في ظ [والصادقين في قلوبهم].

والملائكة وأولو العلم» يشهدون بذلك، وأولو العلم بالتوراة يشهدون بذلك، ويشهدون أن الله قائم بالقسط أي بالعدل، وأن الدين عند الله الإسلام. قال الكلبي: وفيه وجه آخر وذلك أنه لما ظهر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة، قدم عليه خبران من أحبار الشام، فلما نظرا إلى المدينة قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان فلما دخلا عليه قالاه: أنت محمد؟ قال: «نعم» قالا: وأنت أحمد؟ قال أنا محمد وأحمد. قالا: أخبرنا عن أعظم الشهادة في كتاب الله تعالى فنزلت هذه الآية «شهد الله... الخ» فأسلم الرجلان وصدقا أن الدين عند الله الإسلام. وروي عن أبي عبيدة أنه قال^(١): «شَهِدَ اللَّهُ» يعني عَلِمَ اللَّهُ ويُنِّيُّ الله، فالله عز وجل: دَلَّ على توحيدِهِ بجميع ما خلق فَبَيَّنَ أنه لا يقدر أحدٌ أن ينشيء شيئاً واحداً مما أنشأ الله تعالى، وشَهِدَتِ الملائكة بما علمت من عظيم قدرته، وشَهِدَ أولو العلم بما ثبت عندهم وتبين من خلقه الذي لا يقدر غيره عليه. وفي هذه الآية بيان فضل أهل العلم، لأنه ذكر شهادة نفسه ثم ذكر شهادة الملائكة ثم ذكر شهادة أهل العلم، ثم قال تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فشهد بمثل ما شهد من قبل لتأكيد الكلام. وروي عن سعيد بن جبير أنه قال: كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً لكل حي من العرب صنم أو صنمان، فلما نزلت هذه الآية أصبحت تلك الأصنام كلها قد خرت ساجدة^(٢)].

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾

ثم قال عز وجل: [٣] ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ قرأ الكسائي: «أَنَّ الدين» بالنصب على معنى البناء، يعني شهدوا أنه لا إله إلا هو، وَأَنَّ الدين عند الله الإسلام^(٤)، [و] الباقون بالكسر على معنى الابتداء، ومعناه: إن الدين المرضي عند الله الإسلام ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ في هذا الدين ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ يعني بيان أمر محمد - صلى الله عليه وسلم - وهم اليهود والنصارى فلما بعث الله تعالى محمداً كفروا حسداً منهم، هكذا قال مقاتل. ويقال: إنهم كانوا مسلمين وكانوا يسمون بذلك، وكان عيسى عليه السلام سمي أصحابه مسلمين، فحسدتهم اليهود لمشاركتهم في الاسم فغيروا ذلك الاسم، وسمُّوا يهوداً، وأما النصارى فغيرهم عن ذلك الاسم «بولس» وسماهم نصارى فذلك قوله: «وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم» يعني غيروا الاسم حسداً منهم ثم قال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لأنه قد جاء في آية أخرى: «وما أمر الساعة إلا كلمح البصر» وقوله «سَرِيعُ الْحِسَابِ» يعني سريع المجازاة، ويقال: سريع التعريف للعامل عمله لأنه عالم بجميع ما عملوا لا يحتاج إلى إثبات شيء [وتذكر]^(٥) شيء. ويقال إذا حاسب فحسابه سريع، يحاسب جميع الخلق في وقت واحد، كل واحد منهم يظن أنه يحاسبه خاصة.

(١) الذي أورده أبو عبيدة: (شهد الله: قضى الله) مجاز القرآن ١/ ٨٩.

(٢) عزاء السيوطي في الدر (١٢/٢) لعبد بن حميد، وابن المنذر عن سعيد بن جبير.

(٣) ما بين المعقوفين من أ.

(٤) قراءة الكسائي بفتح همزة (أن) على أنه بدل كل من قوله تعالى ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أو بدل اشتمال، لأن الإسلام يشتمل على التوحيد، أو عطف عليه بحذف الواو. وقراءة الباقين بكسر الهمزة على الاستئناف، لتمام الكلام الذي قبله. وراجع/ حجة

القراءات لابن زنجلة ص ١٥٧ - ١٥٨، وكنز المعاني شرح حرز الأماني ٣٠٩.

(٥) في ظ [ولا تذكر].

(٥) في أ [وقرأ].

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةَ أَسْلَمْتُ فَإِنْ
أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾ أي خاصموك وجادلوك في الدين ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ أي أخلصت ديني لله. وقال الزجاج^(١): إن الله تعالى أمر نبيه أن يحتج على أهل الكتاب والمشركين بأنه اتبع أمر الله الذي هم أجمعون مقرون أنه خالفهم ورازقهم، فأراهم الآيات والدلالات بأنه رسوله، وقوله: «أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ» أي قصدت بعبادتي الله وأقررت بأنه لا إله غيره ﴿وَوَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ يعني أخلصت لله، والوجه زيادة، كما قال «كل شيء هالك إلا وجهه» يعني إلا هو ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ يعني أعطوا التوراة والإنجيل ﴿وَالْأُمِّيَّةَ﴾ يعني مشركي العرب ﴿أَسْلَمْتُ﴾ يعني أخلصتم بالتوحيد، ويقال اللفظ لفظ الاستفهام والمراد به الأمر فكأنه يقول: أَسْلَمُوا كما قال في آية أخرى «فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ» يعني انتهوا، وقال [في آية أخرى]^(٢) «أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ» أي توبوا [إلى الله]^(٣) ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ يعني^(٤) أخلصوا بالتوحيد [وأسلموا]^(٥) وصدقوا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وبالكتاب فقد اهتدوا من الضلالة ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ يقول: إن أبوا أن يُسلموا ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ بالرسالة ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ يعني بأعمالهم، ومعناه: ليس عليك من عملهم شيء، وإنما عليك التبليغ، وقد فعلت ما أمرت به.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ
بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَالُهُمْ مِّن نَّصِيرٍ ﴿٢٢﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني يجحدون بالقرآن وبمحمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ يعني يتولون آباءهم بالقتل ويرضون بذلك. قرأ حمزة «يقاتلون» بآلف من المقاتلة، والباقون بغير ألف^(٦) وقرأ نافع «النبيين» بالهمزة، وقرأ الباقون بغير همز ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾^(٧) يعني بالعدل

(٣) في ظ [ثم قال].

(١) معاني القرآن وإعرابه ١/ ٣٩٠.

(٤) في ظ [يعني أن].

(٥) سقط في ظ.

(٦) راجع/ كنز المعاني شرح الأمانى ٣١١، ٣١٢، وحجة القراءات لابن زنجلة ١٥٨.

(٧) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ «آية ٢١». في هذه الآية عدة مسائل: - المسألة الأولى: -

دلت هذه الآية على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان واجباً في الأمم المتقدمة، وهو فائدة الرسالة وخلافة النبوة. قال الحسن: قال النبي - صلى الله عليه وسلم - «من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه».

وعن درة بنت أبي لهب قالت: جاء رجل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو على المنبر فقال: «من خير الناس يا رسول الله؟» قال: أمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم الله وأوصلهم».

وفي التنزيل: «والمناقضون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف» ثم قال: «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر». فجعل تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرقاً بين المؤمنين =

= والمتافقين، فدل على أن أخص أوصاف المؤمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورأسها الدعاء إلى الإسلام والقتال عليه. ثم إن الأمر بالمعروف لا يليق بكل أحد، وإنما يقوم به السلطان إذا كانت إقامة الحدود إليه والتعزير إلى رأيه والحبس والإطلاق له والنفي والتغريب، فينصب في كل بلدة رجلاً صالحاً قوياً عالماً أميناً ويأمره بذلك، ويمضي الحدود على وجهها من غير زيادة قال الله تعالى ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾.

المسألة الثانية: -

وليس من شرط الناهي أن يكون عدلاً عند أهل السنة، خلافاً للمبتدعة حيث تقول: لا يغيره إلا عدل. وهذا ساقط، فإن العدالة محصورة في القليل من الخلف، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عام في جميع الناس، فإن تشبثوا بقوله تعالى: ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم﴾ وقوله: ﴿كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ ونحوه، قيل لهم إنما وقع الذم ها هنا على ارتكابه ما نهى عنه لا على النهي عن المنكر. ولا شك في أن النهي عنه ممن يأتيه أقبح ممن لا يأتيه، ولذلك يدور في جهنم كما يدور الحمار بالرّحى.

المسألة الثالثة: -

أجمع المسلمون فيما ذكر ابن عبد البر أن المنكر واجب تغييره على كل من قدر عليه، وأنه إذا لم يلحقه بتغييره إلا اللوم الذي لا يتعدى إلى الأذى فإن ذلك لا ينبغي أن يمنعه من تغييره، فإن لم يقدر فبلسانه، فإن لم يقدر فبقلبه ليس عليه أكثر من ذلك. وإذا أنكر بقلبه فقد أدى ما عليه إذا لم يستطع سوى ذلك. قال: والأحاديث عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في تأكيد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة جداً ولكنها مقيدة بالاستطاعة، قال الحسن: إنما يكلم مؤمن يُرَجَى أو جاهل يعلم، فأما من وضع سيفه أو سوطه فقال أئقني أئقني فما لك وله، وقال ابن مسعود: بحسب المرء إذا رأى منكراً لا يستطيع تغييره أن يعلم الله من قلبه أنه له كاره. وروى ابن لهيعة عن الأعرج عن أبي هريرة قال قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «لا يحل لمؤمن أن يذل نفسه» قالوا: يا رسول الله وما إذلاله نفسه؟ قال «يتعرض من البلاء لما لا يقوم له». قلت: وأخرجه ابن ماجه عن علي بن زيد بن جدعان عن الحسن بن جندب عن حذيفة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وكلاهما قد تكلم فيه. وروى عن بعض الصحابة أنه قال: إن الرجل إذا رأى منكراً لا يستطيع التكثير عليه فليقل ثلاث مرات «اللهم إنَّ هَذَا مُنْكَرٌ» فإذا قال ذلك فقد فعل ما عليه، وزعم ابن العربي أن من رجا زواله وخاف على نفسه من تغييره الضرب أو القتل جاز له عند أكثر العلماء الاقتحام عند هذا الغرر، وإن لم يرج زواله فأى فائدة عنده. قال: والذي عندي أن النية إذا حصلت فليقتحم كيف ما كان ولا يبال. قلت: هذا خلاف ما ذكره أبو عمر من الإجماع. وهذه الآية تدل على جواز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع خوف القتل. وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ وهذا إشارة إلى الإذابة.

المسألة الرابعة: -

روى الأئمة عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان». قال العلماء: الأمر بالمعروف باليد على الأمراء، وباللسان على العلماء، وبالقلب على الضعفاء. يعني عوام الناس. فالمنكر إذا أمكنت إزالته باللسان للناهي فليفعله، وإن لم يمكنه إلا بالعقوبة أو القتل فليفعل، فإن زال بدون القتل لم يجز القتل. وهذا تلقى من قول الله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا الَّذِينَ تَبَغُّوا حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾.

وعليه بنى العلماء أنه إذا دفع الصائل على النفس أو على المال عن نفسه، أو عن ماله أو نفس غيره فله ذلك ولا شيء عليه. ولو رأى زيد عمراً وقد قصد مال بكر فيجب أن يدفعه عنه إذا لم يكن صاحب المال قادراً عليه ولا راضياً به، حتى لقد قيل: كل بلدة يكون فيها أربعة فأهلها معصومون من البلاء: إمام عادل لا يظلم، وعالم على سبيل الهدى، ومشايخ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويحرسون على طلب العلم والقرآن، ونساؤهم مستورات لا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى.

المسألة الخامسة: -

روى أنس بن مالك قال قيل: يا رسول الله، متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قال: «إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلكم». قلنا: يا رسول الله وما ظهر في الأمم قبلنا؟ قال: الملك في صغاركم والفاحشة في كباركم والعلم في رذالتكم».

وهم مؤمنو بني إسرائيل، يأمرونهم بالمعروف، فكانوا يقتلونهم، فعيرهم الله بذلك، [وأوعدهم] ^(١) النار، فقال: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي وجيع، ويقال: أليم يعني مؤلم. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ يعني بطل ثواب حسناتهم فلا ثواب لهم ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ يعني مانعين يمنعونهم من النار.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمْسَسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ يعني أعطوا حظاً من علم التوراة. قال مقاتل: نزلت في كعب بن الأشرف وجماعة منهم حين قالوا نحن أفدى سبيلاً، وما بعث الله رسولاً بعد موسى - عليه السلام - فقال لهم النبي - صلى الله عليه وسلم - أنتم تعلمون أن الذي أقول لكم حق فأخرجوا التوراة فأبوا، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾، ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ. وقال الكلبي: نزلت في يهوديين من أهل خير زنيا، وكان الحكم في كتابهم الرجم فاختصموا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ففضى عليهما بالرجم، فقالوا: ليس هذا [بحكم] ^(٢) الله، فدعا بالتوراة ودعا بابن صوريا، وكان يسكن فدك ^(٣)، وكان أعور، فحلّفه بالله فأقر بالقصة، [فأنزل الله تعالى] ^(٤) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ [يدعون إلى كتاب الله] ^(٥) الآية. ثم قال: «ذلك أي ذلك الجزاء، قال مقاتل فيها تقديم وتأخير، ومعناه: فبشرهم بعذاب أليم ﴿ذلك﴾ بأنهم» [قالوا لن تمسنا النار] ويقال: إنما جزاؤهم خلاف الكتاب، لأنهم] ^(٦) قالوا لن تمسنا النار ﴿إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ يعني أربعين يوماً على عدد أيام عبادة العجل ويقال على عدد أيام الدنيا، ويقال: إن مذهبهم كان مذهب جهنم، لأنهم لا يرون الخلود في النار. ﴿وَوَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ﴾ غفوا الله عنهم بتأخير العذاب ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي يكذبون على الله، وهو قولهم: نحن أبناء الله وأجباؤه، فذلك قولهم الذي غرهم.

فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

ثم خوفهم فقال تعالى ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ﴾ فقال ^(٧): فكيف يصنعون وكيف يحتالون إذا جمعناهم ﴿لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ يعني يوم القيامة لا شك فيه عند المؤمنين بأنه كائن: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي وفيت وأعطيت كل نفس ثواب ما عملت ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا ينقصون من ثواب أعمالهم [شيء] ^(٨).

= قال زيد: تفسير معنى قول النبي - صلى الله عليه وسلم - «والعلم في رذالتكم» إذا كان العلم في الفساق. أخرجه ابن ماجه.

تفسير القرطبي ٣١/٤ وما بعدها.

(١) في ظ [وأوعدهم]. (٢) في ظ [حكم].

(٣) فدك بالتحريك قرية بالحجاز فيها عين فوارة ونخل مراصد الأطلاق ١٠٢٠/٣.

(٦) ما بين المعقوفين من أ.

(٤) سقط في أ. (٥) سقط في ظ.

(٧) زيادة من ظ. (٨) «زيادة من ظ.

قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾. قال ابن عباس في رواية أبي صالح نزلت في شأن المنافقين، وذلك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما فتح مكة، قال عبد الله بن أبي [رأس] ^(١) [المنافقين: [إن محمداً] ^(٢) يتمنى أن ينال ملك فارس والروم وأننى له ذلك؟ فنزلت هذه الآية. وقال بعضهم: سأل النبي - صلى الله عليه وسلم - ربه أن يجعل له ملك فارس والروم في أمته، فعلمه الله بأن يدعو بهذا الدعاء، وهو قول مقاتل. وقال بعضهم: أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما أمر بحفر الخندق فظهر في الخندق صخرة عجزوا عن حفرها، فأخذ النبي - صلى الله عليه وسلم - المعول، وضرب ضربة فظهر من تلك الصخرة نور، فقال له سلمان، رأيت شيئاً عجيباً، فقال له النبي: هل رأيت ذلك؟ قال: نعم: فقال: رأيت في ذلك النور قصور أهل الشام. ثم ضرب ضربة أخرى فظهر أيضاً كذلك. فقال: رأيت قصور أهل فارس، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «سيظهر لأمتي ملك الشام، وملك فارس، فقال المنافقون: إن محمداً لا يأمن على نفسه واضطر إلى حفر الخندق، فكيف يتمنى ملك الشام وفارس فنزلت هذه الآية. وقال بعضهم: إن مشركي مكة قالوا: إن فارس والروم يبيتان في الحرير والديباج، فلو كان هو نبياً، كيف ينال على الحصار؟ فنزلت هذه الآية. «قل اللهم مالك الملك ﴿تؤتي الملك من تشاء﴾ وأصل اللهم في اللغة: ^(٣) يا الله أمانا بخير أي أقصدا بالرحمة، ولكن لما كثر استعمال هذا اللفظ في الناس، صارت الكلمتان [ككلمة] ^(٤) واحدة [فقال]: ^(٥) اللهم، يعني: اللهم يا مالك الملك تؤتي الملك من تشاء يعني تؤتي محمداً - صلى الله عليه وسلم - ومن تبعه: ﴿وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ من فارس والروم ﴿وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ﴾ يعني أهل الإسلام ﴿وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ يعني أهل الشرك والظغيان، ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ يعني النصر والغنيمة والعز، ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من الذل والعز. وقال الضحاك: «تؤتي الملك من تشاء» يعني الإسلام «وتعز من تشاء» بالإسلام، «وتذل من تشاء» بالشرك، «بإيدك الخير»، يعني الهداية والسعادة، «إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» وقال الزُّجَّاج: ^(٦) «تؤتي الملك من تشاء» معناه، تولي الملك من تشاء أن تؤتيه وتنزع الملك ممن تشاء أن تنزعه، إلا أنه حذف «الهاء» لأن في الكلام دليلاً عليه قال مقاتل: وقد قيل في الملك قولان: أحدهما هو المال والعبيد، والآخر من جهة الغلبة بالدين. ثم قال تعالى: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ يعني ما نقص من الليل دخل في النهار حتى يبلغ خمسة عشر ساعة، وهو أطول ما يكون، والليل تسع ساعات وهو أقصر ما يكون ﴿وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ يعني أن ما نقص من النهار دخل في الليل حتى يصير الليل خمس عشرة ساعة والنهار تسع ساعات، وهو قول الكلبي، ويقال: «تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ» أي تذهب بالليل وتجيء بالنهار وتذهب بالنهار وتجيء بالليل، هكذا إلى أن تقوم الساعة، ثم قال: ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ﴾. فقرأ نافع وحزمة والكسائي وعاصم في رواية حفص «الْمَمِيتَ» بالتشديد [و] ^(٧) الباقون الْمَمِيتَ بالتخفيف، وهما لغتان ومعناهما واحد ^(٨). قال الكلبي: يعني تخرج

(١) في أ [رئيس]. (٢) في أ [محمداً]. (٣) راجع اللسان: أله.

(٤) في أ [فقالوا]. (٥) معاني القرآن وإعرابه ٣٩٤/١. (٦) في ظ [وقرأ].

(٨) ولا فرق بين التشديد والتخفيف في الاستعمال كما تقول لين ولين، هين وهين. قال أبو حيان: ومن زعم أن المخفف لما قد مات، =

البيضة وهي ميتة من الطير وهو حي وتخرج الطير الحي من البيضة الميتة، وتخرج النطفة وهي ميتة من الإنسان الحي وتخرج الإنسان الحي من النطفة الميتة وتخرج الحبة من السنبلة [إلى آخره]^(١) وقال الحسن البصري: يخرج المؤمن من الكافر، ويخرج الكافر من المؤمن^(٢). ويقال: يخرج الجاهل من العالم، ويخرج العالم من الجاهل وروى معمر عن الزهري أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دخل على بعض نساءه فإذا بامرأة حسنة الهيئة، فقال من هذه؟ قالوا: إحدى خالاتك قال: ومن هي؟ قالوا: هي خالدة بنت الأسود بن عبد يغوث^(٣). فقال: رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : سبحان الذي يخرج الحي من الميت وكانت امرأة سالحة، وكان أبوها كافراً^(٤). ثم قال تعالى: ﴿وَتَرْزُقْ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يعني من غير أن تحاسب في الإعطاء فكأنه يقول: ليس فوقه من يحاسبه في الإعطاء، كما قال تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ، وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ ويقال من غير أن يحاسبه في الإعطاء. ويقال: بغير تقدير، ويقال: بغير حساب. كما قال: «ويرزقه من حيث لا يحتسب».

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتَ وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾

ثم قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ قال ابن عباس في رواية أبي صالح: نزلت في شأن المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه من أهل النفاق، [وكانوا قد]^(٥) أظهروا^(٦) الإيمان وكانوا [يتولون]^(٧) اليهود في العون والنصرة، ويأتونهم بالأخبار، ويرجون أن يكون لهم ظفر على محمد - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه. وقال مقاتل: نزلت في شأن حاطب بن أبي بلتعة^(٨) وغيره ممن كانوا يظهرون المودة لكفار مكة، فنهاهم الله تعالى عن ذلك فقال: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ فهذا نهى بلفظ المغايبة، يعني لا يتخذونهم أولياء في العون والنصرة ﴿مَنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ يعني ليس في ولاية الله من شيء، ويقال: ليس في دين الله من شيء، لأن ولي الكافر يكون راضياً بكفره، ومن كان راضياً بكفره فهو كافر مثله كقوله

= والمشدد لما قد مات ولما لم يمت فيحتاج إلى دليل. (البحر المحيط ٤٢١/٢).

وقد جاء الاستعمالان في قول الشاعر:

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

وانظر/ حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٥٩، كتر المعاني في شرح حرز الأمان ص ٣١٠، ٣١١.

(١) سقط في ظ.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ٣٠٦/٦ (٦٨١٥) ولفظه «المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن، والمؤمن عبد حي الفؤاد، والكافر عبد ميت الفؤاد» وأخرجه أيضاً بلفظ المصنف رقم (٦٨١٦) عن الحسن بن يحيى وعن الحسن البصري أيضاً رقم (١٨١٩) وذكر أبو عبيدة نحوه في مجاز القرآن ٩٠/١.

(٣) خالدة بنت الأسود بن عبد يغوث بن وهب القرشية الزهرية كانت امرأة سالحة من المهاجرات. الإصابة ٥٨/٨.

(٤) أخرجه ابن جرير في التفسير ٣٠٨/٦ (٦٨٢١) وأخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ١٨١/٨ وذكر طرقه الحافظ ابن حجر في الإصابة، في ترجمة خالدة بنت الأسود.

(٥) في ظ [وقد]. (٦) في ظ [الإسلام والإيمان]. (٧) في أ [يلوا].

(٨) حاطب بن أبي بلتعة بن عمرو بن عمير بن سلمة بن صعب اللخمي حليف بني أسد بن عبد العزي مات سنة ثلاثين في خلافة عثمان وله خمس وستون سنة. الإصابة ٣١٤/١.

تعالى: «وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ» ثم استثنى لما علم أن بعض المسلمين ربما [يَتَوَلَّوْنَ] ^(١) في أيدي الكفار فقال تعالى: «إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً» ^(٢).

(١) في ظ [يتولون].

(٢) «لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء».

قال القاسم في تفسيره لهذه الآية: (٤/ ٨٢٣ وما بعدها).

تنبيه: قال بعض مفسري الزيدية: ثمرة الآية الكريمة تحريم موالاة الكفار، لأن الله تعالى نهى عنها بقوله «ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء» ثم استثنى تعالى (التقية) فرخص في موالاتهم لأجلها. فتجوز معايشة ظاهرة، والقلب مطمئن بالعداوة لهم والبغضاء وانتظار زوال المانع. وقد قال الحاكم: في الآية دلالة على جواز إظهار تعظيم الظلمة، اتقاء لشركهم. قال: وإنما يحسن بالمعاريض التي ليست بكذب. وقال الصادق: التقية واجبة، وإنني لأسمع الرجل في المسجد يشتمني فاستتر عنه بالسارية لثلاث يراني. وعن الحسن: تقية باللسان، والقلب مطمئن بالإيمان.

واعلم أن الموالاة التي هي المباينة والمشاورة وإفضاء الأسرار للكفار، لا تجوز. فإن قيل قد جوز كثير من العلماء نكاح الكافرة، وفي ذلك من الخلطة والمباينة بالمرأة ما ليس بخاف فجواب ذلك أن المراد موالاتهم في أمر الدين وفيما فيه تعظيم له. فإن قيل في سبب نزول الآية أنه - صلى الله عليه وسلم - منع «عبادة بن الصامت» عن الاستعانة باليهود على قريش، وقد حالف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على حرب قريش، وفي هذا دلالة على جواز الاستعانة بهم، وقد ذكر الراضي بالله أنه يجوز الاستعانة بالفاسق على حرب المبطلين، قال وقد حالف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اليهود على حرب قريش وغيرها إلى أن نقضوه يوم الأحزاب، وعقد - صلى الله عليه وسلم - حلفاً بينه وبين خزاعة. قال الراضي بالله: وهو ظاهر عن آبائنا عليهم السلام، وقد استعان علي عليه السلام بقتلة عثمان، ولعل الجواب - والله أعلم - إن الاستعانة جائزة مع الحاجة إليها ويحمل على هذا استعانة الرسول - صلى الله عليه وسلم - باليهود. وممنوعة مع عدم الحاجة، أو خشية مضرة منه. وعليه يحمل حديث عبادة بن الصامت. فصارت الموالاة المحظورة تكون بالمعاداة بالقلب للمؤمنين والمودة للكفار للكفار على كفرهم. ولا لبس في تحريم ذلك ولا يدخله استثناء الموالاة بإظهار التعظيم وحسن المخاللة والمصادقة بإظهار الأسرار ونحو ذلك، فيما لا يضر المسلمين، فظاهر كلام الزمخشري أنه لا يجوز إلا للتقية. فحصل من هذا أن الموالي للكافر والفاسق عاص، ولكن أين تبلغ معصيته؟ يحتاج إلى تفصيل: إن كانت الموالاة بمعنى الموادة، وهي أن يوده لمعصيته كان ذلك كالرضا بالمعصية. وإن كانت الموالاة كفرًا. كفر. وإن كانت فسقًا. فسق. وإن كانت لا توجب كفرًا ولا فسقًا، لم يكفر ولم يفسق. وإن كانت الموالاة بمعنى المحالفة والمناصرة، فإن كانت محالفة على أمر مباح أو واجب، كان يدفع المؤمنون عن أهل الذمة من يتعرض لهم ويحالفونهم على ذلك، فهذا لا حرج فيه بل هو واجب وإن كانت على أمر محظور كان يحالفونهم على أخذ أموال المسلمين والتحكم عليه، فهذه معصية بلا إشكال، وكذلك إذا كانت بمعنى أن يظهر سر المسلمين ويحب سلامة الكافرين لا لكفرهم بل ليدلهم عليه أو لقرابة أو نحو ذلك، فهذه معصية بلا إشكال. لكن لا تبلغ حدها الكفر لأنه لم يرد أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حكم بكفر «حاطب بن أبي بلتعة» رغم أنه أرسل لقريش يطلعها على سر من أسرار الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلا أن الله عز وجل أطلعها عليه الصلاة والسلام على ذلك قبل أن تصل رسالة «حاطب» للقرشيين وقال الراضي بالله: إن مناصرة الكفار على المسلمين توجب الكفر. لأنه - صلى الله عليه وسلم - قال للعباس: ظاهرنا علينا. وقد اعتذر بأنه خرج مكرها. وأما مجرد الإحسان إلى الكافر فجائز لا ليستعين به على المسلمين، ولا لاناسه، وكذلك أن يضيق لضيقة في قضية معينة لأمر مباح فجائز، كما كان من ضيق المسلمين من غلب فارس الروم. فصارت تحقيق المذهب أن الذي يوجب الكفر من الموالاة أن يحصل من الموالي الرضا بالكفر. والذي يوجب الفسق أن يحصل الرضا بالفسق. إن قيل فما حكم من يجند مع الظلمة ليستعينوا به حتى على الجبايات وأنواع الظلم؟ قلنا: عاص بلا إشكال، وفاسق بلا إشكال لأنه صار من جملتهم. وفسقهم معلوم.

فإن قيل: فإن تجند معهم لحرب إمام المسلمين؟ قلنا: صار باغياً، وحصل فسقه من جهة البغي والظلم.

ومن هذه الآية استنبط الأئمة مشروعية التقية عند الخوف، وقد نقل الإجماع على جوازها عند ذلك الإمام مرتضى اليماني في كتابه (إيضاح الحق على الخلق).

قرأ يعقوب الحضرمي «تقية [وقراءة]»^(١) العامة «تقاة» ومعناها واحد ، يعني يرضيهم بلسانه وقلبه مطمئن الإيمان [فلا إثم عليه كما قال الله تعالى في آية أخرى: «إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان»]^(٢) قرأ حمزة والكسائي «تَقَاةً» بالإمالة ، وقرأ الباقر بتفخيم الألف^(٣) ، ثم قال : ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ يعني يخوفكم الله بعقوبته ، أي الذي يتخذ الكافر ولياً بغير ضرورة، وهذا وعيد لهم ويقال : إذا كان الوعيد مبهماً فهو أشد ، ثم قال تعالى : ﴿وَالِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي مرجعكم في الآخرة فيجازيكم بأعمالكم .

قُلْ إِنْ تَخْشَوْنَ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُوهُ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَاعَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَاعَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٥٠﴾

﴿قُلْ إِنْ تَخْشَوْنَ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ يقول : إن تسروا ما في قلوبكم من النكوث وولاية الكفار ﴿أَوْ تَبْذَرُوهُ﴾ يعني

= وقال الإمام الفخر الرازي في (١٤/٨) :

اعلم أن للتقية أحكاماً كثيرة ونحن نذكر بعضها :

الحكم الأول : أن التقية إنما تكون إذا كان الرجل في قوم كفار ، ويخاف منهم على نفسه وماله فيداريهم باللسان . وذلك بأن لا يظهر العداوة باللسان ، بل يجوز أيضاً أن يظهر الكلام الموهوم للمحبة والموالة ، ولكن بشرط أن يضرر خلافه ، وأن يعرض في كل ما يقول ، فإن التقية تأثيرها في الظاهر لا في أحوال القلوب .

الحكم الثاني للتقية : هو أنه لو أفصح بالإيمان والحق حيث يجوز له التقية كان ذلك أفضل ودليله ما قاله الحسن : من أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال لأحدهما : أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال : نعم نعم نعم فقال : أتشهد أني رسول الله؟ قال : نعم . وكان مسيلمة يزعم أن رسول بني حنيفة ومحمد رسول قريش ، فتركه ودعا الآخر فقال أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال : نعم قال : أتشهد أني رسول الله؟ فقال : إني أصم ثلاثاً ، فقدمه وقتله فبلغ ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : أما هذا المقتول فمضى على يقينه وصدقه فنهياً له وأما الآخر فقبل رخصة الله فلا تبعة عليه .

الحكم الثالث للتقية : أنها إنما تجوز فيما يتعلق بإظهار الموالة والمعادة ، وقد تجوز أيضاً فيما يتعلق بإظهار الدين ، فأما ما يرجع ضرره إلى الغير كالقتل والزنا وغصب الأموال والشهادة بالزور وقذف المحصنات وإطلاع الكفار على عورات المسلمين ، فذلك غير جائز البتة .

الحكم الرابع : ظاهر الآية يدل على أن التقية إنما تحل مع الكفار الغالبيين إلا أن مذهب الشافعي رضي الله عنه أن الحالة إذا شاكلت بين المسلمين والمشركين حلت التقية محاماة على النفس .

الحكم الخامس : التقية جائزة لصون النفس ، وهي جائزة لصون المال يحتمل أن يحكم فيها بالجواز . لقوله - صلى الله عليه وسلم - «حرمة مال المسلم كحرمة دمه» .

ولقوله - صلى الله عليه وسلم - «من قتل دون ماله فهو شهيد» ولأن الحاجة إلى المال شديدة والماء إذا بيع بالغبن سقط فرض الرضوء . وجاز الاقتصاص على التيمم دفعاً لذلك القدر من نقصان المال ، فكيف لا يجوز ههنا والله أعلم .

الحكم السادس : قال مجاهد : هذا الحكم كان ثابتاً في أول الإسلام لأجل ضعف المؤمنين فأما بعد قوة دولة الإسلام فلا . وروى عوف عن الحسن : أنه قال : التقية جائزة للمؤمنين إلى يوم القيامة ، وهذا القول أولى ، لأن دفع الضرر عن النفس واجب بقدر الإمكان .

(١) في أ [وقرأ] . (٢) زيادة من ظ .

(٣) أي بغير إمالة . وحجة حمزة والكسائي أن (فعلت) منها بالياء إذا قلت (وقيت) فأبقيا في لام الفعل دلالة على أصله في (فعلت) وهي الإمالة . وحجة الباقر أن فتحة القاف تغلب على الألف فتمنعها من الإمالة . حجة القراءات لابن زنجلة ١٥٩ .

تعلنوه للمؤمنين: ﴿يَعْلَمَهُ اللَّهُ﴾ لأن الله عليم ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من عمل، فليس يخفى عليه شيء ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من السر والعلانية والعذاب والمغفرة «قد». ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ فِي الدُّنْيَا مَنَ خَيْرٍ مَّحْضَرًا﴾ يعني تجد ثوابه حاضراً، ولا ينقص من ثواب عمله شيء ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾ يعني من شر في الدنيا ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ يعني تتمنى النفس أن تكون بينها وبين ذلك العمل أجلاً بعيداً، كما بين المشرق والمغرب، ولم تعمل ذلك العمل قط، ثم قال ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أي عقوبته في عمل السوء ﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ قال ابن عباس: يعني بالمؤمنين خاصة وهو رحيم بهم ويقال: رؤوف بالذين يعملون السوء حيث لم يعجل بعقوبتهم. ويقال: ذكر في أول هذه الآية عدله عز وجل في قوله: «يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً». وفي وسطها تخويف وتهديد، وهو قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ وفي آخرها ذكر رأفته ورحمته. وهو قوله ﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾

ثم قال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ وذلك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دعا كعب بن الأشرف وأصحابه إلى الإسلام، قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، يعني نحن في المنزلة بمنزلة الأبناء، ولنحن أشد حبا لله، فقال الله لنبيه: «قل: إن كنتم تحبون الله تعالى ﴿فاتبعوني﴾ على ديني، فإني رسول الله أؤدي رسالته ﴿يحببكم الله﴾ قال الزجاج: تحبون الله، أي تقصدون طاعته، فافعلوا ما أمركم الله عز وجل، لأن محبة الإنسان لله وللرسول، طاعته له ورضاه بما أمر، والمحبة من الله عفوه عنهم وإنعامه عليهم برحمته ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ويقال: الحب من الله عصمته وتوفيقه والحب من العباد طاعة، كما قال القائل (١):

تَعْصِي الْإِلَهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ هَذَا لَعَمْرِي فِي [الْقِيَّاسِ] (٢) بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعٌ

فلما نزلت هذه الآية قالوا: إن محمداً يريد أن نتخذه حناناً، كما اتخذت النصارى عيسى حناناً فنزلت هذه الآية ﴿قل أطيعوا الله والرسول﴾ ففرق طاعته بطاعة رسوله رغماً لهم ويقال: أطيعوا الله فيما أنزل، والرسول فيما بين، ﴿فإن تولوا﴾ يعني إن عرضوا عن طاعتهما، ﴿فإن الله لا يحب الكافرين﴾ أي لا يغفر لهم.

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ يعني اختاره، ويقال اختار دينه، وهو دين الإسلام، ويقال: قد اختاره لخمس أشياء: أولها: أنه خلقه بأحسن صورة بقدرته، والثاني: أنه علمه الأسماء كلها، والثالث: أنه أمر الملائكة أن يسجدوا له والرابع: أسكنه الجنة، والخامس: جعله [أباً للبشر] (٣). واختار نوحاً عليه السلام بخمس أشياء: أولها: أنه جعله [أباً للبشر] (٤) لأن الناس كلهم غرقوا. فصارت ذريته هم الباقين، والثاني: أنه أطال عمره،

(١) القائل: هو الإمام الشافعي رضي الله عنه. والبيتان في ديوانه ص ٥٨.

(٤) في ظ [اب البشر].

(٣) في ظ [اب البشر].

(٢) في ظ [الفعال].

ويقال: طُوبَى لِمَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ، والثالث أنه استجاب دعاءه على الكفار والمؤمنين والرابع: أنه حملة على السفينة، والخامس: أنه كان أول من نسخ الشرائع، وكان قبل ذلك لم يحرم [تزوج] ^(١) الخالات والأخوات والعمات. واختار (آل) إبراهيم ^(٢) - عليه السلام - بخمسة أشياء: أولها: أنه جعله أبا الأنبياء، لأنه روي أنه خرج من [صلبه] ^(٣) ألف نبي من زمانه إلى [زمان] ^(٤) النبي - صلى الله عليه وسلم -، والثاني: أنه اتخذ خليلاً، والثالث: أنه أنجاه من النار، والرابع: أنه جعله للناس إماماً، والخامس: أنه ابتلاه [الله بخمس كلمات] ^(٥) بكلمات فوفقه حتى أتمهن. ثم قال: ﴿وَأَلْ عِمْرَانُ﴾ قال مقاتل: يعني به [أبا] ^(٦) موسى وهارون وقال الكلبي: هو عمران أبو مريم، وهو من ولد سليمان النبي - عليه السلام - «فإنه أراد به آل موسى وهارون، إنما كان اختارهما «على العالمين» حيث بعثا على قومه المن والسلوى، ولم يكن ذلك لأحد من الأنبياء في العالم، وإن أراد به أبا مريم، فإنه اصطفى آله يعني مريم بولادة عيسى - عليه السلام - بغير أب، ولم يكن ذلك لأحد في العالم» ^(٧). وقال الكلبي: يعني اختار هؤلاء الذين ذكروا في هذه الآية ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، يعني عالمي زمانهم.

ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُمُ إِنِّي لِلَّهِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

ثم قال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ أي بعضهم على إثر بعض، ويقال بعضهم على دين بعض. ﴿والله سميع﴾ لقولهم «عليم»، بهم وبدينهم، ويقال قوله: «والله سميع عليم» انصرف إلى ما بعده، أي سميع بقول امرأة عمران. ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ﴾ وهي حنة أم مريم امرأة عمران بن ماثان وذلك أنها لما حبلت، قالت: لئن نجاحي الله، ووضعت ما في بطني لأجعلنه محرراً، والمحرر من لا يعمل للدنيا، ولا يتزوج، ويتفرغ لعمل الآخرة ويلزم المحراب، فيعبد الله تعالى فيه، وهذا قول مقاتل. وقال الكلبي: محرراً أي خادماً لبيت المقدس، ولم يكن محرراً إلا الغلمان، فقال لها زوجها: إن كان الذي في بطنك أنثى، والأنثى عورة فكيف تصنعين؟ فاهتمت بذلك وقالت: يا رب إني نذرت لك ﴿وأنت تعلم﴾ ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم ﴿[السميع لدعائي العليم] ^(٨) بنيتي وما في بطني. ﴿فلما وضعتها﴾ أي ولدت فإذا هي أنثى ﴿قالت: رب إني وضعتها أنثى﴾ [يعني ولدتها] ^(٩) جارية ﴿والله أعلم بما وضعت﴾. قرأ ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر «والله أعلم بما وضعت» بجزم العين وضم التاء، يعني أن المرأة قالت: والله أعلم بما وضعت، والباقون بنصب العين وسكون التاء، فيكون هذا

(٣) في أ [ذريته].

(٢) سقط في ظ.

(١) في ظ [تزوج].

(٦) في ظ [أب].

(٥) سقط في ظ.

(٤) في أ [زمن].

(٧) ذكر ذلك القرطبي [٦٤/٤].

(٨) في ظ [العليم لدعائي العليم]. (٩) في أ [أي وضعتها].

قول الله: إنه [يعلم] ^(١) بما وضعت تلك المرأة ^(٢). ثم قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ [في الخدمة] ^(٣) قال بعضهم هذا قول الله لمحمد - صلى الله عليه وسلم - وليس الذكر كالأنثى يا محمد. وقال بعضهم: هي كلمة المرأة: أنها قالت: وليس الذكر كالأنثى [في الخدمة، وقال مقاتل: فيها تقديم، فكانه يقول: قالت رب إني وَضَعْتُهَا أَنْثَى وليس الذكر كالأنثى] ^(٤) والله أعلم بما وضعت. ثم قالت: ﴿وَإِنِّي سَمِيتُهَا مَرْيَمَ﴾ يعني خادم الرب بلغتهم ﴿وَإِنِّي أُعِيدُهَا بَكَ﴾ يعني أعصمها وأمنعها بك: ﴿وَذَرِيَّتَهَا﴾ إن كان لها ذرية ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ يعني الملعون. ويقال: المطرود من رحمة الله، ويقال: الرجيم بمعنى المرجوم كما قال: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ حدثنا أبو الليث قال: حدثنا الخليل بن أحمد القاضي، قال: حدثنا أبو العباس، قال حدثنا إسحق بن إبراهيم، قال: حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: ما من مولود يولد إلا والشيطان ينخسه حين يولد فيستهل صارخاً من الشيطان، إلا مريم وابنها عيسى - عليهما السلام - قال أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّي أُعِيدُهَا بَكَ وَذَرِيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ ^(٥). وقال الزجاج ^(٦): معنى قوله: «إذ» يعني، إن الله اختار آل عمران، إذ قالت امرأة عمران: واصطفاهم إذ قالت الملائكة وقال أبو عبيدة ^(٧): معناه، قالت امرأة عمران، وقالت الملائكة و«إذ» زيادة وقال الأخفش: معناه، واذكر إذ قالت [امرأة عمران واذكر إذ قالت] ^(٨) الملائكة. [وقال أهل اللغة] ^(٩): المحرر والعتيق في اللغة بمعنى واحد] ^(١٠). ثم إن حنة لفثها في خرق، [ثم] ^(١١) وضعتها في بيت المقدس عند المحراب فاجتمعت القراء أي الزهاد فقال زكريا: أنا أحق بها، لأن خالتها عندي فقال القراء: إن هذه محررة، فلو تركت لخالتها، فكانت أمها أحق بها، ولكن نتساهم، فخرجوا إلى عين سلوان، فَأَلْقَوْا أَقْلَامَهُمْ فِي النَّهْرِ قال بعضهم: كانت أقلامهم من الشَّبَّة فغابت أقلامهم في الماء، وبقي قلم زكريا على وجه الماء. وقال بعضهم: كانت أقلامهم من قَصَب، فبقيت أقلامهم على وجه الماء وغاب قلم زكريا في الماء. وقال بعضهم: أَلْقَوْا أَقْلَامَهُمْ فِي النَّهْرِ، فسال الماء بأقلامهم إلا قلم زكريا، فإنه جرى من الجانب الأعلى، فعلموا أن الحق له فضئها إلى نفسه، فذلك قوله تعالى ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أي تقبل منها نذرهما ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ وقال مجاهد: غذاها غذاء حسناً، ورباها تربية حسنة. ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَا﴾ قرأ حمزة وعاصم والكسائي بالتشديد أي كفَّلها الله إلى زكريا، وقرأ الباقون بالتخفيف أي ضمها زكريا إلى نفسه ^(١٢)، وقرأ حمزة وعاصم والكسائي في رواية حفص: «زكريا» بغير إعراب وجزم الألف، وقرأ الباقون بالإعراب

(١) في أ [أعلم].

(٢) وحجة من قرأ بضم التاء: أنها قالت (رب إني وضعتها أنثى) كانت كأنها أخبرت الله بأمر هو أعلم به منها، فتداركت ذلك بقولها (والله أعلم بما وضعت) وأما الذين قرأوا بفتح العين وسكون التاء فحججهم: أنها «قالت رب إني وضعتها أنثى» فكيف تقول بعدها «والله أعلم بما وضعت» أنا. وحجة أخرى: لو كان كله كلامها لكانت: (رب إني وضعتها أنثى) وأنت أعلم بما وضعت. حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٦٠، ١٦١.

(٤) ما بين المعقوفين من ظ.

(٣) من ظ.

(٥) أخرجه البخاري ٤٦٩/٦ من كتاب الأنبياء باب قول الله تعالى «واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً» حديث (٣٤٣١) ومسلم ١٨٣٨/٤ في كتاب الفضائل باب فضائل عيسى عليه السلام (٢٣٦٦/١٤٦) (٢٣٦٦/١٤٧).

(٨) سقط من أ.

(٧) مجاز القرآن ٩٠/١.

(٦) معاني القرآن وإعرابه ٤٠٣/١.

(١١) من ظ.

(١٠) ما بين المعقوفين من أ.

(٩) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٩٠/١.

(١٢) وحجة القارئ بتشديد الفاء: أنه رعاية للمعطوف عليه (وكفَّلها) وحجة القارئ بالتخفيف إن الله قال (أيهم يكفل مريم) ولم يقل (يكفل). . . . انظر/ حجة القراءات لابن زنجلة ١٦١ وكنز المعاني شرح حرز الأماني ص ٣١١.

والمد، وهما لغتان معروفتان عند العرب فمن قرأ «كفلها» بالتشديد قرأ زكريا بنصب الألف لأنه يصير مفعولاً ومن قرأ «كفلها» بالتخفيف، قرأ زكريا برفع الألف على معنى الفاعل^(١). وذكر في الخبر أن زكريا بنى لها محراباً في غرفة، وجعل باب الغرفة في وسط الحائط، لا يصعد إليها إلا بسلم واستأجر لها ظئراً^(٢)، فكان يغلق عليها الباب، وكان لا يدخل عليها أحد إلا زكريا حتى كبرت، فإذا حاضت أخرجها إلى منزله فتكون عند خالتها وكانت خالتها امرأة زكريا^(٣)، وهذا قول الكلبي. وقال مقاتل: كانت أختها امرأة زكريا، وكانت إذا طهرت من حيضها واغتسلت ردها إلى المحراب. وقال بعضهم: كانت لا تحيض، وكانت مطهرة من الحيض. وكان زكريا إذا دخل عليها في أيام الشتاء، رأى عندها فاكهة الصيف، وإذا دخل عليها في أيام الصيف وجد عندها فاكهة الشتاء. وكانت الحكمة في ذلك أن لا يدخل في قلب زكريا شيء من الريبة إذا رأى الفاكهة في غير أوانها وعلم أنه لم يدخل عليها أحد من الادميين فذلك قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ ويقال: المحراب في اللغة أشرف المجالس، وهو المكان العالي^(٤). وقد قيل: إن مساجدهم كانت تسمى المحاريب، [فـ ﴿قال﴾ لها]^(٥) زكريا ﴿يا مريم أني لك هذا﴾ يعني من أين لك هذا، فإنه لا يدخل عليك أحد غيري، ﴿فقلت﴾ مريم ﴿هو﴾ أي هذا الرزق ﴿من عند الله﴾ أي من فضل الله ﴿إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ في غير حينه ويقال: من حيث لا يحتسب.

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾

﴿هنالك دعا زكريا ربه﴾ يقول: عند ذلك طمع في الولد، وكان آيساً من ذلك، وكان مفاتيح بيت القربان عند آبائه وقد صار ذلك بيده، وكان يخشى أن يخرج من أهل بيته إذا مات فقال عند ذلك: إن الله^(١) قادر على أن يأتيها برزق الشتاء في الصيف وبرزق الصيف في الشتاء، فهو قادر أن يرزق لي الولد بعد الكبر فذلك قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾، ﴿قَالَ: رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ﴾ أي من عندك ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أي من عندك تقية مهيبة، ويقال: مستوى الخلق، ويقال: مسلمة مطيعة، ويقال تقية ﴿إنك سميع الدعاء﴾ أي مجيب له.

فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يُفَعِّلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ، وَهُوَ قَائِمٌ يصلي في المحراب﴾ قرأ حمزة والكسائي بالياء: [أي جبريل]^(٧) - عليه السلام - وإنما صار مذكراً على معنى الجنس كما يقال: فلان ركب السفن، وإنما ركب سفينة واحدة، وقرأ الباقون

(١) انظر حجة القراءات ١٦١، ١٦٢، وكنز المعاني ٣١١.

(٢) الظئر: هي المرضعة غير ولدها (اللسان: ظار).

(٣) انظر الطبري ٣٤٩٥/٦.

(٤) المحراب: صدر البيت، وأكرم موضع فيه، وهو أيضاً الغرفة، وهو عند العامة: الذي يقيم فيه الناس اليوم مقام الإمام في المسجد.

والمحراب: القبلة، ومحاريب بني إسرائيل: مساجدهم التي كانوا يجلسون فيها. (اللسان: حرب).

(٧) في ظ [أي ناداه].

(٦) في أ [الذي].

(٥) في أ [فسألها].

«فنادته» على معنى التأنيث، لأن اللفظ لفظ الجماعة، والمراد به أيضاً جبريل^(١) «إِنَّ اللَّهَ يَبْشِرُكَ بِبَحْيٍ». قرأ حمزة وابن عامر «إِنَّ اللَّهَ يَبْشِرُكَ» بكسر الألف، ومعناه فنادته الملائكة وقالوا له إِنَّ اللَّهَ يَبْشِرُكَ وقرأ الباقون بالنصب ومعناه: فنادته الملائكة بأن الله يبشرك ببحي^(٢). قال مقاتل: اشتق اسمه من اسم الله تعالى والله تعالى حي فسماه الله تعالى يحيى، ويقال: لأنه أحيا [به]^(٣) رحم أمه. ويقال: لأنه حي به المجالس. [ويقال غير ذلك ببحي بأن الله يحييه فيكون حياً عند الله أبداً لأنه شهيد، قال الله تعالى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ﴾]^(٤). ثم قال تعالى: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ يعني بعيسى - عليه السلام - وكان يحيى أول من صدق بعيسى - عليهما السلام - وهو ابن ثلاث سنين فشهد له: أنه كلمة الله وروحه، فلما شهد بذلك يحيى عجب بنو إسرائيل لصغره فلما [شهد]^(٥) سمع زكريا شهادته، فقام إلى عيسى فضمه إليه وهو في خرقه، وكان يحيى أكبر من عيسى بثلاث سنين. وقال بعضهم: صدقه وهو في بطن أمه، كانت أم يحيى عند مريم إذ سجد يحيى بالتحية لعيسى، وكل واحد منهما كان في بطن أمه^(٦) وذلك قوله: مصدقاً بكلمة من الله ﴿وسيداً﴾ يعني حكيماً ﴿وحصوراً﴾^(٧) يعني لا يأتي النساء وهو قول الكلبي. وقال سعيد بن جبير: السيد الذي يملك غضبه، والحضور الذي لا يأتي النساء، وقال مقاتل: يعني لا ماء له، يعني أن: يحيى لم يكن له ماء في الصلب، وقال بعضهم: هذا لا يصح، لأن العنة عيب بالرجال والنبي. لا يكون معيباً، ولكن معناه، أنه كان مانعاً نفسه من الشهوات، لأن الذي يمنع [نفسه]^(٨) من الشهوات مع قدرته، كانت فضيلته أكثر من الذي لا قدرة له^(٩). ثم قال تعالى: ﴿ونبياً من

(١) راجع حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٦٢، كنز المعاني ص ٣١٢.

(٢) راجع حجة القراءات ١٦٢، ١٦٣، كنز المعاني ص ٣١٣.

(٣) في ظ [ربه في]. (٤) زيادة من ظ. (٥) سقط في ظ.

(٦) اعترض بأن هذا إنما يتم لو كان دعاء زكريا عليه السلام زمن طفولته مريم قبل العشر أو الثلاث عشرة، وليس في الآية سوى ما يشعر بأن زكريا عليه السلام لما تكرر منه الدخول على مريم ومشاهدته الرزق لديها وسؤاله وسماعه منها ذلك الجواب إشتاق إلى الولد فدعا بما دعا، وهذا الدعاء كما يمكن أن يكون في مباديء الأمر يمكن أن يكون في أواخره قبيل حمل مريم، وكونه في الأواخر غير بعيد لما أن الرغبة حيثئذ أوفر حيث شاهد عليه السلام دوام الأمر وثباته زمن الطفولة وبعدها، وهذا قلما يوجد في الأطفال إذ الكثير منهم قد يلقي الله تعالى على لسانه في صغره ما قد يكون عنه بمراحل في كبره فليس عندنا ما يدل صريحاً على أن بين الولادة والتبشير مدة مديدة ولا بين الدعاء والتبشير أيضاً، نعم عندنا ما يدل على أن يحيى أكبر من عيسى عليهما السلام وهو ما اتفق عليه المسلمون وغيرهم ففي إنجيل متى ما يصرح بأنه ولد قبله وقتله هيردوس قبل رفعه وأنه عمد المسيح والله تعالى أعلم بحقيقة الحال. انظر روح المعاني للألوس ١٤٧/٣.

(٧) قال أبو عبيدة: الحضور: له غير موضع، والأصل واحد، وهو الذي لا يأتي النساء، والذي لا يولد له، والذي يكون مع الندامى فلا يخرج شيئاً. والحضور أيضاً: الذي لا يخرج سراً أبداً. مجاز القرآن ٩٢/١.

(٨) سقط في ظ.

(٩) وهذا هو المختار عند أكثر المفسرين لأن الأنبياء لا نقيصة ولا عيب فيهم وعدم القدرة على النكاح وكذلك عدم وجود ماء الصلب نقص والفضل في كون القدرة على النكاح وكذلك ماء الصلب موجودتان في الإنسان ثم يمنعهما إما بمجاهدة كعيسى أو بكفاية من الله عز وجل كيحيى عليه السلام ثم هي في حق من قدر عليها وقام بالواجب فيها ولم تشغله عن ربه: درجة عليا وهي درجة نبينا - صلى الله عليه وسلم - الذي لم يشغله كثرتهم عن عبادة ربه، بل زاده ذلك عبادة بتحصينهم وقيامه عليهم وإكسابه لهم وهدايته إياهم بل قد صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو وإن كانت من حظوظ دنيا غيره فقال: «حُبَّ إلي من دنياكم» هذا لقطة. والمقصود أنه مدح ليحيى بأنه حضور ليس أنه لا يأتي النساء، بل معناه أنه معصوم من الفواحش والقاذورات، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال وغشيانهن وإيلادهن، بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال: «هب لي من لدنك ذرية طيبة» كأنه قال ولداً له ذرية ونسل وعقب، والله سبحانه وتعالى أعلم. تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣٦١، ٤٦٢.

الصالحين ﴿ يعني أن يحيى كان نبياً من الصالحين فلما بشره جبريل بذلك: ﴿قال رب أنى يكون لي غلام﴾، قال ذلك على وجه التعجب لا على وجه الشك، قال لجبريل: رب أي يا سيدي: من أين يكون لي غلام يعني ولد، وهذا قول الكلبي. وقال بعضهم قوله: رب، يعني قال: يا الله على وجه الدعاء يا رب من أين يكون لي ولد، ﴿وقد بلغني الكبر﴾ قال القتيبي: هذا من المقلوب يعني بلغت الكبر. وقال الكلبي كان يوم بشر ابن تسعين سنة وامرأته قريبة في السن منه، وقال الضحاك: كان ابن مائة وعشرين سنة، فذلك قوله: وقد بلغني الكبر، أي الهرم، ﴿وامرأتي عاقرة﴾ لا تلد، ﴿قال كذلك﴾ قال بعضهم: تم الكلام عند قوله كذلك، يعني، هكذا كما قلت إنه قد بلغك الكبر، وامراتك عاقرة، ثم قال تعالى: ﴿اللَّهُ يفعل ما يشاء﴾ وقال بعضهم: معناه، قال كذلك، يعني: الله تعالى، هكذا قال: أنه يكون لك ولد، والله يفعل ما يشاء إن شاء أعطاك الولد في حال الصغر وإن شاء في حال الكبر.

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَادْكُرُّ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾

ثم قال تعالى: ﴿قال: رب اجعل لي آية﴾ يعني اجعل لي علامة حين حملت امرأتي [أعرف] ^(١) ﴿قال: آيتك﴾ يعني علامة الحمل ﴿ألا تكلم الناس ثلاثة أيام﴾ يعني أنك تصبح فلا تطبق الكلام ثلاثة أيام ﴿إلا رمزاً﴾ أي كلاماً [خفياً] ^(٢). ويقال: الرمز بالشفيتين والحاجبين، والإيماء باليد والرأس ^(٣). قال بعضهم: كان منع الكلام عقوبة له، لأنه بُشِّر بالولد فسأل آية، فحبس الله لسانه [عن الناس] ^(٤) ثلاثة أيام. ولم يحبس عن ذكر الله وعن الصلاة. وقال بعضهم: لم يكن عقوبة، ولكن [كانت] ^(٥) كرامة له حين جعلت له علامة لظهور الحمل، ومعجزة له. وروى أسباط عن السدي، أنه قال: لما بُشِّر بيحيى، قال له الشيطان: إن النداء الذي سمعت بالبشارة من الشيطان، ولو كان من الله لأوحى إليك، [كما أوحى إليك وإلى سائر الأنبياء] ^(٦)، فقال عند ذلك: «اجعل لي آية» حتى أعلم أن هذه البشارة [منك] ^(٧) قال: آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام» وقال في آخرة أخرى: «ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً» يعني، أنك مستوي الخلق ولا علة بك. ثم أمره بذكر ربه، لأن لسانه لم يمنع عن ذكر الله تعالى، فقال ﴿واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار﴾ يعني بالغداة والعشي، ويقال: بالليل والنهار.

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرِيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾
يَمْرِيْمُ اقْنِىْ لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾

﴿وإذ قالت الملائكة﴾ يعني جبريل، ﴿يا مريم إن الله اصطفاك﴾ يعني اختارك بالإسلام ﴿وطهرك﴾ من الذنوب والفواحش ويقال: من دم الحيض والنفاس ^(٨)، ﴿واصطفاك على نساء العالمين﴾ يعني بولادة عيسى بغير

(١) في أ [أعرف]. (٢) في أ [خفياً].

(٣) قال أبو عبيدة: «الرمز» باللسان من غير أن يبين، ويخفض بالصوت مثل همس. مجاز القرآن ٩٣/١.

(٤) وردت في أ بعد قوله: ثلاثة أيام...

(٥) سقط من ظ. (٦) سقط من ظ.

(٧) في ظ [من الله تعالى].

(٨) ذكر ذلك السيوطي في الدر عن السدي ٢٣/٢.

أب. وقال بعضهم: اصطفاك، أي: فضلك على نساء العالمين يعني عالمي زمانها^(١) ﴿يا مريم اقنتي لربك﴾ يعني أطيعي ويقال: أطيلي القيام في الصلاة وقال مجاهد: قامت في الصلاة حتى تورمت قدمها، ونحل جسمها ثم قال تعالى: ﴿واسجدی وارکعی مع الراکعين﴾ أي مع المسلمين يعني [مع]^(٢) قراء بيت المقدس.

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَحْلَلْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾

قوله: ﴿ذلك من أنباء الغيب﴾^(٣) يعني الذي ذكر في هذه الآية من قصة زكريا ومريم، من أخبار الغيب، مما غاب عنك خبره ولم تكن حاضراً، وفي الآية [دليل]^(٤) نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - حيث أخبر عن قصة زكريا ومريم [ولم يكن قرأ الكتب، وأخبر عن ذلك]^(٥) وصدقه أهل الكتاب بذلك فذلك قوله تعالى [ذلك من أنباء الغيب]^(٦) ﴿نوحيه إليك وما كنت لديهم﴾ يعني لم تكن عندهم، وإنما تخبر عن الوحي، فقال: ﴿وما كنت لديهم﴾ ﴿إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم﴾ يعني يطرحون أقلامهم في النهر بالقرعة ﴿وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾ في أمر مريم. ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم﴾ يعني جبريل [عليه السلام]^(٧) وحده ﴿إن الله يبشرك بكلمة منه﴾. قرأ

(٣) «ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك» آية ٤٤.

(١) انظر المصدر السابق. (٢) زيادة من ظ.

قال الزخشري: فإن قلت: لم نفيت المشاهدة، وانتفاؤها معلوم بغير شبهة، وترك نفي إستماع الأنباء من حفاظها، وهو موهوم؟ قلت: كان معلوماً عندهم علماً يقيناً أنه ليس من أهل السماع والقراءة، وكانوا منكربين للوحي، فلم يبق إلا المشاهدة، وهي في غاية الاستبعاد والاستحالة، فنفيت على سبيل التهكم بالمنكربين للوحي، مع علمهم بأنه لا سماع له ولا قراءة ونحوه «وما كنت بجانب الغربي» القصص ٤٤. «وما كنت بجانب الطور» القصص ٤٦. «وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم» يوسف ١٠٢. انتهى. الكشف ١٨٩/١.

(٤) في ظ [دلالة].

(٥) زيادة من ظ. وهي في أ بعد قوله: وصدقه أهل الكتاب بذلك.

(٦) سقط من ظ. (٧) سقط من ظ.

نافع وعاصم وابن عامر «يُشْرِك» بالتشديد في جميع القرآن، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتشديد في جميع القرآن إلا في: «حم، عسق»: ذلك الذي ييشر الله عباده بالتخفيف، وقرأ حمزة بالتخفيف إلا في قوله «فَبِمَ تُبَشِّرُونَ» ووافقه الكسائي في بعضها، فمن قرأ بالتشديد فهو من (المباشرة)^(١)، ومن قرأ بالتخفيف، فمعناه يفرحك^(٢). وكانت قصة البشارة أن مريم لما طهرت من الحيض، ودخلت المغتسل كما قال في سورة مريم: «إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً» يعني أرادت أن تغتسل في جانب المشرقة، فلما دخلت المغتسل رأت بشراً كهيئة الإنسان كما قال «فتمثل لها بشراً سوياً» فخافت مريم، ثم قالت: «إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً» لأن التقى يخاف الرحمن، فقال لها جبريل «أنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً» وذكرها هنا بلفظ آخر ومعناه واحد قال: «إن الله ييشرك بكلمة منه» أي بولد بغير أب يصير مخلوقاً بكلمة من الله وهو قوله كن فكان «اسمه المسيح عيسى ابن مريم» ويقال: إنما سمي المسيح لأنه يسبح في الأرض ويقال: [المسيح بمعنى]^(٣) الماسح، كان يمسح وجه الأعمى فيبصر. وقال الكلبي: المسيح الملك. ثم قال: «وجيهاً» أي ذا جاه «في الدنيا و» له [منزلة]^(٤) «في الآخرة». وقال مقاتل: فيها تقديم، يعني وجيهاً في الدنيا «ومن المقربين» في^(٥) الآخرة عند ربه. وقال الكلبي وجيهاً في الدنيا، يعني في أهل الدنيا بالمنزلة وفي الآخرة من المقربين في جنة عدن. «ويُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا» أي في حال صغره وهو [طفل]^(٦) في حجر أمه طفلاً، وكهلاً، يعني إذا اجتمع عقله وكبر. فإن قيل: ما معنى قوله كهلاً؟ والكلام من الكهل لا يكون عجباً، قيل له: المراد منه كلام الحكمة والعبرة. ويقال كهلاً: بعد نزوله من السماء وهو قول الكلبي. «ومن الصالحين» مع آبائه في الجنة «قالت» مريم «رب أنى يكون لى ولدٌ» يعني من أين يكون لى ولد «ولم يمسنى بشر» وهو كناية عن الجماع ف «قال» جبريل «كذلك» يعني هكذا كما قلت أنه لم يمسك بشر، ولكن «الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً» يعني إذا أراد أن يخلق خلقاً «فإنما يقول له كن فيكون» فنفخ جبريل في جيبها، يعني في نفسها. قال بعضهم: وقع نفخ جبريل في رحمها فعلقت بذلك. وقال بعضهم: لا يجوز أن يكون الخلق من نفخ جبريل، لأنه يصير الولد بعضه من الملائكة وبعضه من الإنس ولكن سبب ذلك أن الله تعالى لما خلق آدم - عليه السلام - وأخذ الميثاق من ذريته، فجعل بعضهم في أصلاب الآباء، وبعضهم في أرحام الأمهات، فإذا اجتمع الماء ان صار ولداً وإن الله تعالى جعل الماءين جميعاً في مريم بعضه في رحمها، وبعضه في صلبها، فنفخ فيها جبريل لتهيج شهوتها، لأن المرأة ما لم تهج شهوتها لا تحبل، فلما هاجت شهوتها بنفخة جبريل، وقع الماء الذي كان في صلبها في رحمها فاختلط الماء ان فعلقت بذلك، فذلك قوله: «إذا قضى أمراً» يعني إذا أراد أن يخلق خلقاً سبحانه، «فإنما يقول له: كن فيكون» بغير أب. ثم قال تعالى: «ويعلمه الكتاب». قرأ نافع وعاصم «ويعلمه» بالياء يعني أن الله يعلمه، وقرأ الباقون بالنون، ومعناه، أن الله يقول: ونعلمه «الكتاب»^(٧)، يعني كتب الأنبياء، [وهذا]^(٨) قول الكلبي. وقال مقاتل: يعني الخط، والكتابة، فعلمه الله بالوحي والإلهام «والحكمة» يعني الفقه «والتوراة والإنجيل» يعني يحفظ التوراة [عن]^(٩) ظهر قلبه وقال بعضهم وهو عالم بالتوراة. وقال بعضهم: ألهمه الله بعدما كبر حتى تعلم في مدة سيرة. ثم قال: «ورسولاً إلى بني

(٢) راجع حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٦٣ وكنز المعاني ٣١٣.

(٤) في أ [منزل].

(٦) سقط في ظ.

(٧) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ١٦٣، كنز المعاني ٣١٤.

(٩) في أ [على].

(١) في ظ [البشارة].

(٣) سقط من ظ.

(٥) في أ [و].

(٨) في أ [وهذا].

إسرائيل ﴿ نصب رسولاً لمعنيين: أحدهما: يجعله رسولاً إلى بني إسرائيل. والثاني: ويكلم الناس ورسولاً. أي في حال رسالته إلى بني إسرائيل دليله أنه قال: ﴿أنّي قد جئتكم بآية من ربكم﴾^(١). [وذكر الزجاج: فالمعنى - والله أعلم - ويكلمهم رسولاً بأنّي قد جئتكم بآية من ربكم]^(٢). ثم أخبر عن أداء رسالته بعدما أوحى إليه في حال الكبير حيث قال لقومه: [أنّي]^(٣) قد جئتكم بآية [من ربكم]^(٤). يعني علامة لنبوتي. ثم بيّن العلامة فقال: ﴿إني أخلق [أي أقدر]^(٥) لكم من الطين كهية الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله﴾. ويقال: إن الناس سألوه عنه على وجه التعنت، فقالوا له: أخلق لنا خفّاشاً واجعل فيه روحاً إن كنت صادقاً في مقالتك فأخذ طيناً وجعل منه خفّاشاً، ونفخ فيه فإذا هو يطير بين السماء والأرض فكان تسوية الطين والنفخ من عيسى - عليه السلام - والخلق من الله عز وجل كما أن النفخ من جبريل عليه السلام والخلق من الله عز وجل. ويقال: إنما طلبوا منه خلق خفّاش لأنه أعجب من سائر الخلق، ومن عجائبه أنه لحم ودم يطير بغير ريش، ويلد كما يلد الحيوان ولا يبيض كما تبيض سائر الطيور، ويكون له ضرع يخرج منه ابن ولا يبصر في ضوء النهار، ولا في ظلمة الليل، وإنما يرى في ساعتين بعد غروب الشمس ساعة، وبعد طلوع الفجر ساعة، قبل أن يسفر جداً، ويضحك كما يضحك الإنسان، ويحيض كما تحيض المرأة، فلما أن رأوا ذلك منه ضحكوا وقالوا: هذا سحر. ثم قال تعالى: ﴿وأبرئ الأكمه والأبرص﴾ الأكمه: الذي ولد أعمى، فقالوا: إن لنا أطباء يفعلون مثل هذا، فذهبوا إلى جالينوس وأخبروه بذلك، فقال جالينوس: إذا ولد أعمى لا يبصر بالعلاج، والأبرص: إذا كان بحال إذا غرزت الإبرة فيه لا يخرج الدم منه لا يبرأ بالعلاج. فرجعوا إلى عيسى عليه السلام وجاءوا بالأكمه والأبرص، فمسح يده عليهما فأبصر الأعمى وبرأ الأبرص، فأمن به بعضهم وجحد بعضهم، وقالوا: هذا سحر، ثم قال تعالى: ﴿وأخي الموتى بإذن الله﴾ فأخبروا بذلك «جالينوس»، فقال: الميت لا يعيش ولا يحيى بالعلاج، فإن كان هو يحيى الموتى فهو نبي، وليس بطبيب، فطلبوا منه أن يحيى الموتى فأحيا أربعة نفر، أحدهم: عازر، وكان صديقاً له فبلغه أنه مات فذهب مع أصحابه، وقد دفن، وأتى عليه أيام، فدعا الله فقام بإذن الله تعالى وودّكه يقطر، فعاش وولد له. والثاني: ابن العجوز: مرّ به وهو يحمل على سرير فدعا الله فقام بإذن الله تعالى ولبس ثيابه، وحمل السرير على عنقه ورجع إلى أهله. والثالث: [ابنة]^(٦) من بنات العاشر، ماتت، وأتى عليها ليلة فدعا الله تعالى، فعاشت بعد ذلك وولد لها. والرابع: سام بن نوح، لأن القوم قالوا له: إنك تحيي من كان موته قريباً فلعلهم لم يموتوا وأصابتهم سكتة، فأحيى لنا سام بن نوح فقال: دلوني على قبره، فخرج وخرج القوم معه حتى انتهوا إلى قبره فدعا الله [تعالى فأحياه وخرج]^(٧) من قبره، قد [شابت]^(٨) رأسه، فقال له عيسى كيف شابت رأسك ولم يكن في زمانكم شيب، فقال: يا روح الله، إنك لما دعوتني سمعت صوتاً يقول: أجِبْ روحَ الله، فظننت أن القيامة قد قامت، فمن ذلك الهول شابت رأسي، فسأله عن النزع، فقال له: يا [روح]^(٩) الله إن [مرارة]^(١٠) النزع لم تذهب عن حنجرتي، وقد كان من وقت موته أكثر من أربعة آلاف سنة، [ثم قال]^(١١) للقوم: صدقوه فإنه نبي [الله]^(١٢). فأمن به بعضهم [وكذب به]^(١٣) بعضهم، وقالوا: هذا ساحر، فأرنا آية نعلم أنك صادق فأخبرنا بما نأكل في بيوتنا، وما نذخر للغد، فأخبرهم، فقال يا فلان

(١) فصل أبو حيان الكلام في نصب «رسولاً» وزاد على هذين الوجهين وجوهاً أخرى راجع / البحر المحيط ٢/ ٤٦٤.

(٢) ما بين المعقوفين من ظ. (٣) سقط في ظ. (٤) سقط في ظ.

(٥) سقط في ظ. (٦) في أ [بنت]. (٧) في ظ [فخرج].

(٨) في ظ [شاب]. (٩) في ظ [نبي]. (١٠) في أ [حرارة].

(١١) في ظ [مقال]. (١٢) سقط في ظ. (١٣) في ظ [وكذبه].

أنت أكلت كذا وكذا، وأنت أكلت كذا وكذا، فذلك قوله عز وجل ﴿وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾، فمنهم من آمن به ومنهم من كفر ويقال: إن الله بعث كل نبي إلى قومه وأظهر لهم نوع ما كانوا يعرفونه، فكان في زمن موسى - عليه السلام - الغالب عليهم السحر، فبين لهم من جنس ذلك، ليعرفوا أن ذلك ليس بسحر، وأنه من الله تعالى. وكان الغالب في زمن عيسى - عليه السلام - علم الطب فجاءهم عيسى بما عجز الأطباء عنه، فعرف الأطباء أن ذلك ليس من الطب. وكان في زمن نبينا - عليه السلام - الفصاحة والشعر، فجاءهم بقرآن عجز الفصحاء، والشعراء عن إتيان مثله ثم قال تعالى: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لَكُمْ﴾ يعني فيما صنع عيسى - عليه السلام - علامة لنبوته ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي مصدقين أنه نبي. قرأ نافع: فيكون طائراً، وكذلك في سورة المائدة وقرأ الباقون بغير ألف: ومعناها واحد^(١)، ويقال: الطائر واحد، والطير جماعة. ثم قال: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ ومعناه، جئتكم مصدقاً، يعني [الكتاب]^(٢) الذي أنزل على وهو الإنجيل «مُصَدِّقًا» أي موافقاً لما بين يدي من التوراة. ﴿وَأَحْلَلْ لَكُمْ﴾ يعني أرخص لكم ﴿بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ مثل الشحوم، ولحوم الإبل، ولحم كل ذي ظفر، وأما الميت ولحم الخنزير فهو حرام [أبداً]^(٣) قوله: ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني أني لم أحل لكم شيئاً بغير برهان، فحقيق عليكم اتباعي لأنني أتيتكم ببرهان، [وأتيتكم]^(٤) بتحليل الطيبات ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [فيما أمركم ونهاكم]^(٥) ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فيما أمركم، وأنهاكم وأنصح لكم ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ هذا تكذيب لقول النصارى حيث قالوا: إن الله هو المسيح، وقالوا: إن الله ثالث ثلاثة فاعترف عيسى أنه عبد الله، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ أي خالقي وخالقكم، ورازقي ورازقكم، ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ أي وحدوه ولا تشركوا به شيئاً ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ يعني هذا التوحيد الذي أدعوكم إليه طريق مستقيم لا عوج فيه وهو طريق الجنة.

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾

﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر﴾ قال الكلبي: فلما عرف منهم الكفر بالله. ويقال: فلما سمع منهم كلمة الكفر، وقال الزجاج^(٦): أحس في اللغة علم ووجد. ويقال: هل أحسست الخير، أي هل عرفته وعلمته، وقال مقاتل: فلما رأى من بني إسرائيل الكفر، كقوله - عز وجل - «هل تحس منهم من أحد» يعني هل ترى. ويقال: [إنه لما علم]^(٧) عيسى أنهم أرادوا قتله: ﴿قَالَ: مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ يقول من أعواني مع الله؟ قال القتيبي: إلى [هاهنا]^(٨): بمعنى «مع» مثل قوله: «ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم» أي مع أموالكم، كما يقال: الذود إلى الذود إبل، أي مع الذود، فقال: «مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ» أي مع الله ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ: نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ قال الكلبي: الحواريون: هم أصفياء عيسى - عليه السلام - وكانوا اثني عشر رجلاً، وقال مقاتل: كانوا قَصَّارين^(٩) فمر بهم

(١) راجع حجة القراءات لابن زنجلة ١٦٤، كنز المعاني ٣١٥.

(٢) في أ [للكتاب].

(٣) سقط في أ.

(٤) في أ [وأنبئكم].

(٥) سقط في ظ.

(٦) معاني القرآن وإعرابه ٤٢١/١.

(٧) في أ [لما رأى].

(٨) سقط في ظ.

(٩) القصار والمقصر: المحور للثياب لأنه يدقها بالقصرة التي هي القطعة من الخشب وحرفته القصارة. (اللسان: قصر).

عيسى - عليه السلام - وقال «من أنصاري إلى الله»، قالوا: نحن أنصار الله، ويقال: إنه مر بهم وهم يغسلون الثياب، فقال لهم إيش تصنعون؟ قالوا: نظهر الثياب فقال: ألا أدلكم [بطهارة]^(١) أنفع من هذا، قالوا نعم، فقال: تَعَالَوْا حتى نظهر أنفسنا من الذنوب فبايعوه، ويقال إنهم كانوا صيادين، فمر بهم وقال: ألا أدلكم على اصطياد أنفع لكم من هذا، قالوا: نعم، فقال: تَعَالَوْا حتى نصطاد أنفسنا من شر إبليس فبايعوه^(٢). وروي عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس أنه قال: إنما سَمُوا حواريين لبياض ثيابهم، وكانوا صيادين^(٣). وروي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «الزبير: ابْنُ عَمَّتِي وَحَوَارِيٍّ مِنْ أُمَّتِي^(٤)»، يعني به الخالص، فهذا يكون دليلاً لقول الكلبي إنهم خواصه وأصفياءه. ومعنى آخر: نحن أنصار الله، يعني أنصار دين الله ﴿أَمَّا بِاللَّهِ﴾ أي صدقنا بتوحيد الله ﴿وَاشْهَد بَأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ يعني أشهدنا لأنه على ذلك، فاشهد يا عيسى بآنا مسلمون. ثم قالوا: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ﴾ من الإنجيل على عيسى ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ أي عيسى عليه السلام على دينه ﴿فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ يعني اجعلنا مع من أسلم قبلنا، وشهدوا بوحدانيتك.

وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٥٤﴾

ثم قال تعالى: حكاية عن كفار قومه ﴿ومكروا﴾ يعني أرادوا قتل عيسى عليه السلام - ﴿ومكر الله﴾ تعالى، أي جازاهم جزاء المكر، ﴿والله خير الماكرين﴾ لأن مكرهم جور، ومكر الله عدل. قال الكلبي: وذلك أن اليهود اجتمعوا على قتل عيسى فدخل عيسى عليه السلام البيت هارباً منهم فرفعه جبريل من الكوة إلى السماء، كما قال في آية أخرى: «وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ» فقال ملكهم لرجل خبيث يقال له يهوذا: ادخل عليه فاقتله، فدخل الرجل الخوخة فلم يجد هناك عيسى، وألقى الله عليه شبه عيسى عليه السلام [فلما خرج رآه على شبه عيسى]^(٥)، فأخذوه وقتلوه وصلبوه، ثم قالوا وجهه يشبه وجه عيسى، وبدنه يشبه بدن صاحبنا، فإن كان هذا [عيسى فأين صاحبنا]^(٦) وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى؟ فوقع بينهم قتال، فقتل بعضهم بعضاً [فلما خرجوا رآه على بيت]^(٧)، فذلك قوله ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾. قال الضحاك: وكانت القصة أن اليهود [خذلهم الله تعالى]^(٨)، لما أرادوا قتل عيسى - عليه السلام - اجتمع الحواريون في غرفة، وهم اثنا عشر رجلاً، فدخل عليهم المسيح من مشكاة الغرفة، فأخبر إبليس جميع اليهود فركب منهم أربعة آلاف رجل [فأحدقوا]^(٩) بالغرفة، فقال المسيح للحواريين: أيكم يخرج فيقتل وهو معي في الجنة؟ فقال رجل منهم: أنا يا نبي الله فألقى إليه مدرعة من

(١) في ظ [بقصارة].

(٢) راجع (مادة: حور) في لسان العرب، فقد ذكر هذه المعاني وزيادة، ونقل عن الزجاج قوله: وتأويل الحواريين في اللغة الذين أخلصوا ونقوا من كل عيب، وكذلك الحواري من الدقيق، سمي به لأنه يُنقى من لباب البر. قال: وتأويله في الناس: الذي قد رجع في اختياره مرة بعد مرة، فوجد نقياً من العيوب. انظر/ اللسان/ حور. ومجاز القرآن لأبي عبيدة ٩٥/١.

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره ٤٤٩/٦٥ (٧١٢٤) والحواري بضم الحاء وتشديد الواو، وراء مفتوحة هو ما حور الطعام، أي بيض، ودقيق حواري هو الدقيق الأبيض، وهو لباب الدقيق وأجوده وأخلصه.

(٤) أخرجه البخاري ٥٢/٦ في الجهاد/ باب فضل الطليعة (٢٨٤٦) ومسلم ١٨٧٩/٤ في فضائل الصحابة/ باب من فضائل طلحة والزبير. . (٢٤١٥/٤٨) وأخرجه أحمد في المسند ١٠٢/١ وأورده ابن منظور في لسان العرب ثم قال: أي خاصة من أصحابي وناصري. (اللسان: حور).

(٥) ما بين المعقوفين من ظ. (٦) سقط في ظ. (٧) سقط في ظ.

(٨) سقط في ظ. (٩) في ظ [أي تحلقوا].

صوف وعمامة من صوف، وناولوه عكازه، فألقى عليه شبه عيسى - عليه السلام - فخرج على اليهود فقتلوه وصلبوه، وأما المسيح فكساه الله الريش، وألبسه النور، وقطع عنه لذة المطعم والمشرب فطار في الملائكة.

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنِي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىٰ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمُ وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنِي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىٰ﴾ ففي الآية تقديم وتأخير، ومعناه إني رافعك من الدنيا إلى السماء، ومتوفيك بعد أن تنزل من السماء على عهد الدجال، ويقال: إنه ينزل ويتزوج امرأة من العرب بعدما يقتل الدجال، وتلد له ابنة فتموت ابنته، ثم يموت هو بعدما يعيش سنين، لأنه قد سأل ربه أن يجعله من هذه الأمة فاستجاب الله دعاه، وروي عن أبي هريرة: أنه جاء إلى الكتاب وقال للمعلم: قل للصبيان حتى يسكتوا، فلما سكتوا، قال لهم: أيها الصبيان من عاش منكم إلى وقت نزول عيسى عليه السلام فليقرئه مني السلام، وإني كنت أرجو أن لا أخرج من الدنيا حتى أراه [هذا كناية عن قرب الساعة] ^(١) ثم قال ﴿ومطهرك﴾ أي منجيك ﴿من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك﴾ على دينك ﴿فوق الذين كفروا﴾ بالحجة والغلبة ﴿إلى يوم القيامة﴾ ^(٢) [وروي عن عبد الله] ^(٣) بن عباس أنه قال: الذين اتبعوه هم أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - لأنهم هم الذين صدقوه، ثم قال ﴿ثم إليّ مرجعكم﴾ يعني الذين اتبعوك والذين كفروا، كلهم مرجعهم إليّ ﴿فأحكم بينكم﴾ يعني بين المؤمنين والكفار ﴿فيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، من الدين. ثم أخبر عن حال الفريقين في الآخرة فقال: ﴿فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة﴾ في الدنيا بالقتل والجزية، وفي الآخرة بالنار ﴿وما لهم من ناصرين﴾ يعني مانع يمنهم من عذاب الله ﴿وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾، قال مقاتل: [هم] ^(٤) أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿فيؤفّيهم أجورهم﴾ قرأ عاصم في رواية حفص [فيؤفّيهم] ^(٥) بالياء يعني يؤفّيهم أجورهم وأما الباقون بالنون ^(٦). يعني أن الله قال: فنؤفّيهم أجورهم، وهذا لفظ الملوك، إنهم [يتكلمون] ^(٧) بلفظ الجماعة، ويقولون: نحن نفعل كذا وكذا ونكتب إلى فلان، ونأمر بكذا، فالله تعالى خاطب العرب بما يفهمون فيما بينهم، كما قال في سائر المواضع: «إنا أرسلنا»، «إنا أنزلنا» وكذلك هاهنا قال: «فنؤفّيهم أجورهم» أي نعطيهم ثواب عملهم ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ أي لا يرضى دين الكافرين.

ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾

﴿ذلك نتلوه عليك من الآيات﴾ يقول هذه الآيات وهذه القصص [بينات] ^(٨) في القرآن «وأنزلنا عليك»

(١) سقط في ظ. (٢) في أ [حتى من كان موته قريباً].

(٣) في أ [قال عن].

(٥) سقط في ظ.

(٤) سقط في ظ.

(٧) في ظ [يذكرون أنفسهم]. (٨) في ظ [بيناه].

(٦) انظر / حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٦٤، وكنز المعاني ص ٣١٥.

جبريل ليقرأ عليك من الآيات يعني من البيان ﴿والذكر الحكيم﴾ يعني القرآن كله . وقال الكلبي الذكر الحكيم الذي عند رب العالمين ، في درة بيضاء وهو اللوح المحفوظ ، ويقال هو القرآن ، لأنه محكم ليس فيه تناقض ولا يقدر [أحد أن يأتي بمثله]^(١) . ويقال : هو الشرف كقوله : «وإنه لذكر لك ولقومك» .

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾

ثم قال ﴿إن مثل عيسى عند الله﴾ [نزلت]^(٢) في وفد نجران السيد والعاقب والأسقف وجماعة من علمائهم وأخبارهم ، قدموا على النبي - صلى الله عليه وسلم - وناظروه في أمر عيسى - عليه السلام - فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هو عبد الله ورسوله ، فقالوا : أرنا خلقاً من خلق الله تعالى بغير أب ، وكان يحيي الموتى وكان فيه دليل على ما قلنا وكانوا يقولون : إنه اتخذه ابناً ، فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أسلموا فقالوا : قد أسلمنا قبلك ، فقال لهم : كذبتهم ، إنما يمنعكم من الإسلام ثلاث ، أكل لحم الخنزير ، وعبادة الصليب وقولكم لله ولد ، فقالوا له : من أبو عيسى ؟ فنزل قوله تعالى : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٣) ﴿كَمَثَلِ آدَمَ﴾ يعني شبه خلق عيسى عند الله كشبه خلق آدم ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ يعني صورته من غير أب ولا أم ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فكان بشراً بغير أب [كذلك عيسى كان بشراً بغير أب]^(٤) وفي هذه الآية دليل [علمي]^(٥) أن الشيء يشبه بالشيء وإن كان بينهما فرق كبير بعد أن [يجتمعا]^(٦) في وصف واحد ، كما أن هاهنا خلق آدم من تراب ، ولم يخلق عيسى من تراب ، وكان بينهما فرق من هذا الوجه ولكن الشبه بينهما أنه خلقهما من غير أب ، ولأن أصل خلقهما جميعاً كان من تراب ، لأن آدم لم يخلق من نفس التراب ، ولكنه جعل التراب طيناً ، ثم جعله صلصالاً ، ثم خلقه منه ، فكذلك عيسى عليه السلام حوله من حال إلى حال ثم خلقه بشراً من غير أب .

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾

ثم قال تعالى : ﴿الحق من ربك﴾ يعني [خبر عيسى]^(٧) ، كما أخبرتك وأنبأتك في القرآن ﴿فلا تكن من الممترين﴾ أي من الشاكين . [ويقال : المثل الذي ذكر في عيسى هو الحق من ربك ، وهذا الخطاب للنبي - صلى

(١) في ظ [على مثله] . (٢) في ظ [نزل] .

(٣) قال الرازي : الحكماء قالوا : إنما خلق آدم عليه السلام من تراب لوجوه : - الأول : - ليكون متواضعاً ، الثاني : - ليكون ستاراً ، الثالث : - ليكون أشد التصاقاً بالأرض . وذلك لأنه إنما خلق لخلافة أهل الأرض . قال تعالى : ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ [سورة البقرة ٣] ، الرابع : - أراد الحق إظهار القدرة فخلق الشياطين من النار التي هي أضوأ الأجرام وابتلاهم بظلمات الضلالة وخلق آدم من التراب الذي هو أكثف الأجرام ثم أعطاه المحبة والمعرفة والنور والهداية . والخامس : - خلق الإنسان من تراب ليكون مطفئاً لنار الشهوة والغضب . انظر الفخر الرازي ٨ / ٨٠ بتصرف .

(٤) ما بين المعقوفين من ظ . (٥) سقط في أ .

(٦) في أ [يجتمعان] وهو خطأ لأنه فعل منصوب بين وعلامة نصبه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة .

(٧) في أ [جبريل عليه السلام] .

الله عليه وسلم -، والمراد منه جميع من اتبعه ومعناه فلا تكونوا من الممترين، أي من الشاكين^(١)، يعني إن مثله كمثل آدم - عليهما السلام - ﴿فمن حاجك فيه﴾ وذلك أن النصارى لما أخبرهم بالمثل في حق عيسى عليه السلام قالوا ليس كما تقول، وهذا ليس بمثل، فنزلت هذه الآية: ﴿فمن حاجك فيه﴾ يعني، خاصمك في أمر عيسى عليه السلام ﴿من بعد ما جاءك من العلم﴾ أي من البيان في أمره ﴿فقل: تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم﴾ أي نخرج أبناءنا وأبناءكم، ﴿و﴾ نخرج ﴿نساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم﴾ [يعني نحن بأنفسنا، ويقال: إخواننا]^(٢) ونجتمع في موضع ﴿ثم نبتهل﴾ أي نلتعن^(٣)، وقال مقاتل يعني نخلص في الدعاء، ويقال هي المبالغة في الدعاء والتضرع ﴿فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ فواعدهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأن يخرجوا للملاعنة فجعلوا وقتاً للخروج وتفرقوا على ذلك، ثم ندموا، فلما [كان]^(٤) ذلك اليوم خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وأخذ بيد الحسن والحسين، وخرج معه علي بن أبي طالب، وفاطمة - فلما اجتمعوا في [الموضع]^(٥) الذي واعدتهم، طلب منهم الملاعة، فقالوا نعوذ بالله، فقال لهم: إما أن [تلعنوا]^(٦) وإما أن تسلموا، وإما أن [تؤدوا]^(٧) الجزية،

(١) ما بين المعقوفين من ظ. (٢) ما بين المعقوفين من ظ.

(٣) قال أبو عبيدة: نبتهل: أي نلتعن، يقال ما له بهله الله، ويقال عليه بهلة الله... إلخ. (مجاز القرآن ١/٩٦).

وقال ابن منظور: (وابتهال: التضرع، والاجتهاد في الدعاء وإخلاصه لله عز وجل، وفي التنزيل العزيز ﴿ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ أي يخلص ويجتهد كل منا في الدعاء واللعن على الكاذبين منا اللسان: بهل).

قال الزمخشري: فإن قلت ما كان دعاؤه إلى المبالهة إلا ليتبين الكاذب منه ومن خصمه، وذلك أمر يختص به وبمن يكاذبه، فما معنى ضم الأبناء والنساء؟ قلت: ذلك أكد في الدلالة على ثقته بحاله، واستيفائه بصدقه، حيث استجراً على تعرض أعزته وأفلاذ كبده وأحب الناس إليه لذلك. ولم يقتصر على تعرض نفسه له، وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزته هلاك الاستئصال إن تمت المبالهة. وخص الأبناء والنساء لأنهم أعز الأهل والصقهم بالقلوب، وربما فداهم الرجل بنفسه وحارب دونهم حتى يقتل، ومن ثمة كانوا يسوقون مع أنفسهم الطعائن في الحروب لتمنعهم من الهرب، ويسمون الذادة عنهم بأرواحهم حماة الحقائق. وقدمهم في الذكر على الأنفس لينبه على لطف مكانهم وقرب منزلتهم وليؤذن بأنهم مقدمون على الأنفس مفدون بها، وفيه دليل، لا شيء أقوى منه، على فضل أصحاب الكساء عليهم السلام. وفيه برهان واضح على صحة نبوة النبي - صلى الله عليه وسلم - لأن لم يرو أحد من موافق ولا مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك. الكشاف ١/١٩٣.

استنبط من الآية جواز المحاجة في أمر الدين، وأن من جادل وأنكر شيئاً من الشريعة جازت مبالهته اقتداء بما أمر به - صلى الله عليه وسلم - والمبالهة الملاعة.

قال الكازروني في تفسيره: وقع البحث عند شيخنا العلامة الدواني قدس الله سره في جواز المبالهة بعد النبي - صلى الله عليه وسلم - فكتب رسالة في شروطها المستنبطة من الكتاب والسنة والآثار، وكلام الأئمة، وحاصل كلامه فيها أنها لا تجوز إلا في أمر مهم شرعاً، وقع فيه اشتباه وعناد لا يتيسر دفعه إلا بالمبالهة، فيشترط كونها بعد إقامة الحجة والسعي في إزالة الشبهة وتقديم النصيح والإنذار وعدم نفع ذلك ومساس الضرورة إليها قال الإمام صديق خان في تفسيره: وقد دعا الحافظ ابن القيم، رحمه الله، من خالفه في مسألة صفات الرب تعالى شأنه وإجرائها على ظواهرها من غير تأويل ولا تحريف ولا تعطيل، إلى المبالهة بين الركن والمقام فلم يجبه إلى ذلك وخاف سوء العاقبة. وتام هذه القصة مذكور في أول كتابه المعروف بـ «الونية» - انتهى - وقد ذكر في «زاد المعارف» في فصل فقه قصة وفد نجران ما نصه: ومنها أن السنة في مجادلة أهل الباطل إذا قامت عليهم حجة الله ولم يرجعوا بل أصروا على العناد أن يدعواهم إلى المبالهة وقد أمر الله، سبحانه، بذلك رسوله، ولم يقل إن ذلك ليس لأمتك من بعدك. ودعا إليه ابن عمه عبد الله بن عباس لمن أنكر عليه بعض مسائل الفروع، ولم ينكر عليه الصحابة، ودعا إليه الأوزاعي سفيان الثوري في مسألة رفع اليدين ولم ينكر عليه ذلك، وهذا من تمام الحجة. انتهى. انظر تفسير القاسمي ٤/٨٦٠.

(٤) في أ [جاء]

(٥) في أ [الموعد].

(٦) في ظ [تلتعنوا].

(٧) في ظ [تقبلوا].

المواد

فقبلوا الجزية، وصالحوه بأن يؤدوا كل سنة ألفي حلة [ألف] ^(١) حلة في المُحَرَّم [وَألف] ^(٢) حلة في رجب، وأمر عليهم «أبا عبيدة بن الجراح»، ورجعوا - فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - لو أنهم التعنوا لهلكوا كلهم حتى العصافير في سقوف الحيطان.

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حُجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ يعني ما [أخبروا] ^(٣) من أمر عيسى عليه السلام هو الخبر الحق يعني أنه كان عبد الله ورسوله. ويقال: هذا القرآن هو الحق: ﴿وما من إله إلا الله﴾ لا شريك له ﴿وإن الله لَهُوَ العزيز الحكيم﴾ العزيز في ملكه، الحكيم في أمره حكم بخلق عيسى في بطن أمه من غير أب. ﴿فإن تَوَلَّوْا﴾ يقول: أبوا، ولم [يسلموا] ^(٤) ﴿فإن الله عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ يجازيهم بذلك، وهذه كلمة تهديد ﴿قل يا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ يعني كلمة عدل بيننا وبينكم. ويقال في قراءة عبد الله بن مسعود: «إلى كلمة عدل بيننا وبينكم» يعني، لا إله إلا الله وهي كلمة الإخلاص ويقال: إلى كلمة تسوى بيننا وبينكم، فتصير دماؤكم كدمائنا، وأموالكم كأموالنا، ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾ يعني ألا نُوحِدَ إِلَّا اللَّهَ ﴿ولا نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا﴾ من خلقه ﴿ولا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ لأنهم اتخذوا عيسى رباً من دون الله ويقال: لا يطيع بعضنا بعضاً في المعصية كما قال: «اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ» أي أطاعوهم في المعصية، ويقال لا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً كما قالت النصراني إن الله ثالث ثلاثة ﴿فإن تَوَلَّوْا﴾ يعني أبوا عن التوحيد ﴿فقولوا﴾ لهم يا معشر المسلمين ﴿اشهدوا بأننا مسلمون﴾ أي مخلصون لله بالعبادة والتوحيد ﴿يا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ وذلك أن اليهود والنصارى كانوا اجتمعوا في [بيت] ^(٥) مدرسة اليهود، وكل فريق يقول: كان إبراهيم منا، وكان على ديننا فنزل: ﴿يا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ أي لِمَ تخاصمون في دين إبراهيم ﴿وما أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾ يعني من بعد إبراهيم - عليه السلام - ولكن اليهودية والنصرانية إنما سميت بهذا الاسم بعد نزول التوراة والإنجيل. وقال الكلبي: نزلت في شأن نفر الذين كانوا بالحبشة من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - فهم جعفر الطيار وغيره [كما قال الله تعالى «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً» أي أطاعوهم في المعصية] ^(٦) [وكانت] ^(٧) بينهم وبين أحبار الحبشة مناظرة في ذلك [الوقت] ^(٨) فنزلت هذه الآية. وقال الزجاج ^(٩): هذه الآية أبين

(١) (٢) في الأصل: (ألف). وهو خطأ لأن مجموع ذلك يكون أربعة آلاف في السنة، في حين أن الصلح كان على ألفين في السنة.

(٣) في ظ [أخبرهم]. (٤) في ظ [ولم يؤمنوا]. (٥) سقط في ظ.

(٦) سقط في ظ. (٧) في ظ [وكان]. (٨) سقط في ظ.

(٩) معاني القرآن وإعرابه ٤٣٣/١.

[الحجج] ^(١) على اليهود والنصارى [بأن] ^(٢) التوراة والإنجيل أنزلا من عبده، وليس [فيهما] ^(٣) اسم لواحد من الأديان واسم الإسلام في كل كتاب وهو قوله: «لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده» ﴿أفلا تعقلون﴾ يقول: أليس لكم ذهن الإنسانية أن تنظروا فيما تقولون. ﴿ها أنتم هؤلاء حاجتكم﴾ يقول أنتم يا هؤلاء خاصتم ﴿فيما لكم به علم﴾ في صفة محمد - صلى الله عليه وسلم - فتجدونه في كتبكم - ﴿فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم﴾ يقول: ما ليس في كتابكم، وهو أمر إبراهيم - عليه السلام - ﴿والله يعلم﴾ أن إبراهيم كان على دين الإسلام ﴿وأنتم لا تعلمون﴾ ذلك.

مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾

﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً﴾ يقول: لم يكن إبراهيم عليه السلام على دين اليهودية ولا النصرانية ﴿ولكن كان حنيفاً مسلماً﴾ أي مخلصاً ﴿وما كان من المشركين﴾ يعني ما كان أي لم يكن على دينهم. وقال الزجاج ^(٤): الحنف في اللغة: إقبال [صدر] ^(٥) القدمين إقبالاً لا رجوع فيها أبداً فمعنى الحنيفية في الإسلام: الإقبال والميل إليه والإقامة على ذلك.

إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾

ثم قال ﴿إن أولى الناس بإبراهيم﴾ يقول: أحق الناس بدين إبراهيم ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ واقتدوا به وآمنوا به ﴿وهذا النبي﴾ يعني هو على دينه ومنهجه ﴿والذين آمنوا﴾ هم أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - على دينه، ﴿والله ولي المؤمنين﴾ في العون والنصرة.

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾

﴿ودت طائفة من أهل الكتاب﴾ يعني أرادت وتمنت جماعة من أهل الكتاب ﴿لو يضلونكم﴾ أي يصرفونكم عن دين الإسلام ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾ أي وبأل ذلك يرجع إلى أنفسهم. ويقال: ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾ أمثالهم، كقوله - عز وجل - «فاقتلوا أنفسكم» أي بعضكم بعضاً ﴿وما يشعرون﴾ قال مقاتل: أي وما يشعرون أنهم يضلون أنفسهم. وقال الكلبي: وما يشعرون أن الله يدل نبيه - عليه السلام - على ضلالتهم، أي يطلعه.

يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾

ثم قال: ﴿يا أهل الكتاب لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ يقول لم تجحدون بالقرآن ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أنه نبي الله لأنهم كانوا يخبرون بأمره قبل مبثته، ويقال: بآيات الله يعني بعجائبه ودلائله، ويقال بآية الرجم. ثم قال ﴿يا أهل الكتاب لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ يقول: لِمَ تخلطون الكفر بالإيمان؟ لأنهم آمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه،

(١) في ظ [حجته].

(٢) في أ [أن].

(٣) في ظ [فيها].

(٤) في أ [صدر].

(٥) معاني القرآن وإعرابه ٤٣٣/١، وانظر اللسان / حنف.

﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ يعني [بعث] ^(١) محمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه حق وأنه في التوراة.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهِ النَّهَارِ وَكُفُّوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تَوْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنْ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنْ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْنُصُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهِ النَّهَارِ﴾ قال الكلبي: وذلك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما قَدِمَ المدينة [صلى] ^(٢) نحو بيت المقدس سبعة عشر شهراً، أو ثمانية عشر شهراً، فلما صرف الله نبيه إلى الكعبة، عند صلاة الظهر، وقد كان صلى صلاة الصبح إلى بيت المقدس، وصلى صلاة الظهر والعصر إلى الكعبة فقال رؤوساء اليهود منهم: كعب بن الأشرف ومالك بن الضيف وغيرهما [للسفلة] ^(٣) منهم: «آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار»، صدقوه بالقبلة التي صلى صلاة الصبح في أول النهار وآمنوا به، وإنه الحق، ﴿وَكَفُّوا آخِرَهُ﴾ يعني اكفروا بالقبلة التي صلى إليها آخر النهار ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى قبلتكم [ودينكم] ^(٤). وقال مقاتل: معناه أنهم جاءوا إلى [محمد] ^(٥) - صلى الله عليه وسلم - أول النهار، ورجعوا من عنده، وقالوا للسفلة: هو حق فاتبعوه، ثم قالوا: حتى ننظر في التوراة ثم رجعوا في آخر النهار فقالوا قد نظرنا في التوراة، فليس هو إياه، يعنون أنه ليس بحق، وإنما أرادوا أن يلبسوا على السفلة وأن يشككوا فيه، فذلك قوله: ﴿آمَنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهِ النَّهَارِ﴾ يعني قالوا لهم في أول النهار آمنوا به «واكفروا آخِرَهُ» يعني قالوا في آخر النهار، واكفروا به «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» أي يشكون فيه فيرجعون. ثم قال للسفلة: ﴿وَلَا تَوْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ﴾ قال بعضهم: في الآية تقديم وتأخير، ومعناه ولا تؤمنوا، أي لاتصدقوا إلا لمن تبع دينكم، فإنه لن يؤتى أحدٌ مثل ما أُوتِيتُمْ من التوراة، والمَن والسُّلُوى، ولا تخبروهم بأمر محمد - صلى الله عليه وسلم - فيحاجوكم عند ربكم، أي يخاصموكم ويجعلوه حجة عليكم، فقالوا ذلك حسداً، حيث كان النبي - صلى الله عليه وسلم - من غيرهم، قال الله تعالى ﴿قُلْ إِنْ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾ وإن الفضل بيد الله، وهو قول مقاتل. وقال الكلبي: [بغير] ^(٦) تقديم وتأخير، يقول: «وَلَا تَوْمِنُوا» أي ولا تصدقوا إلا لمن تبع دينكم اليهودية، وصلى إلى قبلتكم، قل: إن الهدى هدى الله ^(٧)، يقول دين الله هو الإسلام. [﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ يقول لن يعطى أحدٌ مثل ما أُوتِيتُمْ من دين الإسلام والقرآن الذي فيه الحلال والحرام] ^(٨) ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ [أي: لن] ^(٩) يخاصمكم اليهود «عند ربكم» يوم القيامة، ثم قال ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ يعني النبوة والكتاب والهدى، بيد الله، أي: بتوفيق الله، ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [يعني يوفق من يشاء] ^(١٠)، ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. يقول: واسع الفضل «عليم» [بمن] ^(١١) يؤتيه الفضل ﴿يَخْتَصُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ يعني بدينه يعطيه من يشاء من عباده ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [أي ذو المن العظيم] ^(١٢)، لمن اختصه بالإسلام

(١) في ظ [نعت]. (٢) في أ [صلوا]. (٣) في أ [من الصلة]. (٤) سقط في ظ.
(٥) في أ [النبي]. (٦) في أ [فيه]. (٧) في أ [زيادة: (أن يؤتى أحدٌ مثل ما أُوتِيتُمْ)]. (٨) ما بين المعقوفين من ظ.
(٩) في أ [يقول أن]. (١٠) زيادة من ظ. (١١) في أ [لمن]. (١٢) زيادة من ظ.

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾

﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك﴾. قرأ أبو عمرو وحزمة: «يؤده» بجزم الهاء، وهي لغة [لبعض] العرب، واللغة المعروفة هي بإظهار الكسرة^(٢). قال مقاتل: يعني عبد الله بن سلام وأصحابه، وقال ابن عباس في رواية أبي صالح: إن الله تعالى ذكر أن أهل الكتاب فيهم أمانة وفيهم خيانة، وقال الضحاك ﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار﴾ يعني [به]^(٣) عبد الله بن سلام، أودعه رجل ألفاً [ومائتي]^(٤) أوقية من الذهب [فأداها]^(٥) إليه. فمدحه الله تعالى [ويقول إن نعت محمد - صلى الله عليه وسلم - أمانة فمن كتبه دخل تحت قوله «لا يؤده إليك» ومن لم يكتبه دخل تحت قوله يؤده، ثم قال تعالى: ﴿ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك﴾ وهو فنحاص بن عازورا اليهودي أودعه رجل ديناراً فخانه. ويقال: «يؤده إليك» يعني النصارى كانوا ألين قلوباً يؤدون الأمانة، واليهود لا يؤدون [الأمانة]^(٦)، فكانوا [إذا أخذوا]^(٧) أمانات الناس، أو مال اليتامى، فكانوا يغتبنون ذلك، كما يفعل بعض أهل الإسلام إذا [وقع في يده شيء من أموال المسلمين]^(٨) جعله كالغنيمة. ثم قال تعالى ﴿إلا ما دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ أي مُلِحًا متقاضياً و﴿ذلك﴾ [يعني]^(٩) الاستحلال ﴿بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل﴾ [يعني يقولون]^(١٠): ليس علينا في مال العرب مأثم. ويقال: من لم يكن على ديننا فمأله لنا حلال، بمنزلة مذهب الخوارج أنهم يستحلون مال من كان على خلاف مذهبهم. ﴿ويقولون على الله الكذب﴾ [وهم يعلمون]^(١١) لأنهم كانوا يقولون: إن ذلك حلال في التوراة فأخبر الله تعالى أنهم كاذبون على الله ﴿وهم يعلمون﴾ أن الله أمرهم بأداء الأمانة، وأخذ على ذلك ميثاقهم. فهذا قوله تعالى: ﴿بلى من أوفى بعهده﴾ أي بعهد الله الذي أخذ عليهم بأداء الأمانة [وهي نعت محمد - صلى الله عليه وسلم -] ﴿واتقى﴾ محارمه، هذا قول مقاتل. وقال الكلبي: واتقى ظلم الناس. ﴿فإن الله يحب المتقين﴾ عن نقض العهد.

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا

(١) في ظ [بعض].

(٢) قال ابن زنجلة: قرأ أبو عمرو وحزمة وأبو بكر: «يؤده إليك» و«لا يؤده إليك» بسكون الهاء. وحجتهم: أن من العرب من يجزم الهاء إذا تحرك ما قبلها فيقول: (ضربته ضرباً شديداً) ...

وقرأ الباقر: «يؤد هي إليك» و«لا يؤدهي إليك» يصلون بياء في اللفظ، وحجتهم: أن الباء بدل من الواو، وأصلهم «يؤد هو إليك»، لكن قلب الواو ياء لانكسار ما قبلها، فلا سبيل إلى حذف الباء وهي بدل من الواو. . . حجة القراءات لابن زنجلة

ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٣) سقط في ظ. (٤) في ظ [ومائة]. (٥) في ظ [فأداها].

(٦) سقط في ظ. (٧) زيادة من ظ. (٨) في أ [بأخذون].

(٩) ما بين المعقوفين من ظ. (١٠) زيادة من ظ. (١١) في ظ [يقول].

(١٢) سقط في ظ. (١٣) في ظ زاد: [وأخذوا على ذلك ميثاقهم وذلك قوله «بلى من أوفى بعهده»].

يَلُونُ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ
مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

﴿إن الذين يشترون بعهد الله﴾ قال ابن عباس في رواية أبي صالح: نزلت في شأن [عبدان]^(١) بن الأشوع، وأمرى القيس [بن عابس]^(٢)، ادعى أحدهما على صاحبه حقاً، فأراد المدعى عليه أن يحلف بالكذب، فنزلت هذه الآية. وقال مقاتل: نزلت في شأن رؤساء اليهود كتموا نعت محمد - صلى الله عليه وسلم - لأجل منافع الدنيا، ويقال أن جماعة من علماء اليهود قدموا المدينة من الشام ليسلموا، فلقبهم «كعب بن الأشرف»، فقال لهم: تعلمون أنه نبي؟ قالوا: نعم فقال لهم كعب: حرمتكم على أنفسكم خيراً كثيراً، لأنني كنت أردت أن أبعث لكم الهدايا، فقالوا: حتى ننظر في ذلك، فنظروا ثم رجعوا، فقالوا: ليس هو الذي وجدنا صفته، فأخذ منهم إقرارهم وخطوطهم، وأيمانهم على ذلك، ثم بعث إلى كل واحد منهم ثمانية أذرع من الكرباس، وخمسة أصوع^(٣) من الشعير، فنزل في شأنهم ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً﴾ أي عرضاً يسيراً ﴿أولئك لا خلاق لهم في الآخرة﴾ أي لا نصيب لهم في الآخرة ﴿ولا يكلمهم الله﴾ وقال الزجاج^(٤): قوله «ولا يكلمهم الله» يحتمل معنيين: أحدهما: (إسماع)^(٥) كلام الله تعالى أولياءه خصوصاً لهم كما كلم موسى (خصوصية)^(٦) له دون البشر، ويجوز أن يكون تأويله للغضب عليهم، كما يقال: فلان لا يكلم فلاناً، ولا ينظر إليه، أي هو غضبان عليه، وإن كان هو يكلمه بكلام السوء، فذلك معنى قوله «لا يكلمهم» أي: بكلام الرحمة، ﴿ولا ينظر إليهم يوم القيامة﴾ [بالرحمة]^(٨) ﴿ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم﴾^(٩). ثم قال: ﴿وإن منهم لفريقاً﴾ يعني طائفة من اليهود، وهذه اللام لزيادة تأكيد على تأكيد ﴿يلون ألسنتهم بالكتاب﴾ أي يحرفون ألسنتهم بالكتاب، يعني (نعت)^(١٠) محمد - صلى الله عليه وسلم - ويغيرونه. ويقال: يغيرونه في التلاوة، فيقرأونه على خلاف ما في التوراة ويقال: يحرفون تأويله على خلاف ما فيه ﴿لتحسبوه من الكتاب﴾ أي من التوراة ﴿وما هو من الكتاب﴾ أي من التوراة بل هم كتبوا وهم تأولوا ﴿ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله﴾ أي ليس هو من عند الله ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ أنه كذب.

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب﴾ أي التوراة والإنجيل، ﴿والحكم﴾ يعني الفهم ﴿والنبوة﴾ وهو

(١) في آ [عبد الله والصحيح ما جاء في ظ أنه (عبدان) وهو ابن الأشوع الحضرمي. أنظر الإصابة ٤ / ٧٦٠.

(٢) سقط في ظ.

(٣) امرؤ القيس بن عابس الكندي قال ابن السكك كان ممن ثبت على الإسلام.

(٤) في أ [أصح] ولكن هذا الجمع لم يرد في القاموس. قال الفيروزبادي. جمع الصاع: أضوع، وأصوع، وأضع، وضوع، وصيعان.

ترتيب القاموس المحيط ٨٦٨ / ٢ (صوع).

(٥) معاني القرآن وإعرابه ٤٤٢ / ١.

(٦) في أ [استماع].

(٧) في ظ [خصوصاً].

(٨) سقط في ظ.

(٩) سقط في ظ.

(١٠) في ظ [يحرفون نعت].

عيسى بن مريم - عليهما السلام - ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ﴾ ما جاز له أن يقول للناس: ﴿كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾. ويقال: إن اليهود والنصارى اختلفوا فيما بينهم، فجاء الفريقان جميعاً إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال كل فريق: نحن أولى بإبراهيم عليه السلام، فقال لهم: رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كلكم على الخطأ، فغضبوا وقالوا: والله ما تريد إلا أن نتخذك حَنَانًا (أي معبوداً) ^(١)، فأنزل الله تعالى: «مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ [الكتاب]» ^(٢) يعني القرآن ^(٣) «وَالْحَكْمَ» يعني الحلال والحرام «وَالنُّبُوَّةَ»، «ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ كَانُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ». ﴿وَلَكِنْ﴾ يقول لهم ﴿كُونُوا رَبَّانِينَ﴾ أي متعبدين، ويقال: كونوا علماء فقهاء. قال الزجاج ^(٤): الربانيون: أرباب العلم والبيان أي (كانوا) ^(٥) علماء ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ [الكتاب]﴾ أي كونوا عاملين بما كنتم تعلمون، لأن العالم إنما يقال له عالم، إذا عمل (بما علم) ^(٦)، وإن لم يعمل بعلمه فليس بعالم، لأن من ليس له من علمه منفعة فهو والجاهل سواء. ثم قال: ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ يقول بما كنتم تقرأون، يعني كونوا علماء بذلك عاملين به. قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: «بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» بنصب التاء والتخفيف، يعني يُعَلِّمُكُم الكتاب ودراسكم، والباقون بضم التاء والتشديد يعني تَعْلَمُونَ غيركم، فإنما يأمركم بذلك ^(٧). ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ يعني عيسى وعزيراً والملائكة - صلوات الله عليهم - ولو أمركم بذلك لكفر، وتنزع النبوة منه ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ﴾ يعني بعبادة الملائكة ﴿بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي مخلصون بالتوحيد لله. قرأ عاصم وحمزة وابن عامر: «وَلَا يَأْمُرُ» بنصب الراء، ينصرف إلى قوله «مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ» فيصير نصباً بأن، والباقون «وَلَا يَأْمُرُكُمْ» بضم الراء على معنى الإبتداء ^(٨)

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ يعني الميثاق حيث أخرجهم من صُلْبِ آدَم - عليه السلام - وأخذ عليهم الميثاق العهد أن يبلغ الأول الآخر وأن يصدق الآخر الأول فذلك قوله تعالى: «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ» يعني إقرار النبيين ﴿لَمَا آتَيْتُكُمْ﴾. قرأ حمزة «لَمَّا» [آتيتكم] ^(٩) بكسر اللام والتخفيف، [يعني بما آتيتكم] ^(١٠) والباقون [بنصب اللام] ^(١١)، ومعناه: فما آتيتكم يعني، أي كتاب آتيتكم لتؤمنوا به ^(١٢). وقرأ بعضهم: بنصب اللام

(١) سقط في ظ.

(٢) أخرجه السيوطي في: الدر المنثور ٤٦/٢، وعزاه لأبي إسحاق وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس.

(٣) ما بين المعقوفين من أ. (٤) معاني القرآن وإعرابه ٤٤٣/١. (٥) في ظ [كونوا]. (٦) في ظ [بعلمه].

(٧) وحجة القارئ بالتخفيف أنه سبحانه قال (بما كنتم تدرسون) بالتخفيف، ولم يقل (تدرسون).

(٨) وحجة القارئ بالتشديد: أن (تعلمون) أبلغ المدح من (تعلمون) لأن المعلم لا يكون معلماً حتى يكون عالماً بما يعلمه الناس قبل تعليمه، وربما كان عالماً ليس بمعلم.. حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٦٧. وانظر/ كنز المعاني - شرح حوز الأماني ص ٣١٨، ٣١٩.

(٩) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ١٦٨، وكنز المعاني ص ٣١٩.

(١٠) في أ [بالنصب].

(١١) زيادة في ظ.

(١٢): من قرأ بالكسر جعل (ما) بمعنى الذي، والمعنى: (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لِلَّذِي آتَيْتُكُمْ) أي لهذا، فهذه اللام لام الإضافة، =

والتشديد، أي حين آتيتكم ﴿من كتاب وحكمة﴾ يعني بيان الحلال والحرام. وقرأ نافع «آتيناكم» بلفظ الجماعة وهو لفظ الملوك، والباقون «آتيتكم» بلفظ الوجدان^(١). ويقال: أخذ الميثاق بالوحي، فلم يبعث نبياً إلا ذكر له عمداً - صلى الله عليه وسلم - ونعته، وأخذ عليه ميثاقه أن يبينه لقومه وأن يأخذ منهم ميثاقهم أن يبينوه لمن بعدهم ولا يكتُمونه. ﴿ثم جاءكم رسول﴾ يعني به أهل الكتاب الذين كانوا في زمن النبي - صلى الله عليه وسلم - ﴿مصدق لما معكم﴾ في التوحيد وبعض الشرائع، وذلك أن الله تعالى لما أخذ ميثاق الأنبياء وأخذ الأنبياء الميثاق من قومهم بأن يبينوه، فلما قدم النبي - صلى الله عليه وسلم - المدينة فكذبوه فذكرهم الله تعالى ما أتاهم به أنبياءهم فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ يعني محمد - صلى الله عليه وسلم - مصدق لما معكم من التوراة، ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾ يعني قال لهم في الميثاق لتؤمنن به، أي لتصدقنه إذا بُعث ﴿وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ إذا خرج ﴿قال﴾ لهم: ﴿أأقررتم﴾ بتصديقه، يعني هل أقررتم بما أخذ عليكم من الميثاق بتصديقه ونصره، ﴿وأخذتم على ذلكم إصري﴾ يعني هل قبلتم على ذلك عهدي الذي أخذت عليكم على إيمانكم بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿قالوا أقررنا﴾ ﴿قال﴾ الله تعالى: ﴿فأشهدوا﴾ بعضكم على بعض بأنني قد أخذت عليكم العهد ﴿وأنا معكم من الشاهدين﴾ على إقراركم. قال الزجاج^(٢): قوله «فأشهدوا» أي فاثبتوا^(٣) لأن الشاهد هو الذي يصحح دعوى المدعي وأنا معكم من الشاهدين، وشهادة الله للنبين تبينه أمر نبوتهم بالآيات (المعجزات)^(٤). وقال القتيبي: أصل الإصر، الثقل، فسمي العهد إصرأ، لأنه يمنع [صاحبه عن مخالفة]^(٥) الأمر الذي أخذ [عليه فثقل]^(٦)

فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى: ﴿فمن تولى بعد ذلك﴾ أي أعرض عن الإيمان، وعن البيان بعد ذلك الإقرار والعهد قوله: ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ أي الناقضون للعهد^(٧)، ويقال: [هم العاصون]^(٨)، وأصل الفسق الخروج من الطاعة كقوله تعالى «فسسق عن أمر ربه» أي خرج عن طاعة ربه. وقوله تعالى: ﴿أفغير دين الله يبغون﴾. قال الكلبي: وذلك أن كعب بن الأشرف [وأصحابه]^(٩) [اختصموا]^(١٠) مع النصاري إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالوا أينا أحق بدين إبراهيم، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - «كلا الفريقين بريء من دينه» فقالوا ما نرضى بقضائك، ولا

= واللام متعلقة بـ (أخذ الميثاق) المعنى: (أخذ الميثاق لإتيانه الكتاب والحكمة أخذ الميثاق).

قال الفراء: من كسر اللام يريد: أخذ الميثاق الذي أتاهم من الحكمة.

قال الزجاج: ويكون الكلام يؤول إلى الجزاء كما تقول: (لما جئتني أكرمتك).

وأما قراءة فتح اللام: فكان الكسائي يقول: معناه: مهما آتيتكم على تأويل الجزاء قال: وجوابه: فمن تولى...

وقال الزجاج: (ما) هنا على ضربين، يصلح أن تكون للشرط والجزاء، وهو أجود الوجهين... راجع حجة القراءات لابن زنجلة.

١٦٨، ١٦٩.

(١) راجع حجة القراءات لابن زنجلة ١٦٩، وكنز المعاني ٣١٩.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٤٤٦/١. (٣) في ظ [فبينوا].

(٤) سقط في أ. (٥) سقط في أ. (٦) في أ [له وثقل].

(٧) زيادة من ظ. (٨) في أ [لهم العاصون].

(٩) سقط في أ. (١٠) في أ [اختصم].

نأخذ بدينك فتزل قوله تعالى: «أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ» أي يطلبون. قرأ عاصم في رواية حفص «يبغون» وإليه يرجعون» كلاهما بالياء وقرأ أبو عمرو «يبغون» بالياء «وإليه ترجعون» بالياء، وقرأ الباقر: كلاهما بالياء على معنى المخاطبة، فمن قرأ بالياء يعني أفغير دين الله يطلبون من عندك، ومن قرأ بالياء يعني: أفغير دين الله تطلبون^(١)، «وله أسلم» أي أخلص وخضع «من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً». قال الكلبي: أما أهل السموات فأسلموا لله طائعين، وأما أهل الأرض فمن ولد في الإسلام أسلم طوعاً، ومن أبي قُوتِل حتى دخل في الإسلام كرهاً وما أفاء الله عليهم مما يسبون فيجاء بهم في السلاسل فيكرهون على الإسلام، وقال مجاهد: يسجد ظل المسلم ووجهه طائع، ويسجد ظل الكافر وهو كاره، وقال مقاتل: «وله أسلم من في السموات» يعني الملائكة، «والأرض» يعني المؤمنين «طوعاً وكرهاً» يعني أهل الأديان يقولون: الله ربكم، وخالفكم فذلك إسلامهم وهم مشركون. معنى قوله: ﴿وَلَهُ أُسْلِمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني خضعوا من جهة ما فطهرهم عليه، ودبرهم لا يمتنع ممتنع من جبلة ما جبل عليها، ولا يقدر على تغيير ما خلق عليها طوعاً وكرهاً، ثم قال: ﴿وإليه ترجعون﴾ [كما خلقكم أي]^(٢) كما بداكم، (فلا)^(٣) تقدرون على الإمتناع، كذلك يبعثكم كما بداكم، قرأ عاصم في رواية حفص: «يرجعون»، وقرأ الباقر بالياء^(٤).

قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ
لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾

ثم قال: ﴿قل آمنا بالله﴾ خاطب النبي - صلى الله عليه وسلم - وأراد به أمته، فقال: قل للمؤمنين إن لم يؤمن أهل الكتاب (فقولوا أنتم) «آمنا بالله» ﴿وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ وقد ذكرناه في سورة البقرة.

وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾

قوله: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً﴾، قال الكلبي: نزلت في شأن مرثد بن أبي مرثد وطُعْمَة بن أبييرق^(٥) ومقيس بن صبابه^(٦)، والحرث بن سويد^(٧) وكانوا عشرة، وقال [مقاتل]^(٨): كانوا اثني عشر، وقال الضحاك، يعني

(١) راجع حجة القراءات لابن زنجلة ١٧٠، وكنز المعاني ٣٢٠.
(٢) سقط في ظ.
(٣) في أ [ولا].
(٤) حجة القراءات لابن زنجلة ١٧٠، وكنز المعاني ٣٢٠.
(٥) طعمة بن أبييرق بن عمر الأنصاري، ذكره أبو إسحاق المسيمي في الصحابة وقال شهد المشاهد كلها إلا بدرأ وقد تكلم في إيمانه. الإصابة ٢٨٥/٣.
(٦) مقيس بن صبابه كان قد أسلم هو وأخوه هشام فوجد تبعس أخاه قتيلاً فشكا ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخذها ثم عدا على قاتل أخيه فقتله وارثه وأقام بمكة. الإصابة ٢٨٦/٦.
(٧) الحرث بن سويد بن الصامت الأنصاري الأوسي ارتد ولحق بالكفار فتزل ﴿كيف يهدي الله قوماً...﴾ الآية الإصابة ٢٩٣/١.
(٨) سقط في أ.

لا يقبل من جميع الخلق من أهل الأديان ديناً غير دين الإسلام، ومن يتدين غير الإسلام ديناً ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ «أي من المغبونين لأنه ترك منزله في الجنة، واختار منزله في النار.

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ ۚ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٩١﴾

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي بعدما ظهر لهم العلامات ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ فإن قيل: في ظاهر الآية: أن من كفر بعد إسلامه لا يهديه الله ومن كان ظالماً لا يهديه الله، وقد رأينا كثيراً من المرتدين، أسلموا وهادهم الله وكثيراً من الظالمين تابوا عن الظلم. قيل له: لا يهديهم الله ما داموا مقيمين على كفرهم وظلمهم ولا يقبلون إلى الإسلام، فأما إذا جاهدوا وقصدوا الرجوع وفهمهم الله لذلك لقوله «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا» وتأويل آخر: «كيف يهدي الله»، يقول كيف يرشدهم إلى الجنة كما قال في آية: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ». ويقال: كيف يرحمهم الله وينجيهم من العقوبة. ويقال: كيف يغفر الله لهم. وقالت المعتزلة: «كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ» معناه، كيف يكونون مهتدين لأنهم لا يرون الهداية والإهتداء في الإبتداء، إلا على سبيل الجزاء ويرون ذلك من كسب العبد. ثم قال ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ﴾ يعني أهل هذه الصفة التي ذكر^(١) ﴿أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ أي سخط الله، ويقال: الطرد والتبعيد من رحمة الله والخذلان، ويقال: يلعنهم بالقول ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ يعني عليهم لعنة الله والملائكة ﴿وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ إذا لعن رجل رجلاً، فإن لم يكن أهلاً لذلك رجعت اللعنة إلى الكفار. ويقال: من لم يكن على دينهم، يلعنهم في الدنيا، ومن كان على دينهم يلعنهم في الآخرة لقوله تعالى: «وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ، وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا» فذلك قوله تعالى: «وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ». ثم قال تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ يعني في اللعنة. فيما توجه اللعنة، وهو عذاب النار خالدين فيها ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ أي لا يهون عليهم العذاب ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي لا يؤجلون، ثم استثنى التوبة فقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ يقول: من بعد الكفر، وأصلحوا أعمالهم بالتوبة. ويقال: أصلحوا لمن أفسدوا من الناس ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لما كان منهم في الكفر رحيم بهم بعد التوبة. قال الكلبي ومقاتل: لما نزلت هذه الآية أي الرخصة بالتوبة، كتب أخو الحارث بن سويد إلى الحارث: إن الله قد عرض عليكم التوبة، فرجع وتاب، وبلغ ذلك إلى أصحابه الذين بمكة، فقالوا: إن محمداً تتربص به ريب المنون، فقالوا: نقيم بمكة على الكفر متى بدا لنا الرجعة رجعنا^(٢) فيتزل فينا ما نزل في «الحارث» فتقبل توبتنا فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا

(٢) في ظ [زيادة] فمتى أردنا الرجعة رجعنا).

(١) في أ [ذكرها].

كَفَرًا أَي ثَبَتُوا عَلَى كُفْرِهِمْ بِقَوْلِهِمْ: نَقِيمُ بِمَكَّةَ مَا بَدَا لَنَا «لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ» مَا أَقَامُوا عَلَى الْكُفْرِ. قَالَ الزَّجَّاجُ^(١): كَانُوا كُلَّمَا نَزَلَتْ آيَةٌ كَفَرُوا بِهَا، فَكَانَ ذَلِكَ زِيَادَةً كُفْرَهُمْ، وَقَوْلُهُ: ﴿لَنْ﴾^(٢) تَقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ ﴿أَي تَوْبَتَهُمْ﴾^(٣) الْأُولَى، وَحِطُّ أَجْرِ عَمَلِهِمْ. وَيُقَالُ: «لَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ» مَعْنَاهُ: إِنَّهُمْ [لَنْ]^(٤) يَتُوبُوا كَمَا [قَالَ السَّاعَةُ]^(٥) «وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شِفَاعَةٌ» أَي لَا يَشْفَعُ (لَهَا)^(٦) أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَهُمْ الَّذِينَ لَمْ يَتُوبُوا. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مَلَأُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ قَالَ الْكَلْبِيُّ: يَعْنِي وَزَنَ الْأَرْضَ ذَهَبًا. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَايَنَ النَّارَ [فِي الْآخِرَةِ]^(٧) يَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ لَهُ الْأَرْضُ ذَهَبًا فَيَقْدِرُ عَلَى أَنْ (يَفْتَدِيَ)^(٨) بِهِ نَفْسَهُ مِنَ الْعَذَابِ [لَا فِتْدَى بِهِ، وَلَوْ افْتَدَى بِهِ]^(٩) «مَا تَقْبَلُ مِنْهُ» [أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ]^(١٠) وَنَظِيرُهَا فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ» قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ الْآيَةُ.

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي رَوَايَةِ أَبِي صَالِحٍ أَنَّهُ قَالَ: لَنْ تَنَالُوا مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ ثَوَابِهِ فِي الْجَنَّةِ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ [أَي حَتَّى تَخْرِجُوا أَمْوَالَكُمْ طَيِّبَةً بِهَا أَنْفُسَكُمْ]^(١١)، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: يَعْنِي لَنْ تَنَالُوا التَّقْوَى حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ مِنَ الصَّدَقَةِ، أَيْ بَعْضُ مَا تُحِبُّونَ مِنَ الْأَمْوَالِ. ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ﴾ يَعْنِي الصَّدَقَةَ وَصَلَةَ الرَّحِمِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ أَي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ فَيُشِيرُكُمْ عَلَيْهِ. وَيُقَالُ: لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تَسْتَكْمِلُوا التَّقْوَى. وَيُقَالُ: لَا تَكُونُوا بَارِينَ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ (أَي مِنَ الصَّدَقَةِ، أَيْ بَعْضُ مَا تُحِبُّونَ مِنَ الْأَمْوَالِ)^(١٢) وَرَوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ^(١٣). أَنَّهُ كَانَ يَشْتَرِي أَعْدَالًا مِنَ السُّكَّرِ وَيَتَصَدَّقُ بِهَا فَقِيلَ لَهُ: هَلَا تَصَدَقْتَ بِشَمْنِهِ، فَقَالَ: لِأَنَّ السُّكَّرَ أَحَبُّ إِلَيَّ فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِمَا أَحَبُّ. وَرَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّهُ اشْتَرَى جَارِيَةً جَمِيلَةً وَكَانَ يَحِبُّهَا فَمَكَثَتْ عِنْدَهُ أَيَّامًا ثُمَّ اعْتَقَهَا وَزَوَّجَهَا مِنْ رَجُلٍ، فَوُلِدَ لَهَا وَلَدٌ، فَكَانَ يَأْخُذُ وَلَدَهَا وَيَضُمُّهُ إِلَى نَفْسِهِ وَيَقُولُ: أَشْمُ مِنْكَ رِيحَ أُمِّكَ، فَقِيلَ لَهُ: قَدْ رَزَقَكَ اللَّهُ مِنْ حَلَالٍ، وَأَنْتَ تَحِبُّهَا فَلَمْ تَرْكُهَا؟ فَقَالَ: أَلَمْ تَسْمَعْ هَذِهِ الْآيَةَ: «لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ» [وَرَوَى عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّهَا كَانَتْ تَقْرَأُ فِي مَصْحَفٍ مَذْهَبٌ فَلَمَّا انْتَهَتْ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ بَاعَتْهُ وَتَصَدَقَتْ بِشَمْنِهِ]^(١٤).

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾. قَالَ فِي رَوَايَةِ الْكَلْبِيِّ: خَرَجَ يَعْقُوبُ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ،

(١) معاني القرآن وإعرابه ٤٥٢/١. (٢) سقط في أ.

(٣) زيادة من ظ. (٤) في ظ [لم]. (٥) في أ [قال].

(٦) في أ [فيها]. (٧) زيادة من ظ. (٨) في أ [يفدي].

(٩) سقط في أ. (١٠) سقط في ظ. (١١) في ظ [من الصدقة، قال: وهي منسوخة، نسختها آية الزكاة]. (١٢) سقط في ظ.

(١٣) عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي أبو حنيفة الخليفة الصالح والملك العادل توفي سنة ١٠١ هـ. وانظر مناقب ابن

الجوزي في سيرة عمر بن عبد العزيز فوات الوفيات ١٠٥/٢ حلية الأولياء ٢٥٣/٥.

(١٤) سقط في ظ.

فلقية ملك في الطريق فظن يعقوب أنه لص، فعالجه فغمز الملك رجل يعقوب فهاج به عرق النساء، فنذر أن يحرم أحب الطعام إليه إن برأ من ذلك لما رأى فيه من الجهد، فلما برأ كان أحب الطعام إليه لحوم الإبل وألبانها فحرمها على نفسه، فقالت اليهود: هذا التحريم من الله تعالى في التوراة، فنزل قوله تعالى: «كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل» أي كان حلالاً إلا الميتة والدم ولحم الخنزير ثم قال: «إلا ما حرم إسرائيل على نفسه، مِنْ قَبْلِ أَنْ تَنْزَلَ التَّوْرَةُ» وليس تحريمها في التوراة، ثم قال لمحمد - صلى الله عليه وسلم - «قُلْ» لليهود «فَأَتَوْا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا» يعني اقرواها «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» بأن تحريمها في التوراة، لأنهم كانوا يقولون: إن ذلك حرام من وقت نوح وأنت وأصحابك تستحلونها. وقال الضحاك إن يعقوب لما أصابه عرق النساء، (أمره) (١) الأطباء أن يتجنب لحوم الإبل فحرم على نفسه لحوم الإبل، فقالت اليهود: حرّمناها على أنفسنا لأن يعقوب حرّمها على نفسه فنزل تحريمها في التوراة فنزلت الآية. ويقال: معناه كل طعام هو حلال لأمتك، مثل ما كان حلالاً لبني إسرائيل، إلا ما حرم إسرائيل على نفسه، وبعضها حرّم عليهم بذنوبهم. وقال الزجاج (٢): هذه الآية أعظم (دليل) (٣) لنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - لأنه أخبرهم بأنه ليس في كتابهم، وأمرهم بأن يأتوا بالتوراة فأبوا، وعرفوا أنه قال ذلك بالوحي.

فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾

ثم قال تعالى: «فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ» يعني اختلق على الله الكذب «مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ» البيان في كتابهم: «فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» يعني يظلمون أنفسهم «قُلْ صَدَقَ اللَّهُ» أن تحريمه ليس في التوراة، ويقال «قُلْ صَدَقَ اللَّهُ» حين قال: «مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا» «فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا» أي مخلصاً مستقيماً وكلوا لحوم الإبل وألبانها كما (أكلها) (٤) إبراهيم، ولا تحرموا على أنفسكم شيئاً بأهوائكم «وما كان» إبراهيم «ممن المشركين» يعني على دينهم.

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾

«إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ» (٥) قال مقاتل: يعني أول مسجد وضع للناس، أي للمؤمنين. ويقال: أول

(١) في ظ [وصف له]. (٢) معاني القرآن وإعرابه ٤٥٣/١. (٣) في ظ [دلالة]. (٤) في ظ [أكله]. (٥) في كونه «أول» قولان. أحدهما: أنه أول بيت كان في الأرض واختلف أرباب هذا القول، كيف كان أول بيت على ثلاثة أقوال. أحدها: أنه ظهر على وجه الماء حين خلق الله الأرض، فخلقه قبلها بالقي عام، ودحاها من تحتها، فروى سعيد المقبري عن أبي هريرة قال: كانت الكعبة خشبة على وجه الماء، عليها ملكان يسبحان الليل والنهار قبل الأرض بالقي سنة، وقال ابن عباس: وضع البيت في الماء على أربعة أركان قبل أن تخلق الدنيا بالقي سنة، ثم دحيت الأرض تحت البيت، وبهذا القول يقول ابن عمر، وابن عمرو قتادة، ومجاهد والسدي وآخرون. والثاني: أن آدم استوحش حين أهبط فأوحى الله إليه، أن: أبني لي بيتاً في الأرض، فاصنع حوله نحو ما رأيت ملائكتي تصنع حول عرشي، فبناه، رواه أبو صالح، عن ابن عباس. والثالث: أنه أهبط مع

موضع خلق هو موضع [الكعبة للناس]^(١) أي قبلة للناس ﴿لِلَّذِي بِيَكَةِ﴾ قال الكلبي: إنما سمي بكة لأن الناس يبك بعضهم بعضاً أي يزدهم^(٢). وقال الزجاج^(٣): بكة: موضع البيت، وسائر ما (حواليه)^(٤) مكة. وقال القتيبي: بكة ومكة شيء واحد، والباء تبدل من الميم، كما يقال: سمد رأسه وسبده إذا استأصله (أي قلع بأصله)^(٥)، ويقال: بكة موضع المسجد ومكة البلد حوله، ثم قال تعالى: ﴿مَبَارَكًا﴾ أي فيها بركة ومغفرة للذنوب ﴿وَهْدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ يعني قبلة لمن صلى إليها، وذلك أن اليهود قالوا للمؤمنين: لم عمدتم إلى الحجارة تطوفون بها، وتصلون إليها؟ وجعلوا يعظمون بيت المقدس فنزلت هذه الآية. وروى الكلبي: أن آدم - عليه السلام - بني البيت [فلما كان زمان الطوفان رفع إلى السماء السادسة] بحبال الكعبة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لم يدخلوه قط قبله. ويقال: أنزل من السماء وهو من ياقوتة حمراء^(٦). فلما كان زمان الطوفان رفع إلى السماء الرابعة. ثم قال تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ يعني علامات واضحات كالحجر الأسود والحطيم، ﴿مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ﴾ وروي عن عبد الله بن عباس: أنه كان يقرأ ﴿فِيهِ آيَةٌ بَيْنَةُ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وقرأ غيره، آيات بينات مقام إبراهيم^(٧) ومعناه من تلك الآيات مقام إبراهيم ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ﴾ يعني الحرم ﴿كَانَ آمِنًا﴾ يعني أن من دخله فيه، فإنه لا يهاجم منه إذا وجب عليه القتل خارج الحرم: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾. قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص حَجُّ بكسر الحاء والباءون بالنصب، وهما لغتان ومعناها واحد^(٨). ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ أي بلاغاً، والاستطاعة هي الزاد والراحلة وتخلية الطريق، ويقال: والله على الناس فريضة حج البيت. ثم قال: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ يعني ومن لم ير الحج واجباً فقد كفر فذلك قوله: ومن كفر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ يعني غني عمن حج وعمن لم يحج، قال الفقيه: حدثني أبي قال: حدثني أبو بكر المعلم، قال: حدثنا أبو عمران (الفارابي)^(٩)، قال: حدثنا عبد الرحمن بن حبيب، قال: حدثنا داود بن (المحبر)^(١٠)، قال: حدثنا عباد بن كثير عن عبد خير، عن علي بن أبي طالب، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال في خطبته: أيها الناس، إن الله تعالى فرض الحج على من استطاع إليه سبيلاً، ومن لم يفعل فَلَيُمُتْ على أي حال يهودياً أو نصرانياً، أو مجوسياً، إلا أن يكون به مرض أو منع من سلطان جائر، ألا لا نصيب له من شفاعتي ولا يرد حوضي. وروي عن أنس بن مالك عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: السبيل: الزاد والراحلة، وكذلك روي عن ابن عباس^(١١) - وقال مجاهد: مقام إبراهيم أثر قدميه.

= آدم، فلما كان الطوفان، رفع فصار معموراً في السماء وبني إبراهيم على أثره، رواه شيبان عن قتادة، القول الثاني: أنه أول بيت وضع للناس للعبادة، وقد كانت قبله بيوت، هذا قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والحسن، وعطاء بن السائب وآخرين - تفسير زاد المسير ١/ ٤٢٤، ٤٢٥ - ويؤيد هذا القول ما رواه أبو ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع أول؟ قال: «المسجد الحرام» قلت: ثم أي؟ قال «المسجد الأقصى». قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة». قلت: ثم أي؟ قال: «ثم حيث أدركت الصلاة فصل فكلها مسجد» رواه أحمد في المسند. والبخاري ومسلم.

(١) في ظ [مكة].

(٢) وقال أبو عبيدة: بكة، هي اسم لبطن مكة، وذلك لأنهم يتباكون فيها ويزدهمون (مجاز القرآن ٩٧/١) وقال ابن منظور: (وبكة: مكة، سميت بذلك لأنها كانت تبك أعناق الجبابرة إذا ألدوا فيها بظلم، وقيل لأن الناس يتباكون فيها من كل وجع، أي يتزاحمون وقال يعقوب: بكة ما بين جبلي مكة، لأن الناس يبك بعضهم بعضاً في الطواف أي يزحم (اللسان: بكك)).

(٣) معاني القرآن وإعراجه ١/ ٤٥٤. (٤) في أ [حوالي]. (٥) سقط في ظ.

(٦) ما بين المعقوفين من ظ. (٧) راجع البحر المحيط ٨/ ٣. (٨) كنز المعاني ٣٢٠، حجة القراءات لابن زنجلة ١٧٠.

(٩) في أ [الفارابي]. (١٠) في أ [محبر].

(١١)، أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عباس (٩٦٧/٢) كتاب المناسك، باب ما يوجب الحج (٢٨٩٧). وأخرجه الترمذي من حديث ابن =

قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنۢ ءَامَنَ تَبَغُّوهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾

ثم قال: ﴿قل يا أهل الكتاب﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿لم تكفرون بآيات الله﴾ يعني لم (تكفرون)^(١) بالحج والقرآن ومحمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿والله شهيد على ما تعملون﴾ من الجحود والكفر ﴿قل يا أهل الكتاب لم تصدّون﴾ يقول لم تصرفون الناس ﴿عن سبيل الله﴾ أي عن دين الله الإسلام، والحج^(٢) ﴿تبغونها عوجاً﴾ أي تطلبونها تغيراً وزيناً ﴿وأنتم شهداء﴾ أن ذلك في التوراة ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ من كتمان صفة محمد - صلى الله عليه وسلم - ونعته. ويقال في اللغة: ما كان ينتصب انتصاب العود والحائط، يقال، عوج بالنصب، وما لم ينتصب مثل الأرض والكلام، ويقال: عوج، كما قال تعالى: «لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً» وقال تعالى: «ولم يجعل له عوجاً. قيماً».

يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُم ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾

ثم قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أن تطيعوا فريقاً﴾ يقول طائفة ﴿من الذين أوتوا الكتاب﴾ وهم رؤساء اليهود ﴿يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وبالقرآن لأنهم كانوا يدعون إلى الكفر، واتباع مذهبهم وكان يتبعهم بعض المنافقين فنهى الله تعالى المؤمنين عن متابعتهم. ثم قال تعالى على وجه التعجب: ﴿وكيف تكفرون﴾ يقول: كيف تجحدون بواحداً من الله تعالى وبمحمد - صلى الله عليه وسلم - والقرآن ﴿وأنتم تتلى عليكم آيات الله﴾ يقول: يُقرأ عليكم القرآن وفيه دلائله وعجائبه، ﴿وفيكُم رسولُهُ﴾ يعني معكم محمد - صلى الله عليه وسلم - قال الزجاج^(٣): يجوز أن يكون هذا الخطاب لأصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - خاصة، لأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان فيهم وهم يشاهدونه، ويجوز أن يكون هذا الخطاب لجميع الأمة، لأن آثاره وعلاماته والقرآن الذي أتى به فينا، فكأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فينا وإن لم (نشاهده)^(٤). ثم قال عز وجل: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ﴾ يقول: يتمسك بدين الله ﴿فقد هُديَ إلى صراط مستقيم﴾^(٥) يقول: وفق وأرشد من الضلالة ﴿إلى صراط مستقيم﴾ يعني: الطريق الذي يسلك به إلى الجنة، وهو دين الإسلام.

يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ۚ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا ۚ كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ ۚ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ

= عمر ٢٠٩/٥ كتاب تفسير القرآن (٢٩٩٨)، والبيهقي في السنن ٣٢٧/٤ - ٣٣٠ كتاب الحج، والحاكم في المستدرک ٤٤١/١.

(١) في ظ [تجحدون]. (٢) في ظ [زيادة بعد قوله والحج من آمن بالإسلام والحج].

(٥) سقط في ظ.

(٤) في أ [يشاهده].

(٣) معاني القرآن وإعرابه ٤٥٨/١.

﴿١٠٣﴾ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ يقول أطيعوا الله حق طاعته، وحق طاعته أن يطاع فلا يعصى طرفه عين، وأن يشكر فلا يكفر طرفه عين، وأن يذكر فلا ينسى طرفه عين فشق ذلك على المسلمين، فأنزل الله تعالى «فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» فنسخت هذه الآية هكذا، قال الكلبي والضحاك [ومقاتل وغيرهم] ^(١) من المفسرين: إن هذه الآية منسوخة وقال بعضهم: لا يجوز أن يقال هذه الآية منسوخة لأنه لا يجوز أن يأمرهم بشيء لا [يطيقونه] ^(٢) ولكن الجواب أن يقال عن هذا: إنهم يطيقونه ^(٣) ولكن تلحقهم مشقة شديدة، (ولأن) ^(٤) ذلك مجهود الطاقة، ولا يستطيعون الدوام عليه، والله تعالى لا يكلف عباده إلا دون ما يطيقون، فخفف عنهم بقوله تعالى: [فاتقوا الله ما استطعتم] ولم ينسخ آخر الآية (أولها) ^(٥) وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ يعني اثبتوا على الإسلام، وكونوا بحال يلحقكم الموت وأنتم على الإسلام ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ يقول: تمسكوا بدين الله وبالقرآن، ويقال: تمسكوا بسبيل السنة والهدى، «ولا تفرقوا» يقول: ولا تختلفوا في الدين كاختلاف اليهود والنصارى ويقال: لا تختلفوا فيما بينكم بالعداوة والبغضاء، ويقال ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ يعني اطلبوا النصرة من الله لا من القبائل والعشيرة. ويقال ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ يعني ما اشبهه عليكم فردوه إلى كتاب الله كقوله تعالى «فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ» وقال بعض الحكماء: إن مثل من في الدنيا كمثل من وقع في بئر فيها من كل نوع من الآفات فلا يمكنه (أن يخرج منها) ^(٦)، والنجاة من آفاتنا إلا بحبل وثيق، فكذلك الدنيا دار محنة، وفيها كل نوع من الآفات، فلا سبيل إلى النجاة منها إلا بالتمسك بحبل وثيق، وهو كتاب الله تعالى. ثم (ذكرهم) ^(٧) نعمته فقال تعالى: ﴿اذْكُرُوا﴾ نعمتي واحفظوا ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ الإسلام ﴿إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً﴾ في الجاهلية ﴿فَأَلَّفَ﴾ الله ﴿بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ يعني جمع بين قلوبكم بالإسلام تودداً ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ يقول فصرتم بنعمة الإسلام ﴿إِخْوَانًا﴾ في الدين. وكل ما ذكر في القرآن أصبحتم، معناه صرتم، كقوله «إِنْ أَصْبَحَ مَأْوُكُمْ غُورًا» أي صار مأوكم غورا. وهذه الآية نزلت في شأن الأوس والخزرج، كان بينهم قتال قبل الإسلام بأربعين عاماً حتى كادوا أن يتفانوا، فلما بعث النبي - صلى الله عليه وسلم - بمكة آمن به الأوس والخزرج وهم بالمدينة، ثم خرج إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمكة قبل أن يهاجر منهم سبعون رجلاً، فخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومعه عمه العباس حتى أتى إلى العقبة (إلى سبعين) ^(٨) رجلاً من الأنصار فعاهدوه ثم رجعوا إلى المدينة، وهاجر النبي - صلى الله عليه وسلم - إليهم بعد الحولين، ف وقعت بين الأوس والخزرج ألفة، وزالت عنهم العداوة التي كانت (بينهم) ^(٩) في الجاهلية بالإسلام، وهذا كما ذكر في آية أخرى «لَوْ أَنفَقْتُ مَا فِي

(١) في أ [وغيرهما].

(٢) في أ [يستطيعونه].

(٣) سقط في ظ.

(٤) في ظ [وكان].

(٥) سقط في ظ.

(٦) في ظ [الخروج منها].

(٨) في أ [فأرى سبعين].

(٩) في ظ [عنهم].

الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم» وروي عن جابر بن عبد الله، أن رجلين من الأنصار أحدهما من الأوس والآخر من الخزرج تفاخرا فيما بينهما واقتتلا، فاستعان كل واحد منهما بقومه فاجتمعت الأوس والخزرج، وأخذوا السلاح وخرجوا للحرب، فبلغ الخبر إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فخرج إليهم في ثلاثين من المهاجرين وهو راكب على حمار له، قال جابر: فما كان من طالع يومئذ أكرم إلينا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذ طلع علينا، فأومأ إلينا بيده، فكففنا، ووقف بيننا على حمار له فقال: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ». [إلى قوله: «واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم»^(١)]. إلى قوله: «عذاب عظيم». فألقوا السلاح، واطفأوا الحرب التي كانت بينهم، وعانق بعضهم بعضاً ليكون، فما رأيت الناس أكثر باكياً من يومئذ، فلم يكن في الأرض شخص أحب إليهم من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد نزول هذه الآية، ثم قال تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ قال القتيبي: أشفى على كذا: إذا أشرف عليه^(٢) شفاً حُفْرَةً: أي حرف حفرة^(٣)، ومعناه: وكنتم في الجاهلية على هلاك بالشرك، من مات في الجاهلية كان في النار، ﴿فَانْقَذَكُم مِنْهَا﴾ بعدما كنتم على حرف من النار، ﴿كَذَلِكَ يَبِينُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ يعني علاماته حيث كنتم، أعداء في الجاهلية إخواناً في الإسلام ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [أي لكي تهتدوا]^(٤) من الضلالة وتعرفوا علامته بهذه النعمة ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ فهذه لام الأمر كقوله ﴿فليعمل عملاً صالحاً﴾ يعني لتكن منكم أمة، قال الكلبي: يعني جماعة، وقال مقاتل: يعني عصابة. وقال الزجاج^(٥): ولتكونوا كلكم أمة واحدة تدعون إلى الخير «ومن» ها هنا لتخص المخاطبين من بين سائر الأجناس وهي مؤكدة كقوله تعالى: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾ وقوله: ﴿يدعون إلى الخير﴾ يعني إلى الإسلام ويقال: إلى جميع الخيرات ﴿ويأمرون بالمعروف﴾ قال الكلبي: يعني باتباع محمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿وينهون عن المنكر﴾ يعني الجبت والطاغوت. ويقال: المنكر: يعني العمل الذي بخلاف الكتاب والسنة، ويقال: ما لا يصلح في العقل. وروي عن سفيان الثوري أنه قال: إنما يجب النهي عن المنكر إذا فعل فعلاً يخرج عن الاختلاف (أي اختلاف العلماء)^(٦) ويقال: إنما أمر بعض الناس بقوله: ﴿ولتكن منكم أمة﴾ ولم يأمر جميع الناس، لأن كل واحد من الناس لا يحسن الأمر بالمعروف، وإنما يجب على من يعلم. ويقال: إن الأمراء يجب عليهم الأمر والنهي باليد والعلماء باللسان والعوام بالقلب، وهنا كما قال عليه الصلاة والسلام: إذا رأى أحد منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان^(٧). وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «بحسب امرئ إذا رأى منكراً لا يستطيع النكير أن يعلم الله من قلبه أنه كاره». وروي عن بعض الصحابة أنه قال: إن الرجل إذا رأى منكراً لا يستطيع النكير عليه، فليقل ثلاث مرات: «اللهم إن هذا منكراً» فإذا قال ذلك فقد فعل ما عليه. ثم قال تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يعني الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر هم الناجون، ويقال: فازوا بالنعيم [ثم قال]^(٨): ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ في الاختلاف ﴿كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ فافترقت اليهود فرقاً والنصارى فرقاً^(٩)، فهي الله المؤمنين عن

(٣) وكذا قال أبو عبيدة في مجاز القرآن ٩٨/١.

(٢) أنظر اللسان: شفي.

(١) سقط من أ.

(٦) سقط من ظ.

(٥) معاني القرآن وإعراجه ٤٦٢/١.

(٤) زيادة من ظ.

(٧) أخرجه مسلم (٦٩/١) كتاب الإيمان/ باب بيان كون النهي عن المنكر. . . (٤٩/٧٨)، والترمذي (٤٠٧/٤٠) كتاب الفتن/ باب ما جاء في تغيير المنكر (٢١٧٢)، والنسائي (١١١/٨) كتاب الإيمان/ باب تفاضل أهل الإيمان (٥٠٠٨) وأحمد في المسند

(٣/٢٠).

(٩) زيادة من ظ.

(٨) زيادة من ظ.

ذلك. ثم خوفهم فقال: ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يعني دائم لا يرفع عنهم أبداً، يعني الذين اختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات، أي العلامات في أمر محمد - صلى الله عليه وسلم - وبيان الطريق. ثم بين منازل الذين تفرقوا والذين لم يتفرقوا فقال تعالى ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ يعني يوم القيامة حين يبعثون من قبورهم ويقال إن ذلك عند قوله تعالى: (وامتازوا اليوم أيها المجرمون)^(١) تكون وجوه المؤمنين مُبَيَّضَةً ووجوه (الكفار)^(٢) مُسْوَدَّةً، ويقال: إن ذلك عند قراءة الكتاب، إذا قرأ المؤمن كتابه، فرأى في كتابه (حسناته)^(٣) استبشر، وابيض وجهه، وإذا قرأ المنافق والكافر كتابه فرأى (فيه سيئاته)^(٤) اسود وجهه. ويقال: إن ذلك عند الميزان، إذا رجحت حسناته ابيض وجهه وإذا رجحت سيئاته اسود وجهه ويقال إذا كان يوم القيامة، يؤمر كل قوم بأن يجتمعوا إلى معبودهم، فإذا انتهوا إليه حزنوا واسودت وجوههم، فيبقى المؤمنون وأهل الكتاب والمنافقون فيقول الله تعالى للمؤمنين: «من ربكم؟» فيقولون: ربنا الله - عز وجل - فيقول لهم أتعرفونه إذا رأيتموه؟ فيقولون سبحانه إذا عرفنا عرفناه، فيرونه كما شاء الله، فيخر المؤمنون سجداً لله تعالى، فتصير وجوههم مثل الثلج بياضاً، وبقي المنافقون وأهل الكتاب، لا يقدر على السجود، فحزنوا واسودت وجوههم، فذلك قوله «يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ» ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ يعني، يقال لهم: أكفرتم؟ ولكن حذف القول، لأن في الكلام دليلاً عليه «بعد إيمانكم» يعني يوم الميثاق قالوا: بلى، يعني المرتدين والمنافقين. ويقال: هذا لليهود، وكانوا مؤمنين بمحمد - صلى الله عليه وسلم - قبل أن يُبعث، فلما بُعث كفروا به، وقال أبو العالية: هذا للمنافقين خاصة، يقول: أكفرتم في السر بعد (إيمانكم أي)^(٥) مع إقراركم في العلانية ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وبالقرآن، [حدثنا الخليل بن أحمد قال]^(٦): (حدثنا عباد بن الوليد قال حدثنا محمد بن عباد الهنائي)^(٧) قال: حدثنا حميد بن الخياط، قال: سألت أبا العالية عن هذه الآية: «فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ» فقال: حدثنا (أبو أمامة)^(٨) عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: إنهم الخوارج وسألته عن قوله: «لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ» آل عمران: ١١٨ قال: إنهم الخوارج. قوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ أي في جنة الله. قال الزجاج^(٩): يعني في الجنة التي صاروا إليها برحمة الله تعالى، لأن الجنة تُنال برحمته، ولا تُنال بالجهد، وإن اجتهد المجتهد، لأن نعمة الله تعالى لا يكافئها عمل «ففي رحمة الله» أي في ثواب الله ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي دائمون.

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾

﴿تلك آيات الله﴾ يعني القرآن ﴿نتلوها عليك﴾ يعني نزل جبريل، فيقرأ عليك ﴿بالحق﴾ أي بالصدق.

(٣) في أ [حسناته].

(٢) في ظ: الكافرين.

(١) سقط في ظ.

(٦) سقط في ظ

(٥) سقط في ظ.

(٤) في ظ: في كتابه سيئات.

(٧) في ظ: (حدثنا محمد بن صاعد قال حدثنا عباد بن الوليد قال حدثنا محمد بن عباد الهنائي).

وعباد هو: عباد بن الوليد الغبري، أبو بدر المؤدب. قال ابن أبي حاتم: صدوق، مات سنة اثنين وستين ومائتين. الخلاصة

٣١/٢

ومحمد هو: محمد بن عباد الهنائي أبو عباد البصري، قال أبو حاتم: صدوق. تهذيب التهذيب ٢٤٦/٩.

(٩) معاني القرآن وإعرابه ٤٦٥/١.

(٨) في أ [أبو أسامة].

وقال الزجاج^(١): «تلك آيات الله» أي تلك التي جرى ذكرها، حجج الله وعلاماته نزلوها عليك، أي نعرفك إياها. ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ يعني لا يعذبهم بغير ذنب، ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ قال بعضهم: هذا معطوف على الأول كأنه يقول: «وما الله يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ» لأنهم كلهم عبيده ومخلوقه ومرزوقه فلا يريد ظلمهم. وقال بعضهم: هذا ابتداء كلام، بين لعباده أن جميع ما في السموات وما في الأرض له حتى يسألوه ويعبدوه ولا يعبدوا غيره. ثم قال تعالى: ﴿وَالِلَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ يقول: تصير أمور العباد إلى الله في الآخرة.

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلَوْكُمْ أَلَا ذَبَّارْتُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١١١﴾

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال الكلبي: أخبر الله تعالى أن خير الدين عند الله دين أهل الإسلام، ووصفهم بالوفاء، فقال تعالى «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ» (أخرجت للناس)^(٢)... يقول (كنتم)^(٣) خير أهل دين كان الناس لا يظلمون من خالطهم، منهم أو من غيرهم، فجعلهم الله خير الناس للناس، ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ويقال: خير أمة أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ (تأمرُونَ)^(٤) بالمعروف (فتقاتلون)^(٥) الكفار ليسلموا، فترجع منفعتهم إلى غيرهم، كما قال - صلى الله عليه وسلم - «خير الناس من ينفع الناس»^(٦) ويقال «كنتم خير أمة» يعني «كنتم» عند الله في اللوح المحفوظ، ويقال: كنتم مذ أنتم خير أمة، ويقال: هذا الخطاب لأصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - يعني أنتم خير الأمة كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم -^(٧): «خير القرون أصحابي ثم الذين يلونهم». ثم وصفهم فقال: «تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ»، أي بالتحديد والإسلام ﴿وتنهون عن المنكر﴾ أي عن الشرك ﴿وتؤمنون بالله﴾ أي تصدقون بتوحيد الله، وتثبتون على ذلك. وقال الزجاج^(٨): «تؤمنون بالله» معناه تقرون أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - نبي الله، لأن من كفر بمحمد - صلى الله عليه وسلم - لم يوحد الله، لأنه يزعم أن الآيات المعجزات التي أتى بها من ذات نفسه. ثم قال تعالى: ﴿ولو آمن أهل الكتاب﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ من الإقامة على دينهم، ﴿منهم المؤمنون﴾ وهم مؤمنو أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه، ومن آمن من اليهود والنصارى ﴿وأكثرهم الفاسقون﴾ وهم كعب بن الأشرف وأصحابه، والذين لم يؤمنوا منهم ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ يعني باللسان، بالسب وغيره، وليس لهم قوة القتال ﴿وإن يقاتلوكم﴾ يعني إن أعانوكم في القتال فلا منفعة لكم منهم لأنهم ﴿يُؤْلَوْكُمُ الْأَدْبَارُ﴾ وينهزمون ﴿ثم لا يُنْصَرُونَ﴾ يقول: لا يُمنعون من الهزيمة فكأنه يحكي ضعفهم عن القتال، يقول: لو كانوا عليكم لا يضرونكم، ولو كانوا معكم لا ينفعونكم، وهذا حالهم إلى (يوم القيامة)^(٩) وهم اليهود،

(١) معاني القرآن وإعرابه ٤٦٦/١.

(٢) سقط في ظ.

(٤) في ظ [يأمرُونَ].

(٥) في ظ [فيقاتلون].

(٣) في ظ [أنتم].

(٦) قال في كشف الخفا (٤٧٢/١): لم أر من ذكر أنه حديث أولاً فليراجع، لكن معناه صحيح، وفي أحاديث ما يشهد لذلك كحديث

«الخلق عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله» ويشهد له ما رواه القاضي عن جابر - كما في الجامع الصغير - بلفظ «خير الناس

أنفعهم للناس».

(٧) أخرجه الترمذي (٤٧٦/٤) كتاب الشهادات (٢٣٠٢). بلفظ «خير الناس قرني»..

(٩) في ظ [اليوم].

(٨) معاني القرآن وإعرابه ٤٦٧/١.

ليس لهم شوكة ولا قوة القتال في موضع من المواضع، ويقال: «وإن يقاتلكم يُولُوكُم الأذبار» يعني: إن خرجوا إلى قتالكم وأرادوا قتالكم يولون الأذبار، أي ينهزمون منكم. ويقال: يُولُوكُم الأذبار يعني منهزمين. «ثم لا يُنصرون» يقول: لا يُمنعون منكم وهو قول الكلبي.

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءٌ وَبِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

ثم قال: «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ» يقول: جُعِلَتْ عليهم الجزية ويقال: أُلْزِمَ عليهم القتال «أَيْنَمَا تُقِفُوا» أي وجدوا «إلا بحبل من الله» أي بعهد من الله «وحبل من الناس» يعني تحت قوم يؤدون إليهم الجزية، فإن لم يكن لهم عهد قتلوا «وباءوا بغضب من الله» يقول: استوجبوا الغضب من الله تعالى. ويقال: رجعوا بغضب من الله «وضربت عليهم المسكنة» يعني جعل عليهم زي الفقر قال الكلبي: فترى الرجل منهم غنياً وعليه من البؤس (والفقر)^(١) والمسكنة. ويقال: إنهم يظهرون من أنفسهم الفقر، لكيلا تضاعف عليهم الجزية «ذلك» الذي يصيبهم «بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله» ومحمد - صلى الله عليه وسلم - وبالقرآن «ويقتلون الأنبياء بغير حق» يعني رضوا بما فعل آباؤهم، فكانهم قتلوهم «ذلك» الغضب «بما عَصَوْا» الله «وكانوا يعتدون». بأفعالهم (كلما)^(٢) ذكر الله عقوبة قوم في كتابه (بين)^(٣) المعنى الذي يعاقبهم لذلك، لكيلا يظن أحد أنه عذبهم بغير جرم. ثم بين فضيلة من آمن من أهل الكتاب، على من لم يؤمن فقال تعالى: «لَيْسُوا سَوَاءً» قال بعضهم: هذا معطوف على الأول «منهم المؤمنون، وأكثرهم الفاسقون» ليسوا سواء في الثواب، فيكون هاهنا وقف. وقال بعضهم: هذا ابتداء ويكون فيه مضمهر فكأنه يقول: ليس من آمن منهم، ويتلون آيات الله كمن هو كافر. كقوله تعالى: «أَمَّنْ هُوَ قَانِتِ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا» معناه ليس كالذي هو من أهل النار، فكذلك هاهنا. قال: ليس من آمن «من أهل الكتاب» كمن لم يؤمن، فبين الذين آمنوا فقال: من أهل الكتاب «أمة قائمة» يعني مُهَذَّبة عاملة بكتاب الله تعالى. ويقال: مستقيمة. وروى الزجاج عن الأخفش قال^(٤): ذو أمة قائمة، يعني ذو طريقة قائمة «يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ» يعني القرآن في الصلاة «آنَاءَ اللَّيْلِ» يعني في ساعات الليل «وهم يسجدون» أي يصلون لله. قوله «يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» يعني يقرون بالله وبمحمد - صلى الله عليه وسلم - «ويأمرؤن بالمعروف» أي باتباعه «ويَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» أي عن الشرك «وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ» أي يبادرون إلى الطاعات والأعمال الصالحة «وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ» أي مع الصالحين، وهم أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - في الجنة.

«وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ» يعني لن تجحدوه ولن تنسوه، يقول: تجزون به، وتتابون عليه في

(٤) معاني القرآن وإعرابه ١/ ٤٦٩.

(٣) في أ [فبين].

(٢) في أ [فكما].

(١) سقط في ظ.

الآخرة. وهذا كما روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال^(١): البر لا يتلى والإثم لا يُنسى. ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ أي عليم بثوابهم وهم مؤمنو أهل الكتاب، ومن كان بمثل حالهم. قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص. «وما يفعلوا من خير فلن يكفروه» كلاهما بالياء، والباقون كلاهما بالتاء على معنى المخاطبة^(٢).

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ﴾. قال مقاتل: ذكر قبل هذا مؤمني أهل الكتاب، ثم ذكر كفار أهل الكتاب. وهو قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾. وأما الكلبي، فقال: هذا ابتداء. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لن تغني عنهم كثرة أموالهم ولا كثرة أولادهم من عذاب الله شيئاً. وقال الضحاك: يعني اليهود والنصارى وجميع الكفار، وكل من خالف دين الإسلام، وذلك أنهم تفاخروا بالأموال والأولاد، وقالوا: نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين. فأخبر الله تعالى: أن أموالهم وأولادهم لا تغني عنهم من عذاب الله شيئاً. ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾. قال الكلبي: يعني ما ينفقون في غير طاعة الله ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ أي برد شديد ﴿أَصَابَتْ﴾ الريح الباردة ﴿حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بمنع حق الله تعالى منه. ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾ يقول: أحرقتة فلم ينتفعوا منه بشيء، فكذلك نفقة من أنفق في غير طاعة الله، لا (تنفعه)^(٣) في الآخرة، كما لا ينفع هذا الزرع في الدنيا. وقال مقاتل يعني نفقة السفلة على رؤساء اليهود. وقال الضحاك: مثل نفقة الكفار من أموالهم في أعيادهم، وعلى أضيافهم وما يعطي بعضهم بعضاً على الضلالة كمثل ريح الآية. ثم قال: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ يعني أصحاب الزرع هم ظلموا أنفسهم بمنع حق الله تعالى، فكذلك الكفار، أبطلوا ثواب أعمالهم بالشرك بالله تعالى.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةَ مَنْ دُونَكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخَفَى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَآأَنْتُمْ أُولَآءِ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لِقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَلَيْكُمْ أَلَا نَمْلِكُ مِنَ الْعَظِيطِ قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةَ مَنْ دُونَكُمْ﴾ يعني خلة وصداقة من غير أهل دينكم. وإنما

(١) هذا جزء من حديث ذكره السيوطي في الجامع كذا في الفتح ١٩/١، وعزه لعبد الرزاق عن أبي قلابة مرسلًا بلفظ «البر لا يبلى، والذنوب لا ينسى، والديان لا يموت، اعمل ما شئت كما تدين تدان».

(٢) راجع: حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٧٠، وكتر المعاني ٣٢٠.

(٣) في أ [لا تنفع].

سميت بطانةً لقربها من البدن «من دونكم» أي من دون المؤمنين. نزلت الآية في شأن جماعة من الأنصار كانت بينهم وبين اليهود مواصلة وخاصة وكانوا على ذلك بعد الإسلام، فنهاهم الله عز وجل عن ذلك. ويقال: كل من كان على خلاف مذهبه ودينه لا ينبغي له أن يحدثه لأنه يقال في المثل^(١):

عن المرء لا تسأل [وأبصر]^(٢) قرينه [فإن القرين]^(٣) بالمقارن يقتدي

وروي أبو هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال^(٤): المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل^(٥). وروي عن [ابن مسعود]^(٦) أنه قال^(٧): اعتبروا الناس بأخذانهم. ثم بين الله المعنى الذي لأجله نهى عن المواصلة فقال تعالى: ﴿لَا يَأْلُوَكُمْ خِبَالًا﴾ أي: فساداً، يعني لا يتركون الجهد في فسادكم، يعني أنهم لا يتركون وإن لم يقاتلوكم في الظاهر، فإنهم لا يتركون جهدهم في المكر والخديعة ﴿وَدُّوا مَا عَمِلْتُمْ﴾ ما أئتمتم بربكم. وقال الزجاج^(٨): الخبال في اللغة، ذهاب الشيء، والعنت في الأصل: المشقة. وقال القتيبي: الخبال: الفساد، وقال أيضاً ﴿وَدُّوا مَا عَمِلْتُمْ﴾ أي ما (أعنتكم)^(٩)، وهو ما نزل بكم [من مكروه]^(١٠). ثم قال: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ﴾ أي ظهرت العداوة والتكذيب لكم ﴿من أفواهم﴾ وما تخفي صدورهم أكبر أي والذي في صدورهم من العداوة «أكثر» مما أظهروا بأفواهمهم. ويقال: ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ أي قصدهم قتل محمد - صلى الله عليه وسلم - لأنهم كانوا يضمرون ذلك ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ يعني: أخبرناكم بما أخفوا، وبما أبدوا بالدلالات والعلامات ﴿إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وتصدقون. ﴿هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ﴾ يعني ها أنتم يا هؤلاء ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾ لمظاهرتكم إياهم، ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ لأنهم ليسوا على دينكم، وقال الضحاك: معناه كيف تحبون الكفار، وهم لا يحبونكم ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ يعني بالتوراة والإنجيل وسائر الكتب، ولا يؤمنون بذلك كله وقد فصلكم الله عليهم بذلك، لأنهم لا يؤمنون إلا بكتابهم، ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ﴾ يعني المنافقين منهم^(١١) ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ بمحمد - صلى الله عليه وسلم - إنه رسول الله^(١٢) ﴿وَإِذَا خَلَوْا﴾ فيما بينهم ﴿عَصَوْا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ﴾ يعني أطراف الأصابع ﴿مِنَ الْغِيظِ﴾ والحقن عليكم، فيقول بعضهم لبعض: ألا ترون إلى هؤلاء قد ظهروا وكثروا. قال الله تعالى لمحمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ يقول: موتوا بحتقكم، على وجه الدعاء والطرء واللعن، لا على وجه الأمر والإيجاب، لأنه لو كان على وجه الإيجاب لماتوا من ساعتهم. كما قال في موضع آخر: «فقال لهم

(١) القائل هو طرفة بن العبد البكري أصغر أصحاب المعلقات السبع سناً، يقال له «ابن العشرين». والبيت آخر أبيات معلقته في إحدى رواياتها. قال التبريزي: وقيل إنه «لعدي بن زيد». أنظر/ شرح القصائد العشر للتبريزي ص (٢٠٠).

(٢) في أ [وسل عن].

(٣) في أ [فكل قرين] والتصحيح من شرح المعلقات للتبريزي.

(٤) أخرجه الترمذي (٥٠٩/٤) كتاب الزهد (٢٣٧٨) وأبو داود (٢٥٩/٤) كتاب الأدب/ باب من يؤمر أن يجالس (٤٨٣٣) وأحمد في المسند (٣٠٣/٢) والحاكم في المستدرک (١٧١/٤).

(٥) في أ [يخالط]. (٦) في ظ [ابن عباس].

(٧) ذكر السيوطي - كذا في الفتح - نحوه من حديث ابن مسعود مرفوعاً وعزاه لابن عدي في الكامل وموقوفاً للبيهقي في الشعب بلفظ «اعتبروا الأرض بأسمائها واعتبروا بالصاحب بالصحاب» ورمز له بالضعف. وقال المناوي: قال بعضهم: طرقة كلها ضعيفة لكن له شواهد كخبر الطبراني «اعتبروا الناس بإخوانهم». فيض القدير (٥٥٢/١ - ٥٥٣).

(٨) معاني القرآن وإعرابه ٤٧٣/١. وقال ابن الأعرابي: «لا يألونكم خبالاً»: أي لا يقصرون في فسادكم (اللسان: خبل).

(٩) في ظ [اعنتم]. (١٠) في ظ [من كل مكروه]. (١١) زيادة في ظ. (١٢) زيادة من ظ.

اللَّهُ مُوتُوا» فماتوا من ساعتهم [فها هنا لم يرد به الإيجاب]^(١). وقال الضحاك: «قل موتوا بغيظكم» يعني أنكم تخرجون من الدنيا بهذه الحسرة والغيط، يعني اللفظ لفظ الأمر، والمراد به الخبر يعني أنكم تموتون بغيظكم ثم قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» يعني بما في قلوبكم من العداوة للمؤمنين، إن الله يجازيكم بذلك.

إِنْ تَمَسَّسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾

[ثم قال للمؤمنين]^(٢) «إِنْ تَمَسَّسْكُمْ حَسَنَةٌ» يعني الظفر والغنيمة كما أصابكم يوم بدر «تَسُؤْهُمْ» أي يسوؤهم «وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ» يعني الهزيمة، كما أصابكم يوم أحد، ويقال: الشدة في العيش والفحط. «يفرحوا بها وإن تصبروا» على أذى المنافقين واليهود «وتتقوا» المعصية [والشرك]^(٣) وهذا قول الكلبي. وقال مقاتل: «وإن تصبروا على أمر الله وتتقوا معاصيه. «لا يضرركم كيدهم شيئا» يقول: لا تضرركم عداوتهم شيئا. قرأ ابن كثير ونافع. وأبو عمرو «لَا يَضُرُّكُمْ» بكسر الضاد وجزم الراء وقرأ الباقون: بضم الضاد وتشديد الراء: ومعناها قريب في التفسير^(٤). يعني لا ضير عليكم من كيدهم. «إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ» يعني أحاط علمه بأعمالهم، والإحاطة هي إدراك الشيء بكماله.

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾

«وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ» يعني خرجت من منزلك بالصبح، ويقال: من عند أهلك، وهي عائشة - رضي الله عنها - «تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ» يعني تهبيء للمؤمنين «مقاعدا للقتال» يعني مواضع للحرب، قال الكلبي: هو يوم أحد. وقال مقاتل: هو يوم الخندق. «والله سميع» لدعائك «عليم» بأمر الكفار. «إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ» يعني أرادت وأضمرت طائفتان من المسلمين، وهما حيا بني حارثة وبني سلمة من الأنصار «أَنْ تَفْشَلَا» يعني أَنْ تَجُبَّنَا عَنْ الْقِتَالِ - مع النبي - صلى الله عليه وسلم - وترجعا. «والله وليهما» أي ناصرهما (وحافظهما)^(٥)، حيث لم يرجعا، لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - خرج من المدينة يوم أحد، ومعه ألف رجل فرجع، عبد الله بن أبي بن سلول مع ثلاثمائة من المنافقين ومن تابعهم فدخل الفشل في قبيلتين من الأنصار وهم المؤمنون، فأرادوا أَنْ يرجعوا، فحفظ الله تعالى قلوبهم فلم يرجعوا، فذلك قوله «والله وليهما» أي حافظ قلوبهما. «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ». يعني على المؤمنين أَنْ يتوكلوا على الله، وهذه كلها مِنْ ذِكْرِهَا اللَّهُ لِنَبِيِّهِ - صلى الله عليه وسلم - ليعرف ويشكر الله تعالى، ويصبر على ما يصيبه من الأذى.

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ

(٤) انظر: حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٧٧ وكنز المعاني ص ١٣٢.

(٢) زيادة من ظ.

(٣) زيادة من ظ.

(٥) في ظ [وحافظ قلوبهما].

أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزِلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾

ثم ذكرهم أمر بذر فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ﴾ أي أعانكم الله ببدر ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ يعني قليلة. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ يعني اعرفوا هذه النعمة، واتقوا الله ولا تعصوه ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لكي تشكروا الله. ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني يوم أحد. ﴿الَّذِينَ يَكْفِيكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزِلِينَ﴾ من السماء. يقول الله تعالى: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا﴾ مع نبيكم ﴿وَتَتَّقُوا﴾ معصيته بالهزيمة ﴿وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا﴾ يعني العدو يأتوكم من وجوههم ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ يعني معلمين بالصفوف الأبيض في نواصي الخيل، وفي أذنانها، عليهم البياض، قد أرخوا أطراف العمائم بين أكتافهم، فأنزل الله تعالى عليهم يوم بدر ثلاثة آلاف ووعد لهم يوم أحد خمسة آلاف، ولكنهم لما عصوا وتركوا أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رجعوا عنهم، ولو أنهم صبروا لنزلت عليهم^(١). قرأ عاصم وابن كثير وأبو عمرو «مسوِّمين» بكسر الواو، والباقون بالنصب ومعناهم قريب، وهو إرخاء أطراف العمائم بين الأكتاف^(٢) وهذا كما روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال يوم بدر تسوّموا فإن الملائكة قد تسومت^(٣).

وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنُظْمِنَ قُلُوبَكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ يعني المدد من الملائكة. قال بعضهم: إن الملائكة لم تقاتل، وإنما بعثهم للبشارة، وتسكين قلوب المؤمنين، لأن في قتال الملائكة، لم يكن للمؤمنين فضيلة، وإنما كانت الفضيلة للمؤمنين إذا كانوا هم الذين يقاتلون، ويهزمون الكفار، ولو كان ذلك لأجل الإعانة، لكان ملك واحد يكفيهم، كما فعل بقوم لوط - ألا ترى أنه قال تعالى: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ فجعل الفضيلة في قلتهم في أعين الكفار، ونصرتهم بالغبلة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ ﴿وَلِنُظْمِنَ قُلُوبَكُمْ بِهِ﴾ يعني (تطمئن)^(٤) إليه قلوبكم. وقال بعضهم: إن الملائكة كانوا يقاتلون [وكانت]^(٥) علامة ضربهم في الكفار ظاهرة، لأن كل موضع أصابت ضربتهم اشتعلت النار في ذلك الموضع حتى إن أبا جهل قال لابن مسعود: أنت ما قتلتنني إنما قتلني الذي لم [يصل]^(٦) سناني إلى سنبك فرسه، وإن اجتهدت. وإنما كانت الفائدة في كثرة الملائكة، لتسكن قلوب المؤمنين، ولأن الله تعالى جعل أولئك الملائكة مجاهدين إلى يوم القيامة، وكل عسكر من المسلمين صبروا واحتسبوا تأتيهم تلك الملائكة ويقاتلون معهم. ويقال: الفائدة في كثرة الملائكة أنهم كانوا يدعون

(١) أنظر: تفسير الطبري ١٨٦/٧ وما بعدها.

(٢) من قرأ بالكسر على إسم الفاعل بمعنى سَوَّمُوا أَنْفُسَهُمْ: أي جعلوا لها علامة يعرفون بها. ومن قرأ بالفتح على اسم المفعول كان الله تعالى سَوِّمَهُمْ من السومة وهي العلامة. كنز المعاني ٣٢١، ٣٢٢، حجة القراءات لابن زنجلة ١٧٣، ١٧٤.

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ١٨٦/٧ (١٧٧٦) من حديث «عسير بن إسحاق القرشي» أبو محمد مولى بني هاشم روي عن المقدار بن الأسود وعمرو بن العاص وأبي هريرة وكان قليل الحديث. وقال أبو حاتم والنسائي «لا نعلم أحداً روي عنه غير ابن عون» قال ابن معين «ثقة» وقال أيضاً: «لا يساوي حديثه شيئاً ولكن يكتب حديثه وهذا الحديث مرسل، وعن رجل: يكتب حديثه ولا يحتج به.

(٦) في أ [تصل].

(٥) في أ [وكان].

(٤) في ط [لتسكن].

ويسبحون، وثواب ذلك للذين يقاتلون يومئذ، وسنذكر قصة بدر في سورة الأنفال إن شاء الله تعالى. ثم قال: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ يعني ليس بكثرة العدد ولا بقلته، ولكن النصر من الله تعالى كما قال في آية أخرى: ﴿إِذْ أَعْجَبْتُكُمْ كَثْرَتَكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾.

لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبُ الْخَابِيَّ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾

ثم قال: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني أرسل الملائكة، ونصر المؤمنين لكي يقطع طرفاً، أي يستأصل جماعة من الذين كفروا ﴿أَوْ يَكْتَسِبُ الْخَابِيَّ﴾ قال الكلبي: أي يهزمهم. وقال مقاتل: يعني: يخزيهم، كقوله ﴿كُتِبَتْ كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، ويقال: يقطنهم. ﴿فَيَنْقَلِبُوا﴾ إلى مكة ﴿خَائِبِينَ﴾ لم يصيبوا ظفراً ولا خيراً، وقد قتل منهم [سبعون]^(١)، وأسر منهم [سبعون]^(٢) ويقال: معناه، وما جعله الله إلا بُشْرَى لَكُمْ ولتطمئن قلوبكم به وليقطع طرفاً من الذين كفروا ثم قال عز وجل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾. روى جوير عن الضحاك قال: لما كان يوم أحد، كسرت رباعية النبي - صلى الله عليه وسلم - وادمي ساقه، (وقتل)^(٣) سبعون رجلاً من الصحابة فهُمُ النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يدعو على المشركين، فأنزل الله تعالى ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أي: ليس لك من الحكم شيء ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ يعني كفار قريش يهديهم إلى الإسلام. وقال الكلبي: فهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يلعن الذين انهزموا من الصحابة يوم أحد، فنزل ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾، يعني الذين انهزموا ﴿أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ قال: فلما نزلت هذه الآية كف ولم يلعن المشركين، ولا الذين انهزموا من الصحابة، لعلم الله فيهم: أنهم سيتوبون، وأن المشركين سيؤمن كثير منهم وقد آمن كثير منهم فمنهم خالد بن الوليد، وعمر بن العاص، وعكرمة بن أبي جهل، وغيرهم. قال مقاتل: وكان سبعون رجلاً من أصحاب الصُّفَّة خرجوا إلى الغزو محتسبين، فقتل السبعون جميعاً فشق ذلك على النبي - صلى الله عليه وسلم - فدعا الله عليهم أربعين يوماً في صلاة الغداة فنزل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ ويقال: معنى قوله: أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ. أَوْ يعذبهم إن لم يكونوا من أهل التوبة.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

ثم عظم نفسه فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني أن جميع الخلق في ملكه، وعبيده. ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ وقال الضحاك: يغفر لمن يشاء الذنب (العظيم)^(٤) ﴿ويعذب من يشاء﴾ على الذنب الصغير، إذا أصر على ذلك ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. في تأخير العذاب [عنهم حيث]^(٥) لم يعاقبهم (قبل)^(٦) توبتهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ قال الزجاج^(٧): يعني لا تضاعفوا أموالكم بالربا. وقال

(٤) في ظ [الكبير].

(٣) في ظ [وقتلوا].

(٢) في أ [سبعين].

(١) في أ [سبعين].

(٧) معاني القرآن وإعرابه ٤٨١/١.

(٦) في ظ [وقيل توبتهم].

(٥) في أ [و].

القتبي: هو ما يضاعف منها شيء بعد شيء. ويقال: أضعافاً مضاعفة عند البيع، (بيعه)^(١) بأكثر من قيمته مضاعفة بعد العقد، أن يزيده في الأجل ويزيد في المال. ويقال: المضاعفة: هي نعت الأضعاف، كما قال تعالى: «حَلَالًا طَيِّبًا» والطيب: هو نعت الحلال. ثم قال تعالى: «وَاتَّقُوا اللَّهَ» في الربا فلا تستحلوه ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ أي لكي تنجوا من العذاب. ثم خَوْفُهُمْ فقال: «وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ» يعني خُلِقَتْ وهيئت للكافرين. وقالت المعتزلة: من أتى بالكبيرة ومات عليها، فإنه يخلد في النار (كالكافر، فإنه)^(٢) وعد لأكل الربا النار كما وعد الكفار وقال أكثر أهل العلم والتفسير: هذا الوعيد لمن استحل الربا ومن استحل الربا فإنه يكفر ويصير إلى النار، ويقال: معناه: اتقوا العمل الذي ينزع منكم الإيمان فتستوجبوا النار، لأن من الذنوب ما يستوجب به نزع الإيمان، ويخاف عليه، فمن ذلك عقوق الوالدين. وقد جاء في ذلك أثر: أن رجلاً كان عاقاً لوالدته يقال له علقمة فقبل له عند الموت قل: لا إله إلا الله، فلم يقدر على ذلك حتى (جاءت)^(٣) أمه فرضيت [منه]^(٤) ومن ذلك قطيعة الرحم، وأكل الربا، والخيانة في الأمانة. وذكر أبو بكر الوراق عن أبي حنيفة أنه قال: (أكبر)^(٥) ما في الذنوب (الذي ينزع)^(٦) الإيمان من العبد عند الموت، ثم قال أبو بكر: (فنظرنا)^(٧) في الذنوب التي تنزع الإيمان من العبد، فلم نجد شيئاً أسرع نزاعاً للإيمان من ظلم العباد.

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ يعني أطيعوا الله في الفرائض والرسول في السنن، ويقال وأطيعوا الله في تحريم الربا والرسول فيما بلغكم من التحريم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ولا تُعَذَّبُونَ ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم﴾. قرأ نافع ومن تابعه من أهل المدينة، وابن عامر ومن تابعه من أهل الشام «سارعوا» بغير الواو على معنى الابتداء، وقرأ الباقر (بالواو)^(٨) على معنى العطف^(٩)، قال الكلبي: معناه وسارعوا إلى التوبة من الربا. وقال مقاتل: وسارعوا بالأعمال الصالحة التي هي مغفرة لذنوبكم وإلى الجنة. وقال الضحاك: يعني سارعوا إلى (النجاه)^(١٠) الأكبر إلى الصف المقدم [في الصلاة]^(١١)، وإلى [الصف المقدم في] القتال^(١٢)، ويقال: وسارعوا حتى لا تفوتكم تكبيرة الافتتاح ثم قال تعالى ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، قال القتبي: أي سعتها، ولم يرد به العَرْض الذي هو خلاف الطول، والعرب تقول: بلاد عريضة أي واسعة. ويقال: عَرْضُ الجنة كعرض سبع سماوات، وكعرض سبع أرضين، لو ألزق بعضها إلى بعض، وإنما ذكر العرض ولم يذكر الطول، لأن طولها لا يعرف ولا يدرك. وقال الكلبي: الجنان (أربع)^(١٣): جنة عدن وهي الدرجة العليا، وجنة المأوى، وجنة الفردوس، وجنة النعيم، كل جنة منها كعرض السموات والأرض لو وصل بعضها إلى بعض. ويقال: لم يرد بهذا التقدير، ولكنه أراد بذلك أنها أوسع شيء رأيتموه، وقال السدي^(١٤): لو كسرت السموات وصرن خردلاً فبكل خردلة لله جنة

(١) في أ [بيعه]. (٢) في ظ [كالكفار لأنه]. (٣) في أ [جاءته]. (٤) في أ [عليه]. (٥) في ظ [أكثر]. (٦) في ظ [التي تنزع]. (٧) في أ [فنظر]. (٨) في ظ [وسارعوا]. (٩) راجع: كنز المعاني ٣٢٢، وحجة القراءات لابن زنجلة ١٧٤. (١٠) زيادة من ظ. (١١) سقط من ظ. (١٢) في ظ [أربعة]. (١٣) في ظ [أربعة]. (١٤) هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السدي الكبير أبو محمد القرشي. تهذيب التهذيب ٣١٣/١.

عرضها كعرض السموات والأرض. حدثنا محمد بن داود، قال: حدثنا (محمد)^(١) بن يحيى قال: حدثنا قتيبة بن سعيد، قال: حدثنا يعقوب^(٢) عن أبي حازم^(٣) قال: أخبرني سهل بن سعد^(٤)، قال: إن أدنى أهل الجنة، يقال له تَمَنُّ، فيقول: أعطني كذا، [أعطني كذا]^(٥) حتى إذا لم يجد شيئاً يتمنى لَقْن، فيقال له تَمَنُّ، قل كذا (قل كذا)^(٦)، فيقول: فيقال له (هي)^(٧) لك (ولك)^(٨) مثله معه وفي رواية أبي سعيد الخدري^(٩): لك هذا وعشرة أمثاله معه. ثم قال تعالى: ﴿أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يعني الجنة.

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ

ثم نعت المتقين فقال ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ إلخ الآية، [نعت للمتقين، ويقال: إن كل نعت من ذلك هو نعت على حدة، فكأنه يقول: أعدت للمتقين الذين ينفقون من السراء... إلخ]^(١٠). قوله: «في السَّراءِ والضَّرَّاءِ» أي ينفقون أموالهم في حال اليسر وفي حال العسر وهذا قول الكلبي وقال مقاتل والضحاك: في حال السعة والشدة. ويقال في حال الصحة والمرض، ويقال: «في السراء» يعني في حال الحياة، «وفي الضراء» يعني^(١١) بعد الموت ويقال: في سراء المسلمين في عرسهم وولائمهم، «والضراء» في نوائبهم ومآثمهم، ويقال: «في السَّراءِ» يعني النفقة التي تسركم، مثل النفقة التي على الأولاد والأقربين، «والضراء» النفقة على الأعداء والكاشحين ويقال: «في السراء» يعني: على الأنبياء يضيفهم، ويهدي إليهم «والضراء» يعني على أهل الضر، يتصدق عليهم. ﴿والكاظمين الغيظ﴾ يعني (المرددين)^(١٢) الغيظ في أجوافهم وأصله في اللغة: كظم البعير إذا رَدَّدَ جِرَّتَهُ^(١٣)، ومعناه الذين إذا أصابهم الغيظ تجاوزوا ولم يعاقبوا. ﴿والعافين عن الناس﴾ قال الكلبي: يعني عن المملوكين ويقال: «والعافين عن الناس» بعد قدرتهم عليهم، فيعفوا عنهم. ﴿والله يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ من الأحرار والمملوكين، ويقال: الذين يحسنون بعد العفو ويزيدون عليه إحساناً. وروي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: من كظم غيظاً وهو يقدر على أن ينفذه، ثم لم ينفذه، زوجه الله من الحور العين حيث يشاء^(١٤).

(١) في أ [أحمد والصحيح]: محمد وهو: محمد بن يحيى بن عبد الله الأهلي أبو عبد الله النيسابوري. التهذيب ٥١١/٩.

(٢) هو: يعقوب بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله المدني حليف بني زهرة سكن الإسكندرية وثقة ابن معين وأحمد وذكره ابن حبان في الثقات. التهذيب ٣٩١/١١ - ٣٩٢.

(٣) سلمة بن دينار أبو حازم الأعرج ثقة. التهذيب ١٤٣/٤ - ١٤٤.

(٤) سهل بن سعد بن مالك الأنصاري الساعدي من مشاهير الصحابة يقال كان اسمه «حزنا» فغيره النبي - صلى الله عليه وسلم - حكاة ابن حبان. الإصابة ١٤٠/٣.

(٥) زيادة من ظ. (٦) في أ [أو كذا]. (٧) سقط في ظ.

(٨) في ظ [ذلك].

(٩) أخرجه مسلم في الصحيح ١٧٥/١ في كتاب الإيمان / باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٨٨/٣١١).

(١٠) سقط في أ. (١١) في ظ [زيادة: بعصي]. (١٢) في أ [المرتدين].

(١٣) انظر اللسان (كظم) وفيه: والأصل في الكظم: الإمساك على غيظ وغم، والجرة: ما تخرجه من كروشها فتجتز.

(١٤) أخرجه أحمد في المسند ٤٤٠/٣ وأخرجه أبو داود في السنن ٢٤٨/٤ في الأدب / باب من كظم غيظاً (٤٧٧٧) وأخرجه الترمذي

٣٢٦/٤ - ٣٢٧ في كتاب البر والصلة / باب في كظم الغيظ (٢٠٢١) وأخرجه ابن ماجه ١٤٠٠/٢ في كتاب الزهد (٤١٨٦)

والبيهقي في السنن الكبرى ١٦١/٨.

وفي خبر آخر عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال: ما عفى رجلٌ عن مَظْلَمَةٍ قط إلا زادَهُ الله بها عِزًّا^(١).

وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ نزلت في شأن رجل تمار، جاءت امرأة تشتري منه تمرًا، فأدخلها في [حانوته]^(٢) وقبلها ثم ندم على ذلك، فنزلت هذه الآية ويقال نزلت هذه الآية في رجل مَسَّ امرأة أخيه في الله وكان أخوه خرج غازيًا ثم ندم وتاب. ويقال: إنها نزلت في شأن بهلول النباش^(٣) تاب عن صنيعه فنزلت هذه الآية، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ يعني الزنا ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ يعني القُبْلَةَ (واللمس)^(٤). ويقال: الفاحشة: كل فعل يستوجب به الحد في الدنيا ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ ما دون ذلك. ويقال: الفاحشة: ما استوجب به النار ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ ما استوجب به الحساب والحبس. وقال إبراهيم النخعي: الظلم ها هنا تفسير الفاحشة^(٥)، فكانه يقول: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾. ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ أي خافوا الله، ويقال: ذكروا مقامهم بين يدي الله، ويقال: ذكروا عذاب الله ﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ يعني الاستغفار باللسان، والندامة بالقلب. ويقال: الاستغفار باللسان بغير ندامة (القلب)^(٦) توبة الكذابين. وروي عن الحسن البصري أنه قال: استغفارنا يحتاج إلى الاستغفار الكثير. ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ يعني لا يغفر الذنوب إلا الله. ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا﴾ يعني لم يقيموا على ما فعلوا من المعصية. ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنها معصية فلا يرجعون. ويقال: في الآية تقديم وتأخير فكانه يقول: والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب إلا الله. ﴿أُولَٰئِكَ﴾ يعني أهل هذه الصفة ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ يعني ثوابهم ﴿مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ يعني نعم ثواب العاملين الجنة، وهو قول الكلبي. وقال مقاتل: نعم ثواب التائبين من الذنوب الجنة ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ أي قد مضت لكل أمة سنة ومنهاج فإذا اتبعوها رضي الله عنهم. قال الكلبي: قد مضت سنة بالهلاك فيمن كان قبلكم، فانظروا: أي فاعتبروا كيف كان جزاء المكذبين. وقال مقاتل: نحو هذا، وقال: يخوف الله هذه الأمة بمثل عذاب الأمم (السابقة)^(٧). وقال السدي: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي اقرءوا القرآن ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾، لأن من لم يسافر، فإنه لا يعرف ذلك. وأما من قرأ القرآن فإنه يعرف ذلك. وقال الحسن: اقرءوا القرآن وتدبروا فيه، فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين.

(١) أخرجه أحمد في السند ٤٣٨/٢. (٢) في ظ [الحانوت].

(٣) بهلول بن دويب النباش جاء ذكره في حديث لم يثبت. الإصابة ١٧٣/١.

(٤) في أ [واللمس].

(٥) أخرجه ابن جرير في التفسير ٢١٨/٧ (٧٨٤٨) وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٧٧/٢ لابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٦) في أ [للقلب].

(٧) في أ [الخالية].

هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾

[ثم قال] ^(١): ﴿هذا بيان للناس﴾ يعني القرآن بيان للناس من الضلالة ﴿وهدى﴾ من العمى ﴿وموعظة﴾ من الجهل، ويقال: هدى وموعظة أي كرامة ورحمة ﴿للمتقين﴾ ﴿ولا تهنوا﴾ أي لا تضعفوا، ولا تجنوا، ويقال: ولا تعجزوا عن عدوكم، ﴿ولا تحزنوا﴾ على ما أصابكم من القتل والهزيمة يوم أحد ﴿وأنتم الأعلون﴾ يعني الغالبون، يقول: آخر الأمر لكم، ويقال: وأنتم الأعلون في الجنة. ويقال: هذا وعد لأصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - في المستأنف «وأنتم الأعلون» أي الغالبون على الأعداء بعد أحد فلم يخرجوا بعد ذلك في عسكر إلا ظفروا في عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفي كل عسكر كان بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا كان فيه واحد من الصحابة، كان الظفر لهم، فهذه البلدان كلها إنما فتحت في عهد أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم بعد انقراضهم ما فتحت بلدة على الوجه، كما كانوا يفتحون في ذلك الوقت. ويقال: في هذه الآية بيان فضل هذه الأمة، لأنه خاطبهم بما خاطب به أنبياءه لأنه قال لموسى - عليه الصلاة والسلام - «إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى». وقال لهذه الأمة: «وأنتم الأعلون». ويقال: اشتقت هذه اللفظة من اسم الله تعالى، لأن اسمه العلي الأعلى، وقال للمؤمنين: «وأنتم الأعلون» ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني إن كنتم مصدقين بوعد الله، ويقال: معناه: إذ كنتم مؤمنين. ويقال: في الآية تقديم وتأخير، فكأنه قال: ولا تهنوا ولا تحزنوا إن كنتم مؤمنين وأنتم الأعلون، ويقال: إن هذا وعد لهم بأنهم غالبون إن ثبتوا وصدقوا، فلو أنهم ثبتوا وصدقوا لغلبوا كما غلبوا يوم بدر، ولكنهم تركوا أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فرجع الأمر عليهم، وكانت القصة في ذلك أنهم لما غلبوا المشركين يوم بدر وأصابوا منهم ما أصابوا، وسنذكر قصة بدر في سورة الأنفال - إن شاء الله تعالى - فرجع أبو سفيان بن حرب إلى مكة بالغير. وانهزم المشركون وذهب عكرمة بن أبي جهل، ورجال (أصيب) ^(٢) أبناؤهم وآباؤهم وإخوانهم بيد إلى أبي سفيان بن حرب، وهو رئيس مكة، فكلموه، وأتاه كل من كان له في ذلك العير مال. فقالوا: إن محمداً قد قتل خياركم [فاستعينوا بهذه الأموال] ^(٣) على حربه ففعلوا. قال الضحاك: (فأعانهم) ^(٤) أبو سفيان بمائة راحلة، وما يصلحها من الزاد والسلاح، (فسارت) ^(٥) قريش، وهم ثلاثة آلاف رجل، وعليهم «أبو سفيان بن حرب»، وكان في القوم «خالد بن الوليد» و«عمرو بن العاص»، و«عكرمة بن أبي جهل»، وذلك قبل دخولهم في الإسلام فلم يبق أحد من قريش إلا وخرج أهله معه وولده، يجعلهم خلف ظهره ليقاتل عنهم، فلما سمع (معهم) ^(٦) رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خطب الناس وقال في خطبته: إني رأيت فيما يرى النائم كأن في سيفي ثلثة فأولتها مصيبة في نفسي، ورأيت بقوراً قد ذبحت فأولتها قتلى في أصحابي، ورأيت كأنني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة، فأشيروا عليّ، وكره الخروج إليهم، فكان رأي عبد الله بن أبي بن سلول مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأن لا يخرج إليهم، ولكنه كان منافقاً، فقال يا رسول الله، لا تخرج إليهم فإننا ما خرجنا إلى عدو قط إلا أصاب منا، ولا دخل علينا إلا أصابنا منه فقال رجال من المسلمين ممن أكرمهم الله بالشهادة [وغيرهم ممن فاتته

(١) في ظ [فأعينو بهذا المال].

(٢) في أ [أصيب].

(٣) زيادة من ظ.

(٤) في أ [ذلك].

(٥) في أ [فسافرت].

(٦) في ظ [قد أعانهم].

بدر^(١): أخرج لهم يا رسول الله، لكي لا يرى أعداء الله أنا قد جئنا^(٢) (وضعفنا عن قتالهم)^(٣)، فلم يزالوا به حتى دخل ولبس لأمتة، ثم خرج النبي - صلى الله عليه وسلم - إليهم، وقد خرج الناس، [فقالوا: استكرهنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم]^(٤) فقالوا: يا رسول الله قد استكرهناك، وما كان لنا ذلك فإن شئت فآخرج، وإن شئت فاقعد، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - ما ينبغي للنبي أن يضع سلاحه إذا لبسه حتى يقاتل. فخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسار إلى أحدٍ فانخذل عبد الله بن أبي بن سلول، قال في رواية الكلبي: فرجع معه ثلاثمائة من الناس، وبقي مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نحو سبعمائة رجل وقال في رواية الضحاك: فانخذل في ستمائة رجل من اليهود، وبقي مع النبي - صلى الله عليه وسلم - ألف رجل من المؤمنين الطيبين، ثم خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى نزل بالشَّعب من أحد، وأمر عبد الله بن جبير على الرِّمَّة وقال لهم: لا تَبْرَحُوا من هذا الموضع واثبتوا [ههنا]^(٥) إن كان الأمر علينا أو لنا. وقال في رواية الكلبي: كان الرِّمَّةُ خمسين رجلاً، وقال في رواية الضحاك كانوا سبعين رجلاً، فجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ظهره إلى أحد، ودنا المشركون وأخذوا في الحرب فقامت هند امرأة أبي سفيان وصواحبها حين حميت الحرب يضربن بالدُّفوف خلف قريش ويقلن:

نَحْنُ بَنَاتُ طَارِقٍ نَمْشِي عَلَى النُّمَارِقِ
إِنْ تُقْبِلُوا نُعَانِقُ أَوْ تُذْبِرُوا نَفَارِقُ
فِرَاقٌ غَيْرَ وَامِقٍ

فقاتل أبو دجانة في نفر من المسلمين قتالاً شديداً، وقاتل علي بن أبي طالب حتى (انكسر)^(٦) سيفه، وقاتل سعد بن أبي وقاص، وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول لسعد: إرم فداك أبي وأمي^(٧)، فقتلوا جماعة من المشركين، وَصَدَّقَهُم الله وعده، وأنزل نصره، حتى كانت هزيمة القوم لا شك، فكشفوهم عن عسكريهم قال الزبير: رأيت هنداً وصواحبها هوارب، فلما نظر الرِّمَّة إلى القوم وانهمزوا أقبلوا على النهب، فقال لهم عبد الله بن جُبَيْر، لا تَبْرَحُوا عن هذا الموضع، فإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد عَهَدَ إليكم، فلم يلتفتوا إلى قوله وظنوا أن المشركين قد انهزموا، فبقي عبد الله بن جبير مع ثمانية نفر، فخرج خالد بن الوليد مع خمسين ومائتي فارس من قِبَل الشَّعب، فقتلوا من بقي من الرِّمَّة ودخلوا خلف أفضية المسلمين، وتفرق المسلمون، ورجع المشركون وحملوا حملةً واحدة فصار المسلمون ثلاثة أنواع: بعضهم جريح، وبعضهم قتيل، وبعضهم منهزم، وكان مصعب بن عمير يَذُبُّ عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى قُتِلَ دونه، ثم قاد زياد بن (السكن)^(٨) فقاتل بين يدي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى قُتِلَ، وخلص الحرب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقذف بالحجارة حتى وقع بشفتيه وأصيبت رباعيته، وَكَلِمَتُ شَفْتِهِ، وأدمي ساقه فقال سفيان بن عيينة: لقد أصيب مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - [نحو]^(٩) ثلاثين رجلاً كلهم جثوا بين يديه، أو قال كلهم يتقدم بين

(١) زيادة من ظ.

(٢) في ظ [لهم].

(٣) في ظ [أضعفنا عنهم].

(٤) زيادة من ظ.

(٥) في ظ [القوي].

(٦) زيادة من ظ.

(٧) أخرجه البخاري ٣٥٨/٧ في المغازي / باب (١٨) حديث (٤٠٥٩) ومسلم ١٨٧٦/٤ في فضائل الصحابة / باب فضل سعد بن أبي وقاص - (٤١ / ٢٤١١) والترمذي في السنن رقم (٣٧٥٥) وابن ماجه (١٢٩، ١٣٠) وأحمد في المسند ١٢٤/١، ١٣٧ والطبراني في المعجم ٢٥٤١ (٢٥٤١) والطبراني في الكبير ١٠٤/١.

(٨) في ظ [سكن].

(٩) زيادة من ظ.

يديه ثم يقول: وجهي لوجهك الوفاء ونفسي لنفسك الفداء وعليك سلام الله غير مودع. فرجع الذي قتل مصعب بن عمير، فظن أنه (قتل) ^(١) رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال للمشركين: قتلتم محمداً، فصرخ صارخ: ألا إن محمداً قد قُتل. ويقال: كان ذلك إبليس - لعنه الله - فولى المسلمون هاربين متحيرين، وجاء إبليس لعنه الله ونادى بأعلى صوته في المدينة ألا إن محمداً قد قتل، وأخذت النسوة في البكاء في البيوت، فأقبل أنس بن النضر، عم أنس بن مالك إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رجالٍ من المهاجرين والأنصار، فقال: ما يُجلسكم، قالوا: قتل محمد فقال: ما تصنعون بالحياة بعده، موتوا كراماً على ما مات عليه نبيكم، ثم أقبل نحو العدو فقاتل حتى قتل، قال كعب بن مالك، فأول من كنت عرفت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من المسلمين عرفت عينيه من تحت المغفر تزهرا، فناديت بأعلى صوتي، يا معشر المسلمين أبشروا، هذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأشار إليَّ (أن) ^(٢) اسكت، وقال أنس بن مالك: قد شج وجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجعل الدم يسيل على وجهه وهو يمسح الدم، ويقول: كيف يفلح قوم خَضَبُوا وجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالدم، وهو يدعوهم إلى ربهم. ويقال: إن أصحابه لما اجتمعوا قالوا: يا رسول الله لو دعوت الله على هؤلاء الذين صنعوا بك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لم أُبعث طَعَاناً ولا لَعَاناً، ولكن بعثت داعياً ورحمة، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون، فجاءه أبي بن خلف الجمحي، فقال: يا محمد لا نَجُوتُ إن نجوتَ مني فهم المسلمون بقتله، فقال لهم: دعوه حتى دنا منه، فتناول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الحربة من الحارث بن الصمة ورمها بها، فخدشه في عنقه خدشاً غير (كبير) ^(٣) وقد كان ذلك لقي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمكة، وقال: عندي فرس أعلفه كل يوم فرق ذرة أقتلك عليه، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بل أنا أقتلك - إن شاء الله - فلما خدشه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في عنقه رجع إلى قريش وهو يقول: قتلني محمد فقالوا له ما بك من طعن، فقال: بلى لقد قال لي: أنا أقتلك، والله لو (بصق) ^(٤) علي بعد تلك المقالة لقتلني، فمات قبل أن يصل إلى مكة في (طريقها) ^(٥) وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واقفاً عند أحد وقد اجتمع عليه بعض أصحابه، فعلت عليه فرقة من قريش في الجبل فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا ينبغي لهم أن يعلونا فأقبل عمر ورهط من المهاجرين فقاتلوهم حتى أهبطوهم من الجبل. وقد كان «جبير بن مطعم» قال لمملوك له يقال له «وحشي»: إن أنت قتلت محمداً جعلت لك أعة الخيل، وإن أنت قتلت علي بن أبي طالب جعلت لك مائة ناقة، كلها سود الحديقة، وإن أنت قتلت حمزة فأنت حرٌّ فقال وحشي: أما محمد فعليه حافظ من الله تعالى لا يخلص إليه أحد، وأما عليٌّ فما برز إليه رجل إلا قتله، وأما حمزة فرجل شجاع فعسى أن أصادفه في غِرَّتِه فاقتله مكانه، وكانت هند كلما مر بها وحشي أو مرت به هند قالت له: إيهأ أبا دسمة إشف واستشف، فكمن وحشي خلف صخرة وكان حمزة حمل على قوم من المشركين، فلما رجع من حملته مر بوحشي وهو خلف الصخرة فزرقه (بمزراق) ^(٦) فأصابه فسقط فذهبت هند ابنة عتبة والنسوة [اللاتي] ^(٧) معها، يمثلن بالقتلى، يجدن الأذان والأنوف (وشقَّت) ^(٨) هند بطن حمزة وأخذت كبده ومضغته، ثم صعدت هند على صخرة وهي تنادي بأعلى صوتها نَحْنُ جَزَيْنَاكُم بيوم بدر، وأقبل أبو سفيان وهو (يصرخ) ^(٩) بأعلى صوته: أعلُ هبل يوماً بيوم بدر فقال النبي - عليه السلام - لعمر أجبه يا عمر، فأجابه عمر: الله أعلى وأجل لا (سواه) ^(١٠) قتلتا في الجنة وقتلاك في النار. ثم ركب النبي - صلى الله عليه وسلم -

(٤) في ظ [بزق].

(٣) في ظ [كثير].

(٢) زيادة من ظ.

(١) في ظ [بان].

(٧) في أ [التي].

(٦) في ظ [بالمزراق].

(٥) في ظ [الطريق].

(١٠) في ظ [لا سواء].

(٩) في أ [ينادي].

(٨) في أ [فشقت].

بغلته وظاهر بين (درعيه)^(١) وأخرج يده من جيب الدرع، وسَلَّ سيفه «ذا الفقار» وباشر (القتال)^(٢) بنفسه وحمل على المشركين والتأم إليه المسلمون فأعانوه، وهزم الله جمع المشركين. «وَقُتِلَ يَوْمَئِذٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سَبْعُونَ رَجُلًا، أَرْبَعَةٌ نَفَرَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَسِتَّةٌ وَسِتُّونَ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَقُتِلَ يَوْمَئِذٍ مِنَ الْمَشْرِكِينَ تِسْعَةٌ عَشَرَ رَجُلًا أَوْ أَكْثَرُ وَكَثُرَتِ الْقُرُوحُ فِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَعَزَّاهُمْ اللَّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ قرأ عاصم في رواية أبي بكر والكسائي وحمزة «قَرْحٌ» بضم القاف والباقون بالنصب. قال الفراء^(٣): الْقَرْحُ وَالْقَرْحُ وَاحِدٌ، وَيُقَالُ الْقَرْحُ بِالنَّصْبِ مُصْدَرٌ، وَالْقَرْحُ بِالضَّمِّ اسْمٌ وَيُقَالُ الْقَرْحُ بِالنَّصْبِ: الْجَرَاخَةُ، وَبِالضَّمِّ: أَلَمُ الْجَرَاخَةِ، يَعْنِي إِنْ أَصَابَكُمْ الْجَرَاخَاتُ يَوْمَ أَحَدٍ، ﴿فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ يقول: قد أصاب المشركين جراحات مثلها يوم بدر ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا يَبَيِّنُ النَّاسُ﴾ يقول: يوم لكم ويوم عليكم، وهذا كما يقال في الأمثال: الْأَيَّامُ دُولٌ، وَالْحَرْبُ سِجَالٌ، ثُمَّ يَبَيِّنُ الْمَعْنَى الَّذِي تَدَاوَلُ مَرَّةً لَهُمْ وَمَرَّةً عَلَيْهِمْ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلْيَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني يتبين المؤمن من المنافق أنهم يشكون في دينهم أم لا، لأن المؤمن المخلص يتبين حاله عند الشدة والبلايا. وهذا كما روي عن لقمان الحكيم أنه قال لابنه: إِنْ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ [يَخْتَبِرَانِ]^(٤) بِالنَّارِ، وَالْمُؤْمِنَ يَخْتَبِرُ بِالْبَلَايَا وَالْإِخْتِبَارُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى إِظْهَارُ مَا عَلِمَ مِنْهُ مِنْ قَبْلِ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى «وَلْيَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا» يعني ليبين لهم الله الذي يعلم إيمانه لأنه يعطي الثواب، بما يظهر منه لا بما يعلم منه، وكذلك العقوبة: أَلَّا تَرَى أَنَّهُ عَلِمَ مِنْ إِبْلِيسِ الْمَعْصِيَةَ فِي [الْمُسْتَقْبَلِ]^(٥) ثُمَّ لَمْ يَلْعَنَهُ مَا لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَتَّخِذْ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ يعني لكي يتخذ منكم شهداء وإنما كان لأجل ذلك، لا لأجل حب الكفار ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي الجاحدين.

وَلْيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمَحِّقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾

﴿وَلْيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي لكي يُظْهَرِ الْمُؤْمِنِينَ وَيَكْفِرَ ذُنُوبَهُمْ. والتمحيص في اللغة^(٦): الاختبار (والتطهير)^(٧)، والله يَبَيِّنُ أَنَّهُ يُدَاوِلُ الْأَيَّامَ بَيْنَ النَّاسِ، لِكَيْ يَظْهَرَ الْمُؤْمِنُ مِنَ الْمُنَافِقِ، وَيَكْرُمَ بَعْضُ الْمُؤْمِنِينَ بِالشَّهَادَةِ لِيَنَالُوا ثَوَابَ الشُّهَدَاءِ، وَقَدْ ذَكَرَ ثَوَابَهُمْ بَعْدَ هَذَا فِي هَذِهِ الصُّورَةِ، وَلِيَكْفِرَ ذُنُوبَهُمْ: ﴿وَيَمَحِّقَ الْكَافِرِينَ﴾ أي يهلكهم ويستأصلهم لأنهم يجترؤون فيخرجون مرة أخرى فيستأصلهم. ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾، قَالَ مُقَاتِلٌ: يَبَيِّنُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُ نَازِلٌ بِهِمُ الشَّدَّةُ وَالْبَلَاءُ فِي ذَاتِ اللَّهِ، لِكَيْ يَصْبِرُوا وَيَحْتَسِبُوا فَقَالَ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ يَقُولُ: أَظَنَنْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِغَيْرِ شَيْءٍ، قَبْلَ أَنْ يَصِيْبَكُمْ مِنَ الشَّدَّةِ فِي ذَاتِ اللَّهِ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾. قَالَ مُقَاتِلٌ: أَيُّ وَلَمَّا يَرَى اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ. وَيُقَالُ وَلَمَّا يَظْهَرُ جِهَادُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ. ﴿وَيَعْلَمُ الصَّابِرِينَ﴾ الَّذِينَ يَصْبِرُونَ عِنْدَ الْبَلَاءِ. وَيُقَالُ: وَيَعْلَمُ الْكَارِئِينَ أَيُّ غَيْرِ الْفَارِينَ عَنِ الْقِتَالِ.

(١) في ظ [درعين].

(٢) في أ [القتل].

(٣) معاني القرآن ١/ ٢٣٤. وقال الكسائي: هما لغتان مثل (الضعف والضعف) (والفقر والفقر).

وأولى القولين بالصواب قول الفراء لتصييرهما لمعنيين والدليل على ذلك قول الله عز وجل حين أسأهم بهم في موضع آخر بما دل على أنه أراد الألم فقال: (ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون) فدل ذلك على أنه أراد: (إن يمسسكم ألم من أيدي القوم فإن بهم من ذلك مثل ما بكم). حجة القراءات لابن زنجلة ١٧٤.

(٤) في أ [يختبرا وهو خطأ لأنه لا مبرر لحذف النون فالفعل مرفوع بشئيهما].

(٥) في أ [المستأنف].

(٦) راجع اللسان محص وترتيب القاموس ٢٠٩/ ٤.

(٧) في أ [كالتطهير].

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾ وذلك أنه لما وصف الله لهم ما نزل بشهداء بدر من الكرامة فقالوا: ليتنا نجد قتالاً فنقتل فيه لكي نصيب مثل ما أصابوا فلما لقوا القتال يوم أحد هربوا، فعاقبهم الله تعالى بقوله: ولقد كنتم تمنون الموت أي القتال والشهادة من قبل أن تلقوه لأن القتال سبب الموت ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ يوم أحد ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ إلى السيوف فيها الموت. وقال الزجاج^(١): معناه: ولقد كنتم تمنون (القتال)^(٢) [لأن القتال سبب الموت فقد رأيتموه يعني]^(٣) وأنتم بصراء، كقولك: رأيت كذا وكذا، ولم يكن في عينيك علة ويقال: وأنت تنظرون إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - . وقال القتيبي: فقد رأيتموه، يعني أسبابه، وهو السيف ..

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾^(٤). لأنهم هربوا حيث سمعوا بقتله فقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ كسائر الرسل، ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾، أي رجعتكم إلى دينكم الشرك، ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ أي يرجع إلى الشرك بعد الإسلام ﴿فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ يقول: لن يتقصّر من ملكه وسلطانه شيئاً، وإنما يضر نفسه ﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾ يعني الموحدين الله تعالى في الآخرة الجنة، ويقال: وسيجزي الله المؤمنين المجاهدين الجنة.

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قُتِلَ مَعَهُ رَيْثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ﴾ قبل أجلها ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ﴿كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ يقول: في موتها كتاباً مؤجلاً في اللوح، فلا يسبق أجله. وقال الزجاج^(٥): قوله كتاباً مؤجلاً، أي كتب كتاباً ذا أجل، وهو الوقت المعلوم، وذكر الكتاب على معنى التأكيد [كقوله: «كتاب الله عليكم» أي أن المحرمات مفروضة عليكم على معنى التأكيد]^(٦). وفي هذه الآية إبطال قول المعتزلة: لأنهم يقولون: إن من قتل فإنما يهلك قبل أجله وكل ما ذبح من الحيوان كان هالكاً قبل أجله لأنه يجب على القاتل الضمان والدية، وقد بين الله تعالى في هذه الآية أنه لا تهلك نفس قبل أجلها

(٣) زيادة من ظ.

(٢) في أ [الموت].

(١) معاني القرآن وإعرابه ٤٨٦/١.

(٦) زيادة من ظ.

(٥) معاني القرآن وإعرابه ٤٨٨/١.

(٤) زيادة من ظ.

﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾. قال الكلبي: يعني يرد ثواب الدنيا بالعمل الذي افترض الله عليه «نؤته منها» يعني أعطاه الله ما يحب، وما له في الآخرة من نصيب ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخرة نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ في الآخرة. ومن الناس من قال: إن الرياء يدخل في النوافل، ولا يدخل في الفرائض لأن الفرائض واجبة على جميع الناس. وقال بعضهم: يدخل في الفرائض ولا يدخل في النوافل، لأنه لو لم يأت بها لا يؤاخذ بها، فإذا أتى بهذا القدر ليس عليه غير ذلك. وقال بعضهم: كلاهما سواء فالرياء [يدخل] ^(١) في الفرائض والنوافل جميعاً، وهذا القول أصح، لقوله تعالى: «وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ». ثم إن الله تعالى أخبرهم بما لقيت الأنبياء والمؤمنون قبلهم (فعزاهم) ^(٢) ليصبروا فقال تعالى سبحانه: «وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ: ﴿وَكَأَيِّنْ﴾ بعد الألف والهمزة، وقرأ الباقون بغير مد ومعناها واحد ^(٣)، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو «وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ» «قُتِلَ» بضم القاف وكسر التاء، وقرأ الباقون: «قَاتِلَ» فمن قرأ «قَاتِلَ» فمعناه كم من نبي قاتل معه جموع كثيرة، ومن قرأ «قُتِلَ» معناه وكَم من نبي قتل «مَعَهُ» جماعة كثيرة، وقوله «رَبِّيُونَ» قال الكلبي: الريبة الواحدة من عشرة آلاف. وقال الزجاج ^(٤): «ههنا قراءتان «رَبِّيُونَ» بضم الراء [وَرَبِّيُونَ] ^(٥) بكسرها، فأما بالضم فهي الجماعة الكثيرة ^(٦)، عشرة آلاف، وأما الرَّبِّيُونَ بالكسر: العلماء الأتقياء الصبراء على ما يصيبهم في الله تعالى. ويقال: «وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ». يعني كم من نبي قتل وكان معه ربيون كثير ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ بعد قتلِه عن القتال، وما عجزوا بما نزل بهم من قتل أنبيائهم وأنفسهم ﴿لَمَّا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا﴾ لعدوهم ويقال: وما جنبوا [ثم قال] ^(٧): «وما استكانوا» يقول: وما خضعوا لعدوهم، ولكنهم صبروا ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ فكأنه يقول للمؤمنين فهلا قاتلت مع نبيكم - صلى الله عليه وسلم - وبعد قتله وإن قتل كما قاتلت القرون الماضية من قبلكم إذا أصيبت أنبياءهم. ثم أخبر عن قول الذين قاتلوا مع النبيين، فقال تعالى ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ﴾ عند قتل أنبيائهم ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي هي دون الكبائر ﴿وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ أي العظائم من الذنوب ﴿وَوَبَّتْ أَقْدَامُنَا﴾ عند القتال ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ معناه، هلا قتلتم كما قالوا، وقاتلتكم كما قاتلوا. وقرأ بعضهم: «قولهم» بالضم والمعنى في ذلك أنه جعل القول اسم كان فيكون معناه: وما كان قولهم إلا قولهم ربنا اغفر لنا ذنوبنا. ومن قرأ بالنصب جعل القول خبر كان وجعل الاسم ما بعده.

فَعَانَتْهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الآخرة وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

قوله تعالى: ﴿فَاتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ [أي] ^(٨) أعطاهم الله ثواب الدنيا بالغنيمة والنصرة ﴿وَحَسَنَ ثَوَابِ الآخرة﴾ أي الجنة ﴿والله يحب المحسنين﴾ [المؤمنين المجاهدين] ^(٩).

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا

(١) زيادة من ظ. (٢) في ظ [فيعزيهم].

(٣) قراءة ابن كثير هكذا: (وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ). انظر / حجة القراءات لابن زنجلة ١٧٤، ١٧٥.

(٤) معاني القرآن وإعرابه ٤٩٠/١.

(٥) زيادة من ظ. ولم يصح هنا إلا قراءة واحدة «بالكسر» وعليها كل القراء السبعة، أما ضم الراء فهي قراءة شاذة.

(٦) في أ [الكبيرة]. (٧) زيادة من ظ. (٨) في ظ [يقول].

(٩) زيادة من ظ.

خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا﴾ يعني المنافقين ﴿يردوكم على أعقابكم﴾ كفاراً بعد إيمانكم ﴿فتنقلبوا خاسرين﴾ إلى دينكم الأول. ﴿بل الله مولاكم﴾ أي: أطيعوا الله فيما يأمركم هو مولاكم يعني وليكم وناصركم ﴿وهو خير الناصرين﴾ أي المانعين من كفار مكة.

سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾

﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ قرأ أبو عمرو وابن كثير، ونافع وعاصم وحزمة «الرعب» بتسكين العين، وقرأ ابن عامر والكسائي «الرعب» بالضم، وأصله الضم إلا أنه إذا اجتمع ضمتان حذفت إحداهما عند من قرأ بالجزم^(١). ومعنى الآية: سنلقي الهبة في قلوب المشركين، وذلك بعد هزيمة المؤمنين قذف الله تعالى في قلوب الذين كفروا الرعب فانهزموا إلى مكة. ويقال حين صعد «خالد بن الوليد» الجبل، قصد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فرجع «خالد» منهزماً. ويقال: عني به يوم الأحزاب ألقى [في قلوبهم]^(٢) الرعب فانهزموا: ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾ يعني بأنهم أشركوا بالله ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ يعني كتاباً فيه عذر وحجة لهم بالشرك ﴿وَمَاوَاهُمُ النَّارُ﴾ أي مصيرهم إلى النار في الآخرة، ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ يعني أن مَثْوَى المشركين النار.

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَّا تَحِبُّونَ مِّنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴿١٥٣﴾ إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُلُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَابِكُمْ فَأَتْبَعَكُمْ غَمًّا بُغْمًا لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٤﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنْكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قَاتَلْنَا هَهُنَا قُلْ لَّوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ

(١) راجع حجة القراءات لابن زنجلة ١٧٦ وكنز المعاني ٣٢٣.

(٢) في ظ [فيهم].

كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ وذلك أنهم لما أخذوا في الحرب انهزم المشركون فلما أخذ بعض المسلمين في النهب والغارة رجع الأمر عليهم، وانهزم المسلمون: فذلك قوله: «وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ» ﴿إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ يقول: تقتلونهم بأمره. وقال القتبي: تحسونهم: يعني تستأصلونهم بالقتل، يقال: جراد محسوس إذا قتله البرد^(١) ﴿حَتَّى إِذَا فُتِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ يعني، جَبْتُمْ من عدوكم واختلقتم في الأمر ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾ أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - ﴿مَنْ بَعْدَ مَا أَرَاكُمْ﴾ يعني أراكم الله ﴿[مَنْ تَحِبُّونَ]﴾ يعني^(٢) من النصر على عدوكم وهزيمة الكفار والغنيمة. [ثم قال]^(٣): ﴿مَنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الدُّنْيَا﴾ أي يطلب الغنيمة ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ وهم الذين ثبتوا عند المشركين [حتى قتلوا]^(٤). وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: كنا لا نعرف أن أحدا منا يريد الدنيا حتى نزلت «هذه الآية، فَعَلِمْنَا أن فينا من يريد الدنيا». ﴿ثُمَّ صَرَّفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ بالهزيمة من بعد أن أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ بمعصية [الرسول]^(٥) بالقتل والهزيمة. ﴿وَلَقَدْ عَفَا﴾ الله ﴿عَنْكُمْ﴾ ولم يعاقبكم عند ذلك فلم تقتلوا جميعاً ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ﴾ في [عفوهِ]^(٦) وإنعامه ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [بالعفو والإنعام]^(٧) ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ يعني إلى الجبل هاربين حيث صعدوا الجبل منهزمين من العدو، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يدعوهم يا معشر المسلمين، أنا رسول الله، فلم يلتفت إليه أحد حتى أتوا على الجبل [فذلك قوله تعالى: «إِذْ تَصْعَدُونَ» يعني الجبل]^(٨) وهذا قول الكلبي. وقال الضحاك: إذ تصعدون في الوادي منهزمين. وقال القتبي: يعني تصعدون في الهزيمة، يقال: أصعد في الأرض إذا (أمعن) في الهزيمة. وقرأ الحسن: «تَصْعَدُونَ» بنصب التاء، أي تَصْعَدُونَ الجبل وقرأ العامة بالضم. ﴿وَلَا تَلُونَّ عَلَى أَحَدٍ﴾ يقول ولا تقيمون على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويقال: لا يقيم بعضكم على بعض ﴿وَالرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ﴾ يقول: مِنْ خَلْفِكُمْ: ﴿فَأَنَابَكُمْ غَمًّا بِغَمِّ﴾ يقول: جعل ثوابكم غمًّا على أثر الغم ويقال: جزاكم غمًّا على أثر الغم، ويقال: غمًّا متصلاً بالغم فأما الغم الأول: فإشراف خالد بن الوليد بخيل المشركين، وهم في ذلك الجبل، قاله الكلبي: وقال مقاتل: الغم الأول ما فاتهم من الفتح والغنيمة فاجتمعوا، وكانوا يذكرون فيما بينهم ما أصابهم في ذلك اليوم، والغم الثاني: إذ صعد «خالد بن الوليد» فلما عاينوه، أذعرهم ذلك أي خوفهم فأنساهم ما كانوا فيه من الحزن فذلك قوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ من الفتح والغنيمة ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ من القتل والهزيمة. ويقال: الغم الأول: الجرح والقتل، والغم الثاني: أنهم سمعوا بأن النبي - صلى الله عليه وسلم - قد قتل، فأنساهم الغم الأول. قال: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يعني لا يخفى عليه شيء من أعمالكم فيجازيكم بها. ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نَاعَسًا﴾ الأمانة في اللغة الأمن^(٩)، قال الكلبي: إذا أَمِنَ القوم نعسوا. وقال الضحاك: النعاس عند القتال أمانة من الله تعالى، ويقال: الذي يصيبه الغم والهزيمة: لا يكون له شيء أحسن من النعاس فيذهب عنه همه، فأصاب القوم النعاس فذهب عنهم الغم وأمنوا. قوله تعالى: ﴿يَغْشَى طَائِفَةٌ مِنْكُمْ﴾ يعني النعاس يغشى ويعلو طائفة منكم

(٣) زيادة من ظ.

(٢) زيادة من ظ.

(١) في ظ [زيادة قوله: ويقال محسوس الجراد والزرع].

(٦) في أ [فضله].

(٥) في ظ [الرامة].

(٤) زيادة من ظ.

(٩) في أ [أسرع].

(٨) ما بين المعكوفين من ظ.

(٧) زيادة من ظ.

(١٠) راجع: اللسان: أمن.

من كان من أهل الصدق واليقين قرأ حمزة والكسائي «تغشى» بالتاء، وقرأ الباقون بالياء، فمن قرأ بالتاء انصرف إلى قوله «أمنة» ومن قرأ بالياء يكون نعتاً للنعاس^(١). ثم قال: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ يعني أهل النفاق، وقال الكلبي: هو «معتب بن قشير» وأصحابه، ﴿يُظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ يعني أنهم يظنون أن لن ينصر الله محمداً وأصحابه ﴿ظَنَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، قال الكلبي: يعني كظنهم في الجاهلية. وقال مقاتل: «ظن الجاهلية» كظن الجاهل المشركين مثل أبي سفيان وأصحابه. ﴿يَقُولُونَ: هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني النصر والفتح ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ يعني النصر والغنيمة كله من الله ﴿يَخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي يُسِرُّونَ في أنفسهم ﴿مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ أي يقولون ما لا يظهرون لك ﴿يَقُولُونَ: لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا﴾ أي يقولون: لو كان ديننا حقاً ما قتلنا ﴿هَا هُنَا﴾ قال الكلبي: وفي الآية تقديم وتأخير ومعناه يقولون: هل لنا من الأمر من شيء يخفون في أنفسهم ما لا يبديون لك، يقولون: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا قل: إن الأمر كله لله. [وقال الضحاك: «قل: إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ»]^(٢) يعني القدر خيرته وشره من الله. قرأ أبو عمرو: «قل: إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لله» بضم اللام، والباقون بالنصب فمن (قرأ بالرفع)^(٣) جعله اسماً مستأنفاً ومن نصب جعله نعتاً للأمر. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ﴾ يقول: لظهر ويقال: لخرج الذين ﴿كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾ أي قُضِيَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي إلى مواضع مصارعهم، معناه أنهم وإن لم يخرجوا إلى (العدو)^(٤)، وقد قضى الله عليهم بالقتل لخرجوا إلى مواضع قتلهم لا محالة، حتى ينفذ فيهم القضاء. قال تعالى: ﴿وَلِيَتْلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ يعني ليختبر ويظهر ما في قلوبكم ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ يعني ليظهر ويكفر ﴿مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ من الذنوب ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يعني بما في القلوب من الخير والشر.

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَىٰ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ فَطَا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نَفْضُومَ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾

ثم نزل في المنهزمين قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ﴾ أي الذين انهزموا منكم ﴿يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ﴾ يعني جمع المسلمين وجمع المشركين ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ قال القتيبي: «استزلهم أي طلب زلتهم، كما يقال: استعجلت فلاناً، أي طلبت عجلته، واستعملته، أي طلبت عمله. ويقال: زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ» ببعض ما

(٢) ما بين المعكوفين من ظ.

(٤) في ظ [الغزو].

(١) انظر: حجة القراءات لابن زنجلة ١٧٦ وكنز المعاني ٣٢٣.

(٣) في ظ [رفع].

كسبوا» يعني الذي أصابهم كان بأعمالهم، كما قال في آية أخرى: «وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ» ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ حيث لم يستأصلهم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لذنوبهم ﴿حَلِيمٌ﴾ إذ لم (يعجل عليهم بالعقوبة) ^(١). قال حدثنا الخليل بن أحمد، قال: حدثنا السراج، قال: حدثنا قتبية، قال: حدثنا أبو بكر عن غيلان بن جرير، أن عثمان كان بينه وبين عبد الرحمن بن عوف كلام، فقال له عبد الرحمن: أتسبني وقد شهدت بدرًا، ولم تشهدا، وبايعت تحت الشجرة ولم تُبايع، وقد كنت توليت فيمن تولى يوم الجمع، أي يوم أحد فرد عليه عثمان وقال: أما قولك: إنك شهدت بدرًا ولم أشهدا، فإني لم أغب عن شيء شهده رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا أن ابنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كانت [مريضة] ^(٢) فكنت معها أمرضها وضرب لي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بسهم في سهام المسلمين، وأما بيعة الشجرة، فبعثني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رداً على المشركين بمكة، فضرب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يمينه على شماله قال: هذه لعثمان، فيمين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى خير من يميني وشمالي، وأما يوم الجمع فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ التَّقِي الْجَمْعَانِ، إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَى اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ فكنت فيمن عفى الله عنهم ^(٣)، فخصم «عثمان» «عبد الرحمن بن عوف»، ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: منافقي أهل الكتاب، ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ من المنافقين ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: إذا ساروا في الأرض تجاراً مسافرين فماتوا في سفرهم ﴿أَوْ كَانُوا غُرًى﴾ يعني خرجوا في الغزو فقتلوا. قال القتيبي: غزاً جمع غاز، مثل صائم وصُوم، ونائم ونوم ^(٤) ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا﴾ بالمدينة ﴿مَا مَاتُوا﴾ في سفرهم ﴿وَمَا قَتَلُوا﴾ في الغزو ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ﴾ الظن ﴿حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾، ويقال: جعل الله ذلك القول حسرة في قلوبهم لأنه ظهر نفاقهم، وقال الضحاك: ليجعل الله ذلك حسرة في قلوب المنافقين، لأن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في أشجار الجنان حيث شاءت ^(٥)، وأرواح قتلى المنافقين في حواصل طير سود تسرح في الجحيم ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي يحيي في السفر ويميت في الحضر، ويحيي في الحضر ويميت في السفر، ويقال: والله يحيي قلوب المؤمنين، ويميت قلوب الكافرين، يحيي قلوب المؤمنين بالنصرة والخروج إلى الغزو، ويميت قلوب المنافقين بالتخلف (وظن السوء) ^(٦) وقال الضحاك: يعني يحيي من أحى من نطفة بقدرته، ويميت من أمات بعزته، وسلطانه. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ قرأ عبد الله بن كثير وحمزة والكسائي «يعملون» بالياء على معنى المغاية، وقرأ الباقر بالتاء ^(٧)، ومعناه: قل لهم: والله بما تعملون بصير. ﴿وَلَّيْن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ﴾ يعني إن متم في إقامتكم، أو قتلتم في سبيل الله وأنتم مؤمنون، ﴿لَمْغْفِرَةً مِنَ اللَّهِ﴾ لذنوبكم ﴿وَرَحْمَةً﴾ يعني [ونعمة] ^(٨) وجنة ﴿خَيْرٌ مِمَّا تَجْمَعُونَ﴾ [في الدنيا من الأموال] ^(٩) يا معشر المنافقين [قرأ أبو عمرو وابن كثير وابن عامر وعاصم «متم» بضم الميم في جميع القرآن، والباقر بكسرهما وهما لغتان ومعناها واحد ثم قال] ^(١٠) ﴿وَلَّيْن قُتِلْتُمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ في الغزو ﴿لِلَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ بعد الموت. قرأ عاصم في رواية حفص «خير مما

(١) في أ [يعجلهم بالعقوبة]. (٢) في أ [متعرضة]. (٣) أخرجه أحمد في المسند ١٠١/٢.

(٤) في ظ [زيادة]: وعاف وعفى انظر/ مجاز القرآن لأبي عبيدة ١٠٦/١.

(٥) انظر/ صحيح مسلم ١٥٠٢/٣ كتاب الإمامة باب بيان أن أرواح - الشهداء في الجنة (١٨٨٧/١٢١).

(٦) في ظ [وسوء الظن]. (٧) انظر/ كنز المعاني ٣٢٤ حجة القراءات لابن زنجلة ١٧٧.

(٨) زيادة من ظ. (٩) هذه العبارة وردت في ظ. بعد (يا معشر المنافقين).

(١٠) ما بين المعكوفين من ظ وقد جاء في أ بعد ذلك ولكنه في غير موضعه بعد تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فليتوكل المؤمنون﴾

يَجْمَعُونَ» بالياء، وقرأ الباقون بالتاء على معنى المخاطبة^(١). ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ﴾ يقول: فبرحمة من الله و«ما» صلة، فالله: ذكر منه أن جعل رسوله رحيماً رؤوفاً بالمؤمنين حيث قال فبرحمة من الله ﴿لَنْتَ لَهُمْ﴾ يا محمد أني لئن لم جانبك، وكنت رؤوفاً رحيماً بالمؤمنين ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ أي خشناً في القول غليظ القول ﴿لَافْتَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ أي لتفرقوا من عندك، ولكن الله جعلك سهلاً سَمحاً طليقاً ليناً لطيفاً باراً رحيماً وهكذا، قال [الضحاك: ثم قال]^(٢): ﴿فَاعْفَ عَنْهُمْ﴾ أي فتجاوز عنهم ولا تعاقبهم بما يكون (منهم)^(٣) من الزلة والذنب، ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ من ذلك الذنب ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾، يقول: إذا أردت أن تعمل عملاً فاعمل بتدبيرهم ومشاورتهم ويقال: ناظرهم في الأمر، ويقال: ناظرهم عند القتال، وروي عن عبد الله بن مسعود أنه كان يقرأ: وشاورهم في بعض الأمر، لأنه كان يشاورهم فيما لم ينزل عليه الوحي فيه، وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - عاقلاً ذا رأي، ولكنه أمر بالمشورة ليقْتَدِيَ به غيره، ولأن في المشاورة تودداً لأصحابه لأنه إذا شاورهم تودد قلوبهم، وفي المشورة أيضاً ترك الملامة لأنه يقال: فعلت كذا بمشاورتك، وروى سهل بن سعيد الساعدي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: ما شقي عبد قط بمشورة، وما سعد عبد باستغناء رأي^(٤). ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي لا تتوكل على المشورة، ولكن توكل على الله بعد المشورة، لا على الأصحاب ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ «الذين يتوكلون على الله».

إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾

ثم أخبر عز وجل: أن النصر من عند الله كلها فقال تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ﴾ [يقول: أن يمنعكم الله]^(٥). ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ من العدو [يعني يوم]^(٦) بدر، ﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ﴾ يعني يوم أحد ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ

= من قرأ بالضم حجة أنها من (مَاتَ يَمُوتُ): (فَعَلَ يَفْعُلُ) مثل (دام يدوم، وقال يقول، وكان يكون) ولا يقال: (كُنْتُ) ولا (قُلْتُ). وحجة أخرى: وهو قوله (وفيها تَمُوتُونَ) (ويوم أمُوتُ) ولو كانت على اللغة الأخرى لكانت (تَمَاتُونَ) و(يوم أمَاتُ) لأنه من (مِتَ تَمَاتَ). وأما من قرأ (مِتُّم) بالكسر فله حجتان:

إحدهما: ذكرها الخليل قال: (يقال: مِتَّ تموت وِدِمْتُ تدمم، (فعل يفعل) مثل (فَضِلَّ يَفْضُلُ) وكان الأصل عنده (مَوْت) ثم استقبل الكسرة على الواو فنقلت إلى الميم فصارت مَوْتٌ) ثم حذفت الواو لما اتصلت بها تاء المتكلم لاجتماع الساكنين فصارت (مِيتَ).

والثانية: قال الفراء: (مِتَّ) مأخوذة من (يَمَاتُ) على (فَعَلَ يَفْعُلُ) مثل (سَمِعَ يَسْمَعُ) وكان الأصل (يَمُوتُ) ثم نقلوا فتحة الواو إلى الميم ونقلوا الواو ألفاً لانفتاح ما قبلها فصارت (يَمَاتُ) إلا أنه لم يجيء (يَمَاتُ) في المستقبل، والعرب قد تستعمل الكلمة بلفظ مَّا ولا تقيس ما تصرف منها على ذلك القياس، من ذلك قولهم: (رَأَيْتُ) همزته في الماضي، ثم أجمعوا على ترك الهمزة في المستقبل فقالوا: (ترى وترى) بغير همز فخالقوا بين لفظ الماضي والمستقبل، فكَذَلِكَ خالقوا بين لفظ (مت) و(تموت) ولم يقولوا: (تَمَاتَ) والضم هو اللغة الفصيحة حجة القراءات لابن زنجلة ١٧٨، ١٧٩ كنز المعاني ٣٢٤.

(١) كنز المعاني ٣٢٥. (٢) زيادة من ظ.

(٣) في أ [فيهم].

(٤) أخرجه القضاعي في المسند كذا في فتح الوهاب بتخريج أحاديث الشهاب ٤٩/٢ (٥٠٥) من رواية سليمان بن عمرو النخعي عن

أبي حازم عن سهل بن سعد الساعدي وسليمان بن عمرو «كذاب».

(٥) زيادة من ظ. (٦) في أ [كيوم].

بعده ﴿أي يمنعكم من عدوكم﴾ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿أي فليثق الواصلون في النصرة، ويقال: على المؤمنين أن يتوكلوا على الله، لأنهم عرفوا أنه لا ناصر لهم غيره.

وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَعْلَلْ مِمْسَاغَلٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَا وَهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾

قوله تعالى: ﴿وما كان لنبي أن يغفل﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم «يُغْل» بنصب الياء، وقرأ الباقون «يُغْل» بضم الياء^(١) ونصب الغين، فمن قرأ بالنصب معناه: وما كان لنبي أن يخون في الغنيمة، ومن قرأ بالضم، فمعناه: لا ينسب إلى الغلول^(٢) وذلك أنه لما كان يوم أحد أخذوا في النهب والغارة، وتركوا القتال وخافوا أن تفوتهم الغنيمة وظنوا أن من أخذ شيئاً يكون له، وأن النبي - صلى الله عليه وسلم - لا يقسم لهم، فنزلت هذه الآية: ﴿وما كان لنبي أن يغفل﴾، يقول: ما جاز لنبي أن يخون في الغنيمة، وما جاز لأصحابه أن ينسبوه إلى الخيانة، ﴿وَمَنْ يَغْلُ﴾ (أي يخن)^(٣) في الغنيمة ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يعني يحمله على ظهره. وهذا كما روي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: لأعرفن أحدكم يوم القيامة يأتي على عنقه شاة لها ثغاء [فيقول]:^(٤) يا محمد فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً، يريد أن من غل شاة أو بقرة أتى بها يوم القيامة يحملها^(٥). ويقال: من غل شيئاً في الدنيا، يمثل له يوم القيامة في النار، ثم يقال له: انزل إليه فخذْه، فيهبط إليه، فإذا انتهى إليه حمله، فكلماً انتهى به إلى الباب سقط منه إلى أسفل جهنم، فيرجع فيأخذه، فلا يزال (كذلك)^(٦) ما شاء الله. ويقال: يأت بما غلَّ: يعني تشهد عليه يوم القيامة تلك الخيانة والغلول. ويقال: هذا على سبيل (التمثيل)^(٧) يأت بما غل «يوم القيامة»^(٨) أي بوباله فيكون وباله على عنقه، كما قال في آية أخرى: ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾ ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي توفى وتجازي كل نفس ﴿بِمَا عَمِلَتْ﴾ من خير أو شر ﴿وهم لا يُظْلَمُونَ﴾ يعني لا ينقصون من ثواب أعمالهم شيئاً. ﴿أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ﴾ قال الكلبي: يعني أفمن أخذ الحلال من الغنيمة ﴿كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ يعني كمن استوجب سخطاً من الله بأخذ الغلول من الغنائم، ثم بين مستقر كل من غل (يوم القيامة)^(٩)، ومن أخذ من الحلال فقال لمن غل: ﴿وَمَا وَهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ الذي صاروا إليه يعني النار. وقال (في حق من) أخذ الحلال: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يعني لهم درجات في الجنة عند الله [ويقال: هم ذوو درجات عند الله]^(١٠). ﴿والله بصيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي بمن غل وبمن لم يغل. وقال القتيبي^(١١): هي طبقات - عند الله - في الفضل، فبعضهم أرفع من بعض. وقال أبو عبيدة والكسائي: لهم درجات عند الله^(١٢). ويقال: لمن لم يغل درجات في الجنة، ولمن غل درجات في النار.

(١) في أ [بالضم]. (٢) راجع تفصيلاً أوسع لتوجيه القراءتين في / حجة القراءات لابن زنجلة. ص ١٧٩ - ١٨١.

(٣) في ظ [يعني يخون]. (٤) في أ [فليقول].

(٥) أخرجه البخاري ١٨٥/٦ في الجهاد/ باب الغلول (٣٠٧٣)، ومسلم ١٤٦١/٣ - ١٤٦٢ في الإمارة/ باب غلظ تحريم الغلول (١٨٣١/٢٤) وقوله: (الْفَيْن: أجدن، وقوله ثغاء): صوت الشاة.

(٦) في ظ [هكذا إلى]. (٧) في ظ [المثل]. (٨) في أ [يعني يأتي].

(٩) في ظ [من الغنيمة]. (١٠) ما بين المعكوفين من ظ. (١١) تفسير غريب القرآن ١١٥. (١٢) مجاز القرآن ١٠٧/١.

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ
وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ
مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَيَا ذَنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ
تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَنَّاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ
مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ
وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُوا مَا قَاتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنَ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أنعم الله (عليهم) ^(١) ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني من أصلهم ونسبهم من العرب يعرفون نسبه. ويقال: «من أنفسهم» يعني من جنسهم، من بني آدم، ولم يجعله من الملائكة، وإنما خاطب بذلك المؤمنين خاصة، لأن المؤمنين هم الذين صدقوه فكانه منهم. وقرئ في الشاذ: «من (أنفسكم)» ^(٢) بنصب الفاء، أي من (أشرفهم) ^(٣)، وقد كانت له فضيلة في ثلاثة أشياء: أحدها: أنه كان من نسب شريف، لأنهم اتفقوا: أن العرب أفضل، ثم من العرب قريش [ثم من قريش بنو هاشم] ^(٤) فجعله من بني هاشم. والثاني: أنه كان أميناً فيهم قبل الوحي، [والثالث: أنه كان أميناً] ^(٥) لكي لا يرتاب فيه الاعتقال. ثم قال: ﴿وَيَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ أي يعرض عليهم القرآن ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [يعني: يأخذ منهم الزكاة ليظهر أموالهم ويقال: ويذكرهم يعني، يظهرهم من الذنوب والشرك، ويقال: ^(٦) ويذكرهم أي (بأمرهم) ^(٧) بكلمة الإخلاص، وهي قول: لا إله إلا الله «ويعلمهم الكتاب» يعني القرآن، و«الحكمة» أي الفقه، وبيان الحلال والحرام ﴿وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي وقد كانوا من قبل مجيء محمد - صلى الله عليه وسلم - لفي خطأ بين. ثم رجع إلى قصة أحد، وذكر التعزية للمؤمنين بما أصابهم من الجراحات، فقال: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ يعني يوم أحد ﴿قَدْ أَصَابَتْكُمْ مِثْلَهَا﴾ يوم بدر لأن المسلمين يوم بدر قتلوا سبعين نفساً من صناديد قريش، وأسروا سبعين، وقتل من المسلمين يوم أحد سبعين، ولم يؤسر منهم أحد، فذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ أَصَابَتْكُمْ مِثْلُهَا﴾ وقوله: «أَوَلَمَّْا» فالألف للإستفهام، والواو للعطف، «وما» صلة فكانه قال: ولئن متم، أو قتلتم، أو أصابتكم مصيبة يوم أحد، قد أصبتكم مثليها يوم بدر، ﴿قُلْتُمْ: أَنَّى هَذَا﴾ يعني قُلْتُمْ فَمِنْ أَيْنَ لَنَا هَذَا، وكيف أصابنا هذا ونحن مسلمون. ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ أي من عند قومكم، بمعصية الرماة بتركهم ما أمرهم به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال الضحاك: قل هو من عند أنفسكم، يعني بذنوبكم التي سلفت منكم قبل القتال، يعني أن في ذلك تطهيراً لما سلف من ذنوبكم، وهو قوله تعالى: «وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ» ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من النصرة والهزيمة ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ﴾ فَيَا ذَنِ اللَّهِ أي ^(٨) جمع المسلمين [وجمع] ^(٩) المشركين ﴿فَيَا ذَنِ اللَّهِ﴾ أي ^(١٠) فيإرادة

(١) في ظ [على المؤمنين]. (٢) راجع البحر المحيط ١٠٣/٣.

(٣) في أ [أشرفهم].

(٤) ما بين المعكوفين من ظ.

(٥) سقط في أ.

(٦) في أ [يؤمهم].

(٧) ما بين المعكوفين من ظ.

(٨) سقط في ظ.

(٩) زيادة من ظ.

(١٠) من ظ.

الله أصابكم ﴿وَلْيَعْلَمِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَلْيَعْلَمِ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ يعني أصابتكم المصيبة، لكي يظهر المؤمن من المنافق، ثم بين أمر المنافقين وصنيعهم وقلة حسبتهم في أمر الجهاد فقال: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ: تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا﴾ يعني، إن لم تقاتلوا لوجه الله، فقاتلوا دفعاً عن أنفسكم وجرمكم، قال الكلبي: ويقال: ادفعوا يعني كثروا [وقال القتبي: «ادفعوا» أي كثروا] ^(١)، لأنكم إذا كثرتكم [ثم] ^(٢) دفعتم القوم [بكثرتكم] ^(٣) ﴿قَالُوا: لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَانَا﴾ ﴿هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ يعني أن ميلهم إلى الكفر أقرب من ميلهم إلى الإيمان وقوله (لا تبعناكم) أي ^(٤) لجئنا معكم. قال الضحاك: وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما خرج يوم أحد أبصر كتيبة خثناء، وفيها كبكة من الناس، فقال: من هؤلاء؟ فقيل: يا نبي الله هؤلاء حلفاء عبد الله بن أبي، فقال: إنا لا نستعين بالكفار فرجع عبد الله مع حلفائه من اليهود، فقال له عمر: أقم مع المؤمنين، فقال: لو نعلم قتالاً لا تبعناكم ويقال: إن عونهم للكفار أكثر من عونهم للمؤمنين ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ ذكر الأفواه على معنى التاكيد، لأن الرجل يقول بالمجاز بالإشارة، وهذا كما قال: «يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ» ويقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ من النفاق والكفر، ونزل فيهم أيضاً: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ من المنافقين ﴿وَقَعَدُوا﴾ عن الجهاد ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ في القعود عن الجهاد ﴿مَا قُتِلُوا﴾ في الغزو ﴿قُلْ﴾ (لهم) ^(٥) يا محمد ﴿فَادْرُؤُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ في حال حضور ﴿الموت﴾ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿في مقاتلهم﴾ قال الفقيه: سمعت بعض المفسرين بسمرقند يقول: لما نزلت هذه الآية (فادرؤوا عن أنفسكم الموت) مات يومئذ سبعون نفساً من المنافقين.

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾

ثم نزل [في شأن] ^(٦) الشهداء ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني في طاعة الله ﴿أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ من التحف وذلك أن المسلمين كانوا يقولون: مات فلان، ومات فلان، فنزلت هذه الآية «بل أحياء، يعني هم كالأحياء عند ربهم، لأنه يُكْتَبُ لهم أجورهم إلى يوم القيامة فكانهم أحياء في الآخرة، ويقال: لا (تظن) ^(٧) كما يظن الكفار بهم أنهم لا يبعثون، بل يبعثهم الله، ويقال: أرواحهم في المنزلة والكرامة بمنزلة الشهداء ^(٨) الأحياء، وروي عن عطاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ يَوْمَ أُحُدٍ جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجَوَافِ طَيْرٍ خُضِرَ تَرْدُ أَثْنَاهُ الْجَنَّةِ وَتَأْكُلُ مِنْ ثَمَرِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلٍ مِنْ ذَهَبٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طَيْبَ مَنَاقِبِهِمْ وَمَطْعَمَهُمْ وَمَشْرِبَهُمْ، وَرَأَوْا مَا [عِنْدَ] ^(٩) اللَّهِ لَهُمْ مِنَ الْكَرَامَةِ [وَمَا هُمْ فِيهِ مِنَ النِّعَمِ] ^(١٠) قالوا: ياليت إخواننا علموا ما أعدَّ الله لنا من الكرامة، وما نحن فيه من النعيم، نلَمَّ [يَنْكَلُوا] ^(١١) عند اللقاء، ولم يجبنوا عند القتال، فقال الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ^(١٢) ﴿فَرِحِينَ﴾ أي معجبين ﴿بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي من رزقه في الجنة

(١) سقط في أ. (٢) سقط في ظ. (٣) في أ [بكثرتهم]. (٤) ما بين المعكوفين من أ.
(٥) سقط في ظ. (٦) سقط في أ. (٧) في ظ [يظن بهم].
(٨) سقط في ظ. (٩) في ظ [أعد]. (١٠) سقط في أ.
(١١) في أ [يتكلوا]. (١٢) أخرجه .ب.وداود ١٥/٣ في كتاب الجهاد/ باب فضل الشهادة (٢٥٢٠).

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ من إخوانهم من بعدهم أن يأتوهم ثم رجع إلى الشهداء فقال تعالى: ﴿ألا خوف عليهم﴾ فيما يستقبلهم ﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما خلفوا من الدنيا. قرأ ابن عامر وعاصم وحمره «ولا تحسبن» نصب السين في جميع القرآن وقرأ الباقر بالكسر، وقرأ ابن عامر «قتلوا» بتشديد التاء على [معنى التكثير]^(١) يعني أنهم يقتلون واحداً فواحداً [وقرأ]^(٢) الباقر بالتخفيف^(٣).

يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾

قوله تعالى: ﴿ويستبشرون بنعمة من الله وفضل﴾ يقول: بجنة من الله ويقال: بمغفرة من الله. ﴿وفضل﴾ يعني الكرامات في الجنة. وروي عن مجاهد أنه كان يقول: السيوف مفاتيح الجنة. وروت عائشة رضي الله عنها عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: الشهيد يشفع في سبعين من أهله^(٤)، قال الفقيه: أروي هذا الحديث بمعناه لا بلفظه^(٥): إن الله تعالى أكرم الشهداء بخمس كرامات لم يكرم بها أحد من الأنبياء ولا أنا، إحداها: أن

(١) سقط في أ. (٢) سقط في ط. (٣) انظر اتحاف فضلاء البشر ١/ ٤٩٣ - ٤٩٤.

(٤) أخرجه أبو داود ٣/ ٣٤ كتاب الجهاد بلفظ «يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته». (٥) الأصل أن يتحمل المتحمل ما تحمله عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم يؤديه على وفق ما تحمل في اللفظ والأسلوب، لا يغير ولا يبدل، ثم يؤديه ممن تحمله عنه هكذا إلى أن يصل إلينا من غير تغيير ولا تبديل.

وجاء تأييداً لهذا الأصل قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - «نصر الله امرأ سمع مقالتي فآداها كما سمعها، فرب مبلغ أوعى من سامع». وجاءت رواية القرآن على ذلك، فكتب كما تحمل، وأدى كما سمع، وكتب وتواتر حتى لم يبق فيه ريب ولا شك. أما رواية الحديث فدخلها الأداء بالمعنى، ووقع فيها التقديم والتأخير والزيادة والنقص، فهل هو جائز أو غير جائز؟ قالوا: غير جائز في أمور:

١ - فيما إذا لم يكن الراوي عالماً عارفاً بالألفاظ ومقاصدها، ولم يكن خبيراً بما يحيل معانيها، ولا بصيراً بمقادير التفاوت بينها.

٢ - فيما تضمنته بطون الكتب المصنفة والجامعة وغيرها.

٣ - صرح الزركشي: إن كان مما تعبد بلفظه فإنه تجب الرواية باللفظ كقوله في الحديث (ونبيك الذي أرسلت).

٤ - قال السيوطي: وعندي إذا كان جوامع الكلم، فإنه يجب روايته بلفظه.

أما ما عدا ذلك فإنهم اختلفوا فيه على مذاهب:

١ - قالت طائفة من أصحاب الحديث والفقه والأصول: لا يجوز إلا بلفظه.

٢ - قيل: يمنع في حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويجوز في غيره.

٣ - قيل: إن نسي اللفظ جاز وإلا منع.

٤ - جوازه لمن يحفظ اللفظ، ومنعه لمن نسيه.

٥ - قيل: يجوز ذلك للمصحابة دون غيرهم، وبهذا جزم ابن العربي في أحكام القرآن.

٦ - قيل: يجوز بإزاء مرادف:

٧ - قيل: إن كان موجه علمياً جاز، وإن كان موجه عملاً لم يجز.

٨ - قول: جمهور السلف والخلف من الطوائف - منهم الأئمة الأربعة - وهو الجواز في جميعه إذا قطع بأداء المعنى.

قال ابن الصلاح: والأصح جواز ذلك في الجميع إذا كان عالماً بما وصفناه، قاطعاً بأنه أدى معنى اللفظ الذي بلغه، لأن ذلك هو الذي تشهد به أحوال الصحابة والسلف الأولين، وكثيراً ما كانوا يتقنون معنى واحداً في أمر واحد بألفاظ مختلفة، وما ذلك إلا لأن معلومهم كان على المعنى دون اللفظ.

جميع الأنبياء قبض أرواحهم ملك الموت، وهو الذي سيقبض روحي، وأما الشهداء، فالله تعالى [هو الذي يقبض] ^(١) أرواحهم بقدرته كيف يشاء، ولا يسلط على أرواحهم ملك الموت، والثانية: أن [جميع] ^(٢) الأنبياء قد غُسلوا بعد الموت، وأنا أُغسل بعد الموت، وأما الشهداء، [فلا] ^(٣) يغسلون ولا حاجة لهم إلى [ماء] ^(٤) الدنيا، والثالثة: أن جميع الأنبياء قد كفنوا، وأنا أكفن أيضاً، والشهداء لا يكفنون بل يدفنون في ثيابهم، والرابعة: أن جميع الأنبياء لما ماتوا فقد سُموا أمواتاً، وإذا مت أنا يقال: قد مات، والشهداء لا يُسمون موتى، والخامسة: أن الأنبياء تعطى لهم الشفاعة يوم القيامة، وشفاعتي أيضاً يوم القيامة، وأما الشهداء فيشفع لهم في كل يوم فيمن يستشفعون. ثم قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قرأ الكسائي: «وإنَّ» بكسر الألف، والباقون بالنصب، فمن قرأ بالنصب، فمعناه يستبشرون بنعمة من الله، ويستبشرون بأن الله لا يضيع ثواب المؤمنين [الموحدين] ^(٥)، ومن قرأ بالكسر على معنى الابتداء: إن الله لا يبطل ثواب عمل الموحدين ^(٦) وهذا الخبر للترغيب في الجهاد، وأما الشهداء والأولياء فيشفع لهم لا يبلغون إلى درجة الأنبياء، ومن قال إنهم يبلغون إلى درجة الإباحة، ومن أنكر كرامات الأولياء فهو معتزلي.

الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢)
الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)
فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَى دِفْئِهِمْ فَاخْشَوْهُمْ سَوَاءً وَلَمْ يَمَسَّ مِنْهُمْ شَيْءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥)

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ قال في رواية الكلبي: وذلك أن أبا سفيان حين رجع من أحد نادى فقال: يا محمد إن الموعد بيننا وبينك موسم بدر الصغرى، فقال - صلى الله عليه وسلم - لعمر: قل له: ذلك بيننا وبينك إن شاء الله تعالى، ثم ندم أبو سفيان فقال لنعيم بن مسعود ^(٧)، وكان يخرج إلى المدينة للتجارة: إذا أتيت المدينة، فخوفهم لكيلا يخرجوا، فلما قدم نعيم المدينة قال: إن أبا سفيان قد جمع خلقاً كثيرة، فكره أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الخروج إليهم، واثقلوا، فلما رأى ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منهم قال: والذي نفسي بيده، لأخرجن إليهم، وإن لم يخرج معي منكم أحد، قال: فمضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - [للميعاد] ^(٨) ومعه نحواً من سبعين رجلاً حتى آتتهوا إلى ذلك الموضع وكان هناك سوق فلم

= قال في (مسلم الثبوت) وشرحه، ولم ينكر عليه من أحد، بل قبله الكل في كل عصر.

ماذا يقول المؤدي بالمعنى؟

ينبغي لمن أدى بالمعنى أن يقول عقبيه: أو كما قال، أو نحوه، أو شبهه أو ما أشبه ذلك من الألفاظ.

قال السيوطي: وقد كان قوم من الصحابة يفعلون ذلك، وهم أعلم الناس بمعاني الكلام خوفاً من الذلل لمعرفتهم بما في الرواية بالمعنى من الخطر.

(٣) سقط في أ.

(٢) سقط في ظ.

(١) سقط في ظ.

(٦) انظر تفسير القرطبي ٢٧٦/٤.

(٥) سقط في ظ.

(٤) سقط في أ.

(٧) نعيم بن مسعود بن عامر أسلم ليالي الخندق مات في خلافة عثمان تهذيب التهذيب ٤٦٦/١٠.

(٨) سقط في ظ.

يخرج أحد من أهل مكة، فتسوقوا من السوق حاجتهم، وانصرفوا فنزل قوله تعالى: «الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لَهِ الرَّسُولِ»
 ﴿مَنْ بَعْدَ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾^(١) [يعني] ^(٢) أصابتهم الجراحات يوم أحد ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ﴾ أي الذين^(٣)
 أوفوا الميعاد ﴿وَاتَّقُوا﴾ السخط في معصية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لهم ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي ثواب كثير.
 ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ يعني «نعيم بن مسعود» وإنما أراد به جنس الناس وكان رجلاً واحداً ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا
 لَكُمْ﴾ يعني أبا سفيان وأصحابه ﴿فَاخْشَوْهُمْ﴾ ولا تخرجوا إليهم ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ أي تصديقاً و يقيناً وجرأة على
 القتال ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ أي ثقتنا بالله، وأيقنوا أن الله لا يخذل محمداً - صلى الله عليه وسلم -
 ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ أي نعم الثقة لنا، ﴿فَانْقَلَبُوا﴾ [انصرفوا] ﴿بِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾ أي بأجر من الله ﴿وَفَضْلُ﴾ يعني ماتسوقوا
 به من السوق، واشتروا الأشياء بسعر رخيص ﴿لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ يعني قتال ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ
 عَظِيمٍ﴾ أي ذو من عظيم، وقال في رواية الضحاك: كان ذلك يوم أحد، لما انهزمت قريش ونزلت في مواضع
 وكثرت الجراحات في أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - فهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالخروج
 إليهم فأجابه سبعون رجلاً فنزلت هذه الآية. قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ يعني نعيم بن
 مسعود، لأن كل عات متهم شيطان يخوف أوليائه يعني بأوليائه الكفار. ويقال: يخوف أشكاله. وقال الزجاج:
 ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي ذلك التخويف عمل الشيطان يخوفكم من أوليائه. وقال القتبي: يخوف أوليائه أي
 بأوليائه، أي كما قال تعالى: ﴿لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ يعني لينذركم: ببأس شديد. ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ في
 الخروج ﴿وَخَافُونَ﴾ في القعود ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي مصدقين. قال الزجاج: معناه إن كنتم مصدقين فقد
 أعلمتكم أنني أنصركم عليهم.

وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوْا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا
 فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾

﴿ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾، قال الكلبي: يعني به المنافقين ورؤساء اليهود كتّموا صفة
 محمد - صلى الله عليه وسلم - في الكتاب، فنزل ﴿ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾. ويقال: إن أهل الكتاب
 لما لم يؤمنوا شق ذلك على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأن الناس ينظرون إليهم، ويقولون: إنهم أهل
 الكتاب، فلو كان قوله حقاً لاتبعوه، فنزلت هذه الآية. «ويقال: نزلت في مشركي قريش: لأنهم كانوا أقرباء،
 والناس يقولون لو كان قوله حقاً لاتبعه أقرباؤه، فشق ذلك عليه، فنزلت ﴿ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ أي
 يبادرون في الكفر ولا يصدقونك ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوْا اللَّهَ شَيْئًا﴾ أي لا ينقصوا من ملك الله شيئاً وسلطانة شيئاً
 بكفرهم، وهذا كما روى أبو ذر الغفاري عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: قال الله «لو أن أولكم
 وآخركم وجنكم وإنسكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملك الله شيئاً، ولو كان أولكم وآخركم
 وجنكم وإنسكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص من ملك الله جناح بعوضة^(٤)». ثم قال تعالى: ﴿يريد الله

(١) قال الفراء في قوله «إن يمسسكم قرح» وقرح بضم القاف قال: وأكثر القراء على فتح القاف، وكان القرح الجراح بأعيانها قال: وهو
 مثل الوجع والوجع، ولا يجدون إلا جهدهم وجهدهم. انظر لسان العرب ٣٥٧١/٥.

(٢) سقط من ظ. (٣) سقط من أ.

(٤) أخرجه مسلم بنحوه مطولاً ١٩٩٤/٤ وابن ماجه ١٤٢٢/٢ وأحمد في المسند ١٥٤/٥.

أن لا يجعل لهم حظاً في الآخرة ﴿أي نصيباً في الجنة﴾ ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ في الآخرة. قرأ نافع «ولا يُحْزِنُكَ» بضم الياء وكسر الزاي، وكذلك ما كان نحو هذا في جميع القرآن إلا في قوله تعالى «لا يحزنهم الفزع الأكبر» وقرأ الباقون: بنصب الياء وضم الزاي^(١) وهما لغتان وتفسيرهما واحد.

إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾

ثم قال تعالى: ﴿إن الذين اشتروا﴾ يعني اختاروا ﴿الكفر بالإيمان لن يضرروا الله شيئاً﴾ يقول لن ينقصوا من ملك الله شيئاً وإنما أضروا بأنفسهم حيث استوجبوا لأنفسهم العذاب ﴿ولهم عذاب أليم﴾ في الآخرة.

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم﴾ يعني لا يظن الكفار أن الذي نملي لهم ونمهلهم خير لهم ويقال: ما نعطيهم من المال والولد لا يظن أن ذلك خير لهم في الآخرة، بل هو شر لهم في الآخرة ﴿إنما نملي لهم﴾ ﴿ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين﴾ أي نعطي لهم المال والولد يهانون به من العذاب، ويقال: إنما نملي لهم أي بما أصابوا من الظفر يوم أحد لم يكن ذلك خيراً لأنفسهم وإنما كان ليزدادوا عقوبة. ويقال: إنما نملي لهم ونؤخر العذاب عنهم ليزدادوا إثماً، أي جرأة على المعاصي، وإنما كان ذلك مجازاة لكفرهم وخبت نياتهم. وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: ما من بر (وفاجر)^(٢) إلا والموت خير له، لأنه إن كان براً، فقد قال الله تعالى: «وما عند الله خير للأبرار» وإن كان فاجراً، فقد قال الله تعالى: «إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً». قرأ ابن عامر وعاصم «لا يحسبن» بالياء ونصب السين، قرأ الباقون بالتاء وكسر السين، وكذلك الذي بعد هذا.

مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تَوَمَّنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾

ثم قال تعالى: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه﴾. قال الكلبي وذلك أن قريشاً من أهل مكة قالوا: يا رسول الله: (إنك تزعم أن الرجل منا في النار، وإذا ترك ديننا واتبع دينك قلت: هو من أهل الجنة، فأخبرنا عن هذا من أين هو؟ وأخبرنا من يأتيك منا؟ ومن لا يأتيك، فأنزل الله تعالى: «ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه» من الكفر والتناق ﴿حتى يميز الخبيث من الطيب﴾ يقول: حتى يخلص الكافر من المؤمن. ﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾ أي ليبين لكم المؤمن من الكافر قبل أن يؤمن، وقال الفراء: لم يكن الله ليعلمكم ذلك فيطلعكم على غيبه، ﴿ولكن الله يجتبي﴾ يقول: يصطفي ﴿من رسله من يشاء﴾ للنبوة والرسالة من خلقه فيوحي إليه بإذنه، قال في رواية الضحاك: إن المنافقين أعلنوا الإسلام وأسروا الكفر، وصلوا وجاهدوا مع المؤمنين،

فأحب الله أن يميز بين الفريقين ، وأن يدل رسوله على سرائر المنافقين فقال تعالى « ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب » يعني المنافق من المؤمن وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يطلع أنبياءه ورسله « يعني أن المؤمنين » لا يعلمون سر المنافقين ، ولكن الله يبين ذلك للنبي - صلى الله عليه وسلم - . ويقال : « ما كان الله ليذر المؤمنين » أي ليرك من علم أنه من أهل الإيمان على ما أنتم عليه من الكفر حتى يوفقه للإيمان . « وما كان الله ليطلعكم على الغيب » ولكن الله يطلع أنبياءه ورسله بالوحي حتى يكون ذلك علامة لنبوتهم ثم قال تعالى : ﴿ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَإِنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ وتلقوا ﴿ الشُّرَكَاءَ ﴾ والمعصية ﴿ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ . أي ثواب عظيم في الجنة ، ويقال إن الكفار لما سألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يبين لهم من يؤمن منهم ، فنزل قوله ﴿ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ يعني ولا تشتغلوا بما لا يعينكم ، واشتغلوا بما يعينكم ، فأمنوا « بالله ورسله » فإنكم إن فعلتم ذلك « فلكم أجر عظيم » . قرأ حمزة والكسائي : « حتى يُميز »^(١) مع التشديد بضم الياء ونصب الميم وقرأ الباقون ، بنصب الياء وكسر الميم بغير تشديد وتفسيرهما واحد إلا أنك إذا قرأت بالتشديد قد يكون عبارة عن الكثرة والمبالغة .

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أي بما أعطاهم الله من المال ، يبخلون ويمنعون الزكاة والصدقة وصلة الأرحام ، فلا يظنوا أن ذلك ﴿ هو خير لهم بل هو شر لهم ﴾ يعني أن البخل ، شر لهم . ويقال : الفضل شر لهم . ﴿ سيطوقون ﴾ يقول : سيؤتون ﴿ ما بخلوا به ﴾ من الزكاة كهيئة الطوق . وروي عن ابن عباس أنه قال : « يأتي كثر أحدهم شجاع أقرع له زبيبتان ، طوقاً في عنقه يلدغ خديه ويقول أنا الزكاة التي بخلت بي في الدنيا » . وروي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نحو هذا^(٢) ، فذلك قوله تعالى « سيطوقون ما بخلوا به » ﴿ يوم القيامة ﴾ ويقال هو طوق من نار في عنقه ، ويقال : هو على وجه المثل ، يعني وبال ذلك في عنقهم ، كما قال في آية أخرى : « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه » . قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يعني : إذا هلك الخلق كلهم أهل السموات من الملائكة ، وأهل الأرض من الإنس والجن وسائر الخلق ، ويبقى رب العالمين ، ثم يقول : « لمن الملك اليوم » فلا يجيب أحد ، فيرد على نفسه فيقول : لله الواحد القهار . فذلك قوله تعالى « ولله ميراث السموات والأرض » يعني يهلك أهل السموات والأرض ولم يبق لأحد ملك وإنما سمي ميراثاً على وجه المجاز ، لأن القرآن بلغة العرب وكانوا يعرفون أن من رجع الملك إليه يكون ميراثاً على وجه المجاز ، وأما في الحقيقة فليس بميراث ، لأن الوارث في الحقيقة هو الذي يرث شيئاً لم يكن يملكه

(١) انظر حجة القراءات ١٨٢/١ .

(٢) والحديث روي مرفوعاً من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أخرجه البخاري ٣/٣١٥ في الزكاة ، باب إثم مانع الزكاة . . .

(١٤٠٣) . وقوله (زبيبتان) تشية زبيبة بفتح الزاي وموحدين ، وهم الزبدتان اللتان في الشدين يقال تكلم حتى زبد شدقه أي خرج

الزبد منهما وقيل غير ذلك . . . انظر الفتح ٣/٣١٧ .

من قبل، والله - عز وجل - مالكهما وكانت السموات وما فيها والأرض وما فيها له، وإنما كانت الأموال عارية عند أربابها، فإذا ماتوا رجعت العارية إلى صاحبها الذي كانت له في الأصل. ومعنى الآية: إن الله تعالى أمر عباده أن ينفقوا ولا ييخلوا قبل أن يموتوا ويتركوا المال [ميراث الله] ^(١) الله تعالى، ولا ينفقهم إلا ما أنفقوا، ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي عالم بمن يؤدي الزكاة، وبمن يمنعها فيجازي كل نفس بما عملت. قرأ ابن كثير وأبو عمرو ^(٢): بما «يعملون» بالياء، والباقون بالتاء على وجه المخاطبة: «لقد سمع الله قول الذين قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء»، وقال في رواية الضحاك: لما نزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً» قالت الفجرة من كفرة اليهود، أفقير ربنا فيستقرضنا، قالوا ذلك على وجه الاستهزاء، فنزلت هذه الآية ^(٣)، ويقال: إن النبي - صلى الله عليه وسلم - بعث أبا بكر إلى اليهود ليأمرهم بالإسلام، وأن يعطوا الصدقة ويؤمنوا، فلما انتهى إليهم أبو بكر، قال «فناحص بن عازورا» (أيسال) ^(٤) الله منا الصدقة، فهو فقير ونحن أغنياء، فنزلت هذه الآية: «لقد سمع الله قول الذين قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا» أي حفظ قولهم ونجازيهم. ويقال: سنكتب ما قالوا، يعني يكتب عليهم الكرام الكاتبون ويؤاخذون به في الآخرة. «وكتب عليهم» أي «وكتب عليهم» ^(٥) قرأ حمزة «سَيُكْتَبُ» بضم الياء ونصب التاء. «وكتب عليهم الأنبياء» بضم اللام على معنى فعل ما لم يسم فاعله، يعني يكتب قتلهم الأنبياء ويقول بالياء والباقون «سنكتب» بالنون «وكتب عليهم» ينصب اللام ونقول بالنون. وقوله: «ذوقوا عذاب الحريق» روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: لو أن شرارة وقعت بالمشرق لغلت منها جماجم قوم بالمغرب ولو أن حلقة من سلاسل النار وضعت على رأس جبل لاحترق إلى سبع أرضين، فهذا معنى قوله عذاب الحريق ^(٦).

ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾

ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ﴾ يعني يقال لهم: ذلك العذاب بما قدمت ﴿أَيْدِيكُمْ﴾ من الكفر والتكذيب، أي بما قدمت، وذكر الأيدي على معنى الكتابة. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي لا يعذب أحداً بغير ذنب.

الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا ۖ لَآ نُؤْمِنُ ۚ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بَقْرَبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ۖ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ ۖ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ ۚ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ يعني كعب بن الأشرف، ومالك بن الضيف وغيرهما من رؤساء اليهود، قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا﴾ يعني أمرنا في التوراة ﴿لَآ نُؤْمِنُ﴾ يعني، إن لا نصدق ﴿لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بَقْرَبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ يعني تجيء نار من السماء، فتأكل القربان بالبينات، فإن جئنا بها صدقناك قال الله تعالى ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ ۖ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ يعني بالآيات والعلامات، وبالذي قلتم يعني قد جاءكم الرسل بالذي قلتم من أمر القربان ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ يعني زكريا ويحيى وغيرهما ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تقولون.

(١) سقط في أ. (٢) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ١/١٨٤. (٣) انظر أسباب النزول للواحدي ص ٩/١.

(٤) سقط في أ. (٥) انظر الحجة لابن زنجلة ٢/١٨٤ - ١٨٥.

(٦) انظر تفسير الحافظ ابن كثير ٤/١٣٠ واتحاف السادة المتقين. ١/٥١٩ وكنز العمال (٣٩٤٨٧) (٣٩٥٠١).

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ بما تقول لهم ﴿فقد كذب رسول من قبلك﴾ فالله تعالى يعزي نبيه ليصبر على تكذيبهم فقد ﴿جاءوا بالبينات﴾ (يعني الرسل جاءوا بالبينات أي من قبلك، وقد جاءوا) بالآيات والعلامات ﴿والزبر﴾، قال الكلبي: يعني بأحاديث الأنبياء من قبلهم، بالنبوة على ما يكون ﴿والكتاب المنير﴾ يعني الحلال والحرام، وقال الزجاج: «الزبر» جماعة الزبور، وهو الكتاب، يقال زُبرْتُ أي كتبت، ويقال: زُبرْتُ أي قرأت، «والكتاب المنير» يعني المعني بالحلال والحرام. قرأ (أبو عمرو) ^(١) «بالزبر» مع الباء، وقرأ الباقون: «والزبر» بالواو ^(٢).

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَن زُحِرَ عَنِ الْكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾

ثم قال تعالى: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ قال الكلبي لما نزل قوله تعالى: «كل من عليها فان» قالت الملائكة هلك أهل الأرض، فلما نزل: «كل نفس ذائقة الموت» أيقنت الملائكة أنها هلكت معهم. ثم قال: ﴿وإنما توفون أجوركم﴾ أي توفون ثواب أعمالكم ﴿يوم القيامة فمن زحرج عن النار﴾ يقول: بُعد ونُحِيَ عنها ﴿وَادْخُلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ يعني نجا وسعد في الجنة. حدثنا محمد بن الفضل، قال حدثنا محمد بن جعفر، قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف، قال حدثنا المسيب، عن الأعمش، عن زيد بن وهب عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة، عن عبد الله بن عمرو: أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: من أحب أن يزحرج عن النار، ويدخل الجنة، فليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه ^(٣) وقوله: ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾. قال ابن عباس: «متاع الغرور» مثل القدر والقارورة، والسكرجة ونحو ذلك، لأن ذلك لا يدوم، وكذلك الدنيا تزول وتفنى ولا تبقى، ويقال هو مثل الزجاج الذي يسرع إليه الكسر ولا يصلحه الجبر. ويقال كزاد المسافر يسرع إليه الفناء، فكذلك الدنيا.

لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ يقول: لتختبرن في أموالكم بالنقصان والذهاب. ويقال:

(١) انظر الحجة ١٨٥/٢.

(٢) واختلف أهل النحو في ذلك؛ فقال قوم: (مررت بزيد وعمرو) و(مررت بزيد ويعمر) سواء، وكذلك: «جاءوا بالبينات والزبر» و«بالزبر». وقال الخليل: (مررت بزيد وعمرو) مروراً واحداً كأنك مررت بهما في حال واحد، فكذلك (جاءت الرسل بالبينات والزبر) في حال وفي وقت واحد؛ و(مررت بزيد ويعمر): مرورين، هذا لا يكون في وقت واحد، فكذلك قوله: «وجاءوا بالبينات» ثم جاءوا «بالزبر» وأراد بالبينات: المعجزات، ثم جاءوا بعد ذلك بالزبر أي بالكتب.

(٣) أخرجه مسلم ١٤٧٢/٣ في كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء، الأول فالأول (١٨٤٤/٤٦) وقوله - صلى الله عليه وسلم - «فليأت إلى الناس ما يجب أن يؤتى إليه» هذا من جوامع كلامه - صلى الله عليه وسلم - وبديع حكمه وهو قاعدة مهمة ينبغي الاعتناء بها، وإن الإنسان يلزم أن لا يفعل مع الناس إلا ما يجب أن يفعلوه معه.

بوجوب الحقوق فيها، وفي أنفسكم بالأمراض والأوجاع والقتل ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ حين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء. ﴿ومن الذين أشركوا﴾ يعني مشركي العرب ﴿أذى كثيراً﴾ باللسان والفعل. ويقال: نزلت الآية في شأن أبي بكر - رضي الله عنه - كانوا - أهل الجاهلية - يهددونه ويشتمونه، ويقولون: إنما يفعلهم محمد - صلى الله عليه وسلم - بمشاورته فأمره الله تعالى بأن يصبر على أذاهم^(١). فقال تعالى: ﴿وإن تصبروا﴾ على أذاهم ﴿وتتقوا﴾ المكافأة، ويقال: وتتقوا معاصيه. ﴿فإن ذلك من عزم الأمور﴾ يعني من حقائق الأمور، ويقال: إن ذلك الصبر من خير الأمور.

وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاثِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقُتِلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفْرَنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخِلَ لَهُمْ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾

قوله تعالى: ﴿وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب﴾ يعني أخذ عليهم الميثاق حين أخذ ذرية آدم من ظهورهم. ويقال: أخذ عليهم الميثاق بالوحي في كتب الأنبياء ﴿لتبينته للناس﴾ يعني نعت محمد - صلى الله عليه وسلم - وصفته ﴿ولا تكتُمونه﴾ عنهم. قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر^(٢) «ليبينته للناس ولا يكتُمونه» كلاهما بالياء وقرأ الباقون بالتاء، فمن قرأ بالياء فمعناه أخذ عليهم الميثاق ليبينته للناس ولا يكتُمونه، ومن قرأ بالتاء، فمعناه أخذ عليهم الميثاق وقال لهم لتبينته للناس ولا تكتُمونه. ثم أخبر عن سوء معاملتهم ونقضهم الميثاق فقال تعالى: ﴿فنبذوه وراء ظهورهم﴾ أي: طرحوه خلف ظهورهم، يعني أنهم تركوا الميثاق ولم يعملوا به ﴿واشترؤا به﴾ أي بكتمان نعت محمد - صلى الله عليه وسلم - وصفته ﴿ثمنًا قليلًا﴾ أي عرضاً يسيراً من متاع الدنيا

(١) انظر أسباب النزول للواحد ص (٩٩).

(٢) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ١/ ١٨٥ - ١٨٦.

﴿فبئس ما يشتركون﴾ يعني بش ما يختارون لأنفسهم الدنيا على الآخرة: ﴿لا تحسبن﴾ يقول: لا تظنن يا محمد ﴿الذين يفرحون بما أوتوا﴾ يقول يعجبون بما أوتوا، يعني بما غيروا من نعمة وصفته، وهذا قول الكلبي، وقال الضحاك: إن اليهود كانوا يقولون للملوك إنا نجد في كتابنا أن الله يبعث نبياً في آخر الزمان يختم به النبوة، فلما بعثه الله، سألهم الملوك، أهو هذا الذي تجدونه في كتابكم؟ فقالت اليهود طمعاً في أموال الملوك: هو غير هذا، فأعطاهم الملوك ما لا فقال الله تعالى: ﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما أوتوا﴾ أي بما أعطاهم الملوك: ﴿ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا﴾ لأنهم كانوا يقولون نحن على دين إبراهيم، ولم يكونوا على دينه ويقال كانوا يقولون نحن أهل الصلاة، والصوم والكتاب، ويريدون أن يحمدا بذلك. قال الله تعالى: ﴿فلا تحسبنهم﴾ يقول فلا تظنهم ﴿بمفازة من العذاب﴾ معناه، لا تظن أنهم ينجون من العذاب بذلك ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي دائم لا يخرجون منه أبداً: ﴿والله ملك السموات والأرض﴾ أي خزائن السموات المطر، وخزائن الأرض النبات. ويقال: جميع من في السموات والأرض عبده وفي ملكه. ﴿والله على كل شيء قدير﴾ «من النبات وغيره. ويقال: هذا معطوف على أول الكلام: إنهم لا ينجون من عذابه يأخذهم متى شاء لأنه على كل شيء قدير» «إن في خلق السموات والأرض» وذلك إن أهل مكة سألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يأتيهم بآية لصحة دعواه، لأنه كان يدعوهم إلى عبادة الله وحده، فنزل: ﴿إن في خلق السموات والأرض﴾ أي خلقين عظيمين. ويقال: فيما خلق في السموات من الشمس والقمر والنجوم، وما خلق في الأرض من الجبال والبحار والأشجار. ﴿واختلاف الليل والنهار﴾ يقول: وذهاب الليل ومجيء النهار ويقال: اختلاف لونهما ﴿لآيات﴾ أي لعبرات ﴿لأولى الأبواب﴾ أي لذوي العقول. ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً﴾ أي يصلون لله «قياماً» إن استطاعوا على القيام، «وقعوداً» إن لم يستطيعوا القيام ﴿وعلى جنوبهم﴾ إن لم يستطيعوا القعود لزمانة، ويقال: معناه الذين يذكرون الله في الأحوال كلها في حال القيام والقعود والاضطجاع، كما قال في آية أخرى: «اذكروا الله ذكراً كثيراً» ثم قال: ﴿ويتفكرون في خلق السموات والأرض﴾ أي يعتبرون في خلقهما. قال: حدثنا الخليل بن أحمد، قال: حدثنا السراج قال: حدثنا قتيبة قال: حدثنا ابن زرارة الحلبي عن أبي حباب، عن عطاء بن أبي رباح، قال: دخلت مع ابن عمر وعبيد بن عمير على عائشة، (فسلمنا)^(١) عليها، فقالت: من هؤلاء؟ فقلت عبد الله بن عمر وعبيد بن عمير، فقالت: مرحباً بك يا عبيد بن عمير، مالك لا تزورنا؟ فقال عبيد: زر غباً تزدد حباً، فقال ابن عمر: دعونا من هذا، حدثنا بأعجب ما رأيت من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فبكت بكاء شديداً ثم قالت: كل أمره عجب، أتانني في ليلتي، فدخل في فراشي حتى ألصق جلده بجلدي، فقال: يا عائشة أتأذنين لي أن أعبد ربي، فقلت: والله إنني لأحب قربك، والله إنني لأحب هواك، فقام إلى قربة ماء فتوضأ ثم قام فبكى وهو قائم حتى روت الدموع حجره، ثم اتكأ على شقه الأيمن ووضع يده اليمنى تحت خده الأيمن فبكى حتى روت الدموع الأرض، ثم أتاها بلال بعدما أذن للفجر فلما رآه يبكي قال: أتبكي يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: يا بلال أفلا أكون عبداً شكوراً وما لي لا أبكي وقد أنزلت علي الليلة: ﴿إن في خلق السموات والأرض... إلى قوله فقنا عذاب النار﴾ ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها^(٢). وروي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: تفكروا في الخلق ولا تتفكروا

(١) في ظ فسلمنا.

(٢) ذكره العجلوني وعزاه لابن حبان وقال رواه أيضاً أنس وجابر وابن عباس وابن عمرو وعلي وأبو الدرداء وأبو ذر وعائشة وغيرهم، حتى قال ابن طاهر إن ابن عدي أورده في أربعة عشرة موضعاً من كامله كلها معللة، وقال في الدرر وضعها كلها، وأورد أبو نعيم طريقة، ثم الحافظ ابن حجر في الإنارة بطرق غيب الزيارة، وقال في اللآليء رواه في مسند الفردوس عن ابن عمر رضي الله عنهما. السنن =

في الخالق^(١)، وقال صلى الله عليه وسلم تفكر ساعة خير من عبادة سنة^(٢)، ثم قال تعالى عز وجل: ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً﴾ أي يتفكرون ويقولون: ربنا ما خلقت هذا باطلاً، عبثاً بغير شيء، ولكن خلقتهما لأمر هو كائن ﴿سبحانك فقنا عذاب النار﴾ يعني ادفع عنا عذاب النار. وقال الزجاج: معنى سبحانك، أي تنزيهاً لك من أن تكون خلقتكما باطلاً، ﴿فقنا عذاب النار﴾ أي صدقنا رسلك، وسلمنا أن لك جنة وناراً، فقنا عذاب النار. ﴿ربنا إنك من تدخل النار﴾ ﴿فقد أخزيت﴾ أي أهنته وفضحته ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ يعني ما للمشركين من مانع من العذاب إذ نزل بهم. ويقولون أيضاً: ﴿ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان﴾ يعني محمداً يدعو إلى التصديق ﴿أن آمنوا بربكم﴾ أي صدقوا بتوحيد ربكم ﴿فآمنا﴾ أي صدقنا بتوحيد ربنا. وقال محمد بن كعب القرظي: ليس كل الناس لقي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولكن المنادي هو كتاب الله يدعو إلى الإيمان بشهادة أن لا إله إلا الله وأن آمنوا بربكم فآمنا ﴿ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا﴾. وقال الكلبي: الذنوب الكبائر ودون الكبائر، والسيئات الشرك، وقال الضحاك: ذنوبنا: يعني ما عملوا في حال الجاهلية، «وكفر عنا سيئاتنا». يعني: ما عملوا في حال الإسلام، ويقال الذنوب والسيئات بمعنى واحد. ويقال: الذنوب هي الكبائر، والسيئات ما دون الكبائر التي تكفر من الصلاة إلى الصلاة. ﴿وتوفنا مع الأبرار﴾ أي مع المطيعين «ويقال: اجعل أرواحنا مع أرواح المطيعين» والصالحين. ويقولون أيضاً: ﴿ربنا وآتانا ما وعدتنا على رسلك﴾ يعني أعطنا ما وعدتنا من الخير والجنة على لسان رسلك، ويقال هو ما ذكر من استغفار الملائكة والأنبياء، للمؤمنين، وهو قوله «والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض»، وما ذكر من دعاء نوح وإبراهيم - عليهم السلام - للمؤمنين، ثم قال تعالى: ﴿ولا تخزننا يوم القيامة﴾ يعني لا تعذبنا ويقال لا تحذلنا ﴿إنك لا تخلف الميعاد﴾ يعني ما وعدت من الخير والثواب للمؤمنين ﴿فاستجاب لهم ربهم﴾ فأخبر الله عن فعلهم وذكر ما أجابهم به، وأنجز لهم مواعده، وبين لهم ثوابه وهو قوله: ﴿فاستجاب لهم ربهم﴾. روي عن جعفر بن محمد الصادق أنه قال: من دعا الله بهذه الدعوات فإنه يستجاب له، لأنه قال تعالى فاستجاب لهم ربهم ﴿أني لا أضيع عمل عامل منكم﴾ يعني ثواب عمل عامل في طاعتي ﴿من ذكر أو أنسى﴾ يعني رجلاً أو امرأة، قال: حدثنا الخليل بن أحمد، قال: حدثنا الديلمي، قال: حدثنا أبو عبيد الله، قال: حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار، عن رجل من ولد أم سلمة، يقال له سلمة بن الأكوع عن أم سلمة، أنها قالت: يا رسول الله، إني أسمع الله ذكر الهجرة، فذكر فيها الرجال ولم يذكر فيها النساء. فأنزل الله تعالى: ﴿إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنسى﴾ ﴿بعضكم من بعض﴾، قال الكلبي: أي بعضكم أولياء بعض في الدين، = زُوروا غيباً تزدادوا حباً، وقال في المقاصد وتبعه النجم بعد ذكرهما طرقة: وبمجموعها يتقوى الحديث وإن قال البزار أنه ليس فيه

حديث صحيح، فهو لا ينافي ما مكناه وما أحسن قول ابن دُرَيْد:

عليك باغباب الزيارة إنها إذا كثرت كانت إلى الهجر مسلكاً
فإنني رأيت الغيث يسأم دائباً ويسأل بالأيدي إذا هو أنسكا

انظر كشف الخفاء ١ / ٥٢٨.

(١) انظر الدرر المنثور ٢ / ١١٠ وانخاف السادة المتقين ١ / ١٦٢ ابن كثير ٧ / ٤٤١.

(٢) ذكره العجلوني في الكشف ١ (٣٧٠، ٣٧١) وقال ذكره الفاكهاني بلفظ فكر ساعة وقال أنه من كلام سري السقطي وفي لفظ ستين سنة، وذكره في الجامع الصغير بلفظ فكرة ساعة خير من عبادة ستين سنة، وورد عن ابن عباس وأبي الدرداء بلفظ فكرة ساعة خير من عبادة ستين سنة قال النجم إن العراقي قال في جزء له رويته من حديث عبد الله بن سلام أنه - صلى الله عليه وسلم - خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون، فقال ما لكم تتفكرون؟ فقالوا نتفكر في خلق الله عز وجل، قال فكذلك فافعلوا تفكروا في خلقه، ولا تفكروا فيه فإن لهذا المغرب أرضاً بيضاء نورها مسيرة الشمس أربعين يوماً، بها خلقٌ من خلق الله لم يعصوا طرفة عين قالوا يا رسول الله فأين الشيطان عنهم؟ قال ما يدرون خلق الشيطان أم لا، قالوا من ولد آدم هم؟ قال لا يدرون خلق آدم أم لا.

وقال الضحاك: يعني يشبه بعضاً في الطاعة، ويقال: بعضكم على أثر بعض، ويقال: بعضكم على دين بعض ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ من مكة إلى المدينة ﴿وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ يعني أن أهل مكة أخرجوا مؤمنهم من مكة ﴿وَأُودُوا فِي سَبِيلِي﴾ أي عذبوا في طاعتي ﴿وَقَاتِلُوا﴾ مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المشركين ﴿وَقُتِلُوا﴾ أي قتلهم المشركون. قرأ حمزة والكسائي^(١) «وقتلوا وقاتلوا» على معنى التقديم والتأخير، كقوله تعالى: «إني متوفيك ورافعك» وقرأ الباقون: «وقاتلوا وقتلوا» إلا ابن كثير وابن عامر: قرءا «وقتلوا بالتشديد على معنى التكثير والمبالغة، فذكر الله فعلهم ثم ذكر ثوابهم، فقال: ﴿لَا كُفْرَنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي لأمحون عنهم ذنوبهم ﴿وَلَا دُخِلْنَاهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي تجري يعني من تحت قصورها وأشجارها الأنهار ﴿ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يعني أن الجنات جزاء لأعمالهم من عند الله وقال الزجاج: إنما صار نصباً، لأنه مصدر مؤكد، معناه: لأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ولأثيبهم ثواباً. وروي عن الفراء أنه قال: إنما صار نصباً على التفسير، ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الثَّوَابِ﴾ أي حسن الجزاء وهو الجنة، ويقال: حسن المرجع في الآخرة خير من الدنيا.

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا أُوتِيتُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾

﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد﴾ يقول: لا يحزنك يا محمد ذهابهم ومجيئهم في تجاراتهم ومكاسبهم في الأرض، ويقال: هذا الخطاب للمؤمنين ومعناه لا يغرنكم تجارات الكفار وتصرفهم في أموالهم في البلاد لأن ذلك ﴿متاع قليل﴾ لأن الكفار كانوا في رخاء وعيش، وكانت لهم رحلة الشتاء والصيف، وكان المؤمنون في ضيق وشدة، فأخبر الله تعالى بمرجع الكفار في الآخرة، وبمرجع المؤمنين فقال تعالى: لا يغرنك تقلب الذين كفروا أي ما هم فيه من العيش والسعة، فإنما هو متاع أي يفنى بعد وقت قريب قوله ﴿ثم ما أوتاهم جهنم﴾ أي مصيرهم إلى جهنم ﴿وبئس المهاد﴾ بئس موضع القرار في النار، وبئس المصير إليها فما (ينفعهم) تجاراتهم وأموالهم.

لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

ثم ذكر مرجع المؤمنين ومصيرهم فقال: ﴿لكن الذين اتقوا ربهم﴾ أي اتقوا الشرك والفواحش ووحّدوا، ﴿ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً﴾ لا يموتون فيها، ولا يخرجون منها أبداً ﴿نزلًا من عند الله﴾ يقول ثواباً من عند الله للمؤمنين الموحدين خاصة. ﴿وما عند الله﴾ الجنة ﴿خير للأبرار﴾ من الدنيا للمؤمنين المطيعين. ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله﴾ يعني مؤمني أهل الكتاب، معناه، من أهل الكتاب من

آمن بالله فصدق بقوله: ﴿وَمَا أَنزَلَ إِلَيْكُم﴾ من القرآن وصدق ﴿وَمَا أَنزَلَ إِلَيْهِمْ﴾ من التوراة والإنجيل يعني على أنبيائهم، فذكر حالهم وبين ثوابهم لكي يرغب غيرهم من أهل الكتاب ليؤمنوا إذا علموا بثوابهم، ثم نعتهم فقال تعالى: ﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ أي متواضعين لله، والخشوع: أصله التذلل وكذلك الخضوع، وقد فرق بعض أهل اللغة بين الخشوع والخضوع، فقال: الخضوع في البدن خاصة، والخشوع يكون في البدن والبصر والصوت والقلب كما قال الله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ وقال: «خاشعة أبصارهم». ثم قال تعالى: ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يعني عرضاً يسيراً كفعل اليهود، ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ أي ثوابهم ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ الجنة ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي شديد العقوبة ويقال: سريع الحفظ والتعريف. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا﴾ أي اصبروا على البلاء والجهاد وأداء الفرائض، وعن المعاصي. ﴿وَاصْبِرُوا﴾ مع نبيكم - صلى الله عليه وسلم - على عدوكم حتى يدعوا دينهم إلى دينكم، يعني يتركوا الشرك، ويدخلوا في الإيمان ﴿وَرَابِطُوا﴾ مع عدوكم ما أقاموا وهذا قول الكلبي. وقال عكرمة: اصبروا على البلاء وعلى طاعة الله «وصابروا» أهل الضلالة «ورابطوا» الخيول. وقال الزجاج: اصبروا على دينكم وصابروا على عدوكم، وربطوا أي أقيموا على جهادكم بالحرب. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في جميع ما أمركم ونهاكم. وقال القتيبي: أصل المراقبة: أن يربطوا خيولهم في الشجر. ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ يقول: تفوزون وتأمنون النار وتنجون منها، ويقال: أصل الفلاح البقاء بالنعمة، ويقال: الفلاح أن يبلغ الإنسان نهاية ما (يؤمل). والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين آمين.

سُورَةُ النِّسَاءِ (١)

وهي مائة وستة وسبعون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً
وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾

﴿يا أيها الناس﴾ قال ابن عباس - رضي الله عنه - في قوله تعالى: «يا أيها الناس» قال الناس عامة، وقد يكون: «يا أيها الناس» خاصة وعامة، يعني خاصة لأهل مكة، وفي هذا الموضع عام لجميع الناس ﴿اتقوا ربكم﴾ يعني اخشوا ربكم، ويقال: أطيعوا ربكم. ويقال: احذروا المعاصي لكي تنجوا من عقوبة ربكم. وقال: وحدوا

(١) سميت هذه السورة في كلام السلف «سورة النساء» ففي صحيح البخاري عن عائشة قالت (ما نزلت سورة البقرة وسورة النساء إلا وأنا عنده) وكذلك سميت في المصاحف وفي كتب السنة وكتب التفسير ولا يعرف لها اسم آخر، لكن يؤخذ مما روي في صحيح البخاري عن ابن مسعود من قوله (نزلت سورة النساء القصوى) يعني سورة الطلاق - أنها شاركت هذه السورة في التسمية بسورة النساء، وأن هذه السورة تميز عن سورة الطلاق باسم سورة النساء الطولى، ولم أقف عليه صريحاً، ووقع في كتاب «بصائر ذوي التمييز» للفيروزابادي أن هذه السورة تسمى سورة النساء الكبرى، واسم سورة الطلاق سورة النساء الصغرى ولم أره - لغيره. ووجه تسميتها بإضافة إلى النساء أنها افتتحت بأحكام صلة الرحم، ثم بأحكام تخص النساء، وأن فيها أحكاماً كثيرة من أحكام النساء الأزواج والبنات، وختمت بأحكام تخص النساء.

وكان ابتداء نزولها بالمدينة، لما صح عن عائشة أنها قالت: «ما نزلت سورة البقرة وسورة النساء إلا وأنا عنده» وقد علم أن النبي - صلى الله عليه وسلم - بنى بعائشة في المدينة في شوال لثمان أشهر خلت من الهجرة، واتفق العلماء على أن سورة النساء نزلت بعد البقرة، فتعين أن يكون نزولها متأخراً عن الهجرة بمدة طويلة. والجمهور قالوا: نزلت بعد آل عمران، ومعلوم أن آل عمران نزلت في خلال سنة ثلاث أي بعد وقعة أحد، فيتعين أن تكون سورة النساء نزلت بعدها. وعن ابن عباس: «أن أول ما نزل بالمدينة سورة البقرة ثم الأنفال ثم آل عمران ثم سورة الأحزاب ثم الممتحنة ثم النساء» فإذا كان كذلك تكون سورة النساء نازلة بعد وقعة الأحزاب التي هي في أواخر سنة أربع أو أول سنة خمس من الهجرة وبعد صلح الحديبية الذي هو في سنة ست، حيث تضمنت سورة الممتحنة شرط إرجاع من يأتي المشركين هارباً إلى المسلمين عدا النساء وهي آية «إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات» الآية، وقد قيل: إن آية (واتوا اليتامى أموالهم نزلت في رجل من غطفان له ابن أخ يتيم، وغطفان أسلموا بعد وقعة الأحزاب - إذ هم من جملة الأحزاب أي بعد سنة خمس.

ومن العلماء من قال: نزلت سورة النساء عند الهجرة وهو بعيد، وأغرب منه من قال: إنها نزلت بمكة لأنها أفتتحت بيا أيها الناس وما كان فيه يا أيها الناس فهو مكّي، ولعله يعني أنها نزلت بمكة أيام الفتح لا قبل الهجرة، لأنهم يطلقون المكّي بإطلاقين. وقال بعضهم: نزل صدرها بمكة وسائرُها بالمدينة، والحق أن الخطاب «يا أيها الناس» لا يدل إلا على إرادة دخول أهل مكة في الخطاب، ولا يلزم أن يكون ذلك بمكة ولا قبل الهجرة فإن كثيراً مما فيه «يا أيها الناس» مدني بالاتفاق، ولا شك في أنها نزلت بعد =

ربكم ولا تشركوا به شيئاً. ثم دل على وحدانية نفسه بصنيعه. فقال: ﴿الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ يعني آدم، ﴿وخلق منها زوجها﴾ يعني خلق من نفس آدم زوجها حواء، وذلك أن الله تعالى لما خلق آدم وأسكنه الجنة ألقى عليه النوم، فكان آدم بين النائم واليقظان، فخلق من ضلع من أضلاعه اليسرى حواء، فلما استيقظ، قيل له: من هذه يا آدم؟ قال: امرأة، لأنها خلقت من المرء، فقيل: ما اسمها قال: حواء، لأنها خلقت من حي، وقد قيل: إنما سميت حواء لأنه كان على شفيتها حوه، وقيل: لأن لونها كان يضرب إلى السمرة، فسميت حواء من قولك أحوا،

= آل عمران، لأن في سورة النساء من تفاصيل الأحكام ما شأنه أن يكون بعد استقرار المسلمين بالمدينة، وانتظام أحوالهم وأمنهم من أعدائهم، وفيها آية التيمم، والتيمم شرع يوم غزوة المريسيع سنة خمس وقيل: سنة ست. فالذي يظهر أن نزول سورة النساء كان في حدود سنة سبع وطالت مدة نزولها، ويؤيد ذلك أن كثيراً من الأحكام التي جاءت فيها مفصلة تقدمت مجملة في سورة البقرة من أحكام الأيتام والنساء والموارث، فمعظم ما في سورة النساء شرائع تفصيلية في معظم نواحي حياة المسلمين الاجتماعية من نظم الأموال، والمعاشرة، والحكم، وغير ذلك. على أنه قد قيل: إن آخر آية منها وهي آية الكلاله هي آخر آية نزلت من القرآن إلا أنه يجوز أن يكون بين نزول سائر سورة النساء وبين نزول آية الكلاله التي في آخرها مدة طويلة، وأنه لما نزلت آية الكلاله الأخيرة أمروا بالحقاقها بسورة النساء التي فيها الآية الأولى، ووردت في السنة تسمية آية الكلاله الأولى آية الشتاء، وآية الكلاله الأخيرة آية الصيف، ويتعين ابتداء نزولها قبل فتح مكة لقوله تعالى ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ يعني مكة وفيها آية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ نزلت يوم فتح مكة في قصة «عثمان بن طلحة الشيبني» صاحب مفتاح الكعبة، وليس فيها جدال مع المشركين سوى تحقير دينهم نحو قوله ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا - فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ إلخ وسوى التهديد بالقتال، وقطع معذرة المتقاعدين عن الهجرة، وتوهين بأسهم عن المسلمين، مما يدل على أن أمر المشركين قد صار إلى وهن، وصار المسلمون في قوة عليهم، وأن معظمها - بعد التشريع - جدال كثير مع اليهود وتشويه لأحوال المنافقين، وجدال مع النصارى ليس بكثير، ولكنه أوسع مما في سورة آل عمران، مما يدل على أن مخالطة المسلمين للنصارى أخذت تظهر بسبب تفشي الإسلام في تخوم الحجاز الشامية لفتح معظم الحجاز وتهامة.

وقد عُدَّت الثالثة والتسعين من السور، نزلت بعد سورة الممتحنة وقبل سورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ﴾.

وعدد آياتها مائة وخمس وسبعون في عدد أهل المدينة ومكة والبصرة، ومائة وست وسبعون في عدد أهل الكوفة، ومائة وسبعون في عدد أهل الشام.

وقد اشتملت على أغراض وأحكام كثيرة أكثرها تشريع معاملات الأقرباء وحقوقهم، فكانت فاتحتها مناسبة لذلك بالتذكير بنعمة خلق الله وأنهم محقوقون بأن يشكروا ربهم على ذلك، وأن يراعوا حقوق النوع الذي خلقوا منه بأن يصلوا أرحامهم القريبة والبعيدة، وبالرفق بضعفاء - النوع من اليتامى، ويراعوا حقوق صنف النساء من نوعهم بإقامة العدل في معاملاتهم، والإشارة إلى عقود النكاح والصدقات، وشرع قوانين المعاملة مع النساء في حالتي الإستقامة والانحراف من كلا الزوجين، ومعاشرتهن، والمصالحة معهن، وبيان ما يحل للزوج منهن، والمحرمات بالقرابة أو الصهر، وأحكام الجوازي بملك اليمين، وكذلك حقوق مصير المال إلى القرابة، وتقسيم ذلك، وحقوق حفظ اليتامى في أموالهم، وحفظها لهم، والرعاية عليهم.

ثم أحكام المعاملات بين جماعة المسلمين في الأموال والدماء، وأحكام القتل عمداً وخطأ، وتأصيل الحكم الشرعي بين المسلمين في الحقوق، والدفاع عن المعتدي عليه، والأمر بإقامة العدل بدون مصانعة، والتحذير من إتباع الهوى، والأمر بالبر والمواصفة وأداء الأمانات، والتهديد بتحريم شرب الخمر.

وطائفة من أحكام الصلاة، والطهارة، وصلاة الخوف، ثم أحوال اليهود لكثرتهم بالمدينة، وأحوال المنافقين وفضائلتهم، وأحكام الجهاد لدفع شوكة المشركين، وأحكام معاملة المشركين ومساوئهم، ووجوب هجرة المؤمنين من مكة، وإبطال مآثر الجاهلية.

وقد تخلل ذلك مواعظ، وترغيب، ونهي عن الحسد، وعن تمنى ما للغير من المزايا التي حرم منها من حرم بحكم الشرع أو بحكم الفطرة، والترغيب في التوسط في الخير والإصلاح وبث المحبة بين المسلمين. انظر التنوير ٤/ ٢١١، ٢١٣، ٢١٤.

كقوله تعالى: «فجعل غشاء أحوى» ثم قال تعالى: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رَجُلًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ يعني خلق منهما، يعني من آدم وحواء، ونشر منهما رجلاً كثيراً ونساءً، يعني خلق منهما رجلاً كثيراً ونساءً. قال مقاتل: ^(١) أي خلق منهما ألف ذرية من الناس. ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي أطيعوا الله ﴿الذي تساءلون به﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم وأبو عمرو، في رواية هارون ^(٢): «تسألون» بغير تشديد، وقرأ الباقون: بالتشديد، [فأما من قرأ بالتشديد] ^(٣)، لأن أصله تساءلون، فأدغم إحدى التائين في السين وأقيم التشديد مقامه، ومن قرأ بالتخفيف فالأصل أيضاً: تساءلون فحذف إحدى التائين لاجتماع الحرفين من جنس واحد للتخفيف. ثم قال: ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ قرأ حمزة: ^(٤) «والأرحام» بكسر الميم، والباقون بنصب الميم، ومعناه: واتقوا الله الذي تسألون به الحاجات، يعني الذي يسأل الناس بعضهم بعضاً، فيقول الرجل للرجل: أسألك بالله، وأنشدك بالله والأرحام، يقول: واتقوا [الله] ^(٥) في ذوي الأرحام فصلوها ولا تقطعوها، وأما من قرأ بالكسر: معناه، أسألك بالله وبالرحم أن تعطيني شيئاً. وقال الزجاج من قرأ بالخفض فخطأ في العربية [وفي أمر الدين، أما الخطأ في العربية] ^(٦) لأن الاسم يعطف على الاسم المفصح به ولا يعطف على المكنى به إلا في اضطرار الشعر كقول الشاعر: ^(٧)

(١) انظر التفسير ٢٢١/١

(٢) إلا أن في نسبة تخفيف السين لأبي عمرو غير صحيح لأن أبا عمرو قرأ (تساءلون) بتشديد السين مثل نافع وابن كثير وابن عامر. انظر حجة القراءات لابن زنجلة (١٨٨) سراج القاري (١٨٨).

(٣) سقط في ظ.

(٤) فقرأ حمزة بخفض الميم «والأرحام» عطفاً على الضمير في (به) على مذهب الكوفيين، أو أعيد الجار وحذف للعلم به وجُرَّ على القسم تعظيماً للأرحام حثاً على صلتها، والباقون بالنصب عطفاً على لفظ الجلالة أو على محل (به) كقولك: مررت به وزيداً، وهو من عطف الخاص على العام والمعنى: اتقوا مخالفته، وقطع الأرحام متدرج فيها فنبه سبحانه بذلك وقرنها باسمه تعالى على أن صلة الأرحام بمكان عند الله تعالى، وطعن الزجاج في قراءة الخفض مردود، ولقد أفاض الإمام «أبو شامة» في «شرح الحرز» عند قول الناظم «وحمة والأرحام بالخفض جملاً» وذكر كلام النحويين الطاعنين في هذه القراءة وما استدلوا به وقال في آخر شرح البيت المذكور ما نصه: «وأورد بعض أئمة العربية ذلك فقد سبق جوابه ثم قال أبو شامة أيضاً: وحكى أبو نصر بن القشيري رحمه الله في تفسيره كلام أبي إسحاق الزجاج الذي حكي عنه ثم قال: ومثل هذا الكلام مردود عند أئمة الدين لأن القراءات التي قرأ بها أئمة القراءة ثبتت عن النبي - صلى الله عليه وسلم - تواتراً بعرفة أهل الصنعة، وإذا ثبت شيء عن النبي - صلى الله عليه وسلم - فمن رد ذلك فقد رد على النبي - صلى الله عليه وسلم - واستتبح ما قرأ به وهذا مقام محذور لا تقلد فيه أئمة اللغة والنحو، ولعلمهم أرادوا أنه صحيح فصيح وإن كان غيره أفصح منه فإننا لا ندعي أن كل القراءات على أرفع الدرجات في الفصاحة اهـ كلام القشيري. ثم علق عليه أبو شامة رحمه الله بقوله: وهذا كلام حسن صحيح:

انظر إبراز المعاني شرح الحرز سورة - النساء، الإنصاف لابن الأنباري، وانظر حجة القراءات لابن زنجلة (١٨٨) وما بعدها.

(٥) سقط في ظ.

(٦) سقط من ظ.

(٧) والبيت هكذا بالأصل.

قَدْ كُنْتَ مِنْ قَبْلُ تَهْجُونَا وَتَفْضَحُنَا فَمَالْنَا بِكَ وَالْأَيَّامِ مِنْ عَجَبٍ

هذا البيت من شواهد سيبويه التي لم يعرف قائلها والشاهد فيه عطف الأيام على الضمير المتصل المجرور بالياء من غير إعادة الجار وذلك عند البصريين قبيح لا يجوز إلا في ضرورة الشعر، وهو عند الكوفيين جائز في السعة، بدليل قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ الْأَرْحَامَ﴾ في قراءة حمزة بجر «الأرحام» عطفاً على الهاء في (به) وقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ فإن (ما) عطف على الضمير المجرور بفي. وقوله تعالى: ﴿لَكِنَّ الرَّاْسُخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ فإن (المقيمين) عطف على الكاف في (إليك) أو الكاف في (قبلك) وبدليل قول الشاعر [وهو عباس بن مرداس السلمى] الشاعر المخضرم.

فاليوم قربت تهجوننا وتشتبنا فما لنا بك والأيام من عجب^(١)

وأما في غير الشعر فلا يستعمل، وأما الخطأ الذي في الدين، لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: لا تحلفوا بأبائكم^(٢)، فالسؤال بالأرحام أمر عظيم ولكن روي عن إبراهيم النخعي: أنه كان يقرأ بالخفض أيضاً. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيًّا﴾ أي حفيظاً لأعمالكم يسألكم عنها فيما أمركم به، وروى أبو هريرة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: ما من عمل حسنة أسرع ثواباً من صلة الرحم وما من عمل سيئة أسرع عقوبة من البغي، واليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع^(٣) وروي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: [إن الله]^(٤) لما خلق الرحم قال له: أصل من وصلك واقطع من قطعك^(٥). ويقال الرحم مشتق من الرحمة، فمن قطعها فليس له من رحمة الله تعالى نصيب. وقال - صلى الله عليه وسلم - الرحم معلق بالعرش فمن قطعها قطعني ومن وصلها وصلني^(٦).

= أَكْرُ عَلَى الْكَتْبَةِ لَا أَبَالِي أَفِيهَا كَانَ حَنْفِي أَمْ سِوَاهَا
فإن «سواها» عطف على «ها» في قوله فيها، وقول الآخر:

هَلَّا سَأَلْتُ بِذِي الْجَمَاجِمِ عَنْهُمْ وَأَبِي نَعِيمٍ ذِي اللَّوَاءِ الْمَحْرَقِ
فإن قوله «أبي نعيم» عطف على «هم» في قوله «عنهم»، ومثله قوله الآخر:

تُعَلِّقُ فِي مِثْلِ السُّوَارِي سِوَفُنَا وَمَا بَيْنَهَا وَالْكَعْبُ غَوِطُ نَفَانِفِ
فقوله الكعب عطف على ما في بينها، والجواب عن هذا بأن الواو في قوله تعالى (والأرحام) للقسم لا للعطف. وما في قوله (وما يتلى عليكم) عطف على لفظ الجلالة أي أن الله يفتيكم والقرآن كذلك وأن «المقيمين» نصب على المدح، والأبيات إن سلم حملها على ما قبل فهي من الشذوذ بحيث لا يقاس عليها. انظر المفصل ٧٨/٣.

وانظر سيبويه وشرح شواهده للأعلم ٣٩٢/١، الكامل للمبرد (٤٥١) الإنصاف لابن الأنباري (٤٦٤) شرح المفصل ٧٨/٣ والبغداد في الخزانة ٣٣٨/٢ شرح شواهد الألفية للعيني ١٦٣/٤ مع الهوامع للسيوطي ١٢٠/١ شرح الأشموني على الألفية ١٥/٣.

(١) والبيت هكذا في ظ.

قَدْ كُنْتُ مِنْ قَبْلُ تَهْجُونَا وَتَفْضَحُنَا فَمَا بِكَ وَالْأَيَّامُ مِنْ عَجَبٍ

(٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بهذا اللفظ أخرجه أبو داود ٥٦٩/٣ في «الآيمان والنذور» باب في «كراهية الحلف بالأباء» (٤٢٤٨). وأخرجه النسائي ٥/٧ في الآيمان وابن حبان، ذكره الهيثمي في الموارد ص ٢٨٦ في الآيمان (١١٧٦) وبلغظ «إن الله ينهاكم أن تحلفوا بأبائكم» من حديث ابن عمر أخرجه البخاري ٥٣٠/١١ في الآيمان والنذور (٦٦٤٦) ومسلم ١٢٦٦/٣ - ١٢٦٧ - ١٢٦٧ في الآيمان (١٦٤٦/٣).

(٣) أخرجه وكيع في الزهد بإسناد مرسل (٤٠٦) وعبد الرزاق في المصنف ١٧٠/١١ - ١٧١ وذكره السيوطي في الجامع الصغير وعزاه للبيهقي في السنن الكبرى، وأخرجه ابن ماجه ١٤٠٨/٢ في الزهد باب البغي، وابن عدي في الكامل ١٣٨٧/٤ وقال البوصيري في إسناده صالح بن موسى الطلحي وهو ضعيف، وانظر بقية التخريج في السير والصلة لابن الجوزي. . والبلاقع جمع بَلَقَعَ وبلَقَعَة، وهي الأرض القفر التي لا شيء بها ويريد أن الحالف بها يفتقر ويذهب ما في بيته من الرزق. وقيل هو أن يفرق الله شمله ويغير عليه ما أولاه من نعمة. انظر النهاية في غريب الحديث ١٥٣/١، وانظر البر والصلة للإمام ابن الجوزي طبعة مكتبة السنة. (٤) سقط في ظ.

(٥) متفق عليه من رواية أبي هريرة رضي الله عنه أخرجه البخاري ٥٨٠/٨ في التفسير (٤٨٣١ - ٤٨٣٢) (٥٩٨٧)، (٧٥٠٢) وأخرجه مسلم ١٩٨٠/٤ في البر والصلة باب صلة الرحم ٢٥٥٤/١٦.

(٦) متفق عليه من رواية السيدة عائشة رضي الله عنها واللفظ لمسلم، أخرجه البخاري ٤١٧/١٠ في الأدب (٥٩٨٩) وأخرجه مسلم ١٩٨١/٤، في كتاب البر والصلة (٢٥٥٥/١٧) وانظر تحفة الأشراف للحافظ المزي ٢٢٩/١٢.

وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذَىٰ ۖ أَلَّا تَعْوَلُوا ﴿٣﴾

ثم قال: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ يقول للأولياء: (أتوا) اليتامى أموالهم التي عندكم إذا بلغوا النكاح، يعني الحلم. ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ﴾ يعني الحرام ﴿بِالطَّيِّبِ﴾ يعني بالحلال من أموالكم، يقول: لا تذروا أموالكم الحلال، وتأكلوا الحرام من أموال اليتامى ويقال: لا تخلطوا الخبيث بالطيب، ويقال: لا تخلطوا من مالكم الرديء، وتأخذوا الجيد من مال اليتيم، يعني أن يرسل شاة عجفاء في غنمه، ويأخذ مكانها شاة سميكة، وفي الجوب كذلك. ويقال: لا تجعلوا أموالهم وقاية لأموالكم. ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ يعني مع أموالكم ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ يعني إثماً عظيماً. قرأ الحسن^(١) «حوبا» بنصب الحاء، قال مقاتل: هو بلغة الحبش، قال القتبي الحُوب والحُوب واحد، وهو الإثم. وقال مقاتل^(٢): نزلت في رجل من غطفان، كان معه مال كثير لابن أخيه فلما بلغ اليتيم، طلب ماله، فمنعه العم، فنزلت الآية. فقرأها عليه النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال الرجل: أطعنا الله ورسوله، ونعوذ بالله من الحوب الكبير، فدفع إليه ماله، فلما قبض الفتى ماله أنفقه في سبيل الله، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : لقد أصاب الأجر، وبقي الوزر، فقالوا: كيف بقي الوزر، وقد أنفقه في سبيل الله، فقال: أصاب الغلام الأجر وبقي الوزر على والده. قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ يعني ألا تعدلوا في أموال اليتامى، يقال في اللغة^(٣): أقسط الرجل: إذا عدل، وقسط: إذا جار. وقال - صلى الله عليه وسلم - المقسطون في الدنيا على منابر من نور يوم القيامة^(٤). يعني العادلون قال الله تعالى: «وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا» يعني الجائرون [ثم قال تعالى]^(٥) ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ...﴾ وذلك أنهم كانوا يسألون عن أمر اليتامى ويخافون ألا يعدلوا، وكانوا يتزوجون من النساء ما شاءوا فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ﴾ ﴿مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ يعني^(٦) فكما خفتم ألا تعدلوا في اليتامى، فخافوا في النساء إذا اجتمعن عندكم ألا تعدلوا بينهن. وروى عروة^(٧) عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: كان الناس يتزوجون اليتامى ولا يعدلون بينهن، ولم يكن لهم أحد يخاصم عنهن، فنهى الله المؤمنين عن ذلك، فقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾^(٨) الآية. ويقال: إنهم كانوا يتزوجون امرأة لها أولاد أيتام، وكانوا لا يحسنون النظر إليهم، فنزل. ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ﴾ يعني بغير ولد، مثنى وثلاث ورباع، ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ في القسم والنفقة ﴿فَوَاحِدَةً﴾ يقول: تزوجوا امرأة واحدة،

(١) هذه القراءة شاذة لا يقرأ بها لعدم تواترها.

(٢) انظر التفسير ٢٢٢/١.

(٣) انظر لسان العرب ٣٦٢٧/٥، ترتيب القاموس ٦١٨/٣.

(٤) أخرجه مسلم ١٤٥٨/٣ في كتاب الإمارة (١٨٢٧/١٨) وأخرجه النسائي ٢٢١/٨ في كتاب أدب القضاء (٥٣٧٩).

(٥) سقط في ظ.

(٦) سقط في ظ.

(٧) عروة بن الزبير بن العوام الأسدي، أبو عبد الله المدني، أحد القراء السبعة، وأحد علماء التابعين، وقال الزهري: عروة بحر لا تكدره الدلاء، مات سنة اثنتين وتسعين وقيل غير ذلك.

(٨) بنحوه أخرجه البخاري ٨٦/٨ - ٨٧ في كتاب التفسير (٤٥٧٣ - ٤٥٧٤) ومسلم ٢٣١٢/٤ في كتاب التفسير (٦ - ٣٠١٨/٧).

وإن خفتم ألا تعدلوا في الواحدة ﴿أو ما ملكت أيمانكم﴾ يعني الإماماء. ويقال: إن خفتم ألا تعدلوا في القسم بين النساء فواحدة أي واشتروا الإماماء، لأن الواحدة لا تحتاج إلى القسمة، والإماماء لا يحتاج فيهن إلى القسمة، وقال بعض الروافض بظاهر هذه الآية: أنه يجوز نكاح تسع نسوة لأنه قال: مثني وثلاث ورباع، فيكون ذلك تسعاً. ولكن أجمع المفسرون: إن المراد به التفصيل لا الاجتماع، ومعناه مثني، أو ثلاث، أو رباع. وبذلك جاءت الآثار، وهو حديث: غيلان بن سلمة: ^(١) أنه أسلم ومعه عشرة نسوة، فخيرته النبي - صلى الله عليه وسلم - فاختر أربعاً (وفارق البواقي) ^(٢) وروي عن الكلبي ومقاتل: أن قيس بن الحارث ^(٣) كان عنده ثمان نسوة حرائر فلما نزلت هذه الآية، أمره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يطلق أربعاً ويمسك أربعاً ^(٤)، وروى محمد بن الحسن في كتاب السير الكبير أن ذلك كان الحارث بن قيس الأسدي، وهذا هو المعروف عند الفقهاء، ثم قال تعالى: ﴿ذلك أدنى ألا تعولوا﴾ أي أخرى ألا تميلوا، ولا تجوروا ولا تظلموا. ثم قال تعالى:

وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾ وَلَا تَوْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَابْنُلُوا إِلَيْكُمْ حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾

﴿وأتوا النساء صدقاتهن نحلة﴾ يعني أعطوا النساء مهورهن فريضة. ويقال: ديانة، كما يقال: فلان يتحلل [إلى] ^(٥) مذهب كذا، أي يدين ^(٦) بكذا، ويقال: نحلة، أي صدقة وهبة، لأن المهر نحلة من الله تعالى للنساء، حيث لم يوجب عليهن وأوجب لهن. وقال في رواية الكلبي: إن أهل الجاهلية، كان الولي إذا زوجها ^(٧) فإن كانت معهم في العشيرة لم يعطها من مهرها قليلاً ولا كثيراً، وإن كانت غريبة حملوها على بعير إلى زوجها، ولا يعطوها مهرها - غير ذلك البعير - شيئاً، فنزل: قوله تعالى: «وأتوا النساء صدقاتهن نحلة»، يعني به الأولياء يعني أعطوهم مهورهن نحلة، يقول عطية لهن وقال في رواية مقاتل: ^(٨) كان الرجل يتزوج بغير مهر، ويقول: أرثك وترثيني، فنزلت الآية: وأتوا النساء، يعني الأزواج، صدقاتهن نحلة، أي مهور النساء نحلة، يعني فريضة ﴿فإن طبن لكم﴾ يا معشر الأزواج، أي أحللن لكم ووهبن لكم. قال في رواية الكلبي، يعني الأولياء، إذا وهبت المرأة المهر للولي

(١) غيلان بن سلمة بن معتب بن مالك الثقفي سمي أبو عمر جده شُرَّحِيل قال البغوي: سكن الطائف وأسلم بعد فتح الطائف. الإصابة ١٩٢/٥.

(٢) أخرجه الشافعي في المسند ١٦/٢ في النكاح (٤٣) وأحمد ٤٤/٢ والترمذي ٤٣٥/٣ في النكاح (١١٢٨) وابن ماجه ٦٢٨/١ في النكاح (١٩٥٣) وابن حبان ٢٦٩/٣ في النكاح (٩٤) والحاكم في المستدرک ١٩٢/٢ في النكاح والبيهقي ١٨/٧ في النكاح.

(٣) قيس بن الحارث بن حذار الأسدي له صحبة.

(٤) أخرجه أبو داود ٢٧٢/٢ في الطلاق، باب في من أسلم وعنده نساء أكثر من أربع (٢٢٤٢) وأخرجه ابن ماجه ٦٢٨/١ في كتاب النكاح، باب الرجل يسلم وعنده أكثر من أربع نسوة (١٩٥٢).

(٥) سقط في ظ.

(٦) سقط في ظ.

(٧) ذكر ذلك القرطبي ١٧/٥.

(٨) انظر التفسير ٢٢٣/١.

(فذلك قوله: فإن طبن لكم ﴿عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً﴾ أي طيباً لا إثم فيه ﴿مريئاً﴾ أي لا داء فيه. ويقال: هنيئاً مريئاً، يعني حلالاً طيباً. وروي عن علي بن أبي طالب أنه قال: إذا كان أحدكم مريضاً، فليسأل من امرأته، درهمين من مهرها حتى تهب له بطيبة نفسها، فيشتري بذلك عسلاً فيشربه مع ماء المطر فحينئذ قد اجتمع الهنيء، والمريء، والشفاء والماء المبارك^(١)، يعني أن الله سبحانه تعالى سمى المهر هنيئاً مريئاً، إذا وهبت وسمى العسل شفاء، وسمى ماء المطر مباركاً، فإذا اجتمعت هذه الأشياء يرجى له الشفاء ثم قال تعالى: ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم﴾ يعني النساء، والأولاد الصغار يعني لا يجعل الرجل ماله في يدي امرأته وأولاده، ثم يجعل نفسه محتاجاً إليهم، فلا يدفع إليه عند حاجته. ويقال: لا تدفعوا أموالكم مضاربة، ولا إلى وكيل لا يحسن التجارة. وروي عن عمر - رضي الله عنه - أنه قال: من لم يتفقه، فلا يتجر في سوقنا، فذلك قوله تعالى: (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم) يعني الجهال بالأحكام^(٢). ويقال: لا تدفعوا إلى الكفار، ولهذا كره علماؤنا أن يوكل المسلم ذمياً [بالبيع والشرء]^(٣) أو يدفع إليه مضاربة. ثم قال تعالى: ﴿التي جعل الله لكم قياماً﴾ يعني الأموال التي جعل الله قواماً لمعاشكم. ثم قال: ﴿وارزقوهم فيها﴾ يعني الأولاد الصغار أطعموهم ﴿واكسوهم﴾ من أموالكم، وكونوا أنتم القوام على أموالكم، ﴿وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾ يعني إذا طلبوا منكم النفقة، ولم يكن عندكم في ذلك الوقت شيء، فعدوا لهم عدة حسنة، أي: سأفعل ذلك. ثم قال: ﴿وابتلوا اليتامى﴾ يعني: اختبروا اليتامى، وجربوا عقولهم، ﴿حتى إذا بلغوا النكاح﴾ يعني الحلم. ويقال: مبلغ الرجال ﴿فإن أنستم منهم رشداً﴾ يقول: إذا رأيتم منهم رشداً وصلاًحاً في دينهم، وحفظاً لأموالهم ﴿فادفعوا إليهم أموالهم﴾ التي معكم ﴿ولا تأكلوها إسرافاً﴾ في غير حق ﴿وبداراً﴾ يعني مبادرة في أكله ﴿أن يكبروا﴾ يعني مخافة أن يكبروا فيأخذوا أموالهم منكم. ثم قال: ﴿ومن كان غنياً فليستعفف﴾ أي ليحفظ نفسه عن مال اليتيم ﴿ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف﴾ وقد اختلف الناس في تأويل هذه الآية، وقالوا فيها ثلاثة أقوال: قال بعضهم: يجوز للمعسر أن يأكل على قدر قيامه عليه، وقال بعضهم: لا يجوز أن يأكل إلا على وجه القرض ويرد عليه إذا كبر وقال بعضهم: لا يجوز في الأحوال كلها. فأما من قال: إنه يجوز أكله على قدر قيامه، فإنه احتج بما روي عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه قال: إني أنزلت مال الله مني بمنزلة مال اليتيم المراد منه بيت المال فمن كان غنياً فليستعفف، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف^(٤). وروي عن ابن عباس - رضي الله عنه - أن رجلاً سأله فقال: يا ابن عباس أتني إلي بمواشي أيتام، فهل علي جناح إن أصبت من رسل مواشيهم؟ قال ابن عباس: إن كنت تبغي ضالتها، وتنهأ جرباها وتلوط حياضها، ولا تفرط لها يوم وردها فلا جناح عليك إن أصبت من رسلها^(٥). وقال مجاهد: ^(٦) كان يقول من أدركت من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إن للوصي أن يأكل بالمعروف مع اليتيم، فإنه يحلب غنمه، ويقوم

(١) ذكر ذلك القرطبي ٢٠/٥.

(٢) قلت: وأما الجاهل بالأحكام وإن كان غير محجور عليه لتنميته لماله وعدم تدبيره فلا يدفع إليه المال لجهله بفاسد البياعات وصحيحها وما يحل وما يحرم منها. وكذلك مثله في الجهل بالبياعات ولما يخاف من معاملته بالربا وغيره. والله أعلم. القرطبي (٢١/٥).

(٣) سقط في ظ. (٤) بنحوه أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ٥٨٢/٧ (٨٥٩٧).

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٢/٢ وعزاه لمالك وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والنحاس في ناسخه عن القاسم بن محمد قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال: ...

(٦) انظر التفسير ١٤٦/١.

على ماله ويحفظه وأما من قال: أنه يجوز أكله على وجه القرض، احتج بما روي عن محمد بن سيرين^(١) أنه قال: سألت عبيدة السلماني عن قوله تعالى: (ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف)، قال: هو قرض ثم يرد عليه إذا كبر، فقال: ألا ترى أنه قال في سياق الآية: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾. وقال أبو العالية: ما أكل فهو دين عليه^(٢)، وقال الشعبي مثله، وأما من قال أنه لا يجوز أكله، فلأن الله تعالى قال: (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً) وتلك الآية محكمة، وهذه من المتشابهة لأنه يحتمل التأويل: إنهم يأكلون على وجه القرض أو على وجه الإباحة، فيرد حكم المتشابهة إلى المحكم. وقد قيل: إن هذه الآية منسوخة بتلك الآية. قال الفقيه - رحمه الله - : إذا كان الوصي فقيراً فأكل من مال اليتيم مقدار قيامه عليه، أرجو أن لا بأس به، لأن كثيراً من العلماء أجازوا ذلك والاحتراز عنه أفضل. قرأ نافع وابن عامر^(٣): (التي جعل الله لكم قيباً) بكسر القاف ونصب الياء بغير ألف، والباقون بالألف ومعناها قريب. وقال أهل اللغة: قياماً، وقواماً، وقيماً^(٤)، بمعنى واحد. وقوله تعالى: (فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ) يعني إذا أدرك اليتامى، ودفعتم إليهم أموالهم. (فأشهدوا عليهم) على ذلك، وإنما الإشهاد على معنى الاستحباب لنفي التهمة عن نفسه، ولو لم يشهد على ذلك لجاز كقوله تعالى: (وأشهدوا إذا تبايعتم) ثم قال: ﴿وَكُفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي شهيداً في أمر الآخرة، وأما في أمر الدنيا، ينبغي أن يشهد العدول على ذلك، لدفع القال عن نفسه، لأن الله تعالى لا يشهد له في الدنيا. قوله تعالى:

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾

﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾ وذلك أن أهل الجاهلية كانوا لا يرثون النساء، وإنما يرثون الرجال من كان يقاتل ويحوز الغنمة، حتى مات أوس بن ثابت الأنصاري^(٥)، وترك ثلاث بنات، وترك امرأة يقال لها أم كجة^(٦)، فقام ابن عمه وأخذ ماله فجاءت المرأة للنبي - صلى الله عليه وسلم - وذكرت له القصة^(٧). ويقال: مات رفاعة وترك ابنه وابنته، فأخذ الابن ميراثه كله فجاءت امرأته إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فأخبرته بذلك فنزل قوله: (للرجال نصيب) أي: حظ (مما ترك الوالدان والأقربون) ﴿ولللنساء نصيب﴾ أي حظ ﴿مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه﴾ يعني أن قل المال ﴿أو أكثر نصيباً مفروضاً﴾ أي حظاً معلوماً لكل واحد من

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير ٥٨٥/٧.

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير ٥٨٢/٧.

(٣) انظر: حجة القراءات لابن زنجلة (١٩٠ - ١٩١).

(٤) قاله الكسائي، انظر المصدر السابق، وأصل الكلمة كما ذكر المصنف رحمه الله (قواماً) فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها فصارت: (قياماً).

(٥) أوس بن ثابت الأنصاري توفي يوم أحد الإصابة ٨١/١.

(٦) أم كجة الأنصارية. زوجة أوس بن ثابت. الإصابة ٢٧٠/٨.

(٧) انظر أسباب النزول للواحدي (١٠٦) وانظر الدر المنثور ١٢٢/٢.

الميراث، فبين في هذه الآية: أن للرجال نصيباً، وللنساء نصيباً، ولكن لم يبين مقدار نصيب كل واحد منهم، ثم بين في الآية التي بعدها فقال: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ﴾ قال مقاتل: فيها تقديم وتأخير، ومعناه: إذا حضر أولوا القربى، قسمة الميراث، ﴿فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ يعني فاعطوهم من الميراث قال مقاتل وهذا كان قبل قسمة الميراث ثم قال تعالى: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ يعني إذا كان الورثة كباراً يعطون من الميراث لذوي القربى، وإن كانت الورثة صغاراً، ليقبل لهم الأولياء قولاً معروفاً أي عدوا لهم عدة حسنة، يقول لهم، إذا أدرك الصغار أمرناهم يعطوكم شيئاً ويعرفون حَقَّكم. وقال القتيبي: (إذا حضر القسمة) فيه قولان: أحدهما: أن تكون قسمة الوصية إذا حضرها أقرباؤكم فاجعلوا لهم حظاً من الثلث، ووجه آخر أن يكون قسمة الميراث فارضخوا لهم منها ثم قال: ﴿وَلِيُخْشِ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ يقول: وليخش على أولاد الميت الضياع، كما أنكم لو تركتم أولاداً ﴿ذرية ضعافاً﴾ يقول: عجزة صغار، يعني الذي يحضره الموت لا يقال له: قدم لنفسك وأوص بكذا وكذا، حتى يوصي بعامة ماله، فليخش على ذرية الميت، كما يخشى على ذرية نفسه. وروي سعيد بن جبير عن ابن عباس^(١) قال: إذا حضر الرجل الوصية، فلا ينبغي أن يقول له أوص بمالك، فإن الله تعالى رازق أولادك، ولكن يقول له: قدم لنفسك، واترك لولدك، فذلك قوله تعالى: ﴿خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ يعني يقول للميت قولاً عدلاً: وهو أن يلقيه: لا إله إلا الله، ولا يأمره بذلك، ولكن يقول ذلك في نفسه حتى يسمعه منه ويتلقن، وهكذا قال النبي - صلى الله عليه وسلم - (لقنوا موتاكم لا إله إلا الله)^(٢) ولم يقل مروهم بذلك [لأنه لو أمر بذلك]^(٣) فلعله يغضب ويجحد. قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ يعني بغير حق ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ أي حراماً، لأن الحرام يوجب النار، فسماء الله باسمها. ويقال: إنه يلقم من النار إذا صار إلى جهنم فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾. وروي في الخبر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال في بعض قصة المعراج أنه قال:^(٤) رأيت أقواماً بطونهم كالحبال في حياض الحيات والعقارب فقلت: من هؤلاء يا جبريل قال: هم الذين يأكلون أموال اليتامى ظُلْمًا، إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا^(٥)، ﴿وَيَسِيلُونَ فِي سَعِيرٍ﴾ أي سيدخلونها في الآخرة. قرأ ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر (وسيلون) بضم الياء على فعل ما لم يسم فاعله، وقرأ الباقر^(٦) النصب، وهذا كقوله: سيدخلون وسيدخلون. وقال القتيبي: في قوله، ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم﴾. معناه، وليخش الذين يكفلون اليتامى، وليفعل بهم ما يحب أن يفعل بولده من بعده.

(١) انظر تفسير الطبري ٢١/٨.

(٢) أخرجه مسلم ٦٣١/٢ في الجنائز باب تلقين الموتى لا إله إلا الله (٩١٦/١) وأبو داود (٣١١٧) والترمذي (٩٧٦) والنسائي ٥/٤ وابن ماجه (١٤٤٤ - ١٤٤٥) وأحمد في المسند ٣/٣ وابن حبان وذكره الهيثمي في الموارد (٧١٩) والطبراني في الكبير ٣٣٣/١٠ - وابن أبي شيبه ٣٣٧/٣.

(٣) سقط من ظ.

(٤) وقصة المعراج عند البخاري ٣٠٢/٦ في بدء الخلق (٣٢٠٧) ومسلم ١٥١/١ في الإيمان (١٦٤/٢٦٥) وعند البخاري أيضاً في المناقب (٣٨٨٧) ومسلم (١٦٤/٢٦٤).

(٥) ذكره الهيثمي في المجمع ٧١/١ في كتاب الإيمان باب في الإساءة وقال: رواه أحمد وفيه أبو الصلت لا يعرف ولم يرو عنه غير علي بن زيد.

(٦) وحجته قوله (لا يصلها إلا الأشقى) أي إذا دنا منها يصيبه حرها، وحجة من قرأ بفتح الياء قوله (سأصليه سقر) وقال قوم (سيصلون): يحرقون) انظر حجة القراءات لابن زنجلة (١٩١).

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ آبَاؤُهُ فَلِلْأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَنْدَرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ تَوْصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةَ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ أي يبين الله لكم ميراث أولادكم كما بين قسمة الموارث، يعني إذا مات الرجل أو المرأة، وترك أولاداً ذكوراً وإناثاً [يكون] (١) ﴿لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ يعني لكل ابن سهمان، ولكل بنت سهم. وروى ابن أبي نجيج، عن عطاء قال: كان ابن عباس يقول: كان الميراث للولد وكانت الوصية للوالدين والأقربين، فنسخ الله من ذلك ما أحب: فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وجعل للوالدين لكل واحد منهما السدس، وللمرأة الثمن أو الربع، وللزوج النصف أو الربع (٢). ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ يعني إذا ترك الميت بناتاً ولم يترك أبناء، فللبنات إن كن اثنتين فصاعداً، ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ من الميراث ولم يذكر في الآية حكم البنتين ولكن أجمع المسلمون، ما خلا رواية عن ابن عباس أنه قال: للثنتين النصف كما كان للواحدة، وللثلاث بنات الثلثان. وأما سائر الصحابة فقد قالوا: إن للثنتين الثلثين، وبذلك جاء الأثر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - روى جابر بن عبد الله قال: جاءت امرأة [سعد] (٣) بن الربيع بابنتها إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت: يا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هاتان ابنتا سعد، وقد قتل أبوهما معك يوم أحد شهيداً، وإن عمهما أخذ

(١) سقط من ظ.

(٣) ورد الاسم في «أ» سعيد وهو تحريف ظاهر.

(٢) أخرجه البخاري ٩٣/٨ في كتاب التفسير (٤٥٧٨).

مالهما، ولم يدع لهما مالاً ولا تنكحان إلا ولهما مال فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : سيقضي الله ذلك، فأنزل الله تعالى آية الميراث فبعث النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى عمهما وقال: أعط لابنتي سعد الثلثين، وأعط أمهما الثمن، والباقي لك^(١)، ثم قال تعالى: ﴿وإن كانت واحدة فلها النصف﴾ يعني إن ترك الميت بنتاً واحدة فلها النصف من الميراث والباقي للعصبة بالخبر. قرأ نافع (وإن كانت واحدة) بالرفع على اسم كانت، وقرأ الباقون: بالنصب على معنى الخبر، ويكون الاسم فيه مضمراً^(٢). ثم قال تعالى: ﴿ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك﴾ الميت من المال، ﴿إن كان له ولد﴾ ذكر أو أنثى، أو ولد الإبن، ﴿فإن لم يكن له﴾ للميت ﴿ولد﴾ ولا ولد ابن ﴿وورثه أبواه﴾ يعني إن لم يكن للميت وارث سوى الأبوين ﴿فلأمه الثلث﴾ يعني للأم ثلث المال والباقي للأب. قرأ حمزة والكسائي^(٣) (فلأمه) بكسر الألف، لكسر ما قبله، وقرأ الباقون بالضم ثم قال تعالى: ﴿وإن كان له إخوة فلأمه السدس﴾ يعني، إذا كان للميت أخوة، وقد اتفق أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إن اسم الإخوة يقع على الاثنين فصاعداً، إلا في قول ابن عباس: ثلاثة فصاعداً^(٤)، واتفقوا أن الذكور والإناث فيه سواء فيكون للأم السدس، والباقي للأب: ﴿من بعد وصية﴾ يعني أن قسمة الموارث^(٥) من بعد وصية ﴿يوصي بها﴾ الميت ﴿أو دين﴾ يعني بعد قضاء الدين، وإنفاذ الوصية. وروى الحارث^(٦) عن علي - رضي الله عنه - قال: قضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالدين قبل الوصية^(٧) وأنتم تقرؤون (من بعد وصية يوصي بها أو دين) يعني، إن في الآية تقدماً وتأخيراً وروي عن ابن عباس: هكذا. قرأ ابن كثير، وابن عامر، وعاصم^(٨) (يوصي بها) على فعل ما لم يسم فاعله، وقرأ الباقون: (يوصي بها) يعني الميت إن كان يوصي بها أو عليه دين. ثم قال تعالى: ﴿أباًؤكم وأبناًؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا﴾ يعني في الآخرة إذا كان أحدهما أرفع درجة من الآخر، يسأل

(١) أخرجه أحمد في السند ٣/٣٥٢ وأبو داود ٣/٣١٦ في الفرائض (٢٨٩٢) والترمذي ٤/٤١٤ - ٤١٥ في الفرائض (٢٠٩٢) وقال: حسن صحيح وأخرجه ابن ماجه ٢/٩٠٨ - ٩٠٩ في الفرائض (٢٧٢٠) والحاكم في المستدرک ٤/٣٤٢ في الفرائض وقال: صحيح الإسناد، وأقره الذهبي.

(٢) والتقدير: وإن كانت البنت واحدة قال الزجاج (فالنصب أجود لأن قوله قبلها (فإن كن نساء) قد بين أن المعنى (كان الأولاد نساء) وكذلك المولود واحدة فلذلك اخترنا النصب. انظر حجة القراءات لابن زنجلة (١٩٢).

(٣) وحجتها أنها استقلوا ضم الألف بعد كسرة أو ياء فكسراً للكسرة والياء ليكون عمل اللسان من جهة واحدة إذا لم يكن تغيير الألف من الضم إلى الكسر يزيل معنى ولا يغير إعراباً يفرق بين معنيين فأتبعوا لذلك الكسرة الكسرة. وحجة من قرأ بالضم: أن الأصل في ذلك كله الضم وهو بنية هذا الاسم وذلك أنك إذا لم تصله بشيء قبله لم يختلف في ضمة ألفه فحكمه إذا اتصل بشيء ألا يغيره عن حاله، وأما قوله (في بطون أمهاتكم) فإن حمزة يكسر الهمزة والميم، اتبع الكسرة الكسرة. انظر حجة القراءات لابن زنجلة (١٩٢).

(٤) انظر سنن البيهقي ٦/٢٢٧ في الفرائض، باب فرض الأم وانظر تفسير الطبري ٨/٤٠.

(٥) في ظ [الميراث].

(٦) الحارث بن عبد الله الهمداني الأعور، من أهل الكوفة وقد اختلف في توثيقه. انظر التهذيب ٢/١٤٥ وما بعده.

(٧) أخرجه الترمذي ٤/٣٧٨ في كتاب الوصايا، باب ما جاء يبدأ بالدين قبل الوصية (٢١٢٢) وقال: والعمل على هذا عند عامة أهل العلم. وأخرجه الحاكم في المستدرک ٤/٣٣٦ وابن ماجه ٢/٩٠٦ في الوصايا (٢٧١٥) وأحمد في المسند ١/٧٩، ١٣١، ١٤٤ والطالبي في المسند (منحة) ١/٢٧٢ والحميدي في المسند ١/٣٠ - ٣١ والدارقطني في السنن ٤/٨٦ - ٨٧ - والبيهقي ٦/٢٦٧ وفي إسناده الحارث مختلف فيه وهو حسن بشواهد ويعضده الإجماع على مقتضاه انظر التلخيص ٣/١١٠ ومراتب الإجماع (١١٠).

(٨) انظر حجة القراءات لابن زنجلة (١٩٣) وانظر شرح شعلة على الشاطبية (٣٣٣).

الله تعالى ، حتى يرفع إليه الآخر لتقر عينه به، فقال: (لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا) يعني أيهم أرفع درجة فيلتحق به صاحبه . ويقال: معناه إن الله علمكم قسمة الموارث، وإنكم لا تدرون أيهم أقرب (لكم نفعا) حتى تعطوه حصته ويقال: لا تدرون أيهم أقرب) موتاً فيرث منه الآخر. ثم قال تعالى: ﴿فريضة من الله﴾ يعني بيان قسمة الموارث^(١) من الله تعالى، ويقال: القسمة فريضة من الله تعالى، لا يجوز تغييرها عما أمر الله به، ثم قال تعالى: ﴿إن الله كان عليمًا﴾ بالمواريث^(٢) ﴿حكيمًا﴾ حكم قسمتها وبينها لأهلها. وقال الزجاج: معناه، وكان الله عليمًا بالأشياء قبل خلقها، حكيمًا فيما يقرر بتدبيره منها. وقال بعضهم: لأن الله تعالى لم يزل ولا يزال، فالخبر منه بالماضي، كالخبر منه بالاستقبال. وقال سيبويه: كان القوم شاهدوا علماء وحكماً فقبل لهم: إن الله كان عليمًا كذلك لم يزل على ما شاهدتم. ثم قال تعالى: ﴿ولكم نصف ما ترك أزواجكم﴾ إذا ماتت المرأة فتركت زوجاً، فللزوجة النصف ﴿إن لم يكن لهن ولد﴾ ذكراً أو أنثى، أو ولد ابن، ﴿فإن كان لهن ولد﴾ أو ولد ابن فللزوجة الربع ﴿فلكم الربع مما تركن﴾ مما تركت المرأة ﴿من بعد وصية يوصين بها أو دين﴾ ثم قال: ﴿ولهن الربع مما تركن﴾ إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركن من بعد وصية توصون بها أو دين﴾ يعني إذا مات الزوج وترك امرأة فللمرأة الربع ﴿إن لم يكن لكم ولد﴾ ولا ولد ابن ﴿فإن كان لكم ولد﴾ فإن كان للميت ولد وولد ابن ﴿فلهن الثمن﴾ سواء كان له امرأة واحدة، أو أربع نسوة، فلهن الربع بغير ولد، والثمن مع الولد [أو مع ولد الابن] لأنه قال: ولهن الربع. فجعل حصتهن الربع أو الثمن، ثم قال: ﴿مما تركن من بعد وصية توصون بها أو دين﴾ ثم قال: ﴿وإن كان رجل يورث كلالة﴾ والكلالة ما خلا الوالد والولد. ويقال: هو اسم الميت الذي ليس له ولد ولا والد. قال أبو عبيدة: هو مصدر من تكله النسب، أي أحاط به، والأب والابن طرفا الرجل، فيسمى لذهاب طرفيه كلالة. وقرأ بعضهم^(٣): (يورث) بكسر الراء. قال أبو عبيدة: من قرأ (يورث) بكسر الراء، جعل الكلالة الورثة ومن قرأ بنصب الراء جعل الكلالة الميت. وروى الشعبي عن أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - أنهما قالا: الكلالة من لا ولد ولا والد^(٤).

وروي عنهما أيضاً أنهما قالا: الكلالة ما سوى الولد والوالد. قوله تعالى: ﴿أو امرأة﴾ يعني إن كانت الكلالة هي امرأة ثم قال تعالى: ﴿وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس﴾ من الميراث ﴿فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث﴾ يعني الإخوة من الأم وقد أجمع المسلمون أن المراد هنا الإخوة من الأم، لأنه ذكر في آخر السورة أن للأختين الثلثين، ففهموا أن المراد هنا الإخوة من الأم ثم قال: ﴿من بعد وصية يوصي بها أو دين﴾ وقد ذكرناه ﴿غير مضار وصية من الله﴾ يعني غير مضار للورثة فيوصي بأكثر من الثلث، (وصية من الله) يعني أن تلك القسمة فريضة من الله ﴿والله عليم﴾ يعني علم بأمر الميراث ﴿حليم﴾ على أهل الجهل منكم [وقال عليه الصلاة والسلام من قطع ميراثاً فرضه الله قطع الله ميراثه من الجنة]^(٥) وقرأ بعض المتقدمين^(٦) (والله عليم حكيم). يعني،

(١) انظر الصحاح ١٠٩٧/٣ المغرب ١٣٣/٢ المصاحب ٧١٩/٢.

(٢) في ظ [الميراث].

(٣) وهي قراءة الحسن، وقرأ أبو رجاء والحسن والأعشى بكسر الراء وتشديدها من ورث، وقرأ الجمهور يورث بفتح الراء مبنياً للمفعول من أورث مبنياً للمفعول انظر البحر المحيط (١٨٩/٣) والقرطبي (٥٢/٥).

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري عن الشعبي ٥٤/٨.

(٥) هذا الحديث سقط من ظ.

(٦) وهذه قراءة لم يتواتر ولم يقرأ بها والصحيح «والله عليم حكيم».

حكم بقسمة الميراث والوصية، ثم قال: ﴿تلك حدود الله﴾ يعني هذه فرائض الله، مما أمركم به من قسمة الموارث، ويقال: تلك أحكام الله، وتلك بمعنى هذه، يعني هذه أحكام الله قد بينها لكم لتعرفوا وتعملوا ﴿ومن يقطع الله ورسوله﴾ في قسمة الموارث، فيقربها، ويعمل بها كما أمره الله ﴿يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم﴾ أي ذلك الثواب هو الفوز العظيم إلى النجاة الوافرة. قوله تعالى: ﴿ومن يعص الله ورسوله﴾ في قسمة الموارث، فلم يقسمها، ولم يعمل بها ﴿ويتعد حدوده﴾ أي يخالف أمره ﴿يدخله ناراً خالداً فيها﴾ لأنه إذا جحد صار كافراً ﴿وله عذاب مهين﴾ يهان فيه. قرأ نافع وابن عامر^(١) (ندخله) كلاهما بالنون على معنى الإضافة إلى نفسه، وقرأ الباقون: كلاهما بالياء لأنه سبق ذكر اسم الله تعالى. قوله تعالى:

وَالَّتِي يَأْتِيَنَّكَ الْفَاحِشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى تَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيهَا مِنْكُمْ فَأَذَوْهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾

﴿واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم﴾ يعني الزنا، وهي المرأة الثيب إذا زنت ﴿فاستشهدوا عليهن﴾ أي اطلبوا عليهن ﴿أربعة﴾ من الشهود ﴿منكم﴾ أي من أحراركم المسلمين، عدولاً ﴿فإن شهدوا﴾ عليهن بالزنا ﴿فأمسكوهن في البيوت﴾ يعني احبسوهن في السجن ﴿حتى يتوفاهن الموت﴾ أي حتى يمتن في السجن ﴿أو يجعل الله لهن سبيلاً﴾ يعني مخرجاً من الحبس، ثم نسخ فصار حدهن الرجم، لما روي عن عبادة بن الصامت^(٢) - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: خذوا عني خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر، جلد مائة، وتغريب عام، والثيب بالثيب، جلد مائة والرجم بالحجارة^(٣). ثم ذكر في الآية حد البكر فقال ﴿واللذان﴾ لم يحصنا ﴿يأتيانها﴾ يعني الفاحشة ﴿منكم﴾ يعني من الأحرار المسلمين ﴿فأذوهما﴾ باللسان يعني بالتعير، بما فعلا، ليندما على ما فعلا، ﴿فإن تابا﴾ من بعد الزنا ﴿وأصلحا﴾ العمل ﴿فأعرضوا عنهما﴾ أي فلا تسمعوهما الأذى بعد التوبة ﴿إن الله كان تواباً﴾ أي متجاوزاً ﴿رحيماً﴾ بهما. ثم نسخ الحبس والأذى بالرجم والجلد، وإنما كان التعير في ذلك الزمان لأن التعير حل محل الجلد، وأما اليوم فلا ينفعهم التعير، وروي عن عبد الله بن أبي نجيع عن مجاهد قال: ^(٤) واللاتي يأتين الفاحشة (من نسائكم) واللذان يأتيانها منكم، كان ذلك

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة (١٩٣) شرح شعبة (٣٣٥).

(٢) عبادة بن الصامت بن قيس بن أحرم بن نهر الأنصاري، أبو الوليد، شهد العقبتين وبدراً وهو أحد النقباء. الخلاصة ٣٢/٢.

(٣) أخرجه مسلم ١٣١٦/٣ في الحدود، باب حد الزنى ١٢/١٦٩٠ وأخرجه أبو داود (٤٤١٥) والترمذي (١٤٣٤) وابن ماجه (٢٥٥٠) والطحاوي في المشكل (٩٢/١) والبيهقي في السنن ٨/٢١٠، وأحمد في المسند ٣١٨/٥ والدارمي في السنن ١٨١/٢.

(٤) انظر التفسير ١٤٩/١.

في أول الأمر، ثم نسخ بالآية التي في سورة النور^(١). قرأ ابن كثير: ^(٢) (واللذان) بتشديد النون، لأن الأصل (اللذيان) فحذف الياء وأقيم التشديد مقامه، وقرأ الباقر: بالتخفيف ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾ يعني قبول التوبة على الله، ويقال: توفيقه على الله. ويقال: إنما التجاوز من الله ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ قال ابن عباس - رضي الله عنه - كل مؤمن يذنب فهو جاهل في فعله^(٣). ويقال إنما الجهالة إنهم يختارون اللذة الفانية على اللذة الباقية، وذلك الجهل لا يسقط عنهم العذاب، إلا أن يتوبوا، قوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ قال ابن عباس: كل من تاب قبل موته فهو قريب. ﴿فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي يقبل توبتهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ يعني عليماً^(٤) بأهل التوبة، حكيماً حكم بالتوبة، وقال مقاتل: نزلت الآية في رجل من قريش سكر، وذكر شعراً ذكر فيه اللات والعزى، وأنكر البعث، فلما أصبح أخبر بذلك، فندم على ذلك واسترجع، فنزلت الآية: (ثم يتوبون من قريب)، يعني قبل الموت. قال: حدثنا محمد بن الفضل، قال: حدثنا محمد بن جعفر، قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف، قال: حدثنا أبو حفص، عن صالح المري^(٥)، عن الحسن قال: من غير أخاه بذنب قد تاب إلى الله [منه]^(٦) ابتلاه الله به^(٧). وقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : إن الله يقبل توبة عبده ما لم يغرغر^(٨). وقال

(١) وهي قول الله عز وجل: ﴿الرَّائِيَةُ وَالزَّائِيَةُ فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾.

(٢) وكذلك (هاذان) (وهايتين) (أرنا اللذين) وحجته أن الأصل في قوله (واللذان) (اللذيان) فحذف الياء وجعل النون المشددة عوضاً من الياء المحذوفة التي كانت في (الذي) وكذلك في (إحدى ابنتي هاتين) شدد هذه النونات وجعل التشديد عوضاً من الياء المحذوفة والألف.

إذا سأل سائل فقال: (لم شددت النون في هذه الكلمة ولم تشددها في قوله (برهانان) (وغلامان)؟) فالجواب عن ذلك من وجهين: أحدهما: أن هذه النون لما كانت ثابتة في الأحوال كلها ولم تكن الإضافة تسقطها لأن هذه الأسماء لا تضاف البتة ففرقوا بينها وبين النون الضعيفة التي تسقط في الإضافة فتقول: (هذان غلاما زيد) فلما كانت أقوى شددت ليدل بالتشديد على قوتها (بالإضافة) لغيرها من النونات التي تتسلط الإضافة عليها.

والوجه الثاني: يقال لهذه النون في المبهمات: يدل من الألف المحذوفة والياء المحذوفة وهما حرفان في الأصل من نفس الكلمة. والنون في الثنية في قولك (برهانان ورجلان) بدل من التنوين الذي هو زائد وعارض في الكلمة فجعلت للنون التي (هي) بدل من الأصل مزية على النون التي هي بدل من عارض في الأصل وتلك المزية: التشديد.

وقرأ الباقر جميع ذلك بالتخفيف وحجته أن من كلام العرب أن - يحذفوا ويعوضوا وأن يحذفوا ولا يعوضوا، فمن عوض أثر تمام الكلمة، ومن لم يعوض أثر التخفيف، ومثل ذلك في تصغير (مغتسل) تقول (مُغْتَسِلٌ وَمُغْتَسِلٌ) فمن قال (مُغْتَسِلٌ) لم يعوض من التاء شيئاً ومن قال - (ومغيسيل) عوض من التاء. انظر ابن زنجلة ١٩٤ - ١٩٥.

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ٩٠/٨ (٨٨٣٧).

(٤) سقط من ظ.

(٥) صالح بن بشير بن وادع أبو بشر البصري، القاضي المعروف بالمري كان من عباد البصرة توفي سنة ١٧٢ هـ. التهذيب ٣٨٢/٤.

(٦) سقط من ظ.

(٧) أخرجه الترمذي مرفوعاً عن معاذ بن جبل ٦٦١/٤ في كتاب صفة القيامة (٢٥٠٥) وقال حديث غريب وليس إسناده بمتصل، وذكره السيوطي في الجامع الكبير ٨٠٢/١ وعزاه لابن أبي الدنيا في ذم الغيبة، وذكره السخاوي في المقاصد ١١٥٦/٤٢١ وعزاه لابن منيع والطبراني والبيهقي عن يحيى بن جابر قال ما عاب رجل قط رجلاً بعبث إلا ابتلاه الله بذلك العيب. والحديث مرفوعاً أخرجه أيضاً ابن الجوزي في الموضوعات ٨٢/٣.

(٨) أخرجه أحمد في المسند ١٣٢/٢ والترمذي في السنن ٢٤٧/٥ في الدعوات ٣٥٣٨ وابن ماجه ١٤٢٠/٢ في الزهد ٤٢٥٣ وابن حبان، وذكره الهيثمي في الموارد ٦٠٧ في التوبة ٢٤٤٩ والحاكم في المستدرک ٢٥٧/٤ في التوبة والإنابة وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

الحسن: إن إبليس لما أهبط من الجنة قال: بعزتك لا أفارق ابن آدم ما دام الروح في جسده، قال الله تعالى: فبعزتي فبعزتي لا أحجب التوبة عن ابن آدم ما لم يغفر بنفسه^(١). قال أبو العالية الرياحي: ^(٢) نزلت أول الآية في المؤمنين والوسطى في المنافقين، والأخرى في الكافرين، فأما توبة المؤمنين فذكرها قد مضى، وأما ذكر توبة المنافقين فقوله تعالى: ﴿وليس التوبة للذين يعملون السيئات﴾ الآية، يعني ليس قبول التوبة للذين أصروا على فعلهم ﴿حتى إذا حضر أحدهم الموت﴾ أي الشرق والزرع وعايته ملك الموت، ﴿قال: إني تبت الآن﴾ فليس لهذا توبة، ثم ذكر توبة الكفار ﴿ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾ أي وجعاً دائماً. قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَسْتَبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ أَحَدَهُنَّ قَنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها﴾ قال ابن عباس: كانوا في الجاهلية، وفي أول الإسلام، إذا مات الرجل وله امرأة، وله ولد من غيرها، أو له وارث غير الابن، فآلقت ثوبه عليها وورث نكاحها بالصدوق الأول، ويقول: أنا ولي زوجك فورثتك فإن كانت جميلة أمسكها، وإن لم تكن جميلة طول عليها، لتفتدي منه فنزلت هذه الآية. وقال في رواية الضحاك: كان الرجل عنده عجوز، ونفسه تنوق إلى الشابة، فيكره فراق العجوز لمالها فيمسكها ولا يقربها حتى تفتدي منه بمالها، أو تموت فيرث مالها، فنزلت هذه الآية، وأمر الزوج بأن يطلقها إن كره صحبتها، فلا يمسكها كرهاً، فذلك قوله تعالى: (لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً). قرأ عاصم وابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، ونافع: ^(٣) (كرهاً) بنصب الكاف، وقرأ حمزة والكسائي: (كرها) [بالضم]^(٤). قال القتيبي: (الكره) بالنصب بمعنى الإكراه، (والكره) بالرفع المشقة، ويقال: ليفعل ذلك طوعاً أو كرهاً، يعني طائعاً أو مكرهاً. ثم قال تعالى: ﴿ولا تعضلوهن﴾ أي لا تمنعهن من الأزواج ﴿لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن﴾ من المهر وغيره ﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ وهي المعصية في النشوز على زوجها، فيحل له ما أخذ

(١) بلفظ «إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الرب عز وجل: وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني لا أزال أغفر لهم ما استغفروني» أخرجه من رواية أبي سعيد الخدري أحمد في المسند ٢٩/٣ - ٤١ وأبو يعلى في المسند ٤٥٨/٢ ١٢٧٣/٢٩٩ وذكره الهيثمي في المجمع ٢٠٧/١٠ وقال رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني في الأوسط وأحمد إسنادي أحمد رجاله رجال الصحيح، وكذلك أحد إسنادي أبي يعلى، وأخرجه الحاكم في المستدرک ٢٦١/٤ في كتاب التوبة والإنابة، وأخرجه البيهقي في شرح السنة ٧٦/٥ - ٧٧.

(٢) ذكره القرطبي ٦٢/٥.

(٣) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ١٩٥ وشرح شذوذا ٣٣٦.

(٤) وفي ظ [بضم الكاف].

منها. ويقال: إلا أن تزني فيحل له أن يفتدي منها، يعني إذا كانت بطيئة نفسها. قرأ ابن كثير، وعاصم في رواية أبي بكر^(١) (بفاحشة مبينة) بنصب الياء، وقرأ الباقون (مبينة) بكسر الياء، فمن قرأ بالكسر يعني، الفعل الفاحشة، يعني فاحشة ظاهرة تبين منها نفسها، ومن قرأ بالنصب، يكون بمعنى المفعول. قال مقاتل: نزلت هذه الآية في محسن بن أبي قيس وامراته هند بنت المغيرة وفي جماعة^(٢). وقال الكلبي: نزلت في حصن بن أبي قيس وامراته كبشة بنت معن. ثم قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: صاحبوهن بالجميل ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ أي كرهتم صحبتتهن ﴿فَعَسَى﴾ يقول: فلعل ﴿أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾ من صحبتكم إياهن ﴿وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ يعني في صحبتتهن، يرزق لكم ولداً صالحاً وهذا كقوله عز وجل (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم) ويقال: (ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) لعله إن أمسكها، فيعطفه الله عليها من بعد ذلك، وأما أن يخلي سبيلها فيزوجها الله زوجاً غيره فيرزقها الله منه الولد. ثم قال: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ﴾ يعني تغيير زوج ﴿مَكَانَ زَوْجٍ﴾ يعني إذا أراد الرجل أن يطلق زوجته، ولم يكن منها نشوز^(٣)، وأراد أن يتزوج غيرها ﴿وَأَتَيْتُمْ أَحَدَاهُنَّ قَنْطَارًا﴾ من الذهب في المهر. قال مجاهد: القنطار سبعون ألف دينار^(٤). وقال عطاء: سبعة آلاف دينار^(٥). وقال الحسن: ألف دينار أو إثني عشرة ألف درهم^(٦). وقال قتادة^(٧): كان يقال: القنطار مائة رطل من الذهب، أو ثمانون ألفاً من ورق. وروي عن عبد الوهاب بن عطاء^(٨) عن الكلبي قال: كل ما لم أسنده لكم فهو كله عن أبي صالح عن ابن عباس قال: القنطار ألف مثقال مما كان من ذهب أو فضة^(٩) ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ أي: فلا تستحلوا أن تأخذوا مما أعطيتكم شيئاً، إذا لم يكن النشوز من قبلها. ثم قال: ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بِهْتَانًا﴾ يقول: أتستحلون أخذه ظلماً ﴿وَإِنَّمَا مَبِيتُهُ﴾ أي ذنباً ظاهراً. ثم قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ﴾ يقول: كيف تستحلون أخذه يعني أخذ مهورهن ﴿وَقَدْ أَقْضَى بِعُضُوكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ يقول: قد اجتمعا في لحاف واحد. قال الفراء: الإفضاء، أن يخلو الرجل والمرأة، إن لم يجامعا أو جامعا، وقد وجب المهر، وقال الكلبي: الإفضاء: إذا كان معها في لحاف واحد جامعا أو لم يجامعا، فقد وجب المهر. وروى [عوف]^(١٠) الأعرابي^(١١) عن زرارة بن أبي أوفى^(١٢) قال: قضى الخلفاء الراشدون المهديون أن من أغلق باباً وأرخص ستراً فقد وجب المهر والعدة^(١٣). وقال مقاتل: الإفضاء: الجماع، وبهذا القول

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ١٩٦ شرح شعبة ٣٣٦.

(٢) وهم صفوان بن أمية، ومنصور بن مازن، والأسود بن خلف.

(٣) والنشوز: مصدر نَشَزَتِ المرأة نشوزاً إذا استعصت على بعلها وأبغضته، وَنَشَزَ بَعْلُهَا عَلَيْهَا: إذا ضربها وجفاها. انظر الصحاح

٨٩٩/٣ ولسان العرب ٤١٧/٥ المصباح ٩٣٥/٢.

(٤) أخرجه الطبري في التفسير ٢٤٨/٦، ٦٧١٩، ٦٧٢٠.

(٥) وفي تفسير الطبري عن عطاء (وسبعون ألفاً).

(٦) أخرجه الطبري في التفسير ٢٤٧/٦، ٦٧١٢.

(٨) عبد الوهاب بن عطاء الحفاف أبو النصر العجلي، مولا هم، البصري توفي سنة ٢٠٤ هـ. التهذيب ٤٥٠/٦.

(٩) قال الطبري رحمه الله في التفسير ٢٤٩/٦: وقد ينبغي أن يكون ذلك كذلك لأن ذلك لو كان محدوداً قدره عندها لم يكن بين متقدمي

أهل التأويل فيه كل هذا الاختلاف وقال فالصواب في ذلك أن يقال هو المال الكثير كما قال الربيع بن أنس.

(١٠) سقط من أ.

(١١) عوف بن أبي جميلة العبدي الهجري، أبو سهل، البصري، المعروف بالأعرابي. التهذيب ٤٥٠/٦.

(١٢) زرارة بن أوفى العامري الحرشي أبو حاجب، البصري، القاضي، توفي سنة ٩٣ هـ. التهذيب ٣٢٢/٣.

(١٣) أخرجه البيهقي ٢٢٥/٧ في كتاب الصداق باب من قال: «من أغلق باباً وأرخص ستراً فقد وجب الصداق» وأخرجه عبد الرزاق في

النكاح باب وجوب الصداق وابن أبي شيبة في النكاح باب من قال إذا أغلق الباب... انظر التلخيص الحبير ٢١٨/٣.

قال بعض الناس، وأما علماؤنا رحمهم الله - قالوا: إذا خلا بها خلوة صحيحة^(١) يجب كمال المهر والعدة، دخل بها أو لم يدخل بها. ثم قال: ﴿وَأَخْذُنْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ يقول: أوجب عليكم عقداً وثيقاً بالنكاح، وهو قوله تعالى: (فإمسك بمعروف أو تسريح بإحسان) فصار ذلك على الرجال ميثاقاً غليظاً من النساء. ثم بين ما يحل للرجال من النساء وما لا يحل فقال:

وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضْعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبُكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾

فقال تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾، يعني لا تتزوجوا من قد تزوج آبؤكم من النساء. ويقال اسم النكاح يقع على الجماع والتزوج، فإن كان الأب تزوج امرأة أو وطئها بغير نكاح حرمت على ابنه وقوله ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ يقول: لا تفعلوا ما قد فعلتم في الجاهلية، وكل الناس يتزوج الرجل منهم امرأة الأب برضاها، بعد نزول قوله (لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً) حتى نزلت هذه الآية: (ولا تنكحوا ما نكح آبؤكم...) الآية، فصار حراماً في الأحوال كلها. ويقال: إلا ما قد سلف، يعني: ولا ما قد سلف، كقوله تعالى: (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ) ولا خطأ وقد قيل: إن في الآية تقدماً وتأخيراً، ومعناه، ولا تنكحوا ما نكح آبؤكم من النساء [فإنكم إن فعلتم تواخذون وتعاقبون إلا ما قد سلف]^(٢) إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً، إلا ما قد سلف. وقد قيل: إن في الآية إضماراً تقول (ولا تنكحوا ما نكح آبؤكم) من النساء فإنكم إن فعلتم تعاقبون وتواخذون إلا ما قد سلف. ثم قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ أي معصية ﴿وَمَقْتًا﴾ أي بغضاً ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أي بش المسلك. ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ أي نكاح أمهاتكم، فذكر الأمهات والمراد منه الأمهات والجندات. ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ ذكر البنات والمراد به البنات والحفيدات (أي بنات الأولاد)^(٣) ثم قال تعالى: ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ يعني من النسب ﴿وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ، وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرِّضَاعَةِ﴾.

(١) وهو قول أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وزيد بن ثابت وابن عمر ومعاذ بن جبل والمغيرة بن شعبة وأبي موسى وأحمد رضي الله عنهم. وقال مالك والشافعي: لا يوجب.

وصورة المسألة: إذا خلا بها ثم طلقها قبل الدخول فعندنا لها كل المهر وعليها العدة، وعندهما: نصف المهر ولا عدة عليها وصحة الخلوة (بانتفاء الموانع من الوطء شرعاً وحساً فالشرع: كالصوم والصلاة المفروضين والإحرام فرضه ونفله والحيض والنفاس والحس مثل: المرض والرتق والقرن. من إيثار الإنصاف ١٤٤ - ١٤٥.

(٢) ما بين المعكوفين سقط من ظ. (٣) سقط من ظ.

ثم قال تعالى : ﴿وَأَمْهَاتُ نِسَاءكُمْ﴾ يعني أن نكاح أمهات نسائكم حرام عليكم سواء دخل بالإينة أو لم يدخل بها . هكذا روي عن ابن عباس وعن جماعة من الصحابة^(١) إنهم قالوا ذلك ، ثم قال : ﴿وَرِبَائِيكُمْ﴾ يعني حرام عليكم نكاح بنات نسائكم ﴿اللاتي في حجبوركم﴾ يعني التي يربيهما في حجره حرام عليه إذا دخل بأمها ﴿من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم﴾ يعني إن لم يكن دخل بأمها فهي حلال ، له أن يتزوجها [وقد اتفقوا على أن]^(٢) كونها في الحجر ليس بشرط غير قول روي عن بعض المتقدمين وإنما ذكر الحجر لتعارفهم فيما بينهم وتسميتهم بذلك الاسم . ثم قال تعالى : ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ﴾ يعني حرام عليكم نساء أبناءكم ﴿الذين من أصلابكم﴾ يقال : إنما اشترط الذين من الأصلاب ، لزوال الاشتباه لأن القوم كانوا يتبنون في ذلك الوقت ويجعلون الابن المتبنى بمنزلة ابن الصلب في الميراث والحرمة ، وتبنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - زيد بن حارثة ، فتزوج زيد بن حارثة امرأة^(٣) ، ثم طلقها فتزوجها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فعيده المشركون بذلك ، وقالوا تزوج امرأة ابنه فتزل قوله تعالى : (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم)^(٤) وذكر في هذه الآية فقال : (وحلائل أبناءكم الذين من أصلابكم) لكي لا يظن أحد أن امرأة الابن المتبنى تحرم عليه . ثم قال تعالى : ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ﴾ أي حرم عليكم أن تجمعوا بين الأختين في النكاح في حالة واحدة ، ثم قال تعالى : ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ يقول : إلا ما قد مضى في الجاهلية . وروى هشام بن عبيد الله^(٥) ، عن محمد بن الحسن ، أنه قال : كان أهل الجاهلية يعرفون هذه المحرمات كلها ، التي ذكر في هذه الآية إلا اثنتين : أحدهما : نكاح امرأة الأب ، والثانية : الجمع بين الأختين ألا ترى أنه قال تعالى : (ولا تنكحوا ما نكح آبؤكم من النساء إلا ما قد سلف) [(وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف) ولم يذكر في سائر المحرمات ، إلا ما قد سلف] . ويقال : إلا ما قد سلف يعني ، دع ما قد مضى ﴿إن الله كان غفوراً﴾ لما كان في الجاهلية ﴿رحيماً﴾ بما كان في الإسلام إن تاب من ذلك . ثم قال تعالى .

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ^٤ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴿٢٤﴾ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيِّتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَيْمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ وَلَا مَتَّخِذَاتٍ أَخْدَانٍ فَإِذَا

(٢) سقط من أ.

(١) انظر تفسير القرطبي ٧٠/٧ - ٧١.

(٣) زينب بنت جحش الأسدية ، أم المؤمنين ، قالت عائشة ما رأيت امرأة قط خيراً في الدين والتقى وأصدق حديثاً وأوصل للرحم منها ، ماتت سنة عشرين . الخلاصة ٣٨٢/٣ .

(٤) أسباب النزول للواحدي ٢٦٥ .

(٥) هشام بن عبيد الله الرازي السبتي اختلف في توثيقه .

(٦) ما بين المعكوفين سقط من أ ، والمثبت من ط ، والحديث انظر تفسير القرطبي ٧٩/٥ .

أُحْصِنَ فَإِنْ أَتَيْتَ بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْهِمْ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾

﴿والمحصنات من النساء﴾ قال في رواية الكلبي وفي رواية الضحاك، يعني ذوات الأزواج حرام عليكم^(١) إلا ما ملكت إيمانكم﴾ من سبايا، فإذا ملك الرجل امرأة لها زوج في دار الحرب، واستبرأ^(٢) رحمها بحيضة، فهي حلال له وهذا موافق لما روي عن ابن سعيد الخدري: إن المسلمين أصابوا يوم أوطاس سبايا لهن أزواج من المشركين، فتأثم المسلمون منهن وقالوا: لهن أزواج، فأنزل الله تعالى: (والمحصنات من النساء إلا ما ملكت إيمانكم)^(٣) يقول: ما أفاء الله عليكم من ذلك وإن كان لهن أزواج من المشركين، فلا بأس بأن يأتيها الرجل، إذا استبرأ رحمها. وقال في رواية مقاتل: (والمحصنات من النساء) يعني، كل امرأة ليست تحتكم فهي حرام عليكم، ثم استثنى من المحصنات فقال: إلا ما ملكت إيمانكم، يعني إلا ما قد تزوجتم من النساء مثنى وثلاث ورباع قوله: ﴿كتاب الله عليكم﴾ أي: هذا ما حرم عليكم في الكتاب. ويقال: (كتاب الله عليكم)، معناه، هذا الذي يقرأ عليكم هو كتاب الله تعالى فاتبعوه، ولا تخالفوه. وقال الزجاج (كتاب الله عليكم) منصوب على التأكيد، محمول على المعنى، لأن معناه: حرمت عليكم أمهاتكم، كتب الله عليكم هذا كتاباً، ويجوز أن يكون منصوباً على جهة الأمر، كأنه قال: الزموا كتاب الله، فيكون عليكم مفسراً له. ثم قال تعالى: ﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم﴾ يقول: رخص لكم ما سوى ذلكم فالله تعالى قد ذكر ما حرم في هذه الآية من قوله: (ولا تنكحوا ما نكح آبائكم) أربع عشرة من المحرمات، سبع بالنسب، وسبع بالسبب^(٤) ثم بين المحلات فقال: (وأحل لكم ما وراء ذلكم) يعني ما سوى هذه الأربع عشرة التي ذكر في هذه الآية، فلو كان الأمر على ظاهر هذه الآية، لكان يجوز ما سوى ذلك إلا أنه قد جاء الأثر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب^(٥)، وقال: لا تنكح المرأة على عمتها، ولا على خالتها^(٦)، فوجب اتباعه، لأن الله تعالى قال: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص^(٧)، (وأحل لكم) بضم الألف، وقرأ الباقون:

(١) انظر تفسير ابن عباس ٥٥.

(٢) استبراء الجارية (لا يمسه حتى يبرأ رحمها ويتبين حالها هل هي حامل أم لا. انظر النهاية في غريب الحديث ١١١/١ - ١١٢.

(٣) أخرجه مسلم ١٠٧٩/٢ في الرضاع باب جواز وطء المسبية (١٤٥٦/٣٣) وأوطاس: اسم موضع أو بقعة في الطائف.

(٤) فالسبع المحرمات من النسب: الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت. والسبع المحرمات بالصهر - والرضاع: الأمهات من الرضاعة، والأخوات من الرضاعة، وأمهات النساء، والربائب، وحلائل الأبناء، والجمع بين الأختين، والسابعة (ولا تنكحوا ما نكح آبائكم) قال الطحاوي: وكل هذا من المحكم المتفق عليه وغير جائز نكاح واحدة منهن بإجماع إلا أمهات النساء اللواتي لم يدخل بهن أزواجهن فإن جمهور السلف ذهبوا إلى أن الأم تحرم بالعقد على الأبنة ولا تحرم الابنة بالدخول بالألم وبهذا قول جميع أئمة الفتوى بالمصنار. انظر القرطبي ٧٠/٥.

وأثر عنهم قولهم: العقد على البنات يحرم الأمهات، والدخول بالأمهات يحرم البنات.

(٥) من حديث عائشة رضي الله عنها أخرجه البخاري ١٣٩/٩ - ١٤٠ في النكاح (٥٠٩٩) ومسلم ١٠٦٨/٢ في الرضاع باب ما يحرم من الرضاعة (١٤٤٤/٢) ومن حديث علي أخرجه مسلم ١٠٧١/٢ (١٤٤٦/١١) والشافعي في المسند ٢٠/٢ (٦١).

(٦) بلفظ لا يجمع أخرجه البخاري ١٦٠/٩ في النكاح (٥١٠٩) ومسلم ١٠٢٨/٢ في النكاح (١٤٠٨/٣٣) ولفظ «نهى أن تنكح المرأة على عمتها، أو العمة على بنت أخيها، والمرأة على خالتها» وأخرجه الدارمي ١٣٦/٢ في النكاح وأبو داود ٥٥٣/٢ (٢٠٦٥) والترمذي ٤٣٣/٣ (١١٢٦) وقال حسن صحيح وأخرجه النسائي ٩٨/٦ باب تحريم الجمع بين المرأة وخالتها.

(٧) وترجيح ابن خالويه في الحجة بترجيح قراءة ضم الهمزة (أحل) على قراءة الفتح غير سديد، لأن القراءة لا تؤخذ بالرأي، وإنما متى =

بالنصب فمن قرأ بالضم، لأنه عطف على قوله: (حرمت عليكم)، ومن قرأ بالنصب لأنه نسق على قوله: (كتاب الله عليكم) ثم قال تعالى: ﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ﴾ يعني أن تتزوجوا بأموالكم، ويقال: تشتروا بأموالكم الجواري ﴿مُحْصَنِينَ غَيْرِ مُسَافِحِينَ﴾ يقول: كونوا متعفين من الزنا غير زانين ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ قال مقاتل: يعني به المتعة أي فما استمتعتم منهن إلى جل مسمى، ﴿فَاتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ أي أعطوهن ما شرطتم لهن من المال. وإنما كانت إباحة المتعة في بعض المغازي ثم نهى عن ذلك. وروى عن ابن عباس أنه كان يقرأ: ^(١) فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى ^(٢). وروى عطاء عن ابن عباس أنه قال ما كانت المتعة إلا رحمة، رحم الله بها هذه الأمة ولولا نهى عمر عنها، ما زنى إلا شقي. وروى عن عبد الله بن مسعود أنه قال: إنما رخص في المتعة في بعض المغازي ثم نسخها آية الطلاق والميراث والعدة ^(٣). وروى ابن أبي نجيج عن مجاهد قال: (فما استمتعتم به منهن) قال: النكاح فاتوهن أجورهن، يعني مهورهن. وقال في رواية الكلبي: فما استمتعتم به منهن بعد النكاح فاتوهن أجورهن، أي مهورهن ﴿فَرِيضَةً﴾ لهن عليكم ^(٤). وقال الضحاك: (فما استمتعتم به منهن) أي، فما تزوجتم بهن فأعطوهن مهورهن. ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ قال بعضهم: يعني المتعة، قبل أن تنسخ أجاز لهما أن يتراضيا على زيادة الأجل والمال، وقال بعضهم: يعني المهر، لا جناح على الزوجين أن يتراضيا بعد النكاح على زيادة المهر. ﴿إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا﴾ فيما رخص لكم من نكاح الأجانب ﴿حَكِيمًا﴾ فيما حرم عليكم من ذوات المحارم. ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا﴾ أي غنى، يقول: من لم يجد منكم سعة في المال ﴿أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمَنَاتِ﴾ يعني الحرائر، فليتزوج الإمام فذلك قوله ﴿فَمَنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من الإمام. ويقال: من لم يستطع منكم طولاً، يعني من لم يكن له منكم مقدرة على الحرية، فليتزوج الأمة، يعني إذا لم يكن له امرأة حرة. وقد قال بعض الناس: إذا كان للرجل من المال مقدار ما يمكنه أن يتزوج بالحره، لا يجوز أن يتزوج الأمة. وفي قول علمائنا: يجوز إذا لم يكن عنده امرأة حرة لأنه لو صرف إلى ذلك الوجه لا يضر، لأن كل مال يمكن أن يتزوج به الأمة. يمكن أن يتزوج به الحره، ولكن معناه، كون الحره عنده أفضل ثم قال تعالى: ﴿مَنْ فِتْيَاتِكُمُ الْمُؤْمَنَاتِ﴾ يعني يتزوج الأمة المسلمة. وقال بعض الناس: لا يجوز أن يتزوج أمة يهودية أو نصرانية لأن الله تعالى قال: (من فتياتكم المؤمنات). وفي قول علمائنا: يجوز نكاح الأمة اليهودية والنصرانية، وذكر المؤمنات ليس بشرط، أنه لا يجوز غيرها، وهذا بمنزلة قوله: (فإن خفتن ألا تعدلوا فواحدة) فإن خاف ألا يعدل، فيتزوج أكثر من واحدة جاز، ولكن الأفضل أن لا يتزوج، فذلك ما هنا الأفضل أن يتزوج الأمة إلا مؤمنة، ولو تزوج غير المؤمنة جاز. ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ يقول: والله أعلم بإيمانكم في الحقيقة وأنتم تعرفون الظاهر، وليس عليكم أن تبحثوا عن الباطن. وقال مقاتل: في الآية تقديم وتأخير، ومعناه، فما ملكت إيمانكم بعضهم من بعض، [(يعني يتزوج هذا وليدة هذا وهذا وليدة هذا)] ثم قال: (والله أعلم بإيمانكم) من غيره. ويقال: معناه، والله أعلم بإيمانكم بعضهم من بعض، يعني: بعضهم من بعض ^(٥) في النسب، يعني محلكم ولد آدم ولا فخر فيما بينكم. ويقال: دينكم واحد أي بعضكم على دين بعض. ثم قال تعالى: ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ يعني الولاية بإذن أربابهن ﴿وَاتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يقول: أعطوهن

= صح سندها صحت القراءة بها، وكلا القراءتين متواتر صحيح. وانظر حجة القراءات لابن زنجلة ١٩٨ وشرح شعبة ٣٣٨.

(١) هذه القراءة لا تصح تلاوة لأنها غير متواترة، والأمر كما وضحه العلامة الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره ١٧٩/٨.

(٢) انظر تفسير الطبري ١٧٧/٨.

(٣) تفسير القرطبي ٨٦/٥. (٤) انظر تفسير ابن عباس ٥٥. (٥) ما بين المعكوفين سقط من ظ.

مهورهن بالمعروف (يعني بإذن أهلهن، لأنه إذا أعطى الأمة مهرها بغير إذن مولاهما واستهلكت ضمن الزوج للمولى). ويقال: مهرأ غير مهر البغي، يعني بعدما أطلق ذلك، ثم قال: ﴿محصنات﴾ أي عفاف ﴿غير مسافحات﴾ أي: غير زواني. ويقال: غير معلنات بالزنا. ﴿ولا متخذات أخدان﴾ يعني، أخلاء في السر، لأن أهل الجاهلية كان فيهن زواني في العلانية، ولهن رايات منصوبة، وبعضهن اتخذن أخداناً، يعني أخلاء في السر ولا يفعلن بالعلانية، فنهى الله عن نكاح الفريقين جميعاً فقال: تزوجوا محصنات غير معلنات بالزنا، ولا في السر. قرأ الكسائي^(١) (محصنات) بكسر الصاد في جميع القرآن إلا في قوله (والمحصنات من النساء) وقرأ الباقون في جميع القرآن بالنصب. ثم قال تعالى: ﴿فإذا أحصن﴾ يعني أسلمن، ويقال: إذا أعففن. قرأ عاصم وحزمة والكسائي^(٢) (فإذا أحصن) بالنصب، وقرأ الباقون: بالضم وروي عن ابن مسعود أنه كان يقرأ بالنصب، ومعناه إذا أسلمن. وقرأ ابن عباس: بالضم، يعني أحصن بالأزواج. ﴿فإن آتين بفاحشة﴾ يعني الزنا، ﴿فعليهن﴾ أي وجب عليهن ﴿نصف ما على المحصنات من العذاب﴾ يعني إذا زنت الأمة فحدها نصف حد الحرة، خمسون جلدة، والفائدة في نقصان حدهن - والله أعلم - أنهن أضعف من الحرائر، فجعل عقوبتهن أقل. ويقال: لأنهن لا يصلن إلى مرادهن، كما تصل الحرائر إلى مرادهن. ويقال: لأن العقوبة تجب على قدر النعمة، ألا ترى: أن الله تعالى قال لأزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - (يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين) فلما كانت نعمتهن أكثر جعل عقوبتهن أشد، فكذلك الأمة، لما كانت نعمتها أقل كانت عقوبتها أدنى. وذكر في الآية حد الإماء خاصة، ولم يذكر حد العبيد، ولكن حد العبيد والإماء سواء خمسون جلدة في الزنا، وفي حد القذف وشرب الخمر أربعون جلدة، لأن حد الأمة إنما نقص لنقصان الرق، وذلك في العبد موجود. وروي عن علي بن أبي طالب،

(١) قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ اتفق القراء على فتح الصاد في هذا الحرف. واختلفوا فيما عداه. فقرأ الكسائي: أن ينكح المحصنات المؤمنات ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ﴾ بكسر الصاد في جميع القرآن) أي هن أحصن أنفسهن بالإسلام والعفاف، فذهب الكسائي إلى أن المحصنات المسلمات العفيفات هن أحصن أنفسهن بالإسلام والعفاف. والعرب تقول: (أحصنت المرأة فهي محصنة) وذلك إذا حفظت نفسها وفرجها. وحجته في فتح الحرف الأول وكسر ما عداه: أن المعنى فيه غير موجود فيما عداه وذلك أن (المحصنات) ها هنا هن ذوات الأزواج اللاتي أحصنهن أزواجهن سوى ملك اليمين اللاتي كان لهن الأزواج فكن محصنات بهم فأحلهن بعد استيرائهن بالحيف، فأما ما سوى هذا الحرف فإن المراد فيه ما ذكرنا من الإسلام والعفة. عن الحسن في قوله (والمحصنات من النساء) قال: ذوات الأزواج. فقال الفرزدق: (قد قلت فيه شعراً) قال الحسن: (ما قلت يا أبا فراس؟) قال: (قلت):

وَذَاتِ حَلِيلٍ أَتَكَحَّتْهَا رِمَاحُنَا حَلَالٌ لِمَنْ يَبْنِي بِهَا لَمْ تَطْلُقْ

روي أن النبي - صلى الله عليه وسلم - بعث يوم حنين سرية أصابوا حياً من العرب يوم أوطاس فهزموهم وقتلوه وأصابوا نساءً لهن أزواج، فكان ناس من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تأثموا من غشيانهن من أجل أزواجهن فأنزل الله عز وجل: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أي المتزوجات ﴿إلا ما - ملكت أيمانكم﴾ أي السبايا من ذوات الأزواج لا بأس في وطئهن بعد استيرائهن.

وقرأ الباقون: (المحصنات) بفتح الصاد أي متزوجات أحصنهن أزواجهن والأزواج مُحْصَنُونَ والنساء مُحْصَنَات.

قال أبو عمرو: (الزوج يحصن المرأة بالإسلام) وكذلك (فإذا أحصن) أي أحصنهن الأزواج والإسلام قال. ولا تقول العرب (هذا قاذف محصنة ولا محصنات) ولا (محصنة ومحصنات) فتأويل (المحصنات) أن أزواجهن أعفوهن أو إسلامهن أحصنهن فهن محصنات بذلك. انظر حجة القراءات ١٩٦ - ١٩٧.

(٢) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ١٩٨.

وعمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - أنهما قالوا: حد العبد نصف حد الحر^(١). ثم قال تعالى: ﴿ذلك﴾ يعني هذا الذي ذكر في الآية. وهو رخصة نكاح الأمة ﴿لمن خشي العنت منكم﴾ يعني الإثم في دينه، ويقال: الزنا والفجور [قال القتيبي أصله المضروور الإفساد]^(٢) قال تعالى: (وان تصبروا) عن نكاح الإمام (خير لكم) من تزوجهن لأنه، لو تزوج الأمة، يصير ولده عبداً. وروي عن عمر أنه قال: أيما حر تزوج بأمة، فقد أرق نصفه أي يصير ولده رقيقاً، فالصبر عن ذلك أفضل لكيلا يرق ولده^(٣). وقال مجاهد: ﴿وان تصبروا خير لكم﴾ يقول: وإن تصبروا على نكاح الأمة خير لكم من أن تقعوا في الفجور. ﴿والله غفور﴾ لما أصبتم منهن قبل تحليله ﴿رحيم﴾ حين رخص في نكاح [الإماء]^(٤) ويقال: رحيم إذ لم يعجل العقوبة.

يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَنَّ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِنْ تَجَتَبَلَوْا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

﴿يريد الله ليبين لكم﴾ أي يبين لكم أن الصبر خير لكم من نكاح الإماء. ويقال: يبين لكم إباحة نكاح الأمة عند العذر. ثم قال تعالى: ﴿ويهديكم سنن الذين من قبلكم﴾ أي شرائع الذين من قبلكم بأنه لم يحل لهم تزوج الإماء وقد أحل لكم ذلك. وقال مقاتل: يريد الله ليبين لكم حكم حلاله وحرامه من النساء، ويهديكم أي يبين لكم شرائع من كان قبلكم^(٥) ﴿ويتوب عليكم﴾ أي يتجاوز عنكم ما كان منكم قبل التحريم ﴿والله عليم﴾ بمن فعله منكم بعد التحريم ﴿حكيم﴾ فيما نهاكم عن نكاح الإماء إن لم يجد طولاً، والنهي نهي استحباب لا نهي وجوب. ويقال: إن هذا ابتداء القصة، يريد الله أن يبين لكم كيفية طاعته، (ويهديكم) يعني يعرفكم سنن الذين من قبلكم، يعني أنهم لما تركوا أمري فكيف عاقبتهم، وأنتم إذا فعلتم ذلك لا أعاقبكم، ولكني أتوب عليكم (والله عليم بمن تاب) (حكيم) حكم بقبول التوبة. ثم قال تعالى: ﴿والله يريد أن يتوب عليكم﴾ أي يتجاوز عنكم ما كان منكم من قبل التحريم. ويقال: يتجاوز عنكم الزلل والخطايا. ﴿ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً﴾ (يعني اليهود والنصارى، ويقال المجوس. (أن تميلوا ميلاً عظيماً) يعني أن تخطئوا خطأ عظيماً، لأن بعض الكفار كانوا يجيزون نكاح الأخت من الأب، وبنات الأخ وبنات الأخت، فلما حرم الله تعالى ذلك قالوا للمسلمين: إنكم

(١) انظر أثر عمر في تنصيف حد الإماء في ابن أبي شيبة في المصنف ٥/٥٠١ (٢٨٣٨٤) (٢٨٢١٤)، وانظر أثر علي في تنصيف حد العبد في ابن أبي شيبة ٥/٤٨٦، (٢٨٢٢٦).

(٢) ما بين المعكوفين سقط من ظ. (٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢/١٤٣ وعزاه لعبد الرزاق وابن أبي شيبة.

(٤) في ظ الأمة. (٥) ذكره السيوطي في الدر ٢/١٤٣ وعزاه لابن أبي حاتم.

تتكحون ابنة الخالة والعمة فأنزل الله تعالى هذه الآية. ويقال: ويريدون الذين يتبعون الشهوات. ويقال: إن اليهود يريدون أن يقفوا منكم على الزلل والخطايا، يعني أن الله تعالى قد بين لكم لكي لا يقفوا منكم على الزلل والخطايا. ثم قال تعالى: ﴿يريد الله أن يخفف عنكم﴾ يقول: يهون عليكم الأمر إذا رخص لكم في نكاح [الإماء] ^(١) ﴿وخلق الإنسان ضعيفاً﴾ أي لا يصبر على النكاح وقال الضحاك: يخفف عنكم أي يريد أن يضع عنكم أوزاركم ويضع عنكم آثامكم. قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ يعني بالظلم، باليمين الكاذبة، ليقطع بها [مال أخيه ثم استثنى ما استفضل الرجل من] ^(٢) مال أخيه في تجارته أنه لا بأس به فقال ﴿إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم﴾. ويقال: إلا ما كان بينهما تجارة، وهو أن يكون مضارباً له، فله أن يأكل من مال المضاربة إذا خرج إلى السفر. ويقال: إلا ما يأكل الرجل شيئاً عند اشتراؤه ليدوقه. قرأ حمزة والكسائي وعاصم ^(٣) (تجارة) بنصب الهاء على معنى خبر تكون. وقرأ الباقون بالضم على معنى الاسم. ثم قال تعالى: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ أي لا يقتل بعضكم بعضاً، فإنكم أهل دين واحد. ويقال: (ولا تقتلوا أنفسكم)، يعني أن يوجب الرجل على نفسه [قتل نفسه فيجابه] باطل ^(٤). وقال القتيبي: (ولا تأكلوا أموالكم) يعني لا يأكل بعضكم مال بعض بالباطل، ولا يقتل بعضكم بعضاً، كقوله: (ولا تلمزوا أنفسكم) أي لا تعيبوا إخوانكم. ويقال: (ولا تقتلوا أنفسكم) أي لا تقتلوهما بالكسل والبخل. ﴿إن الله كان بكم رحيماً﴾ إذ نهى عن القتل، وعن أخذ الأموال. قوله تعالى: ﴿ومن يفعل ذلك عدواناً﴾ يعني اعتداء. ويقال: مستحلاً ﴿وظلماً﴾ أي وجوراً ﴿فسوف نصليه ناراً﴾ هذا وعيد لهم من الله تعالى، يعني يدخله في الآخرة النار ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ أي عذابه هين عليه. قوله تعالى: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾. قال مقاتل ^(٥): يعني ما نهى عنه من أول هذه السورة إلى هذه الآية. وقال في رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ^(٦) - رضي الله عنه - (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه). الكبائر: كل شيء سمي الله تعالى فيه النار لمن عمل بها، أو شيء نزل فيه حد في الدنيا، فمن اجتنب من هذا وهو مؤمن، كفر الله عنه ما سواه من الصلاة إلى الصلاة، والجمعة إلى الجمعة، وشهر رمضان إلى شهر رمضان إن شاء الله تعالى. قال: حدثنا محمد بن الفضل، قال: حدثنا محمد بن جعفر، قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف، قال: حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن أبي الضحاك، عن مسروق عن ابن سمعود، قال: الكبائر من أول السورة إلى قوله: إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه ^(٧). وروي عن ابن مسعود أنه قال: الكبائر أربعة: الإياس من روح الله، والقنوط من رحمة الله، والأمن مكر الله، والشرك بالله ^(٨). وروى عامر الشعبي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر: الإشراف بالله، وعقوق الوالدين، [واليمين الغموس] ^(٩) ^(١٠) وقال ابن عمر: الكبائر تسعة:

(١) في ظ [الأمه]. (٢) ما بين المعكوفين سقط من أ. (٣) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ١٩٩.

(٤) سقط من أ. (٥) انظر التفسير ٢٣٣/١. (٦) انظر تفسير ابن عباس (٥٦).

(٧) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ٢٣٣/٨ (٩١٧١) (٩١٧٢) وساق الطبري رحمه الله أسانيد عديدة لهذا الأثر فارجع إليه إن شئت، وذكره الهيثمي في المجمع ٤/٧ وقال رواه البزار ورجاله رجال الصحيح.

(٨) أخرجه الطبري في التفسير ٢٤٣/٢ (٩١٩١) (٩١٩٢)، (٩١٩٣) وذكره السيوطي في الدر ١٤٧/٢، ونسبه أيضاً لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر والطبراني وابن أبي الدنيا في التوبة ٥٥٥/١١ في الإيمان والنذور (٦٦٧٥).

(٩) وهي الحلف على فعل أو ترك ماض كاذباً، سميت به لأنها تغمس صاحبها في الإثم واختلف أهل العلم في اليمين الغموس هل لها كفارة؟ فذهب أبو حنيفة ومالك وأحمد في إحدى الروايتين: لا كفارة لأنها أعظم من أن تكفر، وذهب الشافعي وأحمد في الرواية الأخرى: تكفر.

(١٠) أخرجه عن عبد الله بن عمرو البخاري ٥٥٥/١١ في الإيمان والنذور ٦٦٧٥ وفي ٢٦٤/١٢ (٦٩٢٠) والترمذي ٣٠٢١.

الشرك بالله، وقتل المؤمن متعمداً، والفرار من الزحف وقذف المحصنة، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والسحر، وعقوق الوالدين^(١)، واستحلال حرمة البيت الحرام^(٢). ويقال: الكبيرة ما أصر عليها صاحبها. ويقال لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار. ثم قال تعالى: ﴿نكفر عنكم سيئاتكم﴾ يقول: غمحو عنكم ذنوبكم ما دون الكبائر ﴿وندخلكم مدخلا كريماً﴾ في الآخرة، وهي الجنة. قرأ نافع^(٣) مدخلاً بنصب الميم، والباقون: بالضم، فمن قرأ بالنصب فهو إسم الموضع، وهو الجنة، ومن قرأ بالضم فهو المصدر والموضع جميعاً. قوله تعالى:

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَأَتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً ﴿٣٣﴾ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَأَلْصَقْتَ قَلْبَكَ بِحِفْظِ اللَّغِيبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّيْنُ تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً ﴿٣٥﴾

﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾. قال ابن عباس: يعني لا يتمنى الرجل مال أخيه، ولا امرأته ولا دابته ولكن، ليقل اللهم ارزقني مثله، وقال الكلبي: مثله. وفيها وجه آخر: وهو أن الرجال قالوا: إن الله فضلنا على النساء، فلنا سهمان ولهن سهم، ونرجوا أن يكون لنا أجران في الأعمال. وقالت أم سلمة: ليت الجهاد كتب على النساء، فنزلت هذه الآية^(٤) (ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض) ﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾ ويقال: إن النساء قلن كما نقص سهمنا في الميراث، كذلك ينقص من أوزارنا، ويكون الإثم علينا أقل من الرجال، فنزلت الآية: (للرجال نصيب مما اكتسبوا) ولا يتمنى أحدكم أكثر مما عمل، (وللنساء نصيب مما اكتسبن) من الشر ولا ينقص منهن شيء مما عملن من الإثم. ﴿وسئلوا الله من فضله﴾ جميعاً الرجال والنساء ﴿من فضله﴾ أي من رزقه ﴿إن الله كان بكل شيء عليماً﴾ فيما يصلح لكل واحد منهم من السهام وبمن يصلح للجهاد. قرأ ابن كثير والكسائي: ^(٥) (وسئلوا الله) بغير همز في جميع القرآن، وقرأ الباقر، (واسألوا

(١) ما بين المعكوفين سقط من أ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢/ ١٤٦ ونسبه إلى علي بن الجعد في الجعديات.

(٣) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ١٩٩، شرح شعبة ٣٣٨.

(٤) انظر أسباب النزول للواحدي ١١٠.

(٥) وحجتها إجماع الجميع على طرح الهمزة في قوله: (سل بني إسرائيل) و(سلهم أيهم بذلك زعيم) فردوا ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه فطرحا الهمزة من جميع ذلك.

الله) بالهمز، وأصله الهمز، إلا أنه حذف الهمز للتخفيف. قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي﴾ أي بينا موالي، يعني الورثة من الولد والإخوة وابن العم. ويقال: الموالي العصبه، العم وابن العم وذوي القربى، كقوله: (وإني خفت الموالي من ورائي) معناه ولكل واحد منكم جعلنا الورثة لكي يرث ﴿مما ترك﴾ وهم ﴿الوالدان والأقربون﴾. ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانَكُمْ فَأَتَوْهُمْ نَصِيْبَهُمْ﴾. قال الكلبي ومقاتل: ^(١) كان الرجل يرغب في الرجل فيحالفه ويعاقده على أن يكون في ميراثه كعض ولده ثم قال: (فأتوهم نصيبهم) أي أعطوهم حظهم الذي سميت لهم من الميراث، هكذا قال مجاهد^(٢). ثم نسخ بقوله تعالى: (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض) ويقال: إنهم كانوا يوصون لهم بشيء من المال فأمرهم بأن يؤتوا نصيبهم من الثلث. ويقال: أراد به مولى الموالاة، كانوا يرثون السدس. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أي شاهد إن أعطيتموهم أو لم تعطوهم. قرأ أهل الكوفة: حمزة والكسائي وعاصم^(٣)، والذين (عقدت أيمانكم) بغير ألف، والباقيون: بالألف، قال أبو عبيدة والإختيار، (عاقدت) بالألف لأنه من معاقدة الحلف فلا يكون إلا بين اثنين ومن قرأ (عقدت) معناه عقدت لهم أيمانكم، فأضمر فيها لهم. ثم قال: ﴿الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾. نزل في سعد بن الربيع^(٤) لطم امرأته بنت محمد بن مسلمة^(٥)، فجاءت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأمرها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالقصاص، فنزل جبريل من ساعته بهذه الآية (الرجال قوامون على النساء) يعني مسلطون في أمور النساء وتأديبهم ﴿بما فضل الله بعضهم على بعض﴾ وذلك أن الرجل له الفضل على امرأته في إنفاقه عليها [ودفع الحق إليها]^(٦) ويقال: إن الرجال لهم فضيلة في زيادة العقل والتدبير، فجعل لهم حق القيام عليهن بما لهم من زيادة عقل ليس ذلك للنساء. ويقال: للرجال، زيادة قوة في النفس والطبع ما ليس للنساء، لأن طبع الرجال غلب عليه الحرارة واليبوسة، فيكون فيه قوة وشدة، وطبع النساء غلب عليه الرطوبة والبرودة، فيكون فيه معنى اللين والضعف، فجعل

= فإن سأل سائل فقال: (هلا طرحا من غير المواجهة كما طرحا من المواجهة فقرأ (وليسلوا ما أنفقوا) بغير همز؟) الجواب: لم يطرحا الهمزة من غير المواجهة لأن العرب لم تطرح اللام من أوله كما طرحته من المواجهة فقالوا: (ليقم زيد) فتركوه على أصله. وقالوا (قم يا زيد) فحذفوا ذلك على أنهم لم يستقلوا في غير المواجهة ما استقلوه في المواجهة فلماذا حذفوا من المواجهة كما حذف العرب اللام من المواجهة ولم يحذفوا الهمزة من غير المواجهة كما لم تحذف العرب اللام من غير المواجهة.

وقرأ الباقيون: (واسألوا الله) بالهمز وحثتهم في ذلك أن العرب لا تهمز (سل) فإذا أدخلوا الواو والفاء و (ثم) همزوا. فإن سأل سائل فقال: (إذا أدخلوا الواو والفاء لم همزوا؟ هلا تركوها؟) فالجواب في ذلك: أن أصل (سل): أسأل) فاستقلوا الهمزتين فنقلوا فتحة الهمزة إلى السين فلما تحركت السين استغنوا عن ألف الوصل فإذا تقدمه واو أو فاء ردوا الكلمة إلى الأصل، وأصله (واسألوا) لأنهم إنما حذفوا لاجتماع الهمزتين فلما زالت العلة ردوها إلى الأصل. انظر حجة القراءات ٢٠٠ - ٢٠١.

(١) انظر التفسير ٢٣٤/١. (٢) انظر التفسير ١٥٤/١.

(٣) وحثتهم أن الأيمان عقدت بينهم لأن في قوله (أيمانكم) حجة على أن أيمان الطائفتين هي عقدت ما بينهما وفي إسناد الفعل إلى الأيمان كفاية من الحجة.

وحجة الباقيين أن العقد كان من الفريقين وكان هذا في الجاهلية: يجيء الرجل الذليل إلى العزيز فيعاقده ويحالفه ويقول له: (أنا ابنك ترثني وأرثك وحرمتي وحرمتك ودمي دمك، وثأري ثأرك فأمر الله جل وعز بالوفاء فهذا العقد لا يكون إلا بين اثنين وقيل إن ذلك أمر قبل تسمية الموارث وهي منسوخة بآية الموارث انظر حجة القراءات ٢٠١ - ٢٠٢. وانظر شرح شعلة ٣٣٩.

(٤) انظر أسباب النزول ١١١.

(٥) عميرة بنت محمد بن مسلمة الأنصارية نزل فيها (الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ) الآية. الإصابة ١٥٠/٨.

(٦) ما بين المعكوفين سقط من أ.

لهم حق القيام عليهن بذلك. ثم قال: ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أي فضلوا على النساء بما أنفقوا من أموالهم عليهن من المهر والنفقة. ثم قال: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ﴾ يعني المحصنات من النساء في الدين قانتات مطيعات لله تعالى ولأزواجهن. ويقال: الصالحات يعني المحسنات إلى أزواجهن من النساء في الدين (قانتات) أي [مطيعات لله ولأزواجهن]^(١) ويقال: الصالحات، يعني الموحّدات (قانتات) يعني قائمات بأمر أزواجهن ﴿حَافِظَاتُ لَلْغَيْبِ﴾ أي لغيب أزواجهن في فروجهن، وفي أموال الأزواج ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ يقول أي: يحفظ الله إياهن. قال مقاتل: ^(٢) (وما) صلة يعني يحفظ الله لهن، ثم قال عز وجل: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ أي تعلمون عصيانهن ﴿فَعُظُوهُنَّ﴾ بالله، أي يقول لها: اتق الله فإن حق الزوج عليك واجب، فإن لم تقبل ذلك قوله تعالى: ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ قال الكلبي: أي ينسها وهو الهجر^(٣). ويقال: لا يقرب فراشها، لأن الزوج إذا أعرض عن فراشها، فإن كانت محبة للزوج يشق عليها، فترجع إلى الصلاح، وإن كانت مبغضة فتظهر السرور فيها، فيتبين أن النشوز من قبلها. وقال الضحاك: واهجروهن في المضاجع، أي يعرض عنها، فإن ذلك يغيظها فإن لم ينفعها ذلك. ﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ يعني ضرباً غير مبرح، ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾ يقول: لا تطلبوا عليهن عللاً، ولا تكلفوهن الحب لكم، فإن الحب أمر القلب، وليس لها ذلك بيدها ﴿إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً﴾ أي رفيعاً علاً فوق كل كبير، فلا يطلب من عباده الحب، ولا يكلفهم ما لا يطيقونه، ويطلب منهم الطاعة، فأنتم أيضاً لا تكلفوهن. ويقال: إن الله مع علوه يتجاوز عن عباده، فأنتم أيضاً تجاوزوا ولا تطلبوا العلل. ثم قال تعالى للأولياء: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ يقول: إن علمتم خلافاً بين الزوجين، ويقال: إن خفتم الفراق بينهما، ولا تدرون من أيهما يقع النشوز فقلوه: ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ يعني رجلاً عدلاً من أهل الزوج له عقل وتميز، يذهب إلى الرجل ويخلو به، ويقول له: أخبرني [ما]^(٤) في نفسك، أتهواها أم لا؟ حتى أعلم بمرادك، فإن قال: لا حاجة لي بها، خذ مني لها ما استطعت، وفرق بيني وبينها، فيعرف أن من قبله جاء النشوز، وإن قال: فإني أهواها [فارضئها]^(٥) من مالي بما شئت ولا تفرق بيني وبينها، فيعرف أنه ليس بناشز. ويخلو ولي المرأة بها، ويقول: أتهوين زوجك أم لا؟ فإن قالت: فرق بيني وبينه، واعطه من مالي ما أريد، علم أن النشوز من قبلها. وإن قالت: لا تفرق بيننا ولكن حثه حتى يزيد في نفقتي ويحسن إلي، علم أن النشوز ليس من قبلها. فإذا ظهر لهما الذي كان النشوز من قبله يقبلان عليه بالعظة، والزجر والنهي، وذلك قوله تعالى: (فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها) ﴿إِنْ يَرِيدَا إِصْلَاحًا﴾ يعني عدلاً، فينظران في أمرهما بالنصيحة والموعظة ﴿يُوفِقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ بالصلاح، ويقال: كل اثنين يقومان في الإصلاح بين اثنين بالنصيحة يقع الصلح بينهما لقوله تعالى: (إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما). ثم قال: ﴿إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً﴾ أي عليمًا بهما خبيراً بنصيحتهما. وفي هذه الآية دليل على إثبات التحكيم، وليس كما يقول الخوارج، إنه ليس الحكم لأحد سوى الله تعالى، فهذه كلمة حق، ولكن يريدون بها الباطل. قوله تعالى:

وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ
وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ

(٣) انظر تفسير ابن عباس ٥٦.

(٢) انظر التفسير ١/ ٢٣٥.

(١) في ظ مطيعات لله عز وجل.

(٥) سقط من أ.

(٤) سقط من أ.

أَيْمَنُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُحْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ
بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا
﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ
يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾

﴿واعبدوا الله﴾ قال بعضهم: هذا الخطاب للكفار. واعبدوا الله، يعني وحدوا الله ﴿ولا تشركوا به شيئاً﴾ أي لا تثبتوا على الشرك. ويقال: الخطاب للمؤمنين: اعبدوا الله، يعني اثبتوا على التوحيد، ولا تشركوا به. ويقال: (اعبدوا الله) يعني أطيعوا الله فيما أمركم به، وأخلصوا له بالأعمال، ولا تشركوا به شيئاً، ويقال: هذا الخطاب للمؤمنين وللمنافقين وللكفار، فأمر المؤمنين بالطاعة والمنافقين بالإخلاص، والكفار بالتوحيد. وروى عكرمة عن ابن عباس - رضي الله عنه - أنه قال: كل عبادة في القرآن إنما يعني بها التوحيد^(١) ويقال هذه الآيات محكمات في جميع الكتب، وذكر فيها أحكاماً [كانت تعرف تلك]^(٢) من طريق العقل، وإن لم ينزل به [القرآن]^(٣)، وهو قوله تعالى: (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً). ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ يعني أحسنوا إلى الوالدين. ﴿وبذي القربى﴾ يعني صلوا القربات قوله ﴿واليتامى﴾ يعني، أحسنوا إلى اليتامى. ويقال: هذا أمر للأوصياء بالقيام على أموالهم. ثم قال تعالى: ﴿والمساكين﴾ أي عليكم بإطعام المساكين، ثم قال: ﴿والجار ذي القربى﴾ أي عليكم بالإحسان إلى الجار الذي بينك وبينه قرابة، فله ثلاث حقوق، هكذا روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: (الجيران ثلاثة: جار له ثلاثة حقوق، وجار له حقان، وجار له حق واحد، فأما الجار الذي له ثلاثة حقوق فالجار القريب المسلم فله حق الجوار، وحق القرابة، وحق الإسلام، والجار الذي له حقان، وهو الجار المسلم، فله حق الإسلام وحق الجوار. والجار الذي له حق واحد هو الجار الكافر له حق الجوار)^(٤). ثم قال تعالى: ﴿والجار الجنب﴾ يعني الجار الذي لا قرابة بينهما، وهو من قوم آخرين. ﴿والصاحب بالجنب﴾ [أي الرفيق في السفر. وروي عن معاذ بن جبل أنه قال «الصاحب بالجنب»]^(٥) يعني المرأة^(٦)، ثم قال ﴿وابن السبيل﴾ يعني الضيف ينزل عليكم فأحسنوا إليه، وحقه ثلاثة أيام، وما زاد على ذلك فهو صدقة. ثم قال: ﴿وما ملكت أيمانكم﴾ من الخدم أحسنوا إليهم. وقد روي في الخبر: (٧) اطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم ما لا يطيقون، فإنهم لحم ودم، وخلق أمثالكم، رواه علي عن أبي طالب عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: الله الله

(١) انظر تفسير ابن عباس ٥٦. (٢) في ظ [كان يعرف ذلك]. (٣) في ظ [الكتاب].

(٤) أخرجه البزار كما في كشف الأستار ٢/ ٣٨٠ (١٨٩٦) باب حق الجار وذكره الهيثمي في المجمع ٨/ ١٦٤ وقال رواه البزار عن شيخه عبد الله بن محمد الحارثي وهو وضاع.

(٥) ما بين المعكوفين سقط من ظ، والمثبت من أ.

(٦) أخرجه الطبري في التفسير عن علي ٨/ ٣٤٢ (٩٤٧١) وأخرجه أيضاً عن ابن أبي ليلي (٩٤٧٤) وعن إبراهيم النخعي (٩٤٧٥)، ٩٤٧٦، ٩٤٧٧، ٩٤٧٨، ٩٤٧٩.

(٧) بنحوه متفق عليه من رواية أبي ذر البخاري ١٠/ ٤٦٥ في الأدب (٦٠٥٠) ومسلم ٣/ ١٢٨٢ في كتاب الأيمان (١٦٦١/ ٣٨) واللفظ الذي ذكر المصنف أخرجه الطبراني في الكبير من حديث كعب بن مالك كما في الجامع الصغير للسيوطي ٢/ ٩٨ (١٤٤٣) (الفيض) ورمز له بالضعف وعزاه المناوي في الفيض لابن السني وقال: قال الهيثمي فيه عبد الله بن زحر وعلي بن زيد وهما ضعيفان وقد وثقا. وقال الذهبي عبد الله ضعيف وله صحيفة واهية.

فيما ملكت أيمانكم وذكر الحديث. وروى عن أنس بن مالك عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه، وما زال يوصيني بالنساء حتى ظننت أنه سيحرم طلاقهن، وما زال يوصيني بالمماليك حتى ظننت أنه سيجعل لهم مدة إذا انتهوا إليها أعتقوا، وما زال يوصيني بالسواك حتى ظننت أن يحفي فمي، وما زال يوصيني بقيام الليل، حتى ظننت أن خيار أمتي لم يناموا ليلاً^(١). ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ مَنْ كَانَ مَخْتَالًا فَخُورًا﴾ يعني من كان مختالاً في مشيه، فخوراً على الناس، وهذا قول الكلبي^(٢). وقال القتيبي: المختال: ذو الخيلاء والكبر، وهذا قريب من الأول، ويقال: فخوراً في نعم الله لا يشكرها، ويتكبر على الناس. ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ قال مجاهد، ومقاتل: ^(٣) نزلت في اليهود يبخلون بكتمان صفة محمد - صلى الله عليه وسلم - في كتابهم ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ﴾ يعني أمروا قومهم أن يكتنموا صفته - صلى الله عليه وسلم - ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ في التوراة. ويقال: أبخل الناس الذي يبخل بعلمه، ويقال: (الذين يبخلون) يعني في المال، لأن رؤساءهم كانوا لا يعطون أحداً من أموالهم شيئاً، لأن عاداتهم كان الأخذ والمنع، وكانوا أيضاً يأمرؤن بالبخل، لأن من كان في معصية، فإنه يأمر غيره بذلك لكي لا يظهر عيبه، ويكتمون ما آتاهم الله من فضله، يعني لا يشكرون على ما أعطاهم الله من نعمته، ولا يخرجون الزكاة. ثم قال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ أي عذاباً شديداً. قرأ حمزة والكسائي: ^(٤) (بالبخل) بنصب الباء والخاء، وقرأ الباقون (بالبخل) بضم الباء وجزم الخاء. وقال بعض أهل اللغة: ها هنا أربع لغات، وهي لغة الأنصار: بخل، وبخل، وبخل، وبخل، إلا أنه قرأ بحرفين ولا يقرأ بالحرفين الآخرين ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ﴾، قال مقاتل^(٥) يعني اليهود، وقال الضحاك: يعني المنافقين ينفقون أموالهم مراعاة للناس. ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يعني ولا يصدقون في السر، ويقال: نزلت في مطعمي يوم بدر، وهم رؤساء مكة أنفقوا على الناس ليخرجوا إلى بدر^(٦). ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا﴾ ففي الآية مضمرة فكأنه قال: (ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، فقرينهم الشيطان، ومن يكن الشيطان له قريناً) ﴿فَسَاءَ قَرِينًا﴾ أي قرينهم الشيطان في الدنيا يأمرهم بالبخل، ويقال: قرينه في النار في السلسلة ثم قال تعالى:

(١) الحديث بهذا اللفظ ذكره القرطبي في التفسير ١٢٥/٥ وقال ذكره أبو الليث السمرقندي في تفسيره. والجزء الأول ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه.

أخرجه البخاري ٤٤١/١٠ في الأدب (٦٠١٤، ٦٠١٥) ومسلم ٢٠٢٥/٤، في كتاب البر باب الوصية بالجار (١٤٠/٢٦٢٤، ١٤١/٢٦٢٥) وأبو داود (٥١٥١، ٥١٥٢)، والترمذي (١٩٤٢، ١٩٤٣) وابن ماجه (٣٦٧٣، ٣٦٧٤)، وأحمد في المسند ٨٥/٢. وقوله (عن النساء) أخرجه أحمد بن منيع كذا في المطالب العالية للحافظ بن حجر ٥٢/٢ (١٦٢٥).

وقوله (عن المماليك) أخرجه ابن حبان في المجروحين ٢٣٥/١ وقال باطل، وأخرجه ابن الجوزي في العلل المتناهية ٧٥١/٢ (١٢٥٥) وذكره السيوطي في الجامع الصغير ٤٤٨/٥ (٧٩١٤) (فيض) - وعزاه للبيهقي في الشعب قلت وهو في الشعب ٣٦٩/٦ الباب الثامن والخمسون من شعب الإيمان (٨٥٥٤) وقال وحديث المملوك صحيح على شرط مسلم والبخاري وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١١/٨ والبخاري وقوله (في قيام الليل) أخرجه أبو حنيفة كذا في مسنده ١٦٧ وهو في كنز العمال (٢١٤٢٥)، وذكره السيوطي في جامعه الكبير (٢٢٥٣) حديث (١٨٧٨٧/٤١٥) وعزاه للدليمي من حديث أنس.

(٢) انظر تفسير ابن عباس ٥٧. (٣) انظر تفسير مجاهد ١٥٨/١ ومقاتل ٢٣٦/١.

(٤) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٠٣ شرح شعله ٣٣٩.

(٥) انظر التفسير ٢٣٧/١.

(٦) انظر تفسير القرطبي ٣٢٣/٥ ونقل عن العربي فقال قال ابن العربي: ونفقة الرثاء تدخل في الأحكام من حيث إنها لا تجزي.

وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَذِيذُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾

﴿وماذا عليهم﴾ أي وما كان عليهم ﴿لو آمنوا بالله﴾ مكان الكفر ﴿واليوم الآخر﴾ وأنفقوا مما رزقهم الله ﴿مكان البخل في غير رياء﴾ ويقال: وماذا عليهم، أي لم يكن عليهم شيء من العذاب لو آمنوا بالله [واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله من الأموال وهي الصدقة] ^(١) ﴿وكان الله بهم عليماً﴾ أنهم لم يؤمنوا. ويقال: إن الله عليم بثواب أعمالهم، ولا يظلمهم شيئاً من ثواب أعمالهم قوله تعالى: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ يعني، لا ينقص من ثواب أعمالهم وزن الذرة قال الكلبي: وهي النملة الحميراء الصغيرة. ويقال: هو الذي يظهر في شعاع الشمس، ويقال: لا يظلم مثقال ذرة، يعني لا يزيد عقوبة الكافر مثقال ذرة ولا ينقص من ثواب المؤمنين مثقال ذرة. ثم قال تعالى: ﴿وإن تك حسنة يضاعفها﴾، قرأ نافع وابن كثير: ^(٢) (وإن تك حسنة) بضم الهاء، لأنه اسم تك، بمنزلة اسم كان، وقرأ الباقون (حسنة) بالنصب، وجعلوه خبر تك، والاسم فيه مضمَر، ومعناه، وإن تكن الفعل حسنة، يضاعفها، يعني إذا زاد على حسناته مثقال ذرة من حسنة يضاعفها الله تعالى حتى يجعلها مثل أحد، ويوجب له الجنة، فذلك قوله تعالى: ﴿ويؤت من لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعني الجنة. وروى عبد الله بن مسعود ^(٣) - رضي الله عنه - أنه قال: خمس آيات في سورة النساء أحب إلي من الدنيا وما فيها، قوله تعالى: (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه... الآية) وقوله (ولو أنهم إذا ظلموا أنفسهم... الآية) وقوله: (إن الله لا يظلم مثقال ذرة... الآية)، وقوله: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء... الآية)، وقوله (ومن يعمل سوءاً يجز به... الآية). وقوله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد﴾ أي فكيف يصنعون؟ وكيف يكون حالهم؟ إذا جئنا من كل أمة بشهيد، يعني بنبيها هو شاهد بتبليغ الرسالة من ربهم ﴿وجئنا بك﴾ يا محمد ﴿على هؤلاء شهاداً﴾ يعني على أمتك شهاداً بالتصديق لهم، لأن أمتهم يشهدون على الأمم المكذبة للرسالة، وذلك أنه إذا كان يوم القيامة يقول الله تعالى للأمم الخالية: هل بلغتكم الرسل رسالاتي؟ فيقولون: لا، فقالت الرسل: قد بلغنا، ولنا شهود. فيقول - عز وجل - ومن شهودكم؟ فيقولون: أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - فيؤتى بأمة محمد - عليه السلام - فيشهدون بتبليغ الرسالة بما أوحى إليهم من ربهم في كتابهم في قصة الأمم الخالية، فتقول الأمم [الماضية] ^(٤) إن فيهم زواني، وشارب الخمر، فلا يقبل شهادتهم، فيزيههم النبي - صلى الله عليه وسلم - فيقول المشركون: (والله ربنا ما كنا مشركين) فيختم على أفواههم، وتشهد أيديهم وأرجلهم بما كانوا يكسبون، فذلك قوله تعالى: (يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض) أي تخسف بهم الأرض. ويقال: فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد،

(١) سقط من أ.

(٢) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٠٣ وشرح شعبة ٣٤٠.

(٣) أخرجه ابن جرير في التفسير ٢٥٦ (٩٢٣٣) وزاد نسبه السيوطي في الدر المنثور ١٤٥/٢ لأبي عبد القاسم بن سلام وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر والطبراني.

(٤) في ظ [الخالية].

الرسول يشهدون على قومهم بتبليغ الرسالة، ويشهد النبي - صلى الله عليه وسلم - على أمته بتبليغ الرسالة من قبل، ومن لم يقبل. حدثنا الخليل بن أحمد، قال: حدثنا أبو منيع، قال: حدثنا أبو كامل^(١) قال: حدثنا فضيل^(٢) عن يونس بن محمد بن فضالة^(٣) عن أبيه، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أتاهم من بني ظفر، فجلس على الصخرة التي في بني ظفر ومعه ابن مسعود ومعاذ وناس من الصحابة، فأمر قارئاً فقرأ حتى إذا أتى على هذه الآية: (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد، وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) بكى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى اخضلت وجنتاه، فقال: يا رب هذا علمي بمن أنا بين ظهرانيهم فكيف بمن لم أرهم؟^(٤) ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يود الذين كفروا﴾ يعني يتمنى الذين كفروا، يعني الكفار، ﴿وعصوا الرسول﴾ لو تسوى بهم الأرض ﴿أي يكونوا تراباً يمشي عليهم أهل الجمع﴾ ولا يكتمون الله حديثاً. وهو قولهم: (والله ربنا ما كنا مشركين) قال الزجاج: قال بعضهم (ولا يكتمون الله حديثاً) مستأنف، لأن ما عملوا ظاهر عند الله تعالى، لا يقدرون على كتمانته. وقال بعضهم: هو كلام بناء، يعني يودون أن الأرض سويت بهم وأنهم لم يكتموا الله حديثاً، لأنه مظهر كذبهم. قرأ حمزة والكسائي: (تسوى) بنصب التاء وتخفيف السين، وتشديد الواو، يعني يخسف بهم، وقرأ عاصم وابن كثير وأبو عمرو: (تسوى) بضم التاء [فأدغم إحدى التائين في الأخرى]^(٥) على فعل لم يسم فاعله، أي يصيروا تراباً، وتسوى بهم الأرض وقرأ نافع وابن عامر: (تسوى) بنصب التاء وتشديد السين والواو لأن أصله تتسوى، فادغم إحدى التائين في السين. ثم قال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا
عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ
النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا
غَفُورًا ﴿٤٣﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ قال مقاتل: وذلك أن عبد الرحمن بن عوف صنع طعاماً، فدعا أبا بكر، وعمر وعثمان، وعلياً، وسعداً - رضي الله عنهم - فأكلوا، وسقاهم خمرأ، فحضرت صلاة المغرب فأمهم علي، فقرأ (قل يا أيها الكافرون) على غير الوجه، فنزل (يا أيها الذين آمنوا، لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) ﴿حتى تعلموا ما تقولون﴾ وكان ذلك قبل تحريم الخمر. وقال: (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى)، يعني موضع الصلاة وهو المسجد، حتى تعلموا ما تقولون، ويقال: حتى تصيروا بحال تعلموا ما تقولون، فحينئذ تقربوا المسجد، لأنهم إذا لم يعلموا ما يقولون فلا يعرفون الحرمة. ثم قال تعالى: ﴿ولا جنباً إلا عابري سبيل﴾ يقول:

(١) فضيل بن حسن بن طلحة البصري أبو كامل الجحدري. التهذيب ٢٩٠/٨ - ٢٩١.

(٢) فضيل بن سليمان النميري أبو سليمان البصري. التهذيب ٢٩١/٨.

(٣) يونس بن محمد بن فضالة بن أشثي الظفري أبو محمد روى عن أبيه. الجرح والتعديل ٢٤٦/٩.

(٤) ذكره القرطبي نقلاً عن أبي الليث ١٢٨/٥ - ١٢٩ وذكره الحافظ ابن كثير في التفسير ٢٦٩/٢ والحديث أخرجه الطبراني في الكبير ٢٢١/١٩ وذكره الهيثمي في المجمع ٧/٧ باب سورة النساء وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات وذكره السيوطي في الدر المنثور

١٦٣/٢.

(٥) انظر: حجة القراءات لابن زنجلة ٢٠٣ شرح شعبة ٣٤٠.

(٦) ما بين المعكوفين سقط من ظ.

ولا تقربوا الصلاة جنباً إلا عابري سبيل، يعني إلا أن يكون مسافراً، فلا يجد الماء، فيتيمم ويصلي إذا كان جنباً، وقال الزجاج: وحقيقته ألا تصلوا إذا كنتم جنباً ﴿حتى تغتسلوا﴾ إلا أن لا تقدروا على الماء. وقال القتيبي: لا تقربوا الصلاة، يعني لا تقربوا المساجد، وأنتم جنب إلا مجتازين وقال بعضهم: لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى من النوم. وروى [السدي] (١) عن حدثه عن ابن عباس في قوله: (ولا جنباً إلا عابري سبيل) قال: في السفر يتيمم ويصلي (٢). ويقال: إلا أن تكون في المسجد عين فيدخل ليغترب الماء. ثم قال تعالى: ﴿وإن كنتم مرضى﴾، نزلت في عبد الرحمن بن عوف أصابته جنابة، وهو جريح، فرخص له بأن يتيمم، ثم صارت الآية عامة في جميع الناس. وروى عن عبد الله بن عباس، وجابر بن سمرة (٣) وغيرهما من الصحابة، أن رجلاً كان به جذري (٤) على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأصابته جنابة فغسلوه فمات من ذلك، فأخبر بذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: قتلوه قتلهم الله فهلا يمموه. (٥) وروى عن ابن عباس أنه قال: وإن كنتم مرضى، قال: فإنما هو السجذوم والمجدور والمقروح (٦). ثم قال تعالى: ﴿أو على سفر﴾ أي إذا كنتم مسافرين ﴿أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ والغائط في اللغة: إسم المكان المظتمن من الأرض، وإنما هو كناية عن قضاء الحاجة. ثم قال تعالى: ﴿أو لامستم النساء﴾، قرأ حمزة والكسائي (٧) (أو لمستم)، وقرأ الباقون: (لامستم) (٨) من الملامسة، قال ابن عباس: (٩) يعني الجماع، وقال بعضهم: هو المس باليد. ﴿فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً﴾ يعني إذا أصابكم الحدث أو الجنابة، ولم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً (١٠) طيباً أي تراباً نظيفاً. ويقال الصعيد: هو ما علا وجه الأرض. ﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم﴾. قال بعضهم: الوجه والكفين، وهو قول الأعمش والأوزاعي (١١). وقال بعضهم: إلى المنكبين، وهو قول الزهري (١٢). وقال عامة أهل العلم: الوجه واليدين إلى المرفقين وبذلك جاءت الآثار عن

(١) بياض في أ.

(٢) أخرجه الطبري في التفسير ٣٧٩/٨ (٩٥٣٥).

(٣) جابر بن سمرة بن جندب بن جندب العامري السوائي يكنى أبا عبد الله توفي سنة ٧٤ هـ. الإصابة ٢٢١/١.

(٤) وفي الحديث (شجة في رأسه).

(٥) أخرجه أبو داود ٢٣٩/١ - ٢٤٠ في الطهارة باب في المجروح يتيمم ٣٣٦ والدارقطني في السنن ١٨٩/١ - ١٩٠ في الطهارة (٣)

وبلفظ الجحدري أخرجه ابن أبي شيبة ٩٦/١ باب في الجنب به الجُدري والحصة ١٠٧٧.

(٦) ذكره السيوطي ١٦٦/٢ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي.

(٧) بغير ألف جعلوا الفعل للرجال دون النساء. انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٠٥.

(٨) بالألف انظر المصدر السابق.

(٩) انظر التفسير ٥٧.

(١٠) وهو في اللغة: القصد على الإطلاق.

وفي الشرع: القصد إلى الصعيد لإزالة الحدث، وفي الدرر ٢٨/١ وشرعاً: استعمال الصعيد بقصد التطهير.

وفي الصحاح ٢٠٦٤/٥ يممته قصده، وتيممه تقصده، وتيممت الصعيد للصلاة، وأصله التعمد والتوخي، من قولك: تيممته وتأممته.

قال ابن السكيت: قوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طيباً﴾ أي اقصدوا الصعيد ثم كثر استعمالهم لهذه الكلمة حتى صار التيمم مسح الوجه واليدين بالتراب.

عن الفراء: الصعيد: التراب، وقال ثعلب: وجه الأرض لقوله تعالى: ﴿فَتَصْبِحُ صَعِيداً زَلَقاً﴾ والجمع صُعد وصُعدت مثل طُرُق وطُرُقات والصُّعود خلاف الهبوط، والصُّعود بالضم: المصدر يقال صعد في السلم صعوداً كذا في الصحاح ٤٩٧/٢. انظر أنيس الفقهاء ٥٨/٥٧.

(١٢) انظر تفسير البغوي ٤٣٦/١.

(١١) انظر تفسير البغوي ٤٣٦/١.

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعن عامة الصحابة اعتباراً بالوضوء^(١) ثم قال تعالى : ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ أي ذو الفضل والعفو حين أجاز لكم التراب مكان الماء، غفوراً لتقصيركم. قوله تعالى :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِيَّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمْنًا زَلَّنا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾

﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ يعني أعطوا حظاً من علم التوراة ﴿يشترون الضلالة﴾ يعني يختارون الكفر على الإسلام. قال القتيبي : وهذا من الاختصار، ومعناه : يشترون الضلالة بالهدى، أي يستبدلون هذا بهذا كقوله : (إن العهد كان مسئولاً أي مسئولاً عنه، ثم قال تعالى : ﴿ويريدون أن تضلوا السبيل﴾ أي تركوا طريق الهدى، وهو طريق الإسلام ﴿والله أعلم بأعدائكم﴾ أي يعلم بعداوتهم إياكم، يعني، هو يعلم بالحقيقة وأنتم تعلمون الظاهر. ويقال هذا وعيد لهم فكأنه يقول : هو أعلم بعذابهم كما قال في آية أخرى : (والله أعلم بالظالمين) يعني عليم بعقوبتهم ومجازاتهم ثم قال تعالى : ﴿وكفى بالله ولياً﴾ أي ناصرأ لكم ومعيناً لكم ﴿وكفى بالله نصيراً﴾ يعني مانعاً لكم. قوله تعالى : ﴿من الذين هادوا﴾ أي مالوا عن الهدى. قال الزجاج : (من الذين هادوا) : فيه قولان : فجاز أن يكون من صلة، والمعنى : ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب من الذين هادوا ويجوز أن يكون معناه من الذين هادوا قوم ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ أي، يحرفون نعتهم عن مواضعه، وهو نعت محمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿ويقولون سمعنا﴾ قولك ﴿وعصينا﴾ أمرك ﴿واسمع غير مسمع﴾ منك ﴿وراعنا ليا بالستهم﴾ أي يلوون لسانهم بالسب، ﴿وطعنأ في الدين﴾ أي في دين الإسلام. قال القتيبي : كانوا يقولون للنبي - صلى الله عليه وسلم - إذا حدثهم وأمرهم سمعنا، ويقولون في أنفسهم : وعصينا، وإذا أرادوا أن يكلموه بشيء قالوا : إسمع يا أبا القاسم، ويقولون في أنفسهم : لا سمعت ويقولون : راعنا، يوهمونهم في ظاهر اللفظ أنهم يريدون انظرنا حتى نكلمك بما تريد، ويريدون به السب بالرعونة، ليا بالستهم أي قلباً للكلام بها. ﴿ولو أنهم قالوا : سمعنا وأطعنا﴾ مكان سمعنا وعصينا ﴿واسمع﴾ مكان اسمع لا سمعت. ﴿وانظرنا﴾ مكان قولهم : راعنا ﴿لكان خيراً لهم وأقوم﴾ أي وأصوب من التحريف والطعن. ثم قال تعالى : ﴿ولكن لعنهم الله بكفرهم﴾ أي خذلهم الله وطردهم مجازاة لهم بكفرهم، ﴿فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ يعني لا يؤمنون إلا بالقليل لأنهم لا يؤمنون بالقرآن ولا يؤمنون بجميع ما عندهم، ولا بسائر الكتب وإنما يصدقون ببعض ما عندهم. ويقال : لا يؤمنون، إلا القليل منهم،

(١) انظر تفسير البغوي ٤٣٦/١ والقرطبي ١٥٥/٥، ١٥٦ وانظر تفسير الطبري ٤١٤/٨.

وهم مؤمنو أهل الكتاب ويقال: إنهم لا يؤمنون، وهم بمنزلة رجل يقول: فلان قليل الخير، يعني لا خير فيه. ثم خوفهم فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الْكِتَابَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا﴾ أي صدقوا بالقرآن ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أي موافقاً للتوراة في التوحيد وبعض الشرائع، ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ وطمسها أن يردها على بصائر الهدى، ويقال: طمسها أن يحول الوجوه إلى الأفقية، ويقال: يخسف الأنف والعين فيجعلها طمساً، ويقال: من قبل أن يطمس أي تسود الوجوه، قال بعضهم: يعني به في الآخرة، ويقال: هذا تهديد لهم في الدنيا. وذكر أن عبد الله بن سلام قدم من الشام، فلم يأت أهله حتى أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال: ما كنت أرى أن أصل إليك حتى يتحول وجهي في قفائي^(١)، ويقال: من قبل أن نطمس وجوهاً، يعني وجه القلب وهو كناية عن القسوة، وقال مقاتل: يعني من قبل أن تحول القبلة، كقوله: (ولكل وجهة هو موليها). ثم قال تعالى: ﴿أَوْ نُلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ أي نمسخهم كما مسخنا أصحاب السبت القردة، ثم قال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي كائنًا، وهذا وعيد من الله تعالى لهم ليعتبروا ويرجعوا. قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي دون الشرك ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ يعني لمن مات موحدًا. نزلت الآية في شأن وحشي قاتل حمزة، وذلك أن الناس لما التقوا يوم أحد، وقد جعل لوحشي جزاء إن قتل حمزة فقتله لم يوف له، فلما قدم مكة ندم على صنعه الذي صنع هو وأصحابه معه، فكتبوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كتاباً: إنا قد ندمنا على ما صنعنا، وإنه ليس يمنعنا من الدخول معك، إلا أنا سمعناك تقول: إذ كنت عندنا بمكة: (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر...) إلى قوله: (يضاعف له العذاب يوم القيامة) وقد دعونا مع الله إلهاً آخر، وقتلنا النفس، وزيننا، فلولا هذه الآيات لاتبعناك، فنزل: (إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً) فبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بهذه الآيات إلى وحشي وأصحابه فلما قرأوا كتبوا إليه إن هذا شرط شديد، فنخاف ألا نعمل عملاً صالحاً، فلا نكون من أهل هذه الآية، فنزل (إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فبعث إليهم فقرأوها. فبعثوا إليه: فقالوا: إن في هذه الآية شرطاً أيضاً نخاف ألا نكون من أهل مشيئته فنزل قوله: (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعاً) فبعثها إليهم، فلما قرأوها وجدوها أوسع مما كان قبلها، فدخل هو وأصحابه في الإسلام. وروي عن ابن عمر^(٢) أنه قال: كنا إذا مات الرجل منا على كبيرة، شهدنا أنه من أهل النار، حتى نزلت هذه الآية: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فأمسكنا عن الشهادة. وهذه الآية رد على من يقول: إن من مات على كبيرة يخلد في النار لأن الله تعالى قد ذكر في آية أخرى: (إن الحسنات يذهبن السيئات) يعني ما دون الكبائر [فلم يبق لهذه المشيئة موضع سوى الكبائر]^(٣) ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ يعني اختلق على الله كذباً عظيماً، ويقال: فقد أذنب ذنباً عظيماً. قوله تعالى:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يُزَكِّي مِنْ يَشَاءُ وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ

(١) انظر تفسير القرطبي ١٥٨/٥.

(٢) ذكره السيوطي في الدرر ١٦٩/٢ وقال أخرجه ابن أبي حاتم.

(٣) ما بين المعكوفين سقط من ظ.

الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُوْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّعْنَاهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾

﴿الم تر إلى الذين يزكون أنفسهم﴾ يقول: يبرءون أنفسهم من الذنوب، ﴿بل الله يزكي من يشاء﴾ وذلك، لأن رؤساء اليهود كانوا يقولون: هل على أولادنا من ذنب، فما نحن إلا كهيتهم فهذا الذي زكوا به أنفسهم، قال الله تعالى: (بل الله يزكي من يشاء) أي يصلح ويبريء من يشاء من الذنوب. ويقال: يكرم من يشاء بالإسلام ﴿ولا يظلمون فتيلًا﴾. قال الكلبي ومقاتل: الفتيل الذي يكون في شق النواة^(١)، وهو الأبيض ويقال: هو ما فتلته بين أصبعيك من الوسخ، فإذا مسحت إحداهما بالأخرى، يعني لا ينقصون من ثواب أعمالهم بذلك المقدار، ثم قال تعالى: ﴿أنظر كيف يفترون على الله الكذب﴾ أي يختلقون على الله الكذب ﴿وكفى به إثماً مبيناً﴾ أي ذنباً مبيناً. روى مقاتل عن الضحاك قال: الفتيل، والنقير، والقطيمير، كلها في النواة. ثم قال تعالى: ﴿الم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ يعني أعطوا حظاً من علم التوراة، ﴿يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾ الجبت: حبي بن أخطب، والطاغوت: كعب بن الأشرف. وقال القتبي: كل معبود من حجر، أو صورة، أو شيطان، فهو جبت وطاغوت، قال: ويقال: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان، ويقال: في هذه السورة رجلا من اليهود، وإيمانهم بهما تصديقاً لهما، وطاعتهم إياهما. ثم قال تعالى: ﴿ويقولون للذين كفروا﴾ يعني لمشركي مكة ﴿هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾ وذلك أن رؤساء اليهود قدموا مكة بعد قتال أحد، ونقضوا العهد، وبايعوا المشركين، وقالوا: أنتم أهدى سبيلاً من المسلمين. حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا الديلمي، قال: حدثنا أبو عبيد الله قال: حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، قال: جاء كعب بن الأشرف، وفي رواية أخرى عن عكرمة عن ابن عباس، قال: جاء كعب بن الأشرف، وحبي بن أخطب إلى مكة، فأتيا قريشاً، فقالت لهما قريش: أنتم أهل الكتاب، وأهل العلم، فأخبرونا عنا وعن محمد، ديننا القديم، ودين محمد الحديث، ونحن نصل الرحم ونسقي الحجيح، ونفك العناة، ومحمد - صلى الله عليه وسلم - صنبر، قطع أرحامنا، واتبعه سراق الحجيح، بنو غفار، فنحن أهدى أم هو؟ قالوا: بل أنتم أهدى سبيلاً منهم، فأنزل الله تعالى: ﴿الم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب... الآية﴾^(٢) إلى قوله: (ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً). يعني أهدى ديناً من المهاجرين والأنصار. قوله تعالى: ﴿أولئك الذين لعنهم الله﴾ أي خذلهم وطردهم الله من رحمته، ويقال: عذبهم الله بالجزية. ﴿ومن يلعن الله، فلن تجد له نصيراً﴾ أي مانعاً. قوله تعالى: ﴿أم لهم نصيب من الملك﴾ يقول: لو كان لهم، يعني لليهود حظ من الملك ﴿فإذا لا يؤتون الناس نقيراً﴾ أي لا يعطون أحداً من بخلهم وحسدكم نقيراً، والنقير: النقطة التي على ظهر النواة ﴿أم يحسدون الناس﴾ أي يحسدون الناس. ويقال: بل يحسدون الناس، يعني به محمداً - صلى الله عليه وسلم - ﴿على ما آتاهم الله من فضله﴾ من النبوة، وكثرة تزوجه النساء، ويقولون لو كان نبياً لشغلته النبوة عن كثرة النساء فيحسدونه بذلك. قال الله تعالى: ﴿فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة﴾

(٢) انظر أسباب النزول للواحدى ١١٤.

(١) انظر تفسير القرطبي ١٦٠/٥.

يعني النبوة والعلم والفهم، ﴿وَاتَيْنَاهُمْ مَلَكًا عَظِيمًا﴾ فكان يوسف عليه السلام - ملكاً على مصر، وكان سليمان بن داود - عليهما السلام - ملكاً، وكانت له ثلاثمائة امرأة حرة سوى السرية، قال مقاتل هكذا، وقال الكلبي: كانت له سبع مائة امرأة، وثلاثمائة سرية، وكان لداود - عليه السلام - مائة امرأة^(١)، فلم يكن يمنعهم النبوة عن ذلك، ويقال: إن الفائدة في كثرة تزوجه أنه كانت له قوة أربعين نبياً، وكل من كان أقوى فهو أكثر نكاحاً. ويقال: إنه أراد بالنكاح كثرة العشيرة، لأن لكل امرأة قبيلتين قبيلة من قبل الأب، وقبيلة من قبل الأم، فكلما تزوج امرأة صرف وجوه القبيلتين إلى نفسه، فيكونون عوناً له على أعدائه. ويقال: إن كل من كان أتقى كانت شهرته أشد، لأن الذي لا يكون تقياً، إنما يفرج بالنظر واللمس، ألا ترى إلى ما روي في الخبر: العينان تزنيان، واليدان تزنيان، فإذا كان في النظر، وفي المس نوع من قضاء الشهوة، فلا ينظر التقي، ولا يمس، فيكون الشهوة مجتمعة في نفسه، فيكون أكثر جماعاً. وقال أبو بكر الوراق: كل شهوة تقسي القلب إلا الجماع فإنه يصفى القلب، ولهذا كان الأنبياء - عليهم السلام - يفعلون ذلك^(٢). قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ يعني من اليهود من آمن به، بالكتاب الذي أنزل على إبراهيم، وآمن بالكتاب الذي [أنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم -] ^(٣) ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ يعني أعرض عنه مكذباً، وهذا قول الكلبي^(٤). وقال مقاتل: ^(٥) ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ يعني من آل إبراهيم (من آمن به) يعني بالكتاب الذي جاء به (ومِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ) لم يؤمن به. وقال الضحاك: أم يحسدون الناس، يعني اليهود كانوا يحسدون قريشاً لأن النبوة فيهم^(٦)، (فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب) يعني إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، الكتاب يعني التنزيل، والحكمة: يعني السنة، وآتيناهم ملكاً عظيماً: يعني قريشاً وبني هاشم ملكاً عظيماً، يعني الخلافة لا تصلح إلا لقريش، (فمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ) يعني بمحمد - صلى الله عليه وسلم - (ومِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ) أي كفر به. ثم قال تعالى: ﴿وَكُفِيَ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ أي وقوداً لمن كفر به. ثم بين مصير من كذب به، وموضع من آمن به فقال تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَمْ يَكُنْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وبالقرآن ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ أي ندخلهم ناراً في الآخرة. ويقال: صلى: إذا دخل النار لأجل شيء، وأصلاه: إذا أدخله للإحترق والاصطلاء بالنار: الاستدفاء. ثم قال تعالى: ﴿كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾ يقول كلما احترقت جلودهم ﴿بَدَلْنَاهُمْ﴾ يعني جددنا لهم ﴿جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ لأنهم إذا احترقوا خبت عنهم النار ساعة فبدلوا خلقاً جديداً، ثم عادت تحرقهم، فهذا دأبهم فيها، وقال مقاتل: تجدد في كل يوم سبع مرات، وقال الحسن: بلغني أنه ينضج كل يوم سبعين ألف مرة، وقال الضحاك: سبعين جلداً في كل يوم. وقد طعنت الزنادقة في هذا وقالوا: إن الجلد الذي تبدل لم يذنب فكيف يستحق العقوبة والعذاب. قيل لهم: إن ذلك الجلد هو الجلد الأول، ولكنه إذا أحرق أعيد إلى الحال الأول،

(٣) في ظ [الذي جاء به].

(٢) انظر تفسير القرطبي ١٦٤/٥.

(١) انظر تفسير ابن عباس ٥٨.

(٦) انظر تفسير القرطبي ١٦٢/٥.

(٥) انظر التفسير ٢٤٤/١.

(٤) انظر تفسيره ابن عباس ٥٨.

كالنفس إذا صارت تراباً، وصارت لا شيء، ثم أحياءها الله تعالى، فكذلك ها هنا. وقوله تعالى: (جلوداً غيرها) على وجه المجاز، كما قال في آية أخرى: (يوم تبدل الأرض غير الأرض) قال ابن عباس - رضي الله عنه - يعني يزداد في سعتها، وتسوى جبالها وأوديتها. وقوله: ثم قال تعالى ﴿لِيَذُقُوا الْعَذَابَ﴾ أي لكي يجدوا مس العذاب ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً﴾ في نعمته ﴿حَكِيماً﴾ في أمره، حكم لهم بالنار. ثم بين مصير الذين صدقوا به فقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني آمنوا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وبالقرآن (وعملوا الصالحات) يعني الطاعات التي أمرهم الله تعالى بها ﴿سَنَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي مقيمين فيها ﴿أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ في الخلق والخلق ﴿وَنَدْخُلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾. قال الضحاك: يعني، ظلال أشجار الجنة، وظلال قصورها^(١) وقال الكلبي: ^(٢) يعني ظلاً ظليلاً أي دائماً. وقال مقاتل: يعني أكنان القصور، (ظليلاً) يعني لا خلل فيها. قوله تعالى:

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ وذلك أن مفتاح الكعبة كان في يد بني شيبه، وكانت السقاية في يد بني هاشم، فلما فتح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكة، دعا عثمان بن طلحة، وقال له: هات المفتاح فخشي عثمان أن يعطيه إلى عمه العباس، فجاء بالمفتاح وقال لرسول الله [صلى الله عليه وسلم - حين دفع إليه]^(٣)، خذه بأمانة الله، فدخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - البيت، فإذا فيه تمثال إبراهيم - عليه السلام - مصور على الحائط ويده قداح، وعنده إسماعيل والكبش مصوران فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قاتل الله الكفار ما لإبراهيم والقداح، فأمر بالصور فمحييت، ففُضِيَ حاجته من البيت ثم خرج، فطلب منه العباس بأن يدفع إليه المفتاح فنزلت هذه الآية: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا) ثم صارت الآية عامة لجميع الناس، برد الأمانات إلى أهلها، ويقال: نزلت في شأن اليهود حيث كتموا نعت محمد - صلى الله عليه وسلم - وكانت أمانة عندهم فمنعوها. ويقال: هذا أمر لجميع المسلمين: بأداء الفرائض، وجميع الطاعات لأنها أمانة عندهم، كقوله تعالى: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَىٰ... إِلَى قَوْلِهِ: وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ) ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ يقول بالحق. وقال الضحاك: (وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ) أي بين القوم (أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) أي بالبينه على المدعي واليمين على المدعى عليه^(٤). ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ يعني يأمركم بالعدل والنصيحة والاستقامة، وأداء الأمانة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا﴾ بمقالة العباس، ﴿بَصِيرًا﴾ برد المفتاح إلى أهله. قرأ ابن عامر والكسائي وحمزة:

(٣) ما بين المعكوفين سقط من أ.

(٢) انظر المصدر السابق.

(١) انظر تفسير القرطبي ١٦٥/٥.

(٤) قطعة من حديث أخرجه البخاري ومسلم من رواية ابن عباس. البخاري ٢١٣/٨ في التفسير (٤٥٥٢) ومسلم ١٣٣٦/٣ في الأفضية

(١/١٧١١) ومن حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عند الترمذي ٦٢٦/٣ في الأحكام (١٣٤١)، والدارقطني ٢١٨/٤ في

الأفضية والبيهقي ٢٥٦/١٠ في الدعوى.

(نعماً) بنصب النون، وكسر العين، والاختلاف فيه كالاختلاف الذي في سورة البقرة، وذلك قوله تعالى: (إن تبدوا الصدقات فنعما هي) وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ أي في الفرائض ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أي في السنن، ويقال: أطيعوا الله فيما فرض، وأطيعوا الرسول فيما بين، ويقال: (أطيعوا الله) يقول: لا إله إلا الله، وأطيعوا الرسول، يقول: محمد رسول الله. ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ يعني أطيعوا أولي الأمر منكم. قال الكلبي ومقاتل: (١) يعني أمراء السرايا. وقال الضحاك: يعني الفقهاء والعلماء في الدين (٢). ويقال: الخلفاء والأمراء، ويجب طاعتهم ما لم يأمروا بالمعصية قوله: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾ من الحلال والحرام والشرائع، ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ يعني إلى أمر الله فيما يأمر بالوحي، وإلى أمر الرسول فيما يخبر عن الوحي، ثم بعد النبي - صلى الله عليه وسلم - لما انقطع الوحي يرد إلى كتاب الله تعالى، وإلى سنة رسوله - عليه الصلاة والسلام - ويقال [معناه] (٣) إذا أشكل عليكم شيء فقولوا الله ورسوله أعلم وهذا كما قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل. وقال الخليل بن أحمد البصري: الناس أربعة: رجل لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري، فهذا أحق فاجتنبوه، ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري، فهذا جاهل فعلموه، ورجل يدري ولا يدري أنه يدري فهذا نائم فأيقظوه، ورجل يدري، وهو يدري أنه يدري، فهذا عالم فاتبعوه. ثم قال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يعني إن كنتم تصدقون بالله واليوم الآخر، ثم قال: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أي الرد إلى كتاب الله وإلى سنة رسوله، خير من الاختلاف (٤) ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي وأحسن عاقبة. وروي عن علي بن أبي طالب -

(١) انظر التفسير ٢٤٦/١.

(٢) انظر تفسير القرطبي ١٦٨/٥. (٣) سقط من أ.

(٤) ومعنى الرد إلى الرسول: إنهاء الأمور إليه في حياته وحضرته كما دل عليه قوله في نظيره (وإلى الرسول) فأما بعد وفاته أو في غيبته فالرد إليه: الرجوع إلى أقواله وأفعاله والاحتذاء بسنته. روي أبو داود عن أبي رافع عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: لا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ مَتَكُنَّا عَلَى أَرِيكْتِهِ يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِمَّا أُمِرْتُ بِهِ أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ فَيَقُولُ: لا ندري، ما وجدنا في كتاب الله اتباعه). وفي روايته عن العرباض بن سارية أنه سمع رسول الله يخطب يقول (أحبس أحدكم وهو متكئ على أريكته وقد يظن أن الله لم يحرم شيئاً إلا ما في هذا القرآن ألا وإني والله قد أُمِرْتُ وَوَعُظْتُ وَنَهَيْتُ عَنْ أَشْيَاءَ إِنَّمَا لِمَثَلِ الْقُرْآنِ أَوْ أَكْثَرِ) وأخرجه الترمذي من حديث المقدم وعرض الحوادث على مقياس تصرفاته والصريح من سنته.

والتنازع: شدة الاختلاف وهو تفاعل من النزاع أي الأخذ قال الأعشى:

نَازَعَتْهُمْ قُضْبُ الرِّيحَانِ مَتَكُنَّا وَهَوَ مَزَّةَ رَاوَوْقَهَا خَضَلْ
انظر التحرير ٩٨/٥ - ٩٩.

ومن ذلك اختلاف أهل العلم في الأحكام الشرعية التي طريقها الاجتهاد والنظر في أدلة الشريعة.

فكل هذا الاختلاف والتنازع مأمور أصحابه برد أمره إلى الله والرسول ورد كل نوع من ذلك يتعين أن يكون بحيث يرجى معه زوال الاختلاف وذلك ببذل الجهد والوسع في الوصول إلى الحق الجلي في تلك الأحوال. فما روي عن مجاهد وميمون بن مهران في تغيير التنازع بتنازع أهل العلم إنما هو تنبيه على الفرد الأخفى من أفراد العموم وليس تخصيصاً للعموم. وذكر الرد إلى الله في هذا مقصود منه مراقبة الله تعالى في طلب انجلاء الحق في مواضع النزاع تعظيماً لله تعالى فإن الرد إلى الرسول يحصل به الرد إلى الله إذ الرسول هو المنبئ عن مراد الله تعالى فذكر اسم الله هنا هو بمنزلة ذكره في قوله (فإن الله خمس للرسول) الآية. ثم الرد إلى الرسول في حياة الرسول وحضوره ظاهر وهو المتبادر من الآية، وأما الرد إليه في غيبته أو بعد وفاته فبالتحاكم إلى الحكام الذين أقامهم الرسول أو أمرهم بالتعيين وإلى الحكام الذين نصبهم ولاية الأمور للحكم بين الناس بالشريعة ممن يظن به العلم بوجوه الشريعة وتصاريقها فإن تعيين صفات الحكام وشروطهم وطرق توليتهم فيما ورد عن الرسول من أدلة صفات الحكام يقوم مقام تعيين أشخاصهم وبالتأمل في تصرفاته وسنته ثم الصدر على ما يتبين للمتأمل من حال يظنها هي مراد الرسول لو سئل عنها في جميع أحوال النزاع في فهم الشريعة واستنباط أحكامها المسكوت عنها من الرسول، أو المجهول قوله فيها. انظر التحرير ١٠٠ - ١٠١.

رضي الله عنه - أنه قال: حق على الإمام أن يحكم بالعدل، ويؤدي الأمانة [إلى أهلها] ^(١) فإذا فعل ذلك وجب على المسلمين أن يطيعوه فإن الله تعالى أمرنا بأداء الأمانة والعدل، ثم أمرنا بطاعتهم ^(٢). وقال مجاهد: ^(٣) (وأولى الأمر منكم) العلماء والفقهاء، وهكذا روي عن جابر ^(٤). وقوله تعالى:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾

﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك﴾ وذلك منافقاً يقال له: [بشر] ^(٥) كان بينه وبين يهودي خصومة فقال اليهودي: إنطلق بنا إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - وكانت تلك الخصومة في حكم الإسلام على المنافق، وفي حكم اليهود على اليهودي فقال اليهودي: تأتي محمداً - صلى الله عليه وسلم - يحكم بيننا وقال المنافق: بل تأتي كعب بن الأشرف حتى يحكم بيننا، فكانا في ذلك إذ سمع عمر بن الخطاب قولهما، فقال: ما شأنكما؟ فأخبراه بالقصة، فقال عمر: أنا أحكم بينكما، فأجلسهما ثم دخل البيت، وخرج بالسيف، وقتل المنافق: فنزلت هذه الآية: (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك) يعني بالقرآن، ﴿وما أنزل من قبلك﴾ يعني سائر الكتب [المنزلة] ^(٦) ﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت﴾ وهو كعب بن الأشرف ﴿وقد أمروا أن يكفروا به﴾ يعني أمروا بتكذيبه. وقال الضحاك: نزلت الآية في شأن المنافقين ^(٧)، لأنهم آمنوا بلسانهم، ولم يؤمنوا بقلوبهم، وركنوا إلى قول اليهود، ومالوا إلى خلاف النبي - صلى الله عليه وسلم - فذلك قوله: (يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا) يعني إلى كهنة اليهود، وسحرتهم، ثم قال: ﴿ويريد الشيطان أن يضلهم﴾ عن الهدى وعن الحق ﴿ضلالاً بعيداً﴾ ثم قال: ﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول﴾ يعني إلى ما أمر الله في كتابه، وإلى ما أمر الرسول، وإلى ما أنزل إلى الرسول. ﴿رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً﴾ أي يعرضون عنك إعراضاً، ويقال: صد، يصد، يكون لازماً، ويكون متعدياً، وإنما يتبين ذلك بالمصدر، ويقال: صد، يصد صدأً، إذا صرف غيره، كقوله تعالى: (فصدهم عن السبيل) وصد، يصد، صدوداً إذا أعرض بنفسه كقوله تعالى: (فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه) وكقوله: (رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً). قوله تعالى: ﴿فكيف إذا أصابتهم مصيبة﴾ يقول: فكيف يصنعون إذا أصابتهم عقوبة ﴿بما قدمت أيديهم﴾ أي بما عملت أيديهم ﴿ثم جاءوك يحنفون بالله﴾ قال في رواية الكلبي: نزلت في شأن ثعلبة بن

(٣) انظر المصدر السابق.

(٢) انظر تفسير القرطبي ١٦٨/٥.

(١) سقط في ظ.

(٦) سقط من ظ.

(٥) في أيسر وهو تحريف ظاهر.

(٤) أخرجه الطبري في التفسير ٥٠١/٨.

(٧) انظر أسباب النزول للواحدي ١٢٠.

حاطب^(١)، كانت بينه وبين الزبير بن العوام^(٢) خصومة، فقاضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - للزبير، فخرجا من عنده، فمرا على المقدام بن الأسود^(٣)، فقال للمقدام: لمن كان القضاء يا ثعلبة؟ فقال ثعلبة: قضى لابن عمته الزبير، ولوى شدقه، على وجه الاستهزاء، فنزلت هذه الآية: ^(٤) (فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم) أي بليته شدقه، فلما نزلت هذه الآية: أقبل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعتذر إليه ويحلف وذلك قوله ﴿ثم جاؤوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً﴾ أي ما أردنا إلا الإحسان في المقالة ﴿وتوفيقاً﴾ يقول: صواباً. وقال الضحّاك ومقاتل: ^(٥) نزلت في شأن الذين بنوا مسجد ضرار، فلما أظهر الله نفاقهم، وأمر بهدم المسجد، حلفوا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - دفعاً عن أنفسهم، ما أردنا ببناء المسجد إلا طاعة الله، وموافقة الكتاب. قوله تعالى: ﴿أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم﴾ من الضمير، وقال الزجاج: معناه قد علم الله أنهم منافقون، والفائدة لنا، أن اعلّموا: أنهم منافقون، قال: ومعنى قوله: (وتوفيقاً) أي طلباً لما وافق الحق. ثم قال تعالى: ﴿فأعرض عنهم﴾ ولا تعاقبهم ﴿وعظهم﴾ بلسانك ﴿وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾ يقول: خوفهم، وهددهم، إن فعلتم الثاني عاقبتكم قال مقاتل: تقدم إليه تقدماً وثيقاً، ثم نسخ بقوله: (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) وقوله تعالى:

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَا تِنَّهُمْ مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾

﴿وما أرسلنا من رسول﴾ ومن، صله، فكأنه يقول: وما أرسلنا رسولاً ﴿إلا ليطاع بإذن الله﴾ أي لكي يطاع بأمر الله. ثم قال تعالى: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم﴾ بصنعهم ﴿جاؤوك﴾ بالتوبة ﴿فاستغفروا الله﴾ لذنوبهم ﴿واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾ أي متجاوزاً. قوله تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون﴾ كقول القائل: لا والله لا يؤمنون ﴿حتى يحكموك﴾ حتى يقرؤا ويرضوا بحكمك يا محمد ﴿فيما شجر بينهم﴾ أي فيما اختلفوا

(١) ثعلبة بن حاطب بن عمرو بن عبيد بن أمية بن زيد بن مالك بن عوف الأوسي الأنصاري. الإصابة ٢٠٦/١.

(٢) الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزي بن قصي بن كلاب الأسدي أحد العشرة السابقين، وأحد البدرين، وأول من سل سيفاً في سبيل الله، هاجر الهجرتين، وشهد المشاهد كلها توفي سنة ست وثلاثين بعد منصرفه من وقعة الجمل. الخلاصة ٣٣٤/١.

(٣) المقدام بن الأسود الكندي هو ابن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة بن عامر النهراي وقيل الحضرمي. الإصابة ١٣٣/٦.

(٤) أخرجه البخاري ٣٤/٥ في كتاب المساقاة ٢٣٥٩ وفي التفسير ٢٥٤/٨ (٤٥٨٥) ومسلم ١٨٢٩/٤، ١٨٣٠ - في الفضائل

(٢٣٥٧/١٢٩) وانظر تفسير الطبري ٥١٩/٨ (٩٩١٢)، (٩٩١٣)، (٩٩١٤).

(٥) انظر التفسير ٢٤٨/١.

فيه، ويقال: تشاجرا: أي اختلفا، ويقال: فيما التبس عليهم، قال الفقيه: حدثنا الخليل بن أحمد، قال: حدثنا الديلمي، قال: حدثنا أبو عبيد^(١) الله، عن سفيان، عن عمر، وعن رجل من ولد أم سلمة عن أم سلمة أنها قالت: كان بين الزبير بن العوام وبين رجل خصومة فقاضى النبي - صلى الله عليه وسلم - للزبير، فقال الرجل: إنما قضى له لأنه ابن عمته، فأنزل الله تعالى: (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم)^(٢) ﴿ثم لا يجدوا في أنفسهم﴾ أي في قلوبهم ﴿حرجاً﴾ أي شكاً ﴿مما قضيت﴾ أنه الحق ﴿ويسلموا تسليماً﴾ أي ويخضعوا لأمرك في القضاء خضوعاً. وقال الزجاج: تسليماً، مصدر مؤكد، فإذا قلت: ضربه ضرباً، فكأنك قلت: لا شك فيه كذلك: (ويسلموا تسليماً) أي ويسلمون لحكمك تسليماً لا يدخلون على أنفسهم شكاً. قوله تعالى: ﴿ولو أنا كتبنا عليهم: أن اقتلوا أنفسكم﴾ يعني لو فرضنا عليهم القتل، ﴿أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم﴾ والقليل منهم، عمار بن ياسر، وابن مسعود، وثابت بن قيس، قالوا: لو أن الله تعالى أمرنا بأن نقتل أنفسنا، أو نخرج من ديارنا لفعلنا. فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - الإيمان أثبت في قلوب الرجال من الجبال الرواسي^(٣). قرأ ابن عامر: (٤) ﴿إلا قليلاً منهم﴾ بالألف، وهكذا في مصاحف أهل الشام، وقرأ الباقر: [بغير الألف]^(٥)، بالضم، فمن قرأ بالضم، فمعناه، ما فعلوه ويفعله قليل منهم، على معنى الاستئناف، ومن قرأ بالنصب على معنى أنه على خلاف الأول، للاستثناء، كقوله تعالى: (إلا المستضعفين) ثم قال تعالى: ﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به﴾ أي ما يؤمرون به، ﴿لكان خيراً لهم﴾ [أي الثواب في الآخرة]^(٦) ﴿وأشد تبييناً﴾ أي تحقيقاً في الدنيا. قوله تعالى: ﴿وإذا لاتيناهم﴾ يقول: حينئذ لأعطيناهم ﴿من لدنا﴾ أي من عندنا ﴿أجرأ عظيماً﴾ في الآخرة، يعني الجنة. ﴿ولهديناهم صراطاً مستقيماً﴾ أي ديناً قيماً يرضاه لهم. قوله تعالى:

وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ

(١) في أبو عبد تحريف.
(٢) تقدم.
(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ٥٢٦/٨ (٩٩٢١) وذكره الحافظ ابن كثير في التفسير ٣٠٩/٢ ونسبه السيوطي أيضاً في الدرر ١٨١/٢ لابن أبي حاتم.

(٤) قرأ ابن عامر: (ما فعلوه إلا قليلاً) بالنصب أي استثنى «قليلاً» منهم. والعرب تنصب في النفي والإيجاب فتقول (في الإيجاب) سرت بالقوم إلا زيداً، ومررت بالقوم إلا زيداً) (ورأيت القوم إلا زيداً) وتقول في النفي: (ما جاءني أحد إلا زيداً) فترفع على البدل من (أحد) كأنه يصح وضعه مكانه أن تقول: (ما جاءني إلا زيد).

وقد يجوز أن تقول: (ما جاءني أحد إلا زيداً) أو (ما قام القوم إلا زيداً) فلا تجعله بدلاً ولكن تجعله استثناء منقطعاً أي استثنى زيداً فعلى هذا قوله: (إلا قليلاً) أي استثنى قليلاً أو (إلا قليل) على البدل من الواو. المعنى ما فعله إلا قليل منهم.

واعلم أن الاختيار في الاستثناء إذا كان منفياً وكان ما بعد إلا من جنس ما قبلها فالرفع أولى على البدل كقولك: (ما في الدار أحد إلا زيد) والنصب جائز فتقول: (ما في الدار أحد إلا زيداً) وإذا كان ما بعد (إلا) ليس من جنس ما قبله فالنصب أولى كقولك: (ما في الدار أحد إلا حماراً) و(ماله ابن إلا بنتاً) فنصبه على الاستثناء لأن الحمار لا يكون من جنس الإنسان. والرفع جائز على البدل قال الشاعر:

وبلدة ليس بها أنيس إلا اليعافير ولا العيس

وجائز أن يكون جعل أنيس ذلك البلد: اليعافير والعيس.

وقرأ الباقر: (إلا قليل) بالرفع على البدل وقد ذكرت. انظر لابن زنجلة ٢٠٦ - ٢٠٧.

(٥) سقط في أ.
(٦) في ظ في الآخرة في الثواب.

وَالصَّالِحِينَ وَحَسَنَ أَوْلِيَّكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾
يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَّيَبْطِئُ
فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ
اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلْبِغْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾

﴿ومن يطع الله والرسول﴾ قال في رواية الكلبي: نزلت الآية في شأن ثوبان، مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان شديد الحب له، وكان قليل الصبر عنه، حتى تغير لونه، ونحل جسمه فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما غير لونك؟ فقال: ما بي من مرض، ولكني إذا لم أرك استوحشت وحشة عظيمة، حتى ألقاك، وأذكر الآخرة وأخاف أن لا أراك هناك، فنزل قوله تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول﴾ ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين﴾ في الجنة. وقال في رواية الضحاك: وذلك أن نفرًا من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قالوا يا نبي الله، وإن صرنا إلى الجنة، فإنك تفضلنا في الدرجات، كما أنك تفضلنا بدرجات النبوة، فلا نراك، فنزل: ﴿١﴾ ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم... الآية﴾. حدثنا الخليل بن أحمد، قال: حدثنا أبو العباس، قال: حدثنا قتيبة، قال: حدثنا جهم، عن عطاء بن السائب، عن الشعبي: أن رجلًا من الأنصار، أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: يا رسول الله: لأنت أحب إلي من نفسي وولدي وأهلي، فلولا أنني آتيتك فأراك لا ريب أي لا شك أنني سوف أموت، قال: وبكى الأنصاري، فقال: ما أبكاك؟ قال: ذكرت أنك تموت، ونموت، وترفع مع النبيين، ونكون نحن وإن دخلنا الجنة دونك، فلم يحبه بشيء فأنزل الله تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾ ﴿٢﴾ ﴿من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴾ أي من المسلمين، ثم قال ﴿وحسن أولئك رفيقاً﴾ في الجنة، أي رفقاء، كقوله تعالى: ﴿ثم يخرجكم طفلاً﴾. أي أطفالاً، وكقوله: ﴿كل صيحة عليهم هم العدو﴾ أي الأعداء. ﴿ذلك الفضل من الله﴾ أي المن والعطية من فضل الله ﴿وكفى بالله عليمًا﴾ بالثواب في الآخرة. قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذرکم﴾ أي عدتكم من السلاح ﴿فانفروا ثبات﴾ يعني عصباً سرايا ﴿أو انفروا جميعاً﴾ مع النبي - صلى الله عليه وسلم - بأجمعكم. وقال الزجاج: الثبات: الجماعة المتفرقة، فتأويله انفروا جماعات متفرقة، وانفروا مجتمعاً بعضهم إلى بعض. وقوله عز وجل: ﴿وإن منكم لمن ليبطئن﴾ فاللام الأولى زيادة للتأكيد، واللام الثانية للقسم، أي وإن منكم من يتشاقل ويتخلف عن الجهاد، يعني المنافقين، فهذا الخطاب للمؤمنين، فكأنه يقول: إن فيكم منافقين يتشاقلون، ويتخلفون عن الجهاد، ﴿فإن أصابتكم﴾ معشر المسلمين ﴿مصيبة﴾ يعني نكبة وشدة وهزيمة من العدو. ﴿قال﴾ ذلك المنافق الذي فيكم وتخلف عن الجهاد ﴿قد أنعم الله علي﴾ بالجلوس ﴿إذ لم أكن معهم شهيداً﴾ أي حاضراً في تلك الغزوة. قوله تعالى: ﴿ولئن أصابكم فضل من الله﴾ يعني الفتح والغنيمة، ﴿ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة﴾ أي معرفة ووداً في الدين، ﴿يا ليتني كنت معهم﴾ في تلك الغزوة ﴿فأفوز فوزاً عظيماً﴾ فأصيب غنائم كثيرة. وقال مقاتل:

(١) انظر أسباب النزول ١٢٢.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير بلفظ مقارب ٥٣٤/٨ (٩٩٢٤) عن سعيد بن جبير وذكره الحافظ ابن كثير عن عائشة رضي الله عنها في التفسير ٣١٠/٢ - ٣١١ وقال وهكذا رواه الحافظ أبو عبد الله المقدسي في كتابه (صفة الجنة) ومن طريق الطبراني عن أحمد بن عمرو بن مسلم الخلال عن عبد الله بن عمران العابدي به ثم قال لا أرى بإسناده بأساً والله أعلم.

في الآية تقديم وتأخير، ومعناه: فإن أصابتكم مصيبة، قال: قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيداً، كأن لم يكن بينكم وبينه مودة في الدين ولا ولاية. قرأ ابن كثير وعاصم في رواية حفص^(١) (كأن لم يكن) بالتاء لأن المودة مؤنثة، وقرأ الباقون بالياء، لأن تأنيثه ليس بحقيقي. ثم أمر المنافقين بأن يقاتلوا لوجه الله تعالى فقال عز وجل:

فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الظَّالِمِينَ فَفَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾

﴿فليقاتل في سبيل الله﴾ يعني فليقاتل الذين معكم في طاعة الله ﴿الذين يشرون الحياة الدنيا﴾ أي يختارون الدنيا على الآخرة. ويقال: هذا الخطاب للمؤمنين فكأنه يقول: فليقاتل في سبيل الله الكفار الذين يشرون الحياة الدنيا ﴿بالآخرة﴾. ثم قال تعالى: ﴿ومن يقاتل في سبيل الله﴾ أي في طاعة الله ﴿فليقتل﴾ يقول فيستشهد ﴿أو يغلب﴾ أي يقتل العدو ويهزمهم ﴿فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ أي ثواباً عظيماً في الجنة، فجعل ثوابهما واحداً، يعني إذا غلب أو غلب، يستوجب الثواب في الوجهين جميعاً، وقال الضحاك: في قوله: ﴿ومن يقاتل في سبيل الله﴾ قال: ومن قاتل في سبيل الله فواق ناقة غفرت له ذنوبه، ووجبت له الجنة. (والفواق بالرفع ما بين الحلبتين، والفواق بالنصب، الراحة). وذلك قوله: ﴿فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾، أي ثواباً عظيماً في الجنة، ثم حث المؤمنين على القتال فقال تعالى: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين﴾ أي (وعن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان) ويقال: وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله، وسبيل المستضعفين. ويقال: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله﴾ وفي خلاص المستضعفين، وقال الضحاك: وذلك أن كفار قريش أسروا سبعة نفر من المسلمين، وكانوا يعذبونهم، فأمر الله تعالى بقتال الكفار ليستنقذوا الأسرى من أيديهم ﴿الذين يقولون﴾ يعني المستضعفين بمكة يدعون الله تعالى ويقولون ﴿ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها﴾ بالشرك ﴿واجعل لنا من لَدُنْكَ ولياً﴾ أي، من عندك حافظاً يحفظنا ﴿واجعل لنا من لَدُنْكَ نصيراً﴾ أي مانعاً يمنعنا منهم، قال الكلبي: لما فتح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكة، جعل الله لهم النبي - صلى الله عليه وسلم - ولياً، وعتاب بن أسيد، نصيراً، وكان عتاب بن أسيد^(٢)، ينصف الضعيف من الشديد، فنصرهم الله به، وأعانهم، وكانوا أعز من بمكة من الظلمة قبل ذلك. (فصار المسلمون الضعفاء أعزاء، كما كان الكفار قبل ذلك). ثم مدح الله المؤمنين بقتالهم لوجه الله تعالى، فقال تعالى: ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله﴾ أي في طاعة الله، وإعزاز الدين وذم المنافقين، وبين أن قتالهم للشيطان، فقال تعالى: ﴿والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت﴾ أي في طاعة الشيطان، ثم حرض المؤمنين على القتال، فقال ﴿فقاتلوا أولياء الشيطان﴾ أي جند الشيطان، وهم المشركون ﴿إن كيد الشيطان﴾ أي مكر

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٠٨، وشرح شعبة ٣٤١.

(٢) عتاب بن أسيد بن أبي القبيص الأموي، أسلم يوم الفتح وكان صالحاً فاضلاً. الإصابة ٢١١/٤.

الشيطان ﴿كان ضعيفاً﴾ أي واهياً. ويقال: أراد به يوم بدر، حيث قال لهم الشيطان، أي الكفار لا غالب لكم اليوم من الناس، وإني جار لكم، فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه. ويقال ﴿إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾ أي مكروه ضعيف لا يدوم وهذا كما يقال: للحق دولة وللباطل جولة [أي ما له ري] ثم^(١) قال عز وجل:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْ لَا أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصَبِّهُمْ حَسَنَةً يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصَبِّهْهُمْ سَيِّئَةً يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾

﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم: كفوا أيديكم﴾ يعني ألم تخبر عنهم، ويقال: أنه معناه، ألا ترى إلى هؤلاء، وذلك أن أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين كانوا بمكة، استأذنوا في قتل كفار مكة سراً، لما كانوا يلقون منهم من الأذى، فقال لهم النبي - صلى الله عليه وسلم - : مهلاً كفوا أيديكم عن قتالهم ﴿وأقيموا الصلاة﴾ فإني لم أؤمر بقتالهم، فلما هاجر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة أمره الله تعالى بالقتال، فكره بعضهم، فنزلت هذه الآية ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم﴾ عن القتال، ﴿وأقيموا الصلاة﴾، أي أتموها ﴿وآتوا الزكاة﴾ يعني أقروا بها واعطوها إذا وجبت عليكم، ﴿فلما كتب عليهم القتال﴾ أي فرض عليهم القتال بالمدينة ﴿إذا فريق منهم يخشون الناس﴾ أي يخشون عذاب الكفار ﴿كخشية الله﴾ أي كخشيتهم من عذاب الله ﴿أو أشد خشية﴾ أي بل أشد خشية، ويقال: معناه، أو أشد خشية يعني أكثر خوفاً ﴿وقالوا: ربنا لم كتب علينا القتال﴾ أي لم فرضت علينا القتال، ﴿لولا أخرتنا﴾ أي يقولوا هلا أجلتنا ﴿إلى أجل قريب﴾، وهو الموت. فبين الله تعالى لهم: أن الدنيا فانية فقال ﴿قل متاع الدنيا قليل﴾ أي: منفعة الدنيا قليلة، لأنها لا تدوم، وقال - عليه الصلاة والسلام - مثلي ومثل الدنيا، كراكب قال في ظل شجرة، ثم راح وتركها^(٢). ثم قال تعالى: ﴿والآخرة خير لمن اتقى﴾ يقول: ثواب الآخرة أفضل لمن اتقى الشرك والمعاصي ﴿ولا تظلموا فتيلًا﴾ وقد ذكرناه. قرأ نافع وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: (ولا تظلمون) بالتاء على معنى المخاطبة، وقرأ الباقون: بالياء على معنى الخبر، يعني المتقين. قوله تعالى: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت﴾ أي في الأرض يأتيكم الموت ﴿ولو كنتم في بروج مشيدة﴾، أي في القصور الطوال المشيدة، المبنية إلى السماء، حتى لا يخلص إليه [أحد من بني آدم]^(٣). وقال القتيبي (البروج) الحصون، و (المشيدة): المطولة. وذلك أنهم لما تناقلوا عن الخروج إلى الجهاد مخافة الموت، فأخبرهم الله تعالى: إنهم لا يموتون قبل الأجل، إذا جاء أجلهم لا ينجون من الموت وإن كانوا في موضع حصين،

(١) سقط في ظ.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣٩١/١ وابن ماجه ١٣٧٦/٢ في كتاب الزهد باب مثل الدنيا (٤١٠٩)، وابن سعد في الطبقات ١٥٩/٢/١، والطبراني في الكبير ٢٠١/١٠، وأبو نعيم في الحلية ٣٣٤/٤ وذكر الحافظ ابن كثير في التفسير ٤٤٧/٨، والمنذري في الترغيب ١٩٨/٤، والسيوطي في الدرر ٢٣٨/٣، ٥٨/٤.

(٣) في ظ [بنو آدم].

وهذا قوله تعالى: ﴿قل فادعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾. ثم أخبر عن المنافقين فقال: ﴿وإن تصبهم حسنة يقولوا﴾ أي الفتح والغنيمة، والخصب، يقولوا: ﴿هذه من عند الله، وإن تصبهم سيئة﴾ أي نكبة وهزيمة، ﴿يقولوا: هذه من عندك﴾ أي من شؤمك، يعني أصابتنا بسببك، أنت الذي حملتنا على هذا ﴿قل: كل من عند الله﴾ يقال: الرخاء والشدة، ويقال القدر خيره وشره من الله تعالى. ثم قال تعالى: ﴿فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون﴾ يعني للمنافقين لا يكادون يفقهون ﴿حديثاً﴾ أي لا يفهمون قولاً أن الشدة والرخاء من الله تعالى أي لا يسمعون، ولا يفهمون، ما يحدثهم ربهم في القرآن. قوله تعالى.

مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾
مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾

﴿ما أصابك من حسنة﴾ يعني النعمة، وهو الفتح والغنيمة ﴿فمن الله﴾ أي وبفضله ﴿وما أصابك من سيئة﴾ يعني البلاء والشدة، من العدو [أو الشدة في العيش] ^(١) ﴿فمن نفسك﴾ أي فبذنبك وأنا قضيته عليك. ويقال: ما أصابك من حسنة يوم بدر، فمن الله، وما أصابك من سيئة يوم أحد، فمن نفسك، أي، بذنب أصحابك، يعني بتركهم المركز. ويقال: ما أصابك من حسنة، يعني، الدلائل والعلامات لنبوتك، فمن الله وما أصابك من سيئة (يعني انقطاع الوحي فمن نفسك، يعني بترك الاستثناء، حيث انقطع عنك جبريل أياماً، بترك استثنائك به. ويقال: ما أصابك من حسنة، يعني، تكثير الأمة، فمن الله وما أصابك من سيئة) من أذى الكفار، فبتعجيلك، فقله تعالى: (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا) «سورة الشعراء: ٣» ويقال: فيه تقديم وتأخير، ومعناه ﴿فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهوه حديثاً﴾ بقولهم: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ قل كل من عند الله. ثم قال تعالى: ﴿وأرسلناك للناس رسولا﴾ أي، ليس عليك سوى تبليغ الرسالة. ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ على مقالتهم وفعلهم. ثم قال تعالى: ﴿ومن يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ يعني من يطع الرسول فيما أمره، فقد أطاع الله، لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - (كان يدعوهم بأمر الله تعالى، وفي طاعة الله تعالى، ويقال: إن النبي - صلى الله عليه وسلم -) قال: من يحبني فقد أحب الله، ومن أطاعني فقد أطاع الله ^(٢)، فقال المنافقون: إن هذا الرجل يريد أن نتخذه حناناً، فأنزل الله تعالى تصديقاً لقول النبي - صلى الله عليه وسلم - : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) وقال: (من يطع الرسول فقد أطاع الله). ثم قال تعالى: ﴿ومن تولى﴾ أي أعرض عن طاعة الله، وطاعة رسوله ﴿فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ أي رقيباً وكان ذلك قبل الأمر بالقتال. ثم أخبر عن أمر المنافقين فقال: ﴿ويقولون طاعة﴾ أي يقولون بحضرتك: قولك طاعة، وأمرك معروف، فمرنا بما شئت، فنحن، لأمرك ننتبه، ﴿فإذا برزوا﴾ أي خرجوا ﴿من عندك بيت﴾ أي: ألغت ويقال: غيرت ﴿طائفة منهم غير الذي تقول﴾ وقال الزجاج:

(١) سقط في ظ.

(٢) أخرجه البخاري ١١٦/٦ في الجهاد (٢٩٥٧)، ومسلم ١٤٦٦/٣ في الإمارة (١٨٣٥/٣٣).

لكل أمر قضي بلبيل قد بيت. قرأ أبو عمرو، وحمزة: ^(١) (بيت طائفة) بالإدغام لقرب مخرج التاء من الطاء، وقرأ الباقون: بالإظهار، لأنهما كلمتان. ثم قال تعالى: ﴿والله يكتب ما يبيتون﴾ يعني يحفظ عليهم ما يغيرون وقال الزجاج: (والله يكتب) له وجهان: يجوز أن يكون ينزله إليك في كتابه، وجائز أن يكون يحفظ ما جاءوا به. ثم قال تعالى: ﴿فأعرض عنهم﴾ أي اتركهم ﴿وتوكل على الله وكفى بالله وكيلًا﴾ أي شهيداً. ويقال: ﴿وتوكل على الله﴾ أي ثق بالله، وكفى بالله وكيلًا أي شهيداً أو يقال وتوكل على الله ثقة لك، ثم نسخ بقوله تعالى: (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين) قوله تعالى:

أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَنِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾

﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾ يعني أفلا يتفكرون في مواضع القرآن، ليعتبروا بها، ويقال: أفلا يتفكرون في معاني القرآن، فيعلمون أنه من عند الله تعالى لأنه ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ أي تناقضاً كثيراً، ويقال: أباطيل وكذباً كثيراً، لأن الاختلاف في قول الناس وقول الله تعالى لا اختلاف فيه، فلهذا قال أهل النظر: إن الإجماع حجة، لأن الإجماع من الله تعالى، ولو لم يكن من الله تعالى لوقع فيه الاختلاف، ولهذا قالوا: إن القياس إذا انتقض سقط الاحتجاج به، لأنه لو كان حكم الله تعالى لم يرد عليه النقض. قوله تعالى: ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف﴾ يعني المنافقين، إذا جاءهم خبر من أمر السرية، بالفتح والغلبة على العدو سكتوا وقصروا عما جاءهم من الخبر أو الخوف، أي وإن جاءهم خبر من السرية ببلاء وشدة، نزلت بالمؤمنين ﴿أذاعوا به﴾ أي أفشوه ﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾، قال الكلبي: يقول: لو سكتوا عن إفشائه، حتى يكون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هو الذي يفشيه، وأولو الأمر منهم: مثل: أبي بكر الصديق، وعمر، وعثمان، وعلي - رضي الله عنهم - ﴿لعلهم الذين يستنبطونه﴾ يقول: يتتبعونه ﴿منهم﴾ فيكون هؤلاء الذين يستمعونه ويفشونه، ويعلمونه إلا قليلاً منهم، يقول الله تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ أي لولا من الله عليكم ورحمته ونعمته ﴿لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ﴾، فيه تقديم وتأخير، وقال مقاتل: أذاعوا به أي أفشوه ﴿إلا قليلاً﴾ منهم لا يفشون الخبر. وقال الزجاج: (أذاعوا به) أي أظهروه، ومعنى (يستنبطونه منهم) أي يستخرجونه، وأصله من النبط، وهو أول الماء الذي يخرج من البئر، إذا حفرت، ولوردوا ذلك إلى أن يأخذوا من قبل الرسول، ومن قبل أولي الأمر منهم لعلهم هؤلاء الذين أذاعوا به من ضعف المسلمين، وعلموا من النبي - صلى الله عليه وسلم - وذوي العلم، وكانوا يعلمون مع ذلك. وقال عكرمة: ^(٢) لعلهم الذين يخوضون فيه ويسألون عنه. وقال أبو العالية: ^(٣) يعني الذين

(٢) انظر معالم التنزيل للبغوي ٤٥٦/١.

(١) انظر شرح شعلة على الشاطبية ٣٤١ سراج القاري ١٩٢.

(٣) أخرجه الطبري في التفسير ٥٧٢/٨ (٩٩٩٩) وزاد نسبه السيوطي في الدر ١٨٧/٢ لابن المنذر وابن أبي حاتم.

يستحسنونه منهم. وقال الضحاك^(١): ولو ردوا أمرهم في الحلال والحرام، إلى الرسول في التصديق به والقبول منه، وإلى أولى الأمر منهم، يعني حملة الفقه والحكمة، لعلمه الذين يستنبطونه منهم، يعني يتفحصون عن العلم، ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ بالقرآن ﴿لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً﴾ وهم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، وفي هذه الآية دليل على جواز الاستنباط من الخبر والكتاب، لأن الله تعالى قد أجاز الاستنباط من قبل الرسول وأهل العلم ثم قال: ﴿فقاتل في سبيل الله﴾ أي في طاعة الله ﴿لا تكلف إلا نفسك﴾، قال مقاتل: يعني ليس عليك ذنب غيرك، وقال الزجاج، أمر الله تعالى رسوله - صلى الله عليه وسلم - بالجهاد، وإن قاتل وحده، لأنه قد ضمن له النصر، وقال أبو بكر في أهل الردة: لو خالفني يميني لجاهدت بشمالي. ويقال: واعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أبا سفيان بأن يخرج إلى بدر الصغرى فكره المسلمون الخروج (فأمره الله تعالى بأن يخرج، وإن كان وحده) فقال: ﴿وحررض المؤمنين﴾ أي على القتال يعني على الجهاد، بقتال أعداء الله ﴿وعسى الله أن يكف بأس الذين كفروا﴾ أي يمنع قتال الذين كفروا، واليأس: هو القتال. كما قال في آية أخرى: (وحين البأس) ثم قال تعالى: ﴿والله أشد بأساً﴾ أي عذاباً، ويقال: قوة ﴿وأشد تنكيلاً﴾ أي أشد عقوبة في الآخرة عن عقوبة الكفار في الدنيا.

مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا
وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِينًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حِجَّتُمْ بِحِجَّةٍ فَحِوُوا بِأَحْسَنِ مِمَّا أَوْرَدُوهَا إِنْ اللَّهُ كَانَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ
اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾

قوله تعالى: ﴿من يشفع شفاعاً حسنة يكن له نصيب منها﴾. قال الضحاك: يعني من سن سنة حسنة في الإسلام فله أجرها، وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيء^(٢). ﴿ومن يشفع شفاعاً سيئة يكن له كفل منها﴾ أي من سن في الإسلام سنة قبيحة محدثة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء. وقال الكلبي: (من يشفع شفاعاً حسنة) يعني يصلح بين اثنين يكن له أجر منها (ومن يشفع شفاعاً سيئة) يمشي بالنميمة والغيبة، يكن له كفل منها، يعني إثم منها. وقال مجاهد: إنما هي شفاعاً في الناس بعضهم لبعض، يعني يشفع لأخيه [المسلم]^(٣) في دفع المظلمة عنه. وروى سفيان، عن عمرو بن دينار أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: اشفعوا إلي تؤجروا، فإن الرجل منكم يسألني الأمر فأمنعه كي ما تشفعوا فتؤجروا^(٤). وقال الحسن: الشفاعة تجري أجرها لصاحبها ما جرت منفعتها. والكفل في اللغة: ^(٥) النصيب،

(١) أخرجه الطبري في المصدر السابق (١٠٠٥) وانظر معالم التنزيل للبغوي ٤٥٦/١.

(٢) وهذا تفسير بالحديث، والحديث أخرجه مسلم ٧٠٥/٢ في الزكاة باب الحث على الصدقة (١٠١٧/٦٩) وأحمد ٣٥٧/٤، ٣٥٩ والطبراني في الكبير ٣٩٤/٢.

(٣) سقط من ظ.

(٤) أخرجه النسائي ٧٨/٥ في باب الاحتياض في الصدقة (٢٥٥٧) وبنحوه أخرجه البخاري ٣٥١/٣ في الزكاة (١٤٣٢) و٦٠٢٧، ٦٠٦٨، ٧٤٧٦، وأخرجه أبو داود (٥١٣٢)، وأحمد ٤٠٤/٤، ٤٠٩، والبيهقي في السنن الكبرى ١٦٧/٨ والحميدي ٧٧١.

(٥) أنظر الصحاح ١٨١١/٤ والمغرب ٢٢٧/٢ المصباح ٨٢٧/٢.

كقوله تعالى: (يؤتكم كفلين من رحمته). ثم قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ والمقيت: المقتدر، يقال: أقات على الشيء، يعني اقتدر، ويقال: المقيت، الشاهد على الشيء الحافظ له، ويقال: مقيتاً، يعني بيده الرزق وعليه قوت كل دابة، كقوله تعالى: (وقدر فيها أقواتها). قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ﴾ يعني إذا سلم عليكم ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنِ مِنْهَا﴾ أي ردوا جوابها، بأحسن منها ﴿أَوْ رُدُّوْهَا﴾ أي مثلها، فأمر الله تعالى المسلمين برد السلام، بأن يردوا بأحسن منها، وهو أن يقولوا: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، أو يرد مثله، فيقول: وعليكم السلام. وقال قتادة: فحيوا بأحسن منها للمسلمين، أو ردوها لأهل الذمة. فيقول لهم: وعليكم^(١). وروي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن رجلاً دخل عليه، وقال: السلام عليكم، فقال له وعليكم السلام فلك عشر حسنات، ودخل آخر فقال السلام عليكم ورحمة الله، فرد عليه، فقال: لك عشرون حسنة، ودخل آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد عليه، فقال: لك ثلاثون حسنة^(٢). وروي عنه أنه نهى أن ينقص الرجل من سلامه، أو من رده، وهو أن يقول: السلام عليك، ولكن ليقبل: السلام عليكم. ويقال: إنما ذلك للمؤمنين، لأن المؤمن، لا يكون وحده، ولكن يكون معه الملائكة^(٣). وفي هذه الآية دليل: أن السلام سنة، والرد واجب، لأن الله تعالى أمر بالرد، والأمر من الله تعالى واجب. ويقال (وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوْهَا) يعني إذا أهدي إليكم بهدية، فكافئوا بأفضل منها أو مثلها، وهذا التأويل ذكر عن أبي حنيفة. ثم قال تعالى: ﴿إِنِ اللَّهُ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ أي مجازياً. قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ نزلت في شأن الذين شكوا في البعث، فأقسم الله تعالى بنفسه ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ وهذه لام القسم، وكل لام بعدها نون مشددة، فهي لام القسم، وقوله: ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ قال بعضهم: إلى صلة في الكلام، معناه ليجمعنكم يوم القيامة. ويقال: ليجمعنكم في الموت، وفي قبوركم إلى يوم القيامة، ثم يبعثكم ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا شك فيه، وهو البعث، يعني لا شك فيه عند المؤمنين، ويقال: يعني لا ينبغي أن يشك فيه، ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ أي من أوفى من الله قولاً وعهداً. قرأ حمزة والكسائي: ^(٤) (ومن أزدق) بالزاي وقرأ الباقون: (أصدق) وأصله الصاد، إلا أنه لقرب مخرجيهما يجعل مكانه زاي. قوله تعالى:

فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتٌ صُدُّوهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ٥٨٧/٨ (١٠٠٤٠).

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤٣٩/٤ - ٤٤٠ والدارمي في السنن ٢٧٧/٢ - ٣٨١ في الاستئذان وأبو داود ٣٧٩/٥ في الأدب ٥١٩٥ والترمذي ٥٢/٥ - ٥٣ في الاستئذان (٢٦٨٩) وقال حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وأخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة ٣٣٧.

(٣) أخرجه أبو داود ٣٨٧/٥ في الأدب (٥٢٠٩) والترمذي ٧٢/٥ في الاستئذان (٢٧٢٢) وقال حسن صحيح والنسائي في عمل اليوم والليلة ٣١٨.

(٤) انظر شرح شعبة ٣٤٢، وسراج القاري ١٩٣.

أَوْ يَقْتُلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يَقْتُلُوكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ أَخْرَيْنَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَارَدُّوْا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخَذُوهُمْ وَأَقْلُبُوهُمْ حَيْثُ تَفَقَّطْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿٩١﴾

﴿فما لكم في المنافقين فئتين﴾ نزلت في تسعة نفر ارتدوا عن الإسلام، فخرجوا من المدينة، وانطلقوا إلى مكة، ثم إنهم خرجوا تجاراً إلى الشام، فقال بعض المسلمين: نخرج إلى هؤلاء ونقتلهم ونأخذ أموالهم، وقال بعضهم: هم مسلمون فلا يجوز أخذ أموالهم، ويقال: كان قوم من المنافقين بمكة، خرجوا إلى الشام، فاختلف المسلمون في أمرهم، فبين الله تعالى للمسلمين نفاقهم ا فقال تعالى: ﴿فما لكم في المنافقين﴾ يعني، صرتم في المنافقين فئتين أي فريقين تختصمون في أمرهم ﴿والله أركسهم بما كسبوا﴾ أي أذلهم ويقال: أهلكهم، ويقال: أركسهم: أي ردهم إلى كفرهم، ويقال: ركست الشيء وأركسته إذا أردته إلى الحال الأول. ثم قال تعالى: ﴿أتريدون أن تهدوا من أضل الله﴾ [يعني أترشدون إلى الهدى من أضله الله] ^(١) ﴿ومن يضل الله﴾ عن الهدى ﴿فلن تجد له سبيلاً﴾ يعني، ديناً، ويقال: مخرجاً. ثم قال تعالى ﴿ودوا لو تكفروا﴾ أي ترجعون عن هجرتكم ﴿كما كفروا﴾ أي كما رجعوا ﴿فتكونوا﴾ أنتم وهم على الكفر ﴿سواء﴾ ومن هذا يقال في المثل: إن من أحرق يوماً كدسه، يتمنى حرق أكداش الأمم، فكذلك الكفار، كانوا يتمنون أن يكون الناس كلهم كفاراً، حتى يحترقوا معهم. قال الله تعالى: ﴿فلا تتخذوا منهم أولياء﴾ في الدين والنصرة ﴿حتى يهاجروا في سبيل الله﴾ حتى يتوبوا، ويرجعوا إلى دار الهجرة بالمدينة ﴿فإن تولوا﴾ يعني أبوا الهجرة ﴿فخذوهم﴾ يعني فأسروهم ﴿واقتلوهم حيث وجدتموهم﴾ يعني أين وجدتموهم من الأرض. ﴿ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً﴾ في العون. ثم استثنى الذين كان بينهم وبين المسلمين عهد فقال: ﴿إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ وهم خزاعة، وبنو مدلج، وبنو خزيمة، وهلال بن عويمر الأسلمي وأصحابه، صالحهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على أن كل من أتاهم من المسلمين، فهو آمن ومن جاء منهم إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فهو آمن، وفي هذه الآية إثبات المودعة بين أهل الحرب وأهل الإسلام إذا كانت في المودعة مصلحة للمسلمين. ثم قال تعالى: ﴿أو جاءوكم حصرت صدورهم﴾ أي ضاقت قلوبهم ﴿أن يقاتلوكم﴾ من قبل العهد ﴿أو يقاتلوا قومهم﴾ معكم من قبل القرابة. ثم قال تعالى: ﴿ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم﴾ ذكر مته على المؤمنين أنه يدفع عنهم البلاء، ومنعهم عن قتالهم، ثم قال تعالى: ﴿فإن اعتزلوكم﴾ في القتال ﴿فلم يقاتلوكم، وألقوا إليكم السلم﴾ أي الصلح، معناه أنهم لو ثبتوا على صلحهم، فلا تقاتلوهم، فذلك قوله: ﴿فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً﴾ أي حجة وسلطاناً في قتالهم، ثم قال عز وجل: ﴿ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم﴾ وهم أسد وغطفان، كانوا إذا أتوا إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - يقولون: آمنا بك، وإذا رجعوا إلى قومهم قالوا: آمنا بالعقرب والخنفساء، يقول: إنهم لم يريدوا بذلك تصديق النبي - صلى الله عليه وسلم - وإنما أرادوا به الاستهزاء. وقال مجاهد: ^(٢) هم ناس من أهل مكة كانوا يأتون النبي - صلى الله عليه وسلم - ويسلمون رياء، ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون بالأوثان، ويريدون أن يأمنوا ها هنا، وها هنا، فذلك قوله تعالى: ﴿كلما ردوا إلى الفتنة﴾، يقول: كلما دعوا إلى الشرك

﴿أركسوا فيها﴾ يقول: عادوا إليه، ودخلوا فيه ﴿فإن لم يعتزلوكم﴾ في القتال ﴿ويلقوا إليكم السلم﴾ أي لم يلقوا إليكم الصلح ﴿ويكفوا أيديهم﴾ عن قتالكم، يعني إن لم يكفوا أيديهم ﴿فخذوهم﴾ يعني أسروهم ﴿واقتلوهم حيث ثقتموهم﴾ يعني حيث أدرتموهم، ووجدتموهم ﴿وأولئكم﴾ يعني أهل هذه الصفة ﴿جعلنا لكم عليهم سلطاناً﴾ يعني حجة ﴿مبيناً﴾ أي حجة مبينة في القتال. وقوله تعالى:

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾

﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ﴾ يقول: وما جاز لمؤمن أن يقتل مؤمناً متعمداً، إلا خطأ بغير قصد منه، ويقال: معناه، ولا خطأ أي ما جاز له أن يقتل عمداً ولا خطأ. ثم قال تعالى: ﴿ومن قتل مؤمناً خطأ﴾ نزلت الآية في شأن عياش بن أبي ربيعة^(١)، حين قتل الحارث بن زيد^(٢)، وذلك أن عياشاً هاجر إلى المدينة مؤمناً، فجاءه أبو جهل بن هشام، والحارس بن هشام^(٣) وهما أخواه لأمه، ومعهما الحارث بن زيد، فقالوا له: إن أمك تناشدك بحقها، ورحمها أن ترجع إليها، وإنك أحب الأولاد إليها، وقد حلفت ألا يظلمها بيت، ولا تأكل طعاماً، ولا تشرب شراباً حتى ترجع إليها، فارجع إليها وكن على دينك، فخرج معهم، فلما خرج من المدينة أوثقوه بحبل وضربوه، وحملوه إلى مكة، وألقوه في الشمس وحلفت أمه بأن لا يحله أحد ما لم يكفر بالله، فتركوه على حاله حتى أعطاهم الذي أرادوه، فحلوه من الوثاق فقال له الحارث بن زيد: إن كان الذي كنت عليه هدى، فقد تركته، وإن كان ضلالة فقد كنت في ضلالة، فحلف عياش بأن يقتل الحارث بن زيد إذا لقيه خالياً. ثم إن عياشاً خرج إلى المدينة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم أسلم الحارث بن زيد بعد ذلك فلقية عياش في بعض سكك المدينة ولم يعلم بإسلامه فقتله، ثم علم بإسلامه، فأتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخبره بالأمر الذي كان منه، فنزلت هذه الآية^(٤) فيه وصارت الآية عامة لجميع الناس، وهو قوله: ﴿ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقة مؤمنة﴾ أي فعليه عتق رقة مؤمنة، ولو أعتق رقة كافرة لم يجز بالإجماع. ﴿ودية مسلمة إلى أهله﴾ أي وعليه دية مسلمة إلى أهل القتل، والدية مائة من الإبل، ﴿إلا أن يصدقوا﴾ وأصله: يتصدقوا، فادغم التاء في الصاد، وأقيم التشديد مقامه، ومعناه، إلا أن يعضو عنه أولياء القتل، ولا يأخذوا منه شيئاً، ثم قال: ﴿فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن﴾ يعني إن كان القتل من أهل الحرب، وقد أسلم في دار الحرب، فقتله رجل في دار الحرب، فعلى

(١) عياش بن أبي ربيعة عمرو بن المغيرة المخزومي هاجر إلى الحبشة له أحاديث قتل يوم اليرموك أو اليمامة. الخلاصة ٣١٤/٢.

(٢) الحارث بن زيد بن أنيسة وقيل ابن يزيد من بني معيض بن عامر القرشي العامري. الإصابة ٣٠٨/١.

(٣) الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو أبو عبد الرحمن القرشي المخزومي أخو أبي جهل أسلم يوم فتح مكة. الإصابة

٣٠٧/١.

(٤) انظر أسباب النزول للواحدي ١٢٦.

القاتل الكفارة، عتق رقبة مؤمنة ولا دية عليه، وهذا بالإجماع. وقد نزلت في شأن أسامة بن زيد، قتل رجلاً يقال له: مرداس، وكان مسلماً، فنزلت هذه الآية^(١). وروي عن عطاء بن السائب عن ابن عباس أنه قال: كان الرجل [يأتي فيسلم، ثم] يأتي قومه، وهم مشركون، فيقيم فيهم فيغزوهم جيوشاً من جيوش رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيقتل الرجل، فنزلت هذه الآية: (٣) (فإن كان من قوم عود لكم وهو مؤمن) ﴿فتحرير رقبة مؤمنة﴾ وليس عليه دية، ثم قال: ﴿وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ يعني إن كان المقتول من أهل الذمة، ﴿فدية مسلمة﴾ أي فعليه دية مسلمة ﴿إلى أهله﴾ ﴿و﴾ عليه أيضاً ﴿تحرير رقبة مؤمنة﴾. وروي عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - أن مستأمنين دخلا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فكساهما وحملهما، فلما خرجا من عنده لقيهما عمرو بن أمية الضمري، فقتلهما، ولم يعلم أنهما مستأمنان ففداهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بدية حرين مسلمين، فنزلت هذه الآية: (وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة) ولهذا قال علماؤنا^(٤) - رحمهم الله - إن دية الذمي والمسلم سواء، وهكذا روي عن أبي بكر وعمر وعثمان - رضي الله عنهم - أن دية الذمي والمسلم سواء، مائة من الإبل، ثم قال: ﴿فمن لم يجد﴾ أي قاتل الخطأ إذا لم يجد رقبة مؤمنة ﴿فصيام شهرين﴾ أي فعليه صيام شهرين ﴿متتابعين توبة من الله﴾ أي تلك الكفارة، توبة للقاتل من الله تعالى. ويقال: سبب التجاوز من الله. ثم قال: ﴿وكان الله عليماً﴾ يعني عليماً بالقاتل ﴿حكيماً﴾ حكم بالكفارة على من قتل خطأ.

وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾

قوله تعالى: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم﴾ روي عن سالم بن أبي الجعد^(٥) قال: كنت عند عبد الله بن عباس بعدما كف بصره فجاءه رجل فناداه: ما تقول فيمن قتل مؤمناً متعمداً، فقال: جزاؤه جهنم خالداً فيها. ﴿وغضب الله عليه ولعنه، وأعد له عذاباً عظيماً﴾. فقال: رأيت: إن تاب وآمن، وعمل صالحاً، ثم اهتدى. قال: وأني له الهدى سمعت نبيكم - صلى الله عليه وسلم - يقول: يأتي قاتل المؤمن متعمداً، ويتعلق به المقتول عند عرش الرحمن، فيقول: يا رب، سل هذا فيم قتلني؟ فوالذي نفسي بيده في هذا أنزلت هذه الآية، فما نسختها آية بعد نبيكم، وما نزل بعده من برهان^(٦). وروي عن ابن عمر، وأبي هريرة أنهما قالوا: لا توبة له^(٧) وقال غيرهم له

(١) انظر أسباب النزول ١٢٩. (٢) سقط في أ. (٣) انظر أسباب النزول ١٢٥.

(٤) وذهب الشافعية ومن لف لفهم إلى أن دية أهل الكتاب ثلث دية المسلم، وروي ذلك عن عمر وعثمان وهو قول سعيد بن المسيب وعكرمة وإسحاق. انظر شرح السنة ٢٠٤/١٠، مغني المحتاج ٥٧/٤. وانظر تفسير الطبري ٥١/٩ وما بعدها.

(٥) سالم بن أبي الجعد رافع الأشجعي مولا هم الكوفي ثقة توفي سنة ١٠٠ هـ. التهذيب ٤٣٢/٣.

(٦) أخرجه ابن جرير الطبري ٦٣/٩ (١٠/٨٨) وأحمد في المسند (٢١٤٢).

(٧) قال البغوي في تفسيره ٤٦٥/٥ والذي عليه الأكثر وهو مذهب أهل السنة أن قاتل المسلم عمداً توبته مقبولة لقوله تعالى: ﴿وإني لأغفّر لمن تاب وآمن وعمل صالحاً﴾ وقال: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾. وما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما فهو تشديد ومبالغة في الزجر عن القتل، كما روي عن سفيان بن عيينة أنه قال: إن لم يقتل يقال له لا توبة لك، وإن قتل ثم جاء يقال لك توبة. ويروى مثله عن ابن عباس رضي الله عنهما وليس في الآية متعلق لمن يقول بالتخليل في النار بارتكاب الكبائر لأن الآية نزلت في قاتل وهو كافر وهو «مقيس بن صُبَّابة» وقيل: إنه وعيد لمن قتل مؤمناً مستحلاً لقتله بسبب إيمانه.

التوبة، لأن الله تعالى ذكر الشرك، والقتل، والزنا، ثم قال: (إلا من تاب وآمن... إلى قوله... فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات) ويقال: معناه، فجزاؤه جهنم خالداً فيها، أي داخلاً فيها، لأنه لم يذكر فيها الأبد، كما أن الرجل يقول: خلدت فلاناً في السجن، أي أدخلته ويقال: فجزاؤه جهنم أي إن جازاه وروى أنس بن مالك عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: إذا وعد الله لعبده ثواباً، فهو منجزه، وإن أوعده له العقوبة، فله المشيئة، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفى عنه^(١). ويقال: معناه، من يقتل مؤمناً متعمداً، يعني مستحلاً لقتله فجزاؤه جهنم خالداً فيها، لأنه كفر باستحلاله، ويقال: (ومن يقتل مؤمناً متعمداً) يعني يقتله متعمداً، لأجل إيمانه، كما روي في الأثر: أن بغض الأنصار كفر^(٢)، إن كان بغضهم لأجل نصرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فكذلك ههنا إذا قتله لأجل إيمانه، صار كافراً، ويقال: هو منسوخ بقوله تعالى: (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) ويقال: معناه فجزاؤهم جهنم بقتله، خالداً فيها بارتداده، لأن الآية نزلت في شأن رجل قتل مؤمناً متعمداً^(٣)، ثم ارتد عن الإسلام، وهو مقيس بن ضبابة، وجد أخاه هشام بن ضبابة قتيلاً في بني النجار، فذكر ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فبعث معه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رجلاً من بني فهر إلى بني النجار، وأمره: بأن يقرئهم السلام، ويأمرهم بأن يطلبوا قاتله، فإن وجدوه قتلوه، وإن لم يجدوه، حلفوا خمسين يميناً وغرموا الدية، فلما أتاهم مقيس بن ضبابة، رسول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبلغهم الرسالة، فقالوا: سمعاً وطاعة لأمر الله ورسوله، وقالوا: ما نعرف قاتله، فحلفوا وغرموا الدية، فلما رجع مقيس بن ضبابة قال في نفسه: إني بعثت دم أخي بمائة من الإبل، ودخلت فيه حمية الجاهلية، وقال: أقتل هذا الفهري مكان أخي، وتكون الدية فضلاً لي، فقتله، وتوجه إلى مكة وقال في ذلك شعراً:

قتلت به فهراً وحملت عقله سراة بني النجار أرباب فارع^(٤)
فادركت ثأري واضطجعت موسداً وكنت إلى الأوثان أول راجع^(٥)

= ومن استحل قتل أهل الإيمان لإيمانهم كان كافراً مخلداً في النار، وقيل قوله تعالى: ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا﴾ معناه هي جزاؤه إن جازاه ولكنه إن شاء عذبه وإن شاء غفر له بكرمه فإنه وعد أن يغفر لمن يشاء، حكى أن عمرو بن عبيد جاء إلى أبي عمرو بن العلاء فقال له: هل يخلف الله وعده؟ فقال: لا، فقال: أليس قد قال الله تعالى ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا﴾ فقال أبو عمرو بن العلاء: من العجم أتيت يا أبا عثمان، إن العرب لا تعد - الإخلاف في الوعيد خلفاً وذماً، وإنما تعد إخلاف الوعد خلفاً وذماً وأنشد:

وإني وإن أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادي ومنجز موعدي
والدليل على أن غير الشرك لا يوجب التخليد في النار: ما رويناه أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: (من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة). انظر تفسير البغوي ٤٦٥/١.

(١) انظر تفسير القرطبي ٢١٥/٥.

(٢) انظر فضائل الأنصار في صحيح البخاري ١٣٧/٧ وما بعدها وفي الحديث الصحيح سمعت البراء بن عازب رضي الله عنه قال سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق. فمن أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله» البخاري ١٤١/٧ في مناقب الأنصار ٣٧٨٣.

(٣) انظر تفسير القرطبي ٢١٥/٥.

(٤) والبيت هكذا في أ:

ثَأَرْتُ بِهِ مَهْزَا وَحَمَلْتُ عَقْلَهُ سَرَاةَ بَنِي النَّجَّارِ أَرْبَابَ فَارِع

(٥) انظر سيره ابن هشام ٣٠٥/٣، وتاريخ الطبري ٦٦/٣، تفسير الطبري ٦٢/٩.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ أَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ فَتَبَيَّنُوا إِنْ أَتَى اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَيْرًا ﴿٩٤﴾

فنزلت هذه الآية في شأنه، إن جزاءه جهنم خالداً فيها وكل من يعمل مثل عمله ثم قال عز وجل ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله﴾ أي يقول: إذا خرجتم، وصرتم في الجهاد ﴿فتبينوا﴾ نزلت الآية في شأن أسامة بن زيد، لقي رجلاً يقال له: مرداس، فقال له مرداس: لا إله إلا الله، وسلم عليهم، وقال: السلام عليكم، إني مؤمن فقتله أسامة ولم يصدقه بأنه مسلم، فأخبر بذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: أقتلت رجلاً يقول: لا إله إلا الله، فقال أسامة إنه قال بلسانه دون قلبه. فقال - صلى الله عليه وسلم -: هلا شققت عن قلبه، فقال أسامة: استغفر لي، فقال له: فكيف لك بلا إله إلا الله ثلاث مرات، ثم استغفر له الرابعة، وأمره بأن يعتق رقبة. وروى شهر بن حوشب، عن جندب بن سفيان، عن رجل من بجيلة قال: كنت عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذ جاءه بشير من السرية، فأخبره بالفتح، وقال يا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بينما نحن نطلب القوم، وقد هزمهم الله تعالى، فقصدت رجلاً بالسيف، فلما أحس أن السيف واقع به، فقال: إني مسلم، فقتلته، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أقتلت مسلماً! فقال: يا رسول الله؛ إنه قال متعوذاً، فقال - صلى الله عليه وسلم - أفلا شققت عن قلبه^(١)! فقال: يا رسول الله استغفر لي، فقال: لا استغفر لك، فمات الرجل فدفنوه ثم أصبح على وجه الأرض، ثم دفنوه، ثم أصبح على وجه الأرض ثلاث مرات فلما رأى ذلك قومه، استحيوا وحزنوا، فحملوه وألقوه في شعب من تلك الشعاب، فنزلت هذه الآية: (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا) أي قفوا وانظروا من تقتلون^(٢). قرأ حمزة والكسائي: (٣) (فتثبتوا) بالشاء، وقرأ الباقر (فتبينوا) بالباء، فمن قرأ بالشاء فهو من التثبت، يقول: قفوا، ولا تعجلوا في الأمر حتى يتبين لكم الكافر من المسلم، ومن قرأ بالباء، فهو من التبين، ومعناها قريب. ثم قال تعالى: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً﴾ قرأ أبو عمرو، وعاصم، وابن كثير، والكسائي: (٤) (السلام) بالالف. وقرأ نافع، وابن عامر، وحمزة: (السلام) بغير ألف، وأما من قرأ: (السلام)، فلأن مرداساً قال لهم: السلام عليكم، وأما من قرأ السلام، فهو الدخول

= شَفَى النَّفْسَ أَنْ قَدْ بَاتَ بِالقَاعِ مُسْنَدًا
وَكَانَتْ هُمُومُ النَّفْسِ مِنْ قَبْلِ قَتْلِهِ
حَلَلْتُ بِهِ وَتَرِي وَأَدْرَكْتُ تُؤَرَّتِي
ثَارَتْ بِهِ فَهْرًا

في المخطوطة: (قَتَلْتُ بِهِ فَهْرًا) وليس صواباً إنما قتل قاتل أخيه هشام بن صُبَابَةَ قالوا: اسمه (أوس) لا (فهر). أما (فهر) في قوله: (ثارت به فهر) فإنه يعني أبناء فهر وهم رهطه أدرك ثارهم بقتله الأنصاري وفي مطبوعة تاريخ الطبري (قهرًا) بالقاف والصواب بالفاء و(فارح) أطم بالمدينة لبني النجار كان «الحسان بن ثابت» رحمه الله ذكره في شعره. من الطبري ٦٢/٩.

- (١) بنحوه أخرجه البخاري ١٩٩/١٢ في الدييات (٦٨٧٢)، ومسلم ٩٦/١ في كتاب الإيمان (٩٦/١٥٨) وأبو داود (٢٦٤٣)، والطحاوي في مشكل الآثار ٢٥١/٤، ٢٥٨ والبيهقي في السنن الكبرى ١٩/٨. وابن أبي شيبه في المصنف ١٢٢/١٠.
(٢) أسباب النزول للواحدي ١٢٨. (٣) انظر النشر في القراءات العشر ٢٥٤/١. (٤) انظر المصدر السابق.

والانقياد، والمتابعة، يعني إن انقاد لكم، وتابعكم فلا تقولوا له: لست مؤمناً، وأسلم، واستسلم بمعنى واحد، أي دخل في الانقياد، كما تقول: أشى الرجل، إذا دخل في الشتاء، وأربع إذا دخل في الربيع. ثم قال: ﴿تبتغون عرض الحياة الدنيا﴾ وذلك أن الرجل كانت معه غنيمة حين قتله، وأخذوا ما كان معه من الغنيمة، فغيرهم الله تعالى بطمعهم في المال، ثم قال: ﴿فعند الله مغنم كثيرة﴾ أي عند الله ثواب كثير في الآخرة لمن اتقى، ويقال: غنائم كثيرة في الدنيا، فاطلبوا من حيث أذن لكم، وأبىح لكم، ثم قال تعالى: ﴿كذلك كنتم من قبل﴾ أي هكذا كنتم من قبل الهجرة بمنزلة مرداس تأمنون في قومكم بالتوحيد، من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا تخيفوا أحداً، وكنتم تأمنون بمثله قبل هجرتكم ﴿فمن الله عليكم﴾ بالهجرة، ويقال: هكذا كنتم، يعني كنتم تكتمون إيمانكم من قبل، ويقال: أي كنتم كفاراً، فمن الله عليكم بالإسلام، ثم قال تعالى: ﴿فتبينوا﴾ أي ففوا، وانظروا في أمركم لكي لا تقتلوا مؤمناً، فصارت الآية عامة لجميع السرايا، إذا دخلوا دار الحرب، ينبغي أن يتبينوا لكي لا يقتلوا مؤمناً. ثم قال: ﴿إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ أي عالماً بكم وبأعمالكم. ثم قال تعالى:

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ
الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾

﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين﴾ يعني القاعدين عن الجهاد لا يكون حالهم مثل حال الذين يجاهدون في الثواب والأجر ﴿غير أولي الضرر﴾ أي القاعدين الذين لا عذر لهم، ومن كان له عذر، فهو خارج من هذا، قال ابن عباس: يعني، ابن أم مكتوم^(١)، ومحمد بن جحش، ويقال: عبد الله بن جحش^(٢) فقال: إنا عميان فهل لنا من رخصة فنزلت^(٣) (غير أولي الضرر) حدثنا أبو الفضل بن أبي حفص، قال: حدثنا أبو جعفر الطحاوي، قال: حدثنا إبراهيم بن داود، قال: حدثنا عبد العزيز بن عبد الله الأوسي^(٤) قال: حدثنا إبراهيم بن سعد^(٥) عن صالح ابن كيسان^(٦)، عن ابن شهاب^(٧)، عن سهل بن سعد الساعدي قال: رأيت مروان بن الحكم^(٨) جالساً في المسجد، فأقبلت حتى جلست إلى جنبه، فأخبرنا أن زيد بن ثابت أخبره، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أملى عليه: (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر)، ﴿والمجاهدون في سبيل الله﴾ فجاءه ابن أم مكتوم

(١) هو عبد الله بن عمرو بن شريح هو ابن أم مكتوم. الإصابة ١١١/٤.

(٢) عبد الله بن جحش، وصف بكونه أعمى، نزلت فيه وفي ابن أم مكتوم الآية الإصابة ٤٦/٤.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٢٥/٥ في التفسير باب (٥) (٣٠٣٢) وقال حسن غريب من هذا الوجه.

(٤) عبد العزيز بن عبد الله بن يحيى بن عمرو بن أويس العامري القرشي الأوسي أبو القاسم المدني الفقيه صدوق ثقة. التهذيب

٣٤٥/٦.

(٥) إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عوف الزهري المدني نزل بغداد ثقة حجة. التهذيب ١٢١/١.

(٦) صالح بن كيسان المدني أبو محمد مؤدب ولد عمر بن عبد العزيز وثقه ابن معين، التهذيب ٣٩٩/٤.

(٧) محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري أبو بكر المدني أحد الأئمة الأعلام وعالم الحجاز والشام. قال مالك:

كان ابن شهاب من أسخى الناس وتقياً ماله في الناس. الخلاصة ٤٥٧/٢.

(٨) مروان بن الحكم بن أبي العاص الأموي أمير المدينة أيام معاوية ثم بوع بالخلافة، ولد بعد الهجرة بأربع سنوات، وكانت ولايته

تسعة أشهر. التهذيب ٩١/١٠.

وهو يملئها علي فقال: يا رسول الله: لو استطيع الجهاد لجاهدت، وكان رجلاً أعمى، فأنزل الله تعالى على رسوله - صلى الله عليه وسلم - وفخذه على فخذي فثقلت علي حتى خفت أن يرخص فخذي ثم سري عنه [أي زال عنه التغير] ^(١) فأنزل الله تعالى: (غير أولي الضرر) ^(٢) يعني، إلا أن يكون أولي الضرر. قرأ نافع والكسائي، وابن عامر: (غير أولي الضرر) بنصب الراء. وقرأ حمزة وعاصم، وابن كثير، وأبو عمرو: (غير أولي الضرر) بالضم ^(٣). وقرأ بعضهم: (غير أولي الضرر) بالكسر، فمن قرأ بالضم جعله نعتاً للقاعدين، أي يعني لا يستوي القاعدون غير أولي الضرر، ومن قرأ بالنصب فهو على معنى الاستثناء، ويقال: هو نصب على الحال، ومن قرأ بالكسر، فلحرف الكسر وهو من قوله تعالى: (والمجاهدون في سبيل الله: ﴿بأموالهم وأنفسهم﴾، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين) أي بغير عذر ﴿درجة﴾ أي فضيلة في الآخرة ﴿وكللاً﴾ يعني المجاهدين والقاعدين، والمعذورين ﴿وعد الله الحسنی﴾ أي وعد الله لهم الثواب وهو الجنة، ثم قال تعالى: ﴿وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً﴾ أي بغير عذر ثم بين الأجر فقال: ﴿درجات منه ومغفرة﴾ أي فضائل من الله في الجنة أي سبعين درجة. روى هشام بن حسان عن جبلة بن عطية، عن ابن محيريز ^(٤) قال: ما بين الدرجتين، حضر الفرس أو الجواد سبعين عاماً. ثم قال تعالى: (ومغفرة) يعني مغفرة لذنوبهم، ﴿ورحمة﴾ نعمة في الجنة ﴿وكان الله غفوراً﴾ لمن جاهد ﴿رحيماً﴾ إذ سوى بين من له عذر بالفضل مع غيره. قوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْتَكُمَاؤُنْهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ^(١٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ^(١٨) قَالُوا لَيْتَكُمَاؤُنْهُمْ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَفْعُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفْوَاً غَفُورًا ^(١٩)

﴿إن الذين توفاهم الملائكة﴾ يعني ملك الموت يقبض أرواحهم ﴿ظالمي أنفسهم﴾ يعني الذين أسلموا

(١) سقط في ظ.

(٢) أخرجه البخاري ١٠٨/٨ في التفسير (٤٥٩٢)، وأخرجه الترمذي (٣٠٣١).

(٣) قال ابن زنجلة قال الزجاج: فأما الرفع فمن جهتين: إحداهما أن يكون (غير) صفة للقاعدين وإن كان أصلها أن تكون صفة للنكرة المعنى: (لا يستوي القاعدون الذين هم غير أولي الضرر) أي لا يستوي القاعدون الأصحاء والمجاهدون وإن كانوا كلهم مؤمنين قال: ويجوز أن يكون (غير) رفعا على جهة الاستثناء المعنى: لا يستوي القاعدون والمجاهدون إلا أولو الضرر فإنهم يساؤون المجاهدين لأن الذي أقعدهم عن الجهاد الضرر.

ومن نصب جعله استثناء من القاعدين وهو استثناء منقطع عن الأول. المعنى: لا يستوي القاعدون إلا أولي الضرر فإنهم يساؤون، وحجتهم أن الأخبار تظاهرت بأن هذه الآية لما نزلت شكا ابن أم مكتوم إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عجزه عن الجهاد في سبيل الله فاستثنى الله أهل الضرر من القاعدين وأنزل (غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ).

ويروى عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال لي: اكتب (لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) فجاء عبد الله بن أم مكتوم فقال: (يا رسول الله إني أحب الجهاد في سبيل الله ولكن بي من الزمانة ما قد ترى، ذهب بصري) قال زيد: فثقلت فخذنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على فخذي حتى خشيت أن ترصها، ثم سري عنه، ثم قال: اكتب (لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ). انظر حجة القراءات ٢١٠ - ٢١١.

(٤) عبد الله بن محيريز الجمحي سكن بيت المقدس وهو من التابعين الثقات، ومن خير المسلمين. التهذيب ٣٢/٦.

بمكة وتخلفوا عن الهجرة، وخرجوا مع المشركين إلى بدر، فلما رأوا قلة المؤمنين شكوا وكفروا، فقتل بعضهم، فأخبر الله تعالى عن حالهم فقال تعالى ﴿قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ﴾ يعني الملائكة تقول لهم: في أي شيء كنتم؟ ويقال: أين كنتم عن الهجرة؟ ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي يقولون: كنا مقهورين في أرض مكة، لا نقدر أن نظهر الإيمان ﴿قَالُوا﴾ أي قالت الملائكة: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً﴾ يعني المدينة مطمئنة آمنة. ﴿فَتَهَاجَرُوا﴾ يعني تهاجروا إليها، فقال الله تعالى لمحمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿فَأُولَئِكَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي منزلهم ومصيرهم إلى النار ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أي بش المصير، صاروا إليها. حدثنا أبو الفضل بن أبي حفص، قال: [حدثنا الطحاوي قال: (١) حدثنا إبراهيم بن مرزوق، قال: حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ (٢)، عن حيوة بن شريح (٣) عن محمد بن عبد الرحمن بن نوفل (٤)، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: إن ناساً من المسلمين مع المشركين، يكثرون سواد المشركين، يأتي السهم يرمي به، فيصيب أحدهم فيقتله، فأنزل الله تعالى: (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم - الآية (٥)) ثم استثنى أهل العذر فقال: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ﴾ أي المقهورين ﴿مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ فليس ماوَاهم جهنم وهم الذين ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ أي لا يجدون سعة الخروج عنهم إلى المدينة ولا يعرفون طريقاً إلى المدينة. ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ﴾ أي يتجاوز عنهم وعسى: من الله واجب ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفْوَاً﴾ عنهم ﴿عَفْوَراً﴾ لهم فلا يعاقبهم. فقال عبد الله ابن عباس: أنا ممن استثنى الله يومئذ، وكنت غلاماً صغيراً وكان ذلك، قبل [نسخ] (٦) الهجرة، ثم نسخت الهجرة بعد فتح مكة. حدثنا أبو الفضل، ابن أبي حفص، قال: حدثنا الطحاوي، قال: حدثنا أبو أمية محمد بن إبراهيم قال: حدثنا عبيد الله بن موسى (٧)، قال: حدثنا إبراهيم بن إسماعيل، عن عبد الرحمن بن الحارث (٨)، عن عمرو بن شعيب (٩) عن أبيه، عن جده قال: لما فتح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكة خطب الناس فقال في خطبته: ولا هجرة بعد الفتح، وروى طاووس عن ابن عباس: أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال يوم الفتح: إنه لا هجرة، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا (١٠) ثم قال تعالى

وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴿١٠﴾ وَإِذَا ضَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ

(١) سقط في أ.

(٢) عبد الله بن يزيد المخزومي المدني المقرئ الأعور أبو عبد الرحمن مولى الأسود بن سفيان. التهذيب ٨٢/٦.

(٣) حيوة بن شريح بن صفوان بن مالك أبو زرعة المصري فقيه زاهد من الثقات. التهذيب ٦٩/٣.

(٤) محمد بن عبد الرحمن بن نوفل بن الأسود الأسدي المدني ثقة كثير الحديث. التهذيب ٣٠٧/٩.

(٥) أخرجه البخاري ١١١/٨ في كتاب التفسير (٤٥٩٦، ٤٥٩٦، ٧٠٨٥).

(٦) سقط في أ.

(٧) عبيد الله بن موسى بن أبي المختار العبسي، مولاهم، الكوفي أبو محمد الحافظ. التهذيب ٥٠/٧.

(٨) عبد الرحمن بن الحارث بن عبد الله بن عياش المخزومي أبو الحارث المدني ولد في زمان النبي - صلى الله عليه وسلم - التهذيب

١٥٦/٦.

(٩) عمرو بن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص القرشي السهمي. التهذيب ٤٨/٨.

(١٠) أخرجه البخاري ٣/٦ في الجهاد (٢٧٨٣)، ومسلم ٩٨٦/٢ في الحج (١٣٥٣/٤٤٥).

أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿١٠١﴾

﴿ومن يهاجر في سبيل الله﴾ يقول في طاعة الله إلى المدينة ﴿يجد في الأرض مراعماً كثيراً﴾ يقول ملجأً ومحولاً من الكفر إلى الإيمان ﴿وسعة﴾ من الرزق. وقال القتيبي: المراعغ، والمهاجر واحد، ويقال: راغمت وهاجرت لأنه إذا أسلم خرج مراعماً لأهله، أي مغايظاً لهم، والمهاجر، المنقطع. وقيل للذهاب إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - هجرة مراعغ، لأنه إذا خرج هجر قومه. وروي عن معمر عن قتادة، قال: لما نزلت: (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم.. الآية) فقال رجل من المسلمين - وهو مريض: والله مالي عذر إني أجد الدليل في الطريق، وأني لموسر، فاحملوني، فحملوه، فأدركه الموت في الطريق، فقال أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - لو بلغ إلينا لتم أجره، وقد مات بالتنعيم^(١) وجاء بنوه إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأخبروه بالقصة، فنزلت هذه الآية: ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله، ثم يدركه الموت﴾ يعني في الطريق ﴿فقد وقع أجره على الله﴾ أي ثوابه على الله الجنة ﴿وكان الله غفوراً﴾ لما كان منه في الشرك ﴿رحيماً﴾ حين قبل توبته، وكان اسمه جندع بن ضمرة. قوله تعالى: ﴿وإذا ضربتم في الأرض﴾ يعني إذا خرجتم إلى السفر ﴿فليس عليكم جناح﴾ ويقول: لا مائثم، ولا حرج عليكم ﴿أن تقصروا من الصلاة، إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ يعني يقتلكم، والفتنة في أصل اللغة الاختبار، ثم سمي القتل فتنة، لأن معنى الاختبار كما قال: (على خوف من فرعون وملأه أن يفتنهم) أي يقتلهم فالله تعالى، قد أباح قصر الصلاة عند الخوف، ثم صار ذلك عاماً لجميع المسافرين أن يقصروا من الصلاة، خافوا أو لم يخافوا. وروي عن عمر بن الخطاب - رضي الله عليه - أنه سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن ذلك فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته^(٢). ثم قال تعالى: ﴿إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً﴾ ظاهر العداوة، ومعناه، كونوا بالحذر منهم. قوله تعالى

وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَّرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾

﴿وإذا كنت فيهم، فأقمت لهم الصلاة﴾ يعني بالمؤمنين ومعناه، إذا كنت بحضرة العدو، وحضرت الصلاة، ﴿فلتقم طائفة منهم﴾ أي جماعة منهم ﴿معك﴾ في الصلاة ﴿وليأخذوا أسلحتهم﴾ يعني الذين يصلون معك، ويقال وليأخذوا أسلحتهم الذين هم بإزاء العدو، ﴿فإذا سجدوا﴾ يعني إذا صلوا الذين خلف الإمام ركعة واحدة

(١) وهو حبيب بن حمزة الليثي كما في أسباب النزول للواحدي ١٣٢.

(٢) أخرجه مسلم ٤٨٧/١ في كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة المسافرين (٦٨٦/٤).

﴿فليكونوا من ورائكم﴾ أي ينصرفون إلى موضع العدو ويقفون هناك، ﴿ولتأت طائفة أخرى، لم يصلوا﴾ كانوا بإزاء العدو ﴿فليصلوا معك﴾ ركعة أخرى، ولم يذكر في الآية لكل طائفة إلا ركعة واحدة، ولكن [ذكر] (١) في الخبر عن عبد الله ابن عمر (٢)، وغيره أن النبي - صلى الله عليه وسلم - حين صلى صلاة الخوف، صلى بالطائفة الاولى ركعة، وبالطائفة الأخرى ركعة كما ذكر في الآية، ثم جاءت الطائفة الاولى، وذهبت هذه الطائفة إلى موضع العدو، حتى قضت الطائفة الاولى الركعة الأخرى، وسلموا، ثم جاءت الطائفة الأخرى وقضوا الركعة الاولى، وسلموا، حتى صارت لكل طائفة ركعتان، وهذا اختيار أصحابنا في صلاة الخوف، ثم قال تعالى: ﴿وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا﴾ يقول: تمنى الذين كفروا ﴿لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم﴾ يعني أمتعة الحرب ﴿فيميلون عليكم ميلاً واحدة﴾ يعني يحملون عليكم حملة واحدة، وإنما حذرهم لكي يكونوا بالحد منكم. ثم قال تعالى: ﴿ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر، أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذرکم﴾ وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان في غزوة أنمار (٣)، فهزمهم، وسبى ذريتهم، فلما رجعوا أصابهم المطر، فزلوا وادياً تحت الأشجار، فوضع النبي - صلى الله عليه وسلم - سلاحه، وذهب إلى الجانب الآخر من الوادي وحده فجاء السيل، فحال بينه وبين أصحابه، وكان بعض المشركين على ذلك الجبل، فرآه حين حال السيل بينه وبين أصحابه فجاءه واحد منهم يقال: له حويرث بن الحارث وقال: أنا أقتله، فأتاه، وقال: يا محمد من يمنعك مني؟ فقال: الله عز وجل، فسل سيفه، وأراد أن يضربه، فدفع النبي - صلى الله عليه وسلم - الكافر في صدره دفعة، فسقط السيف من يده، فوثب عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأخذ سيفه، وقال: من يخلصك مني؟ فقال: لا أحد، فقال له: إن أسلمت حتى أرد عليك سيفك، فقال: لا أسلم، ولكن أعاهد الله تعالى ألا أكون لك ولا عليك أبداً، فرد عليه سيفه، فقال الرجل: يا محمد، أنت خير مني لأنك قدرت على قتلي، فلم تقتلني، فرجع الكافر إلى أصحابه فأخبرهم بالقصة، فأمن بعضهم، ثم انقطع السيل وجاء النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى أصحابه وأخبرهم بالقصة، وقرأ عليهم هذه الآية ﴿ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر، أو كنتم مرضى﴾ أي أصابتكم الجراحات، ﴿أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذرکم﴾ من العدو يعني كونوا بالحد منكم. وقال الضحاک: ﴿وخذوا حذرکم﴾ أي تقلدوا سيوفكم، وإنما ذلك هيبة الغزاة (٤). ثم قال تعالى: ﴿إن الله أعد للكافرين﴾ في الآخرة ﴿عذاباً مهيناً﴾ يهانون فيه. ثم قال عز وجل

فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ فِيمَا وُقُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا

(١) في ظ وروي.

(٢) انظر صلاة الخوف من طريق ابن عمر في صحيح البخاري ٤٢٩/٢ في كتاب الخوف باب صلاة الخوف (٩٤٢).

(٣) قال الحافظ بن حجر - رحمه الله - في الفتح ٤٩٤/٧ في كتاب المغازي باب غزوة أنمار، تابع حديث (٤١٤٠) ولم يذكر أهل المغازي، غزوة أنمار وذكر مغلطاي أنها غزوة أمير بفتح الهمزة وكسر الميم. فقد ذكر ابن إسحاق أنها كانت في صفر وعند ابن سعد: قدم قادم بجلب فأخبر أن أنمار وثعلبة قد جمعوا له فخرج لعشر خلون من المحرم فأتى محلهم بذات الرقاع، وقيل إن غزوة أنمار وقعت في أثناء غزوة بني المصطلق، لما روى أبو الزبير عن جابر: أرسلني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو منطلق إلى بني المصطلق فأتيته وهو يصلي على بعيره الحديث، ويؤيده رواية الليثي عن القاسم عن محمد أن النبي - صلى الله عليه وسلم - صلى في غزوة بني أنمار صلاة الخوف ويحتمل أن رواية جابر لصلاته - صلى الله عليه وسلم - تعددت.

(٤) انظر تفسير القرطبي ٢٣٩/٥.

الصلوة إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ
إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ
عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾

﴿فإذا قضيت الصلاة﴾ قال بعضهم: فإذا فرغتم من الصلاة، ﴿فاذكروا الله﴾ بالقلب واللسان على أي حال كنتم ﴿قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم﴾ إن لم تستطيعوا القيام، ويقال: فإذا قضيت الصلاة، أي إذا صليتم في دار الحرب، فصلوا على الدواب، أو قياماً، أو قعوداً، أو على جنوبكم، إن لم تستطيعوا القيام، إذا كان خوفاً، أو مرضاً، وهذا كما قال في آية أخرى: (فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً). يقال: (فإذا قضيت الصلاة) أي فرغتم من صلاة الخوف. ﴿فاذكروا الله﴾ أي فصلوا الله، وصلاة الصحيح قياماً، والمريض قاعداً، أو على جنوبكم إن كان المريض أشد من ذلك. ثم قال تعالى: ﴿فإذا اطمانتم﴾ يقول: أمتم، ورجعتم إلى منازلكم، ﴿فأقيموا الصلاة﴾ يعني: فأتوا الصلاة أربعاً، وهذا كقوله: (يمشون مطمئين) أي مطمئنين. ثم قال ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ يعني فرضاً مفروضاً، معلوماً للمسافر ركعتان، وللمقيم أربع، وقال مقاتل: ﴿كتاباً موقوتاً﴾ يعني فريضة معلومة، كقوله: (كتب عليكم) أي فرض عليكم. وقال الزجاج: ﴿كتاباً موقوتاً﴾ أي مفروضاً موقفاً فرضه. قوله تعالى: ﴿ولا تهنوا في ابتغاء القوم﴾ يقول: لا تضعفوا في ابتغاء القوم، أي في طلب المشركين أبي سفيان وأصحابه بعد يوم أحد، وذلك أن المسلمين، لما أصابتهم الجراحات يوم أحد، وكانوا يضعفون عن الخروج إلى الجهاد، فأمرهم الله تعالى بأن يظهروا من أنفسهم الجد والقوة، وهذا الخطاب لهم ولجميع المسلمين الغزاة إلى يوم القيامة، قوله: ﴿إن تكونوا تألمون﴾. قال عكرمة: الألم: الوجد، وكذلك قال الضحاك والسدي: (١) إن أصابكم الوجد والجراحات في الحرب ﴿فإنهم يألمون كما تألمون﴾ أي، يصيبهم الوجد مثل ما يصيبكم، ولكم زيادة ليست للمشركين وذلك قوله تعالى: ﴿وترجون من الله ما لا يرجون﴾ يعني الثواب في الآخرة ﴿وكان الله عليماً﴾ بما كان ﴿حكيماً﴾ بما يكون. ثم قال:

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَاتِمْ هَتُولَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾

﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق﴾ يعني أنزلنا عليك جبريل عليه السلام ليقرا عليك القرآن بالعدل، والأمر

(١) انظر تفسير الطبري (السدي) (١٠٤٠١) والضحاك (١٠٤٠٨).

والنهي ﴿لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ أي بما أعلمك الله، وألهمك، وبما أوحى إليك، ﴿ولا تكن للخائنين خصيماً﴾ ولا تكن للسارقين معيماً. وروى محمد بن إسحق^(١)، عن عاصم بن عمر^(٢)، عن جدّه قتادة بن النعمان^(٣) قال: كان بنو أبيرق، وكانوا ثلاثة^(٤) بشر، وبشير، ومبشر، فكان بشر يكنى، أبا طعمة، وكان شاعراً، وكان منافقاً، وكان يقول الشعر يهجو به أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم يقول: قال فلان، وكان لعمي رفاعه^(٥) بن زيد عليه فيها طعام، وسلاح، فطرقه بشر من الليل، فأخذ ما فيها من الطعام والسلاح، فلما أصبح عمي دعاني وقال له: إنه أغير علينا الليلة، فقلت: من فعله؟ فقال: بشير وأخوه فجئت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخبرته أن بشيراً قد سرق من عمي الطعام والسلاح، فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه، وأما السلاح فليردوه علينا، فجاء قومه، وكانوا أهل لسان وبيان فقالوا: إن رفاعه وابن أخيه عمدوا إلى أهل بيت منا يتهمونهم بالسرقة، فوقع قولهم عند النبي - صلى الله عليه وسلم - موقعاً، فبين الله خيانتهم فنزل^(٦): ﴿ولا تكن للخائنين خصيماً﴾ وهو ابن طعمة، وقال الضحاك سرق طعمة بن أبيرق اليهودي درعاً للزبير بن العوام، فاختصما إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال للزبير: لا بد لك من أن تأتي على ذلك بحجة قيمة، وشهادة صحيحة فأنزل الله تعالى تصديقاً لقوله ﴿ولا تكن للخائنين خصيماً﴾، وقال مقاتل^(٧): سرق طعمة بن أبيرق المنافق درعاً من يهودي فلما جاءوا إلى بيته بالأثر رمى الدرع في دار رجل من الأنصار، وأنكر فجاء قومه ليبرؤه من السرقة، فنزلت هذه الآية، وقال الكلبي: سرق طعمة بن أبيرق درعاً من جار له يقال له: قتادة بن النعمان، فوضعه عند رجل من اليهود يقال له: زيد بن السمين، وأنكر السرقة، فجاء قومه يخاصمون عنه، فنزلت هذه الآية: ﴿ولا تكن للخائنين خصيماً﴾^(٨). قوله تعالى: ﴿واستغفر الله﴾ عن جدالك، عن طعمة حين جادلت عنه، ﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾. ثم قال تعالى: ﴿ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم﴾ يقول: ولا تخاصم عن الذين يضرون أنفسهم بالسرقة ﴿إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً﴾ أي خائناً بالسرقة، فاجراً برميته على غيره. ثم قال تعالى: ﴿يستخفون من الناس﴾. قال الضحاك: لما سرق الدرع اتخذ حفرة في بيته، وجعل الدرع تحت التراب فنزل: يستخفون من الناس بالتراب ﴿ولا يستخفون من الله﴾ يقول: لا يخفى مكان الدرع على الله ﴿وهو معهم﴾ أي رقيب حفيظ عليهم. ويقال: يستخفون: يعني يستترون من الناس، وهم قوم طعمة ولا يستخفون من الله، يقال: ولا يقدر أن يستتروا من الله (وهو معهم) يعني عالماً بهم وبخيانتهم. ﴿إذ يبيتون﴾ يقول إذ يؤلفون، ويغيرون ﴿ما لا يرضى من القول﴾ يقول: ما لا يرضوا لأنفسهم من القول، وهم سرقوا، ويقال: ما لا يرضي الله ولا يحبه، ثم قال: ﴿وكان الله بما يعملون محيطاً﴾ أي عالماً بهم وبخيانتهم. ثم أقبل على قوم طعمة فقال: ﴿ها أنتم هؤلاء﴾ يقول: ها أنتم هؤلاء

(١) محمد بن إسحاق بن يسار المدني من أعلام التابعين من أحفظ الناس، التهذيب ٣٨/٩.

(٢) عاصم بن عمر بن قتادة بن النعمان بن زيد بن عامر الأنصاري توفي سنة ١٢٠ هـ. التهذيب ٥٤/٥.

(٣) قتادة بن النعمان بن زيد بن عامر الأنصاري الصحابي المشهور، الإصابة ٢٢٩/٥.

(٤) بشر بن الحارث بن عمرو بن الحارثة الأنصاري الظفري كان منافقاً يهجو الصحابة ثم سرق الدرع ثم ارتد. الإصابة ١٥٥/١.

(٥) رفاعه بن زيد بن عامر بن سوار الأنصاري الظفري عم قتادة. الإصابة ٢٠٩/٤.

(٦) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ١٧٧/٩ (١٠٤١١) وأخرجه الترمذي ٢٢٨/٥ في كتاب التفسير (٣٠٣٦) وقال حديث غريب

لا نعلم أحداً أسنده غير محمد بن سلمة الحراني. وروى يونس بن بكير وغير واحد هذا الحديث عن محمد بن إسحاق عن

عاصم بن عمر بن قتادة مرسلاً ولم يذكروا فيه عن أبيه عن جدّه، وقاتله هو أخو أبي سعيد الخدري لأمه وأخرجه الحاكم في

المستدرک ٣٨٥/٤ وزاد نسبته السيوطي في الدر المنثور ٢/٢١٤، ٢١٥ لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٨) انظر أسباب النزول ١٣٤.

(٧) انظر التفسير ٢٦٦/١.

﴿جادلتم﴾ أي خاصمتهم ﴿عنهم﴾ في الحياة الدنيا، فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة ﴿يقول﴾: فمن يخاصم الله عنهم يوم القيامة. ﴿أم من يكون عليهم وكيلًا﴾ أي، كفيلاً، ويقال: خصيماً.

وقال الضحاك^(١): أراد النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يقيم الحد على طعمة بن أبيرق وكان طعمة مطاعاً في اليهود، فجاءت اليهود شاكين في السلاح، وهربوا بطعمة وجادلوا عنه فنزل ها أنتم هؤلاء، يعني اليهود... الآية، ثم قال:

وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبْهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه﴾ قال الضحاك: نزلت الآية في شأن وحشي قاتل حمزة - رضي الله عنه - أشرك بالله وقتل^(٢) ثم جاء إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: إني لنادم، فهل لي من توبة؟ فنزل: (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه) ﴿ثم يستغفر الله﴾ الآية، وقال الكلبي: نزلت في شأن طعمة (ومن يعمل سوءاً) بسرقة الدرع، أو يظلم نفسه برمي غيره، وجحوده، ثم يستغفر الله أي يتوب إلى الله ﴿يجد الله غفوراً﴾ متجاوزاً ﴿رحيماً﴾ لمن اتقى الشرك. وروي عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: كنت إذا سمعت حديثاً من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نفعني الله به ما شاء، وإذا سمعته من غيره حلفته^(٣). وحدثني أبو بكر الصديق، وصدق أبو بكر - رضي الله عنه - قال ما من عبد يذنب ذنباً ثم يتوضأ، ويصلي ركعتين، ويستغفر الله تعالى إلا غفر الله له^(٤)، وتلا هذه الآية: ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه... الآية) ثم قال تعالى: ﴿ومن يكسب إثماً﴾ يعني الشرك بالله تعالى ﴿فإنما يكسبه على نفسه﴾ أي يضر بنفسه، ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾ ثم قال: ﴿ومن يكسب خطيئة، أو إثماً﴾ يعني عمل بالمعصية ﴿ثم يرم به بريئاً﴾ قال مقاتل: وهو طعمة حين رمى بالدرع في دار الأنصاري، واتهمه به، وهو قوله: ثم يرم به بريئاً، وقال الضحاك: يعني به المنافقين، حيث قالوا في عائشة - رضي الله عنها - قولاً عظيماً فقال: ومن يكسب خطيئة، أو إثماً بالمعاصي، ثم يرم به بريئاً يعني عائشة وصفوان ثم قال تعالى: ﴿فقد احتمل بهتاناً﴾ يقول: فقد قال: كذباً، ﴿وإثماً مبيناً﴾ ذنباً طاهراً. قوله تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته﴾ يعني فضل الله عليك بالنبوة، ورحمته بالوحي ﴿لهمت طائفة منهم﴾ أي جماعة ﴿أن يضلوك﴾ أي يخطئون في الحكم ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾ أي وما يرجع وبال ذلك إلا على أنفسهم ﴿وما يضررونك من شيء﴾ وإنما

(١) انظر تفسير القرطبي ٢٤١/٥. (٢) انظر تفسير القرطبي ٢٤٣/٥ - ٢٤٤. (٣) انظر تفسير القرطبي ٢٤٤/٥.

(٤) أخرجه الترمذي (٤٠٦، ٣٠٠٦)، وابن ماجه (١٣٩٥) أخرجه أحمد في المسند ٢/١، والدارمي في السنن ٣٨٥/١. وأخرجه ابن

السنن في اليوم والليلة (٣٥٣)، وأخرجه ابن حبان ذكره الهيثمي في الموارد ص ٦٠٨ باب فيمن أذنب ثم صلى واستغفر (٢٤٥٤)

والحديث في كنز العمال (١٠٢٧٧) وانظر تفسير ابن كثير ١٣/٢.

يضررون بأنفسهم. قال الضحاك: نزلت الآية في وفد ثقيف، قدموا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقالوا: جئناك، لنبايعك على أن لا تكسر أصنامنا، ولا تعشرنا، فلم يجبههم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فنزلت: لهمت طائفة منهم أن يضلوك، وقال الكلبي: يعني قوم طعمة^(١). ثم قال: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يعني القرآن ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ يعني القرآن والحكمة - يعين القضاء والمواظظ ﴿وَعَلَّمَكَ﴾ بالوحي ﴿مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ قبل الوحي ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ بالنبوة. ثم قال:

لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾

﴿لا خير في كثير من نجواهم﴾ وهو ما يتناجون فيما بينهم ويقال: في كثير من أحاديثهم، وهم وفد ثقيف، أو قوم طعمة. ﴿إلا من أمر بصدقة﴾ يقول: إلا نجوى من أمر بصدقة ﴿أو معروف﴾ يعني لقرض، كقوله: (فليأكل بالمعروف) ويقال: المعروف، يعني القول بالمعروف والنهي عن المنكر، ﴿أو إصلاح بين الناس﴾ يعني يذهب فيما بين اثنين ليصلح بينهما ﴿ومن يفعل ذلك﴾ الذي ذكرنا ﴿ابتغاء﴾ يعني طلباً ﴿مرضات الله فسوف نؤتيه﴾ يعني في الآخرة ﴿أجراً عظيماً﴾ قرأ حمزة وأبو عمرو: ﴿نؤتيه﴾ بالياء، أي يؤتيه الله تعالى وقرأ الباقون: ﴿نؤتيه﴾ بالنون، أي نحن نعطيهِ في الآخرة أجراً عظيماً، أي ثواباً عظيماً، قوله تعالى: ﴿ومن يشاقق الرسول﴾ يعني يخالفه في التوحيد ﴿من بعد ما تبين لهم الهدى﴾ أي من بعد ما تبين لهم التوحيد ﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾ أي يتبع ديناً غير دين المؤمنين، ويقال: يتبع طريقاً أو مذهباً غير طريق المؤمنين، وفي الآية دليل: أن الإجماع حجة^(٢)، لأن من

(١) انظر تفسير ابن عباس ٦٤.

(٢) وحجتهما أنه قرب من ذكر الله وهو قوله (مرضاة الله) فجعلنا الفعل بعده على لفظ ما تقدمه ليألف نظام الكلام على سياق واحد وحجة من قرأ بالنون قوله تعالى ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَمُوتْ أَوْ يُغْلَبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فردوا ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه.

انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢١١ - ٢١٢ وانظر سراج القاري ١٩٤.

(٣) والإجماع في اللغة يطلق على العزم والاتفاق. انظر القاموس ص ١٥/٣ والمصباح المنير ١٧١/١ وشرعاً اتفاق مجتهدي أمة الإجابة في عصر من العصور على أمر من أمور الشرع بعد وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم -. انظر المستصفى ١١٠/١، الأحكام للامدي ٢٨٠/٢، المعتمد ٤٥٧/٢، فواتح الرحموت ٢١٧/٢، كشف الأسرار ٢٢٧/٣، تيسير التحرير ٢٢٤/٣ واختلف العلماء في حجية الإجماع وجوب العمل به على مذهبين: أحدهما: - وهو مذهب الجمهور - أنه حجة ويجب العمل بمقتضاها.

ثانيهما: - وهو مذهب النظام والخوارج والشيعة - ليس بحجة، وهو قول مردود عليهم.

اختلفوا في أن الإجماع من الأمم السالفة غير أمة النبي - صلى الله عليه وسلم - كان حجة على القولين حكاهما الأستاذ أبو إسحاق وغيره وأصحهما أن الإجماع من خصائص هذه الأمة.

قال سليم الرازي في التقريب: لأننا حكمنا بأن الإجماع حجة بالشرع لا بالعقل وقد خص الشرع إجماع المسلمين بالحب - دون =

خالف الإجماع، فقد خالف سبيل المؤمنين، وقال الضحاك: قدم نفر من قريش المدينة وأسلموا، ثم انقلبوا إلى مكة مرتدين، فنزلت هذه الآية: ^(١) ﴿وَمَنْ يَشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ أي دين الإسلام، ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المسلمين ﴿نُؤَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾ نكله إلى الأصنام يوم القيامة، وهم لا يملكون لهم ضرراً، ولا نفعاً، ولا ينجوه من عذاب الله تعالى، وقال مقاتل: (نوله ما تولى) أي نتركه وما اختار لنفسه، وقال الكلبي: (نوله ما تولى) يعني نوله في الآخرة ما تولى في الدنيا، وهذا كما قال بعض الحكماء: من أراد أن يعلم كيف يعامل معه في الآخرة فلينظر، كيف يعامل هو في الدنيا، وقال الكلبي: نزلت الآية في شأن طعمة، لما ظهر حاله وسرقته، هرب إلى مكة، وارتد، فنقب بمكة حائطاً لرجل، فسقط حجر، فبقي في النقب حتى وجدوه على حاله، فأخرجوه من مكة، فخرج إلى الشام، فسرق بعض أموال القافلة، فرجموه، وقتلوه، فنزل قوله: ^(٢) ﴿نُؤَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾ ونصله جهنم وساءت مصيراً. قرأ حمزة وعاصم، وأبو عمرو: ^(٣) (نوله، ونصله) بجزم الهاء وقرأ الباقون: بالكسر، وهما لغتان، ثم قال تعالى:

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَا ضِلَّتْ لَهُمْ وَلَا مِثْلَهُمْ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَغَيِّرْتُ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ

= غيرهم، وصحح الأستاذ أن إجماع كل أمة حجة ولم يزل ذلك في الملل وتوقف القاضي في المسألة، وقال إمام الحرمين: إن كان مستندهم قطعياً فحجة، أو مظنون فالوقف.

قلت: قد رد الشافعي في الأم قول من ادعى في مناظرته أن أهل العلم إذا أجمعوا على شيء كان دليلاً على إجماع من مضى قبلهم، قال الشافعي: قلت له: رأيت قولك: إجماعهم يدل على إجماع من قبلهم أترى الاستدلال بالتوهم أولى بدونهم أم بخبرهم؟ قال: بل بخبرهم قلت: فإن قالوا لك فما قلنا به مجتمعين ومفترقين ما قلنا الخير فيه فالذي ثبت مثله عندنا عن قلنا إنهم مختلفون فيه وبما قلنا به ما ليس فيه خير عن قبلنا. شرع لنا أولاً؟

فإن قلنا: إنه شرع لنا وثبت أن الإجماع حجة كان إجماعهم في حقنا حجة وإلا فلا (٨١ ق).

الثاني: أن الإجماع في أمة النبي - صلى الله عليه وسلم - هل يشبه بالسمع أو بالعقل؟ والصحيح عند الأكثرين منهم القاضي أبو بكر وغيره أنه ثبت بالسمع.

فإن قلنا: بالسمع لم يكن حجة إذا لم تتم الحجة إلا بإجماعنا وإن قلنا بالعقل وهو اختيار إمام الحرمين وغيره ثبت.

وقد صرح بهذا البناء المذكور الشيخ أبو محمد الجويني في كتاب المحيط بمذهب الشافعي كما نقلته من خط ابن الصلاح. ورأيت في التقريب في أصول الفقه لسليم الرازي حكاية قول آخر أن الشرع والنقل دلا عليه. انظر سلاسل الذهب ٣٣٧ - ٣٣٨ - ٣٣٩ - ٣٤٠.

(١) انظر تفسير القرطبي ٢٤٧/٥. (٢) انظر تفسير القرطبي ٢٤٧/٥.

(٣) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢١٢، وقول المصنف رحمه الله وعاصم أي بجزم الهاء: ليس بسديد، وإنما إسكان الهاء من رواية شعبة فقط، وأما حفص عن عاصم بمد الهاء.

وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَا وَلَّهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾

﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ قال الضحاك: وذلك أن شيخاً من الأعراب جاء إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: يا رسول الله، إني شيخ منهمك في الذنوب والخطايا، إلا أنني لم أشرك بالله شيئاً مذ عرفته وأمنت به، ولم أتخذ من دونه ولياً، ولم أواقع المعاصي جرأة على الله، ولا مكابرة له، وإني لنادم، وتائب مستغفر، فما حالي عند الله، فأنزل الله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾، ﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ ويقال: نزل في شأن وحشي وقد ذكرناه من قبل. ﴿ومن يشرك بالله﴾ أي من يعبد غير الله ﴿فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾ يعني فقد ضل عن الهدى ضلالاً بعيداً عن الحق. ثم قال تعالى، في ذم الكفار وبين جهلهم فقال: ﴿إن يدعون من دونه إلا أناثاً﴾ يقول: ما يعبدون من دون الله إلا أصناماً أمواتاً، وهذا قول ابن عباس^(١)، وعن الحسن أنه قال: الإناث الشيء الميت الذي ليس فيه روح^(٢)، وقال السدي: سموها إناثاً اللات، والعزى، ومناة^(٣). ثم قال تعالى: ﴿وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً﴾ وذلك أن الشيطان كان يدخل في الصنم، ويكلمهم، وهم يعبدون الصنم، وفيه الشيطان، ويقال: إبليس زين لهم عبادة الأصنام، وإذا عبدوا بإذنه فكأنهم عبدوا الشيطان، ثم قال: مريداً: أي مارداً، مثل قدير، وقادر، والمارد: العاتي ويقال: كل فاسد مفسد يكون مريداً أي يكون فاسداً لنفسه ويفسد غيره، ثم قال تعالى: ﴿لعنه الله﴾ يعني طرده الله من رحمته، وهو إبليس حيث لم يسجد لآدم، فلما لعنه ﴿وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً﴾ أي حظاً معلوماً، قال مقاتل: يعني من كل ألف واحد في الجنة، وسائرهم في النار، فهذا نصيب مفروض، ثم قال: ﴿ولأضلنهم﴾ يعني عن الهدى والحق ﴿ولأمنينهم﴾ يعني لأخبرنهم بالباطل، أنه لا جنة ولا نار، ولا بعث ﴿ولأمرنهم فليتكن آذان الأنعام﴾ وهي البهيرة، وذلك أن أهل الجاهلية، كانوا يشقون آذان الأنعام ويسمون بها بحيرة، وذكر قصتهم في سورة المائدة. ثم قال: ﴿ولأمرنهم فليغيرن خلق الله﴾ قال عكرمة: هو الخصاء^(٤)، وهكذا روي عن ابن عباس، وأنس بن مالك^(٥) وروي عن سعيد بن جبير قال: هو دين الله، وهكذا قال الضحاك ومجاهد^(٦)، وقيل لمجاهد أن عكرمة يقول: هو الخصاء، فقال: ماله، لعنه الله^(٧) وهو يعلم أنه غير الخصاء، فبلغ ذلك عكرمة فقال: هو فطرة الله. وقال الزجاج: إن الله تعالى خلق الأنعام ليركبوها، فحرموها على أنفسهم وخلق الشمس والقمر والحجارة، مسخرة للناس، فجعلوها آلهة يعبدونها فقد غيروا خلق الله عز وجل، ﴿ومن يتخذ الشيطان ولياً﴾ أي يعبد الشيطان ويطيعه ﴿من دون الله﴾، يعني ترك أمر الله تعالى وطاقته ﴿فقد خسر خسراً مبيناً﴾ أي ضل ضلالاً مبيناً بيناً عن الحق. ثم قال تعالى: ﴿يعدهم﴾ يعني الشيطان يخوفهم بالفقر، حتى لا يصلوا رحماً، ولا ينفقوا في خير ﴿ويمينهم﴾ أي يخبرهم بالباطل، أنه لا ثواب لهم في ذلك العمل ﴿وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾ أي باطلاً. قوله تعالى: ﴿أولئك مأواهم جهنم﴾ يعني الذين يطيعون الشيطان مصيرهم إلى جهنم ﴿ولا يجدون عنها محيصاً﴾ أي مفراً ومهرباً. قوله تعالى:

(١) انظر التفسير ٦٥. (٢) انظر تفسير الطبري ٢٠٨/٩.

(٣) أخرجه الطبري في التفسير ٢٠٧/٧ (١٠٤٣٢) وانظر تفسير البغوي ٤٨١/١.

(٤) أخرجه الطبري في التفسير ٢١٦/٨ (١٠٤٥٤) (١٠٤٥٥)، وانظر في تفسير البغوي ٤٨٢/١.

(٥) انظر تفسير الطبري ٢١٥/٩ (١٠٤٤٨) (١٠٤٥٠) (١٠٤٥١).

(٦) أخرجه الطبري في التفسير ٢١٧/٩ (١٠٤٧٢) (١٠٤٧٣) (١٠٤٧٤) (١٠٤٧٥) (١٠٤٧٩) (١٠٤٨٢).

(٧) أخرجه الطبري في التفسير ٢١٦/٩ (١٠٤٥٥).

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي صدقوا بالله تعالى والرسول، والقرآن وأدوا الفرائض وانتهوا عن المحارم ﴿سندخلهم جنات﴾ وهي البساتين ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ وهي أربعة أنهار: نهر من ماء غير آسن، ونهر من لبن، ونهر من خمر، ونهر من عسل مصفى، ﴿خالدين فيها أبدا﴾ يعني مطمئنين فيها لا يتغير بهم الحال، فهذا وعد من الله تعالى، ثم قال: ﴿وعد الله حقاً﴾ أي صدقاً، وكائناً، أنجز لهم ما وعد لهم من الجنة ﴿ومن أصدق من الله قِيلاً﴾ أي قولاً ووعداً. قوله تعالى: ﴿ليس بآمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب﴾ وذلك أن أهل الكتاب قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وقال المؤمنون: إنا أسلمنا لا تضرنا الذنوب، فنزل: ﴿ليس بآمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب﴾ يقول ليس لكم يا معشر المسلمين ما تمنيتم، ولا أهل الكتاب ما تمنوا ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾ أي من يعمل معصية دون الشرك يعاقب به. وقال الزجاج: معناه، ليس ثواب الله بآمانيتكم، ولا أمانى أهل الكتاب، وقد جرى ما يدل على إضمار الثواب، وهو قوله: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي إنما يدخل الجنة من آمن وعمل صالحاً ليس كما تمنيتم ﴿ومن يعمل سوءاً يُجْزَ به﴾ أي لا ينفعه تمنيه. ويقال: لما نزلت هذه الآية: ﴿من يعمل سوءاً يُجْزَ به﴾ شق ذلك على المسلمين، وقال أبو بكر - رضي الله عنه - كيف الفلاح بعد هذه الآية يا رسول الله فقال - صلى الله عليه وسلم - ألسنت تمرض؟ ألسنت تصيبك اللأواء؟ أي الشدة، فذلك كـ جزاؤه. حدثنا الخليل بن أحمد، قال: حدثنا العباسي، قال: حدثنا الحسن بن صباح^(١) قال: حدثنا عبد الوهاب الخفاف^(٢) عن زياد^(٣) عن علي بن زيد^(٤)، عن مجاهد قال: مر ابن عمر على ابن الزبير، وهو مصلوب، فنظر إليه، فقال يغفر الله لك ثلاثة، والله ما علمتك إلا كنت صواماً قواماً، وصالاً للرحم، أما والله، إني لأرجو مع مساوئ ما أصبت أن لا يعذبك الله بعدها أبداً، ثم التفت فقال - سمعت أبا بكر الصديق يقول: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (من يعمل سوءاً يجز به في الدنيا)^(٥). وروى محمد بن قيس عن أبي هريرة قال: لما نزلت (من يعمل سوءاً يجز به) شق ذلك على المسلمين، فشكوا ذلك إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال:

(١) الحسن بن محمد الصباح الزعفراني أبو علي البغدادي، كان أحد الثقات توفي سنة ٢٥٩ هـ. التهذيب ٣١٨/٢.

(٢) عبد الوهاب بن عطاء الخفاف أبو نصر العجلي، مولاهم، البصري توفي سنة ٢٠٤ هـ. التهذيب ٤٥٢/٦.

(٣) زياد بن أبي زياد الجصاص، أبو محمد الواسطي، بصري الأصل قال النسائي: ليس بثقة وقال الدارقطني: متروك وذكره ابن حبان في الثقات وقال: ربما وهم. التهذيب ٣٦٨/٣.

(٤) علي بن زيد بن عبد الله بن جدعان أبو الحسن. البصري، ثقة سيء الحفظ توفي سنة ١٢٩ هـ. التهذيب ٣٢٢/٧.

(٥) أخرجه الطبري في التفسير ٢٤١/٩ (١٠٥٢٢)، وأخرجه أحمد في المسند ٢٣، وقال الشيخ شاکر إسناده ضعيف، وذكره ابن كثير في التفسير ٣٧٠/٢ عن أبي بكر بن مردويه عن محمد بن هشام، بن جهمية عن يحيى بن أبي طالب عن عبد الوهاب بن عطاء ثم قال: وروراه أبو بكر البزار في مسنده عن الفضل بن سهل بن عبد الوهاب بن عطاء به مختصراً ذكره، وزاد نسبه السيوطي في الدرر ٢٦٦/٢. للخطيب في المتفق والمفترق.

قاربوا وسددوا فكل ما يصيب المؤمن كفارة، حتى الشوكة تشاكه، والنكبة تنكبه^(١) وقال الضحاك: السوء الكفر، وقال مجاهد: قالت قريش: لن نبعث، ولن نعذب، فزلت ﴿ليس بأمانيكم﴾ أي أماني كفار قريش، ولا أماني أهل الكتاب، ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾ أي يعاقب عليه. ثم قال تعالى: ﴿ولا يجد له من دون الله ولياً﴾ يعني الكافر، لا يجد لنفسه ﴿من دون الله﴾ أي من عذاب الله ولياً يمنعه ﴿ولا نصيراً﴾ ينفعه ويمنعه من العذاب. ثم قال تعالى: ﴿ومن يعمل من الصالحات﴾ يعني يؤدي الفرائض، وينتهي عن المحارم ﴿من ذكر أو أنثى﴾ أي من رجل أو امرأة ﴿وهو مؤمن﴾ أي مصدق بالشواب والعقاب ﴿فأولئك يدخلون الجنة﴾ لا شك فيها ﴿ولا يظلمون﴾ أي لا ينقصون من ثواب أعمالهم ﴿نفيراً﴾ وهي النقرة التي تكون على ظهر النواة. قرأ أبو عمرو، وابن كثير^(٢): ﴿فأولئك يدخلون الجنة﴾ بضم الباء، ونصب الخاء على معنى فعل ما لم يسم فاعله، وقرأ الباقون بنصب الباء وضم الخاء، أي يدخلون الجنة بأعمالهم ثم فضل دين الإسلام على سائر الأديان، فقال تعالى:

وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ
إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾
وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّى النِّسَاءِ
الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ
تَقُومُوا لِلْيَتَمَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾

﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه﴾ أي أخلص دينه ﴿لله وهو محسن﴾ في عمله. ويقال: وهو موحد ﴿واتبع ملة إبراهيم حنيفاً﴾ أي مستقيماً، ويقال: مائلاً إلى دين الإسلام، ثم قال تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ وذلك أن إبراهيم - عليه السلام - كان يوسع على الضعفاء الطعام، واحتاج في بعض الأوقات إلى الطعام، فبعث غلامه مع الجمال إلى خليل له بمصر، ليقرضه شيئاً من الطعام فيرد عليه إذا أدرك إنزاله، فلما انتهوا إليه، قال: إني أخاف أن أحتاج قبل إدراك الإنزال، فلم يدفع إليهم، ورجعوا، فاستحى الغلامان أن يدخلوا في قرية إبراهيم والناس ينظرون إليهم، وليس معهم شيء، فجعلوا الرحل في الجواليق، وحملوا على الجمال، وجاءوا إلى منزل إبراهيم - عليه السلام - وألقوا الأحمال، وتفرقوا وجاء واحد منهم، وأخبر إبراهيم بالقصة، فاغتم لذلك، ودخل البيت ونام، فخرجت جواريه، ونظرن إلى الأحمال، فإذا الجواليق دقيق، فرفعن منها، وجعلن يخبزن خبزاً، حتى إذا استيقظ إبراهيم - عليه السلام - وخرج وقال: من أين هذا الدقيق؟ فقلن من عند خليلك المصري، فقال إبراهيم: ليس هذا من عند خليلي المصري، ولكن من عند خليل السماء، فاتخذته الله خليلاً بذلك. ويقال: لما دخلت عليه الملائكة في شبه آدميين، وجاءهم بعجل سمين، فلم يأكلوا منه، وقالوا إنا لا نأكل شيئاً بغير ثمن، فقال لهم: أعطوني ثمنه وكلوه، قالوا: وما ثمنه، قال: أن تقولوا في أوله بسم الله وفي آخره الحمد لله،

(١) أخرجه مسلم ١٩٩٣/٤ في كتاب البر والصلة باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض... وقوله (النكبة تنكبه) هي مثل العثرة يعثرها برجله وربما جرحته إصبعه. وأصل النكبة النكبة والقلب والحديث أخرجه أحمد في المسند ٢٤٨/٢ - والترمذي

(٣٠٣٨).

(٢) وشعبة أيضاً وانظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢١٢ - ٢١٣ سراج القاري ١٩٤، شرح شعلة ٣٤٣.

فقالوا فيما بينهم: حقاً على الله أن يتخذ خليلاً فاتخذ الله خليلاً. ويقال: إنه أضاف رؤساء الكفار، وأهدى لهم هدايا وأحسن إليهم، فقالوا له: ما حاجتك؟ فقال: حاجتي أن تسجدوا لله سجدة، فسجدوا، فدعا الله تعالى، وقال: اللهم إني قد فعلت ما أمكنتني، فافعل أنت، ما أنت أهل لذلك، فوفقهم الله تعالى للإسلام فاتخذ الله خليلاً لذلك. وروى جابر عن عبد الله، عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: إتخذ الله إبراهيم خليلاً، لإطعامه الطعام، وإفشائه السلام، وصلاته بالليل والناس نيام^(١). ثم قال: عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ كلهم عبده، وفي ملكه وحكمه نافذ فيهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطاً﴾ أحاط علمه بكل شيء قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ أي يسألونك عن ميراث النساء، نزلت في أم كجة التي ذكرنا في أول السورة ﴿قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ أي يبين لكم ما لهن من الميراث ﴿وَمَا يَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ أي وكتاب الله يفتيكم بذلك، ﴿فِي يَتَامَى النِّسَاءِ﴾ يعني في ميراث يتامى النساء ﴿اللاتِي تُوْتُونَهُنَّ﴾ لا تعطونهن ﴿مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ أي ما فرض لهن من الميراث ﴿وَتَرْغَبُونَ﴾ أي وتزهدون ﴿أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ لدمامتهن. وروى معمر عن إبراهيم قال: كان الرجل يكون عنده اليتيمة الدمية ولها مال، ويكره أن يزوجه من غيره، من أجل مالها، قال إبراهيم: وكان عمر يأمر الرجل إذا كانت عنده اليتيمة الدمية، ولها مال أن يتزوجها^(٢). وروى عروة عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: كانت يتيمة في حجر رجل، فأراد أن يتزوجها، ولم يكمل صداق نصابها، فأمروا بإكمال الصداق، وقال مجاهد: كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصبيان شيئاً ويقولون: لا يغزون، ففرض الله لهم الميراث، وأمر لليتيم بالقسط، ثم قال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ يقول: يسألونك عن ميراث المستضعفين ﴿مِنَ الْوُلَدَانِ﴾ ويقال: يفتيكم في المستضعفين من الولدان ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ فإن الله كان به عليمًا ﴿يَجَازِيكُمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنْ مَا سِوَى الْأَبِ وَالْجَدِّ إِذَا زَوَّجَ الْيَتِيمَ جَازَ، وَفِيهِ أَنَّهُ إِذَا زَوَّجَ مِنْ نَفْسِهِ جَازَ، إِذَا كَانَتْ غَيْرُ ذِي رَحِمٍ مَحْرُومٍ﴾ قوله تعالى:

وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِنْ يَفْرَقَا يَغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾

﴿وإن امرأة خافت﴾ أي علمت ﴿من بعْلِها﴾ يعني زوجها ﴿نُشُوزًا﴾ يعني عصياناً في الأثرة ﴿أو إعراضاً﴾

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢٣٠ - ٢٣١ وعزاه للبيهقي في الشعب وذكره الواحدي في أسباب النزول ١٣٥ قلت والذي في الشعب ١٨٥/٢ باب في حب النبي - صلى الله عليه وسلم - . (١٤٩٤) بلفظ اتخذ الله إبراهيم خليلاً وموسى نجياً واتخذني حبيباً وقال البيهقي: ومسلمة بن علي - أحد رجال إسناده البيهقي - ضعيف عند أهل الحديث، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات، وذكره ابن عراق في تنزيه الشريعة ٣٣٣/١ (١٧) وضعفه.

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير ٢٥٥/٩ (١٠٥٤٤).

عنها، وترك محادثتها (نزلت في رافع بن خديج^(١))، تزوج امرأة أشب من امرأته خوله بنت محمد بن مسلمة، وقال في رواية الكلبي: نزلت في ابنة محمد بن مسلمة وفي زوجها أسعد بن الزبير، تزوجها وهي شابة، فلما أدبرت وعلاها الكبر، تزوج عليها امرأة شابة، وآثرها عليها، وجفا بنت محمد بن مسلمة، فأنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم. فشكت إليه، فنزل ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً﴾ يعني ترك مجامعتها ﴿أو إعراضاً﴾ يعني يعرض بوجهه ويقل مجالستها ومحادثتها ﴿فلا جناح عليهما﴾ أي لا إثم على الزوج والمرأة ﴿أن يصلحا بينهما صلحاً﴾ قرأ أهل الكوفة: عاصم وحزمة والكسائي^(٢) ﴿أن يصلحا بينهما﴾ بضم الياء والتخفيف، وهو من الصلح، وقرأ الباقون: أن يصلحا بالالف وتشديد الصاد، لأن أصله وتصالحاً [فأدغمت]^(٣) التاء في الصاد، وأقيم التشديد مكانه. ثم قال: ﴿والصلح خير﴾ يعني الصلح خير من الفرقة، ويقال: الصلح خير من النشوز، ويقال: الصلح خير من الخصومة والخلاف. وروي عن ابن أبي نجيع عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً﴾ قال: قول الرجل لامرأته أنت كبيرة وإني أريد أن أستبدل بك شابة، فقري على ولدك، ولا أقسم لك من نفسي شيئاً ورضيت بذلك، فذلك الصلح بينهما، قال: وهذا قول أبي السنابل بن بعلك^(٤) حين جرى بينهما هذا الصلح^(٥)، ثم صارت الآية عامة، في جواز الصلح الذي يجري فيما بين الناس، لقوله تعالى: (والصلح خير). ثم قال تعالى: ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾ يعني، الشح حملها على أن تدع نصيبها، ويقال: شحت المرأة بنصيبها من زوجها، أن تدعه للآخرى، وشح الرجل بنصيبه من الآخرى، وقال مقاتل^(٦): طمعها وحرصها يجرها إلى أن ترضى. ثم قال تعالى: ﴿وأن تحسنوا﴾ يقول: تحسنوا إليهن ﴿وتتقوا﴾ الميل والجور ﴿فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ في الإحسان والجور. قوله تعالى: ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء﴾ يقول: لن تقدرُوا أن تسووا بين النساء في الحب، بين الشابة والكبيرة ﴿ولو حرصتم﴾ أي ولو جهدتم، ولكن اعدلوا في القسمة والنفقة ﴿فلا تميلوا كل الميل﴾ بالنفقة والقسمة إلى الشابة ﴿فتذروها كالمعلقة﴾ بغير قسمة، كالمسجونة لا أيم، ولا ذات بعل، وروي عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: من كان له امرأتان فمال إلى أحدهما، جاء يوم القيامة

(١) رافع بن خديج بن رافع بن عدي بن يزيد، الأنصاري، الأوسي، مات زمن معاوية الإصابة ١٨٦/٢.

(٢) وحجتهم في ذلك أن العرب إذا جاءت مع الصلح بـ (بين) قالت: (أصلح القوم بينهم وأصلح الرجلان بينهما) قال الله عز وجل ﴿فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ وإذا لم تأت بـ (بين) قالوا: (تصلح القوم وتصلح الرجلان) ففي مجيء (بينهما) مع قوله (أن يصلحا) دليل واضح على صحة ما قلنا. وأخرى: لو كان الصواب: (يصلحا) لجاء المصدر على لفظ الفعل فقل: (تصلحا) لا صلحاً فلما جيء بالمصدر على غير بناء الفعل دل على ذلك أنه صدر على غير هذا اللفظ.

وقرأ الباقون: (يَصْلَحَا) بفتح الياء وتشديد الصاد وفتح اللام أي: (يتصلحا) فأدغموا التاء في الصاد لقرب مخرجهما، وحجتهم: أن المعروف من كلام العرب إذا كان/ بين اثنين مشاجرة أن يقولوا: (تصلح القوم فهم يتصلحون) ولا يكادون يقولون (أصلح القوم فهم مصلحون)، وأخرى: أنه لو كان الوجه: (أن - يصلحا) لخرج مصدره على لفظه فقل: (إصلاحاً) قلت: هذا غير لازم لهم وذلك أن العرب تضع الاسم موضع المصدر فتقول: (هذا يوم العطاء) أي يوم الإعطاء وفي التنزيل: (وَأَنْبَتْنَا نَبَاتًا حَسَنًا) ولم يقل (إنباتاً). حجة القراءات لابن زنجلة ٢١٣ - ٢١٤.

(٣) في أ [باقي ٦، ٧].

(٤) أبو السنابل بن بعلك بن الحارث بن عقيلة بن السباق القرشي العبدري. قال البخاري: لا أعلم أنه عاش بعد النبي - صلى الله عليه وسلم هـ.

(٥) انظر تفسير مجاهد ١٧٧/١، والطبري ٢٧٦/٩.

(٦) انظر التفسير ٢٧٣/١.

وشقه مائل^(١)، وفي رواية أخرى، وأحد شقيه ساقط. وروى أبو أيوب^(٢) عن أبي قلابة^(٣) قال: كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يقسم بين نسائه، فيعدل في القسمة، ويقول: اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك^(٤)، يعني الحب والجماع. ثم قال تعالى: ﴿وَأَنْ تَصْلَحُوا﴾ يعني تصلحوا بينهما بالسوية ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الجور والميل ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ حيث رخص لكم في الصلح. ثم قال عز وجل: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا﴾ يعني الزوج والمرأة ﴿يَغْنِي اللَّهُ كِلَا مِنْ سَعْتِهِ﴾ يعني من رزقه، وقال مجاهد، يعني الطلاق. وروي عن جعفر بن محمد، أن رجلاً شكاً إليه الفقر، فأمره بالنكاح فذهب الرجل وتزوج، ثم جاء إليه فشكا إليه الفقر، فأمره بالطلاق فسئل عن ذلك، فقال: أمرته بالنكاح وقلت: لعله من أهل هذه الآية (إن يكونوا فقراء، يغنهم الله من فضله) فلما لم يكن من أهل هذه الآية، قلت: فلعله من أهل هذه الآية: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يَغْنِ اللَّهُ كِلَا مِنْ سَعْتِهِ﴾^(٥). وروي عن أبي بن كعب أنه كان يقرأ: ^(٦) فتذروها كأنها مسجونة. ثم قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا﴾ يعني واسع الفضل (حكيمًا) حكم بفرقتهما وتسويتهم. ثم قال تعالى:

وَلِلَّهِ مَكَافِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ

(١) أخرجه أبو داود ٢٤٢/٢ باب في القسم بين النساء (٢١٢٣)، وأخرجه الترمذي ٤٤٧/٣ باب ما جاء في التسوية بين الزائرات (١١٤١) وعنده وشقه ساقط.

وأخرجه النسائي ٦٣/٧ في باب ميل الرجل إلى بعض نسائه، وأخرجه ابن ماجه ٦٣٣/١ في باب القسمة بين النساء (١٩٦٩) وعنده (شقه ساقط)، وأخرجه ابن حبان، أورده الهيثمي في الموارد (١٣٠٧) والحاك في المستدرک ١٨٦/٢، وأحمد في المسند ٤٧١، ٣٤٧/٢ والطيالسي في المسند ٣١٢/١ (منحة)، والدارمي في السنن ١٤٣/٢، وابن الجارود في المنتقى (٧٢٢)، وابن أبي شيبه في المصنف ٣٨٨/٤، والبيهقي في السنن الكبرى ٢٩٧/٧.

(٢) أيوب بن أبي تيمية كيسان السخيتاني أبو بكر البصري مولى عزة كان فقيهاً فاضلاً كثير العلم. توفي سنة ١٣١ هـ. التهذيب ٣٩٧/١.

عبد الله بن زيد بن عمرو أبو قلابة البصري الجرمي أحد الأعلام الثقات من التابعين توفي سنة ١٠٤ هـ. التهذيب ٢٢٤/٥.

(٤) هذا الحديث مخرج من وجهين الأول من رواية أبي مرسلاً أخرجه الترمذي في السنن ٤٤٦/٣ كتاب النكاح باب ما جاء في التسوية بين الزائرات عقب الحديث (١١٤٠) وقال: وهذا - أي الإرسال - أصح من حديث حماد بن سلمة. وحديث حماد بن سلمة من طريق عائشة مرفوعاً، وقال ابن حجر في التلخيص الحبير ١٣٩/٣ كتاب النكاح ٤٤ في التخفيف في النكاح الحديث (١٤٦٦) وأعله النسائي والترمذي والدارقطني بالإرسال وقال أبو زرة: لا أعلم أحداً تابع حماد بن سلمة على وصله) والثاني: عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً أخرجه أحمد في المسند ١٤٤/٦ وأخرجه الدارمي في السنن ١٤٤/٢ كتاب النكاح باب في القسمة بين النساء، وأخرجه أبو داود في السنن ٦٠١/٢ كتاب النكاح باب في القسم بين النساء الحديث (٢١٣٤) وأخرجه الترمذي في السنن ٤٤٦/٣ كتاب النكاح باب ما جاء في التسوية بين الزائرات الحديث (١١٤٠) واللفظ له وأخرجه النسائي في المجتبى من السنن ٦٣/٧ - ٦٤ كتاب عشرة النساء باب ميل الرجل إلى بعض نسائه وأخرجه ابن ماجه في السنن ٦٣٣/١ كتاب النكاح باب القسمة بين النساء ٤٧ الحديث (١٩٧١) وأخرجه ابن حبان ذكره الهيثمي في موارد الظمان ص ٣١٧ - كتاب النكاح ١٧ باب ما جاء في القسم الحديث ١٣٠٥ وأخرجه الحاكم في المستدرک ١٨٧/٢ كتاب النكاح باب التشديد في العدل... وقال: (صحيح على شرط مسلم) ووافقه الذهبي. انظر المصابيح ٤٤٠ - ٤٤١.

(٥) انظر تفسير القرطبي ٢٦٢/٥. (٦) انظر البحر المحيط ٣٦٥/٣.

مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِنَّ يَشَاءُ يَذْهَبَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ
بِآخَرِينَ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

﴿ولله ما في السموات وما في الأرض ولقد وصينا﴾ أي أمرنا ﴿الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ يعني، أهل التوراة والإنجيل ﴿وإياكم﴾ يعني أمرناكم - يا أمة محمد - عليه السلام - في كتابكم ﴿أن اتقوا الله﴾ فيما أوصاكم به في كتابكم من التوحيد ثم بعد التوحيد بالشرائع ﴿وأن تكفروا﴾ يقول: تجحدوا بما أوصاكم، وبوحدانية الله تعالى ﴿فإن لله ما في السموات، وما في الأرض﴾ يعني هو غني عن عبادتكم ﴿وكان الله غنيا﴾ عن إيمان الخلق، وطاعتهم ﴿حميداً﴾ محموداً في أفعاله. وقوله تعالى: ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ يعني كلهم عبده وإماؤه، ويقال هذا موصولاً بالأول، وكان الله غنياً حميداً في أفعاله، لأن له ما في السموات، وما في الأرض، وهو رازقهم والمدير في أمورهم، ثم قال: ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ أي حفيظاً ورباً. ثم ذكر التهديد لمن رجع عن عبادته فقال: ﴿إن يشأ يذهبكم أيها الناس﴾ أي يهلككم إذا عصيتموه ﴿ويأت بآخرين﴾ أي يخلق خلقاً جديداً غيركم، من هو أطوع لله منكم، وهذا كما قال في آية أخرى: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ ثم قال تعالى: ﴿وكان الله على ذلك قديراً﴾ أي يذهبكم ويأت بغيركم، ويقال: في الآية تخويف، وتنبية لجميع من كانت له، ولاية أو إمارة أو رئاسة، فلا يعدل في رعيته، أو كان عالماً فلا يعمل بعلمه ولا ينصح الناس، أن يذهب، ويأتي بغيره. قوله تعالى: ﴿من كان يريد ثواب الدنيا﴾ يعني من كان يطلب الدنيا بعمله الذي يعمل، ولا يريد به وجه الله، فليعمل لآخرته كما قال: ﴿فعند الله ثواب الدنيا والآخرة﴾ يعني الرزق في الدنيا، والثواب في الآخرة، وهو الجنة، ويقال في الآية مضمّر، فكأنه يقول من كان يريد ثواب الدنيا نؤته منها، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها، فعند الله ثواب الدنيا والآخرة، وقال الزجاج: كان المشركون مقرين بأن الله خالقهم، وأنه يعطيهم خير الدنيا، فأخبر الله تعالى، إن خير الدنيا والآخرة إليه. وروي عن عيسى بن مريم أنه قال للحواريين: أنتم لا تريدون الدنيا ولا الآخرة، لأن الدنيا والآخرة لله تعالى، فاعبدوه، إما لأجل الدنيا وإما لأجل الآخرة، وروي في بعض الأخبار: أن في جهنم وادياً تتعوز منه جهنم، أعد للقاء المرائين، ثم قال: ﴿وكان الله سمياً بصيراً﴾ يعني عالماً بنية كل واحد منهم. وروي سهل بن سعد عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: نية المؤمن خير من عمله وعمل المنافق خيراً من نيته، وكان يعمل على نيته^(١).

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ۚ وَإِنْ تَلَوُّا أَوْ نَعَزُّوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا نَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ

(١) أخرجه الطبري في الكبير ٢٢٨/٦، وأبو نعيم في الحلية ٢٥٥/٣ - والخطيب في التاريخ ٢٣٧/٩، وذكره الشوكاني في الفوائد ص ٢٥٠ - (٨٣) وقال قال ابن دحية: لا يصح، وقال البيهقي إسناده ضعيف وله شواهد، وذكره الهيثمي في الممع ٦٦/١ باب في نية المؤمن وعمل المنافق قال رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون إلا حاتم بن عباد بن دينار الجرشي لم أر من ذكر له ترجمة.

نزل على رسوله، والكتاب الذي أنزل من قبل ﴿١﴾. ويقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ مخاطب به جميع المؤمنين، آمنوا بالله يعني أثبتوا على الإيمان، وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ يعني يوم الميثاق ﴿آمنوا بالله ورسوله﴾ ويقال: نزلت في شأن أهل الكتاب، لأنه علم أن فيهم من يؤمن، فلقرّبهم من الإيمان، سماهم مؤمنين كما قال: (إنهم جند مغرّقون) وكانوا لم يغرقوا بعد. ويقال: إنهم كانوا يقولون: نحن مؤمنون، فقال لهم: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ أي بزعمهم، كما قال: (ذق إنك أنت العزيز الكريم) أي بزعمه. قرأ نافع، وعاصم عن حمزة، والكسائي^(١): ﴿والكتاب الذي نزل﴾ بنصب النون والزاي، ﴿والكتاب الذي أنزل﴾ بنصب الألف، وقرأ الباقون: (نزل) بضم النون وكسر الزاي، ونزل وأنزل، بضم الألف على معنى فعل ما لم يسم فاعله. ثم قال: ﴿ومن يكفر بالله وملائكته، وكتبه ورسله واليوم الآخر﴾ أي من يجحد بوحداية الله تعالى، وملائكته أنهم عبده، وبرسله أنهم أنبيأؤه، وعبده، وبالبعث بعد الموت ﴿فقد ضل﴾ عن الهدى ﴿ضلالاً بعيداً﴾ عن الحق. وقوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا، ثم كفروا، ثم آمنوا ثم كفروا﴾ قال مقاتل: يعني آمنوا بالتوراة وبموسى - عليه السلام - ثم كفروا من بعد موسى، ثم آمنوا بعبسى - عليه السلام - والإنجيل، ثم كفروا من بعده ﴿ثم ازدادوا كفراً﴾ بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وبالقرآن. ويقال: إن الذين آمنوا بموسى، ثم كفروا بعبسى، ثم آمنوا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - من قبل أن يبعث، ثم كفروا به بعدما بعث ثم ازدادوا كفراً، يعني ثبتوا على كفرهم. وقال في رواية الكلبي: آمنوا بموسى - عليه السلام - ثم كفروا به بعده، ثم آمنوا بعزير، ثم كفروا بعبسى، ثم ازدادوا كفراً، يعني بمحمد - صلى الله عليه وسلم -^(٢). وقال في رواية الضحاك: نزلت في شأن أبي عامر الراهب، وهو الذي بنى مسجد الضرار، آمن بالنبي - صلى الله عليه وسلم - ثم كفر، ثم آمن، ثم [كفر]^(٣) مات على كفره. وقال الزجاج: يجوز أن يكون محارباً آمن ثم كفر ثم آمن ثم كفر، ويجوز أن يكون منافقاً أظهر الإيمان وأبطن الكفر، ثم آمن ثم كفر ثم ازداد كفراً بإقامته على النفاق، فإن قيل: إن الله تعالى لا يغفر كفراً مرة واحدة، فأيش الفائدة في قوله: ﴿آمنوا، ثم كفروا، ثم آمنوا، ثم كفروا؟﴾ قيل له: لأن الكافر إذا أسلم فقد غفر له ما قد سلف من ذنبه، فإذا كفر بعد إيمانه، لم يغفر الله له الكفر الأول، فهو مطالب بجميع ما فعل في كفره الأول، فذلك قوله عز وجل: ﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾ يعني إذا ماتوا على كفرهم ﴿ولا يهديهم سبيلاً﴾ أي لا يوفقهم طريقاً. ثم قال تعالى:

بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنُغُونَ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ أَيْتَ اللَّهِ يُكْفِرُ بِهَا وَيُسَنِّزُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾

﴿بشر المنافقين﴾ وذلك أنه لما نزل قوله تعالى: (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر). فقال المؤمنون: هذا لك، فما لنا؟ فنزل قوله تعالى: (وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً)، فقال المنافقون: فما لنا؟ فنزل قوله تعالى: (بشر المنافقين) ﴿بأن لهم عذاباً أليماً﴾ في الآخرة. ثم نعت المنافقين فقال: ﴿الذين

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢١٦، ٢١٧، وسراج القاري ١٩٥ - ١٩٦، وشرح شعبة ٣٤٥.

(٢) انظر تفسير ابن عباس ٦٦. (٣) سقط في ظ.

يتخذون الكافرين ﴿يعني اليهود﴾ أولياء ﴿في العون والنصرة﴾ من دون المؤمنين ﴿ثم غيرهم بذلك فقال:﴾
 ﴿ايستفون عندهم العزة﴾ يعني يطلبون عندهم المنعة، والظفر على محمد - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه.
 العزة في اللغة: المنفعة والغلبة كما يقال: من عز بزا، أي من غلب سلب، ويقال: عز الشيء، إذا اشتد وجوده.
 ثم ذكر أنه لا نصرة لهم من الكفار، والنصرة من الله تعالى، فقال: ﴿فإن العزة لله جميعاً﴾ يعني الظفر والنصر كله
 من الله تعالى، وهذا كما قال في آية أخرى: (والله العزة ولرسوله وللمؤمنين) ثم قال: ﴿قد نزل عليكم في
 الكتاب﴾ وذلك أن المشركين بمكة كانوا يستهزئون بالقرآن، فنهى الله تعالى المسلمين عن القعود معهم، وهو
 قوله: (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم... إلى قوله: فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين)
 فامتنع المسلمون عن القعود معهم، فلما قدموا المدينة، كانوا يجلسون مع اليهود والمنافقين وكان اليهود يستهزئون
 بالقرآن فتزلت هذه الآية: (فقد نزل عليكم في الكتاب) يعني في سورة الأنعام: ﴿أن إذا سمعتم آيات الله يكفر
 بها﴾ أي يجحد بها، ﴿ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ أي حتى يأخذوا في كلام
 أحسن، ثم قال تعالى: ﴿إنكم إذا مثلهم﴾ يعني لو جلستم معهم كنتم معهم في الوزر وفي هذه الآية دليل: أن من
 جلس في مجلس المعصية، ولم ينكر عليهم يكون معهم في الوزر سواء وينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا
 بالمعصية أو عملوا بها، فإن لم يقدر بأن ينكر عليهم، ينبغي أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل
 هذه الآية. وروى جوير عن الضحاك، أنه قال: دخل في هذه الآية كل محدث في الدين، وكل مبتدع إلى يوم
 القيامة^(١). قرأ عاصم: (وقد نزل عليكم) بنصب النون والزاي، وقرأ الباقون: بضم النون، وكسر الزاي على فعل
 ما لم يسم فاعله. ثم قال تعالى ﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً﴾ يعني إذا ماتوا على كفرهم،
 ونفاقهم فبدأ بالمنافقين، لأنهم شر من الكفار، وجعل مأواهم جميعاً النار. وقال في رواية الكلبي: قوله تعالى:
 ﴿فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ نسخ بقوله عز وجل: (وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء) وقال
 عامة المفسرين: إنها محكمة، وليست بمنسوخة^(٢). ثم أخبر عن المنافقين فقال تعالى:

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمُ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ
 نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
 وَلَنُجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ
 وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ
 ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا
 تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا
 مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾

﴿الذين يتربصون بكم﴾ يعني ينتظرون بكم الدوائر، وهو تغيير الحال عليكم ﴿فإن كان لكم فتح من الله﴾
 يعني النصر والغلبة على العدو، ﴿قالوا: ألم نكن معكم﴾ فأعطونا من الغنيمة ﴿وإن كان للكافرين نصيب﴾ يعني

الظفر والغلبة على المؤمنين ﴿قالوا﴾ للكفار ﴿ألم نستحوذ عليكم﴾ يعني، ألم نخبركم بصورة المسلمين، ونظلمكم على سرهم، ونخبركم عن حالهم، ويقال: ألم نستحوذ عليكم: يعني ألم نغلب عليكم بالمودة لكم. والاستحواذ هو الاستيلاء على الشيء، كقوله تعالى: (استحوذ عليهم الشيطان) ثم قال: ﴿وغنمكم من المؤمنين﴾ يعني نجادل المؤمنين عنكم، ونجنبهم عنكم، قال الله تعالى: ﴿فالله يحكم بينكم يوم القيامة﴾ أي بين المؤمنين والمنافقين والكافرين، ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾ أي الحجة ويقال: دولة دائمة، أي لا تدوم دولتهم، وروي عن علي - كرم الله وجهه - أنه سئل عن قوله عز وجل أن الله تعالى يقول: (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً) وهم يسلطون علينا، ويغلبوننا فقال: لا يسلط الكافر على المؤمن في الآخرة، يوم القيامة ثم بين حال المنافقين في الدنيا وخداعهم فقال تعالى: ﴿إن المنافقين يخادعون الله﴾ أي يظنون أنهم يخادعون الله ﴿وهو خادعهم﴾ أي يجازيهم جزاء خداعهم، وهو أنهم يمشون مع المؤمنين على الصراط يوم القيامة، ثم يسلبهم النور فيكون في ظلمة، ثم قال تعالى: ﴿وإذا قاموا إلى الصلاة﴾ يعني المنافقين ﴿قاموا كسالى﴾ أي متثاقلين ﴿يراؤون الناس﴾ أي لا يرونها حقاً، ويصلون مرآة للناس وسمعة ﴿ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾ قال ابن عباس: لو كان ذلك القليل لله تعالى لكان كثيراً وتقبل منهم، ولكن لن يريدوا به وجه الله تعالى. ثم قال: ﴿مذبذبين بين ذلك﴾ أي مترددين، ويقال: منفضحين بين ذلك ﴿لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء﴾ يعني ليسوا مع المؤمنين في التصديق ولا مع اليهود في الظاهر ﴿ومن يضل الله﴾ أي من يخذله الله عن الهدى ﴿فلن تجد له سبيلاً﴾ أي مخرجاً. ثم قال: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ أي صدقوا، قال مقاتل: الذين آمنوا بزعمهم، وهم المنافقون ﴿لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ ويقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ في الظاهر، وأسرؤا النفاق، ويقال: يعني المؤمنين المخلصين، كانت بينهم وبين اليهود صداقة وكانوا يأتونهم، فنهاهم الله تعالى عن ذلك فقال: ﴿لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ ثم قال تعالى: ﴿أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً﴾ يعني حجة مبينة في الآخرة. ثم بين مأوى المنافقين في الآخرة فقال تعالى:

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾ المنافق في اللغة اشتقاقه^(١) من نفاق اليربوع، ويقال: لليربوع حجران، أحدهما نفاق، والآخر قاصعاء، فيظهر نفسه في أحدهما ويخرج من الآخر، ولهذا يسمى المنافق منافقاً، لأنه يظهر من نفسه أنه مسلم، ويخرج عن الإسلام إلى الكفر. قرأ [أهل الكوفة]^(٢) حمزة والكسائي وعاصم^(٣): (الدرك) بجزم الراء وقرأ الباقر: بالنصب، وهما لغتان: الدرك، والدرك، وجماعتهما، أدراك: وهي المنازل بعضها أسفل من بعض، فأعد للمنافقين الدرك الأسفل من النار، وهي الهاوية، ثم قال تعالى: ﴿ولن تجد لهم

(٢) سقط في ظ.

(١) انظر لسان العرب ٦/٤٥٠٨، ٤٥٠٩.

(٣) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢١٨، وشرح شعبة ٣٤٦، وسراج القاري ١٩٦.

نصيراً ﴿أي مانعاً يمنعهم من العذاب. ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ من النفاق ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أعمالهم ﴿واعتصموا بالله﴾ أي تمسكوا بدين الله وبتوحيده ﴿وَأَخْلَصُوا دينهم﴾ أي بتوحيدهم لله بالإخلاص، فإن فعلوا ذلك ﴿فأولئك مع المؤمنين﴾ أي المصدقين على دينهم، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، ثم قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يعطي الله المؤمنين ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعني ثواباً عظيماً في الآخرة، وفي هذه الآية دليل: أن المنافقين هم شر خلق الله، لأنه أوعدهم الدرك الأسفل من النار، ثم استثنى لهم أربعة أشياء: التوبة، والإخلاص، والإصلاح، والإعتصام، ثم قال بعد هذا كله: ﴿فأولئك مع المؤمنين﴾ ولم يقل: هم المؤمنون، ثم قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقل: سوف يؤتيهم الله، بغضاً لهم، وإعراضاً عنهم، والمنافقون هم الزنادقة والقرامطة الذين هم بين المؤمنين، يظهرون من أنفسهم الإسلام، وإذا اجتمعوا فيما بينهم يسخرون بالإسلام وأهله، فهم من أهل هذه الآية. ومأواهم الهاوية. قوله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ أي ما يصنع الله بعذابكم ﴿إِنْ شَكَرْتُمْ﴾ يعني إن آمنتُم بالله تعالى ووحدتموه، ويقال معناه ما حاجة الله إلى تعذيبكم لو كنتم موحدين شاكرين له ﴿وَأَمْتُمْ﴾ به وصدقتم رسله، ثم قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ أي شاكراً للقليل من أعمالكم، عليمًا بأعمالكم وثوابكم، ويقال: شاكراً يقبل اليسير، ويعطي الجزيل، عليمًا بما في صدوركم، ويقال: بمن شكر وآمن، فلا يعذب شاكراً، ولا مؤمناً، قوله تعالى:

لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفُّوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنْ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾

﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول﴾ أي لا يحب أن يذكر بالقول القبيح لأحد من الناس ﴿إلا من ظلم﴾ فيقتصر من القول بمثل ما ظلم، فلا جناح عليه. نزلت الآية في شأن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - شتمه رجل فسكت أبو بكر مراراً ثم رد عليه - ويقال: ﴿إلا من ظلم﴾ فيدعوا الله تعالى على ظالمه، وقال الفراء: ﴿إلا من ظلم﴾ يعني ولا من ظلم، وقال السدي: يقول: من ظلم فانتصر بمثل ما ظلم، فليس عليه جناح^(١) وقال الضحاك^(٢): ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء﴾ أي لا يحب لكم أن تنزلوا برجل فإذا ارتحلتم عنه، تدمون طعامه، إلا رجلاً أردتم النزول عليه عند حاجتكم فمنعكم، وقال مجاهد: هو في الضيافة، إذا دخل الرجل المسافر إلى القوم يريد أن ينزل عليهم، فلم يضيفوه، فقد رخص له أن يذكر كلاماً عنهم، ويقول فيهم^(٣)، ويقال: يعني يسبه مثل ما سبه، ما لم يكن كلاماً فيه حد، أو كلمة لا تصلح، ولو لم يقل كان أفضل. وقرأ بعضهم^(٤): ﴿إلا من ظلم﴾ متصل بما يفعل الله

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ٣٤٨/٩ (١٠٧٦٢).

(٢) انظر القرطبي ٤/٦.

(٣) انظر تفسير الطبري ٣٤٦/٩ (١٠٧٥٨). (٤) القراءة المتواترة ظلم بضم الظاء أما بالفتح فهي شاذة كما ذكر المصنف رحمه الله.

بعذابكم إلا من ظلم يعني من إشرارك بالله، وهو شاذ من القراءة. ثم قال تعالى: ﴿وكان الله سميعاً عليماً﴾ أي سميعاً بدعاء المظلوم عليماً بعقوبة الظالم. ثم أخبر عن التجاوز أنه خير من الانتصار فقال تعالى: ﴿إن تبدوا خيراً﴾ يعني أن تظهروا حسنة ﴿أو تحفوه﴾ يعني الحسنة ﴿أو تعفوا عن سوء﴾ يعني يتجاوز عن ظالمه، ولا يجهر بالسوء عنه، فهو أفضل لأن الله تعالى قادر على عباده، فيعفوا عنهم [وذلك] ^(١) قوله: ﴿فإن الله كان عفواً قديراً﴾ يعني إن الله أقدر على العقوبة لكم فيعفوا عنكم. قوله تعالى: ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسوله﴾ قال ابن عباس نزلت الآية في أهل الكتاب يؤمنون بموسى وعيسى ويكفرون بغيرهما، وهو قوله: ﴿ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسوله﴾ يعني يريدون أن يتخذوا ديناً، لم يأمر به الله ورسوله ﴿ويقولون: نؤمن ببعض﴾ بموسى وعزير والتوراة ﴿ونكفر ببعض﴾ بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وبعيسى والإنجيل، والقرآن ﴿ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً﴾ يعني بين اليهودية والإسلام قوله تعالى: ﴿أولئك هم الكافرون حقاً﴾ حين كفروا ببعض الرسل ﴿وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾ يهانون فيه. وقوله تعالى: ﴿والذين آمنوا بالله ورسوله﴾ يعني، أقروا بوحدانية الله تعالى، وصدقوا بجميع الرسل ﴿ولم يفرقوا بين أحد منهم﴾ في الإيمان والتصديق، يعني لم يكفروا، ولم يجحدوا بأحد من الأنبياء والرسل - عليهم السلام - ويصدقون بجميع الكتب ﴿أولئك﴾ يعني أهل هذه الصفة ﴿سوف نؤتيهم أجورهم﴾ أي سنعطيهم ثوابهم في الجنة ﴿وكان الله غفوراً﴾ لذنوبهم ﴿رحيماً﴾ بهم لما كان منهم في الشرك. قرأ عاصم في رواية حفص: ^(٢) (يؤتيهم) بالياء، وقرأ الباقون (نؤتيهم) بالنون.

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهُ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ^(١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقًا عَظِيمًا ^(١٥٤) فَمَا نَقْضِهِمْ مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقُلْنَا لَهُمُ الْآيَاتُ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقُولِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ^(١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقُولِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ^(١٥٦) وَقُولِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ^(١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ^(١٥٨)

قوله تعالى: ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء﴾ يعني جملة واحدة، كما جاء به موسى - عليه السلام - ويقال: إن كعب بن الأشرف، وفنخاص بن عازوراء وأصحابهما قالوا: لن نؤمن لك حتى تنزل علينا كتاباً تحمله الملائكة إلينا فتقرؤه، قال الله تعالى لمحمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿فقد سألوا موسى أكبر من ذلك﴾، يعني إن هؤلاء، من أصل أولئك القوم الذين ﴿فقالوا﴾ لموسى عليه السلام ﴿أرنا الله جهرة﴾ يعني عياناً، وهم القوم الذين ساروا مع موسى عليه السلام إلى طور سيناء ﴿فأخذتهم الصاعقة﴾ أي أحرقتهم النار ﴿بظلمهم﴾

(٢) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢١٩، وسراج القاري ١٩٦، شرح الشعلة ٣٤٦.

(١) في ظ [وهو].

أي بقولهم وسؤالهم ﴿ثم اتخذوا العجل﴾ أي ومع ذلك قد عبدوا العجل، وهم قوم موسى في حال غيبته ﴿من بعد ما جاءتهم البينات﴾ أي جاءهم موسى بالآيات والعلامات ﴿ففعلونا عن ذلك﴾ كله ولم نستأصلهم ﴿وآتينا موسى سلطاناً مبيناً﴾ أي حجة بينة، وهي اليد والعصا ﴿ورفعنا فوقهم﴾ يقول: قلنا فوقهم ﴿الطور بميثاقهم﴾ يعني بإقرارهم بما في التوراة حين أبوا أن يتقبلوا الشرائع. ﴿وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً﴾ يعني باب أريحة منحنية أصلابهم، ﴿وقلنا لهم لا تعدوا في السبت﴾ يقول: لا تستحلوا أخذ السمك في يوم السبت قرأ نافع في رواية ورش: ^(١) (لا تعدوا) بالتحديد، لأن أصله لا تعتدوا، فادغم التاء في الدال وأقيم التشديد مقامه، وقرأ الباقون ﴿لا تعدوا﴾: بالتخفيف من عدا، يعدو، عدواناً. ثم قال تعالى: ﴿وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾ يعني إقراراً وثيقاً شديداً في التوراة، يعني تركوا هذه الأشياء كلها، ونقضوا الميثاق، ثم قال عز وجل: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ ولم يذكر في هذه الآية جوابهم، والجواب فيه مضمّر، فكأنه قال: وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً، فنقضهم الميثاق لعنهم الله تعالى، وخذلهم، كقوله: (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم) ثم قال: ﴿وكفرهم بآيات الله﴾ يعني بكفرهم بآيات الله لعنهم الله وخذلهم. ثم قال تعالى: ﴿وقتلهم الأنبياء بغير حق﴾ يعني وبقتلهم الأنبياء بغير جرم ﴿وقولهم قلوبنا غلف﴾ يعني ذا غلاف ولا نفقه حديثك، وقرأ بعضهم ^(٢) [غلف] بضم اللام، وجماعة الغلاف، يعني أن قلوبنا أوعية (لكل علم، ولا نفقه حديثك، قال الله تعالى: ﴿بل طبع الله عليها﴾ يعني ختم الله على قلوبهم ﴿بكفرهم، فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ أي لا يؤمنون إلا قليل منهم، ويقال: لا يؤمنون إلا بالقليل، (لأنهم آمنوا ببعض، وكفروا ببعض، وقال مقاتل: يعني، ما أقل ما يؤمنون، يقول: بأنهم لا يؤمنون البتة. ثم قال تعالى: ﴿وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً﴾ وذلك أن مريم كانت متعبدة لله تعالى، ناسكة، اصطفاها الله تعالى بولد بغير أب فعيروا اليهود، واتهموها، وقذفوها بيوسف بن ماثان، وكان يوسف خادم بيت المقدس، ويقال: كان ابن عمها، فأنزل الله تعالى إكذاباً لقولهم وبين بهتانهم، فقال: (وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً) يعني لعنهم الله وخذلهم بذلك ﴿وقولهم﴾ أي وبقولهم: ﴿إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله﴾ هذا قول الله، لا قول اليهود، وقول اليهود: إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم، ثم قال الله تعالى: (رسول الله) يعني الذي هو رسول الله وذلك أن اليهود، لما اجتمعوا على قتله، هرب منهم ودخل في بيت فأمرك ملك اليهود رجلاً يدخل البيت يقال له: يهوذا ويقال: ططيانوس فجاء جبريل - عليه السلام - ورفع عيسى - عليه السلام - إلى السماء، فلما دخل الرجل إلى البيت لم يجده، فألقى الله شبه عيسى عليه، فلما خرج ظنوا أنه عيسى فقتلوه، وصلبوه، ثم قالوا إن كان هذا عيسى فأين صاحبه؟ وإن كان هذا صاحبه، فأين عيسى؟ فاختلفوا فيما بينهم فأنزل الله تعالى إكذاباً لقولهم فقال: ﴿وما قتلوه، وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾ يعني ألقى الله شبه عيسى على غيره فقتلوه، ثم قال: ﴿وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه﴾ أي من قتله ﴿ما لهم به من علم﴾ يعني لم يكن عندهم علم يقين أنه قتل أو لم يقتل ﴿إلا اتباع الظن﴾ أي قالوا قولاً بالظن ﴿وما قتلوه يقيناً﴾ أي لم يستيقنوا بقتله ويقال يقيناً ما قتلوه ﴿بل رفعه الله إليه﴾ وقال مقاتل: ^(٣) بل رفعه الله إلى السماء في شهر رمضان ليلة القدر، وقال الضحاك: رفعه في يوم عاشوراء، بين صلاتي المغرب والعشاء، ثم قال تعالى: ﴿وكان الله عزيزاً﴾ أي منيعاً حين منع عيسى من القتل ﴿حكيماً﴾ حين حكم رفعه إلى السماء وقوله عز وجل:

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢١٨، وشرح شعلة ٣٤٦، وسراج القاري ١٩٦ - ١٩٧.

(٢) ابن عباس والأعرج وابن محيصن. انظر القرطبي ١٩/٢.

(٣) انظر التفسير ٢٨٠/١.

وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبُظْلِمَ
مَنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخَذَهُمْ
الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلَهُمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾

﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يقول: وما من أهل الكتاب ﴿إِلَّا لِيُؤْمِنَ بِهِ﴾ يعني بعيسى - عليه السلام - ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ وذلك أن اليهودي إذا حضرته الوفاة، وعاین أمر الآخرة، ضربته الملائكة وقالت له: يا عدو الله، أنك عزيز فكذبته، ويقال للنصراني: يا عدو الله أنك عبد الله ورسوله، وهو عيسى، فزعمت أنه ابن الله، فيؤمن عند ذلك، ويقر أنه عبد الله ورسوله، ولا ينفعه إيمانه في ذلك الوقت، ويكون إيمانهم عليهم شهيداً، يوم القيامة. وروي عن مجاهد أنه قال: ما من أحد من أهل الكتاب إلا ويؤمن بعيسى - عليه السلام - قبل موته، فقيل له: وإن غرق، أو احترق، أو أكله السبع يؤمن بعيسى - عليه السلام -؟ فقال نعم^(١). وروي أن الحجاج بن يوسف سأل شهر بن حوشب عن هذه الآية فقال: إني لأوتي بالأسير من اليهود والنصارى، فأمر بضرب عنقه وأنظر إليه في ذلك الوقت، فلا أرى منه الإيمان، فقال له شهر بن حوشب: إنه حين عاین أمر الآخرة، يقر بأن عيسى عبد الله ورسوله فيؤمن به، ولا ينفعه، فقال له الحجاج: من أين أخذت هذا؟ قال: أخذته من محمد ابن الحنفية، فقال له الحجاج لقد أخذت من عين صافية وروي عن سعيد بن جبیر أنه قال: (قبل موته)، يعني قبل موت عيسى - عليه السلام - هكذا قال الحسن^(٢) قال الفقيه: حدثنا عمر بن محمد، قال: حدثنا أبو بكر الواسطي، قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف، قال: حدثنا يزيد بن زريع عن رجل، عن الحسن في قوله: ﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: قبل موت عيسى، والله إنه لحی عند الله الآن، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون^(٣). وروي عن ابن عباس أنه قال: يمكث عيسى - عليه السلام - في الأرض أربعين سنة نبياً إماماً مهدياً، ثم يموت وتصلي عليه هذه الأمة^(٤). وقال الضحاک: يهبط عيسى - عليه السلام - من السماء إلى الأرض بعد خروج الدجال، فيكون هبوطه على صخرة بيت المقدس، ثم يقتل الدجال، ويكسر الصليب ويهدم البيع والكنائس، ولا يبقى على وجه الأرض يهودي، ولا نصراني إلا آمن بالمسيح ودخل في الإسلام. ثم قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ يعني يكون عليهم عيسى - عليه السلام - شهيداً، بأنه قد بلغهم الرسالة. قوله تعالى: ﴿فَبُظْلِمَ مَنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ يعني بشركهم حرماً عليهم أشياء كانت حلالاً لهم، وهو كل ذي ظفر وشحوم البقر والغنم أحلت لهم. ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ أي بصرفهم كثيراً من الناس، عن دين الله على وجه التقديم ﴿وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا﴾ أي حرم عليهم الحلال بكفرهم، وبصرف الناس عن دين الله، وبأخذهم الربا ﴿وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ أي يعني عن أخذ الربا في التوراة ﴿وَأَكْلَهُمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ وهو أخذ الرشوة في الحكم، ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي هيأنا لهم عذاباً وجيعاً دائماً.

لَكِنَّ الرَّاْسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ
الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾
وقوله: ﴿لَكِنَّ الرَّاْسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ يعني المبالغون في العلم الذين أدركوا علم الحقيقة، وهم مؤمنو

(١) انظر تفسير مجاهد ١/ ١٨٠. (٢) انظر الطبري ٩/ ٣٨٠. (٣) انظر تفسير القرطبي ٦/ ٩. (٤) انظر تفسير الطبري ٩/ ٣٨٠.

أهل الكتاب، وذلك أن اليهود أنكروا، وقالوا: هذه الأشياء كانت حراماً في الأصل، وأنت تحلها، ولم تكن حرمت بظلمنا، فنزل: (لكن الراسخون في العلم منهم) يصدقون بما أنزل إليك أنه الحق. ويقال: إن مؤمني أهل الكتاب يعلمون أن الذي أنزل إليك من القرآن هو الحق، وأنت نبي مبعوث، وهو مكتوب عندهم. ثم قال: ﴿والمؤمنون﴾ يعني أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - ﴿يؤمنون بما أنزل إليك﴾. ثم قال: (والمؤمنون بما أنزل إليك) يعني يصدقون بالقرآن ﴿وما أنزل من قبلك﴾ ويصدقون بما أنزل من قبلك من كتب الله ثم وصفهم فقال: ﴿والمقيمين الصلاة﴾ قال بعض الجاهل: هذا غلط الكاتب حيث كتب مصحف الإمام، كان ينبغي أن يكتب: (والمقيمون) فأوهم وكتب والمقيمين، واحتج بما روي عن عائشة أنها قالت: ثلاثة أحرف في المصحف غلط من الكاتب، قوله تعالى: (والمقيمين الصلاة) وقوله (والصائبون والنصارى) وقوله: (. . . إن هذان لساحران . . .) وروي عن عثمان أنه نظر في المصحف فقال: أرى فيه لحنًا، وستقيمه العرب بألسنتها، ولكن هذا بعيد عند أهل العلم، والخبر لم يثبت عن عثمان، ولا عن عائشة - رضي الله عنهما - لأن أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كانوا حماة الدين والقدوة في الشرائع والأحكام فلا يظن بهم أنهم تركوا في كتاب الله تصحيفاً يصلحه غيرهم، وهم أخذوه عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمعنى في قوله: (والمقيمين الصلاة) قال بعضهم: يؤمنون بما أنزل إليك وبالمقيمين الصلاة، يعني بالنبيين المقيمين الصلاة، وقال بعضهم: لكن الراسخون في العلم منهم، ومن المقيمين الصلاة، يؤمنون بما أنزل إليك. ثم قال تعالى: ﴿والمؤتون الزكاة﴾ يعني الذين يعطون الزكاة المفروضة ﴿والمؤمنون بالله، واليوم الآخر﴾ يعني المقرون بوحداية الله تعالى وبالبعث بعد الموت، ثم قال: ﴿اولئك﴾ يعني أهل هذه الصفة ﴿سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾ أي يعطيهم الله في الآخرة ثواباً عظيماً وهو الجنة. قرأ حمزة: (سيؤتيهم) بالياء، وقرأ الباقون: بالنون. قوله تعالى

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾

﴿إنا أوحينا إليك﴾ يعني أرسلنا إليك جبريل ﴿كما أوحينا إلى نوح﴾ يعني كما أرسلنا إلى نوح. ويقال: أوحينا إليك بأن تثبت على التوحيد، وتأمّر الناس بالتوحيد كما أوحينا إلى نوح بأن يثبت على التوحيد، ويدعو الناس إلى التوحيد ﴿والتبيين من بعده﴾ أي أوحينا إليهم بذلك: ﴿وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق﴾ وهما أبنا إبراهيم عليهم السلام ﴿ويعقوب﴾ وهو ابن إسحاق ﴿والأسباط﴾ وهم أولاد يعقوب عليه السلام، كانوا اثني عشر سبطاً، أوحينا إلى أنبيائهم بأن يثبتوا على التوحيد، ويدعو الناس إلى ذلك، ﴿و﴾ أوحينا إلى ﴿عيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان، وآتيناهم داود زبوراً﴾ قرأ حمزة^(١): (زبوراً) بضم الزاي، وقرأ الباقون بالنصب في جميع القرآن ومعناها واحد وهو عبارة عن الكتاب. ثم قال: ﴿ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل﴾ يعني قد سميئناهم لك من قبل، يعني بمكة ﴿ورسلاً لم نقصصهم عليك﴾ يعني: لم نسميهم لك وقد أرسلناك كما أرسلنا هؤلاء،

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢١٩، سراج القاري ١٩٧.

وروي عن كعب الأحبار أنه قال: كان الأنبياء ألفي ألف ومائتي ألف، وقال مقاتل: كان الأنبياء ألف ألف، وأربعمائة ألف، وأربعة وعشرين ألفاً. وروي أنس بن مالك عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: (بعث على أثر ثمانية آلاف من الأنبياء، منهم أربعة آلاف من بني ^(١)إسرائيل). قال الفقيه أبو الليث حدثنا الفقيه أبو جعفر، قال: حدثنا أحمد بن محمد القاضي، قال: حدثنا إبراهيم بن حشيش البصري عن شعبة، عن أبي إسحق عن الحارث الأعور، عن أبي ذر الغفاري قال: قلت يا نبي الله كم كانت الأنبياء؟ وكما كان المرسلون فقال - صلى الله عليه وسلم -: كانت الانبياء مائة ألف نبي وأربعة وعشرون ألف نبي، وكان المرسلون ثلاثمائة وثلاثة عشر ^(٢). ثم قال: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾. قال بعضهم: معناه، أنه قد أوحى إليه وإنما سماه كلاماً على وجه المجاز كما قال في آية أخرى: (أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم) أي يستدلون بذلك، والعرب تقول: قال الحائط كذا، وقال عامة المفسرين، وأهل العلم أن هذا كلام حقيقة، لا كلام مجاز لأنه قد أكد بالمصدر حيث قال: (وكلم الله موسى تكليماً)، والمجاز لا يؤكد لأنه لا يقال: قال الحائط قولاً، فلما أكد بالمصدر نفى عنه المجاز وقال في موضع آخر: (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له: كن، فيكون) وقد أكد بالترار، ونفى عنه المجاز. وقال في موضع آخر: (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً) يعني الأنبياء الذين لم يكونوا مرسلين، فأراهم في المنام، أو من وراء حجاب بكلام مثل ما كلم الله موسى، أو يرسل رسولاً، وهو رسالة جبريل إلى المسلمين. ثم قال تعالى:

رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾
لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾

﴿رسلًا مبشرين ومنذرين﴾ أي أرسلنا رسلًا مبشرين بالجنة ومنذرين بالنار ﴿لئلا يكون﴾ يقول لكيلا يكون ﴿للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ يعني بعد إرسال الرسل، كي لا يقولوا يوم القيامة إنك لم ترسل إلينا رسولاً، ولو أن الله تعالى لم يرسل رسولاً، كان ذلك عدلاً منه، إذ أعطى كل واحد من خلقه من العقل ما يعرفه، ولكن

(١) ذكره القرطبي في التفسير ١٤/٦ وعزاه للمصنف رحمه الله هنا، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ١٦٢/٣ ضمن ترجمة صفوان بن سليم وقال: غريب من حديث زياد تفرد به زكريا، ورواه أحمد بن حازم عن صفوان ومحمد عن أنس مقروناً. وأخرجه ابن سعد في الطبقات ١٢٨/١/١، وذكره الحافظ ابن كثير في التفسير ٤٢٣/٢ وضعف الإسناد الذي ساق به والحديث في كنز العمال (٣٢٢٨٠).

(٢) ذكره الحافظ ابن كثير في التفسير ٤٢٢/٢ وعزاه لابن مردويه في التفسير وقال أيضاً رواه ابن حبان البستي (١) في كتابه (الأنواع والتقسيم) وقد وسمه بالصححة وخالفه أبو الفرج بن الجوزي فذكر هذا الحديث في كتابه الموضوعات واتهم به إبراهيم بن هشام هذا ولا شك أنه قد تكلم فيه غير واحد من أئمة الجرح والتعديل من أجل هذا الحديث فالحق أعلم. وقد روى الحديث من وجه آخر عن صحابي آخر فقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف حدثنا أبو المغيرة حدثنا معان بن رفاعة عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة قال قلت: يا نبي الله كم الأنبياء: قال مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جملاً غفيراً. معان بن رفاعة السلمي ضعيف وعلي بن يزيد ضعيف والقاسم أبو عبد الرحمن ضعيف أيضاً.

أرسل تفضلاً منه، ولكي يكون زيادة في الحجة عليهم، ثم قال تعالى: ﴿وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ (عزيزاً) بالنقمة لمن يجحده (حكيماً) حكم إرسال الرسل والأنبياء - عليهم السلام - . قوله تعالى: (لكن الله يشهد بما أنزل إليك). قال ابن عباس، وذلك أن رؤساء مكة أتوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا: سألنا اليهود عن صفتك ونعتك، فزعموا أنهم لا يعرفونك في كتابهم، فأتينا بمن يشهد لك بأنك نبي مبعوث، فنزل: ﴿لكن الله يشهد﴾ يعني إن لم يشهد لك أحد منهم فالله تعالى أعظم شهادة من خلقه، هو يشهد لك بأنك نبي ويظهر نبوتك. قال القتيبي: هذا من الاختصار، لأنه لما نزل: (إننا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح) قال المشركون: لا نشهد لك بهذا، فمن يشهد لك؟ فنزلت هذه الآية، حكاية قولهم، فقال تعالى: لكن الله يشهد ﴿بما أنزل إليك﴾ لأن كلمة: لكن، إنما تجيء بعد نفي شيء، فوجب ذلك الشيء بها. ثم قال تعالى: ﴿أنزله بعلمه﴾ أي بأمره، ويقال: أنزل القرآن الذي فيه علمه، ثم قال تعالى: ﴿والملائكة يشهدون﴾ أيضاً على شهادتك بالذي شهدت أنه الحق ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ فلا أحد أفضل من الله تعالى شهادة بأنه أنزل [عليك القرآن] (١). قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله﴾ يعني صرفوا الناس عن دين الله ﴿قد ضلوا ضلالاً بعيداً﴾ عن الحق. ثم قال تعالى: ﴿إن الذين كفروا وظلموا﴾ أي جحدوا وأشركوا ﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾ أي ما داموا على كفرهم ﴿ولا ليهديهم طريقاً﴾ يعني لا يوفقهم لطريق الإسلام. ﴿إلا طريق جهنم﴾ يعني يتركهم، ويخذلهم في طريق الكفر عقوبة لكفرهم، ولجحدوهم، وهو طريق جهنم، ويقال: إلا العمل الذي يجبرهم إلى جهنم، وقال الضحاك: لا يهديهم طريقاً يوم القيامة، أي لا يرفع لهم طريق جهنم، وذلك أن أهل الإيمان يرفع لهم في الموقف طريق تأخذ بهم إلى الجنة، ويرفع لأهل الكفر طريق ينتهي بهم إلى النار. ثم قال تعالى: ﴿خالدين فيها أبداً﴾ أي دائمين فيها ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ أي خلودهم، وعذابهم في النار هين على الله تعالى. قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴿١٧٠﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ أَنْتَهُمْ خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾

﴿يا أيها الناس﴾، قال ابن عباس: يعني أهل مكة. ﴿قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم﴾ أي بشهادة أن لا إله إلا الله، ويقال: ببيان الحق، ويقال: للحق، يعني للعرض والحجة وقوله تعالى: (قد جاءكم) على وجه المجاز، لأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد كان فيهم، ولكن معناه، أنه قد ظهر فيكم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما قال في آية أخرى: (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) أي ظهر فيكم ثم قال ﴿فآمنوا خيراً لكم﴾ أي صدقوا بوحداية الله تعالى والقرآن الذي جاءكم به محمد - صلى الله عليه وسلم - خيراً لكم من عبادة الأوثان، لأن عبادة الأوثان لا تغنيكم شيئاً، ثم قال تعالى: ﴿وإن تكفروا﴾ أي إن تجحدوا بالله وبمحمد - صلى الله عليه وسلم -

فإن الله غنياً عنكم ﴿فإن الله ما في السموات والأرض﴾ كلهم عبيده وإماؤه. ﴿وكان الله عليماً﴾ بخلقه ﴿حكيماً﴾ في أمره. ثم قال تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم﴾. قال الضحاك: أي لا تكذبوا في دينكم، وقال بعض أهل اللغة الغلو^(١)، مجاوزة القدر في الظلم، ويقال: الغلو أن تجاوز ما حد لك، وقال القتيبي: يعني لا تفرطوا في دينكم، فإن دين الله بين المقصر والغالي، وغلا في القول إذا تجاوز المقدار، وقال ابن عباس: وذلك أن اليعقوبية، وهم صنف من النصارى قالوا: عيسى هو الله^(٢)، وقالت النسطورية^(٣): هو ابن الله، وقالت المرقسية ويقال لهم الملكانية^(٤): هو ثالث ثلاثة، فنزل (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم)، قال مقاتل^(٥): الغلو في الدين أن يقول على الله غير الحق^(٦)، ويقال: لا تتعمقوا في دينكم. ثم قال تعالى: ﴿ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾ يعني لا تصنعوا بالله بما لا يليق بصفاته، فإن الله تعالى واحد لا شريك له، ولا ولد له. ثم قال تعالى: ﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم﴾ وهو قوله: (كن فيكون) ثم قال: ﴿وروح منه﴾ قال ابن عباس في رواية الكلبي: يعني أمر منه، فأتاها جبريل فنفخ في جيب درعها، فدخلت تلك النفخة بطنها، ثم وصل إلى عيسى ابن مريم فتحرك في بطنها، وأمه أمة الله تعالى ﴿فأمنوا بالله ورسله﴾ يعني صدقوا بوحداية الله تعالى، وبما جاءكم به الرسل من الله تعالى، ﴿ولا تقولوا ثلاثة﴾ يعني لا تقولوا أن الله ثالث ثلاثة ﴿انتهوا خيراً لكم﴾ يقول: توبوا إلى الله تعالى من مقالكم، فالتوبة خير لكم من الإصرار على الكفر ﴿إنما الله إله واحد﴾ ثم نزه نفسه عما قال الكفار فقال: ﴿سبحانه أن يكون له ولد﴾ ثم قال تعالى: ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ من الخلق ﴿وكفى بالله كيلاً﴾ يعني كفيلاً، ويقال: شاهداً، ولا شاهد أفضل منه. قوله تعالى:

لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدَ اللَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ

(١) وقال بعضهم: غَلَوْتُ في الأمر غُلُوًّا وغلالية وغلانياً إذا جاوزت فيه الحد وأفرطت فيه. قال الأعشى وأنشده ابن بري. أو زد عليه الغلانياً. انظر لسان العرب ٣٢٩٠/٥ وترتيب القاموس ٤١٨/٤.

(٢) أصحاب يعقوب قالوا بالأقانيم الثلاثة إلا أنهم قالوا: انقلبت الكلمة لحماً ودماً فصار الإله هو المسيح. وهو الظاهر بجسده بل هو هو عنهم أخبرنا القرآن الكريم ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [سورة المائدة ٧٢] وانظر تفصيل ذلك في الملل والنحل ٣٠/٢ ويسمون الآن (أرثوذكس).

(٣) أصحاب نسطور الحكيم الذي ظهر في زمان المأمون وتصرف في الأناجيل بحكم رأيه. وإضافته إليهم إضافة المعتزلة إلى هذه الشريعة قال: إن الله تعالى واحد ذو أقانيم ثلاثة: الوجود والعلم والحياة وهذه الأقانيم ليست زائدة على الذات ولا هي هو. واتحدت الكلمة بجسد عيسى عليه السلام لا على طريق الامتزاج كما قالت الملكانية ولا على طريق الظهور به كما قالت اليعقوبية ولكن كإشراق الشمس في كوة على بلورة وكظهور النقش في الشمع إذا طبع بالخاتم. انظر تفصيل ذلك في الملل والنحل للشهرستاني ٢٩/٢.

(٤) أصحاب ملكا الذي ظهر بأرض الروم واستولى عليها ومعظم الروم ملكانية. قالوا: إن الكلمة اتحدت بجسد المسيح وتدرعت بناسوته ويعنون بالكلمة: أقنوم العلم ويعنون بروح القدس: أقنوم الحياة، ولا يسمون العلم قبل تدرعه ابناً بل المسيح مع ما تدرع به ابن فقال بعضهم: إن الكلمة مازجت جسد المسيح كما يمازج الخمر أو الماء اللبن.

وصرحت الملكانية بأن الجوهر غير الأقانيم وذلك كالموصوف والصفة وعن هذا صرحوا بإثبات التثليث وأخبر عنهم القرآن ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾.

انظر تفصيل أباطيلهم في الملل والنحل ٢٧/٢.

(٥) انظر تفسير ابن عباس ٦٩.

(٦) انظر تفسير مقاتل ٨٤/١.

عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرُ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
فِيُوفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ؕ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ
عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾

﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله﴾ يعني لن يتعظم، ولن يأنف، ولن يتكبر، ويقال: لن يحتشم أن يكون عبداً لله. ويقال: إن وفد نجران أتوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وناظروه في أمر عيسى - عليه السلام - فقال لهم النبي - صلى الله عليه وسلم -: كان عبد الله ورسوله، فقالوا: لا تقل هكذا فإن عيسى يأنف عن هذا القول، فنزل تكذيباً لقولهم: (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله)، يعني كان عيسى مقراً بالعبودية. ثم قال تعالى: ﴿ولا الملائكة المقربون﴾ يعني حملة العرش، لن يأنفوا عن الإقرار بالعبودية، وقال مقاتل: الملائكة المقربون، أقرب إليه، فلم يأنفوا عن عبادته فكيف يأنف عيسى - عليه السلام - وهو عبد من عباده. ثم قال تعالى: ﴿ومن يستنكف﴾ أي يتعظم ﴿عن عبادته ويستكبر﴾ والاستكبار: هو الاستنكاف، يقال: استنكف واستكبر، يعني استكبر عن طاعته ﴿فسيحشرهم إليه جميعاً﴾ يأمر بهم إلى النار. ثم قال عز وجل: ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي الطاعات فيما بينهم وبين ربهم ﴿فيؤفيهم أجورهم﴾ أي يوفّر لهم ثواب أعمالهم ﴿ويزيدهم من فضله﴾ أي من رزقه في الجنة ﴿وأما الذين استنكفوا واستكبروا﴾ عن عبادة الله تعالى ﴿فيعذبهم عذاباً أليماً﴾ أي وجيعاً دائماً ﴿ولا يجدون لهم من دون الله﴾ يعني من عذاب الله ﴿ولياً﴾ يعينهم ﴿ولا نصيراً﴾ مانعاً يمنهم. ثم قال عز وجل:

يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُفْرَهُنَّ مِّن رَّبِّكُم وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ
وَأَعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾
يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ
وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً
فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم﴾ أي بياناً من ربكم وحجة من ربكم، وهو محمد - صلى الله عليه وسلم - والقرآن ﴿وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾ أي بياناً من العمى، وبيان الحلال من الحرام وهو القرآن. قوله تعالى: ﴿فأما الذين آمنوا بالله﴾ أي صدقوا بوحداية الله تعالى ﴿وأعتصموا به﴾ أي تمسكوا بدينه ﴿فسيدخلهم في رحمة منه﴾ يعني الجنة ﴿وفضل﴾ أي الثواب ﴿ويهديهم إليه﴾ أي يرشدهم إلى دينه ويوفقهم لذلك، وفي الآية تقديم وتأخير، فكأنه يقول: يهديهم في الدنيا ﴿صراطاً مستقيماً﴾ أي ديناً لا عوج فيه ويشيهم على ذلك، ويدخلهم في الآخرة في رحمة منه وفصل، وهو الجنة والكرامة. قوله تعالى: ﴿يستفتونك﴾ يعني يسألونك في حكم الميراث ﴿قل الله يفتيكم في الكلاله﴾ روي عن قتادة أنه قال: الكلاله من لا ولد له ولا والد^(١)، وكذلك قال ابن عباس^(٢)

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير ٥٧/٨ (٨٧٦٠).

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير ٥٥/٨ (٨٧٥٠).

وروي عن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - أنه قال: إني قد رأيت رأياً فإن يكن صواباً فمن الله وإن يكن خطأ فمن نفسي ومن الشيطان: الكلالة: ما عدا الوالد والولد^(١). وعن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه قال: ثلاث لا يكون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بينهن لنا، كان أحب إلي من الدنيا وما فيها: الكلالة، والخلافة وأبواب الربا^(٢). وروي عن النبي - صلى الله عليه وسلم -: أنه سئل عن الكلالة فقال: ألم تر الآية التي أنزلت في النساء: (قل الله يفتيككم في الكلالة^(٣)) إن امرؤ هلك ليس له ولد) يعني هذا تفسير الكلالة وهذه الآية نزلت في شأن جابر بن عبد الله سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال إن لي أختاً فما لي من ميراثها؟ فنزلت هذه الآية فبين ميراث جابر أولاً ثم ميراث أخته، فصارت الآية عامة لجميع الناس. قال: ﴿إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ﴾ يعني إن مات رجل ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك ﴿من المال﴾ وهو يرثها يعني إذا ماتت الأخت والأخ حي ورثها ﴿إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾. وقد ذكرت الآية حكم الأخ والأخت، إذا لم يكن لهما ولد، ولم يبين أنه لو كان لأحدهما ولد فمات أحدهما فما حكمه؟ ولكن بين على لسان رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن للابنة النصف وما بقي فللأخت، وإن كانت الأخت هي التي ماتت وتركت ابنة وأخاً فللابنة النصف وما بقي فللأخ وفي هذا إجماع، وفي الأول اختلاف، قال ابن عباس^(٤): لا ترث الأخت مع الابنة شيئاً، وخالفه جميع الصحابة، وقالوا كلهم الأخوات مع البنات عصبه. ثم قال تعالى ﴿فَإِنْ كَانَتَا أَثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثَّلَاثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾، (يعني إذا كان للميت أختان أو أكثر فلهما الثلثان إذا كانتا اثنتين، وإن كن أكثر من ذلك فلهن الثلثان أيضاً بالإجماع، ثم قال:). ﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً﴾ يعني إخوة وأخوات ﴿فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ يعني لكل سهمان ولكل أخت سهم، هذا إذا كانت الأخوة والأخوات من الأب والأم، أو من الأب خاصة فأما إذا كانوا من قبل الأم فهم شركاء في الثلث، ليس لهم أكثر من ذلك كما ذكرنا في أول السورة وهذا بالإجماع، ثم قال عز وجل: ﴿يَبِينُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ أي يبين الله لكم قسمة الموارث، لكي لا تضلوا ولا تخطئوا في قسمتها، وقد يحذف (لا) فيراد به إثباته، كقوله (وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ) يعني أن لا تميد بكم، وقد يذكر (لا) ويراد حذفه كقوله: (قال ما منعك ألا تسجد) يعني أن تسجد، وكقوله (لا أقسم) أقسم ثم قال تعالى ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من قسمة الموارث وغيره، أي اتبعوا ما أنزل الله تعالى وبين لكم في كتابه. (والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً).

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير ٥٣/٨، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٢٢٣/٦، ٢٢٤ وذكره الحافظ ابن كثير في التفسير

٤٣٦/٢ وزاد نسبه السيوطي في الدر المنثور ٢٥٠/٢ لعبد الرزاق وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر.

(٢) أخرجه البخاري ٤٨/١٠ في كتاب الأشربة (٥٥٨٨)، وأخرجه مسلم ٢٣٢٢/٤ في كتاب التفسير (٣٠٣٢/٣)، (٣٠٣٢/٣)

وأخرجه ابن ماجه ٩١١/٢ في كتاب الفرائض (٧٢٧) وقال البوصيري عن إسناده رجال إسناده ثقات إلا أنه منقطع.

(٣) أخرجه مسلم ١٢٣٦/٣ في كتاب الفرائض (١٦١٧/٩).

(٤) أخرجه الطبري في التفسير ٤٤٣/٩.

سُورَةُ الْمَائِدَةِ (١)

كلها مدنية وهي مائة وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[قال الفقيه - رضي الله عنه^(٢)] حدثنا الخليل بن أحمد، قال: حدثنا السراج، قال: حدثنا إسحاق بن إبراهيم

(١) هذه السورة سميت في كتب التفسير وكتب السنة بسورة «المائدة» لأن فيها قصة المائدة التي سألها الحواريون من عيسى - عليه السلام - وقد اختصت بذكرها، وفي مسند أحمد بن حنبل وغيره وقعت تسميتها سورة المائدة في كلام عبد الله بن عمر وعائشة أم المؤمنين وأسماء بنت يزيد وغيرهم فهذا أشهر أسمائها.

وتسمى أيضاً سورة «العقود»: إذ وقع هذا اللفظ في أولها. وتسمى أيضاً المنقذة ففي أحكام القرآن لابن الفرس: روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: (سورة المائدة تدعى في ملكوت السماوات المنقذة) قال: أي أنها تنقذ صاحبها من أيدي ملائكة العذاب. وفي كتاب كنيات الأدباء لأحمد الجرجاني (يقال: فلان لا يقرأ سورة الأخيار أي لا يفي بالعهد وذلك أن الصحابة - رضي الله عنهم - كانوا يسمون سورة المائدة «سورة الأخيار» قال جرير:

إِن الْبَعِيثَ وَعَبْدَ آلِ مَتَاعَسْ لَا يَقْرَأَنَّ بِسُورَةِ الْأَخْيَارِ

وهي مدنية باتفاق روي أنها نزلت منصرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الحديبية بعد سورة الممتحنة فيكون نزولها بعد الحديبية بمدة لأن سورة الممتحنة نزلت بعد رجوع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة من صلح الحديبية وقد جاءته المؤمنات مهاجرات وطلب منه المشركون إرجاعهم إليهم عملاً بشروط الصلح فأذن الله للمؤمنين بعدم إرجاعهم بعد امتحانهم.

روي ابن أبي حاتم عن مقاتل أن آية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيُتْلَوْنَ كُمُ اللَّهُ شَيْءٌ مِنَ الصَّيْدِ - إِلَى - عَذَابِ الْيَمِّ﴾ نزلت عام الحديبية، فلعل ذلك الباعث للذين قالوا: إن سورة العقود نزلت عام الحديبية وليس وجود تلك الآية في هذه السورة بمقتضى أن يكون ابتداء نزول السورة سابقاً على نزول الآية، إذ قد تلحق الآية بسورة نزلت متأخرة عنها. وفي الإتقان: أنها نزلت قبل سورة النساء ولكن صح أن آية ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ نزلت يوم عرفة في عام حجة الوداع. ولذلك - اختلفوا في أن هذه السورة نزلت متتابعة أو متفرقة ولا ينبغي التردد في أنها نزلت منجمة.

وقد احتوت هذه السورة على تشريعات كثيرة تنبئ بأنها أنزلت لاستكمال شرائع الإسلام، ولذلك افتتحت بالوصاية بالفداء بالعقود أي بما عاقدها الله عليه حين دخولهم في الإسلام من التزام ما يؤمرون به، فقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يأخذ البيعة على الصلاة والزكاة والنصح لكل مسلم، كما في حديث جابر بن عبد الله في الصحيح وأخذ البيعة على الناس بما في سورة الممتحنة كما روى عبادة بن الصامت، ووقع في أولها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ فكانت طالعته براعة استهلال.

وذكر القرطبي: أن فيها تسع عشرة فريضة ليست في غيرها وهي سبع في قوله ﴿وَالْمُنْخِيفَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيغَةُ وَمَا أَكَلَ السَّيِّءُ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾، وما عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مَكْلِينَ - وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمَحْصَنَاتِ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ، وتمايم الطهور إذا قمتم إلى الصلاة. (أي إتمام ما لم يذكر في سورة النساء) - ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ - ﴿وَلَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حَرَمٌ﴾ إلى قوله ﴿عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ - ﴿وَمَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ﴾ الآية وقوله ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ ليس في القرآن ذكر للأذان للصلوات إلا في هذه السورة. اهـ.

وقد احتوت على تمييز الحلال من الحرام في المأكولات، وعلى حفظ شعائر الله في الحج والشهر الحرام، والنهي عن بعض =

الحنظلي^(١)، قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي^(٢)، قال: حدثنا معاوية بن صالح عن أبي الزاهرية^(٣)، عن جبير^(٤) بن [نفيير]^(٥)، قال: دخلت على عائشة - رضي الله عنها - فقالت: هل تقرأ سورة المائدة؟ فقلت نعم، قالت: فإنها من آخر ما أنزل الله على نبيه [فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه]^(٦)، وما وجدتم فيها من حرام فحرموه^(٧). وقال الشعبي: لم ينسخ من هذه السورة غير قوله: (ولا الشهر الحرام ولا الهدي، ولا القلائد... الآية)^(٨). وقال بعضهم: نسخ منها قوله: (أو آخران من غيركم) قوله تعالى:

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَامِ ٱلَّتِىَ ءَمَيْتُمْ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَأْتِيهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَآ يُحِلُّوْا شَعْيِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدَى وَلَا ٱلْقَلَئِدَ وَلَا ءَمِينَ ٱلْبَيْتِ ٱلْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حُلِلْتُمْ فَٱصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلنَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخَنِزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ ۚ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ ٱلسَّبُعُ

= المحرمات من عوائد الجاهلية مثل الأضلام. وفيها شرائع الوضوء والغسل والتيمم، والأمر بالعدل في الحكم، والأمر بالصدق في الشهادة، وأحكام القصاص في الأنفس والأعضاء، وأحكام الحراية وتسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن نفاق المنافقين، وتحريم الخمر والميسر، والأيمان وكفارتها. والحكم بين أهل الكتاب، وأصول المعاملة بين المسلمين وبين أهل الكتاب وبين المشركين والمنافقين، والخشية من ولايتهم أن تفضي إلى ارتداد المسلم عن دينه. وإبطال العقائد الضالة لأهل الكتابين، وذكر مساوىء من أعمال اليهود، وإنصاف النصراني فيما لهم من حسن الأدب وأنهم أرحم للإسلام، وذكر قصة التيه وأحوال المنافقين، والأمر بتخلق المسلمين بما يناقض أخلاق الضالين في تحريم ما أحل لهم، والتنويه بالكعبة وفضائلها وبركاتها على الناس وما تخلل ذلك أو تقدمه من العبر، والتذكير للمسلمين بنعم الله تعالى، والتعريض بما وقع فيه أهل الكتاب من نبذ ما أمروا به والتهاون فيه. واستدعاؤهم للإيمان بالرسول الموعود به. وختمت بالتذكير بيوم القيامة، وشهادة الرسل على أممهم، وشهادة عيسى على النصراني وتمجيد الله تعالى. انظر التحرير ٦/٦٩ - ٧٠ - ٧٢ - ٧٣ - ٧٤.

(١) أبو يعقوب الحنظلي المعروف بابن راهويه المروزي. انظر تهذيب التهذيب ١/٢١٦.

(٢) عبد الرحمن بن مهدي بن حسان العنبري أبو سعيد البصري. انظر تهذيب التهذيب ٦/٢٧٩.

(٣) حدير بن كريب الحضرمي، ثقة كبير انظر تهذيب التهذيب ٢/٢١٨.

(٤) بن مالك بن عامر الحضرمي انظر التهذيب ٢/٦٤.

(٥) في أ [نصير]. (٦) سقط في أ.

(٧) أخرجه الحاكم في المستدرک ٣١١/٢ في التفسير، باب تفسير سورة المائدة. وقال حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي وأخرجه أحمد في المسند ١٨٨/٦ عن عبد الرحمن بن مهدي عن معاوية بن صالح. وزاد (وإذا سألتها عن خلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال القرآن) وأخرجه البيهقي من طريق الحاكم ١٧٢/٧ في النكاح باب جماع أبواب نكاح حرائر أهل الكتاب. وعزاه الشوكاني في فتح القدير ٣١٢ فضلاً عن هؤلاء لابن جرير الطبري والنسائي، قلت: انظر تفسيره ٤٢٧/١، وأخرجه ابن مردويه.

(٨) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٢/٢٥٢ لعبد بن حميد وأبي داود في ناسخه وابن جرير وابن المنذر والنحاس انظر فتح القدير

إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ ^{فَقَدْ} الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهذا نداء المدح، والنداء في القرآن على سبع مراتب: نداء المدح: مثل قوله: (يا أيها النبي) (يا أيها الذين آمنوا) (يا أيها الرسل). ونداء الذم مثل قوله تعالى: (يا أيها الذين كفروا) (يا أيها الذين هادوا). ونداء التنبيه: مثل قوله: (يا أيها الإنسان). ونداء الإضافة: مثل قوله: (يا عبادي). ونداء النسبة: مثل قوله: (يا بني آدم) (يا بني إسرائيل) ونداء الاسم: مثل قوله: (يا إبراهيم) (يا داود). ونداء التعبير: مثل قوله: (يا أهل الكتاب). فهنا نداء المدح: (يا أيها الذين آمنوا) وهو من جوامع الكلم لأنه قال: «يا أيها الذين آمنوا» يعني صدقوا، ولم يقل بأي شيء صدقوا، معناه الذين صدقوا بوحداية الله تعالى، وصدقوا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وبالقرآن وصدقوا بجميع الرسل، وبالبعث والحساب والجنة والنار. وقال عبد الله بن مسعود كل مؤدب يحب أن يؤتى أدبه، وإن أدب الله القرآن، فإذا سمعت الله يقول: (يا أيها الذين آمنوا) فارعها سمعك، فإنه خير مأمور به، أو شر منهي عنه^(١). ويقال: جميع ما في القرآن: (يا أيها الذين آمنوا) نزل بالمدينة وكل ما يقال في القرآن: (يا أيها الناس) نزل أكثره بمكة، وقد قيل نزل بالمدينة أيضاً ويقال: كل ما في القرآن (يا أيها الذين آمنوا) ذكر في مقابله في الإنجيل: (يا أيها المساكين). ثم قال: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ يعني أتموا الفرائض التي ذكر الله تعالى في القرآن، وعقد على عباده ما أحل لهم وحرم عليهم، أن يوفوا بها. وقال مقاتل: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ يعني بالعهد التي بينكم وبين المشركين، ويقال: جميع العقود التي بينه وبين الناس، والتي بينه وبين الله تعالى، وهذا من جوامع الكلم، لأنه اجتمع فيه ثلاثة أنواع من العقود: أحدها: العقود التي عقد الله تعالى على عباده، من الأوامر والنواهي. والنوع الثاني: العقود التي يعقدها الإنسان بينه وبين الله تعالى من النذور والأيمان وغير ذلك. والنوع الثالث: العقود التي بينه وبين الناس: مثل البيوع والإجازات وغير ذلك، فوجب الوفاء بهذه العقود كلها^(٢). ثم قال: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ﴾ يعني رخصت لكم ﴿بِهَيْمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ والأنعام تشتمل على الإبل والبقر، والغنم والوحش، دليله على قوله تعالى: (ومن الأنعام حمولة وفرشاً) ثم قال: (ثمانية أزواج)، وأما البهيمة فهي كل حي لا يتميز وإنما قيل لها بهيمة لأنها أبهمت من أن تميز، ثم قال: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ يعني رخصت لكم الأنعام كلها، إلا ما حرم عليكم في هذه السورة وهي الميتة، والدم، ولحم الخنزير وغير ذلك، وذلك أنهم كانوا يحرمون السائبة، والبحيرة، فأخبر الله تعالى: أنهما حلالان (إلا ما يتلى عليكم) يعني إلا ما بين في هذه السورة. ثم قال: ﴿غَيْرَ مُجْلِي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ يعني أحلت لكم هذه الأشياء من غير أن تستحلوا الصيد وأنتم محرمون. ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ يعني يحل ما يشاء، ويحرم ما يشاء، لأنه أعرف بصلاح خلقه، وما يصلحهم، وما لا يصلحهم وليس لأحد أن يدخل في حكمه، وهذا كقوله: (ولا يشرك في حكمه أحداً) وقال: (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون)

(١) أخرجه ابن كثير في التفسير ٤/٣ قال قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا نعيم بن حماد حدثنا عبد الله بن المبارك حدثنا مسعر. حدثني معن وعوف أو أحدهما: أن رجلاً أتى عبد الله بن مسعود فقال: اعهد إليّ فقال: إذا سمعت. الخ.

(٢) ولا وجه لتحقيق بعضها دون بعض فالقدر الذي يجب الوفاء به ما وافق كتاب الله تعالى وسنة نبيه - صلى الله عليه وسلم - فإن خالفهما فهو رده.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ الشعائر ما جعل الله علامات الطاعات، وأحدها شعيرة، ومعناه لا تستحلوا شيئاً من ترك المناسك كلها، مما أمر الله تعالى من أمر الحج، وهو السعي بين الصفا والمروة، والخروج إلى عرفات ورمي الجمار والطواف واستلام الحجر^(١) وغير ذلك^(٢). وذلك أن الأنصار كانوا لا يسعون بين الصفا والمروة، وكان أهل مكة لا يخرجون إلى عرفات، وكان أهل اليمن يرجعون من عرفات، فأمر الله تعالى في هذه السورة بأن لا يتركوا شيئاً من أمور المناسك، ثم قال: ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ يعني لا تستحلوا القتل في الشهر الحرام ﴿وَلَا الْهَدْيَ﴾ ولا تقبلوه ولا تستحلوه، وذلك أن أهل الجاهلية كانوا إذا خرجوا إلى مكة، وكانوا إذا قلدوا الهدي أمنوا بذلك، ومن يكن له هدي جعل في عنق راحلته قلادة، ومن لم يكن معه راحلة جعل في عنقه قلادة من شعر أو وبر، فيأمن بذلك فإذا رجع من مكة جعل شيئاً من لحاء شجر مكة في عنق راحلته فيأمن بذلك، ليعرف أنه كان حاجاً، فأمرهم الله تعالى بأن لا يستحلوا ذلك، يعني من فعل ذلك، لا يتعرض له. ثم قال تعالى: ﴿وَلَا آمِينَ﴾ يقول: ولا تستحلوا قاصدين ﴿الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ نزلت في «شُرَيْح بن ضُبَيْعة بن شُرَيْحيل اليماني» دخل على النبي - صلى الله عليه وسلم - وكلمه، فلما خرج من عنده مرَّ بسرح لأهل المدينة، فساقها وانتهى إلى الإمامة، ثم خرج من هناك نحو مكة، ومعه تجارة عظيمة فهم أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأن يخرجوا إليه، ويغيروا على أمواله، فنزل: ﴿وَلَا آمِينَ﴾ (ولا آمين البيت الحرام)^(٣)، «يبتغون فضلاً من ربهم» يعني الربح في المال، ﴿وَرِضْوَانًا﴾ يعني يطلبون بحجهم رضوان ربهم فلا يرضى عنهم حتى يؤمنوا، ثم نسخ بقوله: ﴿اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾. ولم ينسخ قوله (لا تحلوا شعائر الله)، ولكنه محكم فوجب إتمام أمور المناسك. ولهذا قال أصحابنا: (إن الرجل إذا دخل في الحج ثم أفسده فعليه أن يأتي بجميع أفعال الحج، ولا يجوز أن يترك ثم عليه القضاء في السنة الثانية، ونسخ قوله: ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ فيجوز القتال في الشهر الحرام بقوله: ﴿قاتلوا المشركين كافة﴾. وقوله تعالى: ﴿وَلَا الْهَدْيَ﴾ ولا القلائد فهو محكم أيضاً، ولم ينسخ فكل من قلد الهدي (وتوجه إلى مكة) ونوى الإحرام صار محرماً، ولا يجوز له أن يحل بدليل هذه الآية، فهذه الأحكام معطوفة بعضها على بعض، بعضها منسوخة وبعضها محكمة. فإن قيل: قد قال: ييغون فضلاً من ربهم، ورضواناً، فأخبر أنهم يطلبون رضوان ربهم، ولم يذكر أن طلبهم كان باطلاً، قيل له: لأنه لم يذكر في لفظ الآية أمر الكفار، وإنما بين النهي عن التعرض للذين يقصدون البيت، فإن كان الذي قصد كافراً فقد بين في آية أخرى أنه لم يقبل منه، وإن لم يذكر ها هنا وهو قوله: (ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله) وقال: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ يعني: إذا حللت من إحرامكم، فاصطادوا إن شئتم، فهذه رخصة بلفظ الأمر كقوله: (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض) وكقوله: (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود... الآية) وقال الضحاك: (وإذا حللتكم) يعني إذا خرجتم من إحرامكم، وخرجتم من حرم الله تعالى، وأمنه فاصطادوا. ثم قال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَانُ قَوْمٍ﴾ يقول: ولا يحملنكم عداوة كفارة مكة ﴿أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يعني عام الحديبية ﴿أَنْ تَعْتَدُوا﴾

(١) في ب [والأسود وطواف الزيارة وغير ذلك].

(٢) وهذا التعريف ليس على صيغة الحدود والتعريفات لأنه تعريف بالخصائص ويطلق في الشرع «عبارة عن قصد مخصوص إلى مكان مخصوص في زمان مخصوص».

انظر طلبة الطلبة ٢٧، شرح الحدود ٩٥، المطلع ١٦٠، تبين الحقائق ٢/٢، وانظر تفصيل أحكامه في البدائع ٣/١٠٧٨، المبسوط ٢/٤، شرح المذهب ٣/٧، المغني ٣/٢١٣، الكافي لابن عبد البر ١/٣٥٦.

(٣) انظر أسباب النزول للواحدي ١٣٩ وينحوه انظر الدر المنثور ٢/٢٥٤.

على حجاج اليمامة (من المشركين)، فتستحلوا منهم. وفي الآية دليل: أن المكافأة لا يجوز من غير جنس الذي فعل به وتكون تلك المكافأة اعتداء، لأن الله تعالى قال: (ولا يجرمنكم شنآن قوم) يعني بغض قوم وعداوتهم (أن تعتدوا) يعني تجاوزوا الحد في المكافأة قرأ ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر: ^(١) (شنآن) بجزم النون وقرأ الباقون (شنآن) بالنصب. وقال القتيبي، لا يقال في المصادر فعلان، وإنما يقال ذلك في الصفات مثل عطشان، وسكران، وفي المصادر يقال: فعلان، مثل طيران ولهفان وشنآن. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ^(٢) (إن صدوكم) بكسر الالف على معنى الابتداء، وقرأ الباقون بالنصب على معنى البناء. ثم قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ يعني تعاونوا على أمر الله واعملوا به. وروى ابن عباس: البر: ما أمر الله تعالى به ^(٣)، يعني تحاثوا على أمر الله، واعملوا به، وانتهوا عما نهى الله تعالى عنه، وامتنعوا عنه، وهذا موافق لما روي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: الدال على الخير كفاعله ^(٤) وقد قيل: الدال على الشر كصانعه ^(٥). ثم قال: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ قال القتيبي: العدوان على وجهين: عدوان في السبيل كقوله: (فلا عدوان إلا على الظالمين) وكقوله (فلا عدوان عليّ) والثاني: عدوان في الظلم، كقوله (فلا تتناجوا بالإثم والعدوان) وكقوله (ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) يعني به حجاج أهل اليمامة وصارت الآية عامة في جميع الناس. ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ يقول: واخشوا الله وأطيعوه فيما يأمركم به، ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ إذا عاقب. قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ يعني حرم عليكم أكل الميتة، والميتة كل ما مات حتف أنفه بغير ذكاة، فهو حرام، إلا الجراد والسماك فقد أباحهما على لسان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث قال: أحلت لنا [دمان وميتتان] ^(٦) السمك والجراد، والكبد والطحال ^(٧) ثم قال: ﴿وَالْدَّمَ﴾ يعني حرم عليكم أكل الدم وشربه، وهو الدم المسفوح، كما قال في آية أخرى: (إلا أن يكون ميتة، أو دماً مسفوحاً) وأما الدم الذي بقي بعد الإنهار فهو مباح، مثل الطحال والكبد والصفرة التي بقيت في اللحم، ثم قال: ﴿وَلَحْمُ الْخِزْيَرِ﴾ يعني أكل لحم الخنزير فذكر اللحم والمراد به اللحم والشحم وغير ذلك، وهذا حرام بإجماع المسلمين، ثم قال: ﴿وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ يعني حرم عليكم أكل ما ذبح لغير الله، وأصل الإهلال، رفع الصوت ومنه، استهلال الصبي، وإهلال الحج وإنما سمي الذبح إهلالاً لأنهم كانوا يرفعون الصوت عند الذبح بذكر آلهتهم، فحرم الله تعالى ذلك، ثم قال: ﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾ وهي الشاة التي تختنق فتموت، وكان بعض أهل الجاهلية، يستحلون ذلك ويأكلونها ثم قال ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ يعني حرم عليكم أكل الموقوذة، وهي التي تضرب بالخشب فتموت. وأصله في اللغة: هي الإشراف على الهلاك، (فإذا ضرب بالخشب حتى أشرف على الموت، ثم يتركه، يقال: وقذه، ويقال: فلان وقيد وقذته العبادة، أي ضعف وأشرف على الهلاك). ثم قال: ﴿وَالْمُتْرَدِيَّةُ﴾ وهي الشاة التي تخرم من الجبل أو تتردى في بئر فتموت، ﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ وهي الشاة التي تنطح صاحبها

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢١٩، سراج القاري ١٩٨.

(٢) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٢٠، وسراج القاري ١٩٨، شرح شعله ٣٤٧.

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره ٤٩١/٩.

(٤) أخرجه أبو يعلى في المسند ٢٧٥/٧ (١٥٤١ / ٤٢٩٦) وفي إسناده زياد بن عبد الله النميري، وأخرجه أيضاً البزار كما في كشف الاستار ٣٩٩/٢ باب قضاء الحوائج من طريق بشر بن معاذ ثنا السكن بن إسماعيل بإسناد إلى أبي يعلى، وأخرجه الترمذي في

العلم (٢٦٧٢) وقال غريب من هذا الوجه وهو عند أبي حنيفة في مسنده عن أنس (٤٧٢).

(٥) انظر تفسير القرطبي ٤٦/٦. (٦) في أ [تقديم وتأخير].

(٧) أخرجه الشافعي في المسند ١٧٣/٢ في الصيد والذبائح (٦٠٧)، وأحمد ٩٧/٢، وابن ماجه ١١٠١/٢ في الأطعمة (٣٣١٤)، والدارقطني ٢٧١/٤ في الصيد والذبائح (٢٥)، والبيهقي ٢٥٤/١ في الطهارة وفي ٢٥٧/٩ في الصيد والذبائح.

فيقتلها ثم قال: ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ﴾ وهي فريسة السبع، فحرم الله تعالى أكل هذه الأشياء كلها على المؤمنين، ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ﴾ يعني إلا ما أدركتم ذكاته، فذكيتموه قبل أن يموت، فلا بأس بأكله.

قال القتيبي: أصل الذكاة من التوقد، يقال: ذكيت النار إذا ألقيت عليها شيئاً من الحطب، وإنما سميت الذكاة ذكية، لأنها صارت بحال ينتفع بها. وقال الزجاج: أصل الذكاة، تمام الشيء، وقوله إلا ما ذكيتم يعني ما أدركتم ذبحه على التمام. ثم قال: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ قال القتيبي: النصب هو حجر أو صنم منصوب، كانوا يذبحون عنده، وجمعه أنصاب، ويقال: كانوا يذبحون لأعيادهم باسم آلهتهم ثم قال: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ والأزلام: القداح واحدها زلم، على ميزان قلم وأقلام، وذلك أن أهل الجاهلية كانوا يجتمعون عشرة أنفس ويشترون جزوراً، وجعلوا لحمه على تسعة أجزاء، وأعطى كل واحد منهم سهماً من سهامه فجمعوا السهام عند واحد منهم، أو شيء من الأحجار، ثم يخرج هذا الرجل واحداً واحداً من السهام، فكل من خرج سهمه يأخذ جزءاً من ذلك اللحم فإذا خرج تسعة من السهام لا يبقى شيء من اللحم، ولا يكون للذي بقي اسمه آخر شيء من اللحم وكان ثمن الجزور كله عليه، وكان نوع آخر: أنهم كانوا يجعلون عشرة من القداح، وكان لكل واحد منها سهم، ولم يكن لثلاثة منها نصيب من اللحم، وهو السفيح والمنيح والوغد، وكان للسبعة لكل سهم نصيب، وهو القذ والتوأم، والرقيب والمعلی، والحلس والناقس، والمسبل، ويقال: كان إذا أراد واحد منهم السفر أخرج سهمين من القداح في واحد منها مكتوب أمرني ربي، وفي الآخر نهاني ربي، فيخرج أحدهما، فإن خرج باسمه: أمرني ربي، وجب عليه الخروج ولم يجز له التخلف، وإن خرج الآخر، لا يسعه الخروج، فنهى الله تعالى عن ذلك كله، بقوله: ﴿ذَلِكُمْ فَسُقُ﴾ يعني هذه الأفعال معصية وضلالة، واستحلها كفر ثم قال: ﴿الْيَوْمَ يَنْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ يعني كفار العرب، أن تعودوا كفاراً حين حج النبي - صلى الله عليه وسلم - حجة الوداع وليس معهم مشرك. وقال الضحاك^(١): نزلت هذه الآية حين فتح مكة^(٢) [وذلك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -] ^(٣) فتح مكة لثمان بقين من رمضان، سنة سبع، ويقال: سنة ثمان ودخلها ونادى منادي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ألا من قال لا إله إلا الله فهو آمن، ومن وضع السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، فانقادت قريش لأمر الله ورفعوا أيديهم وأسلموا. قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ يقول: فلا تخشوا صولة المشركين فأننا معكم، وناصرهم، ﴿وَآخِشُونِ﴾ في ترك أمري ثم قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ يعني أتممت لكم شرائع دينكم، وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - حيث كان بمكة لم يكن إلا لفريضة الصلاة وحدها، فلما قدم المدينة أنزل الله الحلال والحرام، فنزلت هذه الآية: (اليوم أكملت لكم دينكم) يعني دينكم، حلالكم وحرامكم. وروى حماد بن سلمة^(٤) عن عمار بن أبي عمار^(٥) عن ابن عباس أنه قرأ: (اليوم أكملت لكم دينكم)، فقال له يهودي: لو نزلت هذه الآية علينا لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، فقال ابن عباس: فإنها نزلت في يوم عيدين يوم الجمعة، ويوم عرفة^(٦). قال الفقيه: حدثنا الخليل بن أحمد، قال حدثنا ابن صاعد، قال: حدثنا يعقوب بن إبراهيم الدورقي^(٧)،

(١) انظر تفسير القرطبي ٤١/٦. (٢) في أ [أي من وقت الهجرة]. (٣) سقط في ب.

(٤) أبو سلمة البصري، ثقة، انظر تهذيب التهذيب ١١/٣.

(٥) أبو عمر مولى بني هاشم ويقال مولى بني الحارث بن نوفل أبو عمرو ويقال أبو عمر، ويقال أبو عبد الله المكي. انظر تهذيب التهذيب ٤٠٤/٧.

(٦) أخرجه الترمذي ٢٣٣/٥ في التفسير (٣٠٤٤) وقال حسن غريب وعزاه - السيوطي في الدر المنثور ٢٥٨/٢ للطيالسي وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير والطبراني والبيهقي في الدلائل.

(٧) يعقوب بن إبراهيم بن كثير أبو يوسف. انظر تهذيب التهذيب ٣٨١/١١.

حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان عن قيس بن مسلم^(١) عن طارق^(٢)، أن اليهود قالوا لعمر بن الخطاب إنكم لتقرأون آية، لو نزلت فينا لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، (اليوم أكملت لكم دينكم) فقال عمر: إني لأعلم حيث نزلت، وفي أي يوم نزلت، أنزلت بيوم عرفة ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - واقف بعرفة^(٣)، فإن قيل في ظاهر هذه الآية دليل، أن الذين يزيد حيث قال: (اليوم أكملت لكم دينكم)، قيل له: ليس فيها دليل، لأنه أخبر أنه أكمل في ذلك اليوم وليس فيها دليل: أنه لم يكمل قبل ذلك، ألا ترى أنه قال في سياق الآية: (ورضيت لكم الإسلام ديناً) ليس فيه دليل أنه لم يرض قبل ذلك، ولكن معناه أنه قد أظهر وقرر، كما جاء في الخبر أن رجلاً أعتق ستة أعبد له في مرضه، فأعتق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إثنين منهم^(٤)، يعني أظهر عتقهما وقرر، ولم يرد به الابتداء. وقال مجاهد^(٥): معناه، اليوم أتممت لكم ظهور دينكم، وغلبة دينكم ونصرتهم وقال قتادة: معناه، أخلص لكم دينكم. ثم قال ﴿وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ يعني منتي، فلم يحج معكم مشرك، ﴿وَرَضِيتُ﴾ يعني اخترت ﴿لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ وروي في الخبر أن النبي - صلى الله عليه وسلم - عاش بعد نزول هذه الآية إحدى وثمانين ليلة، ثم مضى لسبيله - صلوات الله عليه - وقال الزجاج: (اليوم) صار نصباً للظرف، ومعناه: اليوم أكملت لكم دينكم. وقال معاذ بن جبل: النعمة لا تكون إلا بعد دخول الجنة، فصار كأنه قال: رضيت لكم الجنة، لأنه لا تكون النعمة تماماً حتى يضع قدميه فيها^(٦). ثم رجع إلى أول الآية فقال: ﴿فَمَنْ أَضْطَرُّ فِي مَخْصَصَةٍ﴾ وذلك أنه لما بين المحرمات علم أن بعض الناس اضطروا إلى أكله فأباح لهم أكله عند الضرورة. فقال: فمن اضطُر، يعني اجهد إلى شيء مما حرم الله تعالى عليه، في مَخْصَصَةٍ، يعني مجاعة، وأصل الخمص ضمور البطن ودقته، فإذا جاع فقد خمص بطنه، ثم قال: ﴿غَيْرُ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ يعني غير متعمد المعصية لأكله فوق الشبع وأصل الجنف: الميل. وقال الزجاج: يعني غير متجاوز للحد، وغير أكل لها على وجه التلذذ فلا إثم عليه في أكله. وقال أهل المدينة: المضطر يأكل حتى يشبع. وقال أبو حنيفة وأصحابه رحمهم الله: يأكل مقدار ما يأمن به الموت، وكذلك قال الشافعي^(٧). ثم قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يعني غفور فيما أكل، رحيم حين رخص له في أكله عند الاضطرار. قرأ عاصم وحمزة وأبو عمرو^(٨): (فمن اضطُر) بكسر النون لاجتماع الساكنين، وقرأ الباقون: بالضم.

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَانْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾ أَلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمَحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ

(١) قيس بن مسلم الجدلي العدواني أبو عمرو الكوفي. انظر تهذيب التهذيب ٤٠٤/٨.

(٢) طارق بن شهاب بن عبد شمس بن هلال البجلي أبو عبد الله. انظر تهذيب التهذيب ٤/٥.

(٣) البخاري في كتاب الإيمان (٤٥)، وفي المغازي (٤٤٠٧)، وفي التفسير (٤٦٠٦)، وفي الإعتصام (٧٢٦٨)، ومسلم في التفسير

(٣، ٤، ٥، ٣٠١٧)، والترمذي في التفسير (٣٠٤٣)، والنسائي في المجتبى في مناسك الحج (٣٠٠٢)، (٥٠١٢).

(٤) من حديث عمران بن حصين. أخرجه مسلم ١٢٨٨/٣ في الإيمان باب من أعتق شركاً له (١٦٦٨/٥٦).

(٥) انظر تفسير القرطبي ٤٢/٦ وقال: قلت الأول أصح أنها نزلت في يوم جمعة وكان يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع سنة عشر،

ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - واقف بعرفة على ناقته العضاء.

(٦) ذكر ذلك القرطبي ولم يعزوه لأحد انظر تفسيره ٤٢/٦.

(٧) انظر البحر المحيط ٤٢٧/٣.

(٨) لأن ذلك ضرورة، والضرورة تقدر بقدرها.

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ﴾ نزلت الآية في شأن «عدي بن حاتم الطائي»، قال: قلت يا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إنا قوم نتصيد بهذه الكلاب والبزاة، فما يحل لنا منها؟ فقال - صلى الله عليه وسلم - ما علمت من كلب أو بازي، ثم أرسلته، وذكرت اسم الله تعالى عليه فكل ما أمسك عليك، فقلت: وإن قتله، قال: إن قتله ولم يأكل منه شيئاً، فكل فإنما أمسك عليك، وإن أكل منه شيئاً فلا تأكل، فإنما أمسك على نفسه قال: قلت: فإذا خالط كلابنا كلاباً أخرى حين ترسلها؟ قال: لا تأكل حتى تعلم أن كلبك هو الذي أمسك عليك، ونزلت هذه الآية^(١): (يسألكم ماذا أحل لهم) يعني ماذا رخص لهم من الصيد [ويقال لما أنزل قوله تعالى «حرمت عليكم» قالوا إن الله تعالى حرم هذه الأشياء فأبى شيء لنا حلال يا رسول الله]^(٢) ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ يعني رخص لكم الحلالات من الذبائح ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ يعني وأحل لكم صيد ما علمتم من الجوارح من الطير^(٣) والكلاب الكواسب، ويقال: الجوارح الجارحات. ثم قال: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ بكسر اللام، وقرأ بعضهم بالنصب، فمن قرأ بالكسر يعني به أصحاب الكلاب، المعلمين للكلاب ومن قرأ بالنصب، أراد به الكلاب، يعني الكلاب المعلمة، (مكلبين) يعني معلمين^(٤) ثم قال: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ يعني تؤدبونهن في طلب الصيد ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ يقول كما أدبكم الله تعالى، وروي عن مجاهد أنه سئل عن الصقر والبازي والفهد، قال: هذه كلها جوارح، ولا بأس بصيدها إذا كان معلماً. ثم قال: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ يعني حبسن عليكم ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ إذا أرسلتم الكلاب على الصيد. وفي هذه الآية دليل: أن الكلب إذا كان أكل لا يؤكل، لأنه أمسك لنفسه، وفيها دليل: أنه لا يجوز إلا بالتسمية، لأنه قد أباح على شرط التسمية، وعلى شرط أن يمسك لصاحبه، وفيها دليل أيضاً أن الكلب إذا كان غير معلّم لا يجوز أكل صيده، وفيها دليل أيضاً أن العالم له من الفضيلة ما ليس للجاهل، لأن الكلب إذا علّم يكون له فضيلة على سائر الكلاب، وأن الإنسان إذا كان له علم أولى أن يكون له فضل على سائر الناس، وهذا كما روي عن علي - كرم الله وجهه - أنه قال: لكل شيء قيمة، وقيمة المرء ما يُحَسِّن. ثم خوّفهم فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي اخشوا الله ولا تأكلوا الميتة ولا تأكلوها لم يذكر اسم الله عليه، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يعني سريع المجازاة، وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ يعني المذبوحات من الحلال يعني اليوم أظهر وبين حله، ثم قال: ﴿وَطَعَامَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ يعني ذبائح أهل الكتاب ﴿حِلٌّ لَكُمْ﴾ يعني حلال لكم أكله ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ يعني ذبائحكم وطعامكم رخص لهم أكله. وقال الزجاج: تأويله أحل لكم أن تطعموهم، لأن الحلال والفرائض إنما تعتمد على أهل الشريعة. ثم قال: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ يعني أحل لكم تزوج العفاف من المؤمنات ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ يعني العفاف من أهل الكتاب ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يعني أعطوا الكتاب من قبل كتابكم وهو التوراة والإنجيل، واختلفوا في نكاح الصابية وقد ذكرناه في سورة البقرة ثم قال: ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ يعني أعطيتموهن مهورهن ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ يقول: كونوا متعففين عن الزنا ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ يقول: لا تتخذوا خدناً فتزونا بها سراً، وذلك أن أهل الجاهلية كانوا

(١) انظر أسباب النزول للواحدي ٢٨.

(٢) سقط في ظ.

(٣) سقط في أ.

(٤) ويشترط في كون الكلب معلماً أربعة أمور أحدها: أن يتزجر بمزجر صاحبه، ثانياً: أن يسترسل بإرساله. ثالثاً: أن يمسك الصيد.

رابعاً: أن لا يأكل منه.

يَعْبُرُونَ مِنْ يَزْنِي [في العلانية ولا يعيرون من يزني] ^(١) سراً فحرم الله زنا السر والعلانية، فلما نزلت هذه الآية قلن - نساء أهل الكتاب - لولا أن الله تعالى قد رضي بديننا، لم يبح للمسلمين نكاحنا، فنزل: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [وقيل لنا نزل قوله حرمت عليكم الميتة ثم رخص من حالة الاضطرار فقال بعضهم لا نأخذ الرخصة من الاضطرار فنزل (ومن يكفر بالإيمان)] ^(٢). ويقال: هذا ابتداء خطاب وهو لجميع المسلمين فقال: (ومن يكفر بالإيمان) قال ابن عباس: يعني من يكفر بالتوحيد بشهادة أن لا إله إلا الله فقد حبط عمله. وقال مجاهد: معناه: ومن يكفر بالإيمان، فقد حبط عمله، يعني بطل ثواب عمله ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ يعني من المغبونين في العقوبة. ولهذا قال أصحابنا رحمهم الله: إن الرجل إذا صلى، ثم ارتد، ثم أسلم في وقت تلك الصلاة، وجب عليه إعادة تلك الصلاة، ولو كان حج حجة الإسلام، فعليه أن يعيد الحج، لأنه قد بطل ما فعل قبل ارتداده.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ
وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى
أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا
فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ
يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَى
أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ
اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ
عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى
اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ يعني إذا أردتم أن تقوموا إلى الصلاة وأنتم محدثون، ويقال: إذا قمتم من نومكم إلى الصلاة ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ يعني مع المرافق ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ يعني مع الكعبين. قرأ ابن كثير وأبو عمرو، وحمزة، وعاصم ^(٣)، وفي رواية أبي بكر (وأرجلكم) بكسر اللام، وقرأ الباقون: بالنصب، فمن قرأ بالنصب فإنه جعله نصباً

(١) سقط في أ.

(٢) ما بين المعقوفين من أ.

(٣) وحجتهم: أنها معطوف على الوجوه والأيدي فأوجبوا الغسل عليهما وعن أبي عبد الرحمن (عبد الله بن عمر) قال: (كنت أقرأ أنا

لوقوع الفعل عليه، وهو الغسل، يعني واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين، ومن قرأ بالكسر، جعله كسراً لدخول [حرف الخفض] ^(١) وهو الباء، فكأنه قال: وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم، يعني، إذا كان عليه خفان وقد ثبت ذلك بالسنة، ويقال: صار كسراً بالمجاورة، كما قال في آية أخرى: (وحوور عين) قرأ بعضهم بالكسر بالمجاورة. فهذه الأربعة التي ذكرت في الآية من فرائض الوضوء، وما سوى ذلك آداب وسنن فإن قيل: الآية إذا قرئت بقرائتين، فالله تعالى قال بهما جميعاً، أو بأحدهما؟ قيل له: هذا على وجهين: إن كان لكل قراءة معنى غير المعنى الآخر، فالله تعالى قال بهما جميعاً، وصارت القراءتان بمنزلة الآيتين، وإن كانت القراءتان معناهما واحد فالله تعالى قال لأحدهما، ولكنه رخص بأن يقرأ بهما جميعاً. ثم قال تعالى: (وإن كنتم جنباً فاطهروا) قد يوصف الجمع بصفة الواحد، كقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا﴾ وكقوله (والملائكة بعد ذلك ظهير) قوله: ﴿فَاطْهَرُوا﴾ معناه، فتطهروا إلا أن التاء أدغم في الطاء لأنهما من مكان واحد، فإذا أدغمت فيها، سكن أول الكلمة، وزيدت ألف الوصل للابتداء. ثم قال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ، فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا، فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ يعني من الصعيد، ثم قال: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾

= والحسن والحسين قريباً من علي - عليه السلام - وعنده ناس قد شغلوه فقرأنا (وأرجلكم) فقال: رجل: (وأرجلكم) بالكسر فسمع ذلك علي عليه السلام فقال: (ليس كما قلت ثم تلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ هذا من المقدم والمؤخر في الكلام قلت: (وفي القرآن من هذا التقديم والتأخير: كثير) قال الله: ﴿اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم﴾ ثم قال: ﴿والمحصنات من المؤمنات﴾ وعطف بـ ﴿المحصنات﴾ على الطيبات وقال: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً﴾ ثم قال: ﴿وأجل مسمى﴾ فعطف ﴿الأجل﴾ على (الكلمة) وبينهما كلام فكذلك في قوله ﴿وأرجلكم﴾ عطف بها على الوجوه والأيدي على ما أخبرتك به من التقديم والتأخير.

وأخرى هي صحة الأخبار عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: أنه توضأ بغسل رجله، وأنه رأى رجلاً يتوضأ وهو يغسل رجله فقال: (بهذا أمرت) وقال - صلى الله عليه وسلم -: (ويل للأعقاب ويطون الأقدام من النار)، وعن ابن مسعود قال: (خللوا الأصابع بالماء لا تلحقها النار). وقال عبد الملك: قلت لعطاء: (هل علمت أحداً من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مسح على القدمين؟) فقال: (والله ما أعلمه). والأخبار كثيرة في هذا المعنى وقد ذكرناها في تفسير القرآن.

وأخرى قال الزجاج: الدليل قوله ﴿إلى الكعبين﴾ أن الغسل هو الواجب في الرجل، وأن المسح لا يجوز: وهذا لتحديد قوله ﴿إلى الكعبين﴾ كما جاء في تحديد اليد (إلى المرافق) ولم يجيء في شيء من المسح تحديد قال: ﴿فامسحوا برؤوسكم﴾ بغير تحديد في القرآن.

قال: ويجوز أن يقرأ ﴿وأرجلكم﴾ على معنى ﴿واغسلوا﴾ لأن قوله ﴿إلى الكعبين﴾ دل على ذلك كما وصفنا وينسق بالغسل على المسح كما قال الشاعر:

يَا لَيْتَ بَعْلَكَ قَدْ غَدَا مَتَقَلِّدًا سَيْفًا وَرُمْحًا

والمعنى: متقلداً سيفاً وحاملاً رمحاً.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحزمة وأبو بكر: ﴿وأرجلكم﴾ خفضاً عطفاً على الرؤوس وحجتهم في ذلك ما روي عن ابن عباس أنه قال: (الوضوء غسلتان ومسحتان) وقال الشعبي: نزل جبرائيل بالمسح، ألا ترى أنه أهمل ما كان مسحاً، ومسح ما كان غسلًا في التيمم. والصواب من القول: ما عليه فقهاء الأمصار: أن الغسل هو الواجب نحو الرجلين، ويجوز أن يكون قوله ﴿وأرجلكم﴾ بالخفض حملت على العامل الأقرب للجوار وهي في المعنى للأول، كما يقال: (هذا جَحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ) فيحمل على الأقرب وهو في المعنى للأول. انظر ابن زنجلة ٢٢١ - ٢٢٢ - ٢٢٣.

(١) في ب [حرف الجر عليه].

يقول: لا يكلفكم في دينكم من ضيق ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ يعني يطهركم من الأحداث والجنابة ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ بما أنعم من الرخص ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لكي تشكروا الله لما رخص لكم، ولم يضيق عليكم. قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يقول: احفظوا من الله عليكم بإقراركم بوحداية الله تعالى، ﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾ يعني يوم الميثاق، حين أخرجهم من صلب آدم عليه السلام، وقال: (. . أأست بربكم؟ قالوا: بلى) هكذا قال في رواية الكلبي، ومقاتل، والضحاك^(١). وقال بعضهم: هو الميثاق الجبلية والإدراك، فكل من أدرك فقد أخذ عليه الميثاق، وشهدت له خلقته وجبلته، فصار ذلك كالإقرار منه ثم قال: ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ يوم الميثاق، قلتم سمعنا قولك يا ربنا وأطعنا أمرك، ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في نقض العهد والميثاق ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يعني عالم بسرائركم. ثم قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ يعني قوالين بالحق، ثم قال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ لَا تَعْدِلُوا﴾ وذلك أن الله تعالى لما فتح على المسلمين مكة أمر الله المسلمين أن لا يكافئوهم بما سلف، وأن يعدلوا في القول والحكم والنصفة، وذلك قوله: ﴿اعْدِلُوا﴾ يعني قولوا الحق والعدل ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ يعني فإنه أقرب للطاعة، ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ يقول واخشوا الله بما أمركم به، ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الطاعة وغيره. ثم بين ثواب من عمل بطاعته فقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني الطاعات ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يعني ثواب عظيم في الجنة، ويقال: إن أهل مكة قالوا، بعدما أسلموا ما لنا في الآخرة وقد أخرجناك وأصحابك، فقالوا: وعد الله الذين آمنوا بالله وبمحمد - صلى الله عليه وسلم - وعملوا الصالحات بعد الإسلام، لهم مغفرة لما فعلوا في حال الشرك، وأجر عظيم في الآخرة. ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني جحدوا وكذبوا، بمحمد - صلى الله عليه وسلم - والقرآن، وماتوا على ذلك، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ يعني مقيمين فيها أبداً. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما قدم المدينة - وصالح بني قريظة، وبني النضير^(٢) وهما قبيلتان بقرب المدينة، وأخذ منهم الميثاق بأن لا يكون بينهم القتال، وأن يتعاونوا فيما بينهم على الديات، فدخل مستأمنان على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فخرجا من عنده فقتلها «عمر وبن أمية الضمري»، ولم يعلم بأنهما مستأمنان، فوداهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بدية حُرَيْنَ مسلمين فخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع أبي بكر وعمر وعلي إلى بني النضير ليستعين بهم في ديتهم، فقالوا: مرحباً حتى نستأذن إخواننا من بني قريظة. وقال في رواية الكلبي خرج إلى بني قريظة، فقالوا: حتى نستأذن إخواننا من بني النضير، وأدخلوهم داراً وأجلسوهم في صفة، وجعلوا يجمعون السلاح، وهما بقتل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه وكانوا ينتظرون كعب بن الأشرف، وكان غائباً، فنزل جبريل، وأخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - بالقصة وخرج، فلما أبطل الرجوع قام أبو بكر فخرج، ثم خرج عمر ثم خرج علي رضي الله عنهم، فنزلت هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم)، ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ يقول: أرادوا وتمنوا أن يمدوا أيديهم إليكم بالقتل، ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ بالمنع. قال الفقيه أبو الليث: حدثنا الفقيه أبو جعفر، قال: حدثنا علي بن أحمد، قال: حدثنا نصير بن يحيى^(٣)، قال: حدثنا أبو سليمان، عن محمد بن الحسن عن

(١) انظر تفسير الطبري ٩٣/١٠، وابن كثير ٥٧/٣ تفسير القرطبي ٧٢/٦.

(٢) انظر تفسير الطبري ١٠١/١٠، سيرة ابن هشام ١٩٠/٢، تفسير ابن كثير ٥٩/٣، وأسباب النزول للواحدي ١٤٣، وانظر الدر المنثور ٢٦٦/٢.

(٣) البلخي أخذ الفقه عن محمد بن الحسن الشيباني. انظر الفوائد البهية ٢٢١.

محمد بن عبد الله^(١) عن الزهري، عن عبد الله بن كعب بن مالك، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خرج إلى بني النضير ليستعين بهم في دية الكافرين الذين قتلها «عمرو بن أمية الضمري»، فهم بنو النضير بقتل النبي - صلى الله عليه وسلم - فبلغ النبي - صلى الله عليه وسلم - فسار إليهم فحاصروهم وأمر بقطع النخيل وحاصروهم حتى قالوا: أتؤمننا على دماننا وذرائنا، وعلى ما حملت الإبل إلا الحلقة، يعني السلاح، قال: نعم، ففتحوا الحصون وأجلاهم إلى الشام^(٢)، فهذا الخبر موافق رواية مقاتل، أنه خرج إلى بني النضير^(٣). وقال الضحاك: كان سبب نزول هذه الآية: أن النبي - صلى الله عليه وسلم - خرج ذات ليلة إلى البقيع، إلى قبور الشهداء وحده فأثاء رجل من اليهود شديد محارب، فقال: إن كنت نبياً كما تزعم فأعطني سيفك هذا، فإن الأنبياء لا ييخلون، فأعطاه سيفه، فشهّر اليهودي السيف وهزه ليضربه به، فلم يجترأ للرب الذي قذفه الله تعالى في قلبه ثم رد عليه السيف، فنزل: (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم)^(٤) ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾. ففي الآية مضمّر، فكأنه قال: فاتقوا الله، وتوكلوا على الله، وعلى الله فليتكول المؤمنون، يعني على المؤمنين أن يتوكلوا على الله ويثقوا بالنصر لهم. قوله تعالى:

وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ يعني في التوراة من الإيمان بالله تعالى وبأنبيائه، وأن يعملوا بما في التوراة، ثم قال: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ قال مقاتل^(٥): يعني شهداء على قومهم بعث الله تعالى من كل سبط منهم رجلاً، ليأخذ كل رجل منهم على سبطه الميثاق، يكونوا شهداء على قومهم. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد^(٦) (وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً) قال: من كل سبط من بني إسرائيل رجلاً، أرسلهم موسى عليه السلام - إلى

(١) محمد بن عبد الله بن مسلم بن عبيد الله الزهري أبو عبد الله المدني. تهذيب التهذيب ٢٧٨/٩.

(٢) انظر المصادر السابقة. (٣) انظر تفسير مقاتل ٣٠٢/١. (٤) انظر أسباب النزول ١٤٣.

(٥) انظر تفسيره ٣٠٢/١. (٦) انظر تفسيره ١٨٨/١.

الجبارين، فوجدوهم يدخل في كُفٍّ أحدهم اثنان منهم، ولا يحمل عن عقود عنهم إلا خمسة منهم في خشبة، ويدخل في شطر الرمانة إذا نزع حبة منه خمسة أنفس أو أربعة، فرجع النقباء كلهم ينهون سبطهم عن القتال إلا يوشع بن نون، وكالب بن يافت ويقال: كالوب بن يوقنا، أمرا قومهما بالقتال. وقال القتيبي: النقيب، الكفيل على القوم، والنقابة والنكابة شبه بالعرافة، ويقال: نقيباً، يعني أميناً، وقال ابن عباس: (١) نقيباً، يعني ملكاً، حين بعثهم موسى إلى بيت المقدس، جعل موسى - عليه السلام - عليهم اثني عشر ملكاً على كل سبط منهم ملك. و﴿قَالَ اللَّهُ﴾ تعالى للنقباء ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾، ويقال: قال الله لبني إسرائيل حين أخذ عليهم الميثاق في التوراة (إني معكم) أي معينكم وحافظكم، وناصركم ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ﴾ يعني ما دمتم أقمتم الصَّلَاةَ ﴿وَأَتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾ يعني صدقتم برسلي ﴿وَعَزَّزْتُمُوهُمْ﴾ يعني اعتنيتهم (٢). وقال القتيبي: أي عظمتهم، والتعزيز التعظيم. وقال السدي (٣): يعني نصرتموهم بالسيف. وقال الأخفش: يعني وقَّرتهم وقويتهم. وقال الضحاك: شرفتموهم بالنبوة كما شرفهم الله تعالى. ويقال: آمتم برسلي: أي أمرتم قومكم حتى يؤمنوا برسلي، ونصرتموهم ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهُ قَرْضاً حَسَنًا﴾. أي تأمرون قومكم بذلك ثم بين جزاءهم وثوابهم إن فعلوا ذلك فقال: ﴿لَا تُكْفِرُوا﴾ أي لا محون ﴿عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ يعني ذنوبكم ﴿وَلَا دَخَلْتُمْ جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ثم قال ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ العهد والميثاق ﴿مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ يعني أخطأ قصد الطريق. ثم قال عز وجل: ﴿فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ يعني لما أخذ عليهم الميثاق، نقضوا الميثاق فبنقضهم ميثاقهم ﴿لَعَنَاهُمْ﴾ أي لعنهم الله، يعني طردهم من رحمته ويقال: (لعناهم) يعني عذبناهم بالمسح، ويقال: بالجزية، ثم قال: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ يعني يابسة، ويقال: خالية عن حلاوة الإيمان. قرأ حمزة والكسائي (قسية) بغير ألف، وقرأ الباقون (قاسية) (٤) ومعناها واحد. ويقال: قست فهي قاسية وقسية ثم قال: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾ والكلم جمع كلمة، يعني يغيرون صفة محمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾، يعني في كتابهم مما وافق القرآن، يعني عن صفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في كتابهم، ويقال: استحلوا ما حرم الله تعالى عليهم، ولم يعملوا به فكان ذلك تغيير الكلم عن مواضعه. ثم قال: ﴿وَنَسُوا حَظًّا﴾ يعني: تركوا نصيباً ﴿مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ يعني: مما أمروا به في كتابهم ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾ يعني لا يزال يظهر لك منهم الخيانة ونقض العهد.

وقال القتيبي: عن أبي عبيدة: إن العرب تضع لفظ الفاعل في موضع المصدر كقولهم للخوان: مائدة، وإنما

(١) انظر تفسيره ٧٣. (٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس انظر الدر المنثور ٢/٢٦٧.

انظر تفسير الطبري ١٠/١٢١.

(٤) وحجتهم: إجماعهم على قوله: (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله) فلما أجمعوا على احداهما واختلفوا في الأخرى رد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه. وهما لغتان بمنزلة (عالم وعليم).

وحجة من قرأ (قسيّة) هي أن (فعيلاً) أبلغ في الذم والمدح من (فاعل) كما أن (عليماً) أبلغ من (عالم) (وسمياً) أبلغ من (سامع) وهي (فعيلة) من القسوة.

وقال آخرون: بل معنى (قسية) غير معنى القسوة وإن معنى القسية: التي ليست بخالصة الإيمان أي قد خالطها كفر فهي فاسدة، ولهذا قيل للدرهم قد خالطها غش من نحاس أو غيره: (قسية) وقال أبو عبيدة: القسية: هي الرديئة مشبهة بالدرهم القسية.

والأصل في (قاسية): (قاسوة) لأنه من (قاسيقسو) فقلبوا الواو ياء لما قبلها من الكسرة والأصل في قسية: (قسيوة) فقلبوا الواو ياء وأدغموا الياء في الياء. انظر ابن زنجلة ٢٢٣ - ٢٢٤.

يميد بهم ما في الخوان فيجوز أن يكون الهاء صفة للخائن كما يقال: رجل طاغية، ورواية للحديث، ثم قال: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ يعني مؤمنهم لم ينقضوا العهد ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ يعني اتركهم ولا تعاقبهم ﴿وَأَصْفَحْ﴾ عنهم يعني أعرض عنهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين يعفون عن الناس وهذا قبل الأمر بقتال أهل الكتابين قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ وذلك أن الله تعالى لما ذكر حال اليهود، ونقضهم الميثاق فقال على أثر ذلك، إن النصارى لم يكونوا أحسن معاملة من اليهود ثم بين معاملتهم فقال: (ومن الذين قالوا: إنا نصارى) ﴿أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ في الإنجيل بأن يتبعوا قول محمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ يعني تركوا نصيباً مما أمروا به في الإنجيل من اتباع قول محمد - صلى الله عليه وسلم - ويقال: نقضوا العهد كما نقض اليهود، ويقال: إنما سموا أنفسهم النصارى لأنهم نزلوا قرية يقال لها «ناصر» نزل فيها عيسى - عليه السلام - فنزلوا هناك، وتوافقوا بينهم، ويقال: إنما سموا النصارى لقول عيسى: (من أنصاري إلى الله) قال الحواريون نحن أنصار الله ثم قال: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ﴾ يعني ألقينا بينهم العداوة ﴿وَالْبَغْضَاءَ﴾ ويقال: الإغراء في أصل اللغة: الإلصاق، يقال: أغريت الرجل إغراءً إذا ألصقت به. ويقال: إن أصل العداوة التي كانت بينهم ألقاها إنسان يقال له «بولس» كان بينه وبين النصارى قتال وكان يهودياً فقتل منهم خلقاً كثيراً، فأراد أن يحتال بحيلة يلقي بينهم القتال، ليقتل بعضهم بعضاً، فجاء إلى النصارى وجعل نفسه أعور، وقال لهم: أتعرفوني؟ فقالوا أنت الذي قتلت منا، وفعلت ما فعلت، فقال قد فعلت ذلك كله وأنا نائب الأنبياء رأيت عيسى بن مريم في المنام، نزل من السماء، فلطم وجهي لطمه وفقاً عيني، فقال: أي شيء تريد من قومي؟ فتبت على يده، وإنما جئتكم لأكون بين ظهرائكم وأعلمكم شرائع دينكم كما علمني عيسى في المنام، فاتخذوا له غرفة فصعد تلك الغرفة وفتح كوة إلى الناس في الحائط، وكان يتعبد في الغرفة، وربما كانوا يجتمعون إليه ويسألونه ويحييهم من تلك الكوة، وربما يأمرهم حتى يجتمعوا، ويناديهم من تلك الكوة، ويقول لهم بقول، كان في الظاهر منكراً، وينكرون عليه، فكان يفسر ذلك القول بتفسير يعجبهم ذلك فانتقادوا كلهم له، وكانوا يقبلون قوله بما يأمرهم به، فقال لهم يوماً من الأيام: اجتمعوا قد حضرني علم، فاجتمعوا، فقال لهم: أليس قد خلق الله تعالى هذه الأشياء في الدنيا كلها لمنفعة بني آدم؟ قالوا: نعم، فقال لم تحرمون على أنفسكم هذه الأشياء؟ يعني الخمر والخنزير، وقد خلق لكم ما في الأرض جميعاً، فآخذوا بقوله واستحلوا الخمر والخنزير، فلما مضى على ذلك أيام، دعاهم، وقال: حضرني علم فاجتمعوا، وقال لهم: من أي ناحية تطلع الشمس فقالوا: من قبل المشرق، فقال: ومن أي ناحية يطلع القمر والنجوم؟ فقالوا: من قبل المشرق فقال: ومن يرسلهم من قبل المشرق؟ قالوا: الله تعالى، فقال: فاعلموا أنه من قبل المشرق، فإن صليتم له فصلوا إليه، فحول صلاتهم إلى المشرق، فلما مضى على ذلك أيام، دعا طائفة منهم، وأمرهم بأن يدخلوا عليه في الغرفة، وقال لهم: إني أريد أن أجعل نفسي الليلة قرباناً لأجل عيسى، وقد حضرني علم وأريد أن أخبركم في السر لتحتفظوا عني وتدعوا الناس إلى ذلك، ويقال أيضاً: إنه أصبح يوماً وفتح عينه الأخرى، ثم دعاهم وقال لهم جاءني عيسى الليلة، وقال: قد رضيت عنك، فمسح يده على عيني فبرئت، فالآن أريد أن أجعل نفسي قرباناً، ثم قال لهم هل يستطيع أحد أن يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص إلا الله تعالى؟ فقالوا: لا، فقال إن عيسى قد فعل هذه الأشياء فاعلموا بأنه هو الله، فخرجوا من عنده، ثم دعا طائفة أخرى فأخبرهم بذلك أيضاً وقال: إنه كان ابنه، ثم دعا بطائفة ثالثة وأخبرهم بأنه ثالث ثلاثة وأخبرهم بأنه يريد أن يجعل نفسه الليلة قرباناً فلما كان في بعض الليل خرج من بين ظهرائهم، فأصبحوا وجعلوا كل فريق منهم يقول: قد علمني كذا وكذا، وقال الفريق الآخر: أنت كاذب، بل علمني كذا وكذا، فوقع بينهم القتال فاقتتلوا، وقتلوا خلقاً كثيراً وبقيت العداوة بينهم ﴿إِلَى يَوْمٍ

الْقِيَامَةِ ﴿١٥﴾ وهم ثلاث فرق: فرقة بينهم النسطورية قالوا: المسيح ابن الله، وصنف منهم يقال لهم: الماريقونية، قالوا: إن الله هو المسيح، وصنف يقال لهم الملكانية، قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، المسيح وأمه والله، فأغرى بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ويقال: ألقى بينهم العداوة بالجدال والخصومات في الدين^(١) وذلك يحبط الأعمال وقال معاوية بن قرة: ^(٢) إياكم وهذه الخصومات في الدين، فإنها تحبط الأعمال^(٣). ثم قال: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ يعني ينبتهم في الآخرة الذي هو على الحق. ثم قال عز وجل:

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ
مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ
﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ
إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ
اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ
ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ يعني محمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يعني يكتُمون ما بين في التوراة، وذلك أنهم كتُموا آية الرجم، وتحريم الخمر، وأكل الربا، ونعت محمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ يعني يتجاوز عن كثير، ولا يخبركم به وذكر أن رجلاً من أحبارهم جاء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فسأله فقال: ما هذا الذي عفوت عنا؟ فأعرض عنه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولم يبين، وإنما أراد اليهودي أن يظهر مناقضة كلامه، أنه لم يترك شيئاً، وقد بينه كله فلما لم يبين له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قام من عنده وذهب وقال لأصحابه: أرى أنه صادق فيما يقول، لأنه كان وجد في كتابه، أنه لا يبين له ما سأله. ثم قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ﴾ يعني ضياء من الضلالة وهو محمد - صلى الله عليه وسلم - والقرآن والنور هو الذي يبين الأشياء، ويرى الأبصار حقيقتها، فيسمى القرآن نوراً، لأنه يقع في القلوب مثل النور، لأنه إذا وقع في قلبه، يبصر به، ثم قال: ﴿وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ يعني القرآن يبين لكم الحق من الباطل. قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ﴾ يعني بالقرآن ﴿مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ يعني مَنْ طلب الحق ورغب فيه، ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾ يعني دين الله الإسلام، والسبل، جماعة السيل، وهو الطريق، يعني به طريق الهدى، والسلام اسم من أسماء الله تبارك وتعالى، يعني هو دين الله وتعالى. ثم قال: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾ يعني يخرج من قلوبهم حلاوة الكفر، ويدخل فيها حلاوة الإيمان ويوقفهم لذلك ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ

(١) انظر تفسير الطبري ١٣٧/١٠.

(٢) معاوية بن قرة بن إياس بن هلال بن رباب المزني أبو إياس البصري قال خليفة وغيره مات سنة ثلاث عشرة ومائة. انظر تهذيب

التهذيب ٢١٦/١٠ - ٢١٧.

(٣) انظر المصدر السابق.

مُسْتَقِيمٌ ﴿١٨﴾ يعني يوفقهم دين الإسلام قوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ ثم قال الله تعالى لمحمد - صلى الله عليه وسلم - : ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ يقول : من يقدر أن يمنع من عذاب الله شيئاً ﴿إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ، وَفِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ يعني لو أراد الله أن يهلك عيسى وأمه وجميع الخلق، ولا يقدر عيسى على رد ذلك. فكيف يكون إلهاً وهو لا يقدر على دفع الهلاك عن نفسه، ثم قال : ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ يعني خزائن السموات والأرض، وجميع الخلق عبيده وإماؤه، وحكمه نافذ فيهم، ثم قال : ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ لأن نصارى أهل نجران كانوا يقولون : لو كان عيسى بشراً كان له أب، فأخبر الله تعالى على أنه قادر على أن يخلق خلقاً بغير أب. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من خلق عيسى وغيره. قوله تعالى :

وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٩﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى : نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ يعني نحن من الله تعالى بمنزلة الأبناء من الآباء، في المنزلة والكرامة، والوالد إذا سخط على ولده في وقت، يرضى عنه في وقت آخر. ويقال : معناه نحن أبناء الله وأحباؤه. قال الله تعالى لمحمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ يعني يحرقكم، لأنهم كانوا مقرين بأنه يحرقهم أربعين يوماً، أياماً معدودة، قل لهم فهل رأيتم والداً يحرق ولده، أو يحرق محبوبه، ففي الآية دليل : أن الله تعالى إذا أحب عبده يغفر ذنوبه ولا يعذبه بذنوبه، لأنه احتج عليهم فقال : (فلم يعذبكم) إن كنتم أحبباء الله تعالى وقال في آية أخرى (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين)، ففيه دليل على أنه لا يعذب التوابين بذنوبهم، ولا المجاهدين الذي يجاهدون لقوله تعالى (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً) (٢) ثم قال ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ يعني أنتم لستم بأبناء الله، ولا أحبائه، ولكن أنتم خلق كسائر خلق الله تعالى، ثم قال : ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي يتجاوز عن من يشاء فيعذبه لدينه ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ فيهبه ويتركه على الكفر ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الخلق ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ يعني إليه المرجع، فيجزئهم بأعمالهم. قوله تعالى ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ يعني يا أهل التوراة والإنجيل، وإنما أضافهم إلى الكتاب - والله أعلم - على وجه التعبير، يعني أنتم أهل الكتاب فلم لا تعملون بكتابكم؟ كقوله : يا عاقل، لم لا تفعل كذا وكذا، وإنما تذكر العقل على معنى التعبير، أي إنك لا تعمل عمل العقلاء ثم قال : ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ يعني محمداً - صلى الله عليه وسلم - ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ الدين والأحكام والشرائع ﴿عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ يعني بعد انقطاع من الرسل والوحي، وقال مقاتل (١) : في الآية تقديم وتأخير، معناه : قد جاءكم رسولنا على فترة (٢) من الرسل، يبين لكم،

(١) انظر تفسيره ٣٠٦/١.

(٢) والفترة : أصلها السكون، يقال فتر الشيء سكن، وقيل : هي الانقطاع، قاله أبو علي الفارسي وغيره ومنه فتر الماء : إذا انقطع عما كان عليه من البرد إلى السخونة وفتر الرجل عن عمله : إذا انقطع عما كان عليه من الجد فيه وامرأة فاترة الطرف أي منقطعة عن =

ولأنما سمي فترة لأن الدين يفترو ويندرس عند انقطاع الرسل، يعني بين عيسى ومحمد - عليهما السلام - وقال قتادة: كان بين عيسى ومحمد - عليهما السلام - خمسمائة وستون سنة^(١). وقال الكلبي: (٢) خمسمائة وأربعون سنة وقال الضحاك ومقاتل: كان بينهما ستمائة سنة^(٣). وقال وهب: كان بينهما ستمائة وعشرون سنة^(٤). ثم قال: ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ يعني لكي لا تقولوا ما جاءنا من رسول بعد ما درس الدين لبشرنا وينذرنا ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ محمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿بَشِيرٌ﴾ بالجنة ﴿وَنَذِيرٌ﴾ من النار ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من المغفرة والعذاب وبعث الرسل.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُ أَدْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَتَقَوَّمُ أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْدُوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدَحُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَتْ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنَنْدَحُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافَرِّقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يعني احفظوا منه الله عليكم، ونعمته، ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾ قال في رواية الكلبي: يعني السبعين^(٥)، سوى موسى وهارون عليهما السلام وهم الذين اختارهم موسى فانطلقوا معه إلى الجبل. ويقال: (إذ جعل فيكم أنبياء) يعني في بني إسرائيل، فكان فيهم أربعة آلاف نبي - عليهم السلام - ثم قال: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ يعني بعد العبودية لفرعون. قال ابن عباس: (٦) إن الرجل إذا لم يدخل عليه أحد في بيته إلا بإذنه فهو ملك. وروي ابن أبي نجيج عن مجاهد أنه قال: (وجعلكم ملوكاً) أي جعل لكم أزواجاً وخداماً وبيوتاً^(٧) وبنين ويقال: من استغنى عن غيره فهو ملك.

= حلة النظر، والمعنى: أنه انقطع الرسل قبل بعثه - صلى الله عليه وسلم - مدة من الزمان انظر فتح القدير ٢٥/٢.

(١) أخرجه الطبري ١٥٧/١٠ وعزاه الشوكاني في الفتح ٢٦/٢ لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير.

(٢) انظر فتح القدير ٦/٢، الدر المنثور ٢٦٩/٢. (٣) انظر تفسير فتح القدير ٢٦/٢ وتفسير مقاتل ٣٠٦/١.

(٤) انظر تفسير القرطبي ٨١/٦ وقال ابن كثير رحمه الله ٦٥/٣ والمشهور أنها ستمائة سنة، ولا منافاة بين من يقول ستمائة ومن يقول ستمائة وعشرون سنة، فإن القائل الأول أراد ستمائة سنة شمسية، والآخر أراد قمرية، وبين كل مائة سنة شمسية وبين القمرية نحو من ثلاث سنين.

(٥) وبنحوه انظر ابن جرير ١٦٠/١٠. (٦) انظر المصدر السابق ١٦٢/١٠.

(٧) ذكره السيوطي في الدر المنثور وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير ١٦٢/١٠ وابن المنذر وانظر تفسير ابن كثير ٦٨/٣.

وهذا كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - من أصبح آمناً في سربه، معافى في بدنه وله قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا^(١) ثم قال: ﴿وَأَتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ يعني أعطاكم ما لم يعط أحداً من الخلق، وهو المن والسلوى، والغمام، وغير ذلك ثم قال عز وجل: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ [يعني المطهرة، والمقدسة]^(٢) في اللغة: هو المكان الذي يتطهر فيه، فتأويله البيت الذي يتطهر فيه الإنسان من الذنوب، ثم قال: ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ يعني التي أمركم الله أن تدخلوها ويقال: التي وعد لإبراهيم أن يكون ذلك له ولذريته وذلك أن الله وعد لإبراهيم أن يكون له مقدار ما يمد بصره (فصار ذلك ميراثاً منه حين خرج إبراهيم - عليه السلام - فقال له جبريل: انظر يا إبراهيم، فنظر فقال: يعطي الله تعالى لك ولذريتك مقدار مد بصرك من الملك) وهي أرض فلسطين وأردن وما حولهما، فقال موسى لقومه: (ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم) يعني التي جعل لأبيكم إبراهيم - عليه السلام - ولكم ميراث منه.

وقال القتيبي: أصل الكتاب، ما كتب الله تعالى في اللوح المحفوظ ثم يتفرع منه المعاني، ويقال كتب، يعني، قضى كما قال: (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) ويقال: كتب أي فرض، كما قال: (كتب عليكم الصيام) أي فرض، ويقال: (كتب عليكم) أي جعل كما قال: (فاكتبنا مع الشاهدين) ويقال: كتب أي أمر كما قال ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم) يعني أمر الله لكم بدخلوها. قال: ويقال: كتب ها هنا بمعنى جعل. ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ﴾ يعني لا ترجعوا عما أمرتم به من الدخول ﴿فَتَقْلَبُوا﴾ أي فتصيروا ﴿خَاسِرِينَ﴾ بفوات الدرجات ووجوب الدركات أي مغبونين في العقوبة. فبعث موسى - عليه السلام - اثني عشر رجلاً، من كل سبط رجلاً يأتيهم بخبر الجبارين، فلما أتوهم لقيهم بعض أصحاب تلك المدينة جاءوا وأخذوا أصحاب موسى، فجعل كل رجل، رجلين من أصحاب موسى - عليه السلام - في كفه حتى جاءوا بهم إلى الملك، ويقال: لقيهم رجل واحد اسمه «عوج»، فاحتملهم في ثوبه، وأتى بهم حتى ألقاهم بين يدي الملك؛ فنظر إليهم، وقال هؤلاء يريدون أن يأخذوا مدينتنا، فأراد قتلهم، فقالت امرأته (ايش تصنع بقتل هؤلاء الضعفاء)؟ ويكفيهم ما رأوا من أمر القوم وأمر هذه البلدة، فأنعم عليهم، ودعهم حتى يرجعوا ويذهبوا إلى موسى وقومه بالخبر، فأرسلهم الملك، وأعطاهم عنقوداً من العنب فحملوه على عمودين فرجعوا إلى موسى - عليه السلام - وقالوا: فيما بينهم لا تخبروا قوم موسى بهذا الخبر، فإنهم يجنبون عن القتال، والله تعالى قد وعد لموسى، بأن يفتح عليهم هذه البلدة، ولا تخبروا أحداً سوى موسى^(٣). فلما رجعوا أخبروا بخبرهم إلا اثنين منهم وهو يوشع بن نون وكالب بن يوقنا، فلما أمر موسى قومه بدخول البلدة. ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ قال مقاتل: يعني طول كل رجل منهم ستة أذرع ونصف^(٤). وقال الكلبي^(٥): طول كل رجل منهم ثمانون ذراعاً. وقال الزجاج: الجبار من الأدمين العاتي، وهو الذي يجبر الناس على ما يريد. ثم قال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ يعني من تلك البلدة وهي الأرض المقدسة، واسمها إيلياء، ويقال: مدينة أخرى يقال لها أريحا. ﴿فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ يعني يوشع بن نون، وكالب ﴿مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ الله تعالى: ﴿أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١١٣/٣٠١، والترمذي ٥٧٤/٤ في الزهد (٢٣٤٦) وقال حسن غريب، وابن ماجه (١٣٨٧/٢ في الزهد (٤١٤١).

(٢) سقط في أ.

(٣) قال الحافظ ابن كثير رحمه الله ٧١/٣ وقد ذكر كثير من المفسرين هاهنا أخباراً من وضع بني إسرائيل.

(٤) انظر تفسير مقاتل ٣٠٧/١ وفيه سبعة أذرع ونصف. (٥) انظر تفسير القرطبي ٨٣/٦.

بالإسلام، ويقال: من الذين يخافون الجبارين، (أنعم الله عليهما) فلم يخافا وصدقا في مقاتلتهما ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ وهي أريحا أو إيلياء ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ يعني أن القوم إذا أرادوا كثرتمكم، انكسرت قلوبهم وانقطعت ظهورهم، فتكونوا غالبين، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾ يعني فتقوا بأنه ناصركم ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني مصدقين بوعد الله تعالى فقال لهم موسى: ادخلوا عليهم ﴿قَالُوا يَا مُوسَى أَتُصَدِّقُ اثْنَيْنِ، وَتُكَذِّبُ الْعَشْرَةَ﴾ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا، فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ يعني قل لربك أن ينصرك عليهم كما نصرك على فرعون. وقال أبو عبيدة: يعني اذهب فقاتل، وليقاتل معك ربك، وليتم أمرك كما أتم قبل ذلك، فهو يعينك فإننا لا نستطيع قتال الجبابرة. ويقال: اذهب أنت وربك، يعني أنت وسيدك هارون، لأن هارون كان أكبر منه بستين أو ثلاث سنين ﴿فَقَاتِلَا، إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾. فغضب موسى عليه السلام من قولهم: ﴿قَالَ: رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ هارون وقال الزجاج: لا أملك إلا نفسي وأخي، يحتمل [معنيين: أحدهما: لا أملك إلا نفسي] (١)، وأخي لا يملك إلا نفسه. ويحتمل: لا أملك إلا نفسي وأخي لأن أخاه كان مطيعاً له، فهو يملك طاعته. ثم قال: ﴿فَاغْرُزْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ يعني اقض بيننا وبين القوم العاصين. ثم ﴿قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فَإِنَّهَا مَحْرَمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ يعني الأرض المقدسة دخولها محرم عليهم ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ ثم قال: ﴿يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ ضلالاً، يعني يتحiron فيها، ولا يعرفون وجه الخروج منها ضلالاً في التيه. ويقال: فإنها محرمة عليهم، وتم الكلام، ثم قال: أربعين سنة يتيهون في الأرض فعمي عليهم السبيل، فحبسهم بالنهار وسيرهم بالليل يسهرون ليلتهم، ويصبحون حيث أمسوا، وكان التيه بين فلسطين وإيلة ست فراسخ في اثني عشر فرسخاً، فمكثوا فيها أربعين سنة لم يقدروا على الخروج منها. قال بعضهم: لم يكن موسى وهارون - عليهما السلام - في التيه. لأن الأنبياء لا يعذبون، وقال بعضهم: كانا فيه، وسهل الله تعالى عليهما، كما سهل على إبراهيم - عليه السلام - النار وجعلها برداً وسلاماً. ويقال: إن موسى وهارون قد ماتا في التيه، وهلكت تلك العصابة ولم يبق منهم إلا يوشع وكالب، فخرج يوشع بذرياتهم إلى تلك المدينة وفتحوها عند غروب الشمس. وذكر في الخبر أن يوشع دعا بأن ترد الشمس فردت ثلاث ساعات حتى فتحوا البلدة، فاختلفت النجوم عن مجاريها من ذلك اليوم. فخفي على المنجمين، فلما بقوا في التيه ندم موسى على دعائه. فأوحى الله تعالى إليه: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ يعني لا تحزن على قوم سميتهم فاسقين. وقال بعضهم: هذا الخطاب لمحمد - صلى الله عليه وسلم - لا تحزن على قومك إن لم يؤمنوا. ويقال: (أربعين سنة) صار نصباً بمعنى يتيهون، لأن في التفسير إن دخلوها لم يكن محرم عليهم أبداً (كذا قاله ابن عباس - رضي الله عنه - (٢) وإنما دخلها أولادهم. وقال قوم حرمت أربعين سنة فكانوا يتيهون أربعين سنة، وفتحوا. قوله تعالى:

وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَا قُنْتُكَ قَالَ إِنَّمَا تَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَنِ بَسَطَ إِلَى يَدِكَ لِنَقُلْنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لَا قُنْتُكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْشُرَ بِأَيَّامِي وَإِنَّكَ فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾

(٢) انظر تفسير القرطبي ١٠/١٩٣.

(١) سقط في أ.

فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يَتَوَلَّى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِيَ سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني اقرأ على قومك ﴿نَبَأً﴾ يعني خبر ﴿ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ يعني بالصدق ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ وذلك أن حواء - عليها السلام - ولدت غلاماً وجارية في بطن واحد، قابيل وأخته إقليما، ثم ولدت في بطن آخر هابيل وأخته ليودا، فلما كبروا أمر الله تعالى بأن يزوج كل واحد منهما أخت صاحبه، وكانت أخت قابيل أحسن فأبى قابيل وقال: بل زوج كل واحد منا أخته، فقال آدم: إن الله تعالى أمرني بذلك، فقال له قابيل: إن الله تعالى لم يأمر بك بهذا، ولكنك تميل إلى هابيل، فأمرهما بأن قربا قرباناً، فأيكما تقبل قربانه، كان أحق بها فعمد قابيل، وكان صاحب زرع إلى شر زرعه، ووضعها عند الجبل وعمد قابيل، وكان صاحب مواشي إلى خير غنمه، فوضعها عند الجبل، وكان قابيل يضمر في قلبه أنه إن تقبل منه أو لم يتقبل لا يسلم إليه أخته، فنزلت نار من السماء فأكلت قربان هابيل، وكان ذلك علامة القبول، وتركت قربان قابيل، فذلك قوله: إذ قربا قرباناً يعني وضعا قرباناً ﴿فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ يعني هابيل ﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ يعني قابيل، فـ ﴿قَالَ﴾ قابيل لهابيل ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ﴾ ولم؟ قال: لأن الله قد قبل قربانك، ورد عليّ قرباني، فقال له هابيل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ولم يكن الذنب مني، وإنما لم يتقبل منك لخيانتك وسوء نيتك. وقال بعض الحكماء: العاقل من يخاف على حسناته، لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ والخاسر من يأمن من عذاب الله لأن الله تعالى قال: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾. قوله تعالى: ﴿لَئِنْ بَسَطْتُ إِلَيَّ يَدَكَ﴾ يعني هابيل قال لقابيل، لئن مددت إلي يدك ﴿لَتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدَيَّ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ ثم قال: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ يعني، إني أريد أن ترجع بإثمي، يعني بقتلك إياي، وإيأثمك الذي عملت قبل قتلي وهي الخيانة في القربان وغيره. ويقال إني أريد أن ترجع بإثمي يعني أن لا أبسط يدي إليك، لترجع أنت بإثمي وإثمك، ولا يكون علي من الإثم شيء. ويقال: معناه إني أريد أن تؤخذ بإثمي وإثمك ﴿فَتَكُونُ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ يعني لكي لا يكون من أصحاب النار ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ قال الله تعالى: ﴿فَقُطِعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ يعني تابعت له نفسه على قتل أخيه، (ويقال: انقادت له طاعة نفسه. وقال قتادة: ^(١) زينت له نفسه بقتل أخيه) ﴿فَقَتَلَهُ﴾. قال بعضهم: إنه كان لا يدري كيف يقتله، حتى جاء إبليس فتمثل عنده برجلين فأخذ أحدهما حجراً ولم يزل يضرب الآخر حتى قتله فتعلم ذلك منه. وقال بعضهم: بل كان يعرف ذلك بطبعه، لأن الإنسان وإن لم ير القتل فإنه يعلم بطبعه أن النفس فانية ويمكن إتلافها، فأخذ حجراً وقتله بأرض الهند، فلما رجع إلى آدم قال له: ما فعلت بهابيل، فقال له قابيل: أ جعلتني رقيقاً على هابيل؟ فذهب حيث يشاء، فبات آدم تلك الليلة محزوناً، فلما أصبح قابيل رجع إلى الموضع الذي قتله، فرأى غراباً وقال بعضهم: كان يحمله على عاتقه أياماً لا يدري ما يصنع به؟ حتى رأى غراباً ميتاً، فجاء غراب آخر، وبحث التراب برجليه، ودفن الغراب الميت في التراب فذلك قوله تعالى: ﴿فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ يعني فصار من المغبونين في العقوبة. قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾ وقابيل ينظر إليه وقال القتيبي: هذا من الاختصار، ومعناه، بعث غراباً يبحث التراب على غراب الميت ﴿لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَاءَ أَخِيهِ﴾ يعني كيف يغطي عورة أخيه ﴿قَالَ﴾ قابيل عند ذلك: ﴿يَا وَيْلَتَنَا﴾ ^(٢) أعجزت؟ يعني أضعفت في الحيلة ﴿أَنْ أَكُونَ مِثْلَ

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ٢٢١/١٠.

(٢) قرأ حمزة والكسائي (يا ويلتي يا حسرتي يا أسفي فأمالا. وحجتهما: أن النية فيها إضافة الويل والحسرة والأسف إلى نفسه فكانه =

هَذَا الْغُرَابِ فَأَوَارِي سَوَاءَ أَخِي» يعني فأعطي عورة أخي، «فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ» على حمله حيث لم يدفنه حين قتله. قال ابن عباس^(١): ولو كانت ندامته على قتله، لكانت الندامة توبة منه، ويقال: إن آدم وحواء أتيا قبره، وبكى أياماً عليه، ثم إن قابيل كان على ذروة جبل فططحه ثور فوقع على السفح، فنفرت عروقه. ويقال: دعا عليه آدم فانخسفت به الأرض. وقال مقاتل^(٢): كان قبل ذلك السباع والطيور تستأنس بآدم فلما قتل قابيل أخاه هربوا، فحلقت الطيور بالهواء، والوحوش بالبرية، والسباع بالغياض فتزوج شيت - عليه السلام - بإقليميا وروي عن عبد الله بن مسعود، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: لا تقتل نفس ظلماً، إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها، لأنه أول من سن القتل^(٣). وقال بعضهم: هذه القصة كان في بني إسرائيل وهما أخوان قتل أحدهما الآخر، ولكن هذا خلاف قول المفسرين^(٤). قال الله تعالى:

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾
إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا
أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ
فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْدَرُوا عَلَيْهِمْ
فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ﴾ يعني من أجل خيانة ابن آدم حين قتل أخاه، «كَتَبْنَا» يعني فرضنا «عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ» وغلظنا وشددنا في التوراة «أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ» يعني قتل نفساً بغير أن يقتل نفساً «أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ» يعني بغير فساد في الأرض، وهو الشرك بالله. «فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا». يعني إذا قتل نفساً بغير جُرم، واستحل قتله، فكأنه قتل الناس جميعاً يعني إذا قتل نفساً فجزاؤه جهنم خالداً فيها. ثم قال «وَمَنْ أَحْيَاهَا» يعني نجاها من غرق، أو حرق، أو يعضو عن القتل «فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا» يعني له من الأجر كأنما أحيا الناس جميعاً، لأن في حياة نفس واحدة يكون منفعة لجميع الناس، لأنه يدعو لجميع الخلق، ثم قال «وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا» بِالْبَيِّنَاتِ يعني بالبيان في الأمر والنهي «ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا

= في المعنى: يا ويلتي ويا حسرتي فلما جعل الياء ألفاً أما لاها ليعلم أن أصلها كان ياء لأن الإمامة من الياء.

وقرأ الباقر بغير إمالة وحجتهم أنها ألف الندبة ولا أصل لها في الإمامة. انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٢٤.

(١) انظر تفسير ابن عباس ٧٤. (٢) انظر تفسيره ١/٣١٢.

(٣) أخرجه البخاري ٣٦٤/٦ في كتاب أحاديث الأنبياء (٣٣٣٥)، ومسلم ١٣٠٤/٣ في القسامة (١٦٧٧/٢٧).

(٤) انظر تفسير الطبري ٢٠٨/١٠.

(٥) قرأ أبو عمرو (رسلنا) و (رسلكم) و (رسلهم) بإسكان السين إذا كان بعد اللام أكثر من حرف وكذلك مذهبه في: (سبلنا).

فإذا كان بعد اللام حرف ضم السين مثل (رسله) وحجته أنه استثقل حركة بعد ضميتين لطول الكلمة وكثرة الحركات فأسكن السين =

مَنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ ﴿فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ يعني لمشركون تاركون لأمر الله تعالى . قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ إن للتأكيد، وما : صلة يحاربون الله ورسوله، يعني يخالفون الله ورسوله، ويتركون أمر الله وأمر رسوله مجاهرة وعياناً ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً﴾ بالقتل وأخذ المال . ﴿أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ . قال مقاتل : نزلت هذه الآية في سبعة نفر من بني عرينة، قدموا المدينة فاجتووها، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - لو خرجتم إلى إبلنا وأصبتم من ألبانها وأبوالها، ففعلوا فصحوا، ثم مالوا على الرعاة فقتلوهم وساروا بالإبل وارتدوا عن الإسلام، فأرسل النبي - صلى الله عليه وسلم - في آثارهم علياً، فأتى بهم، فقطع أيديهم وأرجلهم، وسمل أعينهم وتركهم بالحرّة حتى ماتوا^(١)، وهذا قبل أن تنزل آية الحدود . وروى أسباط عن السدي^(٢) قال : نزلت في سودان عرينة، فأراد النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يمثل بهم فنهاه الله تعالى عن ذلك وأمره أن يقيم فيهم الحد الذي أنزل عليه . وقال سعيد بن جبیر^(٣) أنه مثل بهم ثم نزل بعد ذلك : ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ الْآيَةَ﴾ . وقال ابن عباس^(٤) في رواية أبي صالح : وادع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أبا بردة، هلال بن عويمر الأسلمي على أن لا يعينه ولا يعين عليه، ومن آتاه من المسلمين فهو آمن، ومن أتى المسلمين منهم فهو آمن فمر أناس من بني كنانة يريدون الإسلام، فمروا بأصحاب أبي بردة ولم يكن أبو بردة حاضراً يومئذ فخرج أصحابه إليهم، فقتلوهم وأخذوا أموالهم فنزلت هذه الآية : ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ . . الْآيَةَ﴾ ثم صارت الآية عامة في جميع الناس . واختلف العلماء في حكمهم^(٥) وهم قطاع الطريق وهم ثلاثة أصناف : صنف يأخذ المال ولا يقتل،

= والباء فإذا قصرت الكلمة لم يسكن السين . وقرأ الباقون بضم السين . وحجتهم أن بناء (فعول) (وفعل) على (فُعل) بضم العين في كلام العرب ولم تدع ضرورة إلى إسكان الحرف فتركوا الكلمة على حق بنيتها . انظر حجة القراءات ٢٢٥ .
(١) أخرجه البخاري ٤٢٨/٣ في كتاب الزكاة (١٥٠١)، أخرجه مسلم ١٢٩٦/٣ في كتاب القسامة ١٦٧١/٩ وقوله واجتووها : معناه - استوخموها . أي لم توافقهم وكرهوها لسقم أصابهم قالوا : وهو مشتق من الجوى وهو داء في الجوف .
(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره ٢٥١/١٠ .
(٣) انظر الدر المنثور ٢٧٨/٢ .
(٤) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ٢٤٣/١٠ .

(٥) قال ابن كثير في تفسيره : المحاربة هي المخالفة والمضادة وهي صادقة على الكفر وعلى قطع الطريق وإخافة السبيل وكذا الإفساد في الأرض يطلق على أنواع من الشر وقد قال الله تعالى : ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ فإذا علمت ذلك فاعلم أن المحارب الذي يقطع الطريق ويخيف السبيل ذكر الله أن جزاءه واحدة من أربع خلال هي : ﴿أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تَقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ . وظاهر هذه الآية الكريمة : أن الإمام مخير فيها بفعل ما يشاء منها بالمحارب كما هو مدلول أو لأنها تدل على التخيير .

ونظيره في القرآن قوله تعالى : ﴿فَقَدِيَّةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نَسْكَ﴾ وقوله تعالى : ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسْوَتِهِمْ أَوْ تَحْرِيرَ رَقَبَةٍ﴾ وقوله تعالى : ﴿فَجَزَاءُ مَثَلٍ مَا قَتَلَ مِنَ النِّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بِالْغُلَامَةِ أَوْ كَفَّارَةً طَعَامِ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً﴾ .

وكون الإمام مخيراً بينهما مطلقاً من غير تفصيل هو مذهب مالك، وبه قال سعيد بن المسيب ومجاهد وعطاء والحسن البصري وإبراهيم النخعي والضحاك كما نقله عنهم ابن جرير وغيره وهو رواية ابن أبي طلحة عن ابن عباس ونقله القرطبي عن أبي ثور وسعيد بن المسيب وعمر بن عبد العزيز ومجاهد والضحاك والنخعي ومالك وقال وهو مروى عن ابن عباس .

ورجع المالكية هذا القول بأن اللفظ فيه مستقل غير محتاج إلى تقدير محذوف لأن اللفظ إذا دار الإستقلال والإفتقار إلى تقدير محذوف فلا استقلال مقدم لأنه هو الأصل إلا بدليل منفصل على لزوم تقدير المحذوف وإلى هذا أشار في (مراقي السعود) بقوله :

كذلك ما قابل ذا احتلال من التأصل والاستقلال =

وصنف يأخذ المال ويقتل، وصنف يقتل ولا يأخذ المال، قال بعضهم: إذا وجد من إنسان صنف من هذه الأصناف فللإمام أن يقيم عليه أي العقوبات شاء، لأن الله تعالى قال: (أن يقتلوا، أو يصلبوا...) فقد خيّر في عقوبتهم وهو قول الحسن وعطاء^(١). وقال بعضهم: لكل صنف عقوبة على حدة. والاختيار عند أصحابنا رحمهم الله أنه إن أخذ المال ولم يقتل قطعت يده ورجله من خلاف، وإن قتل ولم يأخذ المال: قتل، وإن قتل وأخذ المال: قطع وقتل عند أبي حنيفة، وعند أبي يوسف ومحمد رحمهما الله يقتل ولا يقطع. وروي عن سعيد بن جبيرة^(٢) أنه قال: إن قتل قُتل، وإن قتل وأخذ المال قطع ثم صلب. وروي عن ابن عباس نحو هذا^(٣) ويكون أو بمعنى الواو فكأنه قال: أن يقتلوا ويصلبوا ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾. وقال بعضهم: يقتل ثم يصلب على وجه النكال والعبرة. وقال بعضهم: يصلب حياً ثم يطعن في ليطه، يخضخض حتى يموت. قوله تعالى: ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ يعني يطلب حتى لا يجد قراراً في موضع ويقال: (ينفوا من الأرض) يعني يحبس فينفى من سعة الدنيا إلى ضيقها، فصار كأنه نفى عن الأرض. واحتج هذا القائل بقول بعض أهل السجن في ذلك:

خَرَجْنَا مِنَ الدُّنْيَا وَنَحْنُ مِنْ أَهْلِهَا فَلَسْنَا مِنَ الْأَمْوَاتِ فِيهَا وَلَا الْأَحْيَا
إِذَا جَاءَنَا السَّجَانُ يَوْمًا لِحَاجَةٍ عَجَبْنَا، وَقَلْنَا: جَاءَ هَذَا مِنَ الدُّنْيَا^(٤)

= إلى قوله:

كذلك ترتيب لإيجاب العمل بماله الرجحان مما يحتمل

والرواية المشهورة عن ابن عباس أن هذه الآية منزلة على أحوال وفيها قيود مقدرة وإيضاحه: أن المعنى أن يقتلوا إذا قتلوا ولم يأخذوا المال، أو يصلبوا إذا قتلوا وأخذوا المال، أو تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ من خلاف إذا أخذوا المال ولم يقتلوا أحداً، أو يُنْفَوْا من الأرض إذا أخافوا السبيل ولم يقتلوا أحداً ولم يأخذوا مالاً. وبهذا قال الشافعي وأحمد وأبو مجلز وسعيد بن جبيرة وإبراهيم النخعي والحسن وقتادة والسدي وعطاء الخراساني وغير واحد من السلف والأئمة.

قاله ابن كثير ونقله القرطبي وابن جرير عن ابن عباس وأبي مجلز وعطاء الخراساني وغيرهم.

ونقل القرطبي عن أبي حنيفة إذا قُتل قُتل، وإذا أخذ المال ولم يُقَتَّل قُطِعَت يده ورجله من خلاف، وإذا أخذ المال وقُتل فالسلطان مخير فيه إن شاء قطع يده ورجله وإن شاء لم يقطع وقتله وصلبه، ولا يخفى أن الظاهر المتبادر من الآية هو القول الأول. لأن الزيادة على ظاهر القرآن بقيد تحتاج إلى نص من كتاب، أو سنة، وتفسير الصحابي لهذا بذلك ليس له حكم الرفع لإمكان أن يكون عن اجتهاد منه ولا نعلم أحداً روى في تفسير هذه الآية بالقيود المذكورة خبراً مرفوعاً إلا ما رواه ابن جرير في تفسيره عن أنس حدثنا علي بن سهل.

قال: حدثنا الوليد بن مسلم عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب: أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أنس بن مالك يسأله عن هذه الآية فكتب إليه أنس يخبره أن هذه الآية نزلت في أولئك النفر العرنيين إلى أن قال قال أنس: (فسأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جبريل عن القضاء فيمن حارب فقال: من سرق وأخاف السبيل فاقطع يده بسرقة، ورجله بإخافته، ومن قتل فاقطعه ومن قتل وأخاف السبيل واستحل الفرج الحرام فاصلبه) وهذا الحديث لو كان ثابتاً لكان قاطعاً للنزاع ولكن فيه ابن لهيعة، ومعلوم أنه خلط بعد احتراق كتبه ولا يحتاج به، وهذا الحديث ليس رواية عن ابن المبارك ولا ابن وهب: لأن روايتهما عنه أعدل من رواية غيرهما وابن جرير نفسه يرى عدم صحة هذا الحديث الذي ساقه لأنه قال في سوقه للحديث المذكور: وقد روي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بتصحيح ما قلنا في ذلك بما في إسناده نظر وذلك ما حدثنا به علي بن سهل حدثنا الوليد بن مسلم إلى آخر الإسناد الذي قدمنا آنفاً وذكرنا معه محل الغرض من المتن ولكن هذا الحديث وإن كان ضعيفاً فإنه يقوي هذا القول الذي عليه أكثر أهل العلم ونسبه ابن كثير للجمهور. انظر أضواء البيان ٢/٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩.

(١) انظر تفسير الطبري ٣٥٩/١٠. (٢) انظر المصدر السابق.

(٣) انظر تفسير القرطبي ١٠٠/٦، وانظر روح المعاني للألوسي ١١٩/٦. (٤) أخرجه ابن جرير عنه انظر التفسير ٢٦٠/١٠.

ويقال: ينفي إلى دار الحرب. ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ يعني ذلك القتل والقطع لهم عذاب وعقوبة في الدنيا ولا يكون ذلك كفارة لذنوبهم إن لم يتوبوا ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي أشد مما كان في الدنيا وهو عذاب النار. ثم استثنى فقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ﴾ يعني رجعوا عن صنيعهم قبل أن يؤخذوا ويردوا المال فلا يعاقبون في الدنيا ولا في الآخرة ويغفر الله تعالى لهم ذنوبهم وذلك قوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ غفور لذنوبهم رحيم حين قبل توبتهم. قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَآتَتْ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ يعني احذروا المعاصي لكي تنجوا من عذاب الله ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ يعني اطلبوا القربة والفضيلة بالأعمال الصالحة. ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾ يعني في طاعته. ويقال: جاهدوا العدو ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي لكي تنجوا من العقوبة وتنالوا الثواب. قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَآتَتْ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يقول: إن الكافر إذا عاين العذاب ثم تكون له الدنيا جميعاً ومثلها معها، فيقدر على أن يفتدي بها من العذاب لافتدى بها، يقول الله تعالى لو كان ذلك لهم ففعلوه ﴿مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ﴾ ذلك النداء ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. أي وجيع ثم قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ وذلك أنهم يريدون أن يخرجوا من الأبواب فتستقبلهم الملائكة فيضربونهم بمقامع من حديد، ويردونهم إليها ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم أبداً. وروي عن جابر بن عبد الله أنه قال: إن قوماً يخرجون من النار بعدما يدخلونها قيل له: سبحان الله أليس الله يقول: (يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها) فقال جابر: (اقرأوا - إن شئتم - أول الآية) (إن الذين كفروا يعني هذا للكفار خاصة دون العاصين من المؤمنين) قوله تعالى:

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ بدأ بالرجل لأن السرقة في الرجال أكثر، وقال في الزنا: (الزانية والزاني) بدأ بالنساء لأن الزنا في النساء أكثر، وهن الفاتنات للرجال ﴿فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقرأ: (فاقطعوا أيما يمينهما) وغيره قرأ: أيديهما، واتفقوا أن المراد به اليمين من الكر سوع. نزلت الآية في «طعمة بن أبيرق»، ثم صارت الآية عامة في جميع السراق^(١). وقال بعضهم: إذا سرق قليلاً أو كثيراً يجب القطع واحتج لظاهر الآية. روى الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: لعن الله السارق، يسرق البيضة فتقطع يده^(٢)، ويسرق الحبل فتقطع يده. وروي عن ابن الزبير أنه قطع في نعل ثمنه درهم، وقال: لو سرق خيطاً

(١) انظر أسباب النزول للواحدي ١٤٤.

(٢) أخرجه البخاري ٩٧/١٢ في كتاب الحدود (٦٧٩٩)، ومسلم ١٣١٤/٣ في كتاب الحدود (١٦٨٧/٧).

لقطعته^(١). وقال بعضهم: لا يقطع في أقل من ثلاثة دراهم أو ربع دينار فصاعداً والاختيار عند علمائنا رحمهم الله: أن اليد لا تقطع في أقل من عشرة دراهم^(٢) وبه جاءت الآثار عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وعن الصحابة رضي الله عنهم. قرأ بعضهم (السارق والسارقة) بالنصب وكذلك قوله: (الزانية والزاني) بالنصب، وإنما جعله نصباً لوقوع الفعل عليه - وهو شاذ^(٣) من القراءة والقراءة المعروفة بالرفع.

(١) انظر تفسير الطبري ٢٩٥/١٠.

(٢) واختلف العلماء فيما يقطع فيه السارق فذهب أكثرهم إلى العمل بحديث عائشة رضي الله عنها وهو حديث الباب أن نصاب السرقة ربع دينار كما ذكره المصنف رحمه الله وإن سرق دراهم أو متاعاً قَوْمٌ بالدنانير فإن بلغت قيمته ربع دينار قطع.

روي ذلك عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعائشة وهو قول عمر بن عبد العزيز وإليه ذهب الأوزاعي والشافعي وقال مالك: نصاب السرقة ثلاثة دراهم فإن سرق ذهباً أو متاعاً قَوْمٌ بالدراهم فإن بلغت قيمته ثلاثة دراهم قطعت يده. وقال أحمد: إن سرق ذهباً فبلغ ربع دينار قطع وإن سرق فضة فبلغت ثلاثة دراهم أو ربع دينار قطع عملاً بالخبرين.

قلت: والخبر الثاني فيه الأمر بالقطع في ثلاثة دراهم.

قال الخطابي: والقول الأول أصح وهو الرد إلى ربع دينار لأن الأصل في التقدير في ذلك الزمن الدنانير فجاز أن تقوم بها الدراهم ولهذا كتبت في الصكوك قديماً عشرة دراهم وزنتها سبعة مثاقيل فعرفت الدراهم بالدنانير وذهب أصحاب الرأي إلى أنه لا يقطع في أقل من دينار أو عشرة دراهم معالم السنن ٣٠٢/٣ شرح السنة ٣١٤/١٠. انظر فتح العلام ٦١٠ - ٦١١.

(٣) وقرأ عيسى بن عمر وابن أبي عبله (والسارق والسارقة) بالنصب على الاشتغال. قال سيبويه: الوجه في كلام العرب النصب كما تقول (زيداً فاضربه) ولكن أبت العامة إلا الرفع يعني عامة القراء وجلهم، ولما كان معظم القراء على الرفع تأوله سيبويه على وجه يصح وهو أنه جعله مبتدأ والخبر محذوف لأنه لو جعله متبداً والخبر (فاقطعوا) لكان تخريباً على غير الوجه في كلام العرب ولكان قد تدخل الفاء في خبر آل وهو لا يجوز عنده وقد تجاسر أبو عبد الله محمد بن عمر المدعو بالفخر الرازي ابن خطيب الري على سيبويه وقال عنه ما لم يقله فقال الذي ذهب إليه سيبويه ليس بشيء ويدل على فساده وجوه. الأول أنه طعن في القراءة المنقولة بالتواتر عن الرسول وعن أعلام الأمة وذلك باطل قطعاً (قلت) هذا تقول على سيبويه وقلة فهم عنه ولم يطعن سيبويه على قراءة الرفع بل وجهها الترجيح المذكور وأفهم أن المسألة ليست من باب الاشتغال المبني على جواز الإبتداء فيه وكون جملة الأمر خبره أو لم ينصب الاسم إذ لو كانت منه لكان النصب أوجه كما كان في (زيداً اضربه) على ما تقرر في كلام العرب، فكون جمهور القراء عدلوا إلى الرفع دليل على أنهم لم يجعلوا الرفع فيه على الإبتداء المخبر عنه بفعل الأمر لأنه لا يجوز ذلك لأجل الفاء. فقله أبت العامة إلا الرفع تقوية لتخريبه وتوهين للنصب على الاشتغال مع وجود الفاء، لأن النصب على الاشتغال المرجح على الإبتداء في مثل هذا التركيب لا يجوز إلا إذا جاز أن يكون متبداً مخبراً عنه بالفعل الذي يفسر العامل في الاشتغال وهنا لا يجوز ذلك لأجل الفاء الداخلة على الخبر فكان ينبغي أن لا يجوز النصب فمعنى كلام سيبويه يقوي الرفع على ما ذكر فكيف يكون طاعناً في الرفع. وقد قال سيبويه وقد يحسن ويستقيم عبد الله فاضربه إذا كان مبنياً على مبتدأ مضمر أو مظهر فاما في المظهر فقولك هذا زيد فاضربه... وإن شئت لم تظهر هذا ويعمل عمله إذا كان مظهراً وذلك كقولك (الهِلال والله فانظر إليه) فكأنك قلت هذا الهلال ثم جئت بالأمر ومن ذلك قول الشاعر:

وقائلة خَوْلَانُ فانكح فتأتهم وأكرومة الحيين خلَوْ كما هيا

هكذا سمع من العرب تشده انتهى. فإذا كان سيبويه يقول وقد يحسن ويستقيم (عبد الله فاضربه) فكيف يكون طاعناً في الرفع وهو يقول أنه يحسن ويستقيم لكنه جوزه على أن يكون المرفوع مبتدأ محذوف الخبر كما تأوله في السارق والسارقة أو خبر مبتدأ المحذوف الخبر كما تأوله في (السارق والسارقة) أو خبر مبتدأ محذوف كقوله (الهلال والله فانظر إليه). وقال الفخر الرازي (فإن قلت) يعني سيبويه لا أقول إن القراءة بالرفع غير جائزة، ولكني أقول القراءة بالنصب أولى فنقول له هذا أيضاً رديء لأن ترجيح القراءة التي لم يقرأ بها إلا عيسى بن عمر على قراءة الرسول وجميع الأمة في عهد الصحابة والتابعين أمر منكر مردود (قلت) هذا السؤال لم يقله سيبويه ولا هو ممن يقله وكيف يقله وهو قد رجح قراءة الرفع على ما أوضحناه؟ وأيضاً فقله لأن ترجيح القراءة التي لم يقرأ بها إلا عيسى بن عمر على قراءة الرسول وجميع الأمة في عهد الصحابة والتابعين تشنيع وإيهام أن عيسى بن =

وروي عن محمد^(١) بن يزيد المبرد أنه قال: رفعه بالابتداء لأن القصد ليس إلى واحد من السارق بعينه [والزناة بعينه]^(٢) إنما هو كقولك: من سرق فاقطعوا يده، ومن زنا فاجلدوه. ثم قال: ﴿جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا﴾ يعني عقوبة لهما بما سرقا ﴿نَكَالًا﴾ يعني عقوبة ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ جزاء: صار نصباً لأنه مفعول له يعني جزاء بجزاء فعلهما ثم قال: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ حكم على السارق بقطع اليد. ثم قال عز وجل: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ﴾ يعني من بعد سرقته ﴿وَأَصْلَحَ﴾ العمل بعد السرقة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ يعني يتجاوز عنه ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما سلف من ذنبه ﴿رَحِيمٌ﴾ به بعد التوبة يعني إذا تاب ورد المال لا تقطع يده. ثم قال عز وجل:

= عمر قرأها من قبل نفسه وليس كذلك بل قراءته مستندة إلى الصحابة وإلى الرسول فقراءته قراءة الرسول أيضاً وقوله وجميع الأمة لا يصح هذا الإطلاق لأن - عيسى بن عمر وإبراهيم بن أبي عبلة ومن وافقهما وأشياخهم الذين أخذوا عنهم هذه القراءة هم من الأمة.

وقال سيبويه وقد قرأ ناس ﴿والسارق والسارقة﴾ ﴿والزانية والزاني﴾ فأخبر أنها قراءة ناس، وقوله وجميع الأمة لا يصح هذا العموم. قال الفخر الرازي: الثاني من الوجوه التي تدل على فساد قول سيبويه أن القراءة بالنصب لو كانت أولى لوجب أن يكون في القراءة من قرأ ﴿واللذان يأتياها منكم فأذوهما﴾ بالنصب ولما لم يوجد في القراء أحد قرأ كذلك علمنا سقوط هذا القول (قلت) لم يدع سيبويه أن قراءة النصب أولى فيلزمه ما ذكر وإنما قال سيبويه وقد قرأنا، والسارق والسارقة والزانية والزاني وهو في العربية على ما ذكرت لك من القوة ولكن أبت العامة إلا القراءة بالرفع ويعني سيبويه بقوله من القوة لو عري من الفاء المقدر دخولها على خبر الاسم المرفوع على الابتداء وجملة الأمر خبره، ولكن أبت العامة جمهور القراء إلا الرفع لعله دخول الفاء إذ لا يصح أن تكون جملة الأمر خبراً لهذا المبتدأ فلما دخلت الفاء رجح الجمهور الرفع ولذلك لما ذكر سيبويه اختيار النصب في الأمر والنهي لم يمثله بالفاء بل عارياً منها. قال سيبويه: وذلك قولك (زيداً اضربه وعمراً أمر به وخالداً اضرب أباه وزيداً اشتر له ثوباً) ثم قال وقد يكون في الأمر والنهي أن يبني الفعل على الاسم وذلك قوله (عبد الله فاضربه) ابتدأت عبد الله فرفعت بالابتداء ونهيت المخاطب له ليعرفه باسمه ثم بنيت الفعل عليه كما فعلت ذلك في الخبر فإذا - قلت (زيداً فاضربه) لم يستقم لم تحمله على الابتداء ألا ترى أنك لو قلت (زيد فمطلق) لم يستقم فهذا دليل على أنه لا يجوز أن يكون مبتدأ يعني مخبراً عنه بفعل الأمر المقرون بالفاء الجائز دخولها على الخبر، ثم قال سيبويه فإن شئت نصبته على شيء هذا يفسره لما منع سيبويه بالرفع فيه على الابتداء وجملة الأمر خبره لأجل الفاء أجاز نصبه على الإشتغال لا على أن الفاء هي الداخلة في خبر المبتدأ وتلخيص ما يفهم من كلام سيبويه أن الجملة الواقعة أمراً بغير فاء بعد إسم يختار فيه النصب يجوز فيه الابتداء وجملة الأمر خبره فإن دخلت عليه الفاء فإما أن تقدرها الفاء الداخلة على الخبر أو عاطفة، فإن قدرتها الداخلة على الخبر فلا يجوز أن يكون ذلك الإسم مبتدأ وجملة الأمر خبره إلا إذا كان المبتدأ أجري. مجرى اسم الشرط لشبهه به وله شروط ذكرت في النحو وإن كانت عاطفة كان ذلك الإسم مرفوعاً إما مبتدأ كما تأول سيبويه في قوله (والسارق والسارقة) وإما خبر مبتدأ محذوف كما قيل (القمر والله فانظر إليه) والنصب على هذا المعنى دون الرفع لأنك إذا - نصبت احتجت إلى جملة فعلية تعطف عليها بالفاء وإلى حذف الفعل الناصب وإلى تحريف الفاء إلى غير محلها فإذا قلت (زيداً فاضربه) فالتقدير (تنبه فاضرب زيداً اضربه) حذفت (تنبه) وحذفت (اضرب) وأخرت الفاء إلى دخولها على المفسر وكان الرفع أولى لأنه ليس فيه إلا حذف مبتدأ أو حذف خبر فالمحذوف أحد جزأي الإسناد فقط والفاء واقعة في موقعها ودل على ذلك المحذوف سياق الكلام والمعنى قال سيبويه وأما قوله عز وجل ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما﴾ ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾ فإن هذا لم يبين على الفعل - ولكنه جاء على مثل قوله تعالى ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ ثم قال بعد ﴿فيها أنهار﴾ فيها كذا وكذا فإنما وضع مثل للحديث الذي بعده وذكر بعد أخبار وأحاديث كأنه قال ومن القصص مثل الجنة أو مما نقص عليكم مثل الجنة فهو محمول على هذا الإضمار أو نحوه والله أعلم. انظر البحر المحيط ٤٧٦/٣، إلى ٤٨٠.

(١) محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي أبو العباس المعروف بالمبرد إمام العربية ببغداد في زمنه توفي سنة ٢٨٦ هـ. انظر

الأعلام ١٤٤/٧.

(٢) سقط في ظ.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ يَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتُوهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني خزائن السموات والأرض. يعني خزائن السموات: المطر وخزائن الأرض: النبات. ويقال: له ملك السموات والأرض يحكم فيها ما يشاء ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ إذا أصر على ذنوبه ﴿وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ إذا تاب ورجع، ومعناه أن السارق إذا تاب ورد المال لا يقطع ويتجاوز عنه وإن لم يتب قطعت يده. ألا ترى أن الله تعالى قال: (له ملك السموات والأرض، يعذب) إذا لم يتب ويتجاوز إذا تاب، فافعلوا أنتم مثل ذلك لأن الله تعالى مع قدرته يتجاوز عن عباده وهو قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من المغفرة والعذاب. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ نزلت في شأن «أبي لبابة بن عبد المنذر»، وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما حاصر بني قريظة فأشار إليهم أبو لبابة وكان حليفاً لهم، إنكم إن نزلتم من حصونكم قتلكم فلا تنزلوا، فنزلت هذه الآية (يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر أي يبادرون ويقعون في الكفر) ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا: آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ يعني ذلك بالسستهم ﴿وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ في السر. وقال الضحاك^(١) نزلت الآية في شأن المنافقين كانت علانيتهم تصديقاً، وسرائرهم تكذيباً. قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ يعني: قوالون للكذب وقال القتيبي: تفسير (سماعون للكذب) أي قابلون للكذب لأن الرجل يسمع الحق والباطل، ولكن يقال: لا تسمع من فلان قولاً أي لا تقبله، ومعنى آخر: إنهم يسمعون منك ليكذبوا عليك لأنهم إنما جالسوه لكي يقولوا سمعنا منه كذا وكذا، وإنما صار (سماعون) رفعاً لأن معناه هم (سماعون للكذب) من ﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾ يعني أهل خيبر لم يأتوك وذلك أن رجلاً وامرأة من أهل خيبر زنيا فكرهما رجمهما فكتبوا إلى يهود بني قريظة: أن يذهبوا بهما إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإن حكم بالجلد رضوا عنه بحكمه، وإن حكم بالرجم لم يقبلوا، وروى نافع عن ابن عمر أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وذكروا له: أن رجلاً وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ فقالوا: يحمان ويجلدان يعني تسود وجوههما فقال عبد الله بن سلام: كذبتهم إن فيها آية الرجم فأتوا بالتوراة، فأتوا بها فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها وقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده فإذا فيها آية الرجم فقالوا صدق عبد الله بن سلام يا محمد، فيها آية الرجم فأمر بهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فرجما. قال ابن عمر: فرأيت الرجل يحنو على المرأة يقيها

الحجارة^(١). وروى الشعبي عن جابر ابن عبد الله^(٢) أنه قال: زنا رجل من أهل فدك^(٣) فكتب أهل فدك إلى ناس من اليهود بالمدينة، أن يسألوا محمداً - صلى الله عليه وسلم - عن ذلك فإن أمركم بالحد فحدوه وإن أمركم بالرجم فلا تأخذوه، فسألوه فدعا ابن صوريا، وكان عالمهم وكان أعور فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: أنشدك الله كيف تجدون حد الزاني في كتابكم؟ فقال ابن صوريا: فأما إذ ناشدني بالله فإننا نجد في التوراة أن النظر زنية والاعتناق زنية، والقبلة زنية فإن شهد أربعة بأنهم رأوه كالميل في المكحلة فقد وجب الرجم فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - هو ذلك. وروي عن أبي هريرة قال: بينما نحن عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذ جاء رجال من اليهود، وقد تشاوروا في صاحب لهم، زنا بعدما أحسن قالوا: فانطلقوا فلنسأل هذا النبي - صلى الله عليه وسلم - فإن أفتانا بفتوى فيها تخفيف فاحتجنا عند الله تعالى بها، وإن أفتانا بما فرض الله علينا في التوراة من الرجم تركنا ذلك فقد تركنا ذلك في التوراة وهي أحق أن تطاع، فقالوا: يا أبا القاسم: إنه زنى صاحب لنا قد أحسن فما ترى عليه من العقوبة؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقمنا معه حتى أتى بيت مدارس اليهود فوجدهم يتدارسون التوراة، فقال لهم: يا معشر اليهود أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى عليه السلام ما تجدون في التوراة من العقوبة على من زنى وقد أحسن؟ فقالوا: إنا نجد أن يجلد ويحجم، وسكت خبرهم وهو في جانب البيت، فأقبل النبي - صلى الله عليه وسلم - [ينشده فقال له خبرهم إذا ناشدنا فإننا نجد عليه الرجم فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -] كان أول ما ترخصتم به أمر الله تعالى؟ قال: إنه قد زنى رجل قد أحسن وهو ذو قرابة لملك من ملوكنا فسجنه وأخر عنه الحد وزنى رجل آخر فأراد الملك رجمه فجاء قومه وقالوا: لا ترجمه حتى ترجم فلاناً فاصطلحوا بينهم على عقوبة دون الرجم وتركوا الرجم، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - فإني أقضي بينكم بما في التوراة فتزل قوله تعالى: (ومن الذين هادوا سماعون للكذب، سماعون لقوم آخرين) ﴿لَمْ يَأْتُوكَ يَحْرِفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾. قال الزجاج: يعني من بعد أن وضعه الله تعالى مواضعه، وأحل حلاله وحرم حرامه ﴿يَقُولُونَ: إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ﴾. يعني إن أمركم بالجلد فاقبلوه واعملوا به ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ يقولون: إن لم يوافقكم على ما تطلبون ويأمركم بالرجم فلا تقبلوا منه، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾ يعني كفره وشركه -. ويقال: فضيحته ويقال: اختباره ﴿فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ يقول لن تقدر أن تمنعه من عذاب الله شيئاً. ثم قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾ من الكفر ولم يرد أن يدخل حلاوة الإيمان في قلوبهم وخذلهم مجازاة لكفرهم. ﴿هُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ يعني القتل والسبي والجزية، وهو قتل بني قريظة، وإجلاء بني النضير، ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. أعظم مما كان في الدنيا. ثم قال تعالى:

سَمْعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾
﴿سَمْعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّحْتِ﴾. قرأ أبو عمرو وابن كثير والكسائي^(٤) (السحت) بضم الحاء، وقرأ

(١) أخرجه البخاري ١٦٦/١٢ في الحدود باب أحكام أهل الذمة (٦٨٤١)، (٧٥٤٣)، ومسلم ١٣٢٦/٣ في الحدود باب رجم اليهود (١٦٩٩/٢٦).

(٢) أخرجه أبو داود في السنن ١٥٦/٤ في الحدود (٤٤٥٢)، وأخرجه مسلم مختصراً ٢٨/٣ في كتاب الحدود (٢٨ م / ١٧٠١).

(٣) بالتحريك قرية بالحجاز انظر مراصد الإصطلاح ١٠٢٠/٣.

(٤) انظر حجة القراءات ٢٢٥، وسراج القاري ١٩٩، شرح شعبة ٣٤٩.

الباقون بضمة واحدة، وهما لغتان، السُّحْتُ، والسُّحْتُ وهو الاستئصال، يقال: أسحته، وسحته إذا استأصله، وكانوا يأكلون الرِّشَا وكان عاقبته الاستئصال، فسماه به كما قال: (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً) «أي يأكلون ما عاقبته نار». وقال النبي - صلى الله عليه وسلم - كل لحم نبت بالسحت فالنار أولى به، قالوا يا رسول الله وما السحت؟ قال: الرشوة في الحكم^(١). وقال عليه السلام: لعن الله الراشي والمرتشي^(٢). وروي عن وهب بن منبه^(٣) أنه قيل له: الرشوة حرام في كل شيء؟ فقال: لا إنما يكره من الرشوة، أن ترشوا لتعطي ما ليس لك، أو تدفع حقاً قد لزمك، فأما إذا أردت أن ترشوا لتدفع عن دينك ودمك ومالك فليس بحرام. قال الفقيه أبو الليث: وبهذا القول نأخذ، لا بأس بأن يدفع الرجل عن نفسه وماله بالرشوة^(٤). وهذا كما روي عن عبد الله بن مسعود أنه كان بالحبشة فرشا بدينارين وقال: إنما الإثم على القابض دون الدافع. ثم قال: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ يعني أهل الكتاب إذا خاصموا إليك فأنت بالخيار، إن شئت فاحكم بينهم وإن شئت فأعرض عنهم ولا تحكم بينهم، ثم قال: ﴿وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾. يعني بالعدل، وهو الرجم. ولها وجه آخر: أن الصلح كان بينهم أن تكون جراحات بني قريظة نصف من جراحات بني النضير، وفي القتل كذلك، فأمر الله تعالى بأن يحكم بالعدل بينهم، وهو قوله عز وجل: (وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط) ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ يعني العادلين في الحكم. وروي عن عكرمة أنه قال: (فإن جاءوك فاحكم بينهم، أو أعرض عنهم). نسختها آية أخرى: (وأن احكم بينهم بما أنزل الله) (وقال مجاهد: لم ينسخ من المائدة إلا آيتان قوله: (فاحكم بينهم أو أعرض عنهم) نسختها، (وأن احكم بينهم بما أنزل الله). وقوله: (ولا تحلوا شعائر الله) نسختها، قوله: (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) وقال الزهري^(٥): مضت السنة أن يرد أهل الكتاب في حقوقهم وموارثهم إلى أهل دينهم، إلا أن يأتوا راغبين حكم الله، فيحكم بينهم بكتاب الله تعالى. وهذا القول، يوافق قول أبي حنيفة، أن لا يحكم بينهم ما لم يترأضوا بحكمنا. ثم قال:

وَكَيْفَ يُحْكِمُوكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوْنَ اللَّهَ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَلِيلٍ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير ٣٢٣/١٠ وابن مردويه عن ابن عمر وأخرجه ابن عدي في الكامل

١٩٣٦/٥، والطبراني في الكبير ١٩/١٣٦، وفي الصغير ١/٢٣٥.

(٢) أخرجه بلفظ لعن رسول الله إلخ أحمد في المسند ١٦٤/٢، وأبو داود ٩/٤ - ١٠ في الأقضية (٣٥٨٠)، والترمذي ٦٢٣/٣ في -

الأحكام باب ما جاء في الراشي (١٣٣٧) وقال حسن صحيح، وأخرجه ابن ماجه ٧٧٥/٢ في الأحكام ٢٣/٣.

(٣) انظر تفسير القرطبي ١١٩/٦ - ١٢٠.

(٤) انظر كتاب تحقيق القضية في الفرق بين الرشوة والهدية وهو بتحقيقنا.

(٥) انظر تفسير القرطبي ١٢١/٦.

اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾

﴿وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ﴾ وكيف يقرون بحكمك ﴿وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ يعني آية الرجم، وحكم الجراحات، فلم يقرأوا بها ولا يعملوا بها، ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ يعني يعرضون عن العمل به من بعد ما بين الله في كتابهم. ثم قال: ﴿وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني ليسوا بمصدقين بما عندهم، وهم يقولون: نحن نؤمن بالتوراة وهم كاذبون. ثم قال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَنُورٌ﴾ يعني بيان الشرائع والأحكام، يعني حكم الرجم والجراحات ﴿يُحْكَمُ بِهَا النَّيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ يعني يقضي بها النيون الذين أسلموا يعني صدقوا بالتوراة من لدن موسى إلى عيسى، وبينهما ألف نبي، ويقال: أربعة آلاف نبي، ويقال أكثر من ذلك، كانوا يحكمون بما في التوراة ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ يعني كانوا يحكمون لهم وعليهم. ويقال: يحكم بها الأنبياء من لدن موسى إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - ولهذا قضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالرجم بحكم التوراة. ثم قال تعالى: ﴿وَالرَّبَّائِيُونَ وَالْأَخْبَارُ﴾ قال بعضهم: الربانيون: العلماء والأخبار: القراء. ويقال: الربانيون: الذين في العمل أكثر وفي العلم أقل والأخبار الذين في العلم أكثر، وفي العمل أقل، مثل الفقهاء والعباد. ويقال: كالفقهاء والعلماء.

وقال القتيبي: كلاهما واحد وهما العلماء. ﴿بِمَا اسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ يعني علّموا واستودعوا من كتاب الله التوراة، ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ بما في كتاب الله: الرجم وسائر الأحكام ثم قال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ﴾ يعني يهود أهل المدينة لا تخشوا يهود أهل خيبر وأخبروهم بآية الرجم ﴿وَآخِشُونَ﴾ في كتمانهم ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يعني عرضاً يسيراً ثم قال: ﴿وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ يعني إذا لم يقر، ولم يبين ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال ابن عباس من يجحد شيئاً من حدود الله فقد كفر ومن أقر ولم يحكم بها فهو فاسق^(١) روى وكيع عن سفيان قال: قيل لحذيفة: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) نزلت في بني إسرائيل فقال حذيفة نعم الأخوة لكم وبني إسرائيل كانت لكم كل حلوة ولهم مرة لتسلكن طريقهم قدر الشراك^(٢). يعني هذه الآية عامة فمن جحد حكم الله فهو من الكافرين. ثم بين الحكم الذي في التوراة فقال:

وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفِينَا عَلَىٰ أَثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾

﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا﴾ يعني فرضنا على بني إسرائيل في التوراة ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ إذا كان القتل عمداً ﴿وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾

(١) أخرجه ابن جرير ٣٥٧/١٠، وانظر تفسير ابن كثير ١١١/٣.

(٢) انظر ابن جرير ٣٥٠/١٠.

إِذَا كَانَ عَمْدًا ﴿وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ﴾ إِذَا كَانَ عَمْدًا ﴿وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ﴾ إِذَا كَانَ عَمْدًا ﴿وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ﴾ إِذَا كَانَ عَمْدًا ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ إِذَا كَانَ عَمْدًا. وروى عكرمة عن ابن عباس^(١) أن بني النضير كان لهم شرف على بني قريظة وكانت جراحاتهم على النصف فحملهم على الحق، وجعل دم القرظي والنضيري سواء فقال كعب بن الأشرف ومالك بن الضيف: لا نرضى بحكمك لأنك تريد أن تصغرنا بعداوتك فنزل: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) ثم صارت الآية عامة في جميع الناس في وجوب القصاص في النفس وفي الجراحات. قرأ عاصم وحمة ونافع^(٢): (أن النفس بالنفس والعين بالعين) والحروف الست كلها بالنصب وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر كلها بالنصب غير الجروح فإنهم يقرأونها بالضم على معنى الابتداء وقرأ الكسائي قرأ كلها بالضم إلا النفس. ثم قال: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ﴾ يعني عفى عن مظلمته في الدنيا وترك القصاص ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ قال القتيبي: فهو كفارة للجراح وأجر للمجرور. وقال مجاهد: كفارة للجراح وأجر للعافي. وقال بعضهم: هو كفارة للعافي أي يكفر الله تعالى عنه بعفوه بعض ما سلف من ذنوبه. ويقال: كفارة له أي للجراح يعني إذا ترك الولي حقه سقط القصاص عن الجراح. وروى محرر عن أبي هريرة عن رجل من الأنصار قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أصيب بشيء في جسده فتركه الله تعالى كانت كفارة له^(٣). وقال الحسن^(٤): ينادي مناد يوم القيامة من كان له على الله أجر فليقم فلا يقوم إلا من قد عفى ثم قال: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ يعني يظلمون أنفسهم، والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه فالذي عرض نفسه للعقوبة فقد وضع الشيء في غير موضعه. قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ يعني اتبعنا على أثر الرسل عيسى ابن مريم - عليه السلام - ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني موافقاً لما قبله ﴿مِنَ التَّوْرَةِ﴾. يقال: إن عيسى يصدق التوراة ثم قال: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَنُورٌ﴾ يعني بيان الأحكام ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ يعني الإنجيل موافقاً للتوراة في التوحيد وفي بعض الشرائع ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتقون الشرك والفواحش. ثم قال ﴿وَلْيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ﴾. قرأ حمزة^(٥): (وليحكم) بكسر اللام ونصب الميم وقرأ الباقون: بالجزم فمن قرأ بالكسر فمعناه، وأتينا الإنجيل لكي يحكم أهل الإنجيل ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ ومن قرأ بالجزم فهو على الأمر والمراد به الخبر عن

(١) انظر تفسير الطبري ٣٢٦/١٠، ٣٢٧، وانظر سنن أبي داود ٤/١٦٨ (٤٤٩٤)، والنسائي ١٨/٨، ١٩ في كتاب القسامة.

(٢) وحجة من رفع (الجروح) ذكرها اليزيدي عن أبي عمرو فقال: (رفع على الابتداء) يعني: (والجروح من بعد ذلك قصاص). وحجة أخرى هي: إنما اختاروا الانقطاع عن الكلام الأول والاستئناف بـ (الجروح) لأن خبر الجروح يتبين فيه الإعراب وخبر الاسم الأول مثل خبر الاسم الثاني والثالث والرابع والخامس فأشبه الكلام بعضه بعضاً ثم استأنفوا الجروح فقالوا (والجروح قصاص) لأنه لم يكن خبر (الجروح) يشبه أخبار ما تقدمه فعدل (إلى) الاستئناف وحجة الكسائي في ذلك صحة الخبر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قرأ (والعين بالعين والأنف بالأنف) كلها بالرفع قال الزجاج: (رفعه على وجهين: على العطف على موضع (النفس بالنفس) والعامل فيها المعنى وكتبنا عليهم النفس أي قلنا لهم النفس. ويجوز أن يكون (والعين بالعين) على الاستئناف وعند الفراء أن الرفع أجود الوجهين وذلك لمجيء الاسم الثاني بعد تمام خبر الأول وذلك مثل قولك (إن عبد الله قائم وزيد قاعد) وقد أجمعوا على الرفع في قوله (إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) فكان إلحاق ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى، قرأ نافع (والأذان بالأذن) ساكنة الذال في جميع القرآن كأنه استقل الضمتين في كلمة واحدة فأسكن، وقرأ الباقون بالضم على أصل الكلمة انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٢٦ - ٢٢٧.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٤١٢/٥، وانظر الترغيب والترهيب ٣/٣٠٦، وابن كثير ٣/١١٧.

(٤) بنحوه انظر تفسير ابن كثير ٣/١١٥.

(٥) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٢٧ - ٢٢٨، وسراج القاري ٢٠٠.

أمر قد سبق لهم، يعني أمرهم الله تعالى: أن يحكموا بما في الإنجيل. ثم قال: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ يعني في الإنجيل وكان - حكمهم العفو ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ يعني العاصين. وقوله تعالى:

وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ أَحْكَمْتُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّهُ يَرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنْ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ يعني أنزلنا إليك يا محمد الكتاب بالحق، يعني بيان الحق، ويقال: بالعرض والحجة ولم ينزله بغير شيء، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يعني موافقاً للتوراة والإنجيل والزبور في التوحيد، وفي بعض الشرائع، ثم قال تعالى: ﴿وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ يقول: شاهداً على سائر الكتب، بأن الكتاب الأول من الله تعالى، ويقال: (مهيمناً عليه) يعني قاضياً عليه. ويقال: ومهيمناً عليه في معنى مؤتمن. إلا أن الهاء أبدلت من الهمزة، كما على ما قبله. وقال القتيبي: أميناً عليه. ويقال: ومهيمناً عليه في معنى مؤتمن. إلا أن الهاء أبدلت من الهمزة، كما يقال: هَرَقْتُ الماء، وأَرْقُتُهُ، وإِيَاكَ، وهِيَاكَ. ثم قال: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ يعني فاحكم بين الناس بما أنزل الله تعالى في القرآن، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ يعني لا تعمل بأهوائهم ومرادهم ﴿عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ يعني لا تترك الحكم بما بين الله تعالى في القرآن من بيان الحق، وبيان الأحكام، ثم قال: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ يقول: جعلنا لكل نبي شريعة، والإيمان واحد، ولم يختلف الرسل في الإيمان، وإنما اختلفوا في الشرائع، قال القتيبي: الشريعة والتشريعة واحد، يعني السنة، والمنهاج: الطريق الواضح، وقال الزجاج: الشريعة والدين والمنهاج: الطريق. وقد قيل: هما شيء واحد، وهو الطريق^(١). ويقال: (لكل جعلنا منكم شريعة ومنهاجاً) معناه فرضت على كل أمة ما علمت أن صلاحهم فيه. ثم قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يعني جعلكم على شريعة واحدة، ﴿وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ ليخبركم ﴿فِيمَا آتَاكُمْ﴾ يعني أمركم من السنن والشرائع المختلفة، ليتبين من يطيع الله فيما أمره ونهاه ومن يعصيه. ثم قال: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ يعني بادروا بالطاعات وبالأعمال الصالحة، وإلى الصف المقدم، والتكبير الأولى، ثم قال: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من الدين والسنن يوم القيامة. فهذا وعيد وتهديد لتستبقوا الخيرات ولا تتبعوا البدعة ولا تختلفوا الكتاب. ثم قال: ﴿وَأِنْ أَحْكَمْتُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ وذلك أن يهود بني النضير قالوا فيما بينهم: إذهبوا بنا إلى محمد - عليه السلام - لعلنا نفتته عن دينه وإنما هو بشر، فأتوه فقالوا: يا محمد إنك قد عرفت أنا أحبار اليهود وأشرافهم، وسادتهم، وإنا إن اتبعناك اتبعك اليهود، ولن يخالفونا، وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك،

فتقضي لنا عليهم، فنؤمن بك فأبى النبي - صلى الله عليه وسلم - ذلك فنزلت هذه الآية. (وأن احكم بينهم بما أنزل الله) يعني اقض بينهم بما في القرآن. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ في الحكم ﴿وَاحْذَرَهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ﴾ يعني يصرفوك ﴿عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ وقال في رواية الضحاك تزوج مجوسي ابنته، فجاءت إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وطلبت نفقتها، فأمر الله تعالى رسوله أن يفرق بينهما بقوله: (وأن احكم بينهم بما أنزل الله). وقال في رواية الكلبي: طلبوا منه بأن يحكم بينهم في الدماء على ما كانوا عليه في الجاهلية فنزل: (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك). قال القتيبي: أصل الفتنة، الاختبار، ثم يستعمل في أشياء يستعمل في التعذيب كقوله: (إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات) وكقوله: (يوم هم على النار يفتنون) وتكون الفتنة: الشرك كقوله: (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة)، وتكون الفتنة: العبرة، كقوله: (لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) وتكون الفتنة الصد عن السبيل، كقوله: (واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك). ثم قال: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ يعني أبوا أن يرضوا: بحكمكم ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ يعني يعذبهم في الدنيا، قال الكلبي: يعني بالجلاء إلى الشام، والإخراج من دورهم، وقال الضحاك: يعني يريد الله أن يأمر بهم إلى النار بذنوبهم. ثم قال: ﴿وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ يعني رؤساء اليهود ﴿لَفَاسِقُونَ﴾ يعني لكافرون، والفاسق: هو الذي يخرج عن الطاعة. ثم قال: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ يعني يطلبون منك شيئاً لم ينزله الله إليك في حكم الزنا والقصاص، كما يفعل أهل الجاهلية. قرأ ابن عامر ومن تابعه من أهل الشام^(١): (تبغون) على معنى المخاطبة، وقرأ الباقر: بالياء على معنى المغاية. ثم قال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾ يقول: ومن أعدل من الله قضاء ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يعني يصدقون بالقرآن. قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ في العون والنصرة، وذلك أنه لما كانت وقعة أحد خاف أناس من المسلمين أن يظهروا عليهم الكفار، فأراد من كانت بينه وبين النصارى واليهود صحبة أن يتولاهم ويعاقدوهم، فنهاهم الله تعالى عن ذلك فقال: (لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) يعني معيناً وناصراً ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يعني بعضهم على دين بعض ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ﴾ يعني من اتخذ منهم أولياء ﴿فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ يعني على دينهم ومعهم في النار، ثم قال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني لا يرشدهم إلى الحجة، ويقال: لا يرشدهم ما لم يجتهدوا ويقصدوا الإسلام. ثم بين حال المنافقين فقال: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ يعني (شرك) ونفاق ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ يقول: يبادرون في معاونتهم [ومعاقدتهم]^(٢) ولا يهتم

﴿يَقُولُونَ: نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ يعني ظهور المشركين. ويقال شدة وجذوبة فاحتجنا إليهم. ويقال: نخشى الدائرة على المسلمين فلا تنقطع عنهم. قال الله تعالى: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ يعني نصر محمد - صلى الله عليه وسلم - الذي أيسوا منه، أو أمر من عنده، يعني من قتل بني قريظة وإجلاء بني النضير، ويقال: الفتح: أي فتح مكة أو أمر من عنده: يعني الخصب. وقال القتيبي: الفتح أن يفتح المغلق، ثم قال: النصر: فتح لأن النصره يفتح الله بها أمراً مغلقاً، كقوله: (فإن كان لكم فتح من الله) وكقوله: (فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده) يعني إظهار نفاقهم، ﴿فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ من النفاق ﴿نَادِمِينَ﴾ لأن المنافقين لما رأوا من أمر بني قريظة والنضير، ندموا على ما قالوا. ثم قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني في ذلك الوقت الذي يظهر نفاقهم ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ يقول: إذا حلفوا بالله فهو جهد اليمين ﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ على دينكم. قرأ نافع وابن كثير وابن عامر^(١): (يقول الذين آمنوا) بغير واو ومعناه: إن الله تعالى لما بين حال المنافقين بين على أثره حال المؤمنين فقال تعالى: (يقول الذين آمنوا) يعني قال الذين آمنوا بعضهم لبعض، وقرأ أهل الكوفة حمزة وعاصم، والكسائي: (ويقول الذين آمنوا) بالواو وضم اللام ومعناه: (عسى الله أن يأتي بالفتح ويندم المنافقون ويقول الذين آمنوا عند ذلك): (هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم) وقرأ أبو عمرو: (ويقول) بالواو ونصب اللام عطفاً على قوله: (عسى الله أن يأتي بالفتح) وعسى أن يقول الذين آمنوا ثم قال تعالى: ﴿حَبِطَتْ﴾ يعني بطلت ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ يعني المنافقين الذين كانوا يحلفون أنهم مع المؤمنين، وعلى دينهم ولم يكونوا معهم، حبطت أعمالهم فلا ثواب لهم في الآخرة ﴿فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ يعني صاروا خاسرين في الدنيا، وفي الآخرة. قوله تعالى:

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ

٥٤

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ قرأ نافع وابن عامر: ^(٢) (ومن يرتدد منكم) بالدالين وقرأ الباقون: بالدال الواحدة مع التشديد، فأما من قرأ: يرتدد فهو الأصل في اللغة، وروي عن أبي عبيدة أنه قال رأيت في مصحف عثمان بن عفان - رضي الله عنه - بالدالين، وأما من قرأ: (يرتد) لأنه أدغم الدال الأولى في الثانية فأسكن الأولى ثم حرك الثانية إلى النصب لالتقاء الساكنين، قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في شأن أهل الردة الذين ارتدوا على عهد أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - وذلك أن العرب ارتدوا، وقالوا: نشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله فأما من نعطي من أموالنا بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلا، وخرج مسيلمة الكذاب فغلب على اليمامة وامتنعوا فشاور أبو بكر - رضي الله عنه - أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - في قتالهم فقال أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - وكيف نقاتل قوماً وهم يشهدون أن لا إله إلا الله، وقد قال النبي - صلى الله عليه وسلم - أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله تعالى، فقال أبو بكر الصديق: الزكاة من حقها ثم قال: والله لو منعوني عقلاً مما كانوا يؤدونه

(٢) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٣٠.

(١) انظر شرح شعبة ٣٥١، سراج القاري ٢٠٠.

إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لقاتلتهم عليه^(١). فاتفقت الصحابة على قول أبي بكر وجمعوا العسكر وجاءهم من قبل اليمن سبعة آلاف رجل، واجتمع ثلاثة آلاف من أفناء الناس فخرجوا وأميرهم «خالد بن الوليد» وقتلهم، وخرج مسيلمة الكذاب مع أهل اليمامة واجتمع الأعراب معه وكان بينهم قتال شديد فقتل يومئذ من المسلمين مائة وأربعون رجلاً ومنهم «ثابت بن قيس بن شماس»، «وسالم مولى أبي حذيفة» وغيرهما فكاد المسلمون أن ينهزموا كلهم حتى نصرهم الله وأظهرهم على أعدائه، وقُتل مسيلمة الكذاب وأصحابه، وتاب أهل الردة، فذلك قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ يعني: يحبون الله ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني رحيمة لينة على المؤمنين ﴿أَعَزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ يقول: شديدة غليظة (على الكافرين) يعني أهل اليمن. وروى أبو هريرة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: أتاكم أهل اليمن هم أَلَيُّنُ قلوباً وأرق أفئدة، والإيمان يمان والحكمة يمانية^(٢). وروي عن علي - كرم الله وجهه - أنه قال: (فسوف يأتي الله بقوم) يعني الجند من جنود الله مردا وعوناً للخليفة أبي بكر يحبهم الله كحب الوالد لولده أذلة على المؤمنين كالعبد لسيده (أعزة على الكافرين) كالسبع على فريسته. ويقال: فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه هو أبو بكر وأصحابه. وقال الحسن: ^(٣) هو والله أبو بكر وأصحابه وقال الضحاك: ^(٤) هو أبو بكر وأصحابه لما ارتدت العرب جاهدتهم حتى ردهم إلى الإسلام وهذا من شمائل أبي بكر حيث اتفقت الصحابة على رأيه وذكر أنه لما قبض النبي - صلى الله عليه وسلم - هم المنافقون أن يُظهروا كفرهم وتحير أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - عند ذلك حتى جاء عمر، وصعد المنبر فقال: من قال إن محمداً قد مات فأنأ أفعل به كذا وكذا بل هو حي حتى يخرج إليكم وقد وعدنا الله تعالى أن يظهره على الدين كله. فجاء أبو بكر فقال له: انزل يا عمر فصعد أبو بكر فقال: من كان يعبد محمداً - عليه السلام - فقد مات محمد - عليه السلام - ومن كان يعبد الله تعالى فهو حي لا يموت ومن أراد أن يرجع عن دينه فليس بيننا وبينه إلا السيف فخاف المنافقون فكتموا^(٥) نفاقهم وقرأ: (إنك ميت وإنهم ميتون) وقرأ: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) فقال عمر: كأي لم أكن سمعت هذه الآية. ثم اختلاف آخر كان في دفنه فقال أبو بكر: يدفن حيث مات، فاتفقوا على قوله ثم اختلاف آخر كان في سقيفة بني ساعدة في الخلافة فاتفقوا على قوله ثم اختلاف أهل الردة وكلهم اتفقوا على قوله فذلك قوله تعالى: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني في طاعة الله ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ يعني لا يخافون ملامة الناس بما يعملون من الطاعات ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ﴾ يعني ذلك توفيق الله ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني يوفق من يشاء، ويقال ذلك دين الله الإسلام يهدي به من يشاء ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ يعني واسع الفضل عليم بمن يصلح للهدى. قوله تعالى:

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ وذلك أن عبد الله بن سلام وأصحابه قالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم - إن اليهود أظهروا لنا العداوة وحلفوا أن لا يخالطونا في شيء ومنازلنا فيهم بعيدة من المسجد

(١) أخرجه البخاري ٧٥/١ في الإيمان (٢٥)، ومسلم ٥٣/١ في الإيمان (٢٢/٣٦).

(٢) أخرجه البخاري ٩٨/٨ في المغازي (٤٣٨٨)، ومسلم ٧٢/١ في الإيمان (٨٤-٨٧/٥٢).

(٣) انظر تفسير الطبري ٤١١/١٠. (٤) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ٤١٢/١٠. (٥) فخاف المنافقون فكتموا.

ولا نجد محدثاً دون هذا المسجد فنزلت هذه الآية (إنما وليكم الله ورسوله) يقول: حافظكم وناصركم الله ورسوله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ فقال: يا رسول الله رضينا بالله ورسوله وبالمؤمنين. وقال الضحاك: إن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما هاجر إلى المدينة أتاه بنو أسد بن خزيمة وهم سبعمائة رجالهم ونساؤهم فلما قدموا المدينة، فقالوا: يا رسول الله اغتربنا وانقطعنا عن قبائلنا وعشيرتنا، فمن ينصرنا فنزل: (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا)^(١). ثم قال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قال ابن عباس: وذلك أن بلالاً لما أذن وخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والناس في المسجد يصلون بين قائم وراكم وساجد فإذا هو بمسكين يسأل الناس فدعاه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال: هل أعطاك أحد شيئاً؟ قال: نعم قال: ماذا؟ قال: خاتم فضة، قال: ومن أعطاك؟ قال: ذلك المصلى، قال في أي حال أعطاك؟ قال: أعطاني وهو راكع فنظر فإذا هو علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فقرأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - علي «عبد الله بن سلام» (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة) ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ يعني يتصدقون في حال ركوعهم حيث أشار بخاتمه إلى المسكين حتى نزع من أصبعه وهو في ركوعه. ويقال يراد به جميع المسلمين أنهم يصلون ويؤدون الزكاة ثم قال: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني يجعل الله ناصره ويجالس النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ﴾ يعني جند الله ﴿هُمْ الْغَالِبُونَ﴾ قال محمد بن إسحق نزلت هذه الآية في «عبادة بن الصامت» حين تبرأ من ولاية اليهود يعني يهود بني قينقاع وتولى الله ورسوله فأخبر الله تعالى: أن العاقبة لمن يتولى الله ورسوله فإن الله ينصر أوليائه ويبطل كيد الكافرين فذلك قوله تعالى: (فإن حزب الله هم الغالبون) يعني هم الظاهرون على أعدائه والعاقبة لهم. وقوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ
أُولِيَآءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُم مَّوْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا
يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا﴾ يعني الذين آمنوا بلسانهم ولم يؤمنوا بقلوبهم. ويقال: أراد به المخلصين نهاهم الله تعالى عن ولاية الكفار. وروى محمد بن إسحق بإسناده عن عبد الله بن عباس قال: كان «رفاعة بن زيد بن تابوت وسويد بن الحارث» قد أظهر الإسلام وناقفا وكان رجال من المسلمين يوادونهما فأنزل الله تعالى: (لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم) الإسلام (هزوا ولعباً)^(٢) يعني سخرية وباطلاً ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أُولِيَآءَ﴾ يعني مشركي العرب. قرأ أبو عمرو والكسائي: ^(٣) (والكفار) بالخفض وقرأ الباقون: بالنصب، فمن قرأ بالخفض فمعناه من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم، ومن الكفار أولياء، ومن قرأ بالنصب فهو معطوف على قوله: (لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم ولا تتخذوا الكفار أولياء). ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُم مَّوْمِنِينَ﴾ يعني إن كنتم مؤمنين فلا تتخذوا الكفار أولياء. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ يعني إذا أذن المؤذن للصلاة وإنما أضاف النداء إلى جميع المسلمين لأن المؤذن يؤذن لهم ويناديهم

(٢) أسباب النزول للواحدى ١٤٩.

(١) انظر أسباب النزول للواحدى ١٤٨.

(٣) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٣٠، سراج القارىء ٢٠١.

فأضاف إليهم، فقال: وإذا ناديتهم إلى الصلاة ﴿اتَّخَذُوهَا هُزْواً وَلَعِباً﴾ يعني الكفار إذا سمعوا الأذان استهزؤوا به وإذا رأوهم ركعاً وسجداً ضحكوا واستهزؤوا بذلك ﴿ذَلِكَ﴾ الاستهزاء ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يعني لا يعلمون ثوابه. وقال الضحاك: سأل النبي - صلى الله عليه وسلم - جبريل وقال: من اتَّخَذَهُ مُؤَذِّناً؟ قال: يا محمد عليك بالعبد الأسود فإنه مشهود في الملائكة وجهير الصوت، وأحب المؤذنين إلى الله تعالى، فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بلالاً وعلمه الأذان وأمره أن يصعد سطح المسجد ويؤذن فلما أذن سخر منه أهل النفاق وأهل الشرك وكذلك يوم فتح مكة أمره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يؤذن على ظهر الكعبة فسخر منه كفار الأعراب وجهالهم فنزل قوله تعالى: (وإذا ناديتهم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً) يعني المنافقين واليهود ومشركي العرب. وروى أسباط عن السدي قال: كان رجل من النصارى بالمدينة إذا سمع المؤذن يقول: أشهد أن محمداً رسول الله قال: حرق الله الكاذب فدخلت خادمته ليلة من الليالي بنار وهم نيام فسقطت شرارة في البيت فاحترق البيت واحترق هو وأهله، واستجيب دعاه في نفسه. وروى عن ابن عباس هذه الحكاية نحو هذا، إلا أنه ذكر اليهودي. وقوله تعالى:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقْتُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ أَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٥٩)
 ﴿قُلْ هَلْ أَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (٦٠) وَإِذَا جَاءُوكُم قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦١)

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقْتُمُونَ مِنَّا﴾ يقول: ما تطعونون فينا وتعيوننا ﴿إِلَّا أَنْ أَمَنَّا بِاللَّهِ﴾ أي سوى أنا قد آمنا بالله وأمنا بـ ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ يعني من القرآن ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ﴾ القرآن يعني التوراة والإنجيل ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ يعني لم تؤمنوا لفسقكم وعصيانكم. وقال الزجاج: معنى (هل تنقمون منا) هل تكرهون منا إلا إيماننا وبفسقكم: إنما كرهتم إيماننا وأنتم تعلمون أنا على الحق لأنكم فسقتم ولم تثبتوا على دينكم لمحبتكم الرئاسة ومحبتكم المال. وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ﴾ قال مقاتل: وذلك أن اليهود قالوا للمؤمنين: ما نعلم أحداً من أهل هذه الأديان أقل حظاً في الدنيا ولا في الآخرة منكم فنزل: (قل هل أنبئكم) يعني أخبركم بشر من ذلك. ﴿مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ يعني ثواباً عند الله فقالت اليهود: من هم؟ قال: ﴿مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ فقال المسلمون لليهود: يا إخوة القردة والخنازير فكسوا رؤوسهم وخجلوا. ومثوبة: صار نصباً للتمييز يعني التفسير. ثم قال: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ قرأ حمزة: (وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ) بنصب العين والذال وضم الباء وكسر التاء من الطَّاغُوت، لم يصح في اللغة أن يقال: لجماعة الأعبد وإنما يقال: أعبد ولا يقال عبد، وقرأ الباقون (وعبد الطَّاغُوتَ) يعني جعل منهم من عبد الطَّاغُوت ومعناه خذلهم حتى عبدوا الشيطان. وروى عن ابن عباس أنه قرأ: (وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ) (١) بضم العين ونصب الباء بالتشديد يعني جمع عابد، يقال: عابد وعَبْدٌ مثل راعٍ ورُكْعٌ وساجد

(١) قرأ حمزة (وعبد) بضم الباء (الطاغوت) جر يقال (عبد وعبد).

قال الشاعر:

أُبْنِي لُبَيْنِي إِنْ أُمِّكُمْ أُمَّةٌ وَإِنْ أَبَاكُمْ عُبْدٌ

قال الفراء: الباء تضمها العرب للمبالغة في المدح والذم نحو: (رجل حُرٌّ ويقظ) أي مبالغ في الحذر فتأويل (عَبْدٌ) أنه بلغ الغاية =

وُسُجَّد، وقرأ ابن مسعود: (وعبدوا الطاغوت) يعني يعبدون الطاغوت وقرأ بعضهم: (وعُبدَ الطاغوت) بضم العين والباء ونصب الدال وهو جماعة العبيد. ويقال: عبيد وعُبد على ميزان: رغيِف ورُغِف وسرير وسُرُر. ثم قال: ﴿أَوَّلِكَ شَرُّ مَكَانًا﴾ يعني شر منزلة عند الله ﴿وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ يعني أخطأ عن قصد الطريق وهو الهدى. ثم قال: ﴿وَإِذَا جَاؤُكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ وهم المنافقون من أهل الكتاب قالوا صدقنا ووجدنا نعتك وأرادوا بذلك أن يمدحهم المسلمون وهذا كقوله: (ويحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا) فأخبر الله تعالى عن حالهم فقال: ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ يعني هم كافرون في الأحوال كلها ولا ينفعهم ذلك القول: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ يعني عليم بمجازاتهم وهذا تهديد لهم. ثم قال:

وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلِيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾

﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ﴾ يعني المعصية ﴿وَالْعُدْوَانَ﴾ يعني الظلم وهو الشرك ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ يعني الرشوة في الأحكام ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ يعني لبس ما كانوا يتزودون من دنياهم لآخرتهم. ثم قال: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ﴾ يعني هلا ينهاهم الربانيون يعني علماءهم وعبادهم وإنما شكوا من علماء السوء الذين لا يأمر بالمعروف ويأكلونهم وكل عالم لم يأمر بالمعروف ويجالس أهل الظلم والمعصية فإنه يدخل في هذه الآية فقال: ﴿وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ حين لم ينهوهم عن قولهم الإثم وأكلهم السحت ورضوا بفعلهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وذلك أن الله تعالى قد بسط عليهم الرزق فلما عصوه وجحدوا نعمته قتر عليهم الرزق فقالوا عند ذلك: يد الله محبوسة عن البسط فأمسك عنا الرزق، قال الله تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني أمسكت أيديهم عن الخير ويقال: هذا وعيد لهم غلت أيديهم في نار جهنم. ويقال: جُعِلُوا بخلاء فلا يعطون الناس شيئاً مما أعطاهم الله تعالى ثم قال: ﴿وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ يعني عَذَّبُوا وطُردوا من

= في طاعة الشيطان. وكذا قرأ مجاهد ثم فسر وقال: (وَحَدَّمَ الطاغوت) قال الزجاج: (وكان اللفظ لفظ واحد يدل على الجميع كما تقول للقوم: (منكم عبد العصا) تريد: إن فيكم عبيد العصا). والنصب في (عبد) من وجهين: أحدهما على: (وجعل منهم عبد الطاغوت) والثاني على الذم على: (أعني عبد الطاغوت).

وقرأ الباقون: (وعبد الطاغوت) ولهم في ذلك حجتان:

إحداهما: النسق على قوله (من لعنه الله) (وعبد الطاغوت) - والطاغوت هو الشيطان أي أطاعه فيما سأل له وأغواه به. والثانية: أن ابن مسعود وأبياً قرأ: (وعبدوا الطاغوت) حملاً الفعل على معنى (من) لأن (من) واحد في اللفظ وجمع في المعنى. فقراءة العامة على اللفظ وقراءتهما على المعنى كما قال: (ومنهم من يستمعون إليك) على المعنى ثم قال: (ومنهم من ينظر إليك) على اللفظ انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٣١ - ٢٣٢.

رحمة الله لقلوبهم ذلك، ثم قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ يعني رزقه واسع باسط على خلقه ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ يقول: يرزق لمن يشاء مقدار ما يشاء فله خزائن السموات والأرض وهذا كما روي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: قال الله تعالى: لو أن أولكم وآخركم وبنكم وإنسكم سأل كل رجل ما بلغت أمنيته فأعطيته لم ينقص ذلك من خزائن ملكي مقدار ما يغترف من البحر برأس إبرة واحدة. ثم قال تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ يعني من اليهود ﴿مَا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ من القرآن ﴿مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا﴾ يعني تمادياً بالمعصية ﴿وَكُفْرًا﴾ وجحوداً بالقرآن، يعني كل ما نزل عليك شيء من القرآن كفروا به، فيزيد جحودهم في طغيانهم، وإنما نسب ذلك إلى ما أنزله، لأن ذلك سبب لطغيانهم وجحودهم وهذا كما قال في آية أخرى: (ولا يزيد الظالمين إلا خساراً) يعني أن ذلك سبب لخسرانهم. ثم قال تعالى: ﴿وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يعني جعلهم الله مختلفين في دينهم متباغضين كما قال في آية أخرى: (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى) ثم قال: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ يقول: كلما أجمعوا أمرهم على المكر بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه فرقه الله تعالى وأطفأ نار مكرهم أي يسكته الله تعالى ووهن أمرهم وهذا على وجه الكناية كما قال: (ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم) ثم قال: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ يعني يعملون فيها بالمعاصي ويدعون الناس إلى عبادة غير الله تعالى ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ يعني لا يرضى بعمل الذين يعملون بالمعاصي والله لا يحب أهل الفساد ولا عملهم وقوله تعالى:

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دَخَلْنَا لَهُمُ جَنَّتِ النَّعِيمِ
 ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِّن رَّبِّهِمْ لَا كُلُّوا مِّن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ
 أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿آمَنُوا﴾ يعني صدقوا بتوحيد الله تعالى وبمحمد - صلى الله عليه وسلم - والقرآن ﴿وَاتَّقَوْا﴾ الشرك والمعاصي ﴿لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ يعني غفرنا ذنوبهم ﴿وَلَا دَخَلْنَا لَهُمُ جَنَّتِ النَّعِيمِ﴾ في الآخرة. ثم قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ يعني أقرؤا بما فيها وبينوا ما كتبوا ﴿وَمَا أَنزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ يعني بما أنزل إليهم من ربهم، يعني عملوا بما أنزل إليهم من ربهم في كتابهم ويقال: القرآن ﴿لَا كُلُّوا مِّن فَوْقِهِمْ﴾ يعني يرزقهم الله تعالى المطر من فوقهم في الوقت الذي ينفعهم ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ يعني النبات من الأرض. وقال الزجاج: هذا على وجه التوسعة يقال: فلان خيره من فوقه إلى قدمه، يعني: لو أنهم فعلوا ما أمروا لأعطاهم الله الخير من فوقهم ومن تحت أرجلهم يعني صاروا في الخير في الدنيا والآخرة وروى أبو موسى الأشعري عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: أيما رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد - صلى الله عليه وسلم - فله أجران، ثم قال: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ يعني عصابة وجماعة عادلة وهم مؤمنو أهل الكتاب من أهل التوراة والإنجيل ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ الذين لم يصدقوا ولم يؤمنوا. قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أَنزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا

التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلِيُزِيدَكُمْ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ وذلك أن اليهود قالوا للنبي - عليه سلام - حين دعاهم إلى الإسلام فجعلوا يستهزئون به ويقولون إنك تريد أن نتخذك حَنَانًا كما اتخذت النصارى عيسى - عليه السلام - فلما رأى ذلك سكت عنهم فأمره الله أن يدعوهم ولا يمنعه عن ذلك تكذيبهم إياه. فقال: (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) من القرآن يعني ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ﴾ إن لم تبلغ جميع ما أنزل إليك ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ يعني كأنك لم تبلغ شيئاً من رسالته لأنه أمر بتبليغ جميع الرسالة فإذا ترك البعض صار بمنزلة التارك للكل، كما أن من جحد آية من كتاب الله تعالى صار جاحداً للجميع ويقال: وإن لم تفعل فما بلغت رسالته يعني فما بلغت المبلغ الذي تكون رسولاً وروى «سمره بن جندب» عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: أيها الناس إنما أنا بشر مثلكم فإن كنتم تعلمون أنني قد قصرتُ عن شيء من تبليغ رسالات ربي فأخبروني حتى أبلغ رسالات ربي كما ينبغي لها أن تبلغ فقام الناس فقالوا: نشهد أنك قد بلغت رسالات ربك ونصحت لأمتك، وقضيت الذي عليك^(١). وروى مسروق عن عائشة قالت: من حَدَّثَكَ أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - كتم شيئاً من الوحي فقد كذب، ثم قرأت (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك... الآية)^(٢). ثم قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ يعني اليهود ويقال: كيد الكفار. وروى أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس قال: كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يحرسه أصحابه بالليل حتى نزلت هذه الآية فخرج إليهم وقال: لا تحرسوني فإن الله قد عصمني من الناس^(٣). ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ يعني لا يرشدهم إلى دينه ويقال لما نزلت هذه الآية قال النبي - صلى الله عليه وسلم - لا أبالي من خذلني من اليهود ومن نصرني. قرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر وابن عامر^(٤) (فما بلغت رسالاته) بلفظ الجماعة وقرأ الباقون: (رسالته) بلفظ الواحد يعني عن الجماعة. ثم علّمه كيف يبلغ الرسالة فقال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُ عَلَى شَيْءٍ﴾ من الدين ولا ثواب لأعمالكم ﴿حَتَّى تَقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ يعني تعملوا بما في التوراة والإنجيل ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني حتى تقرؤا بما أنزل على نبيكم - صلى الله عليه وسلم - من القرآن وتعملوا به. ثم قال: ﴿وَلِيُزِيدَكُمْ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ من القرآن ﴿مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ يعني تمادياً بالمعصية وكُفْرًا بالقرآن يعني إنما عليك تبليغ الرسالة والموعظة، فإن لم ينفعهم ذلك فليس عليك شيء ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ يعني لا تحزن عليهم إن كذبوك^(٥). وروى محمد بن إسحق بإسناده عن ابن عباس أنه قال: جاء رافع بن حارثة، وسلام بن مشكم، ومالك بن الضيف وقالوا: يا محمد: ألسنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه؟ وتؤمن بما عندنا من التوراة؟ وتشهد أنها من الله حق؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: بلى ولكنكم أحدثتم وحدثتم ما فيها مما أخذ عليكم من الميثاق وكنتم منها ما أمرتم أن تبينوه للناس، فبرئت من

(١) أخرجه ابن خزيمة في الصحيح ٣٢٥/٢ في باب استحباب استحداث التوبة عند كسوف الشمس وفي إسناده ثعلبة بن عباد العبدي مجهول كما قال ابن المديني وغيره، وأخرجه أحمد في المسند كما في الفتح الرباني ١٨٩/٦ - ١٩٢، والنسائي مختصر ١١٤/٣.

(٢) أخرجه البخاري ١٢٤/٨ في كتاب التفسير (٤٦١٢)، وأخرجه مسلم ١٥٩/١ في كتاب الإيمان (١٧٧/٢٨٧).

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢٩٩/٢ وعزاه لعبد بن حميد وابن مردويه.

(٤) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٣٢، سراج القاري ٢٠١.

(٥) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ٤٧٣/١٠.

أحدثكم فقالوا: فإننا قد آمننا بما في أيدينا وإنا على الهدى والحق ولا نؤمن بك فتزل (يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل). قوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ رُسُلًا كَمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوا أَنَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. قال في رواية الكلبي: هم قوم آمنوا بعميس ولم يؤمنوا بغيره ولم يرجعوا، ويقال إن الذين آمنوا بالستهم وهم المنافقون ويقال: في الآية تقديم، يعني (إن الذين آمنوا) من آمن من اليهود والنصارى والصابئين ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ فلهم أجرهم عند ربهم. وقال: في هذه السورة (والصابئون) وقال في موضع آخر: (والصابئين) لأنه معطوف على خبر إن وكل اسم معطوف على خبر إن كان فيه طريقتان إن شاء رفع، وإن شاء نصب كقوله: (إن زيدا قادم وعمرو): إن شاء نصب الثاني وإن شاء رفعه كقوله تعالى: (إن الله بريء من المشركين ورسوله). وقد قرأ: ورسوله ولكنه شاذ وكذلك هاهنا جاز أن يقول: (والصابئين) (والصابئون) إلا أن في هذه السورة كتب بالرفع. ثم قال: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ يعني لمن آمن والذين سبق ذكرهم، فلهم ثوابهم عند ربهم الجنة فلا خوف عليهم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ يعني عهدهم في التوراة ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ رُسُلًا﴾ كَمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ يعني بما لا يوافق هواهم ﴿فَرِيقًا كَذَبُوا﴾ مثال عيسى ومن قبله ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ مثل يحيى وزكريا وغيرهما من الأنبياء عليهم السلام. فإله تعالى أمر النبي بتبليغ الرسالة وأمره بأن لا يحزن عليهم إن لم يؤمنوا لأنهم من أهل السوء الذين فعلوا هذه الأفعال، ثم قال: ﴿وَحَسِبُوا أَنَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ يعني ظنوا أن لا يتلوا بتكذيبهم الرسل، وقتلهم الأنبياء. ويقال: ظنوا أن لا يعاقبوا ولا يصيبهم البلاء والشدة والقحط ويقال: ظنوا أن قتل الأنبياء لا يكون كفراً. ويقال: ظنوا أن لا تفسد قلوبهم بالتكذيب وقتل الأنبياء. قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو: (أن لا تكون فتنة) بضم النون، وقرأ الباقون بالنصب^(١)، فمن قرأ بالنصب

(١) ونصبه بـ (أن) و (لا) لا تفصل بين العامل والمعمول فيه كقولك: (أحب أن تذهب) و (أحب ألا تذهب) وحجتهم قوله: - ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ - ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَتَّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ كل هذا نصب بـ (أن لا) ولما أجمعنا على إحداها واختلفوا في الأخرى رد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه. واعلم أن (أن) تدخل في الكلام على أربعة أضرب.

(أن) الناصبة للفعل وهي التي ذكرناها تقول (أريد أن تخرج).

والثاني (أن) الخفيفة عن (أن) الثقيلة كقول الأعشى:

في فتية كسيوف الهند قد علموا أن هالك كل من يحفي وينتعل

أراد: أنه هالك.

والموضوع الثالث: أن تكون بمعنى (أي) كقوله: (أن امشوا) معناه. أي امشوا.

والرابع: أن يكون للتوكيد كقوله: (ولما أن جاءت). انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٣٣ - ٢٣٤.

بمعنى أن ومن قرأ بالضم يعني حسبوا أنه لا تكون فتنة معناه: حسبوا أن فعلهم غير فائن لهم. ثم قال تعالى: ﴿فَعَمُوا وَصَمُوا﴾ يعني عموا عن الحق وصموا عن الهدى فلم يسمعه ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يقول: تجاوز عنهم، ورفع عنهم البلاء فلم يتوبوا ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ ويقال: معناه تاب الله على كثير منهم وعموا وصموا كثير منهم. ويقال: من تاب الله عليهم، يعني بعث محمداً - صلى الله عليه وسلم - ليدعوهم إلى التوراة ثم عموا وصموا بتكذيب محمد - صلى الله عليه وسلم - (ويقال عموا وصموا حين عبدوا العجل، ثم تاب الله عليهم بعدما قتلوا سبعين ألفاً)، وهذا على جهة المثل، يعني لم يعملوا بما سمعوا ولم يعتبروا بما أبصروا فصاروا كالعمي والصمي. ثم قال: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ بقتلهم الأنبياء وتكذيبهم الرسل، يعني عليم بمجازاتهم. قوله تعالى:

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي لِي أَسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ وذلك أن نصارى أهل نجران يزعمون أنهم مؤمنون بعيسى فأخبر الله تعالى أنهم كافرون بعيسى، وأنهم كاذبون في مقاتلتهم وأخبر أن المسيح دعاهم إلى توحيد الله، وأنهم كاذبون على المسيح وهو قوله ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ يعني وحدوا الله وأطيعوه ﴿رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ يعني خالقي وخالقكم ورازقي ورازقكم. ثم قال: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ يعني ويموت على شريكه ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ أن يدخلها ﴿وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ يعني مصيره إلى النار ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ يعني ليس للمشركين من مانع يمنعهم من العذاب. ثم أخبر أن الفريق الآخر من النصارى هم كفار أيضاً فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ فيه مضمهر معناه: ثالث ثلاثة آلهة. ويقال: ثلث من ثلاثة آلهة يعني أباً وأماً وروحاً قدساً. يعني الله ومريم وعيسى. قال الله تعالى رداً عليهم: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ يعني هم كاذبون في مقاتلتهم، ثم أوعدهم الوعيد إن لم يتوبوا فقال: ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ يعني إن لم يتوبوا ولم يرجعوا عن مقاتلتهم ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ فهذا لام القسم فكانه أقسم بأنه ليصيبهم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني إن أقاموا على كفرهم. ثم دعاهم إلى التوبة فقال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ﴾ من النصرانية ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ عن مقاتلتهم الشرك فإن فعلوا فإن ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿رَحِيمٌ﴾ بقبول التوبة. ويقال: قوله: (أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه) لفظه لفظ الاستفهام والمراد به الأمر فكانه قال: توبوا إلى الله وكذلك كل ما يشبه هذا في القرآن، مثل قوله: (أتصبرون) يعني اصبروا. ثم بين الله تعالى أن المسيح عبده ورسوله، وبين الحجة في ذلك فقال:

مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَا كِلَانِ الطَّعَامِ أَنْظَرِكَيْفَ بُنِيَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرَانِ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ يعني هو رسول كسائر الرسل ﴿قد خلت من قبله الرسل﴾، وهو من جماعة الرسل ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ شبه النبيين، وذلك حين صدقت جبريل حين قال لها: (إنما أنا رسول ربك). والصديق في اللغة هو المبالغ في التصديق. وقال في آية أخرى: (وصدقت بكلمات ربها). ثم قال: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ يعني المسيح وأمه كانا يأكلان ويشربان ومن أكل وشرب تكون حياته بالحيلة والرب: لا يأكل ولا يشرب. ويقال: (كانا يأكلان الطعام)، كناية عن قضاء الحاجة لأن الذي يأكل الطعام فله قضاء الحاجة، ومن كان هكذا لا يصلح أن يكون رباً ثم قال: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ بُيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ يعني العلامات في عيسى ومريم، إنهما لو كانا إلهين ما أكلا الطعام ﴿ثُمَّ أَنْظِرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾. يقول: من أين يكذبون بإنكارهم بآني واحد. وقال القتيبي: (أنى يؤفكون) يعني أنى يصرفون عن الحق ويعدلون عنه يقال: أفك الرجل عن كذا إذا عدل عنه. ثم أخبر الله تعالى عن جهلهم وقلة عقلهم فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني عيسى ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ﴾ يقول ما لا يقدر لكم ﴿ضَرًّا﴾ في الدنيا ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ في الآخرة، وتركتم عبادة الله ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لقولكم ﴿الْعَلِيمُ﴾. بعقوبتكم. وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَأْ أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ يقول: لا تجاوزوا الحد، والغلو: هو الإفراط والاعتداء ويقال: لا تتعمقوا، ثم قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ﴾ وهم الرؤساء من أهل الكتاب يعني لا تتبعوا شهواتهم، لأنهم آثروا الشهوات على البيان والبرهان ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ وهم رؤساء النصارى ضلوا عن الهدى ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ من الناس ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾. يعني أخطأوا عن قصد الطريق. وقال مقاتل: نزلت في برصيصا العابد فجاءه الشيطان فقال له: قد فضلك الله على أهل زمانك، لكي تحل لهم الحرام، وتحرم عليهم الحلال وتسبب لهم سنة ففعل فاتبعه الناس بذلك ثم ندم على فعله فعمد إلى سلسلة فجعلها في ترقوته فعلق نفسه، فجاءه ملك فقال له: أنت تتوب، فكيف لك من تابعتك؟ فذلك قوله: (قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل) وقوله تعالى:

لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا هُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ يعني اليهود ﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ﴾ وذلك أن الله تعالى مسخهم قرده، حيث اصطادوا السمك يوم السبت، ﴿وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ يعني وعلى لسان عيسى ابن مريم حيث دعا عليهم

فمسخهم الله تعالى خنازير، ويقال: لعن الذين كفروا، أي أبعدوا من رحمة الله على لسان داود وعيسى ابن مريم. وقال الزجاج: يحتمل معنيين: أحدهما أنهم مسخوا بلعنتهما فجعلوا قرود وخنازير، وجائز أن يكون داود وعيسى لعنا من كفر بمحمد - صلى الله عليه وسلم - يعني، لعن الكفار الذين على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم قال: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾. يعني الذين أصابهم من اللعنة بما عصوا يعني بعصيانهم، وكانوا يعتدون في دينهم. ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ يعني لم يمتنعوا عن قبيح من الأفعال، ورضوا به، ﴿لَيْشَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾. حين لم ينهوا عن المنكر. ثم قال ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ قال مقاتل^(١): يعني اليهود ﴿يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من مشركي العرب. وقال الكلبي: (ترى كثيراً) من المنافقين^(٢)، (يتولون الذين كفروا) يعني اليهود. ﴿لَيْشَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾. معناه لبس الفعل الذي كانوا يستوجبون به السخط من الله تعالى ويوجب لهم العقوبة (والعذاب) ﴿وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ يعني دائمون. ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ﴾ (يعني المنافقين لو كانوا يصدقون بتوحيد الله ونبوة محمد حقيقة) وما أنزل إليه من القرآن ﴿مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ (يعني لو كان إيمان المنافقين حقيقة ما اتخذوا اليهود أولياء) في العون والنصرة ﴿وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ يعني ناقضين للعهد. ثم قال:

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَسْمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ﴾ وهم يهود بني قريظة وبني النضير، ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ يعني مشركي أهل مكة، ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّا نَصَارَى﴾ قال بعضهم: إنما أراد الذين هم النصارى في ذلك الوقت لأنهم كانوا أقل مظاهرة على المؤمنين، وأسرع إجابة للإسلام. وقال أكثر المفسرين إن المراد به النصارى الذين أسلموا، وفي سياق الآية دليل عليه، وهو قوله: (فأثابهم الله بما قالوا) وروى أسباط عن السدي^(٣) قال: بعث النجاشي إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اثني عشر رجلاً من الحبشة، وسبعة قسيسين، وخمسة رهبان، ينظرون إليه ويسألونه، فلما لقوه، قرأ عليهم ما أنزل الله عليه، بكوا وآمنوا به ورجعوا إلى النجاشي فهاجر النجاشي معهم

(١) انظر تفسيره ٣٣٤/١.

(٢) ونسبه القرطبي لمجاهد: ١٦٤/٦ وانظر تفسير ابن كثير ١٥٦/٣.

(٣) ذكره ابن كثير في التفسير ١٥٧/٣ وقال هذا من أفراد السدي فإن النجاشي مات وهو ملك الحبشة وصلى عليه النبي - صلى الله عليه وسلم - يوم مات وأخبر به أصحابه وأخبر أنه مات بارض الحبشة.

فمات في الطريق، فصلى عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمسلمون، واستغفروا له. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه سئل عن هذه الآية فقال: هم الوفد الذين قدموا مع جعفر الطيار من أرض الحبشة^(١). وعن الزهري، أنه سئل عن هذه الآية فقال: ما زلنا نسمع أنها نزلت في النجاشي وأصحابه^(٢) ثم قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهَبَانًا﴾ يعني المتعبدين وأصحاب الصوامع، [ويقال: قسيسين علماؤهم، ورهباناً يعني خائفين من الله تعالى]^(٣)، وقال بعض أهل اللغة: القس، والقسيس: رؤساء النصارى، والقس، بفتح القاف النميمة ثم قال ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يعني لا يتعظمون على الإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم - والقرآن. ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ يعني تسيل من الدمع، ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ يقول: مما عرفوا محمداً - صلى الله عليه وسلم - نعتة وصفته ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾ بالقرآن بأنه من الله ﴿فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ يعني المهاجرين والأنصار. وروى عكرمة عن ابن عباس قال^(٤): (مع الشاهدين) هم أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - يشهدون له بالبلاغ، ويشهدون للرسول أنهم قد بلغوا الرسالة. ثم قال: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ وذلك أنهم لما رجعوا إلى قومهم قال لهم كفار قومهم: تركتم ملة عيسى، ويقال: إن كفار مكة عاتبوهم على إيمانهم، وقالوا: لم تركتم دينكم القديم وأخذتم الدين الحديث؟ فقالوا: (وما لنا لا نؤمن بالله) ومعناه: وما لنا لا نصدق بالله، أن محمداً رسوله، والقرآن من عنده ﴿وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾ يعني وبما جاءنا من الحق، ﴿وَنَطْمَعُ﴾ يقول: نرجو ﴿أَنْ يَدْخُلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ يعني مع المؤمنين الموحدين في الجنة. فمدحهم الله تعالى، وحكى عن مقالته، وأخبر عن ثوابهم في الآخرة فقال: ﴿فَأَنَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا﴾ من التوحيد ﴿جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني ثواب الموحدين المطيعين، وقد احتج بعض الناس بهذه الآية أن الإيمان هو مجرد القول، لأنه قال: فأنابهم الله بما قالوا، ولكن لا حجة لهم فيها لأن قولهم كان مع التصديق، والقول بغير التصديق لا يكون إيماناً. ثم بين عقوبة من ثبت على كفره ولم يؤمن فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني مات على ذلك، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ والجحيم هو النار الشديدة الوقود، يقال جحم فلان النار إذا شدد وقودها. ويقال لعين الأسد جحمة، لشدة توقدها. قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾
وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّرتَهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّرةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ نزلت في جماعة من

(١) انظر تفسير مجاهد ٢٠٢/١، وانظر تفسير ابن كثير ١٥٧/٣.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٠٧/٢ وعزاه لابن جرير الطبري.

(٣) في (أ) (والبرهان عبادهم ويقال: القسيسين الصديقين والرهبان الخائفين من الله تعالى).

(٤) انظر تفسير ابن عباس ٧٩، والطبري ٥١٠/١٠.

أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنهم سمعوا من النبي - عليه السلام - وصف القيامة يوماً، وخوف النار والحساب فاجتمعوا في بيت عثمان بن مظعون، فتواثقوا بأن يخلصوا أنفسهم ويترهبوا، فنهاهم الله عن ذلك، فنزلت هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾. قال: حدثنا الفقيه أبو جعفر، قال: حدثنا أبو القاسم أحمد بن محمد قال: حدثنا محمد بن فضيل، قال: حدثنا محمد بن إسماعيل بن أبي فديك^(١) عن مدرك بن قزعة عن سعيد بن المسيب قال: جاء عثمان بن مظعون إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال: يا رسول الله، غلبني حديث النفس، ولا أحب أن أحدث شيئاً حتى أذكر لك، قال - صلى الله عليه وسلم - وما تحدثك نفسك يا عثمان؟ قال: تحدثني أن أخصي نفسي، قال مهلاً يا عثمان، فإن إحصاء أمتي الصيام، قال: يا رسول الله، إن نفسي تحدثني أن أترهب في رؤوس الجبال، فقال: مهلاً يا عثمان، فإن ترهيب أمتي الجلوس في المساجد لا تنتظار الصلوات، قال: يا رسول الله فإن نفسي تحدثني أن أسبح في الأرض؟ قال: مهلاً يا عثمان: فإن سياحة أمتي الغزو في سبيل الله، والحج والعمرة، قال: فإن نفسي تحدثني أن أخرج من مالي كله؟ قال مهلاً يا عثمان، فإن صدقت يوماً بيوم، وتكف نفسك وعيالك، وترحم المساكين واليتيم أفضل من ذلك، فقال: يا رسول الله، فإن نفسي تحدثني أن أطلق خولة، فقال مهلاً يا عثمان، فإن الهجرة في أمتي من هجر ما حرم الله، أو هاجر إليّ في حياتي، أو زار قبري بعد وفاتي، أو مات وله امرأة، أو امرأتان أو ثلاث أو أربع، قال، يا رسول الله: فإن نهيتني أن أطلقها، فإن نفسي تحدثني بأن لا أغشاها قال، مهلاً يا عثمان، فإن الرجل المسلم إذا غشي أهله أو ما ملكت يمينه فلم يكن من وقته تلك ولد، كان له وصيفاً في الجنة، وإن كان من وقته تلك ولد فمات قبله كان فرطاً وشفيعاً يوم القيامة، فإن مات بعده كان له نوراً يوم القيامة، فقال: يا رسول الله، فإن نفسي تحدثني بأن لا أكل اللحم، قال: مهلاً يا عثمان، فإنني أحب اللحم وأكله إذا وجدته، ولو سألت ربي أن يطعمنيه في كل يوم لأطعمنيه، قال يا رسول الله فإن نفسي تحدثني بأن لا أمس الطيب، قال مهلاً يا عثمان فإن جبريل أمرني بالطيب غابغاً، وقال: لا تتركه يا عثمان، لا ترغب عن ستي فمن رغبت عن ستي، ثم مات قبل أن يتوب صرفت الملائكة وجهه عن حوضي يوم القيامة، ونزلت هذه الآية (لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم)، ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ يقول: يعني لا تحرموا حلاله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ويقال: إن مُحَرَّم ما أحل الله، كَمُحِلٍّ ما حرم الله^(٢). ثم قال: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ من الطعام والشراب ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ولا تحرموا ما أحل الله لكم ﴿الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ يعني إن كنتم مصدقين به، فأحلوا حلاله وحرّموا حرامه. ثم أمرهم الله تعالى بأن يكفروا أيّمانهم، لأنه لما حرّموا الحلال على أنفسهم كان ذلك يميناً منهم، ولهذا قال أصحابنا: إذا قال الرجل لشيء حلال، هذا الشيء علي حرام يكون ذلك يميناً، فأمرهم الله تعالى بأن يأكلوا ويحشوا في أيّمانهم وفي الآية دليل: أن الرجل إذا حلف على شيء، والحنث خير له، ينبغي أن يحنث ويكفر بيمينه. وفيها دليل: أن الكفارة بعد الحنث، لأنه أمرهم بالحنث بقوله: (فكلوا) ثم أمرهم بالكفارة. وهو قوله تعالى:

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ قال ابن عباس: ^(٣) اللغو أن يحلف الرجل على شيء بالله، وهو يرى أنه صادق، وهو فيه كاذب، وهكذا روي عن أبي هريرة أنه كان يقول: لغو اليمين: أن يحلف الرجل على

(١) روي عن أبيه ومحمد بن عمرو بن علقمة وخلق قال النسائي ليس به بأس وذكره ابن حبان في الثقات انظر التهذيب ٦١/٩.

(٢) بنحو هذه الآثار انظر أسباب النزول للواحدي ١٥٢، وتفسير ابن عباس ٧٩.

(٣) انظر تفسير الطبري ٤٣٢/٤.

شيء يظن أنه الذي حلف عليه - هو صادق - فإذا هو غير ذلك^(١). وقال الحسن: هو الرجل يحلف على الشيء، يرى أنه كذلك وليس هو كذلك^(٢). وقال سعيد بن جبير: الرجل يحلف باليمين الذي لا ينبغي أن يحلف بها، يحرم شيئاً هو حلال، فلا يؤاخذ الله بتركه لكن يؤاخذ الله إن فعل^(٣). وقال زيد بن أسلم: هو قول الرجل، أعمى الله بصري إن لم أفعل كذا، وأخرجني الله من مالي وولدي^(٤)، وقالت عائشة: اللغو: هو قول الرجل، لا والله، وبلى والله، على شيء لم يعقده قلبه^(٥). ثم قال: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾. قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم في رواية حفص^(٦) (عَقَّدْتُمُ) بالتشديد، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر: (عَقَّدْتُمُ) بالتخفيف وقرأ ابن عامر: (بما عقدتم) فمن قرأ: (عاقدتم) فهو من المعاقدة والمعاقدة تجري بين الاثنين، وهو أن يحلف الرجل لصاحبه بشيء، ومن قرأ بالتشديد، فهو للتأكيد، ومن قرأ بالتخفيف، لأن اليمين تكون مرة واحدة، والتشديد تجري في التكرار والإعادة. وروى عبد الرزاق، عن بكار بن عبد الله، قال: سئل وهب بن منبه عن قوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ قال: الْأَيْمَانُ ثَلَاثَةُ لُغُو، وعقد، وصبر فأما اللغو: فلا والله، وبلى والله، لا يعقد عليه القلب، وأما العقد: أن يحلف الرجل، لا يفعله فيفعله فعلية الكفارة، وأما الصبر: بأن يحلف على مال ليقطعه بيمينه، فلا كفارة له. وروى حسين بن عبد الرحمن^(٧)، عن أبي مالك الغفاري قال: ^(٨) الأيمان ثلاثة، يمين تكفر، ويمين لا تكفر، ويمين لا يؤاخذ الله بها، وذكر إلى آخره. ثم بين كفارة اليمين فقال تعالى: ﴿فَكَفَّارَتُهُ أَطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾. روي عن علي بن أبي طالب^(٩) - رضي الله عنه - أنه قال: الغداء والعشاء، وسئل شريح^(١٠) عن الكفارة فقال: الخبز والزيت، والخل والطيب، فقال السائل: أرأيت إن أطعمت الخبز واللحم؟ قال ذلك أرفع طعام أهلك، وطعام الناس. وروي عن ابن الخطاب^(١١)، وعلي بن أبي طالب - رضي الله عنهما - أنهما قالوا، لكل مسكين، نصف صاع من حنطة، يعني، إذا أراد أن يدفع إليهم، وإن أراد أن يطعمهم فالغداء والعشاء. ثم قال: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ قال مجاهد: ^(١٢) أدناه ثوب، وأعلاه ما شئت. وقال إبراهيم النخعي: ^(١٣) لكل مسكين ثوب. وقال الحسن: ^(١٤) ثوبان أبيضان ثم قال: ﴿أَوْ تَحْرِيرَ رَقَبَةٍ﴾ يعني يعتق رقبة، ولم يشترطها هنا المؤمنة، فيجوز الكفارة بالكافرة والمؤمنة، فالرجل بالخيار بين هذه الأشياء الثلاثة، ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ الطعام ولا الكسوة ولا الرقبة فعليه ﴿فَصِيَامٌ﴾ يعني صيام ﴿ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ وروى سفيان بن عيينة عن ابن أبي نجيح قال: سئل طاووس عن صيام الكفارة قال: يفرق: قال له مجاهد كان عبد الله يقرأ: متابعات. قال: طاووس^(١٥) فهو أيضاً متابعات. وروى مالك عن حميد، عن مجاهد^(١٦)، قال: كان أبي يقرأ، فصيام ثلاثة أيام متابعات في الكفارة اليمين. ثم قال (ذلك) يعني الذي ذكر ﴿كفارة إيمانكم﴾ عن الطعام والكسوة والعق والصوم ثم قال ﴿إِذَا حَلَفْتُمْ، وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ يعني ليعلم الرجل ما حلف عليه، فليكفر يمينه، إذا حنث ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ

(١) انظر تفسير الطبري ٤/٤٣٢. (٢) انظر تفسير الطبري ١٠/٥٢٦.

(٣) انظر تفسير الطبري ٤/٤٤٠. (٤) انظر تفسير الطبري ٤/٤٤٥. (٥) انظر تفسير الطبري ٤/٤٢٩.

(٦) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٣٣٤، سراج القاري ٢٠١، شرح شعلة ٣٥٣.

(٧) حصين بن عبد الرحمن السلمي أبو الهذيل الكوفي انظر التهذيب ٢/٣٨١، الخلاصة ١/٢٧٤.

(٨) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢/٣١٢ وعزاه لعبد بن حميد.

(٩) انظر المصدر السابق ١٠/٥٣٤.

(١٠) انظر المصدر السابق ١٠/٥٣٣.

(١١) انظر تفسير الطبري ١٠/٥٣٣.

(١٢) انظر المصدر السابق ١٠/٥٤٨.

(١٣) انظر المصدر السابق ١٠/٥٤٩.

(١٤) انظر المصدر السابق ١٠/٥٤٥.

(١٥) انظر تفسير الطبري ١٠/٥٦٠.

(١٦) انظر تفسير الطبري ١٠/٥٦٠.

اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ يعني أمره ونهيه ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لكي تشكروا رب هذه النعمة، إذ جعل لكم مخرجاً من إيمانكم بالكفارة، والكفارة في اللغة: هو التغطية، يعني يغطي إثمه. قوله تعالى:

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ نزلت هذه الآية في شأن سعد بن أبي وقاص لأنهم كانوا يشربونها وكانت لهم حلالاً، فجرى بين سعديين رجل من الأنصار افتخار في الأنساب، فاقتلا فشح رأس سعد، فدعا عمر بن الخطاب فقال: اللهم أرنا رأيك في الخمر، فإنها متلفة للمال، مذهبة للعقل، فنزلت هذه الآية التي في سورة البقرة (يسألونك عن الخمر والميسر) فقال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت هذه الآية. (إنما الخمر والميسر ﴿وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ يعني حرام، وهو من تزوين الشيطان، ﴿فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ يعني فاتركوا شربها، ولم يقل، فاجتنبوها لأنه انصرف إلى المعنى ومعناه: اجتنبوا ما ذكرنا ونهيناكم عن ذلك قوله (كلوا من ثمره إذا أثمر) ولم يقل: من ثمرها. ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ يعني عن طاعة الله ﴿وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ لأنهم منعوا عن الصلاة إذا كانوا سكارى، ولأنه إذا سكر لا يعقل الطاعة وأداء الصلاة، ثم قال: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ يعني انتهوا عن شربها، فقال عمر: قد انتهينا يا رب^(١). وعن عطاء بن يسار أن رجلاً قال لكعب الأحبار، أحرمت الخمرة في التوراة؟ قال: نعم، هذه الآية (إنما الخمر والميسر) مكتوب في التوراة إنا أنزلنا الحق لنذهب به الباطل، وتبطل به اللعب والدفف والمزامير، والخمر مرة لشاربها، أقسم الله تعالى بعزه وجلاله أن من انتهكها في الدنيا، أعطشته في الآخرة يوم القيامة، ومن تركها بعدما حرمتها لأسقيتها إياه في حظيرة القدس، قيل: وما حظيرة القدس؟ قال: الله هو القدس، وحظيرته الجنة^(٢). ثم قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ يعني في تحريم الخمر ﴿وَأَحْذَرُوا﴾ عن شربها ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ يقول: أعرضتم عن طاعة الله وطاعة الرسول ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ فهذا تهديد لمن شرب الخمر بعد التحريم. فلما نزلت هذه الآية قال حُيَّيُّ بن أخطب، فما حال من مات منهم، وهم يشربونها، فغير بذلك أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فسأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أصحابه عن ذلك، فنزلت^(٣) هذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ يعني شربوا قبل تحريمها، ولم يعرفوا تحريمها، ويقال: إن بعض الصحابة كانوا في سفرة، فشربوا منها بعد التحريم ولم يعرفوا تحريمها فلما رجعوا

(١) أخرجه أبو داود ٣/٣٢٥ في الأشربة باب تحريم الخمر (٣٦٧٠)، أخرجه الترمذي ٥/٢٣٦ في التفسير (٣٠٤٩)، والنسائي

٨/٢٥٢ في الأشربة باب تحريم الخمر.

(٢) ذكره السيوطي عن عبد الله بن عمر وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ والبيهقي في سننه انظر الدر المنثور ٢/٣١٧.

(٣) انظر أسباب النزول ١٥٦.

رجلان مسلمان عدلان ينظران إلى قيمة المقتول، ثم يشتري بقيمته ﴿هَذَا بِأَلْفِ الْكَعْبَةِ﴾ يعني يبلغ بالهدي مكة ويذبحه هناك، ويتصدق بلحمه على الفقراء ﴿أَوْ كَفَّارَةَ طَعَامِ مَسَاكِينَ﴾ يعني إن شاء يشتري بقيمته طعاماً ويتصدق به على كل مسكين نصف صاع من حنطة ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً﴾ يعني يصوم مكان كل نصف صاع من حنطة يوماً، قال ابن عباس إنما يقوم لكي يعرف مقدار الصيام من الطعام فهو بالخيار بين هذه الأشياء الثلاثة إن شاء أطعم وإن شاء أهدي، وإن شاء صام^(١). قرأ نافع وابن عامر^(٢): (أو كفارة طعام مساكين) بغير تنوين على معنى الإضافة، وقرأ الباقون (كفارة) بالتنوين، والطعام نعتاً لها، ثم قال: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ يعني عقوبة ذنبه لكي يمتنع عن قتل الصيد، ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ يعني عما مضى قبل التحريم، ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ بعد التحريم ﴿فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ يعني يعاقبه الله تعالى، ومع ذلك يجب عليه الكفارة، وقال بعضهم: لا يجب عليه الكفارة إذا قتل مرة أخرى، وروى عكرمة عن ابن عباس: ^(٣) أنه سئل عن المحرم يصيب الصيد فيحكم عليه، ثم يصيبه أيضاً، قال: لا يحكم عليه، وتلا هذه الآية (ومن عاد فينتقم الله منه) فذلك إلى الله، إن شاء عفا، وإن شاء عاقبه. وعن شريح: ^(٤) أن رجلاً أتاه فسأله أن يحكم عليه، فقال له شريح: هل أصبت صيداً قبله؟ قال: لا، قال: لو كنت أصبته قبل ذلك لم أحكم عليك. وقال بعضهم: سواء قتل قبل ذلك أو لم يقتل فهو سواء، لأنه قاتل في المرة الثانية كما هو قاتل في المرة الأولى. وروى عن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن مسعود، وعبد الرحمن بن عوف، وغيرهم: ^(٥) أنهم حكموا ولم يسألوه، أنك أصبت قبل ذلك أم لا، وروى ابن جريج عن عطاء ^(٦) أنه سئل عن قوله: (عفا الله عما سلف) قال: يعني ما كان في الجاهلية، ومن عاد في الإسلام فينتقم الله منه ومع ذلك عليه الكفارة. وروى سعيد بن جبير ^(٧) مثله. وقد قال بعض الناس: إنه إذا قتل خطأ فلا تجب عليه الكفارة وهذا القول ذكر عن طاووس اليماني ^(٨)، وقال غيره: تجب عليه الكفارة [وروى] ^(٩) ابن جريج عن عطاء، قال سألت عن قوله: (ومن قتله منكم متعمداً) فلو قتله خطأ، أيغرم قال: نعم، يعظم بذلك حرمة الله، ومضت به السنن ^(١٠). وعن الحسن قال: يحكم عليه في الخطأ والعمد. وعن إبراهيم النخعي، وعن مجاهد مثله ^(١١). وبهذا القول نأخذ، ونقول: بأن العمد والخطأ سواء، والمرة الأولى والثانية سواء. ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ من أهل المعصية أخذ الصيد بعد التحريم. ويقال: ومن عاد مستحلاً أو مستخفاً بأمر الله تعالى فينتقم الله منه يعني يعذبه الله تعالى، والله عزيز ذو انتقام يعذب من عصاه قوله تعالى:

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلنَّاسِ وَاللَّسْيَارَةُ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٦﴾

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ يعني في الإحرام وغير الإحرام ﴿وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلنَّاسِ﴾ يعني للمقيمين والمسافرين، وهي السمكة المألحة، ويقال: (وطعامه) ما نضب

(١) بنحوه انظر تفسير الطبري ١٥/١١.

(٢) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٣٧، سراج القاري ٢٠٢، شرح شعلة ٣٥٤.

(٣) انظر تفسير الطبري ٥١/١١. (٤) انظر المصدر السابق ٥١/١١. (٥) انظر المصدر السابق ٢٨/١١.

(٦) انظر المصدر السابق ٤٨/١١. (٧) انظر المصدر السابق ٤٩/١١. (٨) انظر تفسير الطبري ١١/١١.

(٩) في ظ [قال]. (١٠) انظر المصدر السابق ١٥/١١.

(١١) انظر قول النخعي ومجاهد في تفسير الطبري ٤٩/١١.

الماء عنه فأخذ بغير صيد ميتاً. ويقال: كل ما سقاه الماء، فأثبت من الأرض فهو طعام البحر. قال الفقيه: حدثنا الفضل بن أبي حفص قال حدثنا أبو جعفر الطحاوي قال: حدثنا محمد بن خزيمة^(١)، قال: حدثنا حجاج بن المنهال^(٢) قال: حدثنا أبو عوانة عن عمر بن أبي سلمة عن أبيه، عن أبي هريرة قال: كنت في البحرين، فسألني أهل البحرين عما يقذف البحر من السمك، فقلت كلوه، فلما رجعت إلى المدينة سألت عن ذلك عمر بن الخطاب، فقال: ما أمرتهم به، فقلت أمرتهم بأكله، فقال: لو أمرتهم بغير ذلك لضربتك بالدرة، ثم قرأ عمر: (أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم) فصيده ما صيد وطعامه: ما رمي به^(٣). ثم قال: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ يعني ما دمتم محرمين فلا تأخذوا الصيد ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فلا تأخذوه في إحرامكم ﴿الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيجزىكم بأعمالكم. قوله تعالى:

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ﴾ يعني لجأ إلى الحرم آمناً للناس كان الرجل إذا أصاب ذنباً أو قتل قتيلاً ثم لجأ إلى الحرم آمناً بذلك، ويقال: قياماً للناس يعني قواماً لمعايشهم قرأ ابن عامر^(٤): (قيماً) على جهة المصدر، وقرأ الباقون: (قياماً) على جهة الاسم والمصدر. وإنما سميت الكعبة كعبة لارتفاعها ولهذا سمي الكعبان، ويقال للجارية: إذا نهدت ثديها، قد كعبت ثديها وهي كاعب كما قال: (وكواعب أتراباً). ثم قال: ﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾ يعني جعل الشهر الحرام والهدى والقلائد آمناً للناس وقواماً لمعايشهم لأنهم كانوا إذا توجهوا إلى مكة وقلدوا الهدى آمنوا ويقال: جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس، يعني معالم للناس. وقال مقاتل^(٥) ابن حيان: يعني علماً لقبلتهم يصلون إليها. وقال سعيد بن جبیر^(٦): صلاحاً لدينهم وحرم عليهم الغارة في الشهر الحرام وأخذ الهدى والقلائد في الشهر الحرام ﴿ذَلِكَ﴾ الذي جعل الله من الأمن ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. يقول: عليم بكل شيء من صلاح الخلق. ويقال: هو مردود إلى ما أنبأ الله تعالى على لسان نبيه في هذه السورة من أخبار المنافقين، وإظهار أسرارهم فقال: (ذلك الذي ذكر الله تعالى: لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض) وأن الله بكل شيء عليم من السر والعلانية.

أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا

(١) أبو عبد الله الفلاسى البلخى المتوفى سنة ٣١٤ هـ انظر الجواهر المضيئة ١٥٢/٣، اللباب ١٤/٣.

(٢) حجاج بن المنهال الأفاطى أبو محمد السلمى وقيل البرسانى مولاهم البصرى، روى عن جرير بن حازم والحمادين وشعبة وخلقه. انظر التهذيب ٢٠٦/٢ - ٢٠٧.

(٣) أخرجه ابن جرير في التفسير ٦١/١١.

(٤) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٤٨٦، سراج القارىء ٢٠٢.

(٥) عزاه السيوطى في الدر المنثور ٣٣٤/١ لابن أبى حاتم وأبى الشيخ وفي تفسير مقاتل (أمثالهم وحياتهم لهم في الجاهلية. انظر التفسير ٤٤٤/١).

(٦) انظر تفسير الطبرى ٩١/١١.

تَبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ
يَأْتُواوِ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يعني إذا عاقب فعقوبته شديدة لمن عصاه، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن أطاعه. قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾. يعني أن الرسول ليس عليه طلب سرائرهم، وإنما عليه بتبليغ الرسالة والله تعالى هو الذي يعلم سرائرهم. قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ يعني لا يستوي الحلال والحرام. قال في رواية الكلبي: نزلت في شأن حجاج اليمامة شريح بن ضبيعة حين أراد المسلمون أخذ ماله فنهاهم الله تعالى عن ذلك وأخبرهم أن أخذ ماله حرام، ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ يعني كثرة مال شريح بن ضبيعة، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ لا تستحلوا ما حرم الله عليكم ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يا ذوي العقول ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. يعني تأمنون من عذابه. وروى أسباط عن السدي^(١) أنه قال: الخبيث هم المشركون، والطيب هم المؤمنون. وقال الضحاك: (لا يستوي الخبيث والطيب) يعني صدقة من حرام لا تصعد إلى الله تعالى لا توضع في خزائنه، وصدقة من حلال تقع في يد الرحمن يعني يقبلها (ولو أعجبك كثرة) يعني مثقال حبة من صدقة الحلال أرجح عند الله من جبال الدنيا من الحرام. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدِّلْ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾. روي عن أبي هريرة وعبد الله بن عباس وغيرهما أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما قرأ: (ولله على الناس حج البيت) وقال: (يا أيها الناس كتب عليكم الحج) فقام رجل فقال: في كل عام يا رسول الله؟ فأعرض عنه ثم عاد، فقال: والذي نفسي بيده لو قلت نعم لوجب، ولو وجب ما استطعتموه ولو تركتموه لكفرتم، ثم قال: إنما هي حجة واحدة أوقال: مرة واحدة ونزل:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدِّلْ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِنْ قَسَّوْا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدِّلْ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾
كُفْرِينَ ﴿١٠٢﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء أن تبدل لكم تسؤكم﴾^(٢). (وعن أبي عوانة أنه قال: سألت عكرمة عن قوله تعالى: ﴿لا تسألوا عن أشياء أن تبدل لكم تسؤكم﴾. قال: ذلك يوم قام فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فسألوه فأكثروا عليه فغضب، وقال لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم فقام رجل فكره المسلمون يومئذ مقامه فقال: يا رسول الله، من أبي؟ فقال: حذافة، يعني رجلاً غير أبيه فقال: عمر بن الخطاب يا رسول الله، رضينا بالله رباً وبك نبياً فنزلت هذه الآية^(٣). (لا تسألوا عن أشياء أن تبدل لكم تسؤكم). وروي في خبر آخر أن رجلاً سأله فقال: أين أبي؟ فقال في النار^(٤). وروي عن نافع^(٥) أنه سئل عن هذه الآية فقال: لم تنزل منذ قط كثرة السؤال تكره. ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ﴾ يعني وقت الذي ينزل جبريل ﴿تُبَدِّلْ لَكُمْ﴾ يعني

(١) انظر تفسير الطبري ٩٧/١١، وذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٣٤/٢ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن السدي.

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير ١٠٥/١١ وانظر تفسير ابن كثير ٢٠٠/٣.

(٣) أخرجه مسلم ١٨٣٢/٤ في كتاب الفضائل (١٣٦ / ٢٣٥٩).

(٤) أخرجه ابن جرير في التفسير ١٠٣/١١، وانظر تفسير ابن كثير ١٩٩/٣.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٣٦/٢ وعزاه لعبد بن حميد وأبي الشيخ.

تظهر لكم. ويقال: فيها تقديم يعني، وإن تسألوا عنها تبد لكم حين نزول القرآن ثم قال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ يعني عن تلك الأشياء حين لم ينزل فيها القرآن ولم يوجبها عليكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ ذو التجاوز ﴿حَلِيمٌ﴾ حيث لم يعجل عليكم بالعقوبة. ثم قال: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ﴾ يعني عن هذه الأشياء ﴿مَنْ قَبْلَكُمْ﴾، حيث سألوا المائدة من عيسى، وغيرهم سألوا أنبيائهم أشياء ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾. يعني صاروا كافرين، قوله تعالى:

مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ﴾ يعني ما جعل الله حراماً من بحيرة، لقولهم: إن الله أمرهم بتحريمها ونزلت في مشركي العرب فكانت الناقة إذا ولدت البطن الخامس فإن كان الخامس ذكراً ذبحوه للآلهة وكان لحمه للرجال دون النساء، وإن مات أكله الرجال والنساء وإن كان الولد الخامس أنثى شقوا أذننها وهي البحيرة ثم لا يُجَزَّ لها وبر ولا يُذكر عليه اسم الله، وألبانها للرجال دون النساء فإذا ماتت اشترك فيها الرجال والنساء. ﴿وَلَا سَائِبَةٍ﴾ وأما السائبة: فهي الأنثى من الأنعام كلها إذا قدم الرجل من سفره، أو برأ من مرضه أو بنى بناء سيب شيئاً من الأنعام للآلهة وخرجها من ملكه ويسلمها إلى سدنة البيت لألهتهم ولا يركبونها وكان صوفها وأولادها للرجال دون النساء. ﴿وَلَا وَصِيلَةٍ﴾ وأما الوصيلة: فهي من الغنم إذا ولدت سبعة أبطن فإن كان الولد السابع جدياً ذبحوه لألهتهم وكان لحمه للرجال دون النساء، وإن كانت عناقاً كانوا يستعملونها بمنزلة سائر الغنم، وإن كان جدياً وعناقاً قالوا: إن الأخت قد وصلت بأخيها، فحرمتا جميعاً. وكانت المنفعة للرجال دون النساء وإن ماتا تشارك الرجال والنساء. ﴿وَلَا حَامٍ﴾ وأما الحام: فهو الفحل من الإبل إذا ركب ولده قالوا: قد حمى ظهره، فيهمل ولا يحمل ولا يركب ولا يمنع من المياه ولا عن المراعي، فإذا مات أكله الرجال والنساء، وكانوا يقولون هذه الأشياء كلها من أحكام الله تعالى، قال الله تعالى: ما حرم الله هذه الأشياء، ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾. وروى عبد الرزاق عن معمر عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إني لأعرف أول من سبب السواثب، وأول من غير عهد إبراهيم - عليه السلام - قالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: عمرو بن لحي^(١) أخو بني كعب، لقد رأيته يجر قصبه في النار، يؤذي ريحه أهل النار، وإني لأعرف من بحر البحائر، قالوا: من هو، يا رسول الله؟ قال: رجل من بني مذليج كانت له ناقتان، فجدع آذانهما، وحرم ألبانهما، ثم شرب ألبانها بعد ذلك، فلقد رأيته في النار، وهو وهما يعضانه بأفواههما، ويخبطانه بأخفافهما^(٢). ثم قال تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يعني ليس لهم عقل يعقلون أن الله هو المحلل والمحرم، وليس لغيره أن يحل ويحرم. ثم أخبر عن جهلهم فقال:

وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلَّ

(١) عمرو بن لحي بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي من قحطان أول من غير دين إسماعيل ودعا العرب إلى عبادة الأوثان انظر الأعلام ٨٤/٥، البداية والنهاية ١٨٧/٢ - ١٨٩.

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير ١٢٠/١١، وانظر تفسير ابن كثير ٢٠٤/٣.

إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ من تحليل ما حرمتهم على أنفسكم، وما بين رسوله ويقال: تعالوا إلى كتاب الله وإلى سنة رسوله، ﴿قَالُوا: حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ من الدين والسنة. قال الله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾. يعني أيتبعون آباءهم، وإن كان آبائهم جهالاً، فهأهم الله عن التقليد، وأمرهم بالتمسك بالحق وبالحجة. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ معناه الزموا أنفسكم كما تقول: عليك زيداً، معناه إلزم زيداً، معناه: إلزموا أمر أنفسكم لا يؤاخذكم بذنوب غيركم، ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ وأصل اللغة: لا يضرركم فأدغم أحد الرأين في الثاني وضمت الثانية لالتقاء الساكنين وهذا جواب الشرط وموضعه الجزم. وروي عن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - أنه سئل عن هذه الآية فقال: إذا رأيتم شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليكم بخويصة أنفسكم. وروي عمر بن جارية اللخمي^(١) عن أبي أمية قال: سألت أبا ثعلبة الخشني عن هذه الآية فقال: لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: يا أبا ثعلبة ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر فإذا رأيت دنيا مؤثرة وشحاً مطاعاً وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليكم أنفسكم فإن من بعدكم أيام الصبر المتمسك يومئذ بمثل الذي أنتم عليه له كأجر خمسين عاملاً قالوا: يا رسول الله كأجر خمسين عاملاً منهم، قال: لا، بل كأجر خمسين عاملاً منكم^(٢). وروي عن أبي بكر الصديق أنه قال: (يا أيها الناس إنكم تتلون هذه الآية على غير تأويلها إنه كان رجال طعموا بالإسلام وذاقوا حلاوته وكانت لهم قرابة من المشركين فأرادوا أن يذيقوهم حلاوة الإسلام وأن يدخلوهم في الإسلام فنزل (عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) والذي نفس أبي بكر بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أوليعنكم الله بعقاب من عنده^(٣). وروي عن أبي العالية أنه قال: كانوا عند عبد الله بن مسعود فوقع بين رجلين ما يكون بين الناس حتى قام كل واحد منهما إلى صاحبه فقال بعضهم: ألا أقوم فأمرهما بالمعروف فقال بعضهم: عليك نفسك إن الله تعالى يقول: (عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل) يقول: لا يضركم ضلالة من ضل (إذا اهتديتم) فقال ابن مسعود: مه لم يجيء تأويل هذه الآية بعد فما دامت قلوبكم واحدة وأهواؤكم واحدة، ولم تلبسوا شيعاً فمروا بالمعروف وانهاوا عن المنكر فإذا اختلفت القلوب والأهواء فعند ذلك جاء تأويلها^(٤). وقوله تعالى: (لا يضركم) ﴿مَنْ ضَلَّ﴾ يقول: لا يضركم ضلالة من ضل ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، إذا ثبتتم على الحق ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ تعالى ﴿مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا. وقال في رواية الكلبي نزلت في «منذر بن عمرو» بعثه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى أهل هجر ليدعوهم إلى الإسلام فأبوا الإسلام فوضع عليهم الجزية، فقال: (لا يضركم من ضل). من

(١) عمرو بن جارية اللخمي، يقال أنه عم عتبة بن أبي حكيم، روى عن أبي أمية الشعباني وعروة بن محمد بن عمار بن ياسر، ذكره ابن حبان في الثقات انظر التهذيب ١١/٨، ١٢.

(٢) أخرجه أبو داود ١٢٣/٤ في كتاب الملاحم (٤٣٤١)، أخرجه الترمذي ٢٤٠/٥ في كتاب التفسير (٣٠٥٨) وابن ماجه ١٣٣٠/٢ - ١٣٣١ في الفتن (٤٠١٤).

(٣) أخرجه أبو داود ١٢٢/٤ في الملاحم (٤٣٣٨)، وأخرجه الترمذي ٢٣٩/٥ في التفسير (٣٠٥٧)، والنسائي في الكبرى في التفسير وابن ماجه في الفتن (٤٠٥٥).

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ١٤٣/١١ وزاد نسبته السيوطي في الدر المنثور ٣٣٩/١ لعبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر والطبراني وأبي الشيخ.

أهل هجر وأقر بالعزبة (إذا اهتديتم) إلى الله يعني آمستم بالله . قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهْدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ
أَوْ آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ
الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا
لَمِنَ الْأَثَمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُرِيَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ
عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدْنَا أَحَقَّ مِنْ شَهَدَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ
﴿١٠٧﴾ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنُ بَعْدَ أَيْمَنِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ (شهادة) : رفع بالابتداء وخبره (إثنان) ومعناه شهادتكم فيما بينكم اثنان
مسلمان عدلان ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ فأراد أن يشهد على وصيته وكان مقيماً، ولم يكن مسافراً فليشهد على
وصيته اثنين مسلمين ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني
إذا كنتم في السفر ولم تقدرُوا على مسلمين فأشهدوا رجلين من غيركم ، يعني من غير أهل دينكم . وروى مغيرة
عن إبراهيم قال إذا كان الرجل في سفر فلم يجد المسلمين يشهدهما على وصيته فيشهد غير أهل دينه فإن اتهمَا
حبسا من بعد الصلاة فيغلظ عليهما في اليمين وإن شهد رجلان من الورثة أنهما خانا وكذبا صدقا بما قالَا، وأخذ
من الآخرين يعني من الشاهدين ما ادعى عليهما . وروى عن مجاهد^(١) أنه قال : إذا مات المؤمن في السفر لا
يحضره إلا كافران أشهدهما على ذلك فإن رضي ورثته مما حلفا عليه من تركته فذلك ، ويحلف الشاهدان أنهما
لصادقان ، فإن ظهر أنهما خانا حلف اثنان من الورثة وأبطلا أيمان الشاهدين . وروى عن شريح أنه قال : لا تجوز
شهادة اليهودي والنصراني إلا في السفر ولا تجوز في السفر إلا على الوصية^(٢) . وهكذا قال إبراهيم النخعي^(٣) وبه
قال ابن أبي ليلى واحتجوا بظاهر هذه الآية . وقال علماؤنا : لا يجوز شهادة الذمي على المسلم في الوصية ولا في
غيره^(٤) .

وروي عن عكرمة^(٥) أنه قال : (أو آخران من غيركم) قال من غير عشيرتكم ، وكذلك قال الحسن (أو آخران
من غيركم) يعني من غير قبيلتكم كلهم من أهل العدالة ، قال : ألا ترى إلى قوله (تحسبونهما من بعد الصلاة)^(٦) .
وقال زيد بن أسلم : كان ذلك في رجل توفي وليس عنده أحد من أهل الإسلام وذلك كان في أول الإسلام ،
والأرض أرض الحرب والناس كفار إلا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه بالمدينة^(٧) . وروى أبو حنيفة
عن حماد عن إبراهيم ، قال : أو آخران من غيركم قال : هي منسوخة^(٨) . وقال الضحاك : نسخت هذه الآية بقوله

(١) انظر تفسيره ٢٠٩/١ . (٢) انظر تفسير الطبري ١٦٣/١١ . (٣) انظر المصدر السابق ١٦٣/١١ .

(٤) انظر قرة عيون الأخيار ١١٢/٧ - ١١٣ ، إيثار الإنصاف ٣٤٢ .

(٥) انظر تفسير الطبري ١٦٧/١١ ، وانظر الدر المنثور ٣٤٣/٢ .

(٦) انظر المصدر السابق . (٧) انظر تفسير الطبري ١٦٦/١١ . (٨) انظر تفسير القرطبي ٢٢٦/٦ .

تعالى: (وأشهدوا ذوي عدل منكم) ورفع اليمين عن الشهود وأبطل شهادة أهل الذمة إلا بعضهم على بعض. ويقال: لنزول هذه الآية قصة وذلك أن ثلاثة نفر خرجوا إلى السفر تميم الداري وعدي بن زيد، وبديل بن ورقاء مولى العاص بن وائل السهمي أبي عمرو بن العاص فحضر بديل بن ورقاء الوفاة وكان مسلماً وأوصى إلى تميم الداري وإلى عدي بن زيد وكانا نصرانيين وأمرهما أن يسلماً أمتعه إلى أهله، وكتب أسماء الأمتعة وأدرجه في ثيابه فلما قدما المدينة وسلمتا المتاع إلى أهله فوجد أهله الكتاب وفيه أسماء الأمتعة، وفيه جام فضة لم يسلمها إليهم فخاصمهما المطلب بن أبي وداعة وعمرو بن العاص إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فنزلت الآية: (إن أنتم ضربتم في الأرض، **﴿فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾** بموت بديل بن ورقاء، **﴿تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾** يعني صلاة العصر. وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - يقضي بين الناس بعد صلاة العصر فحلف الشاهدان فحلفا أنهما لم يكتما شيئاً فذلك قوله تعالى: (إن أنتم ضربتم في الأرض) يعني سافرتما في الأرض فأصابتكما في السفر مصيبة الموت يعني موت بديل بن ورقاء تحبسونهما، يعني تقيمونهما من بعد الصلاة، يعني صلاة العصر، عند منبر النبي - صلى الله عليه وسلم - **﴿فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ اَرْتَبْتُمْ﴾** يعني ظننتما بالشاهدين ريبة، أو شككتما في أمرهما **﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾** يعني باليمين يعني أن الشاهدين يحلفان بالله أنهما لم يشتريا بأيمانهما ثمناً قليلاً من عرض الدنيا **﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾** يعني ذا قرابة معنا في الرحم لأن الميت كان بينه وبينهما قرابة **﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾** إن سألنا عن ذلك، فإن كتمانها يعني الشهادة: **﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَثَمِينَ﴾** يعني الفاجرين ثم وجد الجام، أي الكأس بعد ذلك في أيديهما يبيعانه في السوق وقالوا: إنا كنا اشتريناه منه، فاخصموا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فنزل **﴿فَإِنْ غُرِبَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّ إِثْمًا﴾** يعني خانا وكتماناً شيئاً من المال **﴿فَأَخْرَانِ﴾** من أولياء الميت **﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾** يعني مقام النصرانيين **﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولِيَانِ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾** يعني يحلف أولياء الميت أن المتاع متاع صاحبنا **﴿لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾** يعني يمين المسلمين وشهادتهما أحق، يعني أولى من شهادة الكافرين **﴿وَمَا اخْتَدَيْنَا﴾** في الشهادة والدعوى **﴿إِنَّا إِذَا﴾** اعتدينا فحيث **﴿لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾**. قرأ عاصم في رواية حفص^(١): (استحق) بنصب التاء، وقرأ الباقون: بضم التاء فمن قرأ بالنصب جعل الذين نعتاً للمدعين (ومعناه فأخراهم من المستحقين يقومان مقامهما، ومن قرأ بالضم: جعل الذين نعتاً للمدعى عليهم) وقرأ حمزة وعاصم في رواية أبي بكر^(٢) (الأولين) وقرأ الباقون: (الأوليان) فمن قرأ الأولين يجعله خفضاً لأنه بدل من الذين فكأنه يقول: من الأولين اللذين استحق عليهم. ومن قرأ: (الأوليان) صار رفعاً على البدل مما في يقومان المعنى فليقم الأوليان بالميت. قال القتبي: (الذين استحق عليهم الأوليان) وهما الوليان يقال: هذا الولي بفلان ثم يحذف من الكلام بفلان فيقال: هذا الولي وهذان الأوليان، كما يقال: هذا الأكبر، وهذان الأكبران، و(عليهم) هاهنا يعني منهم يعني استحق منهم كما قال الله تعالى: (إذا اكتالوا على الناس يستوفون) يعني من الناس يستوفون. قوله تعالى: **﴿ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ﴾** يعني ذلك أحرى وأجدر أن يأتوا بالشهادة يعني يقيموا الشهادة **﴿عَلَىٰ وَجْهٍهَا﴾** كما كانت، يعني يقيموا شهادة المدعي مقام شهادة المدعى عليه إذا ظهرت الخيانة، لكي لا يخونا في الشهادة ويأتيا بالشهادة على

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٣٨، سراج القاري ٢٠٢.

(٢) انظر المصدرين السابقين واختلف أهل العربية في السبب الذي من أجله رفع (الأوليان) فقال الزجاج: رفعهما على البدل من الألف في (يقومان) المعنى: فليقم الأوليان بالميت مقام هذين الخائنين. فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما. وقال آخرون: بدل من قوله: (فأخراهم) فهذا بدل المعرفة من النكرة وقالوا: يجوز أن يكون (الأوليان) خبر الابتداء الذي هو (فأخراهم) ويجوز أن يكون (الأوليان) مبتدأ و (أخراهم) خبراً مقدماً، التقدير: فالأوليان أخراهم يقومان مقامهما. انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٣٩.

وجهها. ثم قال: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ يعني إذا خافا أن ترد اليمين إلى غيرهما امتنعا عن الكذب، وقد احتج بعض الناس بهذه الآية بأن اليمين ترد إلى المدعي ولا حجة له فيه لأن رد اليمين حادثة أخرى وهو ظهور الخيانة منهما لأن دعوى الثاني دعوى الشرى ودعوى الأول دعوى الكتمان ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ولا تخونوا ﴿وَاسْمَعُوا﴾ ما تؤمرون به ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾. يعني الخائنين. قوله تعالى:

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ (يوم) صار نصباً لأن معناه اتقوا يوم يجمع الله الرسل ﴿فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ يقول ماذا أجابكم قومكم في التوحيد. ﴿قَالُوا: لَا عِلْمَ لَنَا﴾ من هول ذلك اليوم ومن شدة المسألة وهي في بعض مواطن يوم القيامة، قالوا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ ما كان وما لم يكن.

وروي أسباط عن السدي قال: نزلوا منزلاً ذهب فيه العقول فلما سئلوا؟ قالوا: لا علم لنا ثم نزلوا منزلاً آخر فشهدوا على قومهم. ويقال: هذا عند زفرة جهنم فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل عند ذلك إلا قال: نفسي نفسي فعند ذلك قالوا: لا علم لنا. ويقال: كان ذلك عند أول البعث ثم يشهدون بعد ذلك بتبليغ الرسالة. قوله تعالى:

إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ بالنبوة، وهذا في الآخرة ﴿وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ﴾. ثم بين النعمة التي أنعم الله عليه في الدنيا قال: ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ يعني أعتك بجبريل - عليه السلام - و﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ يعني بعد ثلاثين سنة حين أوحى الله إليه. قال الكلبي: فمكث في رسالته ثلاثين شهراً ثم رفعه الله. ويقال: أوحى إليه وهو ابن ثلاثين سنة ومكث في الرسالة ثلاث سنين ورفع وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة. قال: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ يعني الخط بالقلم، والحكمة يعني الفقه والفهم ﴿وَالْإِنْجِيلَ، وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا﴾ وقال في موضع آخر: ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ﴾ بلفظ التذكير لأنه انصرف إلى الطير وقال ها هنا (فتنفخ فيها) بلفظ التأنيث لأنه انصرف إلى الهيئة المتخذة. ويقال: فيها يعني في الطين ﴿فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾. قرأ نافع: (طائراً) بالالف وقرأ الباقون: طيراً ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾. وإذ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ يعني تحيي الموتى بإذني يعني أحيتهم بدعائك. وروي عن وهب بن منبه أنه قال: التقى عيسى ابن مريم عليه السلام وإبليس على عقبة من عقبات بيت المقدس فقال له إبليس أنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنك تكلم الناس في المهد صبيّاً وأنت أحيت الموتى وتبرئ الأكمه والأبرص فقال عيسى عليه السلام: بل العظيم الذي بإذنه أحيت الموتى وهو الذي أنطقني فقال إبليس: أنت إله الأرض فقال عيسى - عليه السلام -:

بل إله الأرض والسماء واحد فكان في ذلك حتى جاءه جبريل وضربه بجناحه وألقاه في لجج البحار. ثم قال: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ﴾ إذ هموا بقتلك ﴿إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني بالعلامات والعجائب ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾. يعني سحر ظاهر. قرأ حمزة والكسائي^(١): (ساحر) بالالف وقرأ الباقون: (سحر) بغير ألف فمن قرأ بالالف يعني هذا رجل ساحر، ومن قرأ بغير ألف يعني هذا الفعل سحر، والاختلاف في أربع مواضع: هاهنا، وفي سورة يونس، وفي سورة هود، وفي سورة الصف، قرأ حمزة والكسائي في هذا كله بالالف وقرأ أبو عمرو ونافع وابن عامر في هذا كله بغير ألف وقرأ عاصم وابن كثير: بغير ألف إلا في سورة يونس. وقوله تعالى:

وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالُوا أَتَقُولُوا اللَّهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقَتْنَا وَنَكُونُ عَلَيْهِمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ يعني الهمتهم وألقيت في قلوبهم ويقال: أوحيت إلى عيسى ليلبلغ الحواريين: ﴿أَنْ آمِنُوا بِي﴾ يعني صدقوا بتوحيدي ﴿وَبِرُسُولِي﴾ فلما أبلغهم الرسالة ﴿قَالُوا: آمَنَّا﴾ يقول: صدقنا بهما ﴿وَأَشْهَدُ﴾ يا عيسى ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾. أي مقرون ويقال: هذا معطوف على أول الكلام إذ قال الله يا عيسى وقال له أيضاً: وإذا أوحيت إلى الحواريين يعني الهمتهم. وقال مقاتل^(٢): يقوم عيسى خطيباً يوم القيامة بهذه الآيات ويقوم إبليس خطيباً لأهل النار بقوله: (إن الله وعدكم وعد الحق.. الآية). قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ: يَٰ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾. قرأ الكسائي^(٣) بالتاء (هل تستطيع ربك) وينصب الباء وقرأ الباقون بالياء وبضم الباء فمن قرأ: بالتاء (هل تستطيع ربك) معناه هل تستطيع أن تدعور ربك، ومن قرأ بالياء، معناه: هل يجيبك ربك؟ ﴿أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ وذلك أن عيسى لما خرج اتبعه خمسة آلاف أو أقل أو أكثر، بعضهم كانوا أصحابه، وبعضهم كانوا يطلبون منه أن يدعو لهم لمرض كان بهم أو علة أو كانوا زمني أو عمياناً وبعضهم كانوا ينظرون ويستهزئون، وبعضهم نظارة فخرج إلى موضع فوقعوا في مفازة ولم يكن معهم نفقة فجاءوا فقالوا للحواريين: قولوا لعيسى حتى يدعو الله تعالى بأن ينزل علينا مائدة من السماء فجاءه شمعون فأخبره أن الناس يطلبون بأن تدعو الله أن ينزل عليهم مائدة من السماء فـ ﴿قَالَ﴾ عيسى: قل لهم ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. ويقال: هذا القول للحواريين: قل لهم اتقوا الله إن كنتم مؤمنين، فلا تسألوا لأنفسكم البلاء فأخبر شمعون بذلك القوم فـ ﴿قَالُوا﴾ لشمعون قل له: ﴿نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ يعن المائدة ﴿وَنَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ يعني تسكن قلوبنا إلى ما دعوتنا إليه ﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقَتْنَا﴾ بأنك نبي ﴿وَنَكُونُ عَلَيْهِمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾. لمن غاب عنا ولمن بعدنا فقام عيسى وصلى ركعتين ثم

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٣٩، سراج القاري ٢٠٤ - ٢٠٥.

(٢) انظر تفسيره ٣٥٢/١.

(٣) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٤٠، سراج القاري ٢٠٥، شرح شعله ٣٥٦.

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ: اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ، تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ وكان يوم الأحد فصار ذلك اليوم عيداً لهم ويقال: (عيداً لنا) يعني حجة لنا، (وآخرنا) يعني حجة لمن بعدنا ﴿وآيَةً مِنْكَ﴾ يعني نزولها علامة منك لنبوتك ﴿وَارْزُقْنَا﴾ يعني وأعطنا المائدة ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ من غيرك. فأوحى الله تعالى إلى عيسى بقوله: ﴿قَالَ اللَّهُ: إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ ما سألتهم من المائدة ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ﴾ يعني بعد نزول المائدة ﴿مِنْكُمْ﴾ ويكفر بعيسى بعد أكله من المائدة ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾. يعني أحداً من الخلق. وقال بعضهم: هذه كلمة تهديد ولم ينزل عليهم المائدة. وروي في بعض التفاسير أنهم قالوا لعيسى: رضينا بما في هذه الآية فقال عيسى لشمعون وكان أكبر الحواريين: هل معك شيء من الزاد؟ قال: نعم فجاءه بخمسة أرغفة وسمكتين صغيرتين فقطعهما قطعاً صغيراً ثم قال: اجلسوا رفقاء ففقدوا عشرة عشرة فالتقى عيسى - عليه السلام - بين كل رفقة قدر ما يحمله بإصبعيه فجعل الطعام يزيد حتى جاوز ركبته فشبِعوا وفضل خمسة ثم عاد من الغد ففعل مثل ما فعل بالأمس. وروي أن الرغيف والسمكتين نزلت من السماء وهم ينظرون إليها وقيل: كانت مائدة [من در وقيل من بلور وقفت في الهواء فاجتمعوا يأكلون منها وروي أن المائدة كان عليها الفواكه وكل شيء إلا الخبز واللحم، وروي أن الجميع كانوا خمسة آلاف ونيفاً^(١)، وروي اثني عشر ألفاً والله أعلم بالصواب).

وقال عامة المفسرين^(٢): إن المائدة قد أنزلت عليهم. وروي عن سلمان الفارسي أن عيسى - عليه السلام - قام ولبس جبة من شعر وقام ووضع يمينه على يساره وطأ رأسه خاشعاً لله تعالى وبكى حتى سالت الدموع على لحيته وصدره وهو يدعو ويتضرع فنزلت مائدة من السماء فوقها منديل والناس ينظرون إليه وعيسى - عليه السلام - ينظر ويبكي ويقول: اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عقوبة حتى استقرت المائدة بين يدي عيسى والناس حوله. قال عيسى: بسم الله وكشف المنديل للناس فإذا فيه سمكة مشوية لا شوك فيها والودك يسيل منها، والخل عند رأسها، والملح عند ذنبها، وعليها أربعة أرغفة وعليها ألوان البقول إلا الكراث فقال: كلوا من رزق ربكم، فأكل منها ألف رجل ويقال: خمسة آلاف رجل، ورجعت المائدة كما كانت^(٣). وقال بعضهم: نزلت يوماً واحداً ولم تنزل أكثر من ذلك وقال بعضهم ثلاثة أيام، وقال بعضهم سبعة أيام، وقال بعضهم أكثر من ذلك فلما رجعوا عن ذلك الموضع شكوا فيه وكفروا فمسخهم الله خنازير، وروي عن ابن عمر^(٤) أنه قال: أشد الناس عذاباً يوم القيامة ثلاثة: المنافقون، ومن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون. وروي عن أبي عبد الرحمن السلمي^(٥) قال: نزلت المائدة خبزاً وسمكة وعن عطية العوفي^(٦) قال: كانت سمكة فيها طعم كل شيء. قوله تعالى:

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٢/٢٢٣.

(٢) انظر تفسير الطبري ١١/٢٢٧.

(١) ما بين المعقوفين من أ.

(٦) انظر المصدر السابق.

(٥) انظر تفسير الطبري ١١/٢٢٧.

(٤) انظر تفسير الطبري ١١/٣٣٣.

أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنَّ تَعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ يعني يوم القيامة ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي﴾ روى أسباط عن السدي قال: لما رفع عيسى، وقالت النصارى ما قالت وزعموا أن عيسى أمرهم بذلك سألهم عن قولهم ^(١). وقال الضحاك: ^(٢) يدعى بعيسى يوم القيامة ويدعى بالنصارى فيقفههم ويسأله ليفضحهم على رؤوس الناس، وقال الزجاج: هو سؤال التوبيخ للذين اعتدوا عليهم لأنهم مجمعون أنه صادق وأنه لا يكذبهم الصادق عنده وذلك أؤكد في الحجة عليهم وأبلغ في التوبيخ، والتوبيخ ضرب من العقوبة. ويقال: إن الله تعالى لما قال لعيسى: (أأنت قلت للناس اتخذوني ﴿وَأُمِّي إِلَاهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أخذته الرعدة من هيبة ذلك القول حتى سمع صوت عظامه في نفسه ﴿قَالَ: سُبْحَانَكَ﴾ فزره الرب عن ذلك أن يكون أمرهم بذلك (فقال: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ يقول ما ينبغي وما يجوز لي أن أقول ما ليس لي بحق يعني ليس بعدل أن يعبدوا غيرك ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ﴾ يعني إن قلت لهم ذلك القول ﴿فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ فإنك تعلم ما في نفسي﴾ يعني ما كان مني في الدنيا ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ يعني ولا أطلع على غيبك وما كان منك وقال أهل اللغة: نفس الشيء: جملة الشيء وحقيقته وذاته، فمعناه تعلم ما في ضميري ولا أعلم ما في حقيقتك وغيبك ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ ما كان وما يكون وقيل: تعلم ما في نفسي التي نسبت إلي وامرتني بالتسليم إليك ولا أعلم ما في نفسك التي سلمت إليك فأنت مالکها بجميع ما كان وما يكون منها وأنت علام الغيوب قبل كونها وكون فعلها. قرأ حمزة: ^(٣) (الغيوب) بكسر الغين ومعناها واحد وقرأ نافع وعاصم وابن عامر ^(٤) (إني منزلها) بالتشديد وقرأ الباقون بالتخفيف وهما لغتان نزل، وأنزل بمعنى واحد. ثم قال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ يعني في الدنيا بالتوحيد ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ يعني وحدوا الله وأطيعوه ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ يعني على بني إسرائيل أي بلغتهم الرسالة. ويقال شهيداً يعني حفيظاً بما أمرتهم ﴿مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ يعني ما دمت مقيماً في الدنيا بين أظهرهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ يعني رفعتني إلى السماء ﴿كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ يعني الحفيظ والشاهد عليهم ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ من مقالتي ومقالتهم وما أدري ما أحدثوا بعدي. ﴿إِنْ تَعَذَّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ﴾ وإن تغفر لهم ﴿وَأَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ قرأ ابن مسعود: (فإنك أنت الغفور الرحيم) ^(٥) وقرأ غيره: (العزیز الحکیم) فإن قيل وكيف سأل المغفرة للكفار قيل له: لأن عيسى علم أن بعضهم قد تاب ورجع عن ذلك فقال: (إن تعذبهم) يعني الذين ماتوا على الكفر فإنهم عبدك وأنت القادر عليهم (وإن تغفر لهم) يعني الذين أسلموا ورجعوا عن ذلك. وقال: بعضهم: احتمل أنه لم يكن في كتابه، أن الله لا يغفر أن يشرك به فهذا المعنى دعا لهم ولكن التأويل الأول أحسن، ويقال: إن تغفر لهم يعني لكذبهم الذي قالوا عليّ خاصة لا لشركهم وهذا التأويل ليس بسديد. والأول أحسن. وروي عن أبي ذر الغفاري عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قرأ هذه الآية ذات ليلة فرددها حتى أصبح: إن تعذبهم فإنهم

(١) انظر تفسير الطبري ٢٣٤/١١. (٢) انظر تفسير ابن كثير ٢٣٧/٣.

(٣) انظر سراج القارئ ٢١٣، شرح شعلة ٣٥٥.

(٤) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٤٢. (٥) انظر البحر المحيط ٦١/٤ وما بعدها.

عبادك وإن تغفر لهم الآية^(١). وقال بعضهم: [في الآية تقديم وتأخير ومعناه: إن تعذبهم فإنك أنت العزيز الحكيم وأن تغفر لهم]^(٢) فإنهم عبادك. قوله تعالى:

قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ قرأ نافع: ^(٣) (هذا يوم) بالنصب، وقرأ الباقون: بالرفع فمن قرأ بالنصب فعلى الظرف أي قال الله تعالى هذا لعيسى في يوم ينفع الصادقين صدقهم، ومن قرأ بالرفع فعلى معنى خبر هذا يعني هذا يوم ينفع الموحدين توحيدهم. ويقال: ينفع النيين صدقهم بتبليغ الرسالة. ويقال: ينفع المؤمنين إيمانهم ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ يعني ثوابهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بالطاعة ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بالثواب ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يعني المؤمنين فازوا بالجنة. قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني خزائن السموات والأرض. ﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾ من الخلق كلهم عبيده وإماؤه. ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يعني من خلق عيسى من غير بشر. والله أعلم بالصواب.

(٣) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٤٢.

(١) أخرجه أحمد في المسند ١٤٩/٥. (٢) ما بين المعقوفين من ب.

وهي مائة وخمسة وستون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) سميت سورة الأنعام لما تكرر فيها من ذكر لفظ الأنعام ست مرات من قوله: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً﴾ - إلى قوله - إذ وصاكم الله بهذا ﴿ وهي مكية بالاتفاق فعن ابن عباس: أنها نزلت بمكة ليلاً جملة واحدة كما رواه عنه عطاء وعكرمة والعمري وهو الموافق لحديث ابن عمر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المتقدم آنفاً، وروي أن قوله تعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ الآية نزل في مدة حياة أبي طالب أي قبل سنة عشر من البعثة فإذا صح كان ضابطاً لسنة نزول هذه السورة وروى الكلبي عن ابن عباس أن ست آيات منها نزلت بالمدينة ثلاثاً من قوله ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ إلى منتهى ثلاث آيات وثلاثاً من قوله ﴿قل تعالوا أثل ما حرم ربكم عليكم﴾ - إلى قوله - ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴿ وعن أبي جحيفة أن آية ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة﴾ مدنية.

وقيل نزلت آية ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إلي﴾ الآية بالمدينة بناء على ما ذكر من سبب نزولها الآتي وقيل نزلت آية ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه﴾ الآية وآية ﴿فالذين آتيناهم الكتاب يعرفونه﴾ الآية وآية ﴿والذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به﴾ الآية كلتاها بالمدينة بناء على ما ذكر من أسباب نزولهما كما سيأتي وقال ابن العربي في أحكام القرآن عند قوله تعالى: ﴿قل لا أجد فيما أوحى إلي محرماً...﴾ الآية أنها في قول الأكثر نزلت يوم نزول قوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ الآية أي سنة عشر فتكون هذه الآيات مستثناة من مكية السورة ألحقت بها. وقال ابن عطية في تفسير قوله تعالى ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ الآية من هذه السورة إن «النقاش» حكى أن سورة الأنعام كلها مدنية، ولكن قال ابن الحصار: لا يصح نقل في شيء نزل من الأنعام في المدينة وهذا هو الأظهر وهو الذي رواه أبو عبيد واليهقي وابن مردويه والطبراني عن ابن عباس وأبو الشيخ عن أبي بن كعب.

وعن ابن عباس أنها نزلت بمكة جملة واحدة ودعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الكتاب فكتبوها من ليلتهم .

وروى سفيان الثوري وشريك عن أسماء بنت يزيد الأنصارية: نزلت سورة الأنعام على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جملة وهو في مسير وأنا أخذه بزمام ناقته إن كادت من ثقلها لتكسر عظام الناقة ولم يعينوا هذا المسير ولا زمنه غير أن أسماء هذه لا يعرف لها مجيء إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل هجرته ولا هي معدودة فيمن بايع في العقبة الثانية حتى يقال إنها لقيت قبل الهجرة، وإنما المعدودة أسماء بنت عمرو بن عدي فحال هذا الحديث غير بين. ولعله التبس فيه قراءة السورة في ذلك السفر بأنها نزلت حينئذ.

قالوا: ولم تنزل من السور الطوال سورة جملة واحدة غيرها. وقد وقع مثل ذلك في رواية شريك عن أسماء بنت يزيد كما علمته آنفاً، فلعل حكمة إنزالها جملة واحدة قطع تعلق المشركين في قولهم ﴿لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة﴾. توهماً منهم أن تنجيم نزوله يناقض كونه كتاباً فأنزل الله سورة الأنعام وهي في مقدار كتاب من كتبهم التي يعرفونها كالإنجيل والزبور ليعلموا أن الله قادر على ذلك، إلا أن حكمة تنجيم النزول أولى بالمراعاة، وأيضاً ليحصل الإعجاز بمختلف أساليب الكلام من قصر وطول وتوسط، فإن طول الكلام قد يقتضيه المقام كما قال «قيس بن خارقة» يفخر بما عنده من الفضائل وخطبة من لدن تطلع الشمس إلى أن تغرب إلخ...

(٢) انظر تفسير القرطبي ٢٤٦/٦ قال قال الثعلبي سورة الأنعام مكية إلا ست آيات نزلت بالمدينة.

رواية أبي صالح: سورة الأنعام كلها مكية غير ست آيات (قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم.. إلى آخر الثلاث) وقوله: (وما قدرُوا الله حق.. وقوله: ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً). وقيل: نزلت جملة واحدة^(١) وشيعها

= وقال أبو داؤد بن جرير الأبادي يمدح خطباء إباد:

يرمون بالخطب الطوال وتارة وخي الملاحظ خيفة الرقباء

واعلم أن نزول هذه السورة جملة واحدة على الصحيح لا يناقض ما يذكر لبعض آياتها من أسباب نزولها لأن أسباب نزول تلك الآيات إن كان لحادث قبل الهجرة فقد تتجمع أسباب كثيرة في مدة قصيرة قبل نزول هذه السورة فيكون نزول تلك الآيات مسبباً على تلك الحوادث وإن كان بعد الهجرة جاز أن تكون تلك الآيات مدنية ألحقت بسورة الأنعام لمناسبات. على أن أسباب النزول لا يلزم أن تكون مقارنة لنزول آيات أحكامها فقد يقع السبب ويتأخر تشريع حكمه.

وعلى القول الأصح أنها مكية فقد عدت هذه السورة الخامسة والخمسين في عدد نزول السور. انزلت بعد سورة الحجر وقبل سورة الصافات.

وعدد آياتها مائة وسبع وستون في العدد المدني والمكي، ومائة وخمسة وستون في العدد الكوفي، ومائة وأربع وستون في الشامي والبصري.

ابتدأت بإشعار الناس بأن حق الحمد ليس إلا لله لأنه مبدع العوالم جواهر وأعراضاً فعلم أنه المتفرد بالإلهية وإبطال تأثير الشركات من الأصنام والجن بإثبات أنه المتفرد بخلق العالم جواهره وأعراضه وخلق الإنسان ونظام حياته وموته بحكمته تعالى وعلمه ولا تملك آلهتهم تصرفاً ولا علماً.

وتنزيه الله عن الولد والصاحبة قال أبو إسحاق الإسفرائيني: في سورة الأنعام كل قواعد التوحيد.

وموعظة المعرضين عن آيات القرآن والمكذبين بالدين الحق، وتهديدهم بأن يحل بهم ما حل بالقرون المكذبين من قبلهم والكافرين بنعم الله تعالى وأنهم ما يضررون بالإنكار إلا أنفسهم.

ووعيدهم بما سيلقون عند نزع أرواحهم ثم عند البعث، وتسفيه المشركين فيما اقترحوه على النبي - صلى الله عليه وسلم - من طلب إظهار الخوارق تهكماً. وإبطال اعتقادهم أن الله لقنهم على عقيدة الإشراك قصداً منهم لإفحام الرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وبيان حقيقة مشيئة الله.

وإثبات صدق القرآن بأن أهل الكتاب يعرفون أنه الحق. والإنحاء على المشركين تكذيبهم بالبعث وتحقيق أنه واقع وأنهم يشهدون بعده العذاب وتبترأ منهم آلهتهم التي عبدوها وسيندمون على ذلك كما أنها لا تغني عنهم شيئاً في الحياة الدنيا فإنهم لا يدعون إلا الله عند النوائب. وتبیت النبي - صلى الله عليه وسلم - وأنه لا يؤخذ بإعراض قومه وأمره بالإعراض عنهم.

وبيان حكمة إرسال الله الرسل وأنها الإنذار والتبشير وليست وظيفة الرسل إخبار الناس بما يتطلبون علمه من المغيبات. وأن تفاضل الناس بالتقوى والانتساب إلى دين الله. وإبطال ما شرعه أهل الشرك من شرائع الضلال. وبيان أن التقوى الحق ليست مجرد حرمان النفس من الطيبات بل هي حرمان النفس من الشهوات التي تحول بين النفس وبين الكمال والتزكية.

وضرب المثل للنبي مع قومه بمثل إبراهيم مع أبيه وقومه وكان الأنبياء والرسل على ذلك المثل من تقدم منهم ومن تأخر.

والمنة على الأمة بما أنزل الله من القرآن هدى لهم كما أنزل الكتاب على موسى وبيان جعلها الله خاتمة الأمم الصالحة.

وبيان فضيلة القرآن ودين الإسلام وما منح الله لأهله من مضاعفة الحسنات. وتخللت ذلك قوارع للمشركين وتنويه بالمؤمنين، وامتنان بهم اشتملت عليها مخلوقات الله وذكر مفاتيح الغيب. انظر التنوير والتحرير ١٢١/٧ - ١٢٢ - ١٢٣ - ١٢٤.

(١) قال فخر الدين: قال الأصوليون (أي علماء أصول الدين) السبب في إنزالها دفعة واحدة أنها مشتملة على دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد، وإبطال مذاهب المعطلين والملحدین، فإنزال ما يدل على الأحكام قد تكون المصلحة أن ينزل الله على قدر حاجاتهم وبحسب الحوادث، وأما ما يدل على علم الأصول فقد أنزل الله جملة واحدة.

وهي أجمع سور القرآن لأحوال العرب في الجاهلية وأشدّها مقارعة جدال لهم واحتجاج على سفاهة أحوالهم من قوله ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً﴾ وفيما حرمه على أنفسهم مما رزقهم الله. انظر التحرير ١٢٥/٧

سبعون ألف ملك^(١). قال شهر بن حوشب: ^(٢) نزلت الأنعام جملة واحدة وهي مكية غير آيتين: (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم...) وقال: بعضهم: كلها مكية. وقال كعب الأحبار: ^(٣) مفتاح التوراة قوله تعالى:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وخاتمتها خاتمة سورة هود: (ولله غيب السموات والأرض) وقوله تعالى: (الحمد لله) حمد الرب نفسه ودل بصنعه على توحيده (الذي خلق السموات والأرض) يعني خلق السموات وما فيها من الشمس والقمر والنجوم وخلق الأرض وما فيها. ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ يعني خلق الليل والنهار ويقال: الكفر والإسلام^(٤). وقال الضحاك: هذه الآية نزلت في شأن المجوس قالوا: الله خالق النور، والشیطان خالق الظلمة، فأنزل الله تعالى إكذاباً لقولهم رداً عليهم فقال: (وجعل الظلمات والنور). يعني أن الله واحد لا شريك له وهو الذي خلق السموات والأرض وهو الذي خلق الظلمات والنور ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني المجوس ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ يعني يشركون^(٥). ويقال (ثم الذين كفروا بربههم يعدلوا) يعني مشركي مكة بربههم يعدلون يعني يعبدون الأصنام. ثم قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ يعني آدم وأنتم من ذريته ومن نسله ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ يعني أجل ابن آدم منذ يوم ولد إلى يوم يموت ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ يعني البرزخ منذ يموت إلى يوم البعث فهو مكتوب في اللوح المحفوظ. فهذا قول مقاتل والحسن وقال عكرمة: (أجلاً) يعني أجل الدنيا (وأجل مسمى) يعني أجل الآخرة وهكذا قال سعيد بن جبیر: ^(٦) ويقال (أجلاً) يعني أجل كل واحد (وأجل مسمى) يعني يوم القيامة ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ يعني تشكون في البعث بعد الموت وفي الأجل المسمى. ثم قال: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ يعني هو المتفرد بالتدبير في السموات وفي الأرض. وهذا كقوله: (وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله) يعني وهو خالق السموات والأرض. ويقال: هو الذي يوحد ويقر بوحدانيته أهل السموات والأرض ويقال: عالم بما في السموات وبما في الأرض. ﴿يَعْلَمُ سِرُّكُمْ﴾ يعني يعلم سر أعمالكم ﴿وَجَهْرَكُمْ﴾ يعني علانيتكم ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ من الخير والشر فيجازيكم بذلك. ثم أخبر عن أمر المشركين فقال.

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ

(١) انظر الآثار الواردة في ذلك في الدر المنثور ٣/٣.

(٢) ذكره السيوطي رحمه الله في الدر المنثور ٣/٣ وعزاه للفريابي وإسحاق بن راهويه مسنده وعبد بن حميد والمصنف رحمه الله لم يذكر الآية الثانية وهي التي بعدها كما في الدر.

(٣) أخرجه ابن جرير في التفسير ٢٥٢/١١ وزاد نسبه السيوطي في الدر ٣/٣ لابن الضريس في فضائل القرآن وابن المنذر وأبي الشيخ.

(٤) قال ابن عطية: وهذا خروج عن الظاهر انظر تفسير القرطبي ٢٤٩/٦ وقال القرطبي معقباً على ذلك واللفظ يعمه.

(٥) وذكره مثله السيوطي في الدر المنثور عن مجاهد وعزاه لأبي الشيخ انظر الدر المنثور ٤/٣.

(٦) انظر تفسير الطبري ٢٥٧/١١.

يَأْتِيهِمْ أَنْبُؤُهُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنْتَهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ لَكُمُ وَارْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ولم يفكروا فيها ليعتبروا في توحيد الله تعالى. وذلك أن مشركي مكة سألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يرهم علامة. وقالوا: إنا نريد أن تدعو ليشق القمر نصفين، لنؤمن بك وبربك ونصدقك فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فانشق القمر شقتين. وذهب أحد النصفين إلى جانب حراء والآخر إلى جانب آخر وهم ينظرون إليه. وقال ابن مسعود: أنا رأيت حراء بين فلقتي القمر. فأعرضوا عنه فلم يؤمنوا وقالوا هذا سحر مبين فنزلت^(١). (اقتربت الساعة وانشق القمر، وإن يروا آية يعرضوا) ونزلت هذه الآية: (وما تأتيتهم من آية من آيات ربهم) يعني انشقاق القمر (إلا كانوا عنها معرضين)، يقول الله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ يعني بالقرآن حين جاءهم به محمد - صلى الله عليه وسلم - واستهزؤوا بالقرآن. بأنه ليس من الله تعالى ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ﴾ يعني سيعلمون جزاء تكذيبهم واستهزائهم بالقرآن بأنه ليس من الله تعالى. ويقال: يأتيهم أخبار ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من العذاب حين رأوها معانية. فهذا وعيد لهم أنه يصل إليهم العذاب إما في الدنيا وإما في الآخرة. ثم وعظهم ليخافوا ويرجعوا فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ يعني من قبل كفار مكة ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني مكناهم وأعطيناهم من المال والولد ﴿مَا لَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ يعني المطر متتابعاً كلما احتاجوا إليه ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ يعني عذبناهم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ وبتكذيبهم رسلهم ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يعني وجعلنا من بعد هلاكهم ﴿قَرْنًا آخَرِينَ﴾ قال الزجاج: القرن أهل كل [مدة]^(٢) فيها نبي، أو فيها طبقة من أهل العلم كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : خير القرون أصحابي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم. ثم قال:

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ آسَفْنَاهُ بَرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾ ذلك أن النضر بن الحارث وعبد الله بن أمية وغيرهما، قالوا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - لن نؤمن لك حتى تنزل علينا كتاباً من السماء، قال الله تعالى: (ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس) يقول: مكتوباً في صحيفة ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ يقول عاينوه وأخذوه بأيديهم ما يصدقونه ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني يقول الذين كفروا: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ولا يؤمنون به. ﴿وَقَالُوا: لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ من

(١) وحديث انشقاق القمر أخرجه ٦٣١/٦ في المناقب (٣٦٦) وفي ٦١٧/٨ (٤٨٦٣)، ومسلم ٢١٥٨/٤ في صفة القيامة (٤٣) -

(٢٨٠٠/٤٥).

(٢) في أ [مدينة].

السماء فيكون معه نذيراً فقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا﴾ من السماء ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ يعني لهلكوا إذا عاينوا الملك ولم يؤمنوا ولم يصدقوا لنزل العذاب بهم ﴿ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ يعني لا ينتظر بهم حتى يعذبوا. ويقال: لو نزل الملك لنزل بإهلاكهم. ويقال: لو أنزلنا ملكاً لا يستطيعون النظر إليه فيموتوا. ثم قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا﴾ يعني لو أنزلنا ملكاً بالنبوة ﴿لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ يعني لأنزلناه على شبه رجل على صورة آدمي ألا ترى أنهم حين جاءوا إلى إبراهيم - عليه السلام - جاءوا على صورة الضيفان، وعلى داود - عليه السلام - مثل خصمين وكان جبريل - عليه السلام - ينزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على صورة دحية الكلبي. ثم قال: ﴿وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يُلْبَسُونَ﴾ يعني لو نزل الملك على أشباه الأدميين لا يزول عنهم الاشتباه والتلبس. وروى بعضهم عن ابن عامر أنه قرأ: (١) (ما يلبسون) بنصب الباء يعني جعلنا عليه من الثياب ما يلبسونه على أنفسهم ظنوا أنه آدمي والقراءة المعروفة: بالكسر يقال: لبس يلبس إذا لبس الثوب ولبس يلبس: إذا خلط الأمر. وقال القتيبي: (وللبسنا) يعني أضللناهم بما ضلوا به من قبل أن يبعث الملك. ثم قال: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ يا محمد كما استهزا بك قومك في أمر العذاب ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ بالرسول ويقال: فحاق أي رجع. وقال أهل اللغة: الحيق، ما يشتمل على الإنسان من مكروه فعلته نفسه كقوله: (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله). وقال الضحاک: كان النبي - صلى الله عليه وسلم - جالساً في المسجد الحرام مع المستضعفين من المؤمنين بلال بن رباح، وصهيب بن سنان، وعمار بن ياسر وغيرهم. فمر بهم أبو جهل بن هشام في ملأ من قريش وقال: يزعم محمد أن هؤلاء ملوك أهل الجنة فأنزل الله تعالى على رسوله هذه الآية ليثبت بها فؤاده ويصبره على أذاهم (٢) فقال: (ولقد استهزى برسول من قبلك) يعني إن سخر أهل مكة من أصحابك فقد فعل ذلك الجهلة برسولهم فجعل الله تعالى دائرة السوء على أهل ذلك الاستهزاء. ثم أمر المشركين بأن يعتبروا بمن قبلهم وينظروا إلى آثارهم في الأرض فقال:

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُلْ لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُتِبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَ كُفْرُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني قل لأهل مكة سافروا في الأرض ﴿ثُمَّ أَنْظَرُوا﴾ يعني اعتبروا ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ يعني آخر أمر ﴿الْمُكَذِّبِينَ﴾ بالرسول والكتب. وقال الحسن: (سيرُوا في الأرض) يعني اقرأوا القرآن فانظروا كيف كان عاقبة المتقدمين في العذاب. فقال أهل مكة للنبي - صلى الله عليه وسلم - إن فعلت هذا الفعل لطلب المال فاترك هذا الفعل إنا نجمع لك مالاً تصير به أغنى أهل مكة فنزل قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإن أجابوك وإلا فـ ﴿قُلْ لِلَّهِ﴾ يعني ما في السموات وما في الأرض يعطي منها من يشاء. ثم قال: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ فلا يعذبكم في الدنيا. وروى عطاء عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: إن لله مائة رحمة أنزل منها واحدة فقسّمها بين الخلائق فيها يتراحمون وبها تعطف الوحوش على أولادها

(١) وقرأ ابن محيصن (وللبسنا) بلام واحدة، والزهري (وللبسنا) بتشديد الباء انظر البحر المحيط ٧٩/٤.

(٢) بنحوه انظر الدر المنثور ٥/٣.

وَأَذْخِرْ لِنَفْسِهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ^(١). ويقال: كتب الرحمة حيث أمهلهم ولم يهلكهم ليرجعوا ويتوبوا. ثم قال: ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يعني ليجمعنكم يوم القيامة وهذا كما يقال: جمعت هؤلاء إلى هؤلاء أي ضمنت بينهم في الجمع ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ يعني في البعث أنه كائن. ثم نعتهم فقال: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال بعضهم: هذا ابتداء وخبره لا يؤمنون وقال بعضهم: هذا بدل من قوله: ليجمعنكم. ثم عظم نفسه فقال:

وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أُتْخَذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُهُمْ وَلَا يُطْعَمُ قُلٌّ إِنَّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾

﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ﴾ يعني ما استقر ﴿فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ من الدواب والطيور في البر والبحر فمنها ما يستقر في الليل ويتنشر بالنهار ومنها ما يستقر بالنهار ويتنشر الليل. ثم قال: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ يعني السميع لمقاتلهم، العليم بعقوبتهم. ثم قال: ﴿قُلْ: أَغَيَّرَ اللَّهُ أُتْخَذُ وَلِيًّا﴾ وذلك أن المشركين قالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم -: إن آباءك كانوا على مذهبنا وإنما تركت مذهبهم للحاجة فارجع إلى مذهب آبائك حتى نغنيك بالمال فنزلت (قل) أغير الله أتخذ ولياً يعني أعبد رباً. ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني خالق السموات والأرض ويقال: مبتدئهما. ومنه قول النبي - صلى الله عليه وسلم - (كل مولود يولد على الفطرة)^(٢) أي على ابتداء الخلقة وهو الإقرار بالله حين أخذ عليهم العهد في أصلاب آبائهم، وإنما صار (فاطر) كسراً لأنه من صفة الله تعالى يعني أغير الله فاطر السموات والأرض. وقال الزجاج: يجوز الضم على معنى هو فاطر السموات والأرض، ويجوز النصب على معنى: اذكروا فاطر السموات، إلا أن الاختيار الكسر. ثم قال: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُهُمْ وَلَا يُطْعَمُ﴾ يعني يرزق ويقال: وهو يرزق ولا يعان على رزق الخلق. وقرأ بعضهم: (وهو يُطْعِمُهُمْ وَلَا يُطْعَمُ) بنصب الياء يعني يرزق ولا يأكل. ثم قال: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ من أهل مكة. يعني أول من أسلم من أهل مكة واستقام على التوحيد ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يعني وقال لي ربي: لا تكونن من المشركين بقولهم: ارجع إلى دين آبائك. وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ يعني إني أعلم إن عصيت ربي فرجعت إلى آبائي وعبدت غيره ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني عذاباً شديداً في يوم القيامة. ﴿مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ﴾ سوء العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ يعني غفر له وعصمه. [قرأ ابن كثير^(٣) ونافع وأبو عامر وعاصم في رواية حفص (من يصرف عنه)^(٤) بضم الياء ونصب الراء على معنى فعل ما لم يسم فاعله وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر^(٥): (من يصرف) بنصب الياء ومعناه، من يصرف الله عنه

(١) أخرجه البخاري ٤٣١/١٠ في الأدب جعل الله الرحمة (٦٠٠٠) ومسلم ٢١٠٨/٤ في التوبة باب سعة رحمة الله (٢٧٥٢/١٩).

(٢) أخرجه البخاري ٣١٩/٣ في الجنائز (١٣٥٨، ١٣٥٩)، وفي ٥١٢/٨ في التفسير (٤٧٧٥)، وفي ٤٩٣/١١ في القدر (٦٥٩٩)،

ومسلم ٢٠٤٧/٤ في القدر (٢٦٥٨/٢٢).

(٣) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٤٢ - ٢٤٣، سراج القاري ٢٠٦، شرح شعلة ٣٥٨.

(٤) سقط في أ. انظر المصدرين السابقين.

(٥) سقط في أ.

ولأنه سبق ذكر قوله: (ربي) فانصرف إليه. ثم قال: ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ يعني صرف العذاب: هو النجاة الوافرة. وروى الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: سددوا وقاربوا وأبشروا واعلموا أنه لا ينجو أحد بعمله قالوا: يا رسول الله ولا أنت؟ قال: لا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته^(١). يعني أن الخلق كلهم ينجون برحمة الله تعالى. ثم خوفه ليمسك بدينه فقال:

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾
وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ
إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَكُمْ لَتُشْهَدُونَ أَنْتَ مَعَ اللَّهِ إِلَهَهُ أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ
إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ يعني إن يصبك الله بشدة أو بلاء ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ يعني لا يقدر أحد من الآلهة التي يدعونها ولا غيرها كشف الضر إلا الله تعالى. ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ يقول: وإن يصبك بسعة أو صحة الجسم فإنه لا يقدر أحد على دفع ذلك ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من الغنى والفقر والعافية. ثم قال: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ الغالب والعالي عليهم. ويقال: القادر والمالك عليهم ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في أمره ﴿الْخَبِيرُ﴾ بأفعال الخلق. ثم قال ﴿قُلْ: أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ وذلك أن كفار مكة قالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم -: يا محمد ألا وجد الله رسولاً غيرك وما نرى أحداً من أهل الكتاب يصدقك بما تقول، فأرنا من يشهد لك أنك رسوله. فقال الله تعالى (قل): لأهل مكة (أي شيء أكبر شهادة) يعني حجة وبرهاناً. ويقال: من أكبر شهادة؟ فإن أجابوك وإلا ف ﴿قُلْ: اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ بأن رسول الله. والشهيد في اللغة: ^(٢) هو المبين وإنما سمي الشاهد شاهداً لأنه يبين دعوى المدعي بأمر الله نبيه - عليه السلام - بأن يحتج عليهم بالله الواحد القهار، الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور وخلقهم أطواراً. ثم قال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾ يعني لأخوفكم بالقرآن يا أهل مكة ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ يعني ومن بلغه القرآن سواكم فأنا نذير وبشير من بلغه القرآن من الجن والإنس. قال قتادة^(٣)، قال النبي - صلى الله عليه وسلم - (بلغوا عني ولو آية) من كتاب الله تعالى فمن بلغه فكأنما عاين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكلمه. وقال محمد بن كعب^(٤) القرظي: من بلغه القرآن فكأنما رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم قرأ: (لأنذركم به ومن بلغ). وقال مجاهد^(٥): (لأنذركم به) يعني أصحاب محمد - صلى

(١) أخرجه البخاري ٣٠٠/١١ في الرقاق ٦٤٦٣، وأخرجه مسلم ٢١٧٠/٤ في المناقبين (٢٨١٦/٧٦)، وأخرجه من رواية جابر ٢١٧١/٤ في صفات المنافقين (٢٨١٧/٧٧).

(٢) الشهيد فعيل بمعنى مفعول، سمي به لأنه مشهود له بالجنة بالنص، أو لأن الملائكة يشهدون موته إكراماً له، أو بمعنى فاعل لأنه حي عند الله تعالى حاضر. والشهيد بمعنى المستشهد المقتول انظر المغرب ٤٥٩/١ وليس هو المقصود هنا بل المقصود ما ذكر المصنف رحمه الله.

(٣) أخرجه الطبري في التفسير ٢٩٠/١١ وزاد نسبه السيوطي في الدر المنثور ٧/٣ لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري في التفسير ٢٩٠/١١ وذكره السيوطي في الدر المنثور وزاد نسبه لابن أبي شيبة، وابن الضريس وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٥) انظر تفسيره ٢١٣/١.

الله عليه وسلم - (ومن بلغ) يعني من العجم وغيرهم. ثم قال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى﴾ من الأصنام فإن قالوا: نعم (قُلْ: لَا أَشْهَدُ) بما شهدتم ولكن ﴿قُلْ﴾ أشهد ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بِرِئْءِ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ من الأصنام والأوثان. قوله تعالى

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا آيِنَ شُرَكَائِكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنَّهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة والإنجيل ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ يعني محمداً - صلى الله عليه وسلم - بنعته وصفته ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾. وقال عبد الله بن سلام: أنا أعرف بالنبي - صلى الله عليه وسلم - من إبنى لأنني أشهد أنه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا أشهد لابني لأنني لا أدري ما أحدث النساء بعدي^(١). ثم قال: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني كعب بن الأشرف ومن تابعه ممن طلبوا الرئاسة آثروا الدنيا على الآخرة. قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ يعني ممن اختلق على الله كذباً باتخاذ الآلهة، وقوله الشرك ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ يعني بالقرآن أنه ليس من عند الله، ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ يعني أنه لا يأمن الكافرون من عذابه. قال في اللغة: (إنه): مرة تكون الإشارة مثل قوله: (إنه هو الغفور الرحيم) ومرة تكون للعماد مثل قوله تعالى: (إنه لا يفلح الكافرون) (وإنه لا يفلح الظالمون) وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يوم القيامة ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا: آيِنَ شُرَكَائِكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ يعني أين آلهتكم التي تزعمون يعني تعبدون من دون الله ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنَّهُمْ﴾ وأصل الفتنة في اللغة: هو الإختبار ويقال: فتنت الذهب في النار إذا أدخلته لتعلم جودته، وإنما سمي جوابهم فتنة، لأنهم حين سئلوا اختبروا بما عندهم بالسؤال فلم يكن الجواب من ذلك الإختبار فتنة إلا هذا القول. ويقال: ثم لم تكن معذرتهم وجوابهم ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا: وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. [قال مجاهد]^(٢) إن المشركين لما رأوا يوم القيامة: أن الله لا يغفر ذنوبهم يقول بعضهم لبعض: يا ويلكم جئتم بما لا يغفر الله لكم هلموا الآن فلنكذب على أنفسنا ونحلف على ذلك فحللوا فحيث ختم على أفواههم فتشهد أيديهم وأرجلهم عليهم. قرأ ابن عامر وابن كثير وعاصم في رواية حفص^(٣): (ثم لم تكن فتنتهم) بالتاء لأن الفتنة مؤنث (فتنتهم) بضم التاء لأنه اسم تكن. وقرأ حمزة والكسائي: (ثم لم يكن) بالياء لأن الفتنة وإن كانت مؤنثة إلا أن تأنيثه ليس بحقيقي ولأن الفتنة بمعنى الافتان فانصرف إلى المعنى (فتنتهم) بالنصب فجعله خبر تكن والإسم ما بعده وقرأ أبو عمرو ونافع وعاصم في رواية أبي بكر: (ثم لم تكن) بالتاء والنصب وقرأ حمزة والكسائي: (والله ربنا) بنصب الباء ومعناه يا ربنا وقرأ الباقون^(٤): (والله ربنا) بكسر الباء على معنى النعت. قال الله تعالى لمحمد - صلى الله عليه وسلم - (انظر كيف كذبوا على أنفسهم أي كيف صار وبال تكذيبهم على أنفسهم). ويقال: يقول الله تعالى للملائكة

(١) أخرجه الطبري في التفسير ٢٩٦/١١.

(٣) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٣٤٣، شرح شعلة ٣٥٨.

(٢) في أ [يعني وانظر تفسيره ٢١٣/١].

(٤) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٤٤، شرح شعلة ٣٥٨.

أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ^ط وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَاءً آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾، يعني انظر إليهم كيف يكذبون على أنفسهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ يعني ذهب عنهم. ويقال: اشتغل عنهم الآلهة بأنفسها ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ على الله من الكذب في الدنيا. قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ يعني إلى حديثك وقراءتك يعني يستمعون ولا ينفعهم ذلك ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ يعني غطاء مجازاً لكفرهم ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ يعني صمماً وثقلاً لا يفقهون حديثك. وقال قتادة^(١): يسمعون به آذانهم ولا يعون منه شيئاً، كمثل البهيمة التي تسمع القول ولا تدري ما هو. ثم قال: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلَاءً آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ يعني انشقاق القمر، وغيره ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ يعني مخاصمونك بالباطل وينكرون أن القرآن من الله تعالى ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وذلك أن النضر بن الحارث كان يخبر أهل مكة بسير المتقدمين وبأخبارهم، فقالوا له: ما ترى فيما يقول محمد - صلى الله عليه وسلم - قال: لا أفهم مما يقول شيئاً، لا أدري أنه من أساطير الأولين الذي أخبركم به مثل حديث رستم واسفنديار، وقال القتبي: واحدها أسطورة واسطورة ومعناها الترهات والأباطيل البسباس، وهي شيء لا نظام له وليس بشيء وفي هذا دلالة نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - لأنهم كانوا يتكلمون فيما بينهم بالسر فيظهر الله أسرارهم للنبي - صلى الله عليه وسلم -. قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَتَأَوْنَ عَنْهُ﴾ يعني أهل مكة ينهون الناس عن محمد أن يتبعوه ويتباعدون عنه، أي يتنافرون. ويقال: نزل في شأن أبي طالب كان يقول للنبي - عليه السلام - أن قريشاً لن يصلوا إليك حتى أوسد في التراب فامض يا ابن أخي فما عليك غضاضة يعني ذلاً وكان لا يسلم لأجل المقالة. فنزل (وهم ينهون عنه) يعني أبا طالب ينهى قريشاً عن إيذائه وينأى عنه ويتباعد عن دينه. وهذا قول الكلبي، والضحاك ومقاتل. والقول الأول أيضاً قول الكلبي. ثم قال: ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ يعني وما يهلكون إلا أنفسهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك. قوله تعالى:

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا لَإِنَّا نَارُذُ وَلَا نَكُذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَاهُمْ مَكَانُؤُهُمْ يَخْشَوْنَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ﴾. قال الكلبي: يعني حبسوا على النار^(٢) وقال مقاتل^(٣) يعني عرضوا على النار وقال الضحاك^(٤): يعني جمعوا على أبوابها ويقال: وقفوا على متن جهنم والنار تحتهم. وروي في الخبر: أن الناس كلهم وقفوا على متن جهنم، كأنها متن الأهالة ثم نادى مناد، خذي أصحابك ودعي أصحابي. ثم قال: ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ إلى الدنيا ولم يذكر في الآية الجواب لأن في الكلام ما دل عليه فكأنه يقول: ولو ترى يا محمد

(١) أخرجه الطبري في التفسير ٣٠٧/١١.

(٢) انظر التفسير ٣٧٠/١.

(٣) انظر تفسير القرطبي ٢٦٣/٦.

(٤) تفسير القرطبي ٣٦٣/٦.

كفار قريش حين وقفوا على النار لعجبت من ذلك فقالوا: يا ليتنا نرد إلى الدنيا ﴿وَلَا نُكْذِبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قرأ حمزة وابن عامر وعاصم في رواية حفص^(١): (ولا نكذب [بالنصب (ونكون) بالنصب. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع وعاصم في رواية أبي بكر: (ولا نكذب)^(٢) [ونكون) كلاهما بالضم على معنى الخبر. ومن قرأ بالنصب فلأنه جواب التمني وجواب التمني إذا كان بالواو والفاء يكون بالنصب كقولك: ليتك تصير إلينا ونكرمك^(٣). وقرأ بعضهم: (ولا نكذب) بالضم و(نكون) بالنصب في رواية هشام بن عمار عن ابن عامر. وقرأ عبد الله بن مسعود: (فلا نكذب) بالفاء. قوله تعالى: ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ﴾ يعني ظهر لهم ﴿مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ بالاستتهم لأن الجوارح تشهد عليهم بالشرك، فحينئذ يتمنون الرجعة ﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾ إلى الدنيا ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ يعني رجعوا إلى كفرهم ﴿وإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في قولهم: (ولا نكذب بآيات ربنا) لأنهم قد علموا في الدنيا وعانيوه وقد عاين إبليس وشاهد، ومع ذلك كفر وكذلك هاهنا لو رجعوا لكفروا كما كفروا من قبل: لأنك ترى في الدنيا إنساناً أصابه مرض أو حبس في السجن أخلص بالتوبة لله تعالى أن لا يرجع إلى الفسق فإذا برأ من مرضه أو أطلق من الحبس رجع إلى الحال الأول. قوله تعالى:

وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا أَيْحَسِرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۖ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٣١﴾

﴿وَقَالُوا: إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ يعني ما هي إلا آجالنا تنقضي في الدنيا، فيموت الآباء ويحيى الأبناء ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد الموت فيبين الله تعالى حالهم يومئذ فقال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا﴾ يعني عرضوا وسيقوا وحبسوا ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ يعني عند ربهم وعند عذاب ربهم ﴿قَالَ: أَلَيْسَ هَذَا﴾ يعني العذاب والبعث ﴿بِالْحَقِّ قَالُوا: بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أفروا في وقت لا ينفعهم الإقرار ﴿قَالَ: فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ به وتجحدونه. قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ يعني غبن الذين جحدوا بالله وبالبعث حين اختاروا العقوبة على الثواب ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ يعني فجأة ومعناه أنهم جحدوا وثبتوا على جحودهم حتى إذا جاءتهم القيامة ﴿قَالُوا: يَا حَسْرَتَنَا﴾ يعني يا ندامتنا وخزينا والعرب إذا اجتهدت في المبالغة في الإخبار عن أمر عظيم تقع فيه جعلته نداء كقوله: (يا حسرتنا) و (يا ويلتنا) و (يا ندامتنا) ﴿عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا﴾ يعني ضيعنا وتركنا العمل ﴿فِيهَا﴾ يعني في الدنيا من عمل الآخرة ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ يعني آثامهم ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ يعني إنهم يحملون آثامهم. وروى

(١) والمعنى: ليت مصيرك يقع. وإكرامنا ويكون المعنى ليت ردنا وقع ولا تكذب أي ردنا لم تكذب.

(٢) ما بين المعقوفين سقط من ب.

(٣) وقال الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

أمباط عن السدي^(١) قال: ليس من رجل ظالم يدخل قبره إلا آتاه ملك قبيح الوجه، أسود اللون. متن الريح عليه ثياب دنسة فإذا رآه قال: ما أقبح وجهك فيقول: كذلك كان عملك قبيحاً فيقول: ما أنتن ريحك فيقول كذلك كان عملك متنتاً فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا عملك. فيكون معه في قبره فإذا بعث يوم القيامة قال له إني كنت أحملك في الدنيا باللذات والشهوات فأنت اليوم تحملني فيركب على ظهره حتى يدخله النار قال: وذلك قوله: (وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم) وذلك على سبيل المجاز يعني يحملون وبال ذلك [على ظهورهم]^(٢) وعقوبته ويقال: وقرت ظهورهم من الآثام ثقلت وحملت وأصل الوزر في اللغة: هو الثقل. ثم قال: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ يعني يحملون. قوله تعالى:

وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ يعني لعب كلعب الصبيان بينون بنياناً ثم يهدمونه ويلعبون ويلهون وبينون ما لا يسكنون [كذلك أهل الدنيا يجمعون ما لا يأكلون وبينون ما لا يسكنون]^(٣) ويأملون ما لا يدركون. ثم قال: ﴿وَلِلْآخِرَةِ الْآخِرَةُ﴾ يعني الجنة ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ﴾ الشرك والفواحش ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أن الآخرة أفضل من الدنيا، قرأ ابن عامر:^(٤) (وَلِلْآخِرَةِ الْآخِرَةُ) بلام واحدة بالتخفيف وبكسر الآخرة على معنى الإضافة [وقرأ الباقون: (وللدار الآخرة) بلامين والآخرة بالضم على معنى النعت]^(٥) وقرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية حفص: (أفلا تعقلون) بالتاء على معنى المخاطبة. والباقون بالياء على معنى المغاية. قوله تعالى:

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّائِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ أُسْتَطِيعَتْ أَنْ تَبْغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بَأْيَةٌ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ روى سفيان عن أبي إسحق عن ناجية بن كعب^(٦) قال: قال أبو جهل للنبي - صلى الله عليه وسلم - ما نتهمك ولكن نتهم الذي جئت به فزلت هذه الآية^(٧). وروى أبو معاوية عن

(١) أخرجه الطبري في التفسير ٣٢٨/١١، وزاد السيوطي نسبته في الدر المنثور ٩/٣ لابن أبي حاتم.

(٢) سقط في أ.

(٣) سقط في أ.

(٤) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٤٦، سراج القارئ ٢٠٧، شرح شعلة ٣٥٩.

(٥) سقط في أ.

(٦) الأسدي الكوفي روى عن ابن مسعود وعلي وعمار وعنه خلق، وثقه العجلي، وذكره ابن حبان في الثقات انظر التهذيب ٣٩٩/١٠ - ٤٠١.

(٧) أخرجه الترمذي ٢٤٣/٥ في التفسير (٣٠٦٤)، وأخرجه ابن جرير في التفسير ٣٣٤/١١ (١٣١٩٥)، والحاكم في المستدرک ٣١٥/٢ وزاد نسبته السيوطي في الدر المنثور لابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه والضياء في المختارة.

إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح قال: جاء جبريل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو حزين، فقال: ما يحزنك؟ قال: كذّبتني هؤلاء فقال: إنهم لا يكذبونك، يعلمون أنك صادق فنزلت هذه الآية: ^(١) (قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون) من تكذيبهم إياك في العلانية ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ في السر ويعلمون أنك صادق وكانوا يسمونه أميناً قبل أن يوحى إليه فلما أوحى إليه كذبوه، فقال ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ وهم يعلمون أنك صادق. والجدد يكون ممن علم الشيء ثم جحده كقوله تعالى: (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم) قرأ نافع والكسائي: ^(٢) (فإنهم لا يكذبونك) بالتخفيف وقرأ الباقون بالتشديد فمن قرأ بالتخفيف فمعناه أنهم لا يجحدونك كاذباً، ومن قرأ بالتشديد فمعناه: أنهم لا ينسبونك إلى الكذب ولا يكذبونك في السر، وقرأ نافع: ^(٣) (يحزنك) برفع الياء وكسر الزاي وقرأ الباقون (ليحزنك) بنصب الياء وضم الزاي ومعناها واحد. ثم عزاه ليصبر على أذاهم فقال: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعني أن قومهم كذبوهم كما كذبك قريش ﴿فَصَبِّرْ وَاعْلَمْ كَذُوبَهُمْ وَأَوْدُوا﴾ يعني صبروا على تكذيبهم وأذاهم ﴿حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ يعني عذابنا لهلاكهم ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ يعني لا مغير لوعده الله فهذا وعد من الله تعالى للنبي - صلى الله عليه وسلم - بالنصرة، كما نصر النبيين من قبله. ثم قال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ﴾ يعني من خبر المرسلين كيف أنجيت المرسلين وكيف أهلكك قومهم. فلما وعد الله تعالى بالنصرة للنبي - صلى الله عليه وسلم - تعجل أصحابه لذلك، وأرادوا أن يعجل بهلاك الكفار، فنزل: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ خاطب النبي - صلى الله عليه وسلم - وأراد به قومه، فقال: إن عظم عليك إعراضهم عن الإيمان، ولا تصبر على تكذيبهم إياك ﴿فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني إن قدرت أن تطلب سرباً في الأرض والنفاء، إحدى جحري اليربوع ﴿أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾ يعني مصعداً إلى السماء ﴿فَتَأْتِيَهُمْ بَأْيَةٌ﴾ فافعل ذلك على وجه الإضمار وهذا كما قال في آية أخرى (من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء) الآية. وروى محمد بن المنكدر: أن جبريل قال للنبي - صلى الله عليه وسلم - : إن الله أمر السماء أن تطيعك، وأمر الأرض أن تطيعك، وأمر الجبال أن تطيعك، فإن أحببت أن ينزل عذاباً عليهم. قال: يا جبريل أؤخر عن أمي، لعل الله أن يتوب عليهم. ثم قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ﴾ يعني لهداهم إلى الإيمان. ويقال: ولو شاء لاضطرهم إلى الهدى، كما قال في آية أخرى: ﴿إِنْ شَاءَ نُنْزِلُ عَلَيْهِمُ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ (ومعناه ولو شاء الله لجمعهم على الهدى قهراً وجبراً، ولكن ما فعل، وكلفهم وتركهم فاختيارهم). ثم قال: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ يعني بأنه لو شاء لهداهم. وقال الضحاك: يعني القدر خيره وشره من الله تعالى، فلا تجعل معرفة ذلك بعد البيان. ثم قال:

إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ تُعْرَى إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ يعني يطيعك ويصدقك الذين يسمعون منك كلام الهدى والمواعظ. قال

(١) أخرجه الطبري في التفسير ٣٣٢/١١ وذكره السيوطي في الدر المنثور ١٠/٣.

(٢) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٣٤٧، سراج القاري ٢٠٧.

(٣) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٤٦.

الزجاج: يعني يسمع سماع قابل، فالذي لا يقبل كأنه أصم كما قال القائل: أصم عما ساءه سميع. ويقال: فلا تكونن من الجاهلين، بأنه يؤمن بك بعضهم، ولن يؤمن بك البعض، وإنما يؤمن بك الذي وفقه الله للهدى، وهو أهل لذلك وقال: (إنما يستجيب الذين يسمعون) يعني يعقلون الموعدة. ثم قال: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ أي كفار مكة سماهم الله موتى لأنه لا منفعة لهم في حياتهم (يبعثهم الله) يعني يحييهم بعد الموت ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يَرْجَعُونَ﴾ يعني الكفار في الآخرة فينبئهم، فهذا تهديد لهم. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا: لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ يعني الكفار قالوا: هلا نزل عليه آية من ربه، يعني علامة لنبوته. ﴿قُلْ: إِنْ اللَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً﴾ كما سألك ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بأن الله قادر على أن ينزلها. ويقال: لا يعلمون بما في نزول الآية، لأنه لو نزلت الآية عليهم فلم يؤمنون به، استوجبوا العذاب. قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ فذكر الجناحين للتأكيد، لأنه يقال: طار في الأمر، إذا أسرع فيه، فإذا ذكر الجناحين صار تأكيداً له. وقرأ بعضهم (ولا طائر) بالضم، لأن معناه، وما دابة في الأرض ولا طائر لأن (من) زيادة فيكون الطائر عطفاً ورفعاً، وهي قراءة شاذة، ثم قال: ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ في الخلق والموت والبعث، تعرف بأسمائهم ﴿مَا فَرَطْنَا﴾ يقول: ما تركنا ﴿فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني في اللوح المحفوظ مما يحتاج إليه الخلق، إلا قد بيناه، ويقال: في القرآن. قد بين كل شيء يحتاج إليه ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ يعني الدواب والطيور يحشرون ثم يصيرون تراباً. وروى جعفر بن برقان عن يزيد بن الأصم عن أبي هريرة قال: يحشر الله تعالى الخلق كلهم يوم القيامة، والبهائم والدواب والطيور وكل شيء فيبلغ من عدله أن يأخذ للجَمَاء من القرآن ثم يقول: كوني تراباً^(١). وعن أبي ذر قال: انتطحت شاتان عند النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: يا أبا ذر، هل تدري فيما انتطحنا؟ قلت: لا، قال: لكن الله تعالى يدري فسيقضي بينهما^(٢) وقال: بعضهم هذا على وجه المثل، لأنه لا يجري عليهم القلم فلا يجوز أن يؤاخذوا به. ثم قال:

وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا صُمْ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِلَٰهُهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني محمداً - صلى الله عليه وسلم - والقرآن ﴿صُمْ﴾ عن الخبر، فلا يسمعون الهدى ﴿وَبُكْمٌ﴾ يعني خرساً فلا يتكلمون بخير ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ يعني في الضلالات ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ﴾ يعني يخذله فيموت على الكفر ﴿وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يعني يستنقذه من الكفر فيوفقه للإسلام. ثم قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ (٣) الكاف زيادة في بيان الخطاب ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ في الدنيا ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ يعني

(١) أخرجه ابن جرير الطبري ٣٤٧/١١، والحاكم في المستدرک ٣١٦/٢ وزاد نسبه السيوطي في الدر المنثور ١١/٢ لعبد الرزاق وأبي عبيد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٦٢/٥، وابن جرير الطبري في التفسير ٣٤٨/١١ وذكره السيوطي في الدر المنثور ١١/٣.

(٣) قرأ نافع: (قل أرايتكم) و (أرايتم) بالالف من غير همز وحجته في ذلك أنه كره أن يجمع بين همزتين ألا ترى أنه قرأ (وإذا رأيت) =

القيامة. ثم رجع إلى عذاب الدنيا فقال: ﴿أَعِزَّ اللَّهُ تَدْعُونَ﴾ ليدفع عنكم العذاب ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأن مع الله آلهة أخرى قوله تعالى: ﴿يَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ قال أهل اللغة: (١) بل للاستدراك والإيجاب بعد النفي، وإنما تستعمل في موضعين: أحدهما لتدارك الغلط، والثاني: لترك شيء وأخذ شيء آخر فهذا هنا بين أنهم لا يدعون غير الله تعالى، وإنما يدعون الله ليكشف عنهم العذاب ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ وإنما قرن بالاستثناء وبالمشيئة، لأن كشف العذاب فضل الله تعالى، وفضل الله تعالى يؤتيه من يشاء، ثم قال: ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ يعني تتركون دعاء الآلهة عند نزول الشدة. ثم ذكر حال الأمم الماضية لكي يعتبروا فقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فكذبوهم على وجه الإضمار ﴿فَأَخَذْنَاَهُمْ بِالْبَاسَاءِ﴾ يعني بالخوف والشدة ﴿وَالضَّرَاءِ﴾ يعني الزمانة والفقر وسوء الحال والجوع. وقال الزجاج: البأساء: الجوع، والضراء: النقص في الأموال والأنفس. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ يعني لكي يرجعوا إليه، ويؤمنوا به قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا﴾ يقول: فهلا إذا جاءهم عذاباً ﴿تَضَرَّعُوا﴾ إلى الله ويؤمنون به، حتى يرفع عنهم العذاب يعني أنهم لو آمنوا لدفع عنهم العذاب، ولكن أصروا على ذلك فذاك قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني جفت وبيست قلوبهم ﴿وَزَيَّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من عبادتهم الأصنام. ثم قال.

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ يعني: الأمم الخالية حين لم يعتبروا بالشدة، ولم يرجعوا: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من النعم والخصب. ويقال: إن الله تعالى يتلى العوام بالشدة فإذا أنعم عليهم يكون استدراجاً، وأما الخواص فيبتليهم بالنعمة والرخاء، فيعرفون ويعدون ذلك بلاء، كما روي في الخبر: (٢) إن الله تعالى أوحى إلى موسى بن عمران (إذا رأيت الفقر مقبلاً إليك فقل: مرحباً بشعار الصالحين وإذا رأيت الغنى مقبلاً إليك، فقل: ذنب عجلت عقوبته). فهؤلاء الذين أرسل إليهم، ابتلاهم الله تعالى بالشدة فلم يعتبروا، ولم يرجعوا، فتح عليهم أبواب كل خير، عقوبة لهم لكي يعتبروا فيها. قال الفقيه: حدثنا الخليل بن أحمد، قال: حدثنا عبد الله بن أحمد (٣)

١= بالهمز لأنه لم يتقدمه همزة الإستفهام فيترك الثانية.

وقرأ الكسائي: (أرأيتم) بغير همزة ولا ألف. وحجته إجماع العرب على ترك الهمزة في المستقبل في قولهم: (تري ونري) فبنى الماضي على المستقبل مع زيادة الهمزة في أولها فإذا لم تكن في أولها همزة الإستفهام لم يترك الهمزة مثل: (رأيت) لأن من شرطه إذا تقدمها همزة الإستفهام فحينئذ يستقل الجمع بينهما، وأخرى وهي أنها كتبت في المصاحف بغير ألف.

وقرأ الباقون: (أرأيتم) بالهمزة وحجتهم أنهم لم يختلفوا فيما كان من غير استفهام فكذلك إذا دخل حرف الاستفهام فالحرف على أصله ألا ترى أنهم لم يختلفوا في قوله (رأيت المنافقين) و (رأيت الناس). انظر ابن زنجلة ٢٥٠.

(١) الإتيان في علوم القرآن ١٨٥/٢، مغني اللبيب ١١٢/١ - ١١٣.

(٢) قال الحافظ العراقي في تخريجه على الإحياء ١٩٦/٤ أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية مكحول عن أبي الدرداء ولم يسمع منه ورواه أبو نعيم من قول كعب الأحبار غير مرفوع بإسناد ضعيف.

(٣) عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني أبو عبد الرحمن البغدادي روى عن خلق وروى عنه خلق انظر انتهىذ ١٤١/٥ - ١٤٣.

قال: حدثنا أبو عتبة^(١)، قال: حدثنا محمد بن حمير^(٢)، عن شهاب بن خراش^(٣) عن حرملة^(٤) عن عقبة بن مسلم^(٥)، عن عقبة بن عامر^(٦)، قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا رأيت الله تعالى يعطي عبداً من الدنيا على معصية مما يحب، فإنما ذلك منه استدراج ثم قرأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (فلما نسوا ما ذكروا به، فتحنا عليهم أبواب كل شيء... الآية). وقال الحسن: والله ما أحد من الناس بسط الله له في الدنيا، فلم يخف أن يكون قد مكر له فيها، إلا كان قد نقص عمله وعجز رأيه وما أمسكها الله تعالى عن عبد فلم يظن أنه قد خير له فيها، إلا كان قد نقص عمله، وعجز رأيه (فلما نسوا ما ذكروا به) يعني تركوا ما وعظوا به (فتحنا عليهم أبواب كل شيء) يعني أرسلنا عليهم كل خير ويقال: فتحنا عليهم أبواب كل شيء من الرزق. قرأ ابن عامر^(٧) (فتحنا) بالتشديد على معنى المبالغة، والباقون: بالتخفيف ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ من أنواع الخير، فأعجبهم ما هم فيه ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ يعني أصبناهم بالعذاب فجأة ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ يعني آيسين من كل خير. وقال مجاهد^(٨) الإبلاس الفضيحة. وقال الفراء: المبلس: المنقطع بالحجة. وقال الزجاج: المبلس: الشديد الحسرة والآيس الحزين. وقال بعضهم في الآية تقديم وتأخير، ومعناه، فلما فتحنا عليهم أبواب كل شيء ونسوا ما ذكروا به أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون. ثم قال عز وجل: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني قطع أصلهم فلم يبق منهم أحد ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على هلاك أعدائه واستئصالهم. ويقال: الحمد لله الذي ينتقم من أعدائه ولا ينتقم منه أحد، ويقال: هذا تعليم ليحمدوه سبحانه على إهلاك الظالمين. قوله تعالى:

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرُ
كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنُكِّمَ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ
جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ

(١) أحمد بن الفرج بن سليمان الكندي أبو عتبة الحمصي المعروف بالحجازي المؤذن بجامع حمص قال مسلمة بن قاسم ثقة مشهور قال ابن حبان في الثقات يخطي انظر التهذيب ٦٧/١ - ٦٩.

(٢) محمد بن حمير بن أنيس القضاعي ثم السلمي أبو عبد الحميد ويقال أبو عبد الله الحمصي روى عن خلق انظر التهذيب ١٣٤/٩ - ١٣٥.

(٣) شهاب بن ضراس بن حوشب بن يزيد بن الحارث الشيباني الحوشي أبو الصلت الواسطي ابن أخي العوام انظر التهذيب ٣٦٦/٤ - ٣٦٧.

(٤) حرملة بن عمران بن قراد التجيبي أبو حفص المصري وثقه أحمد وابن معين توفي سنة ١٦٠ هـ انظر التهذيب ٢٢٩/٢.

(٥) عقبة بن مسلم التجيبي أبو محمد المصري القاصص إمام المسجد العتيق بمصر وثقه العجلي وذكره ابن حبان في الثقات له توفي قريباً من سنة عشرين ومائة انظر التهذيب ٢٤٩/٧ - ٢٥٠.

(٦) أخرجه أحمد في المسند ١٤٥/٤، وابن جرير في التفسير ٣٦١/١١ وزاد السيوطي في الدر المنثور ١٢/٣ نسبته إلى ابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه وابن المنذر والطبراني في الكبير وذكره الهيثمي في المجمع ٧ - ٢٠، ٢٤٥/١٠ - والبيهقي في الشعب وأخرجه الدولابي في التفسير ٣٥١/٣ وهي في المشكاة (٥٢٠١) وفي الكنز (٣٠٧٤٣).

(٧) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٥٠.

(٨) لم أجده عن مجاهد بل الذي في تفسير الطبري عن مجاهد: الإبلاس الاكتئاب انظر تفسير الطبري ٣٦١/١١.

ءَامِنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أي قل لأهل مكة أرايتم ﴿إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ﴾ فلم تسمعوا شيئاً ﴿وَأَبْصَارَكُمْ﴾ فلم تبصروا شيئاً ﴿وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ فلم تعقدوا شيئاً ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ يعني هل أحد يرده عليكم ﴿يَأْتِيَكُمْ بِهِ﴾ يعني يخلقها لكم. ثم قال: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ أي كيف تبين لهم العلامات فيما ذكر من تخويفهم ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ﴾ يعني يعرضون ولا يعتبرون. قرأ نافع: (أرايتم: بعد الألف بغير همز، وقرأ الكسائي بغير مد ولا همز. وقرأ الباقون: بالهمز. فهي كلها لغات العرب. ثم قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾: إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ يعني فجأة أو علانية ﴿هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾. يعني لا يهلك إلا القوم الكافرون. ثم قال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ يعني ليس لهم أن يقترحوا من أنفسهم وإنما أرسلهم بتبليغ الرسالة مبشرين بالجنة لمن أطاعه، ومنذرين بالنار لمن عصاه ﴿فَمَنْ أَمَنَ﴾ يعني صدق بالرسول ﴿وَأَصْلَحَ﴾ يعني سلك طريقهم، وأصلح العمل، ويقال: أخلص العمل بعد الإيمان ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يعني لا خوف عليهم من أهوال القيامة، ولا هم يحزنون عند الصراط. ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يعني يصيبهم العذاب بكفرهم، ولا يعذب أحداً بغير ذنب. ثم قال:

قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنَّا تَعِبْنَا إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا أَتَاكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ يعني مفاتيح الرزق ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ يعني متى ينزل العذاب بكم، هذا جواب لقولهم: (لولا أنزل عليه ملك)، (ولولا نزل عليه آية من ربه) ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ﴾: إِنِّي مَلَكٌ ﴿من السماء، إنما أنا بشر مثلكم﴾ ﴿إِنْ أَتَّبِعُ﴾ يعني ما أتبع ﴿إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ من القرآن ﴿قُلْ: هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ يعني الكافر والمؤمن ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ في أمثال القرآن ومواعظه. قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ يعني خوف بالقرآن ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ يعني يعلمون ﴿أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ في الآخرة. وإنما خص بالإنذار الذين يعلمون، وإن كان منذراً لجميع الخلق لأن الحجة عليهم وجبت لاعترافهم بالمعاندة، وهم أهل الكتاب، كانوا يقرون بالبعث ويقال: هم المسلمون، يعلمون أنهم يبعثون يوم القيامة، ويؤمنون به ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني يعلمون أنه ليس لهم من دون الله يعني من عذاب الله ﴿وَلِيٌّ﴾ في الدنيا ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ في الآخرة ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يعني أنذرهم لعلهم يتقون المعاصي. ويقال: (لعلهم يتقون) لكي يتقوا ويثبتوا على الإسلام. فإنهم إن لم يثبتوا ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ روي عن سعد بن أبي وقاص^(١)

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٤١٣/٤٦/٤٥)، وأخرجه ابن جرير في التفسير ٣٧٨/١١، وأخرجه ابن ماجه ١٣٨٣/٤ في =

أنه قال: نزلت هذه الآية في ستة من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - منهم عبد الله بن مسعود، قالت قریش: تدني هؤلاء السفلة، هم الذين يلونك، أي يصرونك، فوقع في قلبه أن يطردهم فنزل: (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي). وروى أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس قال: كان رجال يستبقون إلى مجلس النبي - صلى الله عليه وسلم - فيهم بلال، وصهيب فيجيء أشراف من قومه وسادتهم فيجلسون ناحية، فقالوا له: إنا سادات قومك وأشرافهم، فلو أدنيتنا؟ فهم أن يفعل فنزل (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي) الآية. ويقال: إن أبا جهل وأصحابه اختالوا ليطرد النبي - صلى الله عليه وسلم - أصحابه عن نفسه فقالوا أن محمداً يتبعه الموالي والأراذل فلو طردهم لاتبعناه فاستعانوا بعمر - رضي الله عنه - فأخبر عمر بذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأن يفعل ذلك، فنزل^(١): (ولا تطرد الذين يدعون ربهم) يعني يعبدون ربهم، (بالغداة والعشي) يعني يصلون لله تعالى في أول النهار وآخره ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ يعني يريدون بصلواتهم وجه الله تعالى ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني ما عليك من عملهم من شيء. ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني الإثم. ويقال: معناه فما عليك إن لم يسلموا فليس عليك من أوزارهم شيء. ويقال: يعني به الضعفة من المسلمين فلا تطردهم، لأنه ليس عليك من حسابهم من شيء (أي فليس عليك من أرزاقهم شيء لكن أرزاقهم على الله) ثم قال: ﴿فَتَطْرَدُهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني لو طردتهم من مجلسك فتكون من الضارين بنفسك. قرأ ابن عامر^(٢): (بالغدوة) وقرأ الباقر: (بالغداة) وهما لغتان ثم قال:

وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا أَوْ إِجْهَالًا ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غُفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا يَقُول: هكذا ابتلينا ﴿بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ يعني الشريف بالوضيع والعربي بالمولى والغني بالفقير ﴿لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ فلم يكن الاختيار لأجل أن يقولوا ذلك ولكن كان الاختبار سبباً لقولهم. وهكذا قوله تعالى: (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً). فلم يأخذوه لأجل ذلك ولكن كان أخذهم سبباً لذلك فكانهم أخذوه لأجل ذلك هاهنا. ما كان الاختبار لأجل أن يقولوا هؤلاء من الله عليهم من بيننا لأنهم كانوا يقولون: لو كان خيراً ما سبقونا إليه ومعناه: ليظهر الذين يقولون: هؤلاء من الله عليهم من بيننا. قال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾. يعني بالموحدين منكم من غيرهم. قال الكلبي: فلما نزلت هذه الآية جاء عمر - رضي الله عنه - فاعتذر فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ يعني عمر ﴿فَقُلْ: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ يعني قبلت توبتكم. ويقال: قبل الله عذرهم ويقال: المعنى (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا) يعني الضعفة من المسلمين فابتدىء بالسلام وقل: سلام عليكم ﴿كَتَبَ

= كتاب الزهد (٤١٢٨)، وأخرجه النسائي في الكبرى في كتاب المناقب، وعبد بن حميد كما في المنتخب (١٣١) وأبو يعلى (٨٢٦)، والحاكم في المستدرک ٣/٣١٩ وصححه وأقره الذهبي، وأخرجه الواحدي في أسباب النزول ١٦١ وزاد نسبه السيوطي في الدر المنثور ٣/١٣ للفريابي وأحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وأبي الشيخ وابن مردويه وأبي نعيم في الحلية والبيهقي في الدلائل.

(١) انظر أسباب النزول للواحدي ١٦٣.

(٢) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٥١، سراج القاري ٢٠٨.

رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴿ يعني أوجب الرحمة وقبول التوبة ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾ يعني من ركب معصية وهو جاهل بركوبها وإن كان يعلم أنها معصية ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ بعد السوء ﴿وَأَصْلَحَ﴾ العمل ﴿فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (غفور) يعني متجاوز للذنوب (رحيم) حين قبل التوبة. ويقال: معناه من عمل منكم سوءاً ثم تاب يغفر له، فكيف من كان قصده الخير فهو أولى بالرحمة. وروي سفيان عن مجمع^(١) عن ماهان الحنفي^(٢) قال: جاء قوم إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - قد أصابوا ذنباً عظيماً فأعرض عنهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فنزل: (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)^(٣). قرأ عاصم وابن عامر^(٤) (أنه من عمل): بنصب الألف فإنه غفور بالنصب على معنى البناء، ومعناه: كتب أنه. وقرأ نافع: (أنه) بالنصب على معنى البناء (فإنه) بالكسر على معنى الابتداء. وقرأ الباقون: كلاهما بالكسر على معنى الابتداء. ثم قال:

وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا آتِئُكُمْ أَهْوَاءُكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾

﴿وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ﴾. قل القتيبي: يعني تأتي بها متفرقة شيئاً بعد شيء ولا نزلها جملة متصلة. ويقال: (نفصل الآيات) يعني نبين الآيات بالقرآن. ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ يعني طريق المشركين لماذا لا يؤمنون لأنهم إذا رأوا الضعفاء يسلمون قبلهم امتنعوا. ويقال: (ولتستبين سبيل المجرمين) يعني تفرقهم. قرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم في رواية حفص^(٥): (ولتستبين سبيل) بالتاء و(سبيل) بالضم لأن السبيل مؤنث كقوله (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله). ومعناه ليظهر لكم طريق المشركين. وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر: (ولتستبين) بالياء (سبيل المجرمين) بالضم لأن السبيل هو الطريق، والطريق يذكر ويؤنث. وقرأ نافع: (ولتستبين) بالتاء (سبيل) بالنصب يعني لتعرف يا محمد طريق المشركين. قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني الأصنام. ويقال معناه قل إنني نهيت عن طرد الضعفاء عن مجلسي كما نهيت عن عبادة الأصنام. ثم قال: ﴿قُلْ: لَا آتِئُكُمْ أَهْوَاءُكُمْ﴾ يعني لا أذهب مذهمكم. ويقال: لا آتبع هواكم يعني لا أرجع إلى دينكم في بغض الفقراء ومجانبتهم ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا﴾ يعني إن فعلت ذلك فقد ضللت إذا. قرأ بعضهم: (ضَلَلْتُ) بالكسر وهو شاذ^(٦) يعني ضللت سبيل الهدى ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ يعني لم أكن على الحق. ثم قال:

(١) مجمع التيمي وهو ابن سمعان الحاتل أبو حمزة كوفي وثقه يحيى بن معين انظر الجرح والتعديل ٢٩٥/٨ - ٢٩٦.
(٢) أبو سالم الكوفي الأعور العابد روى عن خلق وروى عنه خلق ذكره ابن حبان في الثقات قتل سنة ثلاث وثمانين انظر التهذيب ٢٥/١٠ - ٢٦.

(٣) أخرجه ابن جرير في التفسير ٣٩١/١١.

(٤) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٥٢، سراج القاري ٢٠٨.

(٥) انظر سراج القاري ٢٠٩، حجة القراءات ٢٥٣.

(٦) وقرئ (ضَلَلْتُ) بفتح اللام وكسرهما وهما لغتان. قال أبو عمرو بن العلاء: ضَلَلْتُ بكسر اللام لغة تميم وهي قراءة يحيى بن وثاب وطلحة بن مصرف والأولى هي أوضح والأفصح لأنها لغة أهل الحجاز وهي قراءة الجمهور وقال الجوهري: والضلال والضلالة ضد الرشاد وقد ضللت أضل قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾ [سبأ: ٥] فهذه لغة نجد وهي الفصيحة وأهل العالية يقولون: ضللت بالكسر أضل. انظر القرطبي ٢٨٢/٦.

قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ ۚ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَّوْ أَن عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾

﴿قُلْ: إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ يعني على أمر بين. ويقال: على دين من ربي ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾ يعني بالقرآن ويقال: بالعذاب. وذلك أن النضر بن الحارث قال: إن كان ما تقوله حقاً فأنتا بعذاب الله فنزل: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ يعني العذاب ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ يعني ما القضاء في ذلك إلا لله في نزول العذاب ﴿يَقْضُ الْحَقَّ﴾ بنزول العذاب. وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم^(١): (يقض الحق) بالصاد يعني يبين الحق ويقال: يأمر بالحق وقرأ الباقر: (يقض الحق) بالضاد ولكن لا يكتب بالياء لأن الياء سقطت في اللفظ لالتقاء الساكنين ويقوم الكسر مقام الياء كقوله تعالى: (سندع الزبانية) فحذفت الواو. وتفسيره يقضي قضاء الحق. وقرأ ابن عباس رضي الله عنه: (يقضي بالحق) ثم قال: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ يعني الحاكمين القاضين. ثم قال: ﴿قُلْ: لَّوْ أَن عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ يعني العذاب ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ بالعذاب ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ يعني بعقوبة الظالمين هو أعلم متى ينزل بهم العذاب. قوله تعالى:

وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَاسِسُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ يعني خزائن الأرض والرزق ونزول العذاب. ويقال: عنده الوصلة إلى علم الغيب ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ يعني يعلم ما يهلك في البر والبحر ويقال: يعلم ما في البر من النبات والحب والنوى، وما في البحر من الدواب وقوت ما فيها ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ﴾ من الشجر ﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ يعلم من وقت سقوطه وموضع مسقطه. وروى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنه قال: ليس أحد من خلق الله تعالى أكثر من الملائكة وليس من شجرة تخرج إلا وملك موكل بها^(٢) ويقال: إن الإنسان كالشجرة وأعضائه كالأغصان، والحركات منه كالأوراق فهو يعلم حركة بني آدم. ثم قال تعالى: ﴿وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ يعني تحت الصخرة التي هي أسفل الأرضين السابعة. ويقال: الحبة التي تحت الأرض التي يخرج منها النبات ثم قال ﴿وَلَا رُطْبٌ﴾ يعني الماء ﴿وَلَا يَابِسٌ﴾ يعني الحجر. ويقال: ولا رطب: يعني العمران والأمصار والقرى (ولا يابس) يعني الخراب والبادية. ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ يعني في اللوح المحفوظ. ويقال: ولا رطب ولا يابس يعني لا قليل ولا كثير (إلا في كتاب مبين) يعني في اللوح المحفوظ. ويقال: القرآن قد بين فيه كل شيء بعضه مفسر، وبعضه يعرف بالاستدلال والاستنباط. وقرأ بعضهم: (ولا حبة) (ولا رطب ولا يابس)^(٣) كل ذلك بالضم على معنى

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٥٤، سراج القاريء ٢٠٩.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٥/٣ وعزاه لمسد في مسنده وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٣) قرأ الحسن وابن أبي إسحاق وابن السميع بالرفع فيهما والأولى أن يكونا معطوفين على موضع من ورقة ويحتمل الرفع على الابتداء وخبره إلا في كتاب مبين. انظر البحر المحيط ١٤٦/٤.

الابتداء. وهي قراءة شاذة. والقراءة المعروفة بالكسر لأجل: (من). قوله تعالى:

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى
ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ يعني يقبض أرواحكم في منامكم ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم﴾ يعني ما كسبتم من خير أو شر ﴿بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ يعني من النوم في النهار، ويرد إليكم أرواحكم ﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ يعني ليم أجلكم وتأكلون رزقكم إلى آخر العمر. قال بعضهم: إذا نام الإنسان تخرج منه روحه كما روي في الخبر «الأرواح جنود مجنّدة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»^(١) يعني الأرواح إذا تعارفت وقعت الألفة بين الأبدان وإذا لم تعارف الأرواح تناكرت الأبدان. وقال: إن الروح إذا خرجت في المنام من البدن يبقى فيه الحياة فلهذا تكون فيه الحركة والنفس، وإذا انقضى عمره خرجت روحه وتقطع حياته وصار ميتاً لا يتحرك ولا يتنفس. فإن قيل: لو خرجت روحه فكيف لا يتوجع لخروجه إذا نام. قيل: لأنه يخرج بطيبة نفسه ويعلم أنه يعود، وأما إذا انقطع عمره خرج بالكره، فتوجع له، وقال بعضهم: لا تخرج منه الروح ولكن يخرج منه الذهن وهو الذي يسمى بالفارسية: (روان). وقال بعضهم: إنما هو ثقل يدخل في نفسه وهو سبب لراحة البدن وغذائه، كقوله: (وجعلنا نومكم سباتاً) أي راحة ويقال: هذا أمر لا يعرف حقيقته إلا الله تعالى. وهذا أصح الأقاويل. وقوله تعالى ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ يعني مصيركم في الآخرة ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. من خير أو شر فيجازيكم بذلك. وقوله تعالى:

وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ
لَا يُفْرِطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ يعني القادر الغالب عليهم ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ والحفظة جمع الحافظ مثل الكتبة والكتاب يعني به الملائكة موكلين ببني آدم ملكين بالليل وملكين بالنهار ويكتب أحدهما الخير والآخر الشر فإذا مشى يكون أحدهما بين يديه والآخر خلفه، فإذا جلس يكون أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله. كقوله: (عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد). ويقال: لكل إنسان خمسة من الملائكة: اثنان بالليل واثنان بالنهار والخامس لا يفارقه لا ليلاً ولا نهاراً وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ﴾ يعني حضر أحدكم الوفاة عند انقضاء أجله ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ يعني ملك الموت وأعوانه ﴿وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ يعني لا يؤخرون طرفة عين. قرأ حمزة^(٢) (توفيه) بلفظ التذكير بالإمالة. وقرأ الباقون: (توفته) بلفظ التأنيث لأن فعل الجماعة إذا تقدم على الاسم جاز أن يذكر ويؤنث. ويقال: معه سبعون من ملائكة الرحمة وسبعون من ملائكة العذاب فإذا قبض نفساً مؤمنة دفعها إلى ملائكة الرحمة فيبشرونها بالثواب ويصعدون بها إلى السماء، وإذا قبض نفساً كافرة

(١) أخرجه البخاري معلقاً من رواية عائشة رضي الله عنها ٣٦٩/٦ في كتاب الأنبياء ٣٣٣٦ وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله وصله المصنف في الأدب المفرد عن عبد الله بن صالح عن الليث وأخرجه من رواية أبي هريرة رضي الله عنه مسلم ٢٠٣١/٤ في البر

دفعها إلى ملائكة العذاب فيشرونها بالعذاب ويفزعونها ثم يصعدون بها إلى السماء ثم ترد إلى سجين، وروح المؤمن إلى عليين. ﴿ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾ يعني يرد أمورهم إلى الله تعالى ﴿إِلَّا لَهُ الْحُكْمُ﴾ إلا: كلمة التنبيه، ومعناه اعلّموا أن الحكم لله تعالى في خلقه ما يشاء ويقضي بينهم يوم القيامة ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ يعني إذا حاسب فحسابه سريع. ويقال: وهو أحكم الحاكمين وأعدل القاضين. وقوله تعالى:

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَنْجَنَّا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظَرْكُمْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ ﴿٦٥﴾

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ يعني من أهواله وشدائده، والظلمات كناية عن الأهوال والشدائد ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وقال الكلبي: سرًا وعلانية^(١). وقال مقاتل^(٢): يعني في خفض وسكون. قرأ عاصم في رواية أبي بكر^(٣): (خُفْيَةً) بكسر الخاء. والباقون: بالضم: وهما لغتان وكلاهما واحد. ﴿لَّيْنٍ أَنْجَنَّا مِنْ هَذِهِ﴾ يعني من غم هذه الأهوال والشدائد ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ يعني من الموحدين. ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا﴾ يعني من أهوال البر والبحر ﴿وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ يعني ينجيكم من كل كرب يعني من كل غم وشدة. ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ يعني ترجعون إلى الشرك. [وقرأ بعضهم^(٤): (ينجيكم) بالتخفيف، والقراءة المعروفة بالتشديد^(٥)]. وقرأ عاصم وحزمة والكسائي: (لئن أنجانا) بالالف يعني أنجانا الله تعالى. وقرأ الباقر: (لأن أنجيتنا) على معنى المخاطبة وقرأ عاصم وحزمة والكسائي^(٦): (قل الله ينجيكم منها) بالتشديد وقرأ الباقر بالتخفيف ومعناها واحد. ويقال: أنجى، يُنَجِّي وَيُنَجَّى يُنَجِّي. وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ يعني الحصب بالحجارة، كما فعل بقوم لوط، والغرق كما أرسل على قوم نوح، يعني إن استكبرتم وأصررتم وكذبتم رسلي مثل ما فعل قوم نوح أو فعلتم الفعل التي فعل قوم لوط. ثم قال: ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ يعني يخسف بكم كما خسف بقارون ومن معه، إن استكبرتم واغتررتم بالدنيا كما فعل قارون. ثم قال: ﴿أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا﴾ يعني الأهوال المختلفة كما ألبس بني إسرائيل إن تركتم أمر رسولي واتبعتم هواكم كما فعل بنو إسرائيل ﴿وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ يعني يقتل بعضكم بعضاً بالسيف كما فعل بالأمم الخالية إن فعلتم مثل ما فعلوا. فلما نزلت هذه الآية قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: يا جبريل: ما بقاء أمتي على ذلك؟ قال له جبريل: إنما أنا عبد مثلك، فادع ربك وسله لأمتك. فقام النبي - صلى الله عليه وسلم - فتوضأ وأسبغ الوضوء، فأحسن الصلاة ثم دعا فنزل جبريل فقال: إن الله تعالى سمع مقالتك وأجارهم من خصلتين وهو العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم. فقال: يا جبريل ما بقاء أمتي إذا كان فيهم أهواء مختلفة ويذيق بعضهم بأس بعض فنزل جبريل بهذه الآية: (ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً... الآية)^(٧). وقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: أفتقرت بنو إسرائيل على إحدى وسبعين فرقة

(١) انظر تفسير البغوي ١٠٣/٢. (٢) انظر تفسيره ٣٧٨/١. (٣) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٥٥ سراج القاري ٢٠٩.

(٤) انظر حجة القراءات ٢٥٥، وسراج القاري ٢٠٩. (٥) سقط في ب. (٦) المصدران السابقان.

(٧) أخرجه الطبري مطولاً عن الحسن ٤٢٨/١١ / ١٣٣٧٥.

وتفترق أمتي اثنان وسبعون فرقة، كلهم في النار إلا واحدة قالوا: يا رسول الله ما هذه الواحدة؟ قال أهل السنة والجماعة^(١) الذي أنا عليه وأصحابي. وفي خبر آخر: السواد الأعظم. وروى عمر بن دينار عن جابر بن عبد الله^(٢) أنه قال: لما نزلت هذه الآية: (قل: هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم) قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: أعوذ بوجه الله فلما نزلت: (أو يلبسكم شيعاً، ويذيق بعضكم بأس بعض) قال: هاتان أهون. ويقال: عذاباً من فوقكم يعني سلطاناً جائراً، أو من تحت أرجلكم: من سفهائك يقبلون عليكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض يعني الفتنة بين المحلّتين أو القريتين. ثم قال: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ يعني نبين الآيات من البلاء والعذاب في القرآن ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ يعني يعقلون ما هم عليه. ثم قال:

وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيءٍ آيِنَّا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْقُوتُ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِي لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْوَاً غَرَّتَّهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُوْخَذَ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ﴾ يعني بالقرآن ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ يعني القرآن ﴿قُلْ: لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ يعني بحفيظ ومسلط وهذا قبل الأمر بالقتال. ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ﴾ المستقر: هو غاية ينتهي إليها. يقال: لكل قول وفعل حقيقة ما كان منه في الدنيا فستعرفونه وما كان منه في الآخرة فسوف تبدلونكم وستعلمون ذلك في الدنيا وفي الآخرة. ويقال: معناه سوف أو أمر بقتالكم إذا جاء وقته ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في ذلك الوقت. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ يعني يستهزئون بالقرآن ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ يعني قم من عندهم، واترك مجالستهم ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أي حتى يكون خوضهم واستهزاؤهم في غير القرآن ﴿وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ يقول: إن أنساك الشيطان وصية الله تعالى فتجلس معهم ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يقول: قم إذا ذكرت

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣٣٢/٢ أخرجه أبو داود ١٩٧/٤ في كتاب السنة ٤٥٩٦ وأخرجه ابن ماجه ١٣٢١/٢ في كتاب ٣٩٩٣ وقال البوصيري في الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات وأخرجه ابن عاصم في السنة ٣٢/١ ، ٣٤ وذكره الهيثمي في المجمع ٢٥٩/٧ وأخرجه الطبراني في الكبير ٧٠/١٨ وابن عدي في الكامل ٢٤٨٣/٧ وهو في كنز العمال ٣٠٨٣٤ ، ٣٠٨٣٨ وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٢٠٨/١٠ وذكره الذهبي في الميزان ٤١٥٠ والسيوطي في الدر المنثور ٦٠/٢ .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٧/٣ وعزه لعبد الزراق وعبد بن حميد والبخاري والترمذي والنسائي ونعيم بن حماد في الفتن وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات قلت: والحديث عند البخاري في الصحيح ٤٦٢٨ في التفسير وفي التوحيد ٧٤٠٦ وعند النسائي في الكبرى كتاب النعوت وعند الترمذي ٣٠٦٥ وعند أحمد ٣٠٩/٣ وعند الحميدي رقم ١٢٥٩ وأبو يعلى ١٨٢٩ ، ١٩٦٧ ، ١٩٨٢ ، ١٩٨٣ وابن خزيمة في التوحيد ١١ وابن حبان في الصحيح ١٧٤/٩ (٧١٧٦).

ودع القوم الظالمين يعني المشركين. قرأ ابن عامر^(١): (وإِذَا يُنْسِنُكَ الشَّيْطَانُ) بنصب النون وتشديد السين. وقرأ الباقون: بالتخفيف والجزم وهما لغتان: نسيته وأنسيته. ثم قال: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ يعني الشرك والاستهزاء ﴿مِنْ حِسَابِهِمْ﴾ يعني من آثامهم ﴿مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذَكَرُوا﴾ يعني ذكروهم بالقرآن إذا فعلوا ذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يعني لكي يتقوا الاستهزاء. قال الكلبي^(٢): وذلك أن أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قالوا: يا رسول الله: لئن قلنا كلما استهزؤا بالقرآن قمنا من عندهم، لا نستطيع أن نجلس في المسجد الحرام فنزل (وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء... الآية). قوله تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءًا وَلَهْوَاً﴾. قال الضحاك: يعني كفار قريش، نصبوا أصنامهم في المسجد الحرام إلى أنصاب الحرم وقرطوها بالمقراط، وعلقوا بيض النعامة في أعناقها فنزل: (وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءًا وَلَهْوَاً). وقال الكلبي: إن الله تعالى جعل لكل قوم عيداً يعظمونه ويصلون فيه لله تعالى وكل قوم آخذوا دينهم يعني عيدهم لعباً ولهواً إلا هذه الأمة فإنهم آخذوا عيدهم صلاة الله وحبساً للصدقة وهي الجمعة والفطر والأضحى^(٣). قال مقاتل^(٤): آخذوا دينهم الإسلام لعباً يعني باطلاً ولهواً عنه ثم قال: ﴿وَعَرَّثَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِ﴾ يعني عِظَ وَخَوْفَ بالقرآن ﴿أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ﴾ يعني لكي لا تهلك نفس ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ يعني بما عملت. ويقال: تبسل نفس يعني تسلم نفس بذنوبها إلى النار وهذا قول الضحاك^(٥). وقال الأخفش: أن ترهن نفس بما عملت. ويقال: تحبس وقال القتيبي: أي تسلم للهلكة. ويقال: تخذل ولا تنصر ثم قال: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ﴾ يعني إذا وقع في العذاب لم يكن لها مانع يمنعها من العذاب. ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يشفع لها ﴿وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ [يقول: لو جاءت بعدل نفسها رجلاً مكانها أو يفتدي بما في الأرض جميعاً لا يؤخذ]^(٦) يعني لا يقبل منها ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا﴾ يعني أهلكوا. ويقال أسلموا بذنوبهم إلى النار ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ يعني ماء حار قد انتهى حره ﴿وَعَذَابُ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ في الدنيا. قوله تعالى:

قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدانا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى اثْنًا قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأَمْرًا لِلنُّسْلِمِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾

﴿قُلْ: أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾. قال مقاتل: وذلك أن كفار مكة عذبوا نفراً من المسلمين وراودوهم على الكفر قال الله تعالى للمسلمين: قولوا لهم: (أندعوا من دون الله) يعني الأوثان (ملا ينفعنا) في الآخرة (ولا يضرنا) في الدنيا ﴿وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا﴾ نعود ونرجع إلى الشرك ﴿بَعْدَ إِذْ هَدانا اللَّهُ﴾ إلى الإسلام ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ﴾ يعني كمثل رجل كان مع قوم فضل الطريق فحيره الشياطين و﴿لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى﴾ يعني إلى الطريق أن ﴿اثْنًا﴾ فإننا على الطريق فأبى أن يأتيهم فذلك مثلنا، إن تركنا دين محمد - عليه السلام - . وقال مجاهد هذا مثل ضربه الله تعالى للكفار، يقول: الكافر حيران يدعوه المسلم إلى

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٥٦، وسراج القاري ٢٠٩ وشرح شعبة ٣٦٤.

(٢) انظر تفسير القرطبي ١٣/٧ تفسير البغوي ١٠٦/٢.

(٣) انظر تفسير البغوي ١٠٥/٢.

(٤) سقط في أ.

(٥) انظر معالم التنزيل للبغوي ١٠٦/٢.

(٦) انظر تفسيره ٣٨١/١.

الهدى فلا يجيب الكافر^(١) وقال ابن عباس في رواية أبي صالح نزلت الآية في عبد الرحمن بن أبي بكر كان أبوه وأمه يدعوانه إلى الإسلام فأبى أن يأتيهما وهو يدعوهما إلى الشرك فضرب الله تعالى له المثل بالذي استهوته الشياطين يعني أضلته^(٢) ﴿قُلْ: إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ يعني دين الله هو الإسلام ﴿وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني لنخلص بالعبادة والتوحيد بالله تعالى. قرأ حمزة^(٣) (استهواه) [بلفظ التذكير بالإمالة]^(٤). وقرأ الباقون (استهوته) بلفظ التأنيث لأن فعل الجماعة مقدم فيجوز أن يذكر ويؤنث كقوله: (توفته رسلنا) قوله تعالى:

وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يعني وأمرنا بالهدى وبالعمل يعني أقيموا الصلاة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ يعني وحدوه ويقال: أطيعوه، ويقال: هذا عطف على قوله: و (له أصحاب يدعوهم إلى الهدى) وإلى إقامة الصلاة ويقال: معناه أمرنا بالإسلام وإقامة الصلاة واتقوه يعني وحدوه وقيل: أطيعوه. ثم خوفهم فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ يعني للحق والعبرة. ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ:﴾ اليوم صار نصباً لأن معناه وآتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً. ويقال: معناه واذكروا يوم يقول: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ يعني يوم البعث يقول: إنتشروا فانتشروا كلهم كقوله تعالى: [(يخرجون من الأبدان) يعني القبور]^(٥) (كانهم جراد منتشر). ثم قال: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ قوله رفع بالابتداء وخبره الحق يعني قوله الصدق أنه كائن [قرأ ابن^(٦) عامر (فيكون) بالنصب على معنى الخير وكذا في كل القرآن إلا في موضعين هاهنا وفي آل عمران وقرأ الباقون بالرفع^(٧) على معنى الخبر] ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ يوم صار نصباً لئزع الخافض ومعناه: وله الملك في يوم ينفخ في الصور وهذا كقوله عز وجل: (لمن الملك اليوم). وكقوله: (مالك يوم الدين) ويقال: هذا مبين لقوله الأول ومعناه يوم يقول له: كن فيكون يوم ينفخ في الصور. وروي عن أبي عبيدة أنه قال: معناه يوم ينفخ الأرواح في الصور يعني في الأجسام وهذا خلاف أقاويل جميع المفسرين لأنهم كلهم قالوا: هو نفخ إسرافيل في الصور^(٨). وروي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: كيف أنعم وصاحب الصور قد التقمه^(٩). وفي خبر آخر: وصاحب الصور قد التقمه ينتظر متى يؤمر فينفخ فيه^(١٠) ثم قال: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ الغيب: ما غاب عن العباد، والشهادة: ما علم العباد به. ويقال: السر والعلانية. ويقال: عالم بما يكون وبما قد كان. ويقال: عالم بأمر الآخرة وبأمر الدنيا. ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ يعني الحكيم في أمره الخبير بأفعال الخلق وبأمر البعث. قوله تعالى:

(١) انظر تفسير الطبري ٤٥٣/١١.

(٢) انظر تفسير ابن عباس ٨٩.

(٣) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٥٦، سراج القاري ٢٠٩.

(٤) ما بين المعقوفين سقط من أ.

(٥) في ب [على لفظ الواحدان بالإمالة].

(٦) ما بين المعقوفين سقط من ط.

(٧) انظر تفسير القرطبي ١٥/٧.

(٨) انظر تفسير الطبري ٤٦٣/١١.

(٩) أخرجه الترمذي ٥٣٦/٤ في صفة القيامة باب ما جاء في شأن الصور ٢٤٣٠ وأخرجه أبو داود ٢٣٦/٤ في كتاب السنة باب في ذكر

البعث والصور ٤٧٤٢ وأخرجه النسائي في الكبرى في كتاب التفسير وأخرجه أحمد في المسند ٧٣/٣.

(١٠) أخرجه أحمد في المسند ٣٢٦/١ وأخرجه الترمذي في الموضوع السابق ٢٤٣١.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ اتَّخِذْ أُصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾
وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ وكان إسم أبيه تارح بن ناخور بلغة قومه وبلغة غيرهم كان آزر. وقال السدي كان اسم أبيه آزر^(١). وهكذا قال الكلبي^(٢). وقال بعضهم: لم يكن آزر إسم أبيه ولكن كان إسم كبير أصنامهم فقال أبوه لإبراهيم: ربي آزر فقال إبراهيم على وجه التعجب آزر ﴿أَتَتَّخِذُ أُصْنَامًا ءَالِهَةً﴾. وقال مجاهد^(٣): آزر ليس اسم أبيه وإنما هو اسم صنم وقال الضحاك: عن ابن عباس: إن في هذه الآية تقدماً فكأنه قال: اتَّخِذْ آزرُ أُصْنَامًا ءَالِهَةً يعني اتَّخِذْ الصنم إلهاً^(٤). ويقال: آزر بلغتهم: المخطيء الضال، ومعناه وإذ قال إبراهيم لأبيه يا آزر (المخطيء، اتَّخِذْ أُصْنَامًا ءَالِهَةً). وقرأ الحسن ويعقوب الحضرمي^(٥): (آزر) بالضم ويكون معناه: وإذ قال إبراهيم لأبيه يا آزر والقراءة المعروفة بالنصب لأنه على ميزان أفعل فلا ينصرف فصار نصباً وهو بموضع الخفض، ولأنه اسم أعجمي، فلا ينصرف. ثم قال: ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. يعني في خطأ وجهل بين عبادتكم الأصنام. ثم قال: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ﴾ والملكوت والمعنى واحد إلا أن الملكوت أبلغ مثل: رَهَبُوتٌ، وَرَحْمُوتٌ كما يقال في المثل: (رَهَبُوتٌ خير من رَحْمُوت) يعني لأن ترهب خير من أن ترحم، يعني لما أن إبراهيم برىء من دين أبيه أراه الله ملكوت ﴿السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعني عجائب السموات والأرض ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ يعني لكي يكون من الموقنين والواو زيادة كقوله: (ولنحمل خطاياكم) يعني لكي تحمل وكذلك هاهنا ليكون من الموقنين يعني حتى يثبت على اليقين. قال بعضهم: صارت فرجة في السماء حتى رأى إلى سبع سماوات وصارت فرجة في الأرض حتى رأى إلى تحت الصخرة. ويقال: حين عرج به إلى السماء فنظر إلى عجائب السموات. وروي عن عطاء أنه قال: لما رفع إبراهيم في ملكوت السماوات أشرف على عبد يزني فدعا عليه فهلك، ثم أشرف على آخر يزني فدعا عليه فهلك، ثم رأى آخر فأراد أن يدعو عليه فقال له ربه: - عز وجل -: على رِسْلِكَ يا إبراهيم فإنك مستجاب لك، وإني من عبدي على إحدى ثلاث خلال: إما أن يتوب فأتوب عليه وإما أن أخرج منه ذرية طيبة، وإما أن يتمادى فيما هو فيه فأنا من ورائه^(٦). أي أنا قادر عليه. وروي عن سلمان الفارسي^(٧) أنه قال: لما رأى إبراهيم ملكوت السموات رأى عبداً على فاحشة فدعا عليه فهلك ثم رأى آخر على فاحشة فدعا عليه فهلك ثم رأى آخر على فاحشة فدعا عليه قال الله تعالى أَنزِلُوا عِبْدِي كِي لَا يَهْلِكَ عِبَادِي. ويقال: إنه كان يقول: أنا أرحم الخلق فلما رأى المعصية فدعا عليهم قال الله تعالى: أنا أرحم عبادي منك أهبط لعلمهم يرجعون^(٨). ويقال: إن نمرود بن كنعان قالت له كهنته: يولد في هذه السنة غلام ينازعك في ملكك، فأمر بذبح كل غلام يولد في تلك السنة. ويقال: رأى في المنام أن كبشاً دخل عليه فطرح سريره بقرنه فسأل المعبرين، فأخبروه أنه يولد غلام ينازعك في ملكك فأمر بذبح كل غلام يولد، فحملت أم إبراهيم بإبراهيم ولم يتبين حملها ولم يعرف أحد أنها حامل حتى أخذها الطَّلُق فخرَّت إلى جبل من الجبال ودخلت في غار فولدت إبراهيم وخرجت

(١) أخرجه ابن جبر الطبري في التفسير ٤٦٦/١١.

(٢) انظر معالم التنزيل للبغوي ١٠٨/٢.

(٣) أخرجه الطبري في التفسير ٤٦٦/١١ وزاد نسبه السيوطي في الدر المنثور ٢٣/٢. لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) انظر تفسير القرطبي ١٦/٧.

(٥) انظر تفسير القرطبي ١٧/٧ البحر المحيط ١٦٤/٤.

(٦) أخرجه ابن جرير ٤٧٤/١١ (١٣٤٥٣). (٧) المصدر السابق ١٣٤٥٢. (٨) انظر المصدر السابق (عن أسامة) (١٣٤٥٤).

ووضعت صخرة على باب الغار فجاءه جبريل - عليه السلام - ووضع إبهامه في فمه وكان يمصه ويخرج منه اللبن وكان يجعل سبّابته في فمه فيمصها ويخرج منها العسل حتى كبر وأدرك في أيام قليلة^(١). ويقال: إن أمه كانت تختلف إليه وترضعه حتى أرضعته سنتين وتحمل إليه الطعام حتى أدرك في المدة التي يدرك فيها الصبيان، فخرج من الغار فنظر إلى السماء وإلى الأرض وإلى الجبال فتفكر في نفسه ثم قال: إن لهذه الأشياء خالقاً خلقها، والذي خلق هذه الأشياء هو الذي خلقني فذلك قوله: (وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين). وكان في ذلك التفكير إذا نظر إلى نجم يضيء وهو المشتري فرآه أضواء الكواكب وقد علم أن الله تعالى أعلا الأشياء ولا يشبهه شيء من خلقه ورأى الكواكب أعلا الأشياء وكان أحسنها:

فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكَوْكَبَ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْقُومُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكَوْكَبَ﴾ قَالَ هَذَا رَبِّي ﴿وَقَالَ﴾: هذا بغير فكرة، فكان ذلك منه زلة، ويقال إنما قال ذلك على سبيل الاستفهام أم هذا ربي؟ ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ يعني غاب الكوكب ﴿قَالَ﴾: لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿يعني لا أحب ربنا يتغير عن حاله ويزول. ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا﴾ يعني طالماً، ويقال: إن ذلك كان في وقت السحر وكان ذلك في آخر الشهر فرأى كوكباً يعني الزهرة حين طلعت وكان من أضواء الكواكب فلما ارتفع وطلع الفجر نقص ضوءه قال لا أحب الآفلين، يعني لا أحب ربنا يتغير، فلما رأى القمر فرأى ضوءه أكثر ﴿قَالَ﴾: هَذَا رَبِّي ﴿على سبيل الاستفهام﴾ ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ يعني نقص ضوءه حين أسفر الصبح ﴿قَالَ﴾: لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿يعني لئن لم يحفظ ربي قلبي لقد كنت اتخذت إلهاً ما لم يكن إلهاً. ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ يعني طالعة قد ملأت كل شيء ضوءاً ﴿قَالَ﴾: هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ ﴿يعني أعظم، وأكثر نوراً﴾ ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾ يعني غربت علم أنه ليس بإله فجاءته أمه فقال لها: من ربي؟ قالت: أنا قال: ومن ربك؟ قالت أبوك: قال: ومن رب أبي؟ قالت: نمرود بن كنعان قال: ومن ربه؟ قالت له: اسكت فقال لها كيف هو؟ هل يأكل ويشرب وينام؟ قالت: نعم قال: هذا لا يصلح أن يكون رباً وإلهاً، فرجعت الأم إلى أب إبراهيم فأخبرته بالقصة فخرج إليه فسأله مثل ذلك ثم قال له في آخره: تعال حتى تعبد الذي خلقني وخلقك وخلق نمرود فغضب أبوه فرجع عنه ثم دخلت عليه رافة الوالد لولده فرجع إليه وقال له: أدخل المصّر لتكون معنا فدخل فرأى القوم يعبدون الأصنام فدعوه إلى عبادة الأصنام ف﴿قَالَ﴾ لهم حينئذ: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ فقبل له: من تعبد أنت يا إبراهيم؟ فقال: أعبد الله الذي خلقني وخلق السموات والأرض فذلك قوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ يعني أخلصت ديني وعملي ﴿لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ﴾ يعني خلق السموات ﴿وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ يقول: إني وجهت وجهي مخلصاً مستقيماً ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ على دينكم. ويقال: أن قوله: (هذا ربي) قال ذلك لقومه على جهة الاستهزاء بهم. كما قال: (بل فعلهم كبيرهم هذا). ويقال: أراد بهذا أن يستدرجهم فيظهر قبيح فعلهم وخطأ مذهبهم وجهلهم لأنهم كانوا يعبدون النجوم والشمس

والقمر فلما رأى الكوكب قال لهم: هذا ربي، وأظهر لهم أنه يعبد ما يعبدون فلما غاب الكوكب قال لهم: لا أحب الأفلين. فأخبرهم بأن الأفل لا يصلح أن يكون إلهاً. ثم قال في الشمس والقمر هكذا. كما روي عن عيسى - عليه السلام - أنه بعث رسولاً إلى ملك أرض فلما انتهى إليهم جعل يسجد ويصلي عند الصنم ويريهما أنه يعبد الصنم وهو يريد عبادة الله تعالى. ثم إن الملك ظهر له عدو، فقالوا لهذا الرسول: أشر علينا بشيء في هذا الأمر، فقال: نتشفع إلى هذا الذي نعبد، فجعلوا يسجدون له ويتشفعون إليه فلا يسمعون منه جواباً، فقالوا: إنه لا ينفعنا شيئاً. قال لهم: لم تعبدون من لا يدفع عنا ضرراً؟ ارجعوا حتى نعبد من ينفعنا فقالوا: لمن نعبد؟ قال: لرب السماء فجعل يدعو ويدعون حتى فرج الله عنهم فآمن به بعضهم. وكذلك هاهنا أراد إبراهيم - عليه السلام - أن يريهم قبح ما يعبدون من دون الله لعلهم يرجعون فلما لم يرجعوا قال (يا قوم إني بريء مما تشركون). قرأ حمزة والكسائي^(١): (رأى كوكباً) بكسر الراء والألف وهي لغة لبعض العرب والنصب أفصح. قوله تعالى:

وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ معناه وحاجه قومه في دين الله، يعني خاصموه، ف﴿قَالَ﴾ لهم إبراهيم ﴿أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ﴾. يعني أخاصمونني في دين الله ﴿وَقَدْ هَدَانِ﴾ الله لدينه. قرأ نافع وابن عامر في رواية ابن ذكوان^(٢): (أتحاجوني) بتشديد الجيم وتخفيف النون. وقرأ الباقون: بتشديد النون لأن أصله (أتحاجوني) بنونين فأدغم أحدهما في الآخر، فقال (أتحاجوني) يعني أتجادلوني في دين الله (وقد هداني) يعني بين لي الطريق، وكانت خصومتهم أنهم حين سمعوه غاب آلهتهم فقالوا له: أما تخاف تخيلك فتهلك؟ فقال: إني لا أخاف ما لا يسمع ولا يبصر. وقال الكلبي ومقاتل^(٣): لما خوفوه بذلك قال لهم: إنما تخافون أنتم إذ سويت بين الذكر والأنثى والصغير والكبير، أما تخافون من الكبير إذ سويتهم بالصغير؟ وهذا قوله ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾. قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ فيضلني فأخاف منهم. ويقال: (إلا أن يشاء ربي شيئاً) يعني ملاً علم ربي كل شيء علماً يعني يعلم السر والعلانية ثم قال: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ يعني أفلا تتعظون فتؤمنون به؟ قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ يعني من الأصنام ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ يقول: كتاباً وعدراً وحجة لكم فيه ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾ من العذاب؟ الموحد أم المشرك ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك. ثم قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾. قال بعضهم: هذا قول الله تعالى لما حكي قول إبراهيم للنبي - صلى

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٥٦ - ٢٥٧ سراج القارىء ٢١٠.

(٢) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٥٧ سراج القارىء ٢١١.

(٣) انظر تفسير مقاتل ٣٨٥/١.

الله عليه وسلم - قال على أثر ذلك (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) يعني لم يخالطوا تصديقهم بالشرك ولم يعبدوا غيره^(١). ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ من الضلالة وقال بعضهم: هذا كله قول إبراهيم لقومه. وروي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: من ابتلي فصر وأعطى فشكر وظلم فاستغفر وظلم فغفر. قيل له: ما لهم يا رسول الله قال: (أولئك لهم الأمن وهم مهتدون)^(٢). قال الفقيه حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا الماسرجي قال: حدثنا أبو كريب^(٣) قال: حدثنا ابن إدريس^(٤) عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) شق ذلك على أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا: يا رسول الله: وأينا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ألا ترون إلى قول لقمان لابنه (إن الشرك لظلم عظيم)^(٥). يعني إن الظلم أراد به الشرك. ثم قال ﴿وَلَيْكَ حُجَّتُنَا إِنِّيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ يعني أعطيناها إبراهيم على قومه يعني وفقناه للحجة يخاصم بها قومه ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ﴾ يعني فضائل من نشاء في الدنيا بالحجة وفي الآخرة بالدرجات ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في أمره ﴿عَلِيمٌ﴾ بخلقه من يصلح للنبوة. قرأ أهل الكوفة عاصم وحمة والكسائي^(٦) (درجات) بالتنوين. وقرأ الباقون: (درجات) على معنى الإضافة. ثم قال:

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ
وَسُلَيْمَنَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى
وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا كُلًّا أَفَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ
﴿٨٦﴾ وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير عن ابن جريح ٤٩٣/١١.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ١٠٤/٤ باب في تعدد نعم الله عز وجل وشكرها ٤٤٣١ وذكره السيوطي في جامع الصغير ٢٢/٦ (في) وزاد نسبه للطبراني الكبير وقال المناوي في إسناده حديثه ضعف، والحديث ذكره السيوطي أيضاً في الدر ٢٧/٣ وفي كنز العمال ٥٦١٦.

(٣) محمد بن العلاء بن كريب الهمداني أبو كريب الكوفي الحافظ روى عن خلق وروى عنه خلق، قال النسائي: لا بأس به، وقال مرة: ثقة، وذكره ابن حبان في الثقات، مات في جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين ومائتين. انظر التهذيب ٣٨٥/٩ - ٣٨٦.

(٤) عبد الله بن إدريس بن يزيد بن عبد الرحمن بن الأسود الأودي - الزغافري أبو محمد الكوفي روى عن أبيه وخلق وروى عنه خلق، قال أبو حاتم هو حجة يحتج به، وهو إمام من أئمة المسلمين ثقة انظر التهذيب ١٤٤/٥ - ١٤٦.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان ٣٢ في أحاديث الأنبياء ٢٣٦٠، ٣٤٢٨، ٣٤٢٩، ٤٦٢٩، ٤٧٧٦، ٦٩١٨، ٦٩٣٧ ومسلم في الإيمان ١٢٤ - ١٩٧ - ١٩٨ والترمذي في التفسير ٣٠٦٧.

(٦) وحجتهم في ذلك أن الله قد بين معنى هذا الكلام في غير موضع من القرآن فجعل المرفوع هو الإنسان وبين فضل من أحب أن يفضل به بأن يرفعه فقال: (يرفع الله الذين آمنوا منكم) وقال: (وفضل الله المجاهدين على القاعدین أجراً عظيماً).

فجعلهم هم المرفوعين دون الدرجات وفي الآية تقديم وتأخير المعنى (نرفع من نشاء درجات) و (من) في موضع نصب ونجعل (درجات) مفعولاً ثانياً أو حالاً.

وقرأ الباقون: (نرفع درجات) بغير تنوين وحجتهم ذكرها البيهقي فقال (كقولك) (نرفع أعمال من نشاء) فجعل البيهقي الرفع للأعمال دون الإنسان والذي يدل على هذا أن الآثار قد جاءت في الدعاء مضافة كقولهم للميت: (اللهم شرف بنيانه وارفع درجته) ولا يقال: (ارفعه) وقد روى في التفسير في قوله: (نرفع درجات من نشاء) أي في العلم. انظر ابن زنجلة ٢٥٨ - ٢٥٩.

يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ
الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ
هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَهُ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ يعني لإبراهيم ﴿إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ قال الضحاك: ولدت سارة إسحق ولها تسعة وتسعون سنة
ولإبراهيم مائة وعشرون سنة ثم ولد لإسحق يعقوب ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾ يعني إسحق ويعقوب هديناهما بالنبوة والإسلام
﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ يعين هديناه للنبوة والإسلام من قبل إبراهيم ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ قال الكلبي: يعني من ذرية
نوح^(١). وقال الضحاك: يعني من ذرية إبراهيم^(٢) ﴿دَاوُدَ﴾ النبي - عليه السلام - ﴿وَسُلَيْمَانَ﴾ وهو ابن داود
﴿وَأَيُّوبَ﴾ وهو من ولد عيصوبن إسحق ﴿وَيُوسُفَ﴾ وهو ابن يعقوب ﴿وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني نعطيهما أفضل الثواب. ﴿وَزَكَرِيَّا﴾ يعني من ذرية إبراهيم زكريا ﴿وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ﴾ قال
الضحاك: كان إلياس من ولد إسماعيل^(٣) وذكر عن القتيبي: أنه كان من سبط يوشع بن نون. ﴿كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾
يعني من المرسلين. ﴿وَإِسْمَاعِيلَ﴾ وهو من صلب إبراهيم - عليه السلام - ﴿وَالْيَسَعَ﴾ قرأ حمزة والكسائي^(٤):
(واليسع) مشدداً وقرأ الباقون: واليسع بالتخفيف فمن قرأ بالتشديد فالاسم منه: (ليسع) ثم أدخلت الألف واللام
للتعريف فصار الليسع ومن قرأ بالتخفيف فالاسم منه (يسع) ثم أدخلت الألف واللام للتعريف فصار اليسع وكذا
هذا الاختلاف في سورة (ص). وكان اليسع تلميذ إلياس وكان خليفته من بعده ﴿وَيُونُسَ﴾ ابن متى ﴿وَلُوطًا وَكُلًّا
فَضَّلْنَا عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ بالرسالة والنبوة في ذلك الزمان ثم ذكر آباءهم فقال: ﴿وَمِنْ ءَابَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ
وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ يعني وقد (اصطفيناهم بالنبوة يعني آدم ونوحاً وإدريس وهوداً وصالحاً - عليهم السلام - ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ
إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو دين الإسلام. ﴿ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ﴾ يعني دين الله ﴿يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ﴾ يعني
يكرم بدينه من يشاء من عباده ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا﴾ يعني هؤلاء النبين ﴿لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا يعني
إنما فضلهم الله بالطاعة. ثم قال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ﴾ يعني العلم والفهم والفقہ ﴿وَالنُّبُوَّةَ
فَإِن يَكْفُرْ بِهَا﴾ أي الأنبياء ﴿هَؤُلَاءِ﴾ يعني أهل مكة ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾ يعني ألزمتها بها ﴿قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾.
قال سعيد بن جبیر: هم الأنصار^(٥). ويقال: (فإن يكفر بها) يعني بآياتنا (فقد وكلنا بها) يعني بالإيمان بها (قوماً
ليسوا بها بكافرين) يعني الأنبياء الذين سبق ذكرهم ويقال: الملائكة. وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة (فإن
يكفر بها هؤلاء) يعني أمة محمد - عليه السلام - فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها كافرين يعني النبين الذين قص الله
عنهم^(٦). ثم قال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ﴾ يعني الأنبياء ﴿فَبِهِدَّتْهُمْ﴾ يعني بستهم وتوحيدهم ﴿أَقْتَدَهُ﴾ على
دينهم استقم واعمل به. وفي هذه الآية دليل: أن شرائع المتقدمين واجبة علينا ما لم يظهر نسخها إذا ثبت ذلك في
الكتاب أو على لسان الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأن الله تعالى أمرنا بأن نفتدي بهداهم، واسم الهدى يقع
على التوحيد والشرائع مثل قوله: (آلم، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين). والكتاب يشتمل على الشرائع

(١) انظر تفسير الطبري ٥٠٧/١١.

(٢) وهو قول ابن عباس انظر تفسير الطبري ٢٢/٧.

(٣) انظر تفسير القرطبي ٢٣/٧.

(٤) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٥٩ سراج القاري ٢١٢.

(٥) أخرجه ابن جرير الطبري من طريقة ابن عباس ٥١٥/١١.

(٦) انظر تفسير الطبري ٥١٧/١١.

وغيرها. قرأ حمزة والكسائي^(١): (فبهدهم اقتده) بالهاء في الوقف والوصل جميعاً. وقرأ الباقون^(٢): بالهاء في الوصل والوقف جميعاً لأنها هاء الوقف مثل قوله: (كتابه) و (حسابه) ثم قال: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ يعني قل للمشركون لا أسألكم على الإيمان والقرآن جعلاً ﴿إِنْ هُوَ﴾ يعني ما هو وهو القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرًا لِلْعَالَمِينَ﴾ يعني موعظة للعالمين الإنس والجن. قوله تعالى:

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبَدُّونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَن حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ يعني ما عظموا الله حق عظمتة وما عرفوه حق معرفته، نزلت في مالك بن الضيف خاصمه عمر في النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه مكتوب في التوراة فغضب وقال: (ما أنزل الله على بشر من شيء) وكان رئيس اليهود فعزلته اليهود عن الرئاسة بهذه الكلمة. قال مقاتل^(٣): نزلت هذه الآية بالمدينة وسائر السور بمكة ويقال: إن هذه السورة كلها مكية وكان مالك بن الضيف خرج مع نفر إلى مكة معاندين ليسألوا النبي - صلى الله عليه وسلم - عن أشياء وقد كان اشتغل بالنعم وترك العبادة وسمن، فأتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذات يوم بمكة فقال له رسول الله: أنشدك الله أتجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين؟ قال: نعم قال: فانت الحبر السمين فقد سمنت من مأكلتك فضحك به القوم فحجل مالك بن الضيف وقال: ما أنزل الله على بشر من شيء فبلغ ذلك اليهود فأنكروا عليه فقال: إنه قد أغضبني فقالوا: كلما غضبت قلت بغير حق وتركت دينك؟ فأخذوا الرياسة منه وجعلوها إلى كعب بن الأشرف فنزلت هذه الآية: (وما قدروا الله حق قدره) حيث حجدوا تنزيله ﴿إِذْ قَالُوا: مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ يعني على رسول من كتاب ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى﴾ وهو التوراة ﴿نُورًا﴾ يعني ضياء ﴿وَهُدًى﴾ يعني بياناً ﴿لِلنَّاسِ﴾ من الضلالة ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ﴾ يقول: تكتبونه في الصحف ﴿يُبَدُّونَهَا﴾ يقول: تظهرونها في الصحف ﴿وَيُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ يعني تكتُمون ما فيه صفة محمد - صلى الله عليه وسلم - ونعته وآية الرجم وتحريم الخمر ﴿وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ يعني علمتم أنتم وآباؤكم في التوراة ما لم تعلموا. ويقال: علمتم على لسان محمد - صلى الله عليه وسلم - ما لم تعلموا أنتم ولا آبائكم فإن أجابوك وإلا فـ ﴿قُلْ: اللَّهُ﴾ أنزله على موسى ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ إن لم يصدقوك ﴿فِي خَوْضِهِمْ﴾ يعني في باطلهم ﴿يَلْعَبُونَ﴾ يعني يلهون ويفترون. قرأ ابن كثير وأبو عمرو^(٤): (يجعلونه قراطيس يبذونها

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٦٠ سراج القارى ٢١٢.

(٢) وقرأ ابن عامر (اقتده) بالإشباع جعلها اسماً قال بعض أهل البصرة: جعل ابن عامر الهاء فيه ضميراً لمصدر وهو الاقتداء كأن الأصل فيه (فبهدهم اقتد اقتداء) ثم أضمر (الاقتداء) فقال (فبهدهم اقتده) انظر حجة القراءات ٢٦٠.

(٣) انظر التفسير ٣٨٧/١. (٤) انظر حجة القراءات ٢٦١ سراج القارى ٢١٢.

ويخفون كثيراً) كل ذلك بالياء على لفظ المغاية. وقرأ الباقون: بالتاء على معنى المخاطبة لأن إبتداء الكلام على المخاطبة. ثم قال: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ يعني القرآن أنزلناه على محمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿مُبَارَكٌ﴾ لمن عمل به لأن فيه مغفرة للذنوب. وقال الضحاك: (مبارك) يعني القرآن لا يتلى على ذي عاهة إلا برىء ولا يتلى في بيت إلا وخرج منه الشيطان. ﴿مُصَدِّقٌ لِّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني هو مصدق الذي بين يديه من الكتب ﴿وَلِيُنذِرَ﴾ قرأ عاصم^(١) في رواية أبي بكر: (ولينذر) بالياء يعني الكتاب يعني أنزلناه للإنذار والبركة. وقرأ الباقون بالتاء يعني لتندر به يا محمد ﴿أُمُّ الْقُرَى﴾ يعني أهل مكة [وهي أصل القرى]^(٢) وإنما سميت أم القرى لأن الأرض كلها دُجِيت من تحت الكعبة. ويقال: لأنها مثلث قبلة للناس جميعاً أي يؤمنونها. ويقال: سميت أم القرى لأنها أعظم القرى شأنًا ومنزلة ﴿وَمِنْ حَوْلِهَا﴾ يعني قرى الأرض كلها. ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ يعني بالبعث ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي بالقرآن ومن هم في علم الله أنه سيؤمن ﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ بوضوئها وركوعها وسجودها ومواقبتها. وقوله تعالى:

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ، أَوْ قَالَ : أُوحِيَ إِلَيَّ ، وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾. نزلت في مسيلمة الكذاب زعم أن الله تعالى أوحى^(٣) إليه وهو قوله ﴿وَمَنْ قَالَ : سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ يعني عبد الله بن أبي سرح كان كاتب الوحي فكان النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا أُملى عليه : (سميماً عليمًا) يكتب: عليمًا حكيمًا، وإذا أُملى عليه : عليمًا حكيمًا كتب هو سميماً بصيراً وشك وقال: إن كان محمد - صلى الله عليه وسلم - يوحى إليه فقد أوحى إلي وإن كان ينزل إليه فقد أنزل إليّ مثل ما أنزل إليه فلحق بالمشركين وكفر. وقال الضحاك: هو مسيلمة الكذاب كان يقول: بعث محمد - صلى الله عليه وسلم - إلى جسيم الأمور وبعثت إلى محقرات الأمور. ويقال: هذا جواب لقولهم: (لو نشاء لقلنا مثل هذا). ثم قال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ يعني ولو تعلم إذ الكافرون ﴿فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ أي في نزعات الموت وسكراته فحذف الجواب لأن في الكلام دليلاً عليه ومعناه لو رأيتم لرأيتمهم في عذاب شديد. ثم قال: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ بالضرب ويقولون: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ يعني أرواحكم الخبيثة قال الفقيه أبو جعفر قال: حدثنا أبو القاسم أحمد بن حسين قال: حدثنا محمد بن سلمة قال: حدثنا أبو أيوب

(١) وحجته قوله: (وهذا كتاب أنزلناه مبارك) أي لينذر الكتاب أهل مكة وحجة من قرأ بالتاء قوله تعالى (إنما أنت منذر) انظر حجة

القرءات ٢٦١.

(٣) انظر تفسير الطبري ١١/٥٣٣.

(٢) سقط في ظ.

عن القاسم بن الفضل الحداني^(١) عن قتادة عن أسامة بن زهير^(٢) عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: إن المؤمن إذا حضره الموت أتته الملائكة بحريرة فيها مسك ومن ضباير الرياح وتسل روحه كما تسَلُّ الشَّعْرَةُ من العجين، ويقال لها: يا أيتها النفس الطيبة اخرجي راضية مرضية ومرضياً عنك إلى روح الله وكرامته، فإذا خرجت روحه وَضِعَتْ على ذلك المسك والريحان وطويت عليه الحرية وبعث بها إلى عليين وإن الكافر إذا حضر أتته الملائكة بمسح فيه جمرة فتتزع روحه أنتزاعاً شديداً ويقال لها: أيتها النفس الخبيثة اخرجي ساخطة ومسخوطة إلى هوان الله وعذابه فإذا خرجت روحه وضعت على تلك الجمرة وإن لها نشيجاً ويطوى عليها المسح ويذهب بها إلى سجين^(٣). ثم قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ يعني إذا بعثوا يوم القيامة. ويقال لهم: اليوم تجزون ﴿عَذَابَ الْهُونِ﴾ يعني الهوان أي: الشديد ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ﴾ في الدنيا ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ بأن معه شريكاً ﴿وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ يعني عن الإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وبالقرآن ولم تقروا به. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى﴾ يعني في الآخرة فرادى لا ولد لكم ولا مال. الفرادى جمع فرد، يعني ليس معكم من دنيائكم شيء ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ يعني أعطيناكم من المال والولد ﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ في الدنيا ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ﴾ يعني آلهتكم ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ يعني قلت: لي شريك ولكم شفعاء عند الله ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾. قرأ نافع والكسائي وعاصم في رواية حفص^(٤): (بينكم) بالنصب وقرأ الباقون: (بينكم) بالضم فمن قرأ بالضم جعل البين اسماً يعني تقطع وصلكم ومودتكم، ومن قرأ بالنصب فمعناه لقد تقطع ما كنتم فيه من الشركة بينكم، فيصير نصباً بالظرف. كما نقول: (أصبحت بينكم) أي فيما بينكم ﴿وَوَضَّلَ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ يعني اشتغل عنكم ما كنتم تعبدون وتزعمون أنها شفعاؤكم. وقوله تعالى:

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾
فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ يعني يشق الحبة اليابسة فيخرج منها ورقاً خضراً، ويقال: فالق الحب مثل البر والشعير والذرة والحبوب كلها، والنوى كل ثمرة فيها نوى، مثل الخوخ والمشمش والغير والاجاص ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ، وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ وقد ذكرنا تأويله ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ﴾ يعني هذا الذي يفعل بكم هو الله تعالى ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ يعني كيف تكفرون ومن أين تكذبون فذكر عيب آلهتهم. ثم دل على وحدانيته بصنعيته ثم قال: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ يعني خالق الإصباح، والإصباح والصبح واحد، ويقال: الإصباح مصدر أصبح يصبح إصباحاً. والصبح: اسم، وقال: فالق الإصباح: يعني خالق النهار ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ قرأ أهل الكوفة حمزة والكسائي وعاصم^(٥): (وجعل الليل) على معنى الخبر، وقرأ الباقون: (جاعل الليل سكناً) على معنى الإضافة

(١) القاسم بن الفضل بن معدان بن قريط الحداني الأزدي أبو المغيرة البصري قال ابن معين مات سنة سبع وستين ومائة. انظر التهذيب ٣٢٩/٨ - ٣٣٠.

(٢) أسامة الفارس أبو ميمونة روى عن أبي هريرة روى عنه ابنه هلال بن أبي ميمونة ويحيى بن أبي كثير وقاتدة. انظر الجرح والتعديل ٢٨٤/٢.

(٣) بنحوه أخرجه أحمد في المسند ٢٨٧/٤.

(٥) انظر حجة القراءات ٢٦٢ سراج القاري ٢١٣.

(٤) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٦١ وسراج القاري ٢١٣.

يعني يسكن فيه الخلق. ثم قال: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا﴾ يعني وجعل الشمس والقمر حساباً، يعني: منازلها بالحساب لا يجاوزانه، إذا انتهيا إلى أقصى منزلهما رجعا^(١)، وهذا قول الكلبي. وقال مقاتل^(٢): (حسباناً) يعني يُعرف بها عدد السنين والحساب. وقال القتبي: (حسباناً) أي حساباً يقال: خذ كل شيء بحُسبانِهِ أي بحسابه. وقال الكلبي: ويقال: للشيء المعلق حسباناً. ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ يقول هذا فعل العزيز في ملكه، العليم بخلقه، لا فعل لأصنامكم فيه. ثم قال:

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾
وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا﴾ يعني: لتعرفوا الطريق ﴿فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ يعني لتهتدوا بالكواكب في الليالي وتعرفوا بها قبلتكم ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ يعني: بينا العلامات لوحداية الله تعالى ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وإنما أضاف إلى أهل العلم لأنهم هم الذين ينتفعون به فكأنه بين لهم. ويقال: لقوم يعلمون يعني يصدقون أنه من الله تعالى. ثم قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ﴾ يعني خلقكم ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهو آدم ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ يعني في الرحم ومستودع في الصلب ويقال: مستقر في الصلب ومستودع في الرحم، ويقال: مستقر في الدنيا ومستودع في القبر. قرأ ابن كثير وأبو عمرو^(٣): (فَمُسْتَقَرٌّ) بكسر القاف. وقرأ الباقون: بالنصب فمن قرأ بالنصب فمعناه فلکم مستقر ولكم مستودع يعني موضع قرار وموضع إيداع. ومن قرأ بالكسر فعلى معنى الفاعل. يقال: قر الشيء واستقر بمعنى واحد يعني كنتم مستقرين. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ يعني بينا الآيات لمن له عقل وذهن. قوله تعالى:

وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا مَخْرُجًا مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قَنَوانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني ماء المطر ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ يعني بالمطر ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يعني معاشاً للخلق من الثمار والحبوب وغير ذلك. ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ خضر واخضر بمعنى واحد، الأخضر: يعني النبات الأخضر وهو أول ما يخرج، ثم قال: ﴿نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ يعني السنبلة قد ركب بعضها بعضاً ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا﴾ يعني أخرجنا بالماء من النخل من طلوعها يعني من عذوقها وثمرها ﴿قَنَوانٌ دَانِيَةٌ﴾ يعني عذوقاً متدانية قريبة ينالها القائم والقاعد ﴿وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ يعني يخرج بالماء، قرأ الأعمش^(٤): (وجنات) بالضم عطفاً على قوله: (قنوان دانية) وقرأ العامة: بالكسر ومعناه وأخرجنا من أعناب ﴿وَالزَّيْتُونَ﴾ يعني أخرجنا منه شجر الزيتون. ﴿وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا﴾ في المنظر ﴿وَوَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ في الطعم. يعني بعضها حلو وبعضها حامض (انظروا

(١) أخرجه في معالم التنزيل للبغوي ١١٧/٢.

(٣) انظر حجة القراءات ٢٦٢ - ٢٦٣ سراج القاري ٢١٣.

(٤) وفي حجة القراءات لابن زنجلة قرأ الأعشى عن أبي بكر انظر الحجة ٢٦٤.

(٢) انظر التفسير ٣٩٢/١.

إلى ثَمَرِهِ ﴿قَرَأْ حَمْزَةً وَالْكَسَائِيَّ^(١)﴾: ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ﴾ بضم الثاء والميم، وقرأ الباقون بالنصب وكذلك ما بعده. فمن قرأ بالنصب فهو اسم الثمرة وإنما أراد به الجنس. ومن قرأ بالضم فهو جمع الثمار. ﴿إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ يعني ونضجه يعني انظروا إلى نضجه واعتبروا به. واعلموا أن له خالقاً فهو قادر على أن يحييكم بعد الموت كما أخرج من الأرض اليابسة النبات الأخضر ومن الشجرة الثمار ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَُمْ لَآيَاتٍ﴾ يعني في اختلاف ألوانه لعلامات ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني يصدقون ويرغبون في الحق. قوله تعالى:

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ يَدْعُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنِّي يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تَدْرِيكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يَدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ يعني وضعوا لله شركاء وقال مقاتل: وذلك أن بني جهينة قالوا: إن صنفاً من الملائكة يقال لهم الجن بنات الرحمن، وذلك قوله: (وجعلوا لله شركاء الجن). وقال الكلبي: وجعلوا الجن شركاء الله نزلت هذه الآية في الزنادقة قالوا: إن الله تعالى وإبليس - لعنه الله ولعنهم - أخوان، قالوا: إن الله تعالى خالق الناس والدواب، وإبليس خالق السباع والحيات والعقارب. كقوله: (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) «سورة الصافات/ ١٥٨» قال الزجاج: معناه: أطاعوا الجن فيما سئلت لهم من شركهم فجعلوهم شركاء الله، وهذا قريب مما قاله الكلبي. ثم قال: ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ يعني جعلوا لله الذي خلقهم شركاء. ويقال: وخلقهم يعني خلق الجن. ويقال: وخلقهم يعني الذين تكلموا به ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ﴾ يعني وصفوا له بنين وبَنَاتٍ ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعني بلا علم يعلمونه. ويقال بلا حجة وبيان. وروى عبد الله بن موسى^(٢) عن جويرية^(٣)، قال: سمعت رجلاً سأل الحسن^(٤) عن قوله: (وخرقوا له): قال: كلمة عربية كانت العرب تقولها كان الرجل إذا كذب كذبة في نادي القوم يقول بعض القوم خرقها. ثم نزه نفسه فقال: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ يعني تنزيهاً له: ﴿وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ يعني هو أعلا وأجل مما يصف الكفار بأن له ولداً. قرأ نافع^(٥): (وخرقوا) بالتشديد على معنى المبالغة. قوله تعالى: ﴿يَدْعُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني خالق السموات والأرض يعني مبدعهما وهو أن يتبدى شيئاً لم يكن، يعني ابتدعهما ولم يكونا شيئاً ﴿أَنِّي يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ قال القتبي: (أَنِّي) على وجهين: يكون بمعنى كيف كقوله: (فأتوا حرثكم أنى شئتم) «سورة البقرة: ٢٢٣» وكقوله: (أنى يحيي هذه الله بعد موتها) سورة البقرة: ٢٥٩، ويكون بمعنى من أين كقوله: (قاتلهم الله أنى يؤفكون) «سورة التوبة/ ٣٨» وكقوله: (أنى يكون له ولد) ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ يعني

(١) انظر المصدر السابق وشرح شذلة ٣٧٢.

(٢) عبد الله موسى بن إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله النبي الطلحي أبو محمد الحجازي وقال الحافظ في التقریب صدوق كثير الخطأ. انظر التهذيب ٤٤/٦ - ٤٥، التقریب ٤٤/١.

(٣) جويرية بن قدامة ويقال جارية بن قدامة. انظر التهذيب ١٢٥/٢.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٧/٣ وقال أخرجه أبو الشيخ عن الحسن.

(٥) انظر حجة القراءات ٢٦٤ سراج القاري ٢١٣ شرح شذلة ٣٧١.

زوجة ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ يعني الملائكة وعيسى وغيرهم . وهم خلقه وعبيده ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ مما خلق ثم قال : ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ يعني الذي فعل هذا فهو ربكم ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ يعني لا خالق غيره ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ يعني وحدوه وأطيعوه ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ يعني كفيل بأرزاقهم . ويقال : وكيل يعني حفيظ . ثم عظم نفسه فقال : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ . قال مقاتل : يعني لا يراه الخلق في الدنيا . وروى الشعبي عن مسروق قال : قلت لعائشة ، هل رأى محمد - صلى الله عليه وسلم - ربه ؟ فقالت : لقد أشرع قلبي مما قلت أين أنت من ثلاثة من حدثك بهن فقد كذب ، من حدثك أن النبي ﷺ رأى ربه فقد كذب . ثم قرأت : لا تدركه الأبصار : ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارُ﴾ ومن حدثك أنه قد علم ما في غد فقد كذب ثم قرأت : (وما تدري نفس ماذا تكسب غداً) «سورة لقمان / ٣٤» ومن حدثك أنه كتم شيئاً من الوحي فقد كذب ثم قرأت : (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) . ثم قال : (وهو يدرك الأبصار) يعني لا يخفى عليه شيء ولا يفوته قال الزجاج : في هذه الآية دليل : أن الخلق لا يدركون الأبصار أي لا يعرفون كيف حقيقة البصر وما الشيء الذي صار به الإنسان يبصر من عينه دون أن يبصر من غيرهما من سائر أعضائه فاعلم أنهم لا يحيطون بعلمه فكيف به . ثم قال : ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ بخلقه وبأعمالهم . وقال أبو العالية : لا تدركه الأبصار في الدنيا ، وتدركه أبصار المؤمنين في الآخرة^(١) . قوله تعالى :

قَدْ جَاءَكُمْ بِصَآئِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ ﴿١٠٤﴾
وَكَذَلِكَ نَصْرِفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بِصَآئِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني بياناً من ربكم وهو القرآن الذي فيه البيان ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾ يقول : من صدق بالقرآن وآمن به فتوابه لنفسه ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ يعني من لم يصدق بالقرآن ولم يؤمن بمحمد - صلى الله عليه وسلم - فعلها جزاء العذاب ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ﴾ يعني بمسلط وهذا قبل أن يؤمر بالقتال ثم قال : ﴿وَكَذَلِكَ نَصْرِفُ الْآيَاتِ﴾ يعني نبين لهم الآيات في القرآن في كل وجه ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ . قرأ ابن كثير وأبو عمرو^(٢) : (دَارَسْتَ) يعني ذاكرت أهل الكتاب ، وقرأ نافع وعاصم وحزمة والكسائي : (وليقلوا : درست) يعني قرأت الكتب ويقال : تعلمت من جبر ويسار ، وكانا غلامين بمكة عبرانيين . فقال أهل مكة : أنما يتعلم منهما . وقرأ ابن عامر : (دَرَسْتَ) بنصب الراء والسين يعني هذا شيء قديم قد خلفت . وقرأ بعضهم : (درست) أي قرئت ، وروى عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ : (ليقلوا) بغير واو (درس) بغير تاء يعني لكي يقولوا : دَرَسَ النبي - صلى الله عليه وسلم - . وكان نزول هذه الآيات سبباً لقولهم هذا فأضاف قولهم إلى الآيات . ثم قال ﴿وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يعني أصحاب محمد عليه السلام ثم قال

اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ۚ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا ۚ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ

(١) انظر في هذا الدر المنثور ٢/ ٣٧ .

(٢) انظر حجة القراءات ٢٦٤ سراج القاري ٢١٣ شرح شعبة ٢٧٢ .

اللَّهُ فَيَسْئَلُوا اللَّهَ عَذَابًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾

﴿اتَّبِعْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني إعمل بما أنزل إليك من ربك من أمره ونهيهِ حين دعى إلى ملة آبائه . ثم قال ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ يعني اتركهم على ضلالتهم . ثم قال ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ يقول: ولو شاء الله لجعلهم مؤمنين . ويقال: لو شاء لأنزل عليهم آية يؤمنوا بها . لو شاء لاستأصلهم فقطع سبب شركهم . ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ يعني أن لم يوحدوا ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ يعني بمسلط . وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْأَلُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه كان يذكرون الأصنام بسوء ويذكرون عبيهم فقال المشركون: لتنتهين عن شتم آلهتنا أو لنسبَن ربك فنهى الله تعالى المؤمنين عن شتم آلهتهم عندهم لأنهم جهلة ﴿فَيَسْأَلُوا اللَّهَ عَذَابًا﴾ يعني اعتداء ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [يعني بلا علم منهم] ^(١) ويقال: (عَذَابًا) يعني ظلماً، صار نصباً بالمصدر . وفي الآية دليل: أن الإنسان إذا أراد أن يأمر بالمعروف فيقع الأمور به في أمر هو شر مما هو فيه من الضرب أو الشتم أو القتل ينبغي أن لا يأمره ويتركه على ما هو فيه . ثم قال: ﴿كَذَلِكَ زَيْنًا﴾ يقول: هكذا زينا ﴿لكل أمة﴾ يعني لكل أهل دين عملهم يعني ضلالتهم في الدنيا عقوبة ومجازاة لهم . ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ﴾ في الآخرة ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ . يعني فيجازيهم بذلك . قوله تعالى:

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ وكان أهل الجاهلية يحلفون بآبائهم وبالأصنام وبغير ذلك وكانوا يحلفون بالله تعالى وكانوا يسمونه جهد اليمين إذا كانت اليمين بالله، ولما نزل قوله تعالى: (إِنْ نَشَأْ نُذَلِّهِمْ مِنَ السَّمَاءِ . . الآية .) قالوا: أنزلها فوالله لنؤمنن بك وقال المسلمون: أنزلها لكي يؤمنوا: فنزل: (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ) يقول حلفوا بالله ﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ إِنْ شَاءَ أَنْزَلَهَا وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَنْزِلْهَا . ثم قال: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا﴾ يقول: وما يدريكم أنها ﴿إِذَا جَاءَتْ﴾ يعني الآية ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وقال مقاتل: (وما يشعركم) يا أهل مكة أنها إذا جاءتكم لا تؤمنون، وقال الكلبي: (وما يشعركم) أيها المؤمنون أنها إذا جاءت لا يؤمنون ^(٢) . قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر ^(٣): (أنها) بالكسر على معنى الابتداء وإنما يتم الكلام عند قوله: (وما يشعركم) ثم ابتداء فقال: (إنها إذا جاءت لا يؤمنون) ويشهد لهذا قراءة عبد الله بن مسعود: (وما يشعركم إنها إذا جاءت لا يؤمنون) وقرأ الباقر: (أنها) بالنصب على معنى البناء ويشهد لها قراءة أبي: وما يشعركم لعلها إذا جاءت . وقرأ ابن عامر وحزمة: (لا تؤمنون) ^(٤) بالثاء على معنى المخاطبة، وهذه القراءة توافق لقول مقاتل . ثم قال:

(١) سقط في أ. (٢) انظر تفسير القرطبي ٤٣/٧ . (٣) سقط في أ.

(٤) ونزيد ذلك تفصيلاً فنقول قال ابن زنجلة قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر (وما يشعركم أنها إذا جاءت) بكسر الألف . قال اليزيدي: الخبر متناه عند قوله: (وما يشعركم) أي ما يدريكم؟ ثم ابتداء الخبر عنهم: (إنهم لا يؤمنون إذا جاءتهم) وكسروا الألف على الاستئناف . قال سيبويه: سألت الخليل عن قوله (وما يشعركم إنها إذا جاءت) ما منعها أن تكون كقولك: (وما يدريك أنه لا يفعل؟) =

وَنَقَلَبْ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ ۖ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾
 ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ ﴿١١١﴾

﴿وَنَقَلَبْ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ﴾ يعني نترك قلوبهم وأبصارهم مغلقة كما هي ، ولا أوقفهم ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قبل نزول الآيات . ويقال : عند انشقاق القمر لما لم يعتبروا به ولم يؤمنوا فعاقبهم الله تعالى وختم على قلوبهم فثبتوا على كفرهم ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ يقول : وندهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ يعني في ضلالتهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يعني يترددون ويتحIRON فيه . ويقال : (كما لم يؤمنوا به أول مرة) يعني كما لم يؤمن به أوائلهم من الأمم الخالية لما سألوا الآية من أنبيائهم . قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ [هذا جواب لقولهم : لولا أنزل إليه ملك ، فيكون^(١) معه نذير قال الله تعالى : ولو أننا أنزلنا إليهم الملائكة] كما سألوا حتى يشهدوا بأنك رسول الله ﴿وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى﴾ بأنك رسول الله ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ قرأ نافع وابن عامر^(٢) : (قَبْلًا) بكسر القاف ونصب الباء . وقرأ الباقون : بالضم فمن قرأ بالضم فمعناه جماعة القبيل والقبيل : الكفيل ، ويقال : قبل أي أصنافاً من الأديمين ومن الملائكة ومن الوحش . ومن قرأ : (قَبْلًا) بالكسر معناه وحشرنا عليهم كل شيء معاينة فاعينوه . ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ وهذا إعلام للنبي - صلى الله عليه وسلم - بأنهم لا يؤمنون كما أعلم نوحاً - عليه السلام - (أنه لن يؤمن من قومك إلا

= فقال : (لا يحسن ذلك في هذا الموضع إنما قال : (وما يشعركم) ثم ابتدأ فأوجب فقال : إنها إذا جاءت لا يؤمنون) لو قال : (وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون) كان عذراً لهم) وحجتهم قوله بعدها : (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة) إلى قوله (ما كانوا ليؤمنوا) فأوجب لهم الكفر وقال : (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) أي أن الآية إن جاءت لم يؤمنوا (كما لم يؤمنوا) أول مرة .

وقرأ الباقون : (أنها إذا جاءت بالفتح . قال الخليل : إن معناها : لعلها إذا جاءت لا يؤمنون قال : وهذا كقولهم (إيت السوق إنك تشتري لنا شيئاً) أي لعلك . أنشد أبو عبيدة :

أُرِينِي جَوَادًا مَاتَ هَزْلًا لِأُنْسِي أَرَى مَا تَرَيْنِ أَوْ بِخَيْلًا مُخَلَّدًا

يريد لعلني أرى ما ترين .

يُروى في التفسير أنهم اقترحوا الآيات وقالوا : (لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً) إلى قوله (حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه) فينزل الله : ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لعلها إذا جاءت لا يؤمنون على رجاء المؤمنين .

وقال آخرون : بل المعنى : (وما يشعركم أنها إذا جاءت يؤمنون) فتكون (لا) مؤكدة للجحد كما قال : (وحرام على قرية . . . أهلكتها أنهم لا يرجعون) بمعنى : (وحرام عليهم أن يرجعوا) . قال الفراء (سأل الكفار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يأتيهم بالآية . التي نزلت في الشعراء : ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمُ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ وقال المؤمنون : (بل يا رسول الله سل ربك أن ينزلها حتى يؤمنوا) فأنزل الله : ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي (إذا جاءت يؤمنون) (ولا) صلة كقوله : ﴿وَمَا مَعَكُمْ إِلَّا تُسَجِّدُ إِذْ أُمِرْتُ﴾ أي أن تسجد .

قرأ حمزة وابن عامر : (إذا جاءت لا تؤمنون) بالتاء وحجتهم قوله : (وما يشعركم) (قال مجاهد : قوله (وما يشعركم) خطاب للمشركين الذين أقسموا فقال جل وعز : وما يدريك أنكم تؤمنون / .

وقرأ : الباقون : بالياء إخباراً عنهم وحجتهم قوله : (نقلب أفئدتهم وأبصارهم) ولم يقل (أفئدتكم) . انظر حجة القراءات ٢٦٥ - ٢٦٦ .

(٢) انظر حجة القراءات ٢٦٧ سراج القارئ ٢١٤ .

(١) ما بين المعقوفين من ب .

من قد آمن). ثم قال: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ يعني إلا من هو أهل لذلك فيوفقه الله تعالى ويقال: إلا أن يشاء الله يقول: قد شاء الله أن لا يؤمنوا حيث خذلهم ولم يوفقهم ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ عن ذلك. ويقال: أكثرهم يجهلون الحق أنه من الله تعالى. ويقال: يجهلون ما في العلامة من وجوب هلاكهم بعد العلامة أن لم يؤمنوا. قوله تعالى:

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِنَصْنَعِ الْإِنسَ آفِئَةً الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ يعني أعداء ومعنى ذلك كما جعلنا لك ولأمتك أعداء مثل أبي جهل وأصحابه كذلك جعلنا لكل نبي عدواً ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ قال مقاتل: وذلك أن إبليس وكل شياطين الإنس وشياطين الجن يضلونهم فإذا التقى شيطان الجن مع شيطان الإنس قال أحدهما للآخر: إني أضللت صاحبي بكذا وكذا فأضل أنت صاحبك بكذا وكذا فذلك قوله: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ يعني يكلم بعضهم بعضاً بالإضلال. وقال عكرمة للجن شياطين مثل شياطين الإنس^(١). وروي عن الزبير بن العوام أن جنياً شكاً إليه ما لقي من الشيطان فعلمه دعاء ليخلص منه فدعا به. ووجه آخر شياطين الإنس والجن يعني الشياطين من الإنس والشياطين من الجن لأن كل عات متمرّد فهو شيطان. وروي عن أبي ذر الغفاري أنه قال: دخلت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو في المسجد فأمرني أن أصلي ركعتين فصليت ثم جلست عنده قال: يا أبا ذر تعوذ بالله من شياطين الإنس وشياطين الجن، فقلت: يا رسول الله أو من الإنس شياطين؟ فقال النبي: - صلى الله عليه وسلم - أو ما تقرأ قوله: (شياطين الإنس والجن)^(٢) وكذلك هذان القولان من قوله تعالى: (في صدور الناس من الجنة الناس). ثم قال: (يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ) يعني يوسوس بعضهم بعضاً ﴿زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ يعني ما زين منه، وحسن وموه، يعني يزين القول باطلاً يغرهم بذلك، وأصل الزخرف: الذهب وسمى الزينة زخرفاً لأن أصل الزينة من الذهب يعني يزين لبعض الأعمال. ثم قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ يعني لو شاء ربك لمنعهم من الوسوسة ولكن الله يمتحن بما يعلم أنه أبلغ في الحكمة وأجزل في الثواب ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ يعني خل عنهم وما يكذبون من القول والغرور. ثم قال ﴿وَلِنَصْنَعِ الْإِنسَ آفِئَةً﴾ يقول: ولتميل إلى ذلك الزخرف والغرور ﴿أَفِئَةً الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ إلى هذه الزينة والغرور ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ يقول: لكي يقبلوا من الشياطين الزينة والغرور ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ يعني ليكسبوا ما هم مكتسبون من المعاصي وليعملوا ما هم عاملون. وقرأ بعضهم: (وليَرْضَوْهُ وليَقْتَرِفُوا) بجزم اللام على معنى الأمر والمراد به التهديد كقوله: (اعملوا ما شئتم) والقراءة المعروفة: بكسر اللام والمراد به التهديد، ومعناه اتركهم ليعملوا ما هم عاملون. وقوله تعالى:

أَفْغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١٧٨/٥. وأخرجه الطبري ٥٣/١٢.

(١) أخرجه الطبري في التفسير ٥٢/١٢ (١٣٧٦٦).

مُبَدَّلَ لِكَلِمَتِهِ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أُبْنِغِي حَكَمًا﴾ يعني أعبد غير الله؟ ويقال: أأطلب القضاء من غير الله؟ ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ يعني مبيناً فيه أمره ونهييه بلغة يعرفونها. ويقال: مفرقاً سورة سورة وآية آية. ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ يعني مؤمني أهل الكتاب ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ يعني القرآن منزل من الله بالعدل. قرأ ابن عامر وعاصم في رواية حفص^(١): (منزل) بتشديد الزاء. وقرأ الباقون: بالتخفيف ثم قال: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْتَرِينَ﴾ يعني الشاكين في أنه الحق. وأنه من الله تعالى خاطبه بذلك وأراد به غيره من المؤمنين لكي لا يشكوا فيه. قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ يقول: وجب قول ربك بأنه ناصر محمد - صلى الله عليه وسلم - وأن عاقبة الأمر له ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ يعني صدقاً فيما وعد الله له من النصرة (وعدلاً) فيما حكم به ﴿لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ يقول: لا مغير لوعده كقوله: (لننصر رسلنا) ويقال: (لا مبدل لكلماته) يعني لا ينقض بعضها بعضاً ولا يشبه كلام البشر. وروى أنس بن مالك عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً) قال: هو قول لا إله إلا الله ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ «السميع» بما سألوا «العليم» بهم. ثم قال: ﴿وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني أهل أرض مكة فيما يدعونه إلى ملة آبائه. ويقال: وإن تطع أكثر من في الأرض يعني الكفار لأن أكثر من في الأرض كانوا الكفار ﴿يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني يصرفوك عن دين [الإسلام]^(٢). ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ يعني أن أكثرهم يتبعون أكابرهم بالظن ويتبعونهم فيما لا يعلمون أنهم على الحق. فإن قيل: كيف يعذبون وهم ظانون على غير يقين؟ قيل لهم: لأنهم اقتصروا على الظن والجهل لأنهم اتبعوا أهواءهم ولم يتفكروا في طلب الحق. ويقال: (إن يتبعون إلا الظن) يعني في أكل الميتة واستحلها ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يعني ما هم إلا كاذبون باستحلهم الميتة لأنهم كانوا يقولون: ما قتل الله فهو أولى بالحل وبأكله مما نذبحه بأيدينا. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ يعني: عن دينه وعن شرائع الإسلام ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ لدينه. قرأ أهل الكوفة: عاصم وحزمة والكسائي: (وتمت كلمة ربك) وقرأ الباقون: (كلمات) بلفظ الجماعة. قوله تعالى:

فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ من الذبائح ﴿إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني مصدقين. فقد بين الله تعالى أنه لا يجوز أكل الميتة وإنما يحل أكله إذا ذبح وذكر اسم الله عليه. ثم قال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ مما ذبح وذكر اسم الله عليه ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ﴾ يعني بين لكم تحريمه في سورة المائدة وغيره من ﴿مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [يعني الميتة وغيرها]^(٣) ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ يقول: ما اجتهدتم إلى أكل الميتة عند الجوع. قرأ ابن

كثير وابن عامر^(١) وأبو عمرو (فصل لكم) بضم الفاء، (ما حرم عليكم) بضم الحاء على معنى فعل ما لم يسم فاعله. وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر: (وقد فصل) بالنصب (وما حرم) بالضم. وقرأ نافع وعاصم في رواية حفص كلاهما بالنصب يعني بين الله لكم ما حرم عليكم. ثم قال: ﴿وَأَنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بَغِيرَ عِلْمٍ﴾ يقول: يدعون إلى أكل الميتة بغير علم ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ من الحلال إلى الحرام. قوله تعالى:

وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيَجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ يعني زنا السر والعلانية لأن أهل الجاهلية كانوا يجرمون الزنا في العلانية ولا يرون به بأساً في السر فأخبر الله تعالى: أن الزنا حرام في السر والعلانية ويقال: ظاهر الإثم: وهو الزنا، وباطنه القبلة واللمس والنظر. وقال الضحاك: (ظاهر الإثم) الزنا (وباطنه): نكاح الأمهات والأخوات وقال قتادة: (ظاهر الإثم وباطنه) يعني قليله وكثيره^(٢). ويقال: ظاهره: إرتكاب المعاصي، وباطنه: ترك الفرائض. ويقال: باطنه: الرياء في الأعمال ويقال الكفر. ويقال جميع المعاصي. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ﴾ يقول: يعملون الفواحش ويتكلمون بها ﴿سَيَجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ سيعاقبون بما كانوا يكسبون من الإثم. قرأ أهل الكوفة عاصم وحمزة والكسائي^(٣): وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بضم الياء، يعني يضلون الناس. وقرأ الباقون: (ليضلون) بنصب الياء، يعني يضلون بأنفسهم. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ يعني ما لم يذكر ولم يذبح، أو ذبح بغير اسم الله ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ يعني أكله معصية واستحلاله كفر ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ يعني يوسوسون إلى أوليائهم من المشركين ﴿لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ يقول: ليخاصموكم في أكل الميتة وهو قولهم: ما قتله الله فهو أولى أن يؤكل. وروي عن عبد الله بن الزبير أنه قيل له: إن المختار^(٤) يقول: يوحى إلي فقال: صدق، وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم^(٥). قال الفقيه، قال: حدثنا أبو الفضل بن أبي [حفص]^(٦)، قال: حدثنا أبو جعفر الطحاوي بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال المشركون للمسلمين: ما قتل ربكم ومات فلا تأكلوه وما قتلتم أنتم وذبحتم فتأكلوه فأوحى الله تعالى إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه)^(٧). . . إلى قوله ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ يعني في أكل الميتة واستحلاله ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ مثلهم ففي الآية دليل: أن من استحل شيئاً مما حرم الله تعالى صار مشركاً. ثم قال:

(١) انظر حجة القراءات ٢٦٨ - ٢٦٩ سراج القاري ٢١٥.

(٢) أخرجه الطبري في التفسير ٧٢/١٢. (٣) انظر حجة القراءات ٢٦٩ سراج القاري ٢١٥.

(٤) المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي أبو إسحاق من زعماء الثائرين على بني أمية، ادعى النبوة ونزول الوحي توفي سنة ٦٧ هـ.

انظر الإعلام ١٩٢/٧ الفرق بين الفرق ٣١ - ٣٧.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤٣/٣ وقال أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عمر.

(٦) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ٧٩/١٢ (١٣٨٠٩).

(٧) أخرجه ابن جرير الطبري عن عكرمة انظر التفسير ٩٠/١٢.

أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾

﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ يعني من كان ضالاً كافراً فهديناه إلى الإسلام والتوحيد ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ يعني أكرمناه بالمعرفة. ويقال: جعلنا له إيماناً يهتدي به سبيل الخيرات والنجاة يمشي به في الناس، يعني مع المؤمنين ويقال: أعطيناه نوراً يوم القيامة يمشي به على الصراط مع المؤمنين، لا يكن حاله ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ يعني كمن قدر عليه الكفر ونزل في الكفر مخدولاً ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ يعني ليس براجع منها يعني ليسا بسواء. قال الكلبي: نزلت في عمار بن ياسر يعني ليس حاله بحال الكفار^(١). وقال مقاتل^(٢): يعني به النبي - صلى الله عليه وسلم - ليس مثل أبي جهل بن هشام الذي بقي في الكفر. ويقال: يعني جميع المؤمنين ليس حالهم كحال الكفار. قرأ نافع: (أومن كان مِيتاً) بالتشديد، وقرأ الباقون: بالتخفيف ومعناها واحد. ثم قال: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني هكذا نعاقب من اختار الكفر على الإيمان فنختم على قلبه مجازاة لكفره. ثم قال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا﴾ يعني جعلنا مجرميها أكابرها وجابرتها كما جعلنا في أهل مكة وهذا معطوف على ما قبله، أي مثل ذلك جعلنا في كل قرية، كما زين للكافرين ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ يعني ليتكبروا فيها ويكذبوا رسلهم ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ﴾ يعني وما يصنعون ذلك ﴿إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ يعني إلا على أنفسهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أن ذلك على أنفسهم. قوله تعالى:

وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ يعني الأكابر الذين سبق ذكرهم. ويقال: كفار مكة إذا جاءتهم علامة مثل انشقاق القمر وغيره ﴿قَالُوا: لَنْ نُؤْمِنَ﴾ يعني لن نصدقك ولن نؤمن بالآية ﴿حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ﴾ أي مثل ما أعطى ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ يعني محمداً - صلى الله عليه وسلم - من الآيات والعلامات. ويقال: لم نصدقك حتى يوحى إلينا كما أوحى إلى الرسل وذلك أن الوليد بن المغيرة وأبا مسعود الثقفي قالا: لو أراد الله تعالى أن ينزل الوحي لأنزل علينا^(٣) قال بعضهم: أرادوا به محمداً - صلى الله عليه وسلم - وقال بعضهم: أرادوا به جميع الرسل. فقال الله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ ومن يصلح للنبوّة ومن لا يصلح فخص بها محمداً - صلى الله عليه وسلم - ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ يعني أشركوا ﴿صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يعني مدلّة وهوان عند الله أي من عند الله العذاب بالمستهزئين ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ يعني يكذبون بالرسول. قرأ ابن كثير وعاصم في رواية حفص^(٤): «حيث

(٣) انظر تفسير القرطبي ٥٣/٧.

(٢) انظر حجة القراءات ٢٧٠.

(١) انظر التفسير ٣٩٧/١.

(٤) انظر حجة القراءات ٢٧٠ سراج القاري ٢١٥.

يجعل رسالته» بلفظ الوجدان، وقرأ الباقون: «رسالته» بلفظ الجماعة. قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ﴾ يعني من يرد الله أن يوفقه للإسلام ويهديه لدينه ﴿يُشْرَحْ صَدْرُهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ يقول: يوسع قلبه ويلينه لقبول الإسلام ويدخل فيه نور الإسلام وحلاوته. وقال القتبي: يشرح صدره يعني يفتحه. قال الفقيه قال: حدثنا الخليل بن أحمد، حدثنا الديلمي، قال: حدثنا أبو عبيد الله، عن سفيان، عن خالد بن أبي كريمة^(١) عن عبد الله بن المسور^(٢): أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: لما نزلت هذه الآية (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) قالوا: يا رسول الله فكيف ذلك؟ قال: إذا دخل النور في القلب انشرح وانفسح قالوا: وهل لذلك من علامة يعرف به؟ قال: نعم التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزول الموت^(٣). ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ﴾ عن الإسلام فلا يقبله ويتركه بغير نور ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا﴾ عن الإسلام يعني غير موسع ﴿حَرَجًا﴾ يعني شاكًا. وقال ابن عباس^(٤): كالشجرة الملتفة بعضها في بعض لا يجد النور منفذاً ومجازاً، قرأ ابن كثير^(٥) (ضيقاً) بتخفيف الياء وجزمها وقرأ الباقون بالتشديد. وقرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر^(٦): (حَرَجًا) بكسر الراء، وقرأ الباقون: بالنصب. فمن قرأ بالنصب فهو المصدر، ومن قرأ بالكسر فهو النعت. ثم قال: ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ يعني مثله كمثل الذي يتكلف الصعود إلى السماء وهو لا يستطيع فكذلك قلب الكافر لا يستطيع قبول الإسلام. قرأ ابن كثير^(٧) (يَصْعَدُ) بجزم الصاد ونصب العين بغير تشديد، من صَعَدَ يَصْعَدُ، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر: (يَصْأَعِدُ) بالالف مع تشديد الصاد وتخفيف العين لأن أصله يتصاعد فأدغم التاء في الصاد. وقرأ الباقون: (يَصْعَدُ) بتشديد الصاد والعين بغير ألف لأن أصله يتصعد فأدغم التاء في الصاد. ثم قال: ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ﴾ يعني العذاب ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بترك حلاوة الإيمان على الذين لا يرغبون في الإيمان. ويقال: الرجس في اللغة: هو اللعنة والعذاب. قوله تعالى:

وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْجَنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾

﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ يعني هذا التوحيد دين ربك، مستقيماً يعني قائماً برضاه ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ يعني قد بينا العلامات وبيننا الآيات في أمر القلوب والهدى والضلالة ﴿لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ يعني يتعظون ويفكرون في

(١) أبو عبد الرحمن روى عن أبي جعفر ومعاوية بن فرة وروى عنه الثوري. انظر الجرح والتعديل ٣/ ٣٤٩.

(٢) عبد الله بن المسور بن عبد الله بن عون بن جعفر بن أبي طالب أبو جعفر القرشي الهاشمي المدائني روى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - مرسل وضاع. انظر الجرح والتعديل ٥/ ١٦٩ - ١٧٠.

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري ١٢/ ١٠١ (١٣٨٥٦) وذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٤٥ وزاد نسبه إلى ابن المبارك والفريابي.

(٤) انظر تفسيره ١٩٤. (٥) انظر حجة القراءات ٢٧١ سراج القاري ٢١٥.

(٦) انظر حجة القراءات ٢٧١ سراج القاري ٢١٥. (٧) انظر حجة القراءات ٢٧١ سراج القاري ٢١٥.

توحيد الله تعالى . ويقال: معناه لا عذر لأحد في التخلف عن الإيمان لأن الله تعالى قد بين طريق الهدى، وقد بين العلامات في ذلك لمن كان له عقل وتميز. ثم ذكر ما أعد الله للمؤمنين في الآخرة فقال: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ وهي الجنة وهي دار السلام من الأمراض والآفات، والخوف والهزم وغير ذلك. ويقال: (لهم دار السلام): فالله السلام والجنة داره يعني دار رب العزة التي أعد لأوليائه بالثواب ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ أي الله تعالى حافظهم وناصرهم في الدنيا. ويقال: هو وليهم في الآخرة بالثواب، ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا. قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ﴾ يقول: وأذكر يوم يجمعهم الله ﴿جَمِيعًا﴾ يعني الجن والإنس. قرأ عاصم في رواية حفص^(١) (يحشرهم) بالياء يعني أن الله يحشرهم. وقرأ الباقر: (نحشرهم) بالنون ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ﴾ يقول لهم: يا معشر الجن ﴿قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ يعني قد أضللتكم كثيراً من الإنس. ﴿وَقَالَ أُولِيَائُهُم مِّنَ الْإِنْسِ﴾ الذين أضلوهم ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ يعني انتفع بعضنا ببعض وكان استمتاع الإنس بالجن في الدنيا أن أهل الجاهلية كانوا إذا سافر واحد منهم فأدركه المساء بأرض قفر وخاف بالليل فقال: أعوذ بسيد أهل هذا الوادي من سفهاء قومه، فأمّن ولبت في جوارهم حتى يصبح، وكان استمتاع الجن بالإنس أن قالوا: لقد سودنا الإنس والجن فيزيدون شرفاً في قومهم يعني فيما بين الجن والإنس ﴿وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتُمْ لَنَا﴾ يعني الموت الذي جعلته أجلنا في هذه الدنيا. وهذا قول الكلبي^(٢). وقال الضحاك: (ربنا استمتع بعضنا ببعض) يعني خدع بعضنا بعضاً عن دينك يعني أن الجن قد خدعنا وأصلنا^(٣) (وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا) يعني ما كتبت علينا من الشقاوة. ﴿قَالَ: النَّارُ مُثَوَّكُم﴾ يعني منزلكم وهم الجن والإنس ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مقيمين في النار ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ قال الكلبي: مشيئة الله من كل شيء. ويقال: إلا ما شاء الله البرزخ والقيامة. قد شاء الله لهم الخلود فيها. ويقال: (إلا ما شاء الله) يخرج منها من أهل التوحيد. ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾. ثم قال: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي﴾ يعني نسلط ﴿بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ يعني كفار الجن على كفار الإنس. ويقال: نسلط بعض الظالمين بعضاً فيهلكه ويذله. وهذا كلام لتهديد الظالم لكي يمتنع عن ظلمه، لأنه لو لم يمتنع يسلط الله عليه ظالماً آخر ويدخل في الآية جميع من يظلم، ومن ظلم في رعيته أو التاجر يظلم الناس في تجارته، أو السارق وغيرهم. وقال فضيل بن عياض^(٤): إذا رأيت ظالماً ينتقم من ظالم، فقف وانظر فيه متعجباً^(٥). وقال ابن عباس: إذا رضي الله عن قوم ولى أمرهم خيارهم، وإذا سخط الله على قوم، ولى أمرهم شرارهم^(٦) بما كانوا يكسبون ثم تلا قوله «وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً» وعن مالك بن دينار^(٧) قال: قرأت في بعض الكتب المنزلة أن الله تعالى يقول: إني أنا الله مالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، ونواصيها بيدي، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسبب الملوك ولكن توبوا إلي أجعلهم عليكم رحمة. ثم قال: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يعني يسلط بعضهم على بعض بأعمالهم الخبيثة. ثم يقول لهم:

(١) انظر سراج القاري ٢١٦ شرح شعبة ٣٧٨.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور عن ابن جريج وقال أخرجه ابن المنذر وأبو الشيخ وانظر تفسير القرطبي ٥٦/٧.

(٣) انظر تفسير القرطبي ٥٥/٧.

(٤) عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض بن محمد بن عبد الله بن موسى بن عياض البحصمي السبتي توفي سنة أربع وأربعين وخمسائة انظر أزهار الرياض ١٧/٣ ووفيات الأعيان ١١٧/٢.

(٥) انظر المصدر السابق.

(٦) انظر تفسير القرطبي ٥٦/٧.

(٧) بنحوه ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤٦/٣ وعزه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

يَمَعَّشَرَ الْجَنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾
ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾

﴿يَا مَعْشَرَ الْجَنِّ وَالْإِنسِ﴾ يعني يقول لهم ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾. قال مقاتل^(١): بعث الله تعالى رسولا من الجن إلى الجن ومن الإنس إلى الإنس ويقال: رسل الجن [السبعة]^(٢)، الذين سمعوا القرآن من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ورجعوا إلى قومهم منذرين وقالوا: يا قومنا أجيئوا داعي الله. ويقال: ألم يأتكم رسل منكم، يعني من الإنس خاصة. وقال ابن عباس^(٣): كانت الرسل تبعث إلى الإنس وأن محمداً - صلى الله عليه وسلم - بعث إلى الجن والإنس. ثم قال: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ﴾ يقول: يقرأون ويعرضون (عليكم) ﴿ءَايَاتِي﴾ يعني القرآن ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ﴾ يعني يخوفونكم ﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾، قالوا: شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا يعني يقولون: بلى أقررنا أنهم قد بلغوا وكفروا بهم. ثم قالت الرسل، وذلك بعدما شهد عليهم سمعهم وأبصارهم، يقول الله تعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ يعني ما في الحياة الدنيا من زهرتها، وزينتها ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ في الدنيا، ويقول الله تعالى: (النار مثواكم خالدين فيها) على وجه التقديم والتأخير. قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ يعني ذلك السؤال والشهادة. ويقال: (ذلك) يعني إرسال الرسل إلى الجن والإنس، ليعلم أن لم يكن الله مهلك القرى، يعني معذب أهل القرى بغير ذنب في الدنيا ﴿وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ عن الرسل. ويقال: غافلون عن العذاب لأنه قد بين لهم وأخذ عليهم الحجة. ثم قال:

وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رُبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَاءُ يَذْهَبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخِرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنْ مَا تُوْعَدُونَ لَأَتِيَّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ يعني ولكل واحد من المؤمنين فضائل في الجنة بعضهم أرفع درجة من بعض، وللکافرين درجات بعضهم أشد عذاباً من بعض ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ يعني لمن ينسى الطاعة من المطيعين ولا المعصية من العاصين ويجازي كل نفس بما عملت. قرأ ابن عامر^(٤): (عما تعملون) على معنى المخاطبة وقرأ الباقون: (يعملون) بالياء على معنى المغاية. قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ يعني غني عن عبادة خلقه ذو الرحمة بتأخير العذاب عنهم. ويقال: (ذو الرحمة) يعني ذو التجاوز عمن تاب ورجع إليه بالتوبة ﴿إِنْ يَشَاءُ يَذْهَبْكُمْ﴾ يعني يهلككم ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ خلقاً بعدكم من بعد إهلاككم (ما يشاء): إن

(٢) في أ [التسعة].

(١) انظر التفسير ٤٠٠/١.

(٤) انظر حجة القراءات ٢٧٢ سراج القاري ٢١٦.

(٣) ذكر هذا الأثر القرطبي ٥٧/٧ نقلاً عن المصنف رحمه الله.

يشأ مثلكم وإن يشأ أطوع منكم ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ﴾ يقول: كما خلقكم ﴿مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ قرأنا من بعد قرن ولكنه لم يهلككم رحمة منه لترجعوا وتنبؤوا ثم قال: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَاتٍ﴾ يعني الوعيد الذي أوعد في الآخرة من العذاب لآت، يقول: لكائن لا خلف فيه ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ يعني بسابقين الله بأعمالكم الخبيثة [التي] (١) يجازيكم بها، هذا قول مقاتل (٢): وقال الكلبي: بمعجزين أي، بفائتين (٣) أن يدرككم، ويقال في اللغة (٤): أعجزني الشيء أي فاتني وسبقني. ثم قال: ﴿قُلْ يَأْقُومِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أي على موضعكم، يقال: مكان، ومكانة، مثل منزل ومنزلة، ومعناه اعملوا على ما أنتم عليه. ويقال: معناه: اجتهدوا في إهلاككم ما استطعتم ويقال: اعملوا في منازلكم من الخير والشر فإنكم تجزون بهما لا محالة ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ بما أوحى الله إلي. ويقال: اعملوا بمكاني، وأنا عامل بمكانكم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ فهذا وعيد من الله تعالى يقول: نبين لكم من تكون له عاقبة الأمر في الدنيا ومن تكون له الجنة في الآخرة. ثم قال: ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ﴾ مخاطباً لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - أي في الآخرة ولا يأمن المشركون قرأ عاصم في رواية أبي بكر (٥): (اعملوا على مكانتكم) في جميع القرآن بلفظ الجماعة وقرأ الباقون: مكانتكم. وقرأ حمزة والكسائي: (من يكون) بالياء لأنه انصرف إلى المعنى وهو الثواب. والباقون: قرأوا بالتاء لأن لفظ العاقبة لفظ مؤنث. قوله تعالى:

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ
وهَذَا لِلشُّرَكَائِ فَمَا كَانَتْ لَشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَتْ لِلَّهِ
فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ
لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرْذُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا
عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمُ
وَحَرْثٌ حَجَرٌ لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَأَ بِرِزْقِهِمْ وَأَنْعَمُ حَرَمٌ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ
اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ
الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مِيتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ
سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ
وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ﴾ وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد (٦) قال: كانوا يسمون الله جزءاً من الحرث ولأوثانهم جزءاً فما ذهبت به الريح من جزء أوثانهم إلى جزء الله أخذوه وما ذهبت به الريح من الجزء

(١) في أ [حتى].

(٢) انظر تفسير ابن عباس ٩٥.

(٣) انظر التفسير ٤٠١/١.

(٤) انظر ترتيب القاموس ١٦١/٢ لسان العرب ٢٨١٧/٤.

(٦) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ١٣٢/١٢ (١٠٦٠٢).

(٥) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٧٢ سراج القاري ٢١٦.

الذي سموه الله إلى جزء الأصنام تركوه، وقالوا: إن الله غني عن هذا. وقال السدي: ما خرج من نصيب الأصنام: أنفقوه عليها، وما خرج من نصيب الله تصدقوا به فإذا هلك الذي لشركائهم وكثر الذي لله قالوا: ليس لآلهتنا بد من النفقة فأخذوا الذي لله وأنفقوه على الأصنام، وإذا هلك الذي لله وكثر الذي للأصنام قالوا: لو شاء الله لأزكى ماله فلا يزيدون عليه شيئاً^(١)، فذلك قوله تعالى: (وجعلوا لله مما ذرأ) يعني مما خلق من الحرث والأنعام ﴿نَصِيْبًا﴾ يعني جعلوا لله نصيباً ولشركائهم نصيباً فاقصر على المذكور لأن في الكلام دليلاً على المسكوت عنه ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾ يقول: بقولهم ولم يأمرهم الله بذلك ﴿وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ يعني للأصنام ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ﴾ يعني لأصنامهم ﴿فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ﴾ يقول: فلا يضعون شيئاً في نصيب الله ﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾ يقول: يوضع في نصيبهم ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ يعني لو كان معه شريك كما يقولون ما عدلوا في القسمة، ويقال ساء ما يحكمون حيث وصفوا الله شريكاً. قرأ الكسائي^(٢): (بزعمهم) بضم الزاي وقرأ الباقون بالنصب وهما لغتان ومعناها واحد. ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ﴾ يعني زين لهم شركائهم وهم الشياطين قتل أولادهم لأنهم يقتلون أولادهم مخافة الفقر والحمية، ويدفنون بناتهم أحياء فزين لهم الشيطان ذلك، كما زين لهم تحريم الحرث والأنعام. ويقال: كان واحد منهم ينذر: أنه إذا ولد كذا وكذا ولد يذبح واحداً منهم كما فعل عبد المطلب، فزين لهم الشيطان قتل أولادهم فذلك قوله: (وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم). قرأ ابن عامر ومن تابعه من أهل الشام^(٣): (وكذلك زين) بضم الزاي (قتل) بضم اللام (أولادهم) بفتح الدال (شركائهم) بالخفض وإنما قرئ (زَيْنٌ) بالضم على فعل ما لم يسم فاعله، ومعناه قتل شركائهم على معنى التقديم، وهم أولادهم لأن أولادهم شركائهم في أموالهم فصار شركائهم نعتاً للأولاد، وصار الأولاد نصباً على وجه التفسير. وقرأ الباقون (زَيْنٌ) بالنصب لأنه فعل ماض (شركائهم) بالضم لأنه جعل الشركاء على وجه الفاعل ثم قال: ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ يعني ليهلكوهم بذلك ﴿وَلِيَلْبِسُوا﴾ يعني ليخلطوا وليشبهوا ﴿عَلَيْهِمْ دِينُهُمْ﴾ يعني دين إبراهيم وإسماعيل. ثم قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ يعني لو شاء الله لمنعهم من ذلك منع اضطرار وقهر وأهلكهم ﴿فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ يعني دعهم وما يكذبون بأن الله أمرهم بذلك، ومعناه أن الله مع قدرته عليهم قد تركهم إلى وقت قدرهم فاتركهم أنت أيضاً إلى الوقت الذي تؤثر بقتالهم. ويقال: معناه دعهم فإن لهم موعداً بين يدي الله فيحاسبهم ويجازيهم بها قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا: هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ﴾ وهي البحيرة والسائبة والوصيلة والحرث وهو نوع من الزرع حرموها على النساء ﴿حَجَرٌ﴾ يعني حرام والحجر يكون عبارة عن العقل كقوله تعالى: (هل في ذلك قسم لذي حجر) أي لذي لب وعقل ويكون عبارة عن الحرام كقوله: (حجراً محجوراً) يعني حراماً محرماً، وكقوله: (هذه أنعام وحراث حجر) يعني حراماً ﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ من الرجال دون النساء، وهو مالك بن عوف كان يفتيهم بالحل والحرمة وكان يقول هذا يجوز وهذا لا يجوز لأشياء كانوا حرموها برأيهم ثم قال: (وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا) وهي الحام من الإبل كانوا يتركونها ولا يركبونها ﴿وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ يعني عند [الذبيحة]^(٤)، ويقال: عند الركوب وهي البحيرة ﴿افْتَرَاءً عَلَيْهِ﴾ يعني اختلافاً وكذباً على الله بأنه أمرهم بذلك ﴿سَيَجْزِيهِمْ﴾ يعني سيعاقبهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يعني يكذبون على الله بأنه أمرهم. ﴿وَقَالُوا: مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ قال الكلبي: يعني البحيرة والوصيلة حلال لذكورتنا ما دامت في الأحياء

(٣) انظر حجة القراءات ٢٧٣ وسراج القاري ٢١٦ - ٢١٧.

(٤) في أ [الذبح].

(١) أخرجه ابن جرير الطبري ١٣٢/١٢ (١٣٩.٦).

(٢) انظر حجة القراءات ٣٧٣ سراج القاري ٢١٦.

وليس للنساء فيه شركة ولا نصيب، فذلك قوله: ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً﴾ يعني من هذه الأنعام ﴿فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ يعني الرجال والنساء في أكلها^(١). وقال الضحاك: كانت الناقة إذا ولدت فصيلاً ذكراً حرماً لحوم الفصيل ولبن الناقة على النساء دون الرجال وإن وضعت فصيلاً ميتاً اشتركت الرجال والنساء في لحم الفصيل، ولبن الناقة^(٢)، ذكر في أول الكلام (خالصة) لفظ التأنيث لأنه انصرف إلى المعنى ومعناه حملة ما في بطون هذه الأنعام ثم قال: (ومحرم على أزواجنا) ذكر بلفظ التذكير لأنه انصرف إلى قوله: (ما في بطون). قرأ عاصم في رواية أبي بكر^(٣): (وإن تكن) بالتاء على معنى التأنيث (ميتة) بالنصب يعني وإن تكن الجماعة ميتة صارت الميتة خبر كان. وقرأ ابن عامر: (وإن يكن ميتة) بالضم يعني وإن كانت ميتة جعلها اسم كان رفعاً. وقرأ ابن كثير: (وإن يكن). بالياء (ميتة) بالضم يعني وإن كان ما فيه ميتة بلفظ التذكير وجعل الميتة اسم كان. وقرأ الباقون: (وإن يكن ميتة) جعلوا الميتة خبر كان بلفظ التذكير ثم قال: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ﴾ صار نصباً لنزع الخافض يعني سيعاقبهم بكذبهم. ﴿إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (حكيم) عليهم بالعذاب (عليم) بهم. وفي الآية دليل أن العالم ينبغي أن يتعلم قول من خالفه، وإن لم يأخذ به حتى يعلم فساد قوله ويعلم كيف يرد عليه لأن الله تعالى أعلم النبي - عليه السلام - وأصحابه قول من خالفهم في زمانهم ليعرفوا فساد قولهم. قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ﴾ يعني دفنوا بناتهم أحياء وقتلوهن ﴿سَفَهًا﴾ صار نصباً لنزع الخافض يعني جهلاً منهم ﴿يَغْيِرُ عِلْمٌ﴾ يعني [بغير] حجة منهم في قتلهن وهم ربيعة ومضر كانوا يقتلون بناتهم لأجل الحمية. وروي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن رجلاً من أصحابه كان لا يزال مغتماً بين يديه، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «مالك تكن محزوناً؟» فقال: يا رسول الله إني قد أذنبت في الجاهلية ذنباً فأخاف أن لا يغفر لي وإني أسلمت، فقال له «أخبرني عن ذنبك» فقال: يا رسول الله إني كنت من الذين يقتلون بناتهم فولدت لي بنت، فتشفت إلي امرأتي بأن أتركها فتركها حتى كبرت وأدركت فصارت من أجمل النساء، فخطبوها فدخلت عليّ الحمية ولم يحتمل قلبي أن أزوجه أو أتركها في البيت بغير زوج فقلت للمرأة إني أريد أن أذهب بها إلى قبيلة كذا وكذا في زيارة أقربائي فابعثها معي فسرت بذلك وزيتها بالثياب والحلي وأخذت عليّ الموائيق بأن لا أخونها فذهبت بها إلى رأس بئر فنظرت إلى البئر ففطنت الجارية أنني أريد أن ألقيها في البئر فالتزمت بي وجعلت تبكي وتقول: يا أبت أي شيء تريد أن تفعل بي فرحمتها ثم نظرت في البئر فدخلت عليّ الحمية ثم التزمتني وجعلت تقول: يا أبت لا تضع أمانة أمني فجعلت مرة أنظر في البئر ومرة أنظر إليها وأرحمها حتى غلبني الشيطان فأخذتها وألقيتها في البئر منكوسة وهي تنادي في البئر: يا أبت قتلتي، فمكثت هناك حتى انقطع صوتها فرجعت. فبكى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه وقال: لو أمرت أن أعاقب أحداً بما فعل في الجاهلية لعاقبتك بما فعلت^(٤). ثم قال: ﴿وَحَرِّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ يعني ما أعطاهم ﴿أَفْتِرَاءً﴾ يعني كذباً

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور عن ابن عباس.

(١) أخرجه ابن جرير الطبري عن مجاهد ١٤٨/٢.

(٣) انظر حجة القراءات ٢٧٤ سراج القاري ٢١٩.

المعنى وإن تكن تلك الحمول التي في البطون ميتة، ويجوز أن ترد على (الأنعام) أو على معنى (ما) ولك أن ترجع عن لفظ (ما) و(من) إلى معناه ومن معناه إلى لفظهما لأن لفظهما واحد - ومعناهما الجمع والتأنيث. وقد جاء في التنزيل حرف قد حملة على اللفظ ثم رجع إلى المعنى ثم حملة ثانياً على اللفظ وهو قوله: (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات) فوحد - وحملة على اللفظ، ثم قال: (خالدين فيها أبداً) فجمع على المعنى ثم قال: (قد أحسن الله له رزقاً) فرجع بعد الجمع إلى التوحيد وحملة أيضاً على التوحيد وكذلك قوله (هنا): - (وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا) على معنى (ما) (ومحرم) مذكر بعد مؤنث على لفظ (ما) فهو حرف ثان، وهو حسن. انظر حجة القراءات ٢٧٤.

(٤) الحديث ذكره القرطبي في التفسير ٦٤/٧ ولم يذكر له إسناد.

﴿عَلَى اللَّهِ﴾ بأنه قد حرم ذلك عليهم ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ عن الهدى ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ يعني وما هم بمهتدين . ويقال : وما كانوا مهتدين من قبل ، فخذلهم الله بذلك . قرأ ابن كثير وابن عامر^(١) : (قَتَلُوا) بالتشديد لتكثير الفعل ، والباقون بالتخفيف . قوله تعالى :

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلُوا مِنْ مَّارَزِقِكُمْ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَنِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعَزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلَذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلَذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ بِهِذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ﴾ يعني خلق البساتين يعني الكروم وما يعرش ، وهو الذي يبسط مثل القرع ونحو ذلك ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ يعني كل شجرة قائمة على أصولها ﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ﴾ يعني خلق النخل والزرع ﴿مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ﴾ يعني طعمه مثل الحامض والحلو والمر ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا﴾ يعني المنظر ﴿وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ يعني في الطعم ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ وإنما ذكر ثمره بلفظ التذكير لأنه انصرف إلى المعنى يعني ثمره الذي ذكرها ، ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ يعني أعطوا زكاته يوم كيله ورفع . قرأ أبو عمرو ، وعاصم وابن عامر^(٢) : (حصاده) بنصب الحاء وروى الحكم^(٣) عن مقسم^(٤) عن ابن عباس : قال : (وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ) قال : العُشْر ونصف العشر^(٥) . وروى سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : (وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ) قال : عند الزرع أي يعطي القبض وهو بأطراف الأصابع ويعطي عند الصرام القبض ويدعهم يتبعون آثار الصرام^(٦) . وعن الربيع بن

(١) انظر حجة القراءات ٢٧٥ .

(٢) وقرأ الباقر والكسر وهما لغتان مثل الصرام والصرام قال الفراء بالكسر حجازية وأهل نجد وتميم بالفتح انظر حجة القراءات ٢٧٥ .

(٣) الحكم بن عيينة الكندي مولاهم أبو محمد ويقال : أبو عبد الله ويقال : أبو عمر الكوفي توفي سنة ١١٣ وقيل ١١٤ هـ انظر التهذيب ٤٣٢/٢ - ٤٣٤ .

(٤) مقسم بن مجرة ويقال : ابن نجدة أبو القاسم ويقال أبو العباس مولى عبد الله بن الحارث بن نوفل ويقال مولى ابن عباس للزومه له انظر التهذيب ٢٨٨/١٠ .

(٥) أخرجه ابن جرير الطبري ١٦١/١٢ . (١٣٩٧٥) وزاد نسبه السيوطي في الدر ٤٩/٣ لسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس والبيهقي في السنن .

(٦) أخرجه الطبري في التفسير ١٦٨/٢ (١٤٠١٩) .

انس: «وأتوا حقه يوم حصاده» قال: لقاط السنبُل^(١). وقال الحسن^(٢): نسختها آية الزكاة. وقال إبراهيم: نسختها العشر ونصف العشر^(٣). وقال الضحاك: نسخت آية الزكاة كل صدقة في القرآن^(٤). وهكذا قال عكرمة^(٥)، وقال سفيان سألت السدي عن قوله تعالى: وأتوا حقه يوم حصاده، قال هذه السورة مكية نسختها العشر ونصف العشر قلت عن؟ قال عن العلماء^(٦).

قال الفقيه: الذي قال أنه صار منسوخاً (يعني أداؤه يوم الحصاد بغير تقدير صار منسوخاً، ولكن أصل الوجوب لم يصِر منسوخاً) وبين النبي - عليه السلام - التقدير وهو العشر أو نصف العشر ثم قال: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾. قال ابن عباس - رضي الله عنهما - عمد ثابت بن قيس إلى خمسمائة نخلة فصرمها وقسمها في يوم واحد فأمسى ولم يكن لأهله شيء فنزل: (ولا تسرفوا) يعني ولا تتصدقوا بكله، ودعوا لعيالكم شيئاً وروى عبد الرزاق، عن ابن جريج قال: جد لمعاذ بن جبل نخله، فلم يزل يتصدق حتى لم يبق منه شيء فنزل: (ولا تسرفوا)^(٧). ويقال: (ولا تسرفوا) يعني ولا تنفقوا في المعصية قال مجاهد: لو أنفقت مثل أبي قيس ذهباً في طاعة الله تعالى ما يكون إسرافاً، ولو أنفقت درهماً في طاعة الشيطان، كان إسرافاً^(٨). وروي عن معاوية بن أبي سفيان أنه سئل عن قوله تعالى: (ولا تسرفوا) قال: الإسراف ما قصرت عن حق الله تعالى. ويقال: (ولا تسرفوا) يقول: لا تشركوا الآلهة في الحرث والأنعام وقد ذكر قوله: (كلوا من ثمره) بلفظ التذكير، لأنه انصرف إلى المعنى يعني من ثمر ما ذكرنا، ثم قال: (إنه لا يحب المسرفين) يعني المشركين الذين يشركون الآلهة في الحرث والأنعام. ثم قال: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ﴾ يعني أنشأ لكم، وخلق لكم من الأنعام حمولة وفرساً أي مما يحمله عليه من الإبل والبقر، وفرساً مثل الغنم وصغار الإبل، وقال القتبي: الفرش ما لا يطبق الحمل عليه وهي ما دون الحفاف التي لا تصلح للركوب، ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي من الحرث والأنعام حلالاً طيباً، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ يعني لا تسلكوا الطريق الذي يدعوكم إليه الشيطان ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة غير ناصح لكم. ثم قال:

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ يعني ثمانية أفراد لكم، يقال لكل فرد معه آخر زوج، يقول: خلقت لكم ثمانية أصناف. ويقال: كلوا مما رزقكم الله ثمانية أزواج نزلت الآية في مالك بن عوف وأصحابه، حيث قالوا: ما في بطون هذه الأنعام، خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا^(٩). ففي هذه الآية دليل إثبات المناظرة في العلم لأن الله تعالى أمر النبي - عليه السلام - بأن ينظرهم، ويبين فساد قولهم، وفيها إثبات القول بالنظر والقياس، وفيها دليل أن القياس إذا ورد عليه النص بطل القول به ويروى إذا ورد عليه النقص لأن الله تعالى أمرهم بالمقايسة الصحيحة وأمرهم بطرد علتهم، وأمرهم بأن يشتوا وجه الحرة إن سبب الحرة الأنوثة والذكورة أو اشتمال الرحم. فإن كان سبب الحرة الأنوثة ينبغي أن يكون كل أنثى حراماً لوجود العلة وإن كان سبب الحرة الذكورة ينبغي أن يكون كل ذكر حراماً لوجود العلة، وإن كان محرماً لاشتمال الرحم، وقد حرم الأولاد كلها ووجهت حرمتها لوجود العلة فيها، فبين انتقاض علتهم، وفساد قولهم وذلك قوله: (ثمانية أزواج) يعني ثمانية أصناف. ﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ يعني قولهم

(١) أخرجه الطبري في التفسير ١٦٧/١٢. (١٤٠١٢).

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير ١٦٩/١٢ (١٤٠٢٨) وانظر الدر المنثور ٤٩/٣. (٣) المصدر السابق ١٦٩/١٢ (١٤٠٣١).

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤٩/٣. وعزه لابن أبي شيبة وأبو عبيد وعبد بن حميد وابن المنذر. (٥) انظر المصدر السابق.

(٦) انظر المصدر السابق. (٨) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ١٧٤/١٢ (١٤٠٤٠).

(٧) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤٩/٣ وعزه لابن أبي حاتم. (٩) انظر تفسير الطبري ١٨٦/١٢.

وذلك قوله: ﴿وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ يعني الذكر والأنثى، ﴿قُلْ: الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ﴾ يعني قل لهم من أين جاء هذا التحريم من قبل الذكركين حُرِّمَ أم من قبل الأنثيين ﴿أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ﴾ يعني، أم من قبل اشتمال الرحم فإنها لا تشتمل إلا على الذكر والأنثى ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ﴾ يعني أخبروني بسبب التحريم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن الله حرم ما تقولون ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ، وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ، قُلْ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ﴾ يعني من أين جاء هذا التحريم، ثم قال: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ يعني إذا لم تقدروا على إثبات تحريم ذلك بالعقل، فهل لكم كتاب يشهد على تحريم هذا، فذلك قوله أم كنتم شهداء، ﴿إِذْ وَصَّاهُ اللَّهُ بِهَذَا﴾ يعني أمركم الله بهذا التحريم فسكت «مالك بن عوف» وتحير فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم - مالك لا تتكلم؟ فقال: بل تكلم أنت فأسمع، قال الله عز وجل: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بغير حجة وبيان ﴿لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعني ليصرف الناس عن حكم الله تعالى بالجهل ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني لا يرشدهم إلى الحجة، ويقال: لا يوفقهم إلى الهدى مجازاةً لكفرهم. قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر^(١): (ومن المعز) بنصب العين وقرأ الباقون: بالجزم، ومعناها واحد^(٢) ثم بين لهم ما حرم عليهم فقال:

قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ يعني، لا أجد فيما أنزل علي من القرآن شيئاً محرماً ﴿عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ يعني على أكل ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً﴾، قرأ ابن عامر^(٣): (إلا أن تكون ميتة) بالثاء على لفظ التأنيث (لأن الميتة مؤنث)، وقرأ (ميتة) بالضم لأنه إسم كان وقرأ حمزة وابن كثير: (إلا أن تكون) بالثاء بلفظ التأنيث (ميتة) بالنصب فجعل الميتة خبراً لكان والاسم فيه مضمرة وقرأ الباقون (إلا أن يكون) بلفظ التذكير (الميتة) بالنصب وإن

(١) انظر حجة القراءات ٢٧٥ سراج القاري ٢١٩.

(٢) والأصل تسكين العين لأنه جمع (ماعز) مثل (تاجر وتجر، وصاحب وصخب) وحجتهم إجماع الجميع على تسكين الهمزة في (الضأن) وهو جمع (ضائن) كماعز والهمزة والعين من حروف الحلق فردوا ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه، واعلم أنه إنما جاز فيهما الفتح - وإن كان الأصل الإسكان - لأن فيها حرفاً من حروف الحلق (والعرب تفتح إذا كان فيها حرف من حروف الحلق) وذلك نحو (النهر والنهر والزهر والظعن) وإنما جاز فتحها لأن الحركات ثلاث: ضمة وفتحة وكسرة فالفتحة من الألف فهي من حيز حروف الحلق هذا قول سيبويه. فإن قال قائل: هلا فتحت الهمزة من (الضأن) إذ كانت من حروف الحلق كما فتحت العين من (المعز)؟ الجواب: أن الهمزة أثقل من - العين لأنها تخرج من أقصى الحلق وتحريكها أثقل من تحريك العين وكذلك فرق بينهما. انظر حجة القراءات ٢٧٥ - ٢٧٦.

(٣) انظر حجة القراءات ٢٧٦ سراج القاري ٢١٩.

جعلوه مذكراً لأنه انصرف إلى المعنى ومعناه إلا أن يكون المأكول ميتة ﴿أَوْ ذَماً مَسْفُوحاً﴾ يعني سائلاً جارياً ﴿أَوْ لَحْمِ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ﴾ أي حرام ﴿أَوْ فَسْقاً﴾ يعني معصية ﴿أَهْلٍ﴾ يعني ذبح ﴿لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ يعني لغير اسم الله . وقال بعضهم : في الآية تقديم ومعناه إلا أن يكون ميتة أو ذماً مسفوفاً أو لحم خنزير أو فسقاً أهل لغير الله به فإنه رجس ، أي حرام يعني جميع ما ذكر في الآية هو رجس . ويقال : الرجس هو نعت للحم الخنزير خاصة . وروى عمر بن دينار عن أبي الشعثاء عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء فبعث الله نبيه وأنزل كتابه وأحل حلاله وحرم حرامه فما أحل فهو حلال وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو وتلا هذه الآية (قل لا أجد فيما أوحى إلي . . . الآية^(١)) يعني ما لم يبين تحريمه فهو مباح بظاهر هذه الآية . وروى أبو بكر الهذلي^(٢) عن الحسن أنه قال : والله لولا حديث سلمة بن المحبق ما لبسنا خفافكم ولا نعالكم ولا فراكم ، حتى نعلم ما هي قال أبو بكر : فذكرت ذلك للزهري فقال : صدق الحسن ذلك عندي أوسع من هذا . حدثني عبيد الله بن عبد الله عن عبد الله بن عباس أنه قرأ : (قل لا أجد في ما أوحى إلي محرماً) . الآية قال : إنما حرم من الميتة أكلها وما يؤكل منها وهو اللحم أما الجلد والعظم والشعر والصوف فحلال^(٣) . قال : وقد احتج بعض الناس بهذه الآية على أن ما سوى هذه الأشياء التي ذكر في الآية مباح ولكن نحن نقول قد حرم أشياء سوى ما ذكر في الآية . وقد بين على لسان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من ذلك : كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير^(٤) . وقد قال تعالى : (وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا) . ثم قال : ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وقد ذكرنا تأويل هذه الآية . ثم قال : ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا﴾ يعني أن هذه الأشياء التي ذكرنا في الآية كانت حراماً في الأصل وقد حرم الله أشياء كانت حلالاً في الأصل على اليهود بمعصيتهم ﴿كُلِّ ذِي ظُفْرٍ﴾ يعني الإبل والنعامة والبط ، والأوز ، وكل شيء له خف . وقال القتيبي : كل ذي ظفر ، يعني كل ذي مخلب من الطيور ، وكل ذي حافر من الدواب وسمى ظفراً على الاستعارة . وقال الكلبي : كل ذي ظفر يعني ليس بمشقوق ولا مجتر فهو حرام عليهم^(٥) ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ يعني شحوم البطون ، ثم استثنى فقال : ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ وقال الضحاك : إلا ما كان على اللحوم من الشحوم^(٦) . وقال الكلبي : يعني ما تعلق بالظهر من الشحم من الكليتين^(٧) . ويقال : حرم عليهم الثروب وأحل ما سواها وواحد الثروب ثرب ، وهو الشحم الرقيق الذي يكون على الكرش ، ﴿أَوْ الْحَوَايَا﴾ وهو المباعر واحدها حاوية ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ مثل الإلية . وروى جوير عن الضحاك قال : ما التزق بالعظم^(٨) . ويقال : هو المخ ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ يعني ذلك التحريم عاقبتهم بشرهم ، وظلمهم ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أن هذه الأشياء كانت حلالاً في الأصل وحرمانها على

(١) انظر الدر المنثور ٥٠/٣ .

(٢) سلمى بن عبد الله بن سلمى وقيل : اسمه روح وهو ابن بنت حميد بن عبد الرحمن الحميري قال الحافظ في التقریب متروك انظر التهذيب ٤٥/١٢ انظر التقریب ٤٠١/٢ .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥١/٣ وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم .

(٤) أخرجه مسلم من حديث ابن عباس ١٥٣٤/٣ في الصيد والذبائح باب تحريم أكل كل ذي ناب من السباع ١٦/١٩٣٤ ومن حديث أبي هريرة عند مسلم ٥٣٤/٣ (١٥/١٩٣٣) ومن حديث جابر عند الترمذي ٧٣/٤ في الأطعمة ١٤٧٨ وقال حسن غريب .

(٥) انظر تفسير ابن عباس ٩٧ .

(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥٣/٣ وعزاه لابن أبي حاتم عن أبي صالح .

(٧) انظر تفسير ابن عباس ٩٧ .

(٨) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥٣/٣ وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم .

اليهود بمعصيتهم لأن اليهود كانوا يقولون إن هذه الأشياء كانت حراماً في الأصل. ثم قال: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ يعني فيما تقول من التحريم والتحليل ﴿فَقُلْ: رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ يعني رحمته وسعت كل شيء لا يجعل عليهم بالعقوبة ﴿وَلَا يَرُدُّ بَأْسَهُ﴾ يعني عذابه ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾. قوله تعالى:

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ لِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلَمْ شَهِدْكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا إِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ مع الله ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا، وَلَا آبَاؤُنَا﴾ يعني ولا أشرك أبائنا [ولكن شاء لنا ذلك وأمرنا به] ^(١) ﴿وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ أي من هذه الأشياء ويقال: مذهبه مذهب الجبرية ^(٢). قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني الأمم الخالية كذبوا رسلهم كما كذب قومك، وإنما كذبهم الله لأنهم قالوا ذلك على وجه السخرية لا على وجه التحقيق. كما قال المنافقون: (نشهد أنك لرسول الله). فكذبهم الله في مقاتلتهم لأنهم قالوا على وجه السخرية. ثم قال: ﴿حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ يعني الأمم الخالية أتاها عذابنا فهذا تهديد لهم ليعتبروا، ثم قال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم قل ﴿هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ﴾ يعني بيان من الله ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ فينبوه لنا بتحريم هذه الأشياء التي كانوا يحرمونها، ثم بين الله أنهم قالوا ذلك بغير حجة وبيان فقال: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ يعني ما تقولون إلا بالظن من غير يقين وعلم ﴿وإن أنتم إلا تخرصون﴾ يعني قل لهم ما أنتم إلا تكذبون على الله. قوله تعالى: ﴿قُلْ: فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ يعني الحجة الوثيقة وهو محمد - عليه السلام - والقرآن فبين لهم ما أحل لهم وما حرم عليهم ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يعني لو شاء لوفقكم لدينه وأكرمكم بالهدى لو كنتم أهلاً للإسلام، ولكن لم يوفقه لأنهم لم يجاهدوا في الله حق جهاده. ﴿قُلْ: هَلَمْ شَهِدْكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ عليكم ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾ على تحريمه ﴿فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ﴾ فأخبر الله أنهم لو شهدوا كانت شهادتهم باطلة، ولا يجوز قبول شهادتهم لأنهم يقولون بأهوائهم ثم قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا﴾ يعني بمحمد - صلى الله عليه

(١) ما بين المعقوفين من ظ.

(٢) الجبر: هو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى، والجبرية أصناف:

فالجبرية الخالصة: هي التي لا تثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً.

والجبرية المتوسطة: هي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلاً فأما من أثبت للقدرة الحادثة أثراً ما في الفعل وسمى ذلك كسباً فليس بجبري.

والمعتزلة يسمون من لم يثبت للقدرة الحادثة أثراً في الإبداع والإحداث استقلالاً: جبرياً ويلزمهم أن يسموا من قال من أصحابهم بأن المتولدات أفعال لا فاعل لها جبرياً إذا لم يثبتوا للقدرة الحادثة فيها أثراً والمصنفون في المقالات عدوا النجارية والضرارية من الجبرية وكذلك جماعة الكلاية من الصفاتية. والأشعرية سموهم تارة حشوية وتارة جبرية ونحن سمعنا إقرارهم على أصحابهم من النجارية فعددها من الجبرية ولم نسمع إقرارهم على غيرهم فعددها من الصفاتية. كذا صاحب الملل والنحل ١/ ٨٥ - ٨٦.

وسلم - وبالقُرآن ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ يعني البعث ﴿وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَغْدِلُونَ﴾ يعني يشركون بالله ثم قال تعالى :

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ ۖ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ ۖ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ ۖ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ اللَّهَ أَوْفُو ذَلِكُمْ ۖ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ ۖ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ ذَلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ ۖ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

﴿قُلْ: تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ يعني قل لمالك بن عوف وأصحابه الذين يحرمون الأشياء على أنفسهم وقالوا ما قالوا أبين لكم ما حرم الله عليكم وما أمركم به ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾. يقال: معناه أتل ما حرم ربكم عليكم فقد تم الكلام ثم قال: وأمركم ألا تشركوا به شيئاً ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ يقول نهاكم عن عقوق الوالدين وأمركم ببرهم. ويقال: معناه حرم عليكم ألا تشركوا به شيئاً، ويقال: عنه حرم عليكم الشرك (وبالوالدين إحساناً) يعني أمركم بالإحسان إلى الوالدين ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ يعني من خشية الفقر ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ زنى السر والعلانية ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ يعني إلا بالقصاص أو بالرجم أو بترك الإسلام فإن القتل بهذه الأشياء من الحقوق ﴿ذَلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ﴾ يقول: أمركم به في القرآن ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. ﴿أمر الله بما حرمه في هذه الآيات. وروي عن عبد الله بن قيس^(١) عن ابن عباس قال: هذه الآيات المحكمات: (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم: . . إلى ثلاث آيات)^(٢). وقال الربيع بن خثيم لرجل: هل لك في صحيفة عليها خاتم محمد - صلى الله عليه وسلم - ؟ ثم قرأ هذه الآيات: (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم . . .)^(٣) ويقال: هذه الآيات من أم الكتاب وهن إمام في التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ولا يجوز أن يرد عليها النسخ. ثم قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ يقول: لا تأكلوا مال اليتيم، ولا تباشروه ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ يعني إلا بالقيام عليه لإصلاح ماله ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ يعني احفظوا ماله حتى يبلغ رشده. قال مقاتل^(٤): يعني ثماني عشرة سنة. وقال الكلبي: الأشد: ما بين ثماني عشرة إلى ثلاثين سنة. ويقال: حتى

(١) عبد الله بن قيس عن ابن عباس في قوله (آيات محكمات) روى عنه أبو إسحاق - السبيعي ذكره ابن أبي حاتم عن أبيه. انظر التهذيب ٣٦٥/٥.

(٢) انظر تفسير الطبري ٢٢٦/١٢.

(٣) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٥٤/٣ وعزاه لعبد بن حميد وأبي عبيد وابن المنذر.

(٤) انظر التفسير ٧٠٤/١.

يبلغ مبلغ الرجال. ويقال: بلوغ الأشد ما بين ثماني عشرة إلى أربعين سنة^(١). ثم قال: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ يعني أتموا الكيل والميزان عند البيع والشراء ﴿بِالْقِسْطِ﴾ يعني بالعدل ﴿لَا تَكْلَفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ يعني إلا جهدها في العدل يعني إذا اجتهد الإنسان في الكيل والوزن فلو وقعت فيه زيادة قليلة أو نقصان فإنه لا يؤاخذ به إذا اجتهد جهده ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ يعني اصدقوا وقولوا الحق ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ يعني وإن كان الحق على ذي قرابة فقولوا الحق، ولا تمنعوا الحق ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ يقول: أتموا العهود التي بينكم وبين الله، والعهد الذي بينكم وبين الناس ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ يقول: أمركم به في الكتاب ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يعني تتعظون فتمتنعون عما حرم الله عليكم. قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص^(٢): (تذكرون) بتخفيف الذال وقرأ الباقون بالتشديد لأن أصله تذكرون، فأدغم إحدى التاءين في الذال. قوله تعالى: ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾. قرأ حمزة والكسائي^(٣): (وإن هذا) بكسر الألف على معنى الابتداء، وقرأ الباقون بالنصب على معنى البناء. وقرأ ابن عامر: (وأن هذا) بحزم النون لأن أن إذا خففت منعت عملها ومعنى الآية: إن هذا الإسلام ديني الذي ارتضيته طريقاً مستقيماً ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ يعني لا تتبعوا اليهودية والنصرانية. ويقال: هذا صراطي مستقيماً: يعني طريق السنة والجماعة: (فاتبعوه ولا تتبعوا السبل). يعني الأهواء المختلفة. وروي عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أن النبي - عليه السلام - خطب بالأرض خطأً مستقيماً، ثم خط بجنبه خطوطاً ثم قال: هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل. يعني الطريق الذي بجنبه الخط يعني به الأهواء المختلفة، ثم قال: ﴿فَفَرَّقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ يعني فضلكم عن دينه ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ يعني يجتنبون الأهواء المختلفة. قوله تعالى:

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ

(١) اختلف العلماء في أشد اليتيم: فقال ابن زيد: بلوغه وقال أهل المدينة بلوغه وإيناس رشده، وعند أبي حنيفة خمس وعشرون سنة. قال ابن العربي: وعجباً من أبي حنيفة فإنه يرى أن المقدرات لا تثبت قياساً ولا نظراً وإنما تثبت نقلاً، وهو يشتهر بالأحاديث الضعيفة ولكنه سكن دار الضرب فكثر - عنده المدلس ولو سكن المدن كما قبض الله لمالك لما صدر عنه إلا إبراز الدين، وقد قيل: إن انتهاء الكهولة فيها مجتمع الأشد كما قال سحيم بن وثيل:

أخو خمسين مجتمع أشدى ونجدني مداورة الشؤون
يروى (نجدني) بالذال والذال، والأشد واحد لا جمع له بمنزلة الآنك وهو الرصاص وقد قيل: واحد شد كفلس وأفلس وأصلح من شد النهار أي - ارتفع يقال: أتيت شد النهار ومد النهار وكان محمد بن الضبي ينشد بيت عترة:
عهدي به شد النهار كأنما خضب اللبان ورأسه بالعظم
وقال آخر:

تطيف به شد النهار ظعينة طويلة أنقاء اليبدين سحوق
وكان سيويه يقول: واحده شدة. قال الجوهري: وهو حسن في المعنى: لأنه يقال: بلغ الغلام شدته ولكن لا تجمع فعله على أفعل وأما أنعم فإنما هو جمع نعم من قولهم: يوم يؤس ويوم نعم. وأما قول من قال: واحده شد مثل كلب وأكلب وشد مثل ذئب وأذؤب فإنما هو قياس. كما يقولون في واحد الأبابل: إبول قياساً على عجول وليس هو شيئاً سمع من العرب قال أبو زيد: أصابني شدي على فعلي أي شدة وأشد الرجل إذا كانت معه دابة شديدة. انظر القرطبي ٨٨/٧، ٨٩.
(٢) انظر سراج القاري ٢١٩ شرح شعلة ٣٨٤.
(٣) انظر حجة القراءات ٢٧٧. شرح شعلة ٣٨٤.

تَقُولُوا إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَىٰ الْكَذِّبِ لَكِنَّا أَهْدَيْنَاهُمُ فَقَدْ جَاءَ كُفْرًا بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهَدَىٰ
وَرَحْمَةً فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا
سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة، ويقال، الألواح التي كتبت عليها حين انطلق إلى الجبل. ويقال: معناه: ثم أتى عليكم كما قال الله تعالى: (ثم آتينا موسى الكتاب) ويقال: ثم بمعنى الواو، يعني وآتينا موسى الكتاب. ﴿تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ قال القتيبي: أي تماماً على المحسنين كما يقول: ثلث مالي لمن غزا، أي للغزاة، والمحسنون هم الأنبياء والمؤمنون، وعلى بمعنى اللام كما نقول في الكلام أتم الله عليه النعمة، بمعنى أتم له، قال: ومعنى الآية والله أعلم وآتينا موسى الكتاب تماماً على أحسن من العلم والحكمة أي مع ما كان له من العلم وكتب المتقدمين أعطيناه زيادة على ذلك، ويكون «الذي» بمعنى «ما» قال: ومعنى آخر: آتينا موسى الكتاب تكميلاً منا للمحسنين يعني الأنبياء والمؤمنين ﴿وَفَفْصِيلاً﴾ منا ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ يعني بياناً لكل شيء. (قال: ويجوز معنى آخر، وآتينا موسى الكتاب إتماماً منا للإحسان على من أحسن تفصيلاً لكل شيء يعني بياناً لكل شيء ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةً﴾ يعني ونعمة ورحمة من العذاب ﴿لَعَلَّهُمْ يَلْقَاءَ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني لكي يصدقوا بالبعث. ثم قال: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ يعني القرآن فيه بركة لمن آمن به وفيه مغفرة للذنوب ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ يعني اقتدوا به ويقال إعملوا بما فيه من الأمر والنهي ﴿وَاتَّقُوا﴾ يعني وأجتنبوا ولا تتخذوا إماماً غير القرآن ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ يعني لكي تُرحموا ولا تُعذبوا. قوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ يعني أنزلنا هذا القرآن لكي لا تقولوا: إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا يعني اليهود والنصارى، ويقال أن تقولوا يعني لكرهة (أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا) وذلك أن كفار مكة قالوا: قاتل الله اليهود، كيف كذبوا أنبياءهم، والله لو جاءنا نذير وكتاب لكننا أهدى منهم فأنزل الله القرآن حجة عليهم ثم قال: ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ يعني عن قراءتهم الكتاب لغافلين عما فيه. ﴿أَوْ تَقُولُوا﴾ يعني لكي لا تقولوا: ﴿لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْنا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ يعني أصوب ديناً منهم ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني حجة من ربكم وهو محمد - عليه السلام - والقرآن وإنما قال (جاءكم) ولم يقل (جاءتكم) لأنه انصرف إلى المعنى يعني البيان ولأن الفعل مقدم ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ بمعنى هدى من الضلالة ورحمة من العذاب. ويقال: قد جاءكم ما فيه من البيان وقطع الشبهات عنكم. ثم قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني لا أحد أظلم وأشد في كفره ممن كذب بآيات الله تعالى ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ يعني أعرض عن الإيمان بها ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ﴾ يعني يعرضون ﴿عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ أي شدة العذاب بما كانوا يعرضون عن الآيات. قوله تعالى:

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ معناه أقمت عليهم الحجة وأنزلت عليهم الكتاب فلم يؤمنوا فماذا ينتظرون فهل ينتظرون
﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ يعني يأتي أمر ربك بما وعد لهم كقوله: (فأتاهم الله

من حيث لم يحتسبوا). ويقال: أن تأتي عقوبة ربك وعذابه، وقد ذكر المضاف إليه، ويراد به المضاف كقوله تعالى: (واسأل القرية) يعني أهل القرية وكقوله: (وأشربوا في قلوبهم العجل) يعني حب العجل كذلك هاهنا يأتي أمر ربك يعني عقوبة ربك وعذاب ربك، ويقال: هذا من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله. ﴿أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ يعني طلوع الشمس من مغربها ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ، لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا﴾ حين طلعت الشمس من مغربها ﴿لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني أن الكافر إذا آمن في ذلك الوقت لا يقبل إيمانه لأنها قد ارتفعت المحنة حين عاينوها وإنما الإيمان بالغيب، ثم قال: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ يعني المسلم الذي يعمل في إيمانه خيراً كأن لم يقبل عمله قبل ذلك فإنه لا يقبل منه بعد ذلك ومن كان قبل من قبل ذلك فإنه يقبل منه بعد ذلك أيضاً أو كانت النفس مؤمنة ولم تكن كسبت خيراً قبل ذلك الوقت لا ينفعها الخير بعد. قال الفقيه: حدثنا الخليل بن أحمد بإسناده عن زر بن حبيش عن صفوان بن عسال المرادي قال: بينما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في سفر إذ جاء أعرابي فسأله عن أشياء حتى ذكر التوبة فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - للتوبة باب في المغرب مسيرة سبعين عاماً أو أربعين عاماً فلا يزال حتى يأتي بعض آيات ربك^(١)

قال الفقيه: حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا السراج قال: حدثنا زياد بن أيوب^(٢) عن يزيد بن هارون، عن سفيان بن الحسين^(٣) عن الحكم عن إبراهيم التيمي^(٤) عن أبيه^(٥)، عن أبي ذر قال: كنت رديف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو على حمار وعليه بردة أو قطيفة، فنظر إلى الشمس حين غابت فقال: يا أبا ذر، هل تدري أين تغيب هذه؟ قلت الله ورسوله أعلم قال: فإنها تغرب في عين حمئة فتنتقل حتى تخر لربها ساجدة تحت العرش فإذا دنا خروجها أذن لها فخرجت فإن أراد الله أن يطلعها من مغربها حبسها فتقول: يا رب إن مسيري بعيد فيقول الله تعالى: اطلعي من حيث جئت فذلك قوله: (يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها)^(٦). وروي عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنه - أنه قال: لا يقبل الله من كافر عملاً ولا توبة إذا أسلم حين يراها إلا من كان صغيراً يومئذ فإنه لو أسلم بعد ذلك قبل ذلك منه ومتى كان مؤمناً مذنباً فتأب من الذنب قبلت منه^(٧). وروي عن عمران بن حصين أنه قال: إنما لم يقبل وقت الطلوع حتى تكون صيحة فيهلك كثير من الناس فمن أسلم أو تاب في ذلك الوقت وهلك لم يقبل منه، ومن تاب بعد ذلك قبلت منه^(٨). ثم قال: ﴿قُلْ اُنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ يعني انتظروا بالعذاب فإننا منتظرون بكم، حتى ننظر أينما أسعد حالاً. قرأ حمزة والكسائي^(٩): (إلا أن يأتيهم الملائكة) بالياء بلفظ التذكير. والباقون: (إلا أن تأتيهم) بلفظ التأنيث لأن الفعل مقدم فيجوز أن يذكر ويؤنث. قوله تعالى:

(١) أخرجه ابن جرير الطبري ٢٥٥/١٢ (١٤٢١٦) والطبراني في الكبير ٦٥/٨ والخراطي في مكارم الأخلاق ٤١ والحديث في كنز العمال (١٠١٩٥).

(٢) زياد بن أيوب البغدادي أبو هاشم المعروف بدلوليه طوسي الأصل، وثقه الدارقطني مات سنة ١٥٢ هـ انظر التهذيب ٣/٣٥٥.

(٣) سفيان بن حسين بن الحسن أبو محمد ويقال: أبو الحسن الواسطي انظر التهذيب ٤/١٠٧ - ١٠٩.

(٤) إبراهيم بن يزيد بن شريك التيمي الكوفي، كان من العباد. انظر التهذيب ١/١٧٦ - ١٧٧.

(٥) يزيد بن شريك بن طارق التيمي الكوفي انظر التهذيب ١١/٣٣٧.

(٦) أخرجه البخاري ٤٠٢/٨ في كتاب التفسير (٤٨٠٢) وأخرجه مسلم ١٣٨/١ في كتاب الإيمان باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (١٥٩/٢٥٠).

(٧) انظر تفسير ابن عباس ٩٨.

(٨) ذكره القرطبي في التفسير ٩٦/٧. وعزاه للمصنف رحمه الله.

(٩) انظر حجة القراءات ٢٧٧ وسراج القاري ٢٢٠.

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي^(١): (فارقوا دينهم) بالالف يعني تركوا دينهم الإسلام ودخلوا في اليهودية والنصرانية. وقرأ الباقون: (فرقوا دينهم) يعني آمنوا ببعض الرسل ولم يؤمنوا ببعض ﴿وَكَانُوا شِيعًا﴾ يعني صاروا فرقاً مختلفة. وروي عن أسباط عن السدي أنه قال: هؤلاء اليهود والنصارى تركوا دينهم وصاروا فرقاً ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أي لم تؤمر بقتالهم. ثم نسخ وأمر بقتالهم في سورة براءة. وروى أبو أمامة الباهلي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً) إنهم الخوارج^(٢). وفي هذه الآية حث للمؤمنين على أن كلمة المؤمنين ينبغي أن تكون واحدة وأن لا يفرقوا في الدين ولا يتدعوا البدع ما استطاعوا ثم قال: (لست منهم في شيء) يقول: إنما عليك الرسالة وليس عليك القتال ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ يعني الحكم إلى الله ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي في الدنيا. ويقال: ليس بيدك توبتهم ولا عذابهم، إنما أمرهم إلى الله تعالى (ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون). قوله تعالى:

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ يعني ما جاء بالإيمان بشهادة أن لا إله إلا الله فله بكل عمل عمله في الدنيا من الخير عشرة أمثاله من الثواب ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ يعني بالشرك ﴿فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ وهو الخلود في النار لأن الشرك أعظم الذنوب والنار أعظم العقوبة فذلك قوله: (جزاء وفاقاً) يعني جزاء وافق العمل. ويقرأ: (فله عشر) بالتثنية (أمثالها) بضم اللام فتكون الأمثال صفة للعشر وهي قراءة شاذة قرأها الحسن البصري^(٤) ويعقوب الحضرمي^(٥) والقراءة المعروفة: (عشر أمثالها) على معنى الإضافة. وتكلموا في المثل: قال بعضهم: إذا عمل عملاً يعطى في الآخرة ثواب عشرة ويقال: وأنه يكتب للواحدة عشرة. وروى أبو أمامة الباهلي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: إن صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال وإذا عمل العبد حسنة كتب له عشرة أمثالها وإذا عمل سيئة فأراد صاحب الشمال أن يكتبها قال له صاحب اليمين أمسكها فيمسك ست ساعات أو سبع ساعات فإن استغفر لم يكتب عليه شيء وإن لم يستغفر كتب عليه سيئة واحدة^(٦). ويقال: إن الله تعالى قد وعد للواحدة عشر فهو أعرف بكيفيته فإن قيل ذكر هاهنا للواحدة عشر وذكر في آية أخرى سبعمائة وفي آية أخرى أضعافاً مضاعفة. قيل له: قد تكلم أهل العلم في ذلك: قال بعضهم يكون للعوام عشرة والخواص سبعمائة وأكثر إلى ما لا يحصى. وقال بعضهم: العشرة اشترط لسائر الحسنات والسبعمائة للتفقه في سبيل الله فالخاص والعام فيه سواء وقد جاء في الأثر ما يؤكد القولين. فقد روى عطية عن ابن عمر قال: نزلت هذه الآية في الأعراب: (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) قال رجل: ما للمهاجرين يا أبا عبد الرحمن؟ قال: هو أفضل من ذلك، (إن الله لا يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً) «سورة النساء: ٤٠» وإذا قال الله لشيء عظيماً فهو

(٣) ذكره ابن كثير في التفسير ٣/٣٧٢ وقال لا يصح مرفوعاً.

(٤) انظر الطبري ١٢/٢٨١.

(١) انظر حجة القراءات ٢٧٨ وسراج القاري ٢٢٠.

(٢) أخرجه الطبري في التفسير ١٢/٢٦٩ (١٤٢٦٠).

(٥) وابن جبير وعيسى بن عمر والأعمش والقزاز عن عبد الوارث انظر البحر المحيط ٤/٢٦١.

(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور، ٦/١٠٤ وعزاه للطبراني وابن مردويه والبيهقي في الشعب.

عظيم^(١). وروى همام عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: إذا أحسن أحدكم إسلامه فكل حسنة يعملها يكتب له عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وكل سيئة يعملها يكتب له بمثلها، حتى يلقي^(٢) الله بلا ذنب. وروى ابن فاتك^(٣) قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الأعمال ستة فموجبتان، ومثل بمثل، وحسنة بحسنة، وحسنة بعشر، وحسنة بسبعمائة. فأما الموجبتان: فمن مات ولم يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله دخل النار، وأما مثل بمثل فمن عمل سيئة فجزاء سيئة مثلها ومن هم بحسنة حتى تشتهي بها نفسه ويعلمها الله من قلبه كتب له حسنة وأما حسنة بعشر فمن عمل حسنة فله عشر أمثالها وأما حسنة بسبعمائة فالنفقة في سبيل الله ثم قال: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ يعني لا ينقصون من ثواب أعمالهم شيئاً ولا يزدون على سيئاتهم شيئاً. قوله تعالى:

قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾

﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي﴾ وذلك أن أهل مكة قالوا له: من أين لك هذه الفضيلة، وأنت بشر مثلنا، فإن فعلت لطلب المال فأتارك هذا القول حتى نعطيك من المال ما شئت فنزل (قل إنني هداني ربي) ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يعني وفقني الله وهداني إلى دين الإسلام، وهو دين لا عوج فيه ﴿دِينًا قِيمًا﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو^(٤): (دينًا قِيمًا) بنصب القاف وكسر الياء مشدودة وقرأ الباقون (قيماً) بكسر القاف ونصب الياء على معنى المصدر ومن قرأ بالنصب على معنى النعت (دينًا قِيمًا) يعني ديناً عادلاً مستقيماً ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ يعني مستقيماً مخلصاً ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ على دينهم ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ وأصل النسك ما يتقرب به، يعني قل: إن صلاتي المفروضة وقرباني وديني ﴿وَمَحْيَايَ﴾^(٥) في الدنيا ﴿وَمَمَاتِي﴾ بعد الحياة. ويقال: ونسكي يعني أضحتي وحجتي ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ في الكتاب ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ من أهل مكة. ويقال: أول المسلمين يوم الميثاق ويقال: صلاتي يعني صلاة العيد، ونسكي يعني الأضحية. وروي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال لعائشة - رضي الله عنها - قومي إلى أضحتك واذبحي وقولي (إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين) ويقال: إن أول المخلصين بالثبات على الإسلام. قوله تعالى:

قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ يعني يقول: أعبد وأطلب رباً غيره ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من خلقه في السموات

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير ٢/ ٢٨٠ (١٤٢٩٤).

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٦٥ وعزاه لابن مردويه.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ٣٤٥ وذكره ابن كثير في التفسير ٣/ ٣٧٤ - ٣٧٥.

(٤) انظر حجة القراءات ٢٧٨ وسراج القاري ٢٢٠.

(٥) قرأ نافع (محياي) ساكنة الياء (ومماتي) لله بفتح الياء. وقرأ الباقون (ومحياي) بفتح الياء (ومماتي) ساكنة الياء. انظر حجة القراءات

والأرض، لأنهم كانوا يقولون له: نحن كفلاء لك بما يصيبك ومن تابعك فتزلت ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾. يعني [إلا]^(١) لها أو عليها، إن كان خيراً فلها وإن كان شراً فعليها ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ يعني لا تحمل نفس خطيئة نفس أخرى ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ أي مصيركم في الآخرة ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من الدين ويبين لكم الحق من الباطل بالمعانية، ثم قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ يعني سكان الأرض من بعد إهلاك الأمم الخالية لأن النبي - عليه السلام - خاتم النبيين، وأمته قد خلفوا جميع الأمم. ويقال: خلائف يعني يخلف بعضكم بعضاً ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ أي فضل بعضكم على بعض في المال والرزق ﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِيْمَا آتَاكُم﴾ يعني ليبتلّي الموسر بالغنّى ويطلب منه الشكر ويبتلّي المُعسر بالفاقة ويطلب منه الصبر، ويقال: ليلوكم، يعني بعضكم ببعض كما قال الله تعالى: (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة) ثم خوفه فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ كأنه جاء لأن «ما هو آت فهو قريب»، كما قال: (وما الساعة إلا كلمح البصر) ﴿وإنه لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يعني لمن أطاعه في فاقة أو غنى. ويقال: سريع العقاب لمن لم يشكر نعمته وكان مصراً على ذلك (وإنه لغفور رحيم) لمن رجع وتاب، رحيم بعد التوبة. ويقال: (سريع العقاب) لمن لم يحفظ نفسه فيما أعطاه من فضل الله وترك حق الله في ذلك وإنه (لغفور) لمن تاب، (رحيم) بعد التوبة. قال الفقيه: قال: حدثنا أبو الحسن^(٢) بن حمدان، بإسناده عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنزلت علي سورة الأنعام جملة واحدة وشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتهليل والتحميد^(٣). قال وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من قرأ سورة الأنعام، صلى عليه واستغفر له أولئك السبعون ألف ملك بعدد كل آية في سورة الأنعام يوماً وليلة^(٤).

(١) سقط في أ.

(٢) في أ [الحسن].

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣ وعزاه لأبي الشيخ.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣ وعزاه لابن مردويه عن ابن مسعود.

سُورَةُ الْأَعْرَافِ (١)

وهي مائتان وست آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى :

الْمَصَّ (١) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢)
 اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٣) وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ
 أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤) فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا
 كُنَّا ظَالِمِينَ (٥) فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِم
 بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (٧)

﴿الْمَصَّ﴾ قال ابن عباس يعني أنا الله أعلم وأفصل (٢)، معناه أعلم بأمور الخلق وأفصل الأحكام والأمور
 والمقادير، وليس لي شريك في تدبير الخلق :

ويقال : معناه أنا الله المصور

ويقال : أنا الله الناصر، ويقال أنا الله الصادق .

وروى معمر بن قتادة (٣) قال : إنه إسم من أسماء القرآن . ويقال هو قسم . ﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ يعني أن هذا
 الكتاب أنزل إليك يا محمد ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ أي فلا يقعن في قلبك شك منه، من القرآن . أنه من
 الله عز وجل فالخطاب للنبي - صلى الله عليه وسلم - والمراد به غيره . كقوله ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ
 فَاسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ ويقال فلا يكن في صدرك حرج منه أي (٤) فلا يضيغن صدرك بتكذيبهم إياك
 كقوله عز وجل ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ والخرج في اللغة (٥) هو الضيق . ثم قال ﴿لَتُنذِرَ بِهِ﴾ على
 معنى التقديم يعني كتاب أنزلناه إليك لتنذر به، أي لتخوف بالقرآن أهل مكة ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وعظة
 للمؤمنين الذين يتبعونك ثم قال : ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي صدقوا وأعملوا بما أنزل على نبيكم
 محمد - صلى الله عليه وسلم - من القرآن وقرؤه عليكم . ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي ولا تتخذوا من دون الله

(١) انظر التحرير ٩/٥، ٦، ٧، ٨، ٩ .

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير ١٤٣١٠، ١٤٣١١، ٢٩٣/١٢ .

(٣) أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم كذا في الدر المنثور ٢٢/١ .

(٤) سقط في ظ . (٥) انظر لسان العرب ٨٢١/٢، ترتيب القاموس ٦١٣/١ .

أرباباً ولا تعبدوا غيره. ثم أخبر عنهم فقال ﴿قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ «ما» صلة في الكلام، ومعناه قليلاً تتعظون يعني إنهم لا يتعظون به شيئاً. قرأ ابن عامر^(١) يَتَذَكَّرُونَ على لفظ المغايبة بالياء وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر تَذَكَّرُونَ بالتاء على معنى المخاطبة بتشديد الذال والكاف لأن أصله تذكرون، فأدغم إحدى التائين في الذال. وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص تَذَكَّرُونَ بتخفيف الذال فأسقط التشديد للتخفيف. ثم خوفهم فقال ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ معناه وكم من أهل قرية وعظناهم فلم يتعظوا فأهلكناهم ﴿فَجَاءَهَا بُأْسُهَا﴾ أي جاءها عذابنا بعد التكذيب ﴿بَيَّاتًا﴾ أي ليلاً، سمي الليل بيّاتاً لأنه يبات فيه ﴿أَوْهُمْ قَاتِلُونَ﴾ عند القيلولة فإن لم تتعظوا أنتم يأتكم العذاب ليلاً أو نهاراً كما أتاهم. ثم أخبر عن حال من أتاهم العذاب فقال ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بُأْسًا إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ أي لم يكن قولهم حين جاءهم العذاب ولم تكن لهم حيلة إلا أنهم تضرعوا قالوا ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي ظلمنا أنفسنا بترك طاعة ربنا من التوحيد. يعني إن قولهم بعدما جاءهم العذاب. يعني الهلاك لم ينفعهم. فاعتبروا بهم فإنكم إذا جاءكم العذاب لا ينفعكم التضرع. ثم أخبر عن حال يوم القيامة فقال ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ يعني الأمم لنسألهم هل بلغكم الرسل ما أرسلوا به إليكم وماذا أجبتهم الرسل ﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ عن تبليغ الرسالة وهذا كقوله عز وجل (لَيَسْأَلَنَّ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ) ثم قال تعالى ﴿فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ﴾ أي فلنخبرهم بما عملوا في الدنيا ببيان وعلم منا ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ عما بلغت الرسل وعما رد عليهم قومهم، ومعناه وما كنا نسألهم لنعلم ذلك ولكن نسألهم حجة عليهم. قوله

وَالْوِزْنُ يُومِذُ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾

﴿وَالْوِزْنُ يُومِذُ الْحَقُّ﴾ أي وزن الأعمال يومئذ بالعدل ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي: رجحت حسناته على سيئاته ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي الناجون. وتكلموا في وزن الأعمال. قال بعضهم: توزن الصحائف التي كتبها الحفظة في الدنيا. وقال بعضهم يجعل للأعمال صورة وتوضع في الميزان. وقال بعضهم: هذا على وجه المثل وهو كناية عن التعديل. وهو قول المعتزلة. وقال بعضهم قد ذكر الله تعالى الوزن فنؤمن به ولا نعرف كيفيته^(٢). وروى بلال الحبشي عن حذيفة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: إن جبريل صاحب الميزان يوم القيامة، يقول له ربه زن بينهم فرد بعضهم على بعض ولا درهم يومئذ ولا فضة ولا دينار، فيرد الظالم على المظلوم ما وجد له من حسنة^(٣) فإن لم توجد له حسنة أخذ من سيئات المظلوم فترد على الظالم، فيرجع الظالم وعليه سيئات مثل الجبل. وروي عن ابن عباس^(٤) أنه قال توزن الحسنات والسيئات في ميزان له لسان وكفتان، فأما المؤمن فيؤتى

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٧٩، سراج القاري ٢٢١، شرح شعله ٣٨٦.

(٢) اختلف السلف في وجود مخلوق يبين مقدار الجزاء من العمل يسمى بالميزان توزن فيه الأعمال حقيقة، فأثبت ذلك الجمهور ونفاه جماعة منهم الضحاك ومجاهد والأعمش وقالوا: هو القضاء السوي. وقد تبع اختلافهم المتأخرون: فذهب جمهور الأشاعرة وبعض المعتزلة إلى تفسير الجمهور، وذهب بعض الأشاعرة المتأخرين وجمهور المعتزلة إلى ما ذهب إليه مجاهد والضحاك والأعمش، والأمر هين، والاستدلال ليس ببين، والمقصود المعنى، وليس المقصود آله، انظر التحرير ٣٠/٨.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦٩/٣ وعزاه لابن أبي الدنيا وابن جرير الطبري واللالكائي.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦٩/٣ وعزاه لأبي الشيخ وانظر زاد المسير لابن الجوزي ١٧١/٣.

بعمله في أحسن صورة وتثقل حسناته على سيئاته، وأما الكافر فيؤتي بعمله في أقبح صورة وتثقل سيئاته على حسناته. وقال بعضهم لا يوزن عمل الكافر وإنما توزن الأعمال التي يزاهاها الحسنات. ثم قال تعالى ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي: رجحت سيئاته على حسناته ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: غبنوا حظ أنفسهم ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلُمُونَ﴾، بما كانوا بآياتنا يجحدون بأنه ليس من الله تعالى، وقد ذكر الموازين بلفظ بالجمع. قال بعضهم: لأن المراد بها جميع الموزون. وقال بعضهم: أراد به الميزان، لأن الميزان يشتمل على الكفتين والشاهين والخيوط وقد ذكر باسم الجماعة. قال تعالى ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: مكناكم في الأرض وعمرناكم، فذكر لهم التهديد ثم ذكر لهم النعم ليستحيوا من ربهم ولا يعصوه ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ يعني الرزق، وهو ما يخرج من الأرض من الكروم والثمار والحبوب. وروى خارجة^(١) عن نافع أنه قرأ معاش بالهمز، لأنه على ميزان فاعل مثل الكبائر والصغائر. وقرأ الباقون بغير همز لأن الياء أصلية، وكان على ميزان مفاعل. ثم قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ يعني إنكم لا تشكرون هذه النعمة. قوله تعالى:

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْهُورًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أي: خلقنا آدم وأنتم من ذريته، ثم صورناكم (يعني ذريته) ويقال خلقناكم يعني آدم خلقه من تراب ثم صورناكم^(٢) يعني آدم صورته بعد ما خلقه من طين. ويقال خلقناكم نطفاً في أصلاب الآباء ثم صورناكم في أرحام الأمهات. ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ على وجه التقديم، أي وقلنا للملائكة ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، «ثُمَّ» بمعنى الواو، ويقال معناه خلقناكم وصورناكم وقلنا للملائكة اسجدوا لآدم. وهي سجدة التحية لا سجدة الطاعة. فالعبادة لله تعالى والتحية لآدم عليه السلام. ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ أي لم يسجد مع الملائكة. لآدم عليه السلام ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ يعني أن تسجد، ولا زيادة، ومعناه ما منعك عن السجود إذ أمرتك بالسجود لآدم. ﴿قَالَ﴾ إبليس عليه اللعنة إنما لم أسجد لأنني ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ أي: هذا الذي منعي عن السجود. فاشتغل اللعين بالقياس، والقياس^(٣) (في موضع النص)

(١) خارجة بن مصعب بن خارجة الضبي بن الحجاج الخراساني السرخسي توفي سنة ١٦٨ هـ انظر التهذيب ٧٦/٣ - ٧٨.

(٢) سقط في ظ.

(٣) القياس في اللغة: التسوية والتقدير.

وفي الشرع: حَمْلُ معلوم على معلوم - أي إلحاقه به في حكمه - لمساواة بينهما في علة الحكم. أو هو: حمل مجهول الحكم على معلومه لمساواة بينهما في علة الحكم.

انظر تعريفات القياس في: القاموس ٢/٢٤٤، أصول الشاشي ص ٣٢٥، المعتمد ٢/٦٩٧، ١٠٣١، العدة ١/١٧٤، البرهان ٣/

باطل، لأنه لما أقر بأنه هو الذي خلقه فقد أقر بأن عليه واجب، وعليه أن يأتمر بأمره. ومع ذلك لو كان القياس جائزاً (في موضع النص)^(١) فإن قياسه فاسداً، لأن الطين أفضل من النار لأن عامة الثمار والفواكه والحبوب تخرج من الطين، ولأن العمارة من الطين والنار للخراب. ثم قال له عز وجل ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ قال مقاتل أي اهبط من الجنة^(٢) ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ أي في الجنة. وقال الكلبي: فاهبط منها، أي اخرج من الأرض والحق بجزائر البحور ولا تدخل الأرض إلا كهيئة السارق^(٣)، وعليه ذل الخوف وهو يروغ فيها فما يكون لك أن تتكبر فيها (لا)^(٤) ينبغي لك أن تتكبر في هذه الأرض على بني آدم ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ يعني من المهانين المذلين ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يَبْعَثُونَ﴾ يعني أجلي إلى يوم البعث، اليوم الذي يخرج الناس من قبورهم. قال ابن عباس^(٥): أراد الخبيث ألا يذوق الموت فأبى الله تعالى أن يعطيه ذلك ف﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ إلى النسخة الأولى، فحينئذ يذوق الموت وتصيبه الممرارة بعدد الأولين والآخرين. قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ قال الكلبي: أي فكما أضللتني^(٦). وقال مقاتل: يعني أما إذا أضللتني وقال بعضهم: فيما أغويتني يعني فيما دعوتني إلى شيء غويت به. ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يعني لأقعدن لهم على طريقك المستقيم، وهو دين الإسلام فأصد الناس عن ذلك. ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ روى أسباط عن السدي قال: من بين أيديهم الدنيا أَدْعُوهم إليها ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الآخرة أشككهم فيها ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ قال الحق أشككهم فيه ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ قال الباطل أخففه عليهم وأرغبهم فيه^(٧). وقال في رواية الكلبي: ثم لآتينهم من بين أيديهم من أمر الآخرة، فأزين لهم التكذيب بالبعث بأنه لا جنة ولا نار^(٨)، ومن خلفهم من أمر الدنيا فأزينها في أعينهم وأرغبهم فيها فلا يعطون حقاً، عن أيمانهم أي: من قبل دينهم فإن كانوا على الضلالة زينتها لهم وإن كانوا على الهدى شبهته عليهم حتى يشكوا فيه، وعن شمائلهم من قبل اللذات والشهوات. ويقال: معناه لآتينهم بالإضلال من جميع جهاتهم، ويقال: عن أيمانهم فيما أمروا به. وعن شمائلهم فيما نهوا عنه. ويقال وعن أيمانهم وعن شمائلهم أي فيما يعملون لأنه يقال عملت بذلك ﴿وَلَا تَحْدُ أَكْثَرُهُمْ شَاكِرِينَ﴾ يعني ذرية آدم لا يكونون شاكرين لنعمتك، ويقال شاكرين مؤمنين. وقال في آية أخرى (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ) قوله ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَلْؤُومًا مَذْحُورًا﴾ قال الكلبي ومقاتل: يعني اخرج من الجنة مذؤوماً أي معيياً مذحوراً أي مطروداً. وقال الزجاج: مذؤوماً أي مذموماً. يقال: دأمت الرجل وذممته إذا عبته. مذحوراً أي مبعداً من رحمة الله تعالى ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ أي (مَنْ) أطاعك فيما دعوته إليه، و«اللام» زيادة للتأكيد ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي ممن أطاعك منهم، من الجن والإنس. ويكون هذا اللفظ بمعنى القسم والتأكيد وأنه يفعل ذلك لا محالة. قوله تعالى:

= ٧٤٥/٢، أصول السرخسي ١٤٣/٢. المستصفى ٥/٢ المحصول ١٨/٢/٢ الإحكام للآمدي ٢٦١/٣. المنتهى لابن الحاجب

ص ١٢٢ الإبهاج ٥/٣، شرح التنقيح ٣٨٣، تيسير التحرير ٢٦٣/٣، فواتح الرحموت ٢٤٦/٢. نبراس العقول ص ٩، ١٣.

(١) سقط من أ. (٢) انظر معالم التنزيل للبغوي ١٥١/٢.

(٣) انظر معالم التنزيل للبغوي ١٥١/٢، وتفسير القرطبي ١١٢/٧.

(٤) سقط من أ.

(٥) انظر معالم التنزيل للبغوي ١٥١/٢، وتفسير القرطبي ١١٢/٧.

(٦) انظر معالم التنزيل ١٥١/٢، وتفسير القرطبي ١١٣/٧، وأخرجه ابن جرير في التفسير ١٤٣٦١: ٣٣٢/١٢.

(٧) أخرجه الطبري من طريقة ابن عباس في التفسير ١٤٣٦٩ ٣٣٨/١٢. وذكره الحافظ ابن كثير في التفسير ٣٩٠/٣ والبغوي في

التفسير ١٥٢/٢.

(٨) أخرجه ابن جرير مثله عن قتادة انظر التفسير ١٤٣٧٢: ٣٣٩/١٢.

وَبَنَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾
فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَيْهَمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ
إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ
فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا
عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا
وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ
وَمَتَعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ يعني قلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أي من حيث أحببتما موسعاً عليكما ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ يعني لا تأكلا من هذه الشجرة ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فتصيرا من الضارين بأنفسكما. قوله تعالى: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ أي زين لهما الشيطان ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا﴾ يعني أراد إبليس لعنه الله بالوسوسة ليظهر ما ستر من عوراتهما. والسوءة كناية عن العورة. وذلك أن إبليس لما رأى محسوده في الجنة ورأى نفسه طريداً لم يصبر، واحتال لإخراجهما فأتاهما ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ﴾ يعني أنكما لو أكلتما تصيران كالملكيتين تموتان أبداً. أو تكونا كالملائكة وتعلمان الخير والشر ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ يعني إن لم تكونا مَلَكَتَيْنِ فتكونا من الخالدين لا تموتان. وقرأ بعضهم^(١) مَلَكَتَيْنِ بالكسر كما قال في آية أخرى (وَمَلَكٌ لَا يُتْلَى) وهي قراءة يحيى بن كثير وهي قراءة شاذة^(٢). قوله ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ أي: حلف لهما ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ بأنها شجرة الخلد، من أكل منها لم يمت، وكان آدم لم يعلم أن أحداً يحلف بالله كاذباً. ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ أي غرهما بباطل، ويقال زَيْنَ لهما. وأصله في اللغة من التقريب يعني قربهما إلى الشجرة ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ﴾ يقول فلما أكلتا من الشجرة ووصل إلى بطونهما تهافت لباسهما عنهما ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ أي ظهرت عوراتهما، وإنما سميت العورة سوءاً لأن كشف العورة قبيح. قال الفقيه: حدثنا أبو جعفر^(٣) قال حدثنا أبو القاسم أحمد بن^(٤) حم. قد ذكر بإسناده عن أبي بن كعب عن النبي - صلى الله عليه وسلم - إن آدم كان رجلاً طويلاً كأنه نخلة سحوق، كثير شعر الرأس، فلما وقع في الخطيئة بدت له سواته وكان لا يراها قبل ذلك، فانطلق هارباً في الجنة فتعلقت به شجرة من شجر الجنة فناداه ربه يا آدم. أتفر مني؟ قال يا رب إني أستحي^(٥). وفيه دليل أن ستر العورة كان واجباً من وقت آدم. لأنه لما كشف عنهما ستر

(١) وهي قراءة ابن عباس ويحيى بن أبي كثير، والزهري، والضحاك، وابن حكيم، وأنكر أبو عمرو بن العلاء كسر اللام وقال لم يكن قبل آدم ملك فيصير ملكين، وقال النحاس ويجوز على هذه إسكان اللام. انظر تفسير القرطبي ١١٥/٧ والبحر المحيط.

٢٧٩/٤.

(٢) سقط في أ.

(٣) محمد بن عبد الله بن عمر الهندوائي البلخلي. انظر الفوائد البهية ١٧٩.

(٤) أحمد بن عصمة الصغار انظر. الفوائد البهية ٣٦.

(٥) أخرجه الطبري في التفسير ٣٥٢/١٢ وذكره الحافظ ابن كثير في التفسير موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنه انظر التفسير

٢٩٤/٣.

عوراتهما بالأوراق فذلك قوله ﴿وَوُطِّفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ أي أقبلا وعمدا يلصقان عليهما من ورق الجنة يعني من ورق التين يطبقان على أبدانهما ورقة ورقة منه. يقال خصف نعله، وهو إطباق طاق على طاق وأصل الخصف^(١) الضم والجمع والخصف إنما هو إلصاق الشيء بالشيء ولهذا قيل خصاف. وقرأ بعضهم^(٢) وطفقا بالنصب وهما لغتان طَفِقَ يَطْفُقُ وَطْفَقَ يَطْفُقُ. ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ أي قال لهما ربهما ﴿أَلَمْ أَنُهَاكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ﴾ أي عن أكل تلك الشجرة ﴿وَأَقُلَّ لَكُمَا﴾ يعني ألم أقل لكما ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ظاهر العداوة. قوله عز وجل ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا بِأَكْلِنَا الشَّجَرَةَ فَاعْفُ رَنَا وَتَجَاوَزْ لَنَا مَعْصِيَتَنَا﴾ وإن لم تغفر لنا وترحمنا يعني إن لم تتجاوز عن ذنوبنا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ بالعقوبة. فهذه لام القسم، كأنهما قالا والله لنكونن من الخاسرين إن لم تغفر لنا وترحمنا. وقد ذكر الله تعالى قبول توبتهما في سورة البقرة وهو قوله تعالى (فَتَابَ عَلَيْهِ) أي قبل توبته. وفي الآية دليل أن الله تعالى يعذب عباده إذا أصروا على الذنوب ويتجاوز عنهم إذا تابوا، لأن إبليس لم يتب وسأل النظرة فجعل مأواه جهنم، وتاب آدم ورجع عن ذنبه فقبل توبته قوله ﴿قَالَ امْطُؤَا﴾ يعني آدم وحواء عليهما السلام وإبليس لعنه الله ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ يعني إبليس عدو لآدم وحواء ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي: منزل وموضع القرار ﴿وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ أي: معاش إلى وقت الموت قوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ أي في الأرض تعيشون ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ من الأرض، من قبوركم يوم القيامة. قرأ الكسائي وابن عامر^(٣) يَخْرُجُونَ بنصب الياء وضم الراء. وقرأ الباقون بضم الياء ونصب الراء على معنى فعل ما لم يسم فاعله. قوله تعالى:

يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ تَكُمُ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَبْنِيْءَ آدَمَ لَا يَفْنِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاءَ تَرِيَهُمَا إِنَّهُ يَرِيَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ يقول خلقنا لكم الثياب ﴿يُورِي سَوَاءَ تَكُمُ﴾ يعني يستر عوراتكم، ويقال معناه أنزلنا عليكم المطر ينبت لكم القطن والكتان لباساً لكم ﴿وَرِيشًا﴾ قرأ الحسن البصري^(٤) وريشاً بالالف.

(١) الخصف: النعل ذات المطراق وقصت الورق على بدنه الزقها وأطبقتها عليه ورقة ورقة تريب القاموس ٦٥/٢.

(٢) وهي قراءة أبو السماك انظر البحر المحيط ٢٨٠.

(٣) انظر حجة القراءات ٢٨٠. سراج القاري ٢٢١، شرح شعلة ٣٨٧.

(٤) قرأ نافع وابن عامر والكسائي: «وريشاً ولباس التقوى» بالنصب عطفوا على الريش. المعنى: وأنزلنا عليكم لباس التقوى. وقرأ الباقون بالرفع. قال الزجاج: ورفعته على ضربين: أحدهما: أن يكون مبتدأ ويكون (ذلك) من صفته ويكون (خير) خبر.

وقرأ غيره وريشاً بغير ألف. وقال القتيبي: الريش والرياش ما ظهر من اللباس، وريش الطائر ما ستره الله به، ويقال الرياش المال^(١) والمعاش.

قال الفقيه حدثنا محمد بن الفضل قال حدثنا محمد بن جعفر. حدثنا إبراهيم بن يوسف عن أبي أمامة عن عوف بن أبي جميلة عن معبد الجهني^(٢) في قوله ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ قال هو ماتلبسون. وريشاً قال المعاش ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ هو الحياء ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أي: لباس التقوى، وهو الحياء خير من الثياب، لأن الفاجر إن كان حسن الثياب فإنه بادي العورة ألا ترى إلى قول الشاعر^(٣) حيث يقول:

إني كأني أرى من لا حياء له ولا أمانة وسط القوم عرياناً

وقال القتيبي: لباس التقوى أي ما ظهر عليه من السكينة والوقار. والعمل الصالح.

كما قال (لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ) أي ما ظهر عليهم من سوء آثارهم وتغير حالهم. ويقال لباس التقوى الإيمان ويقال العفة. قرأ نافع والكسائي وابن عامر لِبَاسَ التقوى بالنصب يعني أنزل لباس التقوى ومعناه ستر العورة وقرأ الباقون بالضم (لِبَاسٌ) على معنى الابتداء، ويقال فيه مضموم يعني هو لباس التقوى. ومعناه ستر العورة، أي: لباس المتقين. وقرأ عبد الله بن مسعود ولباس التقوى خير. وقال مجاهد كان أناس من العرب يطوفون حول البيت^(٤) عراة فنزل قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا﴾ يعني من المال ويقال معنى قوله ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ يعني اللباس خير من تركه، لأنهم كانوا يطوفون عراة قوله ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: من نعم الله على الناس، ويقال من عجائب الله ودلائله ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ أي: يتعظون. قوله عز وجل: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ يقول لا يضلنكم الشيطان عن طاعتي فيمنعكم من الجنة ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ حين تركا طاعتي وعصيا أمري ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ يعني لا يفتننكم الشيطان عن دينكم في أمر الثياب فينزعهما عنكم فتبدو عوراتكم كما فعل بأبويكم، نزع عنهما لباسهما وأظهر عورتهم. وقال بعض الحكماء: إن المعصية شؤم تضر بصاحبها فتجعله عرياناً كما فعلت بآدم. ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْهُمْ﴾ يعني كونوا بالحدار منه، فإنه يراكم، هو أي: إبليس وجنوده من الشياطين من حيث لا ترونهم، يعني كونوا على حذر لأنه يجري من بني آدم مجرى الدم، وذكر أن إبليس لما لعن قال رب إنك باعث إلي بني آدم رسلاً وكتباً. فما رسلي؟ قال الكهنة. قال فما كتابي؟ قال الوشم قال فما قراءتي؟ قال الشعر. قال فما مسجدي؟ قال السوق قال فما مؤذني؟ قال المزامير. قال فما بيتي؟ قال الحمام. قال فما مصائدي؟ قال النساء. قال فما طعامي؟ قال كل ما لم يذكر اسم الله عليه - قال فما شرابي؟ قال كل سكر^(٥). قوله عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ﴾

= الابتداء المعنى: (ولباس التقوى المشار إليه خير). ويجوز أن يكون (ولباس التقوى) مرفوعاً بإضمار (هو) المعنى: وهو لباس التقوى أي وستر العورة لباس المتقين، وحجتهم كما جاء في التفسير قيل: ولباس التقوى أفضل من الأثاث والكسوة. وجاء أيضاً: ولباس التقوى الحياء. انظر حجة القراءات ٢٨٠ - ٢٨١.

(١) ذكر ذلك السيوطي في الدر المنثور عن ابن عباس وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم. انظر الدر المنثور ٧٦/٣، وانظر تفسير الطبري ١٤٤٢٨، ١٢/٣٦٤ - ٣٦٥.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور وعزاه لأبي عبيد وعبد بن حميد والحكيم الترمذي وابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٣) وهو سواربن المضرب انظر النوادر في اللغة ٢٣٢.

(٤) ذكره ابن القيم في إغاثة اللهفان.

(٥) انظر معالم التنزيل للبغوي ١٥٥/٢.

(يعني قرناء) ^(١) ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: لا يصدقون بالآخرة ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ «يعني المشركين حرموا على أنفسهم أشياء قد أحل الله لهم، وكانوا يطوفون بالبيت عراة وقالوا لا نطوف في ثياب قد أذنبا فيها، وكان رجالهم يطوفون بالنهار ونساءؤهم بالليل. وإذا طافت المرأة بالنهار اتخذت إزاراً من سير، وكان تبدو عورتها إذا مشت. وكانت تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله فما بدا منه فلا أحله ^(٢)

وإذا قيل لهم لم فعلتم هكذا ﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ يعني بتحريم هذه الأشياء وبالطواف عراة. قال الله تعالى لمحمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي: المعاصي ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أتكذبون على الله وتقولون بغير علم. ثم بين لهم ما أمرهم الله تعالى به فقال عز وجل: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل والصواب وكلمة التوحيد. وهي شهادة ألا إله إلا الله ﴿وَأَقِيمُوا وَجُوهَكُمْ﴾ أي: قل أمر ربي بالقسط وقل أقيموا وجوهكم ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: حولوا وجوهكم إلى الكعبة عند كل صلاة. وقال الكلبي: يعني إذا حضرت الصلاة وأنتم في مسجد فصلوا فيه، فلا يقولن أحدكم أصلي في مسجدي، وإذا لم يكن في مسجد فليات أي مسجد شاء، قال مقاتل: يعني حولوا ولوا وجوهكم إلى القبلة في أي مسجد كنتم ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ يقول وحدوه واعبدوه بالإخلاص. ويقال إن أهل الجاهلية كانوا يشركون في تلبيتهم ويقولون: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك. فأمرهم الله أن يوحدوه في التلبية مخلصين له الدين ثم قال ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ أي ليس كما تشركون فاحتج عليهم بالبعث متصلاً بقوله ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ كما بدأكم تعودون أي: ليس بعثكم بأشد من ابتدائكم. وقال الحسن: كما خلقكم ولم تكونوا شيئاً، فأحياكم كذلك يميئكم ثم يحييكم يوم القيامة ويقال: كما بدأكم يوم الميثاق من التصديق والتكذيب تعودون إلى ذلك، حيث قال هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي. ويقال: كما بدأكم فخلقكم من التراب تعودون تراباً بعد الموت.

وقال ابن عباس ^(٣) كما بدأكم مؤمناً وكافراً وشقيماً وسعيداً. كذلك تموتون عليه وتبعثون عليه. ثم قال ﴿فَرِيقًا هَدَى﴾ وهم المؤمنون فعلم الله تعالى منهم الطاعة ويكرمهم بالمعرفة ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ أي: وجب عليهم الضلالة فخذلهم ولم يكرمهم بالتوحيد حيث علم منهم المعصية والكفر ﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ﴾ يعني لأنهم اتخذوا الشياطين ﴿أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني اتخذوهم أولياء وأطاعوهم بالمعصية ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ أي: يظنون أنهم على الهدى. قال الزجاج: فيه دليل أن من لا يعلم أنه كافر وهو كافر يكون كافراً. لأن بعضهم قال لا يكون كافراً وهو لا يعلم. وذلك القول باطل لأن الله تعالى قال (ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا) وقال ويحسبون أنهم مهتدون قوله تعالى:

يَبْنِيْءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ

(١) سقط في ظ.

(٢) أخرجه عن ابن عباس مسلم في التفسير (٣٠٢٨/٢٥) والنسائي في المجتبى (٢٩٥٦) وانظر تفسير الطبري ٣٧٧/١٢.

(٣) قال السيوطي في الدر ٧٧/٣ أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم انظر الطبري ٣٨٤/١٢ (١٤٤٧٨).

الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ
وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ
أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾

﴿يَا بَنِي آدَمَ: خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: البسوا ثيابكم واستروا عوراتكم عند كل صلاة. قال
السدي^(١): كان هؤلاء والذين يطوفون بالبيت عراة يحرمون الودك فقال الله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ
وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ في التحريم. ويقال الإسراف أن يأكل ما لا يحل أكله، أو يأكل مما يحل له أكله فوق
القصد ومقدار الحاجة. وقيل لبعض الأطباء: هل وجدت الطب في كتاب الله تعالى؟ قال نعم قد جمع الله الطب
كله^(٢) في هذه الآية (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا) ثم قال: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي لا تحرموا ما أحل الله
لكم فإن المحرم ما أحل الله كالمحل ما حرم الله تعالى، قوله تعالى ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ وهو
أنه لما نزل قوله خذوا زينتكم لبسوا الثياب وطافوا بالبيت مع الثياب فغيرهم المشركون فنزل ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ
اللَّهِ﴾ يعني لبس الثياب التي أخرج لعباده أي: خلقها لهم لعباده أي أوجد وقيل أظهر وقيل على حقيقته، كان في
السماء أو في الأرض فأخرجه ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ يعني الحلال وهو اللحم والشحم والدمسم. ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ
آمَنُوا﴾ قال مقاتل: في الآية تقديم، ومعناه قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق في الحياة
الدنيا ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قرأ نافع خالصة «بضم التاء»^(٣)، وقرأ الباقون
بالنصب (خَالِصَةً) فمن قرأ بالضم فهو خبر بعد خبر يعني هي ثابتة لهم خالصة. أي ثابتة معناه قل هي للذين آمنوا
في الحياة الدنيا يشترك فيها المؤمن والكافر، وهي خالصة للمؤمنين يوم القيامة. وقال القتبي: هذا من الاختصار
ومعناه قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا مشتركة وفي الآخرة خالصة. ثم قال ﴿كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ﴾ يعني
العلامات ويقال نبين الآيات من أمره ونهيه وما يكون في الدنيا والآخرة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: يفهمون أمر الله
تعالى، ثم أخبرهم بما حرم عليهم فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ﴾ يعني
المعاصي ويقال الإثم يعني الخمر كما قال القائل^(٤):

شربت الإثم حتى ضل عقلي كذاك الإثم^(٥) يذهب بالعقول

﴿وَالْبَغْيَ﴾ يعني حرم الاستطالة وظلم الناس ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ﴾ يقول وحرم أن تشركوا بالله ﴿مَا
لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ يقول ما لم ينزل به كتاباً فيه عذرهم وحجة لكم ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ﴾ (أي وحرم عليكم أن
تقولوا على الله^(٦)) ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إنه حرم عليكم. ثم خوفهم فقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ يعني لكل أهل دين مهلة
للعذاب. ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ بالعذاب ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ بعد الأجل ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ساعة قبل الأجل. ثم
قال:

(١) انظر تفسير ابن كثير ٤٠٢/٣.

(٢) ذكره البغوي في التفسير ١٥٧/٢ عن علي بن الحسين بن واقد: قد جمع الله الطب كله في نصف آية فقال (كلوا واشربوا) وانظر
تفسير القرطبي ١٢٣/٧.

(٣) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٨١، شرح شعلة ٣٨٨. (٤) والبيت دون نسبة في تهذيب اللغة ١٦١/١٥.

(٥) والصحاح للجوهري ١٨٥٨/٥، لسان العرب ٢٩/١ الغربيين للهروي ١٨/١. (٦) سقط في ظ.

يَبْنِيءَ آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ أَيْتِي لَا فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَبُهُمْ لِأُولَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَعَاتِبَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَهُمْ لِأُخْرَبُهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ وأصله إن ما، ومعناه متى ما يأتيكم ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي: من جنسكم ﴿يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يقرءون عليكم ويعرضون عليكم كتابي ﴿فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ﴾ أي اتقى الشرك^(١) وأطاع الرسول وأصلح العمل يعني: فمن اتقى عما نهى الله عنه وأصلح. أي: عمل بما أمر الله تعالى به ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يعني لا خوف عليهم من العذاب، ولا هم يحزنون من فوات الثواب، ويقال فلا خوف عليهم فيما يستقبلهم ولا هم يحزنون على ما خلفوا من الدنيا، ويقال معناه إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ وأيقنتم، فلا خوف عليكم فيما يستقبلكم، فذكر الله ثواب من اتقى وأصلح ثم بين عقوبة من لم يتق فقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ أي: تعظموا عن الإيمان فلم يؤمنوا بالرسول وتكبروا عن الإيمان ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: دائمون. قوله تعالى ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ قال الكلبي: فمن أكفر. وقال بعضهم هذا التفسير خطأ، لأنه لا يصح أن يقال: هذا أكفر من هذا، ولكن معناه، ومن أشد في كفره، ويقال فلا أحد أظلم، ويقال أي ظلم أشنع وأقبح ﴿مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، يعني من اختلق على الله كذباً. أي شركاً ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ جحد بالقرآن ﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي: حظهم من العذاب، ويقال نصيبهم حظهم مما أوعدهم الله في الكتاب، الإهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة. وقال ابن عباس^(٢): هو ما ذكر في موضع آخر ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ ويقال نصيبهم أي ما قضى وقدر عليهم في اللوح المحفوظ من السعادة والشقاوة، ويقال نصيبهم رزقهم وأجلهم في الدنيا ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ يعني أمهلهم حتى يأتيهم ملك الموت وأعوانه عند قبض أرواحهم. ويقال يقول لهم خزنة جهنم قبل دخولها ﴿قَالُوا أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ﴾ يعني أن الملائكة يقولون ذلك عند قبض أرواحهم ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يمنعونكم من النار ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي اشتغلوا عنا بأنفسهم ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ في الدنيا. وذلك حين شهدت عليهم جوارحهم، ثم قال ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي: قالت لهم خزنة النار ادخلوا النار مع أمم قد مضت على مذهبكم ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ﴾ يعني النار ﴿أُمَّةٌ﴾ جماعة ﴿لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ أي: على الأمة التي دخلت قبلها في النار. قال مقاتل: يعني: لعنوا أهل ملتهم، يلعن المشركون المشركين والنصارى النصرارى وقال

(١) سقط في ظ.

(٢) انظر معالم التزيل للبغوي ١٥٩/٣.

(٣) انظر تفسير البغوي ١٥٩/٣.

الكلبي^(١): تدعو على الأمم التي قبلهم في النار، يبدأ بالأمم الأولى فالأولى، ويبدأ أولاً بقبايل ولده، ويقال يبدأ بالأكابر فالأكابر مثل فرعون، كما قال في آية أخرى (ثُمَّ لَنَزَعَنَّ مِنْ كُلِّ شَيْعَةٍ أُمَّتَهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا) ﴿حَتَّى إِذَا أَذَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ يعني اجتمعوا في النار، وأصله تداركوا فيها، يعني اجتمع القادة والأتباع في النار، وقرأ بعضهم: حَتَّى إِذَا أَذَرَكُوا فِيهِ أَي: دخلوا في إدراكها، كما يقال أشتى الرجل إذا دخل في الشتاء وهي قراءة شاذة. ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ﴾ أي: قال أواخر الأمم لأولهم، ويقال قالت الأتباع للقادة والرؤساء ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾ عن الهدى ﴿فَاتَيْهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾ أي: أعظم زيادة من العذاب. ﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: على القادة زيادة من العذاب ولكن لا تعلمون ما عليهم. قرأ عاصم^(٢) في رواية أبي بكر ﴿وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بالياء، أي لا يعلم فريق منهم عذاب فريق آخر. ﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ﴾ أي: أولهم دخولاً لآخرهم دخولاً، ويقال القادة للأتباع ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ في شيء كفرتم كما كفرنا فنحن وأنتم سواء في الكفر، ضللتكم كما ضللنا. قال الله تعالى ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ ويقال، الخزنة فذوقوا العذاب، ويقال هذا قول بعضهم لبعض فذوقوا العذاب ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي: تكفرون في الدنيا وبترككم الإيمان.

إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتُحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

قوله عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي بمحمد - صلى الله عليه وسلم - والقرآن ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ يعني استكبروا عن قبولها، ويقال عن النظر فيها ﴿لَا تُفْتُحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ لأعمال الكفار أي ليس لهم عمل صالح يفتح لهم أبواب السماء، ويقال: لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء إذا ماتوا. وقال بعضهم: أبواب السماء أي: أبواب الجنة. ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ أي: لا يدخلون الجنة أبداً كما لا يدخل الجمل في ثقب الإبرة وروي عن ابن^(٣) مسعود رضي الله عنه أنه سئل عن الجمل فقال زوج الناقة، وقال الضحاك الجمل الذي له أربع قوائم. وقال بعض الناس: الجمل هو أشر بالفارسية. وقال الحسن هو ولد الناقة. وروي عن ابن عباس^(٤) رضي الله عنهما أنه قرأ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ بضم الجمل وتشديد الميم وهو جبل السفينة

(١) أخرجه الطبري عن السدي ٤١٦/١٢.

(٢) انظر حجة القراءات ٢٨٢، شرح شعبة ٣٨٨.

(٣) ذكره السيوطي في الدر ٨٤/٣ وعزاه لسعيد بن منصور والفريابي وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبي الشيخ والطبراني في الكبير.

(٤) ذكره السيوطي في الدر ٨٤/٣ وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وأبي عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن الأنباري في المصاحف وأبي الشيخ من طرق.

الغليظ، وسئل عكرمة^(١) عن قوله حتى يلج الجمل. قيل وما الجمل؟ قال الجبل الذي يصعد به النخل. قال سعيد بن جبیر: هو جبل السفينة الغليظ^(٢). قرأ أبو عمرو^(٣) لا تُفْتَحَ بالياء بلفظ التذكير بالتخفيف وقرأ الباقون بالتاء المشددة. فمن قرأ بالتأنيث فلأنها من جماعة الأبواب، ومن قرأ بالتذكير فلأن الفعل مقدم، ومن قرأ بالتشديد أراد به تكثير الفتح ومن قرأ بالتخفيف فتفتح مرة واحدة. وقرأ بعضهم^(٤) في سُم بضم السين وهي قراءة شاذة وهما لغتان. قال أبو عبيدة: كل ثقب فهو سم. ثم قال عز وجل ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: هكذا نعاقب المشركون. ثم ذكر ما أوعدهم في النار فقال عز وجل ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ أي: فراش من النار ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أي: مُغْشَاهُمْ النار من فوق رؤسهم، ومعناه أن من تحتهم ناراً ومن فوقهم ناراً. كقوله ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ ويقال لهم من جهنم مهاد أي: حظهم من جهنم كالمهاد، فأخبر عن ضيق مكانهم في النار ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ نعاقب الكافرين. قوله عز وجل ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وذلك أن الله تعالى لما أخبر عن حال الذين كذبوا بآياته واستكبروا عن قبولها أخبر عن حال الذين آمنوا بآياته فقال ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: صدقوا وعملوا الصالحات أي: الطاعات والأعمال الصالحة ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: لا نكلف نفساً بعد الإيمان من العمل إلا بقدر طاقتها ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يعني دائمون، ثم قال عز وجل ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ قال بعضهم أي: في الدنيا أخرج الله تعالى الغل والحسد من قلوبهم وألف بين قلوبهم كما قال الله تعالى ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾ ويقال هذا في الجنة يخرج الغل والحسد من قلوبهم. قال ابن عباس^(٥) رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق وعمر وعثمان وعليّ ونحوهم من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -. ومن تابعهم على سنتهم ومنهجهم إلى يوم القيامة. وقال عليّ بن أبي طالب لعمران بن طلحة بن عبيد الله: أرجو أن أكون أنا وأبوك من الذين قال الله تعالى فيهم^(٦): ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾. فأنكر عليه بعضهم. فقال عليّ إن لم تكن نحن فمن هم؟ يعني إن الذين كانوا على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يكن في قلوبهم من الغل حتى ينزع عنهم. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ أي: من تحت غرفهم وقصورهم وأشجارهم الأنهار ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ أي: أكرمنا بهذه الكرامة، ويقال إن الذي وقفنا للأمر الذي أوجب لنا هذا الثواب وهو الإسلام، ويقال هداانا لهاتين العينين، وذلك أن أهل الجنة لما انتهوا إلى باب الجنة فإذا هم بشجرة تبع من ساقها عيان فيعمدون إلى إحداها فيشربون منها فيخرج الله تعالى ما كان في أجوافهم من غل وقدر، فذلك قوله تعالى ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ ثم يعمدون إلى الأخرى فيغتسلون فيها فيطيب الله تعالى أجسادهم من كل درن وحسد. وجرت عليهم نضرة ولا تشعث رؤوسهم ولا تغبر وجوههم ولا تشحب أجسادهم أبداً، تتلقاهم خزنة الجنة فينادون في التقديم أي قبل أن يدخلوها أن تَلْكُمُ

(١) ذكره السيوطي في الدر ٨٤/٣ وعزاه لأبي الشيخ.

(٢) انظر تفسير القرطبي ١٣٣/٧ انظر تفسير ابن كثير ٤١٠/٣ وفيه النسبة لسعيد رضي الله عنه وانظر تفسير ابن عباس بهامش الدر ٩٥/٢.

(٣) انظر حجة القراءات ٢٨٢، شرح شعلة ٣٨٨.

(٤) قرأ بها ابن سريّن انظر تفسير القرطبي ١٣٣/٧. وقال أبو حيان في البحر ٢٩٧/٤ وقرأ عبد الله وقتادة وأبو رزين وابن مصرف وطلحة بضم السين سم وقرأ أبو عمران الحرفي وأبو نهيل والأصمعي عن نافع بكسر السين.

(٥) انظر تفسير الطبري ٤٣٨/١٢.

(٦) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ٤٣٨/١٢ (١٤٦٦٢).

الْجَنَّةُ أُورِثُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ، فقالوا بعد ما اغتسلوا من العينين الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا أَي: وفقنا حتى اغتسلنا من هاتين العينين. ويقال لما دخلوا الجنة ونظروا إلى كراماتها (قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا) يعني لهذا الثواب. ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ أَي: ما كنا لولا أن وفقنا الله، ذلك أنهم علموا أن الله تعالى له عليهم المن والفضل فيما أعطاهم. قرأ ابن عامر مَأْكُنَا لِنَهْتَدِيَ بغير واو على الاستئناف وقرأ الباقون والواو وعلى معنى العطف. ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ﴾ يعني جاءت رسل ربنا بالحق فصدقناهم ﴿وَنُودُوا أَنْ تَتَّخِذُوا الْجَنَّةَ﴾ قال بعضهم: قبل أن يدخلوها قال لهم حزنه الجنة تلكم الجنة (انتي وعدتم ويقال بعد ما دخلوا بها يقال لهم تلك الجنة أي هذه الجنة التي) ^(١) ﴿أُورِثُوهَا﴾ يعني أنزلتموها بإيمانكم واقتبستموها ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في دار الدنيا، وهذا كما روي في الخبر: إنه يقال لهم يوم القيامة جوزوا الصراط بعفوي وادخلوا الجنة برحمتي واقتسموها بأعمالكم ^(٢). قوله تعالى:

وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ^(٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفُورُونَ ^(٤٥) وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ لَمَّا دَخَلُوا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ^(٤٦)

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ أَي ما وعدنا يعني في الدنيا من الثواب وجدناه صدقاً ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ من العذاب ﴿حَقًّا﴾ أي صدقاً ﴿قَالُوا نَعَمْ﴾ فاعترفوا على أنفسهم في وقت لا ينفعهم الإعراف، قرأ الكسائي ^(٣) قالوا نَعِم بكسر العين في جميع القرآن، وقرأ الباقون بالنصب. وروي عن عمر أنه سمع رجلاً يقول نَعِم بالنصب فقال له عمر النعم المال، وقل نَعِم يعني بكسر العين. وروى الكسائي عن شيخ من ولد الزبير قال: ما كانت أشياخ قريش إلا يقولون نَعِم فماتت. يعني اللغة ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ وذلك أنه ينادي مناد بين الجنة والنار تسمعه الخلائق كلهم إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ولعنة الله على الظالمين أي كرامة الله وفضله وإحسانه على المؤمنين وعذاب الله مع عقابه على الكافرين ثم قال ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي الناس عن دين الله وهو الإسلام، وهم الرؤساء منهم، منعوا أتباعهم عن الإيمان ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يقول: يريدون بملة الإسلام غيراً وزيفاً ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ يعني أنهم كانوا جاحدون بالبعث. قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ^(٤) أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ بالتشديد ونصب الهاء. وقرأ الباقون أَنْ لَعْنَةُ بتخفيف أَنْ وضم الهاء. قوله ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ إي: بين أهل الجنة وأهل النار سور ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ وروي مجاهد عن ابن عباس ^(٥) قال: الأعراف سور كعرف الديك. وقال القتيبي: الأعراف سور بين الجنة والنار. وسمي بذلك لارتفاعه، وكل مرتفع عند العرب أعراف. وقال السدي إنما سمي الأعراف لأن أصحابه يعرفون الناس، روي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه سئل عن أصحاب الأعراف فقال: هم قوم قتلوا في سبيل

(١) سقط في ظ.

(٣) انظر حجة القراءات ٢٨٢ - ٢٨٣، شرح شعبة ٣٨٩.

(٢) انظر زاد المسير في التفسير لابن الجوزي ٢٠٠/٣. (٤) انظر حجة القراءات ٢٨٣، سراج القاري ٢٢٣.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٨٦/٣ وعزه للقرطبي وهناد وعبد بن حميد وابن جرير ٤٥٠/١٢ وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

الله في معصية آبائهم، فمنعهم من النار قتلهم في سبيل الله ومنعهم من الجنة معصيتهم آبائهم^(١). وعن حذيفة^(٢) بن اليمان أنه قال: قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فلم يكن لهم حسنات فاضلة يدخلون بها الجنة، ولا سيئات فاضلة يدخلون بها النار. وهذا القول أيضاً روي عن ابن عباس^(٣) مثل هذا وروي عن ابن عباس أيضاً أنه قال: هم أولاد الزنا. وروي عن أبي مجلز^(٤) أنه قال هم الملائكة. فبلغ ذلك مجاهداً فقال كذب أبو مجلز. يقول الله تعالى وعلى الأعراف رجال. فقال أبو مجلز لأن الملائكة ليسوا بإناث، ولكنهم عباد الرحمن. قال الله (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنِثَاءً) ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ يعني أن أصحاب الأعراف يعرفون أهل الجنة إذا مروا بهم ببياض وجوههم، ويعرفون أهل النار بسواد وجوههم. والسيما هي العلامة ﴿وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامَ عَلَيْكُمْ﴾ يعني^(٥) فإذا مر بهم زمرة من أهل الجنة قالوا أُنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ يعني إن أهل الأعراف يسلمون على أهل الجنة ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ يعني إن أصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنة وهم يطمعون أن يدخلوها. وقال الحسن^(٦): والله ما جعل الله ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريدون بها. ويقال: لم يدخلوها يعني أهل الجنة لم يدخلوها حتى يسلم عليهم أهل الأعراف. وهم يطمعون في دخولها. ويقال: أهل النار لم يدخلوها أبداً. وهم يطمعون. وطمعهم أن أفيضوا علينا من الماء. قوله تعالى:

وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا لَا يَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَاَلْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا يَتَنَبَّأُونَ بِمُحْدُوتِ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ

(١) أخرجه الطبري في التفسير ٤٥٦/١٢ وإسناده ضعيف.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٨٧/٣ وعزاه لعبد الرزاق وسعيد بن منصور وهناد بن السري وعبد بن حميد وابن جرير ٤٥٣/١٢

(٣) (١٤٦٨٦) وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والبيهقي في البعث.

(٤) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم انظر الدر المنثور ٨٨/٣.

(٥) انظر تفسير القرطبي ١٣٦/٣ وقال ذكره القشيري عن ابن عباس وتفسير ابن كثير ٤١٦/٣.

(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٨٨/٣ وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري

في الأضداد وأبي الشيخ والبيهقي في البعث.

(٦) لاحق بن حميد السدوس أبو مجلز بكسر أوله وإسكان الجيم آخره زاي البصري، وثقه أبو زرعة والعجلي وابن سعد مات

سنة ١٠٦ هـ انظر الخلاصة ١٤١/٣.

(٧) سقط في ظ.

(٨) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٨٩/٣ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ قال من سرعة ما انصرفوا كأنهم صرفوا، تلقاء أصحاب النار يعني أنهم إذا نظروا قبل أصحاب النار أي تلقاء أصحاب النار ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي مع الكافرين في النار ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجَالًا﴾ يعني في النار ﴿يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ في الدنيا ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي ما أغنى عنكم ما كنتم تستكبرون عن الإيمان. وقرأ بعضهم^(١) وما كنتم تستكبرون. يعني تجمعون المال الكثير. وهي قراءة شاذة. ﴿أَهْؤَلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ يعني إن أهل الأعراف يقولون يا وليد ويا أبا جهل: أهؤلاء؟ يعني صهيلاً وبلاً والضعفة من المسلمين الذين كنتم تحلفون لا ينالهم الله برحمة. يعني إنهم لا يدخلون الجنة ثم يقول الله تعالى لأصحاب الأعراف ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ وعن أبي مجلز أنه قال: وعلى الأعراف رجال من الملائكة، نادوا أصحاب الجنة قبل أن يدخلوها سلام عليكم لم يدخلوها. وهم يطمعون دخولها يعني في الجنة. وإذا نظروا إلى أصحاب النار حين مروا بهم ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجَالًا﴾ من المشركين ﴿يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أَهْؤَلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ يعني لأهل الجنة. قال مقاتل: فأقسم أهل النار أن أصحاب الأعراف داخلون النار معهم. فقالت الملائكة لأهل النار أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة. ثم تقول الملائكة لأصحاب الأعراف ادخلوا الجنة. ويقال إن أهل النار يقولون لأهل الأعراف ما أغنى عنكم جمعكم وعملكم وأنتم تكونون معنا في النار ولا تدخلون الجنة. فيقول الملائكة لأهل النار أهؤلاء الذين أقسمتم يعني أصحاب الأعراف لا ينالهم الله برحمة^(٢). ثم يقال لأصحاب الأعراف ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون. قوله عز وجل ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي اسقونا من الماء أو شيئاً من الفواكه وثمار الجنة فإن فينا من معارفكم. فعلم الله تعالى أن ابن آدم غير مستغن عن الطعام والشراب وإن كان في العذاب. فأجابهم أهل الجنة ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ يعني الماء والثمار. وروي في الخبر^(٣) أن أبا جهل بن هشام بعث إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - يستهزئ به. أطعمني من عنب جنتك أو شيئاً من الفواكه. فقال لأبي بكر الصديق رضي الله عنه قل له إن الله حرهما على الكافرين، ثم وصفهم عز وجل فقال ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ أي اتخذوا الإسلام باطلاً ودخلوا في غير دين الإسلام. ويقال اتخذوا عبداً لهواً وفرحاً ﴿وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي غرهم ما أصابهم من زينة الدنيا ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ﴾ أي نتركهم في النار ﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ أي كما تركوا العمل ليومهم هذا. ويقال كما تركوا الإيمان ليومهم هذا يعني أنكروا البعث ﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ يعني بجحدهم بآياتنا بأنها ليست من عند الله تعالى - قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ﴾ أي أكرمناهم بالقرآن ﴿فَصَلَّاهُ

(١) انظر البحر المحيط ٣٠٣/٤.

(٢) انظر تفسير ذلك في معالم التنزيل للبغوي ١٦٣/٢ وتفسير ابن كثير ٤١٨/٣ وتفسير القرطبي ١٣٧/٧.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٩٠/٣ بلفظ لما مرض أبو طالب قالوا له لو أرسلت إلى ابن أخيك فيرسل إليك بعنقود من جنته لعله يشفيك فجاء الرسول وأبو بكر عند النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال أبو بكر: إن الله حرهما على الكافرين، وعزاه لابن أبي شيبه وابن أبي حاتم عن أبي صالح.

عَلَى عِلْمٍ ﴿ يَعْنِي بَيْنَا فِيهِ الْآيَاتُ ، الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ ﴾ «عَلَى عِلْمٍ» أَي بَعْلَمُ مِنَّا ﴿ هُدًى ﴾ يَعْنِي بَيَاناً مِنَ الضَّلَالَةِ وَيُقَالُ جَعَلْنَاهُ هَادِياً ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ أَي نِعْمَةٌ وَنَجَاةٌ مِنَ الْعَذَابِ ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يَعْنِي لِمَنْ آمَنَ وَصَدَّقَ بِهِ . يَعْنِي : أَكْرَمْنَاهُمْ بِهَذَا الْكِتَابِ فَلَمْ يُؤْمِنُوا وَلَمْ يَصْدُقُوا . وَإِنَّمَا أَضَافَ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَهْتَدُونَ بِهِ وَيَسْتَوْجِبُونَ بِهِ الرَّحْمَةَ . ثُمَّ قَالَ ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ﴾ أَي مَا يَنْتَظِرُونَ إِلَّا عَاقِبَةُ مَا وَعَدَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْعَذَابِ ﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ ﴾ عَاقِبَةُ مَا وَعَدَهُمُ اللَّهُ . وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ ﴾ يَقُولُ الَّذِينَ تَرَكُوا الْعَمَلَ وَالْإِيمَانَ ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ يَعْنِي فِي الدُّنْيَا ﴿ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ حِينَ عَايَنُوا الْعَذَابَ وَذَكَرُوا قَوْلَ الرُّسُلِ وَنَدَمُوا عَلَى تَكْذِيبِهِمْ إِيَّاهُمْ . يَقُولُونَ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ . أَي بِأَمْرِ الْبَعْثِ فَكَذَّبْنَاهُمْ ﴿ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا ﴾ لِأَنَّهُمْ يَرُونَ الشُّفْعَاءَ يَشْفَعُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ ، فَيُقَالُ لَهُمْ لَيْسَ لَكُمْ شَفِيعٌ . فَيَقُولُونَ ﴿ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ أَي هَلْ نَرُدُّ إِلَى الدُّنْيَا فَنَصْدُقَ الرُّسُلَ وَنَعْمَلَ غَيْرَ الشُّرْكِ ﴿ فَنَعْمَلْ ﴾ صَارَ نَصَباً لِأَنَّهُ جَوَابُ الاسْتِفْهَامِ ، وَجَوَابُ الاسْتِفْهَامِ إِذَا كَانَ بِالْفَاءِ فَهُوَ نَصَبٌ . وَكَذَلِكَ جَوَابُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ . يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ أَي قَدْ غَبَنُوا حُظَّ أَنْفُسِهِمْ ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أَي يَكْذِبُونَ بِأَنَّ الْأَلِهَةَ شَفَعَاؤُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ قَوْلُهُ :

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي
الَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ
تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمَّا عَرِى الْمُشْرِكِينَ بِعِبَادَةِ آلِهَتِهِمْ وَنَزَلَ قَوْلُهُ «لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ» وَقَوْلُهُ (كَمِثْلُ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً) سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالُوا مَنْ رَبُّكَ الَّذِي تَدْعُونَا إِلَيْهِ؟ وَأَرَادُوا أَنْ يَجْحَدُوا فِي اسْمِهِ طَعْناً أَوْ فِي شَيْءٍ مِنْ أَعْمَالِهِ فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ . فَتَحِيرُوا وَعَجَزُوا عَنِ الْجَوَابِ . فَقَالَ إِنْ رَبِّكُمْ اللَّهُ (أَي خَالِقُكُمْ وَرَازِقُكُمْ) ^(١) الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ^(٢) أَي مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ . طَوَّلَ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ سَنَةٍ . وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا ^(٣) . وَيُقَالُ يَعْنِي فِي سِتِّ سَاعَاتٍ مِنْ سِتَّةِ أَيَّامٍ مِنْ أَطْوَلِ أَيَّامِ الدُّنْيَا وَلَوْ شَاءَ أَنْ يَخْلُقَهَا فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ لَخَلَقَهَا وَلَكِنْ عَلَّمَ عِبَادَهُ التَّائِي وَالرَّفْقَ وَالتَّدْبِيرَ فِي الْأُمُورِ ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ هَذَا مِنَ الْمُتَشَابِهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ . وَذَكَرَ عَنْ يَزِيدَ بْنِ هَارُونَ ^(٤) أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ تَأْوِيلِهِ فَقَالَ تَأْوِيلُهُ الْإِيمَانُ بِهِ وَذَكَرَ أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ عَلَى مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ فَسَأَلَهُ عَنْ قَوْلِهِ (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) فَقَالَ: الْإِسْتَوَاءُ غَيْرُ الْمَجْهُولِ وَالْكِيفِيَّةِ غَيْرُ مَعْقُولَةٍ وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بَدْعٌ وَمَا أَرَاكَ إِلَّا ضَالًّا . فَأَخْرَجُوهُ . وَذَكَرَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرٍ نَحْوَ هَذَا ^(٥) . وَقَدْ تَأَوَّلَهُ بَعْضُهُمْ وَقَالَ «ثُمَّ» بِمَعْنَى الْوَائِي كَوْنٍ عَلَى مَعْنَى الْجَمْعِ وَالْعُطْفِ لَا عَلَى مَعْنَى التَّرَاخِي وَالتَّرْتِيبِ . وَمَعْنَى قَوْلِهِ

(١) سقط في ظ.

(٢) انظر معالم التنزيل للبغوي ١٦٤/٢ وانظر تفسير القرطبي ١٤٠/٧.

(٣) انظر المصدرين السابقين، وقال مجاهد وغيره: أولها الأحد وآخرها الجمعة.

(٤) السلمي أبو خالد الواسطي، أحد الأعلام الحفاظ المشاهير، وثقه العملي، وقال أبو حاتم؛ إمام لا يسأل عن مثله مات سنة ٢٠٦ هـ.

انظر الخلاصة ١٧٨/٣.

(٥) انظر الدر المنثور ٩١/٣.

استوى أي استولى، كما يقال فلان استوى على بلد كذا يعني استولى عليه فكذلك هذا^(١). معناه خالق السموات والأرض، ومالك العرش. ويقال ثم صعد أمره إلى العرش. وهذا معنى قول ابن عباس. قال صعد على العرش. يعني أمره، ويقال قال له كن فكان، ويقال (ثم استوى على العرش) أي^(٢) كان فوق العرش قبل أن يخلق السموات والأرض ويكون على بمعنى العلو والارتفاع، ويقال استوى يعني استولى. وذكر أن أول شيء خلقه الله تعالى القلم ثم اللوح. فأمر القلم بأن يكتب في اللوح ما هو كائن إلى يوم القيامة. ثم خلق ما شاء. ثم خلق العرش ثم حملة العرش ثم خلق السموات والأرض. وإنما خلق العرش لا حاجة نفسه ولكن لأجل عباده ليعلموا أين يتوجهون في دعائهم لكي لا يتحيروا في دعائهم، كما خلق الكعبة علماً لعبادتهم ليعلموا إلى أين يتوجهون في العبادة. فكذلك خلق العرش علماً لدعائهم ليعلموا إلى أين يتوجهوا بدعائهم ثم قال تعالى: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ يعني إن الليل يأتي على النهار فيغطيه ولم يقل يغشي النهار الليل لأن في الكلام دليلاً عليه. وقد بين في آية أخرى (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) فكذلك ههنا، معنا يغشي النهار الليل ويغشي الليل النهار. يعني إذا جاء النهار يذهب بظلمة الليل وإذا جاء الليل يذهب بنور النهار.

قرأ حمزة والكسائي وعاصم^(٣) في رواية أبي بكر يُغْشِي بتشديد الشين ونصب الغين. وقرأ الباقون بجزم الغين مع التخفيف، وهما لغتان غَشَى وَيُغْشِي وَأَغْشَى يُغْشِي بقوله ﴿يُطْلَبُ حَيْثُ﴾ أي: سريعاً في طلبه أبداً ما دامت الدنيا باقية ثم قال ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مَسْخَرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ أي: جاريات مذلات لبني آدم بأمره.

قرأ ابن عامر^(٤) والشَّمْسُ والقمر والنجوم كلها بالضم على معنى الابتداء وقرأ الباقون بالنصب. ومعناه خلق الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره. ثم قال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ ألا كلمة التنبيه، يعني اعلّموا أن الخلق لله تعالى وهو الذي خلق الأشياء كلها وأمره نافذ في خلقه. قال سفيان بن عيينة^(٥): الخلق هو الخلق والأمر هو القرآن وهو كلام الله وليس بمخلوق ولا هو بائن منه وتصديقه قوله ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ ويقال الأمر هو القضاء، ثم قال ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ قال ابن عباس^(٦) رضي الله عنهما يعني تعالى الله عما يقول الظالمون، ويقال تبارك الله تفاعل من البركة أي: ذو البركة يعني أن البركة كلها من الله تعالى والبركة فيما يذكر عليه اسم الله رب العالمين. أي: سيد الخلق أجمعين فلما وصف وبالع في ذلك وأعجزهم فأمرهم بأن يدعوه فقال:

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ

(١) وهذا خروج عن معنى النص الذي يجب اعتقاده وإنما يسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح مالك والأوزاعي والنووي والليث بن سعد والشافعي وأحمد بن حنبل المبرأ من المشبه وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً وهو إمرارها كما جاءت من غير تكليف ولا تشبيه ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله فإن الله لا يشبه شيء من خلقه، و(ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) قال: نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري: من شبه الله بخلقه فقد كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه فمن أثبت لله تعالى ما وردت الآيات والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله تعالى ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى. اللهم آميناً على ذلك.

(٣) انظر حجة القراءات ٢٨٤، سراج القاري ٢٢٣.

(٢) سقط في ظ.

(٤) انظر حجة القراءات ٢٨٤، سراج القاري ٢٢٣.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٩٢/٣ وعزاه لابن أبي حاتم البهقي في الأسماء والصفات.

(٦) انظر معالم التنزيل للبغوي ١٦٥/٢.

إِصْلَاحِهَا وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ قال الكلبي: يعني في الأحوال كلها. يعني ادعوا الذي خلق هذه الأشياء في الأحوال كلها. ويقال خفية يعني اعتقدوا عبادته في أنفسكم لأن الدعاء معناه العبادة ثم قال ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ يعني أن يدعوا بما لا يحل أو يدعوا على أحد باللعن والخزي أو تدعوا عليه بالشر. ثم قال ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ وذلك أن الله تعالى إذا بعث نبياً فإطاعوه صلحت الأرض وصلاح أهلها وفي المعصية فساد الأرض وفساد أهلها، ويقال لا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها أي لا تجوروا في الأرض فتخرب الأرض^(١) لأن الأرض قامت بالعدل، ويقال لا تخربوا المساجد فتركوا الجماعات ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ يعني اعبدوه خوفاً وطمعاً أي: خوفاً من عذابه وطمعاً في رحمته: ويقال ادعوه في حال الخوف والضيق، ويقال خوفاً عن قطيعته ورجاء إلى الغاية. ثم قال ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ولم يقل قرية قال بعضهم لأن القريب والبعيد يصلحان للواحد والجمع والمذكر والمؤنث. كما قال (لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا) وقال (وَمَا هِيَ مِّنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ) وقال بعضهم تفسير الرحمة ههنا المطر فذكر بلفظ المذكر، وقال بعضهم إن رحمة الله قريب. يعني الغفران والعفو فانصرف إلى المعنى. ومعناه المحسنون قريب من الجنة وهم المؤمنون ثم قال ﴿وَهُوَ الَّذِي يَرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي قدام المطر.

قرأ حمزة والكسائي^(٢) الريح بلفظ الوجدان. وقرأ الباقون الرياح بلفظ الجماعة. واختار أبو عبيد أن كل ما ذكر في القرآن من ذكر الرحمة فهو رياح وكل ما كان فيه ذكر العذاب فهو ريح واحتج بما روي عن النبي عليه السلام أنه كان يقول: إذا هبت الريح يقول اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً^(٣).

وقرأ ابن عامر^(٤) نُشْرًا بضم النون وجزم الشين.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع نُشْرًا بضميتين.

وقرأ حمزة والكسائي نُشْرًا بنصب النون وجزم الشين.

وقرأ عاصم بشرّاً بالباء ويكون من البشارة كما قال في آية أخرى (يُرْسِلُ الرِّيحَ مَبْشُرَاتٍ).

ومن قرأ نُشْرًا بالنون والنصب فيكون معناه يرسل الرياح تَنْشُرُ السحاب نُشْرًا، ومن قرأ بالضميتين يكون جمع نشور، يقال ريح نشور، أي تنشر السحاب ورياح تُشْرُ، ومن قرأ بضمة واحدة لأنه لما اجتمعت الضمتان حذفت إحداهما للتخفيف ثم قال ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ من الماء، والسحاب جمع السحابة يعني الريح حملت سحاباً ثِقَالًا ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ يعني السحاب تمر بأمر الله تعالى إلى أرض ليس فيها نبات ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾

(١) سقط في أ.

(٢) وممن قرأ الرياح جميعاً ابن عباس والسلمي وابن أبي عتبة وانظر تفصيل ذلك في البحر المحيط ٣١٦.

(٣) أخرجه الشافعي في المسند ١/١٧٥ (٥٠٢) وأبو يعلى في المسند ٤/٣٤١ في مسند ابن عباس ١٢٩/٢٤٥٦ والطبراني في الكبير

٢١٣/١١ ١١٥٣٣ وعزاه الحافظ في المطالب ٣/٢٣٨ (٣١٧١).

(٤) انظر حجة القراءات ٢٨٥، سراج القاري: ٢٢٣.

يعني بالمكان. ويقال بالسحاب ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي نخرج بالماء من الأرض الثمرات ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ أي يقول: هكذا نحیی الموتی بالمطر كما أحییت الأرض المیتة بالمطر. وذكر في الخبر^(١) أنه إذا كان قبل النفخة الأخيرة أمطرت السماء أربعين يوماً مثل منی الرجال فتشرب الأرض فتنبت الأجساد بذلك الماء ثم ينفخ في الصور فإذا هم قيام ينظرون. وفي هذه الآية إثبات القياس وهو رد المختلف إلى المتفق^(٢)، لأنهم كانوا متفقين أن الله تعالى هو الذي ينزل المطر ويخرج النبات من الأرض. فاحتج عليهم لإحيائهم بعد الموت بإحياء الأرض بعد موتها. ثم قال ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لكي تتعظوا وتعتبروا في البعث أنه كائن. ثم ضرب مثلاً للمؤمنين والكافرين فقال:

وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكْدًا كَذَلِكَ نَصْرَفُ الْأَيَّاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُوا لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوْعَجَبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ يعني المكان العذب الزكي اللين من الأرض اللينة يخرج نباته إذا أمطرت فينتفع به، كذلك المؤمن يسمع الموعدة فتدخل في قلبه فينتفع بها وينفعه القرآن كما ينفع المطر الأرض الطيبة ﴿وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكْدًا﴾ يعني الأرض السبخة لا يخرج نباتها إلا من كد وعناء، فكذلك الكافر لا يسمع الموعدة ولا ينتفع بها^(٣) ولا يتكلم بالإيمان ولا يعمل بالطاعة إلا كرهاً لغير وجه الله، ثم قال ﴿كَذَلِكَ نَصْرَفُ الْأَيَّاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ أي هكذا نبين الآيات والعلامات والأمثال لمن آمن وشكر رب هذه النعم ووحده. قوله عز وجل ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ يعني بعثنا نوحاً إلى قومه بالرسالة فاتاهم، ويقال معناه جعلنا نوحاً رسولاً إلى قومه. ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي وحدوا الله، ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ أي ليس لكم رب سواه.

قرأ الكسائي^(٤) إله غيره بكسر الراء.

وقرأ الباقون غيره بالضم. فمن قرأ بكسر الراء فلاجل من وجعله كله كلمة واحدة والغير تابعاً له. ومن قرأ بالضم فمعناه مالكم إله غيره ودخلت من مؤكدة.

ثم قال ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو الغرق ف ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾ وهم الرؤساء والأجلة

(١) ذكره الحافظ ابن كثير في التفسير ٤٢٦/٣ وذكره البغوي موقوفاً عن ابن عباس وأبي هريرة انظر معالم التنزيل ١٦٧/٢.

(٢) وهذا تعريف بالرسم لا بالحد وتقدم تعريف القياس والكلام عليه فارجع إليه إن شئت.

(٣) سقط في ط. (٤) انظر حجة القراءات ٢٨٦، سراج القاري ٢٢٤.

والأشراف، سموا بذلك لأنهم ملئوا بما يحتاج إليه منهم، ويقال لأنهم ملأوا الناظر هيبة إذا اجتمعوا في موضع قالوا ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ يعني في خطأ بين ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وفي الآية بيان أدب الخلق في حسن الجواب والمخاطبة. لأنه رد جهلهم بأحسن الجواب وهذا كما قال الله تعالى (وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) يعني السداد من القول ثم قال ﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتٍ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ أي أمنعكم من الفساد وأدعوكم إلى التوحيد وأحذركم من العذاب. وقال أهل اللغة: أنصح لكم وأنصحكم لغتان بمعنى واحد كما يقال شكرت لك وشكرتك ثم قال ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني أعلم أنكم إن لم تتوبوا يأتيكم العذاب وأنتم لا تعلمون ذلك، وذلك أن سائر الأنبياء عليهم السلام خوفوا أمتهم بعذاب الأمم السابقة كما قال شعيب لقومه (أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمُ نُوحٍ أَوْ قَوْمُ هُودٍ أَوْ قَوْمُ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَوْ طُغِيَ مِنْكُمْ يَبْعِيدُ) وأما قوم نوح فلم يكن بلغهم هلاك أمة قبلهم. فقال لهم نوح وأعلم من الله ما لا تعلمون من العذاب الذي ينزل بكم. فقالت الكبراء للضعفاء لا تتبعوه. فإن هذا بشر مثلكم فأجابهم نوح فقال ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ﴾ يعني ينزل الكتاب والرسالة على رجل منكم تعرفون حسبه ونسبه «لينذركم» بالنار ولتتقوا الشرك. قال بعضهم: «هذه الواو صلة وهو زيادة في الكلام. ومعناه لينذركم لكي تتقوا. وقال بعضهم هذه واو العطف أي: جاءكم رسول لكي ينذركم ﴿وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ يعني لكي تنجوا من العذاب. قرأ أبو عمرو^(١) أبلغكم بجزم الباء والتخفيف. وقرأ الباقون أبلغكم بالتشديد فيكون فيه معنى المبالغة قوله ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي نوحاً ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ﴾ يعني الذين اتبعوه من المؤمنين في السفينة، والفلك اسم للواحد والجماعة - يعني أنجينا المؤمنين من الغرق ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ عن نزول العذاب ويقال عمين عن الحق يعني جعلوا أمره باطلاً. وقد بين الله قصته في سورة هود قوله عز وجل:

وَالِإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتٍ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأِنَّا بِمَا تَعْبُدُونَ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَدُّونَنِي فِي سَمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْظَرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

(١) انظر حجة القراءات ٢٨٦ - ٢٨٧، وسراج القاري ٢٢٤.

وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

﴿وَالِىَ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ (يعني أرسلنا إلى عاد نبيهم هوداً عطفاً على قوله لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم)^(١) لم يكن هود أخاهم في الدين ولكن كان من نسيهم. قال السدي: كانت عاد قوماً من أهل اليمن^(٢) فأتاهم هود فدعاهم إلى الإيمان وذكرهم ووعظهم فكذبوه. ويقال عاد اسم ملك ينسب القوم كلهم إليه. ويقال اسم القرية ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي وحدوه ﴿مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وقد ذكرناه ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عن الشرك و﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ وقد ذكرناه ﴿إِنَّا نَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ أي جهالة ﴿وَأِنَّا لَنَنظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ بأنك رسول الله ﴿قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾ جهالة ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إليكم ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ يعني كنت فيكم قبل اليوم أميناً فكيف تتهمونني اليوم ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني الرسالة والبيان ﴿على رجل منكم﴾ تعرفون نسبه ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ بالعذاب ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي جعلكم خلفاء في الأرض بعد هلاك قوم نوح ﴿وَرَزَاذَكُمْ فِي الْخَلْقِ بِسُطَّةٍ﴾ أي: فضيلة في الطول على غيركم. والخلفاء والخلائف جمع الخليفة.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو بسطة بالسين.

وقرأ حمزة بإشمام الزاي.

وقرأ الباقون بالصاد قال ابن عباس^(٣) رضي الله عنهما كان أطولهم مائة ذراع وأقصرهم ستين ذراعاً. وروى إبراهيم بن يوسف عن المسيب^(٤) عن الكلبي قال كان طول قوم عاد أطولهم مائة وعشرين ذراعاً وأقصرهم ثمانون ذراعاً. وقال مقاتل^(٥) عن قتادة كان طول كل رجل منهم اثني عشر ذراعاً فذلك قوله (لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ) ويقال كان بين نوح وبين آدم عشرة آباء كلهم على الإسلام. وكان إدريس جد أبي نوح ولم يكن بين آدم ونوح نبي مرسل، وكان إدريس نبياً ولم يؤمر بدعوة الخلق، ويقال أنزل عليه عشرون صحيفة، وقد آمن به كثير من الناس، وكان بين نوح وإبراهيم ألف سنة ويقال: ألفان وأربعون سنة وكان بين إبراهيم وموسى ألف سنة وكان بين موسى وعيسى ألف سنة وبين عيسى ومحمد عليه السلام خمسمائة سنة. وكان هود بين نوح وإبراهيم فلما دعا قومه فكذبوه أنذروهم بالعذاب وقال إن الله تعالى يرسل عليكم الريح فيهلككم بها فاستهزؤوا به وقالوا أي ريح يقدر علينا، فأمر الله تعالى خازن الريح أن يخرج من الريح العقيم التي هي تحت الأرض مقدار ما يخرج من حلقة الخاتم كما قال في آية أخرى (وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ) فجاءتهم وحملت الرجال والدواب كالأوراق في الهواء فأهلكتهم كلهم فلم يبق منهم أحد. كما قال ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَاكِينَهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ وذلك بعد ما أنذروهم وأخذ عليهم الحجة وذكرهم نعم الله تعالى، قال لهم ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ أي: اشكروا نعمة الله قال بعضهم: الآلاء إيصال النعم، والنعماء دفع البلية. وقال بعضهم على ضد هذا، وقال أكثر المفسرين الآلاء والنعماء بمعنى واحد ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ يعني لكي تنجوا من البلايا ومن عذابه.

(١) سقط في ظ.

(٢) انظر تفسير الطبري ٥٠٧/١٢، وتفسير ابن كثير ٤٣١/٣.

(٣) وفي تفسير البغوي عن ابن عباس: ثمانون ذراعاً انظر ١٧٠/٢ وفي القرطبي ما يوافق نقل المصنف رحمه الله عن ابن عباس. انظر ١٥١/٧.

(٤) انظر الخازن ٢٤٨/٢.

(٥) انظر معالم التنزيل للبغوي ١٧٠/٢ ومثله عن قتادة أخرجه عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٩٦/٣.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ قالوا له يا هود أتأمرنا أن نعبد رباً واحداً ﴿وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أي نترك عبادة آلهتنا التي كان يعبدها آبائنا قال لهم هود عليه السلام إن لم تفعلوا ما آمركم يأتيكم العذاب قالوا ﴿فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب أي: بما تخوفنا ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أنك لرسول الله ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رَجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ أي: وجب عليكم عذاب وغضب من ربكم ﴿أَتَجِدُلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ أي: تجعلون قول أنفسكم وقول آبائكم حجة من غير أن يثبت لكم من الله حجة وقد اتخذتم الأصنام بأيديكم وسميتموها آلهة ﴿مَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ يقول ليس لكم علة وعذر وحجة بعبادة الأصنام ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ الهلاك ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ يعني لنزول العذاب بكم لأنهم أرادوا إهلاكه قبل أن يهلكوه قال الله تعالى ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ يعني بنعمة منا عليهم ﴿وَقَطَعْنَا ذَاِبِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: قطع أصلهم واستأصلهم ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ يعني أن الذين أهلكهم الله تعالى كلهم كانوا كافرين. قوله تعالى:

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ تَكْثِيرُ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَتَى صَالِحًا مَرُّ سَلٍّ مِنْ رَبِّهِ ءَقَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحْ أَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاشِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَ ﴿٧٩﴾

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ يعني أرسلنا إلى ثمود نبيهم صالحاً. قال بعضهم ثمود اسم القرية وقال بعضهم ثمود اسم القبيلة وأصله في اللغة الماء القليل. ويقال كانت بئراً بين الشام والحجاز ويقال هي عين يخرج منها ماء قليل في تلك الأرض ويقال لها أرض الحجر كما قال في آية أخرى (وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ) وقال بعضهم كان في تلك القرية أهل تسعمائة بيت وقال بعضهم ألف وخمسمائة فأتاهم صالح ودعاهم إلى الله سنين كثيرة فكذبوه وأرادوا قتله فخرجوا إلى عبد لهم فأتاهم صالح ودعاهم إلى الله تعالى، فقالوا له إن كنت نبياً فأخرج لنا من هذه الصخرة ناقة عَشْرَاء^(١) حتى نؤمن بك ونصدقك فقام صالح وصلى ركعتين ودعا الله تعالى فتحركت الصخرة وانصدعت عن ناقة عَشْرَاء ذات زغب^(٢) فلم يؤمنوا به فولدت الناقة ولداً، وقال بعضهم خرج

(١) وهي التي مضى على حملها عشرة أشهر وقيل ثمانية.

(٢) والزغب شعيرات صفر والمراد هنا من لها وبر ناعم.

ولدها خلفها من الصخرة. فصارت الناقة بلية ومحنة عليهم، وكانت من أعظم الأشياء فتأتي مراعيهم فتنفر منها دوابهم وتأتي العين وتشرب جميع ما فيها من الماء فجعل صالح الماء قسمة بينهم يوماً للناقة ويوماً لأهل القرية. فإذا كان اليوم الذي تشرب الناقة لا يحضر أحد العين وكانوا يحلبونها في ذلك اليوم مقدار ما يكفيهم وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون فاجتمعوا لقتل الناقة فقال لهم صالح لا تفعلوا فإنكم إذا قتلتموها يأتيكم العذاب فجاءوا ووقفوا على طريق الناقة فلما مرت بهم الناقة متوجهة إلى العين رماها واحد منهم يقال له مصدع بن وهر فأصاب السهم رجل الناقة. فلما رجعت الناقة من العين خرج قدار بن سالف وهو أشقى القوم كما قال الله تعالى (إِذْ أَنْبَعَتْ أَشْقَاهَا) فضربها بالسيف ضربة فقتلها وقسموا لحمها على أهل القرية. وروي عن الحسن البصري^(١) رحمة الله عليه أنه قال لما عقرت ثمود الناقة ذهب فصيلها حتى صعد جبلاً وقال ثلاث مرات أين أمي أين أمي أين أمي؟ فأخبر بذلك صالح فقال يأتيكم العذاب بعد ثلاثة أيام فقالوا وما العلامة في ذلك؟ فقال أن تصبحوا في اليوم الأول وجوهكم مصفرة، وفي اليوم الثاني وجوهكم محمرة، وفي اليوم الثالث وجوهكم مسودة، ثم خرج صالح من بين أظهرهم مع من آمن منهم فأصبحوا في اليوم الأول وجعل يقول بعضهم لبعض قد إصفر وجهك وفي اليوم الثاني يقول بعضهم لبعض قد احمر وجهك وفي اليوم الثالث يقول بعضهم لبعض قد أسود وجهك. فأيقنوا جميعاً الهلاك. فجاء جبريل عليه السلام وصاح بهم صيحة واحدة فماتوا كلهم. ويقال قد أتهم النار فأحرقتهم فذلك قوله تعالى ﴿قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي: وحدوا الله ﴿مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ﴾ قد ذكرناه ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يقول قد أتيتكم بعلامة نبوتي وهي الناقة كما قال الله تعالى ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أي: علامة لنبوتي لكي تعتبروا وتوحدوا الله ربكم ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ يقول دعوها ترتع في أرض الحجر ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾ يقول لا تعقروها ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ وهو ما عذبوا به. قوله عز وجل ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ أي: بعد هلاك عاد ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني أنزلكم في أرض الحجر ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ وذلك أنه كانت لهم قصور يسكنون فيها أيام الصيف وقد اتخذوا بيوتاً في الجبل لأيام الشتاء فذكرهم نعمة الله تعالى، فقال اذكروا هذه النعم حيث وفقكم الله حتى اتخذتم القصور في سهل الأرض واتخذتم البيوت في الجبال ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ أي: نعم الله عليكم ﴿وَلَا تَعْسُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي: لا تعملوا في الأرض بالمعاصي. قوله عز وجل ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾. قرأ ابن عامر^(٢) وَقَالَ الْمَلَأُ بِالْوَاوِ. وقرأ الباقون بغير واو. أي: قال الملأ الذين تكبروا عن الإيمان من قومه وهم القادة للذين استضعفوا ﴿لِمَنْ أَمِنْ مِنْهُمْ﴾ بصالح ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ يعني أتصدقون صالحاً بأنه مرسل من ربه إليكم ﴿قَالُوا﴾ يعني المؤمنون ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ أي: مصدقون به ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَتُمْ بِهِ كَاْفِرُونَ﴾ أي: من رسالة صالح ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: عصوا وتركوا أمر ربهم وأبوا عن طاعته، ثم التوحيد. ويقال فيه تقديم ومعناه عتوا عن أمر ربهم وعقروا الناقة. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إنهم عقروا الناقة ليلة الأربعاء في عشية الثلاثاء فأهلكهم الله في يوم السبت، ﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ أَتِنَّا بِمَا تَعِدُنَا﴾ أي: بما تخوفنا به من العذاب ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ يعني إن كنت رسول رب العالمين ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ أي: الزلزلة ويقال صيحة جبريل كما قال في آية أخرى ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ ويقال أخذتهم الزلزلة ثم أخذتهم الصيحة، ويقال النار ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِعِينَ﴾ أي: صاروا في

(١) انظر تفسير الطبري ٥٣٦/١٢، وتفسير ابن كثير ٤٣٨/٣.

(٢) انظر حجة القراءات ٢٨٧.

مدينتهم ومنازلهم ميتين لا يتحركون وأصله من الجثوم^(١) ويقال أصابهم العذاب بكرة يوم الأحد ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ فيه تقديم وتأخير أي: حين كذبه خرج من بين أظهرهم ﴿وَقَالَ يَقُومُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أي: دعوتكم إلى التوبة وحذرتكم العذاب ﴿وَلَكِنْ لَا تُجِبُونَ النَّصِيحِينَ﴾ أي: لا تطيعون الداعين ويقال إنما قال ذلك بعد إهلاكهم قال على وجه الحزن إني قد أبلغتكم الرسالة. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال إن الله تعالى لم يهلك قوماً ما دام الرسول فيهم. فإذا خرج من بين ظهرانيهم أتاهم ما أوعده لهم. وقال في رواية الكلبي لما هلك قوم صالح رجع صالح ومن معه من المؤمنين فسكنوا ديارهم وقال في رواية الضحاك خرج صالح إلى مكة فكان هناك حتى قبضه الله تعالى. قوله عز وجل

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ يعني وأرسلنا لوطاً إلى قومه، ويقال معناه واذكروا لوطاً إذ قال لقومه ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ يعني اللواط ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا﴾ يعني لم يعمل بمثل عملكم ﴿مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قبلكم ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ أي تجمعون الرجال من دون النساء. يعني إن إتيان الرجال أشهى إليكم من إتيان النساء. وقرأ أبو عمرو^(٢) آيَتَكُمْ بالمد بغير همز. وقرأ ابن كثير ونافع إِنْكُمْ بهمزة واحدة بغير مد. وقرأ الباقون بهمزيين بغير مد. ومعنى ذلك كله واحد. وهو الاستفهام. ثم قال ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي: متعدون من الحلال إلى الحرام. ﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ وإنما صار «جواب» نصياً لأنه خبر كان. والاسم هو ما بعده ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ يعني يتقذرون منا ويتنزهون عن فعلنا ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ يعني ابنتيه زعوراء وريثا ﴿إِلَّا أَمْرَأَتَهُ﴾ وهي واعلة ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ يعني من الباقين في الهلاك فيمن أهلكوا ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ يعني الحجارة ويقال أمطر بالعذاب ومطر بالرحمة، ويقال أمطر ومطر بمعنى واحد ﴿فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: كيف كان آخر أمرهم. وقد بين قصته في سورة هود. وقال مجاهد^(٣) لو أن الذي يعمل عمل قوم لوط اغتسل بكل قطرة في السماء وبكل قطرة في الأرض ما زال نجساً إلى يوم القيامة وقد اختلف الناس في حده. قال بعضهم هو كالزاني، فإن كان محصناً يرجم وإن كان غير محصن يجلد. وروي عن الشعبي أنه قال يرجم في الأحوال كلها محصناً كان أو غير محصن. وروي عن علي بن^(٤) أبي طالب رضي الله عنه أنه أتى برجل قد عمل بذلك العمل فأمر بأن يلقى من أشرف البناء منكوساً ثم يتبع بالحجارة لأن الله تعالى ذكر

(١) جثم: لصق بالأرض يجثم الطائر وأصل الجثوم للأرنب انظر لسان العرب ٥٤٥/١.

(٢) انظر حجة القراءات ٢٨٧، سراج القاري ٢٢٤.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٠١/٣، وعزاه لابن أبي الدنيا والبيهقي.

(٤) ذكره السيوطي في الدر ١٠١/٣، وعزاه لابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا والبيهقي.

قتلهم بالحجارة وهو قوله تعالى (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا) أي حجارة، وقال بعضهم يعزر ويحبس حتى تظهر توبته ولا يحسد. وهو قول أبي حنيفة رحمه^(١) الله. ثم قال تعالى

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ تَكْثِيرُ بَيْنِهِ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَنُودِيَ عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُومُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾

﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾ يعني أرسلنا إلى مدين نبيهم شعيباً، ومدين هو آل مدين. وكان مدين ابن

(١) قال سبط ابن الجوزي في إيثار الإنصاف ٢٠٩ اللواط لا يوجب الحد عند أبي حنيفة رحمه الله ولكنه يوجب التعزير والحبس إلى أن يتوب أو يموت. وقالوا: يوجب الحد فإن كانا محصنين رجماً، وإن كانا بكرين جُلْدًا، وهو أحد قولي الشافعي وأحمد. وقال الشافعي في القول الآخر: يقتلان على كل حال محصنين كانا أو غير محصنين له: قوله تعالى: ﴿الزانية والزاني﴾ وهذا ليس بزنى لأنه يصح نفي الزنى عنه يقال: لاط ولا يقال: زنى والدليل عليه: اختلاط الصحابة فإن بعضهم أوجب الحد وبعضهم لم يوجبه، وقول البعض لا يكون إجماعاً.

احتجوا: بقوله - صلى الله عليه وسلم - اقتلوا الفاعل والمفعول به في عمل قوم لوط والواقع على البهيمة ومن وقع على ذات محرم فاقتلوه أخرجهم أحمد ٣٠٠/١. ولأن الصحابة أجمعوا على القتل وإن اختلفوا في كيفيته فمن قاتل: يقتل صبراً، ومن قاتل: يُحْدَحُ الزنى وقال أبو بكر رضي الله عنه: يحرق بالنار. وقال ابن عباس: ينكسان من شاهق ويرجمان بالحجارة، وعلي - رضي الله عنه - رجم لوطياً، فحصل الاتفاق منهم على أصل القتل فقلنا به ورجحنا قول البعض على البعض فيما اختلفوا فيه. انظر إيثار الإنصاف ٢٠٩ - ٢١٠.

إبراهيم خليل الرحمن تزوج ريثاء ابنة لوط فولدت آل مدين فتوالدوا وكثروا ثم صار هو اسماً للمدينة فسميت المدينة مدين وسمي أولئك القوم مدين فكفروا بالله تعالى ونقصوا المكيال والميزان في البيع وأظهروا الخيانة فبعث الله تعالى إليهم شعيباً. وقال الضحّاك: كان شعيب أفضلهم نسباً وأصدقهم حديثاً وأحسنهم وجهاً، ويقال إنه بكى من خشية الله تعالى حتى ذهب بصره فصار أعمى فدعا قومه إلى الله تعالى و﴿قَالَ يَقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي: وحدوه وأطيعوه ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ قال بعضهم مجيء شعيب النبي عليه السلام إليهم آية ولم يكن لشعيب علامة سوى مجيئه وإخباره أن الله تعالى واحد وقال بعضهم كانت له علامة لأن الله تعالى لم يبعث نبياً إلا وقد جعل له علامة ليظهر تصديق مقالته إلا أن الله تعالى لم يبين لنا علامته، وقد بين علامة بعض الأنبياء ولم يبين علامة الجميع ثم قال ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: اتموا الكيل والميزان بالعدل ﴿وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ يقول ولا تنقصوا الناس حقوقهم في البيع والشراء ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ يعني لا تعملوا في الأرض المعاصي بعد ما بين الله تعالى طريق الحق وأمركم بالطاعة ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني وفاء الكيل وترك الفساد في الأرض خير لكم من النقصان والفساد في الأرض إن كنتم مصدقين بما حرم الله تعالى عليكم قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ أي: لا ترصدوا بكل طريق، توعدون أهل الإيمان بالقتل ﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يقول: تمنعون الناس عن دين الإسلام ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبَغَّوْنَهَا عَوْجاً﴾ يقول تريدون بملة الإسلام زيفاً وغيراً. وروي عن ابن أبي نجيج^(٢) عن مجاهد^(٣) في قوله ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ قال بكل سبيل، حتى تصدوا أهلها عنها وتبغونها عوجاً. قال وتلتمسون بها الزيف. ويقال معناه لا تقعدوا على كل طريق تخوفون الناس، وتخوفون أهل الإيمان بشعيب عليه السلام. ثم قال ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَرْتُمْ﴾ أي: كنتم قليلاً في العدد فكثرت عدداًكم. ويقال كنتم فقراء فأغناكم وكثرت أموالكم. ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: كيف صار آخر أمر المكذبين بالرسول. يعني الذين قبلهم، قوم نوح وقوم عاد وقوم هود وقوم صالح. ثم قال ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ يعني إن كان جماعة منكم صدقوا بي ﴿وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ بي أي: لم يصدقوا ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ يعني حتى تنظروا عاقبة المؤمنين أفضل أم عاقبة الكافرين فذلك قوله حتى يحكم الله بيننا. يعني حتى يقضي الله بين المؤمنين وبين الكافرين ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ أي: أعدل العادلين ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ يعني الأشراف والرؤساء الذين تعظموا عن الإيمان من قومه ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُدُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ أي: لتدخلن في ديننا الذي نحن عليه. ويقال هذا الخطاب لقومه الذين آمنوا. لترجعن إلى ديننا كما كنتم. ﴿قَالَ﴾ لهم شعيب ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ يعني أتجبروننا على ذلك؟ قالوا نعم قال لهم شعيب ﴿قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾ يقول قد اختلقنا على الله كذباً إن دخلنا في دينكم ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّسْنَا اللَّهَ مِنْهَا﴾ (يقول إن الله تعالى أكرمنا بالإسلام وأنقذنا من ملتكم)^(٤) يقال معناه كنا كاذبين مثلكم لو دخلنا في دينكم بعد إذ نجانا الله منها. ويقال: أكرمنا الله تعالى بالإسلام ولم يجعلنا من أهل الكفر فأنقذنا وأبعدنا من ملتكم ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ يعني: ما ينبغي لنا وما يجوز لنا أن ندخل في ملتكم إلا أن يشاء الله ﴿رَبَّنَا﴾ دخولنا فيها وأن ينزع المعرفة من قلوبنا ويقال (معناه وما يكون لنا أن

(١) سقط في ظ.

(٢) عبد الله بن أبي نجيج الثقفي، مولاهم، أبو يسار المكي، وثقه أحمد، مات سنة ١٣١ هـ وانظر الخلاصة ١٠٥/٢.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٠٢/٣، وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٤) سقط في ظ.

نعود فيها) إلا أن يكون في علم الله ومشيتته أنا نعود فيها ويقال معناه: إلا أن يشاء الله. يعني لا يشاء الله الكفر مثل قولك لا أكلمك حتى يبيض القار وحتى يشيب الغراب وهذا طريق المعتزلة ثم قال ﴿وسع ربنا كل شيء علماً﴾ يعني: علم ما يكون منا ومن الخلق ﴿على الله توكلنا﴾ أي: فوضنا أمرنا إلى الله. لقولهم لنخرجك يا شعيب ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾ أي: اقض بيننا وبين قومنا بالعدل. وروى قتادة عن ابن عباس^(١) قال: ما كنت أدري ما معنى قوله «ربنا افتح بيننا» حتى سمعت ابنة ذي يزن تقول لعلي بن أبي طالب تعال أفاتحك يعني: أخاصمك وقال القتيبي الفتح أن تفتح شيئاً مغلقاً كقوله (حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها) وسمي القضاء فتحاً لأن القضاء فصل للأمور وفتح لما أشكل منها ﴿وأنت خير الفاتحين﴾ يعني: خير الفاصلين قوله تعالى: ﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه لأن اتبعتم شعيباً﴾ أي: لأن أطعتم شعيباً في دينه ﴿إنكم إذا لخاسرون﴾ يعني: جاهلون فلما وعظهم شعيب ولم يتعظوا أخبرهم أن العذاب نازل بهم فلم يصدقوه فخرج شعيب ومن آمن معه من بين أظهرهم فأصابهم يعني أهل القرية حر شديد فخرجوا من القرية ودخلوا غيضة كانت عند قريتهم وهي الأيكة كما قال الله تعالى في آية أخرى (كذب أصحاب الأيكة المرسلين) فإرسل الله تعالى ناراً فأحرقت الأشجار ومن فيها من الناس ويقال أصابتهم زلزلة فخرجوا فأتتهم نار فأحرقتهم وذلك قوله تعالى ﴿فأخذتهم الرجفة﴾ يعني الزلزلة والحر الشديد فهلكوا واحترقوا ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ يعني صاروا ميتين قوله تعالى: ﴿الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها﴾ يعني كأن لم يكونوا فيها قط وقال قتادة^(٢) كأن لم يغنوا فيها يعني كأن لم يتنعموا فيها ويقال معناه من كان رآهم بعد إهلاكنا إياهم ظن أنه لم يكن هناك أحد يعني لم يعيشوا ويقال: كأن لم يعمرؤا ثم قال ﴿الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين﴾ يعني المغبونين فـ . بعقوبة يعني إنهم كانوا يقولون لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون فصار الذين كذبوا هم الخاسرون لا الذين آمنوا منهم قوله تعالى ﴿فتولى عنهم﴾ يعني أعرض عنهم حين خرج من بين أظهرهم ﴿وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي﴾ في نزول العذاب ﴿ونصحت لكم﴾ وقد ذكرناه ﴿فكيف آسى على قوم كافرين﴾ أي: كيف أحزن بعد النصيحة على قوم إن عذبوا . قوله تعالى:

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾

﴿وما أرسلنا في قرية من نبي﴾ ﴿إلا أخذنا أهلها﴾ ففي الآية مضمرة ومعناه وما أرسلنا في قرية من نبي فكذبوه

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٠٣/٣ وعزه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري في الوقف والابتداء والبيهقي في الأسماء والصفات.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٠٣/٣ وعزه لعبد بن حميد وابن جرير.

إلا أخذنا أهلها^(١) ﴿بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ﴾ يعني عاقبنا أهلها بالخوف والبلاء والقحط والفقر. ويقال البأساء ما يصيبهم من الشدة في أموالهم، والضراء ما يصيبهم في أنفسهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ يعني لكي يتضرعوا، فأدغمت التاء في الضاد وأقيم التشديد مقامه، ومعناه لكي يدعوا ربهم ويؤمنوا بالرسول ويعرفوا ضعف معبودهم قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ يعني: حولنا مكان الشدة الرخاء ومكان الجدوبة الخصب ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ أي: كثروا واستغنوا وكثرت أموالهم فلم يشكروا الله تعالى، ويقال حتى عفو أي: حتى سروا به ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَاءُ وَالسَّرَاءُ﴾ أي: مثل ما أصابنا، مرة يكون الرخاء ومرة يكون الشدة ﴿فَأَخَذْتَهُمْ بَغْتَةً﴾ أي: فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني أنهم العذاب من حيث لم يعلموا به، ويقال إن الشدة للعمة تكون تنبيهاً وزجراً، والنعمة تكون استدراجاً، وأما النعمة للخاصة فهي تنبيه لأنه يعد ذلك عقوبة كما روي أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام إذا رأيت الفقر مقبلاً إليك فقل مرحباً بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغنى مقبلاً إليك فقل ذنب عجلت عقوبته قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ يعني وحدوا الله تعالى واتقوا الشرك ﴿لَفَتَحْنَا^(٢) عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني أنزلنا عليهم من السماء المطر والرزق والنبات من الأرض ﴿وَلَكِنْ كَذَّبُوا﴾ الرسل ﴿فَأَخَذْنَا هُمْ﴾ أي: عاقبناهم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الشرك. ففي الآية دليل على أن الكفاية والسعة في الرزق من السعادة إذا كان المرء شاكراً وتكون عقوبة له إذا لم يكن شاكراً، لأنه قال في آية أخرى (لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة) يعني الغنى يكون وبالاً لمن لا يشكر الله تعالى وعقوبة له ثم قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا﴾ أي: ينزل عليهم عذابنا ليلاً ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ فتحت الواو لأنها واو العطف أدخلت عليها ألف الاستفهام، وكذلك أفامن لأنها فاء العطف دخلت عليها ألف الاستفهام. قرأ نافع وابن كثير^(٣) أو أمن بجزم الواو لأن أصله أو وأمن، وأو حرف من حروف الشك، فأدغم في حرف النسق ﴿أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضَحًى﴾ يعني يأتيتهم عذابنا نهاراً ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يعني لاهون عنه ثم قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ يعني عذاب الله ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ﴾ يعني عذاب الله ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: المغبونون بالعقوبة قوله تعالى:

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْنَشَاءِ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبِيَآهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يُفْرِعُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ

(١) سقط في ظ.

(٢) قرأ ابن عامر (لَفَتَحْنَا) بالتشديد أي مرة بعد مرة. وحجته قوله: بركات من السماء ولم يقل بركة، وقرأ الباقون بالتخفيف أرادوا

الواحد. انظر حجة القراءات ٢٨٨.

(٣) انظر حجة القراءات ٢٨٩، سراج القاري ٢٢٥.

جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنْتَ جِئْتَ بِثَبَاتٍ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظَرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا السَّحَرُ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَا تُوكَ بِكُلِّ سَحَرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ﴾ يعني أولم يبين . قال القتيبي : أصل الهدى الإرشاد كقوله ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي﴾ يعني يرشدني ، ثم يصير الإرشاد لمعان منها إرشاد بيان مثل قوله : ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ﴾ يعني أولم يبين لهم ومنها إرشاد بمعنى بالدعاء كقوله ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ يعني : نبياً يدعوهم وقوله : ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي : يدعون الخلق . وقرأ بعضهم أولم نهدي بالنون يعني أولم نبين لهم الطريق ومن قرأ بالياء معناه أولم يبين الله للذين يرثون الأرض من بعد أهلها يعني : ينزلون الأرض ﴿من بعد﴾ هلاك ﴿أهلها﴾ ويقول : أو نبين لأهل مكة هلاك الأمم الخالية كيف أهلكناهم ولم يقدر مبعودهم على نصرتهم ﴿أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم﴾ يعني أهلكناهم بذنوبهم كما أهلكنا من كان قبلهم عند التكذيب ثم قال ﴿ونطيع على قلوبهم﴾ يعني : نختم على قلوبهم بأعمالهم الخبيثة عقوبة لهم ﴿فهم لا يسمعون﴾ الحق ولا يقبلون المواعظ ثم قال عز وجل ﴿تلك القرى نقص عليك من أنبائها﴾ أي : تلك القرى التي أهلكنا أهلها نخبرك في القرآن من حديثها ﴿ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ يعني بالعلامات الواضحة والبراهين القاطعة التي لو اعتبروا بها لاهتدوا ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل﴾ يعني : إن أهل مكة لم يصدقوا بما كذب به الأمم الخالية . وقال مجاهد^(١) فما كانوا ليؤمنوا بعد العذاب بما كذبوا من قبل ، وهذا مثل قوله تعالى : (ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه) وقال السدي^(٢) فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل أي : يوم الميثاق فما كانوا ليؤمنوا في دار الدنيا بما كذبوا من قبل يوم الميثاق وأقروا به وهو قوله : (ألست بربكم قالوا بلى) ثم في الدنيا ما وجدناهم على ذلك الإقرار^(٣) ويقال : فما كانوا ليؤمنوا عند مجيء الرسل بما كذبوا من قبل مجيء الرسل معناه : أن مجيء الرسل لم ينفعهم ﴿كذلك يطبع الله﴾ يعني : هكذا يختم الله تعالى ﴿على قلوب الكافرين﴾ مجازاة لكفرهم قوله تعالى : ﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد﴾ «من» زيادة للصلة يعني : ما وجدنا لأكثرهم وفاء فيما أمروا به . يعني الذين كذبوا من الأمم الخالية ويقال ما وجدنا لأكثرهم من عهد لأنهم أقروا يوم الميثاق ثم نقضوا العهد حيث كفروا . ويقال : ما وجدنا لأكثرهم من عهد أي : قبول العهد الذي عاهدوا على لسان الرسل ثم قال ﴿وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾ يعني وقد وجدنا أكثرهم لناقضين العهد تاركين لما أمروا به . قوله تعالى : ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى﴾ يعني أرسلنا من بعد الرسل الذين ذكرهم في هذه السورة ويقال ثم بعثنا من

(١) ومثله عن الربيع أخرجه ابن جرير وأبي الشيخ انظر الدر المنثور ١٠٤/٣ .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٠٤/٣ وعزه لابن جرير وابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ .

(٣) زيادة من أ .

بعد هلاكهم موسى وهو موسى بن عمران ﴿بِآيَاتِنَا﴾ يعني : اليد البيضاء والعصا ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ وهو ملك مصر واسمه الوليد بن مصعب وروي عن وهب بن منبه أنه قال كان فرعون في وقت يوسف فعاش إلى وقت موسى عليهما السلام فبعث الله تعالى إليه موسى ليأخذ عليه الحجة وأنكر عليه ذلك عامة المفسرين وقالوا هو كان غيره وكان جباراً ظهر بمصر واستولى عليها وأرسل الله تعالى إليه موسى فذلك قوله تعالى : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ يعني جنوده وأتباعه ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ يعني فجحدوا بالآيات ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ يعني كيف صار آخر أمر المشركين وقال ابن عباس رضي الله عنهما أول الآيات العصا فضرب بها موسى باب فرعون ففزع منها فرعون فشاب رأسه فاستحيا فخضب بالسواد، فأول من خضب بالسواد فرعون، قال ابن عباس كان طول العصا عشرة أذرع على طول موسى وكانت من آس الجنة يضرب بها الأرض فتخرج النبات فلما دخل عليه مع هارون ﴿وَقَالَ﴾ له ﴿مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إليك قال له فرعون كذبت قال موسى ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ قرأ نافع^(١) حقيق على بالتشديد. وقرأ الباقر بتخفيف على . فمن قرأ بالتخفيف فمعناه واجب على أن لا أقول أي : واجب أن أترك القول على الله إلا الحق . ومن قرأ بالتشديد معناه واجب علي ترك القول على الله إلا الحق أي : لا أقول على الله إلا الحق فلما كذبه قال إني لا أقول بغير حجة وبرهان ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني قد جئتكم بعلامة لنبوتي ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ولا تستعبدهم لأن فرعون كان قد استعبد بني إسرائيل واتخذهم في الأعمال سخرة فـ ﴿قَالَ﴾ له فرعون ﴿إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ﴾ أي : بعلامة لنبوتك ﴿فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ بأنك رسول الله ﴿فَالْقَىٰ﴾ موسى ﴿عَصَاهُ﴾ يعني ألقي موسى عصاه من يده ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ وهي أعظم الحيات، ويقال الثعبان الحية الذكر الصفراء الشقراء ويقال صارت حية من أعظم الحيات رأسها مع شرف قصر فرعون ففتحت فاما نحو فرعون وكان فرعون على سريريه فوثب فرعون عن سريريه وهرب منها وهرب الناس وصاحوا إلى موسى ونادى فرعون يا موسى خذها عني فأخذها فإذا هي عصا بيضاء بيده كما كانت وجعل الناس يضحكون مما يصنع موسى ومعنى قوله ثعبان مبين يعني : أنها حية تسعى لا لبس فيها فقال له فرعون، هل معك غير هذا؟ فقال : نعم ﴿وَوَزَعَ يَدَهُ﴾ يعني : أخرج يده، أخرجها من جيبه كما قال في آية أخرى : ﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ﴾ يعني : من غير برص ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ يعني لها شعاع غلب على نور الشمس، ومعنى قوله للنظرين يعني يتعجب ويتحير منها الناظرون . ويقال إن البياض من غير برص لأن الناس يكرهون النظر إلى الأبرص فأخبر أن^(٢) ذلك بياض ينظرون إليه من غير سوء ثم أدخل يده في جيبه وأخرجها فصارت كما كانت ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ يعني : الأشراف والرؤساء قال مقاتل إن فرعون قال بهذه المقالة فصدقه قومه كما قال في سورة الشعراء (قال للملأ حوله أن هذا لساحر عليم) يعني حاذق بالسحر ثم قال لقومه ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ تصديقاً لقوله ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ بسحره يعني من أرض مصر فقال لهم فرعون ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ يعني : أي فماذا تشيرون في أمره؟ ويقال إن بعضهم قال لبعض فماذا تأمرون؟ أي : ماذا ترون في أمره ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ يعني احبسهما ولا تقتلها، وأصله في اللغة التأخير أي : أخر أمرهما حتى تجتمع السحرة فيغلبوهما فإنك إن قتلتها قبل أن يظهر حالهما يظن الناس أنهما صادقان فإذا تبين كذبهما عند الناس فاقتلها حينئذ . فذلك قوله (أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ) أي ابعث ﴿فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ يعني الشرط يحشرون الناس إليك أي ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ أي حاذق بالسحر قرأ ابن كثير^(٣)

(٢) سقط في ظ .

(١) انظر حجة القراءات ٢٨٩ ، سراج القاري ٢٢٥ .

(٣) انظر حجة القراءات ٢٨٩ - ٢٩٠ ، ٢٩١ .

أرجئوها بالهمزة والواو بعد الهاء. وقرأ الكسائي أرجهي إلا أنه يكسر الهاء ولا يتبع الياء. وقرأ أبو عمر وعاصم في رواية أبي بكر وابن عامر في إحدى الروايتين أرجئه بالهمزة بغير مد والضممة وهذه اللغات كلها مروية عن العرب وقرأ حمزة وعاصم في رواية أبي بكر والكسائي بكل سَحَارٍ^(١) عليم على وجه المبالغة في السحر وقرأ الباقون بكل ساحر وهكذا في يونس واتفقوا في الشعراء. قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ يعني قالوا لفرعون أتعطينا جعلاً ومالاً ﴿إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ لموسى ﴿قَالَ﴾ لهم فرعون ﴿نَعَمْ﴾ لكم الجعل ﴿وَأَنْتُمْ لِمَنْ الْمُقَرَّبِينَ﴾ يعني لكم المنزلة به سوى العطية، يعني إنكم تكونون أول من يدخل علي بالسلام. قرأ^(٢) أبو عمرو وآين لَنَا لأَجْرًا بمد الألف. وقرأ عاصم في رواية حفص إن بهمزة واحدة بغير ياء وقرأ الباقون بهمزتين^(٣) وقرأ ابن كثير ونافع إن لَنَا بهمزة واحدة بغير ياء وقرأ عاصم وحمزة والكسائي أثن لنا بهمزتين فلما اجتمع السحرة وغدوا للخروج يوماً، وأعلن الناس بخروجهم ليجتمعوا عند سحرهم كما قال في آية أخرى ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ أي: يوم عيد كان لهم ويقال يوم النيروز فلما اجتمعت السحرة ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ يعني إما أن تطرح عصاك على الأرض وإما أن نكون نحن الملقيين قبلك ﴿قَالَ﴾ لهم موسى ﴿أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾ يعني السحرة ألقوا الحبال والعصى ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ أي أخذوا أعينهم بالسحر ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ يعني طلبوا رهبتهم حتى رهبهم الناس. قال الكلبي: كانت السحرة سبعين فآلقوا سبعين عصا وسبعين حبالاً. وقال بعضهم كانوا اثنين وسبعين حبالاً. وروى أسباط عن السدي^(٤) قال قال ابن عباس^(٥) كانوا بضعا وثلاثين ألفاً. وقال محمد بن إسحاق^(٦) كانوا ألف رجل وخمسمائة رجل ومع كل واحد منهم عصا. وقد كانوا خاطوا الحبال^(٧) وجعلوها مموهة بالرصاص وحشوها بالزئبق حتى إذا ألقوها تحركت كأنها حيات لأن الزئبق لا يستقر في مكان واحد. فلما طلعت عليه الشمس صارت شبيهاً بالحيات فنظر موسى، فإذا الوادي قد امتلأ بالحيات. فدخل فيه الخوف ونظر الناس إلى ذلك فخافوا من كثرة الحيات فذلك قوله «واسترهبوه» يعني أفرعوه وأخافوه ﴿وَجَاؤُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ يعني بسحر تام ويقال وجاءوا بسحر عظيم يعني بقول عظيم حيث قالوا (بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ) ويقال وجاءوا بكذب عظيم حيث قالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون. قال الله تعالى:

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَّ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَا لَكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَدِينٍ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا أَمَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ أَمْ أَنْتُمْ بِهٖ قَبْلَ أَنْ أَدْنٰ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا الْمَكْرُ مَكْرُتُمْ هٗ فِي الْمَدِينَةِ لِنُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأُسَبِّحَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا نُنْقِمْ مِنَّا إِلَّا أَنْتَ أَمْ نَبَايَتِ رَبَّنَا لَمَّا جَاءَنَا

(١) انظر سراج القاري ٢٢٥، حجة القراءات ٢٩١.

(٢) حجة القراءات ٢٩٢.

(٣) سقط من أ.

(٤) ذكره السيوطي في الدر ١٠٦/٣ وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٥) وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن ابن عباس قال: كانت السحرة سبعين رجلاً أصبحوا

سحرة وأمسوا شهداء. انظر الدر المنثور ١٠٦/٣.

(٦) أخرج الطبري عن محمد بن إسحاق خمسة عشر ألف ساحر انظر تفسير الطبري ٢٨/١٣ ومثله في تفسير القرطبي ١٦٥/٧.

(٧) في أ [التياب].

رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقِيلُ آثَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١١٧﴾

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ يعني اطرح عصاك إلى الأرض . فألقى عصاه من يده فصارت حية أعظم من جميع حياتهم ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ يعني تلتقم وتأكل جميع ما جاءوا به من الكذب والسحر . قرأ عاصم^(١) في رواية حفص «تَلْقَفُ» بجزم اللام والتخفيف وقرأ الباقون^(٢) بنصب اللام وتشديد القاف، ومعناها واحد . ثم إن الحية قصدت إلى فرعون فنادى موسى . فأخذها فإذا هي عصا على حالها، فنظرت السحرة فإذا حبالهم وعصيتهم قد ذهبت ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ أي : استبان الحق وظهر أنه ليس بسحر ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من السحر، أي : ذهب وهلك واضمحل ﴿فَعُغِلُوا هُنَالِكَ﴾ أي : وغلب موسى السحرة عند ذلك ﴿وَانْقَلَبُوا صَاحِرِينَ﴾ يعني : رجعوا ذليلين . قالوا لو كان هذا سحراً فأين صارت حبالنا وعصينا؟ ولو كانت سحراً لبقيت حبالنا وعصينا، وهذا من الله تعالى وليس بسحر فآمنوا بموسى ، قوله تعالى : ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ يعني خروا ساجدين لله تعالى قال الأخفش من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا ويقال وفقهم الله تعالى للسجود ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فقال لهم فرعون إياي تعنون؟ فأراد أن يلبس على قومه فقالوا ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ فقدم فرعون لما سألهم لأن بعض الناس كانوا يظنون عند مقاتلتهم رب العالمين أنهم أرادوا به فرعون، فلما سألهم فرعون وقالوا برب موسى وهارون ظهر عند جميع الناس أنهم لم يريدوا به فرعون، وإنما أرادوا به الإيمان بموسى و برب العالمين ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ﴾ يعني : صدقتم بموسى ﴿قَبْلَ أَنْ أَدْنَى لَكُمْ﴾ يعني قبل أن آمركم بالإيمان بموسى . قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر^(٣) آمَنْتُمْ بالمد وقرأ الباقون بغير مد بهمزيين ومعناها واحد ويكون استفهاماً . إلا عاصم في رواية حفص^(٤) قرأ آمَنْتُمْ بهمزة واحدة بغير مد على وجه الخبر ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ يعني صنفاً صنعتموه فيما بينكم وبين موسى في المدينة ﴿لَتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ يعني إنكم أردتم أن تخرجوا الناس من مصر بسحركم ، ثم قال لهم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يعني : تعلمون ماذا أفعل بكم . ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ يعني اليد اليمنى والرجل اليسرى ﴿ثُمَّ لَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ على شاطئ نهر مصر ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ أي لا نبالي من عقوبتك وفعلك فإن مرجعنا إلى الله تعالى يوم القيامة .

قال تعالى : ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا﴾ يعني وما تعيب علينا وما تنكر منا إلا إيماننا بالله تعالى . ويقال وما نقمتك علينا ولم يكن منا ذنب ﴿إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتَنَا﴾ يعني لما ظهر عندنا أنه حق . ثم سألوا الله تعالى الصبر على ما يصيبهم لكي لا يرجعوا عن دينهم فقالوا ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ يعني أنزل علينا صبراً عند القطع والصلب ومعناه ارزقنا الصبر وثبت قلوبنا حتى لا نرجع كفاراً ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ على دين موسى . وروي عن عبيد الله^(٥) بن

(١) انظر حجة القراءات ٢٩٢ .

(٢) وقرأ البزي (فإذا هي تلتقف) بتشديد التاء أراد (تلتقف) فأدغم التاء في التاء وكذلك في سورة طه (وألقي ما في يمينك تلتقف ما صنعوا) انظر المصدر السابق .

(٣) انظر حجة القراءات ٢٩٣ . (٤) سقط في ط .

(٥) تقدم مثله من كلام ابن عباس رضي الله عنه وأخرج مثله أيضاً من كلام قتادة رضي الله عنه وابن جرير الطبري وعن ابن حميد كذا في الدر المنثور ١٠٧/٣ وانظر البحر المحيط ٣٦٤/٤ وأثر عبيد بن عمير انظره ٣٦/١٣ وفي تفسير ابن كثير ٤٥٥/٣ .

عمير أنه قال كانت السحرة أول النهار كفاراً فجرة وآخر النهار شهداء بررة. وقال بعض الحكماء إن سحرة فرعون كانوا كفروا خمسين سنة فغفر لهم بإقرار واحد وبسجدة واحدة فكيف بالذي أقر وسجد خمسين سنة كيف لا يرجو رحمته ومغفرته. قوله تعالى ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني إن السحرة قد آمنوا به فلو تركتهما يؤمن بهما جميع أهل مصر فيفسدوا في الأرض يعني موسى وقومه ويغيروا عليك دينك في أرض مصر ﴿وَيَذَرُكَ وَالْهَتَكَ﴾ وذلك أن فرعون كان قد جعل لقومه أصناماً يعبدونها، وكان يقول لهم هؤلاء أربابكم الصغار وأنا ربكم الأعلى. فذلك قوله تعالى ﴿وَيَذَرُكَ وَالْهَتَكَ﴾ يعني يدعك ويدع أصنامك التي أمرت بعبادتها.

وروي عن عمرو بن دينار عن ابن عباس^(١) أنه كان يقرأ «وَيَذَرُكَ وَإِلَّا هَتَكَ» يعني عبادتك وتعبدك. قال ابن عباس كان فرعون يُعْبَدُ ولا يُعْبَدُ ويقال معنى قوله «أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ» يعني يغلبوا عليكم ويقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم كما فعلتم بهم، كما قال في آية أخرى ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ فقال لهم فرعون ﴿سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ لأنهم قد كانوا تركوا قتل الأبناء فأمرهم أن يرجعوا إلى ذلك الفعل. قرأ ابن كثير ونافع^(٢) سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ بجزم القاف والتخفيف. وقرأ الباقون بالتشديد على معنى التكثير والمبالغة في القتل. ثم قال ﴿وَإِنَّا قَافِرُونَ﴾ أي مسلطون. فشكت بنو إسرائيل إلى موسى:

قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ
أَنْ يَهْلِكَ عِدْوَكُمْ وَيَسْتَخْلَفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ
أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالْسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ
قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾ يعني سلوا الله التوفيق ﴿وَاصْبِرُوا﴾ يعني اصبروا على أذاهم حتى يأتيكم الفرج ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ يعني أرض مصر ينزلها من يشاء من عباده ويقال الجنة. قرأ عاصم في رواية حفص يُورِثُهَا بالتشديد.

وقرأ الباقون بالتخفيف وهما لغتان ورث وأورث بمعنى واحد. ثم قال ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: الذين يعملون في طاعة الله تعالى على نور من الله، مخافة عقاب الله ورجاء ثواب الله تعالى، أي: آخر الأمر لهم. وروي في الخبر أن مسيلمة الكذاب كتب إلى النبي عليه السلام كتاباً: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله صلى

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٠٧/٣ وعزه للفرابي وعبد بن حميد وأبي عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف وأبي الشيخ من طرق. وأخرج أيضاً ابن الأنباري عن الضحاك مثله.

(٢) انظر حجة القراءات ٢٩٤، سراج القاري ٢٢٦.

الله عليه وسلم: أما بعد فإن الأرض بيني وبينك نصفان إلا أن العرب قوم يظلمون الناس فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب: أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين^(١). قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا﴾ يعني إن قوم موسى قالوا لموسى إنهم قد عذبوا قبل أن تأتينا بالرسالة ﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ لأن قوم فرعون كانوا يكلفون بني إسرائيل من العمل ما لا يطيقون وكان آل فرعون لا يعرفون شيئاً من الأعمال. وكان بنو إسرائيل حذاقاً في الأشياء والأعمال. فكانوا يأمرونهم بالعمل ولا يعطونهم الأجر، ﴿فَقَالَ﴾ لهم موسى ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ يعني فرعون وقومه ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يجعلكم سكاناً في أرض مصر. من بعد هلاكهم. يعني من بعد هلاك فرعون وقومه ﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ يعني يتليكم بالنعمة كما ابتلاكم بالشدة فيظهر عملكم في حال اليسر والشدة لأنه قد وعد لهم بقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ ويقال فينظر كيف تعملون من بعده. يعني من بعد انطلاق موسى إلى الجبل، فعبدوا العجل. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ أي: بالجوع والقحط ﴿وَنَقَصَ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ أي: يتعظون ويؤمنون فلم يتعظوا. قال الله تعالى ﴿فَإِذَا جَاءَهُمُ الْحَسَنَةُ﴾ يعني الخير والخصب والرخاء ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ يعني: نحن أهل لهذه الحسنة وأحق بها ﴿وَإِنْ تَصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ يعني القحط والبلاء والشدة ﴿يَطِّيرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ وأصله يطيطروا فادغمت التاء في الطاء، كقوله يذكرون أي: يتشاءمون بموسى ومن معه على دينه قال الله تعالى ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يعني إن الذي أصابهم من عند الله وبفعلهم، ويقال: إنما الشؤم الذي يلحقهم هو الذي وعدوا به في الآخرة لا ما ينالهم في الدنيا ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه من الله تعالى ولا يعلمون ما عليهم في الآخرة. قوله تعالى:

وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَخْنُكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا لِمُوسَى اادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلَغُوهُ إِذَا هُم يَكْفُرُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ غَرْقَهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ﴾ يقول متى ما تأتينا، ويقال كلما تأتينا، وروي عن الخليل^(٢) أنه قال مهما تأتينا

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في التاريخ ١٤٦/٣ كتاب مسيلمة الكذاب إلى - سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والجواب عنه.

وذكره ابن هشام في السيرة ٣٤٢/٢.

(٢) انظر تأويل مشكل القرآن ٤٠٥.

أصلها الشرطية أدخلت معها ما الزائدة كقوله متى ما تأتني آتكَ، وما زائدة، فكأنه قال ما تأتينا به . فأبدلوا الهاء من الألف وهكذا قال الزجاج ﴿بِهِ مِنْ آيَةٍ﴾ يعني بشيء من آية ﴿لِتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ يعني لتأخذ أعيننا بها ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يعني بمصدقين بأنك مبعوث رسول الله، فغضب موسى عند ذلك فدعا عليهم قال الله تعالى : ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ وهو المطر الدائم من السبت إلى السبت حتى خربت بنيانهم وانقطعت السبل، وكادت أن تصير مصر بحراً واحداً . فخافوا الفرق فاستغاثوا بموسى فأرسلوا إليه . اكشف عنا العذاب نؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا موسى ربه فكشف عنهم المطر، وأرسل الله عليهم الريح فجففت الأرض فخرج من النبات شيء لم يروا مثله بمصر قط، قالوا هذا الذي جزعنا منه خير لنا ولكننا لم نشعر به فلا والله لا نؤمن بك ولا نرسل معك بني إسرائيل فنقضوا العهد وعصوا ربه . فمكثوا شهراً فدعا عليهم موسى فأرسل الله تعالى عليهم الجراد مثل الليل فكانوا لا يرون الأرض ولا السماء من كثرتها فأكل كل شيء أنبتته الأرض فاستغاثوا بموسى ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ يعني يا أيها العالم سل لنا ربك ليكشف عنا العذاب ونؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا موسى ربه فأرسل الله تعالى ريحاً فاحتملت الجراد وألقته في البحر . فلم يبق في أرض مصر جرادة واحدة، فقال لهم فرعون انظروا هل بقي شيء فنظروا فإذا هو قد بقي لهم بقية من كلثهم وزرعهم ما يكفيهم عامهم ذلك، قالوا قد بقي لنا ما فيه بلغتنا هذه السنة . فقالوا يا موسى لا والله لا نؤمن بك ولا نرسل معك بني إسرائيل، فمكثوا شهراً ثم دعا عليهم فأرسل الله تعالى عليهم القُمَّل . قال قتادة^(١) : القمل أولاد الجرادة التي لا تطير، وهكذا قال السدي، وذكر عن أبي عبيدة أنه قال : القمل عند العرب «الحمنان» وهو^(٢) ضرب من القردان، فلم يبق من الأرض عود أخضر إلا أكلته . فأتاهم منه مثل السيل على وجه الأرض فأكل كل شيء في أرض مصر من نبات الأرض أو ثمر . فصاحوا إلى موسى واستغاثوا به وقالوا ادع لنا ربك هذه المرة يكشف عنا العذاب ونحن نطيعك ونعطيك عهداً وموثقاً لنؤمن بك ولنرسلن معك بني إسرائيل، فدعا موسى ربه فأرسل الله تعالى ريحاً حارة فأحرقت فلم يبق منه شيء وحملته الريح فألقته في البحر . فقال لهم موسى أرسلوا معي بني إسرائيل . فقالوا له قد ذهب الأنزال كلها فأيش تفعل بعد هذا؟ فعلى أي شيء نؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل . اذهب فما استطعت أن تضر بنا فافعل . فمكثوا شهراً فدعا الله تعالى عليهم موسى فأرسل الله تعالى عليهم آية وهي الضفادع فخرجوا من البحر مثل الليل الدامس فغشوا أهل مصر ودخلوا البيوت ووقفوا على ثيابهم وسررهم وفرشهم، وكان الرجل منهم يستيقظ بالليل فيجد فراشه وقد امتلأ من الضفادع (فكان الرجل يكلم صاحبه في الطريق يجعل فمه في أذنه ليسمع كلامه من كثرة نعيق الضفادع) فضاق الأمر عليهم فصاحوا إلى موسى فقالوا يا موسى لئن رفعت عنا هذه الضفادع لنؤمنن بك ولنرسلن معك بني إسرائيل فدعا لهم موسى ربه فأذهب الله تعالى عنهم الضفادع . فقال لهم موسى أرسلوا معي بني إسرائيل فقالوا نعم أخرج بهم ولا تخرج معهم شيء^(٣) من مواشيهم وأموالهم . فقال لهم موسى : إن الله أمرني أن أخرج بهم ولا أخلف من أموالهم ومواشيهم شيئاً . فقالوا والله لا نؤمن بك ولا نرسل معك بني إسرائيل . فمكثوا شهراً فدعا عليهم . فأرسل الله تعالى عليهم الدم فجرت أنهارهم دماء فلم يكونوا يقدرون على الماء العذب ولا غيره، وبنو إسرائيل في الماء العذب وكلما دخل رجل من آل فرعون ليستقي من أنهار بني إسرائيل قلما دخل فيه

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور عن أبي صخر وعزاه لابن أبي حاتم انظر الدر المنثور ٣/ ١١٠ وانظر تفسير الطبري ١٣/ ٥٤، ٥٥ وابن كثير ٤٦١/ ٣ .

(٢) وواحدتها (حمنانة وانظر قول أبي عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٢٢٦، وانظر تفسير الطبري ١٣/ ٥٦ ولسان العرب (قمل) .

(٣) سقط في ظ .

صار الماء دماً من بين يديه ومن خلفه. فركب فرعون وأشراف أصحابه حتى أتوا أنهار بني إسرائيل فإذا هي عذبة صافية فجعل فرعون يدخل الرجل منهم فإذا دخل واغترف صار الماء في يده دماً فمكثوا كذلك سبعة أيام لا يشربون إلا الدم فمات كثير منهم في ذلك فاستغاثوا بموسى فقال فرعون أقسم بإهلك يا موسى لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن بك ولنرسلن معك بني إسرائيل فدعا موسى ربه فأذهب الله عنهم الدم وعذب ماؤهم وصفي. فعادوا إلى كفرهم فذلك قوله تعالى ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾ يعني متتابعات. قال الحسن وسعيد بن جبير وغيرهما قالوا مما كانوا يعافون بين كل آيتين شهراً، فإذا جاءت الآية قامت عليهم سبعة من السبت إلى السبت^(١). وروي عن مجاهد^(٢) أنه قال: الطوفان المطر الكثير. وقوله آيات صارت نصباً للحال. وقوله تعالى ﴿فَأَسْتَكْبَرُوا﴾ يعني تعظموا عن الإيمان ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ يعني أقاموا على كفرهم. قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ يعني وجب عليهم العذاب وحل بهم ﴿قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ يعني سل لنا ربك ﴿بِمَا عٰهَدَ عِنْدَكَ﴾ أي بما أمرك ربك أن تدعو الله^(٣) ويقال بالعهد الذي سأل ربك ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ﴾ أي: رفعت عنا العذاب ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ يعني لنصدقنك ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾ قال الله تعالى ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ﴾ يعني العذاب ﴿إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغَوَةِ﴾ يعني إلى وقت الغرق، ويقال إلى بقية آجالهم ﴿إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ يعني ينقضون العهد الذي عاهدوا عليه مع موسى. قال الله تعالى ﴿فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ يعني في البحر. بلسان العبرانية وذلك أن الله تعالى أمر موسى بأن يخرج بني إسرائيل من أرض مصر ليلاً. فاستعارت نسوة بني إسرائيل من نساء آل فرعون حليهن وثيابهن وقلن إن لنا خروجا، فخرج موسى ببني إسرائيل في أول الليل وهم ستمائة ألف من رجل وامرأة وصبي، فذكر ذلك لفرعون فتهايا للخروج إليهم. فلما كان وقت الصبح ركب فرعون ومعه ألف ألف رجل ومثا ألف رجل فأدركهم حين طلعت الشمس، وانتهى موسى إلى البحر، فضرب البحر فانفلق له اثنا عشر طريقاً، وكانت بنو إسرائيل اثني عشر سبطاً فعب كل سبط في طريق، وأقبل فرعون ومن معه حتى انتهوا إلى حيث عبر موسى. فدخلوا تلك الطريق في طلبهم، فلما دخل آخرهم وهم أولهم أن يخرج أمر الله تعالى أن ينطبق عليهم فغرقهم فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني الآيات التسع وهي اليد والعصا والسنون ونقص من الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ يعني معرضين فلم يفكروا ولم يعتبروا بها. حتى رجع موسى ببني إسرائيل فسكنوا أرض مصر فذلك قوله ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ﴾ يعني بني إسرائيل ﴿الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ﴾ أي الأرض المقدسة ﴿وَمَغَارِبَهَا﴾ يعني الأردن وفلسطين. ويقال مشارق الأرض يعني الشام. ومغاربها ﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ يعني بالبركة، الماء والثمار الكثيرة ﴿وَوَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى﴾ يقول وجبت نصرة ربك بالإحسان ﴿عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾ قال مجاهد^(٤) هو ظهور قوم موسى على فرعون وتمكين الله لهم في الأرض. وقال مقاتل: يعني بالكلمة التي ذكرها في سورة القصص ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ وقال الكلبي: وتمت كلمة ربك يعني نعمة ربك الحسنى يعني أنهم يجزون

(١) انظر معالم التنزيل للبيغوي ١٩١/٢، والدر المنثور ١١١/٣.

(٢) سقط من أ.

(٣) انظر معالم التنزيل للبيغوي ١٩١/٢.

(٤) أخرجه الطبري في التفسير عن ابن أبي نجيح ٧٨/١٣ وعنده وغيره عن مجاهد (تمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا) وهي قوله تعالى (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين...) انظر تفسير الطبري ٧٦/١٣ - ٧٧ وتفسير ابن كثير ٤٦٤/٣.

الحسنى الجنة ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ ولم يدخلوا في دين فرعون. ويقال وتمت كلمة ربك. أي: ما وعدهم الله من إهلاك عدوهم واستخلافهم في الأرض ثم قال ﴿وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ يعني أهلكنا ما كان يعمل فرعون وأبطلنا كيده ومكره ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ يعني أهلكنا ما كانوا يبنون من البيوت والكروم.

وقرأ ابن عامر وعاصم في رواية أبي (١) بكر يَعْرِشُونَ بضم الراء.

وقرء الباقر بالكسر ومعناها واحد. قوله تعالى:

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ يقول مروا (٢) على قوم يعني يعبدون الأصنام ويقومون على عبادتها، وكل من يلزم شيئاً ويواظب عليه يقال عكفه، ولهذا سمي الملازم للمسجد معتكفاً. ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾ قال الجهال من بني إسرائيل لموسى اجعل لنا إلهاً نعبده ﴿كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ يعبدونها. ﴿قَالَ﴾ لهم موسى ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ يعني تكلمتم بغير علم وعقل وجهلتم الأمر قوله تعالى ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ﴾ يعني مهلك مفسد ما هم فيه من عبادة الأصنام ﴿وَبَاطِلٌ﴾ يعني ضلال ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ والتبار الهلاك. كقوله تعالى ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ أي هلاكاً. ثم ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا﴾ يعني أسوى الله أمركم أن تعبدوا وتتخذوا إلهاً ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ يعني: على عالمي زمانكم يعني أنه قد أحسن إليكم فلا تعرفون إحسانه وتطلبون عبادة غيره، وهم الذين كانوا أجابوا السامري حين دعاهم إلى عبادة العجل بعد انطلاق موسى إلى الجبل. ثم ذكر النعم فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ﴾ (من آل فرعون يعني اذكروا حين أنجاكم الله من آل فرعون وقرأ الباقر وإذ أنجيناكم) (٣). قرأ ابن عامر (٤) ﴿وَإِذْ أَنْجَاكُمْ﴾ يعني اذكروا حين أنجاكم الله ﴿مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ وقرأ الباقر وإذ أنجيناكم. ومعناه مثل ذلك ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ يعني: يعذبونكم بأشد العذاب. ﴿يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ يعني: يستخدمون نساءكم ﴿وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي: الإنجاء نعمة من ربكم عظيمة ويقال في قتل الأبناء واستخدام النساء بلية من ربكم عظيمة.

قرأ نافع (٥) يَقْتُلُونَ أبناءكم بنصب الباء مع التخفيف.

وقرأ الباقر بضم الباء وكسر التاء مع التشديد (يُقْتُلُونَ) على معنى التكثير.

(١) انظر حجة القراءات ٣٩٤، سراج القاري ٢٢٦.

(٢) قرأ حمزة والكسائي (يعكفون) بكسر الكاف. وقرأ الباقر بالضم وهما لغتان: تقول عكف يعكف ويعكف وكذلك عرش يعرش ويعرش. انظر حجة القراءات ٢٩٤.

(٣) سقط في ظ. (٤) انظر حجة القراءات ٢٩٤، سراج القاري ٢٢٦. (٥) انظر المصدرين السابقين.

وقرأ حمزة والكسائي^(١) «يَعْكُفُونَ» بكسر الكاف .

وقرأ الباقون بالضم (يَعْكُفُونَ) . قوله تعالى :

وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَنَمَّ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثَبَّتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَمُوسَى إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَاءً آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ قرأ أبو عمرو ووَاعَدْنَا بغير ألف . والباقون بالالف . ومعناها واحد ﴿وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾ يعني : ثلاثين من ذي القعدة وعشر من ذي الحجة . ويقال ثلاثين من ذي الحجة وعشر من المحرم ، والمناجاة في يوم عاشوراء ، وكانت المواعدة ثلاثين يوماً وأمر بأن يصوم ثلاثين يوماً ، فلما صام ثلاثين يوماً أنكر خلوف فمه فاستاك عود خرنوب وقيل بورقة موز . فقالت له الملائكة كنا نجد من فيك ريح المسك فأفسدته بالسواك ، فأمر بأن يصوم عشراً آخر فصارت الجملة أربعين يوماً كما قال في آية أخرى (وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً) يعني صارت في الجملة أربعين ولكن مرة ثلاثين يوماً ومرة عشرة ﴿فَنَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ يعني ميعاد ربه أربعين ليلة يعني ميعاد ربه ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي﴾ يعني : قال له قبل انطلاقه إلى الجبل اخلفني ﴿فِي قَوْمِي﴾ أي : كن خليفتي على قومي ﴿وَأَصْلِحْ﴾ يعني : مرهم بالصلاح . ويقال وأصلح بينهم ويقال ارفق لهم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي ؛ ولا تتبع سبيل أي : طريق العاصين ولا ترضى به واتبع سبيل المطيعين . وقال بعض الحكماء من ههنا ترك قومه عبادة الله وعبدوا العجل لأنه سلمهم إلى هارون ولم يسلمهم إلى ربههم ، ولهذا لم يستخلف النبي بعده وسلم أمر أمته إلى الله تعالى فاختار الله لأمته أفضل الناس بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه فأصلح بينهم . قوله تعالى ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ يعني : لميعادنا لتمام أربعين يوماً ، ويقال لميقاتنا أي : للوقت الذي وقتنا له ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ فسمع موسى كلام الله تعالى بغير وحي فاشتاق إلى رؤيته ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ انظر صار جزءاً لأنه جواب الأمر ﴿قَالَ﴾ له ربه ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ يعني إنك لن تراني في الدنيا ﴿وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ يعني انظر إلى أعظم جبل بمدين ﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ يعني سوف تقدر أن تراني إن استقر الجبل مكانه معناه : كما أن الجبل لا يستقر لرؤيتي فإنك لن تطيق رؤيتي ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ قال الضحاك . ألقى عليه من نوره فاضطرب الجبل من هيئته . يعني من رهبة الله تعالى . وقال القتيبي تجلى ربه للجبل . أي ظهر وأظهر من أمره ما شاء . يقال جلوت المرأة والسيف إذا أبرزته من الصدا وكشف عنه ، وجلوت العروس إذا أبرزتها . فلما تجلى ربه للجبل أي : جبل زبير ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ . قرأ حمزة والكسائي^(٢) جعله دكاء بالهمز يعني جعله أرضاً دكاء . وقرأ الباقون دكاً بالتثنية . يعني دكاً قال

(٢) انظر حجة القراءات ٢٩٥ ، سراج القاري ٢٢٦ .

(١) تقدم في الحاشية .

بعضهم صار الجبل قطعاً فصار على ثمان قطع فوقع ثلاث بمكة وثلاث بالمدينة واثنان بالشام. ويقال صار ستة فرق، ويقال صار أربع فرق، ويقال صار كله رملاً عالجاً، أي ليناً. وروى عكرمة عن ابن عباس^(١) أنه قال جعله دكاً أي تراباً وقال القتيبي جعله دكاً أي ألصقه بالأرض ويقال ناقة دكاء إذا لم يكن لها اسنام^(٢) أي تراباً. وروى عن وهب بن منبه^(٣) أنه قال: لما سأل موسى النظر إلى ربه أمر الله الضباب والصواعق والظلمات والرعد والبرق فهبطن حتى أحطن بالجبل، وأمر الله تعالى ملائكة السموات فهبطوا وارتعدت فرائص^(٤) موسى وتغير لونه. فقال له جبريل: اصبر لما سألت ربك فإنما رأيت قليلاً من كثير، فلما غشي الجبل النور حمد كل شيء وانقطعت أصوات الملائكة وأنهار الجبل من خشية الله تعالى حتى صار دكاً قوله تعالى ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعْقاً﴾ قال مقاتل يعني ميتاً. كقوله عز وجل: ﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾ يعني مات، ويقال وخر موسى صعقاً أي: مغشياً عليه ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ من غشيانه، قال مقاتل رد الله حياته إليه ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ أي تنزيهاً لك ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من قولي ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ روى الربيع بن أنس عن أبي العالية قال: قد كان قبله من المؤمنين. ولكن يقول أول من آمن بأنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة^(٥). وقال مقاتل أول المؤمنين بأنك لا ترى في الدنيا. وقال القتيبي أراد به في زمانه كقوله ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ويقال معناه ثبت إليك بأن لا أسالك بعد هذا سؤالاً محالاً فاعترف أنه طلب شيئاً في غير حينه وأوانه ووقته.

وقال الزجاج: قد قال موسى أنظر إليك يعني أرني أمراً عظيماً لا يرى مثله في الدنيا مما لا تحتل عليه نفسي. ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ أي أمر به، قال وهذا خطأ ولكن لما سمع كلامه قال يا رب إني سمعت كلامك وأحب أن أراك. قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي﴾ يعني بنبوتي. قرأ ابن كثير ونافع برسالتني^(٦).

وقرأ الباقون برسالاتي بلفظ الجماعة ومعناها واحد. أي: اختصاصتك بالنبوة ﴿وَبِكَلَامِي﴾ أي: بتكلمي معك من غير وحي ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ أي: اعمل بما أعطيتك ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لما أعطيتك. وقال القتيبي قوله وأنا أول المؤمنين أراد به في زمانه كقوله ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ قوله تعالى:

وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكِ
يَاخُذُوا بِحَسَنَاتِ أَسْوَارِكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ
الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَاءَ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا
سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١١٩/٣ وعزاه لابن جرير ٩٧/١٣ (٥٠٧٨) وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والبيهقي في الروية. وانظر معالم التنزيل للبخاري ١٩٧/٢.

(٢) سقط في ط. (٣) انظر الخازن ٢/٢٨٣.

(٤) الفريضة المضغة التي بين الثدي ومرجع الكتف من الرجل والدابة انظر لسان العرب ٥/٣٣٨٦.

(٥) أخرجه الطبري في التفسير ١٣/١٠٣، وانظر تفسير ابن كثير ٣/٤٦٩.

(٦) انظر حجة القراءات ٢٩٥، سراج القاري ٢٢٧.

بَيَّاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُحْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾

﴿وَكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ﴾ روي عن سعيد بن جبير^(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال أعطى الله تعالى موسى التوراة في سبعة ألواح من زبرجد فيها تبيان لكل شيء وموعظة. قال التوراة مكتوبة، ويقال طول الألواح عشرة أذرع ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً﴾ من الجهل ﴿وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ يعني تبياناً لكل شيء من الحلال والحرام.

قال الفقيه - رحمه الله تعالى - حدثنا الفقيه أبو جعفر قال حدثنا إسحاق بن عبد الرحمن القاري قال حدثنا أبو بكر بن أبي العوام قال حدثنا أبي قال حدثنا يحيى بن سابق عن خيثمة بن خليفة عن ربيعة عن أبي جعفر عن جابر^(٢) بن عبد الله أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كان فيما أعطى الله موسى في الألواح عشرة أبواب: يا موسى لا تشرك بي شيئاً فقد حق القول مني لتلفحن وجوه المشركين النار. واشكر لي ولوالديك أفك المتألف وانسى لك في عمرك وأحبيك حياة طيبة وأقبلبك إلى خير منها. ولا تقتل النفس التي حرمتها إلا بالحق فتضيق عليك الأرض برحبها والسماء بأقطارها وتبوء بسخطي ونار. ولا تحلف باسمي كاذباً فإني لا أطهر ولا أذكي من لم ينزهنني ولم يعظم أسمائي. ولا تحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله فإن الحاسد عدو لنعمتي راد لقضائي ساخط لقسمتي التي أقسم بين عبادي. ولا تشهد بما لم يبق بسمعك ويحفظ قلبك فإني لواقف أهل الشهادات على شهاداتهم يوم القيامة ثم أسألهم عنها سؤالاً حثيثاً. ولا تزن ولا تسرق فأحجب عنك وجهي وأغلق عنك أبواب السماء. وأحب للناس ما تحب لنفسك. ولا تذك لغيري فإني لا أقبل من القربان إلا ما ذكر عليه اسمي وكان خالصاً لوجهي وتفرغ لي يوم السبت وجميع أهل بيتك. فقال النبي صلى الله عليه وسلم إن الله تعالى جعل يوم السبت لموسى عيداً واختار لنا يوم الجمعة فجعلها لنا عيداً.

قوله تعالى: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ يعني اعمل بما أمرك الله بجد ومواظبة عليها ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ أي يعملون بما فيها من الحلال والحرام. ويقال أمرهم بالخير وأنهم عن الشر. يعني اعملوا بالخير وامتنعوا عن الشر ويقال اعملوا بأحسن الوجوه. وهو أنه لو يكافىء ظالمه ويتقم منه جاز، ولو تجاوز كان أحسن. وقال الكلبي^(٣): كان موسى عليه السلام أشد عبادة من قومه فأمر بما لم يؤمروا به يعني أمر بأن يعمل بالمواظبة وأمر قومه بأن يأخذوا بأحسن الفعل ثم قال ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ قاتل مقاتل: يعني سنة أهل مصر^(٤). يعني هلاكهم حين قذفهم البحر فأراهم سنة الفاسقين في التقديم ويقال جهنم هي دار الكافرين، ويقال إذا سافروا أراهم منازل عاد وثمود^(٥)، وقال مجاهد مصيرهم في الآخر إلى النار قوله تعالى ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ يعني أصرف قلوب الذين يتكبرون عن الإيمان حتى لا يؤمنوا فأخذ لهم بكفرهم ولا أوفقهم. بتكذيبهم الأنبياء مجازاة لهم. ويقال أمتع قلوبهم من التفكير في أمر الدين وفي خلق السموات والأرض الذين يتكبرون ﴿فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ يعني يتعظمون عن الإيمان لكي لا يتفكروا في السماء ولا يعقلون فيها ولا يذكرونها. ويقال سأصرف عن النعماء التي أعطيتها المؤمنين يوم القيامة، أصرف عنهم تلك النعمة، ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ﴾ امتنعوا منها كي ﴿لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٢١/٣. وعزه لابن أبي حاتم.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٢٢/٣ وعزه لابن مردويه وأبي نعيم في الحلية وابن لال في مكارم الأخلاق وانظر حلية الأولياء

٢٦٥/٣ - ٢٦٦ وقال غريب من حديث أبي جعفر وحديث ربيعة ولم تكتبه إلا بهذا الإسناد من هذا الوجه.

(٣) انظر تفسير البغوي ٢/٢٠٠. (٤) انظر تفسير البغوي ٢/٢٠٠.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٢٦/٣ وعزه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ ﴿١﴾ يعني طريق الحق، الإسلام ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ يعني لا يتخذوه ديناً ﴿وَأَنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ﴾ يعني طريق الضلالة والكفر ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أي: ديناً ويتبعونه ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ قال مقاتل أي: بآياتنا التسع. وقال الكلبي يعني بمحمد والقرآن ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ يعني: تاركين لها.

قرأ حمزة والكسائي سبيل الرُّشْدِ^(١) بنصب الراء والشين.

وقرأ الباقون الرُّشْدِ بضم الراء وإسكان الشين. وهما لغتان ومعناها واحد.

ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: بمحمد والقرآن ﴿وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ﴾ يعني: كذبوا بالبعث بعد الموت ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ يعني: بطلت حسناتهم ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ أي: هل يثابون ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني: في الدنيا. قوله تعالى:

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلْمِزُوا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سَقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَاتَّخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجْرُهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ﴾ يعني من بعد انطلاقه إلى الجبل. وذلك أن موسى عليه السلام لما وعد لقومه ثلاثين يوماً فتأخر عن ذلك، قال السامري لقوم موسى إنكم أخذتم الحلي من آل فرعون فعاقبكم الله تعالى بتلك الخيانة ومنع الله عنا موسى. فاجمعوا الحلي الذي أخذتم من آل فرعون حتى نحرقتها فلعل الله تعالى يرد علينا موسى، فجمعوا الحلي، وكان السامري صائغاً فجعل الحلي في النار واتخذ ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ﴾ وقد كان رأى جبريل على فرس الحياة. فكلما وضع الفرس حافره (ظهر النبات في موضع حافره) فأخذ كفاً من أثر حافره من التراب وألقى ذلك التراب في العجل فصار العجل من حليهم عجلًا جسدًا. قال الزجاج: الجسد هو الذي لا يعقل ولا يميز. إنما معنى الجسد معنى الجثة فقط وروي عن ابن عباس قال: صار عجلًا له لحم ودم وله خوار يعني صوت مثل صوت العجل ولم يسمع منه إلا صوت واحد. وقال بعضهم سمع منه صوت ولم يسمع منه^(٢) إلا مثل صوت العجل. وقال بعضهم جعله مشتبكاً فدخل فيه الريح فسمع منه صوت مثل صوت العجل، فقال لقومه هذا إلهكم وإله موسى فاغتر به الجهال من بني إسرائيل وعبدوه قال الله تعالى ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ يعني لا يقدر على أن يكلمهم ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ يعني لا يرشدهم طريقاً ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ يعني: كافرين بعبادتهم إياه.

(٢) سقط من أ.

(١) انظر حجة القراءات ٢٩٥، سراج القاري ٢٢٧.

وقرأ حمزة والكسائي^(١) من جليهم بكسر الحاء. وقرأ الباقون من حليهم بضم الحاء. فمن قرأ بالكسر فهو اسم لما يحسن به من الذهب والفضة.

ومن قرأ بالضم فهو جمع الحلي، ويقال كلاهما جمع الحلي وأصله الضم إلا أن من كسر فلاتباع الكسرة بالكسرة. قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ يعني: ندموا على ما صنعوا، يقال: سقط في يده إذا ندم وأصله أن الإنسان إذا ندم جعل يده على رأسه ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ أي: علموا أنهم قد ضلوا عن الهدى ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾.

قرأ حمزة والكسائي^(٢) لئن لم ترحمنا بالتاء على معنى المخاطبة ربنا بالنصب يعني يا ربنا.

وقرأ الباقون لئن لم يرحمنا ربنا بالياء وضم الباء على معنى الخبر ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ بعد التوبة. عطف على قوله لئن لم يرحمنا ربنا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ يعني من المغبونين. قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ﴾ يعني: من الجبل ﴿غَضَبَانَ أَصْفَاءَ﴾ يعني حزيناً. ويقال الأسف في اللغة شدة الغضب ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ ويقال أشد الحزن كقوله (يَا أَسْفَى عَلَى يَوْسَفَ) ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾ يعني بعبادة العجل. يعني بشما فعلتم في غيبي ﴿أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ يعني استعجلتم ميعاد ربكم، ويقال أعصيتكم أمر ربكم، ويقال: معناه أعجلتم بالفعل الذي استوجبتكم به عقوبة ربكم ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ﴾ من يده. قال الكلبي: انكسرت الألواح وصعد عامة الكلام الذي كان فيها من كلام الله تعالى إلى السماء. وقال بعضهم هذا الكلام في ظاهره غير شديد. لأن الكلام صفة والصفة لا تفارق الموصوف، فلا يجوز أن يقال الكلام يصعد ويذهب. ولكن تأويله أن الألواح لما انكسرت ذهب أثر المكتوب منها. وهذا إذا كان من غير الأحكام، وأما الأحكام أيضاً فلا يجوز أن تذهب عنه، وإنما أراد بذلك حجة عليهم. وروي في الخبر أن الله تعالى أخبر موسى أن قومه عبدوا العجل. قال موسى يا رب من اتخذ لهم العجل؟ قال السامري. قال ومن جعل فيه الروح؟ قال أنا. قال فأنت فتنت قومي. قال له ربه تركتهم لمرادهم. وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ليس الخبر كالمعاينة^(٣) لما أخبر الله تعالى بأن قومه قد عبدوا العجل لم يلق الألواح، فلما عاين ألقي الألواح ثم قال ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ يعني أخذ بشعر رأسه ولحيته ﴿يَجْرُهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ﴾ (يعني قال له هارون: يا ابن أُمِّي لا تأخذ بلحيتي)^(٤) قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم في رواية حفص^(٥) يا ابن أُمِّ بنصب الميم. وقرأ الباقون بالكسر. وهكذا في سورة طه. فمن قرأ بالنصب جعله كاسم واحد، كأنه يقول يا ابن أُمِّه. كما يقال يا ويلته ويا حسرتاه ومن قرأ بالكسر فهو على معنى الإضافة إلى نفسه وكان موسى أخاه لأبيه وأمه ولكن ذكر الأم ليرفعه عليه ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي﴾ يعني قهروني واستذلوني ﴿وَكَاذَبُوا يَاقْتُلُونِي﴾ يعني: هموا بقتلي ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ يعني: لا تفرح على أعدائي. يعني الشياطين ويقال أصحاب العجل ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يعني لا تظننني رضيت بما فعلوا قال موسى ﴿رَبِّ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ بما فعلت بأخي هارون، ويقال: لإلقاء الألواح ﴿وَوَافِرٌ﴾ ما كان منه من التقصير في

(١) انظر حجة القراءات ٢٩٦ - ٢٩٧، سراج القاري ٢٢٨.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢٧١/١، وابن حبان أوردته الهيثمي في الموارد (٢٠٨٧)، والخطيب في التاريخ ٣٦٠/٣، ٥٦/٦، ١٢/٨، ٢٨ وابن عبد البر في التمهيد ٣٣٤/٤ والاستذكار ٤٩/١ وأخرجه ابن عدي في الكامل ٢٠٣/١، ١٥٨٠/٤، ٢٤٩٣/٧.

ونسبه العجلوني في كشف الخفاء فضلاً عن هؤلاء لابن منيع والطبراني والعسكري والبغوي والدارقطني في الأفراد.

(٥) انظر حجة القراءات ٢٩٧، سراج القاري ٢٢٨.

(٤) سقط في ظ.

تركهم على عبادة العجل ﴿وَأَدْخَلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ يعني جنتك ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ يعني : أنت أرحم بنا منا بأنفسنا. وقال الحسن : يعني أنت أرحم بنا من الأبوين قوله تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَاءُ لَهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَءَامَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَأَخْبَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَتَّهْلِكُهُمْ أَفْعَالُ السُّفَهَاءِ إِنَّهُنَّ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ يعني : اتخذوا العجل إلهاً ﴿سَيَنَاءُ لَهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ يعني : يصيبهم عذاب من ربهم ﴿وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وهو ما أمروا بقتل أنفسهم، ويقال : هذا قول الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم يعني يصيب أولادهم ذلة في الحياة الدنيا وهي الجزية ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ يعني : هكذا نعاقب المكذبين. ثم قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا﴾ يعني : رجعوا عن الشرك بالله وعن السيئة ﴿وَأَمَنُوا﴾ يعني : صدقوا بوحدانية الله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ ومن بعد التوبة ويقال : من بعد السيئات ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يعني «لغفور» لذنوبهم «رحيم» بهم بعد التوبة. ثم رجع إلى قصة موسى عليه السلام وهو قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ أخذ الألواح يعني : لما سكت عن موسى الغضب ويقال : ولما سكت موسى عن الغضب ﴿أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ يعني في بقيتها، فنسخت له الألواح وأعيدت له في اللوحين مكان التي انكسرت ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ يعني : فيما بقي منها بياناً من الضلالة ورحمة من العذاب ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ يعني : يخافون الله ويعملون له بالغيث. ويقال وفي نسختها يعني في كتابتها هدى من الضلالة ورحمة من العذاب للذين يخشون ربهم قوله تعالى : ﴿وَأَخْبَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ أي : من قومه ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا﴾ يعني للميقات الذي وقتنا له ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ يعني الزلزلة تزلزل الجبل بهم فماتوا ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني من قبل أن يصحبوني ﴿وَأَيَّايَ﴾ بقتل القبطي ﴿أَتَّهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ قال الكلبي ظن موسى أنه إنما أهلكهم باتخاذ بني إسرائيل العجل^(١).

وروي عن علي بن أبي طالب أنه قال : انطلق موسى وهارون ومعهما شير وشبير وهما ابنا هارون حتى انتهوا إلى جبل وفيه سرير فنام عليه هارون فقبض. فرجع موسى إلى قومه فقالوا له أنت قتلته حسداً على خلقه ولينه. قال كيف أقتله ومعى ابناه؟ فاختاروا من شتم فاختاروا سبعين فانتهاوا إليه فقالوا له من قتلك يا هارون قال ما قتلني أحد ولكن توفاني الله تعالى : فأخذتهم الرجفة فماتوا كلهم فقال موسى رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإيائي^(٢).

(١) انظر معالم التنزيل ٢/ ٢٠٤.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/ ١٢٨ وعزه لعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في كتاب من عاش بعد الموت وابن جرير ١٣/ ١٤٢ وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وعزه صاحب البحر المحيط لابن أبي شيبة. انظر البحر ٤/ ٣٩٩.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لما انطلق موسى إلى الجبل أمر بأن يختار سبعين رجلاً من قومه، فاختار من كل سبط ستة رجال فبلغوا اثنين وسبعين، فقال موسى إني أمرت بسبعين فليرجع اثنان ولهما أجر من حضر. فرجع يوشع بن نون وكالوب بن يوقنا. فذهب موسى مع السبعين إلى الجبل. فلما رجع إليهم موسى من المناجاة قالوا له إنك قد لقيت ربك فأرنا الله جهرة حتى نراه كما رأيته، فجاءتهم نار فأحرقتهم فماتوا. فقال موسى: حين أماتهم الله تعالى «رب لو شئت أهلكتهم من قبل» هذا اليوم وإياي معهم أتهلكنا بما فعل السفهاء منا^(١) يعني أتوقعني في ملامة بني إسرائيل وتغييرهم بفعل هؤلاء السفهاء، ثم أحياهم الله تعالى.

وروي أسباط عن السدي قال إن موسى انطلق بسبعين من بني إسرائيل يعتذرون إلى ربهم عن عبادة العجل. وذكر نحو حديث عبد الله بن عباس. ثم قال ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ يعني بليتك وعذابك. ويقال يعني عبادة العجل بليتك حيث جعلت الروح فيه ﴿تُضِلُّ بِهَا﴾ أي: بالفتنة ﴿مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ من الفتنة ﴿أَنْتَ وَلَيْنَا﴾ أي: حافظنا وناصرنا ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ يعني ذنوبنا ﴿وَارْحَمْنَا﴾ يعني ولا تعذبنا. ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ يعني: المتجاوزين عن الذنوب. قوله تعالى:

وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا عَلَيْنَا عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ أَمْنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

﴿وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ يعني: اقضي لنا وأعطنا في الدنيا العلم والعبادة والنصرة والرزق الحسن الحلال ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ يعني وأعطنا في الآخرة حسنة. وهي الجنة ﴿إِنَّا هُنَا عَلَيْنَا﴾ يعني: تبنا إليك وأقبلنا إليك. هكذا قال عكرمة ومجاهد وعطاء وقتادة^(٢). وأصله في اللغة الرجوع من الشيء إلى الشيء ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ يعني هذا عذابي أخص به من أشياء من العباد من كان أهلاً لذلك ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ إن رحمتهم ويقال: إن الزلزلة والرجفة كانتا عذابي وأنا أنزلتها وأنا أصيب بالعذاب من أشياء، وما سألت من الغفران فمن رحمتي، ورحمتي وسعت كل شيء من كان أهلاً لها ويقال لكل شيء حظ من رحمتي. وروي عبد الرزاق عن معمر عن الزهري^(٣) عن قتادة والحسن قالا: ورحمتي التي وسعت كل شيء يعني: وسعت في الدنيا البر والفاجر، وفي يوم القيامة للذين اتقوا خاصة. ويقال لما نزلت هذه الآية ورحمتي وسعت كل شيء تطاول إبليس وقال أنا من تلك الأشياء، فأكذبه الله تعالى وآيسه فأنزل قوله ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ يعني فسأفضيها

(١) انظر البحر المحيط ٣٩٩/٤، وذكره السيوطي في الدر ١٢٨/٣ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) انظر تفسير القرطبي ١٨٨/٧.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٣٠/٣ وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم أبي الشيخ، وانظر تفسير الطبري ١٥٩/١٣.

وسأوجهها للذين يتقون الشرك^(١) ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ فقالت اليهود والنصارى نحن آما بالآيات وهي التوراة والإنجيل ونعطي الزكاة فهذه الرحمة لنا. فأكذبهم الله تعالى وأنزل ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ الآية. ويقال ورحمتي وسعت كل شيء يعني: طمع كل قوم برحمتي وأنا أوجبها للمؤمنين. وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم الذين يتقون الشرك ويؤتون الزكاة، والذين هم بآياتنا يؤمنون. يعني: يصدقون بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم الذي لا يكتب ولا يقرأ الكتب. قال الزجاج: الأمي الذي هو على خلقه أمه لم يتعلم الكتابة وهو على جبلته، ويقال إنما سمي محمد صلى الله عليه وسلم أمياً لأنه كان من أم القرى وهي مكة ثم قال ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ﴾ يعني يجدون نعته وصفته ﴿فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يعني شرائع الإسلام بالتوحيد ﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي: عن الشرك وما لا يعرف في الشريعة ولا في السنة ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: يرخص لهم الحلالات من الشحوم واللحوم وأشباهها ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ يعني: ويبين لهم الحرام، الميتة والدّم ولحم الخنزير والخمر ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ يعني: ثقلهم من العهود.

قرأ ابن عامر^(٢) أَصَارَهُمْ عَلَى معنى الجماعة. وأصل الإصر الثقل فسمي العهد إصراً لأن حفظ العهد يكون ثقيلاً، ويقال: يعني: الأمور التي كانت عليهم في الشرائع، ويقال هو ما عهد عليهم من تحريم الطيبات، ثم قال ﴿وَالْأَغْلَالِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ وهي كناية عن أمور شديدة. لأن في الشريعة الأولى كان الواحد منهم إذا أصابه البول في ثوبه وجب قطعه. وكان عليهم ألا يعملوا في السبت وغير ذلك من الأعمال الشديدة فوضع عنهم ذلك ثم قال ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾ يعني صدقوه وأقروا بنبوته ﴿وَعَزَّزُوهُ﴾ يعني عظموه وشرفوه. ويقال أعانوه ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ بالسيف ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ﴾ يعني القرآن ﴿الَّذِي أَنْزَلَ مَعَهُ أُولَئِكَ﴾ يعني أهل هذه الصفة ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: والناجون في الآخرة وهم في الرحمة التي قال الله تعالى ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ قوله:

قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَعْنَاهُمْ أَثْنَتَيْ عَشَرَ آسَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ وَآبِ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ أَثْنَتَا عَشْرَةَ عِيقًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ

(١) سقط في ظ.

(٢) انظر حجة القراءات ٢٩٨، سراج القاري ٢٢٨.

سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يعني يا أهل مكة ويقال: هو لجميع الناس ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ ويقال: إنه أول نداء نادى به في مكة بهذه الآية، وكان من قبل يدعو واحداً واحداً. فلما نزلت هذه الآية أظهر ونادى في الناس يا أيها الناس إنني رسول الله إليكم جميعاً من ذلك الرب ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ يعني: لا خالق ولا رازق في السماء ولا في الأرض إلا هو ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ يعني: يحيي الأموات للبعث ويميت الأحياء في الدنيا ويحيي للبعث ثانياً. ويقال يحيي يعني: يخلق الخلق من النطفة ويميتهم عند انقضاء آجالهم. ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ يعني يصدق بالله ﴿وَكَلِمَاتِهِ﴾ يعني: القرآن. قال السدي^(١): وكلمته يعني صدق بأن عيسى صار مخلوقاً بكلمة الله ﴿وَاتَّبِعُوهُ﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ من الضلالة. قوله ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ يعني جماعة يدعون إلى الحق ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ يعني وبالحق يعملون. وقال بعضهم يعني به مؤمني أهل الكتاب. وهم عبد الله بن سلام وأصحابه. وهذا كما قال في آية أخرى ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾ الآية وقال بعضهم هم قوم من وراء الصين « من أمة موسى » ما وراء رمل عالج.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي - صلى الله عليه وسلم - ليلة أسري به إلى البيت المقدس ومعه جبريل. فرفعه إليهم وكلمهم وكلموه فقال لهم جبريل هل تعرفون من تكلمون؟ قالوا لا. قال فإن هذا محمد النبي الأمي. قالوا يا جبريل وقد بعثه الله تعالى؟ قال: نعم. فآمنوا به وصدقوه وقالوا يا رسول الله إن موسى بن عمران أوصى إلينا أن من أدرك ذلك النبي منكم فليقرأ عليه السلام مني ومنكم ورد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على موسى ورد عليهم السلام. ثم قال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما لي أرى بيوتكم مستوية؟ قالوا لأننا قوم لا ينبغي بعضنا على بعض، قال فما لي لا أرى عليها أبواباً؟ قالوا إنا لا يضر بعضنا بعضاً. قال فما لي لا أراكم تضحكون؟ قالوا ما ضحكنا قط لأن الله تعالى أخبرنا في كتابه أن جنهم عرضها ما بين الخافقين. وقرعها الأرض السفلى. وقد أقسم الله تعالى ليملائنها من الجنة والناس أجمعين. قال فهل تبكون على الميت؟ قالوا يا رسول الله كيف نبكي على الميت وكلنا ميتون. وهو سبيل لا بد منه. والله أعطانا والله أخذ منا. قال فهل تمرضون؟ قالوا: (٢) يا رسول الله إنما يمرض أهل الذنوب والخطايا فأما نحن فمعصومون بدعاء نبي الله موسى عليه السلام. قال فكيف تموتون إذا لم تمرضوا؟ قالوا إذا استوفى أحدنا رزقه جاءه ملك الموت فقبض روحه فندفنه حيث يموت قال فهل تحزنون إذا ولد لأحدكم جارية قالوا يا رسول الله لا ولكننا نصوم لله تعالى شهراً شكراً فإذا ولد لأحدنا غلام نصوم لله شهرين شكراً لله تعالى. قال فهل فيكم حيات وعقارب؟ قالوا نعم قال كيف تصنعون^(٣)؟ بهن قالوا: يا رسول الله نمشي عليهن ويمشين علينا ولا نؤذيهن ولا تؤذينا آمناً منا ونحن آمنون منهن. قال فهل لكم ماشية؟ قالوا نعم نجر أصوافها فتتخذ منه الألفية والأكسية ونأكل من لحومهن الكفاف وكل أهل القرية فيها شرع أي سواء ليس أحد أحق به منا. قال فهل ترزنون أو يوزن عليكم؟ قالوا لا نزن ولا يوزن علينا ولا نكيل ولا يكال علينا ولا نشترى ولا نبيع. قال فمن أين تأكلون؟ قالوا يا رسول الله نخرج فنزرع ويرسل الله تعالى السماء علينا فينبته ثم

(٣) سقط في ظ.

سقط من أ.

(١) انظر البحر المحيط ٤/ ٤٠٦.

نخرج إليه فنحصده ونضعه في أماكن من القرية، فيأخذ أهل القرية منها الكفاف ويدعون ما سواه. قال فهل تجامعون النساء؟ قالوا نعم يا رسول الله لنا بيوت مظلمة وثياب معلومة فإذا أردنا المجامعة لبسنا ثيابنا تلك ودخلنا تلك البيوت لا يرى الرجل عورة امرأته ولا المرأة عورة زوجها. قال فهل فيكم زنا؟ قالوا يا رسول الله لا فإن فعل ذلك أحد منا لظننا أن الله تعالى يبعث عليه ناراً فيحرقه أو يخسف به الأرض. ولكن إذا كان للرجل منا ابنة طلبها منه رجل فيزوجه إياها إرادة الأجر والعفة. قال فهل تكتزون الذهب والفضة؟ قالوا لا يا رسول الله إنما يكتز الذهب والفضة من لا يثق بالله ومن يرى أن الله تعالى لم يتكفل له برزقه، فأما نحن فلا نكتز الذهب والفضة. فأقرأهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عشر سور من القرآن أنزلت بمكة، ولم تكن نزلت فريضة غير الصلاة والزكاة فعلمهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - القرآن وأمرهم بالصلاة والزكاة ورجع من ليلته^(١) وقال قتادة: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في قوله (وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ) قال قد أعطيتم مثلها (وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ). يعني في هذه الأمة ثم قال (وَقَطَعْنَاهُمْ) يعني: بني إسرائيل فرقناهم (إِثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا) يعني جماعة، والأسباط جمع. والسبط في بني إسرائيل مثل القبيلة عند العرب. (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى) يعني في التيه (إِذْ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ) إلى قوله (رَجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ) كل ذلك مذكور في سورة البقرة. قرأ أبو عمرو^(٢) نغفر لكم بالنون خطاياكم وقرأ ابن عامر نغفر لكم بالتاء والضم خَطِيئَتُكُمْ بالرفع وبلغف الواحد. وقرأ نافع نغفر لكم بالتاء والضم. خَطِيئَاتُكُمْ بلفظ الجماعة. وقرأ الباقون نغفر لكم بالنون خَطِيئَاتُكُمْ بلفظ الجماعة. قوله تعالى:

وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ
حِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا
كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا لَّا مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا
مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا
الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً
خَاسِيَةً ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَنَ عَلَيْهِمُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَن يَسُوءُهُمْ سَوْءَ الْعَذَابِ إِنَّ
رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ
وَمِنْهُمْ دُونُ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ
وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُ الَّذِي أَخَذُوهُ الْعَمَلُ يَأْخُذُ عَلَيْهِمْ
مَيِّشًا الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَاللَّذِ الْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَنْقُونَ أَفَلَا

(١) ذكره القرطبي مختصراً انظر ١٩٢/٧.

(٢) انظر حجة القراءات ٢٩٨ - ٢٩٩، سراج القاري ٢٢٨.

تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يَمَسِّكُونَ بِالْكَتَبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ واسمها أيلة. وذلك أن اليهود قالوا نحن من أبناء إبراهيم - صلى الله عليه وسلم - فلا يعذبنا الله تعالى إلا مقدار عبادة العجل. فقال الله تعالى وأسألهم عن القرية يعني أهل القرية^(١) التي كانت حاضرة البحر كيف عذبهم الله تعالى بذنوبهم. ثم أخبر عن ذنوبهم فقال تعالى: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ يعني أنهم استحلوا الصيد في يوم السبت، ويقال: يعتدون في يوم السبت، وأصل الاعتداء هو الظلم، يقال عدوت على فلان إذا ظلمته واعتديت عليه. ثم قال: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا﴾ يعني يوم استراحتهم شوارع في الماء. وهو جمع الشارع. ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْتَوُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ يعني إذا لم يكن يوم السبت ويوم الراحة لا تأتاهم وإنما تم الكلام عند قوله تأتاهم ثم ابتداء فقال ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ﴾ يعني: هكذا نخبرهم. وقال بعضهم إنما يتم الكلام عند قوله: ويوم لا يستون لا تأتاهم كذلك يعني لا تأتاهم كما تأتاهم يوم السبت لأن في يوم السبت تأتاهم الحيتان شوارع من أسفل الماء إلى أعلاه وفي سائر الأيام يأتاهم القليل ولا يأتاهم كما يأتاهم في يوم السبت ثم ابتداء الكلام فقال ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يعني نخبرهم بما كانوا يعصون الله تعالى ثم قال عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ﴾ أي: عصابة وجماعة منهم. وهي الظلمة، للأمة الواعظة ﴿لَمْ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ لأن الواعظة نهوهم عن أخذ الحيتان وخوفهم. فرد عليهم الظلمة لَمْ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ﴾. قرأ عاصم^(٣) في إحدى الروايتين^(٤) مَعَذَرَةٌ بالنصب. يعني: نعتذر إلى ربكم معذرة. وقرأ الباقر مَعَذَرَةٌ بالضم يعني هي معذرة، يعني لا ندع الأمر بالمعروف حتى نكون معذورين عند الله تعالى ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يعني لعلهم ينتهون ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ يعني تركوا ما وعظوا به ﴿أَنْجَيْنَا﴾ من العذاب ﴿الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني عذبنا الذين تركوا أمر الله ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ يعني شديد ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يعني يعصون ويتركون أمر الله تعالى. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان القوم ثلاثة فرق. فرقة كانوا يصطادون وفرقة كانوا ينهون وفرقة لم ينهوا ولم يستحلوا وقالوا للواعظة: لم تعظون قوماً الله مهلكهم^(٥). وروى أبو بكر الهذلي عن عكرمة قال: أتيت ابن عباس وهو يقرأ في المصحف ويكي فدنوت منه حتى أخذت بلوحي المصحف وقلت ما يبيحك؟ قال تبكي هذه السورة وهو يقرأ سورة الأعراف. وقال هل تعرف أيلة؟ قلت نعم. قال إن الله تعالى أسكنها حياً من اليهود وابتلاهم بحيتان حرما عليهم يوم السبت وأحلها لهم في سائر الأيام، فإذا كان يوم السبت خرجت إليهم الحيتان، فإذا ذهب السبت غابت في البحر حتى يغوص لها الطالبون، وإن القوم اجتمعوا واختلفوا فيها، فقال فريق منهم: إنما حرمت عليكم يوم السبت أن تأكلوها، فصيدها يوم السبت وكلوها في سائر الأيام. وقال الآخرون بل حرم عليكم أن تصيدها أو تنفروها أو تؤذوها، وكانوا ثلاث فرق، فرقة على أيماهم وفرقة على شأئهم وفرقة على وسطهم، فقالت الفرقة اليمنى فجعلت تنهاهم في يوم السبت وجعلت تقول الله يحذركم بأس الله، وأما الفرقة اليسرى فأمسكت أيديها وكفت ألسنتها، وأما الوسطى فوثبت على السمك تأخذه، وجعلت الفرقة الأخرى التي كفت أيديها وألسنتها ولم تتكلم تقول: لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً. فقال الذين ينهون معذرة إلى ربكم ولعلكم تتقون فدخل الذين أصابوا السمك

(٣) انظر حجة القراءات ٣٠٠، سراج القاري ٢٣٠.

(١) سقط في ظ. (٢) سقط في أ.

(٤) في رواية حفص. (٥) انظر تفسير ابن كثير ٤٩٣/٣.

(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٣٧/٣ وعزه لعبد الرزاق ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في السنن.

إلى المدينة وأبى الآخرون أن يدخلوا معهم، فغدا هؤلاء الذين أبوا أن يدخلوا المدينة فجعلوا ينادون من فيها فلم يجيبهم أحد فقالوا لعل الله خسف بهم أو رموا من السماء بحجارة. فارتفعوا رجلاً ينظر، فجعلوا رجلاً على سلم فأشرف عليهم فإذا هم قردة تتعادي ولها أذنان قد غير الله تعالى صورهم بصنيعهم فصاح إلى القوم فإذا هم قد صاروا قردة، فكسروا الباب ودخلوا منازلهم فجعلوا لا يعرفون أنسابهم ويقولون لهم ألم ننهيكم عن معصية الله تعالى ونوصيكم؟ فيشيرون برؤوسهم بلى. ودموعهم تسيل على خدودهم فأخبر الله تعالى (أنه أنجى الذين ينهون عن سوء وأخذ الذين ظلموا) ^(١) قوله «أنجينا الذين ينهون عن سوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئس». ولا يدري ما صنع بالذين لم ينهوا ولم يأخذوا. وقال عكرمة: بل أهلكهم الله لأنه أنجى الذين ينهون عن سوء وأهلك الفريقين الآخرين فوهب له ابن عباس بردة بهذا الكلام. وروي في رواية أخرى أنهم كانوا يأخذون الحظائر والحياض بجانب البحر ويسيلون الماء فيها يوم السبت من البحر حتى يدخل فيها السمك (ويأخذونه في يوم الأحد فقالوا: إنا نأخذ في يوم الأحد فلما لم يعذبوا استحلوا الأخذ في يوم السبت) ^(٢) من البحر، وقالوا إنما حرم الله على ابنائنا ولم يحرم علينا، فنهاهم الصلحاء فلم يمتنعوا فضربوا حائطاً بينهم وصارت الواعظة في ناحية والذين استحلوا في ناحية والحائط بين الفريقين، فأصبحوا في يوم من الأيام ولم يفتح الباب الذي بينهما فارتقى واحد منهم الحائط فإذا القوم قد مسحوا إلى قردة، وقال بعضهم كان القوم أربعة أصناف، صنف يأخذون وصنف يرضون وصنف ينهون وصنف يسكتون. فتجا صنفان وهلك صنفان، قال بعضهم كانوا صنفين: صنف يأخذون وصنف ينهون. وروي قتادة عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال كانوا ثلاث فرق فهلك الثاني ونجا الثالث والله أعلم ما فعل بالفرقة الثالثة. قرأ نافع ^(٣) بعذاب بئس بكسر الباء وسكون الياء بلا همز وقرأ عاصم في رواية أبي بكر بعذاب بئس بفتح الباء وسكون الياء وفتح الهمزة. وقرأ الباقر بعذاب بئس بنصب الباء وكسر الياء والهمزة وسكون الياء وهي اللغة المعروفة. والأولى لغة لبعض العرب. ثم قال: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهِوا عَنْهُ﴾ يعني تركوا ما وعظوا به ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ يعني صاغرين مبغدين عن رحمة الله. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ يعني: أعلم ربك ويقال: قال ربكم، وكل شيء في القرآن تأذن فهو إعلام، ومعناه قال ﴿لَيُعَذِّبَنَّ﴾ أي ليسطن ﴿عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي: على بني إسرائيل والذين لا يؤمنون بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿مَنْ يَسْأَلُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ يعني يعذبهم بالجزية والقتل ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ إذا عاقب من أصر على كفره ﴿وَإِنَّهُ لَفَقُّورٌ﴾ لمن تاب من الشرك ﴿رَحِيمٌ﴾ بعد ذلك، ثم قال ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ﴾ أي: فرقناهم ﴿فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ أي: فِرَقاً ﴿مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ﴾ أي المؤمنون وهم مؤمنو أهل الكتاب. ويقال هم الذين وراء رمل عالج ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ وهم الكفار منهم ﴿وَبَلَّغْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ يعني اختبرناهم بالخصب والجدوبة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ من الكفر إلى الإيمان ثم قال ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ يعني بعد بني إسرائيل خلف سوء ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ يقول: يستحلون أخذ الحرام من هذه الدنيا وهو الرشوة في الحكم ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ قال مجاهد ^(٤) يعني: يأخذون ما يجدون حلالاً أو حراماً ويتمنون المغفرة ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ أي: وإن يجدوا مثله من العرض يأخذوه ويقال: معناه: إنهم يصرون على الذنوب وأكل الحرام فإذا أخذوا أول النهار يعودون إليه في آخر النهار ولا يتوبون عنه ويقال ^(٥) يطلبون بعلمها الدنيا ويقال يأخذون عرض هذا

(١) سقط في ظ.

(٢) سقط في ظ والمثبت في أ.

(٣) انظر حجة القراءات ٣٠٠، سراج القاري ٢٣٠.

(٥) سقط في ظ.

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ٢١٢/١٣.

الأدنى ويقولون سيغفر لنا هذه المرة وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه. ويقولون مثل ذلك: أي سيغفر لنا لأننا لا نشرك بالله شيئاً. وقال سعيد بن^(١) جبير: يأخذون عرض هذا الأدنى. يقول يعملون بالذنوب ويقولون سيغفر لنا. ما عملنا بالليل كفر عنا بالنهار وما عملنا بالنهار كفر عنا بالليل. وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه يعني الذنوب. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْخُذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ﴾ يعني ألم يؤخذ عليهم ميثاقهم في التوراة ﴿أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أي إلا الصدق ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ أي قرءوا ما فيه: ﴿وَالذَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي: يتقون الشرك ويحلون حلاله ويحرمون حرامه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن الآخرة خير من الدنيا ويقال أفلا يعقلون ما يدرسون من الكتاب ويقال: أفلا يعقلون أن الإصرار على الذنوب ليس من علامة المغفورين. قرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية^(٢) حفص أفلا تَعْقِلُونَ بالتاء على وجه المخاطبة. وقرأ الباقر بالباء على وجه المغاية. قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ يعني يعملون بالتوراة ولا يغيرونها عن مواضعها ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ يعني أتموا الصلاة المفروضة ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ يعني: عمل الموحدين وهم الذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة. قرأ عاصم في رواية أبي بكر^(٣) يُمسكون بالتخفيف. وقرأ الباقر يُمسكون بالتشديد على معنى المبالغة ثم قال تعالى:

وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَهِيَ كُنَّا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ يقول قلنا ورفعنا الجبل فوقهم ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ أي: كهيئة الغمام ﴿وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أي: أنه يعني أيقنوا الجبل واقع بهم ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أي: قيل لهم اعملوا بما أعطيناكم من التوراة بقوة أي: بجد ومواظبة ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أي: اعملوا ما فيه من الحلال والحرام والأمر والنهي ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ المعاصي وذلك حين أبوا أن يقبلوا التوراة. فرفع الجبل فوقهم فقبلوا وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ أي: اذكر يا محمد إذ أخذ ربك ويقال معناه وقد أخذ ربك من بني آدم، من ظهور بني آدم ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ يعني: أخذ ربك من ظهور بني آدم ذريتهم وقال بعضهم يعني الذرية التي تخرج وقتاً بعد وقت إلى يوم القيامة ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ فقال لهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ يعني إن كل بالغ تشهد له خلقته بأن الله تعالى واحد ﴿شَهِدْنَا﴾ يعني قال الله تعالى شهدنا ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ أي لكيلا تقولوا، ويقال هذا كراهة أن يقولوا ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾. وروي عن أبي صالح عن ابن^(٥) عباس رضي الله عنهما أنه قال: إن الله مسح على ظهر

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٣٩/٣ وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والبيهقي في الشعب وانظر تفسير الطبري ٢١٢/١٣.

(٣) انظر المصدر السابق.

(٢) انظر حجة القراءات ٣٠١.

(٥) ذكره السيوطي في الدر وعزاه لابن عبد البر في التمهيد.

(٤) سقط في ظ.

آدم فأخرج ذريته من صلبه كهية الذر، من هو مولود إلى يوم القيامة فقال لهم ألسن بربكم قالوا بلى، شهدنا بأنك ربنا، قال بعضهم هذا التفسير لا يصح. وطعنوا فيه من وجوه. أحدها أن الرواية لم تصح لأنها رواية أبي صالح. وأبو صالح ليس ممن يعتمد على روايته^(١) لأنه روي عن الشعبي أنه كان يمر بأبي صالح ويفرك أذنه ويقول له إنك لم تحسن أن تقرأ القرآن فكيف تفسره بالرأي، قالوا ولأن هذا غير محتمل في اللغة لأنه قال من ظهورهم ولم يقل من ظهر آدم، قالوا ولأنه لا يجوز من الحكيم أن يخاطب الذر وإنما يجوز خطاب من هو عاقل، ومن كان مثل الذر كيف يجوز خطابه، قالوا ولأنه لا يجوز أن تكون حجة الله بشيء لم يذكر وإنما تكون الحجة بشيء يكون الإنسان ذاكراً له، قالوا ولأن الله تعالى قال: رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْنَا اثْنَتَيْنِ ولم يقل أحييتنا ثلاث مرات. ولكن الجواب أن يقال إن الرواية صحيحة لأن الآثار قد جاءت عن أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما لا يجوز دفعه، فمن ذلك ما حدثنا الخليل بن أحمد. قال حدثنا الماسرخسي قال حدثنا إسحاق بن إبراهيم وهو ابن علي عن كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس^(٢) رضي الله عنهما. . . في قوله تعالى وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم. قال مسح الله تعالى ظهر آدم فأخرج كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة فأخذ ميثاقهم وأشهدهم على أنفسهم ألسن بربكم قالوا بلى. قال حدثنا الشيخ الرئيس أبو طاهر محمد بن داود قال حدثنا محمد بن أحمد باستراياذ قال حدثنا أحمد بن زكريا قال حدثنا عبد السلام بن صالح عن جعفر بن سليمان عن أبي هارون العبدي عن أبي سعيد^(٣) الخدري قال حججنا مع عمر في أول خلافته فوقف على الحَجَر ثم قال: أما إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبلك ما قبلتك. فقال له علي رضي الله عنه لا تقل هذا يا أمير المؤمنين فإنه يضر وينفع بإذن الله. ولو أنك قرأت القرآن وعلمت ما فيه ما أنكرت على ما قلت. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا بَلَىٰ ۖ فَلَمَّا أَقْرَأُوا بِالْعَبودية على أنفسهم كتب إقرارهم في رق ثم دعا هذا الحجر، فقال له افتح قال فآلقمه. ذلك الرق، فهو أمين الله في هذا المكان يشهد لمن استلمه ووافاه يوم القيامة. فقال له عمر رضي الله عنه لقد جعل الله بين ظهرانيكم من العلم غير قليل. وروى ربيع بن أنس. عن ابن العالية عن أبي بن^(٤) كعب في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ الآية قال جمعهم جميعاً فجعلهم أرواحاً ثم صورهم ثم استنطقهم ثم قال ألسن بربكم؟ قالوا بلى شهدنا بأنك ربنا. قال فإني أرسل إليكم رسلي وأنزل عليكم كتيبي فلا تكذبوا رسلي وصدقوا وعدي وأخذ عهدهم وميثاقهم فنظر إليهم آدم فرأى منهم الغني والفقير وحسن الصورة ودون ذلك فقال آدم رب لو شئت سويت بين عبادك فقال إني أحببت أن أشكر قال والأنبياء يومئذ مثل السرج. فأخذ عليهم ميثاق الرسالة أن يبلغوها فهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾. الآية. قال الفقيه أخبرني الثقة بإسناده عن مالك بن أنس عن زيد بن أبي أنيسة عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أخبره عن مسلم بن يسار أن عمر بن الخطاب^(٥)

(١) انظر ميزان الاعتدال ٥٣٩/٤. (٢) ذكره السيوطي في الدر ١٤١/٣ وعزاه لابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في الدر ١٤٤/٣ وعزاه للجندي في فضائل مكة وأبو الحسن القطان في الطولات والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان وضعفه.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنتور ١٤٢/٣ وعزاه لعبد بن حميد وعبد الله بن أحمد بن حنبل في فوائد المسند وابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن منده في كتاب الرد على الجهمية واللالكائي وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات وابن عساكر في تاريخه.

(٥) ذكره السيوطي في الدر ١٤٢/٣ وعزاه للحاكم وأبي الشيخ وابن مردويه واللالكائي والبيهقي في الأسماء والصفات.

رضي الله عنه سئل عن هذه الآية فقال عمر رضي الله عنه سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه سئل عن هذه الآية فقال إن الله تعالى خلق آدم ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح على ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون. فقال رجل يا رسول الله ففيم العمل؟ فقال إن الله تعالى إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله النار. وبهذا احتج الجبرية أن ما عمل عبد عملاً من خير أو شر إلا ما قدره الله تعالى يوم الميثاق. وروي سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لما خلق الله تعالى آدم أخرج ذريته من ظهره مثل الذر، فقال لأصحاب اليمين هؤلاء في الجنة ولا أبالي وقال للآخرين هؤلاء في النار ولا أبالي^(١). وروي أسباط عن السدي في قول الله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ الآية. قال لما أخرج الله تعالى آدم من الجنة قبل أن يهبط من السماء مسح صفحة ظهر آدم اليمين فأخرج منه ذرية بيضاء مثل اللؤلؤ كهيئة الذر. فقال ادخلوا الجنة برحمتي. ومسح صفحة ظهره اليسرى أخرج منه ذرية سوداء كهيئة الذر فقال لهم ادخلوا النار ولا أبالي فذلك حين يقول أصحاب اليمين وأصحاب الشمال. ثم أخذ منهم الميثاق فقال ألسنت بربكم قالوا بلى. فأجاب طائفة طائعين وطائفة كارهين فقال هو والملائكة شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين^(٢). فلما رويت فيه من الأخبار من طرق شتى لا يجوز رده، ويرجع الطعن إلى أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ورضي الله تعالى عنهم ويجب للطاعن أن يطعن في فهم نفسه لا في الصحابة. وهذا كقوله ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ﴾ أما الجواب عن قولهم إنه قال من ظهورهم ولم يقل من ظهر آدم فالمعنى في ذلك والله أعلم أنه قد أخرج ذرية آدم الذين هم ولده من صلبه ثم أخرج من ظهورهم ذريتهم ثم أخرج من بعدهم حتى أخرج جميع ما هو كائن إلى يوم القيامة فأخرج من ظهورهم كل نسمة تخرج من ظهره. فذكر الأخذ من ظهور ذريته ولم يذكر ظهر آدم لأن في الكلام دليلاً عليه كما قال الله تعالى (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ) ولم يذكر فرعون لأن في الكلام دليلاً عليه. وأما الجواب عن قولهم إنه لا يجوز خطاب الذر فعن هذا القول جوابان. أحدهما: أنه يجوز أن يكونوا كالذر في الصغر ويرزقهم الله تعالى: من العقل ما يكونوا به من أهل الخطاب، ألا ترى أن نملة سليمان بن داود عليهما السلام قد تكلمت بكلام العقلاء وفهم ذلك عنها سليمان وسبح الطير والجبال مع داود. فكذا هذا. والجواب الثاني: أنهم كانوا كالذر في الإزدحام والكثرة. لا في الخلقة والجنّة. ولكنهم في الخلقة مثل خلقتهم اليوم (لأن الذر إذا كثرت وازدحمت لا يعرف عددها. فكذا ذرية آدم كانوا في الكثرة والازدحام مثل الذر ولكنهم في الخلقة مثل خلقتهم اليوم)^(٣). والجواب عن قولهم أنه لا تكون الحجة بشيء لم يذكر: أن يقال أن الله تعالى قد أرسل الرسل وأخبرهم بذلك الميثاق. وإذا أخبرهم الرسل بذلك صار حجة عليهم، فإن قيل إن الرسل وإن أخبروهم فإذا لم يذكروا ذلك فكيف يصير حجة عليهم؟ قيل لهم وإن لم يذكروا صار قول الثقات حجة عليهم. ألا ترى أن رجلاً لو طلق امرأته وقد نسي فشهد عليه شاهدان عدلان بأنه قد طلقها قبل غيبته عنها. يجب عليه أن يقبل قولهما، وكذلك لو صلى فشهد عليه عدلان أنه ترك ركعة من صلاته وجب عليه أن يأخذ بقولهما وإن كان لا يذكر فكذاك ههنا. والجواب عن قولهم إنه لم يقل أحييتنا ثلاث مرات لأن الإحياء المعروف مرتان فذكر الإحياء الذي

(١) أخرجه أحمد في المسند ١٨٦/٤ والحاكم في المستدرک ٣١/١.

(٢) انظر السيوطي في الدر المنثور ١٤١/٣، وانظر تفسير الطبري ٢٤٢/١.

(٣) سقط من أ.

كان معروفاً عنده وقوله تعالى: (شَهِدْنَا) قال بعضهم هذا حكاية عن قول الذرية قالوا بلى شهدنا وتم الكلام. ثم في الآية مضمرة ومعناه أخذنا عليهم الميثاق لكي لا يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين (وقال بعضهم إنما تم الكلام عند قوله بلى ثم إنه قال تعالى شهدنا يعني شهدنا عليكم وأخذنا عليكم الميثاق لكيلا يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا الميثاق غافلين) (١) ﴿أَوْ تَقُولُوا﴾ أي: لكيلا تقولوا ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ ونقضوا العهد ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ لم نعلم به ﴿أَفْتَهْلُكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ يعني آبائنا المشركون. فإن قيل هل كان إقرارهم إيماناً منهم؟ قيل له أما المؤمنون كان إقرارهم إيماناً وأما الكافرون فلم يكن إقرارهم إيماناً لأن إقرارهم كان تقية ولم يكن حقيقة قرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو (٢) ذرياتهم بلفظ الجماعة. وقرأ الباقر ذريتهم بلفظ واحد - لأن الذرية قد أضافها إلى الجماعة فاستغنى عن لفظ الجمع. وقرأ أبو عمرو أن يقولوا بالياء، وكذلك في قوله أو يقولوا. وقرأ الباقر كليهما بالتاء على معنى الخطاب. قوله عز وجل ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ﴾ يعني: هكذا نبين الآيات في أمر الميثاق ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى إقرارهم وإلى التوبة. فالواو الأولى للعطف وهو قوله وكذلك والواو الثانية زيادة للوصل وهي قوله ولعلهم يرجعون ومعناه: وكذلك نفصل الآيات لعلهم يرجعون. أي لكي يرجعوا. قوله تعالى:

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَشَبَّهُ لَمْثَ الْكَلْبِ إِنْ تَحِمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوتَرَكَهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ مِّنْ يَّهْدِي اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَن يُضِلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٧﴾

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: إن لم يرجعوا بذكر الميثاق ولم يتوبوا ولم يتعظوا فأتل عليهم ﴿نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ﴾ أي: خبر الذي أعطيناه ﴿آيَاتِنَا﴾ يعني أكرمناه بإسم الله الأعظم، ويقال: آتيناه آياتنا يعني الكتب وهي علم التوراة وغيره ﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ يعني: خرج منها كما تنسلخ الحية من جلدها، ويقال تهاون بها ولم يعرف حقها ولا حرمتها وخرج منها ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ يقول غره الشيطان ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ أي: فصار من الظالمين وفي الضالين. قال بعضهم (٣) هو بلعم بن باعوراء، كان عابداً من عباد بني إسرائيل وكان مستجاب الدعوة فنزع الله تعالى الإيمان عنه بدعاء موسى عليه السلام. وذلك أن موسى عليه السلام قاتل فرعوناً من الفراعنة، فجمع ذلك الفرعون الكهنة والسحرة فقال لهم أعينوني على هؤلاء. يعني قوم موسى، فقالوا لن تستطيعهم ولكن بجوارك رجل منهم فلو بعثت إليه واستعنت به، فبعث الملك إلى بلعم فلم يجبه فبعث الملك إلى امرأة بلعم الهدايا وطلب منها بأن تأمره بأن يجيب الملك، فجاءته «امراته» وقالت نحن في جوار هذا الملك فلا بد لك من إجابته، فأجابهم إلى ذلك وركب أتانا له وخرج إليهم فسار حتى إذا كان في بعض الطريق وقفت أتانته فضربها، فلما ألح عليها كلمته الأتان وقالت أنظر إلى ما بين يديك فنظر فإذا هو جبريل. قال له خرجت مخرجاً ما كان ينبغي لك أن تخرج، فإذا خرجت فقل حقاً. قال فلما قدم عليه أمر له بالذهب والفضة والخدم والفرش فقبل. فقال له قد دعوتك لتدعولي على هذا

(١) زيادة في أ.

(٢) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٣٠١، سراج القاري ٢٣١.

(٣) انظر أسباب النزول ١٦٩.

العسكر دعوة قال غداً، فلما تلاقى القوم، قال بلعم: إن بني إسرائيل أمة موسى ملعون من لعنهم ومبارك من بارك عليهم. فقالوا له ما زدتنا إلا خبالاً. قال بلعم ما استطعت غير ما رأيت. ولكني أدلك على أمر إن فعلته فوقعوا به خذلوا ونصرت عليهم، تعمد إلى نساء حسان فتجعل عليهن الحلي والثياب والعطر ثم ترسلهن في عسكرهم، فإن وقعوا بهن خذلوا، ففعل ذلك فما تعرض لهن منهم إلا سفهاؤهم فخذلوا. فأخبر بذلك موسى فدعا عليه فترع الله منه الإيمان. وقال^(١) بعضهم إنما هو أمية بن أبي الصلت. قرأ الكتب ورغب عن عبادة الأوثان وكان يخبر أن نبينا يبعث وكان قد أظلم زمانه، وكان يرى أن الوحي ينزل عليه لكثرة علمه، فلما سمع بخروج النبي - صلى الله عليه وسلم - وقصته كفر حسداً له. وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا سمع شعره قال آمن لسانه وكفر قلبه. فذلك قوله آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. ثم قال ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ يعني بالآيات، ويقال: رفعناه في الآخرة بما علمناه من آياتنا ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ يعني أمية بن أبي الصلت أو بلعم بن باعوراء، مال إلى الدنيا ورضي بها ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ أي: هوى نفسه ويقال عمل بهوى المرأة وترك رضى الله، ويقال: أخذ مسافل الأمور وترك معاليها ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ يقول مثل بلعم كمثل الكلب ﴿إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ يقول إن طردته فهو يلهث ﴿أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ يعني: وإن تركته فهو يلهث. قال القتيبي: كل شيء يلهث من إعياء أو عطش ما خلا الكلب فإنه يلهث في حال الراحة والصحة والمرض، فضرب الله تعالى به مثلاً، يعني كما أن الكلب إن طردته أو تركته يلهث فكذلك بلعم أو أمية بن أبي الصلت إن وعظته لم يتعظ وإن تركته لم يفعل. وقال مجاهد^(٢): يعني الكفار إن قرء عليهم الكتاب لم يقبلوا وإن لم يقرأ عليهم لم يعملوا^(٣) هم أهل مكة ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني ذلك صفة الذين جحدوا نبوة النبي - صلى الله عليه وسلم - والقرآن ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ﴾ أي: اقرأ عليهم القرآن ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: لكي يتعظوا بأمثال القرآن ويؤمنوا به قوله تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلًا﴾ يعني: بش مثل ﴿الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني بش مثل من كان مثل الكلب. وإنما ضرب المثل بالكلب تقييحاً لمذهبهم. ويقال بش مثل القوم الذين كذبوا وكانت صفتهم مثل صفة بلعم وهم أهل مكة كذبوا بآياتنا فلم يؤمنوا بها مثل بلعم ﴿وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ يعني: يضررون بأنفسهم. ثم قال تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ يعني: من يهده الله لدينه فهو المهتدي من الضلالة ﴿وَمَنْ يَضِلَّ﴾ يعني ومن يضل عن دينه ويخذله ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ بالعقوبة، قوله تعالى:

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ
 ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ
 بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا﴾ يعني خلقنا لجهنم كثيراً ﴿مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ فإن قيل قد قال في آية أخرى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ فأخبر أنه خلق الجن والإنس لعبادته، وههنا يقول خلقهم لجهنم. قيل له قد خلقهم للأمرين جميعاً، منهم من يصلح لجهنم فخلق لها، ومنهم من يصلح للعبادة فخلق لها. ولأن من لا يصلح لشيء لا يخلق لذلك الشيء. ويقال معنى قوله إلا ليعبدون يعني إلا للأمر والنهي، ويقال إلا ليعبدون يعني

(١) انظر أسباب النزول ١٧٠.

(٢) أخرجه الطبري في التفسير ٢٧٢/١٣.

(٣) سقط في ظ.

إلا لكي يمكنهم أن يعبدوا وقد بينت لهم الطريق، ويقال في هذه الآية تقديم وتأخير ومعناه: ولقد ذرأنا جهنم لكثير من الجن والأنس ثم وصفهم فقال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ يعني لا يعقلون بها الحق كما قال في آية أخرى ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ ثم قال: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ يعني الهدى ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ يعني: الهدى ثم ضرب لهم مثلاً آخر فقال: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ فسيبهم بالأنعام لقلة رغبتهم وتغافلهم عن الحق، يعني إنهم كالأنعام في ذهنهم لا في صورهم لأنه ليس للأنعام إلا الأكل والشرب، فهي تسمع ولا تعقل كذلك الكافر هو غافل عن الأمر والنهي والوعد والوعيد ثم قال: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ سبيلاً يعني الكفار أخطأ طريقاً من الأنعام، لأن الأنعام إذا عرفت أنها تركت الطريق رجعت إلى الطريق، والكفار لا يرجعون إلى الطريق، ولأن الأنعام تعرف ربها والكفار لا يعرفون ربهم. ويقال لما نزلت هذه الآية أولئك كالأنعام. تضرعت الأنعام إلى ربها فقالت: يا ربنا شبت الكفار بنا ونحن لا ننكر وحدانيتك. فأعذر الله تعالى الأنعام فقال: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ من الأنعام لأن الأنعام مطيعة لله تعالى والكفار غير مطيعين لله تعالى ثم قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ يعني عن أمر الله تعالى وعما ينفعهم. قال الفقيه أبو الليث حدثنا الفقيه أبو جعفر. قال حدثنا أبو يعقوب إسحاق بن عبد الله القاري. قال حدثنا حازم بن يحيى الحلواني قال حدثنا الحسين بن الأسود. قال حدثنا أبو أسامة عن يزيد بن سنان عن أبي منيب الحمصي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي الدرداء^(١) قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خلق الله الجن ثلاثة أصناف: صنفاً حيات وعقارب وخشاش الأرض، وصنفاً كالريح في الهواء، وصنفاً عليهم الثواب والعقاب، وخلق الله الإنس ثلاثة أصناف. صنفاً كالبهائم وهم الكفار قال: قال الله تعالى لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا إلى قوله أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ. وصنفاً آخر أجسادهم كأجساد بني آدم وأرواحهم كأرواح الشياطين، وصنفاً في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله. . . قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ وذلك أن رجلاً دعا الله في صلاته ودعا الرحمن. فقال أبو جهل أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً فما بال هذا يدعو ربين اثنين. فأنزل الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ الرحمن الرحيم الملك القدوس ونحوه. فدعا النبي - صلى الله عليه وسلم - الرجل فقال ادع الله أو ادع الرحمن رغماً لأنف المشركين. ويقال لله وللأسماء الحسنى يعني الصفات العلى «فادعوه بها». وروى أبو هريرة^(٢) رضي الله عنه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحدة من أحصاها دخل الجنة. ومن أسمائه عز وجل الرحمن الرحيم وقد ذكرنا تفسيرها. ومن أسمائه الأحد وأصله الواحد بمعنى الواحد وهو الذي ليس كمثله شيء، ومنها الصمد وهو السيد الذي صمد إليه كل شيء أي قصده، ومنها القيوم وهو البالغ في القيام بكل ما خلق، ومنها الولي يعني المتولي أمور المؤمنين، ومنها اللطيف وهو الذي يلطف بالخلق من حيث لا يعلمون ولا يقدرُونَ، ومنها الودود المحب الشديد المحبة ومنها الظاهر والباطن الذي يعلم ما ظهر وما بطن، ومنها البديع الذي ابتدع الخلق على غير مثال، ومنها القدوس أي ذو البركة ويقال الطاهر، ومنها الشهيد الذي لا يغيب عنه شيء، ومنها الحنان أي ذو الرحمة والعطف، ومنها المنان الكثير المن على عباده، ومنها الفتاح يعني الحاكم، ومنها الديان يعني المجازي، ومنها الرقيب يعني الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء، ومنها ذو القوة المتين يعني الشديد القوة على أمره، ومنها الوكيل الذي يتوكل بالقيام بجميع ما خلق، ومنها السبوح الذي تنزه عن كل سوء، ومنها السلام يعني: الذي سلم

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/١٤٧ وعزاه للحكيم الترمذي وابن أبي الدنيا في مكاييد الشيطان وأبي يعلي وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه.

(٢) أخرجه البخاري ١٣/٣٧٧ في التوحيد باب إن لله مائة اسم إلا (٧٣٩٢) ومسلم ٤/٢٠٦٣ في كتاب الذكر (٦/٢٦٧٧).

الخلق من ظلمه، ومنها المؤمن الذي آمن الخلق من ظلمه، ومنها العزيز أي: المنيع الذي لا يغلبه شيء، ومنها المهيمن يعني: الشهيد، ومنها الجبار الذي جبر الخلق على ما أراد ومنها المتكبر الذي تكبر عن ظلم العباد ومنها البارئ يعني الخالق، وسائر الأسماء التي ثبتت عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعن الصحابة رضي الله عنهم. وقال الزجاج: لا ينبغي لأحد أن يدعوه بما لم يصف به نفسه ولم يسم به نفسه فيقول يا جواد. ولا ينبغي له أن يقول يا سخي. لأنه لم يسم به نفسه، وكذلك يقول يا قوي. ولا يقول يا جلد. ثم قال: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ قرأ حمزة يلحدون^(١) بنصب الياء والحاء وقرأ الباقون بضم الياء وكسر الحاء (يُلْحِدُونَ) فمن قرأ بالنصب فمعناه وذروا الذين يميلون في أسمائه يعني يُخَوِّرون ويمارون في أسمائه ويعدلون. فسموا اللات والعزى. ومن قرأ بالضم فمعناه وذورا الذين يجادلون ويمارون في أسمائه، ويقال إن الله تعالى قد احتج على الكفار بأربعة أشياء، بالخلق وهو قوله تعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ وقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ والثاني في الملك وهو قوله ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وقال في الأوثان ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾ والثالث في القوة وهو قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهو السميع البصير إن ربي قريب مجيب ذو القوة المتين وقال في الأوثان ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا﴾ فوصفهم بالعجز. والرابع بالأسماء فقال ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ وقال في الأوثان ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ ويقال إن الكفار أرادوا أن يسموا آلهتهم الله فجري على لسانهم اللات وقال أهل اللغة^(٢) إنما سمي اللات لأنه كان عنده رجل كان يلت السوق، وأرادوا أن يسموا العزيز فجري على لسانهم العزى وأرادوا أن يسموا منان فجري على لسانهم مناة، وبقيت تلك الأسماء للأصنام وأصل الإلحاد هو الميل ولهذا سمي اللحد لحداً لأنه في ناحية ثم قال ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني وسيهانون^(٣) ويعاقبون بما كانوا يعملون من الشرك والإلحاد في الأسماء.

وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأَمَلِي لَهُمْ آتٍ كِيدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أُولَئِكَ يَنْفَكُّوْا مَا بَصَاحِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أُولَئِكَ يَنْظُرُوا فِي مَلَائِكَةِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ يعني جماعة وهم أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - يهدون بالحق يعني يدعون إلى الحق ويأمرون بالحق ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ يعني بالحق يعملون وذلك أنه لما نزل قوله تعالى ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ قال أناس من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يا رسول الله قد ذكر الله تعالى هؤلاء الرهط بالخير الجسيم من بني إسرائيل إن آمنوا بك وجعل لهم أجرين ولنا أجراً واحداً وقد

(١) انظر حجة القراءات ص ٣٠٣: قال الكسائي: هما لغتان يقال (لحد وألحد) وقال غيره: (يلحدون أي يطعنون في أسمائه ويلحدون: يعرضون). وكان ابن جريج يقول: (يلحدون) قال: اشتقوا أسماء آلهتهم من أسماء الله، اشتقوا (العزى) من العزيز، (اللات) من الله. وقال أبو عبيد: (يلحدون: يجورون ولا يستقيمون، وإنما سمي (اللحد) لأنه في ناحية ولو كان مستقيماً كان ضريحاً) وحجة الرفع قوله: (ومن يرد فيه بإلحاد) أي - باعتراض. حجة القراءات ٣٠٣.

(٢) سقط في ظ.

(٣) سقط في ظ.

صدقناك والرسول والكتب فنزل «وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً» يعني من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - يهدون بالحق وبه يعدلون. قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني بمحمد والقرآن ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ يعني سنأخذهم بالعذاب ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني من حيث لا يشعرون وقال الكلبي: يعني نزين لهم فهلهم من حيث لا يعلمون. يقول سنأتيهم بالعذاب وهم المستهزءون فيقتل كل رجل منهم بغير قتلة صاحبه. وقال القتيبي الاستدراج أن يذيقهم من بأسه قليلاً قليلاً، ويقال استدراج فلان فلاناً يعني يعرف ما عنده وأصل هذا من الدرجة لأن الراقي يرقى درجة درجة فاستعير من هذا كقوله تعالى (وَالْمُرْسَلَاتُ عُرْفًا) يعني الملائكة يتابعون بعضهم بعضاً كعرف الفرس وكقوله تعالى ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: يمسكون عن العطية وقال السدي^(١) سنستدرجهم يعني كلما جددوا معصية جددنا لهم نعمة وأنسيناهم شكرها ثم نأخذهم من حيث لا يعلمون. فذلك الاستدراج ثم قال ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ يعني: وأمهلهم ﴿إِنْ كُنِّيْدِي مَتِينٌ﴾ يعني: أن عقوبتي شديدة ويقال إن صنيعي محكم، ويقال إن أخذي شديد ثم قال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ يعني: أهل مكة فيما يأمرهم محمد - صلى الله عليه وسلم - أن يعبدوا خالقهم ورازقهم وكاشف الضر عنهم ولا يعبدوا من لا يقدر على شيء منه، أمثل هذا يكون مجنوناً ويقال معناه أولم يتفكروا في دلائل النبي - صلى الله عليه وسلم - ومعجزاته ليستدلوا بأنه نبي. وقد تم الكلام. ثم استأنف فقال ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ﴾ ويقال هذا على وجه البناء ومعناه أولم يتفكروا ليعلموا ما بصحابهم من جنة يعني: جنوناً. ويقال إن النبي - صلى الله عليه وسلم - صعد ذات ليلة الصفا فدعا قريشاً إلى عبادة الله تعالى بأسمائهم فرداً فرداً^(٢) فقال بعضهم إن صاحبكم لمجنون فوعظهم الله تعالى فقال أولم يتفكروا. يقول أولم يجالسوه ويكلموه هل به من جنون ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي: رسولاً بيناً وهذا كقوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفَرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ﴾ ووعظهم ليعتبروا في صنعه فيوحده فقال ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: في خلق السموات والأرض ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ في السماء من الشمس والقمر والنجوم وما خلق الله في الأرض من الجبال والبحار وغير ذلك فيعتبروا ويؤمنوا بأن الذي خلق الذي ترون هورب واحد لا شريك له ﴿وَأَنْ عَسَىٰ﴾ يعني وينظروا في أن عسى ﴿أَنْ يَكُونَ قَدْ أَقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ﴾ يعني قد دنا هلاكهم ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني إن لم يؤمنوا بالقرآن فبأي حديث يؤمنوا بعد القرآن لأن هذا آخر الكتب نزولاً وليس بعده كتاب ينزل ثم قال تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ أي: من يخذله الله عن دين الإسلام فلا هادي له إلى الهدى ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: يتركهم في ضلالتهم يترددون. قرأ أبو عمرو ويذَرُهُمْ^(٣) بالياء وضم الراء على معنى الخبر وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر ونَذَرُهُمْ بالنون وضم الراء وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص ويَذَرُهُمْ بالياء وجزم الراء وجعلوه جواب الشرط. ومعناه من يضل الله يذره.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا سْتَكْرَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا

(١) ذكره السيوطي ١٤٩/٣ وعزه لابن أبي حاتم أبي الشيخ.

(٢) انظر البحر المحيط ٤٣١/٤.

(٣) انظر حجة القراءات ٣٠٣، سراج القاري ٢٣١.

مَسْنِي السُّوءِ إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ أي : قيام الساعة ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ أي : متى حينها وقيامها . ويقال هذا الكلام على الاختصار ، ومعناه أي أوان قيامها ثم قال ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ أي : علم قيام الساعة عند ربي وما لي بها من علم ﴿لَا يُجْلِيهَا لَوْ قَتَيْتُهَا إِلَّا هُوَ﴾ أي : لا يكشفها لحينها إلا الله ، ويقال لا يقدر أحد على إظهارها إلا هو . يعني : إلا الله ، ويقال لا يعلم أحد قيامها إلا هو ﴿ثُقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي : ثقل علم قيام الساعة على أهل السموات وأهل الأرض ، ويقال ثقلت أي : خفي علمها ، وإذا خفي الشيء ثقل علمه ، ويقال معناه ثقل حمل ذكرها لفضاعة شأنها وأمرها . ثم قال ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ يعني فجأة ثم قال ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ قال مقاتل كأنك استحفيت عنها السؤال حتى علمتها^(١) . وقال القتيبي : أي كأنك حفي تطلب علمها ، ومنه يقال تحفي فلان بالقوم إذا بالغ في البر ، ويقال كأنك حفي عنها أي كأنك جاهل بها ، ويقال في الآية تقديم : ومعناه يسألونك كأنك حفي عنها يعني كأنك عالم بها ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ وروى إبراهيم بن يوسف بإسناده أن النبي - صلى الله عليه وسلم - سأل رجل . فقال : متى الساعة ؟ فقال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ولكن أشرط الساعة عشرة . يقرب فيها الماحل ويطرف فيها الفاجر ويعجز فيها المنصف وتكون الصلاة مناً والزكاة مغرمًا والأمانة مغنماً واستطالة القراء ، فعند ذلك تكون إمارة الصبيان وسلطان النساء ومشورة الإماء . ثم قال : ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ يعني علم قيامها عند الله ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنها كائنة ولا يصدقون بها . قوله تعالى : ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ قال مقاتل يعني : لا أقدر لنفسي أن أسوق إليها خيراً أو أدفع عنها ضرراً حين ينزل بي فكيف أملك علم الساعة ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ فيصيني ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾ أي : غيب النفع والضرر إذ جاء ﴿لَا اسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءِ﴾ يعني لاستكثر من النفع وما أصابني الضرر . وقال الكلبي : ^(٢) إن أهل مكة قالوا له ألا يخبرك ربك بالبيع الرخيص قبل أن يغلو فتشتره فترج فيه فنزل قل لهم ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير للجذوبة والقحط ، ويقال لو كنت أعلم متى أموت لاستكثرت من العمل الصالح . وقال الضحاك : قال لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرراً يعني الغني والفقر إلا ما شاء الله إن شاء أغنى عبده وإن شاء أفقره ، ولو كنت أعلم الغيب أي : مواضع الكنوز لاستخرجتها . وما مسني السوء يعني الفقر ﴿إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أي : مخوف بالنار ﴿وَبَشِيرٌ﴾ يعني مبشراً بالجنة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني يصدقون بالبعث .

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَاحِدًا لَّنْكَوْنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَاحِدًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيْشِرُكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ

(١) ذكر السيوطي في الدر المنثور مثله عن مجاهد ١٥١/٣ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ .

(٢) انظر تفسير الخازن ٢/٢٦٥ وزاد المسير ٣/٢٩٩ .

إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاكُمْ عَلَيْكُمْ أَدْعَاؤُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٨٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَمْ يَأْمُرْ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ إِذْ يَبْطِشُونَ فِي الْبَارِ أَنْ يَدْعُوا لِلَّهِ لَمْ يُدْعُوا لَكُمْ أَصْلًا قُلْ يَتَّبِعُوا أَمْرًا مِمَّا قَالُوا لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُكُمْ وَلَا يَنْظُرُونَ ﴿١٩٥﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يعني من نفس آدم ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني خلق من نفس آدم، من ضلع من أضلاعه اليسرى زوجته حواء ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ يعني ليطمئن إليها ويجامعها، ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أي: سكن إليها وجامعها ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا﴾ يعني: خفيف الماء ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أي: استمرت بالحمل، يقول قامت بالحمل وقعدت ولا تدري أم هي حبل أم لا ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ يعني ثقل الولد في بطنها ﴿دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ وذلك أن إبليس أتاه فقال يا حواء ما هذا الذي في بطنك؟ قالت ما أدري. قال أخاف إنها بهيمة وإنني من الله بمنزلة، فإن دعوت الله فولدت إنساناً صالحاً أسميه باسمي؟ قالت نعم. وما اسمك. قال: عبد الحارث فكذب فدعت حواء وآدم فذلك قوله دعوا الله ربهما ﴿لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا﴾ يعني أعطيتنا ولداً سوياً صحيح الجوارح ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ وهذا قول سعيد^(١) بن جبير رواه عن ابن عباس. وروى معمر عن قتادة أنه قال: كان آدم لا يولد له ولد إلا مات فجاء الشيطان وقال إن شرك أن يعيش ولدك فسمه عبد الحارث ففعل، فأشركا في الاسم ولم يشركا في العبادة. وروى عن السدي^(٢) أنه قال: اسم إبليس هو الحارث يوم لعن، فأراد أن ينسب إليه فأمرها فسمته عبد الحارث فعاش بعد ذلك أياماً ثم مات. فذلك قوله ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا﴾ يعني أعطاهما ﴿صَالِحًا﴾ خلقاً آدمياً سوياً ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ قرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر^(٣) جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ بكسر الشين وجزم الراء. وقرأ الباقر شُرَكَاءَ بالضم ونصب الراء. فمن قرأ بالكسر فهو على معنى التسمية وهو اسم يقوم مقام المصدر. ومن قرأ بالضم فمعناه جعل له شركاء يعني الشريك في الاسم. وإنما ذكر الشركاء وأراد به الشريك يعني الشيطان. فإن قيل من قرأ بالكسر كان من حق الكلام أن يقول جعلاً لغيره شركاً لأنهما لا ينكران أن الأصل لله تعالى وإنما جعلاً لغيره شركاً أي: نصيباً، قيل له معناه جعلاً له شركاء يعني ذا شرك. فذكر الشرك والمراد به شركه كقوله تعالى: (وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ) أي: أهل القرية. فضرب الله تعالى بهذا مثلاً للكفار يعني كما أن آدم وحواء. أعطاهما ورزقهما فأشركوا في عبادته. ثم نزه نفسه عن الشرك فقال تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: هو أعلا وأجل من أن يوصف بالشرك ثم رجع إلى قصة الكفار فقال الله تعالى: ﴿أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ يعني أيشركون الآلهة مع الله تعالى: وهم كفار مكة ما لا يخلق شيئاً وهي الآلهة ﴿وَهُمْ يُخْلُقُونَ﴾ أي: ينحتون ويصنعونها بأيديهم ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ يعني: لا يستطيعون نصراً لمن يعبدهم ﴿وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ يعني: لا يستطيعون أن يمتنعوا مما نزل بهم من العذاب ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى﴾ قال الكلبي يعني الآلهة. وإن يدع المشركون آلهتهم إلى أمر ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ يعني لا يتبعهم آلهتهم ﴿سِوَاكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿أَدْعَاؤُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ لا تعقل

(١) ذكره السيوطي في الدر ١٥٢/٣ وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) انظر تفسير الطبري ٣١١/١٣.

(٣) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٣٠٤، سراج القاري ٢٣٢.

شيئاً لأنه ليس فيها روح. وقال مقاتل وإن تدعوهم إلى الهدى يعني كفار مكة «لا يتبعوكم» لا يتبعوكم يعني النبي عليه السلام «سواء عليكم أَدْعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ» فلا يؤمنون. قرأ نافع^(١) لا يَتَّبِعُوكُمْ بجزم التاء وقرأ الباقون بالنصب والتشديد لا يَتَّبِعُوكُمْ، وهما لغتان تبعه وأتبعه معناهما واحد. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ يعني تعبدون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني الأصنام ﴿عِبَادُ أَصْنَامٍ﴾ يعني مخلوقين مملوكين أشباهكم وليسوا بالآلهة ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنها آلهة. ثم قال عز وجل: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا﴾ يعني في حوائجكم ﴿أَمْ لَهُمْ آيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا﴾ يعني يعطون بها ويمنعون عنكم الضر ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ يعني عبادتكم ﴿أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ يعني دعاءكم. وقد احتجت المشبهة بهذه الآية أن من لا يكون له يد ولا رجل ولا بصر لا يصلح أن يكون إلهاً. ولكن لا حجة لهم في ذلك. لأن الله تعالى بين ضعف معبودهم وعجزهم وبين أنهم اشتغلوا بشيء لا فائدة فيه ولا منفعة لهم في ذلك. ثم قال ﴿قُلْ﴾ يا محمد يعني لكفار مكة ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ يعني آلهتكم ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ يعني اعملوا بي ما شئتم ﴿فَلَا تَنْظُرُونَ﴾ يعني: لا تمهلون ولا تؤجلون، لأنهم خوفوه بالهتهم. قرأ أبو عمرو ثم كِيدُونِ بالياء في حال الوصل. وقرأ الباقون بغير الياء. ثم قال عز وجل:

إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾

﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ﴾ يعني حافظي وناصري الله الذي نزل الكتاب. يعني: القرآن، ويقال إن الذي يمنعي منكم الله الذي أنزل جبريل بالكتاب ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ يعني: المؤمنين فيحفظهم ولا يكلهم إلى غيره ثم قال ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني تعبدون من دون الله ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾ أي: لا يقدرُونَ منكم ﴿وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ أي يمنعون ممن أذاها، لأن الكفار كانوا يلطخون العسل في فم الأصنام، وكان الذباب يجتمع عليه فلا تقدر دفع الذباب عن نفسها. ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا﴾ قال الكلبي يعني إن دعا المشركون آلهتهم لا يسمعون أي يجيبونهم^(٢): ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ يعني الأصنام تراهم مفتحة أعينهم وهم لا يبصرون شيئاً. قال مقاتل: وإن تدعوهم إلى الهدى يعني كفار مكة لا يسمعون وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون الهدى. قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما^(٣): يعني خذ ما أعطوك من الصدقة يعني ما فضل من الأكل والعيال. ثم نسخ بآية الزكاة، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ يعني الفضل وأمر بالمعروف يعني: ادعهم إلى التوحيد ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ أي من جهل عليك مثل أبي جهل وأصحابه، وكان ذلك قبل

(١) انظر حجة القراءات ٣٠٥، وسراج القاري ٢٣٢.

(٢) انظر الطبري ٣٢٨/١٣، زاد المسير ٣٠٨/٣.

(٣) انظر تفسير الطبري ٣٢٨/١٣.

أن يؤمر بالقتال، ويقال خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ يعني: اعف عمن ظلمك وأعط من حرمك وصل من قطعك. قال الفقيه أبو الليث حدثنا عن الشعبي الخليل بن أحمد قال حدثنا الديلمي قال حدثنا أبو عبيد الله وحدثنا سفيان عن أبي هريرة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لما نزلت هذه الآية خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وأعرض عن الجاهلين سأل عنها جبريل. فقال جبريل حتى أسأل العالم. فذهب ثم أتاه فقال يا محمد إن الله تعالى يأمرك أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك^(١). وقال القتيبي في قول النبي - صلى الله عليه وسلم - أوتيت جوامع الكلم^(٢) فإن شئت أن تعرف ذلك فتدبر في هذه الآية كيف جمع له في هذا كل خلق عظيم، لأن في أخذ العفو صلة القاطعين والصفح عن الظالمين وإعطاء المانعين، وفي الأمر بالمعروف تقوى الله وصلة الأرحام وغض البصر، وفي الإعراض عن الجاهلين الحلم وتنزيه النفس عن ممارات السفه وعن منازعة اللجوج وإنما سمي المعروف معروفاً لأن كل نفس تعرفه وكل قلب يطمئن إليه قوله تعالى^(٣): ﴿وَمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾ قال مقاتل يعني: ولا يفتننكم فتنة في أمر أبي جهل ﴿فاستعذ بالله﴾ قال الكلبي: أي وإما يصيبك من الشيطان وسوسة فاستعذ بالله. وقال الزجاج النزاع أدنى حركة، ومعناه إن أتاك من الشيطان أدنى وسوسة فاستعذ بالله ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يعني سميع لدعائك عليم بوسوسة الشيطان.

إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَافٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغِيِّ ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَأْيَةٌ قَالُوا لَوْلَا جِئْتِهَا قُلٌّ إِنَّمَا اتَّبَعُ مَا يُوْحَىٰ إِلَىٰ مِن رَّبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ يعني اتقوا الشرك والفواحش ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَافٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾ يعني ذنب ﴿تَذَكَّرُوا﴾ يعني عرف المتقون أنها معصية ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ يعني إذا هم على بصيرة^(٤) متنبهون عن المعصية وقال الزجاج: تذكروا ما أوضح الله لهم من الحجة فإذا هم مبصرون. قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي^(٥) طيف بغير ألف. وقرأ الباقر بالألف (طائف) وروي عن سعيد بن جبير أنه كان يقرأ إذا مسهم طيف والطيف الغضب. وعن مجاهد^(٦) في قوله طائف قال الغضب. ثم ذكر حال الكفار فقال عز وجل ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغِيِّ﴾ يعني إخوان الشياطين يمدونهم أي: يدعونهم إلى المعصية ويقال يلجونهم في الشرك والضلالة ﴿ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ﴾ عنها كما أقصر المسلمون عنها حين أبصروها. قرأ نافع يمدونهم^(٧) بضم الياء وكسر الميم من أمدَّ يمدَّ. وقرأ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٥٣/٣ عن الشعبي وعزاه لابن أبي الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم أبي الشيخ.

(٢) أخرجه مسلم ٣٧١/١ في المساجد (٥٢٣/٥) وبلغت بعثت بجوامع الكلم أخرجه البخاري ١٢٨/٦ في الجهاد (٢٩٧٧، ٧٢٧٣) ومسلم ٣٧١/١ (٥٢٣/٦).

(٣) سقط في ظ.

(٤) مثبت في أ.

(٥) انظر حجة القراءات ٣٠٥، وسراج القاري ٢٣٢.

(٦) ذكره السيوطي في الدر ١٥٥/٣ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في ذم الغضب وابن جرير وابن المنذر وأبي الشيخ وانظر تفسير الطبري ٣٣٦/١٣.

(٧) انظر حجة القراءات ٣٠٦، سراج القاري ٢٣٢.

الباقون يمدونهم بالنصب من مَدَّ يَمُدُّ. قال بعضهم هذا عطف على قوله وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعون وإخوانهم يمدونهم في الغي. وقال الزجاج معناه التقديم والمعنى لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون وإخوانهم يمدونهم في الغي. يعني الشياطين. والغى الجهل والوقوع في الهلكة قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ﴾ وذلك حين أبطأ عليه جبريل حين سأله شيئاً ﴿قَالُوا لَوْلَا آجِيتِيهَا﴾ أي: هلا أتاهم من تلقاء نفسه، وهذا كقوله (أنت بقرآن غير هذا) ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ أي قل إذا أمرت بأمر فعلت ولا أبتدع ما لم أؤمر ﴿هذا بصائر من ربكم﴾ يعني القرآن بيان من ربكم. وقال بعض أهل اللغة البصائر في اللغة طرائق الأمر واحداثها بصيرة، ويقال طريقة الدين. معناه ظهور الشيء وبيانه، ﴿وهدى ورحمة﴾ أي القرآن هدى من الضلالة ويقال كرامة ورحمة من العذاب ونعمة لمن آمن به ﴿لَقَوْمٌ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: يصدقون

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ وذلك أن المسلمين كانوا يتكلمون في الصلاة قبل نزول هذه الآية فنهوا^(١) عن ذلك وأمروا بالسكوت. وروى عبد الوهاب عن مجاهد عن أبي العالية الرياحي قال كان النبي - عليه السلام - إذا صلى فقرأ وقرأ أصحابه خلفه حتى نزل وإذا قرأ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا فسكت القوم وقرأ النبي - عليه السلام -^(٢) وروى قتادة عن سعيد بن المسيب في قوله تعالى وإذا قرأ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا قال في الصلاة^(٣) وروى مغيرة عن إبراهيم مثله. وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله وإذا قرأ القرآن فاستمعوا له، هذا لكل قاريء؟ قال لا ولكن هذا في الصلاة المفروضة^(٤). وقال أبو هريرة^(٥) رضي الله عنه مثله. وقال مجاهد^(٦): وجب الإنصات في موضعين في الصلاة والإمام يقرأ وفي الجمعة والإمام يخطب. وعن مجاهد أنه قال: لا بأس إذا قرأ الرجل في غير الصلاة أن يتكلم. وقال عطاء والحسن إن هذا في الصلاة والخطبة. ويقال فاستمعوا له وأنصتوا أي: اعملوا بما في كتاب الله تعالى ولا تتجاوزوا عنه إلى غيره. ثم قال ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لكي ترحموا فلا تعذبوا. قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا﴾ يقول إقرأ يا محمد إذا كنت إماماً بنفسك تضرعاً. يعني: مستكيناً ﴿وَخِيفَةً﴾ يعني وخوفاً من عذابه وهذا قول مقاتل. وقال الكلبي واذكر ربك في نفسك يعني سرّاً ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ يعني العلانية حتى يسمع من خلفك. وقال الضحاك معناه اجهر بالقراءة في صلاة الغداة والمغرب والعشاء ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ يعني لا تغفل عن القراءة

(١) انظر تفسير الخازن ٢/٢٧٢.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/١٥٦ وعزه لعبد بن حميد وأبي الشيخ.

(٣) أخرجه ابن جرير في التفسير ١٣/٣٤٧.

(٤) ذكره السيوطي في الدر ٣/١٥٥ وعزه لابن المنذر وابن جرير.

(٥) انظر الدر المنثور ٣/١٥٥.

(٦) ذكره السيوطي في الدر ٣/١٥٧ وعزه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير.

في الظهر والعصر، فإنك تخفي القراءة فيهما. وروي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال «اذكروا الله ذكراً كثيراً خاملاً، قيل وما الذكر الخامل؟ قال الذكر الخفي». قوله تعالى: «بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ» يعني غدوة وعشية. وروى يحيى بن إيوب عن خالد بن زيد عن سعيد بن أبي هلال عن من سمع عقبة بن عامر قال: المسر بالقراءة كالمسر بالصدقة والمعلن بالقراءة كالمعلن بالصدقة ثم قال ولا تكن من الغافلين يعني عن القراءة في الصلاة. قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يعني الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ وذلك أن كفار مكة قالوا: وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجِدَ لِمَا تَأْمُرُنَا وَاسْتَكْبِرُوا عَنِ السَّجُودِ. فنزل إن الذين عند ربك يعني الملائكة لا يستكبرون عن عبادته يعني لا يتعظمون ولا يستنكفون عن طاعته ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ يقول ويذكرونه ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ يعني يصلون. وقال أهل اللغة: الأصل جمع الأصل، والأصل جمع الأصيل والأصال جمع الجمع يعني العشيات والله أعلم بالصواب

فهرس المحتويات

١٠١	الآية : ٢١	٣	مقدمة التحقيق
١٠١	الآية : ٢٢	٦٣	صور عن المخطوطات
١٠٢	الآية : ٢٣	٧١	مقدمة المصنف
١٠٣	الآية : ٢٤	٧٥	تفسير «بسم الله الرحمن الرحيم»
١٠٣	الآية : ٢٥			تفسير سورة الفاتحة
١٠٤	الآية : ٢٦	٧٨	الآيات : ١ - ٧
١٠٥	الآية : ٢٧			تفسير سورة البقرة
١٠٦	الآية : ٢٨			
١٠٦	الآية : ٢٩	٨٥	الآيتان : ١ ، ٢
١٠٧	الآية : ٣٠	٩٠	الآية : ٣
١٠٨	الآية : ٣١	٩١	الآيتان : ٤ ، ٥
١٠٩	الآية : ٣٢	٩١	الآية : ٦
١٠٩	الآية : ٣٣	٩٢	الآية : ٧
١١٠	الآية : ٣٤	٩٤	الآية : ٨
١١٠	الآية : ٣٥	٩٤	الآية : ٩
١١١	الآية : ٣٦	٩٥	الآية : ١٠
١١٢	الآية : ٣٧	٩٥	الآية : ١١
١١٣	الآية : ٣٨	٩٦	الآية : ١٢
١١٣	الآية : ٣٩	٩٦	الآية : ١٣
١١٣	الآيات : ٤٠ - ٤٣	٩٧	الآية : ١٤
١١٥	الآية : ٤٤	٩٧	الآية : ١٥
١١٥	الآية : ٤٥	٩٨	الآية : ١٦
١١٦	الآية : ٤٦	٩٨	الآية : ١٧
١١٦	الآية : ٤٧	٩٩	الآية : ١٨
١١٦	الآية : ٤٨	٩٩	الآية : ١٩
١١٧	الآية : ٤٩	١٠٠	الآية : ٢٠

١٤٨ الآية : ١٠٨	١١٧ الآية : ٥٠
١٤٩ الآية : ١٠٩	١١٨ الآيات : ٥١ - ٥٣
١٤٩ الآية : ١١٠	١١٩ الآية : ٥٤
١٤٩ الآيتان : ١١١ ، ١١٢	١٢٠ الآيتان : ٥٥ ، ٥٦
١٥٠ الآية : ١١٣	١٢٠ الآية : ٥٧
١٥٠ الآية : ١١٤	١٢١ الآيتان : ٥٨ ، ٥٩
١٥١ الآية : ١١٥	١٢٢ الآية : ٦٠
١٥٢ الآيتان : ١١٦ ، ١١٧	١٢٣ الآية : ٦١
١٥٣ الآية : ١١٨	١٢٤ الآية : ٦٢
١٥٤ الآيتان : ١١٩ ، ١٢٠	١٢٥ الآيتان : ٦٣ ، ٦٤
١٥٥ الآية : ١٢١	١٢٦ الآيتان : ٦٥ ، ٦٦
١٥٥ الآيتان : ١٢٢ ، ١٢٣	١٢٧ الآيات : ٦٧ - ٧١
١٥٥ الآية : ١٢٤	١٢٩ الآيتان : ٧٢ ، ٧٣
١٥٦ الآية : ١٢٥	١٣٠ الآيتان : ٧٤ ، ٧٥
١٥٧ الآية : ١٢٦	١٣١ الآيات : ٧٦ - ٧٨
١٥٨ الآيات : ١٢٧ - ١٢٩	١٣٢ الآية : ٧٩
١٥٩ الآية : ١٣٠	١٣٢ الآية : ٨٠
١٥٩ الآيتان : ١٣١ ، ١٣٢	١٣٣ الآيتان : ٨١ ، ٨٢
١٦٠ الآية : ١٣٣	١٣٣ الآية : ٨٣
١٦٠ الآية : ١٣٤	١٣٤ الآيات : ٨٤ - ٨٦
١٦١ الآية : ١٣٥	١٣٥ الآية : ٨٧
١٦١ الآيتان : ١٣٦ ، ١٣٧	١٣٦ الآيات : ٨٨ - ٩٠
١٦٢ الآية : ١٣٨	١٣٧ الآية : ٩١
١٦٣ الآية : ١٣٩	١٣٧ الآية : ٩٢
١٦٣ الآية : ١٤٠	١٣٨ الآية : ٩٣
١٦٣ الآية : ١٤١	١٣٨ الآيات : ٩٤ - ٩٦
١٦٣ الآية : ١٤٢	١٣٩ الآيتان : ٩٧ ، ٩٨
١٦٤ الآية : ١٤٣	١٤٠ الآية : ٩٩
١٦٥ الآيتان : ١٤٤ ، ١٤٥	١٤٠ الآيتان : ١٠٠ ، ١٠١
١٦٦ الآيتان : ١٤٦ ، ١٤٧	١٤٠ الآية : ١٠٢
١٦٦ الآية : ١٤٨	١٤٤ الآيتان : ١٠٣ ، ١٠٤
١٦٧ الآيتان : ١٤٩ ، ١٥٠	١٤٥ الآية : ١٠٥
١٦٧ الآية : ١٥١	١٤٥ الآية : ١٠٦
١٦٨ الآية : ١٥٢	١٤٨ الآية : ١٠٧

٢٠٢	الآيتان : ٢١٩ ، ٢٢٠	١٦٨	الآيتان : ١٥٣ ، ١٥٤
٢٠٤	الآية : ٢٢١	١٦٩	الآيات : ١٥٥ - ١٥٧
٢٠٥	الآيتان : ٢٢٢ ، ٢٢٣	١٧٠	الآية : ١٥٨
٢٠٦	الآيات : ٢٢٤ - ٢٢٦	١٧١	الآيتان : ١٥٩ ، ١٦٠
٢٠٧	الآيات : ٢٢٧ - ٢٣٢	١٧٢	الآيتان : ١٦١ ، ١٦٢
٢١٠	الآية : ٢٣٣	١٧٢	الآية : ١٦٣
٢١١	الآية : ٢٣٤	١٧٣	الآية : ١٦٤
٢١١	الآية : ٢٣٥	١٧٣	الآيات : ١٦٥ - ١٦٧
٢١٢	الآيتان : ٢٣٦ ، ٢٣٧	١٧٥	الآيتان : ١٦٨ ، ١٦٩
٢١٣	الآيتان : ٢٣٨ ، ٢٣٩	١٧٥	الآية : ١٧٠
٢١٤	الآيات : ٢٤٠ - ٢٤٢	١٧٦	الآية : ١٧١
٢١٥	الآية : ٢٤٣	١٧٦	الآيتان : ١٧٢ ، ١٧٣
٢١٦	الآية : ٢٤٤	١٧٨	الآيات : ١٧٤ - ١٧٦
٢١٦	الآية : ٢٤٥	١٧٩	الآية : ١٧٧
٢١٧	الآيات : ٢٤٦ - ٢٥٢	١٨٠	الآيتان : ١٧٨ ، ١٧٩
٢٢١	الآية : ٢٥٣	١٨١	الآيات : ١٨٠ - ١٨٢
٢٢٢	الآية : ٢٥٤	١٨٣	الآيات : ١٨٣ - ١٨٧
٢٢٢	الآية : ٢٥٥	١٨٧	الآية : ١٨٨
٢٢٤	الآية : ٢٥٦	١٨٧	الآية : ١٨٩
٢٢٤	الآية : ٢٥٧	١٨٨	الآيات : ١٩٠ - ١٩٤
٢٢٥	الآية : ٢٥٨	١٩٠	الآية : ١٩٥
٢٢٦	الآية : ٢٥٩	١٩٠	الآيات : ١٩٦ - ٢٠٢
٢٢٧	الآية : ٢٦٠	١٩٥	الآية : ٢٠٣
٢٢٨	الآيتان : ٢٦١ ، ٢٦٢	١٩٥	الآيات : ٢٠٤ - ٢٠٦
٢٢٩	الآية : ٢٦٣	١٩٦	الآية : ٢٠٧
٢٢٩	الآية : ٢٦٤	١٩٧	الآيتان : ٢٠٨ ، ٢٠٩
٢٣٠	الآية : ٢٦٥	١٩٧	الآية : ٢١٠
٢٣٠	الآية : ٢٦٦	١٩٨	الآية : ٢١١
٢٣١	الآية : ٢٦٧	١٩٨	الآية : ٢١٢
٢٣١	الآية : ٢٦٨	١٩٩	الآية : ٢١٣
٢٣١	الآية : ٢٦٩	٢٠٠	الآية : ٢١٤
٢٣٢	الآيتان : ٢٧٠ ، ٢٧١	٢٠٠	الآية : ٢١٥
٢٣٣	الآيات : ٢٧٢ - ٢٧٤	٢٠١	الآيتان : ٢١٦ ، ٢١٧
٢٣٤	الآيات : ٢٧٥ - ٢٨١	٢٠٢	الآية : ٢١٨

٢٧٣ الآية : ٥٩	٢٣٦ الآيات : ٢٨٣ ، ٢٨٢
٢٧٣ الآيات : ٦٠ ، ٦١	٢٣٩ الآية : ٢٨٤
٢٧٥ الآيات : ٦٢ - ٦٦	٢٤٠ الآيات : ٢٨٥ ، ٢٨٦
٢٧٦ الآية : ٦٧	تفسير سورة آل عمران	
٢٧٦ الآية : ٦٨		
٢٧٦ الآية : ٦٩	٢٤٣ الآيات : ١ ، ٢
٢٧٦ الآيات : ٧٠ ، ٧١	٢٤٤ الآيات : ٣ - ٥
٢٧٧ الآيات : ٧٢ - ٧٤	٢٤٤ الآية : ٦
٢٧٨ الآيات : ٧٥ ، ٧٦	٢٤٥ الآيات : ٧ - ٩
٢٧٨ الآيات : ٧٧ ، ٧٨	٢٤٨ الآيات : ١٠ ، ١١
٢٧٩ الآيات : ٧٩ ، ٨٠	٢٤٨ الآية : ١٢
٢٨٠ الآية : ٨١	٢٤٩ الآية : ١٣
٢٨١ الآيات : ٨٢ ، ٨٣	٢٥٠ الآيات : ١٤ - ١٧
٢٨٢ الآية : ٨٤	٢٥٢ الآية : ١٨
٢٨٢ الآية : ٨٥	٢٥٣ الآية : ١٩
٢٨٣ الآيات : ٨٦ - ٩١	٢٥٤ الآية : ٢٠
٢٨٤ الآية : ٩٢	٢٥٤ الآيات : ٢١ ، ٢٢
٢٨٤ الآية : ٩٣	٢٥٦ الآيات : ٢٣ ، ٢٤
٢٨٥ الآيات : ٩٤ ، ٩٥	٢٥٦ الآية : ٢٥
٢٨٥ الآيات : ٩٦ ، ٩٧	٢٥٧ الآيات : ٢٦ ، ٢٧
٢٨٧ الآيات : ٩٨ ، ٩٩	٢٥٨ الآية : ٢٨
٢٨٧ الآيات : ١٠٠ ، ١٠١	٢٦٠ الآيات : ٢٩ ، ٣٠
٢٨٨ الآيات : ١٠٢ - ١٠٧	٢٦١ الآيات : ٣١ ، ٣٢
٢٩٠ الآيات : ١٠٨ ، ١٠٩	٢٦١ الآية : ٣٣
٢٩١ الآيات : ١١٠ ، ١١١	٢٦٢ الآيات : ٣٤ - ٣٧
٢٩٢ الآيات : ١١٢ - ١١٥	٢٦٤ الآية : ٣٨
٢٩٣ الآيات : ١١٦ ، ١١٧	٢٦٤ الآيات : ٣٩ ، ٤٠
٢٩٣ الآيات : ١١٨ ، ١١٩	٢٦٦ الآية : ٤١
٢٩٥ الآية : ١٢٠	٢٦٦ الآيات : ٤٢ ، ٤٣
٢٩٥ الآيات : ١٢١ ، ١٢٢	٢٦٧ الآيات : ٤٤ - ٥١
٢٩٥ الآيات : ١٢٣ - ١٢٥	٢٧٠ الآيات : ٥٢ ، ٥٣
٢٩٦ الآية : ١٢٦	٢٧١ الآية : ٥٤
٢٩٧ الآيات : ١٢٧ ، ١٢٨	٢٧٢ الآيات : ٥٥ - ٥٧
٢٩٧ الآية : ١٢٩	٢٧٢ الآية : ٥٨

تفسير سورة النساء

٣٣٧ الآية: ١	٢٩٧ الآيتان: ١٣٠، ١٣١
٣٣١ الآيتان: ٢، ٣	٢٩٨ الآيتان: ١٣٢، ١٣٣
٣٣٢ الآيات: ٤ - ٦	٢٩٩ الآية: ١٣٤
٣٣٤ الآيات: ٧ - ١٠	٣٠٠ الآيات: ١٣٥ - ١٣٧
٣٣٦ الآيات: ١١ - ١٤	٣٠١ الآيات: ١٣٨ - ١٤٠
٣٣٩ الآيات: ١٥ - ١٨	٣٠٤ الآية: ١٤١
٣٤١ الآيات: ١٩ - ٢١	٣٠٥ الآيتان: ١٤٢، ١٤٣
٣٤٣ الآيتان: ٢٢، ٢٣	٣٠٥ الآية: ١٤٤
٣٤٤ الآيتان: ٢٤، ٢٥	٣٠٥ الآيات: ١٤٥ - ١٤٧
٣٤٨ الآيات: ٢٦ - ٣١	٣٠٦ الآية: ١٤٨
٣٥٠ الآيات: ٣٢ - ٣٥	٣٠٦ الآيتان: ١٤٩، ١٥٠
٣٥٢ الآيات: ٣٦ - ٣٨	٣٠٧ الآية: ١٥١
٣٥٥ الآيات: ٣٩ - ٤٢	٣٠٧ الآيات: ١٥٢ - ١٥٤
٣٥٦ الآية: ٤٣	٣٠٩ الآيات: ١٥٥ - ١٥٩
٣٥٨ الآيات: ٤٤ - ٤٨	٣١١ الآية: ١٦٠
٣٥٩ الآيات: ٤٩ - ٥٥	٣١٢ الآيات: ١٦١ - ١٦٣
٣٦١ الآيتان: ٥٦، ٥٧	٣١٣ الآيات: ١٦٤ - ١٦٨
٣٦٢ الآيتان: ٥٨، ٥٩	٣١٤ الآيتان: ١٦٩، ١٧٠
٣٦٤ الآيات: ٦٠ - ٦٣	٣١٥ الآية: ١٧١
٣٦٥ الآيات: ٦٤ - ٦٨	٣١٦ الآيات: ١٧٢ - ١٧٥
٣٦٦ الآيات: ٦٩ - ٧٣	٣١٧ الآية: ١٧٦
٣٦٨ الآيات: ٧٤ - ٧٦	٣١٨ الآية: ١٧٧
٣٦٩ الآيتان: ٧٧، ٧٨	٣١٨ الآية: ١٧٨
٣٧٠ الآيات: ٧٩ - ٨١	٣١٨ الآية: ١٧٩
٣٧١ الآيات: ٨٢ - ٨٤	٣١٩ الآيتان: ١٨٠، ١٨١
٣٧٢ الآيات: ٨٥ - ٨٧	٣٢٠ الآية: ١٨٢
٣٧٣ الآيات: ٨٨ - ٩١	٣٢٠ الآية: ١٨٣
٣٧٥ الآية: ٩٢	٣٢١ الآية: ١٨٤
٣٧٦ الآية: ٩٣	٣٢١ الآية: ١٨٥
٣٧٨ الآية: ٩٤	٣٢١ الآية: ١٨٦
٣٧٩ الآيتان: ٩٥، ٩٦	٣٢٢ الآيات: ١٨٧ - ١٩٥
٣٨٠ الآيات: ٩٧ - ٩٩	٣٢٥ الآيتان: ١٩٦، ١٩٧
٣٨١ الآيتان: ١٠٠، ١٠١	٣٢٥ الآيات: ١٩٨ - ٢٠٠

٤٣٣	الآيتان : ٣٨ ، ٣٩	٣٨٢	الآية : ١٠٢
٤٣٦	الآيتان : ٤٠ ، ٤١	٣٨٣	الآيتان : ١٠٣ ، ١٠٤
٤٣٧	الآية : ٤٢	٣٨٤	الآيات : ١٠٥ - ١٠٩
٤٣٨	الآيتان : ٤٣ ، ٤٤	٣٨٦	الآيات : ١١٠ - ١١٣
٤٣٩	الآيات : ٤٥ - ٤٧	٣٨٧	الآيتان : ١١٤ ، ١١٥
٤٤١	الآيات : ٤٨ - ٥٠	٣٨٨	الآيات : ١١٦ - ١٢١
٤٤٢	الآيات : ٥١ - ٥٣	٣٩٠	الآيات : ١٢٢ - ١٢٤
٤٤٣	الآية : ٥٤	٣٩١	الآيات : ١٢٥ - ١٢٧
٤٤٤	الآيتان : ٥٥ ، ٥٦	٣٩٢	الآيات : ١٢٨ - ١٣٠
٤٤٥	الآيتان : ٥٧ ، ٥٨	٣٩٤	الآيات : ١٣١ - ١٣٤
٤٤٦	الآيات : ٥٩ - ٦١	٣٩٥	الآيات : ١٣٥ - ١٣٧
٤٤٧	الآيات : ٦٢ - ٦٤	٣٩٧	الآيات : ١٣٨ - ١٤٠
٤٤٨	الآيتان : ٦٥ ، ٦٦	٣٩٨	الآيات : ١٤١ - ١٤٤
٤٤٩	الآيتان : ٦٧ ، ٦٨	٣٩٩	الآيات : ١٤٥ - ١٤٧
٤٥٠	الآيات : ٦٩ - ٧١	٤٠٠	الآيات : ١٤٨ - ١٥٢
٤٥١	الآيات : ٧٢ - ٧٤	٤٠١	الآيات : ١٥٣ - ١٥٨
٤٥٢	الآيات : ٧٥ - ٧٧	٤٠٣	الآيات : ١٥٩ - ١٦١
٤٥٢	الآيات : ٧٨ - ٨١	٤٠٣	الآية : ١٦٢
٤٥٣	الآيات : ٨٢ - ٨٦	٤٠٤	الآيتان : ١٦٣ ، ١٦٤
٤٥٤	الآيات : ٨٧ - ٨٩	٤٠٥	الآيات : ١٦٥ - ١٦٩
٤٥٧	الآيات : ٩٠ - ٩٣	٤٠٦	الآيتان : ١٧٠ ، ١٧١
٤٥٨	الآيتان : ٩٤ ، ٩٥	٤٠٧	الآيتان : ١٧٢ ، ١٧٣
٤٥٩	الآية : ٩٦	٤٠٨	الآيات : ١٧٤ - ١٧٦
٤٦٠	الآية : ٩٧	تفسير سورة المائدة		
٤٦٠	الآيات : ٩٨ - ١٠٠			
٤٦١	الآيتان : ١٠١ ، ١٠٢	٤١١	الآيات : ١ - ٣
٤٦٢	الآية : ١٠٣	٤١٦	الآيتان : ٤ ، ٥
٤٦٢	الآيتان : ١٠٤ ، ١٠٥	٤١٨	الآيات : ٦ - ١١
٤٦٤	الآيات : ١٠٦ - ١٠٨	٤٢١	الآيات : ١٢ - ١٤
٤٦٦	الآية : ١٠٩	٤٢٢	الآيات : ١٥ - ١٧
٤٦٦	الآية : ١١٠	٤٢٥	الآيتان : ١٨ ، ١٩
٤٦٧	الآيات : ١١١ - ١١٣	٤٢٦	الآيات : ٢٠ - ٢٦
٤٦٨	الآيتان : ١١٤ ، ١١٥	٤٢٨	الآيات : ٢٧ - ٣١
٤٦٨	الآيات : ١١٦ - ١١٨	٤٣٠	الآيات : ٣٢ - ٣٤
			٤٣٣	الآيات : ٣٥ - ٣٧

[illegible]

٥٦٢	الآيات : ١٢٨ - ١٣١	٥٣٢	الآيات : ١١ - ١٨
٥٦٣	الآيات : ١٣٢ - ١٣٧	٥٣٤	الآيات : ١٩ - ٢٥
٥٦٦	الآيات : ١٣٨ - ١٤١	٥٣٥	الآيات : ٢٦ - ٣٠
٥٦٧	الآيات : ١٤٢ - ١٤٤	٥٣٨	الآيات : ٣١ - ٣٤
٥٦٨	الآيات : ١٤٥ - ١٤٧	٥٣٩	الآيات : ٣٥ - ٣٩
٥٧٠	الآيات : ١٤٨ - ١٥١	٥٤٠	الآيات : ٤٠ - ٤٣
٥٧٢	الآيات : ١٥٢ - ١٥٥	٥٤٢	الآيات : ٤٤ - ٤٦
٥٧٣	الآيتان : ١٥٦ ، ١٥٧	٥٤٣	الآيات : ٤٧ - ٥٣
٥٧٤	الآيات : ١٥٨ - ١٦٢	٥٤٥	الآية : ٥٤
٥٧٦	الآيات : ١٦٣ - ١٧٠	٥٤٧	الآيات : ٥٥ - ٥٧
٥٧٩	الآيات : ١٧١ - ١٧٤	٥٤٨	الآيات : ٥٨ - ٦٤
٥٨٢	الآيات : ١٧٥ - ١٧٨	٥٤٩	الآيات : ٦٥ - ٧٢
٥٨٣	الآيتان : ١٧٩ ، ١٨٠	٥٥١	الآيات : ٧٣ - ٧٩
٥٨٥	الآيات : ١٨١ - ١٨٦	٥٥٣	الآيات : ٨٠ - ٨٤
٥٨٦	الآيتان : ١٨٧ ، ١٨٨	٥٥٤	الآيات : ٨٥ - ٩٣
٥٨٧	الآيات : ١٨٩ - ١٩٥	٥٥٦	الآيات : ٩٤ - ٩٩
٥٨٩	الآيات : ١٩٦ - ٢٠٠	٥٥٧	الآيات : ١٠٠ - ١١٦
٥٩٠	الآيات : ٢٠١ - ٢٠٣	٥٦٠	الآيات : ١١٧ - ١٢٧
٥٩١	الآيات : ٢٠٤ - ٢٠٦			